مركز البحوث الإسلامية
إستانبول

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم

تفسير أبي السعود

شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي
(ت. ٩٨٢هـ/١٥٧٤م)

يُنشر لأول مرة عن نسخة المؤلف مع منهواته (تعليقاته) بخط يده

تحقيق
أ.م. محمد طه بويالق — أحمد أيتب
أ.م. ضياء الدين القالش — محمد عماد النابلسي

إشراف ومراجعة
أ.م. محمد طه بويالق

المجلد الأول

نشريات وقف الديانة التركي

بسم الله الرحمن الرحيم

إرشاد العقل السليم
إلى مزايا الكتاب الكريم

مشروع العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية

تمّ إدراج "مشروع العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية" كمشروع إطاري يضم في طياته عدة مشاريع فرعية في جدول الأعمال من قِبَل مركز البحوث الإسلامية (إسام/İSAM) بهدف إخضاع التراكم الفكري فيما بين القرنين الهجريين السابع والثالث عشر (١٣-١٩م) -الذي يمكن أن يطلق عليه اسم "العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية"- لدراسة علمية كما يليق به، واستخراجِ ما حملته هذه الفترة من أبعاد علمية وفكرية لما يقارب سبعة قرون. وفي تصور كتابة التاريخ المعاصرة قد سُعي إلى كتابة تاريخ الحضارة الإسلامية على أساس فرضية أن تطور الحضارة الإسلامية بصفة عامة والفكر الإسلامي وعلومه بصفة خاصة قد تعرض للانقطاع بعد الغزو المغولي. فإن وجهة النظر هذه التي تشكلت في الغرب في القرن التاسع عشر، وانتشرت بين المسلمين أثناء فترة الاستعمار هي التي جعلت أحكامنا المتعلقة بالتاريخ الإسلامي ناقصة، مما حال بيننا وبين أن نتناول تاريخ الإسلام بفكره وفنونه ومؤسساته وشخصياته الرائدة وأدبه وأحداثه في وحدة متماسكة.

ولا تسلِّط الدراسات في هذا المجال الضوء على فترة من فترات التاريخ الإسلامي فحسب؛ بل ستجلي أيضا حقبة مهمة من حقب التاريخ البشري. وإن هذا المشروع سيكون وسيلة لبعثِ المسائل العلمية المناقشة في العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية من جديد، وإلحاقِها بقضايا العالم العلمي والفكري، وبالتالي سيستفاد إلى أقصى حد من التراث العريق في بناء عهد جديد واستدراك المسائل الراهنة وتحليلها وانتقادها ومناقشتها.

وفي إطار الأعمال العلمية المتعلقة بهذه الفترة سيفسح هذا المشروع المجال لعقد دراسات عن العلوم الإسلامية والفكر الإسلامي وتاريخ العلوم الإسلامية التجريبية، وكذلك العلوم البشرية وميادين الفنون في الحضارة الإسلامية إلى جانب الدراسات المقارنة بين الإسلام وسائر الحضارات الأخرى. وستركّز المشاريع المرتقبة على أراضي الدولة العثمانية وجنوب الصحراء الكبرى، وكذلك على شبه القارة الهندية منذ سلطنة دلهي، بالإضافة إلى آسيا الوسطى وإيران بعد الغزو المغولي. هذا، ويتوقع إصدار منشورات في إطار المشروع مثل الفهرسة والتأليف والتحقيق والترجمة.

المنهج الفكري عند ابن تيمية ونقده للمتكلمين (بالتركية)، مَحمَد سعيد أوزَروارلي، ٢٠٠٨؛ ٢٠١٧.
دراسة فتح الباري وعمدة القاري من جهة تحليل المتن(بالتركية)، ياووز كُوكْطاش، ٢٠٠٩؛ ٢٠٢٠.
الوزارة في العهد المملوكي (بالتركية)، فاتح يحيى آياز، ٢٠٠٩؛ ٢٠١٧.
التاريخ الإداري والاقتصادي للعثمانيين (بالتركية)، خليل إينالجيق، ٢٠١١؛ ٢٠١٨.
مدرسة فخر الدين الرازي في أصول الفقه (بالتركية)، طونجاي باش أوغلو، ٢٠١١؛ ٢٠١٤.
عبد القادر الجيلاني والقادرية، (بالتركية)، عدالت جاقر، ٢٠١٢؛ ٢٠٢١.
فخر الدين الرازي في عهد التحول للفكر الإسلامي (بالتركية)، عثمان دمير - عمر تورك أر (تحرير)، ٢٠١٣.
الكفاية في الهداية، نور الدين الصابوني، تحقيق: محمد آروتشي، ٢٠١٣؛ (نشر مشترك إسام/رئاسة الشؤون الدينية) ٢٠١٩.
المنتقى من عصمة الأنبياء، نور الدين الصابوني، تحقيق: محمد بولوط، ٢٠١٣؛ (نشر مشترك إسام/رئاسة الشؤون الدينية) ٢٠١٩.
الطرق الصوفية في تركيا: تاريخ وثقافة (بالتركية)، سميح جيحان (تحرير)، ٢٠١٥.
مرشد الشيوخ الثلاثة: الخلوتية وفرع الرمضانية وكوستندلي علي علاء الدين أفندي (بالتركية)، سميح جيحان، ٢٠١٥
تراث الحواشي في التفسير وحاشية شيخ زاده على أنوار التنزيل (بالتركية)، شكري معدن، ٢٠١٥
فهرس الوقفيات لسجلات محاكم إستانبول الشرعية (بالتركية)، إعداد: ب. آيدين، إ. يورداقول، آ. ايشيق، إ. قورت، أ. ييلديز، ٢٠١٥.
كتاب القواعد الكلّيّة في جملة من الفنون العلميّة، محمد الإصفهاني، تحقيق: منصور كوشينكاغ - بلال تاشقين، ٢٠١٧.
عضد الدين الإيجي في التراث العلمي والفكري الإسلامي (بالتركية)، أشرف آلطاش (تحرير)، ٢٠١٧.
القاضي البيضاوي في التراث العلمي والفكري الإسلامي (بالتركية)، مستقيم آريجي (تحرير)، ٢٠١٧.
العلاقة بين النحو وأصول الفقه (بالتركية)، عثمان كومان، ٢٠١٧.
سلامة الإنسان في محافظة اللسان، ميرزا زاده محمد سالم، تحقيق: مراد صولا، ٢٠١٨.
معاني الأسماء الإلهيّة، التلمساني، تحقيق: أورخان موسى خان‌أوو، ٢٠١٨.
شرح الفاتحة وبعضِ سورة البقرة، التلمساني، تحقيق: أورخان موسى خان‌أوو، ٢٠١٨.
دليل تحقيق النصوص لمركز البحوث الإسلامية (إسام) (بالتركية)، إعداد: أوقان قدير يلماز، ٢٠١٨.
شيخ بدر الدين: فقيه عثماني (بالتركية)، مصطفى بولند داداش، ٢٠١٨.
رسالة في أدب المفتي، محمد فقهي العيني، تحقيق: عثمان شاهين، ٢٠١٨.
كتاب تقريب الغريب، قاسم بن قطلوبغا، تحقيق: عثمان كسكين‌أر، ٢٠١٨.
كشف الأسرار وهتك الأستار، يوسف بن هلال الصفدي، تحقيق: بهاء الدين دارتما، ١-٥، ٢٠١٩.
تراث الكشاف: أثر الكشاف للزمخشري في تراث التفسير (بالتركية) مَحمَد طه بُويالِق، ٢٠١٩.
التسهيل شرح لطائف الإشارات، الشيخ بدر الدين، تحقيق: مصطفى بُولَنْدْ دَادَاش، ١-٣، ٢٠١٩.
جامع الأصول، ركن الدين السمرقندي، تحقيق: عصمت غريب الله شِمْشَك، ١-٢، ٢٠٢٠.
تسديد القواعد في شرح تجريد العقائد - حاشية التجريد - منهوات الجرجاني والحواشي الأخرى، محمود الإصفهاني - الجرجاني، تحقيق:
أ. آلطاش، م. علي قُوجَا، ص. كونْ آيْدِن، م. يتيم، ١-٣، ٢٠٢٠؛ ١-٢، ٢٠٢١.
لبّ الأصول، ابن نجيم، تحقيق: محمد فال السيد الشنقيطي، ٢٠٢٠.
التسديد في شرح التمهيد، السغناقي، تحقيق: علي طارق زياد يلماز، ١-٢، ٢٠٢٠.
نظام الحقوق العثماني: أساس الدولة العلية، مَحمَد عاكف آيدن (بالتركية)، ٢٠٢٠.
نظرية الجسم في الفلسفة الإسلامية: تراث حكمة العين، مَحمَد سامي باغا (بالتركية)، ٢٠٢٠.
تراث الشروح والحواشي في كتابة السير: مُغُلْطاي بن قليج نموذجًا، كُولْلُو ييلديز (بالتركية)، ٢٠٢٠.
علي القوشجي مفسّرًا، مَحمَد جِيجَك (بالتركية)، ٢٠٢١.
حاشية علي القوشجي على شرح الكشاف للتفتازاني، علي القوشجي علاء الدين علي بن محمد السمرقندي، تحقيق: مَحمَد جِيجَك، ٢٠٢١.
شرح عقود رسم المفتي، ابن عابدين محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز الحسيني الدمشقي، تحقيق: شَنُول صَيْلان، ٢٠٢١.
إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي، تحقيق: محمد طه بويالق، أحمد أيتب،
ضياء الدين القالش، محمد عماد النابلسي، ١-٩، ٢٠٢١.

مركز البحوث الإسلامية
إستانبول
سِلْسِلَةُ عيُونِ التُّرَاثِ الإسْلَامِيِّ

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم

تفسير أبي السعود

شيخ الإسلام أبو السُّعُود بن محمد العمادي
(ت. ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م)

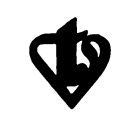
يُنشر لأول مرة عن نسخة المؤلف مع منهواته (تعليقاته) بخط يده

تحقيق
أ. م. محمد طه بويالق — أحمد أيتب
أ. م. ضياء الدين القالش — محمد عماد النابلسي

إشراف ومراجعة
أ. م. محمد طه بويالق

المجلد الأول

نشريات وقف الديانة التركي



نشريات وقف الديانة التركي
رقم النشر ١-١٠٠٠
نشريات إسام ٢٣٦
سلسلة عيون التراث الإسلامي ٤٦

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم
شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي

المجلد الأول

تحقيق محمد طه بُوتَالِق - أحمد أَيْتَبْ [المقدمة - البقرة ٩٨؛ النساء - التوبة]
ضياء الدين القَالِش [البقرة ٩٩ - آل عمران ٣٢؛ يونس - هود؛ الحجر - طه؛ الذاريات - الناس]
محمد عماد النابلسي [آل عمران ٣٣-٢٠٠؛ يوسف - إبراهيم؛ الأنبياء - ق] :

تم إعداد كتاب إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم
بإشراف اللجنة العلمية للتحقيق
بمركز البحوث الإسلامية (İSAM) التابع لوقف الديانة التركي.
İSAM YAYINLARI
İcadiye - Bağlarbaşı Cad. 38 Üsküdar/İstanbul
الهاتف: 50 08 474 216 90+ www.isam.org.tr yayin@isam.org.tr

إدارة النشر محمد سُعَادْ مَرْتْ أوغلو
إشراف الطبع أَزْدَالْ جَساز
تحرير قسم التحقيق أوقانْ قَدير يِلماز
التدقيق النهائي لقسم الدراسة (التركي) مصطفى دَميرْآيْ
تنقيح الأسلوب والصياغة لقسم الدراسة (التركي) مَتِين قَرَه بَاشْ أوغلو
الترجمة (العربي) مروة داغستاني بازسيك
التصحيح (العربي) سعيد قاياجي، منذر شيخ حسن، محمد شاهين
(التركي) عيسى قايا أَلْبْ، عبد القادر شَنَل، عنايت بَبَك
التصميم علي حيدر أُولُوصُويْ، إبراهيم درويش مؤذن (تطبيق)،
حسن حسين جَانْ (غلاف)، رمزي حاج مصطفى (خط الغلاف)
سكرتير النشر منذر شيخ حسن، سماء دُوغانْ

تم إعداد هذا الكتاب
من قبل مركز البحوث الإسلامية (إسام / İSAM)
في إطار مشروع العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية.
منسق المشروع طُونْجَايْ بَاشْ أوغلو
Klasik Sonrası Dönem

تم طبع هذا الكتاب بقرار مجلس إدارة إسام
بتاريخ ٠١/٠٦/٢٠٢٠ ورقم ٢٠٢٠/٠٥.

الطبعة الأولى: أنقرة، يوليو ٢٠٢١م / ١٤٤٢هـ
ISBN 978-625-7581-31-8 (مجموعة)
978-625-7581-32-5 (المجلد الأول)

الطباعة والنشر والتوزيع
TDV Yayın Matbaacılık ve Tic. İşl.



Ostim OSB Mahallesi, 1256 Cadde, No: 11 Yeni Mahalle / Ankara
الهاتف: 9131 354 312 90+ الفاكس: 9132 354 312 90+ bilgi@tdv.com.tr

شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي
إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم / شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي؛ التحقيق: محمد طه بُوتَالِق، أحمد أَيْتَبْ، ضياء الدين القَالِش، محمد عماد النابلسي. – أنقرة: وقف الديانة التركي، ٢٠٢١.
المجلد الأول، ٦٢٨ صفحة)؛ ٢٤ سم. – (نشريات وقف الديانة التركي؛ ١-١٠٠٠. نشريات إسام؛ ٢٣٦.
سلسلة عيون التراث الإسلامي؛ ٤٦)
يحتوي على الفهارس والمصادر
(المجلد الأول) 978-625-7581-32-5 (مجموعة) ISBN 978-625-7581-31-8

فهرس المحتويات

[المقدّمة]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ[1]

/ سبحان مَن أرسل رسوله بالهدى ودينِ الحقّ، وبيَّن له مِن شعائر الشرائع كلَّ ما جلّ ودقّ، أنزل عليه أظهرَ بيّنات وأبهرَ حُجَج، قرآنًا عربيًّا غيرَ ذي عِوَج، مصدِّقًا لِما بين يديه مِن الكتاب، ليدّبّروا آياتِه وليتذكّر أولوا الألباب، ناطقًا بكلّ أمر رشيد، هاديًا[2] إلى صراط العزيز الحميد، آمرًا بعبادة الصمد المعبود، كتابًا متشابِهًا مَثانِيَ تقشعِرّ منه الجُلود، تكاد الرواسي لِهيبته تمور،[3] ويذوب منه الحديد، ويَميع[4] صُمُّ الصُّخور، حقيقًا بأن يسيَّر به الجبال، وييسَّرَ به كلّ صعب مُحال،[5] معجِزًا أفحَمَ كلَّ مِصْقَع[6] مِن مَهَرة قَحْطانَ،[7] وبكَّت كلَّ مُفلِق[8] مِن سَحَرة البيان، بحيث لو اجتمعت الإنس والجنّ على معارضته ومُباراته لَعجزوا عن الإتيان بمثل آية مِن آياته. [١ظ]

نزّله عليه على فترة مِن الرُّسل، ليُرشِد الأمّة إلى أقوَمِ السُّبل، فهَداهم إلى الحقّ وهم في ضلال مبين، فاضمحلَّ دُجَى الباطل، وسطَع نورُ اليقين،

---

[1] س – بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ.

[2] ي: وباديا.

[3] وفي هامش س ي أ: المَوْر: الموج والاضطراب على وجه الأرض والتحرّك. **قاموس**. «منه». | **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، «مور».

[4] وفي هامش س ي: ماع الشيء يميع: جرَى على وجه الأرض منبسطًا. **قاموس**.[(1)] «منه». | [(1)] هامش ي – **قاموس**. | **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، «ميع».

[5] يعني: المتعسّر، ليس بسهل الحصول. **شرح ديباجة إرشاد العقل السليم** لزَيرَكْ زادَه، ٩و.

[6] المِصْقَع: البليغ. **الصحاح** للجوهري، «صقع».

[7] قَحطان: العرب العاربة الذين نطقوا بلسان العاربة وسكنوا ديارَهم، نسبة إلى قَحطان بن عابر بن شالَخ بن إرْفَخْشَد بن سام بن نوح. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٤٣/١؛ **والمعجم الوسيط** لمجمع اللغة العربيّة، «عرب».

[8] المُفلِق: المُجيد. وشاعر مُفلِق: الذي يَجيء بالعجائب في شِعره. **تهذيب اللغة** للأزهري، ١٣٣/٩ «باب القاف واللام»؛ **لسان العرب** لابن منظور، «فلق».

فمَن اتّبع هُداه، فقد فاز بمُناه، وأمّا مَن عانده[١] وعصاه، واتّخذ إلهه هواه، فقد هام في مَوامي[٢] الرَّدى، وتردَّى في مَهاوي[٣] الزُّور، ومَن لم يجعل الله له نورًا فما له مِن نور. صلّى الله عليه وعلى آله الأخيار، وصحبِه الأبرار، ما تناوبت الأنواءُ،[٤] وتعاقبت الظُّلَمُ والأضواءُ، وعلى مَن تبِعهم بإحسان مدى الدهور والأزمان.

وبعد، فيقول العبد الفقير إلى رحمة ربّه الهادي، أبو السعود بن محمّد العِمادي: إنّ الغاية القُصوى مِن تحرير نُسخة العالَم -وما كان حرف منها مسطورًا- والحكمةَ الكبرى في تخمير طِينة آدمَ -ولم يكن[٥] شيئًا مذكورًا- ليست[٦] إلّا معرفةَ الصانع المجيد،[٧] وعبادةَ البارئ المُبدئ المُعيد.[٨] ولا سبيلَ إلى ذاك[٩] المطلب الجليل، سِوى الوقوفِ على مواقف التنزيل، فإنّه عزَّ سلطانه وبهَرَ برهانه، وإن سطَّرَ[١٠] آياتِ قدرته في صحائف الأكوان، ونصَبَ راياتِ وحدته في صفائح[١١] الأعراض والأعيان، وجعَلَ كلَّ ذَرّة مِن ذَرّات العالَم، وكلَّ قَطرة مِن قَطَرات العَيْلَم،[١٢] وكلَّ نقطة جرى عليها[١٣] قلم الإبداع، وكلَّ حرف رُقم في لَوح الاختراع، مِرآةً[١٤] لمشاهدة جماله ومطالعةِ صفات كماله، حُجّةً نيّرةً واضحةَ المكنون، وآيةً بيّنةً لقوم يعقِلون، برهانًا جليًّا لاريبَ فيه،

---

١ ي: عاند.

٢ الموماة: واحدة الموامي، وهي المَفاوز. **الصحاح** للجوهري، «موم».

٣ جمعُ مَهوى ومَهواة. وهي ما بين الجَبَلين ونحو ذلك، وتهاوى القوم في المَهواة إذا سقط بعضهم في إثر بعض. **الصحاح** للجوهري، «هوي».

٤ ي: تناوبته الأنوار. | الأنواء: ثمانية وعشرون نجمًا معروفة المطالع في أزمنة السنة كلّها مِن الصيف والشتاء والربيع والخريف. واحدها: نوء. **لسان العرب** لابن منظور، «نوأ».

٥ ي + منه.

٦ ط: ليس.

٧ وفي هامش ي أ: كما يُنبئ عنه قوله صلّى الله تعالى عليه وسلّم حكايةً عن ربّه:(١) «كنتُ كنزًا مخفيًا، فأحببتُ أن أُعرَف، فخلقتُ الخلقَ لأُعرَفَ». «منه». | (١) هامش ي - حكايةً عن ربّه. | قيل فيه: لا أصل له. انظر: **كشف الخفاء** للعجلوني، ١٣٢/٢ (٢٠١٦).

٨ وفي هامش ي: كما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات، ٥١/٥٦]. «منه».

٩ س: ذلك.

١٠ كذا ضبطُها في الأصول الخطّيّة.

١١ ي: صحائف.

١٢ وفي هامش س ي: العَيْلَم: البحر والماء الذي عليه الأرض. **قاموس**. | **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، «عيلم».

١٣ ي: عليه.

١٤ وفي هامش ي أ: مفعولٌ ثانٍ لـ"جعل". «منه».

ومِنهاجًا سَويًا لا يضِلّ مَن ينتحيه؛[١] بل ناطقًا يتلو[٢] آياتِ ربّه -فهل مِن سامعٍ واعٍ-[٣] ومُجيبًا صادقًا -فهل له مِن داعٍ- يكلِّمُ الناسَ على قَدر عقولهم، ويرُدّ جوابَهم بحسَب مقولهم، يحاوِر تارةً بأوضح عبارة، ويلوِّح أخرى بألطف إشارة؛ لكنّ الاستدلال بتلك الآيات والدلائل، والاستشهادَ بتِيكَ[٤] الأمارات والمخائل، والتنبّهَ لتلك الإشارات السرّيّة، والتفطّنَ لمعاني تِيكَ[٥] العبارات العبقريّة،[٦] وما في تضاعيفها[٧] مِن رموز أسرار القضاء والقدر، وكنوزِ آثار التعاجيب والعِبَر، ممّا لا يُطيق به عقولُ البشر، إلّا بتوفيق خلّاق القُوَى والقُدَر.

فإذنْ مدار المراد ليس إلّا كلامَ ربّ العباد؛ إذ هو المُظهر لِتفاصيل الشعائر الدينيّة، والمفسِّرُ لِمشكلات الآيات التكوينيّة، والكاشفُ عن خفايا حظائر القُدس، والمُطلِعُ على خبايا سرائر الإنس، وبه تُكتسب الملكات الفاخرة، وبه يُتوصّل إلى سعادة الدنيا والآخرة؛ خَلَا أنّه أيضًا مِن عُلُوّ الشأن وسُمُوّ المكان، ونهايةِ الغُموض والإعضال، وصعوبةِ المأخذ وعزّةِ المنال، في غاية الغايات القاصية، ونهايةِ النهايات النائية، أعزُّ مِن بَيْضِ الأَنُوق، وأبعدُ مِن مَناط العَيُوق،[٨] لا يَتسنّى العروجُ إلى معارجه الرفيعة، ولا يَتأتّى الرُقِيُّ إلى مدارجه[٩] المَنيعة؛ كيف لا، وأنّه مع كونه متضمِّنًا لِدقائق العلوم النظريّة والعمليّة، ومُنطويًا على رقائق الفنون الخفيّة والجليّة، حاويًا لِتفاصيل الأحكام الشرعيّة، ومُحيطًا بمَناط الدلائل الأصليّة والفرعيّة، مُنبئًا عن أسرار الحقائق والنعوت، مُخبِرًا بأطوار المُلك والملكوت، عليه يدور فَلَكُ الأوامر والنواهي، وإليه يَستند معرفة الأشياء كما هي،

---

١ وفي هامش س ي: الانتحاء: الاعتماد والمَيل. صحاح. | **الصحاح** للجوهري، «نحا».

٢ ي + عليه.

٣ وفي هامش ي: أي: الحافظ. «منه».

٤ ي: تينك. | تِيكَ: اسم إشارةٍ للمفردة المؤنّثة. **الصحاح** للجوهري، «تا».

٥ ي: تينك.

٦ وفي هامش س ي: العبقري: الكامل مِن كلّ شيء. ق[١] [اختصارًا مِن القاموس]. | [١] هامش ي - ق. | **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، «عبقر».

٧ ي: تضاعيفهما.

٨ هما مَثَلان يُضرَبان لتأكيد بُعد الشيء وما لا يُنال. والأَنُوق: الرَخَمة، تبيض في أعالي الجبال، فلا يُوصَل إلى بَيْضها. والعَيُوق: كَوكب يطلُع مع الثُريّا. انظر: **جمهرة الأمثال** للعسكري، ٦٤/٢؛ **مجمع الأمثال** للميداني، ١١٥/١.

٩ ي: معارجه.

قد نُسج على أغرب مِنوال وأبدعِ طِراز، واحتجبت طلعتُه بسُبُحات الإعجاز، طُويت حقائقه الأبيّة عن العقول، وزُويت دقائقه الخفيّة عن أذهان الفُحول، يرُدّ عيونَ العقول سُبْحانُه،[١] ويخطَف أبصارَ البصائر بَريقُه ولَمَعانُه.

[٢و] / ولقد تصدّى لتفسير غوامض مشكلاته أساطينُ أئِمّة التفسير في كلّ عصر مِن الأعصار، وتولّى لتيسير عَوِيصات مُعضِلاته سلاطينُ أَسِرّة[٢] التقرير والتحرير في كلّ قُطْر مِن الأقطار، فغاصوا في لُجَجه، وخاضوا في ثَبَجه،[٣] فنظموا فرائده في سِلك التحرير، وأبرزوا فوائده في معرِض التقرير، وصنّفوا كُتُبًا جليلةَ الأقدار، وألّفوا زُبُرًا جميلةَ الآثار.

أمّا المتقدِّمون المحقِّقون، فاقتصروا على تمهيد المعاني، وتشييدِ المباني، وتبيينِ المرام، وترتيبِ الأحكام، حسبما بلَغَهم مِن سيّد الأنام، عليه شرائفُ التحيّة والسلام. وأمّا المتأخِّرون المدقِّقون، فراموا مع ذلك إظهارَ مزاياه الرائقة، وإبداءَ خباياه الفائقة، لِيُعايِن الناسُ دلائلَ إعجازه، ويشاهِدوا شواهد فضله وامتيازه عن سائر الكُتب الكريمة الربّانيّة، والزُّبُرِ العظيمة السبحانيّة، فدوّنوا أسفارًا بارعةً جامعةً لفنون المحاسن الرائعة،[٤] يتضمّن كلٌّ منها فوائدَ شريفةً تَقَرُّ بها عيونُ الأعيان، وعوائدَ لطيفةً يتشنّف[٥] بها آذانُ الأذهان؛ لا سِيّما

---

[١] وفي هامش س ي: السُّبْحان: مصدرٌ بمعنى التنزّه والتقدّس. «منه». | وفي هامش أ: السُّبْحان ههنا مصدرٌ كما في قوله:
فمضى لينظرَ كيف لاح فلم يُطِقْ
نـظـرًا إليـه وصـدّه سُـبْـحـانُـه
أورده الإمام أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني. وقبله:
وبَدَا له مِن بعد ما اندملَ الهوى
بَـرقٌ تـألّـقَ مَـوْهِـنًـا لَـمَـعانُـه
يـبـدو كـحاشيـة الـرِّداء ودونَـه
صـعـبُ الـذُّرى مـتـمـنِّعٌ أركـانُـه
فمضى البيت. «منه». | الأبيات لمحمّد بن صالح العلوي في الأغاني للأصفهاني، ٢٤٨/١٦. وفي مطبوعه:
فدنا لينظرَ كيف لاح فلم يُطِقْ
نـظـرًا إلـيـه وردّه سَـجّـانُـه.

[٢] الأسِرّة: جمعُ "سرير" المَلِك. شرح ديباجة إرشاد العقل السليم لزَيرَكْ زاده، ٣٠و.

[٣] وفي هامش س ي: ثبجُ كلّ شيء: وسطه ومعظمه. «منه».

[٤] وفي هامش س ي أ: مِن "راعني الشيءُ": أعجبني. «منه».

[٥] وفي هامش س ي أ: التشنّف: القُرط الأعلى، وشنّفتُ المرأة تشنيفًا فتشنّف. صحاح. «منه». | الصحاح للجوهري، «شنف».

الكشّافُ[١] **وأنوار التنزيل**،[٢] المتفرِّدان بالشأن الجليل والنعتِ الجميل؛ فإنّ كلًّا منهما قد أحرز قَصَب السَّبْق أيَّ إحرازٍ، كأنّه مِرآة لاجتلاء وجه الإعجاز؛ صحائفُهما مَرايا المَزايا الحِسان، وسطورُهما عقودُ الجُمان[٣] وقلائدُ العِقيان.[٤]

ولقد كان في سوابق الأيّام وسوالفِ الدهور والأعوام، أوانَ اشتغالي بمطالعتهما وممارستهما، وزمانَ انتصابي لمفاوضتهما ومدارستهما، يدور في خَلَدِي على استمرار آناءِ الليل وأطرافِ النهار، أن أنظِّم دُرَرَ فوائدهما في سَمط دقيق، وأُرتِّبَ غُرَرَ فرائدهما على ترتيب أنِيق، وأُضيفَ إليها ما ألفيْتُه في تضاعيف الكُتُب الفاخرة مِن جواهر الحقائق، وصادفتُه في أصداف العَيالم الزاخرة مِن زواهر الدقائق، وأسلُكَ خلالها بطريق الترصيع على نسق أنِيق وأسلوب بديع، حسبما يقتضيه جلالة شأن التنزيل، ويستدعيه جزالة نظمه الجليل، ما سنَحَ للفكر العليل بالعِناية الربّانيّة، وسَمَح به النظر الكليل بالهداية السبحانيّة، مِن عوارفِ معارفَ يمتدّ إليها أعناق الهِمَم مِن كلّ ماهر لَبِيب، وغرائبِ رغائبَ تَرنو إليها أحداق الأُمَم مِن كلّ نحرير أريب، وتحقيقاتٍ رصينة تُقيل عثراتِ الأفهام في مداحض الأقدام، وتدقيقاتٍ مَتينة تُزيل خطراتِ الأوهام مِن خواطر الأنام، في معارك أفكارٍ يشتبِه فيها[٥] الشُّئون، ومداركِ أنظارٍ يختلِط فيها الظنون، وأُبرزَ مِن وراء أستار الكُمون مِن دقائق السرّ المخزون في خزائن الكتاب المكنون، ما تطمئِنّ إليه النفوس وتَقَرُّ به العيون، مِن خفايا الرموز وخبايا الكنوز، وأُهديَها[٦] إلى الخِزانة العامرة الغامرة

---

[١] هو **الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل** لأبي القاسم محمود بن عمر بن محمّد الخوارزمي الزمخشري (ت. ٥٣٨هـ/١١٤٤م)، الإمام الحنفي المعتزلي، الملقَّب بـ"جار الله".

[٢] وهو **أنوار التنزيل وأسرار التأويل** لناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمّد البيضاوي (ت. ٦٨٥هـ/١٢٨٦م).

[٣] الجُمان، كـ"غُراب": اللؤلؤ، أو هَنَواتٌ أشكالُ اللؤلؤ مِن فضّة. الواحدة: جُمانة. **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، «جمن».

[٤] العِقيان: الذَّهَب الخالص. قيل: هو ما ينبت نباتًا، وليس ممّا يحصَّل مِن الحجارة. **مختار الصحاح** للرازي، «عقا».

[٥] ي: فيه.

[٦] منصوب، معطوف على "أُبرزَ". **شرح ديباجة إرشاد العقل السليم** لزَيرَكْ زادَه، ٣٧و.

للبِحار الزاخرة، لجَناب مَن خصّه الله تعالى بخلافة الأرض، واصطفاه لسَلطنتها في الطُّول والعَرْض.

ألَا وهو السلطان الأسعد الأعظم، والخاقان الأمجد الأفخم، مالكُ الإمامة العُظمى، والسلطانُ الباهر، وارثُ الخلافة الكُبرى، كابرًا عن كابرٍ،[١] رافعُ رايات الدِّين الأزهر، مُوضحُ آيات الشرع الأنوَر، مرغِّمُ[٢] أُنوف الفراعنة والجبابرة، معفِّرُ[٣] جِباهِ[٤] القياصرة والأكاسرة، فاتحُ بلاد المشارق والمغارب، بنصر الله العزيز وجُندِه الغالب، الهُمامُ الذي شرَّق عزمه المُنير فانتهى إلى المشرِق الأَسْنَى، وغرَّب حتّى بلغ مغرِبَ الشمس أو دَنَا، بخَميسٍ عَرَمْرَمٍ[٥] متزاحِمِ الأفواج، وعسكرٍ كَخِضَمٍّ[٦] متلاطِمِ الأمواج، فأصبَحَ ما بين أُفُقَي الطلوع والغروب، وما بين نُقطتَي الشَّمال والجَنوب، منتظِمًا في سِلك وِلاياته الواسعة، ومندرِجًا تحت ظِلال راياته الرائعة، فأصبحتْ منابر الرُّبْع المسكون مشرَّفةً بذِكر[٧] اسمه الميمون؛ فَيَا له مِن مَلِكٍ استوعب مُلكه البَرَّ البسيط، واستغرق فُلكه وجهَ البحر المحيط؛[٨] فكأنّه فضاءٌ ضُربت فيه خِيامه، أو[٩] نُصبت[١٠] عليه ألوِيَته وأعلامُه؛ مالكُ ممالك العالَم، ظِلّ الله الظليلُ على كافّة الأُمَم، قاصمُ القياصرة وقاهرُ القُروم،[١١]

---

١ يُقال: ورِثوا المجدَ كابرًا عن كابرٍ، أي: ورِثوا عن آبائهم الذين ورِثوه مِن أجدادهم الذين ورِثوه مِن آبائهم، كبيرًا عن كبير في العزّ والشرف. انظر: **تهذيب اللغة** للأزهري، ٢٢/١٠ «أبواب الكاف والراء»؛ و**أساس البلاغة** للزمخشري، «كبر».

٢ ي: مراغم.

٣ يُقال: عفَّرتُ فلانًا في التراب، إذا مرّغتَه فيه تعفيرًا. **تهذيب اللغة** للأزهري، ٢١١/٢ «باب العين والراء مع الفاء».

٤ الجِبَاه: جمع "جَبْهة"، وهي موضِع السجود. **لسان العرب** لابن منظور، «جبه».

٥ الخَميس: الجيش. والعَرَمْرَم: الجيش الكثير. وجبل عرمرم، أي: ضخم. **كتاب العين** للخليل بن أحمد، ١٣٧/٢ «باب العين والراء والميم معهما»؛ ٢٠٥/٤ «باب الخاء والسين والميم معهما».

٦ الخِضَمّ، على وزن "الهِجَفّ": الكثير العطاء. والخِضَمّ أيضًا: الجمع الكثير. **الصحاح** للجوهري، «خضم».

٧ ط ي: بتذكار.

٨ استغراق سفائنِه البحرَ: جريان أوامره فيه وتسخيره في استخراج منافعه. **شرح ديباجة إرشاد العقل السليم** لزَيرَكْ زادَه، ٤١ظ.

٩ ي - أو.

١٠ ي: ونسبت.

١١ القُروم: جمع "القَرْم"، وهو البعير المُكرَم، لا يُحمَل عليه ولا يُذلَّل؛ ولكنْ يكون للفِحلة. ويُقال للسيّد: قَرْم مُقرَم، تشبيهًا بذلك. **الصحاح** للجوهري، «قرم».

سلطانُ العرب والعَجَم والرُّوم، سلطانُ المشرقَين، وخاقانُ الخافقَين؛ الإمامُ المقتدِر بالقدرة الربّانيّة، والخليفةُ المعتزّ بالعِزّة السُّبحانيّة، المفتخِرُ بخِدمة الحرمين الجليلَين المعظَّمَين، وحِمايةِ المقامَين الجميلَين المفخَّمَين، ناشرُ القوانين السلطانيّة، عاشرُ الخواقين العُثمانيّة؛ السلطانُ ابنُ السلطان، السلطانُ سُليمان خانْ:[١] ابنُ السلطان المظفَّر المنصور، والخاقانِ الموَقَّر المشهور، صاحبِ المَغازي المشهورة في أقطار الأمصار، والفتوحاتِ المذكورة في صحائف الأسفار، السلطان سَليم خانْ:[٢] ابنِ / السلطان السعيد، والخاقانِ المَجيد، السلطان بَايَزِيد خانْ؛[٣] لا زالت سلسلة سَلطنته متسلسلةً إلى انتهاء سلسلة الزمان، وأرواحُ أسلافه العظام متنزِّهةً في رَوضة الرِّضوان. [٢ظ]

وكنتُ أتردّد في ذلك[٤] بين إقدام وإحجام، لقصور شأني وعزّةِ المرام؛

---

[١] هو السلطان سليمان خانْ الأوّل القانوني (ت. ٩٧٤هـ/١٥٦٦م). عاشر سلاطين آل عثمان. كانت مُدّة حكمه ستًّا وأربعين سنةً (١٥٢٠-١٥٦٦م)، قضاها في توسيع نِطاق الدولة وإعلاءِ شأنها، حتّى بلغت في أيّامه أعلى درجات الكمال. فتحَ بلغراد، وجَزيرة رودس، وبلاد المَجر وعاصمتَها، وسكدوار. واشتهر بـ"القانوني" لِما وضعه مِن النظامات في كافّة فروع الحكومة. انظر: **تاريخ الدولة العليّة العثمانيّة** لمحمّد فريد بك، ص ١٩٨-٢٥١؛ Feridun Emecen, "Süleyman I", s. 62-75.

[٢] هو السلطان سليم خانْ الأوّل الملقّب بـ"ياوز"، أي: الشجاع والقاطع (ت. ٩٢٦هـ/١٥٢٠م). تاسع سلاطين آل عثمان. بعدما تولّى الحكم أحكَمَ سلطنته بمحاربة إخوته وأولاد إخوته. ولمّا اطمأنّ خاطره مِن جهة داخليته اتّجه إلى بلاد الفُرس لمقاتلة شاه إسماعيل الشيعي، فحارَبَه في وادي جالدِران، فانتصر عليه، وفتح تبريز بعده مباشرةً. ثمّ فتحَ مصرَ، وصار يُدعا "خادِم الحرمَين الشريفَين". وبذلك امتدّت مملكته مِن الخليج الفارسي إلى بحر الخزر ومِن منابع الفُرات إلى ما وراء نهر أموداريا. كانت مُدّة حكمه ثمانِ سنواتٍ (١٥١٢-١٥٢٠م). انظر: **تاريخ الدولة العليّة العثمانيّة** لمحمّد فريد بك، ص ١٨٨-١٩٦؛ Feridun Emecen, "Selim I", s. 407-414.

[٣] هو السلطان بَايَزِيد خانْ الثاني ابن السلطان محمّد الثاني الفاتح (ت. ٩١٨هـ/١٥١٢م). ثامن سلاطين آل عثمان. تولّى الحكمَ مُدّة واحدٍ وثلاثين سنةً (١٤٨١-١٥١٢م). تخاصَمَ على أخيه جَمْ مُدّةً، وغلب عليه. وفي عهده ابتدأت علاقات الدولة العليّة مع مملكة الروس ودُوَلِ أوروبا. بعدما عصى أولادُه عليه تنازَلَ عن الحكم لابنه سليم الأوّل. وكان ميّالًا للسِّلم أكثرَ منه إلى الحرب مُحبًّا للعلوم الأدبيّة مشتغِلًا بها؛ ولذلك سمّاه بعض المؤرّخين "بَايَزِيد الصُّوفي". انظر: **تاريخ الدولة العليّة العثمانيّة** لمحمّد فريد بك، ص ١٧٩-١٨٧؛ Şerafettin Turan, "Bayezid II", s. 234-238.

[٤] ي: فيه.

أين الحضيضُ[1] مِن الذُّرَى، شتّان بين الثُّريّا والثَّرَى، وهيهاتَ اصطيادُ العَنْقاء[2] بالشِّباك، واقتيادُ الجَوْزاء[3] مِن بروج الأفلاك، فمضتْ عليه[4] الدهور والسِّنون، وتغيّرت الأطوار وتبدّلت الشُّئون، فابتُلِيتُ بتدبير مصالح العِباد بُرْهةً في قضاء البلاد، وأخرى في قضاء العساكر والأجناد، فحالَ بيني وبين ما كنتُ إخالُ[5] تراكمُ المهمّات وتزاحم الأشغال، وجمومُ العوارض والعلائق، وهجومُ الصوارف والعوائق، والتردّدُ إلى المغازي والأسفار، والتنقّلُ مِن دار إلى دار.

وكنتُ في تضاعيف هاتِيك الأمورِ أقدِّر في نفسي أن أنتهز نُهزةً مِن الدهور، ويتسنّى لي القرار وتطمئنَّ بي الدار، وأظفِرَ حينئذ بوقت خالٍ، أتبتّلُ فيه إلى جَناب ذي العَظَمة والجلال، وأُوجِّهُ إليه وجهتي، وأُسلِمُ له[6] سِرّي وعلانيتي، وأنظرُ إلى كلّ شيء بعين الشهود، وأتعرّفُ سرَّ الحقّ في كلّ موجود، تلافيًا لِما قد فاتَ، واستعدادًا لِما هو آتٍ، وأتصدّى لتحصيل ما عزمتُ عليه، وأتولّى لتكميل ما توجّهتُ إليه، برَفاهة واطمئنان، وحضورِ قلب وفراغِ جَنان.

فبينما أنا في هذا الخيال، إذ بَدَا لي ما لم يخطُر بالبال، تحوّلت الأحوال والدهر حُوَّل،[7] فوقعتُ في أمرٍ أشقَّ مِن الأوّل: أُمرتُ بحَلّ مشكلات الأنام، فيما شجَرَ بينهم مِن النزاع والخصام، فلقيتُ معضِلةً طويلةَ الذيول،

---

[1] الحَضيض: القرار مِن الأرض عند منقطع الجبل. وفي الحديث أنّه أُهديَ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هديّةٌ، فلم يجد شيئًا يضعه عليه، فقال: «ضَعْه بالحَضيض، فإنّما أنا عبدٌ آكل كما يأكل العبد»، يعني: ضَعْه بالأرض. **الصحاح** للجوهري، «حضض».

[2] العَنْقاء: طائر عظيم، معروفُ الاسم مجهولُ الجسم. **الصحاح** للجوهري، «عنق».

[3] الجَوْزاء: نجمٌ، يُقال إنّها تعترض في وَسَط السماء. **الصحاح** للجوهري، «جوز».

[4] ي: إليه.

[5] خالَ الشيءَ يَخال خَيلًا وخَيلةً -ويُكسَران- وخالًا وخَيَلانًا، ومَخيلةً ومَخالةً، وخَيلولةً: ظنّه. وتقول في مستقبَله: "إخالُ"، بكسر الهمزة، وتُفتَح في لُغَيّة. **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، «خال».

[6] ي – له.

[7] يقال: "رجلٌ حُوَّل" بتشديد الواو وضمّ الحاء، أي: كثير تحويلِ الأمورِ ويصير به، أو هو فعلٌ ماضٍ يتعدّى ولا يتعدّى، وههنا يحتمل كليهما؛ يعني [على الاحتمال الثاني] أنّ الحال تغيّرت والأطوارَ تبدّلت، والدهرُ حوّلها وغيّرها، والعائد إلى "الأحوال" محذوف. **شرح ديباجة إرشاد العقل السليم** لزَيرَكْ زاده، ٥٠و. | احتمال كونه "حُوّل" هنا أقربُ، وكذا ضبطُه في الأصول الخطّيّة.

وصِرتُ كالهارب مِن المطر إلى السُيول، فبلغ السيل الزُبَى،[١] وغمرني أيُّ غَمْر غوارِبُ[٢] ما جرى بين زيد وعمرو،[٣] فأضحيتُ في ضِيق المجال وسَعَةِ الأشغال، أشهَرَ مِمّن يُضرَب بها الأمثال، فجعلتُ أتمثّل بقول مَن قال:

لقد كنتُ أشكوك الحوادثَ بُرهةً   وأستمرض الأيّامَ وهي صحائحُ
إلى أن تغشّتْني -وُقِيتَ-[٤] حوادثُ   تحقِّق أنّ السالفاتِ منائحُ[٥]

فلمّا انصرمتْ عُرَى الآمال عن الفَوز بفراغ البال، ورأيتُ أنّ الفُرصة على جناح الفَوات، وشملَ الأسباب في شَرَف الشَّتات، وقد مسّنِيَ الكِبَرُ، وتضاءلت القُوَى والقُدَر، ودَنَا الأجَل مِن الحلول، وأشرفتْ شمس الحياة على الأُفول، عزمتُ[٦] على إنشاءِ ما كنتُ أَنوِيه، وتوجّهتُ إلى إملاءِ ما ظَلِتُ أبتغيه، ناويًا أن أُسمّيَه عند تمامه، بتوفيق الله تعالى وإنعامِه:[٧] **إرشاد العَقل السَّليم إلى مَزَايَا الكتاب الكريم.**

فشرعتُ فيه مع تفاقم المكاره عليَّ، وتزاحم المَشادِهِ[٨] بين يديَّ، متضرِّعًا إلى ربّ العَظَمة والجبروت، خلّاقِ عالَم المُلك والملكوت، في أن يعصِمني عن الزَّيغ والزَّلَل، ويَقِيَني مصارعَ السُّوء في القول والعمل، ويوفِّقَني لتحصيل ما أرُومه وأرجوه، ويهديَني[٩] إلى تكميله على أحسن الوجوه، ويجعلَه خيرَ عُدّة وعَتادٍ أتمتّع به يومَ المعاد.

---

[١] الزُبى: جمع "الزُبية"، وهي حُفرة يتزبّى الرجل فيها للصيد، وتُحتفَر للذِّئب فيُصطاد فيها. وقوله: "بلغ السيلُ الزُبَى" يُضرَب مَثَلًا للأمر يتفاقَمُ ويجاوِز الحدّ حتّى لا يتلافى. **كتاب العين** للخليل بن أحمد، ٣٩٢/٧ «باب الزاي والياء».

[٢] وفي هامش س ي أ: أعالي مَوْجِهِ. قاموس. «منه». | **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، «غرب».

[٣] وزيد وعمرو ممّا يُكتب في صُور الفتاوى لتصوير الدواعي. **شرح ديباجة إرشاد العقل السليم** لزَيرَكْ زادَه، ٥١و.

[٤] فعل ماضٍ على صيغة المخاطَب مِن الثلاثيّ، جملة معترِضة بين الفاعل وفعله، دعاء للسامع لتحقيق تلك الحوادث. **شرح ديباجة إرشاد العقل السليم** لزَيرَكْ زادَه، ٥٢و.

[٥] البيتان لأبي الحسن عليّ بن أحمد بن روح المعروف بابن العنبري في **مرآة الزمان** لشمس الدين يوسف بن قِزْ أوغلي، ٢٢٩/٢٢؛ و**قلائد الجمان** لأبي البركات الموصلي، ٣٨١/٣، وباختلاف في البيت الأوّل في **الذيل على الروضتَين** لأبي شامة المقدسي، ص ١١٠:
وقد كنتُ أشكو مِن حوادثَ بُرهةً
وأستمرس الأيّامَ وهي صحائحُ

[٦] جواب "لمّا".

[٧] ي: وانشاءه.

[٨] المَشادِه: المشاغل. **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، «شده».

[٩] ي: ويؤيّدني.

فَيَا مَن توجّهتْ وجوه الذُّلّ والابتهال نحو بابه المَنيع، ورُفعتْ أيدي الضَّراعة والسؤال إلى جَنابه الرفيع؛ أَفْضِ علينا شوارق أنوار التوفيق، وأَطلِعْنا على دقائق أسرار التحقيق، وثبّتْ أقدامنا على مناهج هُداك، وأَنطِقْنا بما فيه أمرُك ورضاك، ولا تكِلْنا إلى أنفسنا في لحظة ولا آنٍ، وخُذْ بناصيتنا إلى الخير حيث كان، جئناك على جِبَاهِ الاستكانة ضارعين، ولأبواب فيضك قارعين؛ أنت المَلاذ في كلّ أمر مُهمّ، وأنت المَعاذ في كلّ خَطْب مُلِمّ، لا ربَّ غيرُك، ولا خيرَ إلّا خيرُك، بيدك مقاليد الأمور، لك الخلق والأمر، وإليك النشور.

سورة فاتحة الكتاب

وهي سبع آيات.[1]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ[2]

"الفاتحة" في الأصل: أوّل ما مِن شأنه أن يُفتَح كالكتاب والثّوب، أُطلقت عليه لكونه واسطةً في فتح الكلّ، ثمّ أُطلقت على أوّل كلّ شيء فيه تدريجٌ بوجه مِن الوجوه كالكلام التدريجيّ حصولًا والسطورِ والأوراق التدريجيّة قراءةً وعَدًّا.

و"التاء" للنقل مِن الوصفيّة إلى الاسميّة، أو هي مصدر بمعنى "الفتح"، أُطلقت عليه تسميةً للمفعول باسم المصدر إشعارًا بأصالته كأنّه نفس الفتح. فإنّ تعلّقه به بالذات، وبالباقي بواسطته؛ لكنْ لا على معنى أنّه واسطة في تعلّقه بالباقي ثانيًا، حتّى يَرِدَ أنّه لا يَتسنّى في الخاتمة، لِما أنّ خَتْمِ الشيء عبارة عن بلوغ آخِره، وذلك إنّما يتحقّق بعد انقطاع الملابسة عن أجزائه الأُوَل؛ بل على معنى أنّ الفتح المتعلِّق بالأوّل فتحٌ له أوّلًا وبالذات، وهو بعينه فتحٌ للمجموع بواسطته لكونه جزءًا منه. وكذا / الكلام في الخاتمة؛ فإنّ بلوغ آخِرِ الشيء [٣و] يعرِض للآخِر أوّلًا وبالذات وللكلّ بواسطته، على الوجه الذي تحقّقتَه.

والمراد بـ"الأوّل" ما يعُمّ الإضافيّ؛ فلا حاجةَ إلى الاعتذار بأنّ إطلاق "الفاتحة" على السورة الكريمة بتمامها باعتبار جزئها الأوّل. والمراد بـ"الكتاب" هو المجموع الشخصيّ؛ لا القدرُ المشترَك بينه وبين أجزائه، على ما عليه اصطلاح أهل الأصول. ولا ضيرَ في اشتهار السورة الكريمة بهذا الاسم في أوائل عهد النبوّة قبل تحصّل المجموع بنزول الكلّ، لِما أنّ التسمية مِن جهة الله عزّ اسمه،

---

[1] ط س – وهي سبع آيات.

[2] ط س ي – بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ. | زدناه مِن نسخة أ.

أو مِن جهة الرسول صلّى الله عليه وسلّم بالإذن؛ فيكفي فيها تحصّله باعتبار تحقّقه في علمه عزّ وجلّ[١] أو في اللوح، أو باعتبار أنّه أُنزلَ[٢] جملةً إلى السماء الدنيا، وأملاه جبريلُ عليه السلام على السَفَرة، ثمّ كان يُنزله على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم[٣] نُجومًا في ثلاثٍ وعشرين سنةً، كما هو المشهور.[٤]

والإضافة بمعنى "اللام"،[٥] كما في "جزء الشيء"؛ لا بمعنى "مِن"، كما في "خاتَمِ فضّةٍ"، لِما عرفتَ أنّ المضاف جزء مِن المضاف إليه، لا جزئيّ له.

ومدار التسمية كونُه مَبدأً للكتاب على الترتيب المعهود؛ لا في القراءة في الصلاة، ولا في التعليم، ولا في النزول، كما قيل. أمّا الأوّل فبيّنٌ؛ إذ ليس المراد بـ"الكتاب" القدرَ المشترَك الصادقَ على ما يُقرأ في الصلاة، حتّى يُعتبرَ في التسمية مبدئيّتها له. وأمّا الأخيران، فلأنّ اعتبار المبدئيّة مِن حيث التعليمُ أو مِن حيث النزولُ يستدعي مُراعاةَ الترتيب في بقيّة أجزاء الكتاب مِن تَيْنِك الحيثيّتَين، ولا ريبَ في أنّ الترتيب التعليميّ والترتيبَ النزوليّ ليسَا على نسق الترتيب المعهود.

وتُسمَّى[٦] "أمَّ القرآن" لكونها أصلًا ومَنشأً له، إمّا لمبدئيّتها له، وإمّا لاشتمالها على ما فيه مِن الثناء على الله عزّ وعَلا[٧] والتعبّدِ بأمره ونهيه وبيانِ وعده ووعيده، أو على جملة معانيه مِن الحِكَم النظريّة والأحكام العمليّة التي هي سلوك الصراط المستقيم والاطّلاعُ على معارج السُّعداء ومنازلِ الأشقياء. والمراد بـ"**القرآن**" هو المراد بـ"الكتاب".

وتُسمَّى "أمَّ الكتاب" أيضًا، كما يُسمَّى بها اللوح[٨] المحفوظ لكونه أصلًا لكلّ الكائنات. والآيات الواضحةُ الدلالةِ على معانيها -لكونها بيّنةً-

---

١ س: تعالى.

٢ ي: نزل.

٣ س: عليه السلام.

٤ انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٧٨٠/٤ (القدر، ١/٩٧).

٥ أي: فاتحةٌ للكتاب.

٦ ي: يسمّى.

٧ ي: وجلّ.

٨ س: كما تسمّى باللوح.

تُحمَل عليها المتشابهات. ومَناط التسمية ما ذُكر في "أمّ القرآن"، لا ما أورده الإمام البخاري في صحيحه مِن أنّه يُبدَأ بقراءتها في الصلاة؛[١] فإنّه ممّا لا تعلّقَ له بالتسمية، كما أُشير إليه.

وتُسمّى "سورةَ الكَنز" لقوله عليه السلام:[٢] «إنّها أُنزلت[٣] مِن كنزٍ تحت العرش»،[٤] أو لِما ذُكر في "أمّ القرآن"؛ كما أنّه الوجه في تسميتها "الأساس"، و"الكافية"، و"الوافية".

وتُسمّى "سورةَ الحمد" و"الشكر" و"الدعاء" و"تعليم المسألة" لاشتمالها عليها، و"سورةَ الصلاة" لوجوب قراءتها فيها، و"سورةَ الشفاء" و"الشافية" لقوله عليه السلام: «هي شفاء مِن كلّ داءٍ»،[٥] و"السبع المَثاني"؛ لأنّها سبع آياتٍ تُثنّى في الصلاة، أو[٦] لتكرّر[٧] نزولها على ما رُوي أنّها نزلت مرّةً بمكّةَ حين فُرضت الصلاة، وبالمدينة أخرى حين حُوّلت القِبْلة.[٨] وقد صحّ أنّها مكّيّة لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ [الحجر، ٨٧/١٥]، وهو مكّيّ بالنصّ.[٩]

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[١٠] اختلفت الأمّة في شأن التسمية في أوائل السُّوَر الكريمة، فقيل: إنّها ليست مِن القرآن أصلًا. وهو قول ابن مسعود رضي الله عنه،[١١] ومذهبُ مالك، والمشهورُ مِن مذهب قُدماء الحنفيّة، وعليه قرّاء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤُها.

---

[١] إشارة إلى حديث أنس بن مالك أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأبا بكر وعمر رضي الله عنهما كانوا يفتتحون الصلاة بـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة، ٢/١]. انظر: صحيح البخاري، ١٤٩/١ (٧٤٣).

[٢] ي: صلّى الله عليه وسلّم.

[٣] ي: نزلت.

[٤] الدرّ المنثور للسيوطي، ١٦/١. وذكر نحوَه الثعلبي في الكشف والبيان، ٨٩/١؛ والواحدي في أسباب النزول، ص ٢٢، عن عليّ موقوفًا.

[٥] سنن الدارمي، ٢١٢٢/٤ (٣٤١٣)؛ شعب الإيمان للبيهقي، ٤٣/٤ (٢١٥٤).

[٦] ي - أو.

[٧] ي: ولتكرّر.

[٨] انظر: الإتقان للسيوطي، ١٣١/١.

[٩] ي + والله أعلم.

[١٠] ط - بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ.

[١١] ي - رضي الله عنه.

وقيل: إنّها آية فَذّة[١] مِن القرآن، أُنزلت للفصل والتبرّك بها. وهو الصحيح مِن مذهب الحنفيّة.

وقيل: هي آية تامّة مِن كلّ سورة صُدّرت بها. وهو قول ابن عبّاس،[٢] وقد نُسب إلى ابن عمر أيضًا رضي الله تعالى[٣] عنهم،[٤] وعليه يُحمَل إطلاق عبارة ابن الجوزي[٥] في زاد المَسير حيث قال: «رُوي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنّها نزلت[٦] مع كلّ سورة».[٧] وهو أيضًا مذهب سعيد بن جبير[٨] والزهري[٩] وعطاء[١٠] وعبد الله بن المبارك،[١١] وعليه قُرّاء مكّةَ والكوفة

---

١ الفَذّ: الفَرد. **الصحاح** للجوهري، «فذذ».

٢ ي + رضي الله عنهما.

٣ ط - تعالى.

٤ ي: إلى ابن عمر رضي الله عنهما أيضا.

٥ هو عبد الرحمن بن عليّ بن محمّد البغدادي، أبو الفَرَج ابن الجوزي (ت. ٥٩٧هـ/١٢٠١م). الفقيه الحنبلي الواعظ الملقّب جمال الدين الحافظ؛ كان علاّمة عصره وإمام وقته في الحديث وصناعة الوعظ. صاحب التصانيف المشهورة في أنواع العلوم، منها: **زاد المسير في علم التفسير**، و**فُنون الأفنان في عيون علوم القرآن**، و**جامع المسانيد** في الحديث، و**الإنصاف في مسائل الخلاف** في الفقه، و**المنتظَم** في التاريخ، و**نسيم الرياض** في الوعظ. انظر: **وفيات الأعيان** لابن خلّكان، ٣/١٤٠-١٤٢؛ **وطبقات المفسّرين** للسيوطي، ص ٦١.

٦ س ي: أنزلت.

٧ قال ابن الجوزي في **زاد المسير**، ١/١٤: «قال ابن عمر: نزلت في كل سورة».

٨ هو سعيد بن جُبير بن بن هشام الأسدي، أبو عبد الله (ت. ٩٥هـ/٧١٤م [؟]). أحد أعلام التابعين. وكان أسوَدَ. أخذ العلم عن عبد الله بن العبّاس وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم. وكان ابن عبّاس بعدما عَمِي إذا أتاه أهل الكوفة يسألونه قال: «تسألوني وفيكم ابن أمّ دهماء!»، يعني: سعيد بن جُبير. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٦/٢٥٦-٢٦٧؛ **ووفيات الأعيان** لابن خلّكان، ٢/٣٧١-٣٧٤.

٩ هو محمّد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزُّهري، أبو بكر (ت. ١٢٤هـ/٧٤٢م). أحد الفقهاء والمحدِّثين والأعلامِ التابعين بالمدينة. رَوى عنه جماعة مِن الأئمّة، منهم: مالك بن أنس وسفيان بن عُيينة وسفيان الثوري. وكان يقول مالك بن أنس إنّه ما أدرك بالمدينة فقيهًا محدِّثًا غيرَ واحد، وهو ابن شهاب الزهري. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٢/٣٨٨-٣٨٩؛ **ووفيات الأعيان** لابن خلّكان، ٤/١٧٧-١٧٩.

١٠ هو عطاء بن أبي رَباح أسلم بن صفوان القُرَشي، أبو محمّد (ت. ١١٤هـ/٧٣٢م). مِن أجِلّاء الفقهاء والمحدِّثين وتابعيّ مكّةَ. سمع جابرَ بن عبد الله الأنصاري وعبد الله بن عبّاس وعبد الله بن الزبير وخلقًا كثيرًا مِن الصحابة. وكان أعلمَ الناس بمناسك الحجّ في زمانه. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٥/٤٦٧-٤٧٠؛ **ووفيات الأعيان** لابن خلّكان، ٣/٢٦١-٢٦٣.

١١ هو عبد الله بن المبارك بن واضح المَرْوَزي، أبو عبد الرحمن (ت. ١٨١هـ/٧٩٧م). فقيه، محدِّث، مفسِّر، صوفيّ. تفقّهَ على سفيان الثوري ومالك بنِ أنس. وكان مُحِبًّا للخلوة شديدةَ التورّع. وقال الشعر في الزهد والحثّ على الجهاد. مِن تصانيفه الكثيرة: **كتاب الزهد**، و**كتاب التفسير**، و**البِرّ والصلة**. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٧/٣٧٢؛ **ووفيات الأعيان** لابن خلّكان، ٣/٣٢-٣٤؛ **ومعجم المؤلّفين** لكحّالة، ٦/١٠٦.

وفقهاؤهما. وهو القول الجديد للشافعي رحمه الله؛[١] ولذلك يُجهَر بها عنده. فلا عبرةَ بما نُقل عن الجصّاص[٢] مِن أنّ هذا القول مِن الشافعي لم يسبِقه إليه أحد.[٣]

وقيل: إنّها آية مِن الفاتحة مع كونها قرآنًا في سائر السُّوَر أيضًا، مِن غير تعرّض لكونها جزءًا منها أو لا، ولا لكونها آيةً تامّةً أو لا. وهو أحد قولَي الشافعي على ما ذكره القرطبي.[٤] ونُقل عن الخطّابي[٥] أنّه قول ابن عبّاس وأبي هريرة رضي الله عنهم.[٦]

وقيل: إنّها آية تامّة في الفاتحة وبعضٌ في البواقي. وقيل: بعض آية في الفاتحة وآية تامّة في البواقي. وقيل: إنّها بعض آية في الكلّ.

وقيل: إنّها آيات مِن القرآن متعدِّدة بعدد السُّوَر المصدَّرة بها مِن غير أن تكون جزءًا منها. وهذا القول غير مَعزُوّ في الكُتب إلى أحد.

وهناك / قول آخرُ، ذكره بعض المتأخّرين،[٧] ولم ينسبه إلى أحد، وهو: [٣ظ]

---

١ ي - رحمه الله.

٢ هو أحمد بن عليّ الرازي، أبو بكر، المعروف بالجصّاص (ت. ٣٧٠هـ/٩٨١م). فقيه حنفيّ. سكن بغداد ومات فيها. وخُوطب في أن يَلِيَ القضاء فامتنع. تفقَّهَ على أبي سهل الزجّاج وأبي الحسن الكرخي. وتفقَّهَ عليه أبو عبد الله محمّد بن يحيى شيخ القُدوري وأبو الفرج ابن المسلمة وأبو جعفر محمّد بن أحمد النسفي. وله مِن المصنّفات: **أحكام القرآن، وشرح مختصر الطحاوي، وشرح الجامع** لمحمّد بن الحسن الشيباني. انظر: **الجواهر المُضيّة** للقُرَشي، ٨٤/١-٨٥.

٣ **أحكام القرآن** للجصّاص، ٨/١.

٤ قال القرطبي في **تفسيره**، ٩٣/١-٩٥: «قال الشافعي: هي آية في الفاتحة. وتردَّدَ قوله في سائر السُّوَر، فمرّةً قال: هي آية مِن كلّ سورة، ومرّةً قال: ليست بآية إلّا في الفاتحة وحدَها. ولا خلافَ بينهم في أنّها آية مِن القرآن في سورة النمل».

٥ هو حَمْدُ بنُ محمّد بن إبراهيم الخطّابي البُستي، أبو سليمان (ت. ٣٨٨هـ/٩٩٨م). كان إمامًا في الفقه والحديث واللغة. مِن أعلام الشافعيّة. أخذ الفقه عن أبي بكر القفّال الشاشي وأبي عليّ بن أبي هريرة، وسمع الحديث مِن أبي سعيد بن الأعرابي بمكّة وأبي بكر بن داسة بالبصرة وإسماعيل الصفّار ببغداد وأبي العبّاس الأصمّ بنيسابور. مِن مصنّفاته: **أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري، ومعالم السنن في شرح سنن أبي داود، وغريب الحديث، وإصلاح غلط المحدّثين، وكتاب العزلة، وشرح الأسماء الحسنى، وبيان إعجاز القرآن**. انظر: **وفيات الأعيان** لابن خلّكان، ٢١٤/٢-٢١٥؛ **وسير أعلام النبلاء** للذهبي، ٢٣/١٧-٢٧؛ **وطبقات الشافعيّة الكبرى** للسبكي، ٢٨٢/٣-٢٨٣.

٦ انظر: **معالم السنن** للخطّابي، ٢٠٤/١-٢٠٥.

٧ وفي هامش ط س ي: وهو جلال الدين السيوطي. «منه». | انظر: **نواهد الأبكار** للسيوطي، ٥٤/١.

إنّها آية تامّة في الفاتحة، وليست[١] بقرآن في سائر السُّوَر. ولولا اعتبار كونها آيةً تامّةً لكان ذلك أحدَ مَحمَلَي تردّد الشافعي رحمه الله؛[٢] فإنّه قد نُقل عنه أنّها بعض آية في الفاتحة. وأمّا في غيرها فقوله فيها متردِّد، فقيل: بين أن يكون قرآنًا أو لا، وقيل: بين أن يكون آيةً تامّةً أو لا. قال الإمام الغزّالي: «والصحيح مِن الشافعي هو التردّد الثاني».[٣]

وعن أحمد بن حنبل رحمه الله[٤] في كونها آيةً كاملةً وفي كونها مِن الفاتحة روايتان، ذَكَرهما ابن الجوزي.[٥] ونُقل أنّه مع مالك رحمه الله[٦] وغيرِه ممّن يقول إنّها ليست مِن القرآن.

هذا، والمشهور مِن هذه الأقاويل هي الثلاثة الأُوَل. والاتّفاق على إثباتها في المصاحف مع الإجماع على أنّ ما بين الدفّتَيْن كلام الله عزّ وجلّ يَقضي[٧] بنفي القول الأوّل، وثبوتِ القدر المشترَك بين الأخيرَين، مِن غير دلالة على خصوصيّة أحدهما؛ فإنّ كونها جزءًا مِن القرآن لا يستدعي كونها جزءًا مِن كلّ سورة منه،[٨] كما لا يستدعي كونَها آيةً منفردةً منه.

وأمّا ما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما مِن أنّ مَن تركها فقد ترك مائةً وأربع عشرةَ آيةً مِن كتاب الله تعالى،[٩] وما رُوي عن أبي هريرة رضي الله عنه[١٠]

---

١ س: وليس.

٢ ي - رحمه الله.

٣ **المستصفى** للغزّالي، ص ٨١/٨٢.

٤ س ي - رحمه الله.

٥ **زاد المسير** لابن الجوزي، ١/١٤-١٥.

٦ ط س - رحمه الله.

٧ ي: كلام الله تعالى يقتضي.

٨ ي - منه.

٩ س - تعالى. | **الكشّاف** للزمخشري، ١/١. وقال الإمام الزيلعي في **تخريج أحاديث الكشّاف**، ١/٢١-٢٢ (١): «قلتُ: غريب. والذي وجدتُه عن ابن عبّاس أنّه قال: "مَن ترك البسملة فقد ترك آيةً مِن كتاب الله". رواه البيهقي في كتابه **شُعَب الإيمان** في الباب التاسع عشر. [...] وحُكي عن ابن الحاجب أنّه وهم الزمخشري في قوله "مائة وأربع عشرة آيةً"، وقال: صوابه: "مائة وثلاث عشرة آيةً"، قال: لأنّ سورة براءة غير مُبَسملة. [...] قلتُ: وقد روى البيهقي في **شُعَب الإيمان** في كتابه المذكور عن الحاكم بسنده إلى الإمام أحمد بن حنبل أنّه قال: "مَن لم يقرأ مع كلّ سورة بسم الله الرحمن الرحيم، فقد ترك مائة وثلاثَ عشرةَ آيةً مِن كتاب الله". انتهى». وانظر أيضًا: **الكافي الشاف** لابن حجر، ص ٢ (٢).

١٠ ط س - رضي الله عنه.

مِن أنّه صلّى الله عليه[1] قال: «فاتحة الكتاب سبعُ آياتٍ، أُولاهنّ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾»،[2] وما رُوي عن أمّ سلمةَ[3] رحمها الله[4] مِن أنّه عليه السلام قرأ سورة الفاتحة، وعدَّ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ آيةً،[5] وإن دلّ كلُّ واحد منها على نفي القول الثاني، فليس شيء[6] منها نصًّا في إثبات القول الثالث.

أمّا الأوّل، فلأنّه لا يدلّ إلّا على كونها آياتٍ مِن كتاب الله تعالى متعدِّدةً بعدد السُّوَر المصدَّرة بها، لا على ما هو المطلوب مِن كونها آيةً تامّةً مِن كلّ واحدة منها؛ إلّا أن يُلتجأ إلى أن يقال: إنّ كونها آياتٍ متعدِّدةً بعدد السُّوَر المصدَّرة بها مِن غير أن تكون جزءًا منها قولٌ لم يقل به أحد. وأمّا الثاني؛ فساكتٌ عن التعرّض لحالها في بقيّة السُّوَر. وأمّا الثالث؛ فناطقٌ بخلافه مع مشاركته للثاني في السكوت المذكور.

و"الباء" فيها متعلِّقة بمضمَر يُنبئ عنه الفعل المصدَّر بها، كما أنّها كذلك في تسمية المسافر عند الحلول والارتحال وتسميةِ كلّ فاعل عند مباشرة الأفعال. ومعناها: الاستعانة أو[7] الملابسة[8] تبرّكًا، أي: باسم الله أَقرأ أو أتلو. وتقديم المعمول للاعتناء به والقصدِ إلى التخصيص، كما في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة، ٥/١].

وتقدير "أبدأ" لاقتضائه اقتصارَ التبرّك على البداية مُخلٌّ بما هو المقصود، أعني: شمول البَرَكة للكلّ. وادّعاءُ أنّ فيه امتثالًا بالحديث الشريف مِن جهة اللفظ والمعنى معًا وفي تقدير "أقرأ" مِن جهة المعنى فقط ليس بشيء؛ فإنّ مدار

---

[1] س: عليه السلام.

[2] تفسير الرازي، ١٧٣/١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٥/١. ونحوه في المعجم الأوسط للطبراني، ٢٠٨/٥ (٥١٠٢)؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ١٦/٤ (٢١٢٠)؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٦١/١.

[3] هي هند بنت أبي أُميّة ابن المغيرة بن عبد الله (ت. ٦٢هـ/٦٨١م). زوج النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وكانت هي مِن أوّل مَن هاجر إلى أرض الحَبَشة. وقيل أيضًا: إنّ أمّ سلمة أوّل ظعينة دخلت المدينة مهاجِرةً. انظر: الاستيعاب للنَّمَري، ١٩٢٠/٤-١٩٢١، ١٩٣٩-١٩٤٠؛ وأُسد الغابة لابن الأثير، ٣٢٩/٧-٣٣١.

[4] ي - رحمها الله.

[5] انظر: مسند أحمد، ٢٠٦/٤٤ (٢٦٥٨٣)؛ وسنن أبي داود، ١٢٤/٦ (٤٠٠١).

[6] ي: شيئا.

[7] ي - أو.

[8] ي: والملابسة.

الامتثال هو البَدء بالتسمية، لا تقديرُ فِعله؛ إذ لم يقل في الحديث الكريم: كلّ أمر ذي بالٍ لم يُقَل فيه أو لم يُضمَر فيه "أبدأ".[١] وهذا إلى آخِر السورة الكريمة مَقُول على ألسِنة العباد تلقينًا لهم، وإرشادًا إلى كيفيّة التبرّك باسمه تعالى، وهدايةً إلى مِنهاج الحمد وسؤال الفضل؛ ولذلك سُمّيت السورة الكريمة بما ذُكر مِن "تعليم المسألة".

وإنّما كُسرت[٢] -ومِن حقّ الحروف المفردة أن تُفتَح- لاختصاصها بلزوم الحرفيّة والجرّ، كما كُسرت لام الأمر ولام الإضافة داخلةً على المُظهَر للفصل بينهما وبين لام الابتداء.

و"الاسم" عند البصريّين مِن الأسماء المحذوفة الأعجازِ المبنيّةِ الأوائلِ على السكون. قد أُدخلت عليها عند الابتداء همزةٌ؛ لأنّ مِن دأبهم البَدءَ بالمتحرِّك والوقفَ على الساكن. ويشهَد له تصريفهم على "أسماء"، و"سُمَيّ"، و"سمَّيتُ"، و"سُمًى" كـ"هُدًى" لغة فيه،[٣] قال:

والله أَسـمـاك سُـمًـى مُـبـارَكـا آثَـــرَكَ الله بــه إيـثــارَكَـا[٤]

والقلب بعيد غير مطّرِد. واشتقاقه مِن "السُمُوّ"؛ لأنّه رفعٌ للمسمَّى وتنويه له.

وعند الكوفيّين مِن "السِّمة"، وأصله "وَسَمَ"، حُذفت الواو، وعُوّضت عنها همزة الوصل ليقِلّ إعلالها. ورُدّ عليه بأنّ الهمزة لم تُعهَد داخلةً على ما حُذف صدره في كلامهم. ومِن لغاتهم "سِمٌ" و"سُمٌ"، قال:

بـاسـمِ الـذي فـي كـلِّ سـورةٍ سِمُـه[٥]

---

١ يشير إلى حديث أبي هريرة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، أنّه قال: «كلّ أمر ذي بال لا يُبدَأ فيه بذكر الله أقطَعُ». سنن الدارقطني، ٤٢٨/١ (٨٨٤).

٢ أي: "الباء" في البسملة.

٣ وفي هامش ط ي: أي في الاسم. «منه».

٤ البيت لأبي خالد القَنَاني في إصلاح المنطق لابن السكّيت، ص ١٠٤؛ ونواهد الأبكار للسيوطي، ١١٤/١، وبلا نسبة في الصحاح للجوهري، «سما»؛ وأسرار العربيّة لأبي البركات الأنباري، ص ٣٨؛ وتاج العروس للزبيدي، «سمو».

٥ البيت بلا نسبة في كتاب العين للخليل بن أحمد، ٣١٨/٧ «باب السين والميم»؛ والزاهر لأبي بكر الأنباري، ٥٤/١؛ والصاحبي في فقه اللغة لابن فارس، ص ١٧٤؛ وأمالي ابن الشجري، ٢٨٠/٢. ورواه الكسائي عن بعض بني قضاعة، كما في المحكم لابن سِيده، ٦٢٤/٨، «سمو»؛ وتاج العروس للزبيدي، «سمو».

وإنّما لم يُقل: "بالله" للفرق بين اليمين والتيمّن، أو لتحقيق ما هو المقصود بالاستعانة ههنا؛ فإنّها تكون تارةً بذاته تعالى، وحقيقتُها طلب المَعُونة على إيقاع الفعل وإحداثه، أي: إفاضة القدرة المفسَّرة عند الأصوليّين مِن أصحابنا بما يتمكّن به العبد مِن أداء ما لزِمه، المنقسمةِ إلى ممكِنة وميسِّرة، وهي المطلوبة بـ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة، ٥/١]، وتارةً أخرى باسمه عزّ وعَلا، وحقيقتُها طلب المَعُونة في كون الفعل معتدًّا به شرعًا، فإنّه ما لم يصدَّر باسمه تعالى يكون بمنزلة المعدوم. ولمّا كانت كلّ واحدة مِن الاستعانتَين واقعةً وجَبَ تعيين المراد بذكر "الاسم"؛ وإلّا فالمتبادِر مِن قولنا "بالله" عند الإطلاق -لاسيّما عند الوصف بـ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة، ٣/١]- هي الاستعانة الأُولى.

إن قيل: فليُحمَل "الباء" على التبرّك وليُستغْنَ عن ذكر "الاسم"، لِما أنّ التبرّك لا يكون إلّا به. قلنا: ذاك فرع كونِ / المراد بـ"الله" هو "الاسم"، وهل التشاجر إلّا فيه؟ فلا بدّ مِن ذكر "الاسم" لينقطع احتمال إرادة المسمّى ويتعيّنَ حمل "الباء" على الاستعانة الثانية أو التبرّك. [٤و]

وإنّما لم يُكتب "الألِف" لكثرة الاستعمال. قالوا: وطُوّلت "الباء" عِوضًا عنها.

و"الله": أصله الإلٰه، فحُذفت همزته على غير قياس، كما يُنبئ عنه وجوب الإدغام وتعويض الألف واللام عنها؛ حيث لزِماه وجُرّدَا عن معنى التعريف؛ ولذلك قيل: "يا ألله" بالقطع، فإنّ المحذوف القياسيّ في حكم الثابت، فلا يحتاج إلى التدارك بما ذُكر مِن الإدغام والتعويض. وقيل: على قياسِ تخفيف الهمزة، فيكون الإدغام والتعويض مِن خواصّ الاسم الجليل ليمتاز بذلك عمّا عداه امتيازَ مسمّاه عمّا سِواه بما لا يوجد فيه مِن نعوت الكمال.

و"الإلٰه" في الأصل اسمُ جنسٍ، يقع على كلّ معبود بحقّ أو باطل، أي: مع قطع النظر عن وصف الحقّيّة والبُطلان، لا مع اعتبار أحدهما، لا بعينه، ثمّ غلب على المعبود بالحقّ، كـ"النجم" و"الصَّعِق".[1] وأمّا "الله" بحذف الهمزة،

---

[1] قال سيبويه في الكتاب، ٢/١٠٠-١٠١: «الصَّعِق في الأصل صفةٌ تقع على كلّ مَن أصابه الصَّعِق، ولكنّه غلب عليه حتّى صار عَلَمًا بمنزلة زيد وعمرو. وقولهم: "النجم" صار عَلَمًا للثُّرَيّا».

فعلَمٌ مختصّ بالمعبود الحقّ، لم يُطلَق على غيره أصلًا.

واشتقاقه مِن "الإلاهة" و"الأُلوهة" و"الألُوهيّة" بمعنى العبادة، حسبما نصّ عليه[١] الجوهري،[٢] على أنّه اسم منها بمعنى المألوه، كـ"الكتاب" بمعنى المكتوب؛ لا على أنّه صفة منها، بدليلِ أنّه يوصَف ولا يوصَف به، حيث يقال: "إله واحد"، ولا يقال: "شيء إله"، كما يقال: "كتاب مرقوم"، ولا يقال: "شيء كتاب". والفرق بينهما أنّ الموضوع له في الصفة هو الذات المبهمة باعتبار اتّصافها بمعنى معيَّن وقيامِه بها، فمدلولها مركَّب مِن ذات مبهمة لم يلاحَظ معها خصوصيّة أصلًا، ومِن معنًى معيَّن قائمٍ بها على أنّ مِلاك الأمر تلك الخصوصيّة؛ فبأيّ ذات يقوم ذلك المعنى يصِحّ إطلاق الصفة عليها، كما في الأفعال؛ ولذلك تَعمَل عملها كاسمَي الفاعل والمفعول. والموضوع له في الاسم المذكور هو الذات المعيَّنة والمعنى الخاصّ، فمدلوله مركَّب مِن ذَيْنِك المعنيين، مِن غير رُجحان للمعنى على الذات كما في الصفة؛ ولذلك لم يَعمَل عملها.

وقيل: اشتقاقه مِن "ألِهَ" بمعنى "تحيَّرَ"؛ لأنّه سبحانه يَحار في شأنه العقول والأفهام. وأمّا "أَلَهَ" -كـ"عَبَدَ" وزنًا ومعنًى- فمشتقّ مِن "الإله" المشتقّ مِن "أَلِهَ" بالكسر. وكذا "تألَّهَ" و"استألَهَ" اشتقاقَ[٣] "استَنْوَقَ" و"استحجَرَ" مِن الناقة والحَجَر.

وقيل: مِن "أَلِهَ إلى فلان"، أي: سكن إليه، لاطمئنان القلوب بذكره تعالى وسكونِ الأرواح إلى معرفته.

---

١ نصّ الجوهري بأنّ "الإلاهة" بمعنى العبادة، ولم يذكر الاشتقاقَين الآخَرين. انظر: **الصحاح** للجوهري، «أله».

٢ هو إسماعيل بن حمّاد الجوهري الفارابي، أبو نصر (ت. قبل ٤٠٠هـ/١٠٠٩م). إمام في علم اللغة والأدب. مِن الفاراب إحدى بلاد التُّرك. وخطُّه يُضرب به المَثل في الجودة لا يكاد يفرَّق بينه وبين خطّ أبيٓ عبد الله ابن مُقلة. وكان يؤثِر السفرَ على الحضر، ويطوف الآفاق، دخل العراق فقرأ علم العربيّة على شيخَي زمانه: أبي عليّ الفارسي وأبي سعيد السيرافي، وسافر إلى أرض الحجاز فطاف البادية، وعاد إلى خُراسان، ثمّ أقام في نيسابور. وله مِن التصانيف: **عَروض الورقة**، و**كتاب المقدّمة في النحو**، و**كتاب الصحاح في اللغة**، وهذا الكتاب هو الذي بأيدي الناس اليومَ وعليه اعتمادُهم. انظر: **معجم الأدباء** للحموي، ٢/٦٥٦-٦٦١؛ **والأعلام** لزركلي، ٣١٣/١.

٣ كذا ضُبط في الأصول الخطّيّة.

وقيل: مِن "أَلِهَ" إذا فزِع مِن أمرٍ نزَلَ به، و"آلَهَهُ غيره" إذا أجاره؛ إذ العائذ به تعالى يفزَع إليه وهو يُجيره، حقيقةً أو في زعمه.

وقيل: أصله "لَاهَ" على أنّه مصدر مِن لَاهَ يَلِيهُ، بمعنى احتجب وارتفع. أُطلقَ على الفاعل مبالغةً.

وقيل: هو اسمُ علَمٍ للذات الجليل ابتداءً، وعليه مدار أمر التوحيد في قولنا "لا إلٰه إلّا الله". ولا يخفى أنّ اختصاص الاسم الجليل بذاته سبحانه بحيث لا يمكن إطلاقه على غيره أصلًا كافٍ في ذلك. ولا يقدَح فيه كونُ ذلك الاختصاص بطريق الغَلَبة بعد أن كان اسمَ جنسٍ في الأصل.

وقيل: هو وصفٌ في الأصل؛ لكنّه لمّا غلب عليه بحيث لا يُطلَق على غيره أصلًا صار كالعلَم. ويردّه امتناع الوصف به. واعلم أنّ المراد بالمنكَّر في كلمة التوحيد[1] هو المعبود بالحقّ، فمعناها: لا فردَ مِن أفراد المعبود بالحقّ إلّا ذلك المعبود بالحقّ.

وقيل: أصله "لَاهَا" بالسُّريانيّة، فعُرّب بحذف الألف الثانية وإدخالِ الألف واللام عليه. وتفخيم لامه إذا لم ينكسر ما قبله سنّةٌ، وقيل: مطلقًا، وحذفُ ألفه لحنٌ تفسُد به الصلاة، ولا ينعقد به صريح اليمين. وقد جاء لضرورة الشعر في قوله:

أَلَا لا بَارَكَ اللهُ في سُهيلٍ إذا ما الله بارَكَ في الرِّجالِ[2]

و"الرحمن" و"الرحيم"[3] صفتان مبنيّتان، مِن "رَحِمَ" بعد جعله لازمًا بمنزلة الغرائز بنقله إلى "رَحُمَ" بالضمّ، كما هو المشهور. وقد قيل: إنّ "الرحيم" ليس بصفة مشبَّهة؛ بل هي صيغةُ مبالغة، نصّ عليه سيبويه[4] في قولهم:

---

[1] أي: "إلٰه".

[2] البيت لقُطرب في سرّ صناعة الإعراب لابن جنّي، ٣٥٢/٢؛ وشرح ديوان الحَماسة للمرزوقي، ص ٢٤١، وبلا نسبة في المحكم لابن سِيده، ٣٥٩/٤، «أله»؛ ولسان العرب لابن منظور، «أله»؛ وخِزانة الأدب للبغدادي، ٣٥٥/١٠. والشاهد فيه أنّه حُذفت الألف مِن لفظ الجلالة الأوّل قبل الهاء.

[3] ي: الرحيم.

[4] هو عمرو بن عثمان بن قَنْبَر الحارثي، أبو بشر (ت. ١٨٠هـ/٧٩٦م). لقبه "سيبويه"، ومعناه >

"هو رحيم فلانًا".[١]

والرحمة في اللغة:[٢] رِقّة القلب والانعطاف. ومنه "الرَّحِم"، لانعطافها على ما فيها. والمراد بها[٣] ههنا[٤] التفضّل والإحسان، وإرادتُهما[٥] بطريق إطلاق اسم السبب بالنسبة إلينا على مسبَّبه البعيد أو القريب، فإنّ أسماء الله تعالى تُؤخذ باعتبار الغايات التي هي أفعال، دون المبادي التي هي انفعالات.

والأوّل[٦] مِن الصفات الغالبة، حيث لم يُطلَق على غيره تعالى. وإنّما امتنع صَرفه إلحاقًا له بالأغلب في بابه، مِن غير نظر إلى الاختصاص العارض؛ فإنّه / كما حظر وجود "فَعْلَى" حظر وجود "فَعْلَانَة"، فاعتباره يوجب اجتماعَ الصرف وعدمَه، فلزِم الرجوع إلى أصل هذه الكلمة قبل الاختصاص بأن تُقاس إلى نظائرها مِن باب فَعِلَ يَفْعَلُ: فإذا كان كلّها ممنوعةً مِن الصرف لِتَحقّق وجود "فَعْلَى" فيها، عُلِم أنّ هذه الكلمة أيضًا في أصلها ممّا تحقَّقَ فيها وجود "فَعْلَى"، فتُمنع مِن الصرف. [٤ظ]

وفيه مِن المبالغة ما ليس في "الرحيم"؛ ولذلك قيل: "رحمن الدنيا والآخرة"، و"رحيم الدنيا". وتقديمه -مع كون القياس تأخيرَه رعايةً لأسلوب الترقّي إلى الأعلى، كما في قولهم: "فلان عالِم نحرير"، و"شجاع باسل"، و"جواد فيّاض"- لأنّه باختصاصه به عزّ وجلّ صار حقيقًا بأن يكون قرينًا للاسم الجليل الخاصِّ به تعالى، ولأنّ ما يدلّ على جلائل النِّعَم وعظائمها وأصولها[٧]

< بالفارسيّة: رائحة التفّاح. كان مِن أهل فارس، مِن البيضاء، ومنشؤه بالبصرة. وأخذ عن الخليل بن أحمد، وعن يونس بن حبيب وعيسى بن عمر وغيرهم. وله الكتاب المخلّد في اللغة. وعامّة الحكاية في الكتاب عن الخليل، وكلّ ما قال سيبويه: «وسألتُه» أو «قال» مِن غير أن يذكر قائلَه، فهو الخليل. وقال الجاحظ: «أردتُ الخروج إلى محمّد بن عبد الملك، ففكّرتُ في شيء أهديه إليه، فلم أجد شيئًا أشرَفَ مِن كتاب سيبويه». وكان يقال بالبصرة "قرأ فلان الكتاب"، فيُعلم أنّه كتاب سيبويه، و"قرأ نصف الكتاب"، فلا يُشكّ أنّه كتاب سيبويه. انظر: أخبار النحويّين البصريّين للسيرافي، ص ٣١، ٣٧-٣٩؛ ونزهة الألبّاء للأنباري، ص ٥٤-٥٨.

١ الكتاب لسيبويه، ١/١١٠-١١٥.
٢ ي - في اللغة.
٣ ي - بها.
٤ ي: هنا.
٥ ط س: أو إرادتهما.
٦ أي: الرحمن.
٧ ط س - وأصولها.

أحقُّ بالتقديم ممّا يدلّ على دقائقها وفروعها.

وإفراد الوصفين الشريفين بالذِّكر لتحريك سلسلة الرحمة.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الحمد: هو النعت بالجميل على الجميل اختياريًا كان أو مَبدأً له على وجه يُشعِر بتوجيهه إلى المنعوت. وبهذه الحيثيّة يمتاز عن المدح؛ فإنّه خالٍ عنها. يُرشدك إلى ذلك ما ترى بينهما مِن الاختلاف في كيفيّة التعلّق بالمفعول في قولك: "حمدتُه" و"مدحتُه"؛ فإنّ تعلّق الثاني بمفعوله على منهاج تعلّق عامّة الأفعال بمفعولاتها،[1] وأمّا الأوّل، فتعلّقُه بمفعوله مُنبئ عن معنى الإنهاء[2] كما في قولك: "كلّمتُه"؛ فإنّه مُعرِب عمّا يفيده لام التبليغ في قولك: "قلتُ له". ونظيره: "شكرتُه"، و"عبدتُه"، و"خدمتُه"؛ فإنّ تعلّق كلٍّ منها مُنبئ عن المعنى المذكور.

وتحقيقه: أنّ مفعول كلّ فعل في الحقيقة هو الحَدَث الصادر عن فاعله. ولا يُتصوّر في كيفيّة تعلّق الفعل به -أيَّ فعل كان- اختلافٌ أصلًا. وأمّا المفعول به -الذي هو محلّه وموقعه- فلمّا كان تعلّقه به ووقوعُه عليه على أنحاء مختلفة -حسبما يقتضيه خصوصيّات الأفعال بحَسَب معانيها المختلفة؛ فإنّ بعضها يقتضي أن يلابسه ملابسةً تامّةً مؤثِّرةً فيه كعامّة الأفعال، وبعضَها يستدعي أن يلابسه أدنى ملابسة، إمّا بالانتهاء إليه كالإعانة مثلًا، أو بالابتداء منه كالاستعانة مثلًا- اعتُبِر[3] في كلّ نحو مِن أنحاءِ تعلّقه به كيفيّةً لائقةً بذلك النحو، مغايِرةً لِما اعتُبِر في النحوَين الأخرَين.[4] فنُظِم القسم الأوّل مِن التعلّق في سلك التعلّق بالمفعول الحقيقيّ مراعاةً لقوّة الملابسة، وجُعل كلّ واحد مِن القسمَين الأخيرَين مِن قَبيل التعلّق بواسطة الجارّ المناسِب له. فإنّ قولك: "أعنتُه"، مشعِر بانتهاء الإعانة إليه، وقولَك: "استعنتُه" بابتدائها منه.

---

[1] ي: بمفعولاته.

[2] ي: الانتهاء.

[3] وفي هامش ي: جواب لمّا. «منه».

[4] ي: أخيرين.

وقد يكون لفعل واحد مفعولان يتعلّق بأحدهما على الكيفيّة الأُولى، وبالآخَر على الثانية أو الثالثة، كما في قولك: "حدّثَني الحديثَ"، و"سألني المالَ"؛ فإنّ التحديث -مع كونه فعلًا واحدًا- قد تعلّق بك على الكيفيّة الثانية، وبالحديث على الأُولى،[١] وكذا السؤال؛ فإنّه فعل واحد، وقد تعلّق بك على الكيفيّة الثالثة، وبالمال على الأُولى.

ولا ريبَ في أنّ اختلاف هذه الكيفيّات الثلاث وتبايُنَها واختصاصَ كلّ مِن المفاعيل المذكورة بما نُسب إليه منها ممّا لا يُتصوّر فيه تردّد ولا نكير، وإن كان لا يتّضح حقَّ الاتّضاح إلّا عند الترجمة والتفسير، وأنّ مدار ذلك الاختلاف ليس إلّا اختلاف الفعل أو اختلاف المفعول؛ وإذ لا اختلافَ في مفعول الحمد والمدح تعيَّنَ أنّ اختلافهما في كيفيّة التعلّق لاختلافهما في المعنى قطعًا.

هذا، وقد قيل: المدح مطلق عن قيد الاختيار، يقال: "مدحتُ زيدًا على حُسنه ورشاقة قَدّه". وأيًّا ما كان، فليس بينهما ترادفٌ؛ بل أخوّة مِن جهة الاشتقاق الكبير[٢] وتناسبٌ تامّ في المعنى، كالنصر والتأييد، فإنّهما متناسبان معنًى مِن غير ترادف لِما ترى بينهما مِن الاختلاف في كيفيّة التعلّق بالمفعول؛ وإنّما مُرادِف النصر الإعانةُ، ومُرادف التأييد التقويةُ، فتدبَّرْ.

ثمّ إنّ ما ذُكر مِن التفسير هو المشهور مِن معنى الحمد واللائقُ بالإرادة في مقام التعظيم. وأمّا ما ذُكر في كُتب اللغة مِن معنى الرِّضى مطلَقًا -كما في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء، ٧٩/١٧]، وفي قولهم: "لهذا الأمر عاقبةٌ حميدةٌ"، وفي قول الأطِبّاء: "بُحران محمود" ممّا لا يختصّ بالفاعل فضلًا عن الاختيار-، فبمَعزِل مِن استحقاق الإرادة ههنا استقلالًا أو استتباعًا بحمل الحمد على ما يعمّ المعنيَين؛ إذ ليس في إثباته له عزّ وجلّ فائدة يُعتدّ بها.

---

[١] ي: الأوّل.

[٢] الاشتقاق الكبير: هو أن يكون بين اللفظَين تناسُبٌ في اللفظ والمعنى دون الترتيب، نحو: "جبذ" مِن "الجذب". التعريفات للجرجاني، ص ٣١.

وأمّا "الشكر" فهو مقابَلة النعمة بالثناء وإذآبِ الجوارح وعقدِ القلب على وصف المنعِم بنعت الكمال، كما قال مَن / قال: [٥و]

أفادتْكم[١] النَّعماءُ مِنّي ثلاثةً يدِي ولسانِي والضميرَ المحجَّبَا[٢]

فإذنْ هو أعمّ منهما مِن جهة، وأخصّ مِن أخرى. ونقيضه الكُفران.

ولمّا كان الحمد مِن شُعَب الشكر أدخَلَ في إشاعة النعمة والاعتدادِ بشأنها، وأدلَّ على مكانها لِما في عمل القلب مِن الخفاء وفي أعمال الجوارح مِن الاحتمال، جُعِل الحمدُ رأسَ الشكر، ومِلاكًا لأمره في قوله عليه السلام:[٣] «الحمد رأس الشكر، ما شكر اللهَ عبدٌ لم يحمَده».[٤]

وارتفاعه بالابتداء، وخبرُه الظرف، وأصلُه النصب كما هو شأن المصادر المنصوبة بأفعالها المضمَرة التي لا تكاد تُستعمل معها، نحو: "شُكرًا" و"عجبًا"، كأنّه قيل: نحمَد الله حمدًا، بنون الحكاية لِيوافقَ ما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة، ٥/١] لاتّحاد الفاعل في الكلّ.

وأمّا ما قيل مِن "أنّه بيان لحمدهم له تعالى، كأنّه قيل: كيف تحمَدون؟ فقيل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾"،[٥] فمع أنّه لا حاجةَ إليه، ممّا لا صحّةَ له في نفسه؛ فإنّ السؤال المقدَّر لا بدّ أن يكون بحيثُ يقتضيه انتظام الكلام وينساقُ إليه الأذهان والأفهام، ولا ريبَ في أنّ الحامد بعد ما ساق حمده تعالى على تلك الكيفيّة اللائقة لا يخطُر ببال أحدٍ أن يسأل عن كيفيّته، على أنّ ما قُدّر مِن السؤال غيرُ مطابق للجواب؛ فإنّه مسوق لتعيين المعبود، لا لبيان العبادة حتّى يُتوهّم كونه بيانًا لكيفيّة حمدهم.[٦] والاعتذار بأنّ المعنى: نخُصّك بالعبادة، وبه يتبيّن كيفيّة الحمد،

---

[١] ي: أفادكم.

[٢] البيت ورد بلا نسبة في **الفائق** للزمخشري، ٣١٤/١؛ و**عروس الأفراح** للسبكي، ٣٦/١؛ و**المستطرَف** للأبشيهي، ص ٢٤٤. وفي **نهاية الأرب** للنُّويري، ٢٤٨/٣: "أفادتْكما" بدلَ "أفادتْكم".

[٣] ط: صلّى الله عليه وسلّم.

[٤] **الجامع** لمعمر بن راشد، ٤٢٤/١٠ (١٩٥٧٤)؛ **شُعَب الإيمان** للبيهقي، ٢٣٠/٦ (٤٠٨٥)، **شرح السنّة** للبغوي، ٥٠/٥ (١٢٧١)، كلّها باختلاف يسير. والألفاظ مِن **الكشّاف** للزمخشري، ٩/١.

[٥] **الكشّاف** للزمخشري، ٩/١.

[٦] ط س ي: بيانًا لحمدهم [صُحّح في هامش ط]. | والمصحَّح في متن نسخة أ.

تعكيسٌ للأمر، وتمحّلٌ لتوفيق المنزل المقرَّر بالموهوم المقدَّر.

وبعد اللُّتيّا والتي،[١] إن فُرض السؤال مِن جهته عزّ وجلّ، فأتتْ نُكتة الالتفات التي أجمع عليها السلف والخلف. وإن فُرض مِن جهة الغير، يختلّ النظام لابتناء الجواب على خطابه تعالى. وبهذا يتّضح فساد ما قيل:[٢] إنّه استئناف جوابًا لسؤالٍ يقتضيه إجراء تلك الصفات العِظام على الموصوف بها، فكأنّه قيل: "ما شأنكم معه؟ وكيف توجّهُكم إليه؟" فأُجيبَ بحصر العبادة والاستعانة فيه؛ فإنّ تناسيَ جانبِ السائل بالكلّيّة وبناءَ الجواب على خطابه عزّ وعَلا ممّا يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله. والحقّ الذي لا محيدَ عنه أنّه استئنافٌ صدَرَ عن الحامد بمحض ملاحظة اتّصافه تعالى بما ذكر مِن النعوت الجليلة الموجِبة للإقبال الكلّيّ عليه، مِن غير أن يتوسّط هناك شيء آخَرُ، كما ستُحيط به خُبرًا.

وإيثار الرفع على النصب الذي هو الأصل للإيذان بأنّ ثبوت الحمد له تعالى لذاته، لا لإثبات مثبِت، وأنّ ذلك أمر دائم مستمرّ، لا حادثٌ متجدِّدٌ كما تفيده[٣] قراءة النصب. وهو السرّ في كون تحيّة الخليل[٤] للملائكة عليهم التحيّة[٥] والسلام[٦] أحسنَ مِن تحيّتهم له في قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ[٧] سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات، ٥١/٢٥].

وتعريفه للجنس، ومعناه الإشارةُ إلى الحقيقة مِن حيث هي حاضرة في ذهن السامع. والمراد تخصيص حقيقة الحمد به تعالى المستدعي لتخصيص جميع أفرادها به سبحانه على الطريق البرهانيّ؛ لكنْ لا بناءً على أنّ أفعال العِباد مخلوقة له تعالى، فيكونَ الأفراد الواقعة بمقابلة ما صدر عنهم مِن الأفعال الجميلة راجعةً إليه تعالى؛ بل بناءً على تنزيل تلك الأفراد ودواعِيها في المقام الخطابيّ منزلةَ العدم كيفًا وكمًّا. وقد قيل: للاستغراق الحاصلِ بالقصد إلى الحقيقة

---

[١] هما الداهية الكبيرة والصغيرة. **مجمع الأمثال** للميداني، ١/٩٢.

[٢] وفي هامش ي: صاحب **الكشّاف**. «منه». | انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ١/١٤.

[٣] س: يفيده.

[٤] أي: إبراهيم عليه السلام.

[٥] ي - التحيّة.

[٦] ي: السلام.

[٧] ط س ي: قَالُوا.

مِن حيث تحققُها في ضِمن جميع أفرادها حسبما يقتضيه المقام.

وقُرئ: "الحَمْدِ لِلهِ"[١] بكسر الدال إتباعًا لها باللام، وبضمّ اللام[٢] إتباعًا لها بالدال، بناءً على تنزيل الكلمتين لكثرة استعمالهما مقترنتين منزلةَ كلمة واحدة، مثل "المِغِيرة"[٣] و"مُنْحَدُرُ"[٤] الجبل".

﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾: بالجرّ، على أنّه صفة لـ﴿ٱللَّهِ﴾. فإنّ إضافته حقيقيّة مفيدة للتعريف على كلّ حال، ضرورةَ تعيّن إرادة الاستمرار. وقُرئ منصوبًا[٥] على المدح، أو بما دلّ عليه الجملة السابقة، كأنّه قيل: "نحمَد الله ربَّ العالَمين". ولا مساغَ لنصبه بـ"الحمد" لقلّة أعمال المصدر المُحلًّى باللام، وللزوم الفصل بين العامل والمعمول بالخبر.

والربّ في الأصل مصدر بمعنى التربية، وهي: تبليغ الشيء إلى كماله شيئًا فشيئًا. وُصِف به الفاعل مبالغةً كـ"العدل". وقيل: صفة مشبَّهةٌ مِن "ربَّه يرُبّه"، مِثل: "نمَّهُ ينُمّه"، بعد جعله لازمًا بنقله إلى "فَعُلَ" بالضمّ، كما هو المشهور.

سُمّي به المالك؛ لأنّه يحفَظ ما يملِكه ويُرَبّيه. ولا يُطلق على غيره تعالى إلّا مقيَّدًا كـ"ربّ الدار"، و"ربّ الدابّة". ومنه قوله تعالى: ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ [يوسف، ٤١/١٢]، وقوله تعالى: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾،[٦] وما في **الصحيحين** مِن أنّه صلّى الله عليه وسلّم[٧] قال: «لا يَقُلْ أحدكم: أَطعِمْ ربّك، وضِّئْ ربّك، ولا يَقُلْ أحدكم: ربّي، ولْيَقُل: سيّدِي ومَوْلَايَ».[٨] فقد قيل: إنّ النهي فيه للتنزيه. وأمّا الأرباب،

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن محمّد بن السميفع اليماني وأبي سعيد الحسن بن الحسن البصري وأبي الشعثاء جابر بن زيد. **شواذّ القراءات للكرماني**، ص ٤٠.

[٢] أي: "الحَمْدُ لُلهِ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن إبراهيم بن أبي عَبلة ويزيد بن قطيب الأعصم. **شواذّ القراءات للكرماني**، ص ٤٠.

[٣] بكسر الميم إتباعًا للغين.

[٤] بضمّ الدال إتباعًا للراء.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. **شواذّ القراءات للكرماني**، ص ٤١.

[٦] أي: إلى المَلِك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف، ٥٠/١٢].

[٧] ي: عليه السلام.

[٨] **مسند أحمد**، ٥١٨/١٣ (٨١٩٧). وهو باختلاف يسير في **صحيح البخاري**، ١٥٠/٣ (٢٥٥٢)؛ و**صحيح مسلم**، ٤/ ١٧٦٥ (٢٢٤٩).

فحيث لم يُمكن إطلاقه على الله تعالى[١] جاز في إطلاقه الإطلاقُ والتقييدُ، كما في قوله تعالى: ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ﴾ الآية [يوسف، ٣٩/١٢].

والعالَم: اسم لِما يُعلَم به، كـ"الخاتَم" و"القالَب"، غلَبَ فيما يُعلَم به الصانع تعالى مِن المصنوعات، / أي: في القَدر المشترَك بين أجناسها وبين مجموعها، [٥ظ] فإنّه كما يُطلَق على كلّ جنسٍ جنسٍ منها في قولهم: عالَم الأفلاك وعالَم العناصر وعالَم النبات وعالَم الحيَوان إلى غير ذلك، يُطلَق على المجموع أيضًا، كما في قولنا: "العالَم بجميع أجزائه محدَث".

وقيل: هو اسم لأُولي العلم مِن الملائكة والثقلَين،[٢] وتناولُه لِما سِواهم بطريق الاستتباع. وقيل: أُريدَ به الناس فقط؛ فإنّ كلّ واحد منهم مِن حيث اشتمالُه على نظائر ما في العالَم الكبير مِن الجواهر والأعراض يُعلَم بها[٣] الصانع، كما يُعلَم بما فيه[٤] عالَمٌ على حِياله؛ ولذلك أُمِر بالنظر في الأنفُس كالنظر في الآفاق، فقيل: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات، ٢١/٥١]. والأوّل هو الأحقّ الأظهر.

وإيثار صيغة الجمع لبيان شمول ربوبيّته تعالى لجميع الأجناس. والتعريف لاستغراق أفراد كلّ منها بأَسْرها؛ إذ لو أُفردَ لَربّما تُوهّم أنّ المقصود بالتعريف هو الحقيقة مِن حيث هي، أو استغراقُ أفراد جنس واحد على الوجه الذي أشيرَ إليه في تعريف ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾.

وحيث صحّ ذلك بمساعدة التعريف نُزّل العالَم -وإن لم ينطلق على آحاد مدلوله- منزلةَ الجمع، حتّى قيل: إنّه جمعٌ لا واحدَ له مِن لفظه؛ فكما أنّ الجمع المعرَّف يستغرق آحاد مفرده -وإن لم يصدُق عليها كما في مِثل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران، ١٣٤/٣، ١٤٨؛ المائدة، ٩٣/٥]، أي: كلَّ محسِن- كذلك العالَم، يشمل أفراد الجنس المسمّى به وإن لم ينطلق عليها،

---

١ س: سبحانه.
٢ أي: الإنس والجنّ.
٣ أي: بنظائر ما في العالَم الكبير مِن الجواهر والأعراض.
٤ أي: في العالم الكبير.

كأنّها آحاد مفرَده التقديريّ. ومِن قضيّة هذا التنزيل تنزيلُ جمعه منزلةَ جمع الجمع؛ فكما أنّ الأقاويل يتناول كلّ واحد مِن آحاد الأقوال، يتناول لفظُ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كلّ واحد مِن آحاد الأجناس التي لا تكاد تُحصى. رُوي عن[١] وهب بن منبِّه[٢] أنّه قال: «لله تعالى ثمانيةَ عشرَ ألفَ عالَمٍ، والدنيا عالَمٌ منها».[٣]

وإنّما جُمع بالواو والنون -مع اختصاص ذلك بصفات العقلاء وما في حُكمها مِن الأعلام- لدلالته على معنى العِلم مع اعتبار تغليب العقلاء على غيرهم. واعلم أنّ عدم انطلاق اسم "العالَم" على كلّ واحد مِن تلك الآحاد ليس إلّا باعتبار الغلبة والاصطلاح، وأمّا باعتبار الأصل، فلا ريبَ في صحّة الإطلاق قطعًا لتحقّق المِصداق حتمًا؛ فإنّه كما يُستدلّ على الله سبحانه[٤] بمجموع ما سِواه وبكلّ جنس مِن أجناسه، يُستدلّ عليه تعالى بكلّ جزء مِن أجزاء ذلك المجموع وبكلّ فرد مِن أفراد تلك الأجناس لتحقّق الحاجة إلى المؤثِّر الواجب لذاته في الكلّ؛ فإنّ كلّ ما ظهر في المظاهر -ممّا عزَّ وهانَ- وحضر في هذه[٥] المَحاضر -كائنًا ما كان- دليلٌ لائح على الصانع المجيد، وسبيلٌ واضح إلى عالَم التوحيد.

وأمّا شمول ربوبيّته عزّ وجلّ للكلّ، فممّا لا حاجةَ إلى بيانه؛ إذ لا شيءَ ممّا أحدق به نطاق الإمكان والوجود مِن العُلويّات والسُفليّات والمجرَّدات والمادّيّات والروحانيّات والجسمانيّات، إلّا وهو في حدّ ذاته، بحيث لو فُرض انقطاع آثار التربية عنه آنًا واحدًا لَما استقرّ له القرار، ولا اطمأنّت به الدار إلّا في مطمورة العدم ومهاوي البَوار؛ لكنْ يُفيض عليه مِن الجناب الأقدس -تعالى شأنه وتقدّس-

---

١ ي: أنّ.

٢ هو وهب بن منبِّه بن كامل اليماني، أبو عبد الله (ت. ١١٤هـ/٧٣٢م). تابعيّ. صاحبُ الأخبار والقِصص، كانت له معرفة بأخبار الأوائل وقيام الدنيا وأحوال الأنبياء صلوات الله عليهم وسِيَرِ الملوك. قال الذهبي: «وروايته للمسنَد قليلة، وإنّما غَزارة علمه في الإسرائيليّات ومِن صحائف أهل الكتاب». مِن كُتبه: ذكر الملوك المتوجَّة مِن حِمْيَر وأخبارهم وقِصَصهم وقبورهم وأشعارهم، وقصص الأنبياء. انظر: وفيات الأعيان لابن خلّكان، ٦/٣٥-٣٦؛ وسِيَر أعلام النُّبلاء للذهبي، ٤/٥٤٤-٥٥٧؛ والأعلام للزركلي، ٨/١٢٥-١٢٦.

٣ هو باختلاف يسير في العَظَمة لأبي الشيخ الأصبهاني، ٤/١٤٣٤؛ والكشف والبيان للثعلبي، ١/١١٢؛ واللباب لابن عادل، ١/١٨٤. ونحوه في تفسير السمرقندي، ١/٤١.

٤ ي: تعالى.

٥ ي - هذه.

في كلّ زمان يمضي وكلّ آنٍ يمُرّ وينقضي مِن فنون الفُيوض المتعلِّقة بذاته ووجوده وصفاته وكمالاته ما لا يُحيط به فلكُ التعبير ولا يعلمه إلّا العليم الخبير، ضرورةَ أنّه كما لا يستحقّ شيء مِن الممكنات بذاته الوجودَ ابتداءً، لا يستحقّه بقاءً، وإنّما ذلك مِن جناب المُبدئ الأوّل عزّ وعَلا؛ فكما لا يُتصوّر وجوده ابتداءً ما لم ينسدَّ عليه جميع أنجاء عدمه الأصليّ، لا يُتصوّر بقاؤه على الوجود بعد تحقّقه بعِلّته ما لم ينسدَّ عليه جميع أنحاء عدمه الطارئ، لِما أنّ الدوام مِن خصائص الوجود الواجبيّ.

وظاهرٌ أنّ ما[١] يتوقّف عليه وجوده مِن الأمور الوجوديّة التي هي عِلَله وشرائطه، وإن كانت متناهيةً لوجوب تناهي ما دخل تحت الوجود، لكنّ الأمور العدميّةَ التي لها دَخْل في وجوده -وهي المعبَّر عنها بـ"ارتفاع الموانع"- ليست كذلك؛ إذ لا استحالةَ في أن يكون لشيء واحدٍ موانعُ غيرُ متناهية يتوقّف وجوده أو بقاؤه على ارتفاعها، أي: بقائها على العدم مع إمكان وجودها في أنفسها؛ فإبقاء تلك الموانع التي لا تتناهى على العدم تربيةٌ لذلك الشيء مِن وجوه[٢] غيرِ متناهية.

وبالجملة، فآثار تربيته عزّ وجلّ الفائضةُ على كلّ فرد مِن أفراد الموجودات في كلّ آنٍ مِن آنات الوجود غيرُ متناهية. فسبحانه سبحانه، ما أعظمَ سلطانَه! لا تُلاحظه العيون بأنظارها، ولا تُطالعه العقول بأفكارها. شأنه لا يُضاهى، وإحسانه لا يتناهى. ونحن في معرفته حائرون، وفي إقامة مراسم شكره[٣] قاصرون. نسألك اللّٰهمّ الهدايةَ إلى مناهج معرفتك، والتوفيقَ لأداء حقوق نعمتك. لا نُحصي ثناءً عليك، لا إلٰه إلاّ أنت، نستغفرك، ونتوب إليك.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ صفتان لـ﴿ٱللَّهِ﴾. فإن أريدَ بما فيهما مِن الرحمة ما يختصّ بالعقلاء مِن / العالَمين أو ما يفيض على الكلّ بعد الخروج إلى طَوْر [٦و]

---

[١] ي: إنّما.

[٢] ي: مِن وجوده.

[٣] ي: الشكر.

الوجود مِن النِّعَم، فوجهُ تأخيرهما عن وصف الربوبيّة ظاهرٌ. وإن أريدَ ما يعُمّ الكلّ في الأطوار كلّها حسبما في قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف، ١٥٦/٧]، فوجهُ الترتيب أنّ التربية لا تقتضي المقارنة للرحمة. فإيرادهما في عَقِبها[1] للإيذان بأنّه تعالى متفضِّل فيها، فاعلٌ بقضيّة رحمته السابقة مِن غير وجوب عليه، وبأنّها واقعة على أحسن ما يكون. والاقتصار على نعته تعالى بهما في التسمية لِما أنّه الأنسب بحال المتبرِّك المستعين باسمه الجليل، والأوفقُ لمقاصده.

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾: صفة رابعة له تعالى. وتأخيرها عن الصفات الأُوَل ممّا لا حاجةَ إلى بيان وجهه. وقرأ أهل الحرمين المحترمين "مَلِكِ"[2] مِن "المُلك" الذي هو عبارة عن السلطان القاهر والاستيلاء الباهر والغلَبة التامّة والقدرةِ على التصرّف الكلّيّ في أمور العامّة بالأمر[3] والنهي. وهو الأنسب بمقام الإضافة إلى ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، كما في قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر، ١٦/٤٠].

وقُرئ: "مَلْكِ"[4] بالتخفيف، و"مَلَكَ"[5] بلفظ الماضي، "ومَالِكَ"[6] بالنصب على المدح أو الحال، وبالرفع منوَّنًا[7] ومضافًا[8] على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف،

---

[1] ي: عقيبها.

[2] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحمزة. **النشر** لابن الجزري، ٢٧١/١.

[3] وبالأمر.

[4] رواها عبد الحارث عن أبي عمرو. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤١؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٣٦/١، وهي غير القراءة المشهورة لأبي عمرو.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن جبير بن مطعم وأبي عاصم عبيد بن عمير وأبي حنيفة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٢.

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن عثمان بن عفّان وسليمان بن مهران وابن السميفع وعثمان بن أبي سليمان. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤١.

[7] أي: "مَالِكٌ يَوْمَ الدِّينِ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن عاصم بن ميمون وأبي محمّد خلف بن هشام وأبي عبيد القاسم بن سلّام وأبي حاتم سهل. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٢. ولم يذكرها ابن الجزري عن خلف في **طيّبة النشر**.

[8] أي: "مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي روح عون بن أبي شداد. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٢.

و"مَلِك" مضافًا بالرفع[١] والنصب.[٢]

واليوم في العُرف عبارةٌ عمّا بين طلوع الشمس وغروبها مِن الزمان، وفي الشرع عمّا بين طلوع الفجر الثاني وغروب الشمس. والمراد ههنا مطلق الوقت. والدين: الجزاء، خيرًا كان أو شرًّا. ومنه الثاني[٣] في المَثَل السائر: "كما تَدين تُدان"، والأوّلُ[٤] في بيت الحَماسة:

ولم يَبْقَ سِوى العُدْوا نِ دِنّاهم كما دَانُوا[٥]

وأمّا الأوّل في الأوّل[٦] والثاني في الثاني،[٧] فليس بجزاء حقيقةً، وإنّما سُمّي به مشاكَلةً، أو تسميةً للشيء باسم مسبَّبه، كما سُمّيت إرادة القيام والقراءة باسمهما في قوله عزّ اسمه: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة، ٦/٥]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [النحل، ٩٨/١٦].

ولعلّه هو السرّ في بناء المفاعلة مِن الأفعال التي تقوم أسبابها بمفعولاتها، نحو: "عاقبتُ اللصّ" ونظائرِه؛[٨] فإنّ قيام السَّرِقة التي هي سبب للعقوبة باللصّ نُزّل منزلةَ قيام المسبَّب به، وهي العقوبة، فصار كأنّها قامت بالجانبين وصدرت عنهما، فبُنِيت صيغة المفاعلة الدالّة على المشاركة بين الاثنين.[٩]

وإضافة "اليوم" إليه لأدنى ملابسة، كإضافة سائر الظروف الزمانيّة إلى ما وقع فيها مِن الحوادث، كـ"يوم الأحزاب" و"عام الفتح". وتخصيصه مِن بين سائر

---

١ أي: "مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي هريرة وعمر بن عبد العزيز وأبي حياة وشريح بن يزيد الحضرمي. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤١.

٢ أي: "مَلِكَ يَوْمِ الدِّينِ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن أنس بن مالك وأبي نوفل وأبي حياة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤١.

٣ أي: "تُدان".

٤ أي: "دِنّاهم".

٥ البيت لِشَهْل بن شيبان المعروف بالفِنْد الزِّماني في **أمالي القالي**، ٢٦٠/١؛ و**شرح ديوان الحماسة** للتبريزي، ٥/١-٦؛ و**شرح شواهد المغني** للسيوطي، ٩٤٤/٢-٩٤٥؛ و**خِزانة الأدب** للبغدادي، ٤٣١/٣، وبلا نسبة في **الزاهر** لأبي بكر الأنباري، ٢٧٨/١.

٦ أي: "تَدين".

٧ أي: "دانوا".

٨ ي: ونظائرها.

٩ وفي هامش ي: وسيأتي في قوله: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا﴾ [يوسف، ٢٣/١٢] مزيدُ تحقيقٍ وتوضيحٍ لهذه النكتة. «منه».

ما يقع فيه مِن القيامة والجمع والحساب، لكونه أدخلَ في الترغيب والترهيب؛[١] فإنّ ما ذُكر مِن القيامة وغيرها مِن مبادي الجزاء ومقدِّماته.

وإضافة ﴿مَٰلِكِ﴾ إلى الـ﴿يَوۡمِ﴾ إضافةُ اسم الفاعل إلى الظرف على نهج الاتّساع المبنيّ على إجرائه مُجرى المفعول به مع بقاء المعنى على حاله، كقولهم:

يا سارقَ الليلةِ[٢] أهلَ الدارِ[٣]

أي: مالِكِ أمور العالَمين كلِّها في يوم الدين. وخُلوّ إضافته عن إفادة التعريف المسوِّغ لوقوعه صفةً للمعرفة، إنّما هو إذا أُريدَ به الحال أو الاستقبال. وأمّا عند إرادة الاستمرار الثبوتيّ -كما هو اللائق بالمقام- فلا ريبَ في كونها[٤] إضافةً حقيقيّةً، كإضافة الصفة المشبَّهة إلى غير معمولها في قراءة "مَلِكِ[٥] يَوۡمِ الدِّينِ".

ويوم الدين، وإن لم يكن مستمرًّا في جميع الأزمنة، إلّا أنّه لتحقّقِ وقوعه وبقائه أبدًا أُجري مُجرى المتحقِّق المستمرّ. ويجوز أن يراد به الماضي بهذا الاعتبار، كما يشهَد به القراءة على صيغة الماضي.[٦] وما ذُكر مِن إجراء الظرف مُجرى المفعول به، إنّما هو مِن حيث المعنى؛ لا مِن حيث الإعرابُ حتّى يلزَمَ كون الإضافة لفظيّةً؛ ألا يُرى أنّك تقول في "مالكُ عبدِه أمسِ":[٧] إنّه مضاف إلى المفعول به على معنى أنّه كذلك معنًى؛ لا أنّه منصوب محلًّا. وتخصيصه بالإضافة إمّا لتعظيمه وتهويله، أو لبيان تفرّده تعالى بإجراء الأمر فيه وانقطاعِ العلائق المجازيّة بين المُلّاك والأملاك حينئذ بالكلّيّة.

وإجراء هاتيك الصفات الجليلة عليه سبحانه تعليلٌ لِما سبق مِن اختصاص الحمد به تعالى المستلزمِ لاختصاص استحقاقه به تعالى، وتمهيدٌ لِما لَحِق[٨] مِن اقتصار العبادة والاستعانة عليه؛ فإنّ كلّ واحدة منها مفصِحة عن وجوبِ ثبوت

---

١ ي - والترهيب.
٢ ي: الليل.
٣ **الكتاب** لسيبويه، ١٧٧/١.
٤ ي: كونهما.
٥ ي: مالك.
٦ أي: "مَلَكَ يَوۡمَ الدِّينِ".
٧ ي: أمين.
٨ ي: يحق.

كلّ واحد منها[١] له تعالى وامتناعِ ثبوتها لِما سِواه. أمّا الأُولى[٢] والرابعة،[٣] فظاهر؛ لأنّهما متعرِّضتان صراحةً لكونه تعالى ربًّا مالكًا وما سِواه مربوبًا مملوكًا له تعالى. وأما الثانية[٤] والثالثة،[٥] فلأنّ اتّصافه تعالى بهما ليس إلّا بالنسبة إلى ما سِواه مِن العالَمين، وذلك يستدعي أن يكون الكلّ مُنعَمًا عليهم. فظهر أنّ كلّ واحدة مِن تلك الصفات كما دلّت على وجوب ثبوت الأمور المذكورة[٦] له تعالى، دلّت على امتناع ثبوتها لِما عَداه على الإطلاق، وهو المعنِيّ / بالاختصاص. [٦ظ]

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾: التفات مِن الغيبة إلى الخطاب، وتلوين للنظم مِن باب إلى باب، جارٍ على نهج البلاغة في افتنان الكلام ومسلكِ البراعة حسبما يقتضي المقام، لِما أنّ التنقّل مِن أسلوب إلى أسلوب أدخَلُ في استجلاب النفوس واستمالة القلوب، يقع مِن كلّ واحد مِن التكلّم والخطاب والغيبة إلى كلّ واحد مِن الآخَرين، كما في قوله عزّ وجلّ:[٧] ﴿وَٱللَّهُ[٨] ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾ الآية [فاطر، ٩/٣٥]، وقولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ [يونس، ٢٢/١٠]، إلى غير ذلك مِن الالتفاتات الواردة في التنزيل لأسرار تقتضيها ومزايا تستدعيها.

وممّا استأثر به هذا المقام الجليل مِن النُكت الرائقة الدلالةُ على أنّ تخصيص العبادة والاستعانة به تعالى لِما أُجري عليه مِن النُّعوت الجليلة التي أوجبت له تعالى أكملَ تميّزٍ وأتمَّ ظهورٍ، بحيث تبدَّلَ خفاء الغيبة بجلاء الحضور[٩] فاستدعى استعمالَ صيغة الخطاب، والإيذانُ بأنّ حقّ التالي -بعد ما تأمَّلَ

---

[١] وفي هامش ط س ي: أي: مِن الحمد والعبادة والاستعانة. «منه».

[٢] وفي هامش ي: ربّ. «منه».

[٣] وفي هامش ي: مالك. «منه».

[٤] وفي هامش ي: رحمن. «منه».

[٥] وفي هامش ي: رحيم. «منه».

[٦] وفي هامش ي: أي: الحمد والعبادة والاستعانة. «منه».

[٧] ي: تعالى.

[٨] ط س ي: الله.

[٩] وفي هامش ي أ: هذا على ما هو الشائع مِن عبارات المصنّفين مِن دخول الباء على الحاصل دون الزائل، على عكس ما في عبارات[(١)] البلغاء مِن دخولها على الذاهب دون الآتي، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [البقرة، ١٠٨/٢]. «منه». | [(١)] هامش ي: عبارة.

فيما سلف مِن تفرّده تعالى بذاته الأقدس المستوجبِ للمعبوديّة، وامتيازِه بذاته عمّا سِواه بالكلّيّة، واستبدادِه بجلائل الصفات وأحكام الربوبيّة المميّزة له عن جميع أفراد العالَمين، وافتقارِ الكلّ إليه في الذات والوجود ابتداءً وبقاءً على التفصيل الذي مرّت إليه الإشارة- أن يترقّى[١] مِن رُتبة البرهان إلى طبقة العِيان، وينتقلَ مِن عالَم الغيبة إلى معالم الشهود، ويلاحِظَ نفسه في حظائر القُدس حاضرًا في محاضر الأُنس، كأنّه واقفٌ لدى مولاه، ماثلٌ بين يدَيه وهو يدعو بالخضوع والإخبات، ويقرَع بالضَّراعة باب المناجاة قائلًا: يا مَن هذه شئون ذاته وصفاتِه! نخصُّك بالعبادة والاستعانة؛ فإنّ كلّ ما سِواك -كائنًا ما كان- بمَعزِل مِن استحقاق الوجود، فضلًا عن استحقاق أن يُعبَد أو يُستعان. ولعلّ هذا هو السرّ في اختصاص السورة الكريمة بوجوب القراءة في كلّ ركعة مِن الصلاة التي هي مناجاة العبد لمولاه ومَئِنّةٌ[٢] للتبتّل إليه بالكلّيّة.

و﴿إِيَّا﴾ ضمير منفصِل منصوب، وما يلحَقه مِن الكاف والياء والهاء حروفٌ زِيدت لتعيين الخطاب والتكلّم والغيبة، لا محلَّ لها مِن الإعراب، كالتاء في "أنت" والكافِ في "أرأيتَك". وما ادّعاه الخليل[٣] مِن الإضافة مُحتجًّا عليه بما حكاه عن بعض العرب: «إذا بلغ الرجل الستّينَ فإيّاه وإيّا الشَّوابِّ»،[٤] فممّا لا يُعوَّل عليه. وقيل: هي الضمائر، و﴿إِيَّا﴾ دِعامة لها لتصيّرَها منفصِلةً. وقيل: الضمير هو المجموع.

---

[١] وفي هامش ي: خبر "أنّ". «منه».

[٢] المَئِنّة: العَلامة. وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «إنّ طُول الصلاة وقِصَر الخُطبة مَئِنّة مِن فقه الرجل». الصحاح للجوهري، «مأن».

[٣] هو الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفَراهيدي البصري، أبو عبد الرحمن (ت. ١٧٥هـ/٧٩١م). صاحب العربيّة والعَروض. قال السيرافي: «عمل أوّلَ كتاب العين المعروف المشهور الذي به يتهيّأ ضبط اللغة. وكان مِن الزُّهّاد في الدنيا والمنقطِعين إلى العلم. [...] وهو أستاذ سيبويه، وعامّة الحكاية في كتابه عنه، وكلّما قال سيبويه: "وسألتُه" أو "قال" مِن غير أن يذكر قائلَه، فهو الخليل». وأبوه أوّلُ مَن سُمّي "أحمد" بعد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وله مِن التصانيف: كتاب العَين، وكتاب النغم، والجمل، والعَروض، والشواهد، والنقط والشكل، وكتاب فائت العين، وكتاب الإيقاع. انظر: بغية الوُعاة للسيوطي، ١/٥٥٧-٥٦٠.

[٤] حكاه سيبويه في الكتاب، ١/٢٧٩، قائلًا: «حدّثني مَن لا أتّهم عن الخليل أنّه سمع أعرابيًا يقول»...

وقُرئ: "إِيَاكَ"[١] بالتخفيف، وبفتح الهمزة والتشديد،[٢] و"هَيَّاكَ" بقلب الهمزة هاءً.[٣]

والعبادة: أقصى غاية التذلّل والخضوع. ومنه "طريق معبَّد"، أي: مذلَّل. والعبوديّة أدنى منها. وقيل: العبادة: فَعْلُ ما يرضى به الله تعالى،[٤] والعبوديّة: الرضى بما فعل الله تعالى. والاستعانة: طلب المَعُونة على الوجه الذي مرّ بيانه.

وتقديم المفعول فيهما لِما ذُكر مِن القَصر والتخصيص، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة، ٢/٤٠]، مع ما فيه مِن التعظيم والاهتمام به. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «معناه: نعبُدك، ولا نعبُد غيرَك».[٥] وتكرير الضمير المنصوب للتنصيص على تخصيصه تعالى بكلّ واحدة مِن العبادة والاستعانة، ولإبراز[٦] الاستلذاذ بالمناجاة والخطاب.

وتقديم العبادة لِما أنّها مِن مقتضيات مدلول[٧] الاسم الجليل، وإن ساعده الصفات المُجراة عليه أيضًا، وأمّا الاستعانة فمِن الأحكام المبنيّة على الصفات المذكورة، ولأنّ العبادة مِن حقوق الله تعالى، والاستعانةَ مِن حقوق المستعين، ولأنّ العبادة واجبة حتمًا، والاستعانةَ تابعة للمستعان فيه في الوجوب وعدمه. وقيل: لأنّ تقديم الوسيلة على المسئول أدعى إلى الإجابة والقبول. هذا على تقدير كون إطلاق الاستعانة عن المفعول فيه ليتناول كلَّ مستعان فيه كما قالوا.

وقد قيل: إنّه لِما أنّ المسئول هو المَعُونة في العبادة والتوفيقُ لإقامة مراسمها على ما ينبغي. وهو اللائق بشأن التنزيل والمناسبُ لحال الحامد؛ فإنّ استعانته مسبوقة بملاحظة فعل مِن أفعاله ليستعينه تعالى في إيقاعه، ومِن البيّن أنّه عند استغراقه في ملاحظة شئونه تعالى واشتغالِه بأداء ما يُوجبه تلك الملاحظة

---

[١] قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري بلا نسبة في الكشّاف، ١٣/١.

[٢] أي: "أَيّاكَ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن فضل الرقاشي، ورواها أبو رزين الكوفي عن عليّ بن أبي طالب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السوار الغنوي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢.

[٤] ط س - تعالى.

[٥] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٩/١. ونحوه في جامع البيان للطبري، ١٥٩/١.

[٦] ي: وإبراز.

[٧] ي - مدلول.

مِن الحمد والثناء، لا يكاد يخطُر بباله مِن أفعاله وأحواله إلّا الإقبال الكلّيّ عليه والتوجّه التامّ إليه. ولقد فعل ذلك بتخصيص العبادة به تعالى أوّلًا، وباستدعاء الهداية إلى ما يوصِل إليه آخِرًا. فكيف يُتصوّر أن يشتغل فيما بينهما بما لا يَعنيه مِن أمور دنياه أو بما يعمُّها وغيرَها؟ كأنّه قيل: وإيّاك نستعين في ذلك، فإنّا غير قادرين على أداء حقوقه مِن غير إعانة منك. فوجهُ الترتيب حينئذ واضحٌ. وفيه مِن الإشعار بعُلوّ رُتبة عبادته تعالى وعزّةِ منالها، وبكونها عند العابد أشرَفَ المباغي والمقاصد، وبكَونها مِن مواهبه تعالى لا مِن أعمال نفسه، ومِن المُلاءمة لِما يعقبه مِن الدعاء ما لا يخفى.

[٧و] وقيل: "الواو" للحال، أي: / إيّاك نعبد مستعينين بك. وإيثار صيغة المتكلّم مع الغير في الفعلَين للإيذان بقصور نفسه وعدمِ لِياقته بالوقوف في مواقف الكبرياء منفردًا وعرضِ العبادة واستدعاءِ المَعونة والهداية مستقلًّا، وأنّ ذلك إنّما يُتصوّر مِن عِصابةٍ هو مِن جُملتهم وجماعةٍ هو مِن زُمرتهم، كما هو دَيْدَنُ[١] الملوك، أو للإشعار باشتراك سائر الموحِّدين له في الحالة العارضة له بناءً على تعاضد الأدلّة المُلجِئة إلى ذلك.

وقُرئ: "نِسْتَعِينَ"[٢] بكسر النون على لغة بني تَميم.[٣]

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ إفرادٌ لمعظَم أفراد المَعونة المسئولة بالذِّكر، وتعيين لِما هو الأهمّ، أو بيان لها، كأنّه قيل: كيف أُعينكم؟ فقيل: اهدِنا. والهداية: دلالةٌ بلطفٍ على ما يوصِل إلى البُغية؛[٤] ولذلك اختصّت بالخير. وقوله تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات، ٢٣/٣٧] واردٌ على نهج التهكّم.

---

١ الدَّيْدَنُ: الدَّأب والعادة. الصحاح للجوهري، «ددن».

٢ ذكرها ابن الجزري في النشر، ٤٧/١، وقال إنّها لغة مشهورة حسنة. وذكرها الكرماني في شواذّ القراءات، ص ٤٣، عن يحيى بن وثّاب.

٣ هم قاعدة مِن أكبر قواعد العرب: بنو تميم بن مُرّ بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مُضَر بن نِزار بن مَعَدّ بن عدنان. ولدُ تميم بن مُرّ: الحارث وعمرو وزيد مناة. انظر: الأنساب للبَلاذري، ٤٩٨١/١٢-٤٩٩١؛ وجمهرة أنساب العرب لابن حزم، ص ٢٠٨، ٤٨٠.

٤ وفي هامش ط س ي: وسيأتي تحقيقه في قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة، ٢/٢]. «منه».

والأصل تعديته[١] بـ"إلى" و"اللام" كما في قوله تعالى:[٢] ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ [يونس، ٣٥/١٠]، فعُومِلَ معاملةَ ﴿ٱخْتَارَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف، ١٥٥/٧]، وعليه قولُه تعالى: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت، ٦٩/٢٩].

وهداية الله تعالى -مع تنوّعها إلى أنواع لا تكاد تُحصَر- منحصرةٌ في أجناس مترتّبةٍ، منها: أنفُسيّة، كإفاضة القُوى الطبيعيّة والحَيَوانيّة التي بها يصدُر عن المَرْء أفاعيله الطبيعيّة والحَيَوانيّة، والقوى المدرِكةِ، والمشاعرِ الظاهرة والباطنة التي بها يتمكّن مِن إقامة مصالحه المَعاشيّة والمَعاديّة.

ومنها آفاقيّة، فإمّا تكوينيّة معرِبة عن الحقّ بلسان الحال، وهي نصب الأدلّة المُودَعة في كلّ فرد مِن أفراد العالَم حسبما لُوّح به فيما سلف، وإمّا تنزيليّة مفصِحة عن تفاصيل الأحكام النظريّة والعمليّة بلسان المقال بإرسال الرُّسُل وإنزالِ الكُتب المنطوية على فنون الهدايات التي مِن جملتها الإرشادُ إلى مسلك الاستدلال بتلك الأدلّة التكوينيّة الآفاقيّة والأنفُسيّة، والتنبيهُ على مكانها، كما أشيرَ إليه مجمَلًا في قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات، ٢٠/٥١-٢١]، وفي قوله عزّ وعَلا:[٣] ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس، ٦/١٠].

ومنها الهداية الخاصّة، وهي كشف الأسرار على قلب المُهدى بالوحي أو الإلهام.

ولكلّ مرتبة مِن هذه المراتب صاحبٌ ينتحيها وطالبٌ يستدعيها. والمطلوب إمّا زيادتها كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمّد، ١٧/٤٧]، وإمّا الثبات عليها كما رُوي عن عليّ وأُبيّ[٤] رضي الله عنهما:

---

١ ي: تعديتها.

٢ ط: عزّ وجلّ.

٣ ي: وجلّ.

٤ هو أُبيّ بن كعب بن قيس الأنصاري، أبو الطُفيل (ت. ٣٣هـ/٦٥٤م [؟]). كان أحدَ فقهاء الصحابة وأقرأهم لكتاب الله. رُوي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «أقرأ أُمّتي أُبيّ». وكان ممّن كَتب الوحي قبل زيد بن ثابت، ومعه أيضًا. شهِد العَقَبة الثانية، وشهِد بدرًا. انظر: الاستيعاب للنَمَري، ٦٥/١-٧٠؛ ومعرفة القرّاء الكبار للذهبي، ص ١٤.

«﴿ٱهۡدِنَا﴾: ثبِّتْنا».[١] ولفظ "الهداية" على الوجه الأخير مجاز قطعًا. وأمّا على الأوّل؛ فإن اعتُبر مفهوم الزيادة داخلًا في المعنى المستعمَل فيه، كان مجازًا أيضًا، وإن اعتُبر خارجًا عنه مدلولًا عليه بالقرائن، كان حقيقةً؛ لأنّ الهداية الزائدة هداية، كما أنّ العبادة الزائدة عبادة، فلا يلزَم الجمع بين الحقيقة والمجاز.

وقُرئ: "أَرْشِدْنَا".[٢]

والصراط: الجادّة. أصله السِّين، قُلبت صادًا لمكان الطاء، كـ"مُصَيطِر" في "مُسَيطِر"، مِن "سرِط الشيءَ" إذا ابتلعه، سُمّيت به لأنّها تسترط السابلةَ[٣] إذا سلكوها، كما سُمّيت لَقَمًا[٤] لأنّها تلتقمهم.[٥] وقد تُشَمّ الصاد صوتَ الزاي تحرّيًا للقُرب مِن المبدَل منه. وقد قُرئ بهنّ جميعًا.[٦] وفُصْحاهنّ إخلاص الصاد، وهي لغة قُريش، وهي الثابتة في الإمام.[٧] وجمعه: "صُرُط"، كـ"كتاب" و"كُتُب". وهو كـ"الطريق" و"السبيل" في التذكير والتأنيث.

والمستقيم: المستوي، والمراد به طريق الحق، وهي الملّة الحنيفيّة السَّمْحة المتوسّطة بين الإفراط والتفريط.

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ بدل مِن الأوّل بدلَ الكلّ. وهو في حكم تكرير العامل مِن حيث إنّه المقصود بالنسبة. وفائدته التأكيد والتنصيص على أنّ طريق

---

١ **زاد المسير** لابن الجوزي، ٢٠/١؛ **الكشّاف** للزمخشري، ١٥/١. وعن عليّ رضي الله عنه فقط في **تفسير السمرقندي**، ٤٣/١.

٢ قراءة شاذّة، أوردها مقاتل بن سليمان في **تفسيره**، ٣٦/١؛ والزمخشري في **الكشّاف**، ١٥/١، ونسباها إلى ابن مسعود.

٣ السابلة: أبناء السبيل المختلفة في الطُرُقات. **الصحاح** للجوهري، «سبل».

٤ اللَّقَم: وسط الطريق. **الصحاح** للجوهري، «لقم».

٥ ي: تلتقم.

٦ قرأ بالسين يعقوب في رواية رُوَيس، وقُرئ بها في بعض طُرُق ابن كثير وأبي عمرو. وقرأ بإشمام الصاد الزايَ حمزة في رواية خلف، واختُلِف في رواية خَلّاد عنه. انظر: **السبعة** لابن مجاهد، ص ١٠٥-١٠٦؛ **والحجّة** لأبي عليّ الفارسي، ٤٩/١؛ **والنشر** لابن الجزري، ٢٧١/١-٢٧١.

٧ أي: المصحف الإمام الذي جمَعَه عثمان بن عفّان رضي الله عنه.

الذين أنعم الله عليهم -وهم المسلمون- هو العَلَم في الاستقامة والمشهودُ له بالاستواء بحيث لا يذهب الوهم عند ذكر الطريق المستقيم إلّا إليه.

وإطلاق "الإنعام" لقصد الشمول، فإنّ نعمة الإسلام عُنوان النِّعَم كلِّها، فمَن فاز بها فقد حازَها بحذافيرها. وقيل: المراد بهم الأنبياء عليهم السلام. ولعلّ الأظهرَ أنّهم المذكورون في قوله عزّ قائلًا: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [النساء، ٦٩/٤] بشهادة ما قبله مِن قوله تعالى: ﴿وَلَهَدَيْنَـٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء، ٦٨/٤]. وقيل: هم أصحاب موسى وعيسى عليهما السلام قبل النَّسْخ والتحريف.

وقُرِئ: "صِرَاطَ مَنْ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ".[1]

والإنعام: إيصال النعمة. وهي في الأصل: الحالة التي يستلذّها الإنسان، مِن "النَّعْمة"، وهي[2] اللِّين، ثمّ أُطلقت على ما يستلذّه النفس مِن طيّبات الدنيا.

ونِعَم الله تعالى -مع استحالة إحصائها- تنحصر[3] أصولها في دُنيويّ وأُخرويّ. والأوّل قسمان: وهبيّ وكسبيّ. والوهبيّ أيضًا قسمان: رُوحانيّ، كنفخ الروح فيه وإمدادِه بالعقل وما يتبَعه مِن القُوى المدرِكة، فإنّها مع كونها مِن قَبيل الهدايات نِعَمٌ جليلة في أنفسها، وجُسمانيّ، كتخليق البَدن والقُوى / الحالّة فيه والهيئاتِ العارضة له مِن الصحّة وسلامة الأعضاء. والكسبيّ تخلية النفس عن الرذائل، وتحليتُها بالأخلاق السَّنيّة والملكات البهيّة، وتزيينُ البَدن بالهيئات المطبوعة والحِلى المَرْضيّة، وحصولُ الجاه والمال. [٧ظ]

والثاني[4] مغفرة ما فرَط منه، والرضى عنه، وتَبوِئته في أعلى عِلِّيِّين مع المقرَّبين. والمطلوب هو القِسم الأخير وما هو ذريعة إلى نَيله مِن القِسم الأوّل. اللّٰهمّ ارزقْنا ذلك بفضلك العظيم ورحمتك الواسعة.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن عمر بن الخطّاب وابن مسعود وابن الزبير وزيد بن عليّ رضي الله عنهم. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٩/١.

[2] أي: "النَّعْمة" بفتح النون.

[3] ي: ينحصر.

[4] وفي هامش ي أ: أي: الأخرويّ. «منه».

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ صفة للموصول على أنّه عبارة عن إحدى الطوائف المذكورة المشهورة بالإنعام عليهم وباستقامة المسلك. ومِن ضرورة هذه الشُّهرة شُهرتُهم بالمغايرة لِما أضيفَ إليه كلمة ﴿غَيْرِ﴾ مِن المتّصِفين بضِدَّي الوصفَين المذكورَين، أعني: مطلَق ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾، فاكتسب بذلك تعرّفًا مصحِّحًا لوقوعها صفةً للمعرفة، كما في قولك: "عليك بالحركة غيرِ السكون". وُصفوا بذلك تكملةً لِما قبله، وإيذانًا بأنّ السلامة ممّا ابتُلي به أولئك نعمةٌ جليلةٌ في نفسها، أي: الذين جمعوا بين النعمة المطلقة التي هي نعمة الإيمان ونعمةُ السلامة مِن الغضب والضلال.

وقيل: المراد بالموصول طائفة مِن المؤمنين، لا بأعيانهم، فيكون بمعنى النَّكِرة كذِي اللام إذا أُريد به الجنس في ضِمن بعض الأفراد، لا بعَينه، وهو المسمّى بالمعهود الذهنيّ،[1] وبـ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ اليهود والنصارى، كما ورد في **مسند أحمدَ والترمذي**.[2] فيبقى لفظ ﴿غَيْرِ﴾ على إبهامه نكِرةً مثلَ موصوفه. وأنت خبير بأنّ جعل الموصول عبارةً عمّا ذُكر مِن طائفة غيرِ معيَّنة مُخلٌّ ببَدَليّة ما أُضيفَ إليه ممّا قبله؛ فإنّ مدارها كون صراط المؤمنين عَلَمًا في الاستقامة مشهودًا له بالاستواء على الوجه الذي تحقّقتَه فيما سلف. ومِن البيّن أنّ ذلك مِن حيث إضافتُه وانتسابُه إلى كلّهم، لا إلى بعضٍ مبهم منهم. وبهذا تبيَّنَ ألّا سبيلَ إلى جعل ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ بدلًا مِن الموصول لِما عرفتَ مِن أنّ شأن البدل أن يُفيد متبوعه مزيدَ تأكيد وتقرير وفضلَ إيضاح وتفسير. ولا ريبَ في أنّ قُصارى أمرِ ما نحن فيه أن يكتسيَ[3] ممّا أُضيف إليه نوعَ تعرّف مصحِّحٍ لوقوعه[4] صفةً للموصول. وأمّا استحقاق أن يكون مقصودًا بالنسبة مفيدًا لِما ذُكر مِن الفوائد، فكَلّا.

---

[1] العهد الذهنيّ: هو الذي لم يُذكَر قبله شيء وأخَذَ لامَ التعريف، فهو نكرة مِن جهة المعنى ومعرفة مِن جهة اللفظ. وفي تصنيفه خلاف بين المحققِين. انظر: **الكلّيّات** للكَفَوي، ص ٦٤١، ١٠١٥؛ و**كشّاف اصطلاحات الفنون** للتهانوي، ١٥٨٧/٢-١٥٨٩.

[2] **مسند أحمد**، ١٢٣/٣٢-١٢٤ (١٩٣٨١)، ٤٦٠/٣٣ (٢٠٣٥١)؛ **سنن الترمذي**، ٢٠١/٥-٢٠٤ (٢٩٥٣، ٢٩٥٤).

[3] ي: تكتسي. | هو مضارع مِن "اكتسى" في كلّ الأصول الخطّيّة، وفي مطبوعاته: يكتسب.

[4] ي: لوقوع.

وقُرئ بالنصب[١] على الحال، والعامل ﴿أَنْعَمْتَ﴾، أو على المدح، أو على الاستثناء إن فُسّر النِّعَم بما يعُمّ القبيلَين.

والغضب: هَيَجان النفس لإرادة الانتقام. وعند إسناده إلى الله سبحانه يُراد به غايته بطريق إطلاق اسم السبب بالنسبة إلينا على مسبَّبه القريب، إن أُريدَ به إرادة الانتقام، وعلى مسبَّبه البعيد، إن أريدَ به نفس الانتقام. ويجوز حمل الكلام على التمثيل بأن يشبَّهَ الهيئة المنتزعة مِن سخَطه تعالى للعُصاة وإرادةُ الانتقام منهم لمعاصيهم بما يُنتزع مِن حال الملِك إذا غضِب على الذين عصَوْه وأراد أن ينتقم منهم ويعاقبَهم.

﴿عَلَيْهِمْ﴾ مرتفِع بـ﴿الْمَغْضُوبِ﴾، قائمٌ مَقامَ فاعله.

والعُدول عن إسناد الغضب إليه تعالى كالإنعام جريٌ على منهاج الآداب التنزيليّة في نسبة النِّعَم والخيرات إليه عزّ وجلّ دُون أضدادها، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝ وَالَّذِي هُوَ[٢] يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۝ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء، ٢٦/٧٨-٨٠]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن، ٧٢/١٠].

و﴿لَا﴾ مزيدة لتأكيدِ ما أفاده ﴿غَيْرِ﴾ مِن معنى النفي، كأنّه قيل: لا المغضوبِ عليهم ولا الضالّين؛ ولذلك جاز "أنا زيدًا غيرُ ضارب" جوازَ "أنا زيدًا لا ضارب"، وإن امتنع "أنا زيدًا مثلُ ضارب".

والضلال: هو العُدول عن الصراط السَّوِيّ.

وقُرئ: "وَغَيْرِ الضَّالِّينَ".[٣] وقُرئ: "وَلَا الضَّأْلِينَ"[٤] بالهمزة على لغة مَن جدَّ في الهرَب عن التقاء الساكنَين.

---

[١] لم يقرأ بها أحد مِن العشرة؛ إلّا أنّه اختُلف عن ابن كثير، فروى عنه الجرَّ الخليلُ بن أحمد. السبعة لابن مجاهد، ص ١١١-١١٢؛ النشر لابن الجزري، ١/٤٧.

[٢] ط س ي - هو.

[٣] قراءة شاذّة، أوردها الثعلبي في الكشف والبيان، ١/١٢٣؛ والزمخشري في الكشّاف، ١/١٧، ونسباها إلى عمر بن الخطّاب وعليّ بن أبي طالب.

[٤] قراءة شاذّة، أوردها الزمخشري في الكشّاف، ١/١٧؛ وأبو حيّان في البحر المحيط، ١/٥٢، ونسباها إلى أيّوب السختياني.

«آمِينَ»: اسم فعلٍ، هو: استجِبْ. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «سألتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن معنى "آمِين"، فقال: افعَلْ».[١] بُني على الفتح، كـ"أينَ" لِالتقاء الساكنَين. وفيه لغتان: مدُّ ألِفه وقصرُها. قال:

ويـــرحَـــمُ اللهُ عـــبــدًا قـــال آمــيــنَــا[٢]

وقال:

أمـــيـــنَ فـــزاد اللهُ مـــا بـيـنـنـا بُـعـدا[٣]

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «لقّنَني جبريلُ[٤] "آمينَ" عند فراغي مِن قراءة فاتحة الكتاب، وقال: إنّه كالختم على الكتاب».[٥]

وليست مِن القرآن وِفاقًا؛ ولكنْ يُسنّ ختم السورة الكريمة بها. والمشهور عن أبي حنيفةَ رحمه الله أنّ المصلّيَ يأتي بها[٦] مُخافتةً، وعنه أنّه لا يأتي بها الإمام؛ لأنّه الداعي. وعن الحسن[٧] رحمه الله[٨] مثلُه. ورَوى الإخفاءَ

---

١ الكشّاف للزمخشري، ١٧/١. وهو باختلاف يسير في تفسير السمرقندي، ٤٤/١؛ والكشف والبيان للثعلبي، ١٢٥/١.

٢ عجز بيت، صدره:

يا ربِّ لا تَسلُبَنِّي حُبَّها أبدًا

وهو لقيس بن الملوّح في ديوانه، ص ٢١٩، ولعُمَرَ بن أبي ربيعة في لسان العرب لابن منظور، «أمن»، وبلا نسبة في إصلاح المنطق لابن السكّيت، ص ١٣٥؛ وتهذيب اللغة للأزهري، ٣٦٨/١٥ «باب النون والميم»؛ والصحاح للجوهري، «أمن»؛ والحَماسة البصريّة لأبي الحسن البصري، ٢٢٩/٢.

٣ عجز بيت، صدره:

تباعَدَ عنّي فُطحُلٌ إذ سألتُه

وهو لأبي العبّاس أحمد بن يحيى في الزاهر للأنباري، ٦٦/١، ولجُبير بن الأضبَط في تاج العروس للزبيدي، ١٨٢/٣٠ «فطحل»، وبلا نسبة في تهذيب اللغة للأزهري، ٣٦٧/١٥ «باب النون والميم»؛ والمحكم لابن سِيده، ٧٠/٤ «الحاء والطاء».

٤ ي + عليه السلام.

٥ لم نعثُر عليه بهذه الألفاظ في كُتب الحديث، إلّا بألفاظ قريبة في نوادر الأصول للحكيم الترمذي، ١٩٨/٣. الظاهر أنّ المصنّف نقلها مِن الكشّاف للزمخشري، ١٨/١. وقال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشّاف، ٢٧/١-٢٨: «قلتُ: غريب بهذا اللفظ، وبمعناه ما رواه ابن أبي شيبة في مصنّفه [٤٢٥/٢ (٨٠٤٤)] في كتاب الدعاء: ثنا وكيع، ثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي ميسرة أنّ جبريل أقرأ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فاتحةَ الكتاب، فلمّا قال: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، قال له: قُلْ: "آمين"، فقال: آمين. انتهى».

٦ ي - بها.

٧ أي: الحسن البصري.

٨ ي - رحمه الله.

عبدُ الله بن مُغفَّل[١] وأنس بنُ مالك عن النبيّ صلّى الله عليه سلّم.[٢] وعند الشافعي يُجهَر بها لِما رَوى وائل بن حُجْر[٣] أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان إذا قرأ ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: «آمينَ»، ورفع بها صوتَه.[٤]

[٨و] عن رسول الله[٥] / صلّى الله عليه وسلّم أنّه[٦] قال لأبيّ بن كعب: «ألَا أُخبرك بسورةٍ لم ينزل في التوراة والإنجيل والقرآن مثلها؟»، قلتُ: «بلى، يا رسول الله»، قال: «فاتحة الكتاب؛ إنّها السبع المثاني والقرآنُ العظيم الذي أُوتيتُه».[٧] وعن حُذيفة بن اليمان[٨] أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «إنّ القوم

---

١ هو عبد الله بن مغفَّل بن عبد غنم المُزَني، أبو سعيد (ت. ٦٠هـ/٦٧٩م [؟]). مِن أصحاب النبيّ عليه السلام. سكن المدينة، ثمّ تحوّل إلى البصرة. وكان مِن البكّائين الذين أنزل الله عزّ وجلّ فيهم: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة، ٩٢/٩]. رَوى عنه جماعة مِن التابعين بالكوفة والبصرة، وأروى الناسِ عنه الحسن البصري. انظر: **الاستيعاب** للنَّمَري، ٩٩٦/٣-٩٩٧؛ و**أُسد الغابة** لابن الأثير، ٣٩٥/٣.

٢ ذكره الزمخشري في **الكشّاف**، ١٨/١. وقال ابن حجر في **الكافي الشاف**، ص ٣ (٩): «لم أجده عن واحد منهما».

٣ هو وائل بن حُجْر بن سعد بن مسروق الحضرمي (ت. ٥١هـ/٦٧١م [؟]). صحابيّ. كان بقيّةَ أولاد الملوك بحَضرمَوت. استعمله النبيّ عليه السلام على أقيال مِن حضرموت، وأقطعه أرضًا، وكتب معه ثلاثة كُتُب، منها: كتاب إلى المهاجر بن أبي أُميّة، وكتاب إلى الأقيال والعباهلة. رَوى عن النبيّ عليه السلام أحاديثَ. ورَوى عنه كُليب بن شهاب الجَرْمي وأمّ يحيى زوجته، وابناه: علقمة وعبد الجبّار، وغيرهما. انظر: **الاستيعاب** للنَّمَري، ١٥٦٢/٤-١٥٦٣؛ و**أُسد الغابة** لابن الأثير، ٤٠٥/٥.

٤ **سنن الدارمي**، ٧٩٤/٢ (١٢٨٣)؛ **سنن أبي داود**، ١٩٥/٢ (٩٣٢). ونحوه عنه في **مسند أحمد**، ١٣٦/٣١ (١٨٨٤٢)؛ و**سنن الترمذي**، ٢٨/٢ (٢٤٨).

٥ ي: النبيّ.

٦ ي - أنّه.

٧ **مسند أحمد**، ٢٠/٣٥-٢١ (٢١٠٩٥)؛ **سنن الترمذي**، ١٥٥/٥ (٢٨٧٥)، كلاهما معنًى. والألفاظ مِن **الكشّاف** للزمخشري، ١٩/١. وهو عن أبي سعيد بن المعلّى في **صحيح البخاري**، ١٧/٦ (٤٤٧٤)، ٨١/٦ (٤٧٠٣).

٨ ي: اليماني. | هو حُذيفة بن حُسَيل بن جابر العَبْسي، أبو عبد الله (ت. ٣٦هـ/٦٥٦م). مِن كِبار الصحابة. كان معروفًا في الصحابة بـ"صاحب سرّ رسول الله" صلّى الله عليه وسلّم. بعثه النبيّ عليه السلام يومَ الخَندق ينظر إلى قريش، فجاءه بخبر حِيَلهم. وكان عمر ينظر إليه عند موت مَن مات منهم، فإن لم يشهد جنازته حذيفة لم يشهدها عمر. وكان فتحُ همذان والريّ والدينور على يده. قُتل ابناه صفوان وسعيد بصِفِّين، وكانا قد بايعَا عليًّا بوصيّة أبيهما إيّاهما بذلك. انظر: **الاستيعاب** للنَّمَري، ٣٣٤/١-٣٣٥.

لَيبعث الله عليهم العذابَ[١] حتمًا مَقضيًّا، فيقرأ صبيّ مِن صِبيانهم في الكُتّاب ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، فيسمعه[٢] الله تعالى، فيرفع عنهم بذلك العذابَ أربعين سنةً».[٣]

---

١ ي – العذاب.

٢ وفي هامش أ: أي: يرضى. «منه».

٣ قال ابن حجر في الكافي الشاف، ص ٣ (١٢): «أخرجه الثعلبي مِن رواية أبي معاوية عن أبي مالك عن أشجعي عن ربعيّ عنه. قلتُ: إلّا أنّ دون أبي معاوية مَن لا يُحتجّ به. وله شاهد في مسند الدارمي عن ثابت بن عَجْلان قال: "كان يقال: إنّ الله لَيريد العذابَ بأهل الأرض، فإذا سمع تعليمَ الصِّبيان بالحكمة صرَفَ ذلك عنهم"، يعني بالحكمة القرآنَ». انظر: مسند الدارمي، ٢١٠٧/٤ (٣٣٨٨)؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٩٠/١؛ والكشّاف للزمخشري، ١٩/١.

سورة البقرة

مدنيّة، وهي[1] مئتان وسبع وثمانون آيةً كوفيّةً.[2]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾

﴿الٓمٓ﴾ الألفاظ التي يعبَّر بها عن حروف المعجَم التي مِن جملتها المقطَّعات المرقومة في فواتح السُّوَر الكريمة أسماءٌ لها لاندراجها تحت حدّ الاسم. ويشهَد به ما يعتريها مِن التعريف والتنكير والجمع والتصغير وغير ذلك مِن خصائص الاسم. وقد نصّ على ذلك أساطين أئمّة العربيّة. وما وقع في عبارات المتقدِّمين مِن التصريح بحرفيّتها محمولٌ على المسامحة.

وأمّا ما رُوي عن ابن مسعود رضي الله عنه مِن أنّه صلّى الله عليه وسلّم قال: «مَن قرأ حرفًا مِن كتاب الله تعالى فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها؛ لا أقول: ﴿الٓمٓ﴾ حرفٌ؛ بل ألِفٌ حرف، ولام حرف، وميم حرف»[3] -وفي رواية الترمذي والدارمي: «لا أقول: ﴿الٓمٓ﴾ حرف، ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ حرف؛ ولكن الألف حرف، واللام حرف، والميم حرف، والذال حرف، والكاف حرف»-[4] فلا تعلّقَ له بما نحن فيه قطعًا؛ فإنّ إطلاق الحرف على ما يقابِل الاسمَ والفعلَ عُرف جديد اخترعه أئمّة الصناعة، وإنّما الحرف عند الأوائل ما يتركّب منه الكَلِم مِن الحروف المبسوطة. وربّما يُطلَق على الكلمة أيضًا تجوّزًا؛ فأريدَ بالحديث الشريف

---

[1] س: وآيها.

[2] س ي - كوفيّة. | أي: على عدّ الكوفيّين.

[3] سنن الترمذي، ١٧٥/٥ (٢٩١٠). وهو باختلاف يسير في شعب الإيمان للبيهقي، ٣٧٠/٣-٣٧١ (١٨٣٠).

[4] لم نقف عليها بهذه الألفاظ في سنن الترمذي وسنن الدارمي. أمّا رواية الترمذي ما نقلها المصنّف أوّلًا. وأمّا رواية الدارمي فهي عن ابن مسعود موقوفًا: «تعلّموا هذا القرآن، فإنكم تُؤجَرون بتلاوته بكلّ حرف عشرَ حسناتٍ؛ أمَا إنّي لا أقول بـ﴿الٓمٓ﴾، ولكنْ بألِفٍ ولامٍ وميمٍ بكلّ حرف عشرَ حسناتٍ».

دفعُ توهّم التجوّز وزيادةُ تعيين إرادة المعنى الحقيقيّ ليتبيّنَ بذلك أنّ الحسنة الموعودة ليست بعدد الكلمات القرآنيّة؛ بل بعدد حروفها المكتوبة في المصاحف، كما يلوّح به ذكرُ "كتاب الله" دون "كلام الله" أو "القرآن".

وليس هذا مِن تسمية الشيء باسم مدلوله في شيء كما قيل؛[١] كيف لا، والمحكوم عليه بالحرفيّة واستتباعِ الحسنة إنّما هي المسمَّيات البسيطة الواقعة في كتاب الله عزّ جلّ، سواء عُبّر عنها بأسمائها أو بأنفسها، كما في قولك: "السين مهمَلة، والشين معجَمة مثلَّثة" وغير ذلك ممّا لا يصدُق المحمولُ إلّا على ذات الموضوع؛ لا أسماؤها المؤلَّفة، كما إذا قلتَ: "الألِف مؤلَّف مِن ثلاثة أحرُف"، فكما أنّ الحسناتِ في قراءة قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ بمقابلة حروفه البسيطة[٢] وموافِقةٌ لعددها، كذلك في قراءة قوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ بمقابلة حروفه الثلاثة المكتوبة وموافِقةٌ لعددها؛ لا بمقابلة أسمائها الملفوظة والألِفَاتِ الموافقة في العدد، إذ الحكم بأنّ كلًّا منها حرف واحد مستلزِم للحكم بأنّه مستتبِع لحسنة واحدة، فالعبرة في ذلك بالمعبَّر عنه دون المعبَّر به.

ولعلّ السرَّ فيه أنّ استتباع الحسنة مَنوط بإفادة المعنى المراد بالكلمات القرآنيّة؛ فكما أنّ سائر[٣] الكلمات الشريفة لا تفيد معانيها إلّا بتلفّظ حروفها بأنفسها، كذلك الفواتح المكتوبة لا تفيد المعاني المقصودة بها إلّا بالتعبير عنها بأسمائها، فجُعل ذلك تلفّظًا بالمسمَّيات كالقِسم الأوّل مِن غير فرق بينهما. ألَا يُرى إلى ما في الرواية الأخيرة مِن قوله عليه السلام: «والذال حرف، والكاف حرف» كيف عَبّر عن طرفَي ﴿ذَٰلِكَ﴾ باسمَيهما مع كونهما ملفوظَين بأنفسهما.

ولقد رُوعيتْ في هذه التسمية نكتةٌ رائعةٌ؛ حيث جُعل كلّ مسمًّى -لكونه مِن قبيل الألفاظ- صدرًا لاسمه ليكون هو المفهومَ منه آثِرَ ذي أثير؛[٤] خَلَا أنّ الألف حيث تعذَّر الابتداءُ بها استُعيرت مكانَها الهمزةُ. وهي[٥] معرَبة،

---

١ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٣٣/١.

٢ ي: الحروف البسيطة.

٣ ي - سائر.

٤ أفعلُ هذا آثِرَ ذي أثير، أي: أوّلَ كلّ شيء. الصحاح للجوهري، «أثر».

٥ أي: أسماء الحروف.

إذ لا مناسبةَ بينها وبين مبنيّ الأصل؛ لكنّها ما لم تَلِها العواملُ ساكنةُ الأعجاز على الوقف كأسماء الأعداد وغيرها حين خلت عن العوامل؛ ولذلك قيل: "صادْ" و"قافْ" مجموعًا فيهما بين الساكنَين، ولم يعامَل معاملةَ "أين" و"كيف" و"هؤلاء"، وإن وَلِيَها عاملٌ مسّها الإعرابُ.

وقصرُ ما آخره ألِفٌ عند التهجيّ لابتغاء الخِفّة؛ لا لأنّ وِزانه وزانُ لا تُقصَر تارةً فتكونُ حرفًا وتُمَدّ أخرى فتكونُ اسمًا لها كما في قول حسّان[1] رضي الله عنه:[2]

ما قال لا قطُّ إلّا في تشهّدِه　　لولا التشهّدُ لم تُسمَع له لاءُ[3]

هذا، وقد تكلّموا في شأن هذه الفواتح الكريمة وما أريدَ بها، فقيل: إنّها مِن العلوم المستورة والأسرارِ المحجوبة. رُوي عن الصدّيق رضي الله عنه أنّه قال: «في كلّ كتاب سرٌّ، وسرُّ القرآن أوائلُ السُّوَر»،[4] وعن عليّ رضي الله تعالى عنه: «إنّ لكلّ كتاب صَفوةً، وصفوةُ هذا الكتاب حروف التهجّي»،[5] وعن ابن عبّاس رضي الله تعالى عنهما أنّه قال: «عجِزت العلماء عن إدراكها».[6] وسُئل الشعبي[7] عنها، فقال: «سرٌّ لله[8] عزّ وجلّ، فلا تطلبوه».[9]

---

١ هو حسّان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري، أبو الوليد (ت. ٦٠هـ/٦٨٠م [؟]). شاعر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. رُوي مِن وجوه كثيرة عن أبي هريرة وغيره أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يقول لحسّان: «اهْجُهم -يعني المشركين- وروح القدس معك»، وأنّه صلّى الله عليه وسلّم قال لحسّان: «اللّهمّ أيِّدْه بروح القدس» لمناضلته عن المسلمين. انظر: **الاستيعاب** للنمري، ٢٤١/١-٢٥١؛ **وأسد الغابة** لابن الأثير، ٦/٢-٩.

٢ ي - رضي الله عنه.

٣ ما وجدناه بهذه الرواية مِن شعر حسّان إلّا في **فتوح الغيب** للطيبي، ١٢/٢؛ **والكلّيّات** للكفوي، ص ٩٦٨. والمشهور في روايته:

ما قال لا قطُّ إلّا في تشهّدِه　　لولا التشهّدُ كانت لاءَه نَعَمُ

وهو للفرزدق في ديوانه، ص ٥١٢.

٤ **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٣٦/١؛ **تفسير الرازي**، ٢٥٠/٢؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٥٣/١.

٥ **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٣٦/١؛ **تفسير الرازي**، ٢٥٠/٢.

٦ **تفسير الرازي**، ٢٥٠/٢؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٥٣/١.

٧ هو عامر بن شراحيل بن عبد الشعبي الحِميري، أبو عمرو (ت. ١٠٤هـ/٧٢٢م). تابعيّ. كان ضَئيلًا نحيفًا. وهو مِن رجال الحديث الثقات، سمع مِن عدّة مِن كبار الصحابة، قال الشعبي: إنّه أدرك خمس مائة صحابيّ أو أكثر. وكان فقيهًا شاعرًا. استقضاه عمر بن عبد العزيز. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٢٤٦/٦-٢٥٦؛ **وسير أعلام النبلاء** لابن حجر، ٢٩٤/٤-٣١٩.

٨ ي: سرّ الله.

٩ **تفسير الرازي**، ٢٥٠/٢؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٥٣/١. ونحوه عنه في **المحرّر الوجيز** لابن عطيّة، ٨٢/١.

[٨ظ] / وقيل: إنّها أسماء الله تعالى. وقيل: كلّ حرف منها إشارة إلى اسم مِن أسمائه تعالى أو صفةٍ مِن صفاته تعالى. وقيل: إنّها صفات الأفعال: الألِف آلاؤه، واللام لطفه، والميم مَجده ومُلكه،[١] قاله محمّد بن كعب القُرَظي.[٢] وقيل: إنّها مِن قبيل الحساب. وقيل: الألِف مِن الله تعالى،[٣] واللام مِن جبريلَ، والميم مِن محمّد، أي: أنزل الله الكتاب بواسطة جبريلَ على محمّد. وقيل: هي أقسام مِن الله تعالى بهذه الحروف المعجَمة لشرفها[٤] مِن حيث إنّها أصول اللغات ومبادئُ كُتبه المنزلة ومباني أسمائه الكريمة. وقيل: إشارة إلى انتهاء كلام وابتداءِ كلام آخَرَ.

وقيل، وقيل؛ ولكنّ الذي عليه التعويل إمّا كونها أسماءً للسُّوَر المصدَّرة بها، وعليه إجماعُ الأكثر وإليه ذهب الخليل وسيبويه؛[٥] قالوا: سُمّيت بها إيذانًا بأنّها كلمات عربيّة معروفةُ التركيب مِن مسمَّيات هذه الألفاظ، فلولا أنّه وحيٌ مِن الله عزّ وجلّ[٦] لَما عجزوا عن معارضته.[٧] ويقرُب منه ما قاله الكلبي[٨] والسدّي[٩]

---

[١] ط – وملكه.

[٢] **تفسير الرازي**، ٢/٢٥٣. | هو محمّد بن كعب بن سُليم القُرَظي، أبو حمزة (ت. ١٠٨هـ/ ٧٢٦م [؟]). تابعيّ. سكن الكوفة، ثمّ تحوّل إلى المدينة، فسكنها، واشترى بها مالًا. كان مِن أئمّة التفسير. روى يعقوب بن عبد الرحمن عن أبيه: سمعتُ عون بن عبد الله يقول: «ما رأيتُ أحدًا أعلمَ بتأويل القرآن مِن القُرَظي». انظر: **تهذيب الكمال** للمزّي، ٢٦/٣٤٠-٣٤٧؛ و**سير أعلام النبلاء** لابن حجر، ٥/٦٥-٦٨.

[٣] ط س – تعالى.

[٤] ي: ليشرفها.

[٥] **اللباب** لابن عادل، ١/٢٥٦.

[٦] ي: تعالى.

[٧] وفي هامش ي: فيكون فيه إيماءٌ إلى الإعجاز والتحدّي على سبيل الإيقاظ. | وفي آخر الهامش علامة: [علامة].

[٨] هو محمّد بن السائب بن بشر الكلبي الكوفي، أبو النضر (ت. ١٤٦هـ/٧٦٣م). النسّابة المفسِّر. روى عن الشعبي وجماعة. وروى عنه ابنُه هشام وأبو معاوية. اتُّهِم بالكذب، ورُمي بالرفض. وله مِن التصانيف: تفسير مشهور، وتفسير الآي الذي نزل في أقوام بأعيانهم، وناسخ القرآن ومنسوخه. انظر: **ميزان الاعتدال** للذهبي، ٣/٥٥٦-٥٥٩؛ و**طبقات المفسّرين** للداوودي، ٢/١٤٩.

[٩] هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السدّي الكبير الكوفي، أبو محمّد الأعوَر (ت. ١٢٧هـ/٧٤٥م). تابعيّ مفسّر. روى عن أنس وابن عبّاس وعبد الله البهي وجماعة، وعنه الثوري وأبو بكر بن عيّاش وخلقٌ. ورُمي بالتشيّع. انظر: **ميزان الاعتدال** للذهبي، ١/٢٣٦-٢٣٧؛ و**طبقات المفسّرين** للداوودي، ١/١١٠.

وقتادة[١] مِن أنّها أسماء للقرآن.[٢] والتسمية بثلاثة أسماء[٣] فصاعدًا إنّما تُستنكر في لغة العرب إذا رُكّبت وجُعلت اسمًا واحدًا كما في "حَضْرَمَوت". فأمّا إذا كانت منثورةً فلا استنكارَ فيها.

والمسمَّى هو المجموع، لا الفاتحة فقط حتى يلزَمَ اتّحاد الاسم والمسمَّى. غاية الأمر دخولُ الاسم في المسمَّى، ولا محذورَ فيه، كما لا محذورَ في عكسه حسبما تحقّقتَه آنفًا. وإنّما كُتبت في[٤] المصاحف[٥] صُوَر المسمَّيات دون صُوَر الأسماء؛ لأنّه أدلُّ على كيفيّة التلفّظ بها، وهي أن يكون على نهج التهجّي دون التركيب، ولأنّ فيه سلامةً عن التطويل، لاسيّما في الفواتح الخُماسيّة، على أنّ خطّ المصحف ممّا لا يُناقَش فيه بمخالفة القياس.

وإمّا[٦] كونها مسرودةً على نمط التعديد، وإليه جنح أهل التحقيق؛ قالوا: إنّما وردت هكذا ليكون إيقاظًا لِمَن تُحدِّيَ بالقرآن، وتنبيهًا لهم على أنّه منتظِم مِن عينِ ما ينظمون منه كلامَهم، فلولا أنّه خارجٌ عن طَوْق البَشر نازلٌ مِن عند خلاّق القُوى والقُدَر، لَما تضاءلت قُوّتهم، ولا تساقطت قدرتهم وهم فُرسان حَلْبة الحِوار، وأُمَراء الكلام في نادي الفخار، دُون الإتيانِ بما يُدانيه، فضلًا عن المعارضة بما يُساويه، مع تظاهرهم في المُضادّة والمُضارّة وتهالكِهم على المُعازّة والمُعارّة.

---

[١] هو قتادة بن دِعامة بن قتادة بن عزيز السَّدوسي البصري، أبو الخطّاب (ت. ١١٧هـ/٧٣٥م). تابعيّ مفسّر. وكان ثقةً مأمونًا، حجّةً في الحديث، رأسًا في العربيّة واللغة وأيّام العرب والنَّسب. رَوى تفسيرَه عنه شيبان بن عبد الرحمن التميمي مولاهم النحوي أبو معاوية البصري. حدّث عن عبد الله بن سَرجِس ومُعاذة وخلق، وعنه مِسعَر وابن أبي عروبة وشيبان وشُعبة ومَعمر. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٢٢٩/٧-٢٣١؛ **وطبقات المفسّرين** للداوودي، ٤٧/٢-٤٨.

[٢] **تفسير الرازي**، ٢٥٣/٢؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٥٧/١. وهو عن قتادة فقط في **جامع البيان** للطبري، ١٠٤/١٢ (يونس، ١/١٠)؛ **والكشف والبيان** للثعلبي، ٢٠٥/٦ (مريم، ١/١٩)؛ **والتفسير البسيط** للواحدي، ١٣٥/١٩ (ص، ١/٣٨).

[٣] وفي هامش ي: والمقصود مِن التسمية بها الإيقاظ وقرع العصا. «منه».

[٤] ط س - في.

[٥] ط س: بالمصاحف.

[٦] السياق: إمّا كونها أسماءً للسُّوَر المصدَّرة بها... وإمّا كونها مسرودةً على نمط التعديد...

أو ليكونَ[١] مطلَعُ ما يُتلى عليهم مستقلًّا بضربٍ مِن الغرابة، أنموذجًا لِما في الباقي مِن فنون الإعجاز؛ فإنّ النُّطق بأنفس الحروف في تضاعيف الكلام، وإن كان على طرف الثُّمام[٢] يتناوله الخواصّ والعوامّ مِن[٣] الأعراب والأعجام، لكنّ التلفّظَ بأسمائها إنّما يتأتّى ممّن دَرَس وخطّ، وأمّا ممّن لم يَحُمْ حولَ ذلك قطّ، فأعزُّ مِن بَيض الأَنُوق، وأبعدُ مِن مَناط العَيّوق،[٤] لاسيّما إذا كان على نمط عجيب وأسلوبٍ غريب مُنبئٍ عن سرّ سَرِيّ مبنيّ على نهج عَبقريّ، بحيث يَحار في فهمه أربابُ العقول، ويعجِز عن إدراكه ألبابُ الفُحول. كيف لا، وقد وردت تلك الفواتح في تسعٍ وعشرين سورةً على عدد حروف المعجَم، مشتمِلةً على نِصفها تقريبًا، بحيث ينطوي على أنصاف أصنافها تحقيقًا أو تقريبًا، كما يتّضح عند الفَحص والتنقير حسبما فصّله بعضُ أفاضل أئمّة التفسير.[٥] فسبحان مَن دقّت حكمته مِن أن يطالِعها الأنظارُ، وجلّت قدرته عن أن ينالها أيدي الأفكار.

وإيراد بعضها فُرادى وبعضِها ثُنائيّةً إلى الخُماسيّة جَرْيٌ على عادة الافتنان مع مراعاة أبنية الكَلِم. وتفريقها على السُّوَر -دون إيراد كلّها مرّةً- لذلك، ولِما في التكرير والإعادةِ مِن زيادة إفادةٍ. وتخصيص كلّ منها بسورتها ممّا لا سبيلَ إلى المطالبة بوجهه. وعدُّ بعضها آيةً دون بعضٍ مبنيٌّ على التوقيف البَحْت.

أمّا ﴿الٓمٓ﴾ [البقرة، ١/٢؛ آل عمران، ١/٣؛ العنكبوت، ١/٢٩؛ الروم، ١/٣٠؛ لقمان، ١/٣١؛ السجدة، ١/٣٢] فآيةٌ حيثما وقَعتْ، وقيل: في آل عمرانَ ليست بآية. و﴿الٓمٓصٓ﴾ [الأعراف، ١/٧] آية، و﴿الٓمٓر﴾ [الرعد، ١/١٣] لم تُعَدَّ آيةً، و﴿الٓر﴾ [يونس، ١/١٠؛ هود، ١/١١؛ يوسف، ١/١٢؛ إبراهيم، ١/١٤؛ الحجر، ١/١٥] ليست بآية في شيء

---

[١] السياق: إنّما وَردت هكذا ليكون إيقاظًا... أو ليكون...

[٢] ي: التمام. | تقول العرب للشيء الذي لا يعسر تناوله: "هو على طرف الثُّمام"، وذلك أنّ الثُّمام لا يطول فيشقّ تناوله. **تهذيب اللغة** للأزهري، ٥٢/١٥ «باب الثاء والميم».

[٣] ي - مِن.

[٤] هما مَثلان يُضرَبان لتأكيد بُعد الشيء وما لا يُنال. والأَنُوق: الرَّخَمة، تبيض في أعالي الجبال، فلا يُوصَل إلى بَيْضها. والعَيُّوق: كوكب يطلُع مع الثُّريّا. انظر: **جمهرة الأمثال** للعسكري، ٦٤/٢؛ و**مجمع الأمثال** للميداني، ١١٥/١.

[٥] انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٢٩/١-٣٠؛ و**أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٣/١-٣٤.

مِن سُوَرِها الخمس، و﴿طسٓمٓ﴾ [الشعراء، ١/٢٦؛ القصص، ١/٢٨] آية في سورتَيها، و﴿طه﴾ [طه، ١/٢٠] و﴿يسٓ﴾ [يس، ١/٣٦] آيتان، و﴿طسٓ﴾ [النمل، ١/٢٧] ليست بآية، و﴿حمٓ﴾ [غافر، ١/٤٠؛ فصلت، ١/٤١؛ الشورى، ١/٤٢؛ الزخرف، ١/٤٣؛ الدخان، ١/٤٤؛ الجاثية، ١/٤٥؛ الأحقاف، ١/٤٦] آية في سُوَرها كلِّها، و﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم، ١/١٩] آية، و﴿حمٓ ۞ عٓسٓقٓ﴾ [الشورى، ١/٤٢-٢] آيتان، و﴿صٓ﴾ [ص، ١/٣٨] و﴿قٓ﴾ [ق، ١/٥٠] و﴿نٓ﴾ [القلم، ١/٦٨] لم تُعَدَّ واحدةٌ منها آيةً. هذا على رأي الكوفيّين. وقد قيل: إنّ جميع الفواتح آياتٌ عندهم في السُّوَر كلِّها بلا فرق بينها. وأمّا مَن عَداهم فلم يعُدّوا شيئًا منها آيةً.

ثمّ إنّها على تقدير كونها مسرودةً على نمط التعديد لا تُشَمّ رائحةَ الإعراب، ويُوقَف عليها وقفَ[١] التمام، وعلى تقدير كونها أسماءً للسُّوَر أو للقرآن كان لها حظٌّ منه؛ إمّا الرفع على الابتداء أو على الخبريّة، وإمّا النصب بفعل مضمَر كما ذُكر، أو بتقدير فعل القَسم على طريقة "اللهَ لأفعلنَّ"، وإمّا الجرّ بتقدير حرفه[٢] حسبما يقتضيه المقام ويستدعيه النظام. ولا وقفَ فيما عدا الرفعَ على الخبريّة. والتلفّظ بالكلّ على وجه الحكاية ساكنة الأعجاز، إلّا أنّ ما كانت منها مفرَدةً مثلُ: ﴿صٓ﴾ و﴿قٓ﴾ و﴿نٓ﴾، يتأتّى فيها الإعرابُ اللفظيّ أيضًا. وقد قُرئت بالنصب[٣] على إضمار فعل، أي: اذكرْ أو اقرأْ صادَ وقافَ ونونَ،[٤] وإنّما لم تُنوَّن لامتناع الصرف.

وكذا ما كانت منها موازنةً لمفرد، نحو: ﴿حمٓ﴾ و﴿يسٓ﴾ و﴿طسٓ﴾ الموازنةِ لـ"قابيلَ" و"هابيلَ"، حيث أجاز سيبويه فيها مثلَ ذلك؛ قال في باب "أسماء السُّوَر" مِن كتابه: «وقد قرأ بعضهم: "ياسينَ والقرآنِ"، و"قافَ والقرآنِ"، فكأنّه جعله

---

[١] ي - وقف.

[٢] على طريقة "اللهِ لأفعلنّ".

[٣] أي: "صَادَ" و"قَافَ" و"نُونَ"، قراءة شاذّة، ذكرها الزجّاج في **معاني القرآن**، ١/٦٤؛ والقرطبي في تفسيره، ١٥/١٤٣ (ص، ١/٣٨)، ونسباها إلى عيسى بن عمر.

[٤] وفي هامش ي: وقيل: هو فتح لالتقاء الساكنَين، وليس نصب. وقال الزمخشري: «الأوجَهُ أنْ يقال: ذاك نصب، وليس بفتح، وإنمّا لم يصحَبه التنوين لامتناع الصرف، وانتصابُها بفعل مضمر نحو: اذكر». «منه». | انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ١/٢٣.

[٩و] / اسمًا أعجميًا، ثمّ قال: اذكرْ ياسينَ» انتهى.[١] وحكى السِّيرافي[٢] أيضًا عن بعضهم قراءةَ "يَاسِينَ".[٣]

ويجوز أن يكون ذلك في الكلّ تحريكًا لالتقاء الساكنَين. ولا مساغَ للنصب بإضمار فعل القَسم؛ لأنّ ما بعدها مِن "القرآن" و"القلم" محلوفٌ بهما، وقد استكرهوا الجمع بين قَسَمين على مقسَم عليه واحدٍ قبل انقضاء الأوّل. وهو السرّ في جعل ما عدا الواوَ الأولى في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ [الليل، ٩٢/١-٣] عاطفةً. ولا مجالَ للعطف ههنا للمخالفة بين الأوّل والثاني في الإعراب. نعم، يجوز ذلك بجعل الأوّل مجرورًا بإضمار "الباء" القَسميّة، مفتوحًا لكونه غيرَ منصرِف.

وقُرئ: "صَادِ" و"قَافِ" بالكسر[٤] على التحريك لالتقاء الساكنَين. ويجوز في "طا سِينَ ميم" أن تُفتَح نونها وتُجعَلَ مِن قبيل "دَارَابْجِرْدَ"،[٥] ذكره سيبويه في كتابه.[٦] وأمّا ما عدا ذلك مِن الفواتح فليس فيها إلّا الحكاية. وسيجيء تفاصيل سائر أحكام كلٍّ منها مشروحةً في مواقعها بإذن الله عزّ سلطانُه.

---

١ الكتاب لسيبويه، ٣/٢٥٨.

٢ هو الحسن بن عبد الله بن المَرزُبان السيرافي، أبو سعيد (ت. ٣٦٨هـ/٩٧٩م). لغويّ. كان أبوه مجوسيًا. وكان قد ولي القضاء على بعض الأرباع ببغداد. ذُكر عنه الاعتزال، وقيل إنّه لم يظهر عنه شيء مِن ذلك. وذكر رئيس الرؤساء أبو القاسم عليّ بن الحسن أنّ أبا سعيد كان يدرس القرآن والقراءات وعلوم القرآن والنحو واللغة والفقه والفرائض والشعر والعروض والقوافي والحساب، وذكرَ علومًا سوى هذه. وكان مِن أعلم الناس بنحو البصريّين. وكان زاهدًا يأكل مِن كسب نفسه، نزيهًا عفيفًا، جميلَ الطريقة حسنَ الأخلاق. وصنّف تصانيفَ كثيرةً؛ أشهرها شرح كتاب سيبويه، ولم يَشرح كتاب سيبويه أحد أحسن منه. انظر: **طبقات النحويّين واللغويّين** للزبيدي، ص ١١٩-١٢٠؛ **ونزهة الألبّاء** للأنباري، ص ٢٢٧-٢٢٩؛ **ومعجم الأدباء** للحَموي، ٢/٨٧٦-٩١٠.

٣ **شرحُ كتاب سيبويه** للسيرافي، ٤/٢٢٦؛ **الكشّاف** للزمخشري، ١/٢٤. وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي إسحاق وابن أبي عَبلة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٩٨.

٤ كلاهما قراءة شاذّة، الأُولى مرويّة عن أبيّ بن كعب وابن أبي إسحاق والحسن، والثانيةُ عن الثقفي. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٠٩، ٤٤٦.

٥ دَارَابْجِرْدَ: كُورة بفارس، بينها وبين شِيراز مائة وخمسون مِيلًا. بناها دارا بن بهمن بن اسبنديار، ونسبها إلى نفسه. انظر: **الروض المِعطار** للحِميَري، ص ٢٣٤. وقد تُسقَط الألف الأولى منها كما في مطبوع **معجم البلدان** للحَمَوي، ٢/٤٤٦.

٦ قال سيبويه في كتابه، ٣/٢٥٨: «وأمّا ﴿طسٓمٓ﴾، فإنْ جعلتَه اسمًا لم يكن بدٌّ مِن أنْ تحرّكَ النونَ، وتصيّرَ ميمًا كأنّك وصلتَها إلى "طاسينَ"، فجعلتَها اسمًا واحدًا بمنزلة "دَرَابَجِرْدَ" و"بَعْلَبَكَّ"، وإنْ شئتَ حكيتَ وتركتَ السواكن على حالها».

أمّا هذه الفاتحة الشريفة، فإن جُعلت اسمًا[1] للسورة أو للقرآن فمحلّها الرفع، إمّا على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: هذا الم، أي: مسمًّى به، وإنّما صَحّت الإشارة إلى القرآن بعضًا أو كلًّا مع عدم سَبْق ذكره؛ لأنّه باعتبار كونه بصدد الذكر صار في حكم الحاضر المشاهَد، كما يقال: "هذا ما اشترى فلان"، وإمّا على أنّه مبتدأ، أي: المسمَّى به. والأوّل هو الأظهر؛ لأنّ ما يُجعَل عنوانَ الموضوع حقُّه أن يكون قبل ذلك معلومَ الانتساب إليه عند المخاطَب؛ وإذ لا علم بالتسمية قبلُ، فحقّها الإخبارُ بها. وادّعاء شُهرتها يأباه التردّد في أنّ المسمَّى هي[2] السورة أو كلّ القرآن.

﴿ذَٰلِكَ﴾ "ذا": اسم إشارة، و"اللام" عِمادٌ جِيءَ به للدلالة على بُعد المشار إليه، و"الكاف" للخطاب. والمشار إليه هو المسمَّى، فإنّه منزَّل منزلةَ المشاهَد بالحسّ البصري. وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العهد بالمشار إليه للإيذان بعُلوّ شأنه وكونِه في الغاية القاصية مِن الفضل والشرف إثرَ تنويهه بذكر اسمه. وما قيل مِن أنّه باعتبار التقضّي أو باعتبار الوصول مِن المُرسِل إلى المُرسَل إليه في حكم المتباعِد، وإن كان مصحِّحًا لإيراده، لكنّه بمَعزِل مِن ترجيحه على إيراد ما وُضع للإشارة إلى القريب.

وتذكيره على تقدير كون المسمَّى هي[3] السورةَ؛ لأنّ المشار إليه هو المسمَّى بالاسم المذكور مِن حيث هو مسمًّى به، لا مِن حيث هو مسمًّى بالسورة. ولئن ادُّعيَ اعتبارُ الحيثيّة الثانية في الأولى بناءً على أنّ التسمية لتمييز السُّوَر بعضِها مِن بعض، فذلك لتذكير ما بعده.

وهو على الوجه الأوّل[4] مبتدأ على حِدَة، وعلى الوجه الثاني[5] مبتدأ ثانٍ. وقوله عزّ وعلا: ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ إمّا خبر له أو صفة. أمّا إذا كان خبرًا له فالجملة على الوجه الأوّل مستأنَفة مؤكِّدة لِما أفاده الجملة الأولى مِن نَباهة شأن المسمَّى،

---

[1] ي: أسماء.

[2] ي: هو.

[3] ي: هو.

[4] وفي هامش ي: هو كون ﴿الٓمٓ﴾ خبرًا لمبتدأ محذوف. «منه».

[5] وفي هامش ي: هو كونه مبتدأً. «منه».

لا محلَّ لها مِن الإعراب، وعلى الوجه الثاني في محلّ الرفع على أنّها[١] خبر للمبتدأ الأوّل، واسم الإشارة مُغنٍ عن الضمير الرابط.[٢]

والكتاب: إمّا مصدر سُمّي به المفعول مبالغةً، كـ"الخَلق" و"التصوير" للمخلوق والمصوَّر، وإمّا "فِعال" بُنِي للمفعول، كـ"اللِّباس". مِن "الكَتْب" الذي هو ضمّ الحروف بعضِها إلى بعض. وأصله الجمع والضمّ في الأمور البادية للحسّ البصري،[٣] ومنه "الكَتيبة" للعسكر، كما أنّ أصل "القراءة" الجمعُ والضمُّ في الأشياء الخافية عليه.

وإطلاق ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ على المنظوم عبارة لِما أنّ مآله الكتابة. والمراد به على تقدير كون المسمّى هي السورةَ جميعُ القرآن الكريم، وإن لم يتمّ تنزيله عند نزول السورة، إمّا باعتبار تحقّقه في علم الله عزّ وجلّ، أو باعتبار ثبوته في اللَّوح، أو باعتبار نزوله جملةً إلى السماء الدنيا حسبما ذُكر في فاتحة الفاتحة.

و"اللام" للعهد، والمعنى: أنّ هذه السورة هو الكتاب، أي: العُمدة القُصوى منه، كأنّه في إحراز الفضل كلُّ الكتاب المعهود، الغنيُّ عن الوصف بالكمال لاشتهاره به فيما بين الكُتب، على طريقة قوله عليه السلام: «الحجّ عَرَفةٌ».[٤] وعلى تقدير كون المسمّى كلَّ القرآن، فالمراد بـ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ الجنسُ، و"اللام" للحقيقة، والمعنى: أنّ ذلك هو الكتاب الكامل الحقيقُ بأن يُخَصّ به اسمُ الكتاب لغاية تفوّقه على بقيّة الأفراد في حِيازة كمالات الجنس، كأنّ ما عَداه مِن الكُتب السماويّة خارجٌ منه بالنسبة إليه، كما يقال: "هو الرجل"، أي: الكاملُ في الرُّجوليّة، الجامعُ لِما يكون في الرجال[٥] مِن مراضي الخِصال، وعليه قولُ مَن قال:

هـم الـقـومُ كـلُّ الـقـومِ يـا أمَّ خـالـدِ[٦]

---

[١] ي: أنّه.

[٢] ي: الرابطة.

[٣] ي: البصر.

[٤] مسند أحمد، ٦٤/٣١ (١٨٧٧٤)؛ سنن ابن ماجة، ٢١٨/٤ (٣٠١٥)؛ سنن الترمذي، ٢٢٨/٣ (٨٨٩)؛ سنن النسائي، ٢٥٦/٥ (٣٠١٦).

[٥] ي: الرجل.

[٦] وفي هامش ي: صدره:

وإنّ الـذي حـانت بفَلْجٍ دماؤهـم

«منه» | البيت للأشهب بن رُميلة النهشلي في المحكم لابن سِيده، ١٠٨/١٠ «الذال واللام والياء»؛ والحماسة البصريّة، ٢٦٩/١؛ ولسان العرب >

فالمدح -كما تَرى- مِن جهة حصر كمال الجنس في فرد مِن أفراده، وفي الصورة الأولى مِن جهة حصر كمال الكلّ في الجزء، ولا مساغَ هناك لحمل ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ على الجنس لِما أنّ فرده المعهود هو مجموع القرآن المقابِلُ لسائر أفراده مِن الكُتب السماويّة، لا بعضُه الذي ينطلق عليه اسم الكتاب باعتبار كونه جزءًا لهذا الفرد، لا باعتبار كونه جزئيًّا للجنس على حِياله، ولأنّ حصر الكمال[1] في السورة مشعِر بنقصان سائر السُّوَر، وإن لم يكن الحصر بالنسبة إليها / لِتحقُّق المغايرة بينهما. هذا على تقدير كون ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ خبرًا لـ﴿ذَٰلِكَ﴾. [٩ظ]

وأمّا إذا كان[2] صفةً له،[3] فـ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، على تقدير كون ﴿الٓمٓ﴾ خبرَ مبتدأ محذوف، إمّا خبرٌ ثانٍ، أو بدلٌ مِن الخبر الأوّل، أو مبتدأ مستقِلّ، خبرُه ما بعده،[4] وعلى تقدير كونه[5] مبتدأً، إمّا خبر له، أو مبتدأ ثانٍ، خبرُه ما بعده،[6] والجملة خبر للمبتدأ الأوّل.

والمشار إليه على كِلا التقديرَين هو المسمّى، سواء كان هي السورةَ أو القرآنَ، ومعنى البُعد ما ذُكر مِن الإشعار بعُلوّ شأنه، والمعنى: ذلك الكتاب العجيبُ الشأنِ البالغُ أقصى مراتبِ الكمال. وقيل: المشار إليه هو الكتاب الموعود، فمعنى البُعد حينئذ ظاهرٌ؛ خَلَا أنّه إن كان المسمّى هي السورةَ ينبغي أن يُراد بالوعد ما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل، ٧٣/٥] كما قيل، وإن كان هو القرآنَ فهو ما في التوراة والإنجيل.

< لابن منظور، «فلج»، وبلا نسبة في كتاب العين للخليل بن أحمد، ٢٠٩/٨ «باب اللفيف مِن الذال»؛ وأمالي ابن الشجري، ٥٧/٣. والحَين بالفتح: الهلاك، وحان الرجل: هلك، ومعنى "حانت دماؤهم": لم يُؤخَذ لهم بديَةٍ ولا قصاصٍ. و"فَلْجٌ" قال أبو عبيد في معجم ما استعجم: «هو موضع في بلاد بني مازن، وهو في طريق البصرة إلى مكّة، وفيه منازلُ للحجّاج»، وقال الزجّاج: «هو ماء لبني العنبر». قال الواحدي: «قولهم "يا أمّ خالد" و"يا ابنةَ القوم" هو مِن عادة العرب بهذا الخطاب للنساء لحثِّهنّ على البُكاء». و"كلُّ القوم" صفة لـ"القوم" دلالةً على كمالهم. انظر: خزانة الأدب للبغدادي، ٢٦/٦.

[1] وفي هامش س ي: كمال الجنس. «منه».

[2] ي: كانت.

[3] أي: لـ﴿الٓمٓ﴾. | والسياق: ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ إمّا خبر له أو صفة. أمّا إذا كان خبرًا له... وأمّا إذا كان صفةً له...

[4] وفي هامش ي: أي: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. «منه».

[5] وفي هامش ي: أي: ﴿الٓمٓ﴾. «منه».

[6] وفي هامش ي: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. «منه».

هذا على تقدير كون ﴿الٓمٓ﴾ اسمًا للسورة أو للقرآن، وأمّا على تقدير كونها مسرودةً على نمط التعديد، فـ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ إمّا خبره أو صفته، والخبر ما بعده على نحو ما سلف، أو يقدَّر مبتدأ، أي: المؤلَّفُ مِن هذه الحروف ذلك الكتابُ.

وقُرِئ: "الٓمٓ. تَنْزِيلُ الكِتَابِ".[١]

وقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ﴾ إمّا في محلّ الرفع على أنّه خبرٌ لـ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ على الصُّوَر الثلاث المذكورة، أو على أنّه خبرٌ ثانٍ لـ﴿الٓمٓ﴾، أو لـ﴿ذَٰلِكَ﴾ على تقدير كون ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ خبرَه، أو للمبتدأ المقدَّر آخِرًا على رأي مَن يجوِّز كونَ الخبر الثاني جملةً، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه، ٢٠/٢٠]، وإمّا في محلّ النصب على الحاليّة مِن ﴿ذَٰلِكَ﴾، أو مِن ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾، والعامل معنى الإشارة، وإمّا جملة مستأنَفة، لا محلّ لها مِن الإعراب، مؤكِّدة لِما قبلها.

وكلمة ﴿لَا﴾ نافية للجنس، مفيدة للاستغراق، عاملة عملَ "إنّ" بحملها عليها لكونها نقيضًا لها ولازمةً للاسم لزومَها، واسمُها مبنيّ على الفتح لكونه مفرَدًا نكِرةً، لا مضافًا ولا شبيهًا به. وأمّا ما ذكره الزجّاج[٢] مِن أنّه معرَب، وإنّما حُذف التنوين للتخفيف،[٣] فممّا لا تعويلَ عليه. وسببُ بنائه تضمّنُه لمعنى "مِن" الاستغراقيّة؛ لا أنّه مركَّب معها تركيبَ "خمسة عشَرَ" كما توّهم. وخبرها محذوف، أي: لا ريبَ موجودٌ، أو نحوُه، كما في قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [هود، ١١/٤٣]. والظرف[٤]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦.

٢ ما وجدناه في معاني القرآن له. | هو إبراهيم بن السّري بن سهل الزجّاج البغدادي، أبو إسحاق (ت. ٣١١هـ/٩٢٣م). مِن أكابر أهل العربيّة. أخذ الأدب عن المبرّد وثعلب. وكان يخرط الزُّجَاج، ثمّ تركه واشتغل بالأدب، فنُسب إليه. وإليه يُنسَب أبو القاسم عبد الرحمن الزجّاجي (ت. ٣٣٧هـ/٩٤٩م) صاحبُ كتاب الجمل في النحو؛ لأنّه كان تلميذَه، وعنه أخذ أبو عليّ الفارسي أيضًا. وصنّف مصنّفاتٍ كثيرةً، منها: كتاب المعاني في القرآن، وكتاب الأمالي، وكتاب الفرق بين المؤنّث والمذكّر، وكتاب ما ينصرف وما لا ينصرف، وكتاب فعلتُ وأفعلتُ، والردّ على ثعلب في الفصيح، إلى غير ذلك. انظر: نزهة الألبّاء للأنباري، ص ١٨٣-١٨٦؛ ووفيات الأعيان لابن خلّكان، ١/٤٩-٥٠.

٣ انظر: الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١/٨٢؛ واللباب لابن عادل، ١/٢٦٥؛

٤ أي: ﴿فِيهِ﴾.

صفة لاسمها، ومعناه نفيُ الكون المطلق وسلبُه عن الريب المفروض في الكتاب، أو الخبرُ هو الظرف، ومعناه سلبُ الكون فيه عن الريب المطلَق، وقد جُعل الخبر المحذوف ظرفًا، وجُعل المذكور خبرًا لِما بعده.

وقُرئ: "لَا رَيْبٌ فِيهِ"[1] على أنّ "لا" بمعنى "ليس". والفرق بينه وبين الأوّل أنّ ذلك موجِب للاستغراق، وهذا مجوِّز له.

والرَّيب في الأصل مصدرُ "رابني" إذا حصل فيك الرِّيبة، وحقيقتها قَلَق النفس واضطرابُها، ثمّ استُعمِل في معنى الشكّ مطلَقًا أو مع تُهمة؛ لأنّه يُقلِق النفسَ ويُزيل الطُّمَأْنينة، وفي الحديث: «دعْ ما يَريبُك إلى ما لا يَريبُك».[2] ومعنى نفيه عن ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ أنّه في عُلوّ الشأن وسطوع البرهان بحيث ليس فيه مَظِنّةُ أن يُرتاب في حقّيّته[3] وكونِه وحيًا منزَّلًا مِن عند الله تعالى؛ لا أنّه لا يَرتاب فيه أحد أصلًا، أَلَا يُرى كيف جُوّز ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾... إلخ [البقرة، ٢٣/٢]، فإنّه في قوّة أن يقال: "وإن كان لكم رَيب فيما نزّلنا" أو "إن ارتبتم فيما نزّلنا"... إلخ؛[4] إلّا أنّه خُولِفَ في الأسلوب، حيث فُرض كونُهم في الريب، لا كونُ الريب فيه، لزيادة تنزيه ساحة التنزيل عنه، مع نوعِ إشعارٍ بأنّ ذلك مِن جهتهم، لا مِن جهته العالية، ولم يُقصَد ههنا ذلك الإشعارُ، كما لم يُقصَد الإشعار بثبوت الريب في سائر الكُتب ليقتضيَ المقامُ تقديم الظرف كما في قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات، ٤٧/٣٧].

﴿هُدًى﴾ مصدر مِن "هَداه"، كـ"السُّرى" و"البُكى". وهو الدلالة بلطف على ما يوصِل إلى البُغية، أي: ما مِن شأنه ذلك. وقيل: هي الدلالة الموصِلة إليها، بدليل وقوع الضلالة في مقابلته في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة، ١٦/٢] وقولِه تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ، ٢٤/٣٤].

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي الشعثاء جابر بن زيد وأبي نهيك والقاسم بن محمّد الآمدي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧.

[2] مسند أحمد، ٢٤٨/٣-٢٤٩ (١٧٢٣)؛ سنن الدارمي، ١٦٤٨/٣ (٢٥٧٤)؛ سنن الترمذي، ٦٦٩/٤ (٢٥١٨)؛ سنن النسائي، ٣٢٧/٨ (٥٧١١).

[3] ي: حقيقته.

[4] ي - إلخ.

ولا شكَّ في أنّ عدم الوصول معتبَر في مفهوم الضلال، فيُعتبر الوصول في مفهوم مقابِله، ومِن ضرورة اعتباره فيه اعتبارُه في مفهوم الهدى المتعدّي؛ إذ لا فرق بينهما إلّا مِن حيث التأثيرُ والتأثّرُ.

ومحصَّله: أنّ الهدى المتعدّيَ هو التوجيه الموصِل؛ لأنّ اللازم هو التوجّه الموصِل بدليل أنّ مقابِله الذي هو الضلال توجّهٌ غيرُ موصِل قطعًا، وهذا -كما ترى- مبنيّ على أمرَين: اعتبارِ الوصول وجوبًا في مفهوم اللازم واعتبارِ وجود اللازم وجوبًا في مفهوم المتعدّي. وكِلا الأمرين بمَعزِل مِن الثبوت.

أمّا الأوّل فلأنّ مدار التقابل بين الهدى والضلال ليس هو الوصولَ وعدمَه على الإطلاق؛ بل هما معتبَران في مفهومَيهما[١] على وجه مخصوص به يتحقّق التقابل بينهما. وتوضيحه: أنّ الهدى لا بدَّ فيه مِن اعتبار توجّهٍ عن علم إلى ما مِن شأنه الإيصالُ إلى البُغية، كما أنّ الضلال لا بدَّ فيه مِن اعتبار الجَوْر عن القصد إلى ما ليس مِن شأنه الإيصالُ قطعًا. / [١٠و] وهذه المرتبة مِن الاعتبار مسلَّمةٌ بين الفريقين، ومحقّقةٌ للتقابل بينهما. وإنّما النِّزاع في أنّ إمكان الوصول إلى البُغية هل هو كافٍ في تحصّل مفهوم الهدى، أو لا بدَّ فيه مِن خروج الوصول مِن القوّة إلى الفعل، كما أنّ عدم الوصول بالفعل معتبَر في مفهوم الضلال قطعًا؟

إذا تقرَّرَ هذا، فنقول: إن أُريدَ باعتبار الوصول بالفعل في مفهوم الهدى اعتبارُه مقارِنًا له في الوجود زمانًا حسب اعتبار عدمه في مفهوم مقابِله، فذلك بيّنُ البُطلان؛ لأنّ الوصول غاية للتوجّه المذكور، فينتهي به قطعًا لاستحالة التوجّه إلى تحصيل الحاصل، وما يبقى بعد ذلك فهو إمّا توجّهٌ إلى الثبات عليه، وإمّا توجّهٌ إلى زيادته، ولأنّ التوجّه إلى المقصد تدريجيٌّ، والوصولَ إليه دفعيٌّ، فيستحيل اجتماعهما في الوجود ضرورةً. وأمّا عدم الوصول فحيث كان أمرًا مستمِرًّا مثلَ ما يقتضيه مِن الضلال وجَبَ مقارنته له في جميع أزمنة وجوده؛ إذ لو فارَقَه في آنٍ مِن آنات تلك الأزمنة لَقارنه في ذلك الآن مقابِلُه الذي هو الوصول، فما فرضناه ضلالًا لا يكون ضلالًا.

---

[١] ط: في مفهومهما.

وإن أُريدَ اعتبارُه مِن حيث إنّه غاية له واجبةُ الترتّب عليه لزِمَ أن يكون التوجّه المقارِنُ لغاية الجِدّ في السلوك إلى ما مِن شأنه الوصولُ عند تخلّفِه عنه لمانع خارجيّ -كاخترام المَنِيّة مثلًا-[١] مِن غير تقصير ولا جَوْرٍ مِن قِبَل المتوجِّه، ولا خللٍ مِن جهة المسلك ضلالًا؛[٢] إذ لا واسطةَ بينهما، مع أنّه لا جَوْرَ فيه عن القصد أصلًا؛ فبطَلَ اعتبار وجوب الوصول في مفهوم اللازم قطعًا، وتبيَّنَ منه عدم اعتباره في مفهوم المتعديّ حتمًا.

وأمّا اعتبار وجود اللازم فيه وجوبًا -وهو الأمر الثاني- فبيانُه مبنيّ على تمهيدِ أصلٍ، وهو أنّ فعل الفاعل حقيقةً هو الذي يصدُر عنه ويتمُّ مِن قِبَله؛ لكنْ لمّا لم يكن له في تحقّقه في نفسه بُدٌّ مِن تعلّقه بمفعوله، اعتُبر ذلك في مدلول اسمه قطعًا. ثمّ لمّا كان له باعتبار كيفيّة صدوره عن فاعله وكيفيّةِ تعلّقه بمفعوله وغيرِ ذلك آثارٌ شتّى، مترتِّبةٌ عليه، متمايِزةٌ في أنفسها، مستقِلّةٌ بأحكام مقتضية لإفرادها بأسماء خاصّة، وعرض له بالقياس إلى كلّ أثر مِن تلك الآثار إضافةٌ خاصّةٌ ممتازةٌ عمّا عداها مِن الإضافات العارضة له بالقياس إلى سائر الآثار،[٣] وكانت تلك الآثارُ تابعةً له في التحقّق، غيرَ منفكّةٍ عنه أصلًا؛ إذ لا مؤثِّرَ لها سوى فاعله، عُدَّت[٤] مِن متمِّماته، واعتُبرت الإضافة العارضة له بحسبها داخلةً في مدلوله، كالاعتماد المتعلِّق بالجسم مثلًا، وُضِع له باعتبار الإضافة العارضة له مِن انكسار ذلك الجسم الذي هو أثرٌ خاصٌّ لذلك الاعتماد اسمُ الكسر، وباعتبار الإضافة العارضة له مِن انقطاعه الذي هو أثرٌ آخَرُ له اسمُ القطع، إلى غير ذلك مِن الإضافات العارضة له بالقياس إلى آثاره اللازمة له. وهذا أمرٌ مطّرِدٌ في آثاره الطبيعيّة.

وأمّا الآثار التي له مدخَل في وجودها في الجملة مِن غير إيجاب لها تترتّب عليه تارةً وتُفارقه أخرى، بحسب وجود أسبابها الموجِبة لها وعدمِها، كالآثار الاختياريّة الصادرة عن مؤثِّراتها بواسطة كونه داعيًا إليها، فحيث[٥] كانت تلك الآثارُ

---

١ ط - مثلا.

٢ خبرُ "يكون".

٣ ط: إلى سائرها.

٤ جوابُ "لمّا".

٥ ط س: فلمّا ["صح" في هامش ط].

مستقلّةً في أنفسها، مستنِدةً إلى مؤثِّراتها، غيرَ لازمة له لزومَ الآثار الطبيعيّة التابعة له، لم تُعَدَّ[١] مِن متمِّماته، ولم تُعتبر الإضافة العارضة له بحسبها داخلةً في مدلوله كالإضافة العارضة للأمر بحسب امتثال المأمور، والإضافةِ العارضة للدعوة[٢] بحسب إجابة المدعوّ، فإنّ الامتثال والإجابة، وإن عُدًّا مِن آثار الأمر والدعوة باعتبار ترتّبهما عليهما غالبًا، لكنّهما حيث كانا فعلَين اختياريَّين للمأمور والمدعوّ، مستقِلَّين في أنفسهما، غيرَ لازمَين للأمر والدعوة، لم يُعَدَّا مِن متمِّماتهما، ولم يعتبر[٣] الإضافة العارضة لهما بحسبهما[٤] داخلةً في مدلول اسم الأمر والدعوة؛[٥] بل جُعِلَا عبارةً عن نفس الطلب المتعلِّق بالمأمور والمدعوّ، سواء وُجِد الامتثالُ والإجابةُ أو لا.

إذا تمهَّدَ هذا، فنقول: كما أنّ الإجابة والامتثال فعلانِ مستقلّان في أنفسهما، صادران عن المدعوّ والمأمور باختيارهما، غيرُ لازمَين للأمر والدعوة لزومَ الآثار الطبيعيّة التابعةِ للأفعال الموجِبة لها -وإن كانا مترتِّبَين عليهما في الجملة- كذلك هُدى المَهديّ -أي: توجُّهُه إلى ما ذُكر مِن المسلَك- فعلٌ مستقلٌّ له، صادرٌ عنه باختياره، غيرُ لازم للهداية -أعني التوجيه إليه- لزومَ ما ذُكر مِن الآثار الطبيعيّة، وإن كان مترتِّبًا عليها في الجملة؛ فلمّا لم يُعَدَّا[٦] مِن متمِّمات الأمر والدعوة، ولم[٧] يُعتبر الإضافةُ العارضةُ لهما بحسبهما داخلةً في مدلولهما، عُلِمَ أنّه لم يُعَدَّ الهدى[٨] مِن متمِّمات الهداية، ولم يُعتبر[٩] الإضافةُ العارضةُ لها[١٠] بحسبه داخلةً في مدلولها.

إن قيل: ليس الهدى بالنسبة إلى الهداية كالامتثال والإجابة بالقياس إلى أصلَيهما،[١١] فإنّ تعلّق الأمر والدعوة[١٢] بالمأمور والمدعوّ لا يقتضي إلّا اتّصافهما

---

١ ط + تلك الآثار.
٢ س: المدعوّة.
٣ ي: تعتبر.
٤ وفي هامش س ي: امتثال وإجابة. «منه».
٥ ط: اسمهما.
٦ وفي هامش ط س ي: أي: الامتثال والإجابة. «منه».
٧ ي: لم.
٨ وفي هامش س: اللازم. «منه».
٩ ي: تعتبر.
١٠ ي: لهما.
١١ ط: إلى الأمر والدعوة.
١٢ وفي ط: "تعلّقهما" مكان "تعلّق الأمر والدعوة".

/ بكونهما مأمورًا ومدعوًّا، وليس مِن ضرورته اتّصافُهما بالامتثال والإجابة، إذ [١٠ظ] لا تلازُمَ بينهما وبين[1] الأوّلَين أصلًا، بخلاف الهدى بالنسبة إلى الهداية، فإنّ تعلّقها بالمهديّ يقتضي اتّصافه به؛ لأنّ تعلّق الفعل المتعدّي المبنيّ للفاعل بمفعوله يدلّ على اتّصافه بمصدره المأخوذ مِن المبنيّ للمفعول قطعًا، وهو مستلزِم لاتّصافه بمصدر الفعل اللازم، وهل هو إلّا اعتبار وجود اللازم في مدلول المتعدّي حتمًا؟

قلنا: كما أنّ تعلّق الأمر والدعوة بالمأمور والمدعوّ لا يستدعي إلّا اتّصافهما بما ذُكر مِن غير تعرّض للامتثال والإجابة إيجابًا وسلبًا، كذلك تعلّقُ الهداية التي هي عبارة عن الدلالة المذكورة بالمهديّ لا يستدعي إلّا اتّصافه بالمدلوليّة التي هي عبارة عن المصدر المأخوذ مِن المبنيّ للمفعول، مِن غير تعرّض لقبوله لتلك الدلالة -كما هو معنى الهدى اللازم- ولا لعدم قبوله؛ بل الهدايةُ عينُ الدعوة إلى طريق الحقّ، والاهتداءُ عينُ الإجابة، فكيف يُؤخَذ في مدلولها؟ واستلزامُ الاتّصاف بمصدر الفعل المتعدّي المبنيّ للمفعول للاتّصاف بمصدر الفعل اللازم مطلَقًا إنّما هو في الأفعال الطبيعيّة كالمكسوريّة والانكسار والمقطوعيّة والانقطاع، وأمّا الأفعال الاختياريّة فليست كذلك كما تحقَّقتَه فيما سلف.

إن قيل: التعلّم مِن قبيل الأفعال الاختياريّة مع أنّه معتبَر في مدلول التعليم قطعًا، فليكن الهدى مع الهداية كذلك، **قلنا**: ليس ذلك لكونه فعلًا اختياريًّا على الإطلاق، ولا لكون التعليم عبارةً عن تحصيل العلم للمتعلِّم كما قيل، فإنّ المعلِّم ليس بمستقلّ في ذلك، ففي إسناده إليه ضربُ تجوّزٍ؛ بل لأنّ كلًّا منهما مفتقِر في تحقّقه وتحصّله إلى الآخَر، فإنّ التعليم عبارة عن إلقاء المبادئ العلميّة على المتعلِّم وسَوقِها إلى ذهنه شيئًا فشيئًا على ترتيبٍ يقتضيه الحال، بحيث لا يُساق إليه بعضٌ منها إلّا بعد تَلقّيه لبعضٍ آخَرَ، فكلٌّ منهما متمِّم للآخَر، معتبَرٌ في مدلوله. وأمّا الهدى الذي هو عبارة عن التوجّه المذكور،

---

[1] ي: بين.

ففعلٌ اختياريٌّ يستقِلُّ به فاعلُه، لا دخلَ للهداية فيه سوى كونِها داعيةً إلى إيجاده باختياره، فلم يكن مِن متمِّماتها، ولا معتبَرًا[1] في مدلولها.

إن قيل: التعليم نوع مِن أنواع الهداية، والتعلّمُ نوع مِن أنواع الاهتداء، فيكون اعتبار التعلّم[2] في مدلول التعليم اعتبارًا للهدى في مدلول الهداية، **قلنا**: إطلاق الهداية على التعليم إنّما هو عند وضوح المسلَك واستبدادِ المتعلِّم بسلوكه، مِن غير دخل للتعليم فيه سوى كونِه داعيًا إليه، وقد عرفتَ جليّةَ الأمر على ذلك التقدير.

إن قيل: أليس تخلّفُ الهدى عن الهداية كتخلّف التعلّم عن التعليم، فحيث لم يكن ذلك تعليمًا في الحقيقة، فليكن الهداية أيضًا كذلك، وليُحمَلْ تسميةُ ما لا يستتبع الهدى بها على التجوّز، **قلنا**: شتّانَ بين التخلّفَين؛ فإنّ تخلّف التعلّم عن التعليم يكون لقصور فيه، كما أنّ تخلّف الانكسار عن الضرب الضعيف لذلك. وأمّا تخلّفُ الهدى عن الهداية، فليس لشائبةِ قصورٍ مِن جهتها؛ بل إنّما هو لفقد سببه الموجِبِ له مِن جهة المهديّ بعد تكاملِ ما يتمُّ مِن قِبل الهادي.

وبهذا التحرير اتّضح طريقُ الهداية، وتبيَّنَ أنّها عبارة عن مطلَق الدلالة علي ما مِن شأنه الإيصالُ إلى[3] البُغية بتعريف مَعالمه وتبيينِ مسالكه، مِن غير أن يُشترط في مدلولها الوصول ولا القبولُ، وأنّ الدلالة المقارِنة لهما أو لأحدهما والمفارِقةَ عنهما -كلُّ ذلك مع قطع النظر عن قيد المقارَنة وعدمِها- أفرادٌ حقيقيّةٌ لها، وأنّ ما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص، ٥٦/٢٨] وقولِه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل، ٩/١٦] ونحو ذلك ممّا اعتُبِر فيه الوصولُ مِن قبيل المجاز، وانكشف أنّ الدلالاتِ التكوينيّةَ المنصوبةَ في الأنفس والآفاق والبياناتِ التشريعيّةَ الواردةَ في الكُتب السماويّة على الإطلاق بالنسبة إلى كافّة البَريّة بَرِّها وفاجرِها هداياتٌ حقيقيّةٌ فائضةٌ مِن عند الله سبحانه. والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنّا لنهتديَ لولا أن هدانا الله.

---

[1] ي: معتبر.

[2] س ي: اعتباره.

[3] ي: على.

﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: المتّصِفين بالتقوى حالًا أو مآلًا. وتخصيص الهدى بهم لِما أنّهم المقتبِسون مِن أنواره المنتفِعون بآثاره، وإن كان ذلك شاملًا لكلّ ناظر مِن مؤمن وكافر، وبذلك الاعتبار قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة، ١٨٥/٢]. والمُتّقِي: اسم فاعلٍ مِن باب "الافتعال"، مِن الوِقاية، وهي فرط الصيانة.

والتقوى في عُرف الشرع عبارة عن كمال التوقّي عمّا يضرّه في الآخرة. قال عليه السلام: «جماع التقوى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ الآية [النحل، ٩٠/١٦]».[١] وعن عمرَ بنِ عبد العزيز: «أنّه تركُ ما حَرّم الله[٢] وأداءُ ما فَرَض الله»،[٣] وعن شَهْر بن حَوْشَب:[٤] «المُتّقي: مَن يترك ما لا بأسَ به حذرًا مِن الوقوع فيما فيه بأسٌ»،[٥] وعن أبي يزيد:[٦] «أنّ التقوى هو التورّع عن كلّ ما فيه شُبهة»،[٧] وعن محمّد بن حنيف:[٨] «أنّه مجانَبةُ كلِّ ما يبعِدك

---

١ هو مرفوعًا في **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٤٢/١. وما في معناه عن عبد الله بن مسعود موقوفًا في **الأدب المفرد** للبخاري، ص ١٧١-١٧٢ (٤٨٩)؛ و**المعجم الكبير** للطبراني، ١٤٣/٩ (٨٦٦٠)؛ و**المستدرك** للحاكم، ٣٨٨/٢ (٣٣٥٨).

٢ ي + تعالى.

٣ **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٤٢/١؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٧٦/١.

٤ هو شهر بن حَوْشب الأشعري. فقيه قارئ. شاميّ الأصل، سكن العراق. مِن رجال الحديث، وكان ضعيفًا في الحديث. اختُلِف في تاريخ وفاته، فقيل: اثنتي عشرة ومائة، وقيل: ثمان وتسعين. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٤٤٩/٧؛ و**الأعلام** للزركلي، ١٧٨/٣.

٥ **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٤٣/١؛ **معالم التنزيل** للبغوي، ٦٠/١.

٦ لعلّه طيفور بن عيسى بن سروشان البسطامي، أبو يزيد -ويقال: بايزيد- (ت. ٢٣٤هـ/٨٤٨م [؟]). زاهد مشهور. وله أخبار كثيرة. وكان جَدّه سروشان مجوسيًا فأسلم. وهم ثلاثة إخوة: آدم وطيفور وعليّ، وكلّهم كانوا زهّادًا عبّادًا أربابَ أحوال. وهو مِن أهل بِسطام بلدة بين خراسان والعراق. وفي المستشرِقين مَن يرى أنّه كان يقول بوحدة الوجود، وأنّه ربّما كان أوّلَ قائل بمذهب الفناء. ويُعرَف أتباعه بالطيفوريّة أو البِسطاميّة. انظر: **طبقات الصوفيّة** للسلمي، ٦٧-٧٤؛ و**ميزان الاعتدال** للذهبي، ٣٤٦/٢-٣٤٧؛ و**الأعلام** للزركلي، ٢٣٥/٣.

٧ لم نجده فيما رجعنا إليه مِن المصادر.

٨ هو محمّد بن حُنَيف بن جعفر البخاري، أبو عبد الله الخيّاط. ويقال له: اليَسارَغي، نسبة إلى يَسارَغ بن يهوذا بن يعقوب عليه السلام. وُلِد ببمجكث ونشأ بها. روى عن: بَجِير بن النضر ويحيى بن جعفر البِيكَندي وأسباط بن اليَسَع. وروى عنه: أبو نصر أحمد بن أحمد البخاري وأبو نصر أحمد بن أبي حامد الباهلي. تُوفّي سنة عشر وثلاث مئة مِن الهجرة. انظر: **الإكمال** لابن ماكولا، ٥٥٩/٢؛ و**تاريخ الإسلام** للذهبي، ١٦٦/٧؛ و**توضيح المشتبه** لابن ناصر الدين، ٣٧٤/٣.

[١١و] / عن الله تعالى»،[١] وعن سهل:[٢] «المُتّقِي: مَن تبرّأ عن حَوْله وقدرته».[٣]

وقيل التقوى: ألّا يَراك الله حيث نهاك، ولا يفقِدَك حيث أمَرَك.[٤] وعن ميمون بن مِهران:[٥] «لا يكون الرجل تقيًّا حتّى يكونَ أشدَّ محاسَبةً لنفسه مِن الشريك الشحيح والسلطانِ الجائر»،[٦] وعن أبي تُراب[٧] «بين يدَي التقوى خمسُ عَقَباتٍ لا يناله مَن لا يجاوِزُهنّ: إيثارُ الشدّة على النعمة، وإيثارُ الضعف على القوّة، وإيثارُ الذُّلّ على العزّة، وإيثارُ الجهد على الراحة، وإيثارُ الموت على الحياة».[٨] وعن بعض الحكماء: أنّه لا يبلغ الرجل سَنامَ التقوى إلى أن يكون بحيث لو جُعل ما في قلبه في طبَقٍ، فطِيفَ به في السُّوق، لم يستحْيِ ممّن نظر إليه.[٩] وقيل: التقوى أن تزيِّن سِرَّك للحقّ، كما تزيِّنُ علانيَتَك للخَلق.[١٠]

والتحقيق أنّ للتقوى ثلاثَ مراتبَ: **الأولى**: التوقّي عن العذاب المخلَّد بالتبرّؤ عن الكفر، وعليه قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الفتح، ٢٦/٤٨]. **والثانية**: التجنّب عن كلّ ما يُؤثِم مِن فعل أو ترك -حتّى الصغائر عند قوم- وهو المتعارَف بالتقوى في الشرع، وهو المعنيُّ بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾ [الأعراف، ٩٦/٧].

---

[١] نفس الرواية عن أبي عبد الله الروذباري في **تفسير السُّلمي**، ١٤٠/٢؛ وعن محمّد بن يوسف المقري في **الكشف والبيان للثعلبي**، ١٤٣/١.

[٢] هو سهل بن عبد الله بن يونس التُّستري، أبو محمّد (ت. ٢٨٣هـ/٨٩٦م). أحد أئمّة الصوفيّة والمتكلّمين في علوم الرياضات والإخلاص وعيوب الأفعال. صحب خاله محمّد بن سوار، وهو الذي كان سبب سلوكه هذا الطريق، وشاهد ذا النون المصري سنةَ خروجه إلى الحجّ بمكّة. انظر: **طبقات الصوفيّة** للسُّلمي، ص ١٦٦-١٧١؛ **وطبقات الأولياء** لابن الملقّن، ص ٢٣٢-٢٣٦.

[٣] **الكشف والبيان للثعلبي**، ١٤٤/١.

[٤] **الكشف والبيان للثعلبي**، ١٤٤/١.

[٥] هو ميمون بن مِهران الجزري الرّقّي، أبو أيّوب (ت. ١١٧هـ/٧٣٥م). تابعيّ، فقيه مِن القضاة. كان مولى، أعتقَته امرأة مِن بني نصر بن معاوية بالكوفة، فنشأ بها، ثمّ سكن الرّقّة مِن بلاد الجزيرة الفُراتيّة، فكان عالمَ الجزيرة، واستعمله عمر بن عبد العزيز على خَراجها وقضائها. وكان على مقدّمة الجند الشامي مع معاوية بن هشام لمّا عبر البحر غازيًا إلى قُبرس سنةَ ١٠٨هـ. وكان ثقةً في الحديث، كثيرَ العبادة. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٧١/٥-٧٨؛ **والأعلام** للزركلي، ٣٤٢/٧.

[٦] **الكشف والبيان للثعلبي**، ١٤٤/١.

[٧] أبو تراب: هو كُنية أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. وقال سهل بن سعد الساعدي: «ما كان لعليّ اسمٌ أحبُّ إليه مِن "أبي تراب"، وإنْ كان ليفرح إذا دُعي به». **الألقاب** لأبي عليّ الحسين بن محمّد، ص ٤٨.

[٨] **الكشف والبيان للثعلبي**، ١٤٤/١، باختلاف يسير.

[٩] **الكشف والبيان للثعلبي**، ١٤٤/١.

[١٠] **الكشف والبيان للثعلبي**، ١٤٤/١.

والثالثة: أن يتنزَّهَ عن كلّ ما يشغل سرَّه عن الحقّ عزّ وجلّ، ويتبتّلَ إليه بكلّيته، وهو التقوى الحقيقيّ المأمورُ به في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران، ١٠٢/٣]. ولهذه المرتبة عَرْضٌ عَريض يتفاوَتُ فيه طبقات أصحابها حسب تفاوت درجات استعداداتهم الفائضةِ عليهم بموجَب المشيئة الإلهيّة المبنيّةِ على الحِكم الأبيّة، أقصاها ما انتهى إليه هِمَمُ الأنبياء عليهم الصلوات والسلام،[1] حيث جمعوا بذلك بين رياستَي النبوّة والولاية، وما عَاقَهم التعلّقُ بعالَم الأشباح عن العروج إلى معالم الأرواح، ولم يصُدَّهم الملابسةُ بمصالح الخَلق عن الاستغراق في شئون الحقّ، لكمالِ استعداد نفوسهم الزكيّة المؤيَّدةِ بالقوّة القدسيّة.

وهداية الكتاب المبين شاملةٌ لأرباب هذه المراتب أجمعين. فإن أريدَ بكونه ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ إرشادُه إيّاهم إلى تحصيل المرتبة الأولى ونيلِها، فالمراد بهم المشارِفون للتقوى مجازًا لاستحالة تحصيل الحاصل. وإيثاره على العبارة المعرِبة عن ذلك[2] للإيجاز وتصديرِ السورة الكريمة بذِكر أوليائه تعالى وتفخيمِ شأنهم.

وإن أريدَ به إرشادُه إلى تحصيل إحدى المرتبتَين الأخيرتَين، فإن عُنِي بـ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ أصحابُ الطبقة الأولى تعيَّنت الحقيقة، وإن عُنِي بهم أصحابُ إحدى الطبقتين الأخيرتين تعيَّنَ المجاز؛ لأنّ الوصول إليهما إنّما يتحقّق[3] بهدايته المترقَّبة. وكذا الحال فيما بين المرتبة الثانية والثالثة، فإنّه إن أريدَ بـ"الهدى" الإرشادُ إلى تحصيل المرتبة الثالثة، فإن عُنِي بـ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ أصحابُ المرتبة الثانية تعيَّنت الحقيقة، وإن عُنِي بهم أصحابُ المرتبة الثالثة تعيَّنَ المجاز. ولفظُ "الهداية" حقيقة في جميع الصُّوَر.

وأمّا إن أريدَ بكونه هدًى لهم تثبيتُهم على ما هم عليه أو إرشادُهم إلى الزيادة فيه على أن يكون مفهومها داخلًا في المعنى المستعمَل فيه، فهو مجازٌ لا محالة، ولفظُ ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ حقيقة على كلّ حال.[4]

---

[1] س: عليهم السلام.

[2] وفي هامش ط س ي: بأنْ يقال: هدًى للصائرين إلى التقوى.(١) «منه». | (١) هامش ط س - إلى التقوى.

[3] ط: لا يتحقّق إلّا.

[4] ي - حال.

و"اللام" متعلِّقة بـ﴿هُدَى﴾، أو بمحذوفٍ وقع صفةً له أو حالًا منه. ومحلّ ﴿هُدَى﴾ الرفعُ على أنّه خبرٌ لمبتدأ محذوف، أي: "هو هدًى"، أو خبرٌ مع ﴿لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ﴾ لـ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، أو مبتدأٌ، خبرُه الظرف المقدَّم كما أشيرَ إليه، أو النصبُ على الحاليّة مِن ﴿ذَٰلِكَ﴾ أو مِن ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾، والعامل معنى الإشارة، أو مِن الضمير في ﴿فِيهِ﴾، والعامل ما في الجارّ والمجرور مِن معنى الفعل المنفيّ، كأنّه قيل: "لم يحصُل فيه الريبُ حالَ كونه هاديًا"، على أنّه قيدٌ للنفي، لا للمنفيّ، وحاصلُه: "انتفى الريب فيه حالَ كونه هاديًا". وتنكيره للتفخيم. وحملُه على ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ إمّا للمبالغة كأنّه نفسُ الهدى، أو لجعل المصدر بمعنى الفاعل.

هذا، والذي يستدعيه جزالة التنزيل في شأن ترتيب هذه الجُمل أن تكون متناسقةً تقرِّرُ اللاحقةُ منها السابقةَ؛ ولذلك لم يتخلّل بينها عاطفٌ؛ فـ﴿الٓمٓ﴾ جملةٌ برأسها على أنّها[١] خبرٌ لمبتدأ مضمَر، أو طائفةٌ مِن حروف المعجَم مستقلّةٌ بنفسها دالّةٌ على أنّ[٢] المتحدَّى به هو المؤلَّف مِن جنس ما يؤلِّفون منه كلامَهم، و﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ جملة ثانية مقرِّرةٌ لجهة التحدّي، لِما دلّت عليه مِن كونه منعوتًا بالكمال[٣] الفائق، ثمّ سُجّل على غاية فضله بنفي الرَّيب فيه، إذ لا فضلَ أعلى ممّا للحقّ واليقين، و﴿هُدَى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ بما يقدَّر له مِن المبتدأ جملةٌ مؤكِّدةٌ لكونه حقًّا لا يحوم حولَه شائبة شكٍّ ما، ودالّةٌ على تكميله بعد كماله، أو[٤] يستتبع السابقةُ منها اللاحقةَ استتباعَ الدليل للمدلول، فإنّه لمّا نُبِه أوّلًا على إعجاز المتحدَّى به مِن حيث إنّه مِن جنس كلامهم، وقد عجَزوا عن معارضته بالمرّة، ظهَرَ أنّه الكتاب البالغ أقصى مراتب الكمال، وذلك مستلزِم لكونه في غاية النزاهة عن مظِنّة الريب، إذ لا أنقَصَ ممّا يعتريه الشكُّ، وما كان كذلك كان -لا محالة- هدًى للمتّقين. وفي كلٍّ منها مِن النُّكت الرائقة والمزايا الفائقةِ ما لا يخفى جلالة شأنه حسبما تحقّقتَه.

---

[١] ط: أنّه.
[٢] ي - أنّ.
[٣] ي: بكمال.
[٤] السياق: ... أنْ تكون متناسقةً تقرِّرُ اللاحقةُ منها السابقةَ... أو يستتبع السابقةُ منها اللاحقةَ...

﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣﴾

﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ إمّا موصول بـ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾،[١] ومحلّه الجرّ على أنّه صفة مقيّدة له إن فُسّر "التقوى" بترك المعاصي فقط، مترتِّبةٌ عليه ترتّبَ التحلية على التخلية،[٢] وموضِّحةٌ إن فُسّر بما هو المتعارَف شرعًا / والمتبادَرُ عُرفًا مِن [١١ظ] فَعْل الطاعات وتركِ السيّئات معًا؛ لأنّها حينئذ تكون[٣] تفصيلًا لِما انطوى عليه اسمُ الموصوف إجمالًا، وذلك لأنّها مشتملة على ما هو عِماد الأعمال وأساس الحَسَنات مِن الإيمان والصلاة والصَّدَقة، فإنّها أمّهات الأعمال النفسانيّة والعباداتِ البدنيّة والماليّة المستتبِعةِ لسائر القُرَب الداعية إلى التجنّب عن المعاصي غالبًا، ألا يُرى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [العنكبوت، ٢٩/٤٥] وقولِه عليه السلام: «الصلاة عِماد الدين»،[٤] و«الزكاة قَنْطرة الإسلام»،[٥] أو[٦] مادحةٌ للموصوفين بالتقوى المفسَّرِ بما مرّ مِن فَعْل الطاعات وتركِ السيّئات، وتخصيصُ ما ذُكر مِن الخِصال الثلاث بالذِّكر لإظهار شرفها وإنافتها على سائر ما انطوى تحت اسم التقوى مِن الحسنات، أو[٧] النصبُ على المدح بتقدير "أعني"، أو الرفعُ عليه بتقدير "هُمْ".

وإمّا مفصول عنه، مرفوع بالابتداء، خبرُه الجملة المصدَّرة باسم الإشارة[٨] كما سيأتي بيانه، فالوقف على ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ حينئذ وقفٌ تامٌّ؛ لأنّه وقف على مستقلٍّ ما بعده أيضًا مستقلّ، وأمّا على الوجوه الأُوَل، فحسنٌ لاستقلال الموقوف عليه، غيرُ تامّ لتعلّقِ ما بعده به[٩] وتَبَعيّته له، أمّا على تقدير الجرّ

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] وفي هامش ي: أي: ترتّب التحلية بالإيمان وسائر الأفعال والعادات على التخلية عن الشرك والعصيان. «منه».

[٣] ي: يكون.

[٤] نوادر الأصول للحكيم الترمذي، ٣/١٣٥؛ شعب الإيمان للبيهقي، ٤/٣٠٠ (٢٥٥٠). وفي مسند أحمد، ٣٦/٣٤٤-٣٤٥ (٢٢٠١٦)؛ وسنن الترمذي، ٥/١١-١٢ (٢٦١٦): «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سَنامه الجهاد».

[٥] شعب الإيمان للبيهقي، ٥/٢٠ (٣٠٣٨)؛ المعجم الأوسط للطبراني، ٨/٣٨٠ (٨٩٣٧)؛ مسند الشهاب القضاعي، ١/١٨٣-١٨٤ (١٩١).

[٦] السياق: على أنّه صفة مقيّدة له... وموضِّحةٌ... أو مادحةٌ...

[٧] السياق: ومحلُّه الجرُّ... أو النصبُ...

[٨] وهو قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة، ٢/٥].

[٩] ي - به.

على الوصفيّة[١] فظاهرٌ، وأمّا على تقدير النصب أو الرفع على المدح، فلِما تقرَّرَ مِن أنّ المنصوب والمرفوع مدحًا، وإن خرجَا عن التبعيّة لِما قبلهما[٢] صورةً -حيث لم يتبعاه في الإعراب، وبذلك سُمّيا قطعًا- لكنّهما تابعان له حقيقةً؛ ألا يُرى كيف التزموا حذفَ الفعل والمبتدإ في النصب والرفع رَومًا لتصوير كلٍّ منهما بصورةِ متعلِّقٍ[٣] مِن متعلِّقات ما قبله، وتنبيهًا على شدّة الاتّصال بينهما، قال أبو علي:[٤] «إذا ذُكرت صفاتٌ للمدح وخُولِفَ في بعضها الإعرابُ، فقد خُولِفَ للافتنان»،[٥] أي: للتفنّن الموجِب لإيقاظ السامع وتحريكِه إلى الجِدّ في الإصغاء، فإنّ تغيير الكلام المَسوق لمعنًى مِن المعاني وصَرفَه عن سَننه المسلوك يُنبئ عن اهتمام جديد بشأنه مِن المتكلِّم، ويستجلب مزيدَ رغبةٍ فيه مِن المخاطَب.

إن قيل: لا ريبَ في أنّ حال الموصول عند كونه خبرًا لمبتدأ محذوف كحاله عند كونه مبتدأً خبرُه ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾[٦] في أنّه ينسبك به جملة اسميّة مفيدة لاتّصاف ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ بالصفات الفاضلة، ضرورةَ أنّ كلًّا مِن الضمير المحذوف والموصولِ عبارةٌ عن المتّقين، وأنّ كلًّا مِن اتّصافهم بالإيمان وفروعه وإحرازِهم للهدى والفلاح مِن النعوت الجليلة؛ فما السرُّ في أنّه جُعل ذلك[٧] في الصورة الأولى مِن توابع المتّقين، وعُدَّ الوقفُ غيرَ تامّ، وفي الثانية مقتطَعًا عنه، وعُدَّ الوقفُ تامًّا؟

---

١ وفي هامش ط س: سواء كان وصفًا مقيّدًا أو موضِحًا أو مادحًا. «منه».

٢ ي: قبلها.

٣ ي: متعلّقة.

٤ هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفّار الفارسيّ الأصل، أبو عليّ (ت. ٣٧٧هـ/٩٨٧م). واحد زمانه في علم العربيّة. وُلد في فسا، مِن أعمال فارس، وتجوّل في كثير مِن البلدان. صحب عضد الدولة البُويهي وتقدّم عنده، وصنّف له **الإيضاح والتكملة**. أخذ عن الزجّاج وابن السرّاج، وبرع مِن طلبته ابن جنّي وعليّ بن عيسى الرَّبعي. وكان متّهمًا بالاعتزال. مصنّفاته كثيرة، منها: **الحجّة للقرّاء السبعة**، **والتعليقة على كتاب سيبويه**، **والإغفال**، **وكتاب الشِّعر**، **والمسائل البصريّات**، **والمسائل الحلبيّات**، **والمسائل العسكريّات**، **والمسائل الشيرازيّات**. انظر: **بغية الوعاة** للسيوطي، ٤٩٦/١-٤٩٨؛ **والأعلام** للزركلي، ١٧٩/٢-١٨٠.

٥ انظر قول أبي عليّ بمعناه في **الدرّ المصون** للسمين الحلبي، ٢٥٠/٢؛ **واللباب** لابن عادل، ٢٠٩/٣.

٦ البقرة، ٥/٢.

٧ وفي هامش ط ي: أي: الموصول. «منه».

قلنا: السرُّ في ذلك أنّ المبتدأ في الصورتين، وإن كان عبارةً عن المتّقين، لكنّ الخبرَ في الأولى لمّا كان تفصيلًا لِما تضمَّنه المبتدأ إجمالًا حسبما تحقّقتَه، معلومَ الثبوت له[١] بلا اشتباه، غيرَ مفيد للسامع سوى فائدةِ التفصيل والتوضيح، نُظِم ذلك[٢] في سِلك الصفات مراعاةً لجانب[٣] المعنى، وإن سُمّي قطعًا مراعاةً لجانب[٤] اللفظ؛ كيف لا، وقد اشتهر في الفنّ أنّ الخبر إذا كان معلومَ الانتساب إلى المخبَر عنه، فحقُّه[٥] أن يكون وصفًا له، كما أنّ الوصف إذا لم يكن[٦] معلومَ الانتساب إلى الموصوف، حقُّه أن يكون خبرًا له، حتّى قالوا: إنّ الصفاتِ قبل العِلم بها أخبارٌ، والأخبار بعد العلم بها صفاتٌ.

وأمّا الخبر في الثانية، فحيث لم يكن كذلك، بل كان مشتملًا على ما لا يُنبِئ عنه المبتدأ مِن المعاني اللائقة كما ستُحيط به خُبْرًا، مفيدًا للمخاطَب فوائدَ رائقةً، جُعِل ذلك مقتطَعًا عمّا قبله محافَظةً على الصورة والمعنى جميعًا.

والإيمان "إفعال" مِن "الأمن" المتعدّي إلى واحد، يقال: "أمِنْتُه"، وبالنقل تعدّى إلى اثنين، يقال: "آمنَنِيه غيري"، ثمّ استُعمل في التصديق؛[٧] لأنّ المصدِّق يؤمِن المصدَّق،[٨] أي: يجعله أمينًا مِن التكذيب والمخالفة، واستعمالُه بـ"الباء" لتضمينه معنى الاعتراف. وقد يُطلَق على الوثوق، فإنّ الواثق يَصير ذا أمنٍ وطُمأنينة، ومنه ما حُكي عن العرب: "ما آمنتُ أن أجد صحابة"، أي: ما صِرتُ ذا أمن وسكون.[٩] وكِلا الوجهين حسنٌ ههنا.

وهو في الشرع لا يتحقّق بدون التصديق بما عُلم ضرورةً أنّه مِن دين نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم[١٠] كالتوحيد والنبوّة والبعث والجزاء[١١] ونظائرها، وهل هو كافٍ في ذلك، أو لا بدَّ مِن انضمام الإقرار إليه للمتمكِّن منه؟ والأوّل

١ ط: الانتساب إليه [غيّر ما أثبتناه بهذه العبارة].
٢ وفي هامش ط س ي: أي الموصول. «منه».
٣ ي: بجانب.
٤ ي: بجانب.
٥ س: حقّه.
٦ ي: يكون.
٧ وفي هامش ط س ي: حقيقةً أو مجازًا. «منه».
٨ ط: المتكلّم [صحّح في الهامش].
٩ وفي هامش ي: أي: ما وثقت. | أُدرج هذه العبارة في نسخة ط في المتن، ثمّ صُحّح بما أثبتناه.
١٠ ي: عليه السلام.
١١ ط – الجزاء؛ ط + والثواب والعقاب.

رأي الشيخ الأشعري ومَن شايَعه، فإنّ الإقرار عنده منشأ لإجراء الأحكام. والثاني مذهب أبي حنيفةَ ومَن تابَعه، وهو[1] الحقّ،[2] فإنّه جعلهما جزأين له؛ خَلَا أنّ الإقرار ركنٌ محتمِلٌ للسقوط بعُذْر كما عند الإكراه. وهو مجموعُ ثلاثةِ أمور: اعتقادِ الحقّ والإقرارِ به والعملِ بموجَبه عند جمهور المحدِّثين والمعتزلة والخوارج، فمَن أخلَّ بالاعتقاد وحدَه فهو منافق، ومَن أخلَّ بالإقرار فهو كافر، ومَن أخلَّ بالعمل فهو فاسق اتّفاقًا وكافرٌ عند الخوارج، وخارجٌ عن الإيمان غيرُ داخلٍ في الكفر عند المعتزلة.

وقُرئ: "يُومِنُونَ"[3] بغير[4] همزة.

والغيب إمّا مصدرٌ وُصف به الغائب مبالغةً كـ﴿ٱلشَّهَٰدَةِ﴾ في قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الأنعام، ٧٣/٦؛ الرعد، ٩/١٣؛ السجدة، ٦/٣٢؛ الحشر، ٢٢/٥٩؛ التغابن، ١٨/٦٤]، أو "فَيْعِل"، خُفِّف كـ"قَيْلٍ" في / "قَيِّلٍ"، و"هَيْنٍ" في "هَيِّنٍ"، و"مَيْتٍ" في "مَيِّتٍ"؛ لكنْ لم يُستعمل فيه الأصل كما استُعمل[5] في نظائره. وأيًّا ما كان، فهو ما غاب عن الحِسّ والعقل غَيْبةً كاملةً، بحيث لا يُدرَك بواحد منهما ابتداءً بطريق البداهة.[6] [١٢و]

وهو قسمان: قسمٌ لا دليلَ عليه، وهو الذي أريدَ بقوله سبحانه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام، ٥٩/٦]، وقسمٌ نُصب عليه دليلٌ[7] كالصانع وصفاته، والنبوّاتِ وما يتعلّق بها مِن الشرائع والأحكام،[8] واليومِ الآخر وأحوالِه مِن البعث والنشور والحساب والجزاء، وهو المراد ههنا، فـ"الباء" صلة لـ"الإيمان"، إمّا بتضمينه معنى الاعتراف، أو بجعله مجازًا مِن الوثوق، وهو واقعٌ

---

١ ي - وهو.

٢ ي: والحقّ.

٣ قرأ بها نافع مِن رواية ورش وأبو جعفر. وكان حمزة يستحبّ تركَ الهَمْز في القرآن كلّه إذا أراد أنْ يقف. واختُلِف عن أبي عمرو. انظر: السبعة لابن مجاهد، ص ١٣٠-١٣٢؛ والنشر لابن الجزري، ٣٩٠/١-٣٩٥.

٤ ط: بترك.

٥ ط: لم يستعمل الأصل فيه استعماله.

٦ ط: لا يدرك ابتداء بواحد منهما، لا بداهةً ولا استدلالًا.

٧ ي - دليل.

٨ ط ي: الأحكام والشرائع.

موقعَ المفعول به، وإمّا مصدر على حاله كالغَيبة، فـ"الباء" متعلِّقة بمحذوفٍ وقع حالًا مِن الفاعل كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [الأنبياء، ٤٩/٢١] وقولِه تعالى: ﴿لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [يوسف، ٥٢/١٢]، أي: يؤمنون ملتبِسين بالغَيبة، إمّا عن المؤمَن به، أي: غائبين عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم غيرَ مشاهدين لِما فيه مِن شواهد النبوّة، لِما رُوي[١] أنّ أصحاب ابن مسعود رضي الله تعالى عنهم ذكروا أصحابَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وإيمانَهم، فقال رضي الله عنه: «إنّ أمر محمّد كان بيّنًا لمَن رآه، والذي لا إله غيره، ما آمن مؤمنٌ أفضلَ مِن الإيمان بغيبٍ»، ثمّ تَلَا هذه الآية،[٢] وإمّا عن الناس، أي: غائبين عن المؤمنين، لا كالمنافقين الذين إذا لَقُوا الذين آمنوا قالوا: «آمنّا»، وإذا خلَوْا إلى شياطينهم قالوا: «إنّا معكم».[٣]

وقيل: المراد بـ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ القلب؛ لأنّه مستور، والمعنى: يؤمنون بقلوبهم، لا كالذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، فـ"الباء" حينئذ للآلة، وتركُ ذكر المؤمَن به على التقادير الثلاثة إمّا للقصد إلى إحداث نفس الفعل كما في قولهم: "فلانٌ[٤] يُعطي ويمنع"، أي: يفعلون الإيمان، وإمّا للاكتفاء بما سيجيء،[٥] فإنّ الكُتب الإلهيّة ناطقةٌ بتفاصيل ما يجب الإيمانُ به.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إقامتها عبارة عن تعديل أركانها وحفظِها مِن أن يقع في شيء مِن فرائضها وسُنَنها وآدابها زَيغٌ، مِن "أقام العُودَ" إذا قوّمه وعدّله. وقيل: عن المواظبة عليها، مأخوذٌ مِن "قامت السُّوق" إذا نفقت، و"أقمتُها" إذا جعلتَها نافقةً، فإنّها إذا حُوفِظَ عليها كانت كالنافق الذي يُرغَب فيه. وقيل عن التشمّر لأدائها مِن غير فتور ولا تَوانٍ، مِن قولهم "قام بالأمر وأقامه" إذا جدَّ فيه واجتهد. وقيل: عن أدائها، عُبّر عنه بالإقامة لاشتماله على القيام، كما عُبّر عنه بالقُنوت

---

[١] ي - لِما رُوي.

[٢] المستدرك للحاكم، ٢٨٦/٢ (٣٠٣٣)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٨١/١؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٨/١.

[٣] ط - وإذا خلَوْا إلى شياطينهم قالوا: إنّا معكم؛ ط + الآية. | إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [البقرة، ١٤/٢].

[٤] ط - يعطي.

[٥] ط: يعقبه.

الذي هو القيام، وبالركوع والسجود والتسبيح. والأوّل هو الأظهر؛ لأنّه أشهَرُ، وإلى الحقيقة أقرَبُ.

والصلاة "فَعَلَةٌ" مِن "صلّى" إذا دعا، كـ"الزكاة" مِن "زكّى"، وإنّما كُتبتا بـ"الواو" مراعاةً للفظ المفخّم، وإنّما سُمّي الفعل المخصوص بها لاشتماله على الدعاء. وقيل: أصل "صلّى": حرّك الصَّلَوَين، وهما العَظْمان[١] الناتئان في أعلى الفخِذين؛ لأنّ المصلّيَ يفعله في ركوعه وسجوده. واشتهار اللفظ في المعنى الثاني دون الأوّل لا يقدح في نقله عنه، وإنّما سُمّي الداعي مصلّيًا تشبيهًا له في تخشّعه بالراكع والساجد.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ الرزق في اللغة: العطاء، ويُطلَق على الحظّ المعطَى، نحو "ذِبْحٍ" و"رِعْيٍ" للمذبوح والمَرعيّ، وقيل: هو بالفتح مصدر، وبالكسر اسم، وفي العُرف: ما ينتفع به الحيوان.

والمعتزلة لمّا أحالوا تمكين الله تعالى مِن الحرام -لأنّه منَعَ مِن الانتفاع به وأمر بالزجر عنه- قالوا: الرزق لا يتناول الحرام؛ ألا يُرى أنّه تعالى أسند الرزق إلى ذاته إيذانًا بأنّهم يُنفِقون مِن الحلال الطِّلق،[٢] فإنّ إنفاق الحرام بمَعزِل مِن إيجاب المدح، وذمَّ المشركين على تحريم بعض ما رزقهم الله تعالى بقوله:[٣] ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ [يونس، ١٠/٥٩].

وأصحابنا رحمهم الله جعلوا الإسناد المذكور للتعظيم والتحريض على الإنفاق، والذمَّ لتحريم ما لم يحرّم، واختصاص ﴿مَا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ بالحلال للقرينة، وتمسّكوا لشمول الرزق لهما[٤] بما رُوي عنه عليه السلام[٥] في حديث عمرو بن قُرّة[٦] حين أتاه، فقال: «يا رسولَ الله، إنّ الله كتب عليَّ الشِّقوة، فلا أرى أُرزَق

---

[١] ي: العظما.

[٢] ط ي: الصرف [صحح في هامش ط ي]. | والطِّلْق بالكسر: الحلال. يقال: هو لك طِلْقًا. **الصحاح** للجوهري، «طلق».

[٣] س: لقوله.

[٤] وفي هامش ي: أي: الحرام والحلال.

[٥] ط: عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

[٦] هو عمرو بن قُرّة. عدّه غير واحد في الصحابة، وأخرج حديثه عبد الرزّاق في مصنّفه مِن رواية مكحول. انظر: **أسد الغابة** لابن الأثير، ٤/٢٥١؛ **والإصابة** للعسقلاني، ٤/٥٥٦-٥٥٧.

إلّا مِن فِيَّ بكَفّي، فأذَنْ لي في الغِناء مِن غير فاحشة»، مِن أنّه قال صلّى الله عليه وسلّم:[1] «لا إذنَ لك ولا كرامةَ ولا نُعمةَ، كذبتَ أيْ عَدُوَّ الله، واللهِ لقد رزقك الله حلالًا طيّبًا، فاخترتَ ما حرّم الله عليك مِن رزقه مكانَ ما أحلَّ الله لك مِن حلاله»،[2] وبأنّه لو لم يكن الحرامُ رزقًا لم يكن المتغذّي به طُولَ عُمره مرزوقًا، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود، ٦/١١].

والإنفاق والإنفاد أخَوان، خَلَا أنّ في الثاني معنى الإذهاب بالكلّيّة دون الأوّل. والمراد بهذا الإنفاق الصَّرفُ إلى سبيل الخير، فرضًا كان أو نَفْلًا. ومَن فسَّرَ[3] بالزكاة ذكَرَ أفضلَ أنواعه والأصلَ فيه، أو خصَّصَه بها لاقترانه بما هو شقيقها. والجملة معطوفة على ما قبلها مِن الصلة، وتقديمُ المفعول للاهتمام والمحافظةِ على رُءُوس الآي، وإدخالُ / ﴿مِنْ﴾ التبعيضيّة عليه للكَفّ عن التبذير. [١٢ظ]

هذا، وقد جُوّز أن يراد به الإنفاقُ مِن جميع المعادن[4] التي منحهم الله تعالى مِن النِّعم الظاهرة والباطنة. ويؤيّده قوله عليه السلام: «إنّ عِلمًا لا يُنال به ككنزٍ لا يُنفَق منه».[5] وإليه ذهب مَن قال: وممّا خصّصناهم مِن أنوار المعرفة يفيضون.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ معطوف على الموصول الأوّل على تقديرَي وصلِه بما قبله وفصلِه عنه، مندرجٌ معه في زُمرة المتّقين مِن حيث الصورةُ والمعنى معًا،[6] أو مِن حيث المعنى فقط،[7] اندراجَ خاصَّين تحت عامّ، إذ المراد بالأوّلين الذين آمنوا بعد الشرك والغفلة عن جميع الشرائع

---

[1] ط: مِن أنّه عليه السلام قال له؛ ي: عليه السلام.

[2] هو باختلاف يسير في سنن ابن ماجة، ٦٣٤/٣-٦٣٥ (٢٦١٣)؛ والمعجم الكبير للطبراني، ٦٠/٨-٦١ (٧٣٤٢)؛ واللباب لابن عادل، ٢٩٣/١.

[3] أي: ومَن فسّر الإنفاقَ بالزكاة.

[4] ي: المعاذن.

[5] هو بلفظ: «علمٌ لا يقال به ككنزٍ لا يُنفَق منه» في مصنّف ابن أبي شيبة، ١٢١/٧ (٣٤٦٦٥)؛ وسنن الدارمي، ٤٦١/١ (٥٧٤)؛ ومسند الشهاب القضاعي، ١٨٠/١ (٢٦٣)؛ وجامع بيان العلم وفضله لابن عبد البرّ، ٣٩١/١ (٧٧٨).

[6] وفي هامش ط س ي: على تقدير الوصل. «منه».

[7] وفي هامش ط س ي: على تقدير الفصل، فإنّ كلًّا منهما عبارة عن المتّقين على ذلك التقدير أيضًا. «منه».

كما يُؤذِن به التعبير عن المؤمَن به بـ﴿ٱلْغَيْبِ﴾، وبالآخرين الذين آمنوا **بالقرآن** بعد الإيمان بالكُتب المنزلة قبلُ، كعبد الله بن سلَام[١] وأضرابه، أو[٢] على ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٣] على أن يراد بهم الأوّلون خاصّةً، ويكون تخصيصُهم بوصف الاتّقاء للإيذان بتنزّههم عن حالتهم الأولى بالكلّيّة لِما فيها[٤] مِن كمال القباحة والمباينة للشرائع كلِّها الموجِبةِ للاتّقاء عنها، بخلاف الآخرين، فإنّهم غيرُ تاركين لِما كانوا عليه بالمرّة، بل متمسّكون بأصول الشرائع التي لا تكاد تختلف باختلاف الأعصار.

ويجوز أن يُجعَل كِلا الموصولَين عبارةً عن الكلّ مندرِجًا تحت ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾، ولا يكون توسيطُ العاطف بينهما لاختلاف الذوات؛ بل لاختلاف الصفات كما في قوله:

إلى المَلِك القَرْم وابنِ الهُمام ... وليثِ الكتيبة في المُزدَحَم[٥]

وقولِه:

يا لَهْفَ زيّابةَ للحارثِ الصـ ... ـابحِ فالغانمِ فالآيبِ[٦]

للإيذان[٧] بأنّ كلّ واحد مِن الإيمان بما أشيرَ إليه مِن الأمور الغائبة والإيمانِ بما يشهد بثبوتها مِن الكُتب السماويّة نعتٌ جليلٌ على حِياله، له شأنٌ خطير مستتبعٌ لأحكامٍ جمّةٍ، حقيقٌ بأن يُفرَد له موصوف مستقلّ، ولا يُجعَل أحدُهما

---

[١] هو عبد الله بن سلَام بن الحارث الأنصاري، أبو يوسف (ت. ٤٣هـ/٦٦٣-٦٦٤م). أحد الأحبار، أسلم إذ قدِمَ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم المدينة. وهو مِن ولد يوسف بن يعقوب صلّى الله عليهما. وكان اسمه في الجاهليّة "الحُصَين"، فلمّا أسلم سمّاه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم "عبد الله". كان حليفًا للأنصار. وشهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لعبد الله بن سلام بالجنّة. تُوفّي بالمدينة في خلافة معاوية. انظر: **الاستيعاب** للنمري، ٩٢١/٣-٩٢٣؛ **وأسد الغابة** لابن الأثير، ٢٦٥/٣.

[٢] السياق: معطوف على الموصول الأوّل... أو على ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾...

[٣] البقرة، ٢/٢.

[٤] أي: في حالتهم الأولى.

[٥] البيت بلا نسبة في **جامع البيان** للطبري، ١٨٩/٣؛ **والكشّاف** للزمخشري، ٤١/١؛ **وحياة الحَيَوان الكبرى** للدّميري، ٣٣٩/٢؛ **وخِزانة الأدب** للبغدادي، ٤٥١/١. | القَرْم: السيّد. والهُمام: الملِكُ العظيم الهمّةِ. **الصحاح** للجوهري، «قرم»، «همم».

[٦] البيت لابن زيّابة في **شرح كتاب الحماسة** للفارسي، ١٢٠/٢؛ **وأمالي ابن الشجري**، ٥٠٨/٢؛ **وشرح شواهد المغني** للسيوطي، ٤٦٥/١، وبلا نسبة في **خزانة الأدب** للبغدادي، ٥/ ١٠٧.

[٧] وفي هامش س ي: متعلِّق بقوله "أن يُجعَل". «منه».

تتمّةً للآخَر، وقد شُفِع الأوّل بأداء الصلاة والصَّدَقة اللتَين هما مِن جملة الشرائع المندرِجة تحت تلك الأمور المؤمَن بها تكملةً له، فإنّ كمال العلم بالعمل، وقُرِن الثاني بالإيقان بالآخرة مع كونه منطويًا تحت الأوّل تنبيهًا على كمال صحّته، وتعريضًا بما في اعتقاد أهل الكتابين مِن الخَلَل كما سيأتي.

هذا على تقدير تعلّق "الباء" بـ"الإيمان"، وقِسْ عليه الحالَ عند تعلّقها بالمحذوف، فإنّ كلًّا مِن الإيمان الغيبيّ المشفوعِ بما يصدّقه مِن العبادتين -مع قطع النظر عن المؤمَن به- والإيمانِ بالكُتب المنزلة الشارحة لتفاصيل الأمور التي يجب الإيمانُ بها مقرونًا بما قُرن به فضيلةٌ باهرةٌ، مستدعيةٌ لِما ذُكر. والله تعالى أعلم.

وقد حُمل ذلك على معنى أنّهم الجامعون بين الإيمان بما يُدركه العقل جملةً والإتيانِ بما يصدّقه مِن العبادات البدنيّة والماليّة وبين الإيمان بما لا طريقَ إليه غير السمع، وتكريرُ الموصول للتنبيه على تغاير القبيلَين وتباينِ السبيلَين، فليُتأمَّلْ، وأن يراد بالموصول الثاني بعد اندراج الكلّ في الأوّل فريقٌ خاصٌّ منهم -وهم مؤمنو أهلِ الكتاب- بأن يُخَصّوا بالذكر تخصيصَ جبريلَ وميكالَ به إثرَ جرَيان ذكر الملائكة عليهم السلام،[1] تعظيمًا لشأنهم وترغيبًا لأمثالهم وأقرانِهم في تحصيل ما لهم مِن الكمال.

والإنزال: النقل مِن الأعلى إلى الأسفل، وتعلُّقه بالمعاني إنّما هو بتوسّط تعلّقه بالأعيان المستتبِعة لها، فنزولُ ما عدا الصُّحُفَ مِن الكُتب الإلهيّة إلى الرُّسل عليهم السلام -والله تعالى أعلمُ- بأن يتلقّاها المَلَكُ مِن جَنابه عزّ وجلّ تلقيًّا روحانيًّا، أو يحفَظَها مِن اللوح المحفوظ، فينزل بها إلى الرُّسل فيُلقيها عليهم عليهم السلام،

والمراد بـ﴿مَآأُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ هو القرآن بأسْره والشريعةُ عن آخرها، والتعبيرُ عن إنزاله بالماضي -مع كون بعضه مترقَّبًا حينئذ- لتغليب المحقَّق على المقدَّر، أو لتنزيل ما في شرف الوقوع -لتحقّقِه- منزلةَ الواقع كما في قوله تعالى:

---

[1] في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة، ٩٨/٢].

﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف، ٣٠/٤٦] مع أنّ الجنّ ما كانوا سمعوا الكتابَ جميعًا، ولا كان الجميعُ إذ ذاك نازلًا، وبـ﴿مَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ **التوراةُ والإنجيلُ** وسائرُ الكُتب السالفة. وعدمُ التعرّض لذكر مَن أُنزلَ إليه مِن الأنبياء عليهم السلام لقصد الإيجاز مع عدم تعلّق الغرض بالتفصيل حسب تعلّقِه به في قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ الآية [البقرة، ١٣٦/٢].

والإيمان بالكلّ جملةً فرضٌ، وبالقرآن تفصيلًا -مِن حيث إنّا متعبّدون بتفاصيله- فرضُ كفايةٍ، فإنّ في وجوبه على الكلّ -عَينًا- حَرَجًا بيّنًا وإخلالًا بأمر المعاش. وبناء الفعلين للمفعول للإيذان بتعيّن الفاعل والجَرْيِ على سَنَن الكِبرياء. وقد قُرِئَا على البناء للفاعل.[١]

﴿وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ الإيقان: إتقان العِلم بالشيء بنفي الشكّ والشبهة عنه؛ ولذلك لا يُسمَّى علمه تعالى يقينًا، أي: يعلمون علمًا قطعيًّا مُزيحًا لِما كان أهل الكتاب عليه مِن الشكوك والأوهام التي مِن جملتها زعمُهم أنّ الجنّة لا يدخلها إلّا مَن كان هودًا أو نصارى،[٢] وأنّ النار لن تَمَسَّهم إلّا أيامًا / معدوداتٍ.[٣] [١٣و] واختلافهم في أنّ نعيم الجنّة هل هو مِن قبيل نعيم الدنيا أو لا، وهل هو دائم أو لا؟ وفي تقديم الصلة وبناءِ ﴿يُوقِنُونَ﴾ على الضمير تعريضٌ بمَن عداهم مِن أهل الكتاب، فإنّ اعتقادهم في أمور الآخرة بمَعزِل مِن الصحّة، فضلًا عن الوصول إلى مرتبة اليقين.

والآخرة: تأنيث "الآخِر"، كما أنّ "الدنيا" تأنيث "الأدنى"، غلبتَا على الدارَين، فجرتَا مَجرى الأسماء. وقُرِئ بحذف الهمزة وإلقاءِ حركتها على اللام.[٤]

---

[١] أي: "بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن يزيد بن قطيب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨.

[٢] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة، ١١١/٢].

[٣] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران، ٢٤/٣].

[٤] قرأ بها نافع مِن رواية ورش. النشر لابن الجزري، ٤٠٨/١.

وقُرئ: "يُؤْقِنُونَ"[١] بقلب الواو همزةً، إجراءً لضمّ ما قبلها مُجرى ضمّها في "وُجوه" و"وُقِّتت"،[٢] ونظيره ما في قوله:

لَحُبُّ[٣] المُؤْقِدان إليَّ مُؤْسى وجَعدةُ إذ أضاءهما الوُقود[٤]

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الذين حُكيت خِصالهم الحميدةُ مِن حيث اتّصافُهم بها. وفيه دلالة على أنّهم متميِّزون بذلك أكملَ تميّزٍ، منتظِمون بسببه في سِلك الأمور المشاهَدة. وما فيه مِن معنى البُعد للإشعار بعُلوّ درجتهم وبُعدِ منزلتهم في الفضل. وهو مبتدأ، وقوله عزّ وعلا:[٥] ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ خبرُه. وما فيه مِن الإبهام المفهوم مِن التنكير لكمال تفخيمه، كأنّه قيل: على[٦] أيّ هدًى هدًى لا يُبلَغ كُنهه، ولا يُقادَر قدره.

وإيراد[٧] كلمة الاستعلاء -بناءً على تمثيل حالهم في ملابستهم بالهدى بحالِ مَن يعتلي الشيءَ[٨] ويستولي عليه بحيث يتصرّف فيه كيفما يريد، أو على استعارتها[٩] لتمسّكِهم بالهدى استعارةً تَبَعيّةً متفرّعةً على تشبيهه باعتلاء الراكب واستوائه على مركوبه،[١٠] أو على جعلها[١١] قرينةً للاستعارة بالكناية بين الهدى والمركوب- للإيذان[١٢] بقوّة تمكّنهم منه وكمالِ رسوخهم فيه.

وقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِمْۖ﴾ متعلِّق بمحذوف وقع صفةً له، مبيِّنةً لفخامته الإضافيّة إثرَ بيان فخامته الذاتيّة، مؤكِّدةً لها، أي: "على هدًى كائنٍ مِن عنده تعالى"،

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حيّة الأعرابي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨.

[٢] قال ابن جنّي في سرّ صناعة الإعراب، ١٠٦/١: «وأمّا إبدال الهمزة عن الياء والواو، فعلى ضربين: تُبدَل الهمزة منهما وهما أصلان، وتُبدَل منهما وهما زائدتان. الأولى: نحو قولك في "وجوه": "أجوه"، وفي "وعد": "أعد"، وفي "وُقِّتت": "أُقِّتت"»... إلخ.

[٣] وفي هامش ط س: معًا. | يعني: الضمّة والفتحة.

[٤] وفي هامش ط: معًا. | يعني: الضمّة والفتحة. | والبيت لجرير في ديوانه بشرح محمّد بن حبيب، ٢٨٨/١، وفي مطبوعه: "لو" مكان "إذ".

[٥] س: تعالى.

[٦] ي - على.

[٧] وفي هامش س: مبتدأ.

[٨] ي: بشيء.

[٩] وفي هامش ي: استعارتها.

[١٠] ي: المركوب.

[١١] ي: جعله.

[١٢] وفي هامش أ: خبر مبتدأ.

وهو شاملٌ[١] لجميع أنواع هدايته تعالى وفنونِ توفيقه. والتعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميرهم لغاية تفخيم الموصوف والمضافِ إليهم وتشريفِهما،[٢] ولزيادة تحقيق مضمون الجملة، وتقريرِه ببيانِ ما يوجبه ويقتضيه. وقد أُدغمت "النونُ" في "الراء" بغُنّة وبغير غنّة.[٣]

والجملة على تقدير كون الموصولَين موصولَين[٤] بـ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ مستقلّةٌ، لا محلَّ لها مِن الإعراب، مقرِّرةٌ لمضمون قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٥] مع زيادةِ تأكيدٍ له وتحقيقٍ؛ كيف لا، وكونُ الكتاب هدًى لهم فنٌّ مِن فنون ما مُنِحوه واستقرّوا عليه مِن الهدى حسبما تحقّقتَه، لاسيّما مع ملاحظة ما يستتبعه مِن الفوز والفلاح، وقيل: واقعةٌ موقِعَ الجواب عن سؤالٍ[٦] ينشأ ممّا سبق، كأنّه قيل: ما للمنعوتين بما ذُكر مِن النعوت اختُصُّوا بهداية ذلك الكتاب العظيمِ الشأنِ؟ وهل هم أحِقّاءُ بتلك الأثَرَة؟ فأجيبَ بأنّهم بسبب اتّصافهم بذلك مالكون لزِمام أصلِ الهدى الجامعِ لفنونه المستتبعِ للفوز والفلاح، فأيُّ ريبٍ في استحقاقهم لِما[٧] هو فرع مِن فروعه؟ ولقد جارَ[٨] عن سَنَن الصواب مَن قال في تقرير الجواب: إنّ أولئك الموصوفين غيرُ مستبعَدٍ أن يفوزوا -دون الناس- بالهدى عاجلًا، وبالفلاح آجلًا.

وأمّا على تقدير كونِهما مفصولَين عنه، فهي في محلّ الرفع على أنّها[٩] خبر للمبتدأ الذي هو الموصول الأوّل، والثاني معطوف عليه، وهذه الجملة[١٠] استئنافٌ وقع جوابًا عن سؤالٍ ينساق إليه الذهنُ مِن تخصيص ما ذُكر بالمتّقين قبل بيان مبادئ استحقاقهم لذلك، كأنّه قيل: ما بالُ المتّقين مخصوصِين به؟ فأجيبَ بشرح ما انطوى عليه اسمُهم إجمالًا مِن نعوت الكمال، وبيانِ ما يستدعيه مِن النتيجة،

---

١ ط: متناول.

٢ ي: تشريفهما.

٣ ط س: وبغيرها. | انظر لتفصيل الإدغام بغنّة وبغيرها: النشر لابن الجزري، ٢/٢٣-٢٤.

٤ ي - موصولين.

٥ البقرة، ٢/٢.

٦ ط ي + ربّما. | كُشط في نسخة س، وبدونه في نسخة أ.

٧ ي: بما.

٨ ي: جاز.

٩ ي: أنّها.

١٠ وفي هامش س ي: أي: الجملة الحاصلة مِن الموصول الذي خبره جملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾ [(١)]. «منه». | [(١)] هامش س - ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾.

أي: الذين هذه شئونهم أحِقّاءُ بما هو أعظمُ مِن ذلك، كقولك: "أُحِبّ الأنصارَ الذين قارعوا دون رسول الله صلّى الله عليه وسلّم،[١] وبذلوا مُهْجتَهم[٢] في سبيل الله، أولئك سَواد عيني، وسُوَيداءُ قلبي".

واعلم أنّ هذا المسلَك يُسلَك تارةً بإعادة اسمِ مَن استُؤنِفَ عنه الحديثُ، كقولك: "أحسنتَ إلى زيد، زيدٌ حقيقٌ بالإحسان"، وأخرى بإعادة صفته، كقولك: "أحسنتَ إلى زيد، صديقُك القديم أهلٌ لذلك"، ولا ريبَ في أنّ هذا أبلغُ مِن الأوّل لِما فيه مِن بيان الموجِب للحُكم. وإيراد اسم الإشارة بمنزلة إعادة الموصوف بصفاته المذكورة، مع ما فيه مِن الإشعار بكمال تميّزِه بها، وانتظامِه بسبب ذلك في سِلك الأمور المشاهَدة، والإيماءِ إلى بُعد منزلته كما مرّ.

هذا، وقد جُوّز أن يكون الموصول الأوّل مُجرًى على ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ حسبما فُصّل،[٣] والثاني مبتدأً، و﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾... إلخ خبره، ويُجعَلَ اختصاصُهم بالهدى والفلاح تعريضًا بغير المؤمنين مِن أهل الكتاب، حيث كانوا يزعُمون أنّهم على الهدى ويطمَعون في نَيل الفلاح.

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ تكرير اسم الإشارة لإظهار مزيد العناية بشأن المشار إليهم، وللتنبيه على أنّ اتّصافهم بتلك الصفات يقتضي نيلَ كلّ واحدة مِن تَينك الأثَرَتَين، وأنّ كلًّا منهما كافٍ في تميّزهم بها عمّن عداهم، ويؤيّده توسيط العاطف بين الجملتين، بخلاف ما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾ [الأعراف، ١٧٩/٧]، فإنّ التسجيل عليهم بكمال الغفلة عبارةٌ عمّا يفيده تشبيهُهم بالبهائم، فيكون الجملة الثانية مقرِّرةً للأولى، وأمّا الإفلاح / الذي هو عبارة عن الفوز بالمطلوب، فلمّا كان مغايِرًا للهدى نتيجةً له وكان كلٌّ [١٣ظ] منهما في نفسه أعزَّ مرامٍ يتنافس فيه المتنافِسون، فُعِل ما فُعِل.

و﴿هُمْ﴾ ضميرُ فصلٍ يفصِل الخبرَ عن الصفة، ويؤكِّد النسبةَ، ويفيد اختصاصَ المُسنَد بالمُسنَد إليه، أو مبتدأٌ، خبرُه ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، والجملةُ خبرٌ لـ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾.

---

[١] ي: عليه السلام.

[٢] المُهْجة: الدم، وقيل: دم القلب خاصّةً. وخرجتْ مُهجتُه، أي: روحه. مختار الصحاح للرازي، «مهج».

[٣] انظر: تفسير البقرة، ٥/٢.

وتعريف "المفلحين" للدلالة على أنّ المتّقين هم الناسُ الذين بلغك أنّهم المفلحون في الآخرة، أو إشارة إلى ما يعرفه كلُّ أحد مِن حقيقة المفلحين وخصائصهم. هذا، وفي بيان اختصاص المتّقين بنيل هذه المراتب الفائقة على فنونٍ مِن الاعتبارات الرائقة اللائقة -حسبما أشيرَ إليه في تضاعيف تفسير الآية الكريمة- مِن الترغيب في اقتفاء أثَرهم والإرشادِ إلى اقتداء سِيَرهم ما لا يخفى مكانُه. والله وليّ الهداية والتوفيق.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ كلام مستأنَف سيق لشرح أحوال الكَفَرة الغُواة المَرَدة العُتاة إثرَ بيان أحوال أضدادهم المتّصفين بنعوت الكمال الفائزين بمباغيهم في الحال والمآل. وإنّما تُرِك العاطف بينهما ولم يُسلَك به[1] مسلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾ [الانفطار، ٨٢/١٣-١٤] لِما بينهما مِن التنافي في الأسلوب والتباينِ في الغرض: فإنّ الأُولى مسوقة لبيان رفعة شأن الكتاب في باب الهداية والإرشاد، وأمّا التعرّض لأحوال المهتدين به، فإنّما هو بطريق الاستطراد سواء جُعل الموصول موصولًا بما قبله أو مفصولًا عنه، فإنّ الاستئناف مبنيّ على سؤالٍ نشأ مِن الكلام المتقدِّم، فهو مِن مستتبِعاته لا محالة. وأمّا الثانية فمسوقة لبيان أحوال الكفرة أصالةً، وترامي أمرِهم في الغَواية والضلال إلى حيث لا يُجديهم الإنذار والتبشير، ولا يؤثّر فيهم العِظة والتذكير، فهُمْ ناكبون في تِيه الغيّ والفساد عن منهاجِ العقول، وراكبون في مسلك المكابرة والعناد متنَ كلّ صعب وذَلول. وإنّما أُوثِرت هذه الطريقة ولم يؤسَّس الكلام على بيان أنّ الكتاب هادٍ للأوّلين وغيرُ مُجدٍ للآخرين؛ لأنّ العنوان الأخير ليس ممّا يُورِثه كمالًا حتّى يَتعرّضَ له في أثناء[2] تعداد كمالاته.

و﴿إِنَّ﴾ مِن الحروف التي تُشابِه الفعلَ في عدد الحروف، والبناءِ على الفتح، ولزومِ الأسماء، ودخولِ نون الوِقاية عليها، كـ"إنّني" و"لعلّني" ونظائرهما،

---

[1] ي - به.

[2] ي: تضاعيف.

وإعطاءِ معانيه، والمتعدّيَ خاصّةً في الدخول على اسمين؛ ولذلك أُعملت عملَه الفرعيّ، وهو نصبُ الأوّل ورفعُ الثاني إيذانًا بكونه فرعًا في العمل دخيلًا فيه، وعند الكوفيّين لا عملَ لها[١] في الخبر؛ بل هو باقٍ على حاله بقضيّة الاستصحاب؛ وأجيبَ بأنّ ارتفاع الخبر مشروط بالتجرّد عن العوامل، وإلّا لَما انتصب خبرُ "كان"، وقد زال بدخولها،[٢] فتعيَّنَ[٣] إعمالُ الحرف.

وأثرُها تأكيد النسبة وتحقيقُها؛ ولذلك يتلقّى بها القَسم، ويصدَّر بها الأجوبة، ويُؤتى بها في[٤] مواقع الشكّ والإنكار لدفعه وردِّه. قال المبرِّد:[٥] «قولك: "عبد الله قائم" إخبارٌ عن قيامه، و"إنّ عبد الله قائم" جوابُ سائل عن قيامه شاكٍّ فيه، و"إنّ عبد الله لقائمٌ" جوابُ منكِرٍ لقيامه».[٦]

وتعريف الموصول إمّا للعهد، والمراد به ناس بأعيانهم كأبي لهب[٧]

---

١ ط س: له.

٢ أي: وقد زال ارتفاع الخبر بدخول العوامل.

٣ ط: فلا بدّ مِن.

٤ ي - في.

٥ هو محمّد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي الثُّمالي، أبو العبّاس المبرِّد (ت. ٢٨٦هـ/٩٠٠م). شيخ أهل النحو والعربيّة. وكان مِن أهل البصرة. أخذ عن أبي عمر الجرمي وأبي عثمان المازني وأبي حاتم السجستاني وغيرهم مِن أهل العربيّة. وأخذ عنه الصولي ونِفطوَيه النحوي وأبو عليّ الطوماري وجماعة كثيرة. وله مِن التصانيف: **معاني القرآن**، **والكامل المقتضَب**، **والروضة**، **والقوافي**، **ونسب عدنان وقحطان**، **والردّ على سيبويه**، **وما اتّفق لفظه واختلف معناه**، وغير ذلك. انظر: **نزهة الألبّاء** للأنباري، ١٦٤-١٧٣؛ **وبغية الوعاة** للسيوطي، ٢٦٩-٢٧١.

٦ رُوي أنّ الكِندي المتفلسِف ركِب إلى المبرّد وقال: «إنّي أجد في كلام العرب حشوًا، أجد العرب تقول: "عبد الله قائم"، ثمّ يقولون: "إنّ عبد الله قائم"، ثمّ يقولون: "إنّ عبد الله لَقائم"، فقال المبرِّد: «بل المعاني مختلفةٌ لاختلاف الألفاظ، فقولهم: "عبد الله قائم" إخبار عن قيامه، وقولهم: "إنّ عبد الله قائم" جواب عن سؤال سائل، وقولهم: "إنّ عبد الله لَقائم" جواب عن إنكار منكِرٍ لقيامه». انظر: **الإيضاح** للقزويني، ص ٩٣؛ **واللباب** لابن عادل، ١/٣٠٧.

٧ هو عبد العُزّى بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصيّ، أبو عُتبة (ت. ٢هـ/٦٢٤م). عمُّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وأحدُ الأشراف الشجعان في الجاهليّة، ومِن أشدّ الناس عداوةً للمسلمين في الإسلام. كان فائقَ الجمال، فكناه أبوه "أبا لهب" لذلك. وكان غنيًّا عتيًّا، كبُرَ عليه أنْ يتبع دينًا جاء به ابنُ أخيه، فآذى أنصارَه وحرّض عليهم وقاتَلهم، وفيه السورة الكريمة: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾... إلخ. وابناه عُتبة ومعتّب أسلَمَا يومَ الفتح، فسُرَّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بإسلامهما ودعا لهما. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ١/٩٣، ٤/٥٩، ٥/٤٥٥؛ **والأنساب** للبلاذري، ٤/٣٠٣؛ **والاستيعاب** للنمري، ٣/١٠٣٠، ٣/١٤٣٠؛ **والأعلام** للزركلي، ٤/١٢.

وأبي جهل[١] والوليد بن المغيرة[٢] وأضرابهم وأحبارِ اليهود، أو للجنس، وقد خُصَّ منه غيرُ المصرّين بما أسند إليه مِن[٣] قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ﴾... إلخ.[٤]

والكُفر في اللغة: سترُ النعمة، وأصله "الكَفر" بالفتح، أي: الستر، ومنه قيل للزارع والليل "كافرٌ"، قال[٥] تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد، ٢٠/٥٧]، وعليه قول[٦] لَبيد:[٧]

فـي لـيـلـةٍ كَـفَـرَ الـنـجـومَ غَـمـامُـهـا[٨]

ومنه "المتكفِّر[٩] بسلاحه"، وهو الشاكي الذي غطّى السلاحُ بَدَنَه. وفي الشريعة: إنكار ما عُلم بالضرورة مجيءُ الرسول عليه السلام به، وإنّما عُدَّ

---

[١] هو عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القُرَشي، أبو الحَكَم (ت. ٢هـ/٦٢٤م). أحدُ سادات قريش وأبطالِها ودهاتها في الجاهليّة، وأشدُّ الناس عداوةً للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم في صدر الإسلام. واستمرّ على عداوته، يثير الناسَ على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأصحابِه، لا يفتر عن الكيد لهم والعمل على إيذائهم، حتّى كانت وقعة بدر الكبرى، فشهدها مع المشركين، فكان مِن قَتْلاها. كناه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم "أبا جهل"؛ لأنّه كان يُكنى قبل ذلك "أبا الحَكَم". ورُوي عنه عليه السلام أنّه قال: «لكلّ أمّة فرعونُ، وفرعونُ هذه الأمّة: أبو جهل». انظر: **الأنساب** للبلاذري، ١٢٥/١-١٣٠؛ **والأعلام** للزركلي، ٨٧/٥.

[٢] هو الوليد بن المغيرة بن عبد الله المخزومي، أبو عبد شمس (ت. ١هـ/٦٢٢م). مِن قُضاة العرب في الجاهليّة، ومِن زعماء قريش. يقال له "العدل"؛ لأنّه كان يعدِل قريشًا كلَّها: كانت قريش تكسو "البيتَ" جميعها، والوليد يكسوه وحده. وكان ممّن حرّم الخمر في الجاهليّة، وضرب ابنَه هشامًا على شُربها. وأدرك الإسلام وهو شيخ هرِمٌ، فعاداه وقاوَمَ دعوته. وهو الّذي جمع قريشًا وقال: «إنّ الناس يأتونكم أيّامَ الحجّ فيسألونكم عن محمّد، فتختلف أقوالُكم فيه، فيقول هذا: كاهن، ويقول هذا: شاعر، ويقول هذا: مجنون، وليس يشبه واحدًا ممّا يقولون؛ ولكن أصلح ما قيل فيه: "ساحر"؛ لأنّه يفرّق بين المَرء وأخيه والزوجِ وزوجته». وهلك بعد الهجرة بثلاثة أشهر، ودُفن بالحجون. انظر: **الأنساب** للبلاذري، ١٣٣/١-١٣٧؛ **والأعلام** للزركلي، ١٢٢/٨.

[٣] ي - مِن.

[٤] ي: الآية.

[٥] ي + الله.

[٦] ط: وقال.

[٧] هو لَبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر العامري، أبو عَقيل (ت. ٤٠-٤١هـ/٦٦٠-٦٦١م). أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهليّة. أدرك الإسلام، ووفد على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ويُعدّ مِن الصحابة ومِن المؤلَّفة قلوبهم. وترك الشعر، فلم يَقل في الإسلام إلّا بيتًا واحدًا. وسكن الكوفة، وعاش عمرًا طويلًا. انظر: **الشعر والشعراء** لابن قتيبة، ٢٦٦-٢٧٧؛ **والأعلام** للزركلي، ٢٤٠/٥.

[٨] **البيت في ديوانه**، ص ٣٠٩، وصدره:

يَـعـلـو طـريـقـةَ مَـتْـنِـهـا مُـتـواتِـرٌ

[٩] ي: متفكّر.

لبسُ الغِيار[١] وشدّ الزُّنّار[٢] بغير اضطرار ونظائرُهما كفرًا لدلالته على التكذيب، فإنّ مَن صدّق النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لا يكاد يجترئ على أمثال ذلك، إذ لا داعيَ إليه كالزِّنا وشُرب الخمر.

واحتجّت المعتزلة على حدوث القرآن بما جاء فيه بلفظ الماضي على وجه الإخبار؛ فإنّه يستدعي سابقةَ المُخبَر عنه لا محالة. وأجيبَ بأنّه مِن مقتضيات التعلّق، وحدوثُه لا يستدعي حدوثَ الكلام، كما أنّ حدوث تعلّق العلم بالمعلوم لا يستدعي حدوثَ العلم.

﴿سَوَآءٌ﴾ هو اسم بمعنى الاستواء، نُعِت به كما يُنعَت بالمصادر مبالغةً، قال[٣] تعالى: ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ [آل عمران، ٦٤/٣]، وقولُه تعالى: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ متعلِّق به، ومعناه: "عندهم". وارتفاعُه على أنّه خبر لـ﴿إِنَّ﴾، وقوله تعالى: ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ مرتفِعٌ به على الفاعليّة؛ لأنّ الهمزة و﴿أَمۡ﴾ مجرَّدتان عن معنى الاستفهام لتحقيق[٤] الاستواء بين مدخولَيهما، كما جُرِّد الأمر والنهي لذلك عن معنيَيهما في قوله تعالى:[٥] ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾،[٦] وحرفُ النداء في قولك: "اللّٰهمّ اغفِرْ لنا أيّتها العِصابة" عن معنى الطلب لمجرَّد التخصيص، كأنّه قيل: "إنّ الذين كفروا مستوٍ عليهم إنذارُك وعدمُه"، كقولك: "إنّ زيدًا مختصِمٌ أخوه وابنُ عمّه"، أو مبتدأ،[٧] و﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ خبرٌ قُدّم عليه اعتناءً بشأنه، والجملة خبرٌ لـ﴿إِنَّ﴾.

والفعل إنّما يمتنع الإخبار عنه عند بقائه على حقيقته. أمّا لو أُريدَ به اللفظ / أو مطلَق الحَدَث المدلولِ عليه ضمنًا على طريقة الاتّساع، فهو كالاسم في الإضافة والإسناد إليه، كما في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡ﴾ [المائدة، ١١٩/٥] [١٤و]

---

١ الغِيار: علامة أهل الذمّة، وقيل: هو علامة اليهود. تاج العروس للزبيدي، «غير».

٢ الزُّنّار: ما يلبسه الذمّيّ يشدّه على وسطه. تهذيب اللغة للأزهري، ١٣١/١٣ «باب الزاي والراء».

٣ ي + الله.

٤ ي: لتحقّق.

٥ ط: عزّ وجلّ.

٦ ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة، ٨٠/٩].

٧ السياق: مرتفِعٌ به على الفاعليّة... أو مبتدأ...

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا﴾[١] [البقرة، ١١/٢] وفي قولهم: "تَسمَع بالمُعَيْدِيّ خيرٌ مِن أن تراه"،[٢] كأنّه قيل: إنذارُك وعدمُه سِيّانٌ عليهم. والعُدول إلى الفعل لِما فيه مِن إيهام التجدّد، والتوصّلُ إلى إدخال الهمزة ومُعادِلها[٣] عليه لإفادة تقرير معنى الاستواء وتأكيده كما أشيرَ إليه.

وقيل: ﴿سَوَآءٌ﴾ مبتدأ وما بعده خبره، وليس بذاك؛ لأنّ مقتضى المقام بيانُ كون الإنذار وعدمِه سواءً، لا بيانُ كون المستوي الإنذارَ وعدمَه.

والإنذار: إعلام المَخوف للاحتراز عنه، "إفعال" مِن "نذر بالشيء" إذا علِمه فحذِره. والمراد ههنا[٤] التخويف مِن عذاب الله تعالى وعقابِه على المعاصي. والاقتصار عليه لِما أنّهم ليسوا بأهلٍ[٥] للبشارة أصلًا، ولأنّ الإنذار أوقَعُ في القلوب، وأشدُّ تأثيرًا في النفوس، فإنّ دفع المضارّ أهمّ مِن جلب المنافع، فحيث لم يتأثّروا به فلَأنْ لا يرفعوا للبشارة رأسًا أَولى.

وقُرئ بتوسيط ألِف بين الهمزتين مع تحقيقهما، وبتوسيطها والثانية بين بين،[٦] وبتخفيف الثانية بين بين بلا توسيط،[٧] وبحذف حرف الاستفهام،[٨] وبحذفه وإلقاءِ حركته على الساكن قبله،[٩] كما قُرئ: "قَدَ افْلَحَ"،[١٠] وقُرئ بقلب الثانية ألفًا،[١١] وقد نُسب ذلك إلى اللحن.[١٢]

﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جملة مستقلّة مؤكِّدة لِما قبلها، مبيِّنة لِما فيه مِن إجمالِ ما فيه الاستواء، فلا محلَّ لها مِن الإعراب، أو حال مؤكِّدة له، أو بدل منه،[١٣]

---

[١] س + في الأرض.

[٢] مثلٌ يُضرَب لِمن خبره خيرٌ مِن مَرْآه. ويُروى: "لأنْ تسمعَ" و"أنْ تسمعَ"، ويُروى: "تسمَعُ بالمُعَيْدِيّ لا أنْ تراه". انظر لقصّته: مجمع الأمثال للميداني، ١٢٩/١.

[٣] ي: معادلهما.

[٤] ي – ههنا.

[٥] ي: أهل.

[٦] قوله: "بين بين"، أي: بين التحقيق والتسهيل.

[٧] انظر لتخريج هذه القراءات الثلاث: السبعة لابن مجاهد، ص ١٣٤-١٣٥؛ والنشر لابن الجزري، ٣٦٢/١-٣٦٥.

[٨] قراءة شاذّة. المحتسَب لابن جنّي، ٥٠/١. ونسبها ابن عطيّة في المحرّر الوجيز، ٨٨/١، إلى الزهري وابن مُحيصن.

[٩] أي: "عَلَيْهِمَ انْذَرْتَهُمْ"، قراءة شاذّة، ذكرها أبو حيّان في البحر المحيط، ٧٩/١، ونسبها إلى أبيّ بن كعب.

[١٠] رواها ورش عن نافع. الحجّة لأبي عليّ الفارسي، ٣٩٢/١.

[١١] انظر: النشر لابن الجزري، ٣٦٣/١.

[١٢] هو الزمخشري في الكشّاف، ٤٨/١. وعارَضَه أبو حيّان في البحر المحيط، ٧٩/١.

[١٣] ي – منه.

أو خبر لـ﴿إِنَّ﴾ وما قبلها اعتراض بما هو علّة للحكم، أو خبرٌ ثانٍ على رأي مَن يجوّزه عند كونه جملةً.

والآية الكريمة ممّا استُدِلّ به على جواز التكليف بما لا يُطاق؛ فإنّه تعالى قد أخبر عنهم بأنّهم لا يؤمنون، فظهر استحالةُ إيمانهم لاستلزامه المستحيلَ الذي هو عدم مطابقة إخباره تعالى للواقع مع كونهم مأمورين بالإيمان باقين على التكليف، ولأنّ مِن جملة ما كُلّفوه الإيمانُ بعدم إيمانهم المستمرّ. والحقّ أنّ التكليف بالممتنِع لذاته، وإن جاز عقلًا مِن حيث إنّ الأحكام لا تستدعي[1] أغراضًا لاسيّما الامتثال، لكنّه غير واقع للاستقراء، والإخبارُ بوقوع الشيء أو بعدمه لا ينفي القدرة عليه، كإخباره تعالى عمّا يفعله هو أو العبدُ باختياره، وليس ما كُلّفوه الإيمانُ بتفاصيل ما نطق به القرآن حتّى يلزم أن يُكلَّفوا الإيمانَ بعدم إيمانهم المستمرّ؛ بل هو الإيمان بجميع ما جاء به النبيّ[2] صلّى الله عليه وسلّم إجمالًا على أنّ كون الموصول عبارةً عنهم ليس معلومًا لهم.

وفائدة الإنذار بعد العلم بأنّه لا يفيد إلزامُ الحجّة وإحرازُ الرسول عليه السلام فضلَ الإبلاغ؛ ولذلك قيل: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾، ولم يُقل: "عليك" كما قيل لعَبَدة الأصنام: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ [الأعراف، ١٩٣/٧]. وفي الآية الكريمة إخبار بالغيب على ما هو به إن أُريدَ بالموصول أشخاص بأعيانهم، فهي مِن المعجزات الباهرة.

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ استئناف تعليليّ لِما سبق مِن الحكم وبيان لِما يقتضيه، أو بيان وتأكيد له. والمراد بـ"القلب" محلُّ القوّة العاقلة مِن الفؤاد. والختم على الشيء: الاستيثاق منه بضرب الخاتم عليه صيانةً له، أو لِما فيه مِن التعرّض له كما في البيت الفارغ والكِيس المملوء، والأوّل هو الأنسب بالمقام، إذ ليس المراد به صيانةَ ما في قلوبهم؛ بل إحداث حالة تجعلها[3] بسبب تَماديهم في الغيّ

---

[1] ي: إنّ الإمكان لا يستدعي.

[2] ي - النبيّ.

[3] ط: يجعلها.

وانهماكِهم في التقليد وإعراضِهم عن منهاج النظر الصحيح بحيث لا يؤثّر فيها الإنذار، ولا ينفُذ فيها الحقُّ أصلًا؛ إمّا على طريقة الاستعارة التَّبَعيّة بأن يشبَّه ذلك بضرب الخاتم على نحو أبواب المنازل الخالية المبنيّة للسُّكنى تشبيهَ معقولٍ بمحسوس بجامع عقليّ هو الاشتمال على منع القابل عمّا مِن شأنه وحقِّه أن يقبله، ويستعارَ له الختم، ثمّ يشتقَّ منه صيغة الماضي، وإمّا على طريقة التمثيل بأن يشبَّه الهيئة المنتزعة مِن قلوبهم -وقد فُعل بها ما فُعل مِن إحداث تلك الحالة[١] المانعة مِن أن يصل إليها ما خُلقت هي لأجله مِن الأمور الدينيّة النافعة، وحِيلَ بينها وبينه[٢] بالمرّة- بهيئةٍ منتزعةٍ مِن محالّ[٣] مُعَدّةٍ لحلول ما يحُلّها حُلولًا مستتبِعًا لمصالحَ مهمّةٍ، وقد مُنع مِن ذلك بالختم عليها وحِيلَ بينها وبين ما أُعدّت لأجله بالكلّيّة، ثمّ يستعارَ لها ما يدلّ على الهيئة المشبَّه بها، فيكون كلٌّ مِن طرفَي التشبيه مركَّبًا مِن أمور عدّة قد اقتُصر مِن جانب المشبَّه به على ما عليه يدور الأمر في تصوير تلك الهيئة وانتزاعها، وهو الختم، والباقي منويٌّ مرادٌ قصدًا بألفاظ متخيَّلة بها يتحقّق التركيب.

وتلك الألفاظ، وإن كان لها مدخل في تحقيق وجه الشَّبَه الذي هو أمر عقليّ منتزَع منها -وهو امتناع الانتفاع بما أُعِدَّ له بسبب مانع قويّ- لكنْ ليس في شيء منها على الانفراد تجوّزٌ باعتبار هذا المجاز؛ بل هي باقية على حالها مِن / كونها حقيقةً أو مجازًا أو كنايةً، وإنّما التجوّز في المجموع. [١٤ظ] وحيث كان معنى المجموع مجموعَ معاني تلك الألفاظ التي ليس فيها التجوّز المعهود، ولم تكن[٤] الهيئة المنتزعة منها[٥] مدلولًا وضعيًّا لها ليكون ما دلّ على الهيئة المشبَّه بها عند استعماله في الهيئة المشبَّهة مستعمَلًا في غير ما وُضع له، فيندرجَ تحت الاستعارة التي هي قِسم مِن المجاز اللغويّ الذي هو عبارة عن الكلمة المستعمَلة في غير ما وُضع له، ذهب[٦] قدماء المحقِّقين

---

[١] ي - الحالة.

[٢] وفي هامش ي: أي: بين ما خُلقت هي له. «منه».

[٣] ي: حال.

[٤] ي: يكن.

[٥] ط ي: مِن معانيها [صُحّح في هامش ط].

[٦] السياق: وحيث كان... ولم تكن... ذهب قدماء المحقِّقين...

كالشيخ عبدِ القاهر[١] وأضرابه إلى جعل التمثيل قسمًا برأسه. ومَن رام تقليلَ الأقسام عَدَّ تلك الهيئة المشبَّهَ بها مِن قبيل المدلولات الوضعيّة، وجعَلَ الكلام المفيدَ لها عند استعماله فيما يشبَّه بها مِن هيئة أخرى منتزَعةٍ مِن أمور أُخَرَ مِن قبيل الاستعارة، وسمّاه[٢] استعارةً تمثيليّةً.

وإسناد إحداث تلك الحالة في قلوبهم إلى الله تعالى لاستناد جميع الحوادث عندنا مِن حيث الخلقُ إليه سبحانه وتعالى. وورود الآية الكريمة ناعيةً عليهم سُوءَ صنيعهم ووخامةَ عاقبتهم لكون أفعالهم مِن حيث الكسبُ مستنِدةً إليهم، فإنّ خلقها منه سبحانه ليس[٣] بطريق الجبر؛ بل بطريق الترتيب على ما اقترفوه مِن القبائح كما يُعرِب عنه قوله تعالى: ﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ﴾[٤] ونحو ذلك.

وأمّا المعتزلة فقد سلكوا مسلكَ التأويل، وذكروا في ذلك عدّةً مِن الأقاويل: منها: أنّ القوم لمّا أعرضوا عن الحقّ وتمكَّنَ ذلك في قلوبهم حتّى صار كالطبيعة لهم شُبّه بالوصف الخِلقيّ المجبول عليه، ومنها: أنّ المراد به[٥] تمثيل قلوبهم بقلوب البهائم التي خلقها الله تعالى خاليةً عن الفِطَن، أو بقلوبٍ قُدّر ختم الله تعالى[٦] عليها كما في: "سال به الوادي" إذا هلك، و"طارت به العنقاءُ" إذا طالت غَيْبته، ومنها: أنّ ذلك فعلُ الشيطان أو الكافر، وإسنادُه إليه سبحانه

---

[١] هو عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمّد الجرجاني، أبو بكر (ت. ٤٧١هـ/١٠٧٨-١٠٧٩م). وواضعُ أصول البلاغة، ومِن أكابر النحويّين. مِن أهل جُرجان (بين طَبرسات وخُراسان)، ولم يخرج عنها في طلب العلم. أخذ النحو بجرجان عن الشيخ أبي الحسين محمّد بن الحسن، نزيلِ جرجان، ابنِ أخت الشيخ أبي عليّ الفارسي، وأكثَرَ عنه. وصنّف تصانيفَ كثيرةً، منها: **كتاب المغني في شرح الإيضاح** لأبي عليّ الفارسي، وهو نحو ثلاثين مجلّدًا، و**كتاب المقتصِد في شرح الإيضاح** أيضًا، و**كتاب العوامل**، و**كتاب الجمل**، و**أسرار البلاغة**، و**دلائل الإعجاز**، و**إعجاز القرآن**، إلى غير ذلك. انظر: **نزهة الألبّاء** للأنباري، ص ٢٦٤؛ و**إنباه الرواة** للقِفطي، ١٨٨-١٩٠؛ و**الأعلام** للزركلي، ٤/٤٨-٤٩.

[٢] ط: سمّاها.

[٣] ي - ليس.

[٤] ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء، ٤/١٥٥].

[٥] ي - به.

[٦] ي - تعالى.

باعتبار كونه بإقداره تعالى وتمكينه، ومنها: أنّ أعراقهم لمّا رسَخت في الكفر واستحكمت بحيث لم يبق إلى تحصّل[١] إيمانهم طريقٌ سوى الإلجاءِ والقسرِ، ثمّ لم يفعل ذلك محافظةً على حكمة التكليف، عُبّر عن ذلك بـ"الختم"؛ لأنّه سدٌّ لطريق إيمانهم بالكلّيّة، وفيه إشعار بترامي أمرهم في الغيّ والعناد وتناهي انهماكهم في الشرّ والفساد، ومنها: أنّ ذلك حكاية لِما كانت الكَفَرة يقولونه مِثل قولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت، ٥/٤١] تهكّمًا بهم، ومنها: أنّ ذلك في الآخرة، وإنّما أُخبرَ عنه بالماضي لتحقُّق وقوعه، ويعضُده قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا﴾ [الإسراء، ٩٧/١٧]، ومنها: أنّ المراد بـ"الختم" وسْمُ قلوبهم بسِمَةٍ يعرفها الملائكة، فيبغُضونهم ويتنفّرون عنهم.

﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ عطفٌ على ما قبله داخلٌ في حكم الختم لقوله عزّ وجلّ: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾،[٢] وللوِفاق على الوقف عليه لا على قلوبهم، ولاشتراكهما في الإدراك مِن جميع الجوانب. وإعادة الجارّ للتأكيد والإشعارِ بتغايُر الختمين. وتقديم ختم قلوبهم للإيذان بأنّها الأصلُ في عدم الإيمان، وللإشعار بأنّ ختمها ليس بطريق التَّبَعيّة لختم سمعهم بناءً على أنّه طريق إليها، فالختم عليه ختمٌ عليها؛ بل هي مختومة بختمٍ على حِدَة، لو فُرض عدم الختم على سمعهم فهو باقٍ على حاله حسبما يُفصِح عنه قوله تعالى:[٣] ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال، ٢٣/٨].

والسمع: إدراك القوّة السامعة، وقد يُطلَق عليها وعلى العُضْوِ الحامل لها، وهو المراد ههنا، إذ هو المختوم عليه أصالةً. وتقديم حاله على حال أبصارهم للاشتراك بينه وبين قلوبهم في تلك الحال، أو لأنّ جنايتهم مِن حيث السمعُ الذي به يُتلقّى الأحكام الشرعيّة وبه يتحقّق الإنذار أعظَمُ منها مِن حيث البصرُ الذي به يشاهَد الأحوال الدالّة على التوحيد؛ فبيانها أحقُّ بالتقديم وأنسبُ بالمقام.

---

[١] ي: تحصيل.

[٢] ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية، ٢٣/٤٥].

[٣] ي: عزّ وجلّ.

قالوا: السمع أفضلُ مِن البصر؛ لأنّه عزّ وجلّ حيث ذكرهما قَدّم السمعَ على البصر، ولأنّ السمع شرطُ النبوّة؛ ولذلك ما بعث الله تعالى نبيًّا[١] أصمّ، ولأنّ السمع وسيلة إلى استكمال العقل بالمعارف التي تُتلقّف[٢] مِن أصحابها. وتوحيده للأمن عن اللبس[٣] واعتبارِ الأصل، أو لتقدير المضاف، أي: وعلى حواسّ سمعهم. والكلام في إيقاع الختم على ذلك كما مرّ مِن قبلُ.

﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞ﴾ الأبصار: جمع "بصر". والكلام فيه كما سمعتَه في "السمع". والغِشاوة: فِعالة مِن "التغشية"، أي: التغطية، بُنيت لِما يشتمل على الشيء كـ"العِصابة" و"العِمامة"، وتنكيرُها للتفخيم والتهويل، وهي على رأي سيبويه مبتدأٌ، خبرُه الظرفُ المقدَّم، والجملةُ معطوفة على ما قبلها، وإيثار الاسميّة للإيذان بدوام مضمونها، فإنّ ما يدرَك بالقوّة الباصرة مِن الآيات المنصوبة في الآفاقِ والأنفس حيث كانت مستمرّةً كان تَعاميهم مِن ذلك أيضًا كذلك، وأمّا الآيات التي تُتلقّى / بالقوّة السامعة، فلمّا كان وصولُها إليها حينًا فحينًا أُوثِرَ في [١٥و] بيان الختم عليها وعلى ما هي أحدُ طريقَي معرفتِه -أعني: القلب- الجملةُ الفعليّةُ، وعلى رأي الأخفش[٤] مرتفِعٌ على الفاعليّة ممّا تعلَّق به الجارّ.

وقُرئ بالنصب[٥] على تقدير فعلٍ ناصبٍ، أي: وجعَلَ على أبصارهم غِشاوةً، وقيل: على حذف الجارّ وإيصالِ الختم إليه، والمعنى: وختَمَ على أبصارهم بغِشاوةٍ.

---

[١] س: رسولًا.

[٢] ط: يتلقّفه.

[٣] ط س: الالتباس ["صح" في هامش س].

[٤] هو سعيد بن مَسْعدة المُجاشعي، أبو الحسن الأخفش الأوسط (ت. ٢١٥هـ/٨٣٠م [؟]). نحويّ، عالمٌ باللغة والأدب، وهو أحد الأخافش الثلاثة المشهورين. مِن أهل بلخ، وسكن البصرة. أخذ النحو عن سيبويه. وكان أحذقَ أصحابِ سيبويه مع أنّه أسنُّ منه. والطريق إلى كتاب سيبويه الأخفشُ، وذلك أنّه لم يَقرَأ الكتابَ على سيبويه أحدٌ، ولم يقرأه سيبويه على أحد، وإنّما قُرئ على الأخفش بعد موت سيبويه، فشرحه وبيّنه. وكان معتزليًّا. حدّث عن الكلبي والنَّخَعي وهشام بن عُروة، وروى عنه أبو حاتم السجستاني. وله مِن الكتب المصنّفة: كتاب الأوسط في النحو، ومعاني القرآن، والمقاييس في النحو، وكتاب الاشتقاق، وكتاب العروض، وكتاب القوافي، وكتاب الملوك. انظر: معجم الأدباء للحَمَوي، ٣/١٣٧٤-١٣٧٦؛ وإنباه الرواة للقفطي، ٣٦-٤٣؛ وبغية الوعاة للسيوطي، ١/٥٩٠-٥٩١.

[٥] أي: "غِشَاوَةً"، وهي قراءة عاصم مِن رواية المفضَّل الضَّبّي. السبعة لابن مجاهد، ص ١٣٨-١٣٩.

وقُرئ بالضمّ والرفع،[١] وبالفتح والنصب،[٢] وهما لغتان فيها، و"غِشْوَةٌ"[٣] بالكسر مرفوعةً، وبالفتح مرفوعةً[٤] ومنصوبةً،[٥] و"عِشَاوَةٌ"[٦] بالعين غيرِ المعجَمة والرفع.[٧]

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وعيد وبيان لِما يستحقّونه في الآخرة. و"العذاب" كـ"النَّكال" بناءً ومعنًى، يقال: "أعذَبَ عن الشيء" إذا أمسك عنه، ومنه "الماء العَذْب" لِما أنّه يقمَع العطشَ ويردَعه؛ ولذلك سُمّي "نُقاخًا"؛ فإنّه ينقُخ العطشَ ويكسِره، و"فُراتًا"؛ لأنّه[٨] يرفُتُه على القلب ويكسِره، ثمّ اتُّسِع فيه فأطلقَ على كلّ ألم فادح وإن لم يكن عقابًا يُراد به ردعُ الجاني عن المعاودة. وقيل: اشتقاقه مِن "التعذيب" الذي هو إزالة العذاب، كـ"التقذية" و"التمريض".

والعظيم: نقيض الحقير، والكبير: نقيض الصغير، فمِن ضرورة كون الحقير دونَ الصغير كونُ العظيم فوق الكبير، ويُستعملان في الجُثَث والأحداث، تقول: رجل عظيم وكبير، تريد جُثّته أو خَطَرَه. ووصفُ "العذاب" به لتأكيد ما يفيده التنكير مِن التفخيم والتهويلِ والمبالغةِ في ذلك، والمعنى: أنّ على أبصارهم ضربًا مِن الغِشاوة خارجًا ممّا يتعارفه الناس، وهي غِشاوة التعامي عن الآيات، ولهم مِن الآلام العظام نوعٌ عظيمٌ لا يُبلَغ كُنهه ولا يُدرَك غايته. اللّٰهمّ إنّا نعوذ بك مِن ذلك كلِّه يا أرحم الراحمين.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ شروع في بيانِ أنّ بعض مَن حُكيت أحوالهم السالفة ليسوا بمقتصِرين على ما ذُكر مِن محض الإصرار على الكفر والعناد؛ بل يضُمّون إليه

---

[١] أي: "غُشَاوَةٌ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ والحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩.

[٢] أي: "غُشَاوَةً"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن عبيد بن عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩.

[٤] أي: "غَشْوَةٌ"، قراءة شاذّة، ذكرها البيضاوي بلا نسبة في أنوار التنزيل، ١/٤٣.

[٥] أي: "غَشْوَةً"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي الرجاء. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩.

[٦] قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري بلا نسبة في الكشّاف، ١/٥٣.

[٧] ي - والرفع.

[٨] ي: فإنّه.

فنونًا أُخَرَ مِن الشرّ والفساد، وتعديدٌ لجناياتهم الشنيعة المستتبِعةِ لأحوال هائلة عاجلة وآجلة.

وأصل "ناسٍ": أُناس، كما يشهد له "إنسان" و"أناسيّ" و"إنس"، حُذفت همزته تخفيفًا كما قيل: "لُوقَةٌ" في "أَلُوقَةٍ"،[١] وعُوّض عنها حرفُ التعريف؛ ولذلك لا يكاد يُجمَع بينهما، وأمّا ما في قوله:

إنّ المَنايا يطَّلِعْـ ـنَ على الأُناس الآمنينَا[٢]

فشاذٌّ، سُمُّوا بذلك لظهورهم وتعلّقِ الإيناس بهم كما سُمّي الجنّ جِنًّا لاجتنانهم. وذهب بعضهم إلى أنّ أصله: "النَّوَسُ"، وهو الحركة، انقلبت واوه ألِفًا لتحرّكِها وانفتاحِ ما قبلها، وبعضُهم إلى أنّه مأخوذ مِن "نَسِيَ"، نُقلت لامُه إلى موضع العين، فصار "نَيَسًا"، ثمّ قُلبت ألِفًا، سُمُّوا بذلك لِنسيانهم، ويُروى عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه قال: «سُمّي الإنسانُ إنسانًا؛ لأنّه عُهد إليه فنَسي».[٣]

و"اللام" فيه إمّا[٤] للعهد، أو للجنس المقصور على المُصرّين حسبما ذُكر في الموصول، كأنّه قيل: "ومنهم" أو "مِن أولئك"، والعُدول إلى "الناس" للإيذان بكثرتهم كما يُنبئ عنه التبعيض. ومحلّ الظرف الرفعُ على أنّه مبتدأ باعتبار مضمونه، أو نعتٌ لمقدَّرٍ هو المبتدأ كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الجن، ١١/٧٢]، أي: وجمعٌ منّا... إلخ.

و﴿مَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَن يَقُولُ﴾ موصولة أو موصوفة، ومحلّها الرفع على الخبريّة، والمعنى: وبعض الناس، أو: وبعضٌ مِن الناس الذي يقول، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾... إلخ [التوبة، ٦١/٩]،[٥] أو: فريق يقول،

---

[١] اللُّوقة: الزُّبدة. وقال ابن الكلبي: «هو الزُّبد بالرُّطَب. وفيه لغتان: لُوقة وألُوقة»، حكاه عنه أبو عُبيد. **الصحاح** للجوهري، «لوق».

[٢] البيت لذي جدَن الحِميري في **خِزانة الأدب** للبغدادي، ٢٨٧/٢-٢٨٨، وبلا نسبة في **الصحاح** للجوهري، «أنس»؛ و**أمالي ابن الشجري**، ١٨٨/١؛ و**نهاية الأرب** للنُّوَيري، ٥/٢؛ و**تاج العروس** للزبيدي، «أنس».

[٣] **جامع البيان** للطبري، ١٨٣/١٦ (طه، ١١٥/٢٠)؛ **تفسير السمرقندي**، ٤١٤/٢ (طه، ١١٥/٢٠)، كلاهما باختلاف يسير.

[٤] ي – إمّا.

[٥] ي – إلخ؛ ي + عليه السلام.

كقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾... إلخ [الأحزاب، ٢٣/٣٣]، على أن يكون مناط الإفادة والمقصودُ بالأصالة اتّصافَهم بما في حيّز الصلة أو الصفة وما يتعلّق به مِن الصفات جميعًا، لا كونُهم[١] ذواتِ أولئك المذكورين.[٢]

وأمّا جعلُ الظرف خبرًا كما هو الشائع في موارد الاستعمال، فيأباه جزالة النظم الكريم؛[٣] لا لأنّ كونهم مِن الناس ظاهرٌ فالإخبار به عارٍ عن الفائدة كما قيل، فإنّ مبناه توهّمُ كون المراد بـ﴿ٱلنَّاسِ﴾ الجنسَ مطلَقًا، وكذا مدار الجواب عنه بأنّ الفائدة هو التنبيه على أنّ الصفاتِ المذكورةَ تُنافي الإنسانيّة، فحقُّ مَن يتّصف بها ألّا يُعلَمَ كونُه مِن الناس، فيُخبَرَ به ويُتعجّبَ منه، وأنت خبير بأنّ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ عبارة عن المعهودين أو عن الجنس المقصور على المُصرّين، وأيًّا ما كان فالفائدة ظاهرة؛ بل لأنّ خبريّة الظرف تستدعي أن يكون اتّصافُ هؤلاء بتلك الصفات القبيحة المفصّلة في ثلاث عشرةَ آيةً عنوانًا للموضوع مفروغًا عنه غيرَ مقصود بالذات، ويكونُ مناط الإفادة كونَهم مِن أولئك المذكورين، ولا ريبَ لأحد في أنّه يجب حمل النظم الجليل على أجزَل المعاني وأكملِها.

وتوحيد الضمير في ﴿يَقُولُ﴾ باعتبار لفظة ﴿مَنْ﴾، وجمعُه في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ وما بعده باعتبار معناها. والمراد بـ﴿ٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ مِن وقت الحشر إلى ما لا يتناهى، أو إلى أن يدخل أهل الجنّة الجنّةَ وأهلُ النار النارَ، إذ لا حدَّ / وراءه. وتخصيصهم للإيمان بهما بالذكر مع تكرير "الباء" [١٥ظ] لادّعاءِ أنّهم قد حازوا الإيمانَ مِن قُطرَيه وأحاطوا به[٤] مِن طرفَيه، وأنّهم قد آمنوا بكلٍّ منهما على الأصالة والاستحكام، وقد دَسُّوا تحته ما هم عليه مِن العقائد الفاسدة، حيث لم يكن إيمانُهم بواحد منهما إيمانًا في الحقيقة، إذ كانوا مشركين بالله بقولهم: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة، ٣٠/٩] وجاحدين باليوم الآخر بقولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة، ٨٠/٢] ونحو ذلك. وحكاية عبارتهم لبيان كمال خُبثهم ودعارتهم، فإنّ ما قالوا لو صدر عنهم لا على وجه الخِداع

---

[١] وفي هامش ط س ي: أي: كون بعض الناس أو كون بعض مِن الناس. «منه».

[٢] وفي هامش ط ي: أي: الموصوفين بالصفات المعدودة. «منه».

[٣] ط س ي: جزالة المعنى [صُحّح في هامش ط ي].

[٤] ي - به.

والنفاق وعقيدتُهم عقيدتُهم، لم يكن ذلك إيمانًا؛ فكيف وهم يقولونه[1] تمويهًا على المسلمين واستهزاءً بهم!

﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ ردٌّ لِما ادّعَوْه ونفيٌ لِما انتحلوه. و﴿مَا﴾ حِجازيّة، فإنّ جواز دخول "الباء" في خبرها لتأكيد النفي اتّفاقيٌّ، بخلاف التميميّة.[2] وإيثار الجملة الاسميّة على الفعليّة الموافقةِ لدعواهم المردودةِ للمبالغة في الردّ بإفادة انتفاء الإيمان عنهم في جميع الأزمنة، لا في الماضي فقط كما يفيده الفعليّة.

ولا يُتوهَّمَنَّ أنّ الجملة الاسميّة الإيجابيّة تفيد دوام الثبوت، فعند دخول النفي عليها يتعيَّن الدلالةُ على نفي الدوام، فإنّها بمَعونة المقام تدلّ على دوام النفي قطعًا، كما أنّ المضارع الخالي عن حرف الامتناع يدلّ على استمرار الوجود، وعند دخول حرف الامتناع عليه يدلّ على استمرار الامتناع، لا على امتناع الاستمرار، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس، ١١/١٠]، فإنّ عدم قضاء الأجل لاستمرار عدم التعجيل، لا لعدم استمرار التعجيل.

وإطلاق "الإيمان" عمّا قيّدوه به للإيذان بأنّهم ليسوا مِن جنس الإيمان في شيء أصلًا، فضلًا عن الإيمان بما ذَكَروا. وقد جُوّز أن يكون المراد ذلك، ويكونَ الإطلاق للظهور. ومدلول الآية الكريمة أنّ مَن أظهر الإيمان واعتقادُه بخلافه لا يكون مؤمِنًا، فلا حُجّة فيها على الكرّاميّة القائلين بأنّ مَن تفوَّهَ بكلمتَي الشهادة -فارغَ القلب عمّا يوافقه أو يخالفه- مؤمنٌ.

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بيان لـ﴿يَقُولُ﴾[3] وتوضيحٌ لِما هو غرضهم ممّا

---

[1] س: يقولون.

[2] قال إمام الحرمين الجويني في البرهان، ٥٢/١: «إنْ اتّصلت "ما" بالابتداء أو الخبر، فأهل الحجاز يَرون إحلالَها محلَّ "ليس"، فيرفعون بها الاسمَ وينصبون الخبر، وهي لغة القرآن، قال الله عزّ وجلّ: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف، ٣١/١٢]. وبنو تميم لا تُعمل "ما" النافية؛ لأنّها تدخل على الاسم والفعل. وقياس "ما" يدخل على البابين -أعني الاسم والفعل- ألّا يعمل في واحد منهما».

[3] في الآية السابقة.

يقولون، أو استئناف وقع جوابًا عن سؤالٍ ينساق إليه الذهن، كأنّه قيل: ما لهم يقولون ذلك وما هم بمؤمنين؟ فقيل: ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾... إلخ، أي: يَخدَعون، وقد قُرئ كذلك.[١] وإيثار صيغة المفاعلة لإفادة المبالغة في الكيفيّة، فإنّ الفعل متى غُولِبَ فيه بُولِغَ فيه قطعًا، أو في الكمّيّة كما في "الممارسة" و"المزاولة"، فإنّهم كانوا مداوِمين على الخَدْع.

والخَدْع: أن يوهِم صاحبَه خلافَ ما يريد به مِن المكروه ليوقِعَه فيه مِن حيث لا يحتسب، أو يوهِمَه المساعدةَ على ما يريد هو به ليغترَّ بذلك فينجُوَ منه بسهولة، مِن قولهم: ضَبٌّ خادعٌ وخَدِعٌ، وهو الذي إذا أمرَّ الحارشُ يدَه على باب جُحره يوهِمُه الإقبالَ عليه فيخرج مِن بابه الآخر. وكِلا المعنيين مناسبٌ للمقام، فإنّهم كانوا يريدون بما صنعوا أن يطّلعوا على أسرار المؤمنين فيذيعوها إلى المنابذين، وأن يدفعوا عن أنفسهم ما يصيب سائرَ الكَفَرة.

وأيًّا ما كان، فنِسبته إلى الله سبحانه إمّا على طريقة الاستعارة والتمثيل لإفادة كمال شناعة جنايتهم، أي: يعاملون معاملةَ الخادعين، وإمّا على طريقة المجاز العقليّ بأن يُنسَب إليه تعالى ما حقُّه أن يُنسَب إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم[٢] إبانةً لمكانته عنده تعالى[٣] كما يُنبئ عنه قوله تعالى:[٤] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [الفتح، ٤٨/١٠] وقولُه تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء، ٤/٨٠]، مع إفادة كمال الشناعة كما مرّ، وإمّا لمجرَّد التوطئة والتمهيدِ لِما بعده مِن نِسبته إلى الذين آمنوا، والإيذانِ بقوّة اختصاصهم به تعالى كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ [التوبة، ٩/٦٢] وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأحزاب، ٣٣/٥٧].

وإبقاء صيغة المخادعة على معناها الحقيقيّ[٥] بناءً على زعمهم الفاسد وترجمةً عن اعتقادهم الباطل، كأنّه قيل: يزعمون أنّهم يخدَعون الله والله يخدَعهم،

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حياة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠.

[٢] ي: عليه السلام.

[٣] ي: سبحانه.

[٤] ي: عزّ وجلّ.

[٥] وفي هامش ي: وهو المشاركة بين الاثنين. «منه».

أو على جعلها استعارةً تَبَعيّةً أو تمثيلًا لِما أنّ صورة صنعهم[١] مع الله تعالى والمؤمنين وصنعِه تعالى معهم بإجراء أحكام الإسلام عليهم وهم عنده أخبَثُ الكَفَرة وأهلُ الدَّرْك الأسفل مِن النار استدراجًا لهم، وامتثالِ الرسول عليه السلام والمؤمنين بأمر الله تعالى في ذلك مجازاةً لهم بمِثل صنيعِهم صورةَ صنيع المتخادِعين كما قيل ممّا[٢] لا يرتضيه الذوق السليم.

أمّا الأوّل، فلأنّ المنافقين لو اعتقدوا أنّ الله تعالى[٣] يخدَعهم بمقابلة خَدْعهم له، لم يُتصوّر منهم التصدّي للخَدْع. وأمّا الثاني، فلأنّ مقتضى المقام إيرادُ حالهم خاصّةً وتصويرُها بما يَليق بها مِن الصورة[٤] المستهجَنة، وبيانُ أنّ[٥] غائلتها آيلةٌ إليهم مِن حيث لا يحتسبون، كما يُعرب عنه قوله عزّ قائلًا:[٦] ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾، فالتعرّض لحال الجانب الآخَر ممّا يُخلّ بتوفية المقام حقَّه.

وهو[٧] حال مِن ضمير ﴿يُخَادِعُونَ﴾، أي: يفعلون ما يفعلون والحالُ أنّهم ما يضرّون بذلك إلّا أنفسَهم، فإنّ دائرة فعلهم مقصورةٌ عليهم، أو: ما يخدَعون حقيقةً إلّا أنفسَهم، حيث يَغُرُّونها بالأكاذيب فيُلقُونها[٨] في مهاوي الرَّدى.

وقُرِئ: "وَمَا يُخَادِعُونَ"،[٩] والمعنى هو المعنى. ومَن حافَظَ على الصيغة فيما / قبلُ قال: وما يعاملون تلك المعاملةَ الشبيهةَ بمعاملة المخادِعين إلّا أنفسَهم؛ [١٦و] لأنّ ضررها لا يَحيق إلّا بهم، أو: ما يخادعون حقيقةً إلّا أنفسَهم حيث يُمَنّونها الأباطيل، وهي أيضًا تغُرُّهم وتُمَنِّيهم الأمانيَّ الفارغةَ. وقُرِئ: "وَمَا يُخَدِّعُونَ"[١٠]

---

١ ي: صنيع.

٢ السياق: وإبقاء صيغة المخادعة... ممّا لا يرتضيه الذوق السليم.

٣ ي: سبحانه.

٤ ي: الصور.

٥ ي - أنّ.

٦ ط س: تعالى.

٧ أي: قوله تعالى: (وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ).

٨ ي: فيقولونها.

٩ قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٢٠٧.

١٠ قراءة شاذّة، ذكرها أبو حيّان في البحر المحيط، ١/٩٣، ونسبها إلى قتادة ومورّق العِجلي. وقراءة مورّق في رواية مستقلّة -وهي: "مَا يَخَدِّعُونَ"- في شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠؛ واللباب لابن عادل، ١/٣٣٩.

مِن التخديع، و"مَا يَخَدِّعُونَ"،[١] أي: يختدعون، و"يُخْدَعُونَ"[٢] و"يُخَادَعُونَ"[٣] على البناء للمفعول.

ونصب ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ بنزع الخافض. والنفس: ذاتُ الشيء وحقيقتُه. وقد يقال للروح؛ لأنّ نفس الحيّ به، وللقلب أيضًا؛ لأنّه محلُّ الروح أو متعلَّقُه، وللدم أيضًا؛ لأنّ قِوامها به، وللماء أيضًا لشدّة حاجتها إليه. والمراد هنا هو المعنى الأوّل؛ لأنّ المقصود بيانُ أنّ ضرر مخادعتهم راجعٌ إليهم، لا يتخطّاهم إلى غيرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ حال مِن ضمير ﴿مَا يَخْدَعُونَ﴾، أي: يقتصرون على خَدع أنفسهم والحالُ أنّهم ما يشعرون، أي: ما يحسّون بذلك لتَماديهم في الغَواية. وحذفُ المفعول إمّا لظهوره، أو لعمومه، أي: "ما يشعرون بشيء أصلًا"، جُعِل لُحوق وبالِ ما صنعوا بهم في الظهور بمنزلة الأمر المحسوس الذي لا يخفى إلّا على مَئُوف[٤] الحواسّ مختلِّ المَشاعر.

﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾

﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ المرض عبارة عمّا يعرِض للبدن فيُخرجه عن الاعتدال اللائق به، ويوجِبُ الخَلَلَ في أفاعيله، ويؤدِّي إلى الموت، استُعير ههنا لِما في قلوبهم مِن الجهل وسُوءِ العقيدة وعداوةِ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وغيرِ ذلك مِن فنون الكفر المؤدِّي إلى الهلاك الروحانيّ. والتنكير للدلالة على كونه نوعًا مبهَمًا غيرَ ما يتعارفه[٥] الناس مِن الأمراض. والجملة مقرِّرة لِما يفيده قوله تعالى:[٦]

---

[١] بفتح الياء والخاء والتشديد، الأصل: يختدعون، فأُدغم. وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن مؤرق بن مشمر العِجلي. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٥٠. وضبط اسمَه ابنُ عطيّة في **المحرّر الوجيز**، ٩٠/١: "مورّق".

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الجارود بن أبي سبرة البصري وأبي طالوت عبد السلام بن شداد عن أبيه. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٥٠.

[٣] قراءة شاذّة، ذكرها البيضاوي في **أنوار التنزيل**، ٤٥/١؛ وأبو حيّان في **البحر المحيط**، ٩٣/١؛ وابن عادل في **اللباب**، ٣٣٩/١، ولم ينسبوها إلى أحد.

[٤] إيفَ الزرعُ: أصابتْه الآفة، فهو مَئُوف ومَئِيف. **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، «أوف».

[٥] ي: تعارف.

[٦] ي: عزّ وجلّ.

﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾[١] مِن استمرار عدم إيمانهم، أو تعليلٌ له كأنّه قيل: ما لهم لا يؤمنون؟ فقيل: في قلوبهم مرض يمنعه.

﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ بأن طبع على قلوبهم لعلمه تعالى بأنّه لا يؤثّر فيها التذكير والإنذار. والجملة معطوفة على ما قبلها، و"الفاء" للدلالة على ترتّب مضمونها عليه، وبه اتّضح كونُهم مِن الكَفَرة المختوم على قلوبهم مع زيادة بيان السبب. وقيل: زادهم كفرًا بزيادة التكاليف الشرعيّة؛ لأنّهم كانوا كلّما ازداد التكاليف بنزول الوحي يزدادون كفرًا.

ويجوز أن يكون المرض مستعارًا لِما تداخَلَ قلوبَهم مِن الضعف والجُبْن والخَوَر عند مشاهدتهم لعزّة المسلمين، فزيادته تعالى[٢] إيّاهم مرضًا ما فَعَل بهم مِن إلقاء الرَّوع وقذفِ الرُّعب في قلوبهم عند إعزاز الدين بإمداد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بإنزال الملائكة وتأييدِه بفنون النصر والتمكين، فقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾... إلخ[٣] حينئذ استئنافٌ تعليليٌّ لقوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾... إلخ،[٤] كأنّه قيل: ما لهم يخادعون ويداهنون، ولِمَ لا يجاهِرون بما في قلوبهم مِن الكفر؟ فقيل: في قلوبهم ضعفٌ مضاعَفٌ.

هذه حالهم في الدنيا، ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: مؤلِم، يقال: "ألِمَ وهو أليم"، كـ"وجِعَ وهو وجيع"، وُصِف به العذاب للمبالغة كما في قوله:

تحيّةُ بينهم ضَربٌ وجيعُ[٥]

على طريقة "جَدَّ جِدُّه"، فإنّ الألم والوجَع حقيقةٌ للمؤلَم والمضروب، كما أنّ الجِدّ للجادّ. وقيل: هو بمعنى المؤلِم كـ"السميع" بمعنى "المُسمِع"، وليس ذلك بثَبَتٍ كما سيجيء في قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة، ١١٧/٢].

---

١ البقرة، ٨/٢.

٢ ي: عزّ وعلا.

٣ ي: الآية.

٤ ي: الآية. | البقرة، ٩/٢.

٥ عجز بيتٍ، وصدره:

وخيلٍ قد دلفتُ لها بخيلٍ

وهو لعمرو بن مَعْدِي كَرِبَ الزُّبيدي في شعر عمرو بن مَعْدِي كَرِبَ الزُّبيدي، ص ١٤٩؛ والعمدة لابن رَشيق، ٢٩٢/٢؛ والممتِع للنهشلي، ١٨١-١٨٣؛ وشرح ديوان المتنبّي للعُكبري، ١٠٩/٤.

﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ "الباء" للسببيّة أو للمقابلة. و﴿مَا﴾ مصدريّة[١] داخلة في الحقيقة على ﴿يَكۡذِبُونَ﴾. وكلمة ﴿كَانُوا﴾ مُقحَمة لإفادة دوام كذبهم وتجدّدِه، أي: بسبب كذبهم، أو: بمقابلة كذبهم المتجدِّد المستمرّ الذي هو قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾[٢] وهم غير مؤمنين، فإنّه إخبار بإحداثهم الإيمانَ فيما مضى، لا إنشاءٌ للإيمان؛ ولو سُلّم، فهو متضمِّن للإخبار بصدوره عنهم، وليس كذلك لعدم التصديق القلبيّ بمعنى الإذعان والقبولِ قطعًا. ويجوز أن يكون محمولًا على الظاهر بناءً على رأي مَن يجوّز أن يكون لـ"كان" الناقصةِ مصدر، كما صُرّح به في قول الشاعر:

ببذلٍ وحِلْمٍ سادَ في قومه الفَتى   وكونُك إيّاه عليك يسيرُ[٣]

أي: لهم عذاب أليم بسبب كونهم يكذِبون على الاستمرار.[٤]

وترتيب العذاب عليه مِن بين سائر موجِباته القويّة، إمّا لأنّ المراد بيان العذاب الخاصّ بالمنافقين بناءً على ظهور شركتهم للمجاهِرين فيما ذُكر مِن العذاب العظيم حسب اشتراكهم فيما يوجبه مِن الإصرار على الكفر كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾... إلخ،[٥] وإمّا للإيذان بأنّ لهم بمقابلة سائر جناياتهم العظيمة مِن العذاب ما لا يوصَف، وإمّا للرمز إلى كمال سماجة الكذب نظرًا إلى ظاهر العبارة المخيّلة لانفراده بالسببيّة، مع إحاطة علم السامع بأنّ لُحوق العذاب بهم مِن جهاتٍ شتّى وأنّ الاقتصار عليه للإشعار بنهاية[٦] قُبحه والتنفير عنه.

عن الصدّيق رضي الله عنه ويُروى مرفوعًا أيضًا إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «إيّاكم والكذبَ، فإنّه مُجانِبٌ للإيمان».[٧] وما رُوي أنّ إبراهيمَ عليه السلام

---

[١] ي: مصدر.
[٢] البقرة، ٨/٢.
[٣] البيت بلا نسبة في **اللباب** لابن عادل، ٣٤٣/١؛ و**المقاصد النحويّة** للعيني، ٥٨٥/٢؛ و**شرح الأشموني على ألفيّة ابن مالك**، ٢٢٨/١.
[٤] ط - على الاستمرار.
[٥] ي: الآية. | البقرة، ٨/٢.
[٦] ي: بغاية.
[٧] الحديث مرفوعًا في **الكامل** لابن عديّ، ١٣٥/١ (٩٧-٩٨)؛ و**شعب الإيمان** للبيهقي، ٤٥٢/٦ (٤٤٦٦)، وموقوفًا في **مسند أحمد**، ١٩٧/١-١٩٨ (١٦)؛ و**السنن الكبرى** للبيهقي، ٣٣٢/١٠ (٢٠٨٢٦).

كذَبَ ثلاثَ كَذَباتٍ،[١] فالمراد به التعريض، وإنّما سُمّي به لشَبَهِه به صورةً.

وقيل: ﴿مَا﴾ موصولة والعائدُ محذوف، أي: بالذي يكذِبونه. وقُرِئ: "يُكَذِّبُونَ"[٢] والمفعول محذوف، وهو إمّا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أو القرآن، و﴿مَا﴾ مصدريّة، أي: بسبب تكذيبهم إيّاه عليه السلام[٣] أو القرآنَ، أو موصولةٌ، أي: بالذي يكذِّبونه، على أنّ العائد محذوف، ويجوز أن يكون صيغةُ التفعيل للمبالغة / كما في "بيَّن" في "بانَ" و"قلَّص" في "قلَص"، أو للتكثير كما في [١٦ظ] "موَّتت البهائمُ" و"برَّكت الإبلُ"، وأن يكون مِن قولهم: "كذَّب الوحشيّ" إذا جَرَى شَوْطًا[٤] ثمّ وقف لينظرَ ما وراءه، فإنّ المنافق متوقِّف في أمره متردِّد في رأيه؛ ولذلك قيل له: مُذَبْذَبٌ.[٥]

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ شروع في تعديد بعضٍ مِن قبائحهم المتفرّعة على ما حُكي عنهم مِن الكفر والنفاق. و﴿إِذَا﴾ ظرفُ زمنٍ مستقبلٍ يلزَمها[٦] معنى الشرط غالبًا، ولا يدخل إلّا في الأمر المحقَّق أو المرجَّح وقوعُه. و"اللام" متعلِّقة بـ﴿قِيلَ﴾، ومعناها الإنهاء والتبليغ، والقائمُ مقامَ فاعله جملةُ ﴿لَا تُفْسِدُوا﴾... إلخ،[٧] على أنّ المراد بها اللفظ، وقيل:[٨] هو مضمَرٌ يفسّره المذكورُ.

---

[١] هي: قوله عليه السلام: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات، ٨٩/٣٧]، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء، ٦٣/٢١]، وقوله للملك الظالم حين أراد أن يغصبه سارة: "هذه أختي". انظر: صحيح البخاري، ١٤٠/٤ (٣٣٥٨)؛ وصحيح مسلم، ١٨٤٠/٤ (٢٣٧١).

[٢] قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٠٧/٢-٢٠٨.

[٣] ط - عليه السلام.

[٤] قال الليث: «الشَّوْط: جريُ مرّةٍ إلى الغاية، والجميع: الأشواط». تهذيب اللغة للأزهري، ٢٦٧/١١ «باب الشين والطاء».

[٥] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء، ١٤٢/٤-١٤٣].

[٦] ط: ويلزم.

[٧] س ي - إلخ.

[٨] وفي هامش ي: قائله أبو البقاء. «منه». | هو عبد الله بن الحسين بن عبد الله العُكبري الأَزَجي البغدادي، أبو البقاء محبّ الدين »

والفساد: خروج الشيء عن الحالة اللائقة به، و"الصلاح" مقابِلُه. والفساد في الأرض: هَيْجُ الحروب والفِتَنِ المستتبِعة لزوال الاستقامة عن أحوال العباد واختلالِ أمر المعاش والمعاد. والمراد بما نُهُوا عنه ما يؤدّي إلى ذلك مِن إفشاء أسرار المؤمنين إلى الكُفّار وإغرائِهم عليهم وغير ذلك مِن فنون الشرور، كما يقال للرجل: "لا تقتُلْ نفسَك بيدِك، ولا تُلقِ نفسَك في النار" إذا أقدَمَ على ما تلك عاقبته.

وهو إمّا معطوف على ﴿يَقُولُ﴾؛[1] فإن جُعلت كلمة ﴿مَنْ﴾[2] موصولةً فلا محلَّ له مِن الإعراب، ولا بأسَ بتخلّل البيان أو الاستئنافِ وما يتعلّق بهما بين أجزاء الصلة، فإنّ ذلك ليس توسيطًا بالأجنبيّ، وإن جُعلت موصوفةً فمحلُّه الرفع، والمعنى: ومِن الناس مَن إذا نُهُوا مِن جهة المؤمنين عمّا هم عليه مِن الإفساد[3] في الأرض ﴿قَالُوا﴾ إراءةً للناهين أنّ ذلك غيرُ صادر عنهم، مع أنّ مقصودهم الأصليَّ إنكارُ كون ذلك إفسادًا[4] وادّعاءُ كونه إصلاحًا محضًا كما سيأتي توضيحه: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أي: مقصورون على الإصلاح[5] المحض

= (ت. ٦١٦هـ/١٢١٩م). عالمٌ بالأدب واللغة والكلام والفرائض والحساب. أصيبَ في صباه بالجُدَريّ، فعَمِيَ. وكان ثقةً صدوقًا، غزيرَ الفضل، كاملَ الأوصاف، كثيرَ المحفوظ دَيِّنًا، حسنَ الأخلاق متواضعًا. وكان إذا أراد أنْ يصنّف شيئًا أُحضرَت إليه مصنّفاتُ ذلك الفنّ وقُرئت عليه، فإذا حصل ما يريد في خاطره أملاه. مِن كُتبه: **شرح ديوان المتنبي، واللباب في علل البناء والإعراب، وشرح اللمع** لابن جنّي، **والتبيان في إعراب القرآن، وترتيب إصلاح المنطق، وإعراب الحديث، والمحصّل في شرح المفصّل** للزمخشري، **وشرح المقامات الحريرية، والاستيعاب في علم الحساب**. انظر: **معجم الأدباء** للحَمَوي، ١٥١٥/٤-١٥١٧؛ **وبغية الوعاة** للسيوطي، ٣٨/٢-٤٠؛ **والأعلام** للزركلي، ٨٠/٤. | وقوله المذكور في **التبيان في إعراب القرآن**، ٢٨/١: «والمفعول القائم مقامَ الفاعل مصدرٌ، وهو "القول"، وأضمرَ؛ لأنّ الجملة بعده تفسّره، والتقدير: وإذا قيل لهم قولٌ هو: ﴿لَا تُفْسِدُوا﴾. ونظيره: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف، ٣٥/١٢]، أي: بَدَا لهم بداءٌ ورأيٌ. وقيل: ﴿لَهُمْ﴾ هو القائم مقامَ الفاعل؛ لأنّ الكلام لا يتمّ به، وما هو ممّا تفسّره الجملة بعده. ولا يجوز أنْ يكون قوله: ﴿لَا تُفْسِدُوا﴾ قائمًا مقامَ الفاعل؛ لأنّ الجملة لا تكون فاعلًا، فلا تقوم مقامَ الفاعل».

[1] البقرة، ٨/٢.

[2] البقرة، ٨/٢.

[3] ي: الفساد.

[4] ي: فسادًا.

[5] ي: الصلاح.

بحيث لا يتعلّق به شائبة الإفساد والفساد، مشيرين بكلمة ﴿إِنَّمَا﴾ إلى أنّ ذلك مِن الوضوح بحيث لا ينبغي أن يُرتاب فيه. وإمّا[١] كلام مستأنَف سِيقَ لتعديد شنائعهم.

وأمّا عطفه على ﴿يَكْذِبُونَ﴾[٢] بمعنى: "ولهم عذاب أليم بكذبهم وبقولهم حين نُهُوا عن الإفساد: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾" كما قيل، فيأباه أنّ هذا النحو[٣] مِن التعليل حقُّه أن يكون بأوصافٍ ظاهرةِ العلّيّة مسلَّمةِ الثبوت للموصوف غنيّةٍ عن البيان لشُهرة الاتّصاف بها عند السامع، أو لسبق ذِكره صريحًا كما في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾،[٤] فإنّ مضمونه عبارة عمّا حُكي عنهم مِن قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾،[٥] أو لذكر ما يستلزمه استلزامًا ظاهرًا كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص، ٢٦/٣٨]، فإنّ ما ذُكر مِن الضلال عن سبيل الله ممّا يوجب حتمًا نسيانَ جانب الآخرة[٦] التي مِن جملتها يومُ الحساب، وما لم يكن كذلك فحقُّه أن يُخبَر بعلّيّته قصدًا كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾[٧] الآية[٨] [آل عمران، ٢٤/٣] وقولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾... إلخ [البقرة، ١٧٦/٢]، إلى غير ذلك؛ ولا ريبَ في أنّ هذه الشرطيّة وما بعدها مِن الشرطيّتَين المعطوفتَين عليها ليس مضمونُ شيء منها معلومَ الانتساب إليهم عند السامعين بوجه مِن الوجوه المذكورة حتّى تستحقّ الانتظامَ في سلك التعليل المذكور.

فإذنْ حقُّها أن تكون مسوقةً على سَنَن تعديدِ قبائحهم على أحد الوجهين، مفيدةً لاتّصافهم بكلّ واحد مِن تلك الأوصاف قصدًا واستقلالًا؛ كيف لا، وقوله عزّ وجلّ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ ينادي بذلك نداءً جليًّا، فإنّه ردٌّ مِن جهته تعالى لدعواهم المحكيّة أبلغَ ردٍّ وأدلُّه على سخط عظيم؛ حيث سُلِك فيه[٩]

---

[١] وفي هامش ط س: عطفٌ على قوله: إمّا معطوف على... إلخ. «منه».

[٢] في الآية السابقة.

[٣] وفي هامش ط س: احتراز عن نحو قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ [آل عمران، ٢٤/٣] ونظائره بما قُصِد الإخبار به. «منه».

[٤] في الآية السابقة.

[٥] البقرة، ٨/٢.

[٦] ي: الآخر.

[٧] ي + إلّا أيّامًا معدودةً.

[٨] ي - الآية.

[٩] ي - فيه.

مسلَكُ الاستئناف المؤدّي إلى زيادة[١] تمكّنِ الحكم في ذهن السامع، وصُدّرت الجملة بحرفَي التأكيد: ﴿أَلَآ﴾ المنبِّهةِ على تحقّق ما بعدها، فإنّ الهمزة الإنكاريّة الداخلة على النفي تفيد تحقيق الإثبات قطعًا كما في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر، ٣٦/٣٩]؛ ولذلك لا يكاد يقع ما بعدها مِن الجملة إلّا مصدَّرةً بما يتلقّى به القَسم، وأختها التي هي "أَمَا" مِن طلائع القَسم، وقيل: هما حرفان بسيطان موضوعان[٢] للتنبيه والاستفتاح، و﴿إِنَّ﴾[٣] المقرِّرة للنسبة، وعُرِّف[٤] الخبر ووُسّط ضمير الفصل لردِّ ما في قصر أنفسهم على الإصلاح مِن التعريض بالمؤمنين، ثمّ استُدرك بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ للإيذان بأنّ كونهم مفسِدين مِن الأمور المحسوسة؛ لكن لا حِسَّ لهم حتّى يُدركوه.

وهكذا الكلامُ في الشرطيّتَين الآتيَين وما بعدهما مِن ردّ مضمونهما. ولولا أنّ المراد تفصيل جناياتهم وتعديدُ خبائثهم وهَناتِهم ثمّ إظهارُ فسادها وإبانةُ بطلانها، لَمَا فُتِح هذا الباب. والله أعلم بالصواب.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ مِن قِبَل المؤمنين بطريق الأمر بالمعروف إثرَ نهيهم عن المنكَر إتمامًا للنُّصح وإكمالًا للإرشاد: ﴿ءَامِنُواْ﴾ حُذف المؤمَنُ به لظهوره، أو أريدَ: افعلوا الإيمانَ. ﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ "الكاف" في محلّ النصب على أنّه نعتٌ لمصدر مؤكِّد محذوف، / أي: آمنوا إيمانًا مماثِلًا لإيمانهم، فـ﴿مَا﴾ مصدريّة، أو كافّة كما في "ربّما"،[٥] فإنّها تكفّ الحرفَ[٦] عن العمل، وتصحِّح[٧] دخولَها على الجملة، وتكون[٨] للتشبيه بين مضمونَي الجملتين، أي: حَقِّقوا إيمانكم كما تحقَّق إيمانُهم. [١٧و]

---

[١] ط س: مزيد.
[٢] ط س: وُضعا.
[٣] وفي هامش ط: عطفٌ على قوله "أَلَا". «منه».
[٤] السياق: حيث سُلِك فيه مسلَكُ الاستئناف... وصُدّرت الجملة بحرفَي التأكيد... وعُرِّف الخبر...
[٥] ي + يودّ.
[٦] ي: الحروف.
[٧] ي: تصحّ.
[٨] ط: ويكون.

و"اللام" للجنس، والمراد بـ﴿ٱلنَّاسِ﴾ الكاملون في الإنسانيّة العاملون بقضيّة العقل، فإنّ اسم الجنس كما يُستعمل في مسمّاه يُستعمل فيما يكون جامعًا للمعاني الخاصّة[١] به المقصودةِ منه؛ ولذلك يُسلَب عمّا ليس كذلك فيقال: "هو ليس بإنسانٍ"، وقد جمعهما مَن قال:

إذ النـــاسُ نـــاسٌ والـــزمـــانُ زمـــانُ[٢]

أو للعهد، والمراد به الرسولُ صلّى الله عليه وسلّم ومَن معه، أو مَن آمن مِن أهل جِلْدتهم كابن سلَام[٣] وأضرابه، والمعنى: آمِنوا إيمانًا مقرونًا بالإخلاص، متمحِّضًا عن[٤] شوائب النفاق، مماثِلًا لإيمانهم.

﴿قَالُوا﴾ مقابِلين للأمر بالمعروف بالإنكار المنكَر، واصفين للمراجيح الرِّزان بضدّ أوصافهم الحِسان: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ مشيرين بـ"اللام" إلى مَن أشيرَ إليهم في ﴿ٱلنَّاسِ﴾ مِن الكاملين، أو المعهودين، أو إلى الجنس بأسره وهم مندرِجون فيه على زعمهم الفاسد.

والسَّفه: خِفّةٌ وسخافةُ رأي يُورِثهما قصورُ العقل، ويقابله الحِلم والأَناة.[٥] وإنّما نسبوهم إليه -مع أنّهم في الغاية القاصية مِن الرشد والرَّزانة والوَقار- لكمال انهماك أنفسهم في السفاهة وتَماديهم في الغَواية، وكونِهم ممّن زُيّن له سوء عمله فرآه حسنًا، فمَن حسِب الضلالَ هدًى يُسمِّي الهدى -لا محالة- ضلالًا، أو لتحقير شأنهم، فإنّ كثيرًا مِن المؤمنين كانوا فقراءَ، ومنهم مَوالٍ كصُهيب[٦]

---

١ ي: جامعًا للمبالغة في الخاصّة.

٢ عجز بيتٍ، وصدره:
بــلادٌ بـهـا كـنّـا وكـنّـا نُـحـبّـهـا
وهو لأخي عاد في **نهاية الأرب** للنُّوَيري، ٢٦٤/٧؛ **وصبح الأعشى** للفزاري، ٥٢٦/١.

٣ أي: عبد الله بن سلَام.

٤ ي: مِن.

٥ ي: والإنابة.

٦ هو صُهيب بن سِنان بن مالك بن عبد عمرو الرومي، أبو يحيى (ت. ٣٨هـ/٦٥٩م). صحابيّ. أحدُ السابقين إلى الإسلام، وكان مِن المستضعَفين بمكّةَ الذين عُذّبوا. وشهِد بدرًا وأُحدًا والخندق والمشاهدَ كلَّها مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «السُّبّاق أربعة: أنا سابق العرب، وصُهيب سابق الروم، وسلمان سابق فارس، وبلال سابق الحَبَش». انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٢٢٦/٣-٢٣٠؛ **والاستيعاب** للنمري، ٧٢٦/٢-٧٣٣؛ **وأسد الغابة** لابن الأثير، ٣٧/٣-٤١.

وبلال،[١] أو للتجلّد وعدم المبالاة بمَن آمن منهم، على تقدير كون المراد بـ﴿ٱلنَّاسِ﴾ عبد الله بن سلَام وأمثالَه.[٢]

وأيًّا ما كان، فالذي يقتضيه جزالة التنزيل ويستدعيه فخامة شأنه الجليل[٣] أن يكون صدورُ هذا القول عنهم بمحضَرٍ مِن المؤمنين الناصحين لهم[٤] جوابًا عن نصيحتهم. وحيث كان فحواه تسفيةَ أولئك المشاهير الأعلام والقدحَ في إيمانهم، لزِمَ كونُهم مجاهِرين لا منافقين، وذلك ممّا لا يكاد[٥] يساعده السباق والسياق، وعن هذا قالوا: ينبغي أن يكون ذلك فيما بينهم، لا على وجه المؤمنين؛ قال الإمام الواحدي:[٦] «إنّهم كانوا يُظهرون هذا القول فيما بينهم، لا عند المؤمنين، فأخبر الله تعالى نبيَّه عليه السلام[٧] والمؤمنين بذلك عنهم».[٨]

وأنت خبير بأنّ إبراز ما صدر عن أحد المتحاوِرَين في الخلاء في معرض ما جرى بينهما في مقام المحاورة ممّا لا عهدَ به في الكلام، فضلًا عمّا هو

---

١ هو بلال بن رَباح الحَبَشي، أبو عبد الله (ت. ٢٠هـ/٦٤١م). مؤذِّن رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم وخازِنُه على بيت ماله. أحدُ السابقين إلى الإسلام، وكان مِن المستضعَفين مِن المؤمنين، وكان يعذَّب حين أسلَمَ ليرجعَ عن دينه، فما أعطاهم قطُّ كلمةً ممّا يريدون. وكان شديدَ السُمرة، نحيفًا طوالًا، خفيفَ العارضين، له شَعر كثيف. وشهِد المشاهدَ كلَّها مع النبيّ عليه السلام، ولمّا تُوفِّي رسول الله أذَّنَ بلال، ولم يؤذِّن بعد ذلك. وأقام حتّى خرجت البعوثُ إلى الشام، فسار معهم، وتُوفِّي في دمشق. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٣/٢٣٢-٢٣٨؛ **والاستيعاب** للنمري، ١/١٧٨-١٨٣؛ **وأسد الغابة** لابن الأثير، ١/٤١٠-٤١٨.

٢ ي: وأضرابه.

٣ ط س: فالذي يستدعيه جزالة النظم الكريم. | هذه العبارة فيهما مكان "فالذي يقتضيه جزالة التنزيل ويستدعيه فخامة شأنه الجليل".

٤ ط س - لهم.

٥ ي - يكاد.

٦ هو عليّ بن أحمد بن محمّد الواحدي النيسابوري، أبو الحسن (ت. ٤٦٨هـ/١٠٧٦م). مفسّر وعالمٌ بالأدب. لازَمَ أبا إسحاق الثعلبي، وأخذ العربيّة عن أبي الحسن القُهُنْدُزي، ودأب في العلوم وأخذ اللغة عن أبي الفضل أحمد بن محمّد العَروضي، وسمع ابن مَحمِش وأبا بكر الحِيري وجماعةً. وقعد للتدريس والإفادة سنينَ، وتخرّجَ به طائفةٌ مِن الأئمة. وكان نظامُ الملك يُكرمه ويعظّمه. ومِن مصنّفاته: **البسيط والوسيط والوجيز**، كلّها في التفسير، **وشرح ديوان المتنبي**، **وأسباب النزول**، **وشرح الأسماء الحسنى**، وغير ذلك. انظر: **معجم الأدباء** للحَمَوي، ٤/١٦٥٩-١٦٦٤؛ **وطبقات المفسّرين** للسيوطي، ص ٧٨-٧٩؛ **وطبقات المفسّرين** للداوودي، ١/٣٩٤-٣٩٦.

٧ ي - عليه السلام.

٨ **التفسير الوسيط** للواحدي، ١/٧٩.

في منصِب الإعجاز؛ فالحقّ الذي لا محيدَ عنه أنّ قولهم هذا[١] -وإن صدر عنهم بمحضَر مِن الناصحين- لا يقتضي كونَهم مجاهِرين، فإنّه ضربٌ مِن الكفر أنيقٌ، وفنٌّ في النفاق عريقٌ، مصنوعٌ على شاكلة قولهم: "اسمَعْ[٢] غيرَ مُسمَعٍ"؛[٣] فكما أنّه كلام ذو وجهين مثلَهم، محتمِلٌ للشرّ بأن يُحمَل على معنى "اسمَعْ منّا غيرَ مُسمَعٍ كلامًا ترضاه" ونحوه،[٤] وللخير بأن يُحمل على معنى "اسمَعْ غيرَ مُسمَعٍ مكروهًا"، كانوا يخاطِبون به رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم استهزاءً به، مظهِرين إرادةَ المعنى الأخير وهم مضمِرون في أنفسهم المعنى الأوّلَ مطمئِنّون به؛ ولذلك نُهُوا[٥] عنه، كذلك[٦] هذا الكلام محتمِلٌ للشرّ كما ذُكر في تفسيره، وللخير بأن يُحمل على ادّعاء الإيمان كإيمان الناس وإنكارِ ما اتُّهموا به مِن النفاق، على معنى "أنؤمن كما آمن السفهاءُ والمَجانينُ الذين لا اعتدادَ بإيمانهم لو آمنوا، ولا نؤمنُ كإيمان الناس حتّى تأمرونا بذلك؟"، قد خاطبوا به الناصحين استهزاءً بهم، مُرائين لإرادة المعنى الأخير وهم معوّلون على الأوّل، فرُدّ عليهم ذلك بقوله عزّ قائلًا:[٧] ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ أبلغَ ردٍّ، وجُهّلوا أشنعَ تجهيلٍ؛ حيث صُدّرت الجملة بحرفَي التأكيد حسبما أشيرَ إليه فيما سلف،[٨] وجُعلت السفاهة مقصورةً عليهم وبالغةً إلى حيث لا يَدْرون أنّهم سفهاءُ.

وعن هذا اتّضح لك سرُّ ما مرّ في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة، ١١/٢]، فإنّ حمله على المعنى الأخير -كما هو رأي الجمهور- منافٍ لحالهم ضرورةَ أنّ مشافهتهم للناصحين -بادّعاء كون ما نُهُوا عنه

---

١ ي: هنا.

٢ ط س: واسمع.

٣ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء، ٤٦/٤].

٤ وفي هامش ط س ي: ك"اسمَعْ مدعوًّا عليك" بـ"لا سمعتَ"، أو: "اسمَعْ غيرَ مجابٍ" كما ذُكر في موضعه. «منه». | انظر: تفسير النساء، ٤٦/٤.

٥ ي: نُهي.

٦ السياق: فكما أنّه كلام ذو وجهين... كذلك هذا الكلام...

٧ ي: وجلّ.

٨ انظر تفسير الآية السابقة.

مِن الإفساد[١] إصلاحًا كما مرّ- إظهارٌ منهم للشِّقاق، وبروزٌ بأشخاصهم مِن نَفَقِ النفاق.

والاعتذار بأنّ المراد بما نُهُوا عنه مُداراتُهم للمشركين كما ذُكر في بعض التفاسير، وبالإصلاح الذي يدّعونه إصلاحُ ما بينهم وبين المؤمنين، وأنّ معنى قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة، ١٢/٢]: أنّهم في تلك المعاملة مفسِدون لمصالح المؤمنين، لإشعارها بإعطاء الدنِيّة وإنبائِها عن ضعفهم الملجِئ إلى توسيط مَن يتصدّى لإصلاح ذاتِ البين، فضلًا عن كونهم مصلِحين ممّا[٢] لا سبيلَ إليه قطعًا؛ فإنّ قوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة، ١٢/٢] ناطقٌ بفساده؛ كيف لا، وأنّه يقتضي أن يكون المنافقون في تلك الدعوى صادقين قاصدين للإصلاح ويأتيهم الإفساد مِن حيث لا يشعرون، ولا ريب في أنّهم فيها كاذبون لا يعاشرونهم إلّا مضارّةً / للدين وخيانةً للمؤمنين؛ فإذنْ [١٧ظ] طريقُ حلّ الإشكال ليس إلّا ما أشيرَ إليه: فإنّ قولهم ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ محتمِلٌ للحَمل على الكذب،[٣] وإنكارِ صدور الإفساد المنسوب إليهم عنهم، على معنى "إنّما نحن مصلِحون، لا يصدُر عنّا ما تَنْهَوْنَنا عنه مِن الإفساد"، وقد خاطبوا به الناصحين استهزاءً بهم وإراءةً لإرادة هذا المعنى وهم معرّجون على المعنى الأوّل، فرُدّ عليهم بقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ الآية[٤] [البقرة، ١٢/٢]. والله سبحانه أعلمُ بما أودعه في تضاعيف كتابه المكنون مِن السرّ المخزون. نسأله العصمةَ والتوفيقَ والهدايةَ إلى سَواء الطريق.

وتفصيل هذه الآية الكريمةِ بـ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ لِما أنّه أكثرُ طِباقًا لذِكر السَّفه الذي هو فنٌّ مِن فنون الجهل، ولأنّ الوقوف على أنّ المؤمنين ثابتون على الحقّ وهم على الباطل مَنوطٌ بالتمييز بين الحقّ والباطل، وذلك ممّا لا يتسنّى إلّا بالنظر والاستدلال، وأمّا النفاق وما فيه مِن الفتنة[٥] والفساد وما يترتّب عليه

---

[١] ي: الفساد.

[٢] السياق: والاعتذار بأنّ المرادَ... ممّا لا سبيلَ إليه...

[٣] س: التكذيب.

[٤] ي - الآية.

[٥] ي: الغيبة.

مِن كون مَن يتّصف[١] به مفسِدًا، فأمرٌ بديهيٌّ يقِف عليه مَن له شعور؛ ولذلك فُصّلت الآية الكريمة السابقة بـ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ بيان لتباينِ أحوالهم وتناقضِ أقوالهم في أثناء المعاملة والمخاطبة حسب تباين المخاطَبين. ومَساقُ ما صُدّرت به[٢] قصّتُهم لتحرير مذهبهم والترجمةِ عن نفاقهم؛ ولذلك لم يُتعرّض ههنا لمتعلَّقِ الإيمان، فليس فيه شائبة التكرير.

رُوي أنّ عبد الله بنَ أُبيّ[٣] وأصحابَه خرجوا ذاتَ يوم، فاستقبلهم نفَرٌ مِن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، فقال ابن أُبيّ: «انظروا كيف أردّ هؤلاء السفهاءَ عنكم»، فلمّا دنَوْا منهم أخذ بيد أبي بكر رضي الله عنه، فقال: «مرحبًا بالصدّيق سيّدِ بني تميم وشيخِ الإسلام وثاني رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم في الغار، الباذلِ نفسَه ومالَه لرسول الله عليه السلام»،[٤] ثمّ أخذ بيد عمرَ رضي الله عنه، فقال: «مرحبًا بسيّد بني عَديّ،[٥] الفاروقِ القويّ في دينه، الباذلِ نفسَه ومالَه لرسول الله عليه السلام»، ثمّ أخذ بيد عليّ رضي الله عنه،[٦] فقال:

---

[١] ط س: كون المتّصِف.

[٢] ي - به.

[٣] هو عبد الله بن أُبيّ بن مالك بن الحارث، أبو الحُبَاب، المشهور بـ"ابن سَلُول" (ت. ٩هـ/٦٣١م). رأس المنافقين. مِن أهل المدينة. كان سيّدَ الخَزْرج في آخر جاهليّتهم. وأظهر الإسلام بعد وقعة بدر تقيّةً، ولمّا تهيّأ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لوقعة أُحد انخزل أبيّ وكان معه ثلاثمائة رجل، فعاد بهم إلى المدينة. وفعل ذلك يوم التهيّؤ لغزوة تَبوك. وكان كلّما حلّت بالمسلمين نازلة شمت بهم، وكلّما سمع بسيّئة نشرها. وله في ذلك أخبار. ولمّا مات وأراد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنْ يصلّيَ عليه نزلت: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾... إلخ [التوبة، ٩/٨٤]. انظر: **الأنساب** للبَلاذري، ١/٢٧٤؛ **والأعلام** للزركلي، ٤/٦٥.

[٤] ي: صلّى الله عليه وسلّم.

[٥] هم أولاد عَدِيّ بن كَعب: رَزَاح وعُوَيج. فولدُ رَزَاح: قرط بن رَزاح. فولدُ قرط: عبد الله. فولدُ عبد الله بن قرط: رياح وتميم وصَدّاد. فمِن أولاد رياح: نُفَيل بن عبد العُزّى بن رياح، وهو جَدُّ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه. انظر: **الأنساب** للبَلاذري، ١٠/٢٨٤-٢٩٤؛ **وجمهرة أنساب العرب** لابن حزم، ص ١٥٠-١٥٩.

[٦] ي: كرّم الله وجهه.

«مرحبًا بابن عمّ رسولِ الله عليه السلام وخَتَنِه،[١] وسيّدِ بني هاشم[٢] ما خلا[٣] رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم»، فنزلت.[٤]

وقيل: قال له عليّ رضي الله عنه: «يا عبدَ الله، اتّقِ الله، ولا تنافِقْ، فإنّ المنافقين شرُّ خلق الله تعالى»، فقال له: «مهلًا يا أبا الحَسن، أفِيَّ تقول هذا؟ واللهِ إنّ إيماننا كإيمانكم، وتصديقَنا كتصديقكم»، ثمّ افترقوا، فقال ابن أُبيّ لأصحابه: «كيف رأيتموني فعلتُ، فإذا رأيتموهم فافعلوا مثلَ ما فعلتُ»، فأثنَوْا عليه خيرًا، وقالوا: «ما نزال بخير ما عشتَ فينا»، فرجع المسلمون إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأخبروه بذلك، فنزلت.[٥]

واللِّقاء: المصادَفة، يقال: "لقيتُه" و"لاقيتُه"، أي: صادفته واستقبلته. وقُرئ: "إِذَا لَاقَوْا".[٦]

﴿وَإِذَا خَلَوۡا﴾ مِن "خلوْتُ إلى فلان"، أي: انفردت معه، وقد يُستعمل بالباء، أو مِن "خَلَا" بمعنى "مضى"، ومنه: "القُرون الخالية"، وقولُهم: "خَلَاكَ ذمٌّ"، أي: جاوزك ومضى عنك. وقد جُوّز كونُه مِن "خلوْتُ به" إذا سخِرتَ منه، على أنّ تعديته بـ﴿إِلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ﴾ لتضمّنِه معنى الإنهاء، أي: وإذا أنهَوْا إليهم السُّخريّة... إلخ. وأنت خبير بأنّ تقييد قولهم المحكيّ بذلك الإنهاء ممّا لا وجهَ له.

---

[١] الخَتَنُ بالتحريك: كلّ مَن كان مِن قِبل المرأة، مثل الأب والأخ، وهم الأَختان. هكذا عند العرب، وأمّا عند العامّة، فخَتَنُ الرجل: زوج ابنته. **الصحاح** للجوهري، «ختن».

[٢] هم بنو هاشم بن عبد مَناف بن قُصَيّ بن كلاب. فولدُ هاشم بن عبد مناف: شَيْبة الحمد، وهو عبد المطّلِب، جَدُّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. انظر: **الأنساب** للبَلَاذري، ١/٦٤-٦٧.

[٣] ط س: بعد.

[٤] انظر: **أسباب النزول** للواحدي، ص ٢٥؛ **والكشّاف** للزمخشري، ١/٦٥؛ **وأنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٤٧. وهي مع زيادة ما يليها بعبارة "قيل" في **الكشف والبيان** للثعلبي، ١/١٥٥.

[٥] **الكشف والبيان** للثعلبي، ١/١٥٥. والرواية بدون محاورة عليّ رضي الله عنه مع ابن أُبيّ في دوام الرواية الأولى في **أسباب النزول** للواحدي، ص ٢٥؛ **والكشّاف** للزمخشري، ١/٦٥.

[٦] قراءة شاذّة، ذكرها الثعلبي في **الكشف والبيان**، ١/١٥٥؛ وابن عطيّة في **المحرّر الوجيز**، ١/٩٤؛ والزمخشري في **الكشّاف**، ١/٦٥؛ والرازي في تفسيره، ٢/٣٠٨، ونسبها الأوّلان إلى محمّد بن السميقع، والأخيران إلى أبي حنيفة رحمه الله.

والمراد بـ﴿شَيَٰطِينِهِمۡ﴾ المماثِلون منهم للشيطان في التمرّد والعناد، المظهِرون لكفرهم، وإضافتُهم إليهم للمشاركة في الكفر، أو كِبارُ المنافقين، والقائلون صِغارُهم. وجعَلَ سيبويه نونَ "الشيطان" تارةً أصليّةً، فوزنُه "فَيْعالٌ"، على أنّه مِن "شطَنَ" إذا بعُدَ، فإنّه بعيد مِن الخير والرحمة، ويشهد له[١] قولُهم: "تَشَيْطَنَ"، وأخرى زائدةً، فوزنُه "فَعْلَان"، على أنّه مِن "شاطَ"، أي: هلك أو بطل، ومِن أسمائه: الباطل، وقيل: معناه: هاج واحترق.[٢]

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ﴾ أي: في الدين والاعتقاد، لا نفارقكم في حال مِن الأحوال. وإنّما خاطبوهم بالجملة الاسميّة المؤكَّدة؛ لأنّ مُدّعاهم عندهم تحقيقُ الثبات على ما كانوا عليه مِن الدين، والتأكيدُ للإنباء عن صدق رغبتهم ووفورِ نشاطهم، لا لإنكار الشياطين، بخلاف معاملتهم مع المؤمنين، فإنّهم إنّما يدّعون عندهم[٣] إحداثَ الإيمان لجزمهم بعدم رواج ادّعاء الكمال فيه أو الثبات عليه.

﴿إِنَّمَا نَحۡنُ﴾ أي: في إظهار الإيمان عند المؤمنين ﴿مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ بهم مِن غير أن يخطُر ببالنا الإيمانُ حقيقةً. وهو استئناف مبنيّ على سؤالٍ ناشئٍ مِن ادّعاء المعيّة، كأنّه قيل لهم عند قولهم ﴿إِنَّا مَعَكُمۡ﴾: فما بالُكم توافقون المؤمنين في الإتيان بكلمة الإيمان؟ فقالوا: "إنّما نحن مستهزِئون بهم، فلا يقدَح ذلك في كوننا معكم، بل يؤكّده"، وقد ضمّنوا جوابهم أنّهم يُهينون المؤمنين، ويعدّون ذلك نُصرةً لدينهم، أو تأكيدٌ لِما قبله؛ فإنّ المستهزِئ بالشيء مُصرّ على خلافه، أو بدلٌ منه؛ لأنّ مَن حقّر الإسلامَ فقد عظّم الكفرَ. والاستهزاء بالشيء: السُّخريّة منه، يقال: "هزَأتُ" و"استهزأتُ" بمعنًى، وأصله: الخِفّة، مِن "الهُزء"، وهو القتل السريع، و"هزَأ يهزَأ": مات على مكانه، و"تَهزَأ به ناقتُه"، أي: تسرع به وتخِفّ.

---

١ ي: لهم.

٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ١/٦٥. وقال سيبويه في الكتاب، ٣/٢١٧-٢١٨: «وسألتُه [يعني: الخليل بن أحمد] عن رجل يسمّى "دِهْقان"، فقال: إنْ سمّيتَه مِن "التَّدَهْقُن" فهو مصروف، وكذلك "شيطان" إنْ أخذتَه مِن "التَّشَيْطُن"، فالنُّون عندنا في مِثل هذا مِن نفس الحرف إذا كان له فعل يثبت فيه النون. وإنْ جعلتَ "دِهْقان" مِن "الدَّهق" و"شيطان" مِن "شيَّطَ"، لم تصرفه».

٣ ط س: فإنّهم لا يدّعون عندهم إلّا.

﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٥﴾

﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ أي: يجازيهم على استهزائهم، سُمّي جزاؤه باسمه كما سُمّي جزاءُ السيّئة سيّئةً،[1] إمّا للمشاكلة في اللفظ، أو للمقارنة في الوجود،[2] / [١٨و] أو يرجع وبالُ الاستهزاء عليهم، فيكون كالمستهزِئ بهم، أو يُنزل بهم الحقارة والهَوان الذي هو لازمُ الاستهزاء، أو يعاملهم معاملةَ المستهزِئ بهم؛ أمّا في الدنيا فبإجراء أحكام المسلمين عليهم واستدراجِهم بالإمهال والزيادة في النعمة على التمادي في الطغيان، وأمّا في الآخرة فبما يُروى أنّه يُفتَح لهم بابٌ إلى الجنّة، فيُسرعون نحوه، فإذا صاروا إليه سُدَّ عليهم الباب، وذلك قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾ [المطففين، ٨٣/٣٤].[3]

وإنّما استُؤنِف للإيذان بأنّهم قد بلغوا في المبالغة في استهزاء المؤمنين إلى غايةٍ ظهرت شناعته عند السامعين، وتعاظَمَ ذلك عليهم[4] حتّى اضطرّهم إلى أن يقولوا: ما مصيرُ أمر هؤلاء وما عاقبةُ حالهم؟ وفيه أنّه تعالى هو الذي يتولّى أمرَهم ولا يُحوِجهم إلى المعارضة بالمِثل، ويستهزئ بهم الاستهزاءَ الأبلغَ الذي ليس استهزاؤهم عنده مِن باب الاستهزاء، حيث يُنزل بهم مِن النَّكال ويحِلّ عليهم مِن الذُّلّ والهَوان ما لا يوصَف.

وإيثار صيغة الاستقبال للدلالة على التجدّد والاستمرار، كما يُعرب عنه قوله عزّ قائلًا: ﴿أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ﴾ [التوبة، ٩/١٢٦]. وما كانوا خالين في أكثر الأوقات مِن تهتّكِ أستارٍ وتكشّفِ أسرارٍ، ونزولٍ[5] في شأنهم، واستشعارِ حذَرٍ مِن ذلك كما أنبأ عنه قوله عزّ وجلّ:[6] ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ﴾ [التوبة، ٩/٦٤].

---

[1] كما في قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى، ٤٢/٤٠].

[2] س ط: للمشابهة في القدر. | وفي هامش ي: لأنّه سببه. «منه».

[3] انظر: الأسماء والصفات للبيهقي، ٢/٤٣٧-٤٣٩ (١٠١٧، ١٠١٨)؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٤٨؛ واللباب لابن عادل، ١/٣٦٥.

[4] س ط: عليهم ذلك [صُحّح في س بالإشارة إلى التقديم والتأخير].

[5] أي: نزول آية.

[6] ي: تعالى.

﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ أي: يزيدهم ويقوّيهم، مِن "مدَّ الجيشَ وأمدَّه" إذا زاده وقوّاه، ومنه "مددتُ الدواةَ والسِّراجَ" إذا أصلحتَهما بالحِبْر والزَّيت. وإيثارُه على "يزيدهم" للرمز إلى أنّ ذلك منوطٌ بسُوء اختيارهم لِما أنّه إنّما يتحقّق عند الاستمداد أو ما يجري مَجراه مِن الحاجة الداعية إليه كما في الأمثلة المذكورة. وقُرئ: "يُمِدُّهُمْ"[١] مِن "الإمداد"، وهو صريح في أنّ القراءة المشهورة ليست مِن المَدّ في العُمر، على أنّه يُستعمل باللام كـ"الإملاء"،[٢] قال تعالى: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ [مريم، ٧٩/١٩]. وحذفُ الجارّ وإيصالُ الفعل إلى الضمير خلافُ الأصل، لا يُصار إليه إلّا بدليلٍ.

﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ متعلِّق بـ﴿يَمُدُّهُمْ﴾. والطغيان: مجاوزة الحدّ في كلّ أمر، والمراد إفراطهم في العُتُوّ وغُلُوُّهم في الكفر. وقُرئ بكسر الطاء،[٣] وهي لغة فيه، كـ"لِقْيان" لغة في "لُقْيان". وفي إضافته إليهم إيذانٌ باختصاصه بهم، وتأييدٌ لِما أشيرَ إليه مِن ترتّب المدّ على سُوء اختيارهم. ﴿يَعْمَهُونَ﴾ حال مِن الضمير المنصوب،[٤] أو المجرور[٥] لكون المضاف مصدرًا، فهو مرفوع حُكمًا. والعَمَهُ في البصيرة كالعَمى في البصر، وهو التحيّر والتردّد بحيث لا يَدري أين يتوجّه.

وإسناد هذا المدّ إلى الله تعالى مع إسناده في قوله تعالى: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ﴾ [الأعراف، ٢٠٢/٧] محقّقٌ لقاعدة أهلِ الحقّ مِن أنّ جميع الأشياء مستنِد مِن حيث الخلقُ إليه تعالى،[٦] وإن كانت أفعالُ العباد مِن حيث الكسبُ مستنِدةً إليهم.

والمعتزلة لمّا تعذّر عليهم إجراءُ النظم الكريم على مسلكه نكَبوا إلى شِعاب التأويل، فأجابوا أوّلًا بأنّهم لمّا أصرّوا على كفرهم خذَلَهم الله تعالى

---

[١] قراءة شاذّة، رواها ابن مُحيصن وشبل عن ابن كثير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥١. وهي غير القراءة المشهورة عن ابن كثير.

[٢] كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران، ١٧٨/٣].

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٢.

[٤] هو ﴿هُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾.

[٥] هو ﴿هِمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾.

[٦] ي: سبحانه.

ومنعهم ألطافَه، فتزايَدَ الرَّيْنُ[١] في قلوبهم، فسُمّي ذلك مددًا في الطغيان، فأُسندَ إيلاؤه إليه تعالى، ففي المسنَد مجازٌ لغويٌّ، وفي الإسناد عقليٌّ؛ لأنّه إسنادٌ للفعل إلى المسبِّب له، وفاعلُه الحقيقيُّ هم الكَفَرة، وثانيًا بأنّه أُريدَ بـ"المَدّ في الطغيان" تركُ القسر والإلجاءِ إلى الإيمان كما في قوله تعالى: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام، ٦/١١٠]، فالمجاز في المسنَد فقط، وثالثًا بأنّ المراد به معناه الحقيقيّ، وهو فعل الشيطان، لكنّه أُسندَ إليه سبحانه مجازًا؛ لأنّه بتمكينه تعالى وإقداره.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾

﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين باعتبار اتّصافهم بما ذُكر مِن الصفات الشنيعة المميِّزة لهم عمّن عَداهم أكملَ تمييزٍ، بحيث صاروا كأنّهم حُضّارٌ مشاهدون على ما هم عليه. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلتهم في الشرّ[٢] وسُوء الحال. ومحلُّه الرفعُ على الابتداء، خبرُه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾. والجملة مَسوقة لتقرير ما قبلها، وبيانٌ لكمال جهالتهم فيما حُكي عنهم مِن الأقوال والأفعال بإظهار غاية سماجتها وتصويرِها بصورةِ ما لا يكاد يتعاطاه مَن له أدنى تمييزٍ فضلًا عن العقلاء.

والضلالة: الجَوْر عن القصد، والهدى: التوجّه إليه، وقد استُعير الأوّل للعُدول عن الصواب في الدين، والثاني للاستقامة عليه. والاشتراء: استبدال السِّلْعة بالثَّمَن، أي: أخذُها به، لا بذلُه لتحصيلها كما قيل وإن كان مستلزِمًا له، فإنّ المعتبَر في عقد الشراء ومفهومِه هو الجلب دون السلب الذي هو[٣] المعتبَر في عقد البيع، ثمّ استُعير لأخذ شيءٍ[٤] بإعطاء ما في يده عينًا كان كلٌّ منهما أو معنًى، لا للإعراض عمّا في يده محصّلًا به غيره كما قيل، وإن استلزمه لِما مرّ سرُّه. ومنه قوله:

---

[١] الرَّيْن: الطَّبْع على القلب. رانَ على قلبه، أي: طُبِع. كتاب العين للخليل بن أحمد، ٨/٢٧٧ «باب الراء والنون».

[٢] ط س: الشرّيّة.

[٣] ط س - الذي هو.

[٤] ي: الشيء.

أخــذتُ بـالـجُـمّـة رأسًــا أزْعَــرَا   وبـالـثّـنايا الـواضـحـاتِ الــدُّرْدُرَا
وبـالـطويـل الـعُـمْـرِ عُـمْـرًا جَـيْـذَرَا   كـمـا اشـتـرى الـمـسـلـمُ إذ تـنـصَّـرَا[١]

فاشتراء الضلالة بالهدي مستعارٌ لأخذها بدلًا منه أخذًا منوطًا بالرغبة فيها والإعراضِ عنه. ولمّا اقتضى ذلك أن يكون ما يجري مَجرى الثمن حاصلًا / للكَفَرة قبل العقد وما يجري مَجرى المَبيع غيرَ حاصلٍ لهم إذ ذاك[٢] -حسبما هو في البيت، ولا ريب في أنّهم بمَعزِل مِن الهدى، مستمرّون على الضلالة- استدعى الحال[٣] تحقيقَ ما جرى مَجرى العِوضَين. [١٨ظ]

فنقول، وبالله التوفيق: ليس المراد بما تعلّق به الاشتراءُ ههنا جنسَ الضلالة الشاملة لجميع أصناف الكَفَرة حتّى تكون حاصلةً لهم مِن قبلُ؛ بل هو فردها الكامل الخاصُّ بهؤلاء، على أنّ "اللام" للعهد، وهو عَمَهُهم المقرونُ بالمدّ في الطغيان، المترتّبُ على ما حُكي عنهم مِن القبائح. وذلك إنّما يحصل لهم عند اليأس عن اهتدائهم والختمِ على قلوبهم. وكذا ليس المراد بما في حيّز الثمن نفسَ الهدى؛ بل هو التمكّن التامّ منه بتعاضدِ الأسباب وتآخذِ المقدّمات المستتبِعة له بطريق الاستعارة، كأنّه نفس الهدى بجامع المشاركة في استتباع الجَدوى. ولا مِريةَ في أنّ هذه المرتبة مِن التمكّن كانت حاصلةً لهم بما شاهدوه مِن الآيات الباهرة والمعجِزات القاهرةِ مِن جهة الرسول صلّى الله عليه وسلّم،[٤] وبما سمعوه مِن نصائح المؤمنين التي مِن جملتها ما حُكي مِن النهي عن الإفساد في الأرض والأمرِ بالإيمان الصحيح،[٥] وقد نبذوها وراءَ ظهورهم، وأخذوا بدلَها الضلالة الهائلةَ التي هي العَمَهُ في تِيه الطغيان.

---

[١] البيت لأبي النجم في غرائب القرآن للنيسابوري، ١/١٧١، وبلا نسبة واختلاف يسير في الأضداد لابن الأنباري، ص ٧٢؛ والكشف والبيان للثعلبي، ١/١٥٩؛ والكشّاف للزمخشري، ١/٦٩؛ ونواهد الأبكار للسيوطي، ١/٤١٢. | الجُمّة بالضمّ: مجتمَع شَعر الرأس، وهي أكثر مِن الوفرة. والأزعر: الأصلع الذي قلّ شَعره. والدُّرْدُر: مَغرز الأسنان الساقطة الباقية الأصول. والجَيْذَر بالجيم والذال المعجَمة: القصير. وانظر لقصّة قوله "كما اشترى المسلم إذ تنصّرا": فتوح الغيب للطيبي، ٢/٢١٣-٢١٤.

[٢] ط س: حينئذ.

[٣] ط: المقام.

[٤] ي: عليه السلام.

[٥] انظر: البقرة، ٢/١١-١٣.

وحملُ ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ على الفطرة الأصليّة الحاصلة لكلّ أحد يأباه أنّ إضاعتها[١] غيرُ مختصّة بهؤلاء. ولئنْ حُملت على الإضاعة[٢] التامّة الواصلة إلى حدّ الختم على القلوب المختصّة بهم، فليس في إضاعتها[٣] فقط مِن الشناعة[٤] ما في إضاعتها[٥] مع ما يؤيّدها مِن المؤيِّدات العقليّة والنقليّة، على أنّ ذلك يُفضي إلى كون ذكر ما فُصّل مِن أوّل السورة الكريمة إلى هنا ضائعًا. وأبعدُ منه حملُ اشتراء الضلالة بالهدى على مجرّد اختيارها عليه مِن غير اعتبار كونه في أيديهم، بناءً على أنّه يُستعمل اتّساعًا في إيثار أحد الشيئين الكائنين في شَرَف الوقوع على الآخر، فإنّه -مع خُلُوّه عن المزايا المذكورة بالمرّة- مُخِلٌّ برَوْنَقِ الترشيح الآتي.

هذا على تقدير جعل الاشتراء المذكور عبارةً عن معاملتهم السابقة المحكيّة، وهو الأنسب بتجاوبِ أطراف النظم الكريم. وأمّا إذا جُعل ترجمةً عن[٦] جناية أخرى مِن جناياتهم، فالمراد بـ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ ما كانوا عليه مِن معرفة صحّة نبوّة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم[٧] وحقّيّةِ دينه بما كانوا يشاهدونه مِن نعوته عليه السلام في **التوراة**،[٨] وقد كانوا على يقينٍ منه، حتّى كانوا يستفتحون به على المشركين ويقولون: «اللّٰهمّ انصُرْنا بالنبيّ المبعوث في آخر الزمان الذي نجد نعتَه في **التوراة**»، ويقولون لهم: «قد أظلَّ زمانُ نبيٍّ[٩] يخرج بتصديق ما قلنا، فنقتلكم معه قتلَ عادٍ وإرَمَ»، فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به كما سيأتي.[١٠]

ولا مساغَ لحمل ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ على ما كانوا يُظهرونه عند لقاء المؤمنين، فإنّها ضلالة مضاعَفة.

﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ عطفٌ على الصلة داخلٌ في حيّزها، و"الفاء" للدلالة على ترتّبِ مضمونه عليها. والتجارة: صناعة التُّجّار، وهو التصدّي

---

[١] ط س: إضاءتها.
[٢] ط س: إضاءة.
[٣] ط س: إضاءتها.
[٤] ط س + على. | ضُرب عليها في س.
[٥] ط س: إضاءتها.
[٦] ي: مِن.
[٧] ي: عليه السلام.
[٨] ط س ي: يشاهدونه في التوراة مِن نعوته عليه السلام [صُحّح في نسخة س بالإشارة إلى التقديم والتأخير]. | وفي نسخة أ كما صُحّح في نسخة س.
[٩] ي – نبيّ.
[١٠] في تفسير قوله تعالى: البقرة، ٢/٨٩.

للبيع والشراء لتحصيل الربح، وهو الفضلُ على رأس المال، يقال: "ربِحَ فلان في تجارته"، أي: استشفّ[١] فيها وأصاب الربحَ. وإسنادُ عدمه -الذي هو عبارة عن الخُسران- إليها -وهو لأربابها- بناءً على التوسّع المبنيّ على ما بينهما مِن الملابسة. وفائدته المبالغةُ في تخسيرهم لِما فيه مِن الإشعار بكثرة[٢] الخَسار وعمومِه المستتبع لسِرايته إلى ما يلابسهم.

وإيرادهما إثرَ الاشتراء المستعار للاستبدال المذكور ترشيحٌ للاستعارة، وتصويرٌ لِما فَاتَهم مِن فوائد الهدى بصورة خسارة[٣] التجارة الذي يتحاشى عنه كلُّ أحد للإشباع في التخسير والتحسير. ولا ينافي ذلك أنّ التجارة في نفسها استعارةٌ لانهماكهم فيما هم عليهِ مِن إيثار الضلالة على الهدى وتمرُّنِهم عليه، مُعرِبةٌ عن كون ذلك صناعةً لهم راسخةً؛ إذ ليس مِن ضروريّات الترشيح أن يكون باقيًا على الحقيقة تابعًا للاستعارة لا يُقصد به إلّا تقويتها، كما في قولك: "رأيتُ أسدًا وافِيَ البَراثِن"،[٤] فإنّك لا تريد به إلّا زيادةَ تصويرٍ للشجاع، وأنّه أسدٌ كاملٌ، مِن غير أن تريد بلفظ "البراثن" معنًى آخَرَ؛ بل قد يكون مستعارًا مِن مُلائِم المستعار منه لملائم المستعار له، ومع ذلك يكون ترشيحًا لأصل الاستعارة كما في قوله:

فلمّا رأيتُ النَّسرَ عزَّ ابنَ دَأْيةٍ   وعشَّش في وَكْرَيْه جاشَ له صدري[٥]

فإنّ لفظ "الوَكْرَيْن" مع كونه مستعارًا مِن معناه الحقيقيّ -الذي هو موضعٌ يتّخذه الطائر للتفريخ- للرأس واللِّحية أو للفَوْدَين -أعني: جانبَي الرأس- ترشيحٌ باعتبار معناه الأصليّ لاستعارة لفظ "النَّسر" للشَّيب ولفظِ "ابن دَأْيةٍ"[٦]

---

[١] ي: استنشف.

[٢] ي: بكسر.

[٣] ط س: خسار.

[٤] البَراثن: مَخالِبُ الأسد، وواحدها: البَرْثَن. كتاب العين للخليل بن أحمد، ٢٥٣/٨ «باب الثاء والراء».

[٥] البيت للكُمَيْت في ديوانه، ص ٢٣٦؛ والفاضل للمبرّد، ص ٤٧، ولابن الأعرابي في أساس البلاغة للزمخشري، «دأي»، وبلا نسبة في ولسان العرب لابن منظور، «دأي»؛ وخِزانة الأدب للبغدادي، ٤٥٧/٦؛ وتاج العروس للزبيدي، «دأي». وفي كلّها: "جاشت له نفسي" مكان "جاشَ له صدري". | شَبّه الشاعرُ الشَّيبَ بـ"النَّسر" والشَّعرَ الأَسْودَ بـ"الغُراب"، واستعار التعشّشَ مِن الطائر للشَّيب والوَكْرَين للرأس واللِّحية، ورَشّح به إلى ذِكر الطيران الذي استعاره لنفسه مِن الطائر. الكلّيّات للكفوي، ص ٣٠١.

[٦] وهو الغُراب. الصحاح للجوهري، «دأي».

للشَّعر الأَسْود؛ وكذا لفظُ "التعشيش" -مع كونه مستعارًا للحلول والنزول المستمرَّين- ترشيحٌ لتَينك الاستعارتين بالاعتبار المذكور.

وقُرئ: "تِجَارَاتُهُمْ"،[١] وتعدُّدُها لتعدّدِ المضاف إليهم.

﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ أي: إلى طُرُق التجارة، فإنّ المقصود منها سلامةُ رأس المال مع حصول الربح، ولَئنْ فاتَ الربح في صَفْقة، فربّما يُتدارك في صفقة أخرى لبقاء الأصل. وأمّا إتلاف الكلّ بالمرّة،[٢] فليس مِن باب التجارة قطعًا؛[٣] فهؤلاء الذين كان رأسُ مالِهم الهدى قد استبدلوا بها الضلالةَ، فأضاعوا كِلتا الطَّلِبَتَين، فبَقُوا خائبين خاسرين نائين عن طريق التجارة بألفِ منزلٍ؛ فالجملة راجعةٌ إلى الترشيح، معطوفةٌ على ما قبلها، مشارِكةٌ له / في الترتّب على الاشتراء المذكور، والأَولى عطفُها على ﴿ٱشْتَرَوُاْ﴾... إلخ. [١٩و]

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿مَثَلُهُمْ﴾ زيادةُ كشفٍ لحالهم وتصويرٌ لها غِبَّ تصويرِها بصورةِ ما يؤدّي إلى الخَسار بحسب المآل بصورة ما يُفضي إلى الخسار مِن حيث النفسُ تهويلًا لها وإبانةً لفظاعتها، فإنّ التمثيل ألطفُ ذريعةٍ إلى تسخير الوهم للعقل واستنزالِه مِن مقام الاستعصاء عليه، وأقوى وسيلةٍ إلى تفهيم الجاهل الغبيّ وقمعِ سَوْرة الجامحِ[٤] الأبيّ؛ كيف لا، وهو رفع[٥] الحجاب عن وجوه المعقولات الخفيّة، وإبرازٌ لها في معرض المحسوسات الجليّة، وإبداءٌ للمنكَر في صورة المعروف، وإظهارٌ للوحشيّ في هيئة المألوف.

---

[١] قراءة شاذّة، رواها الكسائي عن العرب عن ابن أبي عَبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٢؛ ولكن هي غير القراءة المشهورة عن الكسائي.

[٢] هامش ط: بالكلّيّة. | كأنّه أراد تبديل ما أثبتناه بهذا.

[٣] س: أصلا؛ هامش ط: أصلا. | كأنّ الأخير أراد تبديل ما أثبتناه بهذا.

[٤] ي: صورة الجامع. | جمَحَ الفرس براكبه: اعتزّه على رأسه، وذهب جريًا غالبًا لا يملكه. ومِن المجاز: "جمحت المرأة إلى أهلها": ذهبت إليهم مِن غير إذن بَعْلِها، و"فلانٌ جَمُوح وجامحٌ": راكِبٌ لِهَواه. أساس البلاغة للزمخشري، «جمح».

[٥] ط س: كشف؛ ي: رافع. | أثبتنا ما في نسخة أ.

والمَثَل في الأصل بمعنى: المِثل والنظير، يقال: "مِثْل" و"مَثَل" و"مَثِيل"، كـ"شِبْه" و"شَبَه" و"شَبِيه"، ثمّ أُطلقَ على القول السائر الذي يمثّل مَضربه بمَورِده.[1] وحيث لم يكن ذلك إلّا قولًا بديعًا فيه غرابةٌ صيَّرته جديرًا بالتسيير في البلاد وخليقًا بالقبول فيما بين كلّ حاضرٍ وبادٍ، استُعِير لكلّ حال أو صفة أو قصّة لها شأن عجيب وخطَرٌ غريب، مِن غير أن يلاحَظ بينها وبين شيءٍ آخرَ تشبيهٌ. ومنه قولُه عزّ وجلّ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل، ٦٠/١٦]، أي: الوصفُ الذي له شأن عظيم وخطر جليل، وقولُه تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد، ٣٥/١٣؛ محمّد، ١٥/٤٧]، أي: قصّتها العجيبةُ الشأنِ.

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى﴾ أي: الذين، كما في قوله تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ [التوبة، ٦٩/٩]؛ خلا أنّه وُحِّد الضمير في قوله تعالى: ﴿ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ نظرًا إلى الصورة. وإنّما جاز ذلك مع عدم جواز وضع القائمِ مَقام القائمِين؛ لأنّ المقصود بالوصف هي الجملة الواقعة صلةً[2] له دون نفسه، بل إنّما هو وصلة لوصف المَعارف بها، ولأنّه حقيق بالتخفيف لاستطالته بصلته؛ ولذلك بُولغ فيه فحُذف ياؤه ثمّ كَسْرته ثمّ اقتُصر على اللام في أسماء الفاعلين والمفعولين،[3] ولأنّه ليس باسم تامّ؛ بل هو كجُزئه، فحقُّه ألّا يُجمَع، ويستوي فيه الواحد والمتعدِّد كما هو شأن أخَواته. وليس "الذين" جمْعَه المصحّح؛ بل النونُ فيه مزيدة للدلالة على زيادة المعنى؛ ولذلك جاء بالياء أبدًا على اللغة الفصيحة، أو[4] قُصِد به جنس المستوقِد أو الفوجُ أو الفريقُ المستوقِد.

والنار: جوهرٌ لطيف مُضيء حارّ محرِق. واشتقاقها مِن "نارَ ينُورُ" إذا نفَرَ؛ لأنّ فيها حركةً واضطرابًا. واستيقادها: طلبُ وُقودها، أي: سُطوعها وارتفاع لَهَبِها. وتنكيرُها للتفخيم.

---

[1] المراد بالمَورِد: الحالة الأصليّة التي ورد فيها الكلام، وبالمَضرِب: الحالة المشبَّهة بها التي أُريدَ بالكلام. **كشّاف اصطلاحات الفنون** للتهانوي، ١٤٤٩/٢.

[2] ي - صلة.

[3] أي: "اللَّذْ"، كما وقع في ألفيّة ابن مالك. انظر: **شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك**، ٢٨/٢، ١٧٦/٢-١٧٧.

[4] السياق: وإنّما جاز ذلك... لأنّ المقصود بالوصف هي الجملة الواقعة صلةً له... أو قُصِد به...

﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ﴾ الإضاءة: فرطُ الإنارة، كما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ [يونس، ٥/١٠]، وتَجيء متعدّيةً ولازمةً، و"الفاء" للدلالة على ترتّبِها على الاستيقاد، أي: فلمّا أضاءت النارُ ما حول المستوقِد، أو فلمّا استضاء[1] ما حوله، والتأنيثُ لكونه عبارةً عن الأماكن والأشياء، أو أضاءت النارُ نفسُها فيما حوله، على أنّ ذلك ظرفٌ لإشراق النار المنزَّلِ منزلتَها لا لنفسها، أو ﴿مَا﴾ مزيدةٌ و﴿حَوۡلَهُۥ﴾ ظرفٌ، وتأليف "الحَوْل" للدَّوَران، وقيل للعامِ حَوْلٌ؛ لأنّه يدور.

﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ النور: ضَوْء كلّ نيّرٍ، واشتقاقه مِن "النار". والضمير لـ﴿ٱلَّذِي﴾، والجمع باعتبار المعنى، أي: أطفأ الله نارَهم التي هي مدار نورهم. وإنّما عُلّق الإذهاب بالنور دون نفس النار؛ لأنّه المقصود بالاستيقاد، لا الاستدفاءُ ونحوه كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ﴾، حيث لم يُقَل: "فلمّا شبَّ ضِرامُها"[2] أو نحو[3] ذلك. وهو جوابُ ﴿لَمَّا﴾، أو استئنافٌ أجيبَ به عن سؤال سائل يقول: ما بالُهم أشبَهَتْ حالُهم حالَ مستوقِدٍ انطفأت ناره؟ أو بدلٌ مِن جملة التمثيل على وجه البيان، والضميرُ على الوجهين للمنافقين، والجوابُ محذوف كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ﴾ [يوسف، ١٥/١٢] للإيجاز والأمن مِن الإلباس، كأنّه قيل: فلمّا أضاءت ما حوله خمَدت، فبَقُوا في الظُّلُمات خابطين متحيِّرين خائبين بعد الكدح في إحيائها.

وإسناد الإذهاب إلى الله تعالى إمّا لأنّ الكلّ بخَلْقه[4] تعالى، وإمّا لأنّ الانطفاء حصل بسبب خفيّ أو أمرٍ سماويّ كريح أو مطر، وإمّا للمبالغة كما يُؤذن به تعديةُ الفعل بـ"الباء" دون الهمزة[5] لِما فيه مِن معنى الاستصحاب والإمساك، يقال: "ذهب السلطان بماله" إذا أخذه. وما أخذه الله تعالى[6] فأمسكه،

---

[1] ي: أضاء.

[2] الضِّرام: اشتعال النار في الحَلْفاء ونحوِها. والضِّرام أيضًا: دُقاق الحَطَب الذي يُسرع اشتعالُ النار فيه. الصحاح للجوهري، «ضرم».

[3] ي: ونحو.

[4] ي: بخلق الله.

[5] أي: أذهب.

[6] ط: عزّ وجلّ.

فلا مرسِلَ له مِن بعده؛[١] ولذلك عُدِل عن الضَّوء الذي هو مقتضى الظاهر إلى النور؛ لأنّ ذهاب الضوء قد يجامع بقاءَ النور في الجملة لعدم استلزام عدم القويّ لعدم الضعيف. والمراد إزالتُه بالكلّيّة كما يُفصح عنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾، فإنّ الظلمة -التي هي عدم النور وانطماسُه بالمرّة، لاسيّما إذا كانت متضاعفةً متراكمةً متراكبًا بعضُها على بعض كما يفيده الجمع والتنكير التفخيميّ وما بعدها مِن قوله تعالى: ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾- لا يتحقّق إلّا بعد ألّا يبقى مِن النور عينٌ ولا أثرٌ، وإمّا[٢] لأنّ المراد بـ"النار" ما لا يرضى به الله تعالى مِن النار المجازيّة التي هي نار الفتنة والفساد كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ [المائدة، ٥/٦٤]، ووصفُها بإضاءة ما حول المستوقِد مِن باب الترشيح، أو النارُ الحقيقيّة التي يوقِدُها الغُواة ليتوصّلوا بها إلى بعض المعاصي، ويَتَهدّوا[٣] بها في طُرق العبث والفساد، / فأطفأها الله تعالى وخيَّبَ آمالَهم. [١٩ظ]

و﴿تَرَكَ﴾ في الأصل بمعنى: طرَح وخلّى، وله مفعول واحد، فضُمّن معنى التصيير، فجرى مَجرى أفعال القلوب، قال:

فتركتُه جَزَرَ السِّباع يَنُشْنَه ... يقضِمْنَ حُسنَ بنانِه والمِعْصَمِ[٤]

والظُّلْمة مأخوذة مِن قولهم: "ما ظلمك أن تفعل كذا"، أي: ما منعك؛ لأنّها تسدّ البصرَ وتمنعه مِن الرؤية. وقُرئ: "فِي ظُلْمَاتٍ"[٥] بسكون اللام،

---

[١] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر، ٣٥/٢].

[٢] السياق: وإسناد الإذهاب إلى الله تعالى إمّا... وإمّا...

[٣] ي: ويهتدوا.

[٤] البيت بهذه الألفاظ لعنترة في شرح المعلّقات السبع للزَّوْزَني، ص ٢٥٩؛ والدرّ الفريد لابن أيدمر، ٧/٥٠٣، وبلا نسبة في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٥٠. ورواية عجزه في مطبوع ديوان عنترة، ص ٢١٦:

ما بين قُلّة رأسِه والمِعْصَمِ

الجَزَر: جمع جزرة، وهي الشاة والناقة تُذبح وتُنحر. ويَنُشْنَه: يتناوَلْنَه بالأكل. والقضم: أكل الشيء اليابس. والبَنان: الأصابع، واحدتها: بنانة. والمِعصَم: موضع السِّوار. وقُلّة كلّ شيء: أعلاه. شرح القصائد العشر للخطيب التبريزي، ص ٢٠٣.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي السَّمّال. المحتسب لابن جنّي، ١/٥٦؛ شواذّ القراءات للكرماني، ٥٢. وذكرها الثعلبي عن الأعمش في الكشف والبيان، ١/١٦٣.

و"فِي ظُلْمَةٍ"[١] بالتوحيد. ومفعول ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ مِن قبيل المطروح، كأنّ الفعل غير متعدٍّ، والمعنى: أنّ حالهم العجيبة التي هي اشتراؤهم الضلالةَ -التي هي عبارة عن ظُلمتَي الكفر والنفاقِ المستتبِعتَين لظُلمة سخط الله تعالى وظلمةِ يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ [الحديد، ١٢/٥٧] وظلمةِ العقاب السَّرمديّ- بالهدى الذي هو النور الفِطريّ المؤيَّد بما شاهدوه مِن دلائل الحقّ، أو بالهدى الذي كانوا حصّلوه مِن التوراة حسبما ذُكر كحال[٢] مَن استَوْقد نارًا عظيمةً حتّى كاد ينتفع بها، فأطفأها الله تعالى، وتركه في ظُلُمات هائلة لا يتسنّى فيها الإبصار.

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ١٨﴾

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ أخبار لمبتدإٍ محذوفٍ هو ضمير المنافقين، أو خبرٌ واحدٌ بالتأويل المشهور، كما في قولهم: "هذا حُلْوٌ حامضٌ".[٣] والصَّمَم: آفة مانعة مِن السماع، وأصله: الصلابة واكتنازُ الأجزاء، ومنه "الحَجَر الأصمّ" و"القَناة الصمّاء"، و"صِمام القارورة": سِدادُها. سُمّي به فقدانُ حاسّة السمع لِما أنّ سببه اكتنازُ باطن الصِّماخ[٤] وانسدادُ منافذه بحيث لا يكاد يدخله هواءٌ يحصل الصوت بتموّجه. والبَكَم: الخَرَس. والعَمَى: عدم البصر عمّا مِن شأنه أن يبصر.

وُصفوا بذلك مع سلامة مَشاعرهم المعدودة لِما أنّهم حيث سَدّوا مَسامعهم عن الإصاخة لِما يُتلى عليهم مِن الآيات والذِّكر الحكيم، وأبَوْا أن يتلقَّوْها بالقبول ويُنطِقوا بها ألسنتَهم، ولم يجتلّوا ما شاهدوا مِن المعجِزات الظاهرة

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن السميفع. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٢. ونسَبَها الزمخشري في الكشّاف، ٧٥/١؛ وأبو حيّان في البحر المحيط، ١٣١/١، إلى اليماني.

[٢] السياق: أنّ حالهم العجيبة... كحال مَن استَوْقد نارًا...

[٣] أي: مختلط بالحُلوّ والحَمض. قال ابن عقيل في شرح ألفيّة ابن مالك، ٢٥٧/١: «اختلف النحويّون في جواز تعدّد خبر المبتدأ الواحد بغير حرف عطفٍ، نحو "زيد قائمٌ ضاحكٌ"، فذهب قوم -منهم المصنّف- إلى جواز ذلك، سواء كان الخبران في معنى خبر واحد، نحو "هذا حُلْوٌ حامضٌ"، أي مُزٌّ، أم لم يكونَا في معنى خبر واحد كالمثال الأوّل...»

[٤] الصِّماخ: خَرْق الأُذُن، وبالسين لغة، ويقال: هو الأذن نفسُها. الصحاح للجوهري، «صمخ».

على يدَي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم،[١] ولم ينظروا إلى آيات التوحيد المنصوبة في الآفاق والأنفس بعين التدبّر، وأصرّوا على ذلك بحيث لم يبقَ لهم احتمالُ الارعواء عنه، صاروا كفاقِدِي تلك المشاعر بالكلّيّة. وهذا عند مُفلِقِي سَحَرة البيان مِن باب التمثيل البليغ المؤسَّس على تَناسي التشبيه، كما في قول مَن قال:

ويصعَدُ حتّى لَظنَّ[٢] الجَهُول   بأنّ له حاجةً في السماء[٣]

لِما أنّ المقدَّر في النظم في[٤] حكم الملفوظ؛ لا مِن قبيل الاستعارة التي يطوى فيها ذكرُ المستعار له بالكلّيّة حتّى لو لم يكن هناك قرينة تُحمل على المعنى الحقيقيّ، كما في قول زُهير:[٥]

لدَى أسَدٍ شاكِي السلاحِ مُقذَّفٍ   له لِبَدٌ أظفارُه لم[٦] تُقَلَّمِ[٧]

﴿فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ "الفاء" للدلالة على ترتّب ما بعدها على ما قبلها، أي: هم بسبب اتّصافهم بالصفات المذكورة لا يعودون إلى الهدى الذي تركوه وضيّعوه، أو عن الضلالة التي أخذوها. والآية نتيجةٌ للتمثيل، مفيدةٌ لزيادة تهويل وتفظيع، فإنّ قُصارى أمرِ التمثيل بقاؤُهم في ظُلُمات هائلة مِن غير تعرّضٍ

---

١ ي: عليه السلام.

٢ كذا في الأصول الخطّيّة. وفي مطبوعاته وفيما وقفنا عليه مِن المصادر: "يظنّ" مكان "لظنّ".

٣ البيت لأبي تمّام في **الكشّاف** للزمخشري، ٧٧/١؛ و**الطراز** للعلوي، ١٣٢/١؛ و**عروس الأفراح** للسبكي، ١٨٠/٢-١٨١. وقال عبد القاهر الجرجاني في **أسرار البلاغة**، ص ٣٠٢: «فلولا قصدُه أنْ يُنسيَ الشبيهَ ويرفعَه بجُهده، ويصمِّمَ على إنكاره وجَحْده، فيجعَلَه صاعدًا في السماء مِن حيث المسافةُ المكانيّة، لَمَا كان لهذا الكلام وجهٌ».

٤ ي – في.

٥ هو زُهير بن أبي سُلمى ربيعة بن رِياح المُزَني (ت. ٦٠٩م [؟]). شاعر جاهليّ، لم يُدرك الإسلام، وأدركه ابناه كعب وبُجَير. وُلد في بلاد مُزَينة بنواحي المدينة، وكان يقيم في الحاجر مِن ديار نجد، واستمرّ بنوه فيه بعد الإسلام. قيل: كان ينظم القصيدةَ في شهرٍ، وينقّحها ويهذّبها في سنة، فكانت قصائده تُسمّى "الحَوْليّات"، أشهر شعره معلّقتُه. وفي أئمّة الأدب مَن يفضِّله على شعراء العرب كافّةً. انظر: **الشعر والشعراء** لابن قتيبة، ١٤١/١-١٥٢؛ و**الأعلام** للزركلي، ٥٢/٣.

٦ ي: ولم.

٧ البيت في **شرح شعر زهير بن أبي سلمى** لثعلب، ص ٣٠. | شاكي السلاح، أي: سلاحه ذو شَوْكة. والمقذَّف: الغليظ اللحمِ. واللِّبَد: الشَّعر المتراكِب بين كتفَي الأسدِ. أظفارُه لم تُقلَّم: هو تامّ السلاحِ حديدُه، يريد الجيشَ، واللفظُ على الأسد. انظر: شرح ثعلب على البيت.

لمَشعَرَي السمع والنُّطق ولاختلال مَشعَرِ الإبصار. وقيل: الضمير المقدَّر وما بعده للموصول باعتبار المعنى كالضمائر المتقدِّمة، فالآية الكريمة تَتِمّة للتمثيل وتكميلٌ له بأنّ ما أصابهم ليس مجرَّدَ انطفاء نارهم وبقائِهم في ظُلُمات كثيفة هائلة مع بقاء حاسّة البصر بحالها؛ بل اختلّت مَشاعرهم جميعًا، واتّصفوا بتلك الصفات[١] على طريقة التشبيه أو الحقيقة، فبَقُوا جامدين في مكاناتهم، لا يبرَحون[٢] ولا يدْرون أيتقدّمون أم يتأخّرون، وكيف يرجعون إلى ما ابتدءُوا منه.

والعُدول إلى الجملة الاسميّة للدلالة على استمرار تلك الحالة فيهم. وقُرئ: "صُمًّا بُكْمًا عُمْيًا"،[٣] إمّا على الذمّ كما في قوله تعالى: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾،[٤] والمخصوصُ بالذمّ هم المنافقون أو المستوقِدون، وإمّا على الحاليّة مِن الضمير المنصوب في ﴿تَرَكَهُمْ﴾[٥] أو المرفوعِ في ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾،[٦] وإمّا على المفعوليّة لـ﴿تَرَكَهُمْ﴾، فالضميران للمستوقِدين.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ تمثيل لحالهم إثرَ تمثيل ليعمَّ البيانُ منها كلّ دقيق وجليل، ويُوفَّى[٧] حقُّها مِن التفظيع والتهويل، فإنّ تفنّنهم في فنون الكفر والضلال وتنقّلَهم فيها مِن حال إلى حال حقيقٌ بأن يُضرَب في شأنه الأمثال، ويُرخى في حَلْبَتِه[٨] أعِنّةُ[٩] المقال، ويُمدَّ لشرحه[١٠] أطناب الإطناب، ويُعقَدَ لأجله فصول وأبواب،

---

١ وفي هامش ط س: فإنّ تطرّق الأمور الهائلة ربّما يؤدّي إلى ذلك. «منه».

٢ ي: يرجعون.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والضحّاك وزيد بن عليّ. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٥٣.

٤ ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [المسد، ١١١/٤].

٥ في الآية السابقة.

٦ في الآية السابقة.

٧ ي: وتوفّى.

٨ قال الليث: «الحَلْبَة: خَيْل تجتمع للسباق مِن كلّ أوْب، لا تخرج مِن موضع واحد، ولكن مِن كلّ حيّ. **تهذيب اللغة** للأزهري، ٥٥/٥ «أبواب الحاء واللام».

٩ العِنان مِن اللِّجام: السَّير الذي بيدِ الفارس الذي يقوِّمُ به رأسَ الفَرَس. ويُجمَع على "أعِنّة" و"عُنُن". **كتاب العين** للخليل بن أحمد، ٩٠/١ «باب العين والنون».

١٠ ي: في شرحه.

لِما أنّ كلّ كلام له حظٌّ مِن البلاغة وقسطٌ مِن الجزالة والبراعة لا بدّ أن يُوفّى فيه حقُّ كلٍّ مِن مقامَي الإطناب والإيجاز؛ فما ظنُّك بما في ذروة الإعجاز مِن التنزيل الجليل. ولقد نُعي عليهم في هذا التمثيل تفاصيل جناياتهم. وهو عطفٌ على الأوّل على حذف المضاف لِما سيأتي مِن الضمائر المستدعية لذلك، أي: كمثل ذَوِي صيّبٍ. وكلمة ﴿أَوْ﴾ للإيذان بتساوي القصّتين في الاستقلال بوجه التشبيه وبصحّة التمثيل بكلّ واحدة منهما وبهما معًا.

والصيِّب فَيْعَلٌ مِن "الصَّوْب"،[1] وهو النزول الذي له وقْع وتأثير، يُطلَق على المطر وعلى السحاب، قال الشَّمّاخ:[2]

عَفَا آيةُ نَسْجُ الجنوبِ مع الصَّبَا وأسحَمُ دانٍ صادقُ الرعد[3] صيِّبُ[4]

ولعلّ الأوّلَ هو المراد ههنا لاستلزامه الثانيَ. وتنكيره لِما أنّه أريدَ به نوعٌ منه شديدٌ هائلٌ، كالنار في التمثيل الأوّل، وأُمدَّ به ما فيه مِن المبالغات مِن جهة مادّته الأُولى التي هي الصاد المستعلية / والياء المشدَّدة والباء الشديدة، ومادّتِه الثانية، [٢٠و]

---

١ س: الصواب.

٢ هو الشمّاخ بن ضِرار بن حَرْملة بن سنان أبو سعدة المازني الذُّبياني الغَطَفاني (ت. ٣٠هـ/٦٥٠م [؟]). شاعر مخضرَم، أدرك الجاهليةَ والإسلامَ. يقال: إنّ اسمه معقل بن ضرار، والشمّاخ لقبه. وهو مِن طبقة لَبيد والنابغة. كان شديدَ متون الشعر، ولبيد أسهل منه منطقًا. وكان أرجزَ الناس على البديهة. جمع بعض شعره في ديوان. شهِد القادسيّة، وتُوفّي في غزوة موقان. وأخباره كثيرة. انظر: **الشعر والشعراء** لابن قتيبة، ٣٠٤/١-٣٠٧؛ **والأعلام** للزركلي، ١٧٥/٣.

٣ ي: الوعد. | يمكن تأويل ما وقع في هذه النسخة بما نقله السيوطي عن التفتازاني في **نواهد الأبكار**، ٤٣٦/١: «وفي الحاشية المشار إليها: "صادق الرعد" مِن باب المجاز، فإنّ الرعد لمّا كان مبشِّرًا بالمطر صار كأنّه واعد بنزول المطر، ثمّ صدق وعده بنزوله».

٤ البيت للشمّاخ بن ضِرار الذُّبياني في **فتوح الغيب** للطيبي، ٢٦٤/٢؛ **ونواهد الأبكار** للسيوطي، ٤٣٦/١. ويُروى بدون صدره في مُلحَق **ديوان الشمّاخ**، ص ٤٣٢؛ **والكشّاف** للزمخشري، ٨١/١؛ **والبحر المحيط** لأبي حيّان، ١٣٥/١؛ **واللباب** لابن عادل، ٣٨٧/١. وفي **ديوان النابغة الذُّبياني**، ص ٧٣:

عَفَا آيةُ ريحُ الجَنوبِ مع الصَّبَا وأسحَمُ دانٍ مُزْنُه مُتصَوِّبُ

| الأسحَمُ: السحاب الأسْوَد. دانٍ: قريبٌ مِن الأرض. صادق الرعد، أي: غيرُ خُلَّب، وهو الذي لا غيثَ معه. المعنى: مَحَا آثارَ رَبْعِ المحبوب وغيَّرَ رسومَه اختلافُ هاتين الرِّيحَين وتتابُعُ هُبوبهما؛ مثَّلَ اختلافَ الريحَين بنسج الصانع الثوبَ، فإنّ إحدى الريحَين بمنزلة السَّدَى، والأخرى كاللُّحْمة، فإنّ ريح الصَّبا تهُبّ مِن جانب المَشرِق، والجَنوبُ مِن يمين مَن يكون متوجِّهَ المَشرِق. انظر: **فتوح الغيب** للطيبي، ٢٦٤/٢-٢٦٥.

أعني: الصَّوب[١] المُنبئ عن شدّة الانسكاب، ومِن جهة بنائه الدالّ على الثبات. وقُرئ: "أَوْ كَصَائِبٍ".[٢]

﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ متعلِّق بـ﴿صَيِّبٍ﴾، أو بمحذوفٍ وقع صفةً له. والمراد بـ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ هذه المُظِلّة، وهي في الأصل: كلّ ما علاك مِن سقفٍ ونحوه، وعن الحسن رحمه الله:[٣] «أنّها موج مكفوف»،[٤] أي: ممنوع بقدرة الله عزّ وجلّ[٥] مِن السيلان. وتعريفها للإيذان بأنّ انبعاث الصيّب ليس مِن أُفُق واحد، فإنّ كلّ أفق مِن آفاقها -أي: كلّ ما يُحيط به كلُّ أفق منها- سماءٌ على حِدَة، قال:

ومِــن بُـعْـدِ أرضٍ بيننا وسـماءِ[٦]

كما أنّ كلّ طَبَقة مِن طِباقها[٧] سماءٌ، قال[٨] تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت، ١٢/٤١]، والمعنى: أنّه صيّبٌ عامٌّ نازلٌ مِن غَمامٍ مطبِقٍ آخذٍ بالآفاق. وقيل: المراد بـ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ السحاب، و"اللام" لتعريف الماهيّة.[٩]

﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ﴾ أي: أنواع منها، وهي ظُلمة تكاثفِه وانتساجِه بتتابعِ القَطْر وظلمةُ إظلالِ ما يلزَمه مِن الغمام الأسحَمِ المطبِق الآخذ بالآفاق مع ظلمة الليل. وجعلُه محلًّا لها -مع أنّ بعضها لغيره كظلمتَي الغمام والليل- لِما أنّهما جُعِلتا

---

١ س: الصواب.

٢ قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري في الكشّاف، ٨٢/١؛ والرازي في تفسيره، ٣١٧/٢؛ وابن عادل في اللباب، ٣٨٧/١، ولم ينسبوها إلى أحد.

٣ ي - رحمه الله. | أي: الحسن البصري.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٨٢/١. وروى الحسنُ البصري نحوَه عن أبي هريرة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مرفوعًا. انظر: سنن الترمذي، ٤٠٣/٥-٤٠٤ (٣٢٩٨).

٥ ي: تعالى.

٦ وفي هامش ط س ي: صدره:

فَـأَوْهِ لِـذِكراها إذا ما ذكرتُها

| البيت بلا نسبة في سرّ صناعة الإعراب لابن جنّي، ٢٩٩/٢؛ والصحاح للجوهري، «أوه»؛ ولسان العرب لابن منظور، «أوه»؛ وتصحيح التصحيف للصفدي، ١٣٨/١. ويُروى صدره: "فأَوْهِ مِن الذِّكرى إذا ما ذكرتُها" في الزاهر للأنباري، ١٣٠/١؛ ومعجم ديوان الأدب للفارابي، ١٤٢/٤؛ وتهذيب اللغة للأزهري، ٢٥٥/٦ «باب لفيف حرف الهاء». | قال التفتازاني: «حيث نكَّرَ "أرضًا" و"سماءً" للبَعضيّة؛ إذ ليس بينهما بُعْدُ جميع الأرض وجميع السماء، يعني: أتوجّع مِن ذِكراها ومِن حيلولة قطعةٍ مِن الأرض وناحيةٍ مِن السماء بيننا». نقله عنه السيوطي في نواهد الأبكار، ٤٣٧/١.

٧ ط: طبقاتها.

٨ ي + الله.

٩ ط: الحقيقة.

مِن توابع ظلمته مبالغةً في شدّته وتهويلًا لأمره، وإيذانًا بأنّه مِن الشدّة والهَوْل بحيث تغمُر ظلمتُه ظُلُماتِ الليل والغمام. وهو السرّ في عدم جعل الظلمات هو الأصلَ المستتبعَ للبواقي مع ظهور ظرفيّتها للكلّ؛ إذ لو قيل: أو كظلماتٍ فيها صيّبٌ... إلخ، لَمَا أفاد أنّ للصيّب ظلمةً خاصّةً به، فضلًا عن كونها غالبةً على غيرها.

﴿وَرَعْدٌ﴾ وهو صوتٌ يُسمَع مِن السحاب. والمشهور أنّه يحدُث مِن اصطكاك أجرام السحاب بعضِها ببعض، أو مِن انقلاع بعضها عن بعض عند اضطرابها بسوق الرياح إيّاه سوقًا عنيفًا. ﴿وَبَرْقٌ﴾ وهو ما يلمَع مِن السحاب، مِن "برَقَ الشيءُ بريقًا"، أي: لمَعَ. وكِلاهما في الأصل مصدر؛ ولذلك لم يُجمَعَا. وكونهما في الصيّب باعتبار كونهما في أعلاه ومصبّه ووصولِ أثرهما إليه وكونِهما في الظلمات الكائنة فيه. والتنوين في الكلّ للتفخيم والتهويل، كأنّه قيل: فيه ظلمات شديدة داجية[1] ورعد قاصف وبرق خاطف. وارتفاع الجميع بالظرف على الفاعليّة لتحقّقِ شرط العمل بالاتّفاق، وقيل: بالابتداء. والجملة إمّا صفة لـ﴿صَيِّبٍ﴾، أو حال منه لتخصّصِه بالصفة أو بالعمل فيما بعده مِن الجارّ، أو مِن المستكِنّ في الظرف الأوّل على تقدير كونه صفةً لـ﴿صَيِّبٍ﴾.

والضمائر في قوله تعالى:[2] ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم﴾ للمضاف الذي أقيمَ مُقامه[3] المضافُ إليه، فإنّ معناه باقٍ، وإن حُذف لفظه تعويلًا على الدليل كما في قوله عزّ وعلا:[4] ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف، ٧/٤]، فإنّ الضمير للأهل المدلول عليه بما قام مَقامه مِن "القرية". قال حسّان رضي الله عنه:[5]

---

[1] ي: واجبة. | الدُّجَى: الظُّلْمة، يقال: دَجَا الليلُ يدجُو دُجُوًّا، وليلةٌ داجيةٌ. **الصحاح** للجوهري، «دجا».

[2] ط: عزّ وجلّ.

[3] ط: مقام.

[4] س: عزّ وجلّ؛ ي: تعالى.

[5] ي - رضي الله عنه. | هو حسّان بن ثابت، شاعر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. سبق ترجمته.

يَسْقُون مَن وَرَدَ البَرِيصَ عليهم بَـرَدَى يُصفَّقُ بالرَّحيق السَّلْسَلِ[١]

فإنّ تذكير الضمير المستكنّ في "يُصفَّق" لرجوعه إلى الماء المضاف إلى "بَرَدَى"، وإلّا لَأَنّث حتمًا.

وإيثار "الجعل" المُنبئ عن دوام الملابسة واستمرارِ الاستقرار على الإدخال المفيد لمجرّد الانتقال مِن الخارج إلى الداخل للمبالغة في بيان سدّ المَسامع باعتبار الزمان، كما أنّ إيراد "الأصابع" بدلَ "الأنامل" للإشباع في بيان سدّها باعتبار الذات، كأنّهم سدُّوها بجملتها، لا بأناملها فحسبُ كما هو المعتاد. ويجوز أن يكون هذا إيماءً إلى كمال حَيْرتهم وفرطِ دَهْشتهم، وبلوغِهم إلى حيث لا يهتدون إلى[٢] استعمال الجوارح على الوجه المعتاد.[٣] وكذا الحال في عدم[٤] تعيين الأصبع المعتادة، أعني: السَّبّابة، وقيل: ذلك لرعاية الأدب. والجملة استئناف، لا محلَّ لها مِن الإعراب، مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ مِن الكلام، كأنّه قيل عند بيان أحوالهم الهائلة: فماذا يصنعون في تضاعيف تلك الشدّة؟ فقيل: ﴿يَجْعَلُونَ﴾... إلخ.

وقوله عزّ وعلا:[٥] ﴿مِنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ متعلِّق بـ﴿يَجْعَلُونَ﴾، أي: مِن أجل الصواعق المقارنة للرعد، مِن قولهم: "سَقَاه مِن الغَيْمة".[٦] والصاعقة: قَصْفة رعد هائل تنقضّ معها شُقّة نار لا تمرّ بشيء إلّا أتتْ عليه، مِن "الصَّعَق"، وهو شدّة الصوت، وبناؤها إمّا أن يكون صفةً لقصفة الرعد أو للرعد، و"التاء" للمبالغة، كما في "الراوية"، أو مصدر كـ"العافية". وقد تُطلَق[٧] على كلّ هائل مسموع أو مشاهَد،

---

[١] البيت لحسّان في ديوانه، ص ٢٢٦؛ والشعر والشعراء لابن قتيبة، ٢٩٦/١؛ ونهاية الأرب للنُّويري، ٣١٤/١٥. | بَرَدَى: وادي دمشق، والبَريص: نهر متشعِّب منه. والرَّحيق: صَفْوة الخَمْر. وماء سَلْسَلٌ وسَلْسَالٌ، أي: سهل الدخول في الحَلْق. والشاعر عوَّلَ على بقاء المعنى، حيث ذكَّرَ "يصفَّق"؛ لأنّ المعنى: "ماء بَرَدَى"، وكان القياس: "تصفَّق"؛ لأنّ في "بَرَدَى" ألِفُ التأنيث. انظر: فتوح الغيب للطيبي، ٢٧٠/٢-٢٧١.

[٢] ط: لا يقدرون على.

[٣] ط س: المعهود.

[٤] ي - عدم.

[٥] س: تعالى؛ ي: عزّ وجلّ.

[٦] قال أبو عُبيد: الغَيْمة: العطش، وقال غيره: شدّتُه. تاج العروس للزبيدي، «غيم».

[٧] ي: يطلق.

يقال: "صعَقَتْه الصاعقة" إذا أهلكتْه بالإحراق أو بشدّة الصوت. وسدُّ الآذان إنّما يفيد على التقدير الثاني دون الأوّل. وقُرئ: "مِنَ الصَّوَاقِعِ"،[١] وليس ذلك بقلبٍ مِن ﴿ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ لاستواء كِلا البناءَين في التصرّف، يقال: "صقَع الدِّيكُ"، و"خطيب مِصْقَع"، أي: مُجهِرٌ بخُطبته.

﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ منصوب بـ﴿يَجْعَلُونَ﴾ على العلّة وإن كان معرفةً بالإضافة، كقوله:

وأغـفِـرُ عَــوْراءَ الكريـم ادِّخــارَه وأصـفَـحُ عـن شَـتْـم اللَّئيم تكرُّمَا[٢]

ولا ضيرَ في تعدّد المفعول له، فإنّ الفعل يعلَّل بعِلَل شتّى. وقيل: هو نصب على المصدريّة، أي: يحذَرون حذَرًا مثل حذر الموت. والحَذَر والحِذار هو شدّة الخوف. وقُرئ:[٣] "حِذَارَ المَوْتِ".[٤] والموت: زوال الحياة، وقيل: عَرَضٌ يُضادُّها، لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك، ٦٧/٢]، ورُدّ بأنّ الخلق بمعنى التقدير والأعدام مقدَّرةٌ.[٥]

﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: لا يفوتونه كما لا يفوت المحاطُ به المحيطَ. شُبّه شمول قدرته تعالى لهم وانطواءُ / مَلَكوته عليهم بإحاطة المحيط بما أحاط به[٦] في استحالة الفَوْت، أو شُبّه الهيئة المنتزَعة مِن شُئونه تعالى معهم بالهيئة المنتزَعة مِن أحوال المحيط مع المحاط؛ فالاستعارة المبنيّة على التشبيه الأوّل استعارةٌ تَبَعيّةٌ في الصفة متفرّعةٌ على ما في مصدرها مِن الاستعارة، والمبنيّةُ على الثاني تمثيليّةٌ قد اقتُصِر مِن طرف المشبَّه به على ما هو العُمدة في انتزاع الهيئة [٢٠ظ]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٣.

٢ البيت لحاتِم بن عبد الله الطائي في ديوانه، ص ٤٥، وفيه: "اصطناعه" بدلَ "ادّخاره". | العَوْراء: الكلمة القبيحة، أي: أستُرها لتَبقى الصداقةُ، وأدّخِره ليومٍ أحتاج إليه؛ لأنّ الكريم إذا فرَطَ منه قُبحٌ ندِمَ على فعله، ومنَعَه كرَمُه أنْ يعود إلى مِثله، واستشهد به لكونه مضافًا إلى المعرفة، أي: "ادّخارَه" و"تكرُّمًا" كِلاهما مفعول له. انظر: فتوح الغيب للطيبي، ٢/٢٧٤.

٣ ي + حذر.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك وأبي السَّمّال. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٣.

٥ قال القونوي في نفس العبارة في حاشيته على تفسير البيضاوي، ٢/٣٠٤: «"الأعدام"، أي: الأعدام الحادثة. و"مقدّرة"، أي: مقضيّة. وأمّا الأعدام الأزليّة، فلا يتعلّق بها الإرادة ولا التقدير، اللّهمّ إلّا أنْ يتكلّف...» إلخ.

٦ ي - به.

المشبَّه بها -أعني: الإحاطة- والباقي منويٌّ بألفاظ متخيَّلة بها يحصل التركيب المعتبَرُ في التمثيل، كما مرّ تحريره في قوله عزّ وجلّ:[١] ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة، ٢/٧].

والجملة اعتراضيّة منبِّهة على أنّ ما صنعوا مِن سدّ الآذان بالأصابع لا يُغني عنهم شيئًا، فإنّ القدَرَ لا يدافعه الحَذَرُ، والحِيَل لا تردّ بأسَ الله عزّ وجلّ. وفائدة وضع ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ موضِعَ الضمير الراجع إلى أصحاب الصيِّب الإيذانُ بأنّ ما دَهَمَهم مِن الأمور الهائلة المحكيّة بسبب كفرهم، على منهاج قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران، ٣/١١٧]، فإنّ الإهلاك الناشئ مِن السخط أشدُّ وأفظعُ.[٢] وقيل: هذا الاعتراض مِن جملة أحوال المشبَّه على أنّ المراد بـ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ المنافقون، قد دلَّ به على أنّه لا مدفعَ لهم مِن عذاب الله تعالى في الدنيا والآخرة، وإنّما وُسِّط بين أحوال المشبَّه به -مع أنّ القياس تقديمُه أو تأخيرُه- لإظهار كمال العناية وفرطِ الاهتمام بشأن المشبَّه.

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ﴾ استئناف آخَرُ، وقع جوابًا عن سؤال مقدَّر، كأنّه قيل: فكيف حالهم مع ذلك البرق؟ فقيل: يكاد ذلك ﴿يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ أي: يختلسها ويستلبها بسرعة. و"كاد" مِن أفعال المقاربة، وُضعت[٣] لمقاربة الخبر مِن الوجود لتَأخِذَ أسبابَه وتُعاضِدَ مباديَه، لكنّه لم يوجَدْ بعدُ لفقد شرط أو لعُروض مانع. ولا يكون خبرُها إلّا مضارِعًا عاريًا عن كلمة "أنْ"، وشذَّ مجيئه اسمًا صريحًا كما في قوله:

فأُبْتُ إلى فهمٍ وما كِدْتُ آيِبًا[٤]

---

[١] ي: تعالى.

[٢] ط س ي - وأفظع ["صح" في هامش س].

[٣] ط س: وضع.

[٤] تمامه:
وكم مِثْلِها فارقْتُها وهيَ تَصْفِرُ
| البيت لِتأبَّطَ شرًا في ديوانه، ص ٩١.

وكذا مجيئه مع "أنْ" حملًا لها على "عسى" كما في مثل قول رُؤبة:[١]

قد كاد مِن طُول البِلى أن يَمْصَحَا[٢]

كما تُحمَل هي عليها[٣] بالحذف لِما بينهما مِن المقارنة في أصل المقاربة، وليس فيها شائبة الإنشائيّة كما في "عسى".

وقُرئ: "يَخْطِفُ"[٤] بكسر الطاء، و"يَخْتَطِفُ"،[٥] و"يَخَطِّفُ"[٦] بفتح الياء والخاءِ بنقل فتحة التاء إلى الخاء وإدغامِها في الطاء،[٧] و"يِخِطِّفُ"[٨] بكسرهما على إتباع الياء الخاءَ، و"يُخَطِّفُ"[٩] مِن صيغة التفعيل، و"يَتَخَطَّفُ"[١٠] مِن قوله تعالى: ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت، ٦٧/٢٩].

﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم﴾ ﴿كُلَّمَا﴾ ظرفٌ، و﴿مَا﴾ مصدريّة، والزمان محذوف، أي: كلَّ زمانِ إضاءةٍ.[١١] وقيل: ﴿مَا﴾ نكِرة موصوفة، معناها: الوقت، والعائد[١٢] محذوف، أي: كلَّ وقت أضاء لهم فيه. والعامل في ﴿كُلَّمَا﴾ جوابُها. وهو استئناف ثالث، كأنّه قيل: ما يفعلون في أثناء ذلك[١٣] الهَول؟ أيفعلون بأبصارهم

---

١ هو رُؤبة بن عبد الله العَجّاج بن رُؤبة التميمي السعدي، أبو الجَحّاف (ت. ١٤٥هـ/٧٦٢م). الراجز المشهور مِن مخضرَمي الدولتَين الأمويّة والعبّاسيّة. كان أكثر مُقامه في البصرة. وأخذ عنه أعيان أهل اللغة، وكانوا يحتجّون بشِعره ويقولون بإمامته في اللغة. سمع مِن أبي هريرة رضي الله عنه والنسابة البكري. ورَوى عنه أبو عبيدة مَعْمَر بن المُثنّى والنضر بن شميل وخلف الأحمر وغيرهم. وله ديوان رجزٍ مشهور. انظر: **الشعر والشعراء** لابن قتيبة، ٥٧٨/٢-٨٦؛ **ومعجم الأدباء** للحَمَوي، ١٣١١/٣-١٣١٢؛ **والأعلام** للزركلي، ٣٤/٣.

٢ البيت في ديوانه، ص ١٧٢. وصدره:
رسمٌ عَفَا مِن بعدِ قد انمحى.

٣ ي: عليه.

٤ قراءة شاذّة، ذكرها أبو حيّان في **البحر المحيط**، ١٤٦/١، ونسبها إلى مجاهد وعليّ بن الحسين ويحيى بن زيد.

٥ قراءة شاذّة، ذكرها أبو حيّان في **البحر المحيط**، ١٤٦/١، ونسبها إلى عليّ وابن مسعود.

٦ قراءة شاذّة، حكاها الفرّاء عن بعض القرّاء فيما ذكر ابن مجاهد. **المحتسب** لابن جنّي، ٥٩/١. وذكرها أبو حيّان في **البحر المحيط**، ١٤٦/١، ونسبها إلى الحسن.

٧ وكان الأصل: "يَخْتَطِفُ".

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعمش. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٥٣؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان ١٤٦/١.

٩ قراءة شاذّة، ذكرها أبو حيّان في **البحر المحيط**، ١٤٦/١، ونسبها إلى زيد بن عليّ.

١٠ قراءة شاذّة، ذكرها الثعلبي في **الكشف والبيان**، ١٦٤/١؛ والزمخشري في **الكشّاف**، ٨٦/١، ونسباها إلى أبيّ بن كعب.

١١ ي: أضاءت.

١٢ ي: والعائدة.

١٣ ط: هذا.

ما فعلوا بآذانهم أم لا؟ فقيل: كلّما نوَّر البرقُ لهم مَمْشًى ومسلَكًا، على أنّ ﴿أَضَآءَ﴾ متعدٍّ والمفعولُ محذوف، أو كلّما لمَعَ لهم، على أنّه لازمٌ، ويؤيّده قراءة "كُلَّمَا ضَاءَ".[١]

﴿مَشَوْاْ فِيهِ﴾ أي: في ذلك المسلك أو في مطرح نوره خُطُواتٍ يسيرةً مع خوفِ أن يخطَفَ أبصارهم. وإيثار المَشْي على ما فوقه مِن السَّعْي والعَدْوِ للإشعار بعدم استطاعتهم لهما.

﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: خفِيَ البرقُ واستتر. والمُظلِم، وإن كان غيرَه، لكن لمّا كان الإظلام دائرًا على استتاره أُسندَ إليه مجازًا، تحقيقًا لِما أُريدَ مِن المبالغة في موجبات تخبّطِهم. وقد جُوِّز أن يكون متعدّيًا منقولًا مِن "ظَلِمَ الليلُ"، ومنه ما جاء في قول أبي تمّام:[٢]

هُمَا أظلَمَا حالَيَّ ثُمَّتَ أَجْلَيَا ظَلامَيْهما عن وجهِ أَمْرَدَ أَشْيَبِ[٣]

ويعضُده قراءة "أُظْلِمَ"[٤] على البناء للمفعول.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عَبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٤.

[٢] هو حَبيب بن أوس بن الحارث الطائي، أبو تمّام (ت. ٢٣١هـ/٨٤٦م). الشاعر الأديب. وُلد في جاسم مِن قُرى حوران بسوريّة، ورحل إلى مصر، واستقدمه المعتصم إلى بغداد، فأجازه وقدّمه على شعراء وقتِه، فأقام في العراق، ثمّ ولي بريدَ الموصل، فلم يتمّ سنتَين حتّى تُوفّي بها. كان أسمَرَ طويلًا، فصيحًا، حُلو الكلام، فيه تمتمة يسيرة، يحفظ أربعةَ عشر ألف أرجوزة غير القصائد والمقاطيع. واختُلِف في التفضيل بينه وبين المتنبّي والبُحتري. له تصانيفُ، منها: **فحول الشعراء، وديوان الحماسة، ومختار أشعار القبائل، والوحشيّات**، وديوان شعره. وممّا كُتِب في سِيرته: **أخبار أبي تمّام** للصُّولي، **وأخبار أبي تمّام** للمرزباني. انظر: **نزهة الألبّاء** للأنباري، ص ١٢٣-١٢٥؛ **والأعلام** للزركلي، ١٦٥/٢.

[٣] البيت منسوبٌ إليه في **الكشّاف** للزمخشري، ٨٢/١؛ **واللباب** لابن عادل، ٤٠٠/١؛ **ونواهد الأبكار** للسيوطي، ٤٠٤/١. وقبله:

أحاوَلْتِ إرشادي فعَقْلِي مُرشِدي
أم اسْتَمْتِ تأديبي فدَهْرِي مُؤَدِّبِي

"استَمْتِ"، أي: تجشَّمْتِ وطلبْتِ، "هما أظلَمَا"، أي: العقل والدهر، "حاليَّ"، أي: الشيب والشباب، "ثُمّتَ أجلَيَا"، يقال للقوم إذا كانوا مقبِلِين على شيء محدِقِين به، ثمّ انكشفوا عنه: قد أفرَجوا عنه وأجلَوْا عنه، "أمرَدَ"، أي: في السنّ، و"أشيَبَ"، أي: في الرأي. قوله: "عن وجهِ أمرَدَ أشيَبِ"، يريد به نفسَه، جرّدَ شخصًا أمرَدَ يخاطِبُ عاذلتَه، أي: لا تخاطِبِيني لإرشادي في الكرم، فعقلي يُرشدني، ولا تَجَشَّمي تأديبي، فإنّ الدهر مؤدّبي. انظر: **فتوح الغيب** للطيبي، ٢٧٩/٢.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن يزيد بن قطيب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٤.

﴿قَامُوا﴾ أي: وقفوا في أماكنهم على ما كانوا عليه مِن الهيئة متحيِّرين مترصِّدين لخَفْقة[1] أخرى عسى يتسنّى لهم الوصول إلى المقصد أو الالتجاءُ إلى ملجأٍ يعصِمهم. وإيراد ﴿كُلَّمَا﴾ مع الإضاءة و﴿إِذَا﴾ مع الإظلام للإيذان بأنّهم حِراصٌ على المَشْي مترقّبون لِما يصحّحه، فكلَّما وجدوا فُرصةً انتهزوها، ولا كذلك الوقوف، وفيه مِن الدلالة على كمال التحيّر وتطايرِ اللبّ ما لا يوصَف.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ كلمة ﴿لَوْ﴾ لتعليق حصول أمر ماضٍ -هو الجزاء- بحصول أمر مفروض فيه -هو الشرط- لِما بينهما مِن الدَّوَران حقيقةً أو ادّعاءً، ومِن قضيّة مفروضيّة الشرط دلالتُها على انتفائه قطعًا، والمنازِعُ فيه مكابِرٌ. وأمّا دلالتها على انتفاء الجزاء، فقد قيل وقيل. والحقّ الذي لا محيدَ عنه أنّه إن كان ما بينهما مِن الدوران كلّيًا أو جزئيًا قد بُني[2] الحكم على اعتباره، فهي دالّة عليه بواسطة مدلولها الوضعيّ لا محالةَ، ضرورةَ استلزام انتفاء العلّة لانتفاء المعلول.

أمّا في مادّة الدوران الكلّيّ كما في قوله عزّ وجلّ:[3] ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل، ٩/١٦] وقولك: "لو جئتَني لَأكرمتُك"، فظاهرٌ؛ لأنّ وجود المشيئة علّة لوجود الهداية حقيقةً، ووجود المَجيء علّة لوجود الإكرام ادّعاءً، وقد انتفَيا بحكم المفروضيّة، فانتفى معلولَاهما حتمًا.

ثمّ إنّه قد يُساق الكلام لتعليل انتفاء الجزاء بانتفاء الشرط كما في المثالين المذكورَين، وهو الاستعمال الشائع لكلمة "لو"؛ ولذلك قيل: هي لامتناع الثاني لامتناع الأوّل. وقد يساق للاستدلال بانتفاء الثاني لكونه ظاهرًا أو مسلَّمًا على انتفاء الأوّل لكونه خفيًّا أو متنازَعًا فيه، كما في قوله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء، ٢٢/٢١]، وفي قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾،[4] فإنّ فسادهما لازمٌ لتعدّدِ الآلهة حقيقةً، وعدم سبقِ المؤمنين إلى الإيمان لازمٌ

---

[1] ط: لخفّة.

[2] وفي هامش أ: صفةٌ لقوله "جزئيًا". «منه».

[3] ي: تعالى.

[4] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف، ١١/٤٦].

لخَيريّته في زعم الكَفَرة، ولا ريبَ في انتفاء اللازمَين، فتعيَّنَ انتفاءُ الملزومَين حقيقةً في الأوّل وادّعاءً باطلًا في الثاني، ضرورةَ / استلزام انتفاء اللازم لانتفاء [٢١و] الملزوم؛ لكنْ لا بطريق السببيّة الخارجيّة كما في المثالين الأوّلَين، بل بطريق الدلالة العقليّة الراجعةِ إلى سببيّة العلم بانتفاء الثاني للعلم بانتفاء الأوّل، ومَن لم يَتنبّهْ[١] له زعَمَ أنّه لانتفاء الأوّل لانتفاء الثاني.

وأمّا في مادّة الدوران الجزئيّ كما في قولك: "لو طلَعَت الشمسُ لوُجِد الضوءُ"، فلأنّ الجزاء المَنوط بالشرط الذي هو طلوعها ليس وجودَ أيّ ضوء كان كضوء القمر المُجامِعِ لعدم الطلوع مَثلًا؛ بل إنّما هو وجود الضوء الخاصّ الناشئِ مِن الطلوع،[٢] ولا[٣] ريبَ في انتفائه بانتفاء الطلوع.

هذا إذا بُني الحكم على اعتبار الدَّوَران، وأمّا إذا بُني على عدمه، فإمّا أن يُعتبر هناك تحقّقُ مدارٍ آخرَ له أو لا، فإن اعتُبِر فالدلالة تابعة لحال ذلك المدار؛ فإن كان بينه وبين انتفاء الأوّل منافاةٌ تعيَّنَ الدلالةُ،[٤] كما إذا قلتَ: "لو لم تطلُع

---

[١] وفي هامش أ: الفاضل البيضاوي وابن الحاجب ومَن يحذو حذْوَهم. «منه». | انظر: **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٨/٤ (الأنبياء، ٢٢/٢١)؛ **وأمالي ابن الحاجب**، ٣٠٩/١. | ابن الحاجب: هو عثمان بن عمرَ بن أبي بكر بن يونسَ، أبو عمرو جمال الدين ابن الحاجب (ت. ٦٤٦هـ/١٢٤٩م). فقيه مالكيّ، مِن كبار العلماء بالعربيّة. كُرديّ الأصل. وُلد في أسنا مِن صعيد مصر، ونشأ في القاهرة، وسكن دمشق، ومات بالإسكندريّة. وكان أبوه جُنديًا حاجبًا للأمير عزّ الدين الصلاحي، فعرف به. وقد خالف النحاةَ في مواضعَ، وأورَدَ عليهم إشكالاتٍ وإلزاماتٍ مفحِمةً يعسُر الجواب عنها. مِن تصانيفه: **الكافية في النحو، والشافية في الصرف، والأمالي النحويّة، ومنتهى السُّول والأمل في علمَي الأصول والجدل في أصول الفقه، والإيضاح في شرح المفصَّل** للزمخشري. انظر: **بغية الوعاة** للسيوطي، ١٣٤/٢-١٣٥؛ **والأعلام** للزركلي، ٢١١/٤. والبيضاوي: هو عبد الله بن عمر بن محمّد بن عليّ البيضاوي، قاضي القضاة أبو سعيد ناصر الدين (ت. ٦٩١هـ/١٢٩١-١٢٩٢م [؟]). مفسّر، فقيه شافعيّ، متكلّم أشعريّ. وُلد في المدينة البيضاء بفارس قرب شيراز، وولي قضاءَ شيراز مدّةً، وصرف عن القضاء، فرحل إلى تبريز، فتُوفّي فيها. مِن تصانيفه: **أنوار التنزيل وأسرار التأويل، وطوالع الأنوار، ومنهاج الوصول إلى علم الأصول، ولُبّ اللباب في علم الإعراب، ونظام التواريخ، والغاية القصوى في دراية الفتوى** في فقه الشافعيّة. انظر: **طبقات الشافعيّة الكبرى** للسبكي، ١٥٧/٨-١٥٨؛ **وطبقات المفسّرين** للداوودي، ٢٤٨/١-٢٤٩؛ **والأعلام** للزركلي، ١١٠/٤.

[٢] وفي هامش ط: فيتحقّق دوران كليّ. «منه». | هذا الهامش أُدرِجَ في متن نسخة أ.

[٣] ط س: فلا.

[٤] وفي هامش ي: أي على انتفاء الجزاء. «منه».

الشمسُ لوُجِد الضوءُ"، فإنّ وجود الضوء، وإن عُلّق صورةً بعدم الطلوع، لكنّه في الحقيقة معلَّق بسببٍ آخرَ له، ضرورةَ أنّ عدم الطلوع مِن حيث هو هو ليس مدارًا لوجود الضوء في[1] الحقيقة، وإنّما وُضِع موضعَ المدار لكونه كاشفًا عن تحقّق مدارٍ آخرَ له، فكأنّه قيل: لو لم تطلع الشمسُ لوُجِد الضوءُ بسببٍ آخرَ كالقمر مَثلًا.

ولا شبهةَ في أنّ هذا الجزاء منتفٍ عند انتفاء الشرط لاستحالة وجود الضوء القمَريّ عند طلوع الشمس؛ وإن لم يكن بينهما منافاة تعيَّنَ عدمُ الدلالة، كما في قوله صلّى الله عليه وسلّم[2] في بنت أبي سَلَمةَ:[3] «لو لم تكن رَبيبتِي في حجري ما حلَّت لي، إنّها لَابْنَةُ أخي مِن الرَّضاعة».[4] فإنّ المدار المعتبَرَ في ضمن الشرط -أعني: كونها ابنةَ أخيه عليه السلام مِن الرضاعة- غيرُ منافٍ لانتفائه[5] الذي هو كونها ربيبتَه عليه السلام؛ بل مجامِعٌ له، ومِن ضرورته مجامعةُ أثرَيهما، أعني: الحُرمة الناشئة مِن كونها ربيبتَه عليه السلام، والحُرمة الناشئة مِن كونها ابنةَ أخيه مِن الرضاعة.

وإن لم يُعتبر هناك تحقّقُ مدارٍ آخرَ، بل بُني الحكم على اعتبار عدمه،[6] فلا دلالةَ لها على ذلك[7] أصلًا. كيف لا، ومَساق الكلام حينئذ لبيان ثبوت الجزاء على كلّ حال بتعليقه بما ينافيه ليُعلَم ثبوتُه عند وقوع ما لا ينافيه بالطريق الأَولى، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ﴾ [الإسراء، ١٧/١٠٠]، وقولِه عليه السلام: «لو كان الإيمان في الثُّريّا لَناله رجالٌ

---

[1] ط - في.

[2] ي: عليه السلام.

[3] هي زينب بنت أبي سلمة بن عبد الأسد القُرَشيّة المخزوميّة (ت. ٧٣هـ/٦٩٣م). ربيبة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. أمُّها أمّ سلمة زوجُ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وكان اسمُ زينب برّة، فسمّاها رسول الله عليه السلام زينبَ. وَلدتها أمُّها بأرض الحَبَشة، وقدِمت بها معها. وقُتل ابنا زينب في وقعة الحَرّة. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٤٦١/٨؛ **والاستيعاب** للنمري، ١٨٥٤/٤-١٨٥٦؛ **وأسد الغابة** لابن الأثير، ١٣٢/٧.

[4] **صحيح البخاري**، ٦٧/٧ (٥٣٧٢)؛ **صحيح مسلم**، ١٠٧٢/٢ (١٤٤٩).

[5] وفي هامش ي: أي: انتفاء الشرط. «منه».

[6] وفي هامش ي: أي: عدم الدَّوَران. «منه».

[7] وفي هامش ي: أي: كلمة "لو" على انتفاء الجزاء. «منه».

مِن فارس»»،[١] وقولِ عليّ رضي الله عنه: «لو كُشف الغِطاءُ ما ازددتُ يقينًا».[٢] فإنّ الأجزِية المذكورة قد نِيطتْ بما ينافيها ويستدعي نقائضَها، إيذانًا بأنّها في أنفسها بحيث يجب ثبوتُها مع فرض انتفاء أسبابها أو تحقّقِ أسباب انتفائها؛ فكيف إذا لم يكن كذلك على طريقة "لو" الوصليّة في مِثل قوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور، ٣٥/٢٤]. ولها تفاصيلُ وتفاريعُ حرَّرْناها في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ [الأعراف، ٨٨/٧].

وقول عمرَ رضي الله عنه: «نِعم العبدُ صهيبٌ، لو لم يَخَف اللهَ لم يعصِه»،[٣] إن حُمل على تعليق عدم العصيان في ضمن عدم الخوف بمدارٍ آخرَ -نحو الحياء والإجلالِ وغيرهما ممّا يجامِعُ الخوفَ- كان مِن قبيل حديث ابنةِ أبي سَلَمةَ، وإن حُمل على بيان استحالة عصيانه مبالغةً، كان مِن هذا القبيل.

والآية الكريمة واردةٌ على الاستعمال الشائع،[٤] مفيدةٌ لكمال فظاعة حالهم وغايةِ هَول ما دهَمهم مِن المشاقّ، وأنّها قد[٥] بلغت مِن الشدّة إلى حيث لو تعلّقت مشيئةُ الله تعالى بإزالة مَشاعرهم لَزالت لتحقّقِ ما يقتضيه اقتضاءً تامًّا. وقيل: كلمة ﴿لَوْ﴾ فيها لربط جزائها بشرطها مجرَّدةً عن الدلالة على انتفاء أحدهما لانتفاء الآخر بمنزلة كلمة "إنْ".

ومفعول المشيئة محذوف جريًا على القاعدة المستمرّة، فإنّها إذا وقعت شرطًا وكان مفعولُها[٦] مضمونًا للجزاء، فلا يكاد يُذكر، إلّا أن يكون شيئًا مستغرَبًا كما في قوله:

---

١ انظر: صحيح البخاري، ٦٧/٦ (٤٨٩٧)؛ وصحيح مسلم، ١٩٧٢/٤ (٢٥٤٦).

٢ هو منسوب إلى عليّ رضي الله عنه في الذريعة للراغب الأصفهاني، ص ١٤٩؛ ونظم الدُّرر للبقاعي، ١٣٦/٢، وذكره القشيري في لطائف الإشارات، ٥٨/١، مِن كلام عامر بن عبد القيس، والغزّالي في إحياء علوم الدين، ١٧١/١، مِن كلام الربيع بن خُثَيم.

٣ ي: يعص. | الرواية في معاني القرآن للزجّاج، ١٩٩/٣ (النحل، ٤١/١٦)؛ والكشّاف للزمخشري، ٦٠٧/٢ (النحل، ٤١/١٦)؛ وتفسير الرازي، ٢٠٩/٢٠ (النحل، ٤١/١٦)؛ واللباب لابن عادل، ٥٩/١٢ (النحل، ٤١/١٦). وفي كلّها: "الرجل" مكان "العبد".

٤ وهو انتفاء الجزاء بانتفاء الشرط.

٥ ط – قد.

٦ ي: مفعولًا.

فلو شئتُ أن أبكِيَ دَمًا لبَكَيتُه   عليه ولكنْ ساحةُ الصبرِ أوسَعُ[1]

أي: لو شاء الله أن يَذهب بسمعهم وأبصارهم لَفعل، ولكن لم يشأ لِما يقتضيه[2] مِن الحِكَم والمصالح.

وقُرئ: "لَأَذْهَبَ بِأَسْمَاعِهِمْ"[3] على زيادة الباء كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة، ١٩٥/٢]، والإفرادُ في المشهورة؛ لأنّ السمع مصدرٌ في الأصل. والجملة الشرطيّة معطوفةٌ على ما قبلها مِن الجُمل الاستئنافيّة، وقيل: على ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ﴾... إلخ.

وقوله عزّ وجلّ:[4] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾ تعليل للشرطيّة، وتقرير لمضمونها الناطقِ بقدرته تعالى على إزالة مشاعرهم بالطريق البرهانيّ. والشيء بحسَب مفهومه[5] اللغويّ يقعُ على كلّ ما يصِحّ أن يُعلم ويُخبَرَ عنه كائنًا ما كان، على أنّه في الأصل مصدر "شاء"، أُطلقَ على المفعول، واكتُفِي في ذلك باعتبار تعلّق المشيئة به مِن حيث العلمُ والإخبارُ عنه فقط، وقد خصَّ ههنا بالممكن موجودًا كان أو معدومًا بقضيّة اختصاص تعلّق القدرة به لِما أنّها عبارة عن التمكّن مِن الإيجاد والإعدام الخاصَّين به، وقيل: هي صفةٌ تقتضي ذلك التمكّنَ.

والقادر هو الذي إن شاء فعل، وإن لم يشأ لم يفعل. والقدير هو الفعّال لكلّ ما يشاء كما يشاء؛ ولذلك لم يوصَف به غيرُ الباري جلّ جلاله. ومعنى قدرتِه تعالى على الممكن الموجود حالَ وجودِه أنّه إن شاء إبقاءَه على[6] الوجود أبقاه عليه، فإنّ علّة الوجود هي علّة البقاء، وقد مرّ تحقيقه في تفسير قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة، ٢/١]، وإن شاء إعدامَه أعدَمَه. ومعنى قدرتِه على المعدوم

---

[1] البيت لأبي يعقوب الخُزيمي في الكامل للمبرّد، ٣/٤؛ وديوان المعاني لأبي هلال العسكري، ١٧٥/٢؛ ولباب الآداب للثعالبي، ص ١٥٥؛ ونهاية الأرب للنُّويري، ١٨١/٥.

[2] ي: لم تقتضيه.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عَبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٨٧/١.

[4] ي: تعالى.

[5] ط: المفهوم.

[6] ي: وعلى.

حالَ عدمِه أنّه إن شاء إيجادَه أوجَدَه، وإن لم يشأ لم يوجِدْه. وقيل: قدرة الإنسان هيئةٌ بها يتمكّن مِن الفعل والترك، وقدرةُ الله تعالى عبارةٌ عن نفي العجز. واشتقاق القدرة مِن "القَدْر"؛ لأنّ القادر / يوقِعُ الفعل بقَدْر ما يقتضيه [٢١ظ] إرادتُه أو بقدر قوّته. وفيه دليل على أنّ مقدور العبد مقدورٌ لله تعالى حقيقةً؛ لأنّه شيء، وكلُّ شيء مقدورٌ له تعالى.

واعلَمْ أنّ كلّ واحد مِن التمثيلَين، وإن احتمل أن يكون مِن قبيل التمثيل المفرّق كما في قوله:

كأنّ قلوب الطَّير رَطْبًا ويابِسًا لَدَى وَكْرِها العُنّابُ والحَشَفُ البالي[1]

بأن يشبَّهَ المنافقون في التمثيل الأوّل بالمستوقِدين، وهُداهم الفِطريُّ بالنار، وتأييدُهم إيّاه بما شاهدوه مِن الدلائل باستيقادها، وتمكّنُهم التامُّ مِن الانتفاع به بإضاءتها ما حولهم، وإزالتُه بإذهاب النور الناريّ، وأخذُ الضلالة بمقابلته بملابستهم الظُّلُماتِ الكثيفةَ وبقائِهم فيها، ويُشبَّهوا في التمثيل الثاني بالسابلة،[2] والقرآنُ وما فيه مِن العلوم والمعارف التي هي مدار الحياة الأبَديّة بالصيِّب الذي هو سبب الحياة الأرضيّة، وما عَرَض لهم بنزوله مِن الغُموم والأحزان وانكسافِ البال بالظُّلُمات، وما فيه مِن الوعد والوعيد بالرعد والبرق، وتصامُّهم عمّا يقرَع أسماعَهم مِن الوعيد بحال مَن يَهُولُه الرعد والبرق فيخاف صواعقَه فيسدُّ أُذُنَه منها ولا خلاصَ له منها، واهتزازُهم لِما يلمَع لهم مِن رشدٍ يُدركونه أو رِفْدٍ[3] يُحرزونه بمَشْيهم في مطرَح ضوء البرق كلّما أضاء لهم، وتحيُّرُهم في أمرهم حين عنَّ لهم مصيبةٌ بوقوفهم إذا أظلَمَ عليهم؛ لكنّ الحملَ على التمثيل المركّب الذي لا يُعتبر فيه تشبيهُ كلّ واحد مِن المفردات الواقعة في أحد الجانبَين بواحدٍ مِن المفردات الواقعة في الجانب الآخَر على وجه التفصيل؛ بل يُنتزع فيه مِن المفردات الواقعة في جانب

---

١ البيت لامرئ القيس في ديوانه، ص ١٣٩. | شبّهَ بعضًا مِن قلوب الطير -وهو الرَّطب منها- بالعُنّاب، وبعضًا منها -وهو اليابس- بالحَشَف البالي، وهو يابِسُ التَّمر.

٢ السابلة: المختلفون في الطُّرُقات لحوائجِهم. **أساس البلاغة** للزمخشري، «سبل».

٣ الرِّفْد: العطاء والإعانة. انظر: **الصحاح** للجوهري، «رفد».

المشبَّه هيئةٌ، فتشبَّهُ بهيئةٍ أخرى منتزَعةٍ مِن المفردات الواقعة في جانب المشبَّه به، بأن يُنتزع مِن المنافقين وأحوالِهم المفصَّلة في كلّ واحد مِن التمثيلَين هيئةٌ على حِدَة، ويُنتزعَ مِن كلّ واحد مِن المستوقِدين وأصحابِ الصيّب وأحوالِهم المحكيّة هيئةٌ بحِيالها، فتُشبَّهَ كلّ واحدة مِن الأُوليَيْن بما يُضاهيها مِن الأُخرَيَين، هو[1] الذي يقتضيه جزالة[2] التنزيل ويستدعيه فخامة شأنه الجليل، لاشتماله على التشبيه الأوّل إجمالًا مع أمرٍ زائدٍ عليه هو[3] تشبيه الهيئة بالهيئة، وإيذانِه بأنّ اجتماع تلك المفردات مستتبعٌ لهيئة عجيبة حقيقةٍ بأن تكون[4] مثلًا في الغرابة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ إثرَ ما ذَكَر الله تعالى علوَّ طبقة كتابه الكريم وتحزُّبَ الناس في شأنه إلى ثلاثِ فِرَقٍ:[5] مؤمنةٍ به محافِظةٍ على ما فيه مِن الشرائع والأحكام، وكافرةٍ قد نبذَتْه وراءَ ظَهْرها بالمجاهَرة والشِّقاق، وأخرى مُذَبْذَبةٍ بينهما بالمخادَعة والنِّفاق، ونَعَتَ كلّ فرقة منها بما لها مِن النعوت والأحوال، وبيَّنَ ما لهم مِن المَصير والمآل، أقبل[6] عليهم بالخطاب على نهج الالتفات هزًّا لهم إلى الإصغاء، وتوجيهًا لقلوبهم نحوَ التلقّي، وجبرًا لِما في العبادة مِن الكُلفة بلذّة الخطاب، فأمَرَهم كافّةً بعبادته ونهاهم عن الإشراك به.

و"يا": حرفٌ وُضع لنداء البعيد، وقد ينادَى به القريبُ تنزيلًا له[7] منزلةَ البعيد، إمّا إجلالًا كما في قول الداعي: "يا الله" و"يا ربِّ" -وهو أقرب إليه

---

[1] السياق: واعلَمْ أنّ كلّ واحد مِن التمثيلَين، وإنْ احتمل أنْ يكون مِن قبيل التمثيل المفرّق... لكنّ الحملَ على التمثيل المركّب... هو الذي يقتضيه جزالة التنزيل...

[2] ط س: جلالة.

[3] ط س: مع مزيّة زائدة هي [صُحّح في هامش ط بعبارة: مع أمر زائد هي].

[4] ي: يكون.

[5] ط س: فرق ثلاث.

[6] السياق: إثرَ ما ذَكَر الله تعالى... أقبل عليهم...

[7] ي – له.

مِن حَبْل الوَريد-[١] استقصارًا لنفسه واستبعادًا لها مِن محافل الزُّلفى ومنازلِ المقرَّبين، وإمّا تنبيهًا على غَفْلته وسوءِ فهمه، وقد يُقصَد به التنبيه على أنّ ما يعقُبه أمرٌ خطيرٌ يُعتنى بشأنه. و"أيّ": اسمٌ مبهَمٌ جُعل وصلةً إلى نداء المعرَّف باللام، لا على أنّه المنادَى أصالةً؛ بل على أنّه صفة موضِّحة له مزيلةٌ لإبهامه، والتُزِم رفعُه مع انتصاب موصوفه محلًّا إشعارًا بأنّه المقصود بالنداء، وأُقحمَتْ بينهما كلمةُ التنبيه تأكيدًا لمعنى النداء وتعويضًا عمّا يستحقّه "أيّ" مِن المضاف إليه. ولِما تَرى مِن استقلال هذه الطريقة بضروب مِن أسباب المبالغة والتأكيدِ كثُرَ سلوكُها في التنزيل المَجيد؛ كيف لا، وكلّ ما ورَدَ في تضاعيفه على العباد مِن الأحكام والشرائع وغير ذلك خطوبٌ جليلةٌ حقيقةٌ بأن تقشعِرَّ منها الجلودُ، وتطمئِنَّ بها القلوب الأبيّةُ، ويتلَقَّوْها بآذانٍ واعيةٍ، وأكثرُهم عنها غافلون، فاقتضى الحالُ المبالغةَ والتأكيدَ في الإيقاظ والتنبيه.

والمراد بـ﴿ٱلنَّاسُ﴾ كافّة المكلَّفين الموجودِين في ذلك العصر، لِما أنّ الجُموع وأسماءَها المُحلّاة باللام للعموم بدليل صحّة الاستثناء منها والتأكيدِ بما يفيد العمومَ كما في قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر، ١٥/٣٠؛ ص، ٣٨/٧٣] واستدلالِ الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين بعمومها شائعًا ذائعًا. وأمّا[٢] مَن[٣] عَداهم ممّن سيوجَد منهم، فغيرُ داخلين في خطاب المشافَهة، وإنّما دخولُهم تحت حكمه لِما تواتَرَ مِن دينه صلّى الله عليه وسلّم،[٤] ضرورةَ أنّ مقتضى خطابه وأحكامِه شاملٌ للموجودين مِن المكلَّفين[٥] ولِمن سيوجد منهم إلى قيام الساعة.

ولا يقدح في العموم ما رُوي عن علقمةَ[٦] والحسن البصريّ مِن أنّ كلّ

---

[١] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق، ٥٠/١٦].

[٢] ي - وأمّا.

[٣] ي: ومن.

[٤] ي: عليه السلام.

[٥] ي - مِن المكلَّفين.

[٦] هو علقمة بن قيس بن عبد الله بن مالك النَّخَعي الكوفي، أبو شِبل (ت. ٦٢هـ/٦٨٢). تابعيّ، فقيه الكوفة وعالمها ومُقرِئها. كان مِن المخضرَمين، وُلد في حياة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ولم يره. وشهد صِفّين، وغزا خراسان، »

ما نزل فيه «يا أيُّها الناسُ» فهو مكّيٌّ؛[1] إذ ليس مِن ضرورة نزوله بمكّةَ -شرَّفَها الله تعالى-[2] اختصاصُ حكمه بأهلها، ولا مِن قضيّة اختصاصه بهم اختصاصُه بالكُفّار؛ إذ لم يكن كلُّ أهلها حينئذ كَفَرةً. ولا ضيرَ في تحقّق العبادة في بعض المكلَّفين قبل ورود هذا الأمر، لِما أنّ المأمور به القدرُ المشترَكُ الشاملُ لإنشاء العبادة والثباتِ عليها والزيادةِ فيها مع أنّها متكرّرة حسب تكرّر أسبابها، ولا في انتفاء شرطها في الآخِرين منهم -أعني: الإيمان- لأنّ الأمر بها منتظِمٌ للأمر بما لا يتمّ إلّا به. وقد عُلم مِن الدين ضرورةً اشتراطُها به، فإنّ أمر المُحدِث بالصلاة مستتبعٌ للأمر بالتوضّي / لا محالةَ، وقد قيل: المراد بـ"العبادة" ما يعُمّ أفعالَ القلب أيضًا لِما أنّها عبارة عن غاية التذلّل والخضوع. ورُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أنّ كلّ ما ورَدَ في القرآن مِن العبادة، فمعناها التوحيد»،[3] وقيل معنى ﴿ٱعۡبُدُوا﴾: وَحِّدوا وأَطيعوا، ولا[4] في كون بعضٍ مِن[5] الفِرْقتين الأخيرتين ممّن لا يُجدي فيهم الإنذارُ بموجَب النصّ القاطع، لِما أنّ الأمر لقطعِ الأعذار، وليس فيه تكليفُهم بما ليس في وُسعهم[6] مِن الإيمان بعدم إيمانهم أصلًا؛ إذ لا قطعَ لأحدٍ منهم بدخوله في حكم النصّ قطعًا، وورودُ النصّ بذلك لكونهم في أنفسهم بسوء اختيارهم كذلك، لا أنّ كونهم كذلك لورود النصّ بذلك، فلا جَبْرَ أصلًا. نعم، لتخصيص الخطاب بالمشركين وجهٌ لطيفٌ ستقِف عليه عند قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

[٢٢و]

< وأقام بخوارزم سنتين، وبمرو مدّةً، وسكن الكوفةَ، فتُوفّي فيها. وكان يُشبه ابن مسعود في هَدْيه وسَمْته وفضله. وتفقَّهَ به أئمّة كإبراهيم النَّخَعي والشعبي. وروى عن عمر بن الخطّاب وعثمان بن عفّان وعليّ وعبد الله بن مسعود وحذيفة وسلمان وأبي مسعود وأبي الدرداء. وروى عنه كثيرون. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٦/٨٦-٩٢؛ وسير **أعلام النبلاء** للذهبي، ٤/٥٣-٦١؛ **والأعلام** للزركلي، ٤/٢٤٨.

[1] أمّا أثر علقمة فأخرجه البزّار في مسنده، ٤/٣٣٦ (١٥٣١)؛ والحاكم في المستدرك، ٣/٢٠ (٤٢٩٥)؛ والبيهقي في دلائل النبوّة، ٧/١٤٤، وأمّا أثر الحسن، ذكَرَه الواحدي في التفسير البسيط، ٢/٢١٧.

[2] ي - تعالى.

[3] **تفسير السمرقندي**، ١/٣٢٧ (النساء، ٤/٣٦)؛ **تفسير القرطبي**، ١٨/١٩٣ (التحريم، ٦٦/٥)؛ اللباب لابن عادل، ١/٤٠٩.

[4] السياق: ولا ضيرَ في تحقّق العبادة... ولا في انتفاء شرطها... ولا في كون بعضٍ مِن الفِرْقتين...

[5] ي - مِن.

[6] ط: وسعه.

وإيراده تعالى بعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضمير المخاطَبِين لتأكيد موجَب الأمر بالإشعار بعلّيّتها للعبادة.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ صفة أُجريتْ عليه سبحانه للتبجيل والتعليل إثرَ التعليل. وقد جُوّز كونها[1] للتقييد والتوضيح بناءً على تخصيص الخطاب بالمشركين وحملِ "الربّ" على ما يعمّ الربّ[2] الحقيقيّ والآلهة التي يُسَمُّونها أربابًا. والخَلْق: إيجاد الشيء على تقدير واستواء، وأصله: التقدير، يقال: "خلق النعلَ"، أي: قدَّرها وسوّاها بالمِقياس. وقُرئ: "خَلَقكُمْ"[3] بإدغام القاف في الكاف.

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ عطفٌ على الضمير المنصوب ومتمِّمٌ لِما قُصد مِن التعظيم والتعليل، فإنّ خلق أصولهم مِن موجِبات العبادة كخلق أنفسهم. و﴿مِنْ﴾ ابتدائيّة، متعلِّقة بمحذوف، أي: كانوا مِن زمانٍ قبلَ زمانكم، وقيل: خلقهم مِن قبل خلقِكم، فحُذف "الخلق"، وأقيمَ الضمير مُقامَه. والمراد بهم مَن تقدَّمَهم مِن الأمم السالفة كافّةً، ومِن ضرورة عموم الخطاب بيانُ شمولِ خلقه تعالى للكلّ. وتخصيصُه بالمشركين يؤدِّي إلى عدم التعرّض لخلق مَن عَداهم مِن معاصِريهم. وإخراج الجملة مُخرَجَ الصلةِ التي حقُّها أن تكون معلومةَ الانتساب إلى الموصول عندهم أيضًا -مع أنّهم غيرُ معترِفين بغاية الخلق، وإن اعترفوا بنفسه كما ينطِق به قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف، ٨٧/٤٣]- للإيذان بأنّ خلقهم للتقوى مِن الظهور بحيث لا يتأتّى لأحد إنكارُه.

وقُرئ: "وَخَلَقَ مَنْ قَبْلَكُمْ"،[4] وقُرئ: "وَالَّذِينَ مَنْ قَبْلَكُمْ"[5] بإقحام الموصول الثاني بين الأوّل وصلتِه توكيدًا، كإقحام اللام بين المضافَين في "لَا أبَا لَكَ"، أو بجعله موصوفًا بالظرف خبرًا لمبتدأ محذوف، أي: الذين هم أناسٌ كائنون قبلَكم.

---

١ ط: أن تكون.

٢ ي: على ما هو أعمُّ مِن الربّ.

٣ قرأ بها أبو عمرو. السبعة لابن مجاهد، ص ١١٨؛ النشر لابن الجزري، ٢٠٨/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٤.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٤.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ المعنى الوضعيّ لكلمة "لعلّ" هو إنشاءُ توقّع أمرٍ متردِّدٍ بين الوقوع وعدمه مع رُجحان الأوّل، إمّا محبوب فيسمّى ترجّيًا، أو مكروه فيسمّى إشفاقًا. وذلك المعنى قد يُعتبر تحقّقُه بالفعل إمّا مِن جهة المتكلِّم كما في قولك: "لعلّ اللهَ يرحَمُني"، وهو الأصل الشائع في الاستعمال؛ لأنّ معاني الإنشاءات قائمةٌ به، وإمّا مِن جهة المخاطَب تنزيلًا له منزلةَ المتكلِّم في التلبّس التامّ بالكلام الجاري بينهما، كما في قوله سبحانه:[1] ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه، ٢٠/٤٤]. وقد يُعتبر تحقّقه بالقوّة بضربٍ مِن التجوّز إيذانًا بأنّ ذلك الأمر في نفسه مَئِنَةٌ[2] للتوقّع متّصِفٌ بحيثيّة مصحِّحةٍ له، مِن غير أن يُعتبر هناك توقّعٌ بالفعل مِن متوقِّع أصلًا.

فإن رُوعيَت في الآية الكريمة جهة المتكلِّم يستحيل إرادة ذلك المعنى لامتناع التوقّع مِن علّام الغيوب عزّ وجلّ، فيُصار إمّا إلى الاستعارة بأن يشبَّه طلبُه تعالى مِن عباده التقوى -مع كونهم مئنّةً لها لتعاضُدِ أسبابها- برجاء الراجي مِن المرجُوّ منه أمرًا هَيِّنَ الحصول في كون متعلَّق كلٍّ منهما[3] متردِّدًا[4] بين الوقوع وعدمِه مع رُجحان الأوّل، فيستعار[5] له كلمةُ ﴿لَعَلَّ﴾ استعارةً تَبَعيّةً حرفيّةً للمبالغة في الدلالة على قوّة الطلب وقُرْبِ المطلوب مِن الوقوع، وإمّا إلى التمثيل بأن يلاحَظَ خلقُه تعالى إيّاهم مستعدِّين للتقوى وطلبُه تعالى[6] إيّاها منهم وهم متمكِّنون منها جامعون لأسبابها، ويُنتزَعَ مِن ذلك هيئة، فتُشبَّهَ بهيئة منتزَعة مِن الراجي ورجائِه مِن المرجُوّ منه شيئًا سهلَ المنال، فيُستعملَ في الهيئة الأُولى ما حقُّه أن يُستعمل في الثانية، فيكون هناك استعارة تمثيليّة قد صُرّح مِن ألفاظها بما هو العُمدة في انتزاع الهيئة المشبَّه بها -أعني: كلمة الترجّي- والباقي منويٌّ بألفاظٍ متخيَّلةٍ بها يحصُل التركيب المعتبَر في التمثيل كما مرّ مِرارًا.[7]

---

[1] ي: تعالى.
[2] المئنّة: العلامة. الصحاح للجوهري، «مأن».
[3] وفي هامش ط س: أي: مِن الطلب والرجاء. «منه».
[4] ي: متردّد.
[5] س: فتستعار.
[6] ي - تعالى.
[7] انظر: تفسير البقرة، ٢/٧.

وأمّا جعلُ المشبَّه إرادتَه تعالى في الاستعارة والتمثيل، فأمرٌ مؤسَّسٌ على قاعدة الاعتزال القائلة بجواز تخلّفِ المراد عن إرادته تعالى.[١] فالجملة حالٌ إمّا[٢] مِن فاعل ﴿خَلَقَكُمْ﴾، أي: طالبًا منكم التقوى، أو مِن مفعوله وما عُطِف عليه بطريق تغليب المخاطَبين على الغائبين؛ لأنّهم المأمورون بالعبادة، أي: خلَقَكم وإيّاهم مطلوبًا منكم التقوى، أو علّةٌ له، فإنّ خلقهم على تلك الحال في معنى خلقهم لأجل التقوى، كأنّه قيل: خلقكم لِتتّقوا، أو كَيْ تتّقوا، إمّا بناءً على تجويز تعليل أفعاله تعالى بأغراض راجعة إلى العباد كما ذهب إليه كثير مِن أهل السنّة، وإمّا تنزيلًا لترتّبِ الغاية على ما هي ثَمَرةٌ له منزلةَ ترتّبِ الغرض على ما / هو غرضٌ له، فإنّ استتباع أفعاله تعالى لغاياتٍ ومصالحَ مُتقَنةٍ جليلةٍ -مِن غير أن تكون[٣] هي علّةً غائيّةً لها بحيث لولاها لَمَا أَقدم عليها- ممّا لا نزاعَ فيه. [٢٢ظ]

وتقييدُ خلقهم بما ذُكر مِن الحال أو العلّة لتكميل عِلّيّته للمأمور به وتأكيدِها، فإنّ إتيانهم بما خُلقوا له أدخَلُ في الوجوب. وإيثار ﴿تَتَّقُونَ﴾ على "تعبُدون" -مع موافقته لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات، ٥١/٥٦]- للمبالغة في إيجاب العبادة والتشديد في إلزامها، لِما أنّ التقوى قُصارى أمرِ العابد ومنتهى جُهده، فإذا لزِمتْهم كان ما هو أدنى منها[٤] ألزَمَ والإتيانُ به أهوَنَ.

وإن رُوعِيَت جهة المخاطَب، فـ﴿لَعَلَّ﴾ في معناها الحقيقيّ، والجملة حال مِن ضمير ﴿ٱعْبُدُوا﴾، كأنّه قيل: اعبُدُوا ربَّكم راجين للانتظام في زُمرة المتّقين الفائزين بالهدى والفلاح، على أنّ المراد بـ"التقوى" مرتبتها الثالثة التي هي التبتّل إلى الله عزّ وجلّ[٥] بالكلّيّة والتنزّهُ عن كلّ ما يشغل سرَّه عن مراقبته، وهي أقصى غايات العبادة التي يتنافس فيها المتنافِسون، وبـ"الانتظام" القدْرُ المشترَكُ بين إنشائه والثباتِ عليه ليرتجِيَه أربابُ هذه المرتبة وما دونها مِن مرتبتَي التوقّي عن العذاب المخلَّد[٦] والتجنّبِ عن كلّ ما يُؤثـم مِن فعلٍ أو تركٍ، كما مرّ

---

[١] ي - تعالى.
[٢] ط س: إمّا حال.
[٣] ط: يكون.
[٤] ط: منه.
[٥] ي: تعالى.
[٦] ي: الخالد.

في تفسير ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة، ٢/٢]. ولعلّ توسيطَ الحال مِن الفاعل بين وصفَي المفعول لِما في التقديم مِن فَوَات الإشعار بكون الوصف الأوّل معظمَ أحكام الربوبيّة وكونِه عريقًا في إيجاب العبادة، وفي التأخير مِن زيادة طُول الكلام.

هذا على تقدير اعتبار تحقّق التوقّع بالفعل، فأمّا إن اعتُبِر تحقّقُه بالقوّة، فالجملة حال مِن مفعول ﴿خَلَقَكُمْ﴾ وما عُطف عليه على الطريقة المذكورة، أي: خلقكم وإيّاهم حالَ كونكم جميعًا بحيث يرجُو منكم كلُّ راجٍ أن تتّقوا، فإنّه سبحانه وتعالى لمّا بَرَأهم مستعدّين للتقوى جامعين لمباديها الآفاقيّة والأنفسيّة، كان حالُهم بحيث يرجو منهم كلُّ راجٍ أن يتّقوا لا محالةَ، وهذه الحالة مقارنة لخلقهم، وإن لم يتحقّق الرجاء قطعًا.

واعلَمْ أنّ الآية الكريمة -مع كونها بعبارتها ناطقةً بوجوب توحيده تعالى وتحتّمِ عبادته على كافّة الناس- مُرشِدةٌ لهم بإشارتها إلى أنّ مطالعة الآيات التكوينيّة المنصوبةِ في الأنفس والآفاق ممّا يقضي بذلك قضاءً متقنًا، وقد بُيّن فيها أوّلًا مِن تلك الآيات ما يتعلّق بأنفسهم مِن خلقهم وخلقِ أسلافهم لِما أنّه أقوى شهادةً وأظهرُ دلالةً، ثمّ عُقّب بما يتعلّق بمعاشهم، فقيل: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾، وهو في محلّ[1] النصب على أنّه صفة ثانية لـ﴿رَبَّكُمُ﴾، موضِّحةٌ أو مادحةٌ، أو على تقدير "أخُصّ" أو "أمدَحُ"، أو في محلّ[2] الرفع على المدح والتعظيمِ بتقدير المبتدأ، قال ابن مالك:[3] «التُزِم حذفُ الفعل

---

١ ط س: حيّز.

٢ ط س: حيّز.

٣ هو محمّد بن عبد الله بن مالك الطائي الأندلسي الجيّاني، جمال الدين أبو عبد الله (ت. ٦٧٢هـ/١٢٧٤م). أحد الأئمّة في علوم العربيّة. وُلد في جيّان بالأندلس، وانتقل إلى دمشق، وأقام بها مدّةً يصنّف ويشتغل، وتصدّرَ بالتربة العادليّة وبالجامع المعمور، وتخرّج به جماعة كثيرة. كان إمامًا في القراءات وعِلَلها، وأمّا اللغة فكان إليه المنتهى في الإكثار مِن نقل غريبها والاطّلاعِ على وحشيِّها، وأمّا النحو والتصريف فكان فيهما بحرًا لا يجارَى، وحَبْرًا لا يبارَى، وأمّا أشعار العرب فكانت الأئمّة الأعلام يتحيّرون فيه ويتعجّبون مِن أين يأتي بها. وكان كثيرَ العبادة، كثيرَ النوافل، حسنَ السمت. مِن مصنّفاته: **الألفيّة**، و**تسهيل الفوائد**، و**الكافية الشافية**، و**إيجاز التعريف**، و**شواهد التوضيح**. انظر: **فوات الوفيات** للكُتُبي، ٤٠٧/٣-٤٠٩؛ و**بغية الوعاة** للسيوطي، ١٣٠/١-١٣٧؛ و**الأعلام** للزركلي، ٢٣٣/٦.

في المنصوب على المدح إشعارًا بأنّه إنشاء كما في المنادَى، وحذفُ المبتدأ في المرفوع إجراءً للوجهين على سَنَنٍ واحد».[١] وأمّا كونُه مبتدأً خبرُه ﴿فَلَا تَجْعَلُوا﴾ كما قيل، فيستدعي أن يكون مناطُ النهي ما في حيّز الصلة فقط، مِن غير أن يكون لِما سلف مِن خلقهم وخلقِ مَن قبلهم مَدخلٌ في ذلك مع كونه أعظمَ شأنًا.

و﴿جَعَلَ﴾ بمعنى "صيَّرَ"، والمنصوبان بعده مفعولاه. وقيل: هو بمعنى "خلَقَ"، وانتصابُ الثاني على الحاليّة. والظرفُ متعلِّق به على التقديرين، وتقديمُه على المفعول الصريح لتعجيل المَسَرّة ببيان كون ما يعقُبه مِن منافع المخاطَبين، وللتشويق إليه؛ لأنّ النفس عند تأخيرِ ما حقُّه التقديمُ -لاسيّما بعد الإشعار بمنفعته- تَبقى مترقِّبةً له، فيتمكّن لَديها عند وروده عليها فضل تمكّنٍ، أو لِما[٢] في المؤخَّر وما عُطف عليه مِن نوع طول، لو[٣] قُدّم لَفات تجاوبُ أطرافِ النظم الكريم. ومعنى جعلِها فراشًا: جعل بعضها بارزًا مِن الماء مع اقتضاء طبعها الرسوبَ، وجعلها متوسّطةً بين الصلابة واللين صالحةً للقعود عليها والنوم فيها كالبِساط المفروش، وليس مِن ضرورة ذلك كونُها سطحًا حقيقيًا، فإنّ كُريّة شكلها مع عِظَم جِرْمها مصحِّحةٌ لافتراشها. وقُرِئ: "بِسَاطًا"[٤] و"مِهَادًا".[٥]

﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ عطفٌ على المفعولَين السابقَين. وتقديم حال الأرض لِما أنّ احتياجهم إليها وانتفاعَهم بها أكثرُ وأظهرُ، أي: جعَلَها قُبّةً مضروبةً عليكم. والسماء: اسم جنسٍ يُطلَق على الواحد والمتعدّد، أو جمع "سماوة" أو "سماءة".[٦] والبناء في الأصل مصدرٌ سُمّي به المبنيّ، بيتًا كان أو قبّةً أو خِباءً، ومنه قولهم: "بَنى على امرأته" لِما أنّهم كانوا إذا تزوّجوا امرأةً ضربوا عليها خِباءً جديدًا.

---

١ ما وجدناه بلفظه، لعلّه إشارة إلى ما في ألفيّته، ص ٤٥:
وارفَعْ أو انصِبْ إنْ قطعتَ مضمِرًا
مبتدأً أو ناصبًا لن يَظهَرا.

٢ ط: ولما.

٣ ي: فلو.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن هشام عمران الزبيدي وزهير الفرقبي الشامي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٤.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. ورُوي عنه "مَهْدًا" أيضًا. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٤.

٦ ط س + كما مرّ. | لعلّه ممّا أزال المصنّف بعد نسخ ط س؛ لأنّه لم يمرّ ذِكره قبل ذلك.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ عطفٌ على[1] ﴿جَعَلَ﴾. أي: أنزل مِن جهتها، أو منها إلى السحاب ومِن السحاب إلى الأرض، كما رُوي ذلك عنه عليه السلام،[2] أو المراد بـ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ جهةُ العلوّ كما يُنبئ عنه الإظهار في موقع الإضمار، وهو على الأوّلَين لزيادة التقرير. و﴿مِنْ﴾ لابتداء الغاية، متعلِّقةٌ بـ﴿أَنزَلَ﴾، أو بمحذوفٍ وقع حالًا مِن المفعول، أي: كائنًا مِن السماء، قُدِّم عليه لكونه نكِرةً، وأمّا تقديم الظرف على الوجه الأوّل مع أنّ حقّه التأخيرُ عن المفعول الصريح، فإمّا لأنّ السماء أصلُه ومَبدؤه، وإمّا لِما مرّ مِن التشويق إليه، مع ما فيه مِن مزيدِ انتظامٍ بينه وبين قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾ أي: بسبب الماء ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾، وذلك بأن أَودَعَ في الماء قوّةً فاعلةً وفي الأرض قوّةً منفعِلةً، فتولَّدَ مِن تفاعُلِهما أصنافُ الثِّمار، أو بأن أَجرى عادتَه بإفاضة صُوَر الثِّمار وكيفيّاتِها المتخالفةِ على المادّة الممتزجة منهما، وإن كان المؤثِّرَ[3] في الحقيقة قدرتُه تعالى ومشيئتُه؛ فإنّه / تعالى قادرٌ على أن يوجِدَ جميعَ الأشياء [٢٣و] بلا مبادٍ ومَوادَّ كما أبدَعَ نفوسَ المبادئ والأسباب، لكن له عزّ وجلّ في إنشائها متقلِّبةً في الأحوال ومتبدِّلةً في الأطوار مِن بدائعِ حِكَمٍ باهرةٍ تُجدِّدُ لأُولي الأبصار عِبَرًا ومزيدَ طُمأنينةٍ إلى عظيم قدرته ولطيفِ حكمتِه ما ليس في إبداعها بغتةً.

و﴿مِنْ﴾ للتبعيض لقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ﴾ [فاطر، ٢٧/٣٥] ولوقوعها بين منكَّرَين -أعني: ﴿مَآءً﴾ و﴿رِزْقًا﴾- كأنّه قيل: وأنزل مِن السماء بعضَ الماء، فأخرج به بعضَ الثَّمَرات ليكون بعضَ رزقِكم، وهكذا الواقع؛ إذ لم يُنزَل مِن السماء كلُّ الماء، ولا أُخرجَ مِن الأرض كلُّ الثمرات، ولا جُعِل كلُّ المرزوق ثِمارًا، أو للتبيين، و﴿رِزْقًا﴾ مفعولٌ بمعنى "المرزوق"، و﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ بيان له أو حالٌ منه، كقولك: "أنفقتُ مِن الدراهم ألفًا"، ويجوز أن يكون ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ مفعولًا و﴿رِزْقًا﴾ حالًا منه أو مصدرًا مِن ﴿أَخْرَجَ﴾؛ لأنّه بمعنى "رزق".

---

[1] ي + قوله.

[2] لم نقف عليه مرفوعًا. نحوه عن كعب والحسن في العظمة لأبي الشيخ، ١٢٣٨/٤، ١٢٧٢/٤، وعن عكرمة في تفسير ابن أبي حاتم، ٢٧٠٦/٨ (١٥٢٤٤).

[3] ي + فيها.

وإنّما شاع ورودُ ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ دون "الثِّمار" مع أنّ الموضع موضعُ كثرة؛[١] لأنّه أريدَ بـ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ جماعة الثَّمَرة في قولك: "أدركَتْ ثَمَرةُ بستانه"، ويؤيّده القراءة على التوحيد،[٢] أو لأنّ الجُموع يقع بعضُها موقعَ بعض، كقوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخان، ٢٥/٤٤] وقولِه تعالى: ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة، ٢٢٨/٢]، أو لأنّها مُحلّاة باللام خارجةٌ عن حدّ القِلّة. و"اللام" متعلّقة بمحذوفٍ وقع صفةً لـ﴿رِزْقًا﴾ على تقدير كونه بمعنى "المرزوق"، أي: رزقًا كائنًا لكم، أو دِعامةً لتقوية عمل ﴿رِزْقًا﴾ على تقدير كونه مصدرًا، كأنّه قيل: رزقًا إيّاكم.

﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ إمّا متعلِّق بالأمر السابق مترتِّبٌ عليه، كأنّه قيل: إذا أُمرتم بعبادةِ مَن هذا شأنه مِن التفرّد بهذه النعوت الجليلة والأفعال الجميلة، فلا تجعلوا له شريكًا. وإنّما قيل: ﴿أَندَادًا﴾ باعتبار الواقع، لا لأنّ مدار النهي هو الجمعيّة. وقُرئ: "نِدًّا".[٣] وإيقاع الاسم[٤] الجليل موقعَ الضمير لتعيين المعبود بالذات إثرَ تعيينه بالصفات، وتعليلِ الحكم بوصف الألوهيّة التي عليها يدور أمر الوحدانيّة واستحالةُ الشركة، والإيذانِ باستتباعها لسائر الصفات. وإمّا معطوفٌ عليه كما في قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء، ٣٦/٤]، و"الفاء" للإشعار بعِلّيّة ما قبلها مِن الصفات المُجراة عليه تعالى للنهي أو الانتهاء، أو لأنّ مآل النهي هو الأمر بتخصيص العبادة به تعالى المترتِّبُ على أصلها، كأنّه قيل: اعبدوه فخُصُّوها[٥] به، والإظهارُ في موضع الإضمار لِما مرّ آنفًا.

وقيل: هو نفيٌ منصوبٌ بإضمار "أنْ" جوابًا للأمر، ويأباه أنّ ذلك فيما يكون الأوّل سببًا للثاني، ولا ريب في أنّ العبادة لا تكون سببًا للتوحيد الذي هو أصلها ومبناها. وقيل: هو منصوبٌ بـ﴿لَعَلَّ﴾ نصبَ ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ في قوله تعالى:

---

[١] قال الجوهري في الصحاح، «ثمر»: «الثَّمَرة: واحدةُ الثَّمَر والثَّمَرات، وجمعُ الثَّمَر: ثِمار، مثل جَبَل وجِبال، قال الفرّاء: وجمعُ الثِّمار: ثُمُر، مثل كِتاب وكُتُب، وجمعُ الثُّمُر: أثمار، مثل عُنُق وأعناق».

[٢] أي: "مِن الثَّمَرَةِ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن السميفع. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٤.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن السميفع. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٤.

[٤] ي: اسم.

[٥] ي: مخصوصًا.

﴿لَعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۞ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر، ٤٠/٣٦-٣٧]، أي: خلَقَكم لِتتّقوا وتخافوا عقابَه، فلا تُشبِّهوه بخلقه، وحيث كان مدارُ هذا النصب تشبيهَ ﴿لَعَلَّ﴾ في بُعْد المرجوّ بـ"لَيتَ"، كان فيه تنبيهٌ على تقصيرهم بجعلهم المرجوَّ القريبَ بمنزلة المتمنَّى البعيد.

وقيل: هو متعلِّق بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ﴾... إلخ على تقدير رفعه على المدح، أي: هو الذي حَفَّكم بهذه الآيات العظام والدلائل النيِّرةِ، فلا تتّخِذوا له شركاءَ، وفيه ما مرّ مِن لزوم كون خلقهم وخلقِ أسلافهم بمَعزِلٍ مِن مَناطيّة النهي مع عراقتهما فيها. وقيل: هو خبرٌ للموصول بتأويل مَقولٍ في حقّه، وقد عرفتَ ما فيه مع لزوم المَصير إلى رأي الأخفش في تنزيل الاسم الظاهر منزلةَ الضمير، كما في قولك: "زيدٌ قامَ أبو عبد الله" إذا كان ذلك كُنْيتَه.

والنِّدّ: المِثل المناوي، مِن "نَدَّ نُدُودًا" إذا نفر، ونادَدْته: خالَفْته، خُصَّ بالمخالِف المماثِل بالذات، كما خُصَّ المساوي بالمماثِل في المقدار. وتسميةُ ما يعبده المشركون مِن دون الله ﴿أَندَادًا﴾ -والحالُ أنّهم ما زعموا أنّها تُماثله تعالى في صفاته، ولا أنّها تخالفه في أفعاله- لِما أنّهم لمّا تركوا عبادته تعالى إلى عبادتها وسمَّوْها آلهةً، شابهتْ حالُهم حالَ مَن يعتقد أنّها ذواتٌ واجبةٌ بالذات، قادرةٌ على أن تدفع عنهم بأسَ الله عزّ وجلّ وتمنَحَهم ما لم يُرِد الله تعالى بهم مِن خير، فتُهُكِّمَ بهم وشُنِّعَ عليهم أن جعلوا أندادًا لِمن يستحيل أن يكون له نِدٌّ واحد. وفي ذلك قال موحِّد الجاهليّة زيد بن عمرو بن نُفَيل:[1]

أَرَبًّا واحدًا أمْ ألفَ ربٍّ ... أَدِينُ إذا تقسَّمَت الأمورُ
تركتُ اللّاتَ والعُزَّى جميعًا ... كذلك يفعل الرجلُ البصيرُ[2]

---

[1] هو زيد بن عمرو بن نُفَيل بن عبد العُزّى العَدَوي القُرَشي (ت. ٦٠٦م). ابن عمّ عمر بن الخطّاب، ووالدُ سعيد بن زيد أحدِ العشرة المبشَّرين بالجنّة. لم يُدرك الإسلامَ، وكان يكره عبادةَ الأوثان، ولا يأكل ممّا ذُبح عليها. ورحل إلى الشام باحثًا عن عبادات أهلها، فلم تستمله اليهوديّة ولا النصرانيّة، فعاد إلى مكّةَ يعبد الله على دين إبراهيم. رآه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قبل النبوّة، وسُئل عنه بعدها، فقال: «يُبعث يومَ القيامة أمّةً وحدَه». انظر: **أسد الغابة** لابن الأثير، ٣٦٨/٢؛ **والأعلام** للزركلي، ٦٠/٣.

[2] **تفسير الرازي**، ٣٤٦/٢؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥٦/١؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٢٩/١.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ حال مِن ضمير ﴿لَا تَجْعَلُوا﴾ بصرف التقييد إلى ما أفاده النهي مِن قُبح المنهيّ عنه ووجوبِ الاجتناب عنه. ومفعول ﴿تَعْلَمُونَ﴾ مطروح بالكلّيّة، كأنّه قيل: لا تجعلوا ذلك، فإنّه قبيحٌ واجبُ الاجتناب عنه، والحالُ أنّكم مِن أهل العلم والمعرفة بدقائق الأمور وإصابةِ الرأي، أو مقدَّرٌ حسبما يقتضيه المقام، نحو: وأنتم تعلمون بطلانَ ذلك، أو تعلمون أنّه لا يماثله شيء، أو تعلمون ما بينه وبينها مِن التفاوت، أو تعلمون أنّها لا تفعل مثلَ أفعاله كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ [الروم، ٣٠/٤٠]، أو غير ذلك. وحاصلُه تنشيطُ المخاطَبين وحثُّهم على الانتهاء عمّا نُهُوا عنه.

هذا هو الذي يستدعيه[١] عمومُ الخطاب في النهي بجعل المنهيّ عنه القدرَ المشتركَ المنتظمَ لإنشاء الانتهاء كما هو المطلوب مِن الكَفَرة وللثبات[٢] عليه كما هو شأن المؤمنين حسبما مرَّ مثلُه في الأمر. وأمّا صرفُ التقييد إلى نفس النهي، فيستدعي تخصيصَ الخطاب بالكَفَرة لا محالةَ؛ إذ لا يتسنّى / ذلك [٢٣ظ] بطريق قصر النهي على حالة العلم ضرورةَ شمول التكليف للعالِم والجاهل المتمكِّنِ مِن العلم؛ بل إنّما يتأتّى بطريق المبالغة في التوبيخ والتقريع بناءً على أنّ تعاطِيَ[٣] القبائحِ مِن العالِمين بقُبحها أقبَحُ، وذلك إنّما يُتصوّر في حقّ الكَفَرة؛ فمَن صرَفَ التقييدَ إلى نفس النهي مع تعميم الخطاب للمؤمنين أيضًا، فقد نَأَى عن التحقيق.

إن قلتَ: أليس في تخصيصه بالكَفَرة في الأمر والنهي خلاصٌ مِن أمثال ما مرَّ مِن التكلّفات وحسنُ انتظامٍ بين السباق والسياق؛ إذ لا محيدَ في آية التحدّي مِن تجريد الخطاب وتخصيصِه بالكَفَرة لا محالةَ، مع ما فيه مِن رَبْأ محلِّ المؤمنين ورفعِ شأنهم عن حيّز الانتظام في سلك الكَفَرة، والإيذانِ بأنّهم مستمرّون على الطاعة والعبادة -حسبما مرّ في صدر السورة الكريمة- مستَغْنون

---

[١] ط س: يقتضيه.

[٢] ي: والثبات.

[٣] ي: تعامل.

في ذلك عن الأمر والنهي؟ قلتُ: بلى، إنّه وجهٌ سَرِيٌّ، ونهجٌ سويٌّ، لا يضِلّ مَن ذهب إليه، ولا يزِلّ مَن ثبّتَ قدمَه عليه، فتأمّل.

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ شروع في تحقيق أنّ الكتاب الكريم الذي مِن جملته ما تُلِي مِن الآيتَين الكريمتين الناطقتين بوجوب العبادة والتوحيدِ منزلٌ مِن عند الله عزّ وجلّ على رسوله صلّى الله عليه وسلّم،[١] كما أنّ ما ذُكر فيهما مِن الآيات التكوينيّة الدالّة على ذلك صادرةٌ عنه تعالى لتوضيح اتّصافه بما ذُكر في مطلَع[٢] السورة الشريفة مِن النعوت الجليلة التي مِن جملتها نزاهتُه عن أن يعترِيَه ريبٌ ما.

والتعبير عن اعتقادهم في حقّه بـ"الرَّيب" -مع أنّهم جازمون بكونه مِن كلام البَشَر كما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾- إمّا للإيذان بأنّ أقصى ما يمكن صدورُه عنهم، وإن كانوا في غايةِ ما يكون مِن المكابرة والعناد، هو الارتياب في شأنه، وأمّا الجَزْم المذكور فخارجٌ مِن[٣] دائرة الاحتمال، كما أنّ تنكيره وتصديرَه بكلمة الشكّ للإشعار بأنّ حقّه أن يكون ضعيفًا مشكوكَ الوقوع، وإمّا للتنبيه على أنّ جزمهم ذلك بمنزلة الريب الضعيف لكمال وضوح دلائل الإعجاز ونهايةِ قوّتها.

وإنّما لم يُقَل: "وإن ارتَبْتم فيما نزّلنا"... إلخ، لِما أُشيرَ إليه فيما سلف مِن المبالغة في تنزيه ساحة التنزيل عن شائبة وقوع الريب فيه حسبما نطق به قولُه تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة، ٢/٢]، والإشعارِ بأنّ ذلك إن وقع، فمِن جِهتهم، لا مِن جهته العالية. واعتبار استقرارهم فيه وإحاطتِه بهم لا يُنافي اعتبارَ ضعفه وقِلّته، لِما أنّ ما يقتضيه ذلك هو دوام ملابستهم به، لا قوّتُه وكثرتُه.

---

١ ي: مِن عند الله تعالى على نبيّه عليه السلام.

٢ ط أ + صدر.

٣ ط: عن.

و﴿مِنْ﴾ في ﴿مِمَّا﴾ ابتدائيّةٌ متعلِّقةٌ بمحذوفٍ وقع صفةً لـ﴿رَيْبٍ﴾، وحملُها على السببيّة ربّما يُوهِم كونَه محلًا للريب في الجملة، وحاشاه[١] ذلك. و﴿مَا﴾ -موصولةً كانت أو موصوفةً- عبارةٌ عن الكتاب الكريم، لا عن القدر المشترك بينه وبين أبعاضه؛ وليس معنى كونِهم في رَيب منه ارتيابَهم في استقامة معانيه وصحّةِ أحكامه؛ بل في نفس كونه وحيًا منزلًا مِن عند الله عزّ وعلا.[٢]

وإيثار "التنزيل" المُنبِئ عن التدريج على مطلَق "الإنزال" لتذكيرِ مَنشأ ارتيابهم، وبناءُ التحدّي عليه إرخاءً للعنان وتوسيعًا للميدان؛ فإنّهم كانوا اتّخذوا نزولَه منجَّمًا وسيلةً إلى إنكاره، فجُعل ذلك مِن مبادي الاعتراف به، كأنّه قيل: إن ارتَبْتم في شأنِ ما نزّلناه على مَهْل وتدريج، فهَاتُوا أنتم مثلَ نَوْبةٍ فذّةٍ[٣] مِن نُوَبه ونَجْمٍ فَرْدٍ مِن نجومه، فإنّه أيسَرُ عليكم مِن أن يُنزلَ جُملةً واحدةً ويُتحدَّى بالكلّ. وهذا -كما ترى- غايةُ ما يكون في التبكيت وإزاحةِ العِلَل.

وفي ذِكره صلّى الله عليه وسلّم[٤] بعنوان العبوديّة مع الإضافة إلى ضمير الجلالة مِن التشريف والتنويهِ والتنبيهِ على اختصاصه به عزّ وجلّ وانقيادِه لأوامره تعالى ما لا يخفى. وقُرئ: "عَلَى عِبَادِنَا"،[٥] والمراد هو عليه السلام وأمّتُه أو جميعُ الأنبياء عليهم السلام، ففيه إيذانٌ بأنّ الارتياب فيما أُنزلَ عليه[٦] ارتيابٌ فيما أُنزلَ مِن قَبله لكونه مصدِّقًا له ومُهيمِنًا عليه.

والأمر في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ﴾ مِن باب التعجيز وإلقامِ الحَجَر،[٧] كما في قوله تعالى: ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾.[٨] و"الفاء" للجواب، وسببيّةُ الارتياب للأمر

---

[١] س: حاشاه.

[٢] ي: تعالى.

[٣] الفَذّ: الفَرد. الصحاح للجوهري، «فذذ».

[٤] ي: وذكره عليه السلام.

[٥] قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري في الكشّاف، ٩٧/١؛ والرازي في تفسيره، ٣٤٨/٢؛ وأبو حيّان في البحر المحيط، ١٦٩/١، ولم ينسبوها إلى أحد. وقرأ ابن قطيب شاذّةً: "مِمَّا أَنْزَلْنَا عَلَى عِبَادِنَا"، مِن الإنزال. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٥.

[٦] ي: بأنّ الارتياب فيه.

[٧] ألقمَه الحَجَرَ: يُضرَب للمُجيب بجواب مُسكِت. المستقصى للزمخشري، ٣٣٩/١.

[٨] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة، ٢٥٨/٢].

أو الإتيانِ بالمأمور به لِما أشيرَ إليه مِن أنّه عبارة عن جَزْمهم المذكور، فإنّه سبب للأوّل مطلَقًا، وللثاني على تقدير الصدق، كأنّه قيل: إن كان الأمر كما زعمتم مِن كونه كلامَ البَشر، فأتُوا بمِثله؛ لأنكم تقدِرون على ما يقدِر عليه سائرُ بني نوعكم.

والسورة: الطائفة مِن القرآن العظيم المترجَمةُ، وأقلُّها ثلاثُ آياتٍ، ووَاوُها أصليّة منقولة مِن "سُور البلد"؛ لأنّها محيطة بطائفة مِن القرآن مفْرَزة مَحُوزة[1] على حِيالها، أو مُحتويةٌ على فنون رائقة مِن العلوم احتواءَ سُور المدينة على ما فيها، أو مِن "السورة" التي هي الرُّتبة، قال:

ولِرَهْطِ حَرَّابٍ وقَدٍّ سورةٌ   في المَجْد ليس غُرَابُها بمُطَارِ[2]

فإنّ سُوَر القرآن، مع كونها في أنفسها رُتَبًا مِن حيث الفضلُ والشرفُ أو مِن حيث الطولُ والقِصَرُ، فهي مِن حيث انتظامُها مع أخَواتها في المُصحف[3] مراتِبُ يرتقي إليها القارئ شيئًا فشيئًا، وقيل: وَاوُها مُبدَلةٌ مِن الهمزة، فمعناها: البقيّة مِن الشيء، ولا يخفى ما فيه.

و﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن مِّثْلِهِۦ﴾ بيانيّةٌ متعلّقةٌ بمحذوفٍ وقع صفةً لـ﴿سُورَةٍ﴾،[4] والضميرُ لـ﴿مَا نَزَّلْنَا﴾، أي: بسورةٍ كائنةٍ مِن مِثله في علوّ الرتبة وسموّ الطبقة والنظمِ الرائق والبيانِ البديع وحيازةِ سائر نعوت الإعجاز.[5] وجعلُها تبعيضيّةً يوهِم أنّ له مِثلًا محقَّقًا قد أريدَ تعجيزُهم عن الإتيان ببعضه، كأنّه قيل: فأتُوا ببعضِ ما هو مثلٌ له، فلا يُفهَم منه كون المماثلة مِن تتمّة المعجوز عنه، فضلًا عن كونها مدارًا للعجز مع أنّه المراد. وبناءُ الأمر على المُجاراة معهم بحسب حسبانهم، حيث كانوا يقولون: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال، ٣١/٨]،

---

١ ط س: مَحُوزة مَفْرَزة [صُحّح في نسخة س بالإشارة إلى التقديم والتأخير].

٢ البيت للنابغة الذُبياني في ديوانه، ص ٩٩. | قوله: "ليس غُرابُها بمُطارِ" كناية عن كثرة الرَّهْطَيْنِ ودوامِ المَجد لهما؛ فإنّ النبات والشجر إذا كثُر في موضع قيل: لا يَطير غرابُه؛ لأنّ الغُراب إذا وقع في المكان الخَصيب أصاب فيه ما لا يَحتاج معه إلى أنْ ينتقل منه إلى مكان آخر. والوجه: أنْ يراد أنّه لا يُرام هذه المرتبة لكونها منيعةً رفيعةً. فتوح الغيب للطيبي، ٣١٦/٢-٣١٧.

٣ ط: المصاحف.

٤ ي: بسورة.

٥ ي: الإيجاز.

[٢٤و] / أو على التهكّم بهم، يأباه ما سبق مِن تنزيله منزلةَ الرِّيب؛ فإنّ مبنَى التهكّم على تسليم ذلك منهم وتسويفِه ولو بغير جِدّ.

وقيل: هي زائدة على ما هو[١] رأيُ الأخفش بدليل قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس، ٣٨/١٠]، ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [هود، ١٣/١١]. وقيل: هي ابتدائيّة، فالضمير حينئذ للمنزَّل عليه حتمًا، لِما أنّ رجوعه إلى المنزَّل يوهم أنّ له مثلًا محقَّقًا قد ورَدَ الأمر التعجيزيُّ بالإتيان بشيء منه؛ وقد عرفتَ ما فيه بخلاف رجوعه إلى المنزَّل عليه؛ فإنّ تحقّق مثله عليه السلام في البَشَريّة والعربيّة والأمّيّة يهوِّنُ الخَطْب في الجملة؛ خَلَا أنّ تخصيص التحديّ بفردٍ يشاركه عليه السلام فيما ذُكر مِن الصفات المنافية للإتيان بالمأمور به لا يدلُّ على عجزِ مَن ليس كذلك مِن علمائهم؛ بل ربّما يوهِمُ قدرتَهم على ذلك في الجملة فُرادَى أو مجتمِعين، مع أنّه يستدعي عَراءَ المنزَّل عمّا فُصِّل مِن النعوت الموجِبة لاستحالة وجود مثله؛ فأين هذا مِن تحدّي أمّةٍ جَمّةٍ وأمرِهم بأن يحتشدوا في حَلْبة المعارضة بخَيْلهم ورَجِلِهم حسبما ينطِق به[٢] قوله تعالى: ﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ويتعاونوا على الإتيان بقدرٍ يسيرٍ مماثِلٍ في صفات الكمال لِما أتى بجملته واحدٌ مِن أبناء جنسهم.

والشهداء: جمعُ "شهيد"، بمعنى الحاضر أو القائم بالشهادة أو الناصر. ومعنى ﴿دُونِ﴾: أدنى مكانٍ مِن شيء، يقال: "هذا دون ذاك" إذا كان أحطَّ منه قليلًا، ثمّ استُعير للتفاوت في الأحوال والرُّتَب، فقيل: "زيد دون عمرو"، أي: في الفضل والرتبة، ثمّ اتّسع فاستُعمل في كلّ تجاوزِ حدٍ إلى حدٍ وتخطِّي حُكمٍ إلى حكمٍ مِن غير ملاحظة انحطاط أحدهما مِن الآخَر، فجرى مَجرى أداة الاستثناء.

وكلمة ﴿مِّنْ﴾ إمّا متعلِّقةٌ بـ﴿ٱدْعُوا﴾، فتكون[٣] لابتداءِ الغاية، والظرفُ مستقرّ، والمعنى: ادعُوا متجاوِزين اللهَ تعالى[٤] لاستظهارِ مَن حضَرَكم كائنًا مَن كان، أو الحاضرين في مشاهدكم ومحاضرِكم مِن رؤسائكم وأشرافِكم الذين تَفزَعون إليهم

---

١ ط س: زائدة كما هو.
٢ ي – به.
٣ ط: فيكون.
٤ ي – تعالى.

في المُلمّات وتعوِّلون عليهم في المُهمّات، أو القائمين بشهاداتكم[١] الجاريةِ فيما بينكم مِن أُمَنائكم المتولّين لاستخلاص الحقوق بتنفيذ القول عند الوُلاة، أو القائمين بنُصرتكم حقيقةً أو زعمًا مِن الإنس والجنّ لِيُعينوكم.

وإخراجه سبحانه وتعالى مِن حُكم الدعاء في الأوّل -مع اندراجه في الحضور- لتأكيد تناولِه لجميع ما عَداه، لا لبيان استبداده تعالى بالقدرة على ما كُلّفوه، فإنّ ذلك ممّا يوهِمُ أنّهم لو دعَوْه تعالى لَأجابهم إليه؛ وأمّا في سائر الوجوه، فللتصريح مِن أوّل الأمر ببراءتهم منه تعالى وكونِهم في عُدْوة المُحادّة والمُشاقّة له قاصرين استظهارَهم على ما سِواه، والالتفاتُ لإدخال الرَّوعة وتربيةِ المهابة.[٢]

وقيل: المعنى: ادعوا مِن دون أولياءِ الله شهداءَكم الذين هم وجوه الناس وفُرسان المقاولة والمناقلة ليشهدوا لكم أنّ ما أتيتم به مِثلُه، إيذانًا بأنّهم يأبَوْن أن يرضَوْا لأنفسهم الشهادةَ[٣] بصحّة ما هو بيّنُ الفسادِ وجَليُّ الاستحالة؛ وفيه أنّه يؤذِنُ بعدم شمول التحدّي لأولئك الرؤساء. وقيل: المعنى: ادعوا شهداءَكم، فصَحِّحوا بهم دعواكم، ولا تستشهدوا بالله تعالى قائلين: "الله يشهد أنّ ما ندّعيه حقٌّ"، فإنّ ذلك دَيْدَنُ[٤] المحجوج؛ وفيه أنّه إن أُريدَ بما يدّعون حقّيّةُ ما هم عليه مِن الدين الباطل، فلا مِساسَ له بمقام التحدّي، وإن أُريدَ مِثليّةُ ما أتَوْا به للمتحدَّى به، فمَعَ عدمِ ملاءمتِه لابتداء التحدّي، يوهِمُ أنّهم قد تصَدَّوْا للمعارضة وأتَوْا بشيءٍ مشتبهِ الحال متردِّدٍ بين المِثليّة وعدمِها، وأنّهم ادّعَوْها مستشهِدين في ذلك بالله سبحانه؛[٥] إذ عند ذلك تمَسُّ الحاجةُ إلى الأمر بالاستشهاد[٦] بالناس والنهيِ عن الاستشهاد به تعالى؛ وأنّى لهم ذلك، وما نبَضَ لهم عِرْقٌ، ولا نَبَسُوا[٧] ببنتِ شَفَةٍ.[٨]

---

١ ط س: بالشهادات.

٢ ط س ي: لتربية المهابة وإدخال الرَّوْعة [صُحِّح في هامش ي]. وهي في نسخة أ كما أثبتناه.

٣ ي: الشهاة.

٤ الدَّيْدَنُ: الدَّأب والعادة. **الصحاح** للجوهري، «ددن».

٥ ي + وتعالى.

٦ ي: الحاجة إلى الاستشهاد.

٧ ي: نسبوا.

٨ نبَسَ: تكلَّمَ. وما كلَّمته ببنتِ شَفَةٍ، أي: بكلمةٍ. **الصحاح** للجوهري، «نبس، شفه».

وإمّا متعلِّقةٌ[١] بـ﴿شُهَدَآءَكُمْ﴾، والمراد بهم الأصنامُ، و﴿دُونِ﴾ بمعنى التجاوز على أنّها ظرفٌ مستقرٌّ وقع حالًا مِن ضمير المخاطَبين، والعامل ما دلَّ عليه ﴿شُهَدَآءَكُمْ﴾، أي: ادعوا أصنامَكم الذين اتّخذتموهم آلهةً متجاوِزين الله تعالى في اتّخاذها كذلك، وكلمةُ ﴿مِنْ﴾ ابتدائيّة، فإنّ الاتّخاذ ابتداءٌ مِن التجاوز. والتعبير عن الأصنام بـ"الشهداء" لتعيين مدار الاستظهار بها بتذكيرِ ما زعموا مِن أنّها بمكانٍ مِن الله تعالى وأنّها تنفعهم بشهادتها لهم أنّهم على الحقّ، فإنّ ما هذا شأنُه يجب أن يكون مَلاذًا لهم في كلّ أمر مُهمّ، ومَلجأً يَأوُون إليه[٢] في كلّ خَطْب مُلِمّ، كأنّه قيل: أولئك عُدّتكم، فادْعُوهم لهذه الداهية التي دهَمَتْكم، فوجهُ الالتفات الإيذانُ بكمال سخافة عقولهم، حيث آثَرُوا على عبادة مَن له الألوهيّةُ الجامعةُ لجميع صفات الكمال عبادةَ ما لا أحقرَ منه.

وقيل: لفظةُ ﴿دُونِ﴾ مستعارة مِن معناها الوضعيّ الذي هو أدنى مكانٍ مِن شيء لِقُدّامه، كما في قول الأعشى:[٣]

تُـرِيـكَ الـقَـذَى مِـن دُونِـهـا وَهْـيَ دُونَـهُ[٤]

أي: تُريك القَذى قُدّامَها وهي قُدّامَ القَذى، فيكون ظرفًا لَغْوًا معمولًا لـ﴿شُهَدَآءَكُمْ﴾ لكفاية رائحة الفعل فيه، مِن غير حاجة إلى اعتماد ولا إلى تقدير "يشهدون"، أي: ادعوا شهداءَكم الذين يشهدون لكم بين يدَي الله تعالى

---

[١] السياق: وكلمة ﴿مِنْ﴾ إمّا متعلِّقةٌ بـ﴿ٱدْعُوا﴾... وإمّا متعلِّقةٌ بـ﴿شُهَدَآءَكُمْ﴾...

[٢] ي - إليه.

[٣] هو ميمون بن قيس بن جَنْدل بن شراحيل البكري، أبو بَصير (ت. ٧هـ/٦٢٩م [؟]). مِن شعراء الطبقة الأولى في الجاهليّة، وأحد أصحاب المعلّقات. وُلد بقرية باليمامة يقال لها منفوحة، وفيها داره وبها قبره. لُقّب بالأعشى لضعف بصره، وعمي في أواخر عُمره. وكان كثيرَ الوفود على الملوك مِن العرب والفُرس، غزيرَ الشعر، يسلك فيه كلَّ مسلك، وليس أحد ممّن عرف قبله أكثر شعرًا منه، وكان يغنّي بشعره. وأدرك الإسلامَ، وفي وفادته على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم خلافٌ. انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة، ١/٢٥٠-٢٥٨؛ والأعلام للزركلي، ٧/٣٤١-٣٤٢؛ وديوان الأعشى الكبير، ١/٢٠-٢١.

[٤] وفي هامش أ: تمامه:
إذا ذَاقَـهـا مَـن ذَاقَـهـا يَـتَـمطَّقُ
| البيت في ديوانه، ص ٢١٩. يعني: تُريك الزجاجةُ القَذى مِن قُدّامها وهي قُدّامَ القَذى. ويتمطّق: يمُصُّ شَفَتَيه مِن لَذّاذتها. انظر: فتوح الغيب للطيبي، ٢/٣٢٩.

لِيعينوكم في المعارضة. وإيرادُها بهذا العنوان لِما مرّ مِن الإشعار بمناط الاستعانة بها. ووجهُ الالتفات تربيةُ المهابة وترشيحُ ذلك المعنى، فإنّ ما يقوم بهذا الأمر في ذلك المقام الخطير حقُّه أن يُستعان به في كلّ مرام.

وفي أمرِهم على الوجهين[١] بأن يستظهروا في معارضة القرآن -الذي أخرسَ كلَّ مِنْطيقٍ- بالجَماد مِن التهكّم بهم ما لا يوصَف.

[٢٤ظ] / وكلمة ﴿مِنْ﴾ ههنا تبعيضيّة لِما أنّهم يقولون: "جلس بين يدَيه وخلفَه" بمعنى "في"؛ لأنّهما ظرفان للفعل، و"مِن بينِ يدَيه ومِن خلفِه"؛ لأنّ الفعل إنّما يقع في بعض تَيْنِك الجهتين، كما تقول: "جئتُه مِن الليل"، تُريد بعضَ الليل. وقد يقال: كلمة "مِن" الداخلةُ على "دون" في جميع المواقع بمعنى "في" كما في سائر الظروف التي لا[٢] تتصرّف، وتكونُ[٣] منصوبةً على الظرفيّة أبدًا، ولا تنجرُّ إلّا بـ"مِن" خاصّةً.

وقيل: المراد بـ"الشهداء" مَدارِهُ[٤] القومِ ووجوهُ المحافل والمحاضر، و﴿دُونِ﴾ ظرفٌ مستقرٌّ، و﴿مِنْ﴾ ابتدائيّةٌ، أي: ادعوا الذين يشهدون لكم أنّ ما أتيتم به مِثلُه متجاوِزين في ذلك أولياءَ الله، ومحصّله: شهداء مغايرين لهم، إيذانًا بأنّهم أيضًا لا يشهدون بذلك.

وإنّما قُدّر المضاف إلى الله تعالى رعايةً للمقابلة؛ فإنّ أولياء الله تعالى يقابِلون أولياءَ الأصنام، كما أنّ ذِكر الله تعالى يقابل ذكرَ الأصنام. والمقصودُ بهذا الأمر إرخاءُ العِنان والاستدراجُ إلى غاية التبكيت، كأنّه قيل: تركنا إلزامَكم بشهداءَ لا ميلَ لهم إلى أحد الجانبَين كما هو المعتاد، واكتفَيْنا بشهدائكم المعروفين بالذّبّ عنكم، فإنّهم أيضًا لا يشهدون لكم حذارًا[٥] مِن اللائمة وأَنَفةً مِن الشهادة البيّنة البُطلانِ. كيف لا، وأمرُ الإعجاز قد بلغ مِن الظهور إلى حيث

---

١ هما: كون تعلّق كلمةِ ﴿مِنْ﴾ إمّا بـ﴿ٱدْعُوا﴾ أو بـ﴿شُهَدَآءَكُمْ﴾.

٢ ي - لا.

٣ أي: كلمة "دون".

٤ المَدارِه: جمعُ "المِدْرَه"، وهو زعيمُ القوم والمتكلِّمُ عنهم. الصحاح للجوهري، «دره».

٥ ي: حذرًا.

لم يبقَ إلى إنكاره سبيلٌ قطعًا. وفيه ما مرَّ مِن عدم الملاءمة لابتداء التحدّي وعدمِ تناوله لأولئك الشهداء وإيهامِ أنّهم تعرّضوا للمعارضة وأتَوْا بشيء احتاجوا في إثبات مِثْليّته للمتحدَّى به إلى الشهادة؛ وشتّانَ بينهم وبين ذلك.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: في زعمكم أنّه مِن كلامه عليه السلام. وهو شرطٌ حُذف جوابه لدلالة ما سبق عليه، أي: إن كنتم صادقين، فأتوا بسورة مِن مثله... إلخ. واستلزامُ[١] المقدَّم للتالي مِن حيث إنّ صِدقهم في ذلك الزعم يستدعي قدرتَهم على الإتيان بمِثله بقضيّة مشاركتهم له عليه السلام في البشريّة والعربيّة، مع ما بهم مِن طول الممارسة للخُطَب والأشعارِ وكثرةِ المزاولة لأساليب النظم والنثر والمبالغةِ في حِفظ الوقائع والأيّام، لاسيّما عند المظاهرة والتعاون، ولا ريب في أنّ القدرة على الشيء مِن موجِبات الإتيان به ودواعي الأمر به.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ أي: ما أُمرتم به مِن الإتيان بالمِثل بعد ما بَذَلتم في السعي غايةَ المجهود، وجاوَزْتم في الجِدّ كلَّ حدّ معهود، متشبِّثين بالذيول، راكبين متنَ كلّ صَعب وذَلول. وإنّما لم يصرَّح به إيذانًا بعدم الحاجة إليه، بناءً على كمال ظهور تهالُكِهم على ذلك. وإنّما أُوردَ في حيّز الشرط مطلَقُ الفعل وجُعِل مصدرُ الفعل المأمورِ به مفعولًا له للإيجاز البديع المُغني عن التطويل والتكرير، مع سِرّ سَرِيٍّ استقلَّ به المقام، وهو الإيذان بأنّ المقصود بالتكليف هو إيقاعُ نفس الفعل المأمور به لإظهار عجزهم عنه، لا تحصيلُ المفعول -أي: المأتيّ به- ضرورةَ استحالته، وأنّ مناط الجواب في الشرطيّة -أعني: الأمر باتّقاء النار- هو عجزُهم عن إيقاعه، لا فوتُ حصول المفعول؛ فإنّ مدلول لفظ الفعل هو أنفُسُ الأفعال الخاصّة -لازمةً كانت أو متعدّيةً- مِن غير اعتبار تعلّقاتها بمفعولاتها الخاصّة، فإذا عُلِّق بفعلٍ خاصٍّ متعدٍّ،

---

[١] ي: واستلزم.

فإنّما يُقصَد به إيقاع نفس ذلك الفعل وإخراجُه مِن القوّة إلى الفعل، وأمّا تعلّقُه بمفعوله المخصوص، فهو خارجٌ عن مدلول الفعل المطلَق، وإنّما يستفاد ذلك مِن الفعل الخاصّ؛ ولذلك تَراهم يتوسّلون بذلك إلى تجريد الأفعال المتعدّية عن مفعولاتها وتنزيلِها منزلةَ الأفعال اللازمة، فيقولون مَثلًا: معنى "فلانٌ يُعطي ويَمنع": يفعل الإعطاءَ والمنعَ. يُرشدك إلى هذا قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي[١] بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ [يوسف، ٦٠/١٢] بعد قوله تعالى: ﴿ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف، ٥٩/١٢]؛ فإنّه لمّا كان مقصودُ يوسفَ عليه السلام بالأمر ومَرْمَى غرضِه بالتكليف منه[٢] استحضارَ بنيامينَ، لم يكتفِ في الشرطيّة الداعية لهم إلى الجِدّ في الامتثال والسعيِ في تحقيق المأمور به بالإشارة الإجماليّة إلى الفعل الذي ورد به الأمر بأن يقول: "فإن لم تفعلوا"؛ بل أعاده بعينه متعلّقًا بمفعوله تحقيقًا لمطلبه وإعرابًا عن مقصده.

هذا، وقد قيل:[٣] أُطلقَ الفعل وأُريدَ به الإتيان مع ما يتعلّق به، إمّا على طريقة التعبير عن الأسماء الظاهرة بالضمائر الراجعةِ إليها حذرًا مِن التكرار، أو على طريقة ذِكر اللازم وإرادةِ الملزوم لِما بينهما مِن التلازم المصحِّح للانتقال بمَعونة قرائن الحال، فتدبَّرْ.

وإيثار كلمة ﴿إِنْ﴾ المفيدةِ للشكّ على "إذا" -مع تحقّق الجَزْم بعدم فعلهم- مجاراةٌ معهم بحسَب حسبانهم قبل التجربة أو تهكّمٌ بهم.

---

١ س: يأتوني.

٢ ي - منه.

٣ وفي هامش أ: الفاضل التفتازاني رحمه الله. «منه». | انظر: حاشية التفتازاني على الكشّاف، ٨٢و. | هو مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني، سعد الدين (ت. ٧٩٢هـ/١٣٩٠م). الإمام العلّامة. عالمٌ بالنحو والتصريف والمعاني والبيان والأصلَين والمنطق وغيرها. شافعيّ. وُلد بتفتازان مِن بلاد خراسان، وأقام بسرخس، وأبعده تيمورلنك إلى سمرقند، فتُوفّي فيها، ودُفن في سرخس. كانت في لسانه لكنة. مِن كُتبه: شرح تصريف العِزّي، وهو أوّل ما صَنّف مِن الكتب، وكان عمرُه ستَّ عشرةَ سنةً، والمطوَّل، ومختصر المعاني، والمقاصد، وشرح المقاصد، وحاشية الكشّاف، لم تتمّ، والنِّعم السوابغ شرح الكَلِم النوابغ للزمخشري، وشرح العقائد النسفيّة، والتلويح إلى كشف غوامض التنقيح، وشرح الشمسيّة، وتهذيب المنطق، وشرح الأربعين النوويّة. انظر: بغية الوعاة للسيوطي، ٢٨٥/٢؛ وطبقات المفسّرين للداوودي، ٣١٩/٢؛ والأعلام للزركلي، ٢١٩/٧.

﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ كلمة "لن" لنفي المستقبَل كـ"لا"؛ خَلَا أنّ في "لن" زيادةَ تأكيدٍ وتشديدٍ، وأصلُها عند الخليل: "لا أنْ"،[١] وعند الفرّاء:[٢] "لا"، أُبدلت أَلِفُها نونًا،[٣] وعند سيبويه: حرفٌ مقتضَبٌ للمعنى المذكور،[٤] وهي إحدى الروايتين عن الخليل.[٥] والجملة اعتراض بين جُزأَي الشرطيّة، مقرِّرٌ لمضمون مقدّمها، ومؤكِّدٌ لإيجاب العمل بتاليها. وهذه[٦] معجزة باهرة؛ حيث أخبرَ بالغيب الخاصّ علمُه به عزّ وجلّ، وقد وقع الأمر كذلك؛ كيف لا، ولو عارضوه بشيءٍ يُدانيه في الجملة، لَتناقَلَه الرواةُ خلَفًا عن سلَفٍ.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ جواب للشرط على أنّ اتّقاء النار كنايةٌ عن الاحتراز مِن العناد؛ إذ بذلك يتحقّق تسبّبُه عنه وترتّبُه عليه، كأنّه قيل: فإذا / عجزتم عن الإتيان [٢٥و] بمثله كما هو المقرَّر، فاحترِزوا مِن إنكار كونه منزلًا مِن عند الله سبحانه،[٧] فإنّه مستوجِبٌ للعقاب بالنار؛ لكنْ أُوثرَ عليه الكناية المذكورة المبنيّةُ على تصوير العناد بصورة النار وجُعِل الاتّصاف به عينَ الملابسة بها للمبالغة في تهويل شأنه وتفظيعِ أمره، وإظهارِ كمال العناية بتحذير المخاطَبين منه وتنفيرِهم عنه، وحثِّهم على الجِدّ في تحقيق المكنيّ عنه. وفيه مِن الإيجاز البديع ما لا يخفى؛ حيث كان الأصل: فإن لم تفعلوا، فقد صحّ صِدقُه عندكم، وإذا صحّ ذلك كان لزومُكم العنادَ وتركُكم الإيمانَ به سببًا لاستحقاقكم العقابَ بالنار، فاحترِزوا منه،

---

[١] انظر: كتاب العين للخليل بن أحمد، ٣٥٠/٨ «باب اللفيف مِن اللام».

[٢] هو يحيى بن زياد بن عبد الله بن منصور العَبْسي، أبو زكريّا الفرّاء (ت. ٢٠٧هـ/٨٢٢م). إمام الكوفيّين وأعلمُهم بالنحو واللغة وفنونِ الأدب. أخذ عن أبي الحسن الكسائي، وأخذ عنه سلمة بن عاصم ومحمّد بن عاصم السمري وغيرهما. كان هو والأحمر أشهر أصحاب الكسائي، وكانا أعلم الكوفيّين بالنحو مِن بعده. وكان يقال: الفرّاء أمير المؤمنين في النحو. وكان مع تقدّمه في اللغة فقيهًا متكلّمًا، عالمًا بأيّام العرب وأخبارها، عارفًا بالنجوم والطبّ، يَميل إلى الاعتزال. مِن كُتبه: المقصور والممدود، ومعاني القرآن، والمذكّر والمؤنّث، وما تلحن فيه العامّة، والأيّام والليالي، واختلاف أهل الكوفة والبصرة والشام في المصاحف، والجمع والتثنية في القرآن، والحدود. انظر: نزهة الألبّاء للأنباري، ٨١-٨٤؛ ومعجم الأدباء للحَمَوي، ٢٨١٢/٦-٢٨١٥؛ والأعلام للزركلي، ١٤٥/٨-١٤٦.

[٣] انظر: تفسير الرازي، ٣٥٢/٢.

[٤] انظر: الكتاب لسيبويه، ٥/٣.

[٥] انظر: تهذيب اللغة للأزهري، ٢٣٩/١٥ «باب اللام والنون».

[٦] ط: وهاتيك.

[٧] ي + وتعالى.

واتّقوا النارَ[١] ﴿ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ صفةٌ لـ﴿ٱلنَّارَ﴾، مُورثةٌ لها زيادةَ[٢] هَوْلٍ وفظاعةٍ. أعاذنا اللهُ مِن ذلك.

والوَقود: ما يوقَد به النارُ وتُرفَع مِن الحَطَب، وقُرئ بضمّ الواو،[٣] وهو مصدر سُمّي به المفعول مبالغةً، كما يقال: "فُلانٌ فخرُ قومِه وزَيْنُ بلدِه"، والمعنى: أنّها مِن الشدّة بحيث لا تمَسّ شيئًا مِن رَطْبٍ أو يابسٍ إلّا أحرقَتْه، لا كنِيرانِ الدنيا تفتقِرُ في الالتهاب إلى وَقودٍ مِن حَطَب أو حشيش.

وإنّما جُعل هذا الوصفُ صلةً للموصول مقتضيةً لكون انتسابها إلى ما نُسبت هي إليه معلومًا للمخاطَب بناءً على أنّهم سمعوه مِن أهل الكتاب قبل ذلك، أو مِن الرسول صلّى الله عليه وسلّم،[٤] أو سمعوا قبل هذه الآية المَدَنيّة قولَه تعالى: ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم، ٦٦/٦]، فأشيرَ ههنا إلى ما سمعوه أوّلًا، وكونُ سورة التحريم مَدَنيّةً لا يستلزم كونَ جميع آياتها كذلك كما هو المشهور. وأمّا أنّ الصفة أيضًا يجب أن تكون معلومةَ الانتساب إلى الموصوف عند المخاطَب، فالخَطْبُ فيه هيّنٌ، لِما أنّ المخاطَب هناك المؤمنون، وظاهرٌ أنّهم سمعوا ذلك[٥] مِن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.[٦]

والمراد بـ﴿ٱلْحِجَارَةُ﴾ الأصنامُ، وبـ﴿ٱلنَّاسُ﴾ أنفُسُهم[٧] حسبما ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ الآية [الأنبياء، ٢١/٩٨].

﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: هُيّئت للذين كفروا بما نزّلناه وجُعلتْ عُدّةً لعذابهم. والمراد إمّا جنسُ الكُفّار والمخاطَبون داخلون فيهم دُخولًا أوّليًّا، وإمّا هم خاصّةً. ووضعُ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ موضعَ ضميرهم لذَمّهم وتعليلِ الحكم بكفرهم. وقُرئ: "أُعْتِدَتْ"،[٨] مِن "العَتاد" بمعنى العُدّة. وفيه دلالة على أنّ النار مخلوقة موجودة الآنَ.

---

١ ط + وقوله تعالى.

٢ ي: لزيادة.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن بخلاف ومجاهد بن جبر وطلحة بن مصرّف وعيسى الهمداني. المحتسب لابن جنّي، ١/٦٣؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٥.

٤ ي: عليه السلام.

٥ ط س: سمعوه.

٦ ي: مِن الرسول عليه السلام.

٧ ط س: عَبَدَتُها [صُحّح في هامش س].

٨ قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري في الكشّاف، ١/١٠٣؛ وأبو حيّان في البحر المحيط، ١/١٧٦، ونسباها إلى عبد الله بن مسعود.

والجملة استئناف، لا محلَّ لها مِن الإعراب، مقرِّرةٌ لمضمون ما قبلها، ومؤكِّدةٌ لإيجاب العمل به، ومبيِّنةٌ لِمن أريدَ بـ﴿ٱلنَّاسُ﴾، دافعةٌ لاحتمال العموم. وقيل: حالٌ بإضمار "قد" مِن ﴿ٱلنَّارَ﴾، لا مِن ضميرها في ﴿وَقُودُهَا﴾ لِما في ذلك مِن الفصل بينهما بالخبر. وقيل: صلةٌ بعد صلةٍ، أو عطفٌ على الصلة بترك العاطف.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: بأنّه منزّل مِن عند الله عزّ وجلّ.[١] وهو معطوف[٢] على الجملة السابقة، لكنْ لا على أنّ المقصود عطفُ نفس الأمر حتّى يُطلَبَ له مُشاكِلٌ يصِحّ عطفه عليه؛ بل على أنّه عطفُ قصّة المؤمنين بالقرآن ووصفِ ثوابهم على قصّة الكافرين به وكيفيّةِ عقابهم، جريًا على السنّة الإلهيّة مِن شَفْع الترغيب بالترهيب والوعدِ بالوعيد؛ وكان تغيير الشبك لتخييل كمال التباين بين حالَي الفريقين. وقُرئ: "وَبُشِّرَ"[٣] على صيغة الفعل مبنيًا للمفعول عطفًا على ﴿أُعِدَّتْ﴾،[٤] فيكونُ استئنافًا.

وتعليقُ التبشير بالموصول للإشعار بأنّه معلَّل بما في حيّز الصلة مِن الإيمان والعمل الصالح، لكنْ لا لِذاتهما، فإنّهما لا يكافئان النِّعم السابقةَ فضلًا مِن أن يقتضيَا ثوابًا فيما يستقبل؛ بل بجعل الشارع ومقتضى وعدِه. وجعلُ صلته فعلًا مفيدًا للحدوث بعد إيراد الكُفّار بصيغة الفاعل لحثِّ المخاطَبين بالاتّقاء على إحداث الإيمان، وتحذيرهم مِن الاستمرار على الكفر.

والخطاب للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم،[٥] وقيل: لكلّ مَن يتأتّى منه التبشير، كما في قوله عليه السلام: «بَشِّر المشّائين إلى[٦] المساجد في ظلم الليالي بالنور

---

١ ي: تعالى.
٢ ط س: عطف [صُحّح في هامش س].
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٥.
٤ في الآية السابقة.
٥ ي: عليه السلام.
٦ ي: على.

التامّ يومَ القيامة»،[١] فإنّه عليه السلام لم يأمر بذلك واحدًا بعينه؛ بل كلُّ أحد ممّن يتأتّى منه ذلك؛ وفيه رمزٌ إلى[٢] أنّ الأمر لعِظَمه وفخامةِ شأنه حقيقٌ بأن يتولّى التبشيرَ به كلُّ مَن يقدر عليه. والبِشارة: الخبر السارّ الذي يظهر به أثرُ السُّرور في البَشَرة.[٣] وتباشِيرُ الصُّبْح: أوائلُ ضَوئه.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الصالحة كـ"الحَسَنة" في الجرَيان مَجرى الاسم، وهي كلُّ ما استقام مِن الأعمال بدليلِ العقل والنقل،[٤] و"اللام" للجنس، والجمعُ لإفادةِ أنّ المراد بها جملةٌ مِن الأعمال الصالحة التي أشيرَ إلى أمّهاتها في مطلع السورة الكريمة، وطائفةٌ منها متفاوِتةٌ حسبَ تفاوتِ حال المكلَّفين في مواجب التكليف. وفي عطف العمل على الإيمان دلالةٌ على تغايرهما، وإشعارٌ بأنّ مدار استحقاق البِشارة مجموعُ الأمرين؛ فإنّ الإيمان أساسٌ، والعمل الصالح كالبناء عليه؛ ولا غَناءَ بأُسٍّ لا بناءَ به.

﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ منصوبٌ بنزع الخافض وإفضاءِ الفعل إليه، أو مجرورٌ بإضماره، مثل: "اللهِ لَأفعلنَّ". والجنّة هي المرّة مِن مصدر "جَنَّه" إذا ستره، تُطلَق على النخلِ والشجر المتكاثِف المظَلِّلِ بالتفاف أغصانه، قال زُهير:

كــأنَّ عَـيْـنـيَّ فـي غَــرْبَـيْ مُـقـتَّـلـةٍ   مِـن الـنَّـواضِـح تَـسْقِي جنّةً سُحُقَا[٥]

أي: نخلًا طِوالًا كأنّها لفَرْط تكاثفِها والتفافِها وتغطيَتِها لِما تحتها بالمرّة نفسُ السُّترة، وعلى الأرض[٦] ذات الشجر، قال الفرّاء: «الجنّة: ما فيه النخيل، والفِردَوْس: ما فيه الكَرْم»،[٧] فحقُّ المصدر حينئذ أن يكون مأخوذًا مِن الفعل

---

[١] سنن أبي داود، ٤٢١/١ (٥٦١)؛ وسنن ابن ماجة، ٥٠٠/١ (٧٨١)؛ وسنن الترمذي، ٤٣٥/١ (٢٢٣)، كلّها باختلاف يسير.

[٢] ط س: تنبيه على.

[٣] البَشَرَة: أعلى جلدة الرأس والوجه والجسد مِن الإنسان، وهي التي عليها الشَّعرُ، وقيل: هي التي تَلي اللحمَ. لسان العرب لابن منظور، «بشر».

[٤] ي: النقل والعقل.

[٥] البيت في ديوانه، ص ٤١. والمُقتَّلة: الناقة المُرتاضة المُذلَّلة. والغَرْبان: الدَّلوان الضَّخْمان. والناضِح: البعير يُستقى عليه. والسَّحوق مِن النخيل: الطويلةُ، والجمع: سُحُق. وأراد بـ"الجنّة" النخلَ؛ لأنّها أحوَجُ إلى الماء، والطِّوالُ منها أكثرُ احتياجًا مِن القِصار. انظر: فتوح الغيب للطيبي، ٣٥٣/٢-٣٥٤.

[٦] السياق: تُطلق على النخل... وعلى الأرض...

[٧] لم نجد قوله في معاني القرآن. لعلّ المصنّفَ نقله مِن اللباب لابن عادل، ٤٥٠/١.

المبنيّ للمفعول. وإنّما سُمّيت دارُ الثواب بها -مع أنّ فيها ما لا يوصَف[١] مِن الغُرُفات والقصور- لِما أنّها مناط نعيمها ومعظَمُ مَلاذّها. وجمعُها مع التنكير لأنّها سبعٌ على ما ذكره ابن عبّاس رضي الله عنهما: / «جنّة الفِردوس وجنّة عَدْن وجنّة النعيم ودار الخُلْد وجنّة المأوى ودار السلام وعِلِّيُّون»،[٢] وفي كلّ واحدة منها مراتبُ ودرجاتٌ متفاوتةٌ حسب تفاوتِ الأعمال وأصحابها. [٢٥ظ]

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ في حيّز النصب على أنّه صفةُ ﴿جَنَّٰتٍ﴾؛ فإن أريدَ بها الأشجارُ، فجرَيانُ الأنهار مِن تحتها ظاهرٌ، وإن أريدَ بها الأرض المشتملةُ عليها، فلا بدَّ مِن تقدير مضافٍ، أي: مِن تحت أشجارها، وإن أريدَ بها مجموع الأرض والأشجار، فاعتبارُ التحتيّة بالنظر إلى الجزء الظاهر المصحِّحِ لإطلاق اسم الجنّة على الكلّ. عن مسروق:[٣] «أنّ أنهار الجنّة تَجري في غير أُخْدود».[٤]

و"اللام" في ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ للجنس كما في قولك: "لفلان بُستان فيه الماء الجاري والتِّينُ والعِنَبُ"، أو عِوَضٌ عن المضاف إليه كما في قوله تعالى: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ [مريم، ٤/١٩]، أو للعهد والإشارةُ إلى ما ذُكر في قوله عزّ وعلا:[٥] ﴿أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾ الآية [محمّد، ١٥/٤٧]. والنَّهر: بفتح الهاء وسكونِها: المَجرى الواسعُ فوقَ الجَدْوَل ودونَ البحرِ كالنِّيل والفُرات، والتركيبُ للسَّعة،

---

١ ط - ما لا يوصف.

٢ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٦٠/١. وهو باختلاف في الترتيب وفي لفظة "دار الجلال" مكان "علّيّين" في **تفسير القرطبي**، ٣٢٩/٨ (يونس، ٢٥/١٠)؛ و**اللباب** لابن عادل، ٣٠٤/١٠ (يونس، ٢٥/١٠).

٣ هو مسروق بن الأجدع بن مالك الوادعي الهمداني الكوفي، أبو عائشة (ت. ٦٣هـ/٦٨٣ [؟]). تابعيّ، مِن أهل اليمن. قدِم المدينةَ في أيّام أبي بكر، وسكن الكوفةَ، وشهد حروبَ عليّ. يقال: إنّه سُرِق وهو صغير، ثمّ وُجِد، فسُمّي مسروقًا. كان قاضيًا، وكان أعلَمَ بالفتوى مِن شُريح، وكان شريح أعلمَ بالقضاء، وكان يستشير مسروقًا. حدّث هو عن أبيّ بن كعب وعمر ومعاذ بن جبل وخبّاب وعائشة وابن مسعود وعثمان وعليّ والمغيرة بن شُعبة. وعنه الشعبي وإبراهيم النَّخَعي ويحيى بن وثّاب وعبد الله بن مُرّة وأبو وائل ويحيى بن الجزّار، وآخرون. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٧٦/٦-٨٤؛ و**سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٦٣/٤-٧٣؛ و**الأعلام** للزركلي، ٢١٥/٧.

٤ **صفة الجنّة** لأبي نُعيم، ١٦١/٢ (٣١٠)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ١٠٨/١-١٠٩. وهو باختلاف يسير في **مصنّف ابن أبي شيبة**، ٢٨/٢ (٣٣٩٥٩)؛ و**جامع البيان** للطبري، ٤٠٦/١. | الأُخدود: الشَّقّ، ويقال: خَدَّ في الأرض خَدًّا إذا شَقّ فيها. **غريب الحديث** لابن قتيبة، ٥٢٢/٢-٥٢٣.

٥ ي: تعالى.

والمراد بها ماؤُها على الإضمار أو على المجاز اللغويّ، أو المَجارِي أنفسُها، وقد أُسندَ إليها الجرَيانُ مجازًا عقليًا كما في "سالَ الميزابُ".

﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ صفةٌ أخرى لـ﴿جَنَّٰتٍ﴾، أُخِرت عن الأُولى؛ لأنّ جرَيان الأنهار مِن تحتها وصفٌ لها باعتبار ذاتها، وهذا وصفٌ لها[1] باعتبار أهلها المتمتّعين بها، أو خبرُ مبتدأ محذوف، أو جملةٌ مستأنَفةٌ، كأنّه حين وُصفت "الجنّات" بما ذُكر مِن الصفة وقَعَ في ذهن السامع أنّ ثِمارها كثِمار جنّات الدنيا أوّلًا، فبُيّن حالُها.

و﴿كُلَّمَا﴾ نصب على الظرفيّة، و﴿رِزْقًا﴾ مفعولٌ به، و﴿مِنْ﴾ الأولى والثانية للابتداء، واقعتانِ موقِعَ الحال، كأنّه قيل: كلَّ وقتٍ رُزقوا مرزوقًا مبتدأً مِن الجنّات مبتدأً مِن ثَمرةٍ، على أنّ[2] "الرزق" مقيَّدٌ بكونه مبتدأً مِن الجنّات، وابتداؤه[3] منها مقيَّدٌ بكونه مبتدأً مِن ثَمَرة، فصاحبُ الحال الأولى: ﴿رِزْقًا﴾، وصاحبُ الثانية: ضميرُه المستكنّ في الحال. ويجوز كونُ ﴿مِن ثَمَرَةٍ﴾ بيانًا قُدّم على المبيَّن، كما في قولك: "رأيتُ منك أسدًا".

و﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى ﴿مَا رُزِقُوا﴾، وإن وقعتْ على فرد معيَّن منه كقولك مشيرًا إلى نهرٍ جارٍ: "هذا الماء لا ينقطع"؛ فإنّك، وإن أشرتَ إلى ما تعاينُه بحسب الظاهر، لكنّك إنّما تَعني بذلك النوعَ المعلومَ المستمرَّ، فالمعنى: هذا مثلُ الذي رُزقناه[4] مِن قبلُ، أي: مِن قبلِ هذا في الدنيا؛ ولكنْ لمّا استحكم الشبَهُ بينهما جُعِل ذاتُه ذاتَه. وإنّما جُعل ثَمَرُ الجنّة كثِمار الدنيا لتَميل النفسُ إليه حين تراه؛ فإنّ الطِّباع مائلةٌ إلى المألوف متنفِرةٌ عن غير معروف، وليتبيَّنَ لها مزيّتُه وكُنهُ النعمة فيه؛ إذ لو كان جنسًا غيرَ معهود لَظُنَّ أنّه لا يكون إلّا كذلك، أو[5] مثلُ الذي رُزقناه مِن قبلُ في الجنّة؛ لأنّ طعامها متشابِهُ الصُّوَر كما يُحكى عن الحسن رضي الله عنه أنّ أحدهم يُؤتى بالصَّفحة فيأكلُ منها، ثمّ يُؤتى بأخرى

---

[1] ي - باعتبار ذاتها، وهذا وصفٌ لها.
[2] ي - أنّ.
[3] ط س: وابتداءها.
[4] ي: رزقنا.
[5] عطفٌ على قوله: "فالمعنى: هذا مثلُ الذي رُزقناه مِن قبلُ"... إلخ.

فيراها مثلَ الأولى،[١] فيقول: «ذلك!»، فيقول الملائكة: «كُلْ، فاللَّوْن واحدٌ والطعمُ مختلِفٌ»،[٢] أو كما رُوي أنّه صلّى الله عليه وسلّم[٣] قال: «والذي نفسي بيده، إنّ الرجل مِن أهل الجنّة لَيتناولُ الثَّمَرةَ ليأكُلَها، فما هي واصلةٌ إلى فِيهِ حتّى يُبدِّلَ الله تعالى مكانَها مثلَها».[٤]

والأوّل أنسبُ لمحافظة عموم ﴿كُلَّمَا﴾، فإنّه يدلّ على ترديدهم هذه المقالةَ كلَّ مرّة رُزقوا، لا فيما عدا المرّةَ الأولى، يُظهرون بذلك التبجّحَ وفرطَ الاستغراب لِما بينهما مِن التفاوت العظيم مِن حيث اللذّةُ مع اتّحادهما في الشكل واللون. كأنّهم قالوا: هذا عينُ ما رُزقناه في الدنيا، فمِن أين له هذه الرتبة مِن اللذّة والطيب؟ ولا يقدح فيه ما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما مِن أنّه ليس في الجنّة مِن أطعِمة الدنيا إلّا الاسم؛[٥] فإنّ ذلك لبيان كمال التفاوت بينهما مِن حيث اللذّةُ والحُسْنُ والهيئةُ، لا لبيانِ ألّا تشابُهَ بينهما أصلًا؛ كيف لا، وإطلاق الأسماء منوطٌ بالاتّحاد النوعيّ قطعًا.

هذا، وقد فُسّرت الآية الكريمة بأنّ مستلذّاتِ أهل الجنّة بمقابلة ما رُزقوه[٦] في الدنيا مِن المعارف والطاعات متفاوتةُ الحال، فيجوز أن يريدوا "هذا ثوابُ الذي رُزقناه في الدنيا مِن الطاعات"، ولا يساعده تخصيصُ ذلك بـ"الثَّمَرات"؛ فإنّ الجنّة وما فيها مِن فنون الكرامات مِن قبيل ثواب الطاعات.[٧]

﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ اعتراض مقرِّر لِما قبله، والضميرُ المجرور على الأوّل[٨] راجعٌ إلى ما دلّ عليه[٩] فحوى الكلام ممّا رُزقوا في الدارَين، كما في قوله تعالى:

---

١ ط: الأول.

٢ الكشّاف للزمخشري، ١٠٩/١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٦١/١؛ اللباب لابن عادل، ٤٥٤/١. وأخرج نحوه الطبري في جامع البيان، ٤١٠/١، عن يحيى بن أبي كثير.

٣ ي: عليه السلام.

٤ الكشّاف للزمخشري، ١٠٩/١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٦١/١. وأخرج نحوَه الطبري في جامع البيان، ٢٤٤/٢٢ (الرحمن، ٥٥/٥٤).

٥ ط س: اسمها [صُحّح في هامش س]. | انظر لرواية ابن عبّاس: صفة الجنّة لأبي نُعيم، ١٤٧/١ (١٢٤)؛ والكشف والبيان للثعلبي، ١٧١/١؛ وتفسير الرازي، ٧٥٢/٣٠ (الإنسان، ١٧/٧٦).

٦ ط س: ما رزقوا.

٧ ي: مِن قبيل الثواب.

٨ هو كون المعنى: هذا مثلُ الذي رُزقناه مِن قبلِ هذا في الدنيا.

٩ ط س: على الأوّل لما دلّ عليه.

﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء، ١٣٥/٤]، أي: بجنسَي الغنيّ والفقير، وعلى الثاني[1] إلى الرزق.[2]

﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي: ممّا في نساء الدنيا مِن الأحوال المستقذرة كالحَيْض والدَّرَن[3] ودنَسِ الطَّبع وسُوءِ الخلق، فإنّ التطهّر يُستعمل في الأجسام والأخلاق والأفعال. وقُرئ: "مُطَهَّرَاتٌ"،[4] وهما لغتان فصيحتان، يقال: النساءُ فعلتْ وفعلْنَ، وهُنَّ فاعلةٌ وفواعلُ، قال:

وإذا العَذَارَى بالدُّخان تقنَّعتْ واستعجلَتْ نَصْبَ القُدور فمَلَّتِ[5]

فالجمع على اللفظ والإفرادُ على تأويل الجماعة.[6] وقُرئ: "مُطَّهِّرَةٌ"[7] بتشديد الطاء وكسرِ الهاء، بمعنى: متطهِّرة. و﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ أبلغُ مِن "طاهرة" و"متطهِّرة" للإشعار بأنّ مُطهِّرًا طهَّرَهنَّ، وما هو إلّا الله سبحانه وتعالى؛ وأمّا التطهّر، فيحتمل أن يكون مِن قِبَل[8] أنفسِهنّ كما عند اغتسالهنّ. والزوج: يُطلَق على الذَّكر والأنثى، وهو في الأصل اسمٌ لِما له قرينٌ مِن جنسه، وليس في مفهومه اعتبارُ التوالد الذي هو مدار بقاء النوع حتّى لا يصِحَّ إطلاقُه على أزواج أهل الجنّة لخلودهم فيها واستغنائِهم عن الأولاد، كما أنّ المَداريّة لبقاء الفرد ليست بمعتبَرةٍ في مفهوم اسم الرزقِ حتّى يُخِلَّ ذلك بإطلاقه على ثِمار الجنّة.

﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: دائمون. والخُلود في الأصل: الثبات المديد دامَ أو / لم يَدُمْ؛ ولذلك قيل: للأثافيّ[9] والأحجارِ "الخوالدُ"، وللجُزء الذي يبقى [٢٦و]

---

[1] هو كون المعنى: هذا مثلُ الذي رُزقناه مِن قبلُ في الجنّة.

[2] ط س: للرزق.

[3] الدَّرَن: الوَسَخ. وقد درِنَ الثوبُ، فهو درِنٌ، وأدرَنَه صاحبُه. الصحاح للجوهري، «درن».

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٥.

[5] البيت لسُلْمِي بن ربيعة في أمالي القالي، ٨١/١؛ وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي، ص ٣٨٨؛ وخِزانة الأدب للبغدادي، ٣٦/٨، ولعِلْباء بن الأرقم في الأصمعيّات، ص ١٦٢، وبلا نسبة في كتاب الحيوان للجاحظ، ٤٠/٥.

[6] أي: ولهم فيها جماعةُ أزواج مطهَّرة.

[7] قراءة شاذّة، مرويّة عن عبيد بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٥. وهو "عبيد بن عمير" في الكشّاف للزمخشري، ١١٠/١؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ١٨٩/١؛ واللباب لابن عادل، ٤٥٦/١.

[8] ي: قبيل.

[9] الأُثْفِيّة والإِثْفِيّة: الحَجَر الذي توضَع عليه القِدرُ، وجمعها: أثافِيّ وأثافِ. لسان العرب لابن منظور، «أثف».

مِن الإنسان على حاله "خَلَدٌ"؛[١] ولو كان وضعُه للدوام لَمَا قُيِّد بالتأبيد في قوله عزّ قائلًا: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء، ١٢٢/٤]، ولَمَا استُعمِل حيث لا دوامَ فيه؛[٢] لكنّ المراد ههنا الدوامُ قطعًا لِما يُفضي به مِن الآيات والسنن.

وما قيل مِن أنّ الأبدان مؤلَّفةٌ مِن الأجزاء المتضادّة في الكيفيّة معرَّضةٌ للاستحالات المؤدّية إلى الانحلال والانفكاك مدارُه قياسُ ذلك العالَم الكاملِ بما يشاهَد في عالَم الكون والفساد، على أنّه يجوز أن يُعيدها الخالقُ تعالى بحيث لا يعتوِرُها الاستحالةُ[٣] ولا يعتريها الانحلالُ قطعًا، بأن يجعل أجزاءَها متفاوتةً[٤] في الكيفيّات، متعادلةً في القُوَى، بحيث لا يقوى شيءٌ منها عند التفاعل على إحالة الآخر، متعانقةً متلازمةً لا ينفكّ بعضها عن بعض، ويبقى هذه النسبةُ متحفَّظةً فيما بينها أبدًا، لا يعتريها التغيّرُ بالأكل والشُّرب والحركاتِ وغير ذلك.

واعلَمْ أنّ مُعظَم اللَّذّات الحِسّيّة لمّا كان مقصورًا على المساكن والمطاعم والمناكح حسبما يقضي به الاستقراءُ، وكان ملاكُ جميع ذلك الدوامَ والثباتَ -إذ كلُّ نعمة، وإن جلَّتْ، حيث كانت في شَرَف الزوال ومعرضِ الاضمحلال، فإنّها منغَّصةٌ[٥] غيرُ صافيةٍ مِن شوائب الألم- بَشَّرَ المؤمنين بها وبدوامها تكميلًا للبَهْجة والسرور. اللّٰهمّ وفِّقْنا لمَراضيك، وثبِّتْنا على ما يؤدّي إليها مِن العقد والعمل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ شروع في تنزيه ساحة التنزيل عن تعلّق ريبِ خاصِّ اعتراهم مِن جهةِ ما وقع فيه مِن ضرب الأمثال، وبيانٌ لحكمته،

---

[١] بفتحتَين، وهو القلب. انظر لوجه تسمية القلب بـ"خَلَد": حاشية القونوي على تفسير البيضاوي، ٥١٥/٢.

[٢] ط - فيه.

[٣] ي: الاستجالة.

[٤] ط س: متقاومة.

[٥] ي: منقّصة.

وتحقيقٌ للحقّ إثرَ تنزيهها عمّا اعتراهم مِن مطلق الريب بالتحدّي وإلقامِ الحَجَر[١] وإفحامِ كافّة[٢] البلغاء مِن أهل المَدَر والوَبَر.[٣]

رَوى أبو صالح[٤] عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ المنافقين طعَنوا في ضرب الأمثال بالنار والظُّلُماتِ والرعدِ والبرقِ، وقالوا: «الله أجلُّ وأعلى مِن ضرب الأمثال».[٥] وروى عطاءٌ عنه رضي الله عنهما أنّ هذا الطعنَ كان مِن المشركين.[٦] ورُوي عنه أيضًا أنّه لمّا نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾ الآية[٧] وقولُه تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ الآية،[٨] قالت اليهود: «أيُّ قدْرٍ للذُّباب والعنكبوت حتّى يضربَ الله تعالى بهما المثلَ»،[٩] وجعلوا ذلك ذريعةً إلى إنكار كونه مِن عند الله تعالى، مع أنّه لا يخفى على أحد ممّن له تمييزٌ أنّه ليس ممّا يُتصوّر فيه التردّدُ فضلًا عن النكير؛ بل هو مِن أوضح أدلّة كونه خارجًا عن طَوْق البَشر، نازلًا مِن عند خلّاق القُوى والقُدَر؛ كيف لا، وإنّ التمثيل -كما مرّ- ليس إلّا إبرازَ المعنى المقصود في معرض الأمر المشهود

---

١ أَلقَمَه الحَجَرَ: يُضرَب للمُجيب بجواب مُسكِت. **المستقصى** للزمخشري، ١/٣٣٩.

٢ ي: الكافّة.

٣ المَدَر: قِطَع الطِين اليابس المتماسِك، أو الطِّينُ العِلْك الذي لا رَمْلَ فيه، واحدَتُه: مَدَرَة. والوَبَر: صُوف الإبل والأرانب ونحوها، جمعُه: أوبار. ومِن المجاز قول عامر بن الطفيل للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «لنا الوَبَرُ ولكم المَدَرُ»، إنّما عنى به المُدُنَ أو الحضرَ؛ لأنّ مَبانيها إنّما هي بالمَدَر، وعنى بـ"الوَبَر" الأخبيةَ؛ لأنّ أبنية البادية بالوَبَر. انظر: **تاج العروس** لمرتضى الزبيدي، «مدر، وبر».

٤ هو باذام -ويقال: باذان- مولى أمّ هانئ بنت أبي طالب، أبو صالح الكوفي. صاحبُ التفسير الذي رواه عن ابن عبّاس. روى عن ابن عبّاس وعكرمة مولى ابن عبّاس وعليّ بن أبي طالب وأبي هريرة ومولاتِه أمّ هانئ. وروى عنه السدّي وسفيان الثوري والأعمش والكلبي وغيرهم. واختُلِف في توثيقه وتضعيفه. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٦/٢٩٦؛ **والتاريخ الكبير** للبخاري، ٢/١٤٤-١٤٥؛ **والجرح والتعديل** لابن أبي حاتم، ٢/٤٣١-٤٣٢؛ **وتهذيب الكمال** للمِزّي، ٤/٦-٨.

٥ **جامع البيان** للطبري، ١/٤٢٣؛ **أسباب النزول** للواحدي، ص ٢٦؛ **اللباب** لابن عادل، ١/٤٥٩.

٦ **اللباب** لابن عادل، ١/٤٥٩. وهو عن قتادة في **جامع البيان** للطبري، ١/٤٢٤.

٧ ي - الآية. | ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج، ٢٢/٧٣].

٨ ي - الآية. | ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت، ٢٩/٤١].

٩ **اللباب** لابن عادل، ١/٤٥٩. ونحوه في **التفسير الوسيط** للواحدي، ١/١٠٧.

وتحليةَ المعقول بحِلية المحسوس وتصويرَ أوابدِ المعاني بهيئة المأنوس لاستمالة الوهم واستنزالِه عن معارضته للعقل واستعصائِه عليه في إدراك الحقائق الخفيّة وفهمِ الدقائق الأبيّة، كَيْ يتابِعَه فيما يقتضيه ويشايِعَه إلى ما يرتضيه؛ ولذلك شاعت الأمثال في الكُتب الإلهيّة والكلمات النَّبَويّة، وذاعت في عبارات البلغاء وإشاراتِ الحكماء.

ومِن قضيّة وجوب التماثل[١] بين الممثَّل والممثَّل به في مناط التمثيل تمثيلُ العظيم بالعظيم والحقيرِ بالحقير، وقد مُثِّل في **الإنجيل** غلُّ الصدر[٢] بالنُّخالة، ومعارضةُ السفهاء بإثارة الزَّنابير، وجاء في عبارات البلغاء: "أجمَعُ مِن ذرّةٍ"،[٣] و"أجرَأُ مِن الذُّباب"،[٤] و"أسمَعُ مِن قُرادٍ"،[٥] و"أضعَفُ مِن بَعُوضة"، إلى غير ذلك ممّا لا يكاد يُحصَر.

والحَياء: تغيّرُ النفس وانقباضُها عمّا يُعاب به أو يُذمّ عليه، يقال: "حَيِيَ الرجلُ، وهو حَيِيٌّ". واشتقاقه مِن "الحياة" اشتقاقَ "شَظِيَ" و"نَسِيَ" و"حَشِيَ" مِن "الشَّظى" و"النَّسا" و"الحَشا"؛ يقال: شظِيَ الفَرَسُ ونسِيَ وحشِيَ إذا اعتلّتْ منه تلك الأعضاء، كأنّ[٦] مَن يعتريه الحياءُ يعتلّ قوّتُه الحيوانيّة وتنتقص. و"استحيا" بمعناه، خَلَا أنّه يتعدّى بنفسه وبحرف الجرّ، يقال: "استحيَيْته" و"استحيَيْت منه"، والأوّل لا يتعدّى إلّا بحرف الجرّ، وقد يُحذَف منه إحدى الياءَين، ومنه قوله:

أَلَا يَستَحِي منّا الملوكُ ويَتَّقِي مَحارِمَنا لا يَبْوُؤُ الدَّمُ بالدَّمِ[٧]

---

١ ي: التماثيل.

٢ ط س - الصدور.

٣ وفي هامش ي: الذرّة واحدة الذرّ، وهي الصغار مِن النمل، يزعمون أنّها تدّخر قوت بضع سنين. «منه».

٤ وفي هامش ي: أجرأ مِن الذباب: يقع على أنف المَلِك وجَفن الأسد ويرُدّ فيعود. قال الراجز: سُمّي ذبابًا لأنّه كلّما ذبّ آب. «منه».

٥ وفي هامش ي: لأنّه يسمع الهَمْس مِن أخفاف الإبل مِن مسيرةِ يومٍ فيتحرّك في [illegible] الإبل. «منه».

٦ ي: وكأنّ.

٧ البيت لجابر بن حُنَيّ التّغلبي في **المفضّليّات** للضّبّي، ص ٢٠٨؛ وكتاب **الحيَوان** للجاحظ، ٣٩١/٦؛ و**الكامل** للمبرّد، ١٧٢/٢؛ و**لسان العرب** لابن منظور، «بوأ». وفي الأوّلَين: "أَلَا تَستَحِي منّا ملوكٌ وتَتَّقِي"، وفي الآخرَين: "أَلَا تَنتهِي عنّا ملوكٌ وتَتَّقِي".

وقولُه:

إذا ما استحَيْنَ الماءَ يَعرِضُ نفسَه   كَرَعْنَ بِسِبْتٍ في إناءٍ مِن الوَرْدِ[١]

فكما أنّه إذا أُسندَ إليه سبحانه بطريق الإيجاب في مثل قوله صلّى الله عليه وسلّم:[٢] «إنّ الله يستحيي مِن ذي الشَّيْبة المسلمِ أن يعذّبه»[٣] وقولِه عليه السلام: «إنّ الله حَيِيٌّ كريمٌ يستحيي إذا رَفع إليه العبدُ يدَيْه أن يرُدَّهما صِفرًا حتّى يضَعَ فيهما خيرًا»،[٤] يُراد به الترك الخاصّ على طريقة التمثيل، حيث مُثِّل في الحديثين الكريمين[٥] تركُه تعذيبَ ذي الشَّيبة وتخييبَ العبد مِن عطائه بترك مَن يتركهما حياءً؛ كذلك إذا نُفي عنه تعالى في الموادّ الخاصّة كما في هذه الآية الشريفة وفي قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزاب، ٣٣/٥٣]، يُراد به سلبُ ذلك الترك الخاصّ المُضاهي لترك المستحيى عنه، لا سلبُ وصف الحياء عنه تعالى رأسًا كما في قولك: "إنّ الله لا يوصَف بالحياء"؛ لأنّ تخصيص السلب ببعض الموادّ يوهِمُ كونَ الإيجاب مِن شأن الله[٦] تعالى في الجملة، فالمراد ههنا عدمُ ترك ضرب المَثل المماثِل لترك مَن يستحيي مِن ضربه؛ وفيه رمزٌ إلى تعاضد الدواعي إلى ضربه وتآخُذِ البواعث إليه، إذ الاستحياءُ إنّما يُتصوّر في الأفعال المقبولة للنفس المرضيّةِ عندها.

ويجوز أن يكون ورودُه على طريقة المشاكلة؛ فإنّهم كانوا يقولون: «أمَا يستحيي ربُّ محمّدٍ أن يضرب مَثلًا بالأشياء المحقَّرة»، كما في قول مَن قال:

---

[١] البيت للمتنبّي في ديوانه بشرح الواحدي، ٢٠١٢/٤. قوله: "إذا ما استَحَيْنَ"، أي: تركْنَ، والضمير للنُّوقِ. وكرَعَ الماءَ يكرَعُ كُروعًا: إذا تناوله بفِيهِ مِن موضعه. والسِّبْت: جلود البَقَر المدبوغة بالقَرَظِ؛ شبَّه مشافرَ الإبل به، عنى بالإناء جلدَ البقرة فيها الماء، وبالورد الأزهارَ، يصِفُ الإبلَ وكثرةَ مِياه الأمطار المحفوفة بالأزهار، فكأنّ الماء يعرِضُ نفسَه عليها، والإبل تستحيي مِن ردّ الماء إذا كثُر عرضُ نفسِه عليها، فتكرَعُ فيه بمشافرَ كأنّها السِّبْتُ. فتوح الغيب للطيبي، ٣٨٣/٢.

[٢] ي: عليه السلام.

[٣] نوادر الأصول للحكيم الترمذي، ٣٤/٢؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٦٢/١. وانظر لتعليقات السيوطي عليه في اللآلئ المصنوعة، ١٢٣/١.

[٤] هو مع اختلاف بالنقص والزيادة في سنن ابن ماجة، ٣٣/٥ (٣٨٦٥)؛ وسنن أبي داود، ٦٠٩/٢-٦١٠ (١٤٨٨)؛ وسنن الترمذي، ٥٥٦/٥ (٣٥٥٦)، وباختلاف يسير في شرح السنّة للبغوي، ١٨٦/٥ (١٣٨٦)؛ وتفسير الرازي، ٢٦١/٢.

[٥] ي – الكريمين.

[٦] ي: مِن شأنه.

مَــنْ مُـبـلِـغٌ أفـنـاءَ يَـعْـرُبَ كلَّـها أنّـي بَـنَـيْـتُ الـجـارَ قبل الـمَـنْـزِلِ[١]

[٢٦ظ] وضربُ المَثل: استعماله في مَضرِبه وتطبيقُه به، لا صنعُه / وإنشاؤه في نفسه، وإلّا لَكان إنشاءُ الأمثال السائرة في مَوارِدها[٢] ضربًا لها دون استعمالها بعد ذلك في مَضارِبها لفُقدان الإنشاء هناك. والأمثال الواردة في التنزيل، وإن كان استعمالها في مضاربها عينَ إنشائها في أنفُسها، لكنّ التعبير عنه بـ"الضرب" ليس بهذا الاعتبار؛ بل بالاعتبار الأوّل قطعًا. وهو مأخوذ إمّا مِن ضرب الخاتَم بجامع التطبيق، فكما أنّ ضربه تطبيقُه بقالَبه، كذلك استعمالُ الأمثال في مضاربها تطبيقُها بها، كأنّ المَضارِب قوالبُ تُضرَب الأمثالُ على شاكلتها؛ لكنْ لا بمعنى أنّها تُنشأ بحسَبها بعد أن لم يكن كذلك، بل بمعنى أنّها تورَدُ منطبقةً عليها سواء كان إنشاؤها حينئذ، كعامّة الأمثال التنزيليّة، فإنّ مضاربها قوالبُها،[٣] أو قبل ذلك كسائر الأمثال السائرة، فإنّها، وإن كانت مصنوعةً مِن قبلُ، إلّا أنّ تطبيقها -أي: إيرادَها منطبقةً على مضاربها- إنّما يحصل عند الضرب، وإمّا مِن ضرب الطِّين على الجِدار ليلتزِقَ به بجامع الإلصاق، كأنّ مَن يستعملها يُلصِقها بمَضاربها ويجعلها ضربةَ لازبٍ لا ينفكّ[٤] عنها لشدّة[٥] تعلّقها بها.

ومحلّ ﴿أَن يَضْرِبَ﴾ على تقدير تعدية ﴿يَسْتَحْيِۦ﴾ بنفسه النصبُ على المفعوليّة، وأمّا على تقدير تعديته بالجارّ،[٦] فعند الخليل الخفضُ بإضمار "مِن"، وعند سيبويه النصبُ بإفضاء الفعل إليه بعد حذفها. و﴿مَثَلًا﴾ مفعول لـ﴿يَضْرِبَ﴾. و﴿مَا﴾ اسميّةٌ إبهاميّةٌ تزيد ما تُقارنه مِن الاسم المنكَّر إبهامًا وشياعًا، كما في قولك: "أَعْطِني كتابًا ما"، كأنّه قيل: مثلًا ما مِن الأمثال أيَّ مثلٍ كان، فهي صفة لِما قبلها، أو حرفيّةٌ مزيدةٌ لتقوية النسبة وتوكيدِها كما في قوله تعالى:

---

١ البيت لأبي تمّام في ديوانه بشرح التبريزي، ٣/٤٩، وفيه: "ابتَنَيْتُ" بدلَ "بَنَيْتُ". والشاهدُ فيه أنّه جعل الجارَ يُبتنى كما تُبتنى الدار.

٢ المراد بالمَورِد: الحالة الأصليّة التي ورد فيها الكلام، وبالمَضرِب: الحالة المشبَّهة بها التي أريدَ بالكلام. كشّاف اصطلاحات الفنون للتهانوي، ٢/١٤٤٩.

٣ ط س - فإنّ مضاربها قوالبها.

٤ ط س: تنفكّ.

٥ ي: شدّة.

٦ ط س: بحرف الجرّ.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران، ١٥٩/٣]. و﴿بَعُوضَةً﴾ بدلٌ مِن ﴿مَثَلًا﴾، أو عطفُ بيانٍ عند مَن يجوّزه في النّكِرات، أو مفعولٌ لـ﴿يَضْرِبَ﴾ و﴿مَثَلًا﴾ حالٌ تَقدّمت عليها لكونها نكِرةً، أو هما مفعولاه[١] لتضمّنِه معنى الجعل والتصيير. وقُرئ بالرفع[٢] على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هو بَعُوضة.

والجملة على تقدير كون ﴿مَا﴾ موصولةً صلةٌ لها محذوفة الصدر كما في قوله تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾[٣] على قراءة الرفع، وعلى تقدير كونها موصوفةً صفةٌ لها كذلك،[٤] ومحلّ ﴿مَا﴾ على الوجهين النصبُ على أنّه بدلٌ[٥] مِن ﴿مَثَلًا﴾، أو على أنّه مفعول[٦] لـ﴿يَضْرِبَ﴾،[٧] وعلى تقدير كونها إبهاميّةً صفةٌ لـ﴿مَثَلًا﴾ كذلك، وأمّا على تقدير كونها استفهاميّةً، فهي خبرٌ لها،[٨] كأنّه لمّا رُدَّ استبعادُهم ضَرْبَ المَثل، قيل: ما بَعُوضةٌ وأيُّ مانعٍ فيها حتّى لا يُضرَبَ بها المَثل؛ بل له تعالى أن يمثّل بما هو أصغر منها وأحقر، كجَناحِها كما[٩] وقع في قوله صلّى الله عليه وسلّم:[١٠] «لو كانت الدنيا تَزِنُ عند الله جَناحَ بَعُوضةٍ ما سَقَى الكافرَ منها شربةَ ماءٍ».[١١]

والبَعُوض: "فَعُولٌ" مِن "البَعْض"، وهو القطع كـ"البَضْع" و"العَضْب"، غلبَ على هذا النوع كـ"الخَمُوش" في لغة هُذَيل[١٢] مِن "الخَمْش"، وهو الخَدْش.

---

١ وفي هامش أ: فيه تنبيه على أنّ ﴿مَا﴾ على قراءة النصب لا تكون موصولةً ولا موصوفةً. «منه».

٢ أي: "بَعُوضَةٌ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن رُؤبة بن العجّاج. **المحتسب** لابن جنّي، ٦٤/١؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٥٦.

٣ ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام، ١٥٤/٦].

٤ وفي هامش أ: أي: محذوفة الصدر. «منه».

٥ ط س: النصب على البدليّة.

٦ ط س: أو على المفعوليّة.

٧ وفي هامش أ: على أنّ ﴿مَثَلًا﴾ حالٌ كما ذُكر. «منه».

٨ وفي هامش أ: على ما هو رأي سيبويه في أمثال هذه الجملة؛ لكنّ العكس أدخلُ بحسب المعنى. «منه».

٩ ط س: على ما.

١٠ ي: عليه السلام.

١١ انظر: **سنن ابن ماجة**، ٢٣٠/٥ (٤١١٠)؛ **وسنن الترمذي**، ٥٦٠/٤ (٢٣٢٠).

١٢ هم بنو هُذيل بن مُدرِكة. فولدُ هُذيل بن مدركة: سعد ولِحْيان. فولدُ طابخة: خُرَيب. فولدُ لِحيان: طابخة ودابغة، ولهم عدد. وفي هُذيل نَيِّفٌ وسبعون شاعرًا مشاهيرَ. ودِيارهم حوالَيْ مكّةَ، ولهم بها عدد وعُدّة ومنعة. انظر: **الأنساب** للبَلاذري، ٢٠٩/١١-٢٤٤؛ **وجمهرة أنساب العرب** لابن حزم، ص ١٩٦-١٩٨.

﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ عطفٌ على ﴿بَعُوضَةً﴾ على تقدير نصبها على الوجوه المذكورة،[١] و﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة صِلَتُها أو صفتُها الظرفُ، وأمّا على تقدير رفعها، فهو عطفٌ على ﴿مَا﴾ الأولى على تقدير كونها موصولةً أو موصوفةً، وأمّا على تقدير كونها استفهاميّةً، فهو عطفٌ على خبرها -أعني: ﴿بَعُوضَةً﴾- لا على نفسها كما قيل، والمعنى: ما بَعوضة فالذي فوقها أو فشيءٌ فوقها حتّى لا يُضرَبَ بها المَثَلُ؛ وكذا على تقدير كونها صفةً للنكِرة أو زائدةً، و﴿بَعُوضَةً﴾ خبرٌ للمضمَر.

وذِكرُ "البَعُوضة فما فوقها" مِن بين أفراد المثل إنّما هو بطريق التمثيل دون التعيين والتخصيص، فلا يخلّ بالشيوع؛ بل يقرّره ويؤكّده بطريق الأَوْلَويّة. والمراد بـ"الفَوْقيّة" إمّا الزيادة في المعنى الذي أريدَ بالتمثيل، أعني:[٢] الصِغَر والحقارة، وإمّا[٣] الزيادة في الحَجم والجُثّة؛ لكنْ لا بالغًا ما بلغ، بل[٤] في الجملة كالذُّباب والعَنكبوت. وعلى التقدير الأوّل يجوز أن يكون ﴿مَا﴾ الثانيةُ خاصّةً استفهاميّةً إنكاريّةً، والمعنى: إنّ الله تعالى لا يستحيي أن يضرِب مثلًا ما بعوضةً، فأيّ شيء فوقها في الصِغَر والحقارة؟ فإذن له تعالى أن يمثّل بكلِّ ما يريد. ونظيرُه في احتمال الأمرين ما رُوي أنّ رَجلًا بمِنًى خرّ على طُنُبِ فُسْطاطٍ، فقالت عائشة رضي الله عنها حين ذكر لها[٥] ذلك: سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم[٦] قال: «ما مِن مسلمٍ يُشاكُ شَوْكةً فما فوقها إلّا كُتب له بها درجةٌ ومُحِيَتْ عنه بها خطيئةٌ»،[٧] فإنّه يحتمل ما تجاوز الشوكة في القِلّة كنَخْبة النَّمْلة[٨] لقوله عليه السلام: «ما أصاب المؤمنَ مِن مكروهٍ، فهو كفّارةٌ لخطاياه،

---

[١] وفي هامش أ: هي كونها بدلًا أو عطفَ بيانٍ أو موصولًا لـ﴿يَضْرِبَ﴾. «منه».

[٢] ط: مِن.

[٣] ط س: أو.

[٤] س + هي.

[٥] ي - لها.

[٦] ي: عليه السلام.

[٧] هو مع اختلاف بالنقص والزيادة في صحيح مسلم، ١٩٩١/٤ (٢٥٧٢)؛ ومسند أحمد، ٢٥٢/٤٣-٢٥٣ (٢٦١٧٥). والألفاظ مِن أنوار التنزيل للبيضاوي، ٦٣/١. وفي صحيح البخاري، ١١٤/٧ (٥٦٤٠): «ما مِن مصيبةٍ تُصيبُ المسلمَ إلّا كفّر اللهُ بها عنه، حتّى الشَّوْكةِ يُشاكُها».

[٨] النَّخْب: العَضّ والقَرْص، يقال "نخَبَت النَّمْلةُ تنخُبُ" إذا عضّتْ. تاج العروس للزبيدي، «نخب».

حتّى نَخْبة النَّمْلة»،[١] وما تجاوزها في الألم كأمثال ما حُكي مِن الخُرور.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ شروع في تفصيل ما يترتّب على ضرب المَثل مِن الحِكَم إثرَ تحقيق حقّيّة صدوره عنه تعالى. و"الفاء" للدلالة على ترتّب ما بعدها على ما يدلّ عليه ما قبلها، كأنّه قيل: فيضربه، فأمّا الذين... إلخ. وتقديم بيان حال المؤمنين على ما حُكي[٢] مِن الكَفَرة ممّا لا يفتقر إلى بيان السبب. وفي تصدير الجملتين بـ﴿أَمَّا﴾ مِن إحماد أمر المؤمنين وذمّ الكَفَرة ما لا يخفى. وهو حرفٌ متضمِّنٌ لمعنى اسمِ الشرط، وفعلُه بمنزلة "مَهْمَا يكنْ مِن شيء"؛ ولذلك يُجاب بـ"الفاء". وفائدتُه توكيدُ ما صُدّر به وتفصيلُ ما في[٣] نفس المتكلِّم مِن الأقسام، فقد تُذكَر جميعًا، وقد يُقتصَر على واحد منها كما في قوله عزَّ مِن قائلٍ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾... إلخ [آل عمران، ٧/٣]، قال سيبويه: «"أمّا زيدٌ فذاهبٌ" معناه: مَهْمَا يكنْ مِن شيءٍ فهو ذاهبٌ لا محالةَ، وأنّه منه عزيمةٌ».[٤] وكان الأصلُ دخولَ "الفاء" على الجملة؛ لأنّها الجزاء، لكنْ كرِهوا إيلاءَها حرفَ الشرط، فأدخَلوها الخبرَ، وعُوّض المبتدأ عن الشرط لفظًا.

والمراد بالموصول فريقُ المؤمنين المعهودين، كما أنّ المراد بالموصول الآتي فريقُ الكَفَرة، لا مَن يؤمن بحقّيّة[٥] ضرْبِ[٦] المَثل ومَن يكفرُ بها[٧] لاختلال المعنى، أي: / فأمّا المؤمنون ﴿فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ كسائر ما ورَدَ منه تعالى. [٢٧و] والحقّ: هو الثابتُ الذي يحِقّ ثبوتُه لا محالةَ بحيث لا سبيلَ للعقل إلى إنكاره؛

---

١ ذكره الزمخشري في الكشّاف، ١/١١٦؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ١/٦٣. وقال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشّاف، ١/٥٨ (٣٧): «غريب جدًّا»، وابنُ حجر في الكافي الشاف، ص ٦ (٣٨): «لم أجده، وأصل الحديث دون ما في آخره مرويٌّ بطرق كثيرة»، انظر مثلًا الحديث السابق؛ وصحيح مسلم، ٤/١٩٩٢ (٢٥٧٣)؛ ومسند أحمد، ١٧/٤٤-٤٥ (١١٠٠٧).

٢ ط: يحكى.

٣ ي - في.

٤ قال سيبويه في الكتاب، ٣/١٣٧: «وسألتُه عن قولهم: "أمّا حقًّا فإنّك ذاهبٌ"، فقال: هذا جيّدٌ، وهذا الموضع مِن مواضع "إنّ"، ألَا ترى أنّك تقول: "أمّا يومَ الجمعة فإنّك ذاهبٌ" و"أمّا فيها فإنّك داخلٌ"، فإنّما جاز هذا في "أمّا"؛ لأنّ فيها معنى "يومَ الجمعة" مَهْمَا يكنْ مِن شيءٍ فإنّك ذاهبٌ». لعلّ المصنّف رحمه الله نقله مِن أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٦٣.

٥ ي - بحقّيّة.

٦ ي: بضرب.

٧ ي: به.

لا الثابتُ مطلَقًا. و"اللام" للدلالة على أنّه مشهودٌ له بالحقّيّة، وأنّ له حِكَمًا ومصالحَ. و﴿مِن﴾ لابتداء الغاية المجازيّة، وعاملُها محذوفٌ وقَعَ حالًا مِن الضمير المستكِنّ في ﴿ٱلْحَقُّ﴾، أو مِن الضمير العائد إلى "المَثَل" أو إلى ضَرْبِه، أي: كائنًا وصادرًا مِن ربّهم.

والتعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميرهم لتشريفهم، وللإيذان[1] بأنّ ضرب المَثل تربيةٌ لهم وإرشادٌ إلى ما يوصِلهم إلى كمالهم اللائق بهم. والجملة سادّةٌ مسدَّ مفعولَي ﴿يَعْلَمُونَ﴾ عند الجمهور، ومسدُّ مفعولِه الأوّل والثاني محذوفٌ عند الأخفش، أي: فيعلمون حقّيّتَه ثابتةً. ولعلّ الاكتفاءَ بحكاية علمهم المذكور عن حكاية اعترافهم بموجَبه كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران، ٣/٧] للإشعار بقوّةِ ما بينهما مِن التلازم وظهورِه المُغني عن الذِّكر.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ممّن حُكيت أقوالهم وأحوالهم ﴿فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ أُوثِرَ ﴿يَقُولُونَ﴾ على "لا يعلمون" حسبما يقتضيه ظاهرُ قرينه دلالةً على كمال غلوّهم في الكفر وترامي أمرِهم في العُتوّ، فإنّ مجرَّد عدمِ العلم بحقّيّته ليس بمثابة إنكارها والاستهزاءِ به صريحًا، وتمهيدًا لتعداد ما نُعِي عليهم في تضاعيف الجواب مِن الضلال والفِسق ونقضِ العهد وغير ذلك مِن شنائعهم المترتِّبةِ على قولهم المذكور، على أنّ عدم العلم بحقّيّته لا يعُمّ جميعَهم، فإنّ منهم مَن يعلم بها وإنّما يقول ما يقول مكابَرةً وعنادًا. وحملُه على عدم الإذعان والقبول الشاملِ للجهل والعنادِ تعسّفٌ ظاهرٌ. هذا، وقد قيل: كان مِن حقّه: "وأمّا الذين كفروا فلا يعلمون"، ليطابقَ قرينَه ويقابلَ قسيمَه؛ لكنْ لمّا كان قولُهم هذا دليلًا واضحًا على جهلهم عُدِل إليه على سبيل الكناية ليكونَ كالبرهان عليه، فتأمَّلْ وكُنْ على الحقّ المبين.

و﴿مَاذَا﴾ إمّا مؤلَّفة مِن كلمةِ استفهامٍ وقعتْ مبتدأً خبرُه "ذَا" بمعنى "الذي"، وصِلتُه ما بعده، والعائدُ محذوف، فالأحسنُ أن يجيءَ جوابُه مرفوعًا، وإمّا منزَّلة منزلةَ اسمٍ واحدٍ بمعنى "أيّ شيء"، فالأحسنُ في جوابه النصبُ.

---

[1] ط: والإيذان.

والإرادة: نزوع النفس ومَيْلُها إلى الفعل بحيث يحملها إليه، أو القوّةُ التي هي مبدؤه، والأوّل مع الفعل، والثاني قبله، وكلاهما ممّا لا يُتصوّر في حقّه تعالى؛ ولذلك اختلفوا في إرادته عزّ وجلّ، فقيل: إرادته تعالى لأفعاله كونُه غيرَ ساهٍ فيه ولا مُكرَهٍ، ولأفعال غيره أمرُه بها، فلا يكون المَعاصي بإرادته تعالى. وقيل: هي علمُه باشتمال الأمر على النظام الأكمل والوجهِ الأصلح، فإنّه يدعو القادرَ إلى تحصيله؛ والحقُّ أنّه عبارة عن ترجيح أحد طرفَي المقدور على الآخَر وتخصيصِه بوجهٍ دون وجهٍ أو معنًى يوجبه، وهي أعمُّ مِن "الاختيار"، فإنّه ترجيح مع تفضيل.

وفي كلمة ﴿هَٰذَا﴾ تحقير للمشار إليه واسترذال له. و﴿مَثَلًا﴾ نصب على التمييز أو على الحال كما في قوله تعالى: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف، ٧٣/٧؛ هود، ٦٤/١١].

وليس مرادهم بهذه العظيمة استفهامَ الحِكمة في ضرب المَثل ولا القدحَ في اشتماله على الفائدة مع اعترافهم بصدوره عنه جلّ وعلا؛[١] بل غرضُهم التنبيهُ بادّعاءِ أنّه مِن الدَّناءة والحقارة بحيث لا يَليق بأن يتعلّق به أمرٌ مِن الأمور الداخلة تحت إرادته تعالى على استحالةِ أن يكون ضرب المَثل به مِن عنده سبحانه، فقوله عزّ مِن قائلٍ: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ جوابٌ عن تلك المقالة[٢] الباطلة وردٌّ لها[٣] ببيانِ أنّه مشتمِل على حكمة جليلة وغايةٍ جميلة هي كونه ذريعةً إلى هداية المستعدِّين للهداية وإضلالِ المنهمِكِين في الغَواية؛ فوُضِعَ الفِعلان موضِعَ الفعل الواقع في الاستفهام مبالغةً في الدلالة على تحقّقهما -فإنّ إرادتهما دون وقوعهما بالفعل- وتجافيًا عن نظم الإضلال مع الهداية في سلك الإرادة لإيهامه تَساويهما في تعلّقها؛[٤] وليس كذلك، فإنّ المراد بالذات مِن ضرب المَثل هو التذكّر[٥] والاهتداءُ كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر، ٢١/٥٩] ونظائرُه، وأمّا الإضلال، فهو أمرٌ عارضٌ مترتِّبٌ على سُوء اختيارهم. وأُوثِرَ صيغة الاستقبال إيذانًا بالتجدّد والاستمرار.

---

١ ي: تعالى.
٢ س: المقاولة.
٣ س: وردّها.
٤ ط: التعلّق.
٥ ي: التذكير.

وقيل: وُضع الفِعلان موضِعَ مصدرَيهما، كأنّه قيل: أراد إضلالَ كثيرٍ وهدايةَ كثيرٍ. وقُدّم الإضلال على الهداية -مع تقدّم حال المهتدين على حال الضالّين فيما قبله- ليكونَ أوّلُ ما يقرَع أسماعَهم مِن الجواب أمرًا فظيعًا يسوءُهم ويَفُتُّ في أعضادهم،[1] وهو السرّ في تخصيص هذه الفائدة بالذِّكر. وقيل: هو بيان للجملتين المصدّرتين بـ﴿أَمَّا﴾، وتسجيلٌ بأنّ العلم بكونه حقًّا هدًى، وأنّ الجهل بوجهِ إيراده والإنكارِ بحُسن مَورده ضلالٌ وفسوقٌ.

وكثرةُ كلّ فريق إنّما هي بالنظر إلى أنفُسهم، لا بالقياس إلى مقابلِيهم، فلا يقدح في ذلك أقَلّيّةُ أهل الهدى بالنسبة إلى أهل الضلال حسبما نطق به قولُه تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ، ١٣/٣٤] ونحو ذلك.[2] واعتبارُ كثرتهم الذاتيّة دون قِلّتهم الإضافيّة لتكميل فائدة ضرب المَثل وتكثيرِها، ويجوز أن يراد في الأوّلين الكثرةُ مِن حيث العددُ، وفي الآخرِين مِن حيث الفضلُ والشرفُ كما في قول مَن قال:

إنّ الكِرام كثيرٌ في البِلاد وإن قَلُّوا كما غَيْرُهم قُلٌّ وإن كَثُروا[3]

وإسناد الإضلال -أي: خلق الضلال- إليه سبحانه مبنيٌّ على أنّ جميع الأشياء مخلوقة له تعالى، وإن كان أفعال العباد / مِن حيث الكسبُ مستنِدةً [٢٧ظ] إليهم، وجعلُه مِن قبيل إسناد الفعل إلى سببه يأباه التصريحُ بالسبب. وقُرئ: "يُضَلُّ بِهِ كَثِيرٌ وَيُهْدَى بِهِ كَثِيرٌ"[4] على البناء للمفعول. وتكرير ﴿بِهِۦ﴾ -مع جواز الاكتفاء بالأوّل- لزيادة تقرير السَّببيّة وتأكيدِها.

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ﴾ أي: بالمَثل أو بضربه ﴿إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ عطفٌ على ما قبله، وتكملةٌ للجواب والردّ، وزيادةُ تعيينٍ لمَن أريدَ إضلالُهم ببيان صفاتهم القبيحة المستتبعة له، وإشارةٌ إلى أنّ ذلك ليس إضلالًا ابتدائيًا؛ بل هو تثبيت على ما كانوا

---

١ يقال: فَتَّ فلانٌ في عَضُدِه وأعضادِه، أي: كَسَرَ مِن نِيّات أعوانه وفرَّقَهم عنه. تاج العروس للزبيدي، «عضد».

٢ ط: ونحوه.

٣ البيت لأبي تمّام في ديوانه بشرح التبريزي، ١٨٦/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. الكشّاف للزمخشري، ١١٩/١؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٠٣/١.

عليه مِن فنون الضلال وزيادةٌ فيه. وقُرئ: "وَمَا يُضَلُّ بِهِ إِلَّا الفَاسِقُونَ"[١] على البناء للمفعول.

والفِسق في اللغة: الخروج، يقال: فسَقت الرُّطَبَة عن قِشْرها والفَأْرةُ مِن جُحْرها، أي: خرجتْ. قال رُؤبة:

يَذهَبْنَ في نَجْدٍ وغَوْرًا غائرا فَوَاسِقًا عن قَصدها جوائرا[٢]

وفي الشريعة: الخروج عن طاعة الله عزّ وجلّ[٣] بارتكاب الكبيرة التي مِن جملتها الإصرارُ على الصغيرة، وله طبقاتٌ ثلاثٌ، **الأولى**: التَّغابي، وهو ارتكابها أحيانًا مستقبِحًا لها، **والثانية**: الانهماك في تَعاطيها، **والثالثة**: المثابَرة عليها مع جحود قُبْحها، وهذه الطبقة مِن مراتب الكفر، فما لم يبلُغْها الفاسقُ لا يُسلَب عنه اسمُ المؤمن لاتّصافه بالتصديق الذي عليه يدور الإيمان، ولقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾ [الحجرات، ٩/٤٩]. والمعتزلة لمّا ذهبوا إلى أنّ الإيمان عبارةٌ عن مجموع التصديق والإقرار والعمل، والكفرَ عن تكذيب الحقّ وجحوده، لم يتسَنَّ لهم إدخالُ الفاسق في أحدهما، فجعلوه قِسمًا بين قِسمَي المؤمن والكافر لمشاركته كلَّ واحد منهما في بعض أحكامه.

والمراد بـ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ ههنا العاتون الماردون في الكفر، الخارجون عن حدوده ممّن حُكي عنهم ما حُكي مِن إنكار كلام الله تعالى والاستهزاءِ به. وتخصيصُ الإضلال بهم مترتّبًا على صفة الفِسق وما أُجريَ عليهم مِن القبائح للإيذان بأنّ ذلك هو الذي أعدَّهم للإضلال وأدّى بهم إلى الضلال، فإنّ كفرهم وعُدولَهم عن الحقّ وإصرارَهم على الباطل صرَفَتْ وجوهَ أنظارهم عن التدبّر

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٦؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٠٣/١.

[٢] البيت في زيادات ديوانه، ص ١٩٢، برواية صدره:

يَهوِينَ في نَجْدٍ وغَوْرًا غائرا

وهو برواية المصنّف في الفائق للزمخشري، ١١٦/٣؛ وتفسير القرطبي، ٢٤٥/١. والقَصد: الطريق المستقيم، وغَوْرًا: عطفٌ على محلّ الجارّ والمجرور، يصفُ نوقًا يمشِينَ في المفاوز يذهبْنَ عن استقامة الطريق. فتوح الغيب للطيبي، ٤٠١/٢.

[٣] ي: تعالى.

في حكمة المَثل إلى حقارة الممثَّل، حتّى رسَخت به جهالتُهم وازدادت[١] ضلالتُهم، فأنكَروه وقالوا فيه ما قالوا.

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ﴾ صفة لـ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[٢] للذمّ وتقريرِ ما هم عليه مِن الفِسق. والنقض: فسخُ التركيب مِن المركَّبات الحِسّيّة كالحَبل والغَزل ونحوهما. واستعمالُه في إبطال العهد مِن حيث استعارةُ الحبل له لِما فيه مِن ارتباط أحد كلامَي المتعاهدَين بالآخَر، فإن شُفع بالحبل وأريدَ به العهدُ كان ترشيحًا للمجاز، وإن قُرن بالعهد كان رمزًا إلى ما هو مِن روادفه وتنبيهًا على مكانه، وأنّ المذكور قد استُعِير له كما يقال: "شجاعٌ يفترس أقرانَه"، و"عالمٌ يغترف منه الناسُ" تنبيهًا على أنّه أسدٌ في شجاعته وبحرٌ في إفاضته.

والعهد: المَوثِق، يقال: "عهِد إليه كذا" إذا وصّاه به ووثّقه عليه. والمراد ههنا إمّا العهد المأخوذ بالعقل، وهو الحُجّة القائمة على عباده الدالّةُ على وجوده تعالى[٣] ووحدته وصدقِ رسوله عليه السلام، وبه أُوّل قولُه تعالى: ﴿وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف، ١٧٢/٧]، أو المعنى الظاهرُ منه، أو المأخوذُ مِن جهة الرُّسل على الأمَم بأنّهم إذا بُعث إليهم رسولٌ مصدَّقٌ بالمعجِزات صدّقوه واتّبَعوه،[٤] ولم يكتُموا أمرَه وذِكرَه في الكُتب المتقدِّمة، ولم يخالفوا حُكمَه كما يُنبئ عنه قوله تعالى:[٥] ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران، ١٨٧/٣] ونظائرُه. وقيل: عهودُ الله تعالى ثلاثةٌ، **الأوّل**: ما أخذه على جميع ذُرّيّة آدمَ عليه السلام بأن يُقرّوا على رُبوبيّته، **والثاني**: ما أخذه على الأنبياء عليهم السلام بأن يُقيموا الدينَ ولا يتفرّقوا فيه، **والثالث**: ما أخذه على العلماء بأن يُبيّنوا الحقَّ ولا يكتُموه.

---

[١] ي: وازداد.
[٢] في الآية السابقة.
[٣] ط - تعالى.
[٤] ي: أو اتّبعوه.
[٥] ط: عزّ وجلّ.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ الميثاقُ[1] إمّا اسمٌ لِما يقع به الوَثاقة والإحكام، وإمّا مصدرٌ بمعنى التَّوْثقة كـ"المِيعاد" بمعنى الوعد، فعلى الأوّل إنْ رجع الضمير إلى "العهد" كان المراد بـ"الميثاق" ما وثّقوه به[2] مِن القَبول والالتزام، وإنْ رجع إلى لفظ الجلالة يُراد به آياته وكتبُه وإنذارُ رُسله عليهم السلام، والمضافُ محذوفٌ على الوجهين، أي: مِن بعد تحقّق ميثاقِه، وعلى الثاني إنْ رجع الضمير إلى "العهد" والميثاقُ مصدرٌ مِن المبنيّ للفاعل، فالمعنى: مِن بعد أنْ وثّقوه بالقبول والالتزام، أو مِن بعد أن وثّقه الله عزّ وجلّ بإنزال الكُتب وإنذار الرُّسل، وإن كان مصدرًا مِن المبنيّ للمفعول، فالمعنى: مِن بعد كونه مُوَثَّقًا، إمّا بتوثيقهم إيّاه بالقبول، وإمّا بتَوْثقته تعالى إيّاه بإنزال الكُتب وإنذار الرُّسل.

﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ يحتمل كلَّ قطيعة لا يرضى بها الله سبحانه كقطع الرَّحِم وموالاةِ المؤمنين والتفرقةِ بين الأنبياء عليهم السلام والكُتبِ في التصديق وتركِ الجماعات المفروضة وسائرِ ما فيه رفضُ خيرٍ أو تعاطي شرٍّ، فإنّه يقطع ما بين الله تعالى وبين العبد مِن الوصلة التي هي المقصودة بالذات مِن كلّ وصل وفصل. والأمر هو القول الطالبُ للفعل مع العُلوّ، وقيل: بالاستعلاء، وبه سُمّي الأمرُ الذي هو واحدُ الأمور تسميةً للمفعول بالمصدر، فإنّه ممّا يؤمَر به كما يقال: "له شأنٌ"، وهو القصد والطلب لِما أنّه أثرٌ للشأن، وكذا يقال له: "شيء"، وهو مصدرُ "شاء"، لِما أنّه أثرٌ للمشيئة. ومحلُّ ﴿أَن يُوصَلَ﴾ إمّا النصبُ على أنّه بدلٌ مِن الموصول، أو مِن ضميره، والثاني أَولى لفظًا / ومعنًى. ﴿وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بالمنع عن الإيمان والاستهزاءِ بالحقّ وقطعِ الوُصَل التي عليها يدور فلكُ نظام العالَم وصلاحُه. [٢٨و]

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الفاسقين باعتبار اتّصافهم بما فُصّل مِن الصفات القبيحة، وفيه إيذانٌ بأنّهم متميّزون بها أكملَ تميّزٍ ومنتظِمون بسبب ذلك في سِلك الأمور المحسوسة. وما فيه مِن معنى البُعد للدلالة على بُعد مَنزلتهم في الفساد. ﴿هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ الذين خسِروا بإهمال العقل عن النظر واقتناصِ

---

[1] ط: والميثاق.

[2] ي - به.

ما يفيدهم الحياةَ الأبديّةَ، واستبدالِ الإنكار والطعنِ في الآيات بالإيمان بها والتأمّلِ في حقائقها والاقتباسِ مِن أنوارها، واشتراءِ النقض بالوفاء والفسادِ بالصلاح والقطيعةِ[١] بالصلة والعقابِ بالثواب.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ التفات إلى خطاب المذكورين، مبنيٌّ على إيراثِ ما عُدّد مِن قبائحهم السابقة لتَزايدِ السُّخَط الموجِب للمشافهة بالتوبيخ والتقريع. والاستفهام إنكاريٌّ، لا بمعنى إنكار الوقوع كما في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦ﴾... إلخ [التوبة، ٧/٩]؛ بل بمعنى إنكار الواقع واستبعادِه والتعجيبِ منه، وفيه مِن المبالغة ما ليس في توجيه الإنكار إلى نفس الكفر بأن يقال: "أتكفرون"؛ لأنّ كلّ موجود يجب أن يكون وجودُه على حالٍ مِن الأحوال قطعًا، فإذا[٢] انتفى جميعُ أحوال وجوده، فقد انتفى وجودُه على الطريق البُرهانيّ.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ إلى آخر الآية حال مِن ضمير الخطاب في ﴿تَكْفُرُونَ﴾، مؤكِّدةٌ للإنكار والاستبعادِ بما عُدّد فيها مِن الشُّئون العظيمة الداعيةِ إلى الإيمان الرادعةِ مِن الكفر مِن حيث كونُها نعمةً عامّةً ومِن حيث دلالتُها على قدرة تامّة كقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح، ١٤/٧١]. و﴿كَيْفَ﴾ منصوبةٌ على التشبيه بالظرف[٣] عند سيبويه، وبالحال عند الأخفش، أي: في أيّ حال أو على أيّ حال تكفرون به تعالى والحالُ أنّكم كنتم أمواتًا، أي:[٤] أجسامًا لا حياةَ لها، عناصرَ وأغذيةً[٥] ونُطَفًا ومُضَغًا مخلَّقةً وغيرَ مخلَّقةٍ. والأموات جمعُ "مَيّت" كـ"أقوال" جمعُ "قَيْل"، وإطلاقُها على تلك الأجسام باعتبار عدم الحياة مطلقًا كما في قوله تعالى: ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ [الفرقان، ٤٩/٢٥؛ ق، ١١/٥٠] وقولِه تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [يس، ٣٣/٣٦].

---

١ ي: والقطعيّة.
٢ ط س: وإذا.
٣ س: بظرف.
٤ ي – أي.
٥ ط: أغذية وعناصر.

﴿فَأَحْيَٰكُمْ﴾ بنَفْخ الأرواح فيكم. و"الفاء" للدلالة على التعقيب، فإنّ الإحياء حاصلٌ إثرَ كونهم أمواتًا وإن توارد عليهم في تلك الحالة أطوارٌ مترتِّبةٌ بعضُها متراخٍ عن بعض كما أشيرَ إليه آنفًا. ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ أي: عند انقضاء آجالكم. وكونُ الإماتة مِن دلائل القدرة ظاهرٌ، وأمّا كونُها مِن النِّعم، فلكونها وسيلةً إلى الحياة الثانية التي هي الحيوان والنعمة العُظمى. والتراخي المستفادُ مِن كلمة ﴿ثُمَّ﴾ بالنسبة إلى زمان الإحياء دون[1] زمان الحياة؛ فإنّ زمان الإماتة غيرُ متراخٍ عنه. ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بالنشور يومَ يُنفَخ في الصُّور أو للسؤال في القُبور، وأيًّا ما كان، فهو متراخٍ مِن زمان الإماتة وإن كان إثرَ زمان الموت المستمرّ. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بعد الحشر لا إلى غيره، فيجازيكم بأعمالكم، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ، أو[2] إليه[3] تُنشَرون مِن قُبوركم للحساب.

وهذه الأفعال، وإن كان بعضها ماضيًا وبعضها مستقبلًا لا يتسنّى مقارنةُ شيءٍ منها لِما هو حالٌ منه في الزمان، لكنّ[4] الحالَ في الحقيقة هو العلم المتعلّق بها،[5] كأنّه قيل: كيف تكفرون بالله وأنتم عالِمون بهذه الأحوال المانعة منه. ومآلُه التعجيبُ مِن وقوعه مع تحقّق ما ينفيه. وإنّما نُظم ما يُنكرونه مِن الإحياء الأخير والرَّجْعِ في سِلك ما يعترفون به مِن الإحياء الأوّل والإماتةِ تنزيلًا لتمكّنِهم مِن العلم لِما عايَنوه مِن الدلائل القاطعة منزلةَ العلم بذلك بالفعل في إزاحة العِلَل والأعذار.

والحياة: حقيقةٌ في القوّة الحسّاسة أو ما يقتضيها، وبها سُمّي الحيوان حيوانًا، مجازٌ في القوّة النامية لكونها مِن طلائعها، وكذا فيما يخصُّ الإنسانَ مِن العقل والعلم والإيمان مِن حيث إنّه كمالُها وغايتُها. والموت بإزائها يُطلَق على ما يقابل كلَّ مرتبةٍ مِن تلك المراتب، قال الله[6] تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [الجاثية، ٤٥/٢٦]، وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾

---

١ ي - دون.

٢ ط - أو.

٣ ط: وإليه.

٤ ط س: بل.

٥ وفي هامش أ: لا نفسها، ولا ريبَ في مقارنته له. «منه».

٦ ط س - الله.

[الحديد، ١٧/٥٧]، وقال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام، ١٢٢/٦]، وعند وصفِه تعالى بها يُراد بها[1] صِحّة اتّصافه تعالى بالعلم والقدرة اللازمة لهذه القوّة فينا، أو معنًى قائمٌ بذاته تعالى مقتضٍ لذلك.

وقُرِئ: "تَرْجِعُونَ"[2] بفتح التاء، والأوّل هو الأليَقُ[3] بالمقام.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ تقرير للإنكار وتأكيد له مِن الحيثيّتين المذكورتين، غُيّر سبكُه عن سبك ما قبله مع اتّحادهما في المقصود إبانةً لِما بينهما مِن التفاوت؛ فإنّ ما يتعلّق بذواتهم مِن الإحياء والإماتةِ والحشرِ أدخلُ في الحثّ على الإيمان والكفِّ عن الكفر ممّا يتعلّق بمَعايشهم وما يجري مَجراها.[4] وفي جعل الضمير مبتدأً والموصولِ خبرًا مِن الدلالة على الجلالة ما لا يخفى.

وتقديم الظرف على المفعول الصريح لتعجيل المَسَرّة ببيان كونه نافعًا للمخاطَبين وللتشويق إليه كما سلف،[5] أي: خلَقَ لأجلكم جميعَ ما في الأرض مِن الموجودات لتنتفعوا بها في أمور دُنياكم بالذات أو بالواسطة، وأمورِ دِينكم بالاستدلال بها على شُئون الصانع تعالى شأنُه والاستشهادِ بكلّ واحد منها على ما يلائمه مِن لَذّات الآخرة وآلامِها وما يعُمّ جميعَ ما في الأرض لا نفسَها، إلّا أن يراد بها جهةُ السُّفل كما يراد بالسماء جهةُ العُلوّ. نعم، يعمُّ كلَّ جزءٍ مِن أجزائها، فإنّه مِن جملة ما فيها ضرورة وجود الجزء في الكلّ.

[٢٨ظ] و﴿جَمِيعًا﴾ / حال مِن الموصول الثاني، مؤكِّدة لِما فيه مِن العموم، فإنّ كلّ فرد مِن أفرادِ ما في الأرض، بل كلَّ جزءٍ مِن أجزاء العالَم له مدخَلٌ

---

١ ي: به.

٢ قرأ بها يعقوب مِن القُرّاء العشرة. النشر لابن الجزري، ٢٠٨/٢.

٣ ط س: اللائق.

٤ وفي هامش ط س: وأمّا الدلالة على اختصاص ما في حيّز الصلة به كما قيل،(١) فلَا. «منه». |
(١) هامش ط - به كما قيل.

٥ انظر: تفسير البقرة، ٢٢/٢.

في استمراره على ما هو عليه مِن النظام اللائق الذي عليه يدور انتظامُ مصالح الناس؛ أمّا مِن جهة المَعاش فظاهرٌ، وأمّا مِن جهة الدين فلِما أنّه ليس في العالَم شيءٌ ممّا يتعلّق به النظرُ وما لا يتعلّق به إلّا وهو دليلٌ على القادر الحكيم جلّ جلاله كما مرّ في تفسير قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة، ٢/١]، وإن لم يستدِلَّ به أحدٌ بالفعل.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: قصَدَ إليها بإرادته ومشيئته قصدًا سَوِيًّا بلا صارفٍ يَلويه ولا عاطفٍ يَثنيه مِن إرادة خلقِ شيءٍ آخَرَ في تضاعيف خلقها أو غير ذلك، مأخوذٌ مِن قولهم: "استوى إليه كالسَّهم المرسَل". وتخصيصُه بالذِّكر ههنا إمّا لعدم تحقّقه في خلق السُّفليّات لِما رُوي مِن تخلّل خلق السماوات بين خلق الأرضِ ودَحْوِها:[١] عن الحسن رحمه الله: «خلق الله تعالى الأرضَ في موضع بيت المقدِس كهيئة الفِهْر،[٢] عليها دخانٌ يلتزقُ بها، ثمّ أصعَدَ[٣] الدخانَ وخلَقَ منه السماواتِ، وأمسَكَ الفِهْرَ في موضعها، وبسَطَ منها الأرضَ، وذلك قوله تعالى: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء، ٣٠/٢١]»،[٤] وإمّا لإظهار كمال العناية بإبداع العُلويّات. وقيل: استوى: استولى وملك. والأوّل هو الظاهر.[٥]

وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ للإيذان بما فيه مِن المَزيّة والفضل على خلق السُّفليّات، لا للتراخي الزمانيّ، فإنّ تقدّمَه على خلق ما في الأرض المتأخّرِ عن دَحْوِها ممّا لا مِريةَ فيه لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات، ٣٠/٧٩]، ولِما رُوي عن الحسن رحمه الله. والمراد بـ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ إمّا الأجرام العُلويّة، فإنّ القصد إليها بالإرادة لا يستدعي سابقةَ الوجود، وإمّا جهاتُ العُلوّ.

﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ أي: أتَمَّهنّ وقوّمهنّ وخلقهنّ ابتداءً مصونةً عن العِوَج والفُطور، لا أنّه تعالى سَوّاهنّ بعد أن لم يكن كذلك. ولا يخفى ما في مقارنة "التسوية" و"الاستواء" مِن حُسن الموقع. وفيه إشارة إلى ألّا تغيُّرَ فيهنّ بالنُّمُوّ والذُّبول

---

١ ط: وجودها.

٢ الفِهْر: الحَجَر قدر ما يُكسَر به جَوْزٌ أو يُدقّ به شيءٌ، وعامّةُ العرب تؤنّثه. كتاب العين للخليل بن أحمد، ٤٥/٤ «باب الهاء والراء والفاء معهما».

٣ ط: صعد.

٤ الكشّاف للزمخشري، ١٢٤/١؛ غرائب القرآن للنيسابوري، ٢١١/١.

٥ ي: [illegible].

كما في السُّفليّات. والضمير على الوجه الأوّل[١] لـ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾، فإنّها في معنى الجنس، وقيل: هي جمعُ "سَماءةٍ"[٢] أو "سَماوةٍ"،[٣] وعلى الوجه الثاني[٤] مُبهَمٌ يفسّره قولُه تعالى: ﴿سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ كما في قولهم: "رُبّه رَجُلًا"، وهو على الوجه الأوّل بدلٌ مِن الضمير.

وتأخيرُ ذِكر هذا الصُّنع البديع عن ذكر خلقِ ما في الأرض -مع كونه أقوى منه في الدلالة على كمال القدرة القاهرة كما نُبّه عليه- لِما أنّ المَنافع المَنوطةَ بما في الأرض أكثرُ وتعلُّقَ مصالحِ الناس بذلك أظهرُ، وإن كان في إبداع العُلويّات أيضًا مِن المنافع الدينيّة والدنيويّة ما لا يُحصى. هذا ما قالوا، وسيأتي في حمٓ السجدة[٥] مزيدُ تحقيقٍ وتفصيلٍ بإذن الله تعالى.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ اعتراض تذييليّ مقرّر لِما قبله مِن خلق السماوات والأرض وما فيها على[٦] هذا النمط البديع المنطوي على الحِكَم الفائقةِ والمصالحِ اللائقة، فإنّ علمه عزّ وجلّ بجميع الأشياء ظاهرِها وباطنِها بارزِها وكامنِها وما يَليق بكلّ واحد منها يستدعي أن يخلُق كلَّ ما يخلُقه على الوجه الرائق. وقُرئ: "وَهْوَ"[٧] بسكون الهاء تشبيهًا له بـ"عَضْد".[٨]

﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾

﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ﴾ بيان لأمرٍ آخَرَ مِن جنس الأمور المتقدّمة المؤكِّدةِ للإنكار والاستبعاد، فإنّ خلقَ آدمَ عليه السلام وما خصّه به مِن الكرامات السَّنيّة المَحْكيّة مِن أجل النِّعم الداعية لذُرّيّته إلى الشكر والإيمان الناهيةِ عن الكفر والعصيان،

---

[١] وفي هامش ط س: هو كون المراد بـ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ الأجرامَ العُلويّةَ. «منه».

[٢] وفي هامش ط س: زجّاج. «منه». | اللباب لابن عادل، ٤٩٢/١.

[٣] وفي هامش ط س: أخفش. «منه». | اللباب لابن عادل، ٤٩٢/١.

[٤] وفي هامش ط س: هو كون المراد جهاتِ العُلُوّ. «منه».

[٥] يعني: سورة فصّلت، انظر: تفسير الآيات ٩-١٢.

[٦] ط: مِن.

[٧] قرأ بها أبو عمرو والكسائي ونافع في رواية قالون وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٠٩/٢.

[٨] انظر: الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢٤٥/١.

وتقريرٌ لمضمون ما قبله[١] مِن قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة، ٢٩/٢]، وتوضيحٌ لكيفيّة التصرّف والانتفاع بما فيها. وتلوين الخطاب بتوجيهه إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم[٢] خاصّةً للإيذان بأنّ فحوى الكلامِ ليس ممّا يُهتدى إليه بأدلّة العقل كالأمور المشاهَدة التي نُبّه عليها الكَفَرة بطريق الخطاب؛ بل إنّما طريقُه الوحيُ الخاصُّ به عليه السلام. وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة المُنبئة عن التبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام مِن الإنباء عن تشريفه عليه السلام ما لا يخفى.

و﴿إِذْ﴾ ظرف موضوعٌ لزمانِ نسبةٍ ماضيةٍ وقعَ فيه نسبةٌ أخرى مثلها، كما أنّ "إذا" موضوعٌ لزمانِ نسبةٍ مستقبلةٍ تقع فيه أخرى مثلها؛ ولذلك يجب إضافتُهما[٣] إلى الجُمل، وانتصابُه بمضمَرٍ صُرّح بمثله في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف، ٨٦/٧] وقولِه تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف، ٧٤/٧]. وتوجيه الأمر بالذِّكر إلى الوقت دون ما وقع فيه مِن الحوادث -مع أنّها المقصودة بالذات- للمبالغة في إيجاب ذكرها، لِما أنّ إيجاب ذكر الوقت إيجابٌ لذكرِ ما وقع فيه بالطريق البرهانيّ، ولأنّ الوقت مشتمِلٌ عليها، فإذا استُحضِر كانت حاضرةً بتفاصيلها كأنّها مشاهَدةٌ عِيانًا.

وقيل: ليس انتصابُه على المفعوليّة؛ بل على تأويل "اذكُر الحادثَ فيه" بحذف المظروف وإقامةِ الظرف مُقامَه. وأيًّا ما كان، فهو معطوف على مضمَرٍ آخرَ ينسحِب عليه الكلام، كأنّه قيل له عليه السلام غِبَّ ما أوحِيَ إليه ما خُوطِبَ به الكَفَرةُ مِن الوحي الناطق بتفاصيل الأمور السابقة الزاجرةِ عن الكفر به تعالى: ذَكِّرهم بذلك واذكُرْ لهم هذه[٤] النعمةَ ليتنبّهوا بذلك لبُطلان ما هم فيه وينتهوا عنه.

وأمّا ما قيل[٥] مِن أنّ المقدَّر هو "اشكُر النعمةَ في خلق السماوات والأرض" أو "تدبَّرْ ذلك"، فغيرُ سديدٍ ضرورةَ أنّ مقتضى الكلام تذكيرُ المخاطَبين

---

[١] ط: وتقرير لِما قبله.
[٢] ي: عليه السلام.
[٣] ي: إضافتها.
[٤] ي: [illegible].
[٥] وفي هامش أ: الفاضل التفتازاني رحمه الله. | انظر: حاشية التفتازاني على الكشّاف، ٩٧ظ.

بمواجب الشكر وتنبيههم على ما يقتضيه؛ وأين ذاك مِن مَقامه الجليل صلّى الله عليه وسلّم.[١] وقيل: انتصابه بقوله تعالى: ﴿قَالُوا﴾. ويأباه أنّه يقتضي أن يكون هو المقصودَ بالذات دون سائرِ القصّة. وقيل: بما سبق مِن قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة، ٢/٢٥]، ولا يخفى بُعْدُه، وقيل: بمضمَرٍ دلَّ عليه مضمونُ الآية المتقدّمة، / مثل: وبدأ خلقَكم إذ قال... إلى آخره، ولا ريبَ في أنّه لا فائدةَ في تقييد بَدء الخلق بذلك الوقت، وقيل: بـ"خلقَكم" أو بـ"أحياكم" مضمَرًا، وفيه ما فيه. وقيل: ﴿إِذْ﴾ زائدٌ، ويُعزَى ذلك إلى أبي عُبيد[٢] ومَعْمَر،[٣] وقيل: إنّه بمعنى "قد". [٢٩و]

و"اللام" في قوله عزّ قائلًا:[٤] ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ للتبليغ. وتقديم الجارّ والمجرور في هذا الباب مطّرِدٌ لِما في المقول مِن الطول غالبًا، مع ما فيه مِن الاهتمام بما قُدّم والتشويقِ إلى ما أُخّر كما مرّ مرارًا. والملائكة: جمعُ "مَلَكٍ" باعتبار أصله الذي هو "مَلْأَكٌ" على أنّ الهمزة مزيدةٌ، كـ"الشمائل" في جمع "شَمْأَلٍ"، و"التاءُ" لتأكيد تأنيث الجماعة. واشتقاقُه مِن "ملك" لِما فيه مِن معنى الشدّة والقوّة،

---

[١] ي: عليه السلام.

[٢] عزاه إليه ابن عادل في اللباب، ٦١٧/٧. | هو القاسم بن سلّام بن مسكين الهَرَوي، أبو عُبيد (ت. ٢٢٤هـ/٨٣٨م). مِن كِبار العلماء بالحديث والأدب والفقه. مِن أهل هراة، وُلد وتعلّمَ بها، وكان مؤدِّبًا، ورحل إلى بغداد، فولي القضاءَ بطرسوس ثماني عشرة سنة، ورحل إلى مصر وإلى بغداد، وحجّ فتُوفّي بمكّةَ. وكان منقطعًا للأمير عبد الله بن طاهر، كلّما ألّف كتابًا أهداه إليه. وكان دَيّنًا ورِعًا جوّادًا. مِن كُتبه: **الغريب المصنَّف** في غريب الحديث، ألّفَه في نحو أربعين سنةً، وهو أوّل مَن صنّف في هذا الفنّ، **وكتاب غريب الحديث، والأمثال، ومعاني القرآن، وفضائل القرآن، والناسخ والمنسوخ، والأموال**. انظر: **معجم الأدباء** للحَمَوي، ٢١٩٨/٥-٢٢٠٢؛ **وإنباه الرواة** للقِفطي، ١٢/٣-٢٣؛ **والأعلام** للزركلي، ١٧٦/٥.

[٣] قوله في كتابه **مجاز القرآن**، ٣٦/١ (البقرة، ٣٤/٢). | وهو مَعْمَر بن المثنّى التَّيمي البصري، أبو عبيدة (ت. ٢٠٩هـ/٨٢٤م [؟]). مِن أئمّة العلم بالأدب واللغة. مولده ووفاته في البصرة. قدِمَ بغدادَ في أيّام هارون الرشيد، وقرأ عليه بها أشياءَ مِن كُتبه. وروى عنه مِن البغداديّين وغيرهم عليّ ابن المغيرة الأثرم وأبو عبيد القاسم بن سلّام وأبو عثمان المازني وأبو حاتم السّجستاني. وكان يميل إلى مذهب الخوارج. له نحو مائتين مؤلّف، منها: **نقائض جرير والفرزدق، ومجاز القرآن، والعَقَقة والبَرَرة، وفتوح أرمينيّة، وأيّام العرب، وطبقات الفُرسان، والخيل، والأمثال، وتسمية أزواج النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأولاده**. انظر: **معجم الأدباء** للحَمَوي، ٢٧٠٤/٢-٢٧٠٩؛ **وإنباه الرواة** للقِفطي، ٢٧٦/٣-٢٧٨؛ **والأعلام** للزركلي، ٢٧٢/٧.

[٤] ي: تعالى.

وقيل: على أنّه مقلوبٌ مِن "مَأْلَكٍ" مِن "الألُوكة"، وهي الرسالة، أي: موضع الرسالة أو مُرسَلٌ على أنّه مصدرٌ بمعنى المفعول، فإنّهم وسائطُ بين الله تعالى وبين الناس، فهُمْ رُسُله عزّ وجلّ أو بمنزلة رُسُله عليهم السلام.

واختلف العقلاء في حقيقتهم بعد اتّفاقهم على أنّها ذوات موجودة قائمة بأنفسها، فذهب أكثر المتكلِّمين إلى[١] أنّها أجسام لطيفة قادرة على التشكّل بأشكال مختلفة، مستدِلّين بأنّ الرُّسل كانوا يرَوْنهم كذلك عليهم السلام، وذهب الحكماء إلى[٢] أنّها جواهرُ مجرَّدةٌ مخالِفةٌ للنفوس الناطقة في الحقيقيّة، وأنّها أكملُ منها قوّةً وأكثرُ علمًا تجري[٣] منها مَجرى الشمس مِن الأضواء، منقسمةٌ إلى قسمين: قِسم شأنهم الاستغراق في معرفة الحقّ والتنزّهِ عن الاشتغال بغيره كما نعَتَهم الله عزّ وجلّ[٤] بقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء، ٢٠/٢١]، وهم العِلّيّون المقرَّبون، وقسمٌ يدبِّرُ الأمرَ مِن السماء إلى الأرض حسبما جرى عليه قلمُ القضاء والقدر، وهم المدبِّراتُ أمرًا، فمنهم سماويّةٌ ومنهم أرضيّةٌ. وقالت طائفة مِن النصارى: هي النفوس الفاضلة البشريّة المفارِقة للأبدان.

ونُقل في شرح كَثْرتهم أنّه عليه السلام قال: «أَطَّتِ السماءُ وحُقَّ لها أن تَئِطَّ، ما[٥] فيها مَوضِعُ قَدَمٍ[٦] إلّا وفيه مَلَكٌ ساجدٌ أو راكعٌ».[٧] ورُوي أنّ بني آدمَ عُشْرُ الجنّ، وهما عُشْر حيوانات البَرّ، والكلُّ عُشر الطيور، والكلُّ عُشر حيوانات البِحار، وهؤلاء كلُّهم عُشر ملائكةِ الأرض الموكَّلين، وهؤلاء كلُّهم عُشر ملائكة السماء[٨] الدنيا، وكلُّ هؤلاء عُشر ملائكةِ السماء الثانية، وهكذا إلى السماء السابعة، ثمّ كلُّ أولئك في مقابَلة ملائكةِ الكُرسيّ نَزْرٌ قليلٌ، ثمّ جميعُ هؤلاء عُشر ملائكةِ سُرادِقٍ واحدٍ مِن سُرادقات العرش التي عَدَدُها ستُّمائةِ ألفٍ،

---

١ ي: على.
٢ ي: على.
٣ ي: يجري.
٤ س: تعالى.
٥ وفي هامش أ: نفي.
٦ ي: القدم.
٧ حلية الأولياء للأصفهاني، ٢٦٩/٦؛ اللباب لابن عادل، ٤٩٨/١. ونحوه في مسند أحمد، ٤٠٥/٣٥ (٢١٥١٦)؛ وسنن ابن ماجة، ٢٨٣/٥ (٤١٩٠)؛ وسنن الترمذي، ٥٥٦/٤ (٢٣١٢).
٨ ي: سماء.

طولُ كلِّ سُرادِقٍ[١] وعَرْضُه وسَمْكُه إذا قُوبِلَت به السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما لا يكون لها عنده قَدْر محسوس، وما[٢] منه مِن مقدار شبْرٍ إلّا وفيه ملك ساجد أو راكع أو قائم، لهم زَجَلٌ[٣] بالتسبيح والتقديس، ثمّ كلُّ هؤلاء في مقابلة الملائكة الذين يحُومون حولَ العرش كالقَطْرة في البحر، ثمّ ملائكة اللوح الذين هم أشياعُ إسرافيلَ عليه السلام والملائكةُ الذين هم جنودُ جبريلَ عليه السلام لا يُحصِي أجناسَهم ولا مُدّةَ أعمارهم ولا كيفيّاتِ عباداتهم إلّا بارئُهم العليمُ الخبيرُ على ما قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر، ٣١/٧٤].[٤]

ورُوي أنّه عليه السلام حين عُرج به إلى السماء رأى ملائكةً في موضع بمنزلةِ شرفٍ يمشي بعضهم تجاهَ بعض، فسأل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم[٥] جبريلَ عليه السلام: «إلى أين يذهبون؟»، فقال جبريل عليه السلام: «لا أدري إلّا أنّي أراهم منذ خُلِقتُ، ولا أرى واحدًا منهم قد رأيتُه قبل ذلك»، ثمّ سألَا[٦] واحدًا منهم: «منذ كم خُلقتَ؟»، فقال: «لا أدري غيرَ أنّ الله عزّ وجلّ يخلق في كلّ أربعمائةِ ألفِ سنةٍ كوكبًا، وقد خلَقَ منذ خلقني أربعَمائةِ ألفِ كوكبٍ، فسبحانه[٧] مِن إلهٍ، ما أعظمَ قدرَه وما أوسعَ مَلَكُوتَه».[٨]

واختُلِف في الملائكة الذين قِيل لهم ما قيل، فقيل:[٩] هم ملائكة الأرض، ورَوى الضحّاك[١٠] عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّهم المختارون مع إبليسَ

---

[١] ي + واحد مِن سُرادقات العرش التي عَدَدُها ستُّمائةِ ألفٍ.
[٢] وفي هامش أ: نفي.
[٣] الزَّجَل: الصوت. **مختار الصحاح** للرازي، «زجل».
[٤] **تفسير الرازي**، ٣٨٥/٢؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٩٨/١.
[٥] ي: عليه السلام.
[٦] ط: سألوا.
[٧] ي: فسبحان.
[٨] ذكره الرازي تفسيره، ٣٨٦/٢؛ وابن عادل في **اللباب**، ٤٩٨/١، وقالا إنّه في بعض كُتب التذكير.
[٩] ي: وقيل.
[١٠] هو الضحّاك بن مُزاحِم الهلالي الخراساني البلخي، أبو القاسم (ت. ١٠٥هـ/٧٢٣م). مفسّر محدّث نحويّ. كان يؤدّب الأطفالَ، فيقال: كان في مدرسته ثلاثة آلاف صبيّ، وكان يطوف عليهم على حمار. صدوق، كثير الإرسال. أخذ عن سعيد بن جبير التفسيرَ، وله كتاب في التفسير، رواه عنه عبيد بن سليمان. تُوفّي بخراسان. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٣٠٠/٦-٣٠٣؛ و**معجم الأدباء** للحَمَوي، ١٤٥٢/٤-١٤٥٣؛ و**طبقات المفسّرين** للداوودي، ٢٢٢/١.

حين بعَثَه الله عزّ وعلَا[١] لمحاربة الجنّ، حيث كانوا سُكّانَ الأرض، فأفسَدوا فيها وسفَكوا الدِّماءَ فقتلوهم إلّا قليلًا، قد أخرجوهم مِن الأرض وألحَقوهم بجزائر البِحار وقُلَلِ[٢] الجبال، وسكنوا الأرضَ، وخفَّفَ الله تعالى عنهم العبادةَ، وأعطى إبليسَ مُلكَ الأرض ومُلكَ السماءِ[٣] الدنيا وخِزانةَ الجنّة، فكان يعبُد الله تعالى[٤] تارةً في الأرض وتارةً في السماء وأخرى في الجنّة، فأخذه العُجْب، فكان مِن أمره ما كان،[٥] وقال أكثرُ الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم: إنّهم كلُّ الملائكة،[٦] لعموم اللفظ وعدمِ المخصِّص.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ في حيّز النصب على أنّه مقولُ ﴿قَالَ﴾. وصيغة الفاعل بمعنى المستقبل؛ ولذلك عمِلتْ عملَه، وفيها ما ليس في صيغة المضارع مِن الدلالة على أنّه فاعلٌ ذلك لا محالةَ. وهي مِن "الجَعْل" بمعنى التصيير المتعدِّي إلى مفعولَين. فقيل: أوّلُهما ﴿خَلِيفَةً﴾، وثانيهما الظرفُ المقدَّمُ[٧] على ما هو مقتضى الصِّناعة، فإنّ مفعولَي التصيير في الحقيقة اسمُ "صارَ" وخبرُه، أوّلُهما الأوّل، وثانيهما الثاني، وهما مبتدأٌ وخبرٌ، والأصل "في الأرض خليفةٌ"، ثمّ قيل: "صارَ في الأرض خليفةٌ"، ثمّ "مُصيِّرٌ في الأرض خليفةً".[٨] فمعناه بعد اللّتيّا والتي:[٩] إنّي جاعلٌ خليفةً مِن الخلائف أو خليفةً بعينه كائنًا في الأرض، فإنّ خبر "صار" في الحقيقة هو الكون المقدَّر العاملُ في الظرف.

ولا ريبَ في أنّ ذلك ليس ممّا يقتضيه المقامُ أصلًا، وإنّما الذي يقتضيه هو الإخبار بجعل آدمَ خليفةً فيها كما يُعرب عنه جوابُ الملائكة عليهم السلام.[١٠]

---

١ ي: تعالى.

٢ القُلَل: جمعُ "القُلّة"، وهي أعلى الجبل. وقُلّة كلّ شيء: أعلاه. الصحاح للجوهري، «قلل».

٣ ي: سماء.

٤ ط س - تعالى.

٥ انظر: جامع البيان للطبري، ١/٤٧٧-٤٧٨؛ وتفسير الرازي، ٢/٣٨٨؛ واللباب لابن عادل، ١/٤٩٩.

٦ تفسير الرازي، ٢/٣٨٨.

٧ وفي هامش ط أ: وتقديمه ههنا واجبٌ؛ لأنّهما لو انحلّا إلى مبتدإ وخبرٍ وجب تقديم الخبر لكونه جارًا ومجرورًا والمبتدأ نكِرة، لا مسوِّغَ لغير ذلك. مِن اللباب. «منه». | انظر: اللباب لابن عادل، ٦/٢٤٣. | وفي هامش أ زِيد: نُقل مِن خطّ المؤلّف أيضًا.

٨ ي - خليفة.

٩ وفي هامش ط ي: إشارة إلى صعوبة المأخذ لِما تقرّرَ مِن أنّ شرط المفعولَين في باب النواسخ صحّةُ انعقاد الجملة الاسميّة، ومدارُها كون المبتدأ معرّفًا أو موصوفًا. «منه».

١٠ ي - عليهم السلام.

فإذنْ قولُه تعالى: ﴿خَلِيفَةً﴾ مفعولٌ ثانٍ، والظرفُ متعلِّقٌ بـ﴿جَاعِلٌ﴾، قُدِّم على المفعول الصريح لِما مرّ مِن التشويق إلى ما أُخّر، أو بمحذوفٍ وقع حالًا ممّا بعده لكونه نكِرةً، وأمّا المفعول الأوّل فمحذوفٌ تعويلًا على القرينة الدالّة عليه كما في قوله عزّ وجلّ:[١] ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء، ٤/٥]، حُذف فيه المفعول الأوّلُ -وهو ضميرُ الأموال- لدلالة الحال عليه، وكذا في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [آل عمران، ٣/١٨٠]، حيث حُذف فيه المفعول الأوّلُ لدلالة ﴿يَبْخَلُونَ﴾ عليه، / أي: لا يحسبنَّ البُخَلاء بُخْلهم هو خيرًا لهم. [٢٩ظ]

ولا ريبَ في تحقّق القرينة ههنا؛ أمّا إن حُمل على الحذف عند وقوع المَحكيّ، فهي واضحة لوقوعه في أثناء ذكره عليه السلام على ما سنفصّله، كأنّه قيل: إنّي خالقٌ بشرًا مِن طينٍ وجاعلٌ في الأرض خليفةً، وأمّا إن حُمل على أنّه لم يُحذَف هناك؛ بل قيل مَثلًا: وجاعل إيّاه خليفةً في الأرض، لكنّه حُذف عند الحكاية، فالقرينةُ ما ذُكر مِن جواب الملائكة عليهم السلام.[٢]

قال العلّامة الزمخشري[٣] في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ[٤] قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص، ٣٨/٧١]: «إن قلتَ: كيف صحَّ أن يقول لهم: ﴿بَشَرًا﴾ وما عرَفوا ما البَشر ولا عهِدوا به؟ قلتُ: وجهُه أن يكون قد قال لهم: إنّي خالقٌ خلقًا مِن صفته كيتَ وكيتَ، ولكنّه حين حكاه اقتصَرَ على الاسم» انتهى.[٥]

---

[١] ي: تعالى.

[٢] ط س - عليهم السلام.

[٣] هو محمود بن عمر بن محمّد الزمخشري، جار الله أبو القاسم (ت. ٥٣٨هـ/١١٤٤م). مِن أئمّة العِلم بالتفسير واللغة والآداب. وُلد في زمخشر مِن قُرى خوارزم، وسافر إلى مكّة، فجاور بها زمنًا، فلُقّب بجار الله، وتنقّلَ في البُلدان، ثمّ عاد إلى الجرجانيّة مِن قُرى خوارزم، فتُوفّي فيها. كان مقطوعَ الرِّجل، قد جعل له رِجلًا مِن خشَبٍ يستعين بها في المَشْي. وكان واسعَ العلم، كثيرَ الفضل، غايةً في الذكاء وجودة القريحة، متفنِّنًا في كلّ علم، معتزليًّا قويًّا في مذهبه، مجاهِرًا به، داعيةً إليه، حنفيًّا. أشهر كُتبه: الكشّاف، وأساس البلاغة، والفائق في غريب الحديث، والمفصَّل في صنعة الإعراب، والمقامات، والمستقصى في أمثال العرب، ونوابغ الكَلِم، وربيع الأبرار، وديوان شعر. انظر: معجم الأدباء للحَمَوي، ٢/٢٦٨٧-٢٦٩١؛ وإنباه الرواة للقِفطي، ٣/٢٦٥-٢٧٣؛ وطبقات المفسّرين للداوودي، ٢/٣١٤-٣١٦.

[٤] ط س ي: وإذ.

[٥] الكشّاف للزمخشري، ٤/١٠٥.

فحيث جاز الاكتفاءُ عند الحكاية عن ذلك التفصيل بمجرَّد الاسم مِن غير قرينةٍ تدلّ عليه، فما ظنُّك بما نحن فيه ومعه قرينةٌ ظاهرةٌ.

ويجوز أن يكون مِن "الجَعْل" بمعنى "الخَلْق" المتعدِّي إلى مفعول واحد، هو: ﴿خَلِيفَةً﴾، وحالُ الظرف في التعلّق والتقديم كما مرّ، فحينئذ لا يكون ما سيأتي مِن كلام الملائكة مترتِّبًا عليه بالذات؛ بل بالواسطة، فإنّه رُوي أنّه تعالى لمّا قال لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، قالوا: «ربَّنا وما يكون ذلك الخليفة؟»، قال تعالى: «يكون له ذُرِّيّةٌ يُفسدون في الأرض ويتحاسَدون ويقتُلُ بعضُهم بعضًا»، فعند ذلك قالوا ما قالوا،[1] والله تعالى أعلَمُ.

والخليفة: مَن يخلُفُ غيرَه وينُوب مَنابَه، "فَعِيلٌ" بمعنى "الفاعل"، و"التاء" للمبالغة، والمراد به إمّا آدمُ[2] وبَنُوه، وإنّما اقتُصِر عليه استغناءً بذِكره عن ذكرهم كما يُستغنى عن ذكر القبيلة بذكر أبيها كـ"مُضَرَ" و"هاشمٍ"، ومنه: «الخِلافة في قريشٍ»،[3] وإمّا مَن يخلُف أو خَلَفَ يخلُف، فيعمُّه عليه السلام وغيرَه مِن خلفاء ذُرّيّته. والمراد بـ"الخلافة" إمّا الخلافة مِن جهته سبحانه في إجراء أحكامه وتنفيذ أوامره بين الناس وسياسةِ الخلق، لكنْ لا لحاجةٍ به تعالى إلى ذلك؛ بل لقصور استعداد المستخلَفِ عليهم وعدمِ لِياقتِهم بقبول[4] الفيض بالذات، فتختصُّ[5] بالخواصّ مِن بَنيه، وإمّا الخلافة ممّن كان في الأرض قبل ذلك، فتعمُّ حينئذ الجميعَ.

﴿قَالُوٓاْ﴾ استئناف وقَعَ جوابًا عمّا ينساق إليه الأذهان، كأنّه قيل: فماذا قالت الملائكة حينئذ؟ فقيل: قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾، وهو أيضًا مِن "الجَعْل" المتعدِّي إلى اثنين، فقيل فيهما ما قيل في الأوّل، والظاهرُ أنّ الأوّل كلمة ﴿مَن﴾، والثاني محذوف ثقةً بما ذُكر في الكلام السابق، كما حُذف الأوّل ثمّةَ تعويلًا على ما ذُكر هنا. قال قائلهم:

---

[1] جامع البيان للطبري، ١/٤٧٩-٤٨٠؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١/١١٧٥؛ اللباب لابن عادل، ١/٥٠٦.

[2] ي: آدام.

[3] إشارة إلى الحديث المرفوع الذي أخرجه أحمد في مسنده، ٢٩/٢٠٠ (١٧٦٥٤)، وبنحوه البخاري في صحيحه، ٤/١٧٨ (٣٤٩٥)؛ ومسلم في صحيحه، ٣/١٤٥١ (١٨١٨).

[4] ي: لقبول.

[5] ط: فيختصّ.

لا تَـخَـلْـنَـا عـلـى غـرائِـك إنّـا طـالَـمَـا قـد وَشَـى بـنـا الأعـداءُ[١]

بحذف المفعول الثاني، أي: لا تَخَلْنا جازعين على[٢] غرائك. والمعنى: أتَجعل فيها مَن يُفسد فيها خليفةً؟ والظرف الأوّل متعلِّق بـ﴿تَجْعَلُ﴾، وتقديمه لِما مرّ مرارًا، والثاني بـ﴿يُفْسِدُ﴾، وفائدته تأكيد الاستبعاد لِما أنّ في استخلاف المفسِد في محلّ إفساده مِن البُعد ما ليس في استخلافه في غيره.

هذا، وقد جُوّز كونه مِن "الجَعْل" بمعنى "الخَلْق" المتعدِّي إلى مفعولٍ واحدٍ، هو: كلمة ﴿مَنْ﴾. وأنت خبيرٌ بأنّ مدار تعجّبِهم ليس خلقَ مَن يُفسد في الأرض؛ كيف لا،[٣] وإنّ ما يعقُبه مِن الجملة الحاليّة الناطقةِ بدعوى أحَقِّيَتِهم منه يقضي ببُطلانه حتمًا؛ إذ لا صحّةَ لدعوى الأحَقِّيّة منه بالخلق وهم مخلوقون؛ بل مدارُه أن يُستخلف لعِمارة الأرض وإصلاحِها بإجراء أحكام الله تعالى وأوامرِه أو يُستخلفَ مكانَ المطبوعِين على الطاعة مَن[٤] مِن[٥] شأنِ بني نوعِه الإفسادُ وسَفْكُ الدِّماء؛ وهو عليه السلام، وإن كان منزَّهًا عن ذلك، إلّا أنّ استخلافه مستتبِعٌ لاستخلاف ذُرّيّته التي لا تخلو عنه غالبًا.

وإنّما أظهَروا تعجُّبَهم استكشافًا عمّا خفِيَ عليهم مِن الحِكَم التي بذّت على تلك المَفاسد وألغَتْها، واستخبارًا عمّا يُزيح شُبهتَهم ويُرشدهم إلى معرفةِ ما فيه عليه السلام مِن الفضائل التي جعلتْه أهلًا لذلك، كسؤال المتعلِّم عمّا ينقدِحُ في ذهنه، لا اعتراضًا على فعل الله سبحانه، ولا شكًّا في اشتماله على الحِكمة والمَصلحة إجمالًا، ولا طَعْنًا فيه عليه السلام ولا في ذُرّيّته على وجه الغَيْبة، فإنّ منصِبهم أجلُّ مِن أن يُظَنَّ بهم أمثال ذلك، قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۞ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء، ٢١/٢٦-٢٧]. وإنّما عَرَفوا ما قالوا إمّا بإخبارٍ مِن الله تعالى حسبما نُقل مِن قبلُ، أو بتَلَقٍّ مِن اللوح،

---

[١] البيت مِن معلّقة الحارث بن حلِّزة اليَشْكُري، وهو في ديوانه، ص ٦٨، وفي مطبوعه: "غَراتِك" بدلَ "غَرائِك"، و"قبلُ" بدلَ "طالما". وهو مرويّ أيضًا بما رواه المصنّف في خِزانة الأدب للبغدادي، ١٣٨/٩.

[٢] ي – على.

[٣] ي – لا.

[٤] ي – مَن.

[٥] ي: ممَن.

أو باستنباطٍ عمّا ارتكز في عقولهم مِن اختصاص العِصمة بهم، أو بقياسٍ لأحد الثَّقَلين[١] على الآخَر.

﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ السَّفك والسَّفح والسَّكْب والسَّبْك أنواعٌ مِن الصَّبّ، والأوّلان مختصّان بالدم؛ بل لا يُستعمل أوّلهما إلّا في الدم المحرَّم، أي: يقتل النفوسَ المحرَّمةَ بغير حقّ. والتعبيرُ عنه بـ"سَفْك الدِّماء" لِما أنّه أقبحُ أنواعِ القتل وأفظعُه. وقُرئ: "يَسْفُكُ"[٢] بضمّ الفاء، و"يُسْفِكُ"[٣] و"يُسَفِّكُ"[٤] مِن "أسفَكَ" و"سفَّكَ"، وقُرئ: "يُسْفَكُ"[٥] على البناء للمفعول. وحُذف الراجع إلى ﴿مَنْ﴾ موصولةً أو موصوفةً، أي: يسفِكُ الدِّماءَ فيهم.

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ جملة حاليّة مقرِّرة للتعجّب السابق ومؤكِّدةٌ له على طريقة قولِ مَن يجِدُّ في خِدمة مولاه وهو يأمر بها غيرَه: أتستخدمُ العُصاةَ وأنا مجتهِدٌ فيها؟ كأنّه قيل: أتستخلفُ مَن مِن شأن ذُرّيّته الفسادُ مع وجود مَن ليس مِن شأنه ذلك أصلًا؟ والمقصود عرضُ أحَقّيّتهم منه بالخلافة واستفسارٌ عمّا رجّحهم عليهم مع ما هو متوقَّعٌ منهم مِن[٦] الموانع، لا العُجْبُ والتفاخرُ، فكأنّهم شعَروا بما فيهم مِن القوّة الشَّهَويّة التي رذيلتُها الإفراطيّةُ الفسادُ في الأرض والقوّةِ الغَضَبيّةِ التي رذيلتُها الإفراطيّةُ سَفْكُ الدِّماء، فقالوا ما قالوا وذهلوا عمّا إذا سخَّرَتْهما القوّةُ العقليّةُ ومرَّنَتْهما على الخير يحصُلُ بذلك مِن عُلوّ الدرجةِ ما يقصر عن بلوغ رُتبته[٧] القوّةَ العقليّةَ عند انفرادها في أفاعيلها، كالإحاطة بتفاصيل أحوال الجُزئيّات واستنباطِ الصناعات واستخراجِ / منافع [٣٠و] الكائنات مِن القوّة إلى الفعل وغير ذلك ممّا نِيطَ به أمرُ الخلافة.

---

١ أي: الإنس والجنّ.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عَبلة وابن قطيب وأبي حياة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٥٧.

٣ قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري في **الكشّاف**، ١/١٢٥؛ وأبو حيّان في **البحر المحيط**، ١/٢٢٩، ولم ينسباها إلى أحد.

٤ قراءة شاذّة، رواها الأنطاكي عن أبي جعفر كما في **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٥٧، ولم يوردها ابنُ الجزري في **النشر**. وهي في **الكشّاف** للزمخشري، ١/١٢٥؛ و**البحر المحيط** لأبي حيّان، ١/٢٢٩، بلا نسبة.

٥ لم نجده فيما وقفنا عليه مِن كتب القراءات والتفسير. قرأ أبو حاتم شاذّةً: "وَتُسْفَكُ الدِّمَاءُ" كما في **شواذّ القراءات** للكرماني، ٥٧.

٦ ي- مِن.

٧ كذا في الأصول الخطّيّة، وفي مطبوعاته: رتبة.

والتسبيح: تنزيه الله تعالى وتبعيده اعتقادًا وقولًا وعمَلًا عمّا لا يَليق بجَنابه سبحانه، مِن "سبَحَ في الأرض والماءِ" إذا أبعَدَ فيهما وأمعَنَ، ومنه "فرَسٌ سَبُوحٌ"، أي: واسعُ الجَرْي؛ وكذلك تقديسُه تعالى مِن "قدَسَ في الأرض" إذا ذهب فيها وأبعَدَ، ويقال: "قدَّسَه"، أي: طهَّره، فإنّ مُطهِّر الشيءِ مُبعدُه عن الأقذار. و"الباء" في ﴿بِحَمْدِكَ﴾ متعلِّقة بمحذوف وقع حالًا مِن الضمير، أي: ننزِّهُك عن كلِّ ما لا يَليق بشأنك ملتبِسين بحمدك على ما أنعمتَ به علينا مِن فنون النِّعم التي مِن جملتها توفيقُنا لهذه العبادة، فـ"التسبيح" لإظهار صفات الجلال، و"الحمد" لتذكير صفات الإنعام.

و"اللام" في ﴿لَكَ﴾ إمّا مزيدةٌ، والمعنى: نقدِّسك، وإمّا صلةٌ للفعل كما في "سجدتُ لله"، وإمّا للبيان كما في "سُقْيًا لك"، فيكون متعلِّقةً بمحذوف، أي: نقدِّس تقديسًا لك، أي: نصِفُك بما يليق بك مِن العلوّ والعزّةِ وننزِّهُك عمّا لا يليق بك. وقيل: المعنى: نطهِّر نفوسنا عن الذنوب لأجلك، كأنّهم قابَلوا الفسادَ الذي أعظَمُه الإشراكُ بالتسبيح وسَفْكَ الدِّماء الذي هو تلويث النفس بأقبح الجرائم بتطهير النفس عن الآثام، لا تمدُّحًا بذلك، ولا إظهارًا للمِنّة؛ بل بيانًا للواقع.

﴿قَالَ﴾ استئناف كما سبق. ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ليس المراد به بيانَ[١] أنّه تعالى يعلم ما لا يعلمونه مِن الأشياء كائنًا ما كان، فإنّ ذلك ممّا لا شُبهةَ لهم فيه حتّى يفتقِروا إلى التنبيه عليه لاسيّما بطريق التوكيد؛ بل بيانُ أنّ فيه عليه السلام معانِيَ مستدعيةً لاستخلافه، إذ هو الذي خفِيَ عليهم وبنَوْا عليه ما بنَوْا مِن التعجّب والاستبعاد. فـ﴿مَا﴾ موصولةً كانت أو موصوفةً عبارةٌ عن تلك المعاني، والمعنى: إنّي أعلم ما لا تعلمونه مِن دواعي الخلافة فيه. وإنّما لم يُقتصَر على بيان تحقّقها فيه عليه السلام -بأن قيل مثلًا: إنّ فيه ما يقتضيه، مِن غير تعرّضٍ لإحاطته تعالى به وغفلتِهم عنه- تفخيمًا لشأنه وإيذانًا بابتناء أمره تعالى على العلم الرصين والحكمةِ المُتقَنة وصدورِ قولهم عن الغفلة.

---

[١] ي - بيان.

وقيل: معناه: إنّي أعلم مِن المصالح في استخلافه ما هو خفيٌّ عليكم، وإنّ هذا إرشاد للملائكة إلى العلم بأنّ أفعاله تعالى كلَّها حَسَنةٌ وحِكمةٌ، وإن خفِيَ عليهم وجه الحُسن والحكمة. وأنت خبيرٌ بأنّه مشعِرٌ بكونهم غيرَ عالِمين بذلك مِن قبلُ، ويكون تعجّبهم مبنيًّا على تردّدهم في اشتمال هذا الفعل لحكمةٍ ما، وذلك ممّا لا يليق بشأنهم، فإنّهم عالمون بأنّ ذلك متضمِّنٌ لحكمةٍ ما، ولكنّهم متردِّدون في أنّها ماذا؟ هل هو أمرٌ راجعٌ إلى مَحض حُكم الله عزّ وجلّ أو إلى فضيلةٍ مِن جهة المستخلَف؟ فبيَّنَ سبحانه وتعالى لهم أوّلًا على وجه الإجمال والإبهام أنّ فيه فضائلَ غائبةً عنهم ليستشرفوا[1] إليها، ثمّ أبرزَ لهم طرفًا منها ليعاينوه جهرةً ويظهَرَ لهم بديعُ صُنعه وحكمتِه وينزاحَ شبهتُهم بالكلّيّة.

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ شروع في تفصيل ما جرى بعد الجواب الإجماليّ تحقيقًا لمضمونه وتفسيرًا لإبهامه. وهو عطفٌ على ﴿قَالَ﴾.[2] والابتداء بحكاية التعليم يدلّ بظاهره على أنّ ما مرَّ مِن المقاولة المحكيّة إنّما جرَت بعد خلقه عليه السلام بمحضَرٍ منه، وهو الأنسبُ بوقوف الملائكة على أحواله عليه السلام بأن قيل إثر نفخِ الروح فيه: "إنّي جاعلٌ إيّاه خليفةً"، فقيل ما قيل كما أشيرَ إليه.

وإيراده عليه السلام باسمه العَلَميّ لزيادة تعيين المراد بـ"الخليفة"، ولأنّ ذِكره بعنوان الخلافة لا يلائم مقامَ تمهيد مباديها. وهو اسمٌ أعجميٌّ، والأقربُ أنّ وَزْنه "فاعَل"، كـ"شالَخ" و"عاذَر" و"عابَر" و"فالَغ"،[3] لا "أفعل". والتصدّي لاشتقاقه مِن "الأُدمة"، أو[4] "الأَدَمة"[5] بالفتح بمعنى الأسوة، أو مِن "أديم الأرض" بناءً على ما رُوي عنه صلّى الله عليه وسلّم[6] مِن أنّه تعالى قبض قبضةً مِن جميع الأرض

---

[1] ي: لتستشرفوا. | وفي هامش ي: أي: ناظرين أو متوجِّهين إليها. «منه».

[2] في الآية السابقة.

[3] ط: وفالع.

[4] ي – أو.

[5] ي: والأدمة.

[6] ي: عليه السلام.

سَهْلِها وحَزْنِها،[١] فخلق منها آدم؛ ولذلك اختلفت ألوانُ ذُرِّيّته،[٢] أو مِن "الأُدْم" و"الأُدْمة" بمعنى الألفة تعسّفٌ[٣] كاشتقاق "إدريسَ" مِن "الدَّرْس"، و"يعقوبَ" مِن "العَقِب"، و"إبليسَ" مِن "الإبلاس".

و"الاسم" باعتبار الاشتقاق: ما يكون علامةً للشيء ودليلًا يرفعُه إلى الذهن مِن الألفاظ والصفات والأفعال. واستعمالُه عُرْفًا في اللفظ الموضوع لمعنًى، مفردًا كان أو مركَّبًا، مُخبَرًا عنه أو خبرًا أو رابطةً بينهما، واصطلاحًا في المفرَد الدالِّ على معنًى في نفسه غيرِ مقترِنٍ بالزمان. والمرادُ ههنا إمّا الأوّل، أو الثاني، وهو مستلزمٌ للأوّل؛ إذ العِلم بالألفاظ مِن حيث الدلالةُ على المعاني مسبوقٌ بالعِلم بها.

والتعليم حقيقةً: عبارةٌ عن فعلٍ يترتّب عليه العِلمُ بلا تخلّف عنه، ولا يحصل ذلك بمجرَّد إفاضة المعلِّم؛ بل يتوقّف على استعداد المتعلِّم لقبول الفيض وتلقّيه مِن جهته كما مرّ في تفسير "الهدى"،[٤] وهو السرُّ في إيثاره على "الإعلام" و"الإنباء"؛ فإنّهما إنّما[٥] يتوقّفان على سَماع الخبر الذي يشترك فيه البَشر والمَلك، وبه يظهر أحَقّيّتُه بالخلافة منهم عليهم السلام لِما أنّ جِبِلّتهم غيرُ مستعدّةٍ للإحاطة بتفاصيل أحوال الجزئيّات الجُسمانيّة خُبْرًا؛ فمعنى تعليمِه تعالى إيّاه أن يخلق فيه إذ ذاك بموجَب استعداده عِلمًا ضروريًّا تفصيليًّا بأسماء جميع المسمَّيات وأحوالِها وخواصِّها اللائقةِ بكلٍّ منها، أو يُلقِيَ في روعه تفصيلًا أنّ هذا فرسٌ وشأنُه كَيْت وكَيْت، وذاك بعيرٌ وحالُه ذَيْت وذَيْت، إلى غير ذلك مِن أحوال الموجودات، فيتلقّاها عليه السلام[٦] حسبما يقتضيه استعدادُه ويستدعيه قابليّته المتفرِّعةُ على فطرته المُنطوية على طبائعَ متباينةٍ وقوى متخالفةٍ وعناصرَ متغايرةٍ.

---

١ الحَزْن: ما غلُظ مِن الأرض. الصحاح للجوهري، «حزن».

٢ انظر: مسند أحمد، ٣٥٣/٣٢ (١٩٥٨٢)؛ وسنن أبي داود، ٧٨/٧ (٤٦٩٣)؛ وسنن الترمذي، ٢٠٤/٥ (٢٩٥٥).

٣ السياق: والتصدّي لاشتقاقه... تعسّف...

٤ انظر: تفسير البقرة، ٢/٢.

٥ س – إنّما.

٦ ط – عليه السلام.

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما وعكرمةُ[1] وقتادةُ ومجاهدٌ[2] وابنُ جُبيرٍ رحمهم الله: «علّمه أسماءَ جميع الأشياء، حتّى القَصْعة والقُصَيعة، وحتّى الجَفْنة والمِحلَب، وأنحى منفعةَ كلّ شيء / إلى جنسه».[3] وقيل: أسماءَ ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة. وقيل:[4] معنى قوله تعالى ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ﴾: خلَقَه مِن أجزاء مختلفة وقوى متباينةٍ مستعدًّا لإدراك أنواع المدرَكات مِن المعقولات والمحسوسات والمتخيَّلات والموهومات، وألهَمَه معرفةَ ذَوات الأشياء وأسمائها وخواصّها ومعارفها وأصول العلم وقوانين الصِّناعات وتفاصيل آلاتها وكيفيّاتِ استعمالاتها، فيكونُ ما مرَّ مِن المقاولة قبل خَلْقه عليه السلام. وقيل: التعليم على ظاهره؛ ولكن هناك جُمَلًا مطويّةً عُطف عليها المذكور، أي: فخلقه، فسوّاه، ونفخ فيه الروحَ، وعلّمه... إلخ. [٣٠ظ]

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الضمير للمسمَّيات المدلولِ عليها بـ﴿ٱلْأَسْمَآءَ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم، ٤/١٩]، والتذكيرُ لتغليب العقلاء على غيرهم. وقُرئ: "عَرَضَهُنَّ"[5] و"عَرَضَهَا"،[6] أي: عرضَ مسمَّياتِهنّ أو مسمَّياتِها.

---

[1] هو عكرمة بن عبد الله البربري المدني، أبو عبد الله (ت. ١٠٥هـ/٧٢٣م). مولى عبد الله بن عبّاس. كان مِن أعلم الناس بالتفسير والمغازي. وهو ثقة ثبتٌ. طاف البُلدان. روى عن ابن عبّاس وعائشة وأبي هريرة وعُقبة بن عامر وأبي سعيد الخُدري. وروى عنه زهاء ثلاثمائة رجلٍ، منهم أكثرُ مِن سبعين تابعيًا. انظر: **حلية الأولياء** للأصفهاني، ٣٢٦/٣-٣٤٧؛ و**طبقات المفسّرين** للداوودي، ٣٨٦/١-٣٨٧؛ و**الأعلام** للزركلي، ٢٤٤/٤.

[2] هو مجاهد بن جبر المكّي المخزومي، أبو الحجّاج (ت. ١٠٣هـ/٧٢١م). تابعيّ، مفسّر، قارئ. أخذ التفسير عن ابن عبّاس، قرأه عليه ثلاث مرّات. روى عن ابن عبّاس، فأكثر وأطاب، وعن أبي هريرة وعائشة وسعد بن أبي وقّاص وعبد الله بن عمرو وابن عمر وأبي سعيد الخُدري. وحدّث عنه عكرمة وطاوس وعطاء وعمرو بن دينار وأبو الزبير والحكم بن عتيبة، وخلق كثير. وتلا عليه القرآن جماعةٌ، منهم: ابن كثير الداري وأبو عمرو بن العلاء وابن مُحيصن. انظر: **حلية الأولياء** للأصفهاني، ٢٧٩/٣-٣١٠؛ و**سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٤٤٩/٤-٤٥٧؛ و**الأعلام** للزركلي، ٢٧٨/٥.

[3] لم نقف عليه مرويًا عن أحدهم بتمام هذه الألفاظ؛ بل رُوي بعض أجزائه عن بعضهم. انظر: **جامع البيان** للطبري، ٥١٤/١-٥١٧؛ و**الكشف والبيان** للثعلبي، ١٧٧/١؛ و**اللباب** لابن عادل، ٥١٤/١.

[4] وفي هامش ي: قاضي. | **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٦٩/١.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٥٧.

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ بن كعب. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٥٧.

في الحديث: أنّه تعالى عرضهم أمثالَ الذَّرّ،[١] ولعلّه عزّ وجلّ عرضَ عليهم مِن أفراد كلِّ نوعٍ ما يصلُح أن يكون أنموذجًا يُتعرّف منه أحوال البقيّة وأحكامها.

﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ تبكيتًا لهم وإظهارًا لعجزهم عن إقامة ما علّقوا به رجاءَهم مِن أمر الخلافة؛ فإنّ التصرّف والتدبير وإقامةَ المعدلة بغير وقوفٍ على مراتب الاستعدادات ومقادير الحقوق ممّا لا يكاد يمكن. والإنباء: إخبار فيه إعلام؛ ولذلك يجري مَجرى كلٍّ منهما، والمراد ههنا ما خَلَا عنه، وإيثاره على "الإخبار" للإيذان برفعة شأن الأسماء وعِظَم خطرها؛ فإنّ النبأ إنّما يطلَق على الخبر الخطير والأمر العظيم.

﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي: في زعمكم أنكم أحِقّاءُ بالخلافة ممّن استخلفتُه كما يُنبئ عنه مقالُكم. والتصديق كما يتطرّق إلى الكلام باعتبار منطوقه، قد يتطرّق إليه باعتبار ما يلزَمه مِن الإخبار؛ فإنّ أدنى مراتب الاستحقاق هو الوقوف على أسماءِ ما في الأرض؛ وأمّا ما قيل مِن أنّ المعنى: في زعمكم أنّي أستخلف في الأرض مفسِدين سفّاكين للدِّماء، فليس ممّا يقتضيه المقام، وإن أُوّل بأن يقال: في زعمكم أنّي أستخلف مَن غالِبُ أمرِه الإفسادُ وسفكُ الدماء مِن غير أن يكون له مزيّة مِن جهة أخرى؛ إذ لا تعلّقَ له بأمرهم بالإنباء. وجواب الشرط محذوف لدلالة المذكور عليه.

﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢﴾

﴿قَالُواْ﴾ استئنافٌ واقعٌ موقعَ الجواب، كأنّه قيل: فماذا قالوا حينئذ، هل خرجوا عن عُهدة ما كُلّفوه أو لا؟ فقيل: قالوا: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾.[٢] قيل: هو عَلَمٌ للتسبيح، ولا يكاد يُستعمل إلّا مضافًا،[٣] وقد جاء غيرَ مضاف على الشذوذ

---

[١] انظر: مسند أحمد، ٢٦٠/١١ (٦٦٧٧)؛ وسنن الترمذي، ٦٥٥/٤ (٢٤٩٢).

[٢] وفي هامش ط س ي: سُبْحان: اسمُ مصدرٍ، وهو التسبيح، وقيل: بل[(١)] هو مصدر؛ لأنّه سُمع له فعلٌ ثلاثيٌّ. لباب ابن عادل. «منه». | [(١)] هامش ط - بل. | اللباب لابن عادل، ٥٢٠/١.

[٣] وفي هامش ط س ي: فإضافته إلى المفعول؛ لأنّ المعنى: نسبّحك، وقيل: إلى الفاعل، والمعنى: تنزهّتَ وتباعدتَ مِن السُّوء. لباب. «منه». | اللباب لابن عادل، ٥٢١/١.

غيرَ منصرِفٍ للتعريف والألفِ والنونِ المزيدتين كما في قوله:

سُبحانَ مِن عَلقَمَةَ الفاخرِ[١]

وأمّا ما في قوله:

سُبحانَه ثمّ سُبحانًا يعودُ له[٢]

فقيل:[٣] صرفه للضرورة، وقيل: لأنّه مصدر منكَّر كـ"غُفْران"، لا اسمُ مصدر، ومعناه على الأوّل:[٤] نسبّحك عمّا لا يَليق بشأنك الأقدس مِن الأمور التي مِن جملتها خلوُّ أفعالك مِن الحِكَم والمصالح، وعنَوْا بذلك تسبيحًا ناشئًا عن كمال طُمَأنينة النفس والإيقان باشتمال استخلاف آدمَ عليه السلام على الحِكَم البالغة، وعلى الثاني:[٥] تنزهّتَ عن ذلك تنزّهًا ناشئًا عن ذاتك، وأرادوا به أنّهم قالوه عن إذعانٍ لِما علِموا إجمالًا بأنّه عليه السلام يكلَّف ما كُلّفوه، وأنّه يقدِر على ما قد عجزوا عنه ممّا يتوقّف عليه الخلافة.

وقوله عزّ وعلا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ اعتراف منهم بالعجز عمّا كُلّفوه؛ إذ معناه: لا علمَ لنا إلّا ما علّمتَناه بحسَب قابليّتنا مِن العلوم المناسِبة لعالَمِنا، ولا قدرةَ بنا على ما هو خارجٌ عن دائرة استعدادنا، حتّى لو كنّا مستعدِّين لذلك لَأفضْتَه علينا. و﴿مَا﴾ في ﴿مَا[٦] عَلَّمْتَنَا﴾ موصولةٌ حُذف مِن صلتها عائدُها، أو مصدريّةٌ. ولقد نفَوْا عنهم العلمَ بالأسماء على وجه المبالغة، حتّى لم يقتصروا على بيان عدمه بأن قالوا مَثلًا: لا علمَ بها؛ بل جعلوه مِن جملة ما لا يعلمونه، وأشعروا بأنّ كونه مِن تلك الجملة غنيٌّ عن البيان.

---

[١] البيت للأعشى في ديوانه، ص ١٤٣. وصدره:
أقولُ لمّا جاءني فَخْرُه

[٢] البيت لأميّة بن أبي الصَّلْت في ديوانه، ص ٣٧٦؛ والكتاب لسيبويه، ١/٣٢٦؛ والمحكم لابن سِيده، ٧/٥٣١ «الجيم والدال والواو»؛ وتاج العروس للزبيدي، «سبح»، ولوَرَقة بن نَوْفل في الزاهر للأنباري، ١/٥١، ولزيد بن عمرو بن نُفَيل في البحر المحيط لأبي حيّان، ٦/١٥٤ (هود، ١١/٤٤). وتمامه:
وقَبلَنا سبّحَ الجُوديُّ والجُمُدُ

[٣] ط: وقيل.

[٤] وهو كون إضافته إلى المفعول.

[٥] وهو كون إضافته إلى الفاعل.

[٦] ط - ما.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي لا يخفى عليه خافية. وهذا إشارة إلى تحقيقهم لقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.[١] ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: المُحكِم لمصنوعاته، الفاعلُ لها حسبما يقتضيه الحكمة والمصلحة. وهو خبر بعدَ خبرٍ، أو صفةٌ للأوّل. و﴿أَنتَ﴾ ضمير الفصل، لا محلَّ له مِن الإعراب، أو له محلٌّ منه، مشارِكٌ لِما قبله كما قاله الفرّاء،[٢] أو لِما بعده كما قاله الكسائي،[٣] وقيل: تأكيد لـ"الكاف"، كما في قولك: "مررتُ بك أنت"، وقيل: مبتدأ خبرُه ما بعده، والجملة خبر ﴿إِنَّ﴾، وتلك الجملة تعليل لِما سبق مِن قَصْر علمهم بما علّمهم الله تعالى وما يُفهَم مِن ذلك مِن عِلم آدمَ عليه السلام بما خفِيَ عليهم، فكأنّهم قالوا: أنت العالم بكلّ المعلومات التي مِن جملتها استعدادُ آدمَ عليه السلام لِما نحن بمَعزِل مِن الاستعداد له مِن العلوم الخفيّة المتعلّقةِ بما في الأرض مِن أنواع المخلوقات التي عليها يدور فَلَك الخلافة، الحكيمُ الذي لا يفعل إلّا ما يقتضيه الحكمة، ومِن جملته تعليم آدمَ عليه السلام ما هو قابلٌ له مِن العلوم الكلّيّة والمعارف الجزئيّة المتعلِّقة بالأحكام الواردة على ما في الأرض وبناءُ أمر الخلافة عليها.

﴿قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف كما سلف. ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم﴾ أي: أعلِمْهم. أُوثِرَ على "أنبِئْني" كما وقع في أمر الملائكة عليهم السلام[٤] مع حصول المراد معه أيضًا -وهو ظهور

---

[١] البقرة، ٢/٣٠.

[٢] اللباب لابن عادل، ١/٥٢١.

[٣] اللباب لابن عادل، ١/٥٢١. | هو عليّ بن حمزة بن عبد الله الكسائي الكوفي، أبو الحسن (ت. ١٨٩هـ/٨٠٥م). إمام الكوفيين في النحو واللغة، وأحد القرّاء السبعة المشهورين. ولد في إحدى قرى الكوفة، وتعلّم بها، وقرأ النحو بعد الكِبَر، وتنقّل في البادية، وسكن بغداد، وتُوفّي بالريّ. وكان مؤدِّبًا لولد الرشيد. وكان الكسائي قد قرأ على حمزة الزّيّات، ثمّ اختار لنفسه قراءةً، وسمع مِن سليمان بن أرقم وأبي بكر ابن عيّاش. له تصانيف، منها: **معاني القرآن**، و**متشابه القرآن**، و**المصادر**، و**الحروف**، و**القراءآت**، و**ما يلحن فيه العوامّ**. انظر: **معجم الأدباء** للحَموي، ٤/١٧٣٧-١٧٥٢؛ و**غاية النهاية** لابن الجزري، ١/٥٣٥-٥٤٠؛ و**بغية الوعاة** للسيوطي، ٢/١٦٢-١٦٤.

[٤] ي - عليهم السلام.

فضل آدمَ عليهم عليهم السلام- إبانةً لِما بين الأمرين مِن التفاوت الجليّ، وإيذانًا بأنّ علمه عليه السلام بها أمرٌ واضحٌ غيرُ محتاج إلى ما يجري مَجرى الامتحان، وأنّه عليه السلام حقيق بأن يُعلمها غيرَه. وقُرئ بقلب الهمزة ياءً، وبحذفِها أيضًا، والهاءُ مكسورة فيهما.[١] ﴿بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ التي عجزوا عن علمها واعترفوا بتقاصر هِمَمهم عن بلوغ مَرتبتها.

﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ "الفاء" فصيحة عاطفة للجملة الشرطيّة على محذوفٍ يقتضيه المقام وينسحب / عليه الكلام، للإيذان بتقرُّره وغِناه عن الذِّكر، وللإشعار بتحقُّقه في أسرع ما يكون، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ [النمل، ٢٧/٤٠]، بعد قوله سبحانه: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾. وإظهار "الأسماء" في موقع الإضمار لإظهار كمال العناية بشأنها والإيذانِ بأنّه عليه السلام أنبأهم بها على وجه التفصيل دون الإجمال، والمعنى: فأنبأَهم بأسمائهم مفصَّلةً، وبيَّنَ لهم أحوالَ كلٍّ منهم وخواصَّه وأحكامَه المتعلِّقة بالمعاش والمعاد، فعلِموا ذلك لِما رأَوْا أنّه عليه السلام لم يتلَعْثم في شيء مِن التفاصيل التي ذكرها مع مساعدة ما بين الأسماء والمسمَّيات مِن المناسبات والمشاكلات وغير ذلك مِن القرائن الموجِبة لصدق مقالاته عليه السلام. [٣١و]

فلمّا أنبأهم بذلك ﴿قَالَ﴾ عزّ وجلّ تقريرًا لِما مرَّ مِن الجواب الإجماليّ واستحضارًا له: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ لكنْ لا لتقرير نفسه كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ [طه، ٢٠/٨٦] ونظائرِه؛ بل لتقرير ما يفيده مِن تحقّق دواعي الخلافة في آدمَ عليه السلام بظهور[٢] مِصداقه.

وإيرادُ ما لا يعلمون بعنوان "الغيب" مضافًا إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلْأَرْضِ﴾ للمبالغة في بيان كمال شمول علمه المحيطِ وغايةِ سَعَته، مع الإيذان بأنّ ما ظهر مِن عجزهم وعلمِ آدمَ عليه السلام مِن الأمور[٣] المتعلِّقة بأهل السماوات

---

١ أي: "أَنبيهِمْ" و"أَنبِهِمْ"؛ رَوى الأُولى أحمدُ بن محمّد بن بكر عن هشام بن عمّار عن أصحابه عن ابن عامر، وهي غير القراءة المشهورة عنه. والثانية قراءة شاذّة، رُويت عن الحسن. انظر: السبعة لابن مجاهد، ص ١٥٣؛ والمحتسب لابن جنّي، ١/٦٦؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٨.

٢ ي: لظهور.

٣ وفي هامش ط س ي: خبر "أنّ". «منه».

وأهل الأرض. وهذا دليل واضحٌ على أنّ المراد بـ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[١] فيما سبق ما أشيرَ إليه هناك، كأنّه قيل: ألم أقلْ لكم إنّي أعلم فيه مِن دواعيَ الخلافة ما لا تعلمونه؟ فَهَا[٢] هو هذا[٣] الذي عايَنْتموه!

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ عطفٌ على جملة ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾، لا على ﴿أَعْلَمُ﴾؛ إذ هو غيرُ داخل تحت القول. و﴿مَا﴾ في الموضعَين موصولةٌ حُذف عائدها، أي: أعلم ما تُبدونه وما تكتمونه. وتغيير الأسلوب للإيذان باستمرار كَتْمهم. قيل: المراد بما يُبدون قولُهم: ﴿أَتَجْعَلُ﴾... إلخ،[٤] وبما يكتمون استبطانُهم أنّهم أحِقّاءُ بالخلافة، وأنّه تعالى لا يخلق خلقًا أفضلَ منهم. رُوي أنّه تعالى لمّا خلق آدمَ عليه السلام[٥] رأت الملائكةُ فِطرته العجيبةَ، وقالوا: «ليكنْ ما شاء، فلن يخلُقَ ربُّنا خلقًا إلّا كنّا أكرمَ عليه منه».[٦] وقيل: هو ما أسرَّه إبليسُ في نفسه مِن الكِبر وتركِ السجود، فإسنادُ الكِتمان حينئذ إلى الجميع مِن قبيل قولهم: "بنو فلانٍ قتلوا فلانًا"، والقاتلُ واحدٌ مِن بينهم.

قالوا: في الآية الكريمة دلالةٌ على شرف الإنسان ومزيّةِ العلم وفضله على العبادة، وأنّ ذلك هو المناط للخلافة، وأنّ التعليم يصِحّ إطلاقُه على الله تعالى، وإن لم يصِحّ إطلاقُ المعلِّم عليه لاختصاصه عادةً بمَن يحترِف به، وأنّ اللغاتِ توقيفيّةٌ؛ إذ الأسماء تدلّ على الألفاظ بخصوصٍ أو عمومٍ، وتعليمُها ظاهر في إلقائها على المتعلِّم مبيّنًا له معانيها، وذلك يستدعي سابقةَ وَضْعٍ، وما هو إلّا مِن الله تعالى، وأنّ مفهوم الحكمة زائدٌ على مفهوم العلم، وإلّا لزم التكرار، وأنّ علوم الملائكة وكمالاتِهم تقبل الزيادةَ، والحكماءُ منَعوا ذلك في الطّبَقة العُليا منهم، وحملوا على ذلك قولَه تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات، ١٦٤/٣٧]، وأنّ آدمَ عليه السلام[٧] أفضلُ مِن هؤلاء الملائكة عليهم السلام؛[٨]

---

[١] البقرة، ٣٠/٢.
[٢] وفي مطبوعاته: فيه. | وهو خطأ.
[٣] ي - هذا.
[٤] البقرة، ٣٠/٢.
[٥] ط س - عليه السلام.
[٦] انظر: جامع البيان للطبري، ٥٣٣/١؛ وتفسير الرازي، ٤٢٦/٢؛ واللباب لابن عادل، ٥٢٦/١.
[٧] ي - عليه السلام.
[٨] ط س - عليهم السلام.

لأنّه أعلمُ منهم، وأنّه تعالى يعلم الأشياءَ قبل حدوثها.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ عطفٌ على الظرف الأوّل،[1] منصوبٌ بما نصبه مِن المضمَر، أو بناصبٍ مستقلٍّ معطوفٍ على ناصبه عطِفَ القصّة على القصّة، أي: واذكرْ وقتَ قولنا لهم، وقيل: بفعلٍ دلَّ عليه الكلام، أي: أطاعوا وقتَ قولنا... إلخ، وقد عرفتَ ما في أمثاله. وتخصيص هذا القول بالذِّكر -مع كون مقتضى الظاهر إيرادَه على مِنهاج ما قبله مِن الأقوال المحكيّة المتّصلة به- للإيذان بأنّ ما في حيّزه نعمة جليلة مستقلّة حقيقة بالذِّكر والتذكير على حِيالها. والالتفات إلى التكلّم لإظهار الجلالة وتربيةِ المهابة، مع ما فيه مِن تأكيد الاستقلال. وكذا إظهار ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ في موقع الإضمار. والكلام في "اللام" وتقديمِها مع مجرورها على المفعول كما مرَّ.[2]

وقُرئ بضمّ تاء ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ إتباعًا لضمّ الجيم في قوله تعالى: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾،[3] كما قُرئ بكسر الدال في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة، ١/٢] إتباعًا لكسر اللام،[4] وهي لغة ضعيفة.

والسجود في اللغة: الخضوع والتطامن، وفي الشرع: وضعُ الجَبهة على الأرض على قصد العبادة. فقيل: أُمِروا بالسجود له[5] عليه السلام[6] على وجه التحيّة والتكرمة تعظيمًا له، واعترافًا بفضله، وأداءً لحقّ التعليم، واعتذارًا عمّا وقع منهم في شأنه. وقيل: أُمِروا بالسجود له تعالى، وإنّما كان آدمُ قِبلةً لسجودهم تفخيمًا لشأنه أو سببًا لوجوبه، فكأنّه تعالى لمّا بَرَأه أنموذجًا للمبدَعات كلِّها

---

١ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾... إلخ [البقرة، ٢/٣٠].

٢ انظر: تفسير البقرة، ٢/٣٠.

٣ قرأ بها أبو جعفر مِن العشرة. النشر لابن الجزري، ٢/٢١٠-٢١١.

٤ وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن محمّد بن السميفع اليماني وأبي سعيد الحسن بن الحسن البصري وأبي الشعثاء جابر بن زيد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠.

٥ ط - له.

٦ ط: عليهم السلام.

ونسخةً مُنطويةً على تعلّق العالَم الروحانيّ بالعالَم الجُسمانيّ وامتزاجِهما على نمط بديع، أمَرَهم بالسجود له تعالى لِما عايَنوا مِن عظيم قدرته، فـ"اللام" فيه كما في قول حسّان رضي الله عنه:[١]

ألَيس أوّلَ مَن صلّى لقِبْلتكم   وأعرَفَ الناسِ بالقرآن والسُّنَنِ[٢]

أو في قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ [الإسراء، ٧٨/١٧]، والأوّل هو الأظهر.

وقوله تعالى:[٣] ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ عطفٌ على ﴿قُلۡنَا﴾، و"الفاء" لإفادة مسارعتهم إلى الامتثال وعدمِ تلعثُمِهم في ذلك. رُوي عن وهب أنّ أوّلَ مَن سجد جبريلُ،[٤] ثمّ ميكائيلُ، ثمّ إسرافيلُ، ثمّ عزرائيلُ، ثمّ سائرُ الملائكة عليهم السلام.[٥]

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ استثناء متّصلٌ لِما أنّه كان جِنّيًا مفردًا مغمورًا بألوفٍ مِن الملائكة متّصفًا بصفاتهم، فغلّبوا عليه في ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾، ثمّ استُثنِي استثناءَ واحدٍ منهم، أو لأنّ مِن الملائكة جنسًا يتوالدون، يقال لهم الجنُّ، كما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «وهو منهم»،[٦] أو لأنّ الجنّ أيضًا كانوا مأمورين بالسجود له؛ لكن استُغني بذِكر الملائكة عن ذكرهم، أو منقطِعٌ. وهو اسم أعجميّ؛ ولذلك لم ينصرِف، ومَن جعله مشتقًّا مِن "الإبلاس" -وهو اليأس- قال: إنّه شبّه بالعُجمة، حيث لم يُسمَّ به أحدٌ، فكان كالاسم الأعجميّ.

واعلم أنّ الذي يقتضيه هذه الآية الكريمة، والتي في سورة الأعراف مِن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ / ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ﴾ الآية [الأعراف، ١١/٧]، [٣١ظ] والتي في سورة بني إسرائيل وسورة الكهف وسورة طه مِن قوله تعالى:

---

[١] س ي - رضي الله عنه.

[٢] كذا قال الرازي في تفسيره، ٤٢٧/٢؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٧١/١، رحمهما الله. والصواب أنّه لبعض ولد أبي لهب بن عبد المطّلب، قاله في الحَضّ على نصرة عليّ رضي الله عنه حين آلت الخلافة إلى غيره، فبعث إليه عليٌّ رضوان الله عليه ونهاه عن ذلك. انظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ٢١/٦.

[٣] ط: عزّ وجلّ.

[٤] ي + عليه السلام.

[٥] هو مرويّ عن جعفر الصادق في المواهب اللَّدُنيّة للقسطلاني، ٥٠/١. ويُروى عن وهب في شرح المواهب اللَّدُنيّة للزُّرقاني، ٩٩/١.

[٦] جامع البيان للطبري، ٥٣٥/١؛ التفسير الوسيط للواحدي، ١٢٠/١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧١/١.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ الآية [الإسراء، ٦١/١٧؛ الكهف، ٥٠/١٨؛ طه، ١١٦/٢٠] أنّ سجود الملائكة إنّما ترتَّبَ[١] على الأمر التنجيزيّ الواردِ بعد خلقه وتسويته ونفخ الروح فيه البتّةَ كما يُلوّح به حكايةُ امتثالهم بعبارة السجود،[٢] دون الوقوع الذي به ورد الأمر التعليقيّ؛[٣] ولكن ما في سورة الحِجر مِن قوله عزّ وعلا:[٤] ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر، ٢٨/١٥-٣٠] وما في سورة ص مِن قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص، ٧١/٣٨] إلى آخر الآية يستدعيانِ بظاهرهما ترتُّبَه على ما فيهما مِن الأمر التعليقيّ مِن غير أن يتوسّط بينهما شيءٌ غير ما يُفصح عنه الفاءُ الفصيحة مِن الخلق والتسوية ونفخ الروح فيه عليه السلام، وقد رُوي عن وهب أنّه كان السجود كما نُفخ فيه الروح بلا تأخير.[٥]

وتأويل الآيات السابقة بحمل ما فيها مِن الأمر على حكاية الأمر التعليقيّ بعد تحقّق المعلَّق به إجمالًا[٦] -فإنّه حينئذ يكون في حكم التنجيز- يأباه ما في سورة الأعراف مِن كلمة ﴿ثُمَّ﴾ [الأعراف، ١١/٧] المناديةِ بتأخّر ورود الأمر عن التصوير المتأخِّر عن الخلق المتأخِّر[٧] عن الأمر التعليقيّ. والاعتذار بحمل التراخي على الرُّتبيّ أو التراخي في الإخبار، أو بأنّ الأمر التعليقيّ قبل تحقّق المعلَّق به لمّا كان في عدم إيجاب المأمور به بمنزلة العدم، جُعِل كأنّه إنّما حدَثَ بعد تحقّقه، فحُكي على صورة التنجيز يؤدِّي[٨] بعد اللّتيّا والتي إلى أنّ ما جرى بينه وبينهم عليهم السلام في شأن الخلافة وما قالوا فيه وما سمعوا إنّما جرى بعد السجود المسبوق بمعرفة جلالة منزلته عليه السلام وخروجِ إبليسَ مِن البَيْن باللَّعْن المؤبَّد لعناده، وبعد مشاهدتهم لذلك كلِّه عيانًا. وهل هو إلّا خرقٌ

---

١ س: يترتَّب.

٢ وفي هامش ط ي: وهو قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الحجر، ٣٠/١٥؛ ص، ٧٣/٣٨]. «منه».

٣ وفي هامش ط ي: وهو قوله تعالى: ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر، ٢٩/١٥؛ ص، ٧٢/٣٨]. «منه».

٤ س: تعالى.

٥ لم نجد هذه الرواية فيما وقفنا عليه مِن المظانّ.

٦ وفي هامش ط ي: متعلِّق بقوله: "حكاية الأمر". «منه».

٧ ي - عن الخلق المتأخِّر.

٨ السياق: والاعتذارُ... يؤدِّي...

لقضيّة العقل والنقل! والالتجاءُ في التقصّي عنه إلى تأويل نفخ الروح بحمله على ما يعمّ إفاضةَ ما به حياةُ النفوس التي مِن جملتها تعليمُ الأسماء تعسُّفٌ يُنبئ عن ضيق المجال.

فالذي يقتضيه التحقيق ويستدعيه النظر الأنيق بعد التصفّح في مستودعات الكتاب المكنون والتفحّصِ عمّا فيه مِن السرّ المخزون أنّ سجودهم له عليه السلام إنّما ترتَّبَ على الأمر التنجيزيّ المتفرّع على ظهور فضله عليه السلام المبنيّ على المحاورة المسبوقة بالإخبار بخلافته المنتظم جميعُ ذلك في سِلك ما نِيطَ به الأمر التعليقيُّ مِن التسوية ونفخ الروح؛ إذ ليس مِن قضيّته وجوبُ السجود عقيبَ نفخ الروح فيه، فإنّ الفاء الجزائيّةَ ليست بنصٍّ في وجوب وقوع مضمون الجزاء عقيبَ وجود الشرط مِن غير تراخٍ للقطع بعدم وجوب السعي عقيبَ النداء لقوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡا﴾ الآية [الجمعة، ٩/٦٢]، وبعدم وجوب إقامة الصلاة غِبَّ الاطمئنانِ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء، ١٠٣/٤]؛ بل إنّما الوجوبُ عند دخول الوقت.

كيف لا، والحكمة الداعية إلى ورود ما نحن فيه مِن الأمر التعليقيّ آثِرَ ذي أثيرٍ[1] إنّما هي حمل الملائكة عليهم السلام على التأمّل في شأنه عليه السلام ليتدبّروا في أحواله طُرًّا، ويُحيطوا بما لَديه خُبْرًا، ويستفهموا ما عسى يستبهمُ عليهم في أمره عليه السلام[2] لابتنائه على حِكَم أبيّة وأسرار خفيّة طُويت عن[3] علومهم، ويقفوا على جليّة الحال قبل ورود الأمر التنجيزيّ وتحتّمِ الامتثال؛ وقد قالوا بحسَب ذلك ما قالوا وعاينوا ما عاينوا.

وعدمُ نظم الأمر التنجيزيّ في سِلك الأمور المذكورة في السورتين عند الحكاية لا يستلزم عدمَ انتظامه فيه عند وقوع المحكيّ، كما أنّ عدم ذِكر الأمر التعليقيّ عند حكاية الأمر التنجيزيّ في السُّوَر[4] الكريمة[5] المذكورة

---

[1] أفعلُ هذا آثِرَ ذي أثير، أي: أوّلَ كلّ شيء. الصحاح للجوهري، «أثر».
[2] ي – عليه السلام.
[3] ي: على.
[4] ي: السورة.
[5] ي – الكريمة.

لا يوجِبُ عدمَ مسبوقيّتِه به؛ فإنّ حكاية كلامٍ واحدٍ على أساليبَ مختلفةٍ حسبما يقتضيه المقام ويستدعيه حُسن الانتظام ليست بعزيزةٍ في الكتاب العزيز؛ وناهِيك بما نُقل في توجيه قوله تعالى: ﴿بَشَرًا﴾ [الحجر، ٢٨/١٥؛ ص، ٧١/٣٨] مع عدم سبق معرفة الملائكة عليهم السلام[١] بذلك، وحيث صِيرَ إليه مع أنّه لم يَرِدْ به نقلٌ، فما ظنّك بما قد وقع التصريح به في مواضعَ عديدةٍ؛ فلعلّه قد أُلقيَ إليهم ابتداءً جميعُ ما يتوقّف عليه الأمر التنجيزيّ إجمالًا بأن قيل مثلًا: إنّي خالقٌ بَشرًا مِن كذا وكذا، وجاعلٌ إيّاه خليفةً في الأرض، فإذا سوّيتُه ونفختُ فيه مِن روحي وتبيَّنَ لكم شأنُه، فقَعُوا له ساجدين، فخلَقه فسوّاه ونفخ فيه الروح، فقالوا عند ذلك ما قالوا، أو[٢] أُلقيَ[٣] إليهم خبرُ الخلافة بعد تحقّق الشرائط المعدودة بأن قيل إثرَ نفخ الروح فيه: إنّي جاعلٌ هذا خليفةً في الأرض، فهناك ذكروا في حقّه عليه السلام ما ذكروا، فأيّده الله عزّ وجلّ بتعليم الأسماء، فشاهدوا منه ما شاهدوا، فعند ذلك ورد الأمر التنجيزيّ اعتناءً بشأن المأمور به وتعيينًا لوقته، وقد حُكي بعضُ الأمور في بعض المواطن وبعضُها في بعضها اكتفاءً بما ذُكر في كلّ موطِن عمّا تُرك في موطِن آخرَ.

والذي يحسِم مادّةَ الاشتباه أنّ ما في سورة ص مِن قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾... إلخ [ص، ٧١/٣٨] بدلٌ مِن قوله تعالى: ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ فيما قبله مِن قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص، ٦٩/٣٨]، أي: بكلامهم عند اختصامهم. والمراد بـ﴿ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ الملائكة وآدمُ عليهم السلام وإبليسُ حسبما أطبَقَ عليه جمهورُ الأمّة، وباختصامهم ما جرى بينهم في شأن خلافة آدمَ عليه السلام مِن التقاول الذي مِن جملته ما صدر عنه عليه السلام[٤] مِن الإنباء بالأسماء. ومِن قضيّة البَدَليّة وقوعُ الاختصام المذكور في تضاعيف ما شُرح فيه تفصيلًا مِن الأمر التعليقيّ وما عُلّق به مِن الخلق والتسوية

---

[١] ي - غليهم السلام.
[٢] ي - أو.
[٣] ي: وأُلقي.
[٤] ي - عليه السلام.

ونفخ الروح فيه وما ترتَّبَ عليه مِن سجود الملائكةِ عليهم السلام[١] وعنادِ إبليسَ وما تبِعه مِن لَعْنه وإخراجِه / مِن بين الملائكة وما جرى بعده مِن الأفعال والأقوال؛ وإذ ليس تمامُ الاختصام بعد سجود الملائكة ومكابرةِ إبليسَ المستتبِعةِ لطرده مِن بينهم لِما عرفتَ مِن أنّه أحدُ المختصِمين، كما أنّه ليس قبل الخلق ضرورةَ استحالة الإنباء بالأسماء حينئذ، فهو إذنْ بعد نفخ الروح وقبل السجود حتمًا بأحد الطريقين. والله سبحانه[٢] أعلمُ بحقيقة الأمر. [٣٢و]

﴿أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ استئناف مبيِّن لكيفيّة عدم السجود المفهوم مِن الاستثناء، وأنّه لم يكن للتردّد أو للتأمّل. والإباء: الامتناع بالاختيار، والتكبّرُ: أن يُرِيَ نفسَه أكبرَ مِن غيره، والاستكبار: طلبُ ذلك بالتشبّع، أي: امتنع عمّا أُمر به، واستكبر مِن أن يعظّمه أو يتّخذَه وصلةً في عبادة ربّه. وتقديم "الإباء" على "الاستكبار" -مع كونه مسبَّبًا عنه- لظهوره ووضوح أثره، واقتُصِر في سورة ص على ذِكر "الاستكبار" اكتفاءً به، وفي سورة الحِجر على ذِكر "الإباء"، حيث قيل: ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر، ٣١/١٥].

﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: في علم الله تعالى، أو كان أصلُه مِن كَفَرة الجنّ؛ فلذلك ارتكب ما ارتكبه على ما أفصح عنه قولُه تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف، ٥٠/١٨]؛ فالجملة اعتراضيّة مقرِّرةٌ لِما سبق مِن الإباء والاستكبار، أو صار منهم باستقباح أمره تعالى إيّاه بالسجود لآدمَ عليه السلام زعمًا منه أنّه أفضلُ منه، والأفضلُ لا يحسن أن يؤمَر بالخضوع للمفضول كما يُفصح عنه قوله: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ [ص، ٧٦/٣٨] حين قيل له: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾ [ص، ٧٥/٣٨]، لا بترك[٣] الواجب وحدَه؛ فالجملة معطوفة على ما قبلها. وإيثار "الواو" على "الفاء" للدلالة على أنّ محض الإباء والاستكبار كفرٌ، لا أنّهما سببانِ له كما يفيده "الفاء".

---

[١] ي - عليهم السلام.

[٢] س + وتعالى.

[٣] متعلِّق بقوله: "باستقباح أمره تعالى".

﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٣٥﴾

﴿وَقُلْنَا﴾ شروع في حكاية ما جرى بينه تعالى وبين آدمَ عليه السلام بعد تمام ما جرى بينه تعالى وبين الملائكة وإبليسَ مِن الأقوال والأفعال. وقد تُركت حكاية توبيخ إبليسَ وجوابه ولعنه واستنظاره وإنظاره اجتزاءً بما فُصّل في سائر السُّوَر الكريمة. وهو عطفٌ على ﴿قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾،[1] ولا يقدح في ذلك اختلافُ وقتَيهما؛ فإنّ المراد بالزمان المدلول عليه بكلمة ﴿إِذْ﴾ زمانٌ ممتدٌّ واسعٌ للقولين. وقيل: هو عطفٌ على ﴿إِذْ قُلْنَا﴾[2] بإضمار "إذ"، وهذا تذكير لنعمة أخرى موجِبةٍ للشكر مانعةٍ مِن الكفر.

وتصدير الكلام بالنداء في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ للتنبيه على الاهتمام بتلقّي المأمور به. وتخصيص أصل الخطاب به عليه السلام للإيذان بأصالته في مباشرة المأمور به.[3] و﴿ٱسْكُنْ﴾ مِن "السُّكنى"، وهو اللبث والإقامة والاستقرار، دونَ "السكون" الذي هو ضدُّ الحركة. و﴿أَنتَ﴾ ضميرٌ أُكّد به المستكنُّ ليصحَّ العطف عليه.

واختُلف في وقت خلق زوجه؛ فذكَرَ السدّي عن ابن مسعود رضي الله عنه[4] وابنِ عبّاس[5] وناسٍ مِن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم[6] أنّ الله تعالى[7] لمّا أخرج إبليسَ مِن الجنّة وأسكنها آدمَ بقِيَ فيها وحدَه، وما كان معه مَن يستأنس به، فألقى الله تعالى عليه النومَ، ثمّ أخذ ضِلْعًا مِن جانبه الأيْسَر، ووضَعَ مكانَه لحمًا، وخلق حوّاءَ منه، فلمّا استيقظ وجدها عند رأسه قاعدةً، فسألها: «ما أنت؟»، قالت: «امرأة»، قال: «ولِمَ خُلقت؟»، قالت: «لتسكُنَ إليَّ»، فقال الملائكة تجربةً لعلمه عليه السلام: «مَن هذه؟»، قال: «مرأة»، قالوا: «لِمَ سُمّيت مرأةً؟»، قال: «لأنّها مِن المَرْء أُخذت»، فقالوا: «ما اسمها؟»، قال: «حوّاء»،

---

[1] في الآية السابقة.
[2] في الآية السابقة.
[3] ي - به.
[4] ي - رضي الله عنه.
[5] ط + رضي الله عنه.
[6] ط - عليهم.
[7] ي - أنّ الله تعالى.

قالوا: «لِمَ سُمّيت حوّاءَ؟»،[١] قال: «لأنّها خُلقت مِن شيءٍ حيّ».[٢] ورُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، قال: «بعَثَ الله تعالى جندًا مِن الملائكة، فحملوا آدمَ وحوّاءَ على سريرٍ مِن ذَهَب -كما يحمَل الملوكُ- ولباسُهما النور، حتّى أدخلوهما الجنّةَ»،[٣] وهذا -كما ترى- يدلّ على خلقها قبل دخول الجنّة.

والمراد بها دار الثواب؛ لأنّها المعهودة. وقيل: هي جنّة بأرض فلسطين، أو بين فارسَ[٤] وكرمان،[٥] خلَقَها الله تعالى امتحانًا لآدمَ عليه السلام.[٦] وحُمِل "الإهباط"[٧] على النقل منها إلى أرض الهند كما في قوله تعالى: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرًا﴾ [البقرة، ٦١/٢] لِما أنّ خلقه عليه السلام كان في الأرض بلا خلافٍ، ولم يذكَر في هذه القصّة رفعُه إلى السماء، ولو وقع ذلك لَكان أولى بالذكر والتذكير لِما أنّه مِن أعظم النِّعَم، ولأنّها لو كانت دارَ الخُلد لَمَا دخلها إبليسُ. وقيل: إنّها كانت في السماء السابعة بدليل ﴿ٱهۡبِطُوا﴾، ثمّ إنّ الإهباط الأوّل كان منها إلى السماء الدنيا، والثاني منها إلى الأرض. وقيل: الكلّ ممكن، والأدلّةُ النقليّة متعارضةٌ، فوجب التوقّفُ وتركُ القطع.

﴿وَكُلَا مِنۡهَا﴾ أي: مِن ثِمارها. وإنّما وُجّه الخطاب إليهما تعميمًا للتشريف والترفيه،[٨] ومبالغةً في إزالة العِلل والأعذار، وإيذانًا بتساويهما في مباشرة المأمور به؛ فإنّ حوّاءَ أسوة له عليه السلام في الأكل بخلاف السُّكنى، فإنّها تابعة له فيه.

﴿رَغَدًا﴾ صفة للمصدر المؤكّد، أي: أكلًا واسعًا رافهًا. ﴿حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ أي: أيّ مكانٍ أردتما منها. وهذا -كما ترى- إطلاقٌ كلّيٌّ، حيث أُبيحَ لهما الأكل منها

---

[١] ي - قالوا: لم سمّيت حوّاء؟

[٢] انظر: **التوحيد** لابن مَنْدَه، ٢١٣/١-٢١٤ (٨١)؛ **والأسماء والصفات** للبيهقي، ٢٥٩/٢-٢٦٠ (٨٢٠)؛ **واللباب** لابن عادل، ٥٤٩/١.

[٣] **تفسير الرازي**، ٤٥١/٣؛ **اللباب** لابن عادل، ٥٤٩/١.

[٤] فارس: ولاية واسعة وإقليم فسيح، أوّلُ حدودها مِن جهة العراق أرُّجان، ومِن جهة كرمان السِّيرَجان، ومِن جهة ساحل بحر الهند سيراف، ومِن جهة السند مُكران. انظر: **معجم البلدان** للحَموي، ٢٢٦/٤-٢٢٨.

[٥] كرمان، بالفتح أشهر: ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدنٍ واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان. وكرمان أيضًا: مدينة بين غَزنة وبلاد الهند، وهي مِن أعمال غزنة، بينهما أربعة أيّام أو نحوها. انظر: **معجم البلدان** للحَموي، ٤٥٤/٤-٤٥٦.

[٦] ط ي - عليه السلام.

[٧] في الآية التالية.

[٨] ي: الترفية.

على وجه التوسعة البالغة المزيحةِ للعِلل، ولم يُحظَر عليهما بعضُ الأكل، ولا بعضُ المواضع الجامعة للمأكولات حتّى لا يبقى لهما عُذرٌ في تناول ما مُنعَا منه بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ بفتح الراء، مِن "قرِبتُ الشيءَ -بالكسر- أقرَبه -بالفتح-" إذا التبستَ به وتعرّضتَ له، وقال الجوهري: «قَرُبَ -بالضمّ- يَقرُب قُرْبًا، أي: دنا، وقرِبتُه -بالكسر- قُربانًا: دنوْتُ منه».[1]

﴿هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ نصب على أنّه بدلٌ مِن اسم الإشارة، أو نعتٌ له بتأويلها بمشتقٍ، أي: هذه الحاضرةَ مِن الشجرة، أي: لا تأكلا منها. وإنّما عُلّق النهي بالقُربان منها مبالغةً في تحريم الأكل ووجوب الاجتناب عنه. والمراد بها الحِنطة أو العِنَبة / أو التينة. وقيل: هي شجرةٌ، مَن أكل منها أحدَثَ. والأَولى [٣٢ظ] عدمُ تعيينها[2] مِن غير قاطع. وقُرئ: "هٰذِي" بالياء،[3] وبكسر شين ﴿ٱلشَّجَرَةَ﴾[4] وتاء ﴿تَقْرَبَا﴾.[5] وقُرئ: "الشِّيَرَةَ"[6] بكسر الشين وفتح الياء.

﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مجزوم على أنّه معطوف على ﴿تَقْرَبَا﴾، أو منصوب على أنّه جواب للنهي؛ وأيًا ما كان، فالقُرب -أي: الأكلُ منها- سببٌ لكونهما مِن الظالمين، أي: الذين ظلموا أنفسَهم بارتكاب المعصية، أو نقَصوا حظوظَهم بمباشرة ما يُخلّ بالكرامة والنعيم، أو تعدّوا حدود الله تعالى.

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝٣٦﴾

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ أي: أصدر زَلّتهما، أي: زلَقَهما وحملهما على الزَلّة بسببها، ونظيرة عن هذه ما[7] في قوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف، ٨٢/١٨]،

---

[1] انظر: الصحاح للجوهري، «قرب».
[2] ط: تعيّنها.
[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٨.
[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السمّال. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٨.
[5] قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري بلا نسبة في الكشّاف، ١٢٧/١.
[6] قراءة شاذّة، نسبها أبو زيد سعيد بن أوس إلى كثير مِن العرب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٨. وهي غير منسوبة إلى أحد في الكشّاف للزمخشري، ١٢٧/١.
[7] ي – ما.

أو أزلَّهما عن الجنّة بمعنى: أذهَبَهما وأبعدهما عنها، يقال: "زلَّ عنّي كذا" إذا ذهب عنك، ويعضُده قراءة "أَزَالَهُمَا"،[١] وهما متقاربان في المعنى؛ فإنّ الإزلال -أي: الإزلاق- يقتضي زوالَ الزالّ عن موضعه البتّةَ.

وإزلاله قولُه لهما: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ[٢] عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه، ١٢٠/٢٠]، وقولُه: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف، ٢٠/٧]، ومُقاسَمتُه لهما: ﴿إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف، ٢١/٧]. وهذه الآيات مشعِرة بأنّه عليه السلام لم يؤمَر بسُكنى الجنّة على وجه الخلود؛ بل على وجه التكرمة والتشريف لِما قُلّد مِن خلافة الأرض إلى حين البعث إليها.

واختُلف في كيفيّة توصّله إليهما بعد ما قيل له: ﴿فَٱخْرُجْ[٣] مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحجر، ٣٤/١٥؛ ص، ٧٧/٣٨]؛ فقيل: إنّه إنّما مُنع مِن الدخول على وجه التكرمة كما يدخلها الملائكة عليهم السلام، ولم يُمنَع مِن الدخول للوَسْوسة ابتلاءً لآدمَ وحوّاءَ، وقيل: قام عند الباب فناداهما، وقيل: تمثّل بصورةِ دابّةٍ، فدخل ولم يعرِفه الخَزَنة، وقيل: دخل في فم الحيّة، فدخل معها، وقيل: أرسل بعضَ أتباعه، فأزلّهما. والعلم[٤] عند الله سبحانه.[٥]

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أي: مِن الجنّة، إن كان ضمير ﴿عَنْهَا﴾ لـ﴿ٱلشَّجَرَةَ﴾،[٦] والتعبير عنها بذلك للإيذان بفخامتها وجلالتها وملابستهما له، أي: مِن المكان العظيم الذي كانا مستقرَّيْن فيه، أو مِن الكرامة والنعيم، إن كان الضمير لـ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾.

﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا﴾ الخطاب لآدمَ وحوّاءَ بدليل قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [طه، ١٢٣/٢٠]، وجُمِع الضمير؛ لأنّهما أصل الجنس، فكأنّهما الجنس كلُّهم، وقيل: لهما وللحيّة وإبليسَ، على أنّه أُخرجَ منها ثانيًا بعدما كان يدخلها للوسوسة أو يدخلها مسارقةً، أو أُهبطَ مِن السماء. وقُرئ بضمّ الباء.[٧]

---

١ قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٢١١/٢.
٢ ط س ي: أدلّكم.
٣ ط س ي: اخرج.
٤ ي: فالعلم.
٥ ي + وتعالى.
٦ في الآية السابقة.
٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حياة وشريح وكرداب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٩.

﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ حال استغني فيها عن الواو بالضمير، أي: متعادِين يَبغي بعضُكم على بعض بتضليله، أو استئنافٌ لا محلَّ له مِن الإعراب، وإفراد "العدوّ" إمّا للنظر إلى لفظ "البعض"، وإمّا لأنّ وِزانه وِزانُ المصدر كـ"القبول".

﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ التي هي محلُّ الإهباط. والظرف متعلِّق بما تعلَّق به الخبر -أعني: ﴿لَكُمۡ﴾- مِن الاستقرار. ﴿مُسۡتَقَرّٞ﴾ أي: استقرار أو موضعُ استقرار، ﴿وَمَتَٰعٌ﴾ أي: تمتّعٌ بالعَيْش وانتفاع به ﴿إِلَىٰ حِينٖ﴾ هو حين الموت على أنّ المُغيّا تمتُّع كلِّ فردٍ مِن المخاطَبين، أو القيامة على أنّه تمتُّع الجنس في ضمن بعض الأفراد. والجملة كما قبلها في كونها حالًا -أي: مستحقّين للاستقرار والتمتّع- واستئنافًا.

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ﴾ أي: استقبلها بالأخذ والقبول والعمل بها حين عُلّمها ووُفّق لها، وقُرئ بنصب ﴿ءَادَمُ﴾ ورفعِ ﴿كَلِمَٰتٍ﴾[1] دلالةً على أنّها استقبلَتْه وبلغَتْه، وهي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾ الآية [الأعراف، ٢٣/٧]، وقيل: «سُبحانك اللّٰهمّ وبحمدك، وتبارَكَ اسمُك، وتعالى جدُّك، لا إله إلّا أنت، ظلمتُ نفسي، فاغفِرْ لي، إنّه لا يغفِر الذنوب إلّا أنت»،[2] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: قال: «يا ربِّ، ألم تخلُقْني بيدك؟»، قال: «بلى»، قال: «يا ربِّ، ألم تنفُخْ فيَّ مِن روحك؟»، قال: «بلى»، قال: «يا ربِّ، ألم تسبِقْ رحمتُك غضبَك؟»، قال: «بلى»، قال: «ألم تُسكِنّي جنّتَك؟»، قال: «بلى»، قال: «يا ربِّ، إن تبتُ وأصلحتُ أَرَاجِعِي أنت إلى الجنّة؟»، قال: «نعم».[3] و"الفاء" للدلالة على أنّ التوبة حصلت عَقيبَ الأمر بالهبوط[4] قبل تحقّق المأمور به. والتعرّض لعنوان

---

[1] قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢١١/٢.

[2] رواه النسائي في السنن الكبرى، ٣١٤/٩ (١٠٦٢٠)، وليس فيه ذكر آدم عليه السلام. وهو بذكر اسمه في **الكشّاف** للزمخشري، ١٢٨/١-١٢٩؛ **وأنوار التنزيل** للبيضاوي، ٧٣/١.

[3] جامع البيان للطبري، ٥٨٠/١-٥٨١؛ **المستدرك** للحاكم، ٥٩٤/٢ (٤٠٠٢)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ١٢٩/١.

[4] ي: بالهبود.

الربوبيّة مع الإضافة إليه عليه السلام للتشريف والإيذانِ بعلّيّته لإلقاء الكلمات المدلول عليه[1] بتلقّيها.

﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ أي: رجع عليه بالرحمة وقبول التوبة. و"الفاء" للدلالة على ترتّبه على تلقّي الكلمات المتضمِّن لمعنى التوبة التي هي عبارة عن الاعتراف بالذنب والندم عليه والعزم على عدم العَوْد إليه. واكتُفي بذكر شأن آدمَ عليه السلام لِما أنّ حوّاءَ تبعٌ له في الحُكم؛ ولذلك طُوي ذكرُ النساء في أكثر مواقع الكتاب والسنّة.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ أي: الرجّاع على عباده بالمغفرة، أو الذي يُكثِر إعانتَهم على التوبة. وأصل التَّوب: الرجوع، فإذا وُصف به العبد كان رجوعًا عن المعصية، وإذا وُصف به الباري عزّ وعلا[2] أريدَ به الرجوعُ عن العقاب إلى المغفرة. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ المبالِغ في الرحمة. وفي الجمع بين الوصفين وعدٌ بليغٌ للتائب بالإحسان مع العفو والغفران. والجملة تعليل لقوله تعالى ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾.

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨﴾

﴿قُلْنَا﴾ استئناف مبنيٌّ على سؤالٍ ينسحِب عليه الكلام، كأنّه قيل: فماذا وقع بعد قبول توبته؟ فقيل: قلنا: ﴿ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ كُرّر الأمر بالهُبوط إيذانًا بتحتّم مقتضاه وتحقُّقِه لا محالةَ، ودفعًا لِما عسى يقع في أُمنيَّته عليه السلام مِن استتباع قبول التوبة للعفو عن ذلك، وإظهارًا لنوع رَأْفةٍ به عليه السلام لِما بين الأمرين مِن الفرق النيّر؛ كيف لا، والأوّل مشوبٌ بضرب سخطٍ مذيّلٍ ببيانِ / أنّ مَهبِطهم دارُ بليّةٍ وتعادٍ لا يخلَّدون فيها، والثاني [٣٣و] مقرونٌ بوعد إيتاء الهدى المؤدِّي إلى النجاة والنجاح، وأمّا ما فيه مِن وعيد العقاب، فليس بمقصود مِن التكليف قصدًا أوّليًّا؛ بل إنّما هو دائرٌ على سُوء اختيار المكلَّفين.

---

[1] ي: عليها.

[2] ي: تعالى.

قيل: وفيه تنبيه على أنّ الحازم[١] يكفيه في الردع عن مخالفة حكم الله تعالى مخافةُ الإهباط المقترن بأحد هذين الأمرين، فكيف بالمقترن بهما، فتأمَّلْ. وقيل: الأوّل مِن الجنّة إلى السماء الدنيا، والثاني منها إلى الأرض، ويأباه التعرّض لاستقرارهم في الأرض في الأوّل، ورجوعُ الضمير إلى الجنّة في الثاني.

و﴿جَمِيعًا﴾ حال في اللفظ وتأكيد في المعنى، كأنّه قيل: اهبِطوا أنتم أجمَعُون؛ ولذلك لا يستدعي الاجتماعَ[٢] على الهبوط في زمان واحد كما في قولك: "جاءوا جميعًا"، بخلاف قولك: "جاءوا معًا".

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ "الفاء" لترتيب ما بعدها على الهبوط المفهوم مِن الأمر به. و﴿إِمَّا﴾ مركَّبة مِن "إنْ" الشرطيّة و"ما" المزيدة المؤكِّدة لمعناها. والفعل في محلّ الجزم بالشرط؛ لأنّه مبنيّ لاتّصاله بنون التأكيد، وقيل: مُعرَب مطلَقًا، وقيل: مبنيّ مطلَقًا، والصحيحُ التفصيل: إن باشرَتْه النون بُنِي، وإلّا أُعربَ، نحو "هل يقومانِّ". وتقديم الظرف على الفاعل لِما مرَّ غيرَ مرّة. والمعنى: إن يأتيَنّكم منّي هدًى برسول أبعَثُه إليكم وكتابٍ أُنزله عليكم.

وجواب الشرط قوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، كما في قولك: "إن جئتَني فإن قدِرتَ أحسنتُ إليك". وإيراد كلمة الشكّ[٣] -مع تحقّق الإتيان لا محالةَ- للإيذان بأنّ الإيمان بالله والتوحيدَ لا يُشترط فيه بِعثة الرُّسل وإنزالُ الكُتب؛ بل يكفي في وجوبه إفاضة العقل ونصبُ الأدلّة الآفاقيّة والأنفُسيّة والتمكينُ مِن النظر والاستدلال، أو للجَرْي على سَنن العُظماء في إيراد "عسى" و"لعلّ" في مواقع[٤] القطع والجزم، والمعنى: أنّ مَن تبِعَ هُدايَ منكم، فلا خوفٌ عليهم في الدارَين مِن لُحوق مكروه، ولا هم يحزَنون مِن فَوات مطلوب، أي: لا يعتريهم ما يوجب ذلك؛ لا أنّه يعتريهم ذلك لكنّهم لا يخافون ولا يحزنون؛ ولا أنّه لا يعتريهم نفسُ الخوف والحُزن أصلًا بل يستمرّون على السرور والنشاط؛ كيف لا، واستشعار الخوف والخشية استعظامًا

---

١ ط: الجازم.
٢ ي: الاحتمال.
٣ وهي "إنْ" في "إمّا".
٤ ي: موقع.

لجلال الله سبحانه وهيبته واستقصارًا للجدّ والسعي في إقامة حقوق العبوديّة مِن خصائص الخواصّ والمقرَّبين. والمراد بيان دوام انتفائهما، لا بيانُ انتفاء دوامهما كما يُتوهّم مِن كون الخبر في الجملة الثانية مضارِعًا، لِما تقرَّرَ في موضعه أنّ النفي، وإن دخَلَ على نفس المضارع، يُفيد الدوام والاستمرارَ بحسَب المقام.

وإظهارُ "الهدى" مضافًا إلى ضمير الجلالة لتعظيمه وتأكيدِ وجوب اتّباعه، أو لأنّ المراد بالثاني ما[1] هو أعمُّ مِن الهدايات التشريعيّة وما ذُكر مِن إفاضة العقل ونصب الأدلّة الآفاقيّة والأنفُسيّة كما قيل. وقُرئ: "هُدَيَّ"[2] على لغة هُذيل، و"لَا خَوْفَ"[3] بالفتح.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٩﴾

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ عطفٌ على ﴿مَن تَبِعَ﴾... إلخ،[4] قسيمٌ له، كأنّه قيل: ومَن لم يتبَعه، وإنّما أوثرَ عليه ما ذُكر تفظيعًا لحال الضلالة وإظهارًا لكمال قُبحها. وإيراد الموصول بصيغة الجمع للإشعار بكثرة الكَفَرة، والجمعُ بين الكفر والتكذيب للإيذان بتنوّع الهدى إلى ما ذُكر مِن النوعين، وإيرادُ نونِ العَظَمة لتربية المهابة وإدخال الروعة، وإضافةُ "الآيات" إليها لإظهار كمال قُبح التكذيب بها، أي:[5] والذين كفروا برُسلنا المرسَلة إليهم وكذّبوا بآياتنا المنزلة عليهم. وقيل: المعنى: كفروا بالله وكذّبوا بآياته التي أنزلها على الأنبياء، أو أظهَرَها بأيديهم مِن المعجزات، وقيل: كفروا بالآيات جَنانًا، وكذّبوا بها لسانًا، فيكون كِلا الفعلين متوجِّهًا إلى الجارّ والمجرور.

والآية في الأصل: العلَامة الظاهرة، قال النابغة:

توهّمتُ آياتٍ لها فعرَفتُها ... لِستّة أعوامٍ وذَا العامُ سابعُ[6]

---

[1] ط - ما.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي إسحاق وعاصم الجحدري ومحمّد بن وهب الثقفي وعيسى بن أبي عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٩؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ١/٢٧٣.

[3] قرأ بها يعقوب مِن العشرة. النشر لابن الجزري، ٢/٢١١.

[4] في الآية السابقة.

[5] ي: المعنى.

[6] البيت في ديوانه، ص ٤٣.

وتقال[١] للمصنوعات مِن حيث دلالتُها على الصانع تعالى وعلمِه[٢] وقدرتِه، ولكلّ طائفةٍ مِن كلمات القرآن المتميّزةِ عن غيرها بفصلٍ؛ لأنّها علامة لانفصال[٣] ما قبلها ممّا بعدها، وقيل: لأنّها تجمع كلمات منه، فيكون مِن قولهم: "خرج بنو فُلان بآيتهم"،[٤] أي: بجماعتهم، قال:

خرَجْنا مِن البيتَيْنِ لا حَيَّ مِثْلُنا   بآيتِنا نُزجِي النِّعاجَ المَطافِلَا[٥]

واشتقاقها مِن "أيّ"؛ لأنّها تبيّن أيًّا مِن أيّ، أو مِن "أوِيَ إليه"، أي: رجَعَ. وأصلُها "أَوْيَة" أو "أيَّة"، فأُبدلت عينُها ألفًا على غير قياس، أو "أَوَيَة" أو "أَيَيَة" كـ"رَمَكَة"، فأُعِلّت، أو "آيِيَة" كـ"قائلة"، فحُذفت الهمزة تخفيفًا.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتّصافه بما في حيّز الصلة مِن الكفر والتكذيب. وفيه إشعار بتميّزهم بذلك الوصف تميّزًا مصحِّحًا للإشارة الحسّيّة. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلتهم فيه. وهو مبتدأ، وقوله عزّ وجلّ:[٦] ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: ملازِموها وملابِسوها بحيث لا يفارقونها، خبرُه، والجملة خبرٌ للموصول، أو اسمُ الإشارة[٧] بدلٌ مِن الموصول، أو عطفُ بيان له، و﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ خبرٌ له.

وقوله تعالى: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ في حيّز النصب على الحاليّة لورود التصريح به في قوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [التغابن، ١٠/٦٤]، وقد جُوّز[٨] كونه حالًا مِن ﴿ٱلنَّارِ﴾ لاشتماله[٩] على ضميرها، والعامل معنى الإضافة أو اللام المقدَّرة، أو في محلّ الرفع على أنّه خبرٌ آخرُ لـ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ على رأي

---

١ ط: يقال.

٢ ي: علمه.

٣ ي: الانفصال.

٤ ي: بآياتهم.

٥ البيت لبُرَج بن مُسهِر الطائي في إصلاح المنطق لابن السكّيت، ص ٢١٧؛ والصحاح للجوهري، «أيا»؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٤٢١/٢، وبلا نسبة في الزاهر للأنباري، ٧٧/١؛ والمحكم لابن سِيده، ٥٩٤/١٠ «الهمزة والياء». وفي كلّها: "النَّقْبَين" بدلَ "البيتين"، و"اللِّقاح" بدلَ "النِّعاج".

٦ ي: تعالى.

٧ ط: إشارة.

٨ وفي هامش أ: نقله أبو البقاء. «منه». | هو أبو البقاء العُكبري، نقله في الإملاء، ٣٣/١.

٩ ي: لاشتمالها.

مَن جوّز وقوعَ الجملة خبرًا ثانيًا. و﴿فِيهَا﴾ متعلّق بـ﴿خَالِدُونَ﴾. والخُلود في الأصل: المكث الطويل، وقد انعقد الإجماع على أنّ المراد به الدوام.

﴿يَابَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّـٰيَ فَٱرْهَبُونِ ۝٤٠﴾

﴿يَابَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى طائفة خاصّة مِن الكَفَرة المعاصِرين للنبيّ عليه السلام لتذكيرهم بفنون النِّعم الفائضة عليهم بعد توجيهه إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم[1] وأمرِه بتذكير كلّهم بالنعمة العامّة لبني آدمَ قاطبةً / بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾... إلخ [البقرة، ٢/٣٠]، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾... إلخ [البقرة، ٢/٣٤]؛ لأنّ المعنى كما أُشيرَ إليه: بلِّغْهم كلامي واذكُرْ لهم إذ جعلنا أباهم خليفةً في الأرض ومسجودًا للملائكة عليهم السلام، وشرّفناه بتعليم الأسماء، وقبِلنا توبتَه. [٣٣ظ]

و"الابن" مِن "البِناء"؛ لأنّه مَبْنَى أبِيه؛ ولذلك يُنسَب المصنوع إلى صانعه فيقال: "أبو الحرب" و"بنتُ فكر". و﴿إِسْرَآءِيلَ﴾ لقبُ يعقوبَ عليه السلام، ومعناه بالعِبريّة: صفوةُ الله، وقيل: عبد الله. وقُرِئ: "إِسْرَائِلَ"[2] بحذف الياء، و"إِسْرَالَ"[3] بحذفهما، و"إِسْرَايِيلَ"[4] بقلب الهمزة ياءً، و"إِسْرَأَلَ"[5] بهمزة مفتوحة، و"إِسْرَئِلَ"[6] بهمزة مكسورة بين الراء واللام. وتخصيص هذه الطائفة بالذِّكر والتذكير لِما أنّهم أوفرُ الناس نعمةً وأكثرُهم كفرًا بها.

﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ بالتفكّر فيها والقيام بشكرها. وفيه إشعار بأنّهم قد نَسُوها بالكلّيّة ولم يُخطِروها بالبال؛ لا أنّهم أهمَلوا شكرَها فقط. وإضافة

---

[1] ي: عليه السلام.

[2] ذكرها ابن عادل في اللباب، ٢/٤٤، والزمخشري في الكشّاف، ١/١٣٠، ونسَبها الأوّل إلى ورش، وهي غير القراءة المشهورة عن ورش.

[3] قراءة شاذّة، ذكرها الكرماني في شواذّ القراءات، ص ٦٠؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ١/٧٥، ولم ينسباها إلى أحد.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والزهري وابن أبي إسحاق وعيسى الثقفي والأعمش. المحتسب لابن جنّي، ١/٧٩.

[5] ذكرها ابن عادل في اللباب، ٢/٤، ونسبها إلى ورش، وهي غير القراءة المشهورة عن ورش.

[6] ذكرها ابن عادل في اللباب، ٢/٤، ونسبها إلى ورش، وهي غير القراءة المشهورة عن ورش.

"النعمة" إلى ضمير الجلالة لتشريفها وإيجاب تخصيص شكرها به تعالى. وتقييد "النعمة" بهم لِما أنّ الإنسان مجبول على حُبّ النعمة، فإذا نظر إلى ما فاضَ عليه مِن النِّعم، حمَلَه ذلك على الرِّضى والشكر. قيل: أريدَ بها ما أنعم به على آبائهم مِن النِّعم التي سيجيء تفصيلها وعليهم مِن فنون النِّعم التي أجلُّها إدراكُ عصر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم.[١] وقُرئ: "ادَّكِرُوا"[٢] مِن "الافتعال"، و"نِعْمَتِيْ"[٣] بإسكان الياء وإسقاطها في الدرج، وهو مذهبُ مَن لا يحرّك الياءَ المكسور ما قبلها.

﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي﴾ بالإيمان والطاعة، ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ بحُسن الإثابة. و"العهد" يضاف إلى كلّ واحد ممّن يتولّى طرفَيه. ولعلّ الأوّلَ مضاف إلى الفاعل والثاني إلى المفعول؛ فإنّه تعالى عَهِد إليهم بالإيمان والعمل الصالح بنصب الدلائل وإرسال الرُّسل وإنزال الكُتب، ووعَدَهم بالثواب على حسناتهم، وللوفاء بهما عَرْضٌ عَريض، فأوّلُ مراتبه منّا هو الإتيان بكلمتَي الشهادة، ومِن الله تعالى حَقنُ الدِّماء والأموال، وآخِرُها منّا الاستغراقُ في بحر التوحيد بحيث نغفُل عن أنفُسنا فضلًا عن غيرنا، ومِن الله تعالى الفوزُ باللقاء الدائم. وأمّا ما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أَوفوا بعهدي في اتّباع محمّد عليه السلام، أُوفِ بعهدكم في رفع الآصار والأغلال»،[٤] وعن غيره: «أَوفوا بأداء الفرائض وترك الكبائر، أُوفِ بالمغفرة والثواب»،[٥] أو «أَوفوا بالاستقامة على الطريق المستقيم، أُوفِ بالكرامة والنعيم المقيم»[٦] فبالنظر إلى الوسائط».[٧]

وقيل: كلاهما مضاف إلى المفعول، والمعنى: أَوفوا بما عاهدتموني مِن الإيمان والتزام الطاعة، أُوفِ بما عاهدتُكم مِن حُسن الإثابة. وتفصيل[٨] العهدين

---

١ ي: عليه السلام.

٢ كذا في الأصول الخطّيّة، وفي مطبوع أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧٥/١: "اذَّكِرُوا"، بلا نسبة.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعمش والمفضّل الضبّي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٦٠.

٤ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧٥/١. وما في معناه عنه رضي الله عنهما في جامع البيان للطبري، ٥٩٦/١-٥٩٧؛ وتفسير السمرقندي، ٧٣/١.

٥ روى السمرقندي نحوَه عن الحسن البصري في تفسيره، ٧٣/١؛ والضحّاكُ عن ابن عبّاس كما في جامع البيان للطبري، ٥٩٨/١.

٦ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧٥/١. وما في معناه عن أبي العالية في جامع البيان للطبري، ٥٩٧/١.

٧ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧٥/١.

٨ س: بتفصيل.

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ﴾... إلخ [المائدة، ١٢/٥]. وقُرِئ: "أُوَفِّ"[١] بالتشديد للمبالغة والتأكيد.

﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾ فيما تأتون وما تذَرون، خصوصًا في نقض العهد. وهو آكَدُ في إفادة التخصيص مِن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة، ٥/١] لِما فيه مع التقديم مِن تكرير المفعول والفاءِ الجزائيّة الدالّةِ على تضمّن الكلام معنى الشرط، كأنّه قيل: إن كنتم راهبين شيئًا فارهَبوني. والرَّهبة: خوفٌ معه تحرّزٌ. والآية متضمِّنة للوعد والوعيد، ودالّة[٢] على وجوب الشكر والوفاء بالعهد، وأنّ المؤمن ينبغي ألّا يخاف إلّا الله تعالى.

﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾

﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ﴾ أفرد الإيمان بالقرآن بالأمر به لِما أنّه العُمدة القصوى في شأن الوفاء بالعهود. ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ مِن التوراة، والتعبير عنها بذلك للإيذان بعلمهم بتصديقه لها؛ فإنّ المَعيّة مَئِنّة[٣] لتكرّر[٤] المراجعة إليها والوقوفِ على ما في تضاعيفها المؤدِّي إلى العلم بكونه مصدِّقًا لها.

ومعنى تصديقه للتوراة أنّه نازلٌ حسبما نُعت فيها، أو مِن حيث إنّه موافِق لها في القِصص والمواعيد والدعوة إلى التوحيد والعدلِ بين الناس والنهي عن المعاصي والفواحش؛ وأمّا ما يتراءى مِن مخالفته لها في بعض جزئيّات الأحكام المتفاوتة بسبب تفاوتِ الأعصار، فليست بمخالفة في الحقيقة؛ بل هي[٥] موافِقة لها مِن حيث إنّ كلًّا منها حقٌّ بالإضافة إلى عصره وزمانه، متضمِّنٌ للحكمة التي عليها يدور فَلَك التشريع.

وليس في التوراة دلالة على أبَديّة أحكامها المنسوخة حتّى يخالفَها ما ينسَخها، وإنّما تدلّ على مشروعيّتها مطلَقًا مِن غير تعرّضٍ لبقائها وزوالها؛

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري. المحتسب لابن جنّي، ٨١/١.

[٢] س: دالّة.

[٣] المَئِنّة: العَلامة. الصحاح للجوهري، «مأن».

[٤] ي: لتكرار.

[٥] وفي هامش ي: أي: جزئيّات الأحكام. «منه».

بل نقول: هي ناطقة بنَسخ تلك الأحكام؛ فإنّ نُطقها بصحّة القرآن[1] الناسخِ لها نطقٌ بنَسخها، فإذنْ مناطُ المخالفة في الأحكام المنسوخة إنّما هو اختلاف العصر، حتّى لو تأخَّر نزول المتقدِّم لَنزل على وفق المتأخِّر، ولو تقدَّم نزول المتأخِّر لَوافق المتقدِّمَ قطعًا؛ ولذلك قال عليه السلام: «لو كان موسى حيًّا لَما وسِعه إلّا اتّباعي».[2] وتقييد المُنزَل بكونه مصدِّقًا لِما معهم لتأكيد وجوب الامتثال بالأمر؛ فإنّ إيمانهم بما معهم[3] ممّا يقتضي الإيمانَ بما يصدّقه قطعًا.

﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ أي: لا تسارعوا إلى الكفر به، فإنّ وظيفتكم أن تكونوا أوّلَ مَن آمَن به لِما أنّكم تعرفون شأنه وحقّيّتَه بطريق التلقّي ممّا معكم مِن الكُتب الإلهيّة كما تعرفون أبناءكم، وقد كنتم تستفتِحون به وتبشِّرون بزمانه كما سيجيء،[4] فلا تضعوا موضعَ ما[5] يُتوقّع منكم ويجب عليكم ما لا يُتوهّم صدوره عنكم مِن كونكم أوّلَ كافر به.

ووقوع ﴿أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ خبرًا مِن ضمير الجمع بتأويل "أوّل فريق أو فَوج"، أو بتأويل "لا يكنْ كلُّ واحد منكم أوّلَ كافر به"، كقولك: "كَسَانا حُلّةً". ونهيُهم عن التقدّم في الكفر به[6] -مع أنّ مشركي العرب أقدمُ منهم- لِما أنّ المراد به التعريض، لا الدلالةُ على ما نطق به الظاهر، كقولك: "أمّا أنا، فلستُ بجاهل"، أو لأنّ المراد نهيُهم عن كونهم أوّلَ كافر به مِن أهل الكتاب، أو ممّن كفر بما عنده، فإنّ مَن كفر بالقرآن فقد كفر بما / يصدّقه، أو مثلَ مَن كفر مِن مشركي [٣٤و] مكّةَ. وأوّلُ: "أفعلُ" لا فِعْلَ له، وقيل: أصله "أوْأَل"، مِن "وَأَل إليه" إذا نجا وخلص، فأُبدلت الهمزة واوًا تخفيفًا غيرَ قياسيّ، أو "أَءْوَل" مِن "آلَ"، فقُلبت همزتُه واوًا وأُدغمت.

﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي﴾ أي: لا تأخذوا لأنفسكم بدلًا منها ﴿ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ هي الحظوظ الدُّنيويّة؛ فإنّها، وإن جلّت، قليلةٌ مسترذَلة بالنسبة إلى ما فات عنهم

---

[1] ي: الفرقان.

[2] مسند أحمد، ٣٤٩/٢٣ (١٥١٥٦)؛ سنن الدارمي، ٤٠٣/١ (٤٤٩)، كلاهما باختلاف يسير.

[3] وفي هامش ي: مع ما فيه مِن الترغيب والاستمالة. «منه».

[4] انظر: البقرة، ٨٩/٢.

[5] ي + لا.

[6] ي - به.

مِن حظوظ الآخرة بترك الإيمان. قيل: كانت لهم رياسة في قومهم ورسومٌ وهدايا، فخافوا عليها لو اتّبعوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم،[١] فاختاروها على الإيمان. وإنّما عُبّر عن المشترَى الذي هو العُمدة في عقود المعاوَضة والمقصودُ فيها بـ"الثّمَن" الذي شأنه أن يكون وسيلةً فيها، وقُرنت "الآيات" التي حقُّها أن يتنافس فيها المتنافِسون بـ"الباء" التي تصحب الوسائلَ، إيذانًا بتعكيسهم، حيث جعلوا ما هو المقصد الأصليّ وسيلةً، والوسيلةَ مقصدًا.

﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ بالإيمان واتّباع الحقّ والإعراضِ عن حُطام الدنيا. ولمّا كانت الآية السابقة مشتملةً على ما هو كالمَبادئ لِما في الآية الثانية، فُصِلت بالرُّهبة[٢] التي هي مِن مقدِّمات التقوى، أو لأنّ الخطاب بها لمّا عمّ العالِمَ والمقلِّدَ، أُمر فيها بالرُّهبة المتناولة للفريقين، وأمّا الخطاب بالثانية، فحيث خُصَّ بالعلماء، أُمر فيها بالتقوى الذي هو المنتهَى.

﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ عطفٌ على ما قبله. واللَّبْس: الخَلْط، وقد يلزمه الاشتباه بين المختلطين، والمعنى: لا تخلِطوا الحقَّ المنزَل بالباطل الذي تخترعونه وتكتبونه حتّى يشتبِهَ أحدُهما بالآخر، أو لا تجعلوا الحقَّ ملتبسًا بسبب الباطل الذي تكتبونه في تضاعيفه أو تذكرونه في تأويله.

﴿وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ﴾ مجزوم داخل تحت حُكم النهي، كأنّهم أُمروا بالإيمان وترك الضلال، ونُهوا عن الإضلال بالتلبيس على مَن سمع الحقَّ والإخفاءِ عمّن لم يسمعه، أو منصوبٌ بإضمار "أنْ" على أنّ الواو للجمع، أي: لا تجمعوا بين لَبْس الحقّ بالباطل وبين كِتمانه. ويعضُده أنّه في مُصحف ابن مسعود رضي الله عنه: "وَتَكْتُمُونَ"،[٣] أي: وأنتم تكتمون، أي: كاتمين. وفيه إشعارٌ بأنّ استقباح

[١] ي: عليه السلام.

[٢] في قوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾.

[٣] شواذّ القراءات للكرماني، ص ٦١.

اللَّبْس لِما يصحَبه مِن كِتمان الحقّ. وتكرير ﴿ٱلْحَقَّ﴾ إمّا لأنّ المراد بالأخير ليس عينَ الأوّل؛ بل هو نعتُ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم[١] الذي كتَموه وكتبوا مكانه غيرَه كما سيجيء في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة، ٧٩/٢]، وإمّا لزيادة تقبيح المَنهيّ عنه؛[٢] إذ في التصريح باسم الحقّ ما ليس في ضميره.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: حالَ كونِكم عالِمين بأنّكم لابسون كاتمون، أو وأنتم تعلمون أنّه حقٌّ، أو وأنتم مِن أهل العلم. وليس إيراد الحال لتقييد النهي به كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء، ٤٣/٤]؛ بل لزيادة تقبيح حالهم، إذ الجاهل عسى يُعذَر.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: صلاةَ المسلمين وزكاتَهم؛ فإنّ غيرهما بمَعزِل مِن كونه صلاةً وزكاةً. أمَرَهم الله تعالى بفروع الإسلام بعد الأمر بأصوله. ﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي: في جماعتهم، فإنّ صلاة الجماعة تفضل على صلاة الفَذّ[٣] بسبعٍ وعشرين درجةً[٤] لِما فيها مِن تظاهر النفوس في المناجاة. وعُبّر عن الصلاة بـ"الركوع" احترازًا عن صلاة اليهود. وقيل: الركوع: الخضوع والانقياد لِما يُلزمهم الشارعُ، قال الأضبط بنُ قُريع السعدي:[٥]

لا تحقِرَنَّ الضعيفَ علَّك أن ... تركَعَ يومًا والدهرُ قد رفَعَه[٦]

---

١ ي: عليه السلام.

٢ ط س - عنه.

٣ الفَذّ: الفَرد. **الصحاح** للجوهري، «فذذ».

٤ انظر: **صحيح البخاري**، ١٣١/١ (٦٤٥)؛ و**صحيح مسلم**، ٤٥٠/١ (٦٥٠).

٥ هو الأضبط بن قُريع بن عوف بن كعب السعدي التميمي. شاعر جاهليّ قديم. وكان قومه أساءُوا مجاورته، فانتقل عنهم إلى آخرين، فأساءوا مجاورته، فانتقل منهم إلى آخرين، فأساءوا مجاورته، فرجع إلى قومه وقال: «بكلّ وادٍ بنو سعدا!»، يعني قومَه. انظر: **الشعر والشعراء** لابن قتيبة، ٣٧٠/١-٣٧١؛ و**الأعلام** للزركلي، ٣٣٤/١.

٦ البيت له في **الأضداد** لابن الأنباري، ص ٢٩٧؛ و**الزاهر** للأنباري، ٢٩٣/٢؛ و**أمالي القالي**، ١٠٧/١-١٠٨؛ و**خزانة الأدب** للبغدادي، ٤٥٢/١١. وفي كلّها: "ولا تُعادِ الفقيرَ" بدلَ "لا تحقِرَنَّ الضعيفَ".

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٤٤﴾

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾ تجريد للخطاب وتوجيه له إلى بعضهم بعد توجيهه إلى الكلّ. والهمزة فيها تقرير مع توبيخ وتعجيب. والبِرّ: التوسّع في الخير، مِن "البَرّ" الذي هو الفضاء الواسع، يتناول جميعَ أصناف الخيرات؛ ولذلك قيل: البِرّ ثلاثة: بِرٌّ في عبادة الله تعالى، وبِرٌّ في مراعاة الأقارب، وبِرٌّ في معاملة الأجانب.

﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تتركونها مِن البِرّ كالمَنسيّات. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أنّها نزلت في أحبار المدينة، كانوا يأمُرون سرًّا مَن نصَحوه باتّباع الرسول صلّى الله عليه وسلّم[١] ولا يتّبعونه طمعًا في الهدايا والصِّلات التي كانت تصل إليهم مِن أتباعهم».[٢] وقيل: كانوا يأمرون بالصَّدَقة ولا يتصدّقون.[٣] وقال السدّي: «إنّهم كانوا يأمرون الناس بطاعة الله تعالى وينهَوْنَهم عن معصيته وهم يتركون الطاعة ويُقدِمون على المعصية».[٤] وقال ابن جُريج:[٥] «كانوا يأمرون الناس بالصلاة والزكاة وهم يتركونهما».[٦] ومدار الإنكار والتوبيخ هي الجملة المعطوفة دون ما عُطفت هي عليه.

﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ تبكيت لهم وتقريع، كقوله تعالى:[٧] ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة، ٤٢/٢]، أي: والحالُ أنكم تتلون التوراة الناطقة بنعوته صلّى الله عليه وسلّم[٨] الآمرةَ بالإيمان به أو بالوعد بفعل الخير والوعيدِ على الفساد والعناد وتركِ البِرّ ومخالفةِ القولِ العملَ.

---

١ ي: عليه السلام.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧٧/١. ونحوه عنه رضي الله عنهما في أسباب النزول للواحدي، ص ٢٧؛ وتفسير السمرقندي، ٧٥/١.

٣ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧٧/١.

٤ انظر: جامع البيان للطبري، ٦١٤/١؛ واللباب لابن عادل، ٢٩/٢.

٥ هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جُريج القُرَشي، أبو الوليد (ت. ١٥٠هـ/٧٦٧م). تابعيّ، فقيه الحرم المكّي، محدّث ومفسّر. وهو أوّل مَن صنّف التصانيف في العلم بمكّة. روميّ الأصل، مِن موالي قريش، مكّيّ المولد والوفاة. وكان يدلّس. انظر: وفيات الأعيان لابن خلّكان، ١٦٣/٣-١٦٤؛ وسير أعلام النبلاء للذهبي، ٣٢٥/٦-٣٣٨؛ والأعلام للزركلي، ١٦٠/٤.

٦ جامع البيان للطبري، ٦١٤/١؛ اللباب لابن عادل، ٢٩/٢.

٧ ط س – تعالى.

٨ ي: عليه السلام.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أتتلونه فلا تعقِلون ما فيه أو قُبْحَ ما تصنعون حتّى ترتدعوا عنه؛ فالإنكار متوجّهٌ إلى عدم العقل بعد تحقّق ما يوجبه، فالمبالغة مِن حيث الكيفُ، أو ألَا تتأمّلون فلا تعقِلون؛ فالإنكار متوجّهٌ إلى كِلا الأمرين، والمبالغة حينئذ مِن حيث الكَمّ.

والعقل في الأصل: المنع والإمساك، ومنه "العِقال" الذي يُشدّ به وظيفُ البعير[1] إلى ذِراعه لحبسه عن الحَراك، سُمّي به النور الروحانيّ الذي به يُدرِك[2] النفسُ العلوم الضروريّةَ والنظريّةَ؛ لأنّه يحبِسه[3] عن تعاطي ما يقبح، ويعقِله على ما يحسن.

والآية -كما ترى- ناعية على كلّ مَن يعِظ غيرَه ولا يتّعِظ سوءَ صنيعه وعدم تأثّره، وأنّ فِعْله فعلُ الجاهل بالشرع أو الأحمقِ الخالي عن العقل. والمراد بها -كما أشيرَ إليه- حثُّه[4] على تزكية النفس والإقبالِ عليها بالتكميل لتقوم بالحقّ فتُقيمَ غيرَها؛ لا منعُ / الفاسق عن الوعظ. [٣٤ظ]

يُروى أنّه كان عالِمٌ مِن العلماء مؤثّر الكلام قويّ التصرّف في القلوب، وكان كثيرًا ما يموت مِن أهل مجلسه واحدٌ أو اثنان مِن شدّة تأثير وعظِه، وكان في بلده عجوز لها ابنٌ صالحٌ رقيقُ القلب سريعُ الانفعال، وكانت تحترز عليه وتمنعه مِن حضور مجلس الواعظ،[5] فحضره يومًا على حينِ غفلةٍ منها، فوقع مِن أمر الله تعالى ما وقع، ثمّ إنّ العجوز لقيت الواعظَ يومًا في الطريق، فقالت:

لَتَهدي الأنامَ ولا تهتدي ... ألَا إنّ ذلك لا ينفعُ
فَيَا حَجَرَ الشَّحْذ حتّى متى ... تَسُنُّ الحديدَ ولا تقطعُ

فلمّا سمعه الواعظ شهق شهقةً، فخرَّ مِن فرسه مَغشيًّا عليه، فحمَلوه إلى بيته، فتُوفّي إلى رحمة الله سبحانه.[6]

---

[1] الوَظيف مِن كلّ ذي أربع: ما فوق الرُّسْغ إلى مفصِل الساق، وجمعُه: أَوظِفة. تهذيب اللغة للأزهري، ١٤/٢٨٤ «باب الظاء والفاء».

[2] ي: تدرك.

[3] وفي هامش أ: الضمير للإنسان المدلول عليه بـ"النفس". «منه».

[4] وفي هامش ط س ي: أي: حثّ الواعظ. «منه».

[5] ي: الوعظ.

[6] س: تعالى. | لم نجد هذه الرواية فيما رجعنا إليه مِن المصادر.

﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ٤٥﴾

﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ متّصل بما قبله، كأنّهم لمّا كُلّفوا ما فيه مشقّة مِن ترك الرياسة والإعراضِ عن المال، عُولجوا بذلك، والمعنى: استعينوا على حوائجكم بانتظار النُّجْح والفَرَج توكّلًا على الله تعالى أو بالصوم الذي هو الصبر عن المفطِّرات لِما فيه مِن كسر الشهوة وتصفية النفس والتوسّل بالصلاة والالتجاء إليها، فإنّها جامعة لأنواع العبادات النفسانيّة والبدنيّة مِن الطهارة وسَتر العورة وصرف المال فيهما والتوجّه إلى الكعبة والعكوف على العبادة وإظهار الخشوع بالجوارح وإخلاص النيّة بالقلب ومجاهدة الشيطان ومناجاة الحقّ وقراءة القرآن والتكلّم بالشهادة وكفِّ النفس عن الأطيَبَيْن،[١] حتّى تُجابوا إلى تحصيل المآرب وجبر المصائب. رُوي أنّه عليه السلام كان إذا حزَبَه أمرٌ فزِع إلى الصلاة.[٢] ويجوز أن يراد بها الدعاء.

﴿وَإِنَّهَا﴾ أي: الاستعانةَ بهما أو الصلاةَ، وتخصيصُها بردّ الضمير إليها لِعِظم شأنها واشتمالِها على ضروبٍ مِن الصبر كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾ [الجمعة، ١١/٦٢]، أو جملةَ ما أُمروا بها ونُهوا عنها. ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ لَثقيلة شاقّة، كقوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى، ١٣/٤٢]. ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ الخشوع: الإخبات، ومنه "الخُشْعة" للرَّملة المتطامنة، والخضوع: اللين والانقياد؛ ولذلك يقال: الخشوع بالجوارح، والخضوع بالقلب. وإنّما لم تثقُل عليهم لأنّهم يتوقّعون ما أُعدَّ لهم بمقابلتها، فتَهُون عليهم، ولأنّهم يستغرقون في مناجاة ربّهم، فلا يُدركون ما يجري عليهم مِن المشاقّ والمتاعب؛ ولذلك قال عليه الصلاة السلام: «وقُرّةُ عَيْني في الصلاة».[٣] والجملة حاليّة أو اعتراض تذييليّ.

---

١ الأطيَبان: الطعام والنكاح. كتاب العين للخليل بن أحمد، ٤٦١/٧ «باب الطاء والباء».

٢ أخرجه الطبري في جامع البيان، ٦١٨/١، بنصّه عن حذيفة. وهو في مسند أحمد، ٣٣٠/٣٨ (٢٣٢٩٩)؛ وسنن أبي داود، ٤٨٥/٢ (١٣١٩)، برواية: «...إذا حزَبَه أمرٌ صلّى».

٣ قطعة مِن حديث أنس رضي الله عنه: «حُبّب إليّ النساء والطِّيب، وجُعل قُرّة عيني في الصلاة»، أخرجه أحمد في مسنده، ٤٣٣/٢١ (١٤٠٣٧)؛ والنسائي في سننه، ٦١/٧ (٣٩٣٩).

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝٤٦﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ أي: يتوقّعون لقاءَه تعالى ونَيْلَ ما عنده مِن المَثوبات، والتعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إليهم للإيذان بفيَضان إحسانه إليهم، أو يتيقّنون أنّهم يُحشَرون إليه للجزاء، فيعملون على حسَب ذلك رغبةً ورهبةً؛ وأمّا الذين لا يُوقنون بالجزاء ولا يرجُون الثوابَ ولا يخافون العقابَ، كانت عليهم مشقّةً خالصةً، فتثقُل[1] عليهم كالمنافقين والمُرائِين، فالتعرّض للعنوان المذكور للإشعار بعلّيّة الربوبيّة والمالكيّة للحُكم. ويؤيّده أنّ في مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: "يَعْلَمُونَ".[2] وكأنّ الظنَّ لمّا شابَهَ العلمَ في الرجحان، أُطلقَ عليه لتضمين معنى التوقّع، قال:

فأرسلْتُه مستيقِنَ الظنّ أنّه مُخالِطُ ما بين الشراسيف خائفُ[3]

وجعلُ خبر ﴿أَنَّ﴾ في الموضعَين اسمًا للدلالة على تحقّق اللقاء والرجوع وتقرّرِهما عندهم.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧﴾

﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ كُرّر التذكير للتأكيد ولربط ما بعده مِن الوعيد الشديد به. ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾ عطفٌ على ﴿نِعْمَتِيَ﴾ عطفَ الخاصّ على العامّ لكماله، أي: فضّلتُ آباءَكم ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: عالَمِي زمانِهم بما منحْتُهم مِن العلم والإيمان والعمل الصالح وجعلتُهم أنبياءَ وملوكًا مُقسِطين. وهم آباؤهم الذين كانوا في عصر موسى عليه السلام وبعده قبل أن يغيّروا.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٤٨﴾

﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا﴾ أي: حسابَ يوم أو عذابَ يوم ﴿لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾

---

[1] ي: فيثقل.

[2] أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٧٨.

[3] البيت لأوس بن حجر في ديوانه، ص ٧٢؛ وشرح شواهد المغني للسيوطي، ١/١١٣-١١٤. وفيهما: "فأرسَلَه" بدلَ "فأرسلْتُه"، و"جائف" بدلَ "خائف".

أي: لا تقضي عنها شيئًا مِن الحقوق، فانتصاب ﴿شَيْـًٔا﴾ على المفعوليّة، أو شيئًا مِن الجزاء، فيكون نصبُه على المصدريّة، وقُرئ: "لَا تُجْزِئُ"،[١] أي: لا تُغني عنها، فيتعيّن النصب على المصدريّة. وإيراده منكَّرًا مع تنكير "النفس" للتعميم والإقناط الكلّيّ. والجملة صفة ﴿يَوْمًا﴾، والعائد منها محذوف، أي: لا تَجزي فيه؛ ومَن لم يجوِّز الحذفَ قال: اتُّسع فيه، فحُذف الجارّ، وأُجريَ المجرور مُجرى المفعول به، ثمّ حُذف كما حُذف في قول مَن قال:

فما أدري أغَيَّرهم تَناءٍ وطولُ العهدِ أم مالٌ أصابوا[٢]

أي: أصابوه.

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي: مِن النفس الثانية العاصية، أو مِن الأولى. والشفاعة مِن "الشَّفْع"، كأنّ المشفوع له كان فردًا، فجعَله الشفيعُ شفعًا. والعدل: الفِدية، وقيل: البدل، وأصله التسوية، سُمّي به الفدية؛ لأنّها تُساوي المَفديّ وتَجري مَجراه.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: يُمنَعون مِن عذاب الله عزّ وجلّ. والضمير لِما دلّت عليه النفس الثانية المنكَّرة الواقعةُ في سياق النفي مِن النفوس الكثيرة، والتذكيرُ لكونها عبارةً عن العباد والأَناسيّ. والنُّصرة ههنا أخصُّ مِن المَعونة لاختصاصها بدفع الضرر، وكأنّه أُريدَ بالآية نفيُ أن يدفع العذابَ أحدٌ عن أحد مِن كلّ وجه محتمل؛ فإنّه إمّا أن يكون قهرًا أو لا، والأوّل النُّصرة، والثاني إمّا أن يكون مجّانًا أو لا، والأوّل الشفاعة، والثاني إمّا أن يكون بأداء عينِ ما كان عليه، وهو أن يُجزَى عنه، أو بأداء غيره، وهو أن يُعطَى عنه عَدْلًا.

[٣٥و] وقد تمسّكت المعتزلة بهذه الآية على نفي الشفاعة لأهل الكبائر. / والجواب: أنّها خاصّة بالكفّار للآيات الواردة في الشفاعة والأحاديث المرويّة فيها، ويؤيّده أنّ الخطاب معهم ولردّهم عمّا كانوا عليه مِن اعتقادِ أنّ آباءهم الأنبياءَ يشفَعون لهم.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السمّال. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٦١.

[٢] البيت للحارث بن كَلَدَة الثقفي في أمالي ابن الشجري، ١/٥-٦؛ والحماسة البصريّة، ٢/٦٦، وبلا نسبة في كتاب سيبويه، ١/١٣٠؛ واللباب لابن عادل، ١٨/٤٦٥ (الحديد، ١٠/٥٧).

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ تذكير لتفاصيل ما أُجملَ في قوله تعالى: ﴿نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة، ٢/٤٠، ٤٧] مِن فنون النَّعماء وصنوف الآلاء، أي: واذكروا وقتَ تنجيتِنا إيّاكم، أي: آباءَكم، فإنّ تنجيتهم تنجيةٌ لأعقابهم. وقُرئ: "أَنْجَيْتُكُمْ".[١] وأصلُ ﴿ءَالِ﴾ أهلٌ؛ لأنّ تصغيره "أُهَيل"، وخُصّ بالإضافة إلى أُولي الأخطار كالأنبياء عليهم السلام والملوك. و﴿فِرْعَوْنَ﴾ لقبٌ لِمن ملِك العَمالِقةَ،[٢] ككِسرى لملِك الفُرس وقَيْصرَ لملِك الروم وخاقانَ لملِك التُّرك، ولعُتُوّه اشتُقّ منه "تَفرعَنَ الرّجلُ" إذا عتا وتمرّد.

وكان فرعون موسى عليه السلام مُصعبَ بن[٣] ريّانَ، وقيل: ابنه وليد مِن بقايا عادٍ،[٤] وقيل: إنّه كان عطّارًا أصفهانيًا ركبتْه الدُّيون، فأفلس، فاضطرّ إلى الخروج، فلحِقَ بالشام، فلم يتسنَّ له المُقام به، فدخل مصرَ، فرأى في ظاهره حملًا مِن البِطّيخ بدِرْهمٍ وفي نفسه بِطّيخًا بدرهمٍ،[٥] فقال في نفسه: «إن تيسّر لي أداءُ الديون، فهذا طريقه»، فخرج إلى السَّواد،[٦] فاشترى حملًا بدرهمٍ، فتوجّه به إلى السوق، فكلُّ مَن لقِيَه مِن المَكّاسين[٧] أخذوا منه بِطّيخًا، فدخل البلد وما معه إلّا بِطّيخة فَذّة،[٨] فباعها[٩] بدرهمٍ، ومضى لوجهه، ورأى أهلَ البلد متروكين سُدًى

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن إبراهيم النخعي ويحيى. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٦١.

[٢] العماليق والعمالقة: قوم مِن العرب العاربة البائدة، وهم بنو عِمْليق -ويقال: عِمْلاق- بن لاوذ بن إرَمَ بن سام بن نوح عليه السلام، وهم أمّة عظيمة يُضرَب بهم المَثل في الطول والجثمان، قال الطبري: «وتفرّقت منهم أمّة في البلاد، فكان منهم أهل المشرق وأهل عُمان والبحرين والحجاز، وكان منهم ملوك العراق والجزيرة وجبابرة الشام وفراعنة مصر». انظر: **نهاية الأرب** للقَلْقَشندي، ص ١٥٠-١٥١؛ و**تاج العروس** للزبيدي، «عملق».

[٣] س: ابن.

[٤] قاله محمّد بن إسحاق ووهب بن منبّه كما في **اللباب** لابن عادل، ٢/٥٦.

[٥] في ظاهره، أي: في خارج مصر، وفي نفسه، أي: في داخل مصر.

[٦] السَّواد مِن البلدة: قُراها. **تاج العروس** للزبيدي، «سود».

[٧] المَكْس: دراهمُ كانت تُؤخَذ مِن بائع السِّلع في الأسواق في الجاهليّة. والمكّاس: مَن وظيفته أخذُ هذه الضريبة. انظر: **لسان العرب** لابن منظور، «مكس».

[٨] الفَذّ: الفَرد. **الصحاح** للجوهري، «فذذ».

[٩] ي: وباعها.

لا يتعاطى أحدٌ سياستَهم، وكان قد وقع به وباء عظيم، فتوجَّه نحوَ المقابر، فرأى ميّتًا يُدفَن، فتعرَّض لأوليائه، فقال: «أنا أمين المقابر، فلا أدَعُكم تدفِنونه حتّى تُعطوني خمسةَ دراهمَ»، فدفعوها إليه، ومضى لآخرَ وآخرَ حتّى جمع في مقدار ثلاثةِ أشهرٍ مالًا عظيمًا، ولم يَتعرّض له أحد قطُّ إلى أن تعرَّض يومًا لأولياء ميّتٍ، فطلب منهم ما كان يطلب مِن غيرهم، فأبَوْا ذلك، فقالوا: «مَن نصَّبك هذا المنصِبَ؟»، فذهبوا به إلى فرعونَ، فقال: «مَن أنت، ومَن أقامك بهذا المقام؟»، قال: «لم يُقِمْني أحد، وإنّما فعلتُ ما فعلتُ ليُحضِرَني أحد إلى مجلسك فأُنبّهَك على اختلال حال قومك، وقد جمعتُ بهذا الطريق هذا المقدارَ مِن المال»، فأحضَره ودفعه إلى فرعونَ، فقال: «وَلِّني أمورَك تَرَني[1] أمينًا كافيًا»، فولّاه إيّاها، فسار بهم سيرةً حسنةً، فانتظمت مصالح العسكر واستقامت أحوال الرَّعيّة، ولبِثَ فيهم دهرًا طويلًا، وترامى أمره في العدل والصلاح، فلمّا مات فرعون أقاموه مقامه، فكان مِن أمره ما كان.[2] وكان فرعون يوسفَ عليه السلام ريّان،[3] وكان بينهما أكثرُ مِن أربعمائةِ سنةٍ.[4]

﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ أي: يبغونكم، مِن "سَامَهُ خسفًا" إذا أولاه ظلمًا، وأصله الذهاب في طلب الشيء. ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: أفظعَه وأقبحَه بالنسبة إلى سائره. والسُّوء: مصدر مِن "ساء يسوءُ"، ونصبُه على المفعوليّة لـ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾. والجملة حال مِن الضمير في ﴿نَجَّيْنَٰكُم﴾، أو مِن ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، أو منهما جميعًا لاشتمالها على ضميرَيهما.

﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ بيان لـ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾؛ ولذلك تُرك العاطف بينهما. وقُرئ: "يَذْبَحُونَ"[5] بالتخفيف. وإنّما فعلوا بهم ما فعلوا لِما أنّ فرعونَ رأى في المنام أو أخبرَ الكَهَنةُ أنّه سيولَد منهم مَن يذهب بمُلكه، فلم يردَّ اجتهادُهم مِن قضاء الله عزّ وجلّ[6] شيئًا. قيل: قتلوا بتلك الطريقة تسعمائة ألفِ

---

[1] ي: تراني.

[2] لم نجده فيما رجعنا إليه مِن المصادر.

[3] قاله محمّد بن إسحاق كما في اللباب لابن عادل، ٥٦/٢.

[4] قاله وهب بن منبّه كما في اللباب لابن عادل، ٥٦/٢.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٦١.

[6] ي: تعالى.

مولودٍ أو تسعين ألفًا. وقد أعطى الله عزّ وجلّ[1] نفسَ موسى عليه السلام مِن القوّة على التصرّف ما كان يعطيه أولئك المقتولين لو كانوا أحياء؛ ولذلك كانت معجزاته ظاهرةً باهرةً.

﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن التذبيح والاستحياء، أو إلى الإنجاء منه، وجمعُ الضمير للمخاطَبين؛ فعلى الأوّل معنى قوله تعالى: ﴿بَلَآءٌ﴾: مِحنةٌ وبَلِيّةٌ، وكونُ استحياء نسائهم -أي: استبقائهنّ على الحياة- محنةً -مع أنّه عفوٌ وتركٌ للعذاب- لِما أنّ ذلك كان للاستعمال في الأعمال الشاقّة، وعلى الثاني: نعمةٌ. وأصل "البلاء" الاختبار؛ ولكنْ لمّا كان ذلك في حقّه سبحانه مُحالًا، وكان ما يجري مَجرى الاختبار لعباده تارةً بالمِحنة وأخرى[2] بالمِنحة، أُطلقَ عليهما. وقيل: يجوز أن يشار بـ﴿ذَٰلِكُم﴾ إلى الجملة ويرادَ بـ"البلاء" القدر المشترَك الشاملُ لهما.

﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ مِن جهته تعالى بتسليطهم عليكم، أو ببعث موسى عليه السلام وتوفيقه لتخليصكم منهم، أو بهما معًا. ﴿عَظِيمٌ﴾ صفة لـ﴿بَلَآءٌ﴾. وتنكيرُهما للتفخيم. وفي الآية الكريمة تنبيهٌ على أنّ ما يصيب العبدَ مِن السرّاء والضرّاء مِن قبيل الاختبار، فعليه الشكرُ في المسارّ والصبرُ على المضارّ.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ بيان لسبب التنجية وتصوير لكيفيّتها إثرَ تذكيرها وبيان عِظمها وهَوْلها، وقد بُيِّن في تضاعيف ذلك نعمة جليلة أخرى هي الإنجاء مِن الغَرَق، أي: واذكروا[3] إذ فلَقْناه بسلوككم، أو ملتبسًا بكم كقوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ [المؤمنون، ٢٣/٢٠]، أو بسبب إنجائكم، وفصّلنا بين بعضه وبعضٍ حتّى حصلت مسالكُ. وقُرئ بالتشديد[4] للتكثير؛ لأنّ المَسالك كانت اثني عشَرَ بعدد الأسباط.

---

[1] ي: تعالى.
[2] ط: وتارة.
[3] ط س: اذكروا.
[4] أي: "فرّقنا"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٦٢.

﴿فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ﴾ أي: مِن الغَرَق بإخراجكم إلى الساحل، كما يلوّح به العُدول إلى صيغة "الإفعال" بعد إيراد التخليص مِن فرعونَ بصيغة "التفعيل"، وكذا قولُه تعالى:[١] ﴿وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾، أريدَ فرعون وقومه، وإنّما اقتُصر على ذِكرهم للعلم بأنّه أولى به منهم، وقيل: شخصه، كما رُوي أنّ الحسن رضي الله عنه كان يقول: «اللّٰهمّ صلِّ على آل محمّدٍ»،[٢] أي: شخصِه، واستُغني بذكره عن ذكر قومه. ﴿وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ ذلك، أو غَرَقَهم وإطباقَ البحر عليهم، أو انفلاقَ البحر عن طُرق يابسة مذلّلة، أو جُثَثَهم التي قذفها البحر إلى الساحل، أو ينظر بعضكم بعضًا.

روي أنّه تعالى أمر موسى عليه السلام أن يُسريَ ببني إسرائيلَ، فخرج بهم، فصبَّحَهم فرعونُ وجنودُه، / وصادفوهم على شاطئ البحر، فأوحى الله تعالى إليه أن اضرِبْ بعصاك البحرَ، فضربه بها، فظهر فيه اثنا عشرَ طريقًا يابسًا، فسلكوها، فقالوا: «نخاف أن يغرق بعضُ أصحابنا، فلا نعلم به»، ففتح الله تعالى فيها كُوًى، فتراءَوْا وتسامعوا حتّى عبَروا البحر، فلمّا وصل إليه فرعون فرآه منفلِقًا، اقتحمه هو وجنوده، فغشِيَهم ما غشيهم.[٣] [٣٥ظ]

واعلم أنّ هذه الوقعة[٤] كما أنّها لموسى معجزة عظيمة تَخِرّ لها صَمّ الجبال ونعمةٌ عظيمة لأوائل بني إسرائيلَ موجبةٌ عليهم شكرَها، كذلك اقتصاصُها على ما هي عليه مِن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم[٥] معجزةٌ جليلةٌ تطمئنّ بها القلوب الأبيّة وتنقاد لها النفوس الغبيّة، موجبةٌ لأعقابهم أن يتلقَّوْها بالإذعان، فلا تأثّرت أوائلُهم بمشاهدتها ورُؤيتها ولا تذكّرت أواخرُهم بتذكيرها وروايتها، فيا لها مِن عصابةٍ ما أعصاها وطائفةٍ ما أطغاها.

﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ۝٥١﴾

﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ﴾ لمّا عادوا إلى مصرَ بعد مَهلك فرعونَ وعَدَ الله

---

١ وفي هامش ي: أي: يلوّح به قوله تعالى. «منه».
٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٨٠.
٣ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٨٠. ونحوه عن ابن عبّاس ووهب بن منبّه والسدّي رضي الله عنهم في جامع البيان للطبري، ١/٦٥٨-٦٦٢.
٤ ي: الواقعة.
٥ ي: عليه السلام.

موسى عليه السلام[1] أن يُعطيه التوراة، وضرب له ميقاتًا ذا القَعْدة وعشرَ ذي الحِجّة، وقيل: وعَدَ عليه السلام بني إسرائيلَ وهو بمصرَ إن أهلك الله عدوَّهم أتاهم بكتابٍ مِن عند الله تعالى فيه بيانُ ما يأتون وما يذرون، فلمّا هلك فرعونُ سأل موسى ربّه الكتابَ، فأمره بصوم ثلاثين، وهو شهرُ ذي القَعْدة، ثمّ زاد[2] عشرًا مِن ذي الحِجّة؛ وعُبّر عنها بـ"الليالي"؛ لأنّها غُرَر الشهور. وصيغة المفاعلة بمعنى الثُّلاثيّ، وقيل: على أصلها تنزيلًا لقبول موسى عليه السلام منزلةَ الوعد. و﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ مفعول ثانٍ لـ﴿وَٰعَدْنَا﴾ على حذف المضاف، أي: تمامَ أربعين ليلةً. وقُرئ: "وَعَدْنَا".[3]

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ بتسويل السامريّ إلٰهًا ومعبودًا. و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي الرُّتَبيّ. ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: مِن بعد مضيّه إلى الميقات، على حذف المضاف. ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ بإشراككم ووضعِكم للشيء في غير موضعه. وهو حال مِن ضمير ﴿ٱتَّخَذْتُمْ﴾، أو اعتراض تذييليّ، أي: وأنتم قوم عادتُكم الظلمُ.

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُمْ﴾ حين تُبتم. والعَفْو: محوُ الجريمة، مِن "عفاه": درَسَه، وقد يجيء لازمًا، قال:

عرفتُ المَنزِلَ الخالي ... عَفَا مِن بعدِ أحوالِ
عفاه كلُّ حَنّانٍ ... كثيرِ الوَبْلِ هَطّالِ[4]

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: مِن بعد الاتّخاذ الذي هو متناهٍ في القُبح، للإيذان بكمال بُعد العَفْو بعد تلك المَرتبة مِن الظلم. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لِكي تشكروا نعمةَ العفو وتستمرّوا بعد ذلك على الطاعة.

---

[1] ي - عليه السلام.
[2] ط: زاده.
[3] قرأ بها أبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢١٢.
[4] البيت للوليد بن يزيد في ديوانه، ص ٥١؛ ودلائل الإعجاز للجرجاني، ص ٢٣٨-٢٣٩. وفيهما: "عَسُوف" بدلَ "كثير". والحَنّان: مِن صفة السحاب الذي يُسمَع رعده كحَنين الإبل، والوَبْل: المطر الشديد، وهطّال: متتابع الوَدْق. انظر: تعليق محمود محمّد شاكر عليه في دلائل الإعجاز.

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝٥٣﴾

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾ أي: التوراةَ الجامعةَ بين كونها كتابًا وحُجّةً تفرّق بين الحقّ والباطل. وقيل: أريدَ بـ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ معجزاته الفارقة بين المُحقّ والمُبطِل في الدعوى أو بين الكفر والإيمان، وقيل: الشرعُ الفارقُ بين الحلال والحرام، أو النصرُ الذي فرّق بينه وبين عدوّه، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾،[1] يريد به يومَ بدرٍ. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لِكي تهتدوا بالتدبّر فيه والعمل بما يحويه.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٤﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ بيان لكيفيّة وقوع العَفو المذكور. ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ أي: معبودًا، ﴿فَتُوبُوا﴾ أي: فاعزِموا على التوبة ﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ أي: إلى مَن خلقكم بريئًا مِن العيوب والنقصان والتفاوت، وميّز بعضَكم مِن بعضٍ بصوَر وهيئات مختلفة. وأصل التركيب الخلوص عن الغير، إمّا بطريق التفصّي، كما في "برِئَ المريضُ"، أو بطريق الإنشاء، كما في "بَرَأَ الله آدم مِن الطين". والتعرّض لعنوان البارئيّة للإشعار بأنّهم بلغوا مِن الجهالة أقصاها ومِن الغَباوة منتهاها، حيث تركوا عبادة العليم الحكيم الذي خلقهم بلطيف حكمته بريئًا مِن التفاوت والتنافرِ إلى عبادة البقر الذي هو مَثَلٌ في الغباوة، وأنّ مَن لم يعرف حقوق مُنعِمه حقيقٌ بأن تُستردّ[2] هي منه؛ ولذلك أُمروا بالقتل وفكّ التركيب.

﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ تمامًا لتَوبتكم بالبَخْع أو بقطع الشهَوات. وقيل: أُمروا أن يقتل بعضُهم بعضًا. وقيل: أُمر مَن لم يعبد العِجل بقتلِ مَن عَبَده. يُروى أنّ الرجل كان يرى قريبَه، فلم يقدِر على المُضِيّ لأمر الله تعالى، فأرسل ضَبابةً وسحابةً سوداءَ لا يتباصرون بها، فأخذوا يقتلون مِن الغَداة إلى العَشِيّ حتّى دعا موسى

---

[1] ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال، ٨/٤١].

[2] ط: يستردّ.

وهارون عليهما السلام، فكُشفت السحابة ونزلت التوبة، وكانت القتلى سبعين ألفًا.[1] و"الفاء" الأولى للتسبيب، والثانية للتعقيب.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن التَّوْب والقتل. ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ لِما أنّه طُهْرة عن الشرك ووُصْلة إلى الحياة الأبَديّة والبَهجة السَّرْمديّة. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ عطفٌ على محذوفٍ على أنّه خطاب منه سبحانه على نهج الالتفات مِن التكلّم الذي يقتضيه سباق النظم الكريم وسياقه -فإنّ مبنَى الجميع على التكلّم- إلى الغَيبة ليكون ذريعةً إلى إسناد الفعل إلى ضمير ﴿بَارِئِكُمْ﴾ المستتبع للإيذان بعلّيّة عنوان البارئيّة والخلق والإحياءِ لقبول التوبة التي هي عبارة عن العَفو عن القتل، تقديرُه: ففعلتم ما أُمرتم به، فتاب عليكم بارئكم. وإنّما لم يُقل: "فتاب عليهم" على أنّ الضمير للقوم لِما أنّ ذلك نعمةٌ أُريدَ التذكير بها للمخاطبين، لا لأسلافهم.

هذا، وقد جُوّز أن يكون ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ متعلِّقًا بمحذوف على أنّه مِن كلام موسى عليه السلام لقومه، تقديرُه: إن فعلتم ما أُمرتم به، فقد تاب عليكم. ولا يخفى أنّه بمَعزِل مِن اللياقة بجلالة شأن التنزيل؛ كيف لا، وهو حينئذ حكاية لوعد موسى عليه السلام قومَه بقبول التوبة منه تعالى، لا لقبوله تعالى حتمًا، وقد عرفتَ أنّ الآية الكريمة تفصيل لكيفيّة القبول المَحكيّ فيما قبلُ، وأنّ المراد تذكير المخاطبين بتلك النعمة.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تعليل لِما قبله، أي: الذي يُكثر توفيقَ المُذنِبين للتوبة، ويبالِغ في قبولها منهم وفي الإنعام عليهم.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ تذكير لنعمة أخرى عليهم بعد ما صدَرَ عنهم ما صدر مِن الجناية العظيمة التي هي اتّخاذ العِجل، أي: لن نؤمنَ لأجل قولك

---

[1] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٨١/١. ونحوه في جامع البيان للطبري، ٦٨٤/١-٦٨٥؛ والكشف والبيان للثعلبي، ١٩٨/١.

ودعوتِك، أو لن نُقرَّ لك. والمؤمَن به إعطاءُ الله تعالى[١] إيّاه التوراةَ، أو تكليمُه إيّاه، / أو أنّه نبيٌّ، أو أنّه تعالى جعل توبتَهم بقتلهم أنفسَهم. [٣٦و]

﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ أي: عِيانًا، وهي في الأصل مصدرُ قولك: "جهَرتُ بالقراءة"، استُعيرت للمعاينة لِما بينهما مِن الاتّحاد في الوضوح والانكشاف، إلّا أنّ الأوّل في المسموعات والثاني في المُبصَرات. ونصبُها على المصدريّة؛ لأنّها نوع مِن الرؤية، أو حالٌ مِن الفاعل أو المفعول. وقُرئَ بفتح الهاء[٢] على أنّها مصدر كـ"الغَلَبة"، أو جمعٌ كـ"الكَتَبة"، فيكون حالًا مِن الفاعل لا غير.

والقائلون هم السبعون المختارون لمِيقات التوبة عن عبادة العِجل. رُوي أنّهم لمّا ندموا على ما فعلوا، وقالوا: «لَئن لم يرحمنا ربُّنا ويغفِرْ لنا لَنكوننَّ مِن الخاسرين»،[٣] أمَرَ الله موسى عليه السلام أن يجمع سبعين رَجلًا ويحضُرَ معهم الطورَ يُظهرون فيه تلك التوبةَ، فلمّا خرجوا إلى الطور وقع عليه عَمودٌ مِن الغمام وتغشّاه كلّه، فكلَّم الله موسى عليه السلام يأمرُه وينهاه، وكان كلمّا كلّمه تعالى أوقع على جَبهته نورًا ساطعًا لا يستطيع أحد مِن السبعين النظرَ إليه، وسمِعوا كلامَه تعالى مع موسى: «افعلْ ولا تفعلْ»، فعند ذلك طمعوا في الرؤية، فقالوا ما قالوا،[٤] كما سيأتي في سورة الأعراف إن شاء الله تعالى.[٥] وقيل: عشرةُ آلاف مِن قومه.

﴿فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ لفرط العناد والتعنّت وطلبِ المستحيل؛ فإنّهم ظنّوا أنّه سبحانه وتعالى ممّا يُشبِه الأجسامَ ويتعلّق به الرؤية تعلُّقَها بها على طريقة المقابلة في الجهات والأحياز، ولا ريبَ في استحالته. إنّما الممكن في شأنه تعالى الرؤية المنزَّهةُ عن الكيفيّات بالكلّيّة. وذلك للمؤمنين في الآخرة

---

١ ط س - تعالى.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة والأعرج وسهل بن شعيب النّهمي. المحتسب لابن جنّي، ٨٤/١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٦٢.

٣ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ۝ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف، ١٤٨/٧-١٤٩].

٤ انظر: جامع البيان للطبري، ٦٩٣/١-٦٩٤؛ وتفسير الرازي، ٥١٩/٣؛ واللباب لابن عادل، ٨٦/٢.

٥ انظر: تفسير الأعراف، ١٥٥/٧.

وللأفراد مِن الأنبياء الذين بلغوا مِن صَفاء الجوهر إلى حيث تراهم كأنّهم، وَهُمْ في جلابيبَ مِن أبدانهم، قد نَضَوْها وتجرَّدوا عنها إلى عالَم القُدس في بعض الأحوال في الدنيا.

قيل: جاءت نار مِن السماء، فأحرقتهم، وقيل: صيحةٌ، وقيل: جنودٌ سمعوا بحسيسها، فخرّوا صعِقين ميّتين يومًا وليلةً. وعن وهب: أنّهم لم يموتوا؛ بل لمّا رأَوْا تلك الهيئة الهائلةَ أخذتهم الرَّعدة، ورُجِفوا حتّى كادت تَبِين مفاصلُهم وتُنقَض ظهورُهم، وأشرفوا على الهلاك، فعند ذلك بكى موسى عليه السلام ودعا ربَّه، فكشف الله عزّ وجلّ عنهم ذلك، فرجعت إليهم عقولهم ومشاعرهم،[1] ولم يكن صَعْقة موسى عليه السلام موتًا؛ بل غَشْيةً لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾.[2]

﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أي: ما أصابكم بنفسه أو بآثاره.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ بتلك الصاعقة. قُيّد البعث به لِما أنّه قد يكون مِن الإغماء، وقد يكون مِن النوم كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ[3]﴾... إلخ [الكهف، ١٨/١٢]. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: نعمةَ البعث، أو ما كفرتموه بما رأيتم مِن بَأس الله تعالى.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ أي: جعلناها بحيث نُلقي[4] عليكم ظِلَّها. وذلك أنّه تعالى سخَّر لهم السحاب يَسير بسيرهم وهم في التِّيه[5] يُظلّهم مِن الشمس

---

١ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٩/٤ (الأعراف، ١٥٥/٧)؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٣٨٩/٩ (الأعراف، ١٥٥/٧)؛ وتفسير القرطبي، ٢٩٥/٧ (الأعراف، ١٥٥/٧).

٢ ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف، ١٤٣/٧].

٣ ط – لنعلم.

٤ س: تلقي.

٥ ي: وهم بالتِّيه.

وينزل بالليل عَمود مِن نارٍ يسيرون في ضَوئه وثيابُهم لا تتّسخ ولا تَبلى.[١] ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ أي: التُّرُنْجَبِين والسُّمانَى. وقيل:[٢] كان ينزل عليهم المنّ مثلَ الثَّلْج مِن الفجر إلى الطلوع، لكلّ إنسانٍ صاعٌ، وتبعَثُ الجَنوبُ عليهم[٣] السُّمانَى، فيذبح الرجلُ منه ما يكفيه. ﴿كُلُوا﴾ على إرادة القول، أي: قائلين لهم أو قيل لهم: كلوا ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ مِن مستلذّاته. و﴿مَا﴾ موصولةً كانت أو موصوفةً عبارةٌ عن المَنّ والسَّلوى.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ كلام عُدل به عن نهج الخطاب السابق للإيذان باقتضاء جنايات[٤] المخاطبين للإعراض عنهم وتَعدادِ قبائحهم عند غيرهم على طريق المُباثّة، معطوفٌ على مضمَرٍ قد حُذف للإيجاز والإشعارِ بأنّه أمر محقَّق غنيٌّ عن التصريح به، أي: فظلموا بأن كفروا تلك النِّعم الجليلةَ، وما ظلمونا بذلك؛ ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكُفران؛ إذ لا يتخطّاهم ضرره. وتقديم المفعول للدلالة على القَصر الذي يقتضيه النفي السابق، وفيه ضربُ تهكّمٍ بهم. والجمع بين صيغتَي الماضي والمستقبل للدلالة على تَماديهم في الظلم واستمرارهم على الكفر.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ تذكير لنعمة أخرى مِن جَنابه تعالى وكَفْرةٍ أخرى لأسلافهم، أي: واذكروا وقتَ قولِنا لآبائكم إثرَ ما أنقذناهم مِن التِّيه: ﴿ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ منصوبةٌ على الظرفيّة عند سيبويه، وعلى المفعوليّة عند الأخفش. وهي بيتُ المَقدِس، وقيل: أَريحا.[٥] ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ أي: واسعًا هنيئًا. ونصبُه على المصدريّة أو الحاليّة مِن ضمير المخاطبين. وفيه دلالة على أنّ المأمور به

---

[١] انظر: جامع البيان للطبري، ٦/٢.

[٢] ط س: قيل.

[٣] ط: وتبعث عليهم الجنوب.

[٤] ي: جناية.

[٥] هي مدينة الجَبّارين في الغور مِن أرض الأردنّ بالشام، بينها وبين بيت المقدِس يومٌ للفارس في جبالٍ صعبة المَسلَك، سُمّيت فيما قيل بأريحا بن مالك بن إرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام. معجم البلدان للحَمَوي، ١٦٥/١.

الدخولُ على وجه الإقامة والسُّكنى، فيَئُول إلى ما في سورة الأعراف مِن قوله تعالى: ﴿ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [الأعراف، ٧/١٦١].

﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ﴾ أي: بابَ القرية، على ما رُوي مِن أنّهم دخلوا أريحَا في زمن موسى عليه السلام كما سيجيء في سورة المائدة،[١] أو بابَ القُبّة التي كانوا يُصلُّون إليها؛ فإنّهم لم يدخلوا بيت المقدِس في حياة موسى عليه السلام. ﴿سُجَّدًا﴾ أي: متطأمنين مُخبِتِين،[٢] أو ساجدين لله شكرًا على إخراجهم مِن التّيه. ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ أي: مسألتُنا أو أمرُك حِطّة. وهي "فِعْلَة" مِن "الحَطّ" كـ"الجِلْسَة". وقُرئ بالنصب[٣] على الأصل بمعنى "حُطَّ عنّا ذنوبَنا حِطّةً"، أو على أنّها[٤] مفعول ﴿قُولُوا﴾، أي: قولوا هذه الكلمة. وقيل: معناه: أمرُنا حِطّة، أي: أن نحُطَّ رِحالنا في هذه القرية ونُقيمَ بها.

﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ لِما تفعلون مِن السجود والدعاء. وقُرئ بالياء والتاء على البناء للمفعول.[٥] وأصل ﴿خَطَٰيَٰا﴾ "خَطايِئُ"، كـ"خطائع"، فعند سيبويه أُبدلت الياء الزائدة همزةً لوقوعها بعد الألف، واجتمعت همزتان، وأُبدلت الثانية ياءً، ثمّ قُلبت ألفًا، وكانت الهمزة بين ألفَين، فأُبدلت ياءً، وعند الخليل قُدّمت الهمزة على الياء، ثمّ فُعل بها ما ذُكر. ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ثوابًا. جُعل الامتثال توبةً للمُسيء وسببًا لزيادة الثواب للمُحسِن وأُخرجَ ذلك عن صورة الجواب إلى الوعد، إيذانًا بأنّ المُحسِن بصدَد ذلك وإن / لم يفعله، فكيف إذا فعله، وإنّه يفعله لا محالةَ. [٣٦ظ]

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بما أُمروا به مِن التوبة والاستغفار بأن أعرضوا عنه وأوردوا مكانه ﴿قَوْلًا﴾ آخرَ ممّا لا خيرَ فيه. رُوي أنّهم قالوا مكانَ ﴿حِطَّةٌ﴾:

---

[١] انظر: تفسير المائدة، ٥/٢٦.

[٢] ي: مخبين.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عَبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٦٢.

[٤] ي: أنّه.

[٥] أي: "يُغفَرْ" و"تُغفَرْ"، قرأ بالأولى ابن عامر، وبالثانية نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢١٥.

"حِنْطة"،[١] وقيل: قالوا بالنَّبَطيَّة: "هَطًّا سُمْقاثًا"،[٢] يَعنُون "حِنطةً حمراءَ" استخفافًا بأمر الله عزّ وجلّ. ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ نعتٌ لـ﴿قَوْلًا﴾، وإنّما صُرّح به -مع استحالة تحقّق التبديل بلا مغايَرةٍ- تحقيقًا لمخالفتهم وتنصيصًا على المغايرة مِن كلّ وجه.

﴿فَأَنزَلْنَا﴾ أي: عقيبَ ذلك ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بما ذُكر مِن التبديل. وإنّما وُضع الموصول موضعَ الضمير العائد إلى الموصول الأوّل للتعليل والمبالغة في الذمّ والتقريع، وللتصريح بأنّهم بما فعلوا قد ظلموا أنفسهم بتعريضها لسخَط الله تعالى. ﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: عذابًا مقدَّرًا منها. والتنوين للتهويل والتفخيم.

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فِسقهم المستمرّ حسبما يفيده الجمع بين صيغتَي الماضي والمستقبل، وتعليلُ إنزال الرِّجز به بعد الإشعار بتعليله بظلمهم للإيذان بأنّ ذلك فِسقٌ وخروجٌ عن الطاعة وغلوٌّ في الظلم، وأنّ تعذيبهم بجميع ما ارتكبوا مِن القبائح، لا بعدم توبتهم فقط كما يُشعِر به ترتيبه[٣] على ذلك بـ"الفاء". والرِّجز في الأصل: ما يُعاف عنه، وكذلك "الرِّجس"، وقُرئ بالضمّ،[٤] وهو لغة فيه، والمراد به الطاعون، رُوي أنّه مات به في ساعة واحدة أربعة وعشرون ألفًا.[٥]

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ تذكير لنعمة أخرى كفروها، وكان ذلك في التِّيه حين استولى عليهم العطش الشديد. وتغيير[٦] الترتيب لِما أُشيرَ إليه مرارًا

١ انظر: جامع البيان للطبري، ٧٢٦/١-٧٢٨؛ والكشّاف للزمخشري، ١٤٣/١.
٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٤٣/١.
٣ ي: الترتيب.
٤ أي: "رُجزًا"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحَيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٦٣.
٥ الكشّاف للزمخشري، ١٤٣/١؛ تفسير الرازي، ٥٢٥/٣.
٦ ط: وتغيّر.

مِن قصد إبراز كلٍّ مِن الأمور المعدودة في معرض أمرٍ مستقلٍّ واجبِ التذكير والتذكّر، ولو رُوعي الترتيب الوقوعيّ لَفُهم أنّ الكلّ أمرٌ واحد أُمر بذكره. و"اللام" متعلِّقة بالفعل، أي: استسقى لأجل قومه.

﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ رُوي أنّه كان حجرًا طُورِيًّا مكعَّبًا حمَلَه معه، وكانت تنبُع[١] مِن كلّ وجه منه ثلاثُ أعيُنٍ يَسيل كلُّ عين في جَدْول إلى سِبْط، وكانوا ستّمائةَ ألفٍ وسعة المعسكر[٢] اثنَيْ عشرَ ميلًا، أو كان حجَرًا أهبطه الله تعالى مع آدمَ عليه السلام مِن الجنّة ووقع إلى شُعيب عليه السلام، فأعطاه موسى عليه السلام مع العَصا، أو كان هو الحَجَرَ الذي فرَّ بثَوبه حين وضعه عليه ليغتسل، وبرّأه الله تعالى به عمّا رمَوْه به مِن الأُدْرة، فأشار إليه جبريل عليه السلام أن يحمله، أو كان حَجَرًا مِن الحجارة،[٣] وهو الأظهر في الحُجّة.

قيل: لم يُؤمَر عليه السلام بضرب حَجر بعَينه؛ ولكنْ لمّا قالوا: «كيف بنا لو أفضَيْنا إلى أرضٍ لا حجارةَ بها»، حمَلَ حجَرًا في مِخْلاته، وكان يضربه بعصاه إذا نزل فيتفجّر، ويضربه إذا ارتحل فيَيْبَسُ،[٤] فقالوا: «إن فقَدَ موسى عصاه مِتْنا عطشًا»، فأوحى الله تعالى إليه: «أن لا تقرَع الحَجر، وكَلِّمْه يُطِعْك، لعلّهم يعتبرون». وقيل: كان الحَجر مِن رُخامٍ حَجمُه ذِراع في ذراع، والعصا عشرة أذرُعٍ على طُوله عليه السلام مِن آسِ الجنّة، ولها شُعبتان تتّقدان في الظلمة.[٥]

﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾ عطفٌ على مقدَّر ينسحب عليه الكلام، قد[٦] حُذف للدلالة على كمال سُرعة تحقّق الانفجار، كأنّه حصل عَقيبَ الأمر بالضرب، أي: فضُرب[٧] فانفجرتْ ﴿مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾. وأمّا تعلّق "الفاء" بمحذوف، أي: فإن ضربتَ فقد انفجرتْ، فغيرُ حقيقٍ بجلالة شأن النظم الكريم كما لا يخفى على أحد.

---

١ ط س: وكانت ينبع. | وفي مطبوعاته: وكان ينبع.

٢ ط ي أ: العسكر. | نسخة س تحتمل "العسكر" أيضًا. وفي مطبوعاته كما أثبتناه، وكذا ورد في مطبوع الكشّاف للزمخشري.

٣ انظر لتفصيل هذه الأقوال: الكشف والبيان للثعلبي، ٢٠٣/١-٢٠٤؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٣٦٦/١-٣٦٨.

٤ ي: فييس.

٥ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢٠٣/١-٢٠٤.

٦ ي: وقد.

٧ ي: ضرب.

وقُرئ: "عَشِرَةَ" بكسر الشين وفتحها،[١] وهما أيضًا لغتانِ. ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ كلُّ سِبْط ﴿مَشْرَبَهُمْ﴾ عينَهم الخاصّةَ بهم.

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ على إرادة "القول". ﴿مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ هو ما رزقهم مِن المَنّ والسَّلوى والماء. وقيل: هو الماء وحدَه؛ لأنّه يؤكَل ما ينبُتُ به مِن الزروع والثِّمار؛ ويأباه أنّ المأمور به أكلُ النعمة العتيدة، لا ما سيطلبونه. وإضافته إليه تعالى -مع استناد الكلّ إليه خلقًا ومُلكًا- إمّا للتشريف، وإمّا لظهوره بغير سبب عاديّ. وإنّما لم يُقل: "مِن رِزقنا" كما يقتضيه قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا﴾ إيذانًا بأنّ الأمر بالأكل والشُّرب لم يكن بطريق الخطاب؛ بل بواسطة موسى عليه السلام.

﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ العَثْيُ: أشدُّ الفساد، فقيل لهم: لا تتمادَوْا في الفساد حالَ كونكم ﴿مُفْسِدِينَ﴾، وقيل: إنّما قُيّد به لِما أنّ العَثْي في الأصل مطلَقُ التعدّي وإن غلب في الفساد، وقد يكون في غير الفساد كما في مقابلة الظالم المُعْتدي[٢] بفعله، وقد يكون فيه صلاح راجحٌ كقتل الخَضِر عليه السلام للغُلام وخرقِه للسفينة،[٣] ونظيرُه "العَيْثُ"، خَلَا أنّه غالبٌ فيما يُدرَك حِسًّا.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾ تذكير لجناية أخرى لأسلافهم وكُفرانِهم لنعمة الله عزّ وجلّ[٤] وإخلادِهم إلى ما كانوا فيه مِن الدَّناءة والخساسة. وإسناد "القول" المَحكيّ

---

[١] كِلتاهما قراءة شاذّة، الأولى مرويّة عن يحيى وإبراهيم وعمرو بن ميمون وأبي السمّال، والثانيةُ مرويّة عن الحسن والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٦٣.

[٢] ي: المتعدّي.

[٣] انظر لقصّته: الكهف، ١٨/٦٠-٨٢.

[٤] ي: تعالى.

إلى أخلافهم وتوجيهُ التوبيخ إليهم لِما بينهم مِن الاتّحاد. ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ﴾ لعلّهم لم يريدوا بذلك جمْعَ ما طلبوا مع ما كان لهم مِن النعمة، ولا زوالَها وحصولَ ما طلبوا مكانها؛ إذ يأباه التعرّض للوحدة؛ بل أرادوا أن يكون هذا تارةً وذاك أخرى. رُوي أنّهم كانوا فلّاحةً، فنزَعوا إلى عِكْرهم،[1] فأَجِمُوا[2] ما كانوا فيه مِن النعمة العتيدة لوحدتها النوعيّة واطّرادها، وتاقتْ أنفسهم إلى الشقاء.[3]

﴿فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ أي: سَلْه لأجلنا بدعائك إيّاه. و"الفاء" لسببيّة عدم الصبر للدعاء. والتعرّض لعنوان الربوبيّة لتمهيد مبادئ الإجابة. ﴿يُخۡرِجۡ لَنَا﴾ أي: يُظهِرْ لنا ويوجِدْ. والجزم لجواب الأمر. ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ إسناد مجازيّ بإقامة القابل مُقامَ الفاعل. و﴿مِنۡ﴾ تبعيضيّة، والتي في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ بيانيّةٌ واقعةٌ موقعَ الحال، أي: كائنًا مِن بَقْلها... إلخ، وقيل: بدلٌ بإعادة الجارّ. والبَقْل: ما يُنبت الأرضُ مِن الخُضَر، والمراد به أطائبُه التي تؤكَل، كالنَّعناع[4] والكَرَفْس والكُرّاث وأشباهها. والفُوم: الحِنطة، وقيل: الثُّوم. وقُرئ: "قُثَّائِهَا"[5] بضمّ القاف، وهو لغة فيه.

﴿قَالَ﴾ أي: الله تعالى أو موسى عليه السلام إنكارًا عليهم. وهو استئناف وقع جوابًا عن سؤال مقدَّر، كأنّه قيل: فماذا قال لهم؟ فقيل: قال: ﴿أَتَسۡتَبۡدِلُونَ﴾ / أي: أتأخُذون[6] لأنفسكم وتختارون ﴿ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ﴾ أي: أقربُ منزلةً وأدونُ قدرًا [٣٧و] سهلُ المنال وهيّنُ الحصول لعدم كونه مرغوبًا فيه وكونِه تافهًا مرذولًا قليلَ القيمة. وأصل "الدُّنُوّ" القُرب في المكان، فاستُعير للخِسّة، كما استُعير "البُعد"

---

[1] العِكْر بالكسر: الأصل، يقال: رجع فلان إلى عِكْره، وباع فلان عِكْرَه، أي: أصلَ أرضه. والعَكَر: جمعُ "عَكَرة"، وهي القَطيع الضخم مِن الإبل. **الصحاح** للجوهري، «عكر». | أي: اشتاقوا إلى أصلهم واشتهَوا ما أَلِفوه وتعوّدوا به مِن أكل ما يخرج مِن الأرض بالزراعة. **حاشية شيخ زاده على تفسير البيضاوي**، ٦٨/١.

[2] قال أبو زيد: «أَجِمتُ الطعامَ -بالكسر- إذا كرهتَه مِن المداوَمة عليه». **الصحاح** للجوهري، «أجم».

[3] **الكشّاف** للزمخشري، ١٤٥/١.

[4] ي: كالنعاع.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأشهب العقيلي والثَّقَفي وابن مصرف ويحيى بن وثّاب. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٦٣.

[6] س ي: تأخذون.

للشرف والرِّفعة، فقيل: "بعيدُ المحلّ" و"بعيدُ الهمّة". وقُرئ: "أَذْنَأُ"[١] مِن "الدَّناءة"، وقد حُملت المشهورة على أنّ ألفها مبدَلة مِن الهمزة.

﴿بِٱلَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ أي: بمقابلة ما هو خير؛ فإنّ "الباء" تصحَب الذاهب الزائلَ دون الآتي الحاصل، كما في "التبدّل" و"التبديل" في مِثل قوله عزّ وجلّ:[٢] ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [البقرة، ١٠٨/٢]، وقوله تعالى:[٣] ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم[٤] بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ [سبأ، ١٦/٣٤]؛ وليس فيه ما يدلّ قطعًا على أنّهم أرادوا زوالَ المَنّ والسّلوى بالمرّة وحصولَ ما طلبوا مكانَه لتحقّق الاستبدال فيما مرَّ مِن صورة المناوبة.

﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾ أُمروا به بيانًا لدَناءة مَطلبهم أو إسعافًا لمَرامهم، أي: انحَدِروا إليه مِن التِّيه، يقال: "هبَط الواديَ". وقُرئ بضمّ الباء.[٥] والمِصر: البلد العظيم، وأصله: الحدُّ بين الشيئين، وقيل: أُريدَ به العَلَم، وإنّما صُرف لسكون وسَطِه أو لتأويله بالبلد[٦] دون المدينة، ويؤيّده أنّه في مصحف ابن مسعود رضي الله عنه غيرُ منوَّن.[٧] وقيل: أصلُه "مصرايِيم"، فعُرِّب. ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ تعليل للأمر بالهبوط، أي:[٨] فإنّ لكم فيه ما سألتموه. ولعلّ التعبير عن الأشياء المسئولة بـ﴿مَا﴾[٩] للاستهجان بذِكرها، كأنّه قيل: فإنّه كثير فيه مبتذَلٌ يناله كلّ أحد بغير مشقّة.

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ أي: جُعلتا محيطَتَين بهم إحاطةَ القُبّة بمَن ضُربت عليه، أو أُلصِقتا بهم وجُعلتا ضربةَ لازبٍ لا تنفكّانِ عنهم مُجازاةً لهم على كُفرانهم، مِن ضرب الطين على الحائط، بطريق الاستعارة بالكناية. واليهود في غالب الأمر أذِلّاءُ مسَاكينُ، إمّا على الحقيقة، وإمّا لخوفِ أن يضاعَف جِزيتُهم.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن زهير الفُرقُبي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٦٤.

٢ ي: تعالى.

٣ ط ي - تعالى.

٤ ط س ي: فبدّلناهم.

٥ قراءة شاذّة، ذكَرَها الزمخشري في الكشّاف، ١٤٥/١؛ وأبو حيّان في البحر المحيط، ٣٧٨/١، ولم ينسباها إلى أحد.

٦ س: بالبدل.

٧ الكشّاف للزمخشري، ١٤٥/١؛ تفسير الرازي، ٥٣٢/٣. وهي قراءة مرويّة عن الحسن والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٦٤.

٨ ط - أي.

٩ ط: بها.

﴿وَبَآءُو﴾ أي: رجعوا ﴿بِغَضَبٍ﴾ عظيمٍ، وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ متعلِّق بمحذوفٍ هو صفة لـ﴿غَضَبٍ﴾ مؤكِّدةٌ لِما أفاده التنوين مِن الفخامة الذاتيّة بالفخامة الإضافيّة، أي: بغضب كائن مِن الله تعالى؛ أو صاروا أحِقّاءَ به، مِن قولهم: "باءَ فلانٌ بفلانٍ"، أي: صار حقيقًا بأن يُقتَل بمقابلته، ومنه قول مَن قال: «بُؤْ بشِسْعِ نعلِ كُلَيبٍ»،[1] وأصل "البَوْء" المساواة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما سلف مِن ضرب الذِّلة والمَسكنة والبَوْءِ بالغضب العظيم. ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنّهم ﴿كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ على الاستمرار ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ الباهرةِ التي هي المعجزات الساطعة الظاهرة على يدَي موسى عليه السلام ممّا عُدَّ وما[2] لم يُعدَّ. ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ كشَعْيَا وزكريَّا ويحيى عليهم السلام. وفائدة التقييد -مع أنّ قتل الأنبياء يستحيل أن يكون بحقّ- الإيذانُ بأنّ ذلك عندهم أيضًا بغير الحقّ؛ إذ لم يكن أحد معتقِدًا بحقّيّة قتل أحد منهم عليهم السلام، وإنّما حمَلَهم على ذلك حُبُّ الدنيا واتّباعُ الهوى والغلوُّ في العصيان والاعتداءُ كما يُفصح عنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ أي: جرّهم العصيان والتمادي في العُدوان إلى ما ذُكر مِن الكفر وقتل الأنبياء عليهم السلام؛ فإنّ صِغار الذنوب إذا دُووِمَ[3] عليها أدّت إلى كِبارها، كما أنّ مداومة صِغار الطاعات مؤدِّية إلى تحرّي كِبارها.

وقيل: كُرّرت الإشارة للدلالة على أنّ ما لَحِقهم، كما أنّه بسبب الكفر والقتل، فهو بسبب ارتكابهم المعاصيَ واعتدائِهم حدودَ الله تعالى. وقيل: الإشارة إلى الكفر والقتل،[4] و"الباء" بمعنى "مع". ويجوز الإشارة إلى المتعدِّد بالمفرد بتأويل ما ذُكر أو تقدّم، كما في قول رُؤبةَ بنِ العَجّاج:

فيها خطوطٌ مِن سوادٍ وبَلَقْ كأنّه في الجِلد توليعُ البَهَقْ[5]

---

[1] باءَ فلان بفلان، إذا كان كُفئًا له يُقتَل به، ومنه قول المهلهل لابن الحارث بن عبّاد حين قتله: «بُؤْ بشِسْعِ نَعْل كُلَيبٍ». **تهذيب اللغة** للأزهري، ٤٢٧/١٥ «باب اللفيف مِن حرف الباء».

[2] ط س: ومِمّا.

[3] ي: دوم.

[4] وفي هامش ط ي: كما في الوجه الأوّل.

[5] البيت في ديوانه، ص ١٠٤. | البَلَق: سَواد وبَياض. والبَهَق: بَياض يَعتري الجِلدَ يُخالِف لونه، ليس مِن البَرَص. **الصحاح** للجوهري، «بلق»، «بهق».

أي: كأنّ ما ذُكر والذي حسَّن ذلك في المضمَرات والمبهَمات أنّ تثنيتها وجمعَها ليسَا على الحقيقة؛ ولذلك جاء "الذي" بمعنى "الذين".

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: بألسِنتهم فقط، وهم المنافقون بقرينة انتظامهم في سِلك الكَفَرة، والتعبيرُ عنهم بذلك دون عُنوان النِّفاق للتصريح بأنّ تلك المرتبة، وإن عُبّر عنها بالإيمان، لا يُجديهم[1] نفعًا أصلًا، ولا يُنقِذهم مِن وَرْطة الكفر قطعًا.

﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا﴾ أي: تهوَّدوا، مِن "هادَ" إذا دخل في اليهوديّة. و"يهود" إمّا عربيّ، مِن "هاد" إذا تاب، سُمّوا بذلك حين تابوا مِن عبادة العِجل، وخُصّوا به لِما كانت توبتهم توبةً هائلةً، وإمّا معرَّبُ "يَهُوذَا"، كأنّهم سُمّوا باسم أكبر أولاد يعقوبَ عليه السلام.

﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ جمعُ "نَصْران"، كـ"نَدَامَى" جمعُ "نَدْمان"، يقال: "رجل نَصْران" و"امرأة نَصْرانة"، والياءُ في "نَصرانيّ" للمبالغة كما في "أحمريّ"، سُمّوا بذلك؛ لأنّهم نصَروا المسيحَ عليه السلام، أو لأنّهم كانوا معه في قريةٍ يقال لها "نَصران"، فسُمّوا باسمها، أو نُسبوا إليها والياءُ للنسبة. وقال الخليل: «واحدُ النصارى: نَصْريّ، كمَهْريّ ومَهارَى».[2]

﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ هم قوم بين النصارى والمجوس، وقيل: أصلُ دينهم دينُ نوح عليه السلام، وقيل: هم عَبَدة الملائكة، وقيل: عَبَدة الكواكب. فهو إن كان عربيًّا، فمِن "صَبأ" إذا خرج مِن دينٍ إلى آخرَ. وقُرئ بالياء،[3] إمّا بالتخفيف، وإمّا لأنّه مِن "صَبَا" إذا مال، لِما أنّهم مالوا مِن سائر الأديان إلى ما هم فيه، أو مِن الحقّ إلى الباطل.

---

[1] ط س: تجديهم.

[2] نقَلَه عنه سيبويه في الكتاب، ٤١١/٣.

[3] أي: "وَالصَّابِينَ"، قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٩٤/١؛ ٢١٥/٢.

﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ أي: مَن أحدَثَ مِن هذه الطوائف إيمانًا خالصًا بالمَبدَأ والمَعاد على الوجه اللائق، ﴿وَعَمِلَ﴾ عمَلًا ﴿صَٰلِحًا﴾ حسبما يقتضيه الإيمان بما ذُكر، ﴿فَلَهُمْ﴾ بمقابلة ذلك ﴿أَجْرُهُمْ﴾ الموعودُ لهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: مالكِ أمرهم ومُبلِّغِهم إلى كمالهم اللائق. فـ﴿مَنْ﴾ إمّا في محلّ الرفع على الابتداء، خبرُه جملةُ ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾، و"الفاء" لتضمُّن الموصول معنى الشرط كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾... الآية،[1] وجمعُ الضمائر الثلاثة باعتبار معنى الموصول، كما أنّ إفراد ما في الصلة باعتبار لفظه، والجملةُ كما هي خبرُ ﴿إِنَّ﴾، والعائدُ إلى اسمها محذوف، أي: مَن آمن منهم... إلخ؛ وإمّا في محلّ النصب على البَدَليّة مِن اسم ﴿إِنَّ﴾ / وما عُطف عليه، وخبرُها ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾. و﴿عِندَ﴾ متعلِّقٌ بما تعلَّق به ﴿لَهُمْ﴾ مِن معنى الثبوت، وفي إضافته إلى "الربّ" المضافِ إلى ضمير ﴿هِمْ﴾ مزيدُ لطفٍ بهم وإيذانٌ بأنّ أجْرهم متيقَّنُ الثبوت مأمونٌ عن الفَوات. [٣٧ظ]

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ عطفٌ على جملة ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾، أي: لا خوف عليهم حين يخاف الكُفّار العقابَ، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ حين يحزَن المقصِّرون على تضييع العُمر وتفويتِ الثواب. والمراد بيان دوام انتفائهما، لا بيانُ انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر في الجملة الثانية مضارِعًا لِما مرّ مِن أنّ النفي، وإن دخل على نفس المضارع، يفيد الدوام والاستمرارَ بحسَب المقام.

هذا، وقد قيل: المراد بـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ المتديّنون بدين الإسلام المُخلِصون منهم والمنافقون، فحينئذ لا بدَّ مِن تفسير ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ بمَن اتّصف منهم بالإيمان الخالص بالمَبدَأ والمَعاد على الإطلاق، سواء كان ذلك بطريق الثبات والدوام عليه كإيمان المُخلِصين، أو بطريق إحداثه وإنشائه كإيمان مَن عَداهم مِن المنافقين وسائر الطوائف. وفائدةُ التعميم للمخلِصين مزيدُ ترغيب الباقين في الإيمان ببيانِ أنّ تأخّرهم في الاتّصاف به غيرُ مُخلٍ بكونهم أُسْوةً لأولئك الأقدَمين في استحقاق الأجر وما يتبعه مِن الأمن الدائم.

---

[1] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج، ١٠/٨٥].

وأمّا ما قيل[١] في تفسيره: "مَن كان منهم في دينه قبل أن يُنسَخ مصدِّقًا بقلبه بالمَبدَأ والمَعاد عاملًا[٢] بمقتضى شرعه"، فممّا لا سبيلَ إليه أصلًا؛ لأنّ مقتضى المقام هو الترغيب في دين الإسلام، وأمّا بيان حالِ مَن مضى على دينٍ آخرَ قبل انتساخه، فلا ملابسةَ له بالمقام قطعًا؛ بل ربّما يُخلّ بمقتضاه مِن حيث دلالتُه على حَقّيّته في زمانه في الجملة على أنّ المنافقين والصابئين لا يتسنّى في حقّهم ما ذُكر؛ أمّا المنافقون، فإن كانوا مِن أهل الشرك فالأمر بيّنٌ، وإن كانوا مِن أهل الكتاب، فمَن مضى منهم قبل النسخ ليسوا بمنافقين، وأمّا الصابئون، فليس لهم دينٌ يجوز رِعايتُه في وقتٍ مِن الأوقات، ولو سُلّم أنّه كان لهم دين سماويّ ثمّ خرجوا عنه، فمَن مضى مِن أهل ذلك الدين قبل خروجهم منه ليسوا مِن الصابئين؛ فكيف يمكن إرجاعُ الضمير الرابط بين اسم ﴿إِنَّ﴾ وخبرِها إليهم أو إلى[٣] المنافقين.

وارتكابُ إرجاعه إلى مجموع الطوائف مِن حيث هو مجموع -لا إلى كلّ واحدة منها- قصدًا إلى درج الفريق المذكور فيه، ضرورةَ أنّ مَن كان مِن أهل الكتاب عاملًا بمقتضى شرعه قبل نسخه مِن مجموع الطوائف بحُكم اشتماله على اليهود والنصارى وإن لم يكن مِن المنافقين والصابئين، ممّا[٤] يجب تنزيهُ ساحة التنزيل عن أمثاله، على أنّ المخلِصين -مع اندراجهم في حيّز اسم ﴿إِنَّ﴾- ليس لهم في حيّز خبرها عينٌ ولا أثرٌ؛ فتأمّلْ وكُن على الحقّ المبين.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ﴾ تذكير لجناية أخرى لأسلافهم، أي: واذكروا[٥] وقتَ أخذنا لميثاقكم بالمحافظة على ما في التوراة. ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ عطفٌ على ﴿أَخَذْنَا﴾ أو حال، أي: وقد رفعنا فوقكم الطورَ كأنّه ظُلّة. رُوي أنّ موسى

---

١ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٨٥/١.
٢ ي: عالما.
٣ ي - إلى.
٤ السياق: وارتكابُ إرجاعه إلى مجموع الطوائف... ممّا يجب تنزيهُ ساحة التنزيل عن أمثاله...
٥ ط س: اذكروا.

عليه السلام لمّا جاءهم بالتوراة، فرأَوْا ما فيها مِن التكاليف الشاقّة، كبُرت عليهم، فأبَوْا قبولها، فأُمر جبريلُ عليه السلام، فقلَع الطورَ، فظلَّله عليهم حتّى قبِلوا.[١]

﴿خُذُوا﴾ على إرادة "القول". ﴿مَآءَاتَيْنَٰكُم﴾ مِن الكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجدٍّ وعزيمةٍ، ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ أي: احفَظوه ولا تنسَوْه، أو تَفكَّروا فيه، فإنّه ذكرٌ بالقلب، أو اعملوا به؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لِكي تتّقوا المعاصيَ، أو لتَنجُوا مِن هلاك الدارَين، أو رجاءَ منكم أن تنتظموا في سِلك المتّقين، أو طلبًا لذلك، وقد مرَّ تحقيقه.[٢]

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ٦٤﴾

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم﴾ أي: أعرضتم عن الوفاء بالميثاق ﴿مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ مِن بعد أخذ ذلك الميثاق المؤكّد. ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بتوفيقكم للتوبة، أو بمحمّدٍ صلّى الله عليه وسلّم، حيث يدعوكم إلى الحقّ ويهديكم إليه، ﴿لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: المَغبونين بالانهماك في المعاصي والخبط في مهاوي الضلال عند الفَتْرة. وقيل: لولا فضلُه تعالى عليكم بالإمهال وتأخيرِ العذاب، لَكنتم مِن الهالكين؛ وهو الأنسب بما بعده.

وكلمةُ ﴿لَوْلَا﴾ إمّا بسيطة أو مركَّبة مِن "لو" الامتناعيّة وحرفِ النفي، ومعناها امتناعُ الشيء لوجود غيره، كما أنّ "لو" لامتناعه لامتناع غيره. والاسم الواقع بعدها عند سيبويه مبتدأٌ، خبرُه محذوف وجوبًا لدلالة الحال عليه وسدِّ الجواب مسدَّه، والتقدير: لولا فضلُ الله حاصلٌ، وعند الكوفيّين فاعلُ فعل محذوف، أي: لولا ثبتَ فضلُ الله تعالى عليكم.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ٦٥﴾

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُم﴾ أي: عرَفتم ﴿ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ﴾ رُوي أنّهم أُمروا بأنْ يتمحّضوا يومَ السبت للعبادة ويتجرّدوا لها ويتركوا الصيدَ، فاعتدى فيه

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ١/١٤٧؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٧٨.

[٢] انظر: تفسير البقرة، ٢/٢١.

أناسٌ منهم في زمن داودَ عليه السلام، فاشتغلوا بالصيد، وكانوا يسكنون قريةً بساحل البحر يقال لها: "أَيْلَة"، فإذا كان يومُ السبت لم يبقَ في البحر حُوتٌ إلّا برَزَ وأخرج خُرطومَه، فإذا مضى تفرّقت، فحفَروا حِياضًا، وشرَعوا إليها الجداولَ، وكانت الحِيتان تدخلها يومَ السبت، فيصطادونها يومَ الأحد.[١]

فالمعنى: وبالله، لقد علِمتموهم حين فعلوا مِن قَبيل جناياتكم ما فعلوا، فلم نُمهِلْهم ولم نؤخِّرْ عقوبتَهم؛ بل عجّلناها، ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ أي: جامعين بين صورة القِرَدة والخُسوء، وهو الطرد والصَّغار، على أنّ ﴿خَٰسِـِٔينَ﴾ نعتٌ لـ﴿قِرَدَةً﴾، وقيل: حال مِن اسم ﴿كُونُوا﴾ عند مَن يُجيز عملَ "كان" في الظروف والحال، وقيل: مِن الضمير المستكنّ في ﴿قِرَدَةً﴾؛ لأنّه في معنى "ممسوخين".

وقال مجاهد: «ما مُسخت صُوَرهم؛ ولكن قلوبهم، فمُثّلوا بالقِرْد كما مُثّلوا بالحِمار في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة، ٦٢/٥]».[٢] والمراد بالأمر بيان سرعة التكوين، وأنّهم صاروا كذلك كما أراده عزّ وجلّ. وقُرئ: "قَرِدَةً"[٣] بفتح القاف وكسر الراء، و"خَاسِينَ"[٤] بغير همز.[٥]

﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾

[٣٨و] ﴿فَجَعَلْنَٰهَا﴾ أي: / المَسخة والعقوبةَ ﴿نَكَٰلًا﴾ عبرةً تُنكّل المعتبِر بها، أي: تمنعه وتردَعه، ومنه "النِّكْلُ" للقيد. ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ لِما قبلها وما بعدها مِن الأمَم؛ إذ ذُكرت حالُهم في زُبُر الأوّلين،[٦] واشتهرت قِصَصهم في الآخِرين، أو لمُعاصريهم ومَن بعدهم، أو لِما بحضرتها مِن القُرى وما تباعد عنها،

---

[١] جامع البيان للطبري، ٢/٦١-٦٢؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١/٢١٢؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٨٥.

[٢] أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٨٥. وما في معناه عنه رحمه الله في جامع البيان للطبري، ٢/٦٥؛ والتفسير البسيط للواحدي، ١/١٦٩.

[٣] قراءة شاذّة، ذكرَها البيضاوي بلا نسبة في أنوار التنزيل، ١/٨٥.

[٤] قراءة شاذّة، ذكرَها البيضاوي بلا نسبة في أنوار التنزيل، ١/٨٥.

[٥] ي: همزة.

[٦] وفي هامش ط ي: [وكان في كُتبهم] أنّه تكون تلك المَسخة، فاعتبروا بها، وصحّ "الفاء"؛ لأنّ جعلها نكالًا للفريقين جميعًا إنّما تحقّق بعد القول والمَسخ. تفتازاني.[١] «منه». | [١] هامش ط - تفتازاني. | نقله المصنّف مِن حاشية التفتازاني على الكشّاف، ١١٣و.

أو لأهل تلك القرية وما حوالَيها، أو لأجل ما تقدَّم عليها مِن ذنوبهم وما تأخَّر منها. ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ مِن قومهم أو لكلّ مُتّقٍ سمِعها.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٦٧﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ توبيخ آخرُ لإخلاف بني إسرائيلَ بتذكير بعضِ جناياتٍ صدَرت عن أسلافهم، أي: اذكروا[1] وقتَ قول موسى عليه السلام لأجدادكم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ وسببُه أنّه كان في بني إسرائيلَ شيخٌ مُوسِرٌ، فقتله بنو عمّه طمَعًا في ميراثه، فطرحوه على باب المدينة، ثمّ جاءوا يطالبون بدِيَته، فأمرهم الله تعالى أن يَذبحوا بقرةً ويضربوه ببعضها فيَحْيا ويُخبرهم[2] بقاتله.[3]

﴿قَالُوا﴾ استئناف وقع جوابًا عمّا ينساق إليه الكلام، كأنّه قيل: فماذا صنعوا؟ هل سارعوا إلى الامتثال أو لا؟ فقيل: قالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ بضمّ الزاء وقلبِ الهمزة واوًا، وقُرئ بالهمزة[4] مع الضمّ والسكون،[5] أي: أتجعلنا مكانَ هُزْءٍ، أو أهلَ هُزْءٍ، أو مهزوءً بنا، أو الهُزءَ نفسَه استبعادًا لِما قاله واستخفافًا به.

﴿قَالَ﴾ استئناف كما سبق. ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ لأنّ الهُزْء في أثناء تبليغ أمر الله سبحانه جهلٌ وسفَهٌ. نُفي عنه عليه السلام ما توهّموه مِن قِبَله على أبلغ وجه وآكَدِه بإخراجه مُخرَجَ ما لا مكروهَ وراءَه بالاستعاذة منه استفظاعًا له واستعظامًا لِما أقدموا عليه مِن العظيمة التي شافهوه عليه السلام بها.

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ۝٦٨﴾

﴿قَالُوا﴾ استئناف كما مرّ، كأنّه قيل: فماذا قالوا بعد ذلك؟ فقيل: توجَّهوا نحو الامتثال وقالوا: ﴿ٱدْعُ لَنَا﴾ أي: لأجلنا ﴿رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾ ﴿مَا﴾ مبتدأ،

---

[1] ي: واذكروا.

[2] س: فيخبرهم.

[3] الكشّاف للزمخشري، ١/١٤٨؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٨٦.

[4] ي: مع الهمزة.

[5] أي: "هُزْءًا"، قرأ بها حمزة وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢١٥.

و﴿هِيَ﴾ خبرُه، والجملة في حيّز النصب بـ﴿يُبَيِّن﴾، أي: يبيِّنْ لنا جوابَ هذا السؤال، وقد سألوا عن حالها وصفتها لِما قرَع أسماعَهم ما لم يعهدوه مِن بقرة ميتة يُضرَب ببعضها ميّتٌ فيحيا،[1] فإنّ "ما"، وإن شاعت في طلب مفهوم الاسم والحقيقة كما في "ما" الشارحة والحقيقيّةِ، لكنّها قد يُطلَب بها الصفة والحال، تقول: ما زيد؟ فيقال: طبيب أو عالم. وقيل: كان حقُّه أن يُستفهم بـ"أيّ"؛ لكنّهم لمّا رأوْا ما أُمروا به على حالة مغايِرة لِما عليه الجنس، أخرجوه عن الحقيقة، فجعلوه جنسًا على حِياله.

﴿قَالَ﴾ أي: موسى عليه السلام بعد ما دعا ربَّه عزّ وجلّ بالبيان، وأتاه الوحي ﴿إِنَّهُۥ﴾ تعالى ﴿يَقُولُ إِنَّهَا﴾ أي: البقرة المأمور بذَبْحها ﴿بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكۡرٌ﴾ أي: لا مُسِنّة ولا فَتِيّة، يقال: "فرَضَت البقرةُ فروضًا"، أي: أَسنّت، مِن "الفرض" بمعنى القطع، كأنّها قطعت سِنَّها وبلغت آخرَها. وتركيب "البِكر" للأوّليّة، ومنه "البُكْرة"[2] و"الباكورة". ﴿عَوَانٌ﴾ أي: نصَفٌ، لا قَحْمٌ ولا ضَرَعٌ، قال:

طِـوالُ مِشَـلٍّ[3] أعنـاقِ الـهَـوادي نَـواعِـمُ بيـن أبـكـارٍ وعُـونِ[4]

﴿بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن الفارض والبِكْر؛ ولذلك أضيفَ إليه ﴿بَيۡنَ﴾ لاختصاصه بالإضافة إلى المتعدِّد.

﴿فَٱفۡعَلُواْ﴾ أمرٌ مِن جهة موسى عليه السلام، متفرِّعٌ على ما قبله مِن بيان صفة المأمور به. ﴿مَا تُؤۡمَرُونَ﴾ أي: ما تُؤمرونه، بمعنى: تؤمَرون به،

[1] ي: فحيي.
[2] ط: البكر.
[3] ط: مثل.
[4] البيت للطِّرِمّاح في ديوانه، ص ٢٨٧، وفيه: "مَشَكّ" بدل "مشلّ"، وهي في خزانة الأدب للبغدادي، ٧١/٨: "مثل"، وفي نواهد الأبكار للسيوطي، ٢٦٦/٢؛ وحاشية ابن التمجيد على تفسير البيضاوي، ٣٨٦/٣: "مِشَلّ" كما أثبتته النُّسخ. قال ابن التمجيد: «المِشَلّ: موضع الشَّلَل، مِن "شللت الثوب" إذا خيّطه، فهو موضع خياطة العُنُق بالجسد وموضع غُرْزة فيه، فطُوله كناية عن طوال العُنق. والهَوادي: جمعُ "هادي"، وهو العُنق، فيكون إضافة "الأعناق" إلى "العُنق" إضافةَ الشيء إلى نفسه، وقيل: الهَوادي: أوائل الوحش، أراد تشبيهَ أعناقهنّ بأعناق الظِّباء. والعُون: جمعُ "عَوان"، وهي المرأة بين الحديثة والمُسنّة».

كما في قوله:

أمرتُك الخيرَ فافعَلْ ما أُمِرتَ بهِ[1]

فإنّ حذف الجارّ قد شاع في هذا الفعل، حتّى لحِق بالأفعال المتعدّية إلى مفعولَين. وهذا الأمر منه عليه السلام لحثِّهم على الامتثال وزجرِهم عن المراجعة، ومع ذلك لم يقتنعوا به.

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفْرَآءُ فَاقِعٞ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ﴾ استئناف كما مرّ، كأنّه قيل: ماذا صنعوا بعد هذا البيان الشافي والأمر المكرَّر؟ فقيل: قالوا: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ حتّى يتبيَّن لنا البقرة المأمورُ بها. ﴿قَالَ﴾ أي: موسى عليه السلام بعد المناجاة إلى الله تعالى ومَجيء البيان: ﴿إِنَّهُۥ﴾ تعالى ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفْرَآءُ فَاقِعٞ لَّوْنُهَا﴾ إسنادُ البيان في كلّ مرّة إلى الله عزّ وجلّ[2] لإظهار كمال المساعدة في إجابة مسئولهم بقولهم ﴿يُبَيِّن لَّنَا﴾، وصيغةُ الاستقبال لاستحضار الصورة.

والفُقوع: نُصوع الصُّفرة وخلوصُها؛ ولذلك يؤكَّد به ويقال: "أصفَرُ فاقعٌ" كما يقال: "أسوَدُ حالِكٌ" و"أحمَرُ قانئٌ"؛ وفي إسناده إلى "اللَّون" مع كونِه مِن أحوال الملوَّن لملابسته به ما لا يخفى مِن فضلِ تأكيدٍ، كأنّه قيل: صفراءُ شديدةُ الصُّفرة صُفرتُها، كما في "جَدّ جِدّه". وعن الحسن رحمه الله:[3] «سوداءُ شديدةُ السَّواد»،[4] وبه فسّر قوله تعالى: ﴿جِمَٰلَتٞ صُفْرٞ﴾ [المرسلات، ٣٣/٧٧]؛ قيل: ولعلّ التعبيرَ عن السَّواد بالصُّفرة لِما أنّها مِن مقدِّماته، وإمّا لأنّ سَواد الإبل يعلوه صُفرة؛ ويأباه وصفُها بقوله تعالى: ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾، كما يأباه وصفُها بفقوع اللَّون.

---

[1] صدر بيتٍ، وعجزه:

فقد تركتُك ذا مالٍ وذا نَشَبِ

وهو لعمرو بن مَعْدِي كَرِبَ الزُّبيدي. انظر: شعر عمرو بن مَعْدِي كَرِبَ الزُّبيدي، ص ٦٣؛ وخِزانة الأدب للبغدادي، ١٢٤/٩.

[2] س: تعالى.

[3] س ي: رضي الله عنه.

[4] جامع البيان للطبري، ٩٣/٢؛ الكشّاف للزمخشري، ١٥٠/١.

والسُّرور: لذّة في القلب عند حصول نفع أو توقّعه، مِن "السرّ". عن عليّ رضي الله عنه: «مَن لبِسَ نَعْلًا صَفراءَ قلَّ هَمُّه».[١]

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ۝٧٠﴾

﴿قَالُوا﴾ استئناف كنظائره. ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ زيادةُ استكشافٍ عن حالها، كأنّهم سألوا بيانَ حقيقتها بحيث تمتاز عن جميع ما عداها ممّا تشاركها في الأوصاف المذكورة والأحوال المشروحةِ في أثناء البيان؛ ولذلك علّلوه بقولهم: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ يَعنُون أنّ الأوصاف المعدودة يشترك فيها كثير مِن البقَر، ولا نهتدي بها إلى تشخيص ما هو المأمور بها؛ ولذلك لم يقولوا: "إنّ البقرة تشابهت" إيذانًا بأنّ النعوت المعدودة ليست بمشخّصةٍ للمأمور بها؛ بل صادقة على سائر أفراد الجنس.

وقُرئ: "إِنَّ البَاقِرَ"،[٢] وهو اسم لجماعة البقَر، و"الأَبَاقِرَ"،[٣] و"البَوَاقِرَ"،[٤] و"يَتَشَابَهُ"[٥] بالياء والتاء، و"تَشَّابَهُ" بطرح التاء والإدغامِ[٦] على التذكير والتأنيث،[٧] و"تَشابَهَتْ"[٨] مخفَّفًا ومشدَّدًا،[٩] و"تَشَّبَّهُ"[١٠] بمعنى "تتشبَّهُ"، و"يَتَشَبَّهُ"[١١] بالتذكير،

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ١/١٥٠؛ اللباب لابن عادل، ١٦٣/٢. وانظر لتخريجه وتعليق الزيلعي عليه في تخريج أحاديث الكشّاف، ٦٥/١ (٤٧).

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن يعمر وعكرمة وكرداب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٦٥.

[٣] قراءة شاذّة، ذكرها البيضاوي بلا نسبة في أنوار التنزيل، ٨٧/١.

[٤] قراءة شاذّة، ذكرها البيضاوي بلا نسبة في أنوار التنزيل، ٨٧/١.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٦٥.

[٦] أي: إدغام التاء المطروحة في الشين.

[٧] كِلتاهما قراءة شاذّة، الأولى مرويّة عن ابن مسعود ويحيى وإبراهيم وكرداب، والثانيةُ مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٦٥؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٤١٠/١.

[٨] ط س - وتشابهت. | وفي هامش ي: وقد نُسب التشديد فيه إلى الغلط. «منه». | انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٤١٠/١.

[٩] كِلتاهما قراءة شاذّة، الأولى مرويّة عن أُبيّ بن كعب، والثانيةُ مرويّة عن ابن أبي إسحاق. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٦٥؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٤١٠/١.

[١٠] قراءة شاذّة، ذكرها البيضاوي بلا نسبة في أنوار التنزيل، ٨٧/١.

[١١] كذا في النسخ الخطّيّة. ولم نقف عليها في كتب القراءات والتفسير. وفي مطبوعاته بدون ياء المضارعة: "تَشَبَّهُ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن محمّد ذي الشامة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٦٥.

و"مُتَشَابِهٌ"،[١] / و"مُتَشَابِهَةٌ"،[٢] و"مُشْتَبِهٌ"،[٣] و"مُشْتَبِهَةٌ".[٤] [٣٨ظ]

وفيه دلالة على أنّهم ميّزوها عن بعضٍ ما عداها في الجملة، وإنّما بقي اشتباهٌ بشرَف الزوال، كما يُنبئ عنه قولهم: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ مؤكّدًا[٥] بوجوه مِن التوكيد، أي: لَمهتدون بما سألنا مِن البيان إلى المأمور بذبحها. وفي الحديث: «لو لم يستثنوا، لَما بُيّنتْ لهم آخِرَ الأبَدِ».[٦]

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ٧١﴾

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ أي: لم تُذلَّل للكِراب وسَقْي الحَرْث. و﴿لَا ذَلُولٌ﴾ صفة لـ﴿بَقَرَةٌ﴾ بمعنى "غيرُ ذَلول"، و﴿لَا﴾ الثانية لتأكيد الأولى، والفعلانِ صفتا ﴿ذَلُولٌ﴾، كأنّه قيل: لا ذلولٌ مثيرةٌ وساقيةٌ. وقُرئ: "لَا ذَلُولَ"[٧] بالفتح، أي: حيث هي، كقولك: "مررتُ برجُل، لا بَخيل ولا جَبانَ"، أي: حيث هو. وقُرئ: "تُسْقِي"[٨] مِن "أسقى". ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ أي: سلَّمها الله تعالى مِن العيوب أو أهْلها مِن العمل، أو أخلص لها لونَها، مِن "سَلِم له كذا" إذا خلُص له. ويؤيّده قوله تعالى: ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي: لا لونَ فيها يخالِفُ لونَ جِلدها، حتّى قَرْنِها وظِلْفِها؛ وهي في الأصل مصدرُ "وَشَاهُ وَشْيًا وشِيَةً" إذا خلَطَ بلونه لونًا آخَر.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٦٥.

٢ قراءة شاذّة، ذكرها أبو حيّان في البحر المحيط، ٤١٠/١؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٨٧/١، ونسَبَها الأوّلُ إلى الأعمش.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٦٥.

٤ لم نجدها فيما رجعنا إليه مِن كتب القراءات والتفسير.

٥ ي: مؤكّد.

٦ أخرجه ابن جرير في جامع البيان، ٩٩/٢، مِن طريق ابن جُريج مرفوعًا، وهو مُعضَل. وذكره الواحدي في التفسير البسيط، ٣٧/٣؛ والزمخشري في الكشّاف، ١٥١/١.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن السُّلَمي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٦٥.

٨ ي: يسقي. | ذكَرَها الكرماني في شواذّ القراءات، ص ٦٥، وقال: إنّه لغة العرب؛ والزمخشريُّ في الكشّاف، ١٥٢/١؛ وأبو حيّان في البحر المحيط، ٤١٥/١، ولم ينسباها إلى أحد.

﴿قَالُوا﴾ عندما سمعوا هذه النعوت: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ أي: بحقيقة وصف البقرة بحيث ميَّزْتَها عن جميع ما عداها، ولم يبقَ لنا في شأنها اشتباهٌ أصلًا بخلاف المَرّتين الأُولَيَين؛ فإنّ ما جئتَ به فيهما لم يكن في التعيين بهذه المَرتبة. ولعلّهم كانوا قبل ذلك قد رأَوْها ووجدوها جامعةً لجميعِ ما فُصّل مِن الأوصاف المشروحة في المرّات الثلاث مِن غير مشارِك لها فيما عُدَّ في المرّة الأخيرة، وإلّا فمِن أين عرَفوا اختصاصَ النعوت الأخيرة بها دون غيرها؟ وقُرئ: "آلْآنَ"[1] بالمدّ على الاستفهام، و"الَانَ"[2] بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام.

﴿فَذَبَحُوهَا﴾ "الفاء" فصيحة كما في ﴿فَٱنفَجَرَتۡ﴾،[3] أي: فحصَّلوا البقرةَ فذبحوها. ﴿وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ "كادَ" مِن أفعال المقاربة، وُضع لدُنُوّ الخبر مِن الحصول. والجملة حال مِن ضمير ﴿ذَبَحُوا﴾، أي: فذبحوها والحالُ أنّهم كانوا قبل ذلك بمَعزِل منه، أو اعتراض تذييليٌّ، ومآلُه استثقالُ استعصائهم واستبطاءٌ لهم، وأنّهم لفَرْط تطويلهم وكثرة مراجعاتهم ما كاد ينتهي خَيْط إسهابهم فيها؛ قيل: مضى مِن أوّل الأمر إلى الامتثال[4] أربعون سنةً. وقيل: وما كادوا يفعلون ذلك لغلاء ثَمَنها؛ رُوي أنّه كان في بني إسرائيلَ شيخ صالح له عِجلة، فأتى بها الغَيْضةَ،[5] وقال: «اللّهمّ إنّي أستَوْدعُكها لابْني حتّى يكبرَ»، وكان بَرًّا بوالدَيه، فتوفّي الشيخ، وشبَّت العِجلة، فكانت مِن أحسن البقَر وأسمَنِها، فساوَموها اليتيمَ وأمَّه حتّى اشترَوْها بمِلء مَسْكِها[6] ذهَبًا لِما كانت وحيدةً بالصفات المذكورة، وكانت البقرة إذ ذاك بثلاثة[7] دنانيرَ.[8]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن السمّال. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٦٥.

٢ قرأ بها نافع مِن رواية ورش وأبو جعفر مِن رواية ابن وردان. **النشر** لابن الجزري، ١/٣٣٨-٣٣٩؛ ٢/٢١٧.

٣ ﴿وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [البقرة، ٢/٦٠].

٤ ي + بالأمر.

٥ الغَيْضة: الأَجَمَة، وهي مَغِيضُ ماءٍ يجتمع، فينبت فيه الشجر، والجمع: غِياض وأغياض. **الصحاح** للجوهري، «غيض».

٦ المَسْك، بالفتح: الجِلْد. **الصحاح** للجوهري، «مسك».

٧ ط: بثلاث.

٨ **الكشّاف** للزمخشري، ١/١٥٢؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٨٧.

واعلمْ أنّه لا خلافَ في أنّ مدلول ظاهر النظم الكريم بقرة مطلَقة مبهَمة، وأنّ الامتثال في آخر الأمر إنّما وقع بذبح بقرة معيَّنة، حتّى لو ذبحوا غيرَها ما خرجوا عن عُهدة الأمر؛ لكنْ اختُلف في أنّ المراد المأمور به[1] آثِرَ ذِي أثيرٍ[2] هل هو المعيَّنة، وقد أُخّر البيان عن وقت الخطاب؟ أو المبهَمةُ، ثمّ لَحِقها التغييرُ إلى المعيَّنة بسبب تثاقلِهم في الامتثال وتَماديهم في التعمّق والاستكشاف؟

فذهب بعضهم إلى الأوّل تمسّكًا بأنّ الضمائر في الأجوِبة -أَعني: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ﴾... إلخ- للمعيَّنة قطعًا، ومِن قضيّته أن يكون في السؤال أيضًا كذلك، ولا ريب في أنّ السؤال إنّما هو عن البقرة المأمور بذبحها، فيكونُ[3] هي المعيَّنةَ؛ وهو مدفوع بأنّهم لمّا تعجّبوا مِن بقرة ميتة يُضرَب ببعضها ميّتٌ فيحيا، ظنُّوها معيَّنةً خارجةً عمّا عليه الجنس مِن الصفات والخواصّ، فسألوا عنها، فرجعت الضمائر إلى المعيَّنة في زعمهم واعتقادهم، فعيَّنها الله تعالى تشديدًا عليهم، وإن لم يكن المراد مِن أوّل الأمر هي المعيَّنةَ.

والحقّ أنّها كانت في أوّل الأمر مبهَمةً بحيث لو ذَبَحوا أيّةَ بقرةٍ كانت لَحصل الامتثال بدلالة ظاهر النظم الكريم وتكريرِ الأمر قبل بيان اللَّون وما بعده مِن كونها مسلَّمةً... إلخ. وقد قال صلّى الله عليه وسلّم: «لو اعترَضوا أدنى بقرةٍ فذبَحوها، لَكَفَتْهم»،[4] ورُوي مثلُه عن رئيس المفسّرين عبدِ الله بن عبّاس رضي الله عنهما،[5] ثمّ رجع الحكم الأوّل منسوخًا بالثاني، والثاني بالثالث تشديدًا عليهم؛ لكنْ لا على وجه ارتفاع حُكم المطلَق بالكلّيّة وانتقالِه إلى المعيَّن، بل على طريقة تقييده وتخصيصِه به شيئًا فشيئًا؛ كيف لا، ولو لم يكن كذلك لَما عُدّت مراجعاتهم المَحكيّة مِن قَبيل الجنايات، بل مِن قبيل العبادة؛[6] فإنّ الامتثال بالأمر بدون الوقوف على المأمور به ممّا لا يكاد يتسنّى، فيكون سؤالاتُهم مِن باب الاهتمام بالامتثال.

---

[1] س - به.
[2] أفعلُ هذا آثِرَ ذي أثير، أي: أوّلَ كلّ شيء. الصحاح للجوهري، «أثر».
[3] ط: فتكون.
[4] الكشّاف للزمخشري، ١/١٥١. وانظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ١/٦٦ (٤٨).
[5] جامع البيان للطبري، ٢/٩٨.
[6] ي: العبادات.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ منصوبٌ بمضمَر كما مرّت نظائره. والخطاب لليهود المعاصِرين لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وإسناد القتل والتدارُؤ إليهم لِما مرّ مِن نسبة جنايات الأسلاف إلى الأخلاف توبيخًا وتقريعًا، وتخصيصُهما بالإسناد دون ما مرّ مِن هَناتهم لظهور قُبح القتل وإسنادِه إلى الغير، أي: اذكروا وقتَ قتلكم نفسًا محرَّمةً. ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ أي: تخاصَمتم في شأنها؛ إذ كلُّ واحد مِن الخُصَماء يدافع الآخَرَ، أو تدافَعتم بأن طرح كلُّ واحد قتلَها إلى آخَرَ. وأصله: "تدارَأْتم"، فأُدغمت التاء في الدال، واجتُلبتْ لها همزة الوصل. ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي: مُظهِرٌ لِما تكتمونه لا محالةَ. والجمع بين صيغتَي الماضي والمستقبل للدلالة على الاستمرار. وإنّما أُعملَ ﴿مُخْرِجٌ﴾؛ لأنّه حكاية حال ماضية.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ﴾ عطفٌ على ﴿فَادَّارَأْتُمْ﴾،[1] وما بينهما اعتراض. والالتفات لتربية المهابة. والضمير لـ"النفس"،[2] والتذكيرُ باعتبارِ أنّها عبارة عن الرَّجل، أو بتأويل الشخص أو القتيل. ﴿بِبَعْضِهَا﴾ أي: ببعض البقرة أيّ بعضٍ كان، وقيل: بأصْغَرَيها،[3] وقيل: بلسانها، وقيل: بفَخِذِها اليُمنَى، وقيل: بأُذُنها، وقيل: بعَجْبِها،[4] وقيل: بالعِظَم الذي يلي الغُضْروف.[5]

[٣٩و] / وهذا أوّلُ القصّة كما يُنبئ عنه الضمير الراجع إلى "البقرة"، كأنّه قيل: وإذ قتلتم نفسًا، فادّارَأتم فيها، فقلنا: اذبَحوا بقرةً، فاضرِبوه ببعضها. وإنّما غُيّر الترتيب عند الحكاية لتكرير التوبيخ وتثنية التقريع؛ فإنّ كلّ واحد مِن قتل النفس

---

١ في الآية السابقة.

٢ في الآية السابقة.

٣ الأصْغَرانِ: القلب واللسان. القاموس المحيط للفيروزآبادي، «صغر».

٤ العَجْب مِن كلّ دابّة: ما ضُمّتْ عليه الوَرِكانِ مِن أصل الذَّنَب المغروز في مؤخَّر العَجُزِ. كتاب العين للخليل بن أحمد، ١/٢٣٥ «باب العين والجيم والباء معهما».

٥ الغُرْضوف والغُضْروف: كلّ عَظْمٍ رَخْصٍ يُؤكَل، وهو مارِنُ الأنْف ونُغْضُ الكَتِف ورُءوس الأضلاع ورَهابة الصَّدْر وداخِلُ قُوف الأذُن. القاموس المحيط للفيروزآبادي، «غرف».

المحرَّمة والاستهزاء برسول الله صلّى الله عليه وسلّم والافتياتِ على أمره وتركِ المسارعة إلى الامتثال به جنايةٌ عظيمةٌ حقيقةٌ بأن تُنعَى عليهم بحِيالها؛ ولو حُكيت القصّة على ترتيب الوقوع لَما عُلم استقلال كلٍّ منها[١] بما يخصّ بها مِن التوبيخ. وإنّما حُكي الأمر بالذَّبح عن موسى عليه السلام -مع أنّه مِن الله عزّ وجلّ كالأمر بالضرب- لِما أنّ جناياتِهم كانت بمراجعتهم إليه عليه السلام والافتياتِ على رأيه.

﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ على إرادة قولٍ معطوفٍ على مقدَّرٍ ينسحب عليه الكلام، أي: فضربوه، فحَيِيَ، وقلنا: ﴿كَذَٰلِكَ﴾... إلخ، فحُذفت الفاء الفصيحة في "فحَيِيَ" مع ما عُطف بها وما عُطف هو[٢] عليه لدلالة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ على ذلك، فالخطاب في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ حينئذ للحاضرين عند حياة القتيل. ويجوز أن يكون ذلك للحاضرين عند نزول الآية الكريمة، فلا حاجةَ حينئذ إلى تقدير القول؛ بل ينتهي الحكاية عند قوله تعالى: ﴿بِبَعْضِهَا﴾ مع ما قُدّر بعده،[٣] فالجملة معترِضة، أي: مثلَ ذلك الإحياء العجيب يُحيي الله الموتى يومَ القيامة.

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ ودلائلَه الدالّةَ على أنّه تعالى على كلّ شيء قدير. ويجوز أن يُراد بـ"الآيات" هذا[٤] الإحياءُ، والتعبيرُ عنه بالجمع لاشتماله على أمور بديعة مِن ترتُّب الحياة على عُضو ميّتٍ وإخبارِه بقاتله وما يلابسه مِن الأمور الخارقة للعادات.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: لِكي تكمُلَ عقولكم وتعلموا أنّ مَن قدَرَ على إحياء نفسٍ قدَرَ على إحياء الأنفس كلِّها، أو تعلموا على قضيّة عقولكم. ولعلّ الحكمةَ في اشتراط ما اشتُرط في الإحياء -مع ظهور كمال قدرته على إحيائه ابتداءً بلا واسطة أصلًا- اشتمالُه على التقرّب إلى الله تعالى وأداءِ الواجب ونفعِ اليتيم والتنبيهِ على بَرَكة التوكّل على الله تعالى والشَّفقةِ على الأولاد ونفعِ برّ الوالد، وأنّ مِن حقّ الطالب أن يقدّم قُربةً، ومِن حقّ المتقرِّب أن يتحرّى الأحسنَ

---

[١] ط: منهما.
[٢] ط س - هو.
[٣] وفي هامش أ: أي: فضربوه، فيَحيا. «منه».
[٤] ي: هذه.

ويُغالِيَ بثَمَنه، كما يُروى عن عمرَ رضي الله عنه أنّه ضَحَّى بنَجيبةٍ اشتراها بثلاث مائةِ دينارٍ،[١] وأنّ المؤثِّر هو الله تعالى، وإنّما الأسباب أماراتٌ لا تأثيرَ لها، وأنّ مَن رَامَ أن يعرف أعدى عدوِّه الساعي في إماتته الموتَ الحقيقيَّ، فطريقُه أن يذبَح[٢] بقرةَ نفسِه التي هي قوّته الشّهويّة حين زال عنها شَرَهُ الصِّبا،[٣] ولم يلحَقها ضَعف الكِبَر، وكانت معجبةً رائقةَ المَنظَر غيرَ مذلَّلةٍ في طلب الدنيا مسلَّمةً عن دَنَسها لا سِمةَ بها مِن قبائحها بحيث يتّصل أثرُه إلى نفسه فيَحْيا بها حياةً طيّبةً، ويُعربَ عمّا به ينكشف الحال ويرتفع ما بين العقل والوهم مِن التدارُؤ والجدال.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ الخطاب لمعاصري النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. والقَسوة عبارة عن الغِلَظ والجفاء والصَّلابة كما في الحَجَر، استُعيرت لنُبوّ قلوبهم عن التأثّر بالعِظات والقوارع التي تَميعُ منها الجبال وتَلينُ بها الصُّخور. وإيراد الفعل المفيد لحدوث القساوة -مع أنّ قلوبهم لم تزل قاسيةً- لِما أنّ المراد بيان بلوغهم إلى مرتبة مخصوصة مِن مراتب القساوة حادثةٍ، وإمّا لأنّ الاستمرار على شيءٍ بعد ورودِ ما يوجب الإقلاعَ عنه أمرٌ جديد وصنعٌ حادث. و﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد القسوة بعد مشاهدة ما يُزيلها، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.[٤]

﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن إحياء القتيل أو إلى جميع ما عُدّد مِن الآيات الموجِبة للين القلوب وتوجّهِها نحوَ الحقّ، أي: مِن بعد سماع ذلك.

---

[١] انظر: مسند أحمد، ١٠/٤٠٣ (٦٣٢٥)؛ وسنن أبي داود، ٣/١٧٣-١٧٤ (١٧٥٦).

[٢] ي: تذبح.

[٣] الشَّرَهُ: غَلَبة الحِرص. وقد شَرِهَ الرجلُ، فهو شَرِهٌ. الصحاح للجوهري، «شره».

[٤] ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام، ٦/١].

وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلته وعُلوّ طبقته. وتوحيد حرف الخطاب مع تعدّد المخاطبين إمّا[1] بتأويل الفريق، أو لأنّ المراد مجرّد الخطاب، لا تعيينُ المخاطَب كما هو المشهور.

﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ﴾ في القساوة ﴿أَوْأَشَدُّ﴾ منها ﴿قَسْوَةً﴾ أي: هي في القَسوة مثلُ الحجارة أو زائدةٌ عليها فيها، أو أنّها مثلُها أو مثلُ ما هو أشدُّ منها قسوةً كالحديد؛ فحُذف المضاف وأقيمَ المضاف إليه مُقامَه، ويعضُده القراءة بالجرّ[2] عطفًا على ﴿ٱلْحِجَارَةِ﴾. وإيراد الجملة اسميّةً[3] -مع كون ما سبق فعليّةً- للدلالة على استمرار قساوة قلوبهم. و"الفاء" إمّا لتفريع مشابهتها لها على ما ذُكر مِن القساوة تفريعَ التشبيه على بيان وجه الشَّبَه في قولك: "احمَرَّ خَدُّه، فهو كالوَرْد"، وإمّا للتعليل كما في قولك: "اعبُدْ ربَّك، فالعبادة[4] حقٌّ له".[5]

وإنّما لم يُقل: "أو أَقسى منها" لِما في التصريح بالشدّة مِن زيادةِ مبالغةٍ ودلالةٍ ظاهرةٍ على اشتراك القَسوتين في الشدّة واشتمالِ المفضَّل على زيادة. و﴿أَوْ﴾[6] للتخيير[7] أو للترديد بمعنى أنّ مَن عرف حالَها شبَّهَها بالحجارة أو بما هو أَقسى، أو مَن عرفها شبَّهَها بالحجارة أو قال: "هي أقسى مِن الحجارة". وترك ضمير المفضَّل عليه للأمن مِن الالتباس.

﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بيان لأشَدّيّة قلوبهم مِن الحجارة في القساوة وعدمِ التأثّر واستحالةِ صدور الخير منها، يعني: أنّ الحجارة ربّما تتأثّر حيث يكون منها ما يتفجّر منه المِياه العظيمة. ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ﴾ أي: يتشقّقُ، ﴿فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾ أي: العيونُ. ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: يتردَّى مِن الأعلى إلى الأسفل بقضيّة ما أودعه الله عزّ وجلّ[8] فيها مِن الثِّقل الداعي إلى المَرْكز. وهو مجاز مِن الانقياد لأمره تعالى، والمعنى: أنّ الحجارة

---

[1] س - إمّا.
[2] قراءة شاذّة، ذكرها البيضاوي ونسبها إلى الحسن. أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٨٨.
[3] ي: الاسميّة.
[4] ط س + له.
[5] ط - له.
[6] ط س: أو.
[7] ي: للتحيّر.
[8] ط: تعالى.

ليس منها فردٌ إلّا وهو منقادٌ لأمره عزّ وعلا،[١] آتٍ بما خُلِق له مِن غير استعصاء، وقلوبُهم ليست كذلك، فتكون[٢] أشدَّ منها قَسوةً لا محالةَ. و"اللام" فيَ ﴿لَمَا﴾ لامُ الابتداء دخلت على اسم ﴿إِنَّ﴾ لتقدُّم الخبر. وقُرِئ: "إِنْ"[٣] على أنّها مخفَّفة مِن الثقيلة، و"اللام" فارقةٌ. وقُرِئ: "يَهْبُطُ"[٤] بالضمّ.

[٣٩ظ] ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ / ﴿عَنْ﴾ متعلِّقة بـ﴿غَٰفِلٍ﴾. و﴿مَا﴾ موصولة والعائد محذوف، أو مصدريّة. وهو وعيد شديد على ما هُمْ عليه مِن قَساوة القلوب وما يترتّب عليها مِن الأعمال السيّئة. وقُرِئ بالياء[٥] على الالتفات.

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ تلوين للخطاب وصَرْف له عن اليهود إثرَ ما عُدّت هَناتهم ونُعيت عليهم جناياتهم إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ومَن معه مِن المؤمنين. والهمزة لإنكار الواقع واستبعادِه كما في قولك: "أتضرِبُ أباك؟"، لا لإنكار الوقوع كما في قوله: "أأضرِبُ أبي؟".

و"الفاء" للعطف على مقدّرٍ يقتضيه المقام ويستدعيه نظام الكلام؛ لكنْ لا على قصد توجيه الإنكار إلى المعطوفين معًا كما في ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[٦] [القصص، ٢٨/٧٢؛ الزخرف، ٤٣/٥١؛ الذاريات، ٥١/٢١] على تقدير تقدير المعطوف عليه منفيًّا، أي: ألا تنظرون، فلا تُبصرون؟[٧] فالمنكَر كِلا الأمرين؛ بل إلى ترتّب الثاني على الأوّل مع وجوب أن يترتّب عليه نقيضه كما إذا قُدّر الأوّل مُثبَتًا، أي: أتنظرون، فلا تبصرون؟[٨] فالمنكَر ترتّبُ الثاني على الأوّل مع وجوب أن يترتّب عليه نقيضه، أي: أتسمعون أخبارَهم وتعلمون أحوالَهم، فتطمعون؟ ومآلُ المعنى:

---

١ س: تعالى.

٢ س: فيكون.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٦٧.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. المحتسب لابن جنّي، ٩١/١.

٥ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢١٧/٢.

٦ ط: يبصرون. | وهو كذا في سورة السجدة، ٢٧/٣٢.

٧ ط س ي: ألا ينظرون فلا يبصرون. | والمثبت مِن نسخة أ. وكذا في مطبوعاته.

٨ ط: أينظرون فلا يبصرون.

أبَعْدَ أن علمتم تفاصيلَ شئونهم المُؤيِسة عنهم تطمعون ﴿أَن يُؤْمِنُوا﴾؛ فإنّهم متماثلون في شدّة الشكيمة والأخلاق الذميمة، لا يتأتّى مِن أخلافهم إلّا مثلُ ما أتى مِن أسلافهم.

و﴿أَنْ﴾ مصدريّة، حُذف عنها الجارّ، والأصل: في أن يؤمنوا، وهي مع ما في حيّزها في محلّ النصب[١] أو الجرّ[٢] على الخلاف المعروف. و"اللام" في ﴿لَكُمْ﴾ لتضمين معنى "الاستجابة" كما في قوله عزّ وجلّ:[٣] ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت، ٢٦/٢٩]، أي: في إيمانهم مستجيبين لكم، أو للتعليل، أي: في أن يُحدِثوا[٤] الإيمان لأجل دعوتكم. وصلة "الإيمان" محذوفة لظهور أنّ المراد به معناه الشرعيّ. وستقف على ما فيه مِن المزيّة بإذن الله تعالى.

﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ "الفريق" اسمُ جمع لا واحدَ له مِن لفظه، كـ"الرَّهْط" و"القوم". والجارّ والمجرور في محلّ الرفع،[٥] أي: فريق كائن منهم. وقوله تعالى: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ خبرُ ﴿كَانَ﴾. وقُرئ: "كَلِمَ اللهِ".[٦] والجملة حاليّة مؤكِّدة للإنكار، حاسمةٌ لمادّة الطمَع مثل أحوالهم الشنيعة المَحكيّة فيما سلف، على منهاج قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ [الكهف، ٥٠/١٨]، أي: والحالُ أنّ طائفةً منهم.[٧] قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «هُمْ قومٌ مِن السبعين المختارين للمِيقات، كانوا يسمعون كلامه تعالى حين كَلَّم موسى عليه السلام بالطُّور وما أمر به ونهى عنه».[٨]

﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ عن مواضعه؛ لا لقصور فهمهم عن الإحاطة بتفاصيله على ما ينبغي لاستيلاء الدهشة والمَهابة حسبما يقتضيه مقام الكبرياء، بل ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي: فهِموه وضبَطوه بعقولهم، ولم تبقَ لهم في مضمونه ولا في كونه كلامَ ربّ العزّة رِيبةٌ أصلًا، فلمّا رجعوا إلى قومهم أدّاه الصادقون إليهم كما سمعوا،

---

[١] وفي هامش ي أ: عند سيبويه والفرّاء. «منه».
[٢] وفي هامش ي أ: عند الخليل والكسائي. «منه».
[٣] س ي: تعالى.
[٤] ط س: تحدثوا.
[٥] وفي هامش ي: على أنّه صفة لـ﴿فَرِيقٌ﴾.
[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٦٧.
[٧] ط: منكم.
[٨] انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢٢٢/١؛ واللباب لابن عادل، ٣٨٩/٢.

وهؤلاء قالوا: سمعنا الله تعالى يقول في آخر كلامه: «إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياءَ، فافعلوا، وإن شئتم فلا تفعلوا، فلا بأسَ»؛ فـ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي زمانًا أو رتبةً. وقال القفّال رحمه الله: «سمعوا كلام الله وعقَلوا مراده تعالى منه، فأوّلوه تأويلًا فاسدًا».[١]

وقيل: هُمْ رؤساء أسلافهم الذين تولَّوْا تحريفَ التوراة بعد ما أحاطوا بما فيها علمًا. وقيل:[٢] هم الذين غيّروا نعت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في عصره، وبدّلوا آيةَ الرَّجْم؛ ويأباه الجمعُ بين صيغتَي الماضي والمستقبل الدالُّ على وقوع السماع والتحريف فيما سلف؛ إلّا أن يُحمَل ذلك على تقدّمه على زمان نزول الآية الكريمة، لا على تقدّمه على عهده صلّى الله عليه وسلّم.

هذا، والأوّل هو الأنسب بالسَّماع والكلام؛ إذ التوراةُ، وإن كانت[٣] كلامَ الله عزّ وعلا،[٤] لكنّها باسم "الكتاب" أشهرُ، وأثرُ التحريف فيه أظهرُ، ووصفُ اليهودِ بتلاوتها أكثرُ، لاسيّما رؤساؤُهم المباشِرون للتحريف، فإنّ وظيفتهم التلاوةُ دون السماع؛ فكان الأنسب حينئذ أن يقال: "يتلُون كتاب الله"، فالمعنى: أفتطمَعون في أن يؤمن هؤلاء بواسطتكم ويستجيبوا لكم والحالُ أنّ أسلافهم الموافِقين لهم في خلال السوء كانوا يسمعون كلام الله بلا واسطةٍ، ثمّ يحرّفونه مِن بعد ما علموه يقينًا، ولا يستجيبون[٥] له؟ هيهاتَ! ومِن ههنا ظهر ما في إيثار ﴿لَكُمْ﴾ على "بالله" مِن الفخامة والجزالة.

وقوله عزّ وجلّ:[٦] ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ جملة حاليّة مِن فاعل ﴿يُحَرِّفُونَهُۥ﴾، مفيدةٌ لكمال قباحة حالهم، مؤذِنةٌ بأنّ تحريفهم ذلك لم يكن بناءً على نسيانٍ ما عقَلوه أو على الخطأ في بعض مقدِّماته؛ بل كان ذلك حالَ كونهم عالِمين به[٧] مستحضِرين له، أو وهُمْ يعلمون أنّهم كاذبون ومُفتَرون.

---

[١] نقله الرازي في تفسيره، ٥٦١/٣؛ وابن عادل في اللباب، ١٩٧/٢.

[٢] وفي هامش ط س ي: وهو قول مجاهد وقتادة ووهب وعكرمة والسدّي. «منه». | انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢٢٢/١.

[٣] ط س: كان.

[٤] ي: تعالى.

[٥] ي: بل يستجيبوا.

[٦] ي: تعالى.

[٧] ي - به.

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿وَإِذَا لَقُوا﴾ جملة مستأنَفة سِيقت إثرَ بيان ما صدر عن أشباههم لبيان ما صدر عنهم بالذات مِن الشنائع المُؤيِسة عن إيمانهم مِن نفاق بعضٍ وعتابِ آخَرين عليهم، أو معطوفةٌ على ما سبق مِن الجملة الحاليّة. والضمير لليهود لِما ستقف على سرّه، لا لمنافِقِيهم خاصّةً كما قيل[1] تحرّيًا لاتّحاد الفاعل في فعلَي الشرط والجزاء حقيقةً. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ مِن أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

﴿قَالُوا﴾ أي: اللاقُون؛ لكنْ لا بطريق تصدّي الكلّ للقول حقيقةً، بل بمباشرة منافِقِيهم وسكوتِ الباقين، كما يقال: "بنو فلان قتلوا فلانًا"، والقاتلُ واحد منهم. وهذا أدخلُ في تقبيح حال الساكتين أوّلًا العاتبين ثانيًا لِما فيه مِن الدلالة على نفاقهم واختلاف أحوالهم وتناقضِ آرائهم مِن إسناد القول إلى المباشِرين خاصّةً بتقدير المضاف، أي: قال منافقوهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ لم يقتصروا على ذلك؛ بل علّلوه بأنّهم وجدوا نعت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في **التوراة**، وعلموا أنّه النبيّ المبشَّرُ به؛ وإنّما لم يصرَّح به تعويلًا على شهادة التوبيخ الآتي: ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ﴾ أي: بعضُ المذكورين، / وهم الساكتون منهم، أي: [٤٠و] إذا فرغوا عن الاشتغال بالمؤمنين متوجِّهين ومنضمّين ﴿إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ آخرَ منهم، وهم منافقوهم بحيث لم يبقَ معهم غيرُهم.

وهذا نصٌّ على اشتراك الساكتين في لقاء المؤمنين كما أشيرَ إليه آنفًا؛ إذ الخلوُّ إنّما يكون بعد الاشتغال، ولأنّ عتابهم[2] معلَّقٌ بمحض الخلوّ، ولولا أنّهم حاضرون عند المقاولة لَوجب أن يُجعل سماعهم لها مِن تمام الشرط، ولأنّ فيه زيادةَ تشنيعٍ لهم على ما أتَوا مِن السكوت، ثمّ العتابِ.

---

[1] وفي هامش ي أ: القاضي البيضاوي. «منه». | أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٨٩.

[2] ي: خطابهم.

﴿قَالُوا﴾ أي: الساكتون موبّخين لمنافقيهم على ما صنعوا: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ﴾ يَعنُون المؤمنين. ﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿مَا﴾ موصولة،[١] والعائد محذوف، أي: بيَّنه لكم خاصّةً في التوراة مِن نعت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. والتعبير عنه بـ"الفتح" للإيذان بأنّه سرٌّ مكنون وبابٌ مغلَق، لا يقف عليه أحد. وتجويز كون هذا التوبيخ مِن جهة المنافقين لأعقابهم إراءةً للتصلّب في دينهم -كما ذهب إليه عِصابة- ممّا لا يليق بشأن التنزيل الجليل.

و"اللام" في قوله عزّ وجلّ:[٢] ﴿لِيُحَاجُّوكُم بِهِۦ﴾ متعلِّقة بالتحديث دون الفتح. والمراد تأكيد النكير وتشديدُ التوبيخ؛ فإنّ التحديث بذلك، وإن كان منكَرًا في نفسه، لكنّ التحديثَ به لأجل هذا الغرض ممّا لا يكاد يصدر عن العاقل، أي: أتحدِّثونهم بذلك ليَحتجّوا عليكم به فيُبكِّتوكم؟ والمحدِّثون به، وإن لم يحُوموا حولَ ذلك الغرض، لكنّ فعلَهم ذلك لمّا كان مستتبِعًا له البتّةَ، جُعلوا فاعلين للغرض المذكور إظهارًا لكمال سخافة عقولهم وركاكة آرائهم.

﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ أي: في حُكمه وكتابه، كما يقال: "هو عند الله كذا"، أي: في كتابه وشرعه. وقيل: عند ربّكم يومَ القيامة، ورُدَّ عليه بأنّ الإخفاء لا يدفعه؛ إذ هم عالِمون بأنّهم محجوجون يومئذ، حدَّثوا به أو لم يحدِّثوا. والاعتذار بأنّ إلزام المؤمنين إيّاهم وتبكيتَهم بأن يقولوا لهم: «ألم تحدِّثونا بما في كتابكم في الدنيا مِن حقّيّة ديننا وصِدقِ نبيّنا» أفحشُ، فيجوز أن يكون المحذورُ عندهم هذا الإلزامَ بإرجاع الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ إلى التحديث دون المحدَّث به، ولا ريبَ في أنّه مدفوع بالإخفاء، لا يساعده[٣] الآية الكريمة الآتية كما ستقف عليه بإذن الله تعالى.[٤]

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ مِن تمام التوبيخ والعتاب، و"الفاء" للعطف على مقدَّرٍ ينسحب عليه الكلام، أي: ألا تلاحظون، فلا تعقِلون هذا الخطأ الفاحشَ

---

[١] وفي هامش ط ي: وقد جَوّز أبو البقاء كونَ ﴿مَا﴾ مصدريّةً؛ ولا ريب في أنّ ضمير ﴿بِهِۦ﴾ عائد إليها، والمصدريّة حرفٌ لا يعود إليها الضمير إلّا عند الأخفش وأبي بكر بن السَّرّاج، ورجعُه إلى مصدر أحد الفعلين -أي: التحديث والفتح- لا صحّةَ له كما ستُحيط به خُبرًا. «منه». | التبيان لأبي البقاء العُكبري، ١/٨٠.

[٢] س ي: تعالى.

[٣] السياق: والاعتذار بأنّ إلزام المؤمنين إيّاهم... أفحشُ... لا يساعده الآية الكريمة الآتية...

[٤] ط: عزّ وجلّ.

أو شيئًا مِن الأشياء التي مِن جملتها هذا؟ فالمنكَرُ عدمُ التعقّل ابتداءً؛ أو أتفعلون ذلك، فلا تعقِلون بُطلانه مع وضوحه حتّى تحتاجون إلى التنبيه عليه؟ فالمنكَرُ حينئذ عدمُ التعقّل بعد الفعل.

هذا، وأمّا ما قيل مِن[١] أنّه[٢] خطاب مِن جهة الله[٣] سبحانه للمؤمنين متّصلٌ بقوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾،[٤] والمعنى: أفلا تعقلون حالَهم وأن لا مَطمَعَ لكم في إيمانهم، فيأباه قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ﴾؛ فإنّه إلى آخره تجهيلٌ لهم مِن جهته تعالى فيما حكى عنهم، فيكون إيرادُ خطاب المؤمنين في أثنائه مِن قَبيل الفصل بين الشجر ولِحائه، على أنّ في تخصيص الخطاب بالمؤمنين مِن التعسّف، وفي تعميمه للنبيّ أيضًا صلّى الله عليه وسلّم كما في ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ مِن سُوء الأدب ما لا يخفى.

والهمزة للإنكار والتوبيخ كما قبلها، و"الواو" للعطف[٥] على مقدَّر ينساق إليه الذهن، والضميرُ للموبّخين، أي: أيلُومونهم على التحديث المذكور مَخافةَ المُحاجّة ولا يعلمون ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ أي: يُسرّونه فيما بينهم مِن المؤمنين، أو ما يُضمرونه في قلوبهم، فيثبت الحكم في ذلك بالطريق الأَولى. ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: يُظهرونه للمؤمنين، أو لأصحابهم حسبما سبق، فحينئذ يُظهر الله تعالى للمؤمنين ما أرادوا إخفاءه بواسطة الوحي إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فيحصل المُحاجّة ويقع التبكيت، كما وقع في آية الرَّجم وتحريمِ بعض المحرَّمات عليهم؛ فأيُّ فائدةٍ في اللَّوم والعتاب؟ ومِن هنا[٦] تبيَّنَ أنّ المحظور عندهم هو المُحاجّة بما فتح الله عليهم -وهي حاصلة في الدارَين، حدَّثوا به أم لا- لا بالتحديث به حتّى يندفعَ بالإخفاء.[٧]

وقيل: الضمير للمنافقين فقط، أو لهم وللموبّخين، أو لآبائهم المحرِّفين، أي: أتفعلون ما يفعلونِ ولا يعلمون أنّ الله يعلم جميعَ ما يُسرّون وما يُعلنون؟

---

١ س - مِن.
٢ س: بأنّه.
٣ س: مِن جهته.
٤ في الآية السابقة.
٥ وفي هامش ط س ي: وحيث كان العطف ههنا بالواو الدالّة على مطلق الجمع مِن غير دلالة على التعقيب كما في ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، لم يلزَم مِن تقدير المعطوف عليه جملة "يلُومونهم" ما ذُكر مِن كون المنكَر عدمَ العلم بالفعل. «منه».
٦ ي: ههنا.
٧ ي + به.

ومِن جملته إسرارُهم الكفرَ وإظهارُهم الإيمانَ وإخفاءُ ما فتح الله عليهم وإظهارُ غيره وكتمُ أمر الله وإظهارُ ما أظهروه افتراءً.

وإنّما قُدّم "الإسرار" على "الإعلان" للإيذان بافتضاحهم ووقوعِ ما يحذَرونه مِن أوّل الأمر والمبالغةِ في بيان شمول علمه المحيط لجميع المعلومات، كأنّ علمه بما يُسرّونه أقدَمُ منه بما يُعلنونه مع كونهما في الحقيقة على السَّويّة؛ فإنّ علمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول صُوَرها؛ بل وجودُ كلّ شيء في نفسه علمٌ بالنسبة إليه تعالى، وفي هذا المعنى لا يختلف الحال بين الأشياء البارزة والكامنة. ونظيره قوله تعالى:[١] ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ[٢] أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران، ٢٩/٣]؛ حيث قُدّم فيه "الإخفاء" على "الإبداء" لِما ذُكر مِن السرّ، على عكس ما وقع في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة، ٢٨٤/٢]؛ فإنّ الأصيل في تعلّق المحاسبة به هو الأمور البادية دون الخافية. ويجوز أن يكون ذلك باعتبار أنّ مرتبة السرّ متقدّمة على مرتبة العَلَن؛ إذ ما مِن شيء يُعلَن إلّا وهو أو مَباديه قبل ذلك مضمَرٌ في القلب يتعلّق به الإسرار غالبًا،[٣] فتعلُّقُ علمه تعالى بحالته الأُولى متقدِّمٌ على تعلّقه بحالته الثانية.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ وقُرئ بتخفيف الياء،[٤] جمع "أُمّيّ"، وهو مَن لا يقدر على الكتابة والقراءة. واختُلف في نسبته، فقيل: إلى "الأمّ" بمعنى أنّه شبيه بها في الجهل بالكتابة والقراءة، فإنّهما ليستا مِن شئون النساء، بل مِن خلال الرجال، أو بمعنى أنّه على الحالة التي ولَدتْه أمّه في الخلوّ عن العلم والكتابة، وقيل: إلى "الأمّة"

---

[١] ط: عزّ وعلا.

[٢] ط س ي: أنفسكم.

[٣] ط س - يتعلّق به الإسرار غالبًا.

[٤] قراءة شاذّة، ذكرها ابن عادل ونسبها إلى ابن أبي عَبلة. اللباب لابن عادل، ٢٠٣/٢. وروى أبو حيّان في البحر المحيط، ٤٤٤/١، القراءةَ بتخفيف الميم ونسبها إلى أبي حياة وابن أبي عَبلة.

بمعنى أنّه باقٍ على سَذاجتها خالٍ عن معرفة الأشياء، / كقولهم: عاميّ، أي: على [٤٠ظ] عادة العامّة. رُوي عن عكرمة والضحّاك أنّ المراد بهم نصارى العرب.[١] وقيل: هُم قوم مِن أهل الكتاب، رُفع كتابهم لذنوبٍ ارتكبوها، فصاروا أمّيّين. وعن عليّ رضي الله عنه: «هم المجوس».[٢] والحقّ الذي لا مَحيد عنه أنّهم جَهَلة اليهود.

والجملة مستأنَفة مَسوقة لبيان قبائحهم إثرَ بيان شنائع الطوائف السالفة. وقيل: هي معطوفة على الجملة الحاليّة؛[٣] فإنّ مضمونها منافٍ لرجاء الخير منهم وإن لم يكن فيه ما يحسِم مادّةَ الطمَع عن إيمانهم كما في مضمون الجملة الحاليّة وما بعدها، فإنّ الجهل بالكتاب في منافاة الإيمان ليس بمثابة تحريف كلام الله بعد سماعه والعلم بمعانيه كما وقع مِن الأوّلين أو النفاقِ والنهي عن إظهار ما في **التوراة** كما وقع مِن الفِرقتين الأُخرَيَين، أي: ومنهم طائفة جَهَلة غيرُ قادرين على الكتابة والتلاوة.

﴿لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: لا يعرفون **التوراة** ليطالعوها ويتحقّقوا ما في تضاعيفها مِن دلائل النبوّة فيؤمنوا. وحملُ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ على "الكتابة" يأباه سباق النظم الكريم وسياقُه.

﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ بالتشديد، وقُرئ بالتخفيف،[٤] جمعُ "أُمنِيّة"، أصلها "أُمنُويَة"، أُفعُولة مِن "مَنَى" بمعنى "قدَّر"، أو بمعنى "تَلَا"، كـ"تَمنَّى" في قوله:

تمنَّى كتابَ الله أوّلَ ليلةٍ[٥]

---

[١] **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٤٤/١؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٠٢/٢.

[٢] **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٤٤/١؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٠٢/٢.

[٣] وفي هامش ي: سعد الدين. «منه». | أي: التفتازاني. انظر: **حاشية التفتازاني على الكشّاف**، ١١٩و-١١٩ظ.

[٤] قرأ بها أبو جعفر مِن القرّاء العشرة. **النشر** لابن الجزري، ٢١٨/٢.

[٥] صدر بيتٍ، وتمامه:

وآخِرَها لَاقَى حِمامَ المَقادرِ

وهو لحسّان بن ثابت مِن مرثيته في عثمان بن عفّان في **تفسير الرازي**، ٢٣٨/٢٣؛ **واللباب** لابن عادل، ١١٨/١٤، ولم نقف عليه في ديوانه. وهو بلا نسبة في **كتاب العين** للخليل بن أحمد، ٣٩٠/٨ «باب النون والميم»؛ **ومعجم مقاييس اللغة** لابن فارس، ٢٧٧/٥ «باب الميم والنون وما يثلثهما»؛ **وأمالي الزجّاجي**، ٢٠/١، وفيها: "وآخِرَه" مكان "وآخرها".

فأُعلّت إعلالَ "سيّد" و"ميّت". ومعناها على الأوّل ما يقدّره الإنسان في نفسه ويتمنّاه، وعلى الثاني ما يتلوه. وعلى التقديرين فالاستثناء منقطِع؛ إذ ليس ما يُتمنّى وما يُتلى مِن جنس علم الكتاب، أي: لا يعلمون[١] الكتاب، لكن يتمنَّوْن[٢] أمانيَّ حسبما منَّتْهم أحبارهم مِن أنّ الله سبحانه يعفو عنهم وأنّ آباءهم الأنبياءَ يشفَعون لهم وغير ذلك مِن أمانيّهم الفارغة المستندةِ إلى الكتاب على زعم رؤسائهم، أو لا يعلمون[٣] الكتاب، لكن يتلقَّوْنه قدرَ ما يُتلى عليهم، فيقبلونه مِن غير أن يتمكّنوا مِن التدبّر فيه. وأمّا حملُ "الأَمانيّ" على الأكاذيب المختلقة[٤] على الإطلاق مِن غير أن يكون لها ملابسة بـ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، فلا يساعده النظم الكريم.

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ما هُمْ إلّا قومٌ قُصارى أمرهم الظنّ والتقليدُ مِن غير أن يصِلوا إلى رتبة العلم؛ فأنّى يُرجى منهم الإيمان المؤسَّسُ على قواعد اليقين.

ولمّا بُيّن حال هؤلاء في تمسّكهم بحبال الأمانيّ واتّباع الظنّ، عُقّب ببيان حال الذين أوقعوهم في تلك الوَرْطة وبكشف كيفيّة إضلالهم لهم وتعيينِ مرجع الكلّ بالآخرة، فقيل على وجه الدعاء عليهم: ﴿فَوَيْلٌ﴾ هو وأمثالُه[٥] مِن "وَيْحٍ" و"وَيْسٍ" و"وَيْبٍ" و"وَيْهٍ" و"وَيْكٍ" و"عَوْلٍ" مِن المصادر المنصوبة بأفعالٍ مِن غير لفظها، لا يجوز إظهارُها البتّةَ؛ فإن أضيفَ نُصب نحو "وَيْلَك" و"وَيْحَك"، وإذا فُصل عن الإضافة رُفع نحو "وَيْلٌ له".

ومعنى الوَيْل: شدّة الشرّ، قاله الخليل.[٦] وقال الأَصمعي:[٧] «الوَيْل: التفجّع،

---

١ وفي هامش ط س ي: على الوجه الأوّل. «منه».

٢ وفي هامش ط س ي: قاله أبو البقاء. «منه». | أي: أبو البقاء العُكبري، قاله في التبيان، ٨٠/١.

٣ وفي هامش س ي: على الوجه الثاني. «منه».

٤ ي: المختلفة.

٥ ط: وأخواتها.

٦ قال الخليل بن أحمد في كتاب العين، ٣٦٦/٨ «باب اللفيف مِن اللام»: «الوَيْل: حلول الشرّ».

٧ هو عبد المَلك بن قُرَيب بن عليّ بن أصمَع الباهلي الأصمعي، أبو سعيد (ت. ٢١٦هـ/٨٣١م). راوية العرب وأحد أئمّة العلم باللغة والشعر والبلدان. مَولده ووفاته في البصرة. كان كثيرَ التَّطْواف في البوادي، يقتبس علومها ويتلقّى أخبارها، ويتحف بها الخلفاء، فيكافَأ عليها بالعطايا الوافرة. له تصانيف كثيرة، منها: الأصمعيّات، وكتاب الخيل، وكتاب الإبل، وكتاب الوحوش، وكتاب الأضداد، وكتاب الاشتقاق، وفُحولة الشعراء. انظر: إنباه الرواة للقِفطي، ١٩٧/٢-٢٠٥؛ والأعلام للزركلي، ١٦٢/٤.

والوَيْح: الترحّم».[١] وقال سيبويه: «"وَيْلٌ" لِمن وقع في الهَلَكة، و"وَيْحٌ" زجرٌ لِمن أشرَفَ على الهلاك».[٢] وقيل: الوَيْل: الحزن.[٣] وهل[٤] "وَيْح" و"وَيْب" و"وَيْس" بذلك المعنى أو بينه وبينها فرقٌ؟ وقيل: "وَيْل" في الدعاء عليه، و"وَيْح" وما بعده في الترحّم عليه.[٥] وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «الوَيْل: العذاب الأليم».[٦] وعن سفيان الثوري[٧] أنّه صديد أهل جهنّم.[٨] ورَوى أبو سعيد الخُدْري[٩] رضي الله عنه عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «الوَيْلُ وادٍ في جهنّم يَهوِي فيه الكافرُ أربعين خريفًا قبل أن يبلُغ قَعْرَه».[١٠] وقال سعيد بن المسيّب:[١١] «إنّه وادٍ[١٢]

---

١ نقله عنه ابن عادل في اللباب، ٢٠٧/٢.

٢ نقله عنه بهذه الألفاظ الأزهري في تهذيب اللغة، ١٩١/٥ «باب الحاء والميم»؛ وابن عادل في اللباب، ٢٠٧/٢. وانظر لتفصيل قول سيبويه فيه: الكتاب، ٣٣٠/١-٣٣٤.

٣ انظر: لسان العرب لابن منظور، «ويل».

٤ ي: وقيل.

٥ انظر: لسان العرب لابن منظور، «ويل».

٦ جامع البيان للطبري، ١٦٣/٢؛ اللباب لابن عادل، ٢٠٨/٢.

٧ هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، أبو عبد الله (ت. ١٦١هـ/٧٧٨م). تابعيّ، مفسّر، محدّث، زاهد. كان سيّدَ أهل زمانه في علوم الدين والتقوى. وُلد ونشأ في الكوفة، وراوده المنصور العبّاسي على أنْ يلي الحُكم، فأبى، وخرج مِن الكوفة، فسكن مكّة والمدينة، ثمّ طلبه المهدي، فتوارَى، وانتقل إلى البصرة، فمات فيها مستخفيًا. له مِن الكتب: التفسير، والجامع الكبير، والجامع الصغير، وكتاب الفرائض. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٢٢٩/٧-٢٧٩؛ والأعلام للزركلي، ١٠٤/٣-١٠٥.

٨ جامع البيان للطبري، ١٦٤/٢.

٩ هو سعد بن مالك بن سنان الخُدري الأنصاري الخزرجي، أبو سعيد (ت. ٧٤هـ/٦٩٣-٦٩٤م). صحابيّ. كان مِن ملازمي النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. غزَا اثنتَي عشرةَ غزوةً. توفّي في المدينة. حدّث عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فأكثر وأطاب، وعن أبي بكر وعمر وطائفة. وحدّث عنه ابن عمر وجابر وأنس وجماعة مِن أقرانه وسعيد بن المسيّب وخلق كثير. وكان أحد الفقهاء المجتهدين. انظر: الاستيعاب للنمري، ١٦٧١/٤؛ وسير أعلام النبلاء للذهبي، ١٦٨/٣-١٧٢؛ والأعلام للزركلي، ٨٧/٣.

١٠ مسند أحمد، ٢٤٠/١٨ (١١٧١٢)؛ سنن الترمذي، ٣٢٠/٥ (٣١٦٤).

١١ هو سعيد بن المسيّب بن حَزْن المخزومي القرشي، أبو محمّد (ت. ٩٤هـ/٧١٣م). سيّد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة. جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع. رأى عمرَ، وسمع عثمان وعليًا وزيد بن ثابت وأبا موسى وسعدًا وعائشة وأبا هريرة وابن عبّاس ومحمّد بن مسلمة وأمّ سَلَمة، وخلقًا سواهم رضي الله عنهم أجمعين. وكان أحفظ الناس لأحكام عمر ابن الخطّاب وأقضيته، حتّى سُمّي: راوية عمر. وكان يعيش مِن التجارة بالزيت، لا يأخذ عطاءًا. تُوفّي بالمدينة. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ١١٩/٥-١٤٣؛ وسير أعلام النبلاء للذهبي، ٢١٧/٤-٢٤٦.

١٢ ي: أو.

في جهنّم، لو سُيّرت فيه جبال الدنيا لَماعتْ مِن شدّة حَرّه».[١] وقال ابن بريدة:[٢] «جبلُ قَيْحٍ ودمٍ».[٣] وقيل: صِهْرِيج في جهنّم.[٤] وحكى الزهراوي:[٥] «أنّه باب مِن أبواب جهنّم».[٦]

وعلى كلّ حال فهو مبتدأ، خبرُه قوله عزّ وعَلا:[٧] ﴿لِلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: المحرَّفَ أو ما كتبوه مِن التأويلات الزائغة. ﴿بِأَيۡدِيهِمۡ﴾ تأكيد لدفع توهّم المجاز، كقولك: "كتبتُه بيميني". ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا﴾ أي: جميعًا، على الأوّل، وبخصوصه، على الثاني. ﴿مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ رُوي أنّ أحبار اليهود خافوا ذهاب مآكلهم وزوالَ رياستهم حين قدِم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم[٨] المدينةَ، فاحتالوا في تعويق أسافل اليهود عن الإيمان، فعمَدوا إلى صفة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في التوراة، وكانت هي فيها: "حَسَنُ الوجه، حَسَنُ[٩] الشَّعر، أكحلُ العينين،

---

[١] **الكشف والبيان** للثعلبي، ١/٢٢٤؛ **اللباب** لابن عادل، ٢/٢٠٨.

[٢] هو عبد الله بن بُرَيدة بن الحُصَيب الأسلمي، أبو سهل. تابعيّ. شيخ مَرْو وقاضيها. أخو سليمان بن بُرَيدة، وكانا تَوْأَمَين، وُلدا سنةَ خمس عشرة. حدّث عن أبيه فأكثر، وعمران بن الحُصين وأبي موسى وعائشة وأمّ سلمة وابن عمر رضي الله عنهم، وطائفة. وحدّث عنه ابناه: صخر وسهل، والشعبي وقتادة ومقاتل بن سليمان المفسّر، وخلق سواهم. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٧/٢٢١؛ وسير **أعلام النبلاء** للذهبي، ٥/٥٠-٥٢.

[٣] **الكشف والبيان** للثعلبي، ١/٢٢٤. وهو في مطبوع **اللباب** لابن عادل، ٢/٢٠٨: "ابن يزيد"

[٤] أخرجه الطبري في **جامع البيان**، ٢/١٦٣-١٦٤، عَن أبي عياض.

[٥] هو عليّ بن سليمان بن محمّد [ت. ٤٣١هـ/١٠٣٩-١٠٤٠م]. الحاسب مِن أهل الزهراء وسكن غرناطة، يُكنى أبا الحسن ويعرف بالزهراوي. أخذ عن أبيه سليمان بن محمّد وأبي الحسن الأنطاكي وأبي عبد الله الرباحي وأبي بكر الزبيدي وأبي سليمان عبد السلام بن السمح وغيرهم مِن مشيخة قرطبة. وكان عالمًا بالهندسة والعدد، غلب عليه علم ذلك وشارك في فنون منها الطبّ، وله كتاب في تفسير القرآن في عدّة أسفار وكتاب آخر في المعاملاتِ علي طريق البرهان وتواليف غيرهما. وله رحلة حجّ فيها، وأمّ في صلاة الفريضة بالجامع القديم مِن غرناطة، وأقرأ هنالك القرآن والفقه والعربيّة وغير ذلك ممّا كان يُحسن. رَوى عنه أبو عبد الله بن قعنب وأبو عثمان سعيد بن عيسي الأصفر. **التكملة لكتاب الصلة** لابن الأبار، ٣/١٧٣-١٧٤. وتفسيره المنقول عنه هنا مفقود، وابن عطيّة الأندلسي أكثر النقل عنه في تفسيره، ولا نكاد نجده في مصدر آخر، وهو مصدرُ ما نُقل عن الزهراوي في تفاسير المتأخّرين.

[٦] **المحرّر الوجيز** لابن عطيّة، ١/١٧٠؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ١/٤٤٦؛ **اللباب** لابن عادل، ٢/٢٠٨.

[٧] ي: تعالى.

[٨] ي: عليه السلام.

[٩] ي: وحسن.

رَبْعةٌ"، فغيّروها، وكَتبوا مكانها: "طُوالٌ، أزرَقُ، سَبْطُ الشَّعر"، فإذا سألهم سَفَلَتهم عن ذلك قرءُوا عليهم ما كتبوا، فيجدونه[1] مخالِفًا لصفته عليه السلام، فيكذّبونه.[2] و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي الرُّتبيّ؛ فإنّ نسبة المحرَّف والتأويلِ الزائغ إلى الله سبحانه صريحًا أشدُّ شناعةً مِن نفس التحريف والتأويل.

﴿لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ﴾ أي: يأخذوا لأنفسهم بمقابلته ﴿ثَمَنًا﴾ هو ما أخذوه مِن الرُّشا بمقابلة ما فعلوا مِن التحريف والتأويل. وإنّما عُبّر عن المشترَى الذي هو المقصود بالذات في عقد المعاوضة بـ"الثّمن" الذي هو وسيلة فيه إيذانًا بتعكيسهم؛ حيث جعلوا المقصود بالذات وسيلةً والوسيلةَ مقصودًا بالذات. ﴿قَلِيلًا﴾ لا يُعبَأ به؛ فإنّ ذلك، وإن جلّ في نفسه، فهو أقلُّ قليلٍ عندما استوجبوا به مِن العذاب الخالد.

﴿فَوَيْلٌ لَّهُم﴾ تكرير لِما سبق للتأكيد، وتصريحٌ بتعليله بما قَدّمت أيديهم بعد الإشعار به[3] فيما سلف بإيراد بعضه في حيّز الصلة وبعضِه في معرض الغرض، و"الفاء" للإيذان بترتّبه[4] عليه أو للتفصيل.[5] و﴿مِنْ﴾ في قوله عزّ وجلّ:[6] ﴿مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ تعليليّة متعلِّقة بـ﴿وَيْلٌ﴾ أو بالاستقرار في الخبر، و﴿مَا﴾ موصولة اسميّة، والعائد محذوف، أي: كتبَتْه، أو مصدريّة، والأوّل أدخَلُ في الزجر عن تعاطي المحرَّف، والثاني في الزجر عن التحريف.

﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ الكلام فيه كالذي فيما قبله. والتكرير لِما مرّ / مِن [٤١و] التأكيد والتشديد والقصدِ إلى التعليل بكلٍّ مِن الجنايتين. وعدمُ التعرّض لقولهم: ﴿هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لِما أنّه مِن مبادي ترويج ما كتبت أيديهم، فهو داخل في التعليل به.[7]

﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨٠﴾

﴿وَقَالُوا﴾ بيان لبعضٍ آخَرَ مِن جناياتهم. وفصلُه عمّا قبله مشعِرٌ بكونه

---

[1] س: فيجدون.
[2] التفسير الوسيط للواحدي، ١/١٦٣؛ اللباب لابن عادل، ٢/٢١١.
[3] وفي هامش ط ي: تعليل.
[4] وفي هامش ي: وَيْل.
[5] س – أو للتفصيل.
[6] ي: تعالى.
[7] أي: بما كتبت أيديهم.

مِن الأكاذيب التي[١] اختلقوها ولم يكتبوها في الكتاب. ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ في الآخرة ﴿إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾ قليلةً محصورةً، عددَ أيّام عبادتهم العِجلَ أربعين يومًا، مدّةَ غَيْبة موسى عليه السلام عنهم. وحَكى الأصمّ عن بعض اليهود أنّ عدد أيّام عبادتهم العِجلَ سبعةٌ.[٢] ورُوي عن ابن عبّاس ومجاهد أنّ اليهود قالوا: «عُمُر الدنيا سبعةُ آلافِ سنةٍ، وإنّما نعذَّب بكلّ ألفِ سنةٍ يومًا واحدًا».[٣] ورَوى الضحّاك عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ اليهود زعمت أنّهم وجدوا في التوراة أنّ ما بين طرفَي جهنّمَ مسيرةُ أربعين سنةً إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزَّقّوم، وأنّهم يقطعون في كلّ يومٍ مسيرةَ سنةٍ، فيكمّلونها.[٤]

﴿قُلۡ﴾ تبكيتًا لهم وتوبيخًا: ﴿أَتَّخَذۡتُمۡ﴾ بإسقاط الهمزة المجتلبة لوقوعها في الدَّرْج وبإظهار الذال، وقُرئ بإدغامها في التاء.[٥] ﴿عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا﴾ خبرًا، أو وعدًا بما تزعمون، فإنّ ما تدّعون لا يكون إلّا بناءً على وعد قويّ؛ ولذلك عُبّر عنه بـ"العهد".

﴿فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓ﴾ "الفاء" فصيحة معرِبة عن شرط محذوف، كما في قول مَن قال:

قالوا: خراسانُ أقصى ما يُراد بنا ثمّ القُفولُ فقد جِئنا خُراسانَا[٦]

أي: إن كان الأمر كذلك، فلن يُخلِفَه. والجملة اعتراضيّة. وإظهار الاسم الجليل للإشعار بعلّة الحكم؛ فإنّ عدم الإخلاف مِن قضيّة الألوهيّة. وإظهار "العهد" مضافًا إلى ضميره عزّ وجلّ لِما ذُكر،[٧] أو لأنّ المراد به جميع عهوده لعمومه بالإضافة، فيدخل فيه العهد المعهود دخولًا أوّليًا؛ وفيه تجافٍ عن التصريح بتحقّق مضمون كلامهم، وإن كان معلّقًا[٨] بما لم يكد يشمّ رائحةَ الوجود قطعًا، أعني: اتّخاذ العهد.

---

١ س: الذي.

٢ تفسير الرازي، ٥٦٦/٣؛ اللباب لابن عادل، ٢١٢/٢.

٣ جامع البيان للطبري، ١٧٥/٢؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٢٥/١.

٤ جامع البيان للطبري، ١٧٢/٢-١٧٣؛ اللباب لابن عادل، ٢١٣/٢.

٥ أي: "أَتَّخَتُّم"، وهي قراءة السبعة إلّا ابن كثير وعاصم مِن رواية حفص. النشر لابن الجزري، ١٥/٢-١٦.

٦ البيت للعبّاس بن الأحنف في ديوانه، ص ٢٧٩.

٧ وفي هامش ي: مِن الإشعار بعلّة الحكم. «منه».

٨ ي أ: متعلّقا.

﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ مُفترين ﴿عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وقوعَه. وإنّما عُلّق التوبيخ بإسنادهم إليه سبحانه ما لا يعلمون وقوعَه -مع أنّ ما أسندوه إليه تعالى مِن قبيل ما يعلمون عدم وقوعه- للمبالغة في التوبيخ والنكير؛ فإنّ التوبيخ على الأدنى مستلزِمٌ للتوبيخ على الأعلى بالطريق الأَولى. وقولهم المَحكيّ، وإن لم يكن تصريحًا بالافتراء عليه سبحانه، لكنّه مستلزِم له؛ لأنّ ذلك الجزم لا يكون إلّا بإسناد سببه إليه تعالى.

و﴿أَمْ﴾ إمّا متّصلة والاستفهام للتقرير[١] المؤدِّي إلى التبكيت لتحقّق العلم بالشقّ الأخير، كأنّه قيل: أم لم تتّخذوه؛ بل تتقوّلون عليه تعالى؟ وإمّا منقطِعة والاستفهام لإنكار الاتّخاذ ونفيه، ومعنى "بل" فيها الإضرابُ والانتقالُ مِن التوبيخ بالإنكار على اتّخاذ العهد إلى ما تفيد همزتها مِن التوبيخ على التقوّل على الله سبحانه، كما في قوله عزّ وعلا:[٢] ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس، ٥٩/١٠].

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾

﴿بَلَىٰ﴾ إلى آخره جوابٌ عن قولهم المَحكيّ، وإبطال له مِن جهته تعالى، وبيان لحقيقة الحال تفصيلًا في ضمن تشريع كلّيّ شاملٍ لهم ولسائر الكَفَرة بعد إظهار كذبهم إجمالًا. وتفويض[٣] ذلك[٤] إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم[٥] لِما أنّ المُحاجّة والإلزامَ مِن وظائفه عليه السلام، مع ما فيه مِن الإشعار بأنّه أمرٌ هيّنٌ لا يتوقّف على التوقيف. و﴿بَلَىٰ﴾ حرفُ إيجاب مختصٌّ بجواب النفي خبرًا واستفهامًا.

﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ فاحشةً مِن السيّئات، أي: كبيرةً مِن الكبائر، كدَأْب هؤلاء الكَفَرة. والكسب: استجلاب النفع، وتعليقُه بـ"السيّئة" على طريقة

---

[١] وفي هامش ط س: أي: الحمل على الإقرار. «منه».

[٢] ي: تعالى.

[٣] ي: والتفويض.

[٤] س ي - ذلك.

[٥] وفي هامش ط س ي: بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ﴾ [البقرة، ٨٠/٢].

﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران، ٢١/٣؛ التوبة، ٣٤/٩؛ الانشقاق، ٢٤/٨٤]. ﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ﴾ مِن جميع جوانبه بحيث لم يبقَ له جانب مِن قلبه ولسانه وجوارحه إلّا وقد اشتملت واستَوْلت عليه. ﴿خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ التي كسبها وصارت خاصّةً مِن خواصّه، كما يُنبئ عنه الإضافة إليه. وهذا إنّما يتحقّق في الكافر؛ ولذلك فسّرها السَّلَف بـ"الكفر" حسبما أخرجه ابن أبي حاتم[١] عن ابن عبّاس وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهم[٢] وابنُ جرير[٣] عن أبي وائل[٤] ومجاهد وقتادة وعطاء والربيعِ.[٥] وقيل: السيّئة: الكفر، والخطيئة: الكبيرة، وقيل: بالعكس. وقيل: الفرق بينهما أنّ الأولى قد تُطلَق على ما يقصَد بالذات، والثانيةُ تغلب على ما يقصَد بالعَرَض؛ لأنّها مِن "الخطأ".

---

١ هو عبد الرحمن بن محمّد بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي، أبو محمّد، المشهور بابن أبي حاتم (ت. ٣٢٧هـ/٩٣٨م). الحافظ المفسّر الفقيه. مِن تصانيفه: **الجرح والتعديل**، **وعلل الحديث**، **والمراسيل**، **وتفسير القرآن العظيم**، **والردّ على الجهميّة**، **وآداب الشافعي ومناقبه**، **وبيان خطأ أبي عبد الله محمّد بن إسماعيل البخاري في تاريخه**. انظر: **ميزان الاعتدال** للذهبي، ٥٨٧/٢-٥٨٨؛ **والأعلام** للزركلي، ٣٢٤/٣.

٢ انظر: **تفسير ابن أبي حاتم**، ١٥٨/١.

٣ هو محمّد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر (ت. ٣١٠هـ/٩٢٣م). المؤرّخ المفسّر الإمام. وُلد في آمُلِ طبرستان، واستوطن بغداد وتوفّي بها. وعُرض عليه القضاء فامتنع، والمظالم فأبى. وكان مجتهدًا في أحكام الدين لا يقلّد أحدًا؛ بل قلّده بعض الناس وعملوا بأقواله وآرائه. وكان أسمر، نحيف الجسم، فصيحًا. مِن تصانيفه الكثيرة: **أخبار الرسل والملوك المعروف بتاريخ الطبري**، **وجامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري**، **واختلاف الفقهاء**، **وكتاب القراءآت**، وغير ذلك. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٢٦٧/١٤-٢٨٢؛ **وطبقات المفسّرين** للداوودي، ١١٠/٢-١١٨؛ **والأعلام** للزركلي، ٦٩/٦.

٤ هو شقيق بن سلمة الأسدي، أبو وائل (ت. ٨٢هـ/٧٠١م). صحابيّ مخضرم، أدرك النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وما رآه. كان صاحبَ ابن مسعود. حدّث عن أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ وابن عبّاس وابن مسعود والشعبي والأعمش، وغيرهم. وحدّث عنه عمرو بن مُرّة وحبيب بن أبي ثابت والحكم بن عُتيبة وحمّاد الفقيه وعاصم بن بَهْدلة وأبو إسحاق ومغيرة وعطاء بن السائب، وخلق كثير. انظر: **الاستيعاب** للنمري، ٧١٠/٢؛ **وسير أعلام النبلاء** للذهبي، ١٦١/٤-١٦٦.

٥ ما نقله الطبري عن هؤلاء هو في "السيّئة". انظر هذا وما نقله في "الخطيئة": **جامع البيان** للطبري، ١٧٩/٢-١٨٥. | والربيع هو الربيع بن خُثَيم بن عائذ الثوري، أبو يزيد (ت. ٦٥هـ/٦٨٥م [؟]). تابعيّ. أدرك زمانَ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأرسَلَ عنه. وروى عن عبد الله بن مسعود وأبي أيّوب الأنصاري وعمرو بن ميمون. وهو قليل الرواية، إلّا أنّه كبير الشأن. وحدّث عنه الشعبي وإبراهيم النخعي ومنذر الثوري وهُبيرة بن خزيمة، وآخرون. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ١٨٢/٦-١٩٣؛ **وسير أعلام النبلاء** للذهبي، ١٦١/٤-١٦٦.

وقُرئ: "خَطِيَّتُهُ"[١] و"خَطِيَّاتُهُ"[٢] على القلب والإدغام فيهما، و"خَطِيئَاتُهُ"[٣] و"خَطَايَاهُ"،[٤] وفي ذلك إيذان بكثرة فنون كفرهم.

﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ مبتدأ، ﴿أَصۡحَـٰبُ ٱلنَّارِ﴾ خبرُه. والجملة خبر للمبتدأ. و"الفاء" لتضمّنه معنى الشرط. وإيراد اسم الإشارة المُنبئ عن استحضار المشار إليه[٥] بما له مِن الأوصاف للإشعار بعلّيّتها لصاحبيّة النار؛ وما فيه مِن معنى البُعد للتنبيه على بُعد منزلتهم في الكفر والخطايا.

وإنّما أشيرَ إليهم بعنوان الجَمْعيّة مراعاةً لجانب المعنى في كلمة ﴿مَنْ﴾ بعد مراعاة جانب اللفظ في الضمائر الثلاثة، لِما أنّ ذلك هو المناسبُ لِما أُسندَ إليهم في تَيْنِك الحالتين؛ فإنّ كسب السيّئة وإحاطةَ خطيئته به في حالة الانفراد، وصاحبيّةَ النار في حالة الاجتماع، أي: أولئك الموصوفون بما ذُكر مِن كسب السيّئات وإحاطة خطاياهم بهم أصحابُ النار، أي: ملازِموها في الآخرة حسب ملازمتهم في الدنيا لِما يستَوْجبها مِن الأسباب التي مِن جملتها ما هم عليه مِن تكذيب آيات الله تعالى وتحريف كلامه والافتراءِ عليه وغير ذلك. وإنّما لم يُخَصَّ الجواب[٦] بحالهم بأن يقال مثلًا: "بلى إنّهم أصحاب النار..." إلخ لِما في التعميم مِن التهويل وبيانِ حالهم بالبرهان والدليل، مع ما مرّ مِن قصد الإشعار بالتعليل.

﴿هُمۡ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ دائمًا أبدًا؛ فأنّى لهم التفصّي عنها بعد سبعة أيّامٍ أو أربعين كما زعموا. فلا حُجّةَ في الآية[٧] الكريمة على خلود صاحب الكبيرة لِما عرفتَ مِن اختصاصها بالكافر. ولا حاجةَ إلى حمل الخلود على اللُّبث الطويل على أنّ فيه تهوينَ الخَطْب في مقام التهويل.

---

١ قراءة شاذّة، ذكرها البيضاوي بلا نسبة في أنوار التنزيل، ١/٩٠.

٢ قراءة شاذّة، ذكرها البيضاوي بلا نسبة في أنوار التنزيل، ١/٩٠.

٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢١٨.

٤ قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري في الكشّاف، ١/١٥٨؛ وأبو حيّان في البحر المحيط، ١/٤٥٠، ونسبها الثاني إلى بعض القرّاء مِن دون تصريح.

٥ ط س: إليهم.

٦ ي: بالجواب.

٧ ي: آية.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

[٤١ظ] ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ / أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ جرَت السنّة الإلهيّة على شَفْع الوعد بالوعيد مراعاةً لِما يقتضيه الحِكمة في إرشاد العباد مِن الترغيب تارةً والترهيبِ أخرى والتبشيرِ مرّةً والإنذارِ أخرى.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ شروع في تَعداد بعضٍ آخَرَ مِن قبائح أسلاف اليهود ممّا ينادي بعدم إيمان أخلافهم. وكلمة ﴿إِذْ﴾ نصب بإضمار فعلٍ خُوطِبَ به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنون ليؤدّيَهم التأمّلُ في أحوالهم إلى قطع الطمَع عن إيمانهم، أو اليهودُ الموجودون في عهد النبوّة توبيخًا لهم بسُوء صنيع أسلافهم، أي: اذكروا إذ[1] أخذنا ميثاقهم.

﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ على إرادة القول،[2] أي: وقلنا أو قائلين: لا تعبدون... إلخ. وهو إخبار في معنى النهي، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [البقرة، ٢٨٢/٢]، وكما تقول: "تذهب إلى فلان وتقول كيتَ وكيتَ". وهو أبلغُ مِن صريح النهي لِما فيه مِن إيهامِ أنّ المنهيّ حقُّه أن يسارع إلى الانتهاء عمّا نُهي عنه، فكأنّه انتهى[3] عنه، فيُخبر به الناهي. ويؤيّده قراءةُ "لَا تَعْبُدُوا"[4] وعطفُ ﴿قُولُوا﴾ عليه. وقيل: تقديره: ألّا تعبدوا... إلخ، فحُذف الناصب ورُفع الفعل كما في قوله:

ألَا أيُّهَذَا الزاجِرِي أحضُرُ الوَغَى وأن أشهَدَ اللّذّاتِ هل أنتَ مُخلِدِي[5]

---

[1] ي: وقت.

[2] وفي هامش ي: لأنّ الجملة الطلبيّة لا يجوز عطفها على الخبريّة. «منه».

[3] ي: أنهى.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٦٨.

[5] البيت لطرفة بن العبد في ديوانه بشرح الأعلم الشَّنْتَمَري، ص ٤٥. | قوله "أحضُرُ الوَغَى"، أراد: أن أحضُرَ، فلمّا أسقط "أنْ" ارتفع الفعل. والوَغى: الصوت في الحرب؛ هذا أصله، ثمّ يُكنى به عن الحرب نفسِها. يقول: يا مَن يلومني أن أحضر الحربَ وأن أنفق في الخمر وغيرها مِن أبواب اللذّات، هل في وُسعك أن تُخلدني، فأكفّ عن ذلك وأتركه؟

ويعضُده قراءة "أَلَّا تَعْبُدُوا"،[١] فيكون بدلًا مِن الميثاق أو معمولًا له بحذف الجارّ. وقيل: إنّه جوابُ قسمٍ دلّ عليه المعنى، كأنّه قيل: وحلّفناهم لا تعبدون إلّا الله. وقُرئ بالياء؛[٢] لأنّهم غُيَّبٌ.

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ متعلّق بمضمَر، أي: وتُحسنون أو أَحسِنوا. ﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾. و"يتامى" جمع "يتيم"، كـ"ندامى" جمع "نديم"، وهو قليل. و"مِسكِين" مِفعِيل مِن "السكون"، كأنّ الفقر أسكنه مِن الحَراك وأثخَنه عن التقلّب.

﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أي: قولًا حَسَنًا؛ سمّاه ﴿حُسْنًا﴾ مبالغةً، وقُرئ كذلك،[٣] و"حُسُنًا"[٤] بضمّتين، وهي لغة أهل الحجاز، و"حُسْنَى"[٥] كـ"بُشرى". والمراد به ما فيه تخلّق وإرشاد. ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ هما ما فُرض عليهم في شريعتهم.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ إن جُعل ناصبُ الظرف خطابًا للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين، فهذا التفاتٌ إلى خطاب بني إسرائيلَ جميعًا بتغليب أخلافهم على أسلافهم لجرَيان ذِكر كلّهم حينئذ على نهج الغَيْبة، فإنّ الخطاباتِ السابقةَ لأسلافهم مَحكيّة داخلة في حيّز القول المقدَّر قبل ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾، كأنّهم استُحضِروا عند ذكر جناياتهم، فنُعيت هي عليهم. وإن جُعل خطابًا لليهود المعاصِرين لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فهذا تعميم للخطاب بتنزيل الأسلاف منزلةَ الأخلاف، كما أنّه تعميم للتولّي بتنزيل الأخلاف منزلةَ الأسلاف للتشديد في التوبيخ، أي: أعرضتم عن المُضيّ على مقتضى الميثاق ورفضتموه ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ وهم مِن الأسلاف مَن أقام اليهوديّةَ على وجهها قبل النسخ، ومِن الأخلاف مَن أسلَمَ كعبد الله بن سَلَام وأضرابه.

---

[١] قراءة شاذّة، ذكرها البيضاوي بلا نسبة في أنوار التنزيل، ٩١/١.

[٢] قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢١٨/٢.

[٣] أي: "حَسَنًا"، وهي قراءة حمزة والكسائي ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٢١٨/٢.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٦٨.

[٥] قراءة شاذّة، ذكرها الثعلبي في الكشف والبيان، ٢٢٨/١؛ وأبو حيّان في البحر المحيط، ٤٥٩/١، ونسباها إلى أُبيّ بن كعب وطلحة بن مصرّف.

﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ جملة تذييليّة، أي: وأنتم قوم عادتُكم الإعراضُ عن الطاعة ومراعاةِ حقوق الميثاق. وأصل الإعراض الذهابُ عن المواجهة والإقبالُ إلى جانب العُرْض.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ منصوب بفعل مضمَر[١] خُوطبَ به اليهود قاطبةً على ما ذُكر مِن التغليب، ونُعي عليهم إخلالهم بمواجب[٢] الميثاق المأخوذ منهم في حقوق العباد على طريقة النهي إثرَ بيان ما فعلوا بالميثاق المأخوذ منهم في حقوق الله سبحانه وما يجري مَجراها على سبيل الأمر، فإنّ المقصود الأصليّ مِن النهي عن عبادة غير الله[٣] تعالى هو الأمر بتخصيص العبادة به تعالى،[٤] أي: واذكروا[٥] وقتَ أخذِنا ميثاقَكم في التوراة.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ كما قَبْله إخبار في معنى النهي، غُيّر السبك إليه لِما ذُكر مِن نُكتة المبالغة.[٦] والمراد به النهي الشديد عن تعرّض بعض بني إسرائيلَ لبعضٍ بالقتل والإجلاء. والتعبير[٧] عن ذلك بسَفْك دماء أنفسهم وإخراجِها مِن ديارهم بناءً على جرَيان كلّ واحد منهم مَجرى أنفسهم لِما بينهم مِن الاتّصال القويّ نسَبًا ودينًا للمبالغة[٨] في الحمل على مراعاة حقوق الميثاق بتصوير المنهيّ عنه بصورةٍ تكرَهها كلّ نفس وتَنفر عنها كلّ طبيعة؛ فضمير ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ للمخاطَبين حتمًا، إذ به يتحقّق تنزيل المخرَجين منزلتَهم، كما أنّ ضمير ﴿دِيَٰرِكُمْ﴾ للمخرَجين قطعًا، إذ المحذور إنّما هو إخراجهم مِن ديارهم، لا مِن ديار المخاطَبين مِن حيث إنّهم مخاطَبون كما يُفصح عنه ما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿مِّن دِيَٰرِهِمْ﴾،[٩] وإنّما الخطاب ههنا باعتبار

---

١ ط – منصوب بفعل مضمر؛ ي – مضمر.
٢ ط: بموجب.
٣ ي: غيره.
٤ ط + منصوب بفعل مضمر.
٥ ط س: اذكروا.
٦ انظر تفسير الآية السابقة.
٧ وفي هامش ط س ي: مبتدأ.
٨ وفي هامش ط س ي: خبر.
٩ في الآية التالية.

تنزيل ديارهم منزلةَ ديار المخاطَبين بناءً على تنزيل أنفسهم منزلتَهم لتأكيد المبالغة وتشديد التشنيع. وأمّا ضمير ﴿دِمَآءَكُمْ﴾، فمحتمِل للوجهين: مفاد الأوّل كونُ المسفوك دماءً ادّعائيّةً للمخاطَبين حقيقةً، ومفاد الثاني كونُه دماءً حقيقيّةً للمخاطَبين ادّعاءً، وهما متقاربان في إفادة المبالغة، فتدبَّرْ.

وأمّا ما قيل[١] مِن أنّ المعنى: لا تباشروا ما يؤدِّي إلى قتل أنفسكم قِصاصًا أو ما يُبيح سَفْكَ دمائكم وإخراجَكم مِن دياركم، أو لا تفعلوا ما يُرديكم ويصرفكم عن الحياة الأبديّة، فإنّه القتل في الحقيقة، ولا تقترفوا ما تُحرَمون به عن الجنّة التي هي داركم، فإنّه الجلاء الحقيقيّ، فممّا[٢] لا يساعده سياق النظم الكريم؛ بل هو نصٌّ فيما قلناه كما ستقف عليه.

﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ أي: بالميثاق وبوجوب المحافظة عليه. ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ توكيد للإقرار، كقولك: "أقرّ فلانٌ شاهدًا على نفسه". وقيل: وأنتم -أيّها الحاضرون- تشهدون اليومَ على إقرار أسلافكم بهذا الميثاق.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ خطاب خاصّ بالحاضرين، فيه توبيخ شديد واستبعاد قويّ لِما ارتكبوه بعد ما كان مِن الميثاق والإقرار به والشهادةِ عليه. فـ﴿أَنتُمْ﴾ مبتدأ، و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ خبرُه، ومَناط الإفادة اختلافُ الصفات المنزَّلُ منزلةَ اختلاف الذات، والمعنى: أنتم بعد ذلك هؤلاءِ المشاهَدون الناقضون المتناقضون، / حسبما يُعرب عنه الجُمَل الآتية؛ فإنّ قوله عزّ وجلّ:[٣] ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾... إلخ[٤] بيانٌ له وتفصيلٌ لأحوالهم المنكَرة المندرجةِ تحت الإشارة ضمنًا، [٤٢و]

---

١ نقله البيضاوي في أنوار التنزيل، ١/٩١.
٢ السياق: وأمّا ما قيل مِن أنّ المعنى... فممّا لا يساعده...
٣ ي: تعالى.
٤ ط - إلخ.

كأنّهم قالوا: كيف نحن؟ فقيل: ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾، أي: الجارين مَجرى أنفسكم، كما أشيرَ إليه.[١] وقُرئ: "تُقَتِّلُونَ"[٢] بالتشديد للتكثير.

﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم﴾ الضمير إمّا للمخاطَبين، والمضاف محذوف، أي: مِن أنفسكم، وإمّا للمقتولين، والخطاب باعتبارِ أنّهم جُعلوا أنفُسَ المخاطَبين، وإلّا فلا يتحقّق التكافُؤ بين المقتولين والمخرَجين في ذلك العنوان[٣] الذي عليه يدور فَلَك المبالغة في تأكيد الميثاق حسبما نُصّ عليه،[٤] ولا يظهر كمال قباحة جنايتهم في نقضه.

﴿مِّن دِيَٰرِهِمْ﴾ الضمير لـ"الفريق". وإيثار الغَيْبة -مع جواز الخطاب أيضًا بناءً على اعتبار العنوان المذكور كما مرّ في الميثاق- للاحتراز عن توهّم كون المراد إخراجَهم مِن ديار المخاطَبين مِن حيث هي ديارهم، لا مِن حيث هي ديار المخرَجين. وقيل: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ موصول، والجملتان في حيّز الصلة، والمجموع هو الخبر لـ﴿أَنتُمْ﴾.

﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم﴾ بحذف إحدى التاءين، وقُرئ بإثباتهما،[٥] وبالإدغام،[٦] و"تَظَهَّرُونَ"[٧] بطرح إحدى التاءين مِن "تتظهّرون"، ومعنى الكلّ: تتعاونون. وهو حال مِن فاعل ﴿تُخْرِجُونَ﴾ أو مِن مفعوله أو منهما جميعًا،[٨] مبيِّنةٌ لكيفيّة الإخراج، دافعةٌ لتوهّم اختصاص الحُرمة بالإخراج بطريق الأصالة والاستقلال دون المظاهرة والمعاونة. ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾ متعلّق بـ﴿تَظَٰهَرُونَ﴾، حال مِن فاعله، أي:

---

[١] في تفسير الآية السابقة.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٦٨.

[٣] وفي هامش س ي أ: وهو الجريان مَجرى أنفسهم. «منه».

[٤] وفي هامش ط س ي: حيث قيل: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ [البقرة، ٨٤/٢]. «منه».

[٥] أي: "تَتَظَاهَرُونَ". هي قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري في الكشّاف، ١٦٠/١؛ وأبو حيّان في البحر المحيط، ٤٦٨/١-٤٦٩، ولم ينسباها إلى أحد.

[٦] أي: "تَظّاهَرُونَ"، وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢١٨/٢.

[٧] قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري وقتادة ومجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٦٨؛ المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ١٧٤/١.

[٨] وفي هامش ط س ي: وجعلُه حالًا مِن فاعل الفعلين أو مفعولهما أو منهما يأباه ضمير الغَيْبة في ﴿عَلَيْهِم﴾، والتغليبُ خلاف الظاهر. «منه».

ملتبِسين بالإثم. وهو الفعل الذي يستحقّ فاعله الذمَّ واللومَ. وقيل: هو ما يَنفر عنه النفس ولا يطمئنّ إليه القلب. ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ وهو التجاوز في الظلم.

﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ﴾ جمعُ "أَسير"، وهو مَن يُؤخَذ قهرًا، فَعِيل بمعنى مفعول، مِن "الأَسْر"، أي: الشَدّ، أو جمعُ "أسرَى"، وهو جمعُ "أَسير"، كـ"جَرْحى" و"جَريح"، وقد قُرِئ: "أَسْرَى".[1] ومحلّه[2] النصب على الحاليّة. ﴿تُفَٰدُوهُمْ﴾ أي: تُخرجوهم مِن الأسر بإعطاء الفداء. وقُرِئ: "تَفْدُوهُمْ".[3]

قال السدّي: «إنّ الله تعالى أخذ على بني إسرائيلَ في التوراة ألّا يقتلَ بعضهم بعضًا ولا يُخرجَ بعضهم بعضًا مِن ديارهم، وأيُّما عبدٍ أو أَمةٍ وجدتموه مِن بني إسرائيلَ، فاشتَرُوه وأَعتِقوه، وكانت قُريظة حلفاءَ الأوس والنضيرُ حلفاءَ الخَزرج حين كان بينهما ما كان مِن العداوة والشَّنَآن، فكان كلّ فريق يقاتل مع حُلفائه، فإذا غلبوا خرَّبوا ديارَهم وأخرجوهم منها، ثمّ إذا أُسِر رجل مِن الفريقين جمعوا له مالًا فيَفدُونه، فعيَّرتهم العرب وقالت: «كيف تقاتلونهم ثمّ تَفْدونهم؟»، فيقولون:[4] «أُمرنا أن نَفْديَهم وحُرِّم علينا قتالهم، ولكنّا[5] نستحيي أن نُذِلّ حلفاءَنا، فذمَّهم الله تعالى على المناقضة».[6]

﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ ﴿هُوَ﴾ ضمير الشأن، وقع مبتدأً، و﴿مُحَرَّمٌ﴾ فيه ضمير قائم مَقامَ الفاعل، وقع خبرًا مِن[7] ﴿إِخْرَاجُهُمْ﴾، والجملة خبر لضمير الشأن. وقيل: ﴿مُحَرَّمٌ﴾ خبر لضمير الشأن، و﴿إِخْرَاجُهُمْ﴾ مرفوع على أنّه مفعولُ ما لم يُسمَّ فاعله. وقيل: الضمير مُبهَم يفسّره ﴿إِخْرَاجُهُمْ﴾، أو راجعٌ إلى ما يدلّ عليه

---

١ قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٢١٨/٢.

٢ وفي هامش ي أ: جُعِل الإعراب التقديريّ مِن قبيل المَحَلي لعدم ظهوره في الأحوال، كما فعله صاحب الكشّاف،⁽¹⁾ حيث قال: «إن قلتَ: ما محلّ "الذِّكرى"...». | ⁽¹⁾ هامش ي + في أوّل الأعراف. | قاله في تفسير سورة الأنعام (٦٨/٦)، ونصّه: «فإن قلتَ: ما محلّ ﴿ذِكْرَىٰ﴾؟ قلتُ: يجوز أن يكون نصبًا على "ولكن يذكّرونهم ذكرى"، أي: تذكيرًا، ورفعًا على "ولكن عليهم ذكرى"». الكشّاف للزمخشري، ٣٥/٢.

٣ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحمزة. النشر لابن الجزري، ٢١٨/٢.

٤ ي: فيقولونهم.

٥ ي: ولكن.

٦ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣١/١؛ اللباب لابن عادل، ٢٥٣/٢. وهو مع اختلاف بالنقص والزيادة في جامع البيان للطبري، ٢٠٨/٢.

٧ س ط: عن.

﴿تُخۡرِجُونَ﴾ مِن المصدر، و﴿إِخۡرَاجُهُمۡ﴾ تأكيد أو بيان، والجملة حال[١] مِن الضمير في ﴿تُخۡرِجُونَ﴾ أو مِن ﴿فَرِيقًا﴾ أو منهما كما مرّ بعد اعتبار التقيّد بالحال السابقة.

وتخصيص بيان الحُرمة ههنا بالإخراج -مع كونه قرينًا للقتل عند أخذ الميثاق- لكونه مظنّةً للمساهلة في أمره بسبب قِلّة خَطَره بالنسبة إلى القتل، ولأنّ مساق الكلام لذمّهم وتوبيخهم على جناياتهم وتناقضِ أفعالهم معًا، وذلك مختصّ بصورة الإخراج، حيث لم يُنقَل عنهم تدارك القتلى بشيءٍ مِن دِية أو قصاصٍ، وهو السرّ في تخصيص التظاهر به فيما سبق. وأمّا تأخيره مِن الشرطيّة المعترضة -مع أنّ حقّه التقديمُ كما ذكره الواحدي-[٢] فلأنّ نظم أفاعيلهم المتناقضة في سَمْط واحد مِن الذِّكر أدخَلُ في إظهار بطلانها.

﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: **التوراةِ** التي أُخذ فيها الميثاق المذكور. والهمزة للإنكار التوبيخيّ، و"الفاء" للعطف على مقدَّرٍ يستدعيه المقام، أي: أتفعلون ذلك فتؤمنون ببعض الكتاب، وهو المفاداة، ﴿وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖ﴾ وهو حُرمة القتال والإخراج، مع أنّ مِن قضيّة الإيمان ببعضه الإيمانُ بالباقي لكون الكلّ مِن عند الله تعالى[٣] داخلًا في الميثاق. فمناط التوبيخ كفرُهم بالبعض مع إيمانهم بالبعض حسبما يفيده ترتيب النظم الكريم؛ فإنّ التقديم يستدعي في المقام الخطابيّ أصالةَ المقدَّم وتقدُّمَه بوجه مِن الوُجوه حتمًا، وإذ ليس ذلك ههنا باعتبار الإنكار والتوبيخ عليه، فهو باعتبار الوقوع قطعًا؛ لا[٤] إيمانُهم بالبعض مع كفرهم بالبعض كما هو المفهوم لو قيل: أفتكفرون ببعض الكتاب وتؤمنون ببعض؟ ولا مجرّدُ كفرهم بالبعض وإيمانهم بالبعض كما يفيده أن يقال: أفتجمعون بين الإيمان ببعض الكتاب والكفرِ ببعض أو بالعكس؟

﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ﴾ ﴿مَا﴾ نافية، و﴿مَنۡ﴾ إن جُعلت موصولةً، فلا محلَّ لـ﴿يَفۡعَلُ﴾ مِن الإعراب، وإن جُعلت موصوفةً، فمحلّه الجرّ على أنّه صفتها.

---

[١] ي - حال.
[٢] التفسير البسيط للواحدي، ١٢٥/٣.
[٣] ط س - تعالى.
[٤] السياق: فمناط التوبيخ كفرُهم... لا إيمانُهم...

و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الكفر ببعض الكتاب مع الإيمان ببعضٍ، أو إلى ما فعلوا مِن القتل والإجلاء مع مُفاداة الأسارَى. ﴿مِنكُمْ﴾ حال مِن فاعل ﴿يَفْعَلُ﴾.

﴿إِلَّا خِزْيٌ﴾ استثناء مفرَّغ وقَعَ خبرًا للمبتدأ. والخِزي: الذُّلّ والهَوان مع الفضيحة. والتنكير للتفخيم. وهو قتل بني قريظةَ وإجلاءُ بني النضير إلى أَذْرِعاتَ[1] وأَرِيحَا[2] / مِن الشام، وقيل: الجِزية. ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في حيّز الرفع على أنّه صفة [٤٢ظ] ﴿خِزْيٌ﴾، أي: خزيٌ كائنٌ في الحياة الدنيا، أو في حيّز النصب على أنّه ظرف لنفس الخِزي. ولعلّ بيانَ جزائهم بطريق القَصر على ما ذُكر لقطع أطماعهم الفارغة مِن ثمَرات إيمانهم ببعض الكتاب وإظهارِ أنّه لا أثَرَ له أصلًا مع الكفر ببعض.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ﴾ وقُرئ بالتاء.[3] أُوثرَ صيغة الجمع نظرًا إلى معنى ﴿مَنْ﴾ بعد ما أُوثرَ الإفراد نظرًا إلى لفظها لِما أنّ الردّ إنّما يكون بالاجتماع. ﴿إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ لِما أنّ معصيتهم أشدُّ المعاصي. وقيل: أشدّ العذاب بالنسبة إلى ما لهم في الدنيا مِن الخِزي والصَّغار. وإنّما غُيّر سَبْك النظم الكريم -حيث لم يُقَلْ مثلًا: "وأشدُّ العذاب يومَ القيامة"- للإيذان بكمال التنافي بين جزاءَي النَّشْأتين. وتقديم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ على ذكر ما يقع فيه لتهويل الخَطْب وتفظيع الحال مِن أوّل الأمر.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ مِن القبائح التي مِن جملتها هذا المنكَر. وقُرئ بالياء[4] على نهج ﴿يُرَدُّونَ﴾. وهو تأكيد للوعيد.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر مِن الأوصاف القبيحة. وهو مبتدأ، خبره قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ﴾ أي: آثَروا ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ واستبدلوها ﴿بِٱلْءَاخِرَةِ﴾

---

[1] هو بلد في أطراف الشام، يجاوِر أرضَ البلقاء وعَمّان. خرج منها طائفة مِن أهل العلم. انظر: معجم البلدان للحَمَوي، ١/١٣٠-١٣١.

[2] هي مدينة الجَبّارين في الغور مِن أرض الأردنّ بالشام، بينها وبين بيت المقدِس يومٌ للفارس في جبالٍ صعبةِ المسلك. سُمّيت فيما قيل بأريحا بن مالك بن إرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام. معجم البلدان للحَمَوي، ١/١٦٥.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج والسلمي وأبي رجاء والمفضّل. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٦٨.

[4] قرأ بها نافع وابن كثير ويعقوب وخلف وعاصم مِن رواية أبي بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٢١٨.

وأعرضوا عنها مع تمكّنهم مِن تحصيلها؛ فإنّ ما ذُكر مِن الكفر ببعض أحكام الكتاب إنّما كان لمراعاة جانب حلفائهم لِما يعود إليهم منهم مِن بعض المنافع الدَّنِيّة الدُّنيويّة. ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ دُنيويًّا كان أو أُخرويًّا، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ بدفعه عنهم شفاعةً أو جبرًا. والجملة[1] معطوفة على ما قبلها عطفَ الاسميّة على الفعليّة، أو ﴿يُنصَرُونَ﴾ مفسِّر لمحذوفٍ قبْلَ الضمير، فيكون مِن عطف الفعليّة على مِثلها.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ شروع في بيان بعضٍ آخَرَ مِن جناياتهم. وتصديره بالجملة القَسميّة لإظهار كمال الاعتناء به. والمراد بـ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ **التوراة**. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أنّ **التوراة** لمّا نزلت جملةً واحدةً، أمَرَ الله عزّ وجلّ موسى عليه السلام بحملها، فلم يُطق بذلك، فبعث بكلّ حرف منها مَلكًا، فلم يُطيقوا بحملها، فخفّفها الله تعالى لموسى عليه السلام، فحملها».[2]

﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ يقال: "قفّاه به" إذا أتبعه إيّاه، أي: أرسلناهم على أثَره، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون، ٤٤/٢٣]. وهم يُوشَعُ وإشْمَوِيلُ وشَمعونُ وداودُ وسليمانُ وشَعْيا وأَرميا وعُزيرٌ وحِزْقيلُ وإلياسُ واليَسَعُ ويونسُ وزكريّا ويحيى وغيرهم عليهم السلام.

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ المعجزاتِ الواضحاتِ مِن إحياء الموتى وإبراء الأَكْمَه والأَبرص والإخبارِ بالمغيَّبات، أو **الإنجيلَ**. و﴿عِيسَى﴾ بالسُّريانيّة: "إيشُوعُ"، ومعناه: المبارَك، و﴿مَرْيَمَ﴾ بمعنى الخادم، وهو بالعربيّة[3] مِن النساء كالزِّير مِن الرجال، وبه فُسّر قول رُؤْبةَ:

قلتُ لزِيرٍ لَمْ تصِلْه مَرْيَمُهْ ... ضِلِّيلِ أهواءِ الصِّبا تندَّمُهْ[4]

---

[1] أي: قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

[2] تفسير الرازي، ٥٩٥/٣؛ اللباب لابن عادل، ٢٦١/٢.

[3] كذا في الأصول الخطّيّة، وفي مطبوعاته: العبريّة.

[4] البيت في ديوانه، ص ١٤٩، وفي مطبوعه: "يُنَدِّمُهْ".

ووزْنُه "مَفْعَل"، إذ لم يثبت "فَعْيَل".

﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾ أي: قوّيناه. وقُرئ: "آيَدْنَاهُ".[١] ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ بضمّ الدال، وقُرئ بسكونها،[٢] أي: بالروح المقدَّسة، وهي روح عيسى عليه السلام، كقولك: "حاتِمُ الجُود" و"رَجلُ صدقٍ". وإنّما وُصفت بـ﴿ٱلْقُدُسِ﴾ للكرامة، أو لأنّه عليه السلام لم تضُمّه الأصلاب ولا أرحامُ[٣] الطوامث. وقيل: بجبريلَ عليه السلام، وقيل: بالإنجيل، كما قيل في القرآن: ﴿رُوحًا[٤] مِّنْ أَمْرِنَا﴾،[٥] وقيل: باسم الله[٦] الأعظم الذي كان يُحيي الموتى بذكره.

وتخصيصه مِن بين الرُّسل عليهم السلام[٧] بالذكر ووصفُه بما ذُكر مِن إيتاء البيّنات والتأييدِ بروح القُدس لِما أنّ بعثتهم كانت لتنفيذ أحكام التوراة وتقريرها -وأمّا عيسى عليه السلام، فقد نُسخ بشرعه كثيرٌ مِن أحكامها- ولحسم مادّة اعتقادهم الباطل في حقّه عليه السلام ببيان حقّيّته وإظهارِ كمال قُبح ما فعلوا به عليه السلام.

﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ﴾ مِن أولئك الرُّسل ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾ مِن الحقّ الذي لا مَحيدَ عنه، أي: لا تُحبّه، مِن "هَوِيَ" كـ"فَرِحَ" إذا أَحَبَّ. والتعبير عنه بذلك للإيذان بأنّ مدار الردّ والقبول عندهم هو المخالفة لأهواء أنفسهم والموافقةُ لها، لا شيء آخر. وتوسيط الهمزة بين "الفاء" وما تعلّقت به مِن الأفعال السابقة لتوبيخهم على تعقيبهم ذلك[٨] بهذا، وللتعجيب مِن شأنهم. ويجوز كون "الفاء" للعطف على مقدَّرٍ يناسب المقام، أي: ألم تُطيعوهم، فكلّما جاءكم رسول منهم بما لا تَهوى أنفسكم ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الاتّباع له والإيمانِ بما جاء به مِن عند الله تعالى.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد والأعرج وحُميد وابن مُحيصِن. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٨٠/١. ورواها ابن مجاهد عن أبي عمرو. المحتسب لابن جنّي، ٩٥/١. ولم يذكرها ابن مجاهد في السبعة وابن الجزري في النشر.

[٢] قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢١٦/٢.

[٣] ي: والأرحام.

[٤] ط س ي: وروحًا.

[٥] ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى، ٥٢/٤٢].

[٦] ي – الله.

[٧] ي – عليهم السلام.

[٨] ي: ذاك.

﴿فَفَرِيقًا﴾ منهم ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ مِن غير أنْ تتعرّضوا لهم بشيءٍ آخَرَ مِن المضارّ. و"الفاء" للسببيّة أو التعقيب. ﴿وَفَرِيقًا﴾ آخَرَ منهم ﴿تَقْتُلُونَ﴾ غيرَ مُكتفِين بتكذيبهم، كزكريّا ويحيى وغيرِهما عليهم السلام. وتقديم ﴿فَرِيقًا﴾ في الموضِعَين للاهتمام وتشويق السامع إلى ما فعلوا بهم، لا للقَصر. وإيثار صيغة الاستقبال في القتل لاستحضار صورته الهائلة، أو للإيماء إلى أنّهم بَعْدُ على تلك النّيّة؛ حيث هَمُّوا بما لم ينالوه مِن جهته عليه السلام وسحَروه وسَمُّوا له الشاةَ، حتّى قال صلّى الله عليه وسلّم: «ما زالت أُكْلةُ خَيْبرَ تُعادُني، فهذا أوانُ قَطَعتْ أَبْهَري».[1]

﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ۝٨٨﴾

﴿وَقَالُوا﴾ بيان لفنٍّ آخَرَ مِن قبائحهم على طريق الالتفات إلى الغَيْبة إشعارًا بإبعادهم عن رُتبة الخطاب لِما فُصّل مِن مخازيهم الموجِبة للإعراض عنهم وحكايةِ نظائرها لكلّ مَن يفهم بطلانها وقباحتها مِن أهل الحقّ. والقائلون هم الموجودون في عصر النبيّ عليه السلام.[2]

﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ جمعُ "أَغْلَفَ"، مستعار مِن الأَغْلَف الذي لم يُختَنْ، أي: هي مُغشّاة بأغشية جِبلِيّةٍ لا يكاد يصل إليها ما جاء به محمّد عليه السلام[3] ولا تفقّهه، كقولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت، ٤١/٥]. وقيل: هو تخفيفُ "غُلُفٌ" جمعِ "غِلَاف"، ويؤيّده ما رُوي عن أبي عمرو[4] مِن القراءة

---

[1] الحديث بهذه الألفاظ في مسند البزّار، ٣٣٣/١٤ (٨٠٠٧)؛ والكشّاف للزمخشري، ١٦٣/١. ونحوه في صحيح البخاري، ٩/٦ (٤٤٢٨)؛ ومسند أحمد، ٣٥٦/٣٩ (٢٣٩٣٣). وانظر لتخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٦٨/١-٧٤ (٥٢). | الأَبْهَر: عِرق في الظَّهر، وهما أبهرانِ. وقيل هما الأكحلان اللذان في الذِّراعين. وقيل هو عِرق مُستَبطِن القلب، فإذا انقطع لم تبق معه حياة. وقيل: عِرق مَنشؤه مِن الرأس ويمتدّ إلى القَدم، وله شرايينُ تتّصل بأكثر الأطراف والبدن. النهاية في غريب الحديث لابن الأثير، ١٨/١.

[2] ي: صلّى الله عليه وسلّم.

[3] ي: صلّى الله عليه وسلّم.

[4] هو زَبّان بن العَلاء بن عَمّار التميمي المازني البصري، أبو عمرو (ت. ١٥٤هـ/٧٧١م). أحد القرّاء السبعة، إمام أهل البصرة فى القراءة والنحو، قدوة في العلم باللغة. اختُلف في اسمه، وأشهرها: زَبّان، وقيل: العريان. وُلد بمكّةَ، ونشأ بالبصرة، ومات بالكوفة. أخذ عن جماعة مِن التابعين. وهو في النحو في الطبقة الرابعة بعد عليّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه. انظر: إنباه الرواة للقِفطي، ١٣١/٤-١٣٩؛ وغاية النهاية لابن الجزري، ٢٨٨/١-٢٩٢؛ والأعلام للزركلي، ٤١/٣.

بضمّتين؛[١] يَعنُون: «أنّ قلوبنا / أوعِية للعلوم، فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره»، قاله ابن عبّاس[٢] رضي الله عنهما وعطاء،[٣] وقال الكلبي: «يَعنُون: أنّ قلوبنا لا يصل إليها حديث إلّا وعَتْه، ولو كان في حديثك خير لَوعتْه أيضًا».[٤] [٤٣و]

﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ ردٌّ لِما قالوه وتكذيب لهم في ذلك. والمعنى على الأوّل: بل أبعدهم الله سبحانه عن رحمته بأن خذَلَهم وخلّاهم وشأنَهم بسبب كفرهم العارض وإبطالِهم لاستعدادهم بسُوء اختيارهمْ بالمرّة وكونِهم بحيث لا ينفعهم الألطاف أصلًا بعد أن خلقهم على الفطرة والتمكّن مِن قبول الحق؛ وعلى الثاني: بل أبعدهم مِن رحمته، فأنّى لهم ادّعاء العلم الذي هو أجلّ آثارها؛ وعلى الثالث: بل أبعدهم مِن رحمته؛ فلذلك لا يقبلون الحقّ المؤدِّيَ إليها.

﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿مَا﴾ مزيدة للمبالغة، أي: فإيمانًا قليلًا يؤمنون، وهو إيمانهم ببعض الكتاب. وقيل: فزمانًا قليلًا يؤمنون، وهو ما قالوا: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾ [آل عمران، ٣/٧٢]. وكِلاهما ليس بإيمان حقيقةً. وقيل: أريدَ بالقِلّة العدم. و"الفاء" لسببيّة اللعن لعدم الإيمان.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ﴾ هو القرآن. وتنكيره للتفخيم. ووصفُه بقوله عزّ وجلّ:[٥] ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: كائنٌ مِن عنده تعالى،[٦] للتشريف. ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ مِن التوراة. عُبّر عنها بذلك لِما أنّ المَعيّة مِن موجبات الوقوف على ما في تضاعيفها

---

١ رواها عنه أحمد بن موسى اللؤلؤي. وروى الباقون عنه التخفيفَ، وهو المشهور عنه. السبعة لابن مجاهد، ص ١٦٤.

٢ جامع البيان للطبري، ٢/٢٣١؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١/٢٣٣.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ١/٢٣٣؛ اللباب لابن عادل، ٢/٢٧٠.

٤ نحوه عنه في الكشف والبيان للثعلبي، ١/٢٣٤؛ واللباب لابن عادل، ٢/٢٧٠.

٥ ي: تعالى.

٦ ط س - تعالى.

المؤدِّي إلى العلم بكونه مصدِّقًا لها. وقُرئ: "مُصَدِّقًا"[١] على أنّه حال مِن ﴿كِتَـٰبٌ﴾ لتخصُّصه بالوصف.

﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبل مَجيئه ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: وقد كانوا قبل مجيئه يستفتحون به على المشركين ويقولون: «اللّٰهمّ انصرنا بالنبيّ المبعوث في آخر الزمان الذي نجد نعته في التوراة»،[٢] ويقولون لهم: «قد أظلَّ زمانُ نبيّ يخرج بتصديق ما قلنا، فنقتلكم معه قتلَ عادٍ وإرَمَ».[٣] قال ابن عبّاس رضي الله عنهما وقتادة والسدّي: «نزلت في بني قريظةَ والنضير، كانوا يستفتحون على الأوس والخَزْرج برسول الله صلّى الله عليه وسلّم قبل مبعثه».[٤] وقيل: معنى ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾: يفتحون عليهم ويعرِّفونهم بأنّ نبيًّا يُبعَث منهم قد قرُب أوانُه. و"السين" للمبالغة كما في "استعجَبَ"، أي: يسألون مِن أنفسهم الفتحَ عليهم، أو يسأل بعضهم بعضًا أن[٥] يفتح عليهم. وعلى التقديرين، فالجملة حاليّة مفيدة لكمال مكابرتهم وعنادهم.

وقوله عزّ وعلا:[٦] ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ تكرير للأوّل لطُول العهد بتوسّط الجملة الحاليّة. وقوله تعالى: ﴿مَّا عَرَفُوا﴾ عبارة عمّا سلف مِن الكتاب؛ لأنّ معرفة مَن أُنزلَ هو عليه معرفةٌ له، والاستفتاح به استفتاح به.[٧] وإيراد الموصول دون الاكتفاء بالإضمار لبيان كمال مكابرتهم؛ فإنّ معرفة ما جاءهم مِن مبادي الإيمان به ودواعيه لا محالةَ. و"الفاء" للدلالة على تعقيب مجيئه للاستفتاح به مِن غير أن يتخلّل بينهما مدّة مُنسِيَة له.

وقوله تعالى: ﴿كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ جواب ﴿لَمَّا﴾ الأولى، كما هو رأي المبرِّد،[٨] أو جوابُهما معًا، كما قاله أبو البقاء.[٩] وقيل: جواب الأولى محذوف لدلالة

---

[١] قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري بلا نسبة في الكشّاف، ١٦٤/١. وقال ابن عطيّة في المحرّر الوجيز، ١٧٧/١: إنّه رُوي أنّ في مصحف أُبيّ بن كعب كذا بالنصب.

[٢] جامع البيان للطبري، ٢٣٩/٢.

[٣] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٤/١.

[٤] انظر: جامع البيان للطبري، ٢٣٧/٢-٢٣٨؛ واللباب لابن عادل، ٢٧٥/٢.

[٥] س: أي.

[٦] ي: تعالى.

[٧] ي - به.

[٨] التفسير البسيط للواحدي، ١٤١/٣-١٤٢.

[٩] هو أبو البقاء العُكبري، قاله في التبيان في إعراب القرآن، ٩٠/١.

المذكور عليه، فيكون قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا﴾... إلخ جملةً معطوفةً على الشرطيّة عطفَ القصّة على القصّة، والمرادُ بـ﴿مَا عَرَفُوا﴾ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، كما هو المراد بما كانوا يستفتحون به، فالمعنى: ولمّا جاءهم كتاب مصدِّق لكتابهم كذّبوه وكانوا مِن قبل مَجيئه يستفتحون بمَن أُنزلَ عليه ذلك الكتاب، فلمّا جاءهم النبيّ الذي عرفوه كفروا به.

﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ "اللام" للعهد، أي: عليهم، ووضع المظهَر موضِعَ المضمَر للإشعار بأنّ حلول اللعنة عليهم بسبب كفرهم، كما أنّ "الفاء" للإيذان بترتّبها عليه، أو للجنس وهم داخلون في الحكم دخولًا أوّليًا، إذ الكلام فيهم. وأيًّا ما كان، فهو محقِّق لمضمون قوله تعالى: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾.[1]

﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾

﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ ﴿مَا﴾ نكرة منصوبة مفسِّرة لفاعل ﴿بِئْسَ﴾، و﴿ٱشْتَرَوْا۟﴾ صفتُه، أي: بئسَ شيئًا باعُوا به أنفسَهم. وقيل: اشترَوْها به في زعمهم، حيث يعتقدون أنّهم بما فعلوا خلّصوها مِن العقاب؛ ويأباه أنّه لا بدّ أن يكون المذموم ما كان حاصلًا لهم، لا ما كان زائلًا عنهم. والمخصوص بالذمّ قوله تعالى: ﴿أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: بالكتاب المصدِّق لِما معهم بعد الوقوف على حقّيته. وتبديل "الإنزال" بـ"المَجيء"[2] للإيذان بعلوّ شأنه الموجِب للإيمان به.

﴿بَغْيًا﴾ حسدًا وطلبًا لِما ليس لهم. وهو علّة لـ﴿أَن يَكْفُرُوا﴾ حتمًا دون ﴿ٱشْتَرَوْا۟﴾ لِما قيل مِن الفصل بما هو أجنبيّ بالنسبة إليه، وإن لم يكن أجنبيًّا بالنسبة إلى فعل الذمّ وفاعلِه، ولأنّ البغي ممّا لا تعلّقَ له بعنوان البيع قطعًا، لاسيّما وهو معلَّل بما سيأتي مِن تنزيل الله تعالى مِن فضله على مَن يشاؤه، وإنّما الذي بينه وبينه علاقة هو كفرُهم بما أنزل الله، والمعنى: بئسَ شيئًا باعُوا به

---

[1] في الآية السابقة.

[2] وفي هامش ي: أي: إيراد الإنزال مكان المَجيء. «منه».

أنفسَهم كفرُهم المعلَّلُ بالبَغي الكائن لأجل ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ الذي هو الوحي ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يشاؤه ويصطفيه ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ المستأهلين لتحمُّل أعباء الرسالة. ومآلُه تعليلُ كفرهم بالمنزَل بحسدهم للمنزَل عليه. وإيثار صيغة التفعيل ههنا للإيذان بتجدّد بغيهم حسب تجدّد الإنزال وتكثُّره حسب تكثّره.

﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ أي: رجعوا متلبسين بغضب كائن على غضب، مستحقّين له حسب ما اقترفوا مِن كفر على كفر، فإنّهم كفروا بنبيّ الحقّ وبغَوْا عليه. وقيل: كفروا بمحمّد عليه السلام[1] بعد عيسى عليه السلام،[2] وقيل: بعد قولهم: «عُزيرٌ بن الله»[3] وقولِهم: «يد الله مغلولة»[4] وغير ذلك مِن فنون كفرهم.

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: لهم. والإظهار في موقع الإضمار للإشعار بعلّيّة كفرهم لِما حاق بهم. ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يراد به إهانتهم وإذلالُهم لِما أنّ كفرهم بما أنزل الله تعالى كان مبنيًّا على الحسد المبنيّ على طمع[5] النزول عليهم وادّعاءِ الفضل على الناس والاستهانةِ بمَن أُنزلَ عليه عليه الصلاة والسلام.[6]

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ مِن جانب المؤمنين ﴿لَهُمْ﴾ أي: لليهود. وتقديم الجارّ والمجرور قد مرّ وجهه، لاسيّما في لام التبليغ. ﴿ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ مِن الكتب الإلهيّة جميعًا. / والمراد به الأمر بالإيمان بالقرآن، لكن سُلك مسلك التعميم إيذانًا بتحتّم الامتثال مِن حيث مشاركتُه لِما آمنوا به فيما في حيّز الصلة وموافقتُه له في المضمون، وتنبيهًا على أنّ الإيمان بما عداه مِن غير إيمان[7] به ليس بإيمان بما أنزل الله. [٤٣ظ]

---

[1] ي - عليه السلام.

[2] س - عليه السلام.

[3] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة، ٩/٣٠].

[4] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾... إلخ [المائدة، ٥/٦٤].

[5] ط: جمع.

[6] ط: عليه السلام.

[7] ي: الإيمان.

﴿قَالُواْ نُؤْمِنُ﴾ أي: نستمرّ على الإيمان ﴿بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ يَعنُون به **التوراةَ** وما نزل على أنبياء بني إسرائيلَ عليهم السلام[1] لتقرير حكمها، ويدُسّون فيه أنّ ما عدا ذلك غيرُ مُنزَل عليهم. ومرادهم بضمير المتكلِّم إمّا أنفُسهم، فمعنى الإنزال عليهم تكليفُهم بما في المُنزَل مِن الأحكام، وإمّا أنبياءُ بني إسرائيلَ عليهم السلام،[2] وهو الظاهر لاشتماله على مزيّة الإيذان بأنّ عدم إيمانهم بالفرقان لِما مرَّ مِن بَغيهم وحسدهم على نزوله على مَن ليس منهم، ولأنّ مرادهم بالموصول، وإن كان هو **التوراة** وما في حكمها خاصّةً، لكنّ إيرادها بعنوان الإنزال عليهم مبنيٌّ على ادّعاءِ أنّ ما عداها ليس كذلك على وجه التعريض كما أشيرَ إليه. فلو أريدَ بالإنزال عليهم ما ذُكر مِن تكليفهم، يلزَم مِن مغايرة **القرآن** لِما أُنزلَ عليهم حسبما يُعرب عنه قوله تعالى:[3] ﴿وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ عدمُ كونهم مكلَّفين بما فيه، كما يلزَم عدمُ كونه نازلًا على واحدٍ مِن بني إسرائيلَ على الوجه الأخير. وتجريد الموصول عند الإضمار عمّا عرّضوا به تعسّفٌ لا يخفى.

و"الوَرَاء" في الأصل مصدرٌ جُعل ظرفًا، ويُضاف إلى الفاعل، فيراد به ما يتوارى به، وهو خَلْفه، وإلى المفعول، فيراد به ما يُواريه، وهو أمامه.

والجملة حال مِن ضمير ﴿قَالُوا﴾ بتقدير مبتدأ،[4] أي: قالوا ما قالوا وهم يكفرون بما عداه. وليس المراد به[5] مجرّدَ بيانِ أنّ إفراد إيمانهم بما أُنزلَ عليهم بالذكر لنفي إيمانهم بما وراءه؛ بل بيان أنّ ما يدّعون مِن الإيمان ليس بإيمان بما أُنزلَ عليهم حقيقةً؛ فإنّ قوله عزّ اسمُه:[6] ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: المعروف بالحقّيّة الحقيقُ بأن يُخَصّ به اسم الحقّ على الإطلاق، حالٌ مِن فاعل[7] ﴿يَكۡفُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال مؤكِّدة لمضمون الجملة، صاحبُها إمّا ضمير ﴿ٱلۡحَقُّ﴾، وعاملُها ما فيه مِن معنى الفعل، قاله أبو البقاء،[8] وإمّا ضميرٌ دلّ عليه الكلام، وعاملُها فعلٌ مضمَرٌ، أي: أُحِقّه مصدِّقًا ﴿لِّمَا مَعَهُمۡ﴾ مِن **التوراة**. والمعنى:

---

[1] ي – عليهم السلام.
[2] ي – عليهم السلام.
[3] س ي: تعالى.
[4] ي: المبتدأ.
[5] ي – به.
[6] ي: تعالى.
[7] س: مفعول.
[8] التبيان لأبي البقاء العُكبري، ٩٣/١.

قالوا: نؤمن بما أُنزلَ علينا وهم يكفرون بالقرآن والحال أنّه حقٌّ مصدِّق لِما آمنوا به، فيلزَمهم الكفر بما آمنوا به. ومآلُه أنّهم ادَّعَوا الإيمان بالتوراة والحال أنّهم يكفرون بما يلزَم مِن الكفر به الكفرُ بها.

﴿قُلْ﴾ تبكيتًا لهم مِن جهة الله عزّ مِن قائل[١] ببيان التناقض بين أقوالهم وأفعالهم بعد بيان التناقض في أقوالهم: ﴿فَلِمَ﴾ أصلُه:[٢] "لِمَا"، حُذفت عنه الألف فرقًا بين الاستفهاميّة والخبريّة. ﴿تَقْتُلُونَ أَنْبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ﴾ الخطاب للحاضرين مِن اليهود والماضين على طريق التغليب، وحيث كانوا مشاركين في العقد والعمل كان الاعتراض على أسلافهم اعتراضًا على أخلافهم. وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضية. وهو جوابُ شرط محذوف، أي: قلْ لهم: إن كنتم مؤمنين بالتوراة كما تزعُمون، فلأيّ شيءٍ كنتم تقتلون أنبياء الله مِن قبلُ وهو فيها حرامٌ؟ وقُرئ: "أَنْبِئَاءَ اللهِ"[٣] مهموزًا.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ تكرير للاعتراض لتأكيد الإلزام وتشديدِ التهديد، أي: إن كنتم مؤمنين فلِمَ تقتلونهم؟ وقد حُذف مِن كلّ واحدة مِن الشرطيّتين[٤] ما حُذف ثقةً بما أُثبتَ في الأخرى. وقيل: لا حذْفَ فيه؛ بل تقديم الجواب على الشرط، وذلك لا يتأتّى إلّا على رأي الكوفيّين وأبي زيد.[٥] وقيل: ﴿إِنْ﴾ نافية، أي: ما كنتم مؤمنين، وإلّا لَما قتلتموهم.

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ مِن تمام التبكيت والتوبيخ، داخلٌ تحت الأمر، لا تكريرٌ لِما قُصَّ في تضاعيف تعداد النِّعم التي مِن جملتها العفو عن عبادة العِجل. و"اللام" للقَسم، أي: وبالله، لقد جاءكم موسى ملتبِسًا بالمعجزات الظاهرة التي هي العصا واليد والسِّنونَ ونقصُ الثمرات والدم والطوفان والجَراد والقُمّل والضّفادع وفلقُ البحر. وقد عُدَّ منها التوراة، وليس بواضح؛ فإنّ المَجيء بها بعد قصّة العِجل.

---

١ ي: تعالى.
٢ ي – أصله.
٣ قرأ بها نافع. النشر لابن الجزري، ١/٤٠٦.
٤ الأولى منهما ما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ﴾ [البقرة، ٢/٨٩].
٥ اللباب لابن عادل، ٢/٢٩٠.

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾ أي: إلهًا ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي: مِن بعد مجيئه بها، وقيل: مِن بعد ذهابه إلى الطُّور، فيكون التوراة حينئذ مِن جملة البيّنات. و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الرُّتبة والدلالة على نهاية قُبح ما صنعوا. ﴿وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ حال مِن ضمير ﴿ٱتَّخَذۡتُمُ﴾،[١] بمعنى: اتّخذتم العِجل ظالمين بعبادته واضعين لها في غير موضعها أو بالإخلال بحقوق آيات الله تعالى، أو اعتراضٌ، أي: وأنتم قومٌ عادتُكم[٢] الظلمُ.

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٩٣﴾

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ﴾ توبيخ مِن جهة الله تعالى وتكذيب لهم في ادّعائهم الإيمانَ بما أُنزلَ عليهم بتذكير جناياتهم الناطقة بكذبهم، أي:[٣] واذكروا[٤] حين أخَذْنا ميثاقكم ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ قائلين: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْ﴾ أي: خذوا بما أُمرتم به في التوراة واسمعوا ما[٥] فيها سمْعَ طاعةٍ وقبولٍ.

﴿قَالُواْ﴾ استئناف مبنيّ على سؤالِ سائل، كأنّه قيل: فماذا قالوا؟ فقيل: قالوا: ﴿سَمِعۡنَا﴾ قولَك ﴿وَعَصَيۡنَا﴾ أمرَك. فإذا قابل أسلافهم مثلَ ذلك الخطاب المؤكّد مع مشاهدتهم مثلَ تلك المعجزة الباهرة بمثل هذه العظيمة الشَّنْعاء وكفروا بما في تضاعيف التوراة، فكيف يُتصوّر مِن أخلافهم الإيمان بما فيها.[٦]

﴿وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾ على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مُقامَه للمبالغة، أي: تَداخَلَهم حبُّه ورسَخَ في قلوبهم صورته لفَرْط شَغَفهم به وحرصِهم على عبادته كما يتداخل الصِّبْغ الثوبَ والشرابُ أعماقَ البدن. و﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾ بيان لمكان الإشراب كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗا﴾ [النساء، ٤/١٠].

---

١ ط - مِن ضمير اتّخذتم.
٢ ي: عادكم.
٣ ي: أو.
٤ ط س: اذكروا؛ ي: واذكر. | أثبتنا ما في نسخة أ.
٥ ي - ما.
٦ ي: قبلها.

والجملة حال مِن ضمير ﴿قَالُوا﴾ بتقدير "قد". ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ بسبب كفرهم السابق الموجِب لذلك. قيل: كانوا مجسِّمةً أو حُلوليّةً، ولم يرَوْا جسمًا أعجبَ منه، فتمكَّن في قلوبهم ما سوَّل لهم / السامريُّ. [٤٤و]

﴿قُلْ﴾ توبيخًا لحاضري اليهود إثرَ ما تبيَّنَ أحوال رؤسائهم الذين بهم يَقتَدون في كلّ ما يأتون وما يذَرون: ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ بما أُنزلَ عليكم مِن التوراة حسبما تدّعون. والمخصوص بالذمّ محذوف، أي: ما ذُكر مِن[١] قولهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ وعبادتِهم العجلَ. وفي إسناد الأمر إلى الإيمان تهكّمٌ بهم. وإضافة الإيمان إليهم للإيذان بأنّه ليس بإيمان حقيقةً كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ فإنّه قدْحٌ في دعواهم الإيمانَ بما أُنزلَ عليهم مِن التوراة وإبطالٌ لها. وتقريره: إن كنتم مؤمنين بها عاملين فيما ذُكر مِن القول والعمل بما فيها، فبئسما يأمركم به إيمانكم بها، وإذ لا يسوِّغ الإيمانُ بها مثلَ تلك القبائح، فلستم بمؤمنين بها قطعًا. وجواب الشرط -كما ترى- محذوف لدلالة ما سبق عليه.

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾

﴿قُلْ﴾ كُرّر الأمر -مع قُرب العهد بالأمر السابق- لِما أنّه أمرٌ بتبكيتهم وإظهارِ كذبهم في فنٍ آخرَ مِن أباطيلهم، لكنّه لم يُخْكَ عنهم[٢] قبل الأمر بإبطاله؛ بل اكتُفي بالإشارة إليه في تضاعيف الكلام، حيث قيل: ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ أي: الجنّة أو نعيمُ الدار الآخرة ﴿عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً﴾ أي: سالمةً لكم خاصّةً بكم كما تدّعون أنّه لن يدخل الجنّة إلّا مَن كان هُودًا. ونصبُها على الحاليّة مِن ﴿ٱلدَّارُ﴾. و﴿عِندَ﴾ ظرفٌ للاستقرار في الخبر، أعني: ﴿لَكُمُ﴾. وقوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ في محلّ النصب بـ﴿خَالِصَةً﴾، يقال: "خلص لي كذا مِن كذا". و"اللام" للجنس، أي: الناس كافّةً، أو للعهد، أي: المسلمين.

---

[١] ي: عن.

[٢] ي: عنه.

﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ فإنّ مَن أيقَنَ بدخول الجنّة، اشتاقَ إلى التخلّص إليها مِن دارَة البَوَار[١] وقَرَارة[٢] الأكدار، لاسيّما إذا كانت خالصةً له كما قال عليّ كرّم الله وجهه:[٣] «لا أُبالِي أسَقَطتُ على الموت أو سقط الموتُ عليَّ».[٤] وقال عمّار بن ياسر رضي الله عنه[٥] بصِفّين:[٦] «الآن أُلاقِي الأحِبّةَ محمَّدًا وحِزْبَه»،[٧] وقال حذيفة بن اليَمَان حين احتُضِر وقد كان يتمنّى الموتَ قبلُ: «جاء حَبيبٌ على فاقةٍ، لا أفلَحَ مَن ندِمَ»،[٨] أي: على التمنّي.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ تكرير للكلام لتشديد الإلزام، وللتنبيه على أنّ ترتّب الجواب ليس على تحقّق الشرط في نفس الأمر فقط؛ بل في اعتقادهم أيضًا، وأنّهم قد ادّعَوا ذلك. والجواب محذوف ثقةً بدلالة ما سبق عليه، أي: إن كنتم صادقين، فتمنَّوْه.

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ كلام مستأنَف غيرُ داخل تحت الأمر، سِيقَ مِن جهته سبحانه[٩] لبيان ما يكون منهم مِن الإحجام عمّا دُعُوا إليه الدالِّ[١٠] على كذبهم في دعواهم. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بسبب ما عملوا مِن المعاصي الموجِبة لدخول النار كالكفر بالنبيّ عليه السلام[١١] والقرآن وتحريف التوراة.

---

[١] البَوَار: الهَلاك. كتاب العين للخليل بن أحمد، ٢٨٥/٨ «باب الراء والباء».

[٢] القَرَارة: القاعُ المُستدِيرُ. كتاب العين للخليل بن أحمد، ٢٢/٥ «باب القاف مع الراء».

[٣] ي: رضي الله عنه.

[٤] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٥/١. ونحوه عنه كرّم الله وجهه في الكشّاف للزمخشري، ١٦٦/١.

[٥] ط س - رضي الله عنه.

[٦] هو موضعٌ بقُرب الرَّقّة على شاطئ الفُرات مِن الجانب الغربيّ بين الرَّقّة وبالس. وهناك وقع ما وقع بين عليّ ومعاوية رحمهما الله. انظر: معجم البلدان للحَمَوي، ٤١٤/٣-٤١٥.

[٧] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٥/١. وفي مسند البزّار، ٢٤٣/٤ (١٤١٠)؛ والمستدرك للحاكم، ٤٤٥/٤ (٥٦٨٧): "اليومَ ألقى" مكانَ "الآن أُلاقي".

[٨] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٥/١. وهو باختلاف يسير في مصنّف ابن أبي شيبة، ٤٥٨/٧ (٣٧٢٠٣)؛ وحلية الأولياء لأبي نُعيم، ٢٨٢/١. | قال الطيبي في فتوح الغيب، ٥٨٥/٢: «قوله: "جاء على فاقةٍ"، أي: تمنّيتُ الموت وجاءني وقتَ حاجتي إليه. ثمّ قال: "لا أفلَحَ مَن ندِمَ"، يريد: تمنّيتُ، فلمّا جاء، ما ندِمتُ، فعَمَّ وقال: "لا أفلَحَ"، وهو يحتمل الدعاءَ أيضًا».

[٩] ي: تعالى.

[١٠] قوله: "الدالّ" صفة "الإحجام".

[١١] ي: صلّى الله عليه وسلّم.

ولمّا كانت اليد مِن بين جوارح الإنسان مَناطَ عامّة صنائعه ومدارَ أكثر منافعه، عُبّر بها تارةً عن النفس وأخرى عن القدرة.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: بهم. وإيثار الإظهار على الإضمار لذمّهم والتسجيلِ عليهم بأنّهم ظالمون في جميع الأمور التي مِن جملتها ادّعاءُ ما ليس لهم ونفيُه عن غيرهم. والجملة تذييل لِما قبلها مقرِّرة لمضمونه، أي: عليم بهم وبما صدر عنهم مِن فنون الظلم والمعاصي المُفضية إلى أفانين العذاب، وبما سيكون منهم مِن الاحتراز عمّا يؤدِّي إلى ذلك؛ فوقع الأمر كما ذُكر، فلم يتمَنَّ منهم موتَه أحدٌ، إذ لو وقع ذلك لَنُقل واشتهر. وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «لو تمَنَّوا الموت لَغَصَّ كلُّ إنسان بَرِيقه فمات مكانَه، وما بقي يهوديٌّ على وجه الأرض».[1]

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ٩٦﴾

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ﴾ مِن الوجدان العقليّ، وهو جارٍ مجرى العِلم، خلَا أنّه مختصّ بما يقع بعد التجربة ونحوها، ومفعولاه الضمير و﴿أَحۡرَصَ﴾. والتنكير في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ حَيَوٰةٖ﴾ للإيذان بأنّ مرادهم نوع خاصّ منها، وهي الحياة المتطاولة. وقُرئ بالتعريف.[2]

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ عطفٌ على ما قبله بحسب المعنى، كأنّه قيل: أحرَص مِن الناس ومِن الذين أشركوا. وإفرادهم بالذِّكر -مع دخولهم في ﴿ٱلنَّاسِ﴾- للإيذان بامتيازهم مِن بينهم بشدّة الحِرص- للمبالغة في توبيخ اليهود؛ فإنّ حرصهم -وهم معترِفون بالجزاء- لمّا كان أشدَّ مِن حرص المشركين المنكرين له، دلَّ ذلك على جَزْمهم بمَصيرهم إلى النار.

---

[1] الحديث باختلاف يسير في الكشف والبيان للثعلبي، ١/٢٣٧-٢٣٨؛ والكشّاف للزمخشري، ١٦٧/١. وانظر لتخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف، ٧٥/١ (٥٤).

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٧٠.

ويجوز أن يُحمَل على حذف المعطوف ثقةً بإنباء المعطوف عليه عنه، أي: وأحرصَ مِن الذين أشركوا؛ فقوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾ بيان لزيادة حرصهم على طريقة الاستئناف. ويجوز أن يكون في حيّز الرفع صفةً لمبتدإٍ محذوفٍ خبرُه الظرف المتقدِّم، على أن يكون المراد بالمشركين اليهودَ لقولهم: «عُزيرٌ ابنُ الله»، أي: ومنهم طائفة يودّ أحدُهم أيّهم كان، أي: كلُّ واحد منهم. ﴿لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وهو حكاية لوَدادتهم، كأنّه قيل: لَيْتني أُعَمَّرُ. وإنّما أُجريَ على الغَيبة لقوله تعالى: ﴿يَوَدُّ﴾، كما تقول: "حلَفَ بالله لَيفعلَنَّ". ومحلّه النصب على أنّه مفعول ﴿يَوَدُّ﴾ إجراءً له مُجرى القول؛ لأنّه فعل قلبيٌّ.

﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ ﴿مَا﴾ حجازيّة،[1] والضمير العائد إلى ﴿أَحَدُهُمْ﴾ اسمُها، و﴿بِمُزَحْزِحِهِ﴾ خبرُها، و"الباء" زائدة، و﴿أَنْ يُعَمَّرَ﴾ فاعلُ ﴿مُزَحْزِحِهِ﴾، أي: وما أحدُهم بمَن يزحزِحُه -أي: يبعِّده ويُنجيه- مِن العذاب تعميرُه. وقيل: الضمير لِما دلّ عليه ﴿يُعَمَّرُ﴾ مِن المصدر، و﴿أَنْ يُعَمَّرَ﴾ بدلٌ منه. وقيل: هو مبهَم، و﴿أَنْ يُعَمَّرَ﴾ مفسِّرةٌ. والجملة حال مِن ﴿أَحَدُهُمْ﴾، والعامل ﴿يَوَدُّ﴾، لا ﴿يُعَمَّرُ﴾ على أنّها حال مِن ضميره لفساد المعنى، أو اعتراضٌ. وأصل ﴿سَنَةٍ﴾: "سَنْوَة"، لقولهم: "سَنَوات" و"سُنَيَّة"، وقيل: "سَنْهة" كـ"جَبْهة"، لقولهم: "سانَهْته" و"سُنَيهة" و"تسنَّهت النخلة" إذا أتتْ عليها السِّنونَ.[2]

[٤٤ظ] ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ / البصير في كلام العرب: العالم بكُنه الشيء الخبيرُ[3] به. ومنه قولهم: "فلان بصيرٌ بالفقه". أي: عليم بخَفِيّات أعمالهم، فهو مُجازيهم بها لا محالة. وقُرئ بتاء الخطاب[4] التفاتًا. وفيه تشديد للوعيد.

---

[1] قال إمام الحرمين الجويني في البرهان، ٥٢/١: «إن اتّصلت "ما" بالابتداء أو الخبر، فأهل الحجاز يَرون إحلالَها محلَّ "ليس"، فيرفعون بها الاسمَ وينصبون الخبر، وهي لغة القرآن، قال الله عزّ وجلّ: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف، ٣١/١٢]. وبنو تميم لا تُعمِل "ما" النافية؛ لأنّها تدخل على الاسم والفعل. وقياس "ما" يدخل على البابين -أعني: الاسم والفعل- ألّا يعمل في واحد منهما».

[2] ي: السنوان.

[3] ي: والخبير.

[4] قرأ بها يعقوب مِن القرّاء العشرة. النشر لابن الجزري، ٢١٩/٢.

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٩٧﴾

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾: نزل في عبد الله بن صُورِيا مِن أحبار فدَكَ،[١] حاجَّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم وسأله عمّن ينزل[٢] عليه بالوحي، فقال عليه السلام: «جبريلُ عليه السلام»، فقال: «هو عدوُّنا، ولو كان غيرَه لَآمنّا بك».[٣] وفي بعض الروايات: «ورسولُنا ميكائيل، فلو كان هو الذي يأتيك لَآمنّا بك، وقد عادانا مِرارًا، وأشدُّها أنّه أنزل على نبيّنا أنّ بيت المقدِس سيُخرّبه بُخْتَ نَصَّر،[٤] فبعثنا مَن يقتله، فلقِيَه ببابلَ[٥] غلامًا مِسكينًا، فدفع عنه جبريلُ عليه السلام، وقال: "إن كان ربّكم أمَرَه بهلاككم، فإنّه لا يسلّطكم عليه، وإلّا فبأيّ حقٍّ تقتلونه؟"».[٦] وقيل: «أمَرَه الله تعالى أن يجعل النبوّة فينا، فجعَلَها في غيرنا».[٧]

ورُوي أنّه كان لعمرَ رضي الله عنه أرضٌ بأعلى المدينة، وكان مَمَرّه على مِدْراس[٨] اليهود، فكان يجلس إليهم ويسمع كلامَهم، فقالوا: «يا عمرُ، قد أحبَبْناك، وإنّا لَنطمَع فيك»، فقال: «واللهِ ما أَجيئكم لحُبّكم، ولا أسألكم لشكٍّ في ديني، وإنّما أدخلُ عليكم لأزداد بصيرةً في أمر محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وأرى آثارَه في كتابكم»، ثمّ سألهم عن جبريلَ عليه السلام، فقالوا: «ذاك هو[٩] عدوّنا يُطلِع محمدًا على أسرارنا، وهو صاحبُ كلّ خَسْف وعذاب، وميكائيلُ يجيء بالخِصْب والسلام»، فقال لهم: «وما منزلتهما عند الله تعالى؟»، قالوا:

---

[١] اسم قرية بخَيبر. **الصحاح** للجوهري، «فدك».

[٢] ي: نزل.

[٣] **الكشّاف** للزمخشري، ١/١٦٩.

[٤] هو بُخْتَ نَصَّر بن بيت بن جُوذرز. المَلِك البابلي. دخل دمشقَ ومضى منها إلى بيت المقدِس، فخرّبها وسبَى أهلَها وحملهم إلى بابل. وقيل: إنّه آمن بعد ذلك. قالوا: وملك بُخْتَ نَصَّر خمسٌ وأربعون سنةً. انظر: **تاريخ دمشق** لابن عساكر، ٧١/٣٤٢-٣٥٧.

[٥] ي: ببابيل. | بَابِل: اسم ناحيةٍ، منها الكوفة والحِلّة. يُنسَب إليها السِّحر والخَمر. انظر: **معجم البلدان** للحمَوي، ١/٣٠٩-٣١١.

[٦] **الكشّاف** للزمخشري، ١/١٦٩. وانظر لتفصيل القصّة: **أسباب النزول** للواحدي، ص ٣٣-٣٤؛ **واللباب** لابن عادل، ٢/٣٠٦-٣٠٧.

[٧] **الكشّاف** للزمخشري، ١/١٦٩؛ **أسباب النزول** للواحدي، ص ٣٤.

[٨] ط س: مدارس. | المِدْراس: الموضع الذي يُدرس فيه كتاب الله. ومنه: مِدْراس اليهود. **تاج العروس** للزبيدي، «درس».

[٩] ط س - هو.

«جبريلُ أقربُ منزلةً هو عن يمينه، وميكائيلُ عن يساره، وهما متعاديان»، فقال عمرُ رضي الله عنه: «إن كانا كما تقولون، فما هما بعدوَّين ولَأنتم أكفَرُ مِن الحمير، ومَن كان عدوًّا لأحدهما، فهو عدوّ للآخَر، ومَن كان عدوًّا لهما، كان عدوًّا لله سبحانه»، ثمّ رجع عمر رضي الله عنه،[1] فوجد جبريلَ عليه السلام قد سبقه بالوحي، فقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «لقد وافَقَك ربّك يا عمرُ»، قال عمر رضي الله عنه: «لقد رأيتُني في دين الله بعد ذلك أصلَبَ مِن الحَجَر».[2]

وقُرئ: "جَبْرَئِيلَ"[3] كـ"سَلْسَبِيل"، و"جَبْرَئِلَ"[4] كـ"جَحْمَرِش"، و"جَبْرِيلَ"،[5] و"جَبْرَئِلُّ"،[6] و"جَبْرَائِيلَ"[7] كـ"جَبْرَاعِيل"، و"جَبْرَائِلَ"[8] كـ"جَبْرَاعِل". ومنع الصرف فيه للتعريف والعُجمة.[9] وقيل: معناه: عبدُ الله.

﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ﴾ تعليل لجواب الشرط قائمٌ مَقامَه. والبارز الأوّل لـ﴿جِبْرِيلَ﴾ عليه السلام والثاني للقرآن، أُضمرَ مِن غير ذِكر إيذانًا بفخامة شأنه واستغنائه عن الذكر لكمال شهرته ونباهته، لاسيّما عند ذكر شيء مِن صفاته. ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ زيادةُ تقرير للتنزيل ببيان محلّ الوحي، فإنّه القابل الأوّل له ومدارُ الفهم والحفظ. وإيثار الخطاب على التكلّم[10] المبنيّ على حكاية كلام الله تعالى بعينه كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر، ٥٣/٣٩] لِما في النقل بالعبارة مِن زيادةِ تقرير لمضمون المقالة.

---

[1] ط س - رضي الله عنه.

[2] الكشّاف للزمخشري، ١٢٩/١. وانظر: جامع البيان للطبري، ٢٩٠/٢-٢٩١؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٩/١؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ٣٣-٣٤.

[3] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢١٩/٢.

[4] قرأ بها عاصم مِن رواية أبي بكر بخلاف عنه، فروى العليمي عنه: "جَبْرَئِيلَ"، وروى يحيى بن آدم عنه كذلك، إلّا أنّه حذف الياء بعد الهمزة، وهي المشهورة مِن هذه الطرق. السبعة لابن مجاهد، ص ١٦٦-١٦٧؛ النشر لابن الجزري، ٢١٩/٢.

[5] قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢١٩/٢.

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن يعمر. جامع البيان للطبري، ٢٩٥/٢؛ المحتسب لابن جنّي، ٩٧/١.

[7] قراءة شاذّة، مرويّة عن فيّاض بن غزوان. المحتسب لابن جنّي، ٩٧/١.

[8] قراءة شاذّة، ذكرها الثعلبي في الكشف والبيان، ٢٤٠/١؛ وابن عادل في اللباب، ٣١٢/٢، ونسبها الأوّل إلى طلحة بن مصرّف، والثاني إلى عكرمة.

[9] ط: والعلميّة.

[10] أي: إيثار ﴿قَلْبِكَ﴾ على "قلبي".

﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بأمره وتيسيره. مستعار مِن تسهيل الحجاب. وفيه تلويح بكمال توجّه جبريلَ عليه السلام إلى تنزيله وصدقِ عزيمته عليه. وهو حال مِن فاعل ﴿نَزَّلَهُۥ﴾. وقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: مِن الكُتب الإلهيّة التي معظمها التوراة، حالٌ مِن مفعوله. وكذا قوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. والعامل في الكلّ: ﴿نَزَّلَهُۥ﴾.

والمعنى: مَن عادَى جبريلَ مِن أهل الكتاب، فلا وجهَ لمعاداته؛ بل يجب عليه مَحَبّته، فإنّه نزَّل عليك كتابًا مصدِّقًا لكُتبهم، أو فالسبب في عداوته تنزيله لكتاب مصدِّق لكتابهم موافِقٍ له وهم له كارهون؛ ولذلك حرّفوا كتابهم وجحَدوا موافقته له؛ لأنّ الاعتراف بها يوجب الإيمانَ به، وذلك يستدعي انتكاس أحوالهم وزوالَ رياستهم. وقيل: إنّ الجواب:[1] فقد خلَعَ رِبْقةَ الإنصاف،[2] أو فقد كفر بما معه مِن الكتاب، أو فليمُتْ غَيْظًا، أو فهو عدوّ لي وأنا عدوّ له.

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ﴾ أريدَ بعداوته تعالى مخالفةُ أمره عنادًا والخروجُ عن طاعته مكابرةً، أو عداوةُ خواصّه ومقرَّبيه؛ لكنْ صُدّر الكلام بذكره الجليل تفخيمًا لشأنهم، وإيذانًا بأنّ عداوتهم عداوتُه عزّ وعلا كما في قوله عزّ وجلّ:[3] ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة، ٦٢/٩]، ثمّ صُرّح بالمَرام فقيل: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾. وإنّما أُفردَا بالذكر -مع أنّهما أوّلُ مَن يشمُله عنوان المَلَكيّة والرسالة- لإظهار فضلهما، كأنّهما عليهما السلام مِن جنسٍ آخرَ أشرَفَ ممّا ذُكر تنزيلًا للتغاير في الوصف منزلةَ التغاير في الجنس، وللتنبيه على أنّ عداوة أحدهما عداوة للآخر حسمًا لمادّة اعتقادهم الباطل في حقّهما، حيث زعَموا أنّهما متعاديان، وللإشارة إلى أنّ معاداة الواحد والكلّ سواءٌ في الكفر واستتباع

---

١ أي: جواب قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾.

٢ الرِّبْق: حبلٌ فيه عِدّةُ عُرًى، تُشَدّ به البُهْم. الواحدة مِن العُرَى: رِبْقة. والجمع: رِبَق وأرباق ورِباق. وفي الحديث: «...خلَعَ رِبْقةَ الإسلام مِن عُنُقه». **الصحاح** للجوهري، «ربق».

٣ ي: تعالى.

العداوة مِن جهة الله[١] سبحانه، وأنّ مَن عادَى أحدَهم فكأنّما عادَى الجميعَ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: لهم، جوابُ الشرط، والمعنى: مَن عاداهم، عاداه الله تعالى[٢] وعاقَبَه أشدَّ العقاب. وإيثار الاسميّة للدلالة على التحقّق والثبات. ووضعُ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ موضعَ المضمَر للإيذان بأنّ عداوة المذكورين كفرٌ، وأنّ ذلك بيّنٌ لا يحتاج إلى الإخبار به، وأنّ مدار عداوته تعالى لهم وسخطِه المستوجِبِ لأشدِّ العقوبة والعذاب هو كفرهم المذكور.

وقُرئ: "مِيكَائِلَ"[٣] كـ"مِيكَاعِلَ"، و"مِيكَائِيلَ"[٤] كـ"مِيكَاعِيلَ"، و"مِيكَئِلَ"[٥] كـ"مِيكَعِلَ"، و"مِيكَئِيلَ"[٦] كـ"مِيكَعِيلَ".

﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ٩٩﴾

﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ واضحاتِ الدلالةِ على معانيها، وعلى كونها مِن عند الله عزّ وجلّ. ﴿وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ أي: المتمرِّدون في الكفر الخارجون عن حدوده؛ فإنّ مَن ليس على تلك الصفة مِن الكَفَرة لا يَجترئ على الكفر بمثل هاتيك البيّنات. قال الحسن: «إذا استُعمل الفِسق في نوع مِن المعاصي وقع على أعظم أفراد ذلك النوع مِن كفر أو غيره».[٧] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه قال:[٨] قال ابن صُوريا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «ما جئتَنا بشيء نَعرِفه وما أُنزلَ عليك مِن آية فنتَّبعَك لها»، فنزلت.[٩] و"اللام" للعهد، أي: الفاسقون المعهودون، وهم أهل الكتاب المحرِّفون لكتابهم الخارجون عن دينهم، أو للجنس، وهم داخلون فيه دخولًا أوّليًّا.

---

١ س: مِن جهته.
٢ س - تعالى.
٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢١٩/٢.
٤ قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي وابن كثير مِن رواية قُنبل بخلاف عنه. السبعة لابن مجاهد، ص ١٦٧؛ النشر لابن الجزري، ٢١٩/٢.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن هرمز الأعرج وابن مُحيصِن. المحتسب لابن جنّي، ٩٧/١.
٦ قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري في الكشّاف، ١٧٠/١؛ وابن عادل في اللباب، ٣١٦/٢، ونسبها الثاني إلى ابن مُحيصِن.
٧ الكشّاف للزمخشري، ١٣١/١.
٨ ط س - قال.
٩ جامع البيان للطبري، ٣٠٥/٢؛ تفسير ابن أبي حاتم، ١٨٣/١؛ الكشّاف للزمخشري، ١٣١/١.

﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٠﴾

[٤٥و] ﴿أَوَكُلَّمَا / عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: أكفَروا بها وهي في غاية الوضوح وكلَّما عاهدوا عهدًا؟ ومِن جملة ذلك ما أشيرَ إليه في قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [البقرة، ٨٩/٢] مِن قولهم للمشركين: «قد أظلَّ زمانُ نبيّ يخرُج بتصديق ما قلنا، فنَقتلُكم معه قَتْل عاد[١] وإرَم».[٢] وقُرئ بسكون الواو،[٣] على أنّ تقدير النظم الكريم: وما يكفر بها إلّا الذين فسقوا أو نقضوا عُهودَهم مِرارًا كثيرة. وقُرئ: "عُوهِدُوا"،[٤] و"عَهِدُوا".[٥] وقوله تعالى: ﴿عَهۡدٗا﴾ إمّا مصدر مؤكِّد لـ﴿عَٰهَدُواْ﴾ مِن غير لفظه، أو مفعول له على أنّه بمعنى: أَعطَوا العهد.

﴿نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُم﴾ أي: رمَوا بالزِّمام ورفضوه. وقُرئ: "نَقَضَهُ".[٦] وإسناد النَّبذ إلى فريق منهم؛ لأنّ منهم مَن لم يَنبِذه. ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: بالتوراة. وهذا دفعٌ لِما يُتوهَّم مِن أنّ النابذين هم الأقلُّون، وأنّ مَن لم يَنبِذ جِهارًا فهم يؤمنون بها سِرًّا.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١﴾

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ﴾ هو النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. والتنكير للتفخيم.

---

١ هم قبيلة مِن العرب العاربة والبائدة، وعاد أبوهم، وبه ورد القرآن الكريم. وذُكر أنّه عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام. ويقال لعاد هؤلاء عاد الأولى. وكانت منازلهم بالأحقاف بين اليمن وعُمان مِن البحرين إلى حضرموت والشّحر. انظر: **أنساب الأشراف** للبلاذُري، ٣/١؛ **ونهاية الأرب** للقلقشندي، ص ٣٢٨.

٢ انظر: **معالم التنزيل** للبغوي، ٨٠/٢ (آل عمران، ٣/ ١٠٣). | ويظهر أنّ المقصود مِن "إرم" ههنا القبيلة، وهي قبيلة مِن العرب العاربة والبائدة. وإرم أبوهم، وذُكر أنّه إرم بن سام بن نوح عليه السلام. وعلى هذا يكون تقدير ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾ [الفجر، ٧/٨٩]: إرم صاحب ذات العماد. وقيل "إرم" مدينة، فيكون التقدير: بعاد صاحبِ إرم. انظر: **معجم البلدان** للحمَوي، ١٥٥/١؛ **ونهاية الأرب** للقلقشندي، ص ٣٢٨.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٧١.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال والحسن وأبي رجاء. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٦؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٧١.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٧١.

٦ قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري ونسبها إلى ابن مسعود. **الكشّاف** للزمخشري، ١٣٢/١.

﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ متعلِّق بـ﴿جَآءَ﴾، أو بمحذوفٍ وقع صفةً لـ﴿رَسُولٌ﴾ لإفادة مَزيد[١] تعظيمه بتأكيد ما أفاده التنكير مِن الفخامة الذاتيّة بالفخامة الإضافيّة. ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ مِن التوراة مِن حيث إنّه صلّى الله عليه وسلّم قرّر صحّتها وحقّق حقّيّة نبوّة موسى عليه السلام بما أُنزلَ عليه، أو مِن حيث إنّه عليه السلام جاء على وَفق ما نُعت فيها.

﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي: التوراةَ. وهم اليهود الذين كانوا في عهد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ممّن كانوا يَستفتحون به قبل ذلك؛ لا الذين كانوا في عهد سليمان عليه السلام كما قيل؛ لأنّ النَّبذ عند مَجيء النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لا يُتصوّر منهم. وإفراد[٢] هذا النَّبذ بالذِّكر مع اندراجه تحت قوله عزّ وجلّ: ﴿أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾؛[٣] لأنّه معظَم جناياتهم، ولأنّه تمهيد لذِكر اتّباعهم لِما تتلو الشياطين وإيثارِهم له عليه.[٤] والمراد بإيتائها إمّا إيتاء علمها بالدراسة والحفظ والوقوفُ على ما فيها، فالموصول عبارة عن علمائهم، وإمّا مجرَّد إنزالها عليهم، فهو عبارة عن الكلّ. وعلى التقديرين، فوَضْعه مَوضِع الضمير للإيذان بكمال التنافي بين ما أُثبتَ لهم في حيّز الصلة وبين ما صدر عنهم مِن النَّبذ.

﴿كِتَـٰبَ ٱللَّهِ﴾ أي: الذي أُوتوه. قال السدّي: «لمّا جاءهم محمّد صلّى الله عليه وسلّم عارضوه بالتوراة، فاتّفقت التوراة والفرقان، فنبذوا التوراة، وأخذوا بكتاب آصَف وسِحْر هاروت وماروت، فلم يُوافِق القرآن، فهذا قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾... إلخ».[٥] وإنّما عُبّر عنها بـ﴿كِتَـٰبَ ٱللَّهِ﴾ تشريفًا لها، وتعظيمًا لحقِّها عليهم، وتهويلًا لِما اجترءوا عليه مِن الكفر بها. وقيل: ﴿كِتَـٰبَ ٱللَّهِ﴾: القرآن، نبذوه بعد ما لزِمهم تلقِّيه بالقَبول، لاسيّما بعد ما كانوا يستفتحون به مِن قبلُ، فإنّ ذلك قَبول له وتمسُّك به، فيكون الكفر به عند مَجيئه نَبذًا له، كأنّه قيل: كتابَ الله الذي جاء به، فإنّ مَجيء الرسول مُعرِب عن مَجيء الكتاب.

---

[١] ي: زيادة.

[٢] س: وأفرد.

[٣] في الآية السابقة.

[٤] وفي هامش ي: وإيثارهم شرّ الشرور على خير الحبور. «منه».

[٥] جامع البيان للطبري، ٣١٢/٢؛ تفسير ابن أبي حاتم، ١٨٤/١؛ اللباب لابن عادل، ٣٢٥/٢.

﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ مَثلٌ لتركهم وإعراضِهم عنه بالكلّيّة، مُثّل بما يُرمى به وراء الظهر استغناءً عنه وقلّةَ التفاتٍ إليه.

﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ جملة حاليّة، أي: نبذوه وراءَ ظهورهم مشبَّهين بمَن لا يَعلَمه. فإن أُريدَ بالنابذين[١] أحبارهم، فالمعنى: كأنّهم لا يعلمونه على وجه الإتقان، ولا يعرفون ما فيه مِن دلائل نبوّته صلّى الله عليه وسلّم، ففيه إيذانٌ بأنّ علمهم به رَصين، لكنّهم يتجاهلون، أو كأنّهم لا يعلمون أنّه كتاب الله، أو لا يعلمونه أصلًا، كما إذا أُريدَ بهم الكلّ. وفي هذين الوجهين زيادة مبالغة في إعراضهم عمّا في التوراة مِن دلائل النبوّة. هذا. وإن أُريدَ بما نبذوه مِن كتاب الله القرآن، فالمراد بالعِلم المنفيّ في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هو العلم بأنّه كتاب الله، ففيه ما في الوجه الأوّل مِن الإشعار بأنّهم متيقّنون في ذلك، وإنّما يكفرون به مكابرةً وعنادًا.

قيل: إنّ جيل اليهود أربعُ فِرَق: ففرقة آمنوا بالتوراة وقاموا بحقوقها كمؤمني أهل الكتاب، وهم الأقلّون المشار إليهم بقوله عزّ وجلّ: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛[٢] وفِرقة جاهروا بنبذ العهود وتَعدّي الحدود تمرّدًا وفُسوقًا، وهم المَعنِيّون بقوله تعالى: ﴿نَبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾؛[٣] وفِرقة لم يجاهِروا بنَبذها، ولكن نبذوها لجهلهم بها، وهم الأكثرون؛ وفِرقة تمسّكوا بها ظاهرًا ونبذوها خُفْيةً، وهم المتجاهِلون.[٤]

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ عطفٌ على جواب ﴿لَمَّا﴾،[٥] أي: نبذوا كتاب الله واتّبعوا كُتب السَّحَرة التي كانت تَقرؤها الشياطين، وهم المتمرّدون مِن الجنّ.

---

١ س: بهم.

٢ في الآية السابقة.

٣ في الآية السابقة.

٤ انظر هذا القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٤/١.

٥ في الآية السابقة.

و﴿تَتْلُوا﴾ حكايةُ حال ماضية، والمراد بالاتّباع التوغّل والتمحّض فيه والإقبال عليه بالكلّيّة؛ وإلّا فأصل الاتّباع كان حاصلًا قبل مجيء الرسول صلّى الله عليه وسلّم، فلا يَتسنّى عطفه على جواب ﴿لَمَّا﴾؛[1] ولذلك قيل: هو معطوف[2] على الجملة، وقيل: على ﴿أُشْرِبُوا﴾.[3]

﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ أي: في عهد مُلكه. قيل: كانت الشياطين يسترقون السمع ويضُمّون إلى ما سمعوا أكاذيبَ يلفِّقونها ويُلقونها إلى الكَهَنة، وهم يدوِّنونها ويعلِّمونها الناس. وفشا ذلك في عهد سليمان عليه السلام حتّى قيل: إنّ الجنّ تَعلم الغيب. وكانوا يقولون: هذا عِلم سليمان، وما تمّ له مُلكه إلّا بهذا العِلم، وبه[4] سَخّر الإنس والجنّ والطير والريح التي تَجري بأمره.[5]

وقيل: إنّ سليمان عليه السلام كان قد دفن كثيرًا مِن العلوم التي خصّه الله بها تحت سرير مُلكه، فلمّا مضت على ذلك مدّة تَوصّل إليها[6] قوم مِن المنافقين، فكتبوا في خلال ذلك أشياء مِن فنون السِّحر تُناسِب تلك الأشياء المدفونة مِن بعض الوجوه، ثمّ بعد موته واطّلاع الناس على تلك الكُتب أوهموهم أنّه مِن عمل سليمان عليه السلام، وأنّه ما بلغ هذا المَبلَغ إلّا بسبب هذه الأشياء.[7]

﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ تنزيه لساحته عليه السلام / عن السِّحر، وتكذيب لمَن افترى عليه بأنّه كان يعتقده ويعمل به. والتعرّض لكونه كفرًا للمبالغة في إظهار نزاهته عليه السلام وكَذِب باهِتيه بذلك. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ وقُرئ بتخفيف ﴿لَٰكِنَّ﴾ ورفعِ ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾.[8] والواو عاطفة للجملة الاستدراكيّة على ما قبلها، وكونُ المخفَّفة عند الجمهور للعطف إنّما هو عند عدم الواو وكونِ ما بعدها مفردًا. ﴿كَفَرُوا﴾ باستعمال السحر وتدوينه. [٤٥ظ]

---

١ في الآية السابقة.

٢ ي: عطف.

٣ سورة البقرة، ٩٣/٢.

٤ ي: وبهذا.

٥ انظر القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٤/١؛ واللباب لابن عادل، ٣٢٥/٢. وبعضه في جامع البيان للطبري، ٣١٣/٢-٣١٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٢٨/١.

٦ ط س: إليه.

٧ انظر القول في اللباب لابن عادل، ٣٢٥/٢. وبعضه في جامع البيان للطبري، ٣١٥/٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٢٨/١.

٨ قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢١٩/٢.

﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ إغواءً وإضلالًا. والجملة في محلّ النصب على الحاليّة مِن ضمير ﴿كَفَرُوا﴾، أو مِن ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾، فإنّ ما في ﴿لَٰكِنَّ﴾ مِن رائحة الفعل كافٍ في العمل في الحال، أو في محلّ الرفع على أنّه خبر ثانٍ لـ﴿لَٰكِنَّ﴾، أو بدل مِن الخبر الأوّل، وصيغة الاستقبال للدلالة على استمرار التعليم وتجدّده، أو جملة مستأنَفة. هذا على تقدير كون الضمير لـ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾، وأمّا على تقدير رجوعه إلى فاعل ﴿ٱتَّبَعُوا﴾، فهي إمّا حال منه، وإمّا استئنافيّة فحَسْب.

واعلم أنّ السِّحر أنواع:

منها سِحر الكَلدانيّين الذين كانوا في قديم الدهر، وهم قوم يعبدون الكواكب، ويزعُمون أنّها هي المدبِّرة لهذا العالَم، ومنها تصدر الخيرات والشرور والسعادة والنحوسة، ويستحدثون الخوارق بواسطة تمزيج القُوى السماويّة بالقُوى الأرضيّة، وهم الذين بعث الله تعالى إبراهيم عليه السلام لإبطال مقالتهم. وهُمْ ثلاث فِرقٍ: ففرقة منهم يزعمون أنّ الأفلاك والنجوم واجبة الوجود لذواتها، وهم الصابئة؛ وفِرقة يقولون بإلهيّة الأفلاك، ويتّخذون لكلّ واحد منها هيكلًا، ويشتغلون بخدمتها، وهم عَبَدة الأوثان؛ وفِرقة أثبتوا للأفلاك وللكواكب[1] فاعلًا مختارًا، لكنّهم قالوا: إنّه أعطاها قوّةً عاليةً نافذةً في هذا العالم وفوّض تدبيره إليها.

ومنها سِحر أصحاب الأوهام والنفوس القويّة، فإنّهم يزعمون أنّ الإنسان تبلغ رُوحه بالتصفية في القوّة والتأثير إلى حيث يَقدِر على الإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة وتغيير البنية والشكل.

ومنها سِحر مَن يستعين بالأرواح الأرضيّة، وهو المسمّى بالعزائم وتسخيرِ الجنّ.

ومنها التخييلات الآخذة بالعيون، وتُسمّى الشَّعْوذة.[2]

---

١ ط: والكواكب.

٢ ما أورده مِن أنواع السحر مذكور مع أنواع أخرى بتوسُّع فيها في تفسير الرازي، ٣/٢٢٣-٢٢٩، وهي ملخَّصة عنه في اللباب لابن عادل، ٢/٣٣٠-٣٣١، بلفظ قريب ممّا جاء ههنا.

ولا خلاف بين[١] الأمّة[٢] في أنّ مَن اعتقد الأوّل فقد كفَرَ، وكذا مَن اعتقد الثاني، وهو سِحر أصحاب الأوهام والنفوس القويّة. وأمّا مَن اعتقد أنّ الإنسان يبلُغ بالتصفية وقراءة العزائم والرقى إلى حيث يخلُق الله سبحانه وتعالى[٣] عَقيبَ ذلك على سبيل جرَيان العادة بعضَ الخوارق، فالمعتزلة اتّفقوا على أنّه كافر؛ لأنّه لا يُمكنه بهذا الاعتقاد معرفة صدق الأنبياء والرسل، بخلاف غيرهم.[٤]

ولعلّ التحقيق أنّ ذلك الإنسان إن كان خيّرًا متشرّعًا في كلّ ما يأتي ويذَر، وكان مَن يستعين به مِن الأرواح الخيّرة، وكانت عزائمه ورُقاه غيرَ مخالِفة لأحكام الشريعة الشريفة، ولم يكن فيما ظهر في يده مِن الخوارق ضررٌ شرعيٌّ لأحد، فليس ذلك[٥] مِن قبيل السحر. وإن كان شِرّيرًا غيرَ متمسِّك بالشريعة الشريفة، فظاهر أنّ مَن يستعين به مِن الأرواح الخبيثة الشريرة لا مَحالةَ، ضرورةَ امتناع تحقّق التضامّ والتعاون بينهما مِن غير اشتراك في الخُبث والشرارة، فيكون[٦] كافرًا قطعًا.

وأمّا الشَّعْوذة وما يجري مَجراها مِن إظهار الأمور العجيبة بواسطة ترتيب الآلات الهندسيّة وخِفّةِ اليد والاستعانة بخواصّ الأدوِية[٧] والأحجار، فإطلاق السحر عليها بطريق التجوّز، أو لِما فيها مِن الدِّقة؛ لأنّه في الأصل عبارة عن كلّ ما لَطُف مأخذُه وخفي سببُه، أو مِن الصَّرف عن الجهة المعتادة لِما أنّه في أصل اللغة الصرف، على ما حكاه الأزهري[٨] عن الفرّاء ويونس.[٩]

---

[١] ي - بين.

[٢] ي: بالأمّة.

[٣] س - وتعالى.

[٤] انظر: تفسير الرازي، ٣/٢٣٢؛ واللباب لابن عادل، ٢/٣٣٥.

[٥] السياق: إن كان خيّرًا... فليس ذلك...

[٦] السياق: إن كان شِرّيرًا... فيكون...

[٧] ط: الأدعية.

[٨] هو محمّد بن أحمد بن الأزهر الهروي الشافعي، أبو منصور الأزهري (ت. ٣٧٠هـ/٩٨١م). أحد الأئمّة في اللغة والأدب. مولده ووفاته في هَراة بخراسان. نسبته إلى جدّه الأزهر. عُني بالفقه، فاشتهر به أوّلًا، ثمّ غلب عليه التبحّر في العربيّة، وصار رأسًا فيها. أخذ عن الربيع بن سليمان ونفطويه وابن السرّاج. مِن أشهر كتبه: تهذيب اللغة، والزاهر في غريب ألفاظ الإمام الشافعي. انظر: بغية الوعاة للسيوطي، ١/١٩؛ والأعلام للزركلي، ٥/٣١١.

[٩] انظر: تهذيب اللغة للأزهري، ٤/١٧٠ «سحر». | هو يونس بن حبيب الضَّبي بالولاء، أبو عبد الرحمن (ت. ١٨٢هـ/٧٩٨م). وهو مِن قرية جَبُل على دِجلة بين بغداد وواسِط، أعجميُّ الأصل. إمام في النحو واللغة، وهو مِن أصحاب أبي عمرو بن العَلاء، سمع مِن العرب. أخذ عنه سيبويه والكسائي والفرّاء وغيرهم. انظر: بغية الوعاة للسيوطي، ٢/٣٦٥؛ والأعلام للزركلي، ٨/٢٦١.

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلسِّحْرَ﴾، أي: ويعلِّمونهم ما أُنزلَ عليهما، والمراد بهما واحد، والعطف لتغايُر الاعتبار، أو هو نوع أقوى منه، أو على ﴿مَا تَتْلُوا﴾، وما بينهما اعتراض، أي: واتّبعوا ما أُنزلَ... إلخ، وهما مَلَكان أُنزلَا لتعليم السحر ابتلاءً مِن الله تعالى[1] للناس، كما ابتُلي قوم طالوت بالنهر، أو تمييزًا بينه وبين المعجزة لئلّا يَغترَّ به الناس، أو لأنّ السَّحَرة كثُرت في ذلك الزمان، واستنبطت أبوابًا غريبةً مِن السحر، وكانوا يدّعون النبوّة، فبعث الله تعالى هذين المَلَكين ليعلِّما الناس أبواب السحر حتّى يتمكّنوا مِن معارضة أولئك الكذّابين وإظهارِ أمرهم على الناس.

وأمّا ما يُحكى مِن أنّ الملائكة عليهم السلام لمّا رأَوا ما يَصعَد مِن ذنوب بني آدم عيَّروهم، وقالوا لله سبحانه وتعالى:[2] «هؤلاء الذين اخترتَهم لخلافة الأرض يَعصُونك فيها»،[3] فقال عزّ وجلّ: «لو ركّبتُ فيكم ما ركّبتُ فيهم لَعصَيتموني»، قالوا: «سبحانك ما ينبغي لنا أن نَعصِيَك»، قال تعالى: «فاختاروا مِن خِياركم مَلَكَين»، فاختاروا هاروت وماروت، وكانا مِن أصلحهم وأعبدهم، فأُهبِطا إلى الأرض بعد ما رُكّب فيهما ما رُكّب في البشر مِن الشهوة وغيرها مِن القوى ليَقضيا بين الناس نهارًا ويعرُجا إلى السماء مساءً، وقد نُهِيا عن الإشراك والقتل[4] بغير الحقّ وشُرْب الخمر والزنا، وكانا يقضيان بينهم نهارًا، فإذا أمسَيَا ذكرَا اسمَ الله الأعظم، فصَعِدا إلى السماء؛ فاختصمتْ إليهما ذاتَ يوم امرأةٌ مِن أجمل النساء تُسمّى[5] زهرة، وكانت مِن لَخْم،[6] وقيل: كانت مِن أهل فارس مَلِكة في بلدها، وكانت خصومتها مع زوجها، فلمّا رأياها افتُتِنا بها، فراوَداها عن نفسها، فأبتْ، فألحّا عليها فقالت: «لا، إلّا أن تقضيا لي على خصمي»، ففعلَا، ثمّ سألاها ما سألا، فقالت:

---

[1] س ي – تعالى.

[2] ط ي – وتعالى.

[3] ي – فيها.

[4] ي: وقتل النفس.

[5] ي: سميت.

[6] هم بنو لَخْم بن عَديّ بن الحارث بن مرّة بن أُدد بن زيد بن يشجُب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ. وكان للخميّين مُلك بالحِيرة مِن العراق في المناذرة ملوك الحِيرة نيابةً عن الأكاسرة، كانت دولتهم مِن أعظم دول العرب. وأوّل ملك منهم عمرو بن عَديّ وآخرهم المُنذِر بن النعمان بن المُنذِر. انظر: **جمهرة أنساب العرب** لابن حزم، ص ٤٨٥؛ **وقلائد الجمان** للقلقشندي، ص ٦٩.

«لا، إلّا أن تقتلاه»»، ففعلَا، ثمّ سألاها ما سألا، فقالت: «لا، إلّا أن تشربا الخمر وتسجُدَا للصَّنَم»»، ففعلَا كلًّا مِن ذلك بعد اللّتيّا والتي،[1] ثمّ سألاها ما سألا، فقالت: «لا، إلّا أن تعلِّماني ما تَصعَدان به إلى السماء»»، فعلَّماها الاسم[2] الأعظم، فدعتْ به وصعِدت إلى السماء، فمسخها الله سبحانه / كوكبًا، فهمّا بالعُروج حسب عادتهما، [٤٦و] فلم تُطِعْهما أجنِحتهما، فعلِما ما حلّ بهما، وكانا[3] في عهد إدريس عليه السلام، فالتجئا إليه ليشفَعَ لهما، ففعل، فخيّرهما الله تعالى بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا الأوّل لانقطاعه عمّا قليل، فهما معذَّبان ببابل، قيل: معلَّقان بشعورهما، وقيل: مَنكوسان يُضرَبان بسياط الحديد إلى قيام الساعة،[4] فممّا لا تعويلَ عليه[5] لِما أنّ مداره رواية اليهود، مع ما فيه مِن المخالفة لأدلّة العقل والنقل. ولعلّه مِن مقولة الأمثال والرُّموز التي قُصد بها إرشاد اللبيب الأريب بالترغيب والترهيب.[6]

وقيل: هما رجلان سُمّيا مَلَكَين لصلاحهما. ويعضُده قراءة "المَلِكَيْنِ"[7] بالكسر.

﴿بِبَابِلَ﴾ "الباء" بمعنى "في"، وهي متعلِّقة بـ﴿أُنزِلَ﴾، أو بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿ٱلْمَلَكَيْنِ﴾، أو مِن الضمير في ﴿أُنزِلَ﴾. وهي بابِلُ العراق. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «بابِل: أرض الكوفة». وقيل: «جبل دُماوَنْد».[8] ومُنع الصرف للعُجمة والعَلَميّة، أو للتأنيث والعَلَميّة.

﴿هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ عطفًا[9] بيانٍ لـ﴿ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ عَلَمانِ لهما، ومُنع صرفهما للعُجمة والعَلَمية. ولو كانا مِن "الهَرْت" و"المَرْت" بمعنى الكسر، لَانصرفا.

---

١ هما الداهية الكبيرة والصغيرة. **مجمع الأمثال** للميداني، ٩٢/١.

٢ ي: بالاسم.

٣ س ي: وكان.

٤ الحكاية بلفظ قريب في **معالم التنزيل** للبغوي، ١٣٠/١-١٣١.

٥ السياق: وأمّا ما يُحكى... فممّا لا تعويل عليه...

٦ انظر الحكاية والردّ عليها بأوسع ممّا ذُكِر هنا في **تفسير الرازي**، ٢٣٧/٣-٢٣٨؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٢٤/١-١٢٥.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس والحسن والضحّاك والزهري وعبد الرحمن بن أبزي وقتيبة البربري وابن إبراهيم ويعلى بن حكيم عن مكّي. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٦؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٧١.

٨ القولان في **معالم التنزيل** للبغوي، ١٢٩/١. | ودُماوَنْد: فيها لغتان هما: دَباوَنْد ودُناوَنْد: جبل قُرب الرَّيّ، وكورة مِن كور الرَّيّ، بينها وبين طبرستان، وفي وسط هذه الكورة جبل عالٍ جدًّا ومستدير كأنّه قُبّة. انظر: **معجم البلدان** للحمَوي، ٤٣٦/٢، ٤٦٢.

٩ ط: عطف.

وأمّا مَن قرأ: "المَلِكَيْنِ" بكسر اللام،[١] أو قال: كانا رَجلين صالحَين، فقال: هما اسمان لهما. وقيل: هما اسمَا قبيلتين مِن الجنّ، هما المراد مِن "المَلِكَينِ" بالكسر. وقُرئ بالرفع،[٢] على: هما هاروت وماروت.

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾ ﴿مِنْ﴾ مزيدة في المفعول به لإفادة تأكيد الاستغراق الذي يفيده ﴿أَحَدٍ﴾، لا لإفادة نفس الاستغراق كما في قولك: "ما جاءني مِن رجُل". وقُرئ: "يُعْلِمَانِ"[٣] مِن الإعلام. ﴿حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ الفتنة: الاختبار والامتحان. وإفرادها مع تعدّدهما لكونها مصدرًا. وحَمْلها عليهما مواطأة للمبالغة، كأنّهما نفس الفتنة. والقَصر لبيانِ أنّه ليس لهما فيما يَتعاطَيانِه شأنٌ سِواها لينصرف الناس عن تعلّمه، أي: وما يعلِّمان ما أُنزلَ عليهما مِن السحر أحدًا مِن طالبِيه حتّى ينصَحاه قبل التعليم، ويقولا له: إنّما نحن فتنةٌ وابتلاءٌ مِن الله عزّ وجلّ، فمَن عَمِل بما تعلَّم منّا واعتقد حقّيّته كَفَر، ومَن تَوقَّى عن العمل به أو اتّخذه ذريعةً للاتّقاء عن الاغترار بمِثله بقِيَ على الإيمان.

﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ باعتقاد حقّيّته وجواز العمل به. والظاهر أنّ غاية النفي ليست هذه المقالةَ فقط؛ بل مِن جملتها التزام المخاطَب بمُوجَب النهي، لكن لم يذكَر لظهوره وكون الكلام في بيان اعتناء[٤] المَلَكين بشأن النصح والإرشاد.

والجملة في محلّ النصب على الحاليّة مِن ضمير ﴿يُعَلِّمُونَ﴾، لا معطوفةٌ عليه كما قيل،[٥] أي: ولكنّ الشياطينَ كفروا[٦] يعلِّمون الناس ما أُنزلَ على المَلَكين، ويَحمِلونهم على العمل به إغواءً وإضلالًا، والحال أنّهما ما يعلِّمان أحدًا حتّى ينهياه[٧] عن العمل به والكفر بسببه.

---

١ مضى تخريجها آنفًا.

٢ أي: "هَارُوتُ وَمَارُوتُ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري والشيزري عن أبي جعفر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٧١.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن مصرِّف. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٧١.

٤ ي: اعتقاد.

٥ انظر: الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢/٣٣؛ واللباب لابن عادل، ٢/٣٢٣.

٦ ط س - كفروا.

٧ ي: نهياه.

وأمّا ما قيل مِن أنّ ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ﴾... إلخ نافيةٌ، والجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ﴾، جِيءَ بها[1] لتكذيب اليهود في القصّة، أي: لم ينزَّل على المَلَكين إباحةُ السحر،[2] وأنّ ﴿هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ بدل مِن ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ على أنّهما قبيلتان مِن الجنّ،[3] خُصّتا[4] بالذِّكر لأصالتهما وكون باقي الشياطين أتباعًا لهما، وأنّ المعنى: ما يعلِّمان أحدًا حتّى يقولا: إنّما نحن فتنة، فلا تكفر، فتكونَ مِثلَنا، فيأباه[5] أنّ مقام وصف الشياطين بالكفر وإضلال الناس ممّا لا يُلائمه وصف رؤسائهم بما ذُكر مِن النهي عن الكفر، مع ما فيه مِن الإخلال بنظام الكلام، فإنّ الإبدال في حُكم تنحية المُبدَل منه.

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا﴾ عطفٌ على الجملة المنفيّة، فإنّها في قوّة المثبَتة، كأنّه قيل: يعلِّمانهم بعد قولهما:[6] ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ﴾... إلخ، والضمير لـ﴿أَحَدٍ﴾ حملًا على المعنى، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة، ٦٩/٤٧]. ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ﴾ أي: بسببه وباستعماله. ﴿بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ﴾ وقُرئ بضمّ الميم وكسرِها مع الهمزة،[7] وبتشديد الراء بلا همزة.[8] ﴿وَزَوۡجِهِۦ﴾ بأن يُحدِث الله تعالى بينهما التباغض والفِرْك[9] والنُّشوزَ عندما فعلوا ما فعلوا مِن السحر على حسب جَري العادة الإلهيّة مِن خلق المسبَّبات عقيبَ حصول الأسباب العاديّة ابتلاءً؛ لا أنّ السحر هو المؤثِّر في ذلك. وقيل: فيتعلّمون منهما ما يعملون به، فيراه الناس ويعتقدون أنّه حقّ، فيكفرون، فتَبينُ أزواجهم.

﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ﴾ أي: بما تعلّموه واستعملوه مِن السحر. ﴿مِنۡ أَحَدٍ﴾ أي: أحدًا. و﴿مِنۡ﴾ مزيدة لِما ذُكر في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ﴾.[10]

---

١ ي: به.
٢ القول في التبيان للعُكبري، ١/٩٩؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢/٣١.
٣ انظر: التبيان للعُكبري، ١/٩٩.
٤ ط س: خصّا.
٥ السياق: وأمّا ما قيل... فيأباه...
٦ ي: قوليهما.
٧ قراءتان شاذّتان: ضمُّ الميم مرويّ عن ابن مجاهد عن أبي إسحاق، وكسرُ الميم مرويّ عن الحسن وقتادة والأشهب العُقيلي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٧٢.
٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري وقتادة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٧١.
٩ الفِرك: البِغضة. لسان العرب لابن منظور، «فرك».
١٠ وفي هامش ي: فحينئذ لإفادة تأكيد الاستغراق. «منه».

والمعهود، وإنْ كان زيادتَها في معمول فعل منفيّ، إلّا أنّه حُملت الاسميّة في ذلك على الفعليّة، كأنّه قيل: وما يضرُّون به مِن أحد ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّه وغيرَه مِن الأسباب بمَعزِل مِن التأثير بالذات، وإنّما هو بأمره تعالى، فقد يُحدِث عند استعمالهم السحرَ فعلًا مِن أفعاله ابتلاءً، وقد لا يُحدِثه.

والاستثناء مفرَّغ. و"الباء" متعلِّقة بمحذوف وقع حالًا مِن ضمير ﴿ضَآرِّينَ﴾، أو مِن مفعوله وإن كان نكرةً لاعتمادها على النفي أو الضمير المجرورِ في ﴿بِهِۦ﴾، أي: وما يضرُّون به أحدًا إلّا مقرونًا بإذن الله تعالى. وقُرِئ: "بِضَارِّي"[1] على الإضافة بجَعْل الجارّ جزءًا مِن المجرور وفصلِ ما بين المضافَين بالظرف.

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ﴾ لأنّهم يقصدون به العملَ، أو لأنّ العلم يجرّ إلى العمل غالبًا. ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ صرّح بذلك إيذانًا بأنّه ليس مِن الأمور المَشوبة بالنفع والضرر؛ بل هو شرّ بَحْت وضَرَر مَحْض؛ لأنّهم لا يقصدون به التخلّص عن الاغترار بأكاذيبِ مَن يدّعي / النبوّة مثلًا مِن السَّحَرة أو تخليصَ الناس منه حتّى يكونَ فيه نفع في الجملة. وفيه أنّ الاجتناب عمّا لا يُؤمَن غوائله خيرٌ، كتعلّم الفلسفة التي لا يُؤمَن أنِ تجُرَّ إلى الغواية، وإن قال مَن قال: [٤٦ظ]

عرفتُ الشرَّ لا للشرِّ ... لكنْ لتَوقِّيهِ
ومَن لا يَعرِف الشرَّ ... مِن الناسِ يقَعْ فيهِ[2]

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ أي: اليهود الذين حُكيت جناياتهم. ﴿لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ أي: استبدل ما تتلو الشياطين بكتاب الله عزّ وجلّ. و"اللام" الأُولى جوابُ قَسم محذوف، والثانية لام ابتداء، عُلّق به ﴿عَلِمُوا﴾ عن العمل. و﴿مَنِ﴾ موصولة، في حيّز الرفع بالابتداء، و﴿ٱشْتَرَىٰهُ﴾ صلتها. وقوله تعالى:[3] ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ أي: مِن نصيب، جملةٌ مِن مبتدأ وخبر، و﴿مِنْ﴾ مزيدة في المبتدأ،

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٧٢.
[2] البيتان لأبي فراس الحمداني في ديوانه، ٢/٤٣١.
[3] ط – تعالى.

و﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ متعلّق بمحذوف وقع حالًا منه، ولو أُخّر عنه لَكان صفةً له، والتقدير: ما له خَلَاق في الآخرة، وهذه الجملة في محلّ الرفع على أنّها[1] خبر للموصول. والجملة في حيّز النصب، سادّة[2] مَسدَّ مفعولَي ﴿عَلِمُوا﴾ إن جُعل متعدّيًا إلى اثنين، أو مفعولِه الواحد إن جُعل متعدّيًا إلى واحد؛ فجملة ﴿وَلَقَدۡ عَلِمُوا﴾... إلخ مُقسَمٌ عليها، دون جملة ﴿لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ﴾... إلخ.

هذا ما عليه الجمهور، وهو مذهب سيبويه.[3] وقال الفرّاء وتبِعَه أبو البقاء: إنّ اللام الأخيرة مُوطِّئة للقَسم، و﴿مَنۡ﴾ شرطيّة مرفوعة بالابتداء، و﴿ٱشۡتَرَىٰهُ﴾ خبرُها، و﴿مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ﴾ جوابُ القَسم، وجواب الشرط محذوف اكتفاءً عنه بجواب القسم؛ لأنّه إذا اجتمع الشرط والقسم، يُجاب سابقهما غالبًا، فحينئذ تكون الجملتان مُقسَمًا عليهما.[4]

﴿وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ﴾ أي: باعوها. و"اللام" جواب قَسم محذوف، والمخصوص بالذمّ محذوف، أي: وبالله لبئسما باعوا به أنفسَهم السحرُ أو الكفرُ. وفيه إيذان بأنّهم حيث نبذوا كتاب الله وراءَ ظهورهم، فقد عرَّضوا أنفسهم للهَلَكة، وباعوها بما لا يَزيدهم إلّا تَبارًا. وتجويز كون الشراء بمعنى الاشتراء ممّا لا سبيل إليه؛ لأنّ المشترَى متعيّن، وهو ما تتلو الشياطين، ولأنّ متعلَّق الذمّ هو المأخوذ، لا المنبوذ، كما أُشيرَ إليه في تفسير قوله سبحانه: ﴿بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة، ٢/٩٠].

﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ أي: يعملون[5] بعلمهم، جُعلوا غيرَ عالمين لعدم عملهم بمُوجَب علمهم، أو لو كانوا يتفكّرون فيه، أو يعلمون قُبحه على اليقين، أو حقيقةَ ما يتبَعه مِن العذاب، على أنّ المثبَت لهم أوّلًا على التوكيد القسميّ العقل الغَريزيُّ أو العلم الإجماليُّ بقُبح الفعل أو ترتّبِ العقاب مِن غير تحقيق. وجواب ﴿لَوۡ﴾ محذوف، أي: لَما فعلوا ما فعلوا.

---

[1] ي: أنّه.

[2] ط ي: سادّ.

[3] انظر: كتاب سيبويه، ١/٢٣٧.

[4] انظر: معاني القرآن للفرّاء، ١/٦٥-٦٨؛ والتبيان للعُكبري، ١/١٠١.

[5] ي: يعلمون.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟﴾ أي: بالرسول المُومَأ إليه في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾... إلخ،[١] أو بما أُنزلَ إليه مِن الآيات المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾،[٢] أو بالتوراة التي أُريدت بقوله تعالى: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾،[٣] فإنّ الكفر بالقرآن والرسول عليه السلام كفرٌ بها. ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ المعاصيَ المَحكيّة عنهم.

﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ جواب ﴿لَوْ﴾،[٤] وأصله: لَأُثيبوا مَثوبةً مِن عند الله خيرًا ممّا شرَوْا به أنفسَهم، فحُذف الفعل وغُيّر السَّبك إلى ما عليه النظم الكريم دلالةً على ثبات المَثوبة لهم والجزمِ بخيريّتها. وحُذف المفضَّل عليه إجلالًا للمفضَّل مِن أن يُنسَب إليه. وتنكير "المَثوبة" للتقليل. و﴿مِنْ﴾ متعلِّقة بمحذوفٍ وقع صفةً تشريفيّةً لـ﴿مَثُوبَةٌ﴾، أي: لَشيء ما مِن المَثوبة الكائنة[٥] مِن عنده تعالى خيرٌ.

وقيل: جواب ﴿لَوْ﴾ محذوف، أي: لَأُثيبوا، وما بعده جملة مستأنَفة، فإنّ وقوع الجملة الابتدائيّة جوابًا لـ﴿لَوْ﴾ غيرُ معهود في كلام العرب. وقيل: ﴿لَوْ﴾ للتمنّي، ومعناه: أنّهم مِن فظاعة الحال بحيث يتمنّى العارف إيمانهم واتّقاءهم تلهّفًا عليهم.

وقُرئ: "لَمَثْوَبَةٌ".[٦] وإنّما سُمّي الجزاء ثوابًا ومَثوبةً؛ لأنّ المحسِن يَثوب إليه.

﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أنّ ثواب الله خير. نُسبوا إلى الجهل لعدم العمل بموجَب العلم.

---

١ البقرة، ١٠١/٢.

٢ البقرة، ٩٩/٢.

٣ البقرة، ١٠١/٢.

٤ وفي هامش س: وفيه إشارة إلى أنّ الإيمان والتقوى كافيان في الإثابة. «منه».

٥ ط ي: كائنة.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة وأبي السَّمّال. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٧٢.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ خطاب للمؤمنين، فيه[1] إرشاد لهم إلى الخير، وإشارة إلى بعضٍ آخرَ مِن جنايات اليهود. ﴿لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا﴾ المراعاة: المبالغة في الرعي، وهو حِفظ الغير وتدبير أموره وتدارُك مصالحه.

وكان المسلمون إذا ألقى عليهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم شيئًا مِن العلم يقولون: «راعِنا يا رسول الله»[2] -أي: راقِبنا وانتظِرنا وتأنَّ بنا حتّى نفهمَ كلامك ونحفظَه- وكانت لليهود كلمة عبرانيّة أو سريانيّة يتسابُّون بها فيما بينهم وهي "راعينا" -قيل: معناها: اسمعْ لا سمِعْتَ- فلمّا سمعوا بقول المؤمنين ذلك، افترصوه[3] واتّخذوه ذريعةً إلى مقصدهم، فجعلوا يخاطِبون به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، يَعنُون به تلك المَسبّة أو نسبتَه عليه الصلاة السلام إلى الرَّعَن، وهو الحُمَق والهَوَج.[4] رُوي أنّ سعد بن عبادة رضي الله عنه سمعها منهم فقال: «يا أعداءَ الله، عليكم لعنةُ الله، والذي نفسي بيده لئن سمعتُها مِن رجل منكم يقولها لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، لَأضربِنَّ عُنقَه»، قالوا: «أوَلستم تقولونها؟»، فنزلت الآية.[5]

ونُهي فيها المؤمنون عن ذلك قطعًا لألسنة اليهود عن التدليس، وأُمروا بما في معناها،[6] ولا يَقبَل التلبيس، فقيل: ﴿وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا﴾ أي: انظر إلينا، بالحذف والإيصال، أو انتظِرْنا، على أنّه مِن "نظَرَه" إذا انتظره. وقُرئ: "أَنْظِرْنَا"[7] مِن النَّظِرة، أي: أمهِلْنا حتّى نحفظَ. وقُرئ: "رَاعُونَا"[8] على صيغة الجمع للتوقير،

---

[1] ي – فيه.

[2] انظر: معالم التنزيل للبغوي، ١/١٣٢.

[3] افترصوه: انتهزوه وعدُّوه ذلك فُرصةً. لسان العرب لابن منظور، «فرص».

[4] انظر: الكشّاف للزمخشري، ١/١٣٤.

[5] هو بلفظ قريب في أسباب النزول للواحدي، ص ٣٦-٣٧؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١/١٣٢؛ والكشّاف للزمخشري، ١/١٣٤، وفي مطبوعَي الأخيرَين «سعد بن معاذ» مكانَ «سعد بن عبادة».

[6] ط: معناه.

[7] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش وكِرداب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٧٢؛ المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ٤٥٠.

[8] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وأُبيّ وأبي صالح وزرّ بن حُبيش وجرير عن الأعمش. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٧٢؛ المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ٤٤٩-٤٥٠.

و"رَاعِنًا"[١] على صيغة الفاعل، أي: قولًا ذا رَعَنٍ، كـ"دَارِع" و"لَابِن"؛ لأنّه لمّا أشبَه قولهم: "راعينا" وكان سببًا للسبّ بالرَّعَن، اتّصف به.

﴿وَٱسْمَعُوا﴾ وأَحسِنوا سَماع ما يكلِّمكم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ويُلقي عليكم مِن المسائل بآذان واعية وأذهانٍ حاضرةٍ حتّى / لا تحتاجوا إلى الاستعادة [٤٧و] وطلب المراعاة، أو واسمَعوا ما كُلِّفتموه مِن النهي والأمر بجِدٍّ واعتناءٍ حتّى لا تَرجِعوا إلى ما نُهيتم عنه، أو واسمَعوا سماعَ طاعةٍ وقَبول، ولا يكنْ سماعُكم مثلَ سماع اليهود حيث قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة، ٩٣/٢؛ النساء، ٤٦/٤].

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: اليهود الذين توسَّلوا بقولكم المذكور إلى كُفرِيّاتهم، وجعلوه سببًا للتهاون برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وقالوا له ما قالوا. ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لِما اجترءوا عليه مِن العظيمة. وهو تذييل لِما سبق، فيه وعيد شديد لهم، ونوعُ تحذير للمخاطَبين عمّا نُهُوا عنه.

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الوُدّ: حُبّ الشيء مع تَمنّيه؛ ولذلك يُستعمل في كلّ منهما، ونفيُه كناية عن الكراهة. ووضع الموصول مَوضعَ الضمير للإشعار بعلّيّة ما في حيّز الصلة لعدم وُدّهم. ولعلّ تعلُّقَه بما قبله مِن حيث إنّ القول المنهيّ عنه كثيرًا ما كان يقع عند تنزيل الوحيْ المعبَّر عنه في هذه الآية بالخير، فكأنّه أشيرَ إلى أنّ سبب تحريفهم له إلى ما حُكي عنهم لوقوعه في أثناء حصول ما يَكرَهونه مِن تنزيل الخير. وقيل:[٢] كان فريق مِن اليهود يُظهِرون للمؤمنين مَحَبّةً ويزعُمون أنّهم يَوَدُّون لهم الخير، فنزلت تكذيبًا لهم في ذلك.[٣] و﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ للتبيين، كما في قوله عزّ وعَلا: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة، ١/٩٨]. و﴿لَا﴾ مَزيدة لِما ستعرفه.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وحُميد وابن مُحيصِن والأعمش وأبي حَيْوَة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٧٢؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٤٤٩.

٢ س - قيل.

٣ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٦/١.

﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم﴾ في حيّز النصب على أنّه مفعول ﴿يَوَدُّ﴾. وبناء الفعل للمفعول للثقة بتعيّن الفاعل، والتصريح الآتي وقوله تعالى: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ هو القائم مَقامَ فاعله. و﴿مِنْ﴾ مزيدة للاستغراق. والنفي، وإن لم يباشره ظاهرًا، لكنّه منسحِب عليه معنًى. و"الخير": الوحي. وحملُه على ما يعمّه وغيره مِن العلم والنُّصرة كما قيل[1] يأباه وصفُه فيما سيأتي بالاختصاص. وتقديم الظرف عليه -مع أنّ حقّه التأخّر عنه- لإظهار كمال العناية به؛ لأنّه المدار لعدم وُدّهم. و﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ ابتدائيّة. والتعرّض لعنوان الربوبيّة للإشعار بعلّيّته لتنزيل الخير. والإضافة إلى ضمير المخاطَبين لتشريفهم.

وليست كراهتهم لتنزيله على المخاطَبين مِن حيث تعبّدُهم بما فيه وتعريضُهم بذلك لسعادة الدارَين؛ كيف لا، وهم مِن تلك الحيثيّة مِن جملة مَن نُزّل عليهم الخير؛ بل مِن حيث وقوعُ ذلك التنزيل على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وصيغة الجمع للإيذان بأنّ مدار كراهتهم ليس معنًى خاصًّا بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم؛ بل وصف مشترَك بين الكلّ، هو الخُلوّ عن الدراسة عند اليهود وعن الرياسة عند المشركين.

والمعنى: أنّهم يرَون أنفسهم أحقَّ بأن يوحَى إليهم، فيحسُدونكم ويكرهون أن ينزَّل عليكم شيء مِن الوحي؛ أمّا اليهود، فبناءً على أنّهم أهل الكتاب وأبناء الأنبياء الناشئون في مَهابِط الوحي، وأنتم أُمّيّون؛ وأمّا المشركون، فإدلالًا بما كان لهم مِن الجاه والمال، زعمًا منهم أنّ رياسة الرسالة كسائر الرياسات الدنيويّة مَنوطةٌ بالأسباب الظاهرة؛ ولذلك قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف، ٣١/٤٣]. ولمّا كانت اليهود بهذا الداء أشهَرَ -لاسيّما في أثناء ذِكر ابتلائهم به- لم يَلزَم مِن نفي وَدادتهم لِما ذُكر نفيُ وَدادة المشركين له، فزِيدَت كلمة ﴿لَا﴾ لتأكيد النفي.

﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ﴾ جملة ابتدائيّة سِيقت لتقرير ما سبق مِن تنزيل الخير والتنبيه على حكمته وإرغامِ الكارهين له. والمراد بـ﴿رَحْمَتِهِۦ﴾: الوحي، كما

---

[1] انظر: **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٢٦/١-١٢٧.

في قوله سبحانه: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف، ٣٢/٤٣]، عُبّر عنه باعتبار نزوله على المؤمنين بـ"الخير"، وباعتبار إضافته إليه تعالى بـ"الرحمة". قال عليّ رضي الله عنه: «بنُبوّته، خَصَّ بها محمّدًا صلّى الله عليه وسلّم».[١] فالفعل متعدٍّ، وصيغة الافتعال للإنباء عن الاصطفاء، وإيثارُه على "التنزيل" المناسِب للسياق الموافِقِ لقوله تعالى: ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة، ٩٠/٢] لزيادة تشريفه صلّى الله عليه وسلّم وإقناطِهم ممّا علَّقوا به أطماعهم الفارغة. و"الباء" داخلة على المقصور، أي: يُؤتِي رحمته ﴿مَن يَشَآءُ﴾ مِن عباده، ويجعلها مقصورةً عليه لاستحقاقه الذاتيّ الفائض عليه بحسب إرادته عزّ وعَلا تفضّلًا لا تتعدّاه إلى غيره. وقيل: الفعل لازمٌ، و﴿مَن يَشَآءُ﴾ فاعلُه. والضمير العائد إلى ﴿مَن﴾ محذوف على التقديرين.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ تذييل لِما سبق مقرِّرٌ لمضمونه. وفيه إيذان بأنّ إيتاء النبوّة مِن فضله العظيم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ [الإسراء، ٨٧/١٧]، وأنّ حِرمان مَنْ حُرِم ذلك ليس لضيق ساحة فضله؛ بل لمَشيئته الجارية على سَنَن الحكمة البالغة. وتصدير الجملتين بالاسم الجليل للإيذان بفخامة مضمونَيهما وكونِ كلّ منهما مستقلّةً بشأنها، فإنّ الإضمار في الثانية مُنبِئ عن توقّفها على الأولى.[٢]

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ كلام مستأنَف مَسوق لبيان سرّ النسخ الذي هو فرد مِن أفراد تنزيل الوحي وإبطالِ مقالة الطاعنين فيه، إثرَ تحقيق حقيقة الوحي وردِّ كلام الكارهين له رأسًا. قيل: نزلت حين قال المشركون أو اليهود:

---

[١] اللباب لابن عادل، ٣٦٤/٢. وهو بلفظ قريب عن مجاهد والربيع بن أنس في تفسير ابن أبي حاتم، ١٩٩/١؛ وبلا عزو في معالم التنزيل للبغوي، ١٣٣/١.

[٢] ي: الأوّل.

«ألا ترَوْن إلى محمّد عليه السلام يأمُر أصحابه بأمرٍ ثمّ ينهاهم عنه ويأمُر بخلافه».[١] والنَّسخ في اللغة: الإزالة والنقل، يقال: "نسخت الريحُ الأثرَ"، أي: أزالَته، و"نسختُ الكتاب"، أي: نقلته. ونَسْخ الآية: بيان انتهاء التعبّد بقراءتها، أو بالحُكم المستفاد منها، أو بهما جميعًا. وإنساؤها: إذهابها مِن القلوب.

و﴿مَا﴾ شرطيّة جازمة لـ﴿نَنسَخْ﴾ منتصِبة به على المفعوليّة. وقُرئ: "نُنْسِخْ"[٢] مِن أَنسَخَ، أي: نأمرك أو جبريلَ بنَسْخها أو تجدها مَنسوخةً، و"نَنْسَأْهَا"[٣] مِن النَّسْء، أي: نُؤخِّرها، و"نُنَسِّهَا"[٤] بالتشديد، و"تَنْسَهَا"[٥] و"تُنْسَهَا"[٦] على خطاب الرسول صلّى الله عليه وسلّم مبنيًّا للفاعل وللمفعول. وقُرئ: "مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِكْهَا".[٧] وقُرئ: "مَا نُنْسِكَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَنْسَخْهَا".[٨]

والمعنى: أنّ كلّ آيةٍ نَذهَب بها على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة مِن إزالة لفظها أو حُكمها أو كِليهما معًا إلى بدل أو إلى غير بدل ﴿نَأْتِ / بِخَيْرٍ مِّنْهَا﴾ [٤٧ظ] أي: نَوعٍ آخَرَ هو خيرٌ للعباد بحسب الحال في النفع والثواب مِن الذاهبة. وقُرئ بقلب الهمزة ألفًا.[٩] ﴿أَوْ مِثْلِهَا﴾ أي: فيما ذُكر مِن النفع والثواب. وهذا الحُكم غير مختصّ بنسخ الآية التامّة فما فوقها؛ بل جارٍ فيما دونها أيضًا. وتخصيصها بالذِّكر باعتبار الغالب.

والنصّ -كما ترى- دالٌّ على جواز النسخ. كيف لا، وتنزيلُ الآيات التي عليها يدور فَلَك الأحكام الشرعيّة إنّما هو بحسب ما يقتضيه مِن الحِكم والمَصالح،

---

١ انظر: **معالم التنزيل** للبغوي، ١٣٣/١؛ **والكشّاف** للزمخشري، ١٣٥/١؛ **وأنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٢٧/١.

٢ قرأ بها ابن عامر. **النشر** لابن الجزري، ٢١٩/٢.

٣ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. **النشر** لابن الجزري، ٢٢٠/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رجاء. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٧٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعد بن أبي وقّاص. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٧٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن المسيّب وأبي حَيْوَة والضحّاك بن مُزاحِم. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٦؛ **المغني في القراءات** للنّوْزاوازي، ص ٤٥١.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن سالم مولى حذيفة. **المغني في القراءات** للنّوْزاوازي، ص ٤٥٢.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٧٣.

٩ قرأ بها أبو عمرو ونافع في رواية ورش عنه وأبو جعفر. انظر: باب الهمز المفرد في **النشر** لابن الجزري، ٣٩٠/١.

وذلك يختلف باختلاف الأحوال، ويَتبدَّل حسب تبدّل الأشخاص والأعصار كأحوال المَعاش، فرُبَّ حُكمٍ تقتضيه الحكمة في حالٍ تقتضي في حالٍ أخرى نقيضَه، فلو لم يَجُز النسخ لَاختلَّ ما بين الحكمة والأحكام مِن النظام.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ الهمزة للتقرير، كما في قوله سبحانه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر، ٣٦/٣٩] وقولِه تعالى:[1] ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح، ١/٩٤]. والخطاب للنبيّ عليه السلام. وقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ سادّ مَسدَّ مفعولَي ﴿تَعْلَمْ﴾ عند الجمهور، ومَسدَّ مفعوله الأوّل -والثاني محذوف- عند الأخفش.[2] والمراد بهذا التقرير الاستشهاد بعلمه بما ذُكر على قدرته تعالى على النسخ، وعلى الإتيان بما هو خير مِن المنسوخ، وبما هو مِثله؛ لأنّ ذلك مِن جملة الأشياء المقهورة تحت قدرته سبحانه، فمَن عَلِم شمول قدرته تعالى لجميع الأشياء، عَلِم قدرته على ذلك قطعًا. والالتفات بوضع الاسم الجليل مَوضِعَ الضمير لتربية المَهابة والإشعارِ بمَناط الحُكم، فإنّ شمول القدرة لجميع الأشياء مِن أحكام الألوهيّة.

وكذا الحال في قوله عزّ سلطانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ فإنّ عنوان الألوهيّة مدارُ أحكام مَلكوتهما. والجارّ والمجرور خبر مقدَّم، و﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مبتدأ، والجملة خبر لـ﴿أَنَّ﴾. وإيثاره على أن يقال: "إنّ لله مُلك السماوات والأرض" للقصد إلى تَقوّي الحُكم بتكرّر الإسناد. وهو إمّا تكرير للتقرير وإعادةٌ للاستشهاد على ما ذُكر، وإنّما لم يُعطَف ﴿أَنَّ﴾ مع ما في حيّزها على ما سبق مِن مِثلها رَوْمًا لزيادة التأكيد، وإشعارًا باستقلال العلم بكلٍّ منهما وكفايتِه في الوقوف على ما هو المقصود؛ وإمّا تقريرٌ مستقلٌّ للاستشهاد على قدرته تعالى على جميع الأشياء، أي: ألم تعلم أنّ الله له السلطان القاهر والاستيلاء الباهر المستلزِمان للقدرة التامّة على التصرّف الكلّيّ فيهما إيجادًا وإعدامًا وأمرًا ونهيًا حسبما تقتضيه مشيئته،

---

[1] س ي - تعالى.

[2] انظر: الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٦٣/٢؛ واللباب لابن عادل، ٣٨٤/٢.

لا معارِضَ لأمره، ولا معقِّبَ لحُكمه؛[١] فمَن هذا شأنه، كيف يَخرج عن قدرته شيء مِن الأشياء!

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ معطوف على الجملة الواقعة خبرًا لـ﴿أَنَّ﴾، داخلٌ معها[٢] تحت تعلّق العلم المقرَّر. وفيه إشارة إلى تناول الخطابين السابقَين للأمّة أيضًا، وإنّما أفرده[٣] عليه السلام بهما لِما أنّ علومهم مستنِدة إلى علمه عليه السلام. ووضعُ الاسم الجليل موضعَ الضمير الراجع إلى اسم ﴿أَنَّ﴾ لتربية المَهابة والإيذانِ بمقارنة الوَلاية والنُّصرة للقوّة والعزّة.

والمراد به الاستشهاد بما تعلَّق به مِن العلم على تعلّق إرادته تعالى بما ذُكر مِن الإتيان بما هو خير مِن المنسوخ أو بمِثله، فإنّ مجرَّد[٤] قدرته تعالى على ذلك لا يستدعي حصوله البتّةَ، وإنّما الذي يستدعيه كونه تعالى مع ذلك وليًّا ونصيرًا لهم؛ فمَن عَلِم أنّه تعالى[٥] وليُّه ونصيرُه على الاستقلال،[٦] يَعلم قطعًا أنّه لا يَفعل به إلّا ما هو خير له، فيفوِّض أمرَه إليه تعالى، ولا يخطُر بباله رِيبة في أمر النسخ وغيرِه أصلًا. والفرق بين "الوليّ" و"النصير": أنّ الوليّ قد يضعُف عن النُّصرة، والنصير قد يكون أجنبيًّا مِن المنصور.

و﴿مَا﴾ إمّا تميميّة[٧] لا عمَلَ لها، و﴿لَكُم﴾ خبر مقدَّم، و﴿مِن وَلِيٍّ﴾ مبتدأ مؤخَّر زِيدَت فيه كلمة ﴿مِنْ﴾ للاستغراق؛ وإمّا حجازيّة، و﴿لَكُم﴾ خبرها المنصوب عند مَن يُجيز تقديمه، واسمُها ﴿مِن وَلِيٍّ﴾، و﴿مِنْ﴾ مزيدة لِما ذُكر. و﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ في حيّز النصب على الحاليّة مِن اسمها؛ لأنّه في الأصل صفة له، فلمّا قُدّم انتصب حالًا، ومعناه: سِوى الله.

---

١ وفي هامش ي: وهو قدرته تعالى على النسخ وعلى الإتيان بما هو خير مِن المنسوخ وبمِثله. «منه».

٢ ي – معها.

٣ ط س: إفراده.

٤ ي: تجرُّد.

٥ ي – تعالى.

٦ ي: الاستعلاء.

٧ قال إمام الحرمين الجويني في البرهان، ٥٢/١: «إنْ اتّصلت "ما" بالابتداء أو الخبر، فأهل الحجاز يَرون إحلالَها محلَّ "ليس"، فيرفعون بها الاسمَ وينصبون الخبر، وهي لغة القرآن، قال الله عزّ وجلّ: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف، ٣١/١٢]. وبنو تميم لا تُعمل "ما" النافية؛ لأنّها تدخل على الاسم والفعل. وقياس "ما" يدخل على البابين -أعني الاسم والفعل- ألّا يعمل في واحد منهما».

والمعنى: أنّ قضيّة العلم بما ذُكر مِن الأمور الثلاثة هو الجزم والإيقان بأنّه تعالى لا يفعل بهم في أمر مِن أمور دينهم أو دنياهم[١] إلّا ما هو خير لهم، والعملُ بموجَبه مِن الثقة به والتوكّلِ عليه وتفويضِ الأمر إليه مِن غير إصغاء إلى أقاويل الكَفَرة وتشكيكاتِهم التي مِن جملتها ما قالوا في أمر النسخ.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ تجريد للخطاب عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وتخصيص له بالمؤمنين. و﴿أَمْ﴾ منقطِعة، ومعنى "بل" فيها الإضراب والانتقال عن[٢] حملهم على العمل بموجَب علمهم بما ذُكر عند ظهور بعض مَخايل المساهلة منهم في ذلك وأماراتِ التأثّر مِن أقاويل الكَفَرة إلى التحذير مِن ذلك. ومعنى الهمزة إنكار وقوع الإرادة منهم واستبعادُه لِما أنّ قضيّة الإيمان وازعة عنها. وتوجيه الإنكار إلى الإرادة دون متعلَّقها للمبالغة في إنكاره واستبعادِه ببيان أنّه ممّا لا يصدر عن العاقل إرادته فضلًا عن صدور نفسه.

والمعنى: بل أتريدون ﴿أَن تَسْـَٔلُوا﴾ وأنتم مؤمنون ﴿رَسُولَكُمْ﴾ وهو في تلك الرُّتبة مِن عُلوّ الشأن، وتقترحوا عليه ما تشتهون غيرَ واثقين في أموركم بفضل الله تعالى، حسبما توجبه قضيّة علمكم بشئونه سبحانه. قيل: لعلّهم كانوا يطلبون منه عليه السلام بيانَ تفاصيل الحِكم الداعية إلى النسخ. وقيل: سأله عليه السلام قوم مِن المسلمين أن يجعل لهم "ذات أنواط" كما كانت للمشركين، وهي شجرة كانوا يعبدونها ويعلِّقون عليها المأكول والمشروب.[٣]

وقوله تعالى: ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ﴾ مصدر تشبيهيّ، أي: نعتٌ لمصدر مؤكِّد محذوف، و﴿مَا﴾ مصدريّة، أي: سؤالًا مشبَّهًا بسؤال موسى، حيث قيل له: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾ [الأعراف، ١٣٨/٧]، و﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء، ١٥٣/٤]، وغير ذلك.

---

[١] س: ودنياهم.
[٢] ط س: من.
[٣] انظر القول في اللباب لابن عادل، ٣٨٨/٢-٣٨٩.

ومقتضى الظاهر أن يقال: "كما سألوا موسى"؛ لأنّ المشبَّه هو المصدر مِن المبنيّ للفاعل -أعني: سائليّة المخاطَبين- لا مِن المبنيّ للمفعول -أعني: مسئوليّة الرسول عليه السلام- حتّى يشبَّهَ بمسئوليّة موسى عليه السلام، فلعلّه أريدَ التشبيه فيهما معًا، ولكنّه أُوجزَ النظم، فذُكر في جانب المشبَّه السائليّةُ، وفي جانب المشبَّه به المسئوليّةُ، واكتُفي بما ذُكر في كلّ مَوضع عمّا تُرك في / المَوضع الآخر، كما ذُكر في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦ﴾ [يونس، ١٠/١٠٧]. وقد جُوّز أن تكون ﴿مَا﴾ موصولةً على أنّ العائد محذوف، أي: كالسؤال الذي سُئله موسى. [٤٨و]

وقوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلُ﴾ متعلّق بـ﴿سُئِلَ﴾، جِيءَ به للتأكيد. وقُرئ: "سِيلَ"[1] بالياء وكسر السين، وبتسهيل الهمزة بين بين.[2]

﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ﴾ أي: يختَرْه ويأخُذْه لنفسه. ﴿بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ بمقابَلته بدلًا منه. وقُرئ: "وَمَنْ يَبْدِلْ"[3] مِن أبدَلَ. وكان مقتضى الظاهر أن يقال: "ومَن يَفعل ذلك"، أي: السؤالَ المذكور أو إرادته. وحاصله: ومَن يترك الثقة بالآيات البيّنة المنزلة بحسب المَصالح التي مِن جملتها الآياتُ الناسخة التي هي خير محضٌ وحقّ بحتٌ، واقترح غيرَها، ﴿فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: عدَلَ وجارَ مِن حيث لا يَدري عن الطريق المستقيم الموصِلِ إلى مَعالم الحقّ والهدى، وتاهَ في تِيهِ الهوى، وتردَّى في مَهاوي الرَّدَى. وإنّما أُوثرَ على ذلك ما عليه النظم الكريم للتصريح مِن أوّل الأمر بأنّه كُفر وارتداد، وأنّ كونه كذلك أمر واضح غنيٌّ عن الإخبار به بأن يقال: "ومَن يفعل ذلك فقد[4] يكفر"، حقيقٌ بأن يُعدَّ مِن المسلَّمات ويُجعَلَ مقدَّمًا للشرطيّة رَوْمًا للمبالغة في الزجر والإفراط في الردع.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والزهري وأبي السّمّال والشّيزَري عن أبي جعفر وعبد الوارث عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٧٣؛ المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ٤٥٣. وهي غير القراءة المشهورة لأبي جعفر وأبي عمرو.

[2] قراءة شاذّة، ذكرها السمين الحلبي في الدرّ المصون، ٢/٦٥؛ وابن عادل في اللباب، ٢/٣٨٧، ولم ينسباها إلى أحد.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ٤٥٣.

[4] ط س - فقد.

و﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ مِن باب إضافة الوصف إلى الموصوف لقصد المبالغة في بيان قوّة الاتّصاف، كأنّه نفس السواء، على مِنهاج حصول الصورة في الصورة الحاصلة.

وقيل: الخطاب لليهود حين سألوا أن ينزل الله عليهم كتابًا مِن السماء، وقيل: للمشركين حين قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾... إلخ [الإسراء، ٩٠/١٧]؛[١] فإضافة الرسول صلّى الله عليه وسلّم إليهم على القولين باعتبار أنّهم مِن أمّة الدعوة، ومعنى تبدّل الكفر بالإيمان -وهم بمَعزِل مِن الإيمان- تركُ صَرف قدرتهم إليه مع تمكنّهم مِن ذلك، وإيثارُهم للكفر عليه.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هُمْ رَهْط مِن أحبار اليهود. رُوي أنّ فِنحاص بن عازوراءَ وزيد بنَ قيسٍ ونفَرًا مِن اليهود قالوا لحذيفةَ بن اليمان وعمّار بن ياسر بعد وقعة أحُد: «ألم ترَوْا ما أصابكم؟ ولو كنتم على الحقّ ما هُزِمتم، فارجِعوا إلى ديننا، فهو خير لكم وأفضلُ، ونحن أهدَى منكم سبيلًا»، فقال عمّار: «كيف نقضُ العهد فيكم؟»، قالوا: «شديدٌ»، قال:[٢] «فإنّي عاهدتُ ألّا أكفر بمحمّد عليه السلام ما عِشتُ»، فقالت اليهود: «أمّا هذا فقد صَبأ»، وقال حذيفةُ: «أمّا أنا فقد رضيتُ بالله ربًّا وبمحمّد نبيًّا وبالإسلام دينًا وبالقرآن إمامًا وبالكعبة قِبلةً وبالمؤمنين إخوانًا»، ثمّ أتيَا رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم وأخبراه، فقال: «أصبتُما خيرًا وأفلحتُما»، فنزلت.[٣]

﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ حكاية لوَدادتهم. و﴿لَوْ﴾ في معنى التمنّي. وصيغة الغَيْبة كما في قوله: "حلَفَ لَيَفعلنّ". وقيل: هي بمنزلة "أنْ" الناصبةِ،[٤] فلا يكون لها جواب،

---

[١] القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٨/١.

[٢] ط: فقال.

[٣] هو بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ١٣٥/١-١٣٦؛ والكشّاف للزمخشري، ١٣٥/١؛ واللباب لابن عادل، ٣٩٠/١.

[٤] القول في التبيان للعُكبري، ١٠٤/١.

وينسبك منها ومِمّا[1] بعدها مصدرٌ يقع مفعولًا لـ﴿وَدَّ﴾، والتقدير: ودُّوا ردَّكم. وقيل: هي على حقيقتها، وجوابها محذوف، تقديره: لو يردُّونكم كُفّارًا لَسُرُّوا[2] بذلك.[3] ﴿مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ متعلّق بـ﴿يَرُدُّونَكُم﴾. وقوله تعالى: ﴿كُفَّارًا﴾ مفعول ثانٍ له على تضمين الردّ معنى التصيير، أي: يُصيِّرونكم كُفّارًا، كما في قوله:

رمى الحَدَثانُ نِسْوةَ آلِ سَعْدٍ ... بِمِقْدارٍ سَمَدْنَ له سُمُودَا
فرَدَّ شُعورَهنَّ السُّودَ بِيضًا ... ورَدَّ وُجوهَهنَّ البِيضَ سُودَا[4]

وقيل: هو حال مِن مفعوله.[5] والأوّل أدخَلُ لِما فيه مِن الدلالة صريحًا[6] على كون الكفر المفروض بطريق القسر. وإيراد الظرف -مع عدم الحاجة إليه ضرورةَ كون المخاطَبين مؤمنين واستحالةِ تحقّق الردّ إلى الكفر بدون سَبْق الإيمان مع توسيطه بين المفعولَين- لإظهار كمال شناعة ما أرادوه وغايةِ بُعده مِن الوقوع؛ إمّا لزيادة قُبحه الصارف للعاقل عن مباشرته، وإمّا لممانعة الإيمان له، كأنّه قيل: مِن بعد إيمانكم الراسخ. وفيه مِن تثبيت المؤمنين ما لا يخفى.

﴿حَسَدًا﴾ علّة لـ﴿وَدَّ﴾، أو حال أُريدَ به نعتُ الجمع، أي: حاسدين لكم. والحسد: الأسف على مَن له خير بخيره. ﴿مِنۡ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ متعلّق بـ﴿وَدَّ﴾، أي: ودُّوا ذلك مِن أجل تشهّيهم وحظوظ أنفسهم، لا مِن قِبل التديّن والمَيل مع الحقّ، ولو على زعمهم، أو بـ﴿حَسَدًا﴾، أي: حسَدًا منبعِثًا مِن أصل نفوسهم بالغًا أقصى مراتبه. ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ بالمعجزات الساطعة، وبما عاينوا في **التوراة** مِن الدلائل، وعلموا أنّكم متمسّكون به، وهم منهمِكون في الباطل.

﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ﴾ العَفْو: تركُ المؤاخَذة والعقوبة. والصَّفْح: تركُ التثريب والتأنيب. ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ الذي هو قتلُ بني قريظةَ وإجلاءُ بني النضير

---

[1] ط: وما.

[2] ي: لردوا.

[3] القول في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢/٦٦؛ واللباب لابن عادل، ٢/٣٩٠.

[4] هما لعبد الله بن الزَّبير الأسدي في شرح الحماسة للتبريزي، ١/٣٩٠؛ وخزانة الأدب للبغدادي، ٢/٢٦٤. ويُنسبان لآخرين غير عبد الله، وهما في ديوان أيمن بن خُريم الأسدي، ص ٣٠، وتخريجهما وذِكر الاختلاف في نسبتهما ثمّةَ.

[5] القول في التبيان للعُكبري، ١/١٠٤.

[6] ط - صريحًا.

وإذلالُهم بضرب الجِزية عليهم، أو الإذنُ في القتال. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أنّه منسوخ بآية السيف».[١] ولا يقدَح في ذلك ضَرْب الغاية؛ لأنّها لا تُعلَم إلّا شرعًا، ولا يَخرج الوارد بذلك مِن أن يكون ناسخًا، كأنّه قيل: فاعفُوا واصفَحوا إلى ورود الناسخ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فينتقم منهم إذا حانَ حِينُه وآنَ أوانُه. فهو تعليل لِما دلّ عليه ما قبله.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١٠﴾

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ عطفٌ على ﴿فَٱعْفُوا﴾.[٢] أُمروا بالصبر والمداراة واللَّجأ إلى الله تعالى بالعبادة البدنيّة والماليّة. ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ كصلاة أو صدقة أو غير ذلك. أي: أيُّ شيء مِن الخيرات تقدِّموه لمصلحة أنفسكم، ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: تجدوا ثوابه. وقُرئ: "تُقْدِمُوا"[٣] مِن أَقدَم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فلا يَضيع عنده عملٌ، فهو وعد للمؤمنين. وقُرئ بالياء،[٤] فهو وعيد للكافرين.

﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝١١١ بَلَىٰ ۚ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١١٢﴾

﴿وَقَالُواْ﴾ عطفٌ على ﴿وَدَّ﴾.[٥] والضمير لأهل الكتابين جميعًا. ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾ أي: قالت اليهود: «لن يَدخل الجنّة إلّا مَن كان هُودًا»،

---

[١] انظر: جامع البيان للطبري، ٢/٤٢٤؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ١/٢٠٦؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١/١٣٨. | وآية السيف هي: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة، ٩/٥].

[٢] في الآية السابقة.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٧٣.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٧٣.

[٥] البقرة، ٢/١٠٩.

والنصارى: «لن يَدخل الجنّة إلّا / مَن كان نصارى»، فلفّ بين القولين ثقةً بأنّ [٤٨ظ] السامع يردّ كلًّا منهما إلى قائله. ونحوه: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾ [البقرة، ٢/١٣٥]. وليس مرادهم بأولئك مَن أقام اليهوديّة والنصرانيّة قبل النسخ والتحريف على وجهها؛ بل أنفسهم على ما هم عليه؛ لأنّهم إنّما يقولونه لإضلال المؤمنين وردِّهم إلى الكفر. والهُود: جَمْع "هائِد"، كـ"عُود" جمعِ "عائد"، و"بُزْل" جمعِ "بازِل". والإفراد في ﴿كَانَ﴾ باعتبار لفظ ﴿مَنْ﴾، والجمع في خبره باعتبار معناه. وقُرِئ: "إِلَّا مَنْ كَانَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا".[١]

﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ الأمانيّ: جمع "أُمنيّة"، وهي[٢] ما يُتمنّى، كـ"الأُعجُوبة" و"الأُضحُوكة".[٣] والجملة[٤] معترِضة مبيِّنة لبُطلان ما قالوا، و﴿تِلْكَ﴾ إشارة إليه،[٥] والجمع باعتبار صدوره عن الجميع.[٦] وقيل: فيه حذفُ مضاف، أي: أمثال تلك الأُمنيّة أمانيُّهم.[٧] وقيل: ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إليه، وإلى ما قبله مِن ألّا ينزَّل على المؤمنين خير مِن ربّهم، وأن يَردُّوهم كفّارًا؛ ويردّه قوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ فإنّهما ليسا ممّا يُطلَب له البرهان، ولا ممّا يَحتمل الصدق والكذب. قيل: ﴿هَاتُوا﴾ أصله: "آتُوا"، قُلِبت الهمزة هاءً، أي: أَحضِروا حُجّتكم على اختصاصكم بدخول الجنّة إن كنتم صادقين في دعواكم.

هذا ما يقتضيه المقام بحسب النظر الجليل. والذي يستدعيه إعجاز التنزيل أن يُحمَل الأمر التبكيتيّ على طلب البرهان على أصل الدخول الذي يتضمّنه دعوى الاختصاص به؛ فإنّ قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾... إلخ إثباتٌ مِن جهته تعالى لِما نفَوْه مستلزِمٌ لنفي ما أثبتوه. وإذ ليس الثابت به مجرَّدَ دخول غيرهم الجنّةَ ولو معهم ليكون المَنفيّ مجرَّدَ اختصاصهم به مع بقاء أصل الدخول على حاله؛

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ وابن أبي عَبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٧٣؛ المغني في القراءات للنُّوْزاوازي، ص ٤٥٤.

[٢] ي: وهو.

[٣] ط - والأمانيّ جمع أمنيّة، وهي ما يتمنّى، كالأعجوبة والأضحوكة.

[٤] ط: جملة.

[٥] ط + الأمانيّ جمع أمنيّة، وهي ما يتمنّى، كالأعجوبة والأضحوكة.

[٦] وفي هامش س ي: أي: عن كلّ فرد مِن أفراد الفريقين. «منه».

[٧] وفي هامش أ: العالم البيضاوي رحمه الله. «منه». | انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٢٩.

بل هو اختصاص غيرهم بالدخول، كما ستعرفه بإذن الله تعالى، ظهَرَ[١] أنّ المنفيّ أصل دخولهم، ومِن ضرورته أن يكون هو الذي كُلّفوا إقامةَ البرهان عليه، لا اختصاصُهم به ليتّحد مَورد الإثبات والنفي.

وإنّما عُدل عن إبطال صريحِ ما ادّعَوه وسُلك هذا المَسلك إبانةً لغاية حِرمانهم ممّا علّقوا به أطماعهم، وإظهارًا لكمال عجزهم عن إثبات مدّعاهم؛ لأنّ حِرمانهم مِن الاختصاص بالدخول وعجْزَهم عن إقامة البرهان عليه لا يقتضيان حِرمانهم مِن أصل الدخول وعجزَهم عن إثباته. وأمّا نفس الدخول، فحيث ثبَتَ حِرمانهم منه وعجزُهم عن إثباته، فهم مِن الاختصاص به أبعدُ، وعن إثباته أعجزُ. وإنّما الفائز به مَن انتظمه قوله تعالى: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ أي: أخلص نفسه له تعالى، لا يُشرِك به شيئًا. عُبّر عنها بـ"الوجه"؛ لأنّه أشرفُ الأعضاء ومَجمَع المَشاعر ومَوضِع السجود ومَظهَر آثار الخضوع الذي هو مِن أخصّ خصائص الإخلاص أو توجُّهُه وقصدُه بحيث لا يَلوي عزيمته إلى شيءٍ غيره.

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ حال مِن ضمير ﴿أَسْلَمَ﴾، أي: والحال أنّه محسِن في جميع أعماله التي مِن جملتها الإسلام المذكور. وحقيقة الإحسان الإتيان بالعمل على الوجه اللائق، وهو حُسنه الوصفيُّ التابع لحُسنه الذاتيّ. وقد فسّره صلّى الله عليه وسلّم بقوله: «أنْ تَعبُد الله كأنّك تَراه، فإنْ لم تكن تَراه فإنّه يَراك».[٢]

﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ﴾ الذي وُعِد له على عمله. وهو عبارة عن دخول الجنّة، أو عمّا يدخل هو فيه دخولًا أوّليًّا. وأيًّا ما كان، فتصويره بصورة الأجر للإيذان بقوّة ارتباطه بالعمل واستحالة نَيله بدونه. وقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ حال مِن ﴿أَجْرُهُۥ﴾، والعامل فيه معنى الاستقرار في الظرف. والعِنديّة للتشريف. ووضع اسم "الربّ" مضافًا إلى ضمير ﴿مَنْ أَسْلَمَ﴾ موضعَ ضمير الجلالة لإظهار مَزيد اللطف به وتقريرِ مضمون الجملة، أي: فله أجرُه عند مالكه ومدبّرِ أموره ومبلِّغِه إلى كماله.

---

[١] السياق: وإذ ليس الثابت به... ظهَرَ أنّ المنفيّ...

[٢] **صحيح البخاري**، ١/١٩ (٥٠)؛ **صحيح مسلم**، ١/٣٦-٣٨ (٨).

والجملة جواب ﴿مَنْ﴾ إن كانت شرطيّةً، وخبرُها إن كانت موصولةً، و"الفاءُ" لتضمُّنها معنى الشرط، فيكون الردّ بقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾ وحده. ويجوز أن يكون ﴿مَنْ﴾ فاعلًا لفعل مقدَّر، أي: بلى يدخلها مَن أَسلَم، وقوله تعالى:[1] ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ﴾ معطوف على ذلك المقدَّر. وأيًّا ما كان، فتعليق ثبوت الأجر بما ذُكر مِن الإسلام والإحسان المختصَّين بأهل الإيمان قاضٍ بأنّ أولئك المدّعِين مِن دخول الجنّة بمَعزِل، ومِن الاختصاص به بألف مَنزِل.

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الدارَين مِن لُحوق مكروه، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ مِن فَوَات مطلوب، أي: لا يعتريهم ما يوجِب ذلك؛ لا أنّه يعتريهم، لكنّهم لا يخافون ولا يحزنون. والجمع في الضمائر الثلاثة باعتبار معنى ﴿مَنْ﴾، كما أنّ الإفراد في الضمائر الأُوَل باعتبار اللفظ.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ بيان لتضليل كلّ فريق صاحبَه بخصوصه إثرَ بيان تضليله كلَّ مَن عداه على وجه العموم. نزلت لمّا قدِم وَفْد نجران[2] على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وأتاهم أحبار اليهود، فتناظروا، فارتفعت أصواتهم، فقالوا لهم: «لستُم على شيء» -أي: أمرٍ يُعتدّ به مِن الدِّين، أو على شيء ما منه أصلًا، مبالغةً في ذلك، كما قالوا: «أقلُّ مِن لا شيء»-[3] وكفروا بعيسى والإنجيل.[4]

﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ على الوجه المذكور وكفروا بموسى والتوراة، لا أنّهم قالوا ذلك بناءً للأمر على منسوخيّة التوراة.

---

١ ط - تعالى.

٢ نجران في عدّة مواضع. والمراد هنا التي في مخاليف اليمن مِن ناحية مكّة، وكان أهلها يَدينون بالنصرانيّة. انظر: معجم البلدان للحمَوي، ١٦٦/٥.

٣ المستقصى للزمخشري، ٢٨٧/١.

٤ جامع البيان للطبري، ٤٣٤/٢-٤٣٥؛ تفسير ابن أبي حاتم، ٢٠٨/١؛ الكشّاف للزمخشري، ١٣٧/١.

﴿وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ﴾ الواو للحال، واللام للجنس، أي: قالوا ما قالوا، والحال أنّ كلّ فريق منهم مِن أهل العلم والكتاب، أي: كان حقّ كلّ منهم أن يعترف بحقّيّة دين صاحبه حسبما ينطِق به كتابه، فإنّ كُتب الله تعالى متصادِقة.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثل ذلك الذي سمعتَ به.[١] والكاف في محلّ النصب، إمّا على أنّها نعتٌ لمصدر محذوف قُدّم على عامله لإفادة القَصر، أي: قولًا مثلَ ذلك القول بعينه، لا قولًا مغايِرًا له. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ مِن عَبَدة الأصنام والمعطِّلة ونحوِهم مِن الجَهَلة، أي: قالوا لأهل كلّ دين: / «ليسوا على شيء». [٤٩و] وإمّا[٢] على أنّها حال[٣] مِن المصدر المضمَر المعرَّف الدالّ عليه ﴿قَالَ﴾، أي: قال القولَ الذين لا يعلمون حالَ كونه مِثلَ ذلك القول الذي سمعتَ به.

﴿مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ﴾ إمّا بدل مِن محلّ الكاف، وإمّا مفعول للفعل المنفيّ قبله، أي: مِثل ذلك القول قال الجاهلون بمِثل مقالة اليهود والنصارى. وهذا توبيخ عظيم لهم، حيث نظَموا أنفسهم -مع علمهم- في سِلك مَن لا يَعلم أصلًا.

﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: بين اليهود والنصارى؛ فإنّ مساق النظم لبيان حالهم. وإنّما التعرّض لمقالة غيرهم لإظهار كمال بطلان مقالهم، ولأنّ المُحاجّة المُحوِجة إلى الحُكم إنّما وقعت بينهم. ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ متعلّق بـ﴿يَحۡكُمُ﴾، وكذا ما قبله[٤] وما بعده،[٥] ولا ضيرَ فيه لاختلاف المعنى. ﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ بما يُقسَم لكلّ فريق ما يَليق به مِن العقاب. وقيل: حُكمه بينهم أن يكذِّبهم ويُدخِلهم النار. والظرف الأخير[٦] متعلّق بـ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾، قُدّم عليه للمحافظة على رءوس الآي، لا بـ﴿كَانُواْ﴾.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١٤﴾

---

[١] وفي هامش ط س ي: كما هو رأي النحاة. «منه». | انظر: الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٧٦/٢؛ واللباب لابن عادل، ٤٠٣/٢.

[٢] السياق: إمّا على أنّها نعتٌ... وإمّا على أنّها حال...

[٣] وفي هامش ط س ي: كما هو رأي سيبويه. «منه». | انظر: كتاب سيبويه، ٢٢٧/١-٢٢٨.

[٤] وفي هامش س ي: وهو ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾. «منه».

[٥] وفي هامش س ي: وهو ﴿فِيمَا﴾. «منه».

[٦] وفي هامش أ: هو ﴿فِيهِ﴾. «منه».

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ إنكار واستبعاد لأن يكون أحد أظلَمَ ممّن فعل ذلك أو مساوِيًا له، وإن لم يكن سَبْك التركيب متعرِّضًا لإنكار المساواة، ونفيُها يشهد به العُرف الفاشي والاستعمال المطّرد، فإذا قيل: "مَن أكرمُ مِن فلان" أو "لا أفضَلَ مِن فلان"، فالمراد به حتمًا أنّه أكرمُ مِن كلّ كريم وأفضلُ مِن كلّ فاضل. وهذا الحكم عامٌّ لكلّ مَن فعل ذلك في أيّ مسجد كان، وإن كان سببَ النزول فعلُ طائفةٍ معيَّنة في مسجد مخصوص.

رُوي أنّ النصارى كانوا يَطرَحون في بيت المقدِس الأذى ويمنعون الناسَ أن يُصلُّوا فيه، وأنّ الروم غزَوا أهله، فخرّبوه وأحرقوا التوراة وقتلوا وسبَوْا.[1] وقد نُقل عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّ ططيُوس الرومي مَلِكَ النصارى وأصحابَه غزَوا بني إسرائيل، وقتلوا مقاتِلتهم، وسبَوا ذراريَّهم، وأحرقوا التوراة، وخرّبوا بيت المقدِس، وقذفوا فيه الجيف، وذبحوا فيه الخنازير، ولم يزل خرابًا حتّى بناه المسلمون في عهد عمر رضي الله عنه.[2]

وإنّما أُوقعَ المنع[3] على المساجد -وإن كان الممنوع هو الناسَ- لِما أنّ فعلهم مِن طرح الأذى والتخريب ونحوهما متعلِّقٌ بالمسجد، لا بالناس مع كونه على حاله. وتعلُّق الآية الكريمة بما قبلها مِن حيث إنّها مبطِلة لدعوى النصارى اختصاصَهم بدخول الجنّة. وقيل: هو مَنْع المشركين رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم أن يدخل المسجد الحرام عامَ الحُديبية،[4] فتعلُّقها بما تقدَّمها مِن جهةِ أنّ المشركين مِن جملة الجهَلة القائلين لكلّ مَن عداهم: «ليسوا على شيء».

﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ ثاني مفعولَي ﴿مَنَعَ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا﴾ [الإسراء، ٩٤/١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء، ٥٩/١٧]. ويجوز أن يكون ذلك بحذف الجارّ مع ﴿أَنْ﴾،

---

[1] بمعناه عن مجاهد في جامع البيان للطبري، ٤٤٢/٢؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٢١٠/١.

[2] بلفظ قريب في أسباب النزول للواحدي، ص ٣٩؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٣٨/١.

[3] ط - وإنّما أوقع المنع.

[4] انظر: جامع البيان للطبري، ٤٤٤/٢؛ والكشّاف للزمخشري، ١٣٨/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٣٠/١.

وأن يكون ذلك مفعولًا له، أي: كراهةَ أن يُذكَر فيها اسمه. ﴿وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ بالهدم أو التعطيل بانقطاع الذِّكر.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ المانعون الظالمون الساعون في خرابها ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ أي: ما كان ينبغي لهم أن يدخلوها إلّا بخشية وخضوع، فضلًا عن الاجتراء على تخريبها أو تعطيلها، أو ما كان الحقّ أن يدخلوها إلّا حالَ التهيّب وارتعاد الفرائص مِن جهة المؤمنين أن يبطِشوا بهم، فضلًا أن يستَولوا عليها ويَلُوُها ويمنعوهم منها، أو ما كان لهم في علم الله تعالى وقضائه بالآخرة إلّا ذلك، فيكون وعدًا للمؤمنين بالنصر واستخلاص ما استولَوا عليه منهم، وقد أُنجزَ الوعد، ولله الحمد. رُوي أنّه لا يدخل بيت المقدِس أحد مِن النصارى إلّا متنكِّرًا مسارَقةً.[1] وقيل: معناه: النهي عن تمكينهم مِن الدخول في المسجد. واختلف الأئمّة في ذلك؛ فجوّزه أبو حنيفة رحمه الله مطلَقًا، ومنعه مالك مطلَقًا، وفرَّق الشافعي بين المسجد الحرام وغيره.[2]

﴿لَهُمْ﴾ أي: لأولئك المذكورين ﴿فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ أي: خِزي فظيع لا يوصَف، بالقتل والسَّبْي والإذلال بضرب الجزية عليهم. ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو عذاب النار لِما أنّ سببه أيضًا -وهو ما حُكي مِن ظُلمهم- كذلك[3] في العِظَم. وتقديم الظرف في المَوضعين للتشويق إلى ما يذكَر بعده مِن الخِزي والعذاب لِما مرّ مِن[4] أنّ تأخير ما حقُّه التقديم موجِب لتوجُّه النفس إليه، فيتمكّن فيها عند وروده فضلَ تمكُّن، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح، ١/٩٤]، ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر، ٦/٣٩]، إلى غير ذلك.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ أي: له كلّ الأرض التي هي عبارة عن ناحيتَي

---

[1] انظر: جامع البيان للطبري، ٤٤٦/٢-٤٤٧؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٢١٠/١؛ والكشّاف للزمخشري، ١٣٨/١.

[2] انظر لتفصيل مذاهبهم: أحكام القرآن للجصّاص، ٢٧٨/٤-٢٨١؛ وأحكام القرآن للهرّاسي، ١٨٥/٢-١٨٦؛ وأحكام القرآن لابن العربي، ٤٦٩/٢-٤٧١.

[3] أي: ما حُكي مِن ظلمهم مِثل ذلك العذاب في العِظَم.

[4] ط - من.

المَشرِق والمَغرِب، لا يختصّ به -مِن حيث المُلك والتصرّف، ومِن حيث المحلّيّةُ لعبادته- مكانٌ منها دون مكان؛ فإن مُنعتم مِن إقامة العبادة في المسجد الأقصى أو المسجد الحرام، ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ أي: ففي أيّ مكان فعلتم توليةَ وجوهكم شَطر القِبلة، ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ ﴿ثَمَّ﴾ اسمُ[1] إشارة للمكان البعيد خاصّةً، مبنيٌّ على الفتح، ولا يتصرّف سوى الجرّ بـ"مِن"، وهو خبر مقدَّم، و﴿وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ، والجملة في محلّ الجزم على أنّها جواب الشرط، أي: هناك جهته[2] التي أُمر بها، فإنّ إمكان التولية غير مختصّ بمسجد دون مسجد أو مكانٍ دون آخرَ، أو فثَمّ[3] ذاتُه، بمعنى الحضور العلميّ، أي: فهو عالِم بما يُفعَل فيه، ومُثيب لكم على ذلك. وقُرئ بفتح التاء واللام،[4] أي: فأينما تَوجّهوا[5] القبلةَ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ﴾ بإحاطته بالأشياء أو برحمته، يريد التَّوسعة على عباده. ﴿عَلِيمٌ﴾ بمَصالحهم وأعمالهم في الأماكن كلِّها. والجملة تعليل لمضمون الشرطيّة.[6] وعن ابن عمر رضي الله عنهما: «نزلت في صلاة المسافرين على الراحلة أينما تَوجَّهوا».[7] وقيل: في قوم عمِيتْ عليهم القِبلة، / فصلُّوا إلى أنحاءَ مختلفةٍ، فلمّا أصبحوا تبيَّنوا خطأهم.[8] وعلى هذا لو أخطأ المجتهِد ثمّ تبيَّن له الخطأ، لم يَلزَمه التدارك. وقيل: هي توطئة لنسخ القِبلة، وتنزيه للمعبود عن أن يكون في جهة. [٤٩ظ]

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦﴾

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ حكاية لطرف آخَرَ مِن مقالاتهم الباطلة المَحكيّة فيما سلف، معطوفةٌ على ما قبلها مِن قوله تعالى:[9] ﴿وَقَالَتِ﴾... إلخ،[10] لا على صلةِ ﴿مَنْ﴾[11] لِما بينهما مِن الجُمل الكثيرة الأجنبيّةِ. والضمير لليهود والنصارى

---

[1] ي - اسم.
[2] ي: جهة.
[3] ط: فثمة.
[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٧٣.
[5] وفي هامش ي: بحذف إحدى التاءين. «منه».
[6] ي: الشرط.
[7] هو بلفظ قريب عنه في جامع البيان للطبري، ٤٥٣/٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٤٠/١؛ والكشّاف للزمخشري، ١٣٩/١.
[8] انظر القول في جامع البيان للطبري، ٤٥٣/٢؛ والكشّاف للزمخشري، ١٣٩/١.
[9] ي - قوله تعالى.
[10] البقرة، ١١٣/٢.
[11] البقرة، ١١٤/٢.

ومَن شاركهم فيما قالوا مِن الذين لا يعلمون. وقُرِئ بغير واو على الاستئناف.[١] نزلت حين قالت اليهود: «عُزيرٌ ابنُ الله»، والنصارى: «المسيحُ ابنُ الله»، ومشركو العرب: «الملائكةُ بناتُ الله».[٢] والاتّخاذ إمّا[٣] بمعنى الصُّنع والعمل، فلا يتعدّى إلّا إلى واحد، وإمّا بمعنى التصيير، والمفعول الأوّل محذوف، أي: صَيَّر بعضَ مخلوقاته ولدًا.

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ تنزيه وتبرئة له تعالى عمّا قالوا. و﴿سُبۡحَٰنَ﴾ عَلَم للتسبيح، كـ"عُثمان" للرجل. وانتصابه على المصدريّة، ولا يكاد يذكَر ناصبه، أي: أُسبِّح سبحانَه، أي: أُنزِّهه تنزيهًا لائقًا به. وفيه مِن التنزيه البليغ مِن حيث الاشتقاقُ مِن "السَّبْح" الذي هو الذهاب والإبعاد في الأرض، ومِن جهة النقل إلى التفعيل، ومِن جهة العُدول مِن المصدر إلى الاسم الموضوع له خاصّةً، لاسيّما العَلَم المشير إلى الحقيقة الحاضرة في الذهن، ومِن جهة إقامته مُقام المصدر مع الفعل، ما لا يخفى.[٤] وقيل: هو مصدر -كـ"غُفران"- بمعنى التنزّه، أي: تَنزَّهَ بذاته تنزّهًا حقيقًا به، ففيه مبالغة مِن حيث إسنادُ البراءة إلى الذات المقدّسة، وإن كان التنزيه اعتقادَ نزاهته تعالى عمّا لا يَليق به، لا إثباتها له تعالى.

وقوله تعالى: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ردٌّ لِما زعموا وتنبيه على بطلانه. وكلمة ﴿بَلۡ﴾ للإضراب عمّا تقتضيه مقالتهم الباطلة مِن[٥] مجانسته سبحانه وتعالى لشيء مِن المخلوقات، ومِن سُرعة فَنائه المُحوِجة إلى اتّخاذ ما يقوم مَقامه، فإنّ مجرّد الإمكان والفناء لا يوجِب ذلك. ألَا يُرى أنّ الأجرام الفَلَكيّة مع إمكانها وفَنائها بالآخرة مستغنيةٌ بدوامها وطول بقائها عمّا يجري مَجرى الولد مِن الحيوان، أي: ليس الأمر كما زعموا؛ بل هو خالق جميعَ الموجودات التي مِن جملتها عُزير[٦] والمسيح والملائكة.

---

[١] قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٠.
[٢] انظر: أسباب النزول للواحدي، ص ٤٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١/١٤١؛ والكشّاف للزمخشري، ١/١٣٩.
[٣] ي - إمّا.
[٤] السياق: وفيه مِن التنزيه... ما لا يخفى.
[٥] ي: عن.
[٦] ي: العزير.

﴿كُلٌّ﴾ التنوين عِوض عن المضاف إليه، أي: كلُّ ما فيهما كائنًا ما كان مِن أُولي العلم وغيرِهم ﴿لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ منقادون، لا يستعصي شيء منهم على تكوينه وتقديره ومشيئته. ومَن كان هذا شأنه، لم يُتصوّر مجانسته لشيء، ومِن[1] حقّ الولد أن يكون مِن جنس الوالد. وإنّما جيءَ بـ﴿مَا﴾ المختصّة بغير أُولي العلم تحقيرًا لشأنهم وإيذانًا بكمال بُعدهم عمّا نَسبوا إلى بعضٍ منهم. وصيغة جمع العقلاء في ﴿قَٰنِتُونَ﴾ للتغليب. أو[2] كلُّ مَن جعلوه لله ولدًا له قانتون، أي: مطيعون عابدون له معترِفون بربوبيّته تعالى، كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء، ١٧/٥٧].

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧﴾

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: مُبدِعهما ومُخترِعهما بلا مثال يحتذيه ولا قانونٍ ينتحيه. فإنّ "البديع" كما يُطلَق على المبتدَع، يُطلَق على المبتدِع، نصَّ عليه أساطينُ أهل اللُّغة.[3] وقد جاء: "بَدَعه" -كـ"مَنَعه"- بمعنى: أنشأه، كـ"ابتدعه"، كما ذُكر في القاموس وغيره.[4] ونظيره: "السميع" بمعنى "المُسمِع" في قوله:

أَمِنْ رَيحانةَ الداعي السميعُ[5]

وقيل: هو مِن إضافة الصفة المشبَّهة إلى فاعلها للتخفيف بعد نصبه، على تشبيهها باسم الفاعل كما هو المشهور، أي: بديعٌ سماواته،[6] مِن "بَدُعَ" إذا كان على شكل فائق وحُسن رائق. وهو حُجّة أخرى لإبطال مقالتهم الشَّنْعاء. تقريرها أنّ الوالد عنصر الولد المنفعل بانفصال مادّته عنه، والله سبحانه مُبدِع الأشياء كلِّها على الإطلاق، منزَّهٌ عن الانفعال، فلا يكون والدًا. ورفعُه على أنّه خبر

---

١ ي: ولأنّ مِن.

٢ السياق: أي: كلُّ ما فيهما... أو كلُّ مَن جعلوه...

٣ انظر: **الصحاح** للجوهري، «بدع»؛ و**لسان العرب** لابن منظور، «بدع»؛ و**القاموس المحيط** للفيروزآبادي، «بدع».

٤ انظر: **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، «بدع».

٥ وفي هامش ي: وهو عمرو بن معدِي كَرِب، وتمامه:

يُـؤرِّقـني وأصحابي هُجوعُ

«منه». | والبيت في ديوانه، ص ١٤٠. وصدره لعمرو في **مجاز القرآن** لأبي عُبيدة، ١/١٢٨؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ١/١٣٩.

٦ انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ١/١٣٩.

لمبتدأ محذوف، أي: هو بديع... إلخ. وقُرئ بالنصب[1] على المدح، وبالجرّ[2] على أنّه بدل مِن الضمير في ﴿لَهُۥ﴾،[3] على رأي مَن يجوّز الإبدال مِن الضمير المجرور، كما في قوله:

علـى جُـوده لَـضَـنَّ بـالـمـاءِ حـاتِـمُ[4]

﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ أي: أراد شيئًا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ [يس، ٨٢/٣٦]. وأصل القضاء: الإحكام، أُطلقَ على الإرادة الإلهيّة المتعلِّقة بوجود الشيء لإيجابها إيّاه البتّةَ، وقيل: الأمرُ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾... إلخ [الإسراء، ٢٣/١٧].

﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ كلاهما مِن الكون التامّ، أي: احدُثْ، فيَحدُث. وليس المراد به حقيقةَ الأمر والامتثال، وإنّما هو تمثيل لسهولة تأتّي المقدورات بحسَب تعلّق مشيئته تعالى، وتصويرٌ لسرعة حدوثها بما هو عَلَم في الباب مِن طاعة المأمور المُطيع للآمر القويّ المُطاع. وفيه تقرير لمعنى الإبداع، وتلويح بحُجّة أخرى لإبطال ما زعموه بأنّ اتّخاذ الولد شأنُ مَن يفتقر في تحصيل مراده إلى مَبادئ يستدعي ترتيبها مرورَ زمان وتبدّلَ أطوار، وفعلُه تعالى متعالٍ عن ذلك.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حكاية لنوع آخَرَ مِن قبائحهم، وهو قدحُهم في أمر النبوّة بعد حكاية قدحهم في شأن التوحيد بنسبة الولد إليه سبحانه وتعالى.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن المنصور. **الكشّاف** للزمخشري، ١٣٩/١؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ٤٥٦.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن صالح بن أحمد. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٦.

[3] في الآية السابقة.

[4] عجز بيت، وصدره:
على حالةٍ لو أنّ في القوم حاتِمًا
وهو للفرزدق في **المذكّر والمؤنّث** لابن الأنباري، ٧/٢؛ **واللباب** لابن عادل، ٤٣/٦ (آل عمران، ١٦٨/٣)، وبلا نسبة في **المخصّص** لابن سِيده، ١٤٠/١. وهو في مطبوع **ديوان الفرزدق**، ص، ٦٠٣، يروى:
على ساعةٍ لو أنّ في القوم حاتِمٌ
على جُوده ضَنَّتْ به نفسُ حاتِمِ

واختُلف في هؤلاء القائلين، فقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «هم اليهود»،[١] وقال مجاهد: «هم النصارى».[٢] ووصفُهم بعدم العلم لعدم علمهم بالتوحيد والنبوّة كما ينبغي، أو لعدم عملهم بموجَب علمهم، أو لِما أنّ ما يُحكى عنهم لا يصدر عمّن له شائبة علم أصلًا. وقال قتادة وأكثر أهل التفسير: «هم مشركو العرب»،[٣] لقوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء، ٥/٢١]، وقالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان، ٢١/٢٥].

﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ أي: هلّا يكلِّمنا بلا واسطة أمرًا ونهيًا كما يكلِّم الملائكة، أو هلّا يكلِّمنا تنصيصًا على نبوّتك. ﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ حُجّة تدلّ على صدقك. بلغوا مِن العُتوّ والاستكبار إلى حيث أمّلوا / نيلَ مرتبة المفاوضة [٥٠و] الإلهيّة مِن غير توسّط الرسول والمَلك، ومِن العناد والمكابرة إلى حيث لم يَعُدّوا ما آتاهم مِن البيّنات الباهرة التي تَخِرُّ لها صُمُّ الجبال مِن قبيل الآيات. قاتَلَهم الله، أنّى يُؤفَكون!

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مِثلَ ذلك القول الشنيع الصادر عن العناد والفساد ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِن الأُمم الماضية ﴿مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ هذا الباطلِ الشنيع، فقالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء، ١٥٣/٤]، وقالوا: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ الآية [البقرة، ٦١/٢]، وقالوا: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾... إلخ [المائدة، ١١٢/٥]، وقالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا﴾... إلخ [الأعراف، ١٣٨/٧]. ﴿تَشَـٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: قلوب هؤلاء وأولئك في العمى والعناد، وإلّا لَما تشابهت أقاويلهم الباطلة.

﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ أي: نزّلناها بيّنةً بأن جعلناها كذلك في أنفسها، كما في قولهم: "سُبحان مَن صغَّر البَعُوض وكبَّر الفِيل"، لا أنّا بيّنّاها بعد أن لم تكن بيّنةً. ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: يطلبون اليقين ويُوقِنون بالحقائق، لا تعتريهم شُبهة ولا رِيبة. وهذا ردّ لطلبهم الآيةَ. وفي تعريف ﴿ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ وجمعِها وإيرادِ "التبيين"

---

[١] جامع البيان للطبري، ٤٧٤/٢؛ تفسير ابن أبي حاتم، ٢١٥/١؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٤٢/١.

[٢] جامع البيان للطبري، ٤٧٣/٢؛ تفسير ابن أبي حاتم، ٢١٥/١؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٤٢/١.

[٣] جامع البيان للطبري، ٤٧٤/٢؛ تفسير ابن أبي حاتم، ٢١٥/١؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٤٢/١.

المُفصِح عن كمال التوضيح مكانَ "الإتيان" الذي طلبوه، ما لا يخفى مِن الجزالة. والمعنى: أنّهم اقترحوا آيةً فَذّةً،[١] ونحن قد بيّنّا الآياتِ العظامَ لقوم يطلبون الحقّ واليقين. وإنّما لم يتعرّض لردّ قولهم: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ إيذانًا بأنّه مِن ظهورِ البُطلان بحيث لا حاجةَ له إلى الردّ والجواب.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: ملتبِسًا بالقرآن، كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ [ق، ٥/٥٠]، أو بالصِدق، كما في قوله تعالى: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ [يونس، ٥٣/١٠]. وقوله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ حال مِن المفعول باعتبار تقييده بالحال الأولى، أي: أرسلناك ملتبِسًا بالقرآن حالَ كونك بشيرًا لمَن آمن بما أُنزلَ عليك وعمل به ونذيرًا لمَن كفَر به، أو أرسلناك صادقًا حالَ كونك بشيرًا لمَن صدّقك بالثواب ونذيرًا لمَن كذّبك بالعذاب ليختاروا لأنفسهم ما أحَبُّوا، لا قاسرًا لهم على الإيمان، فلا عليك إن أصرُّوا وكابروا.

﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ ما لهم لم يؤمنوا بعدما بلّغتَ ما أُرسلتَ[٢] به. وقُرئ: "لَنْ تُسْأَلَ"،[٣] و"مَا تُسْأَلُ".[٤] وقُرئ: "لَا تَسْأَلْ"[٥] على صيغة النهي إيذانًا بكمال شدّة عقوبة الكفّار وتهويلًا لها، كأنّها لغاية فظاعتها لا يَقدِر المُخبِر على إجرائها على لسانه، أو لا يستطيع السامع أن يسمع خبرها؛ وحملُه على نهي النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن السؤال عن حال أبوَيه[٦] ممّا لا يساعده النظم الكريم. و﴿ٱلْجَحِيمِ﴾: المتأجِّج مِن النار. وفي التعبير عنهم بصاحبيّة الجَحيم دون الكفر والتكذيب ونحوهما وعيدٌ شديد لهم، وإيذانٌ بأنّهم مطبوع عليهم، لا يُرجى منهم الإيمان قطعًا.

---

١ الفَذّ: الفَرد. الصحاح للجوهري، «فذذ».

٢ ي: أرسلنا.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ وابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٧٤.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ وابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٧٤.

٥ قرأ بها نافع ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٢٠/٢.

٦ ذكر ذلك البيضاوي في أنوار التنزيل، ١٣٣/١.

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ بيان لكمال شدّة شكيمة[١] هاتين الطائفتين خاصّةً إثرَ بيان ما يعمّهما والمشركين مِن الإصرار على ما هم عليه إلى الموت. وإيراد ﴿لَا﴾ النافية بين المعطوفَين لتأكيد النفي لِما مرّ مِن أنّ تصلُّب اليهود في أمثال هذه العظائم أشدُّ مِن النصارى، والإشعارِ[٢] بأنّ رِضى كلٍّ منهما مبايِن لرِضى الأخرى،[٣] أي: لن ترضى عنك اليهود ولو خلّيتَهمَ وشأنَهم حتّى تتّبع مِلّتهم، ولا النصارى ولو تركتَهم ودينَهم حتّى تتّبع مِلّتهم، فأُوجزَ النظم ثقةً بظهور المراد.

وفيه مِن المبالغة في إقناطه صلّى الله عليه وسلّم مِن إسلامهم ما لا غايةَ وراءه، فإنّهم حيث لم يرضَوا عنه عليه السلام ولو خلّاهم، يفعلون ما يفعلون؛ بل أمَّلُوا منه صلّى الله عليه وسلّم ما لا يكاد يدخل تحت الإمكان مِن اتّباعه عليه السلام لملّتهم، فكيف يُتوهّم اتّباعهم لملّته عليه السلام؟

وهذه حالتهم في أنفسهم ومقالتهم فيما بينهم. وأمّا أنّهم أظهروها للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم وشافهوه بذلك وقالوا: «لن نرضى عنك وإن بالغتَ في طلب رِضانا حتّى تتّبع ملّتنا» كما قيل،[٤] فلا يساعده النظم الكريم؛ بل فيه ما يدلّ على خلافه؛ فإنّ قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ صريحٌ في أنّ ما وقع هذا جوابًا عنه ليس عينَ تلك العبارة؛ بل ما يستلزم مضمونَها أو يلزَمه مِن الدعوة إلى اليهوديّة والنصرانيّة وادّعاءِ أنّ الاهتداء فيهما كقوله عزّ وعلا حكايةً عنهم: ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾ [البقرة، ٢/١٣٥]، أي: قُل ردًّا عليهم: إنّ هدى الله الذي هو الإسلام هو الهدى بالحقّ، والذي يصحّ أن يسمّى هدًى، وهو الهدى كلُّه، ليس وراءَه هدًى، وما تَدْعون إليه ليس بهدًى؛ بل هو هَوًى،

---

[١] الشكيمة: قوّة القلب. وفلان شديد الشكيمة، أي: ذو عارضة وجِدّ. انظر: لسان العرب لابن منظور، «شكم».

[٢] ط: وللإشعار.

[٣] ي: الآخر.

[٤] قاله الزمخشري في الكشّاف، ١/١٨٢.

كما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ أي: آراءَهم الزائفة الصادرةَ عنهم بقضيّة شهَوات أنفسهم، وهي التي عُبّر عنها فيما قبلُ بـ﴿مِلَّتَهُمْ﴾، إذ هي التي ينتمون إليها. وأمّا ما شرَعه الله تعالى لهم مِن الشريعة على لسان الأنبياء -وهو المعنى الحقيقيّ للملّة- فقد غيّروها تغييرًا.

﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: الوحي أو الدين المعلوم صحّتُه. ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ مِن جهته العزيزة ﴿مِن وَلِىٍّ﴾ يَلي أمرَك عمومًا، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفع عنك عقابَه. وحيث لم يستلزم نفيُ الوليّ نفيَ النصير، وُسّط ﴿لَا﴾ بين المعطوفَين لتأكيد النفي. وهذا مِن باب التهييج والإلهاب، وإلّا فأنّى يُتوهّم إمكان اتّباعه عليه السلام لملّتهم. وهو جواب للقَسم الذي وطّأه اللام واكتُفي به عن جواب الشرط.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ هم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلَام وأضرابِه. ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ بمراعاة لفظه عن التحريف، وبالتدبّر في معانيه والعمل بما فيه. وهو حال مقدَّرة والخبر ما بعده، أو خبر وما بعده مقرِّر له. ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصوفين بإيتاء الكتاب وتلاوته كما هو حقُّه. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلتهم في الفضل. ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: بكتابهم دون المحرِّفين، فإنّهم بمَعزِل / مِن الإيمان به، فإنّه لا يجامِع الكفرَ ببعضِ منه. ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ بالتحريف والكفر بما يصدّقه، ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ حيث اشترَوا الكفر بالإيمان. [٥٠ظ]

﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ ومِن جملتها التوراة. وذِكر النعمة إنّما يكون بشكرها. وشكرُها الإيمانُ بجميع ما فيها. ومِن جملته نعتُ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ومِن ضرورة الإيمان بها الإيمان به عليه السلام.

﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أُفردت هذه النعمة بالذِّكر -مع كونها[١] مندرِجةً تحت النعمة السالفة- لإنافتها فيما بين فنون النِّعم.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

﴿وَاتَّقُوا﴾ إن لم تؤمنوا ﴿يَوْمًا لَا تَجْزِي﴾ في ذلك اليوم ﴿نَفْسٌ﴾ مِن النفوس ﴿عَنْ نَفْسٍ﴾ أخرى ﴿شَيْئًا﴾ مِن الأشياء أو شيئًا مِن الجزاء، ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي: فِدية، ﴿وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾. وتخصيصهم بتكرير التذكير وإعادة التحذير للمبالغة في النُّصح، وللإيذان بأنّ ذلك فَذْلكة القضيّة والمقصودُ مِن القصّة لِما أنّ نِعَم الله عزّ وجلّ عليهم أعظمُ، وكفرَهم بها أشدُّ وأقبحُ.

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ شروع في تحقيق أنّ هُدى الله هو ما عليه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مِن التوحيد والإسلام الذي هو ملّة إبراهيم عليه السلام، وأنّ ما عليه أهل الكتابين أهواء زائغة، وأنّ ما يدَّعونه مِن أنّهم على ملّته عليه السلام فِرية بلا مِرية، ببيان ما صدر عن إبراهيمَ وأبنائِه الأنبياء عليهم السلام مِن الأقاويل والأفاعيل الناطقة بحقّيّة التوحيد والإسلام وبُطلانِ الشرك، وبصحّة نبوّة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وبكونه ذلك النبيَّ الذي استدعاه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بقولهما: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ الآية [البقرة، ١٢٩/٢].

فـ﴿إِذْ﴾ منصوب على المفعوليّة بمضمَر مقدَّم،[٢] خُوطِب به النبيّ عليه السلام بطريق التلوين، أي: اذكر لهم وقتَ ابتلائه عليه السلام ليتذكّروا بما وقع فيه مِن الأمور الداعية إلى التوحيد الوازعةِ عن الشرك، فيقبلوا الحقَّ ويتركوا ما هم فيه مِن الباطل. وتوجيه الأمر بالذِّكر إلى الوقت دون ما وقع فيه مِن الحوادث

---

[١] س: كونه.

[٢] ط - مقدّر.

-مع أنّها المقصودة بالذات- قد مرّ وجهه في أثناء تفسير قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة، ٢/٣٠]. وقيل: على الظرفيّة بمضمَر مؤخَّر، أي: إذ[1] ابتلاه كان كيت وكيت. وقيل: بما سيجيء مِن قوله تعالى: ﴿قَالَ﴾... إلخ. والأوّل هو اللائق بجزالة التنزيل. ولا يبعُد أن ينتصِب بمضمَر معطوف على "اذكُروا"، خُوطِب به بنو إسرائيل ليتأمّلوا فيما يُحكى عمّن ينتمون إلى ملّته مِن إبراهيمَ وأبنائه عليهم السلام مِن الأفعال والأقوال، فيقتدوا بهم ويسيروا سيرتَهم.

والابتلاء في الأصل: الاختبار، أي: تطلُّب الخِبرة بحال المختبَر بتعريضه لأمر يشُقّ عليه غالبًا فِعلُه أو تركُه. وذلك إنّما يُتصوّر حقيقةً ممّن لا وقوفَ له على عواقب الأمور. وأمّا مِن العليم الخبير، فلا يكون إلّا مجازًا مِن تمكينه للعبد مِن اختيار أحد الأمرين قبل أن يرتِّب عليه شيئًا هو مِن مَباديه العاديّة، كمَن يختبر عبدَه ليتعرّف حاله مِن الكِياسة، فيأمره بما يَليق بحاله مِن مصالحه.

وإبراهيم: اسمٌ أعجميّ. قال السهيلي:[2] «كثيرًا ما يقع الاتّفاق أو التقارب بين السُّريانيّ والعربيّ، ألَا ترى أنّ "إبراهيم" تفسيره: أبٌ راحِم»؛[3] ولذلك جُعل هو وزوجته سارةُ كافِلَين لأطفال المؤمنين الذين يموتون صِغارًا إلى يوم القيامة، على ما رَوى البخاري في حديث الرؤيا: «أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم رأى في الروضة إبراهيم عليه السلام وحوله أولاد الناس».[4] وهو مفعولٌ مقدَّم لإضافة فاعله إلى ضميره. والتعرّض لعنوان الربوبيّة تشريف له عليه السلام، وإيذان بأنّ ذلك الابتلاء تربية له وترشيح لأمر خطير.

---

١ أ: إذا.

٢ هو عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الخثعمي السهيلي، أبو زيد وأبو القاسم (ت. ٥٨١هـ/١١٨٥م). عالم باللغة والسِّير والقراءات والتفسير. وُلِد في مالَقة، ونسبته إلى سُهيل إحدى قراها. ضَرير، عميَ وعمره سبع عشرة سنةً. ونبغ، فاتّصل خبره بصاحب مراكش، فطلبه إليها وأكرمه، فأقام يصنِّف كتبه إلى أن تُوفّي بها. مِن كُتبه: **الرَّوض الأُنُف في شرح السِّيرة النبويّة** لابن هشام، و**نتائج الفكر في النحو**، و**الأمالي في النحو واللغة والحديث والفقه**. انظر: **بغية الوعاة** للسيوطي، ٢/٨١؛ **والأعلام** للزركلي، ٣/٣١٣.

٣ انظر: **الروض الأنف** للسهيلي، ١/٧٤.

٤ انظر: **صحيح البخاري**، ٢/١٠٠ (١٣٨٦).

والمعنى: عامَله سبحانه معاملةَ المختبِر، حيث كلَّفه أوامرَ ونواهيَ تَظهَر بحُسن قيامه بحقوقها قدرتُه على الخروج عن عُهدة الإمامة العُظمى وتحمّلِ أعباء الرسالة. وهذه المعاملة وتذكيرُها للناس لإرشادهم إلى طريق إتقان الأمور ببنائها على التجربة، وللإيذان بأنّ بعثة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أيضًا مبنيّة على تلك القاعدة الرصينة، واقعةٌ بعد ظهور استحقاقه عليه السلام للنبوّة العامّة. كيف لا، وهي التي أُجيبَ بها دعوة إبراهيمَ عليه السلام كما سيأتي.

واختُلف في "الكلمات"، فقال مجاهد: «هي المذكورة بعدَها».[1] ورُدَّ بأنّه يأباه "الفاء" في ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾، ثمّ الاستئنافُ. وقال طاوس عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «هي عشر خِصال كانت فرضًا في شرعه، وهُنّ سُنّة في شرعنا، خمس في الرأس: المَضمَضة والاستنشاق وفَرْق الرأس وقصُّ الشارب والسِّواكُ، وخمس في البدن: الخِتان وحَلْق العانة ونَتْف الإبط وتقليم الأظفار والاستنجاء بالماء».[2] وفي الخبر أنّ إبراهيمَ عليه السلام أوّلُ مَن قصّ الشاربَ وأوّلُ مَن اختَتَن وأوّلُ مَن قلّم الأظفار.[3]

وقال عكرمة عن ابن عبّاس رضي الله عنه: «لم يُبْتلَ أحد[4] بهذا الدِّين فأقامه كلَّه إلّا إبراهيم، ابتلاه الله تعالى بثلاثين خَصلة مِن خصال الإسلام: عشر منها في سورة براءة: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾... إلخ [التوبة، ١١٢/٩]، وعشر في الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ﴾... إلخ [الأحزاب، ٣٥/٣٣]، وعشر في "المؤمنون":[5] ﴿سَأَلَ[6] سَآئِلٌۢ﴾ [المعارج، ١/٧٠] إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج، ٣٤/٧٠]».[7]

---

١ معالم التنزيل للبغوي، ١٤٥/١.
٢ هو باختلاف يسير في جامع البيان للطبري، ٤٩٩/٢-٥٠٠؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٤٥/١؛ والكشّاف للزمخشري، ١٤١/١.
٣ انظر الخبر في معالم التنزيل للبغوي، ١٤٥/١.
٤ ي - أحد.
٥ والآيات المشار إليها فيما يلي في سورة المعارج. وفي سورة المؤمنون: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون، ٩/٢٣].
٦ ط س ي: وسأل.
٧ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٤٩٩/٢-٥٠٠؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٤٥/١.

وقيل: ابتلاه الله سبحانه بسبعة أشياءَ: بالشمس والقمر والنجوم والخِتان على الكِبَر والنار وذبح الولد والهجرة، فوفّى بالكلّ.[١] وقيل: هُنّ مُحاجّته[٢] قومَه،[٣] والصلاةُ والزكاة والصوم والضيافة والصبر عليها. وقيل: هي مَناسكُ، كالطواف والسعي والرمي والإحرام والتعريف وغيرِهنّ.[٤] وقيل: هي قوله عليه السلام: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ الآيات [الشعراء، ٢٦/٧٨].[٥]

[٥١و] ثمّ قيل: إنّما وقع هذا[٦] الابتلاء قبل النبوّة، وهو / الظاهر. وقيل: بعدها؛[٧] لأنّه يقتضي سابقةَ الوحي. وأجيبَ بأنّ مطلَق الوحي لا يستلزم البعثة إلى الخلق. وقُرئ برفع ﴿إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ ونصب ﴿رَبُّهُۥ﴾،[٨] أي: دعاه بكلمات مِن الدعاء فِعلَ المختبِر، هل يُجيبه إليهنّ أو لا؟

﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي: قام بهنّ حقَّ القيام وأدّاهنّ أحسنَ التأدية مِن غير تفريط وتوانٍ، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ [النجم، ٥٣/٣٧]. وعلى القراءة الأخيرة: فأعطاه الله تعالى ما سأله مِن غير نقص. ويعضده ما رُوي عن مقاتل أنّه فسَّر "الكلماتِ" بما سأل إبراهيمُ ربَّه بقوله: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ﴾ الآيات [البقرة، ٢/١٢٦].[٩]

وقوله عزّ وجلّ: ﴿قَالَ﴾ على تقدير انتصاب ﴿إِذِ﴾ بمضمَر جملةٌ مستأنَفةٌ وقعت جوابًا عن سؤالٍ نشأ مِن الكلام، فإنّ الابتلاء تمهيد لأمر معظَّم، وظهور فضيلة المبتلى مِن دواعي الإحسان إليه، فبعد حكايتهما[١٠] تترقّب[١١] النفس[١٢] إلى ما وقع بعدهما، كأنّه قيل: فماذا كان بعد ذلك؟ فقيل: قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، أو بيانٌ لقوله تعالى: ﴿ٱبۡتَلَىٰٓ﴾، على رأي مَن جعل "الكلماتِ"

---

[١] بلفظ قريب عن الحسن في معالم التنزيل للبغوي، ١/١٤٥؛ والكشّاف للزمخشري، ١/١٤١.

[٢] ي: محاجّة.

[٣] انظر القول في معالم التنزيل للبغوي، ١/١٤٥.

[٤] بلفظ قريب عن ابن عبّاس والربيع وقتادة في جامع البيان للطبري، ٢/٥٠٣-٥٠٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١/١٤٥؛ والكشّاف للزمخشري، ١/١٤١.

[٥] انظر القول في معالم التنزيل للبغوي، ١/١٤٥.

[٦] ي: هذه.

[٧] وفي هامش س ي: فلا يناسبه بعض تفسيرات الكلمات. «منه».

[٨] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وجابر بن زيد وأبي حنيفة وأبي الشعثاء. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٧٤؛ المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ٤٥٨.

[٩] انظر تفسير مقاتل بن سليمان، ١/١٣٦.

[١٠] س: حكايتها.

[١١] ي: ترقب.

[١٢] ي: الإنسان.

عبارةً عمّا ذُكر إثرَه مِن الإمامة وتطهير البيت ورفعِ قواعده وغير ذلك. وعلى تقدير انتصاب ﴿إِذْ﴾ بـ﴿قَالَ﴾، فالجملة معطوفة على ما قبلها عطفَ القصّة على القصّة، و"الواو" في المعنى داخلة على ﴿قَالَ﴾، أي: وقال إذ ابتلى... إلخ.

و"الجَعْل" بمعنى التصيير،[1] أحدُ مفعوليه الضميرُ، والثاني ﴿إِمَامًا﴾. واسم الفاعل بمعنى المضارع، وأوْكَدُ منه لدلالته على أنّه جاعلٌ له البتّةَ مِن غير صارفٍ يَلويه ولا عاطفٍ يَثنيه. و﴿لِلنَّاسِ﴾ متعلّق بـ﴿جَاعِلُكَ﴾، أي: لأجل الناس، أو بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿إِمَامًا﴾؛ إذ لو تأخّر[2] عنه لَكان صفةً له. والإمام: اسم لمَن يُؤتَمّ به، وكلُّ نبيّ إمام لأمّته، وإمامتُه عليه السلام عامّة مؤبَّدة؛ إذ لم يُبعَث بعده نبيّ إلّا كان مِن ذرّيّته مأمورًا باتّباع ملّته.

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال مقدَّر، كأنّه قيل: فماذا قال إبراهيم عليه السلام عنده؟ فقيل: قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ عطفٌ على "الكاف"، و﴿مِنْ﴾ تبعيضيّة متعلّقة بـ﴿جَاعِلِ﴾، أي: وجاعلٌ بعضَ ذرِّيّتي؟ كما تقول: "وزَيدًا؟" لمَن يقول: "سأُكرمك"، أو بمحذوف، أي: واجعل فريقًا مِن ذرّيّتي إمامًا. وتخصيص البعض بذلك لبداهة استحالة إمامة الكلّ وإن كانوا على الحقّ. وقيل: التقدير: وماذا يكون مِن ذرّيّتي؟

والذرّيّة: نسلُ الرجل، "فُعُّولَة" مِن "ذرَوْتُ" أو "ذرَيْتُ"، والأصل: "ذُرّوّة" أو "ذُرّوْيَة"، فاجتمع في الأولى واوانِ زائدة وأصليّة، فقُلِبت الأصليّة ياءً فصارت كالثانية، فاجتمعت واو وياء وسبقت إحداهما بالسكون، فقُلبت الواو ياءً وأُدغمت الياء في الياء، فصارت "ذُرِّيّةً"؛ أو "فُعِّيلَة" منهما، والأصل في الأولى: "ذُرِّيْوَة"، فقُلِبت الواو ياءً لِما سبق مِن اجتماعهما وسَبْق إحداهما بالسكون، فصارت "ذُرِّيْيَةً" كالثانية، فأُدغِمت الياء في مِثلها، فصارت "ذُرِّيّة"؛ أو "فُعِّيلَة" مِن "الذَّرْء" بمعنى الخَلْق، والأصل "ذُرِّيْئَة"، فخُفِّفت الهمزة بإبدالها ياءً كهمزة "خَطِيئة"، ثمّ أُدغِمت الياء الزائدة في المبدَلة؛ أو "فُعْلِيّة" مِن "الذَّرّ"

---

[1] وفي هامش س ي: على الاختلاف المشهور في محلّه. «منه».

[2] ي: تؤخّر.

بمعنى التفريق،[١] والأصل: "ذُرِّيرَة"، قُلبت[٢] الراء الأخيرة ياءً لتوالي الأمثال، كما في "تسرِّي" و"تقضِّي" و"تظنِّي"، فأُدغِمت الياء في الياء كما مرّ؛ أو "فُعُّولة" منه، والأصل: "ذُرُّورَة"، فقُلِبت الراء الأخيرة ياءً، فجاء الإدغام.[٣] وقُرئ بكسر الذال،[٤] وهي لغة فيها. وقرأ أبو جعفر المدني[٥] بالفتح،[٦] وهي أيضًا لغة فيها.

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال ينساق إليه الذهن كما سبق. ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ليس هذا ردًّا لدعوته عليه السلام؛ بل إجابةً خفيّةً لها وعِدَةً إجماليّةً منه تعالى بتشريف بعض ذُرّيّته عليه السلام بنَيل عهد الإمامة[٧] حسبما وقع في استدعائه عليه السلام مِن غير تعيين لهم بوصف مميّز لهم عن جميع مَن عداهم، فإنّ التنصيص على حرمان الظالمين منه بمَعزِل مِن ذلك التمييز؛ إذ ليس معناه أنّه ينال كلّ مَن ليس بظالم منهم ضرورةَ استحالة ذلك كما أشيرَ إليه. ولعلّ إيثارَ هذه الطريقة على تعيين الجامعين لمَبادي الإمامة مِن ذُرّيّته إجمالًا أو تفصيلًا وإرسالَ الباقين لئلّا ينتظمَ المقتدون بالأئمّة مِن الأمّة في سِلك المحرومين. وفي تفصيل كلّ فِرقة مِن الإطناب ما لا يخفى، مع ما في هذه الطريقة مِن[٨] تخييب الكَفَرة الذين كانوا يتمنّون النبوّة وقطعِ أطماعهم الفارغة مِن نَيلها.

وإنّما أُوثِر "النَّيل" على "الجَعْل" إيماءً إلى أنّ إمامة الأنبياء مِن ذُرّيّته عليه السلام كإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ ويوسفَ وموسى وهارونَ وداودَ

---

[١] وفي هامش ي: وقد جُوّز أن يكون "فُعليّة" منه على أنّ الياء للنسبة وضمّ الذال مبدل مِن الفتح، كما قالوا في النسبة إلى الدهر: "دُهريّ"، وإلى السهل: "سُهليّ" بضمّ الدال والسين. «منه».

[٢] ي: فقلبت.

[٣] انظر هذا الكلام في اشتقاقها وأقوالًا أخر في **الدرّ المصون** للسمين الحلبي، ١٠١/٢-١٠٣؛ **واللباب** لابن عادل، ٤٥٣/٢-٤٥٥.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن ثابت. **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ٤٦٠.

[٥] هو يزيد بن القعقاع المخزومي بالولاء، أبو جعفر المدني (ت. ١٣٢هـ/٧٥٠م). أحد القرّاء العشرة، وكان مِن المُفتين المجتهدين. تابعيٌّ مشهور كبير القدر. قرأ على أبي هريرة وابن عبّاس وحدّث عنهما. وقرأ عليه سليمان بن مسلم بن جمّاز وعيسى بن وردان ونافع وغيرهم. تُوفّي في المدينة. انظر: **غاية النهاية** لابن الجزري، ٣٨٢/٢؛ **والأعلام** للزركلي، ١٨٦/٨.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن العُمري عن أبي جعفر. **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ٤٦٠. وهي غير القراءة المشهورة عن أبي جعفر.

[٧] ي: الأمانة.

[٨] ي - من.

وسليمانَ وأيّوبَ ويونسَ وزكريّا ويحيى وعيسى وسيّدِنا محمّد صلّى الله عليه وعليهم[١] وسلّم تسليمًا كثيرًا ليست بجَعْل مستقلّ؛ بل هي حاصلة في ضِمن إمامة إبراهيمَ عليه السلام، تنال كلًّا منهم في وقتٍ قدّره الله عزّ وجلّ.

وقُرئ: "الظَّالِمُونَ"[٢] على أنّ ﴿عَهْدِى﴾ مفعول قُدّم على الفاعل اهتمامًا ورعايةً للفواصل. وفيه دليل على عصمة الأنبياء عليهم السلام[٣] مِن الكبائر على الإطلاق وعدمِ صلاحيّة الظالم للإمامة.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ﴾ أي: الكعبة المعظّمة، غُلِّب عليها غلبةَ "النجم" على "الثُّريّا"، معطوفٌ على ﴿إِذِ ٱبْتَلَىٰٓ﴾ على أنّ العامل فيه هو العامل فيه، أو مضمَرٍ مستقلّ معطوفٍ على المضمَر الأوّل. و"الجَعْل" إمّا بمعنى التصيير، فقوله عزّ وجلّ: ﴿مَثَابَةً﴾ -أي: مَرجعًا يثوب إليه الزُّوّار بعدما تفرَّقوا عنه أو أمثالُهم، أو مَوضِعَ ثواب يُثابون بحَجّه واعتماره- مفعولُه الثاني، وإمّا بمعنى الإبداع، فهو حال مِن مفعوله. و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لِّلنَّاسِ﴾ متعلّقة بمحذوفٍ وقع صفةً لـ﴿مَثَابَةً﴾، أي: مَثابةً كائنةً للناس، أو بـ﴿جَعَلْنَا﴾، أي: جعلناه لأجل الناس. وقُرئ: "مَثَابَاتٍ"[٤] باعتبار تعدّد التائبين.

[٥١ظ] ﴿وَأَمْنًا﴾ أي: آمِنًا، كما في قوله تعالى: ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾ / [القصص، ٥٧/٢٨]، على إيقاع المصدر مَوقعَ اسم الفاعل للمبالغة، أو على تقدير المضاف، أي: ذا أَمْن، أو على الإسناد المجازيّ، أي: آمِنًا مَن حَجّه مِن عذاب الآخرة مِن حيث إنّ الحجّ يَجُبّ ما قبله، أو مَن دخله مِن التعرّض له بالعقوبة وإن كان جانيًا حتّى يخرُجَ، على ما هو رأي أبي حنيفة رحمه الله.[٥] ويجوز أن يُعتبر الأمن بالقياس

---

١ ط - وعليهم.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وأُبيّ والأعمش. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١١٦؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٧٤.

٣ ي - عليهم السلام.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٧٤.

٥ انظر: **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٣٥/١.

إلى كلّ شيء كائنًا ما كان، ويدخل فيه أمن الناس دخولًا أوّليًا، وقد اعتيدَ فيه أمن الصيد، حتّى إنّ الكلب كان يهُمّ بالصيد خارجَ الحرم، فيفِرّ منه، وهو يَتبَعه، فإذا دخل الصيد الحرمَ لم يَتبَعه الكلب.

﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾ على إرادة قولٍ هو عطفٌ على ﴿جَعَلْنَا﴾ أو حال مِن فاعله، أي: وقلنا أو قائلين لهم: ﴿ٱتَّخِذُوا﴾... إلخ. وقيل: هو بنفسه معطوف على الأمر الذي يتضمّنه قوله عزّ وجلّ: ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾، كأنّه قيل: ثُوبُوا إليه واتّخِذوا... إلخ. وقيل: على المضمَر العاملِ في ﴿إِذْ﴾. وقيل: هي جملة مستأنَفة. والخطاب على الوجوه الأخيرة له عليه السلام ولأمّته. والأوّل هو الأليَق بجزالة النظم الكريم. والأمر -صريحًا كان أو مفهومًا مِن الحكاية- للاستحباب. و﴿مِنْ﴾ تبعيضيّة.

و"المَقام" اسم مكان، وهو الحَجَر الذي عليه أثر قَدَمه عليه السلام والموضعُ[1] الذي كان عليه حين قام ودعَا الناسَ إلى الحجّ أو حين رفع قواعد البيت، وهو مَوضعه اليومَ. والمراد بـ"المُصلّى" إمّا مَوضع الصلاة أو مَوضع الدعاء. رُوي[2] أنّه صلّى الله عليه وسلّم أخذ بيد عمر رضي الله عنه فقال: «هذا مقامُ إبراهيم»، فقال عمر رضي الله عنه: «أفلا تتّخذه مُصلًّى؟»، فقال: «لم أُومَرْ بذلك»، فلم تغِبْ الشمس حتّى نزلتْ.[3] وقيل: المراد به الأمر بركعتَي الطواف لِما رَوى جابر رضي الله عنه أنّه عليه السلام لمّا فرَغ مِن طوافه، عمَدَ إلى مقام إبراهيمَ، فصلّى خلفَه ركعتين، وقرأ:[4] ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾.[5] وللشافعي في وجوبهما قولانِ.[6]

---

[1] ي: أو الموضع.

[2] ي: وروي.

[3] بلفظ قريب في تفسير ابن أبي حاتم، ٢٢٦/١؛ والكشّاف للزمخشري، ١٤٢/١. وهو بمعناه في صحيح البخاري، ٨٩/١ (٤٠٢)؛ وصحيح مسلم، ١٨٦٥/٤ (٢٣٩٩).

[4] وفي هامش ي: يعني النبيّ عليه السلام. «منه».

[5] قطعة مِن الحديث الطويل لجابر في صفة حجّة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. انظر: صحيح مسلم، ٨٨٧/٢ (١٢١٨)؛ وسنن أبي داود ٢٨٣/٣ (١٩٠٥)؛ وجامع البيان للطبري، ٥٢٨/٢؛ والكشّاف للزمخشري، ١٤٢/١.

[6] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٣٦/١.

وقيل: ﴿مَقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾: الحَرَم كلّه. وقيل: مواقف الحجّ: عرفة والمُزدلِفة والجِمار، واتّخاذُها مُصلًّى أن يُدعى فيها ويُتقرّبَ إلى الله عزّ وجلّ. وقُرئ: "وَاتَّخَذُوا"[1] على صيغة الماضي عطفًا على ﴿جَعَلْنَا﴾، أي: واتّخَذَ الناس مِن مكان إبراهيمَ الذي وُسِم به لاهتمامه به وإسكانِ ذُرّيّته عنده قِبلةً يُصلُّون إليها.

﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ أي: أمرناهما أمرًا مؤكّدًا: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾ بأنْ طَهِّراه، على أنّ ﴿أَنْ﴾ مصدريّة، حُذف عنها الجارّ حذفًا مطّرِدًا لجواز كون[2] صلتها أمرًا ونهيًا، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [يونس، ١٠/١٠٥]؛ لأنّ مدار جواز كونها فعلًا إنّما هو دلالته على المصدر، وهي متحقِّقة فيهما. ووجوب كونها خبريّةً في صلة الموصول الاسميّ إنّما هو للتوصّل إلى وصف المَعارف بالجُمل، وهي لا يوصَف بها إلّا إذا كانت خبريّةً، وأمّا الموصول الحرفيّ فليس كذلك. ولمّا كان الخبر والإنشاء في الدلالة على المصدر سواءً، ساغَ وقوعُ الأمر والنهي صلةً حسب وقوع الفعل، فيتجرّد عند ذلك عن معنى الأمر والنهي نحو تجرُّد الصلة الفعليّة عن معنى المُضيّ والاستقبال.

أو: أي: طهِّراه،[3] على أنّ ﴿أَنْ﴾ مفسِّرة لتضمّنِ العهد معنى القول.

وإضافة "البيت" إلى ضمير الجلالة للتشريف. وتوجيه الأمر بالتطهير ههنا[4] إليهما عليهما السلام لا يُنافي ما في سورة الحجّ مِن تخصيصه بإبراهيمَ عليه السلام؛ فإنّ ذلك واقع قبل بناء البيت كما يُفصِح عنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الحج، ٢٢/٢٦]. وكان إسماعيل عليه السلام حينئذ بمَعزِل مِن مَثابة الخطاب. وظاهرٌ أنّ هذا بعد بلوغه مَبلَغَ الأمر والنهي وتمامَ البناء بمباشرته كما يُنبئ عنه إيراده إثر حكاية جَعْله مثابةً للناس... إلخ. والمراد: تطهيره مِن الأوثان والأنجاس وطوافِ الجُنُب والحائضِ وغير ذلك ممّا لا يليق به.

﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ حولَه ﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾ المجاوِرين المقيمين عنده، أو المعتكِفين أو القائمين في الصلاة كما في قوله عزّ وعلا: ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ﴾ [الحج، ٢٢/٢٦].

---

[1] قرأ بها نافع وابن عامر. النشر لابن الجزري، ١/٢٢٢.
[2] س: أن يكون.
[3] السياق: بأن طهّراه... أو: أي: طهّراه...
[4] ي - ههنا.

﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ جمعُ "راكعٍ" و"ساجدٍ"، أي: للطائفين والمصلِّين؛ لأنّ القيام والركوع والسجود مِن هيئات المصلِّي، ولتقاربِ الأخيرين ذاتًا وزمانًا تُرِك العاطف بين موصوفَيهما.

أو: أخلِصاه[١] لهؤلاءِ لئلّا يَغشاه غيرهم. وفيه إيماء إلى أنّ ملابسة غيرهم به -وإن كانت مع مقارنة أمر مباح- مِن قبيل تلويثه وتدنيسه.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ عطفٌ على ما قبله مِن قوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا﴾... إلخ، إمّا بالذات، أو بعامله المضمَر كما مرَّ. ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ ذا أمنٍ، كـ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة، ٢١/٦٩]، أو آمِنًا أهلُه، كـ"ليلُه نائمٌ"، أي: اجعل هذا الواديَ مِن البلاد الآمنة. وكان ذلك أوّلَ ما قدِم عليه السلام مكّةَ، كما رَوى سعيد بن جبير عن ابن عبّاس رضي الله عنهم أنّه عليه السلام لمّا أَسكَن إسماعيلَ وهاجَرَ هناك وعادَ متوجِّهًا إلى الشام، تبعته هاجرُ، فجعلتْ تقول: «إلى مَن تكِلُنا في هذا البَلقَع؟»،[٢] وهو لا يردّ عليها جوابًا، حتّى قالت: «آللهُ أمَرَك بهذا؟»، فقال: «نعم»، قالت: «إذن لا يُضيِّعُنا»، فرضِيَت، ومضى حتّى إذا استوى على ثَنِيّة كَداء[٣] أقبل على الوادي، فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ﴾ الآية [إبراهيم، ٣٧/١٤].[٤]

وتعريف ﴿ٱلْبَلَدَ﴾ مع جَعْله صفةً لـ﴿هَـٰذَا﴾ في سورة إبراهيم[٥] إن حُمِل على تعدّد السؤال لِما أنّه عليه السلام سأل أوّلًا كِلا الأمرين -البلديّة والأمن-

---

١ السياق: بأن طَهِّراه... أو أَخلِصاه...

٢ البلقع والبلقعة: الأرض القفر التي لا شيء بها. انظر: **لسان العرب** لابن منظور، «بلقع».

٣ كَداء: موضع بأعلى مكّة عند المحصَّب، دار النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. انظر: **معجم البلدان** للحمَوي، ٤٣٩/٤.

٤ جزء مِن حديث طويل، وهذا الجزء بمعناه في **صحيح البخاري**، ١٤٢/٤ (٣٣٦٤)؛ و**جامع البيان** للطبري، ٦٩٢/١٣ (إبراهيم، ٣٧/١٤).

٥ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم، ٣٥/١٤].

فاستُجيب له في أحدهما وتأخَّر الآخر إلى وقته المقدَّر له لِما[1] يقتضيه[2] مِن الحكمة الباهرة، ثمّ كرّر السؤال حسبما هو المعتاد في الدعاء والابتهال، أو كان المسئول أوّلًا البلديّةَ ومجرّدَ الأمن المصحِّح للسُّكنى كما في سائر البلاد، وقد أجيبَ إلى ذلك، وثانيًا الأمنَ المعهود، أو كان هو المسئولَ أوّلًا أيضًا، وقد أجيب إليه، لكنّ السؤال الثاني لاستدامته. والاقتصار على سؤاله مع جَعْل ﴿ٱلْبَلَدَ﴾ صفةً لـ﴿هَٰذَا﴾؛ لأنّه المقصد الأصليّ، أو لأنّ المعتاد في البلديّة الاستمرار بعد التحقّق بخلاف الأمن.

وإن حُمِل على وحدة السؤال وتكرّرِ الحكاية كما هو المتبادَر، فالظاهر أنّ المسئول كِلا الأمرين. وقد / حُكي ذلك ههنا واقتُصِر هناك على حكاية سؤال [٥٢و] الأمن اكتفاءً عن حكاية سؤال البلديّة بحكاية سؤال جَعْل أفئدة الناس تَهوي إليه، كما سيأتي تفصيله هناك بإذن الله عزّ وجلّ.

﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ مِن أنواعها بأن تجعل بقُربٍ منه قُرًى يحصل فيها ذلك أو يُجبَى إليه مِن الأقطار الشاسعة. وقد حصل كِلاهما، حتّى إنّه يجتمع فيه الفواكه الربيعيّة والصيفيّة والخريفيّة في يوم واحد. رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما:[3] «أنّ الطائف كانت مِن أرض فلسطينَ، فلمّا دعا إبراهيمُ عليه السلام بهذه الدعوة، رفَعَها الله تعالى، فوضَعَها حيث وضَعَها رِزقًا للحرم»،[4] وعن الزهري: «أنّه تعالى نقل قريةً مِن قُرى الشام، فوضعها بالطائف لدعوة إبراهيمَ عليه السلام».[5]

﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ بدلٌ مِن ﴿أَهْلَهُۥ﴾ بدلَ البعض، خصَّهم بالدعاء إظهارًا لشرف الإيمان وإبانةً لخطَره واهتمامًا بشأن أهله ومراعاةً لحُسن الأدب. وفيه ترغيب لقومه في الإيمان[6] وزَجْرٌ عن الكفر، كما أنّ في حكايته ترغيبًا وترهيبًا لقريش وغيرهم مِن أهل الكتاب.

---

[1] ي: كما.
[2] ط: يقضيه.
[3] ي - رضي الله عنهما.
[4] بلفظ قريب في تفسير ابن أبي حاتم، ٢٣٠/١؛ والكشّاف للزمخشري، ٤١٣/٢ (إبراهيم، ٤١/١٤).
[5] تفسير ابن أبي حاتم، ٢٣٠/١.
[6] ي: لقومه بالإيمان.

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على السؤال كما مرّ مرارًا. وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ عطفٌ على مفعولِ فعلٍ محذوفٍ تقديره: "أرزُقُ مَن آمَن، ومَن كفر..."، وقوله تعالى: ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ﴾ معطوف على ذلك الفعل، أو[1] في محلّ رفع بالابتداء، وقوله تعالى: ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ﴾ خبره، أي: فأنا أُمتِّعه، وإنّما دخلته "الفاء" تشبيهًا له بالشرط. والكفر، وإن لم يكن سببًا للتمتيع المطلَق، لكنّه يصلُح سببًا لتقليله وكونِه موصولًا بعذاب النار.

وقيل: هو[2] عطفٌ على ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ عطفَ تلقين،[3] كأنّه قيل: قُلْ: "وارزُقْ مَن كفر"، فإنّه أيضًا مُجاب، كأنّه عليه السلام قاسَ الرزق على الإمامة، فنبَّهه تعالى على أنّه رحمة دنيويّة شاملة للبَرّ والفاجر، بخلاف الإمامة الخاصّة بالخواصّ. وقُرئ: "فأُمْتِعُهُ"[4] مِن أَمتَع. وقُرئ: "فنُمَتِّعُهُ".[5] ﴿قَلِيلًا﴾ تمتيعًا قليلًا أو زمانًا قليلًا.

﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾ أي: أَلُزّه إليه لزَّ المضطرّ لكُفره وتضييعه ما متّعتُه به مِن النِّعم. وقُرئ: "ثُمَّ نَضْطَرُّهُ"[6] على وَفق قراءةِ "فَنُمَتِّعُهُ". وقُرئ: "فَأَمْتِعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ اضْطَرَّهُ"[7] بلفظ الأمر فيهما على أنّهما مِن دعاء إبراهيمَ عليه السلام، وفي ﴿قَالَ﴾ ضميرُه، وإنّما فصله عمّا قبله لكونه دعاءً على الكفَرة، وتغييرُ سَبْكه للإيذان بأنّ الكُفر سبب لاضطرارهم إلى عذاب النار؛ وأمّا رزقُ مَن آمن، فإنّما هو على طريقة التفضّل والإحسان. وقُرئ بكسر الهمزة[8] على لغة مَن يَكسِر حرف المضارعة. و"أَطَّرُّهُ"[9] بإدغام الضاد في الطاء،

---

[1] السياق: عطفٌ على مفعول فعل محذوف... أو في محلّ رفع بالابتداء...
[2] أي: قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾.
[3] عطفُ التلقين: هو عطفٌ على مقدّرٍ هو عين الكلام السابق قبله. حاشية الشهاب على البيضاوي، ٢٠٢/٤.
[4] قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٢٢/٢.
[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن أنس وأُبيّ وأبي صالح. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٧٥؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٤٦١.
[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن أنس وأُبيّ وأبي صالح. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٧٥؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٤٦١.
[7] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وقتادة ومجاهد والأعمش وابن مُحيصِن وعُبيد بن عَقيل عن ابن كثير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٧٥؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٤٦١.
[8] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦.
[9] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصِن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧.

وهي لغة مرذولة؛ فإنّ حروف "ضمَّ شُفْر" يُدغَم فيها ما يجاورها بلا عكسٍ.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ المخصوص بالذمّ محذوف، أي: بئس المصيرُ النارُ أو عذابُها.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ عطفٌ على ما قبله مِن قوله عزّ وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ على أحد الطريقين المذكورين في ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا﴾.[١] وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة المُنبئة عن المعجزة الباهرة. و﴿ٱلْقَوَاعِدَ﴾: جمعُ "قاعدة"، وهي الأساس، صفة غالبة مِن "القعود" بمعنى الثبات. ولعلّه مجاز مِن مقابل القيام، ومنه "قَعْدَكَ اللهَ".[٢] ورفعُها: البناءُ عليها؛ لأنّه ينقلها مِن هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع. والمرتفِع حقيقةً، وإن كان هو الذي بُني عليها، لكنّهما لمّا التأمَا صارَا شيئًا واحدًا، فكأنّها نمَتْ وارتفعت. وقيل: المراد بها سافاتُ[٣] البناء، فإنّ كلّ سافٍ[٤] قاعدة لِما يُبنى عليه،[٥] ويَرفعها بناءُ بعضها على بعض. وقيل: المراد برَفعها: رفعُ مكانة البيت وإظهارُ شرَفه ودعاءُ الناس إلى حجّه. وفي إبهامها أوّلًا ثمّ تبيينِها مِن تفخيم شأنها ما لا يخفى. وقيل: المعنى: وإذ يرفع إبراهيم ما قعد مِن البيت واستوطأ، يعني: يَجعل هيئة القاعدة المستوطَأة مرتفِعةً عاليةً بالبناء.

رُوي أنّ الله تعالى أنزل البيتَ ياقوتةً مِن يواقيت الجنّة له بابان مِن زُمُرُّدٍ شرقيّ وغربيّ، وقال لآدمَ: «أهبطتُ لك ما يُطاف به كما يُطاف حول عرشي»، فتوجّه آدمُ عليه السلام[٦] مِن أرض الهند إليه ماشيًا وتلقّته الملائكة فقالوا:

---

١ البقرة، ١٢٥/٢.

٢ وفي هامش ي: أي: أسأل أن يُقعِدك الله -أي: يثبّتك- تقعيدًا، أو أسأل الله أن يُقعِدك تقعيدًا. «منه».

٣ ي: ساقات.

٤ ي: ساق. | الساف: الصفّ مِن اللَّبِن والطين. المُغرِب للمطرّزي، «سوف».

٥ ط س: عليها.

٦ ط س – عليه السلام.

«بُرَّ حَجُّك يا آدمُ لقد حجَجْنا هذا البيتَ قبلك بألفي عام»، وحجّ آدمُ عليه السلام أربعين حَجّةً مِن أرض الهند إلى مكّةَ على رجليه، فكان على ذلك إلى أن رفعه الله أيّام الطوفان إلى السماءِ الرابعة فهو البيت المعمور، وكان موضعه خاليًا إلى زمن إبراهيمَ عليه السلام فأمره سبحانه ببنائه، وعرَّفه جبريل[١] بمكانه.

وقيل: بعَث الله السكينة لتدلَّه عليه فتبِعها إبراهيم عليه السلام حتّى أتيا مكّة المعظَّمة. وقيل: بعَث الله تعالى سحابة على قَدْر البيت، وسار إبراهيمُ عليه السلام[٢] في ظِلِّها إلى أن وافت مكّةَ المعظَّمة، فوقفَتْ على مَوضِع البيت فنُودي أنِ ابنِ على ظِلِّها لا تزدْ ولا تنقُصْ. وقيل: بناه مِن خمسة أجبُل: طورِ سَيْناء،[٣] وطورِ زيتا،[٤] ولبنانَ، والجُوديّ،[٥] وأسَّسه مِن حِراءَ. وجاء جبريل عليه السلام[٦] بالحَجر الأسود مِن السماء. وقيل: تمخَّض أبو قُبَيس[٧] فانشقَّ عنه وقد خُبِئ فيه في أيّام الطوفان وكان ياقوتةً بيضاءَ مِن يواقيت الجنّة فلمّا لمسته الحُيَّض في الجاهليّة اسودّ.[٨]

وقال الفاسي[٩] في **مُثير[١٠] الغرام في تاريخ البلد الحرام**:

---

١ ي: جبرائيل.

٢ ط س - عليه السلام.

٣ سَيناء: اسم موضع بالشام يُضاف إليه الطُّور فيقال: طور سَيناء. وهو الجبل الذي كلّم الله تعالى عليه موسى عليه السلام، ونُوديَ فيه. وهو كثير الشجر. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ٣/٣٠٠، ٤/٤٨.

٤ هو جبل بقُرب رأس عين عند قنطرة الخابور، على رأسه شجرة زيتون غذيّ يسقيه المطر، ولذلك سُمّيَ طور زيتا. وفي فضائل بيت المَقدِس: وفيه طُور زَيتا. وهو مُشرف على المَسجد. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ٤/٤٧-٤٨.

٥ هو جبل مُطِلٌّ على جزيرة ابن عمر في الجانب الشرقيّ مِن دجلة مِن أعمال الموصل. عليه استوت سفينة نوح عليه السلام لمّا نضَب الماء. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ٢/١٧٩.

٦ ط - عليه السلام.

٧ هو الجبل المُشرِف على مكّة، وجهه إلى قُعَيْقعان مِن غربيّها ومكّة بينهما، أبو قُبيس مِن شرقيّها وقُعَيْقعان مِن غربيّها. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ١/٨٠.

٨ مِن قوله: "رُوي" بلفظ قريب في **الكشّاف** للزمخشري، ١/١٤٤؛ و**معالم التنزيل** للبغوي، ١/١٤٩-١٥٠.

٩ هو محمّد بن أحمد بن عليّ أبو الطيِّب وأبو عبد الله تقيُّ الدِّين المكي الحسني الفاسي (ت. ٨٣٢هـ/١٤٢٩م). مُؤرِّخ، له عناية بتاريخ مكّة، عالم بالأصول، حافظ للحديث بلغت عدّة شيوخه بالسماع والإجازة نحو الخمسمائة. أصله مِن فاس، ومولده ووفاته في مكّة. ودخل اليمن والشام ومصر مرارًا. وكان أعشى يملي تصانيفه على مَن يكتُب له، ثمّ عميَ سنة ٨٢٨هـ. مِن كتبه: **شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام**، و**العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين**، و**عجالة القِرى في تاريخ أمّ القُرى**، و**ذيل سير أعلام النبلاء للذهبي**. انظر: **الضوء اللامع** للسّخاوي، ٧/١٨-٢٠؛ و**الأعلام** للزركلي، ٥/٣٣١.

١٠ وفي هامش س ي: مِن أثار يثير. «منه».

والذي يتحصَّل مِن جملة ما قيل في عدد بناء الكعبة أنّها بُنيتْ عشرَ مرّات:

منها: بناء الملائكة عليهم السلام. ذكره النووي في **تهذيب الأسماء واللغات**،[1] والأزرقيُّ[2] في **تاريخه**،[3] وذكر أنّه كان قبل خَلْق آدمَ عليه السلام.

ومنها: بناء آدمَ عليه السلام. ذكره البيهقي في **دلائل النبوّة**، وروى فيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «بعث الله عزّ وجلّ جبريلَ إلى آدمَ عليهما السلام، فقال له ولحواءَ: "ابنِيا لي بيتًا"، فخطّ جبريل وجعل آدم عليه السلام يَحفِر وحواء تنقُل التراب حتّى إذا أصاب الماء نُودي مِن تحته حسبُك آدمُ، فلمّا بنياه أُوحي إليه أن يطوف به، فقيل له: "أنت أوّل / الناس وهذا أوّل بيت"».[4] [٥٢ظ]
وهكذا ذكر الأزرقي في **تاريخه**،[5] وعبد الرزّاق في **مُصنَّفه**.[6]

ومنها: بناءُ بني آدم عندما رُفعت الخيمة التي عزّى الله تعالى بها آدم عليه السلام، وكانت ضُربت في مَوضِع البيت، فبنى بنوه مكانها بيتًا مِن الطين والحجارة، فلم يزل معمورًا يعْمُرونه هم ومَن بعدهم إلى أن مسّه الغرق في عهد نوح عليه السلام. ذكره الأزرقي بسنده إلى وهْب بن مُنبِّه.[7]

ومنها: بناء الخليل عليه السلام، وهو منصوص عليه في القرآن مَشهور فيما بين قاصٍ ودانٍ.

ومنها: بناء العمالقة.

ومنها بناء جُرْهُم. ذكرهما الأزرقي بسنده إلى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه.[8]

---

١ انظر: **تهذيب الأسماء واللغات** للنووي، ١٢٤/٤.

٢ هو أحمد بن محمّد بن الوليد بن عقبة بن الأزرق بن عمرو بن الحارث بن أبي شمِر الغساني أبو الوليد المكي الأزرقي (ت نحو ٢٢٢هـ/٨٣٢م). مؤرِّخ مِن أهل مكّة. روى عن الشافعي وجماعة وروى عنه البخاري في صحيحه والواقدي وأبو حاتم الرازي. له تاريخ مكّة. **تاريخ الإسلام** للذهبي، ٢٦١/٥؛ **طبقات الشافعيّين** لابن كثير، ص ١١٥.

٣ انظر: **أخبار مكّة** للأزرقي، ٣٤/١.

٤ بلفظ قريب جدًّا في **دلائل النُبوَّة** للبيهقي، ٤٤/٢.

٥ انظر: **أخبار مكّة** للأزرقي، ٣٧/١.

٦ انظر: **المُصنَّف** لعبد الرزّاق، ٩٣/٥ (٩٠٩٦).

٧ انظر: **أخبار مكّة** للأزرقي، ٣٧/١.

٨ انظر: **أخبار مكّة** للأزرقي، ٦١/١.

ومنها: بناء قُصيّ بن كلاب. ذكَره الزُّبير[١] بن بكّار[٢] في كتاب النَّسَب.[٣]

ومنها: بناء قريش وهو مشهور.

ومنها: بناء عبد الله بن الزُّبير رضي الله عنهما.

ومنها: بناء الحَجّاج بن يوسفَ، وما كان ذلك بناءً لكلّها بل لجدار مِن جُدرانها.[٤]

وقال الحافظ السُّهيلي: «إنّ بناءها لم يكن في الدهر إلّا خمسَ مرّات، الأولى حين بناها شِيثُ عليه السلام».[٥] انتهى، والله سبحانه أعلم.

﴿وَإِسۡمَٰعِيلُ﴾ عطفٌ على ﴿إِبۡرَٰهِـۧمُ﴾. ولعلّ تأخيرَه عن المفعول للإيذان بأنّ الأصل في الرفع هو ﴿إِبۡرَٰهِـۧمُ﴾، و﴿وَإِسۡمَٰعِيلُ﴾ تبَع له. قيل: إنّه كان يُناوِله الحجارةَ وهو يبنيها.[٦] وقيل: كانا يَبنيانه مِن طرفَين.[٧]

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآ﴾ على إرادة القول، أي: يقولان. وقد قُرئ به[٨] على أنّه حال منهما عليهما السلام. وقيل: على أنّه هو العامل في ﴿إِذۡ﴾، والجملة معطوفة على ما قبلها. والتقدير: ويقولان: ربَّنا تقبَّل منّا إذ يرفعان، أي: وقت رفعهما. وقيل:[٩] ﴿وَإِسۡمَٰعِيلُ﴾ مبتدأ خبره قول محذوف هو العامل في ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآ﴾، فيكون إبراهيمُ عليه السلام[١٠] هو الرافعَ وإسماعيلُ هو الداعيَ، والجملة في محلّ النصب

---

[١] ي: زهر.

[٢] هو الزُّبير بن بكّار بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوّام بن خُويلد أبو عبد الله القُرشي الأسدي المديني المكي (ت. ٢٥٦هـ/٨٧٠م). العلّامة الحافظ النسّابة، قاضي مكّة وعالمها، وُلد في المدينة وتُوفّي في مكّة. سمع مِن سفيان بن عُيينة وأبي ضَمرة الليثي والنَّضر بن شُميل، وحدَّث عنه ابن ماجه في سُننه وأبو حاتم الرازي وابن أبي الدنيا. له تصانيف منها: جمهرة نسب قريش وأخبارها، وأخبار العرب وأيّامها، والمُوفَّقيّات، ونوادر أخبار النسب. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣١١/١٢-٣١٥؛ والأعلام للزركلي، ٤٢/٣.

[٣] لم أجده في المطبوع مِن جمهرة نسب قريش وأخبارها للزُّبير بن بكّار.

[٤] انظر: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام للفاسي، ١٢٤/١، ففيه ذِكر المرّات العشر لبناء الكعبة، مِن غير ذِكر التفاصيل المُشار إلى مصادرها.

[٥] انظر: الروض الأنف للسهيلي، ٢٦٥/٢.

[٦] القول في الكشّاف للزمخشري، ١٤٤/١.

[٧] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٣٧/١.

[٨] قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٧٦.

[٩] وفي هامش ي: ابن عادل. «منه». | انظر: اللباب لابن عادل، ٤٨٠/٢.

[١٠] ط س - عليه السلام.

على الحاليّة، أي: وإذ يرفع إبراهيم القواعد والحال أنّ إسماعيل يقول: ربَّنا تقبَّل منّا.[١] والتعرّض لوصف الربوبيّة المنبِئة عن إفاضة ما فيه صلاح المربوب مع الإضافة إلى ضميرهما عليهما السلام لتحريك سلسلة الإجابة. وتَرْك مفعول ﴿تَقَبَّلْ﴾ مع ذِكْره في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم، ٤٠/١٤]؛ ليعُمّ الدعاءَ وغيره مِن القُرَب والطاعات التي مِن جملتها ما هما بصدده مِن البناء، كما يُعرِب عنه جَعْلُ الجملة الدعائيّة[٢] حاليّةً.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لجميع المَسموعات التي مِن جملتها دعاؤُنا. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بكلّ المعلومات التي مِن زُمرتها نيّاتنا في جميع أعمالنا. والجملة تعليل لاستدعاء التقبّل لا مِن حيث إنّ كونَه تعالى سميعًا لدعائهما عليمًا بنيّاتهما مصحِّح للتقبّل في الجملة؛ بل مِن حيث إنّ عِلمَه تعالى بصحّة نيّاتهما وإخلاصهما في أعمالهما مستدَع له بمُوجَب الوعد تفضّلًا. وتأكيد الجملة لغرض كمال قوّة يقينهما بمضمونها، وقَصْر نعتَي السمع والعِلم عليه تعالى لإظهار اختصاص دعائهما به تعالى وانقطاع رجائهما عمّا سواه بالكلّيّة.

واعلم أنّ الظاهر أنّ أوّل ما جرى مِن الأمور المَحكيّة هو الابتلاء وما يتبَعه، ثمّ دعاء البلديّة والأمن وما يتعلّق به، ثمّ رَفْع قواعد البيت وما يتلوه، ثمّ جَعْله مثابة للناس والأمر بتطهيره. ولعلّ تغيير الترتيب الوقوعيّ في الحكاية لنظم الشئون الصادرة عن جنابه تعالى في سِلك مستقِلّ ونظم الأمور الواقعة مِن جهة إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السلام مِن الأفعال والأقوال في سِلك آخرَ. وأمّا قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾... إلخ،[٣] فإنّما وقَع في تضاعيف الأحوال المتعلّقة بإبراهيم لاقتضاء المقام، واستيجابِ ما سبق مِن الكلام ذلك، بحيث لم يكن بدٌّ منه أصلًا، كما أنّ وقوع قوله عليه السلام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة، ١٢٤/٢] في خلال كلامِه سبحانه لذلك.

---

١ القولان في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١١٤/٢؛ واللباب لابن عادل، ٤٨٠/٢.

٢ ي: غائيّة.

٣ الآية السابقة.

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ مخلِصَين لك، أو مستسلمَين، مِن أَسلَم إذا استسلم وانقاد. وأيًا ما كان فالمطلوب الزيادة والثبات على ما كانا عليه مِن الإخلاصِ والإذعان. وقُرئ: "مُسْلِمِينَ"[1] على صيغة الجمع، بإدخال هاجَرَ معهما في الدعاء، أو لأنّ التثنية مِن مراتب الجمع.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ أي: واجعل بعض ذرّيّتنا. وإنّما خصّاهم بالدعاء؛ لأنّهم أحقُّ بالشفقة، ولأنّهم إذا صلَحوا صلَح الأتباع، وإنّما خصّا به بعضهم لِما علِما أنّ منهم ظلَمة، وأنّ الحِكمة الإلهيّة لا تقتضي اتّفاق الكلّ على الإخلاص والإقبال الكُلِّيّ على الله عزّ وجلّ، فإنّ ذلك ممّا يُخلُّ بأمر المَعاش. ولذلك قيل: "لولا الحمقى لخرِبت الدنيا".[2] وقيل: أراد بالأمّة المسلِمة أمّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم.[3] وقد جُوّز أن يكونَ ﴿مِن﴾ مبيّنة قُدّمت على المبيَّن، وفُصِل بها بين العاطف والمعطوف كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق، ١٢/٦٥].[4] والأصل: وأمّة مسلِمة لك مِن ذُرّيّتنا.

﴿وَأَرِنَا﴾ مِن الرؤية بمعنى الإبصارِ أو بمعنى التعريفِ، أي: بصّرنا أو عرّفنا. ﴿مَنَاسِكَنَا﴾ أي: متعبّداتِنا في الحجّ أو مذابحَنا. والنُّسُك في الأصل: غاية العبادة، وشاع في الحجّ لِما فيه مِن الكُلفة والبُعد عن العادة. وقُرئ: "أَرْنَا"[5] قياسًا على "فَخْذ" في "فَخِذ"، وفيه إجحاف؛ لأنّ الكسرة منقولة مِن الهمزة الساقطةِ دليل عليها.[6] وقُرئ بالاختلاس.[7]

---

[1] قراءة شاذّة، مَروِيّة عن الحسن وعوف الأعرابي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١١٧؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٧٦.

[2] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٣٧.

[3] القول في الكشّاف للزمخشري، ١/١٤٤.

[4] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٣٧.

[5] قرأ بها ابن كثير وأبوعمرو في رواية السوسي عنه ويعقوب. النشر لابن الجزري، ١/٢٢٢.

[6] تابع المُصنِّف في هذا الزمخشري في الكشّاف، ١/١٤٥.

[7] قرأ بها أبو عمرو في رواية الدُّوري عنه. النشر لابن الجزري، ١/٢٢٢.

﴿وَتُبْ عَلَيْنَا﴾ استتابة لذرّيّتهما، وحكايتُها عنهما لترغيب الكفرة في التوبة والإيمان، أو توبةٌ لهما عمّا فرَط منهما سهوًا، ولعلّهما قالاه هضمًا لأنفسهما وإرشادًا لذرّيّتهما. ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وهو تعليل للدعاء ومَزيد استدعاء للإجابة. قيل: إذا أراد العبد أن يُستجاب له فليدع الله عزّ وجلّ بما يُناسبه مِن أسمائه وصفاتِه.

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ﴾ أي: في الأمّة المسلِمة ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ أي: مِن أنفسهم، فإنّ البعث فيهم لا يَستلزِم البعث منهم ولم يُبعَث مِن ذرّيّتهما غيرُ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فهو الذي أُجيب به دعوتُهما عليهما[1] السلام. رُوي أنّه قيل له: «قد استُجيب لك، وهو في آخر الزمان».[2] قال عليه السلام: «أنا دعوة أبي إبراهيمَ عليه السلام[3] وبشرى عيسى عليه السلام[4] ورؤيا أمّي».[5] وتخصيص إبراهيمَ عليه السلام / بالاستجابة له لِما أنّه الأصل في الدعاء وإسماعيلُ تبع له عليهما السلام. [٥٣و]

﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ يقرأ عليهم ويُبلِّغهم ما يُوحى إليه مِن البيّنات، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾ بحسب قوّتهم النظريّة ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ وما يُكمِّل به نفوسَهم مِن أحكام الشريعة والمعارف الحقّة. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ بحسَب قوّتهم العمليّة، أي: يُطهِّرهم عن دنَس الشِّرك وفنون المعاصي. ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُقهَر ولا يُغلَب على ما يريد، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلّا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة. والجملة تعليل للدعاء وإجابة المسئول، فإنّ وَصْف الحكمة مقتضٍ لإفاضة ما تقتضيه الحكمة مِن الأمور التي مِن جملتها بَعْث الرسول، ووَصْف العِزّة مستدعٍ لامتناع وجود المانِع بالمرّة.

---

١ ط: عليهم.
٢ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٥٧٥/٢؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٢٣٦/١.
٣ ط س - عليه السلام.
٤ ط س - عليه السلام.
٥ مسند أحمد، ٣٨٠-٣٧٩/٢٨ (١٧١٥٠)؛ جامع البيان للطبري، ٥٧٣/٢؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٥١/١.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ إنكار واستبعاد لأن يكون في العقلاء مَن يَرغب عن مِلّته التي هي الحقُّ الصريح والدِّين الصحيح، أي: لا يرغب عن مِلّته الواضحة الغرّاء ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ أي: أذلّها واستمْهَنها واستخَفَّ بها. وقيل: خسِر نفسه.[١] وقيل: أوبَق أو أهلَك[٢] أو جهِل نفسَه.[٣] «قال المبرّد وثعلب:[٤] سفِه بالكسر متعدٍّ وبالضمّ لازم».[٥] ويشهَد له ما ورد في الخبر: «الكِبْر: أن تَسْفَه الحَقّ وتَغمِصَ[٦] النَّاسَ».[٧] وقيل: معناه: ضلّ مِن قِبَل نفسِه.[٨] وقيل: أصله: سفِه نفسُه بالرفع فنُصِب على التمييز،[٩] نحو "غَبِن رأيَه" و"أَلِمَ رأسَه"،[١٠] ونحو قوله:

ونأخذْ[١١] بعده بذِناب عيشٍ   أجبَّ الظهرَ ليس له سَنامُ[١٢]

---

[١] مَرويّ عن ابن عبّاس. انظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ١/١٤٠؛ والبسيط للواحدي، ٣/٣٣٥؛ معالم التنزيل للبغوي، ١/١٥١.

[٢] ي: هلك.

[٣] أوبق وأهلك نفسه قول أبي عبيدة في مجاز القرآن، ١/٥٦. وجعل نفسه قول الزجّاج في معاني القرآن وإعرابه، ١/٢١١. وانظر قوليهما في معالم التنزيل للبغوي، ١/١٥٢.

[٤] هو أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني مولاهم البغدادي الإمام أبو العبّاس ثعلب (ت. ٢٩٢هـ/٩١٤م). إمام الكوفيين في النحو واللغة. لازَم ابن الأعرابي بضع عشرة سنة، وسمع مِن محمّد بن سلّام الجمحي وعليّ بن المُغيرة الأثرم. وروى عنه محمّد بن العبّاس اليزيدي والأخفش الأصغر ونفطويه وغيرهم. مِن كتبه: الفصيح، والمجالس، وقواعد الشعر، وشرح شعر زهير بن أبي سُلمى، وشرح ديوان الأعشى، وشرح ديوان عَديّ بن الرِّقاع العاملي. انظر: بغية الوعاة للسيوطي، ١/٣٩٦-٣٩٨؛ والأعلام للزركلي، ١/٢٦٧.

[٥] أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٣٩.

[٦] ي: تغمض.

[٧] سنن أبي داود، ٦/١٩١ (٤٠٩٢)؛ سنن الترمذي، ٤/٣٦١ (١٩٩٩)، ولفظه فيهما «... الكبر: مَن بَطِر الحقّ، وغمص الناس». وبلفظه ههنا في المعجم الكبير للطبراني، ٢/٦٢ (١٣١٧)؛ والكشّاف للزمخشري، ١/١٤٦؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٣٩.

[٨] ي - وقيل: معناه: ضلّ مِن قِبَل نفسِه. | هو قول الكلبي في معالم التنزيل للبغوي، ١/١٥٢.

[٩] انظر: معاني القرآن للفرّاء، ١/٧٩.

[١٠] انظر: معاني القرآن وإعرابه للزّجّاج، ١/٢١١؛ والكشّاف للزمخشري، ١/١٤٥.

[١١] جواب شرط وقع في البيت السابق عليه.

[١٢] البيت للنابغة الذبياني في ديوانه، ص ٢٣٢، وفيه: "ونمسك" مكان "ونأخذ". وهو له على ما نحن فيه في كتاب سيبويه، ١/١٩٦؛ والمُفصَّل للزمخشري، ص ٢٢٦. وعجزه بلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ١/١٤٥.

وقوله:

وما قومي بثعلبةَ بن سعدٍ[١] ولا بفزارةَ[٢] الشُّعُرِ الرِّقابا[٣]

وذلك لأنّه إذا رغِب عمّا لا يَرغَب عليه[٤] أحد مِن العقلاء فقد بالغ في إذلال نفسه وإذالتها[٥] وإهانتها حيث خالف بها كلّ نفس عاقلة. رُوي: أنّ عبد الله بن سلَام دعا ابنَي أخيه سلمةَ ومهاجِرًا إلى الإسلام فقال لهما: «قد علِمنا أنّ الله تعالى قال في التوراة: "إني باعثٌ مِن ولد إسماعيل نبيًّا اسمه أحمدُ فمن آمن به فقد اهتدى ورشَد ومَن لم يُؤمِن به فهو ملعون"»، فأسلم سلمةُ وأبى مهاجِر، فنزلت.[٦]

﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي: اخترناه بالنُبوّة والحكمة مِن بين سائر الخلق. وأصله: اتّخاذ صفوة الشيء، كما أنّ أصل "الاختيار" اتّخاذ خَيره. واللام لجواب قسم محذوف، والواو اعتراضيّة، والجملة مقرِّرة لمضمون ما قبلها، أي: وبالله لقد اصطفينا.[٧]

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: مِن المشهود لهم بالثبات على الاستقامة والخير والصلاح، معطوف عليها داخل في حيّز القسَم مؤكِّد[٨] لمضمونها مقرِّر لِما تُقرِّره، ولا حاجة إلى جَعْله اعتراضًا آخرَ أو حالًا مقدَّرة،

---

١ هم بنو ثعلبة بن سعد بن ذُبيان بن بغيض بن رَيْث بن غطفان. انظر: اللباب لابن الأثير، ٢٣٧/١؛ ونهاية الأرب للقلقشندي، ص ١٩٥.

٢ هم بنو فزارة بن ذُبيان بن بغيض بن رَيْث بن غطفان. كانت منازلهم بنجد ووادي القرى. انظر: اللباب لابن الأثير، ٤٢٩/٢؛ ونهاية الأرب للقلقشندي، ص ٣٩٢.

٣ البيت للحارث بن ظالم المُرّي في المفضّليّات للمُفضّل الضّبي، ص ٣١٤، والرواية فيه:
فما قومي بثعلبة بن سعد ولا بفزارة الشُّعْرى رِقابا
وهي إحدى روايتين أوردهما سيبويه للبيت، وعزاه للحارث، والرواية الثانية فيه مطابقة لرواية المُصنِّف ههنا. انظر: كتاب سيبويه، ٢٠١/١. وعجزه بلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ١٤٥/١.

٤ ط س - عليه.

٥ وفي هامش ط ي: مِن الذيل وهو الهوان. «منه».

٦ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ١٥٢/١؛ والكشّاف للزمخشري، ١٤٦/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤٠/١.

٧ ط: اصطفيناه.

٨ ي: المؤكّد.

فإنّ مَن كان صفوةً للعباد في الدنيا مشهودًا له بالصلاح في الآخرة كان حقيقًا بالاتِّباع لا يَرغبُ عن مِلّته إلّا سفيه أو متسفِّه أذلّ نفسَه بالجهل والإعراض عن النظر والتأمّل. وإيثار الاسميّة لِما أنّ انتظامه في زُمرة صالحي أهل الآخرة أمر مستمِرّ في الدارين، لا أنّه يَحدُث في الآخرة. والتأكيد بـ"إنّ" و"اللام" لِما أنّ الأمور الأخرويّة خفيّة عند المخاطَبين، فحاجتها إلى التأكيد أشدُّ مِن الأمور التي تُشاهَد آثارها. وكلمة ﴿فِي﴾ متعلِّقةٌ بـ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، على أنّ اللام للتعريف وليست بموصولة حتّى يَلزَم تقديم بعض الصلة عليها، على أنّه قد يُغتفَر في الظرف[1] ما لا يُغتفَر في غيره، كما في قوله:

ربَّيتُه حتّى إذا تَمَعْددا كان جزائي بالعصا أن أُجلَدا[2]

أو بمحذوف مِن لفظه، أي: وإنّه لَصالح في الآخرة لَمِن الصالحين، أو مِن غير لفظه، أي: أعني في الآخرة، نحو "لك" بعد "رَعْيًا". وقيل: هي متعلِّقة بـ﴿ٱصْطَفَيْنَٰهُ﴾، على أنّ في النظم الكريم تقديمًا وتأخيرًا تقديرُه: ولقد اصطفيناه في الدنيا والآخرة وإنّه لَمِن الصالحين.[3]

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ﴾ ظرف لـ﴿ٱصْطَفَيْنَٰهُ﴾، لِما أنّ المتوسِّط ليس بأجنبيّ؛ بل هو مقرِّر له لأنّ اصطفاءه في الدنيا إنّما هو للنبوّة وما يتعلّق بصلاح الآخرة، أو تعليلٌ له. أو منصوب بـ"اذكُرْ"، كأنّه قيل: اذكُر ذلك الوقتَ لتقِفَ[4] على أنّه المصطفى الصالح المستحِقّ للإمامة والتقدّم، وأنّه ما نال ما نال إلّا بالمبادرة إلى الإذعان والانقياد لِما أُمِر به وإخلاصِ سِرّه على أحسنِ ما يكون حين قال له ﴿رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾ أي: لربّك.

---

[1] ي - في الظرف.

[2] الرجز للعجّاج في في ملحق ديوانه، ٢/٢٨١؛ وهما له في المُحتسَب لابن جنّي، ٢/٣١٠. وانظر تفصيل الكلام عليهما في خزانة الأدب للبغدادي، ٨/٤٢٩-٤٣٣. وقال ابن جنّي عقب البيت في المُنصِف، ١/٢٢١: «تمعدد: تكلّم بكلام معدّ، أي: كبُر وخطَب».

[3] وفي هامش س ي: قاله الحسين بن المُفضَّل. «منه». | انظر القول في اللباب لابن عادل، ٢/٤٩٩، وفي مطبوعه "الفضل" مكان "المُفضَّل".

[4] ط: ستقف.

﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وليس الأمر على حقيقته؛ بل هو تمثيل، والمعنى: أَخطَر بباله دلائل التوحيد المؤدِّية إلى المعرفة الداعية إلى الإسلام مِن الكوكب والقمر والشمسِ. وقيل: أسلِم، أي: أذعِن وأطِع.[1] وقيل: اثبُت على ما أنت عليه مِن الإسلام والإخلاصِ، أو استقِم وفوِّض أُمورك إلى الله تعالى،[2] فالأمر على حقيقته. والالتفات[3] مع التعرّض لعنوان الربوبيّة والإضافةِ إليه عليه السلام لإظهار مَزيد اللطف به والاعتناء بتربيته. وإضافة الربّ في جوابه عليه السلام إلى[4] ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ للإيذان بكمال قوّة إسلامه عليه السلام، حيث أيقَن حين النظر بشمول ربوبيّته للعالمين قاطبةً لا لنفسه وحدَه كما هو المأمور به.

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ﴾ شروع في بيان تكميله عليه السلام لغيره إثرَ بيانِ كماله في نفسه، وفيه توكيد لوجوب الرغبة في مِلّته عليه السلام. والتَّوصية: التقدّم إلى الغير بما فيه خير وصلاح للمسلمين مِن فعل أو قول، وأصلها الوُصْلة، يقال: "وصّاه" إذا وصَله، و"فصّاه" إذا فَصَله. كأنّ المُوصِيَ يصِل فعله بفعل الوَصيّ.[5] والضمير في ﴿بِهَا﴾ للمِلّة، أو قوله: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[6] بتأويل الكلمة، كما عُبّر بها عن قوله تعالى: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۞ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [الزخرف، ٤٣/٢٦-٢٧] في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف، ٤٣/٢٨]. وقُرئ: "أَوْصى"[7] والأوّل أبلَغ. ﴿وَيَعْقُوبُ﴾ عطفٌ على ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ﴾، أي:

---

١ انظر: الكشّاف للزمخشري، ١/١٤٦.

٢ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ١/١٥٣.

٣ وفي هامش ط ي: أي في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾. «منه».

٤ ي: على.

٥ مِن قوله: "والتوصية" بلفظ قريب جدًّ في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٤٠.

٦ الآية السالفة.

٧ قرأ بها نافع وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٢.

وصّى بها هو[١] أيضًا بنيه. وقُرِئ بالنصب[٢] عطفًا على ﴿بَنِيهِ﴾.

[٥٣ظ] ﴿يَٰبَنِيَّ﴾ على / إضمار القول عند البصريّين، ومتعلِّق بـ﴿وَصَّىٰ﴾ عند الكوفيّين؛ لأنّه في معنى القول،[٣] كما في قوله:

رَجُلانِ مِن ضَبَّةَ[٤] أَخبَرانا إنّا رأَينا رَجُلًا عُريانا[٥]

فهو عند الأوّلين بتقدير القول وعند الآخِرين متعلِّق بالإخبار الذي هو في معنى القول. وقُرِئ: "أنْ يَا بَنيَّ".[٦] «وبنو إبراهيمَ عليه السلام كانوا أربعة: إسماعيلُ وإسحاقُ ومَدينُ ومدانُ. وقيل: ثمانية. وقيل: أربعة وعشرين. وكان[٧] بنو يعقوبَ اثني عشرَ: روبيل وشَمعون ولاوي ويهوذا ويشسوخور وزيولون وذوانا وتفثونا وكوذا وأوشير وبنيامين ويوسف عليهم السلام».[٨]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ دين الإسلام الذي هو صفوة الأديان ولا دينَ غيرُه عنده تعالى. ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ظاهره النهي عن الموت على خلاف حال الإسلام، والمقصود الأمر بالثبات على الإسلام إلى حين الموت، أي: فاثبُتوا عليه ولا تُفارقوه أبدًا، كقولك: "لا تُصلِّ إلّا وأنت خاشع". وتغييرُ العبارة للدلالة على أنّ موتهم لا على الإسلام موت لا خيرَ فيه، وأنّ حقّه ألّا يَحلَّ بهم، وأنّه يجِب أن يَحذَروه غايةَ الحذَر. ونظيره "مُتْ وأنت شهيدٌ".[٩]

---

١ ي - هو.

٢ قراءة شاذّة، مَرويّة عن عليّ بن أبي طالب وعمرو بن فائد وطلحة وعبد العزيز المكي والضرير عن يعقوب. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٧؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٧٦؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ٤٦٣-٤٦٤.

٣ انظر المسألة في **المُحتسَب** لابن جنّي، ١/١٠٨-١٠٩؛ **والكشّاف** للزمخشري، ١/١٤٧.

٤ هم بنو ضبّة بن أُدّ بن طابخة بن إلياس بن مُضر. كانت ديارهم بالنواحي الشماليّة التهاميّة مِن نجد. انظر: **أنساب الأشراف** للبلاذُري، ١١/٣٦٣؛ **ونهاية الأرب** للقلقشندي، ص ٣١٨.

٥ ما عرفتُ قائله. وهو بلا نسبة في **معاني القرآن** للفرّاء، ٢/٤١٢ (ص، ٣٨/٧٠)؛ **وتفسير الطبري**، ٢٠/١٤٣ (ص، ٣٨/٧٠)؛ **والمُحتسَب** لابن جنّي، ١/١٠٩؛ **والكشّاف** للزمخشري، ١/١٤٧؛ **واللباب** لابن عادل، ٢/٥٠٣.

٦ قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن مسعود. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٧٦.

٧ ي: وكانوا.

٨ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/١٤٠.

٩ وفي هامش س ط ي: لكن لا في إيجاب الدوام. «منه». | انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ١/١٤٧.

رُوي أنّ اليهودَ قالوا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «ألستَ تعلم أنّ يعقوبَ أوصى باليهوديّة يوم مات؟» فنزلت ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾.[1] ﴿أَمْ﴾: منقطِعة مقدَّرة بـ"بل" والهمزة. والخطاب لأهل الكتاب الراغبين عن مِلّة إبراهيمَ عليه السلام. و﴿شُهَدَآءَ﴾ جمع شهيد، أو شاهد بمعنى: الحاضِر.[2] و﴿إِذْ﴾ ظرف لـ﴿شُهَدَآءَ﴾. والمراد بحضور الموت حضورُ أسبابه. وتقديم يعقوبَ عليه السلام للاهتمام به؛ إذ المراد بيان كيفيّة وصيّته لبنيه بعد ما بُيِّن[3] ذلك إجمالًا. ومعنى "بل" الإضراب والانتقال عن توبيخهم على رغبتهم عن مِلّة إبراهيم عليه السلام إلى توبيخهم على افترائهم على يعقوبَ عليه السلام باليهوديّة حسبما حُكي عنهم، وأمّا تعميمُ الافتراء ههنا لسائر الأنبياء عليهم السلام[4] -كما قيل-[5] فيأباه تخصيص يعقوبَ عليه السلام بالذِّكر، وما سيأتي مِن قوله عزّ وجلّ: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾... إلخ، [البقرة، ١٤٠/٢]. ومعنى الهمزة: إنكار وقوع الشهود عند احتضاره عليه السلام وتبكيتُهم.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ﴾ بدل مِن ﴿إِذْ حَضَرَ﴾، أي: ما كنتُم حاضرين عند احتضاره عليه السلام وقولِه لبنيه: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ أي: أيُّ شيء تعبدونه بعد موتي؟ فمِن أين لكم أن تدَّعوا عليه عليه السلام ما تدَّعون رجمًا بالغيب؟ وعند هذا تمّ التوبيخ والإنكار والتبكيت، ثمّ بُيِّن أنّ الأمر قد جرى حينئذ على خلاف ما زعموا، وأنّه عليه السلام أراد بسؤاله ذلك تقريرَ بنيه على التوحيد والإسلام وأخذَ ميثاقِهم على الثبات عليهما، إذ به تتِمُّ وصيّته بقوله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾. و﴿مَا﴾ يُسأل به كلّ شيء ما لم يُعرَّف، فإذا عُرِّف خُصّ العقلاء بـ"مَنْ" إذا سُئِل عن شيء بعينه، وإن سُئل عن وصفه قيل: ما زيد؟ أفقيه أم طبيب؟

---

[1] بلفظ قريب في أسباب النزول للواحدي، ص ٤٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٥٤/١. وانظر: جامع البيان للطبري، ٥٨٥/٢؛ والكشّاف للزمخشري، ١٤٧/١-١٤٨.

[2] انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٤٧/١.

[3] ي: تبيّن.

[4] ي - عليهم السلام.

[5] انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٤٨/١.

فقوله[١] تعالى: ﴿قَالُواْ﴾ استئناف وقَع جوابًا عن سؤال نشأ عن حكاية سؤال يعقوبَ عليه السلام، كأنّه قيل: فماذا قالوا عند ذلك؟ فقيل قالوا: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ حسبما كان مراد أبيهم عليه السلام بالسؤال، أي: نعبد الإله المتفِّق على وجوده وإلهيّته ووجوب عبادته. وعَدّ إسماعيلَ عليه السلام[٢] مِن آبائه تغليبًا للأب والجدّ لقوله عليه السلام: «عمُّ الرجُل صِنْوُ أبيه»،[٣] وقولِه عليه السلام في العبّاس رضي الله عنه:[٤] «هذا بقيّة آبائي».[٥] وقُرئ: "أَبِيكَ"[٦] على أنّه جمع بالواو والنون، كما في قوله:

فلمّا تَبَيَّنَّ أصواتَنا بكَينَ وفَدَّيننا بالأَبِينا[٧]

وقد سقطت النون[٨] بالإضافة. أو مفردٌ و﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ عطفُ بيانٍ له و﴿إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ معطوفان على "أَبِيكَ".

﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ بدَل مِن ﴿إِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾، كقوله[٩] تعالى: ﴿بِٱلنَّاصِيَةِ ۝ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ﴾ [العلق، ٩٦/١٥-١٦]. وفائدته: التصريح بالتوحيد، ودفع التوهّم الناشئ مِن تكرير المضاف لتعذُّر العطفِ على المجرور. أو نَصْب على الاختصاص، ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ حال مِن فاعل ﴿نَعْبُدُ﴾، أو مِن مفعوله، أو منهما معًا. ويَحتمِل أن يكون اعتراضًا محقِّقًا لمضمون ما سبق.

---

١ س: وقوله.

٢ ط س - عليه السلام.

٣ **مسند أحمد**، ٢/١٢٨-١٢٩ (٧٢٥)؛ **صحيح مسلم**، ٢/٦٧٦ (٩٨٣)؛ **جامع البيان للطبري**، ١٣/٤٢٥ (الرعد، ١٣/٤)؛ **الكشّاف للزمخشري**، ١/١٤٨؛ **أنوار التنزيل للبيضاوي**، ١/١٤١.

٤ ط س - رضي الله عنه.

٥ **المُصنَّف لابن أبي شيبة**، ٦/٣٨٢ (٣٢٢١٢)؛ **فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل**، ٢/٩٣٠ (١٧٨١)؛ **المعجم الكبير للطبراني**، ١١/٨٠ (١١١٠٧)، وفيها جميعًا "فإنّه" مكان "هذا". وهو بلفظه ههنا في **الكشّاف للزمخشري**، ١/١٤٨؛ و**أنوار التنزيل للبيضاوي**، ١/١٤١.

٦ قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن عبّاس ويحيى بن يعمر. **شواذّ القرآن لابن خالويه**، ص ١١٧؛ **شواذّ القراءات للكرماني**، ص ٧٧.

٧ البيت لزياد بن واصل السُّلمي. وهو بلا نسبة في **كتاب سيبويه**، ٣/٤٠٦، وقال بعد إنشاده: «أنشدناه مَن نثق به، وزعم أنّه جاهليّ»؛ وهو له في **شرح أبيات سيبويه لابن السيرافي**، ٢/٢٨٤؛ و**فُرحة الأديب للغُندجاني**، ص ٧٧. وهو بلا نسبة في **المُحتسَب لابن جنّي**، ١/١١٢؛ و**الكشّاف للزمخشري**، ١/١٤٨.

٨ س - النون.

٩ س: لقوله.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ﴾ مبتدأ وخبر، والإشارةُ إلى إبراهيمَ ويعقوبَ وبَنِيهما الموحِّدين. والأمّة: هي الجماعة التي تَؤمّها فِرَق الناس، أي: يقصِدونها ويَقتدون بها. ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ صفة للخبر، أي: مضت بالموت وانفردت عمّن عداها، وأصله: صارت إلى الخلاء، وهي الأرض التي لا أنيس بها. ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾: جملة مستأنَفة لا محلّ لها مِن الإعراب، أو صفة أخرى لـ﴿أُمَّةٌ﴾، أو حال مِن الضمير في ﴿خَلَتْ﴾. و﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة، والعائد إليها محذوف، أي: لها ما كسبَتْه مِن الأعمال الصالحة المَحكيّة لا تتخطّاها إلى غيرها، فإنّ تقديم المسند يُوجِب قصر المسنَد إليه عليه، كما هو المشهور.

﴿وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ عطفٌ على نظيرتها على الوجه الأوّل، وجملة مبتدأة على الوجهين الأخيرين؛ إذ لا رابط فيها، ولا بدّ منه في الصفة؛ ولا مقارنة في الزمان، ولا بدّ منها في الحال، أي: لكم ما كسبتموه لا ما كسبَه غيركم، فإنّ تقديم المسنَد قد يُقصد به قصرُه على المسند إليه، كما قيل في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون، ١٠٩/٦]، أي: ولي ديني لا دينُكم.[1] وحمل الجملة الأولى على هذا القصر على معنى: أنّ أولئك لا يَنفعهم إلّا ما اكتسبوا -كما قيل-[2] ممّا لا يُساعده المقام، إذ لا يَتوهّم متوهِّم انتفاعهم بكسب هؤلاء حتّى يُحتاج إلى بيان امتناعِه، وإنّما الذي يُتوهَّم انتفاعُ هؤلاء بكسبهم فبُيِّن[3] امتناعُه بأنّ أعمالهم الصالحة مخصوصة بهم لا تتخطّاهم إلى غيرهم، وليس لهؤلاء إلّا ما كسبوا فلا ينفعهم انتسابهم إليهم، وإنّما ينفعهم اتّباعُهم لهم في الأعمال، كما قال عليه السلام: «يا بني هاشم لا يأتيني الناسُ بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم».[4]

---

[1] انظر لهذا التقديم في الآية: مفتاح العلوم للسَّكّاكي، ص ٣٢١؛ والإيضاح للقزويني، ص ١٩٣.

[2] انظر: الكشّاف للزمخشري، ١/١٤٩.

[3] ي: فتبيّن.

[4] لم أجده في مظانّه. وهو في الكشّاف للزمخشري، ١/١٤٩؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٤٢.

[٥٤و] ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾: / إن أُجريَ السؤال على ظاهره، فالجملة مقرِّرة لمضمون ما مرَّ مِن الجملتين تقريرًا ظاهرًا، وإن أُرِيد به سببُه، أعني: الجزاء، فهو تتميم لِما[١] سبق جارٍ مَجرى النتيجة له. وأيًّا ما كان فالمراد: تخييب المخاطَبين وقطع أطماعهم الفارغة عن الانتفاع بحسنات الأمّة الخالية. وإنّما أُطلِق العمل لإثبات الحُكم بالطريق البُرهانيّ في ضمن قاعدة كلِّيّة. هذا، وقد جُعل السؤال عبارة عن المؤاخذة، والموصول عن السيئات، فقيل: أي: لا تُؤاخَذون بسيّئاتهم كما لا تُثابون بحسناتهم.[٢] ولا ريب في أنّه ممّا لا يليق بشأن التنزيلِ، كيف لا، وهم منزَّهون مِن كسب السيّئات، فمِن أين يُتصوَّر تحميلُها على غيرهم حتّى يُتصَدَّى لبيان انتفاعه؟[٣]

﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٣٥﴾

﴿وَقَالُواْ﴾ شروع في بيان فنّ آخرَ مِن فنون كفرهم، وهو إضلالُهم لغيرهم إثرَ بيان ضلالهم في أنفسهم. والضمير لأهل الكتابَين، على طريقة الالتفات المؤذِن باستيجاب حالهم لإبعادهم مِن مقام المخاطَبة، والإعراضِ عنهم وتعديدِ جناياتهم عند غيرهم، أي: قالوا للمؤمنين: ﴿كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾، ليس هذا القول[٤] مَقولًا لكُلِّهم أو لأيّ طائفة كانت مِن الطائفتين؛ بل هو موزَّع إليهما على وجه خاصّ يقتضيه حالُهما اقتضاءً مغنِيًا عن التصريح به، أي: قالت اليهود: «كونوا هودًا»، والنصارى: «كونوا نصارى»، ففُعِل بالنظم الكريم ما فُعِل بقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة، ١١١/٢] اعتمادًا على ظهور المَرام. ﴿تَهۡتَدُواْ﴾ جواب للأمر، أي: إن تكونوا كذلك تهتدُوا.

﴿قُلۡ﴾ خطاب للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم، أي: قل لهم على سبيل الردّ عليهم وبيانِ ما هو الحقُّ لديهم وإرشادِهم إليه: ﴿بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ أي: لا نكون

---

[١] ي: ممّا.

[٢] انظر ذلك في الكشّاف للزمخشري، ١٤٩/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤٢/١.

[٣] ي: امتناعه.

[٤] ط: السؤال.

كما تقولون؛ بل نكون أهل مِلّته عليه السلام. وقيل: بل نتّبع مِلّته عليه السلام.[١] وقد جُوّز أن يكون المعنى: بل اتّبعوا أنتم ملّته عليه السلام، أو كونوا أهلَ مِلّته.[٢] وقُرئ بالرفع،[٣] أي: بل مِلّتُنا، أو أمرُنا مِلّتُه، أو نحن مِلّتُه، أي: أهلُ مِلّته. ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مائلًا عن الباطل إلى الحقّ، وهو حال مِن المضاف إليه كما في "رأيتُ وجه هِند قائمةً"، أو المضافِ كما[٤] في[٥] قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا﴾... إلخ، [الحجر، ٤٧/١٥]. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ تعريض بهم وإيذان ببُطلان دعواهم اتّباعَه عليه السلام، مع إشراكهم بقولهم: عُزيرٌ ابنُ الله، والمَسيحُ ابنُ الله.

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾

﴿قُولُوٓاْ﴾ خطاب للمؤمنين بعد خِطابه عليه السلام بردّ مقالتهم الشنعاء على الإجمال، وإرشادٌ لهم إلى طريق التوحيد والإيمان على ضرب مِن التفصيل، أي: قولوا لهم بمقابَلة ما قالوا تحقيقًا وإرشادًا ضمنيًّا لهم إليه: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ يعني: القرآن، قُدّم على سائر الكتب الإلهيّة مع تأخّره عنها نزولًا لاختصاصه بنا وكونه سببًا للإيمان بها.

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ الصُحُف وإن كانت نازلة إلى إبراهيمَ عليه السلام،[٦] لكن مَن بَعده عليهم السلام حيث كانوا متعبّدين بتفاصيلها داخلين تحت أحكامها جُعلت منزلةً إليهم،

---

[١] القول في معاني القرآن للأخفش، ١٥٩/١؛ والكشّاف للزمخشري، ١٤٩/١.

[٢] انظر هذا الوجه في معاني القرآن للأخفش، ١٥٩/١؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٥٥/١.

[٣] قراءة شاذّة، مَرويّة عن الأعرج ومسلم بن جندب وابن أبي عبلة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٧٧؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٤٦٥.

[٤] ي - أو المضاف كما.

[٥] ي: وفي.

[٦] ي - عليه السلام.

كما جُعل القرآن منزَلًا إلينا. والأسباط: جَمْع سِبْط، وهو الحافد، والمراد بهم حَفَدة يعقوبَ عليه السلام وأبناؤه الاثنا[١] عشرَ وذراريُّهم، فإنّهم حفَدة إبراهيمَ وإسحاقَ.

﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ مِن التوراة والإنجيل وسائر المعجزات الباهرة الظاهرة بأيديهما، حسبما فُصِّل في التنزيل الجليل. وإيراد الإيتاء لِما أُشير إليه مِن التعميم. وتخصيصُهما بالذِّكْر لِما أنّ الكلام مع اليهود والنصارى. ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ﴾ أي: جملة المذكورين وغيرُهم ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ مِن الآيات البيّنات والمعجِزات الباهرات.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ كدأب اليهود والنصارى آمنوا ببعض وكفروا ببعض، وإنّما اعتُبر عدم التفريق بينهم مع أنّ الكلام فيما أوتوه لاستلزام عدم التفريق بينهم بالتصديق والتكذيب لعدم التفريق بين ما أوُتوه. وهمزة ﴿أَحَدٍ﴾ إمّا أصليّة فهو اسم موضوع لمَن يَصلُح أن يُخاطَب، يستوي فيه المفرَد والمثنّى والمجموع والمذكَّر والمؤنَّث، ولذلك صحّ دخولُ ﴿بَيْنَ﴾ عليه، كما في مِثل "المال بين الناس"، ومنه "ما" في قوله صلّى الله عليه وسلّم: «ما أُحلَّت الغنائم لأحد سُودِ الرُّءوسِ غيرِكم»،[٢] حيث وُصِف بالجمع. وإمّا مبدَلة مِن الواو، فهو بمعنى "واحد". وعمومه لوقوعه في حيّز النفي، وصحّة دخول ﴿بَيْنَ﴾ عليه باعتبار معطوف قد حُذف لظهوره، أي: بين أحد منهم وبين غيره، كما في قول النابغة:[٣]

فما كان بين الخير لو جاء سالمًا   أبو حَجَرٍ[٤] إلّا ليالٍ قلائلُ[٥]

---

[١] ط: الاثني.

[٢] سنن الترمذي، ٢٧١/٥ (٣٠٨٥)؛ التفسير البسيط للواحدي، ٥٣٠/٤؛ الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٦٩٥/٢ (البقرة، ٢٨٥/٢).

[٣] هو زياد بن معاوية بن ضِباب الذُّبياني الغطفاني المُضري أبو أُمامة وأبو ثُمامة (ت. ٦٠٤م). شاعر جاهليّ مِن أهل الحجاز مِن الطبقة الأولى ومِن العشرة أصحاب المُعلَّقات. كانت تُضرَب له قُبّة مِن جلد أحمر بسوق عُكاظ فتقصده الشعراء فتعرِض عليه أشعارها. وهو أحد الأشراف في الجاهليّة، وكان حظيًا عند النُّعمان بن المُنذر. طُبع ديوانه مرارًا. انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة، ١٥٧/١-١٧٣؛ والأعلام للزركلي، ٥٤/٣.

[٤] كذا ضبطها المصنّف في موضع آخر.

[٥] ديوان النابغة الذُّبياني، ص ١١٩. وهو له في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٤٠/٢؛ واللباب لابن عادل، ٥٢١/٢.

أي: بين الخير وبيني. وفيه مِن الدلالة صريحًا على تحقّق عدم التفريق بين كلّ فرد فرد منهم وبين مَن عداه كائنًا مَن كان، ما ليس في أن يقال: "لا نُفرِّق بينهم". والجملة حال مِن الضمير في ﴿ءَامَنَّا﴾. وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي: مخلصون له ومذعِنون. حال أخرى منه، أو عطفٌ على ﴿ءَامَنَّا﴾.

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإنّ ما تقدّم مِن إيمان المخاطَبين على الوجه المحرَّر مَظِنّة لإيمان أهل الكتابَين، لِما أنّه مشتمِل على ما هو مقبول عندهم. ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ أي: بما آمنتم به على الوجهِ الذي فُصِّل. على أنّ "المِثل" مقحَم، كما في قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ [الأحقاف، ١٠/٤٦] أي: عليه، ويعضُده قراءة ابن مسعود رضي الله عنه[1] "بِمَا آمَنتُمْ بِهِ"،[2] وقراءة أُبيّ "بالذي آمَنتُم بِهِ".[3]

ويجوز أن تكون الباء للاستعانة،[4] على أنّ المؤمَن به محذوف لظهوره بمُروره آنفًا، أو على أنّ الفعل مُجرًى مُجرى اللازم، أي: فإن آمنوا بما مرّ مفصَّلًا، أو فإن فعلوا الإيمان بشهادةٍ مِثل شهادتكم؛ وأن تكون الأولى زائدةً والثانية صلةً لـ﴿ءَامَنتُم﴾ و﴿مَا﴾ مصدريّةً، أي: فإن آمنوا إيمانًا مثلَ إيمانكم بما ذُكِر مفصَّلًا؛ وأن تكونا[5] للملابسة، أي: فإن آمنوا ملتبِسين بمِثل ما آمنتم ملتبِسين به، أو فإن آمنوا إيمانًا ملتبِسًا بمِثل ما آمنتُم إيمانًا ملتبِسًا به مِن الإذعان / والإخلاص وعدم التفريق بين الأنبياء عليهم السلام، فإنّ ما وُجد فيهم وصدَر عنهم مِن الشهادة والإذعان وغير ذلك مِثلُ ما للمؤمنين لا عينُه، بخلاف المؤمَن به فإنه لا يُتصوَّرُ فيه التعدّد. [٥٤ظ]

---

[1] ط س - رضي الله عنه.

[2] قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن مسعود وابن عبّاس. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧.

[3] قراءة شاذّة، مَرويّة عن أُبيّ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧.

[4] انظر الوجه في الكشّاف للزمخشري، ١٥٠/١.

[5] ي: تكون.

﴿فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ إلى الحقّ وأصابوه كما اهتديتُم وحصل بينكم الاتّحادُ والاتّفاق. وأمّا ما قيل مِن أنّ المعنى: فإن تَحرَّوا الإيمان بطريقٍ يهدي إلى الحقّ مِثل طريقِكم فقد اهتدَوا فإنّ وَحدة المَقصِد لا تأبى تعدُّدَ الطريق،[1] فيأباه[2] أنّ مقام تعيين طريق الحقّ وإرشادِهم إليه بعينه لا يُلائم تجويز أن يكون له طريق آخرُ وراءه.

﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي: أعرضوا عن الإيمان على الوجه المذكور بأن أخلُّوا بشيء مِن ذلك، كأنْ آمنوا ببعض وكفروا ببعض، كما هو دينهم ودَيدَنهم. ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾ المُشاقّة والشِّقاق مِن الشِّقّ، كالمخالَفة والخِلاف مِن الخُلف، والمُعاداة والعِداء مِن العُدوة، أي: الجانب، فإنّ أحدَ المخالِفين يُعرِض عن الآخر صورةً أو معنًى ويُولِيه خَلفَه ويأخُذ في شِقٍّ غير شِقّه وعُدوةٍ غير عدوته. والتنوين للتفخيم، أي: هم مستقرون في خِلاف عظيم بعيد مِن الحقّ، وهذا لدفع ما يُتوهَّم مِن احتمال الوِفاق بسبب إيمانِهم ببعضٍ ما آمن به المؤمنون. والجملة إمّا جواب الشرط كما هي،[3] على أنّ المراد مُشاقَّتهم الحادثة بعد تولّيهم عن الإيمان كجواب[4] الشرطيّة الأولى، وإنّما أُوثِرت الجملة الاسميّة للدلالة على ثباتهم واستقرارهم في ذلك؛ وإمّا بتأويل: فاعلَموا إنّما هم في شقاق. هذا هو الذي تستدعيه فخامة شأن التنزيل الجليل.[5]

وقد قيل: قولُه تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ﴾... إلخ، مِن باب التعجيز والتبكيتِ على مِنهاج قولِه تعالى: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾[6] [البقرة، ٢/٢٣]، والمعنى فإن حصَّلوا دينًا آخرَ مِثل دينِكم مماثلًا له في الصِحّة والسَّداد فقد اهتَدَوا، وإذ لا إمكانَ له فلا إمكانَ لاهتدائهم، ولا ريب في أنّه ممّا لا يليق بحَمْل النظم الكريم عليه.

ولمّا دلّ تنكير "الشِّقاق" على امتناع الوفاق وأنّ ذلك ممّا يؤدّي إلى الجدال والقتال لا محالةَ، عقَّب ذلك بتسلية رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

---

[1] هو قول البيضاوي في أنوار التنزيل، ١/١٤٢-١٤٣.

[2] السياق: وأمّا ماقيل... فيأباه...

[3] ي + علّة.

[4] ي: لجواب.

[5] ي - الجليل.

[6] هو قول البيضاوي في أنوار التنزيل، ١/١٤٢.

وتفريح المؤمنين بوعد النصر والغَلَبة وضمان التأييد والإعزاز بالسين الدالّة على تحقّق الوقوع البتّةَ فقيل: ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ أي: سيكفيك شِقاقهم،[١] فإنّ الكفاية لا تتعلّق بالأعيان بل بالأفعال، وقد أنجَز عزّ وعلا وعده الكريمَ بقتل بني قُريظة وسبيِهم وإجلاءِ بني النَّضير.

وتلوين الخطاب بتجريده للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم مع أنّ ذلك كفاية منه سبحانه للكلّ لِما أنّه الأصل والعُمدة في ذلك، وللإيذان بأنّ القيام بأمور الحروب[٢] وتحمّلِ المُؤَن والمَشاقّ ومقاساةِ الشدائد في مناهضة الأعداء مِن وظائف الرؤساء، فنعمتُه تعالى في الكفاية والنصر في حقّه عليه السلام أتمُّ وأكملُ.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ تذييل لِما سبق مِن الوعد وتأكيد له، والمعنى: أنّه تعالى يسمَع ما تدعو به، ويَعلَم ما في نِيَّتك مِن إظهار الدِّين، فيستجيب لك ويُوصِلك إلى مرادك، أو وعيدٌ للكَفَرة، أي: يسمع ما يَنطِقون به، ويَعلَم ما يُضمِرونه في قلوبهم ممّا لا خير فيه، وهو معاقبهم عليه. ولا يخفى ما فيه مِن تأكيد الوعد السابق فإنّ وعيد الكفرة وعدٌ للمؤمنين.

﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ١٣٨﴾

﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ﴾ الصِبغة مِن الصَّبْغ كالجِلْسة مِن الجُلوس: وهي الحالة التي يقع عليها الصَّبْغ، عُبّر بها عن الإيمان بما ذُكِر على الوجه الذي فُصِّل لكونه تطهيرًا للمؤمنين مِن أوضار الكُفر وحِليةً تُزيِّنهم بآثاره الجميلة ومتداخِلًا في قلوبهم، كما أنّ شأن الصَّبْغ بالنسبة إلى الثوب كذلك. وقيل: للمشاكلة التقديريّة؛ فإنّ النصارى كانوا يَغمِسون أولادَهم في ماء أصفرَ يُسمُّونه المَعموديّة، ويزعُمون أنّه تطهير لهم، وبه تحِقّ نصرانيّتهم.[٣] وإضافتها إلى الله عزّ وجلّ مع استناده[٤] فيما سلف إلى ضمير المتكلِّمين للتشريف والإيذان بأنّها عطيّة منه سبحانه،

---

[١] ي: قال صاحب الكشّاف: في السين معنى التأكيد؛ لأنّها في مقابلة "لن". قال سيبويه: نفي سأفعل. «منه». انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٥٠/١؛ وكتاب سيبويه، ٢١٧/٤.

[٢] ط س: الحرب.

[٣] القول في الكشّاف للزمخشري، ١٥٠/١.

[٤] ي: إسناد.

لا يَستقِلُّ العبد بتحصيلها، فهي إذن مصدر مؤكِّد لقوله تعالى: ﴿ءَامَنَّا﴾،[١] داخل معه في حيّز ﴿قُولُوٓاْ﴾،[٢] منتصِب عنه انتصابَ وعد الله عمّا تقدَّمه لكونه بمَثابة فعله، كأنّه قيل: صبغَنا الله صِبغتَه. وقيل: هي منصوبة بفعل الإغراء، أي: الزَموا صبغةَ الله.[٣] وإنّما وُسّط بينهما الشرطيّتان وما بعدهما اعتناءً ببيان أنّه الإيمان الحقّ وبه الاهتداءُ، ومسارعةً إلى تسليته عليه السلام.

﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ وخبر. والاستفهام للإنكار والنفي. وقوله تعالى: ﴿صِبۡغَةٗۖ﴾ نَصْب على التمييز مِن ﴿أَحۡسَنُ﴾ منقول مِن المبتدأ، والتقدير: ومَن صبغتُه[٤] أحسنُ[٥] مِن صبغته تعالى؟ فالتفضيل جارٍ بين الصِّبغتين لا بين فاعلَيهما، أي: لا صبغةَ أحسنُ مِن صبغته، على معنى: أنّها أحسنُ مِن كلّ صبغة على ما أُشير إليه في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ﴾... إلخ،[٦] [البقرة، ٢/١١٤]. وحيث كان مدارُ التفضيل على تعميم الحُسن للحقيقيّ والفَرْضيّ المَبنيّ على زَعْم الكفَرة لم يلزَم منه أن يكون في صِبغة غيره تعالى حُسْنٌ في الجملة. والجملة اعتراضيّة مقرِّرة لِما في صبغة الله مِن معنى التبجّح والابتهاج.

﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ﴾ أي: لله الذي أولانا تلك النعمة الجليلة ﴿عَٰبِدُونَ﴾ شكرًا لها ولسائر نِعَمه. وتقديم الظرف للاهتمام ورعاية الفواصل، وهو عطفٌ على ﴿ءَامَنَّا﴾،[٧] داخل معه تحت الأمر. وإيثار الاسميّة للإشعار بدوام العبادة أو على فعل الإغراء بتقدير القول، أي: الزَموا صِبغةَ الله وقُولوا: نحن له عابدون، فقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ﴾ حينئذ يَجري مَجرى التعليل للإغراء.

﴿قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ١٣٩﴾

﴿قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا﴾ تجريد الخطاب للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم عقِبَ الكلام

---

١ البقرة، ٢/١٣٦.

٢ البقرة، ٢/١٣٦.

٣ نسَب الثعلبي والواحدي هذا الوجه إلى أبي عُبيد. انظر: **الكشف والبيان** للثعلبي، ٤/١٦٢-١٦٣؛ و**التفسير البسيط** للواحدي، ٣/٣٦٢. وردّه الزمخشري في **الكشّاف**، ١/١٥١.

٤ ي: أحسن.

٥ ي: صبغةً.

٦ ي – إلخ.

٧ البقرة، ٢/١٣٦.

الداخل تحت الأمر الوارد بالخطاب[1] العامّ لِما أنّ المأمور به مِن الوظائف الخاصّة به عليه السلام.[2] وقُرِئ بإدغام النون.[3] والهمزة للإنكار والتوبيخ، أي: أتُجادلوننا ﴿فِي ٱللَّهِ﴾ أي: في دينه، وتدَّعون أنّ دينه الحقَّ هو اليهوديّة والنصرانيّة، وتبنُون دخول الجنّة والاهتداء عليهما، وتقولون تارة: لن يدخل الجنّة إلّا مَن كان هُودًا أو نصارى، وتارة: كونوا هُودًا أو نصارى تَهتدوا.

﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ جملة حاليّة وكذلك ما عُطِف عليها، أي: أتُجادلوننا والحالُ أنّه / لا وجهَ للمجادلة أصلًا لأنّه تعالى ربُّنا، أي: مالك أمرنا وأمركم. [٥٥و] ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا﴾ أي:[4] الحسَنة الموافِقة لأمره، ﴿وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ السيّئة المخالِفة لحُكمه. ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ﴾ تعالى[5] ﴿مُخْلِصُونَ﴾ في تلك الأعمال، لا نبتغي بها إلّا وجهَه، فأنّى لكم المُحاجّة وادِّعاء حقّيّة ما أنتم عليه، والطمع في دخول الجنّة بسببه ودعوة الناس إليه.

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾

وكلمة ﴿أَمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ إمّا معادِلة للهمزة في قوله تعالى: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾،[6] داخلة في حيّز الأمر على معنى: أيَّ الأمرين تأتُون: إقامةَ الحُجّة وتنويرَ البرهان على حقّيّة ما أنتم عليه -والحال ما ذُكِر- أم التشبُّثَ بذيل التقليد والافتراء على الأنبياء، وتقولون: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾، فنحن بهم مقتدون؟ والمراد: إنكار كلا الأمرين والتوبيخ عليهما؛

---

[1] ط: في الخطاب.

[2] ي: وهو إلزام الكفرة وتبكيتهم. «منه».

[3] قراءة شاذّة، مَرويّة عن زيد بن ثابت والحسن وطلحة وابن مُحيصن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١١٧؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٧٧؛ المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ٤٦٦.

[4] ط - أي.

[5] ي - تعالى.

[6] الآية السالفة.

وإمّا منقطِعة[١] مقدَّرة بـ"بل" والهمزة دالّة على الإضراب والانتقال مِن التوبيخ على المُحاجّة إلى التوبيخ على الافتراء على الأنبياء عليهم السلام.[٢] وقُرِئ: "أَمْ يَقُولُونَ"[٣] على صيغة الغَيبة فهي منقطِعة لا غير،[٤] غيرُ داخلة تحت الأمر، واردة مِن جهته تعالى توبيخًا لهم وإنكارًا عليهم، لا مِن جهته عليه السلام على نهج الالتفات كما قيل.[٥]

هذا، وأمّا ما قيل مِن أنّ المعنى: أتُحاجُّوننا في شأن الله واصطفائه نبيًّا مِن العرب دونكم؟ لِما رُوي: أنّ أهل الكتاب قالوا: «الأنبياء كلّهم منّا، فلو كنتَ نبيًّا لكنتَ منّا»، فنزلت.[٦] ومعنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾[٧] أنّه لا اختصاصَ له تعالى[٨] بقوم دون قوم يُصيب برحمته مَن يشاء مِن عباده، فلا يَبعُد أن يُكرِمنا بأعمالنا كما أكرمَكم بأعمالكم، كأنّه ألزمهم على كلّ مذهب ينتحونه إفحامًا وتبكيتًا، فإنّ كرامة النُبوّة إمّا تفضُّل مِن الله تعالى على مَن يشاء فالكلّ فيه سواء، وإمّا إفاضة حقّ[٩] على المستحقِّين لها بالمواظَبة على الطاعة والتحلّي بالإخلاص، فكما أنّ لكم أعمالًا ربّما يعتبرها الله تعالى في إعطائها فلنا أيضًا أعمال ونحن له مخلصون، أي: لا أنتم.[١٠]

فمَعَ عدم[١١] ملاءمتِه لسياق النظم الكريم وسياقه -لاسيما على تقدير كون كلمة ﴿أَمْ﴾ معادلةً للهمزة- غيرُ صحيح في نفسه؛[١٢] لِما أنّ المراد بالأعمال مِن الطرفين ما أُشِير إليه مِن الأعمال الصالحة والسيّئة، ولا ريب في أنّ أمر الصلاح والسوء يَدور على موافَقة الدِّين المَبنيّ على البَعثة ومخالفته، فكيف يُتصوَّر اعتبار تلك الأعمال في استحقاق النُبوّة واستعدادها المتقدِّم على البَعثة بمَراتب.

---

١ السياق: إمّا معادلة... وإمّا منقطعة...

٢ ي - عليهم السلام.

٣ قرأ بها ابن كثير ونافع وعاصم في رواية أبي بكر عنه وأبو عمرو ويعقوب في رواية روح عنه وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٣.

٤ انظر: الكشّاف للزمخشري، ١/١٥١.

٥ ذهب إلى ذلك أبو حيّان في البحر المحيط، ٣/٤٩-٥٠. وانظر: اللباب لابن عادل، ٢/٥٣٢.

٦ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ١/١٥٧؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٤٤.

٧ الآية السالفة.

٨ ط س - تعالى.

٩ ي - حقّ.

١٠ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٤٤.

١١ السياق: وأمّا ما قيل... فمع عدم ملاءمته...

١٢ ي: وهو عدم سداده في نفسه. «منه».

﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ إعادة الأمر ليست[١] لمجرّد تأكيد التوبيخ وتشديد الإنكار عليهم؛ بل للإيذان بأنّ ما بعده ليس متّصلًا بما قبله؛ بل بينهما كلام للمخاطَبين مترتّب على ما سبق مستتبعٌ لِما لحق، قد ضُرب عنه الذِّكر صفحًا لظهوره، وهو تصريحهم بما وُبّخوا عليه مِن الافتراء على الأنبياء عليهم السلام، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [الحجر، ١٥/٥٦-٥٧]، وقولِه عزّ قائلًا: ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۝ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ [الإسراء، ١٧/٦١-٦٢]، فإنّ تكرير ﴿قَالَ﴾ في المَوضعين وتوسيطَه بين قولي قائل واحد للإيذان بأنّ بينهما كلامًا لصاحبه متعلّقًا بالأوّل والثاني بالتبعيّة والاستتباع، كما حُرّر في مَحلّه.

أي: كذّبهم في ذلك وبكّتهم قائلًا: إنّ الله يَعلَم وأنتم لا تعلمون. وقد نفى عن إبراهيم عليه السلام كلا الأمرين حيث قال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ [آل عمران، ٣/٦٧]، واحتجّ عليه بقوله تعالى:[٢] ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [آل عمران، ٣/٦٥]. وهؤلاء المعطوفون عليه عليهم السلام أتباعه في الدِّين وِفاقًا، فكيف تقولون ما تقولون؟ سبحانَ الله عمّا تصفون.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ إنكار لأن يكون أحد أظلَم ﴿مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً﴾ ثابتةً ﴿عِندَهُۥ﴾، كائنةً ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾، وهي شهادته تعالى له عليه السلام بالحنيفيّة والبراءة مِن اليهوديّة والنصرانيّة حسبما تُليَ آنفًا. فـ﴿عِندَهُۥ﴾ صفة لـ﴿شَهَٰدَةً﴾، وكذا ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾. جيء بهما لتعليل الإنكار وتأكيده، فإنّ ثُبوت الشهادة عنده وكونها مِن جناب الله عزّ وجلّ مِن أقوى الدواعي إلى إقامتها وأشدِّ الزواجر عن كتمانها. وتقديم الأوّل مع أنّه متأخِر في الوجود لمراعاة طريقة الترقّي مِن الأدنى إلى الأعلى. والمعنى: أنّه لا أحد أظلَمُ مِن أهل الكتاب حيث كتموا هذه الشهادة وأثبتوا نقيضها بما ذُكِر مِن الافتراء. وتعليق الأظلَميّة بمطلَق الكِتمان للإيماء إلى أنّ مَرتبة مَن يَردّها ويَشهَد بخلافها في الظُّلم خارجة عن دائرة البيان، أو لا أحدَ أظلمُ منّا لو كتمناها، فالمراد بكَتْمها: عدم إقامتها في مقام المُحاجّة.

---

[١] ط ي: ليس.

[٢] ي - تعالى.

وفيه تعريضٌ بغاية أظلَميّة أهل الكتاب على نحو ما أُشِير إليه. وفي إطلاق الشهادة مع أنّ المراد بها ما ذُكِر مِن الشهادة المعيَّنة تعريض بكتمانهم شهادةَ الله عزّ وجلّ للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم في التوراة والإنجيل.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ مِن فنون السيّئات، فيَدخُل فيها كتمانهم لشهادته سبحانه وافتراؤُهم على الأنبياء عليهم السلام دُخولًا أوّليًا، أي: هو مُحيط بجميع ما تأتون وتذرون فيُعاقبكم بذلك أشدَّ عقاب. وقُرئ: "عَمّا يَعمَلُون"[1] على صيغة الغَيْبة، فالضمير إمّا لمَن كَتَم باعتبار المعنى، وإمّا لأهل الكتاب. وقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ إلى آخر[2] الآية،[3] مَسوق مِن جهته تعالى لوصفهم بغاية الظلم وتهديدِهم بالوعيد.

﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ تكرير للمبالغة في الزجر عمّا هم عليه مِن الافتخار بالآباء والاتِّكال على أعمالهم. وقيل: الخطاب السابق لهم، وهذا لنا تحذيرًا عن الاقتداء بهم. وقيل: المراد بـ"الأمّة" الأولى: الأنبياء عليهم السلام، وبالثانية أسلاف اليهود.[4]

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ أي: الذين خفَّت أحلامُهم واستمهنوها[5] بالتقليد والإعراض عن التدبّر والنظر، مِن قولهم: ثوب سَفيه إذا كان خفيف النَّسج. وقيل: السفيه: البَهّاتُ الكذّابُ المتعمِّد خلافَ ما يَعلَم. وقيل: الظَّلوم الجَهول.[6] والمراد بـ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾: هم اليهود، على ما رُوي / عن ابن عبّاس ومجاهد رضيَ الله عنهم، قالوه إنكارًا للنَّسخ وكراهة للتحويل، حيث كانوا يَأنِسون [٥٥ظ]

---

[1] قراءة شاذّة، مَرويّة عن الحسن والزُّهري وقتادة ومجاهد والحسين الجُعفي عن أبي عمرو وابن مِقسَم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٧٧؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٤٦٦.

[2] ي: آخره.

[3] ي - الآية.

[4] القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٤٤.

[5] وفي هامش ي: أي: عقولهم. «منه».

[6] القولان في اللباب لابن عادل، ٣/٣.

بموافَقته عليه السلام لهم في القِبلة. وقيل: هم المنافقون، وهو الأنسب بقوله عزّ وعلا: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [البقرة، ١٣/٢]. وإنّما قالوه لمجرّد الاستهزاء والطعن، لا لاعتقادهم حقّيّة القِبلة الأولى وبُطلان الثانية، إذ ليس كلّهم مِن اليهود.[١] وقيل: هم المشركون ولم يقولوه كراهة للتحويل إلى مكّةَ؛ بل طعنًا في الدِّين، فإنّهم كانوا يقولون: رغِبَ عن قِبلة آبائه، ثمّ رجَع إليها ولَيَرجِعنّ إلى دينهم أيضًا.[٢] وقيل: هم القادحون في التحويل منهم جميعًا.[٣]

فيكون قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: الكفرة لبيان أنّ ذلك القول المَحكيّ لم يَصدُر عن كلّ فرد فرد مِن تلك الطوائف الثلاث؛ بل عن أشقيائهم المعتادين للخوض في فنون الفساد وهو الأظهر، إذ لو أريد بهم طائفة مخصوصة منهم لَمَا كان لبيان كونهم مِن الناس مَزيدُ فائدة. وتخصيص سُفهائهم بالذِّكر لا يقتضي تسليمَ الباقين للتحويل وارتضاءهم[٤] إيّاه؛ بل عدمَ التفوُّه بالقدح مطلقًا أو بالعبارة المَحكيّة.

﴿مَا وَلَّىٰهُمْ﴾ أي: أيُّ شيء صرَفهم. والاستفهام للإنكار والنفي. ﴿عَن قِبْلَتِهِمُ﴾ القِبلة فِعْلة مِن المقابَلة، كالوِجْهة مِن المواجَهة، وهي الحالة التي يُقابِل الشيءُ غيرَه عليها كالجِلسة للحالة التي يقع عليها الجلوس، يقال: "لا قِبْلة له ولا دِبْرة" إذا لم يَهتدِ لجهة أمرِه،[٥] غلَبت على الجهة التي يَستقبلها الإنسانُ في الصلاة. والمراد بها ههنا: بيتُ المَقدِس. وإضافتها إلى ضمير المسلمين ووصفُها بقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا﴾ أي: ثابتين مستمِرّين على التوجّه إليها ومراعاتها واعتقاد حقّيّتها لتأكيد الإنكار، فإنّ الاختصاص بالشيء والاستمرار عليه باعتقاد حقّيّته ممّا يُنافي[٦] الانصرافَ عنه.

فإن أُريد بالقائلين اليهود فمَدار الإنكار كراهتهم للتحويل عنها وزعمهم أنّه خطأ، وإن أُريد بهم المشركون فمَداره مجرَّد القصد إلى الطعن في الدِّين

---

١ انظر: جامع البيان للطبري، ٦١٦/٢-٦١٧؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٥٨/١؛ والكشّاف للزمخشري، ١٥٢/١.
٢ القول في معالم التنزيل للبغوي، ١٥٨/١؛ والكشّاف للزمخشري، ١٥٢/١.
٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤٥/١.
٤ س: ارتضائهم.
٥ انظر: التفسير الوسيط للواحدي، ٢٢٤/١.
٦ ط: لا يُنافي.

والقدح في أحكامه وإظهارُ أنّ كلًّا مِن التوجّه إليها والانصرافِ عنها واقعٌ بغير داعٍ إليه، لا لكراهتهم الانصرافَ عنها أو التوجّه إلى مكّةَ.

وتعليقُ الإنكار بما يُولِّيهم عنها لا بما يُوجِّههم إلى غيرها مع تلازمهما في الوجود لِما أنّ تَرْكَ الدِّين القديم أَبعَدُ عند العقول وإنكارُ سببه أدخَلُ، لا للإيذان بأنّ المنكِرين: هم اليهود بناءً على أنّ المنكَر عندهم هو التحويل عن خصوصيّة بيتِ المَقدِس الذي هو القِبلة الحقّة عندهم، لا التوجيهُ إلى خصوصيّة قِبلة أخرى؛[1] أو هم المشرِكون بناء على أنّ المنكَر عندهم تَرْكُ القِبلة القديمة على وجه الطعن والقدح لا التوجّه إلى الكعبة لأنّه الحقّ عندهم، فإنّه بمَعزِل مِن ذلك. كيف لا، والمنافقون مِن أحد الفريقين لا مَحالة.

والإخبار بذلك قبل الوقوع -مع كونه مِن دلائل النبوّة حيث وقع كما أُخبِر- لتوطين النفوس وإعداد ما يُبكِّتهم، فإنّ مفاجأة المَكروه على النفس أشقّ وأشدّ، والجوابُ العتيد لشغَب الخصم الألدّ أَرَدُّ.[2]

وقولُه عزّ وجلّ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ استئناف مَبنيّ على السؤال، كأنّه قيل: فماذا أقول عند ذلك؟ فقيل: قل... إلخ، أي: لله تعالى ناحيتا الأرض، أي: الجهات كلّها مِلْكًا ومُلْكًا وتصرّفًا، فلا اختصاص لناحية منها لذاتها بكونها قِبلة دون ما عداها؛ بل إنّما هو بأمر الله سبحانه ومشيئته.

﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أن يهديَه، مَشيئة[3] تابعة للحِكَم الخفيّة التي لا يَعلمها إلّا هو. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ مُوصِل إلى سعادة الدارَين. وقد هدانا إلى ذلك حيث أمرَنا مدّة[4] بالتوجّه إلى بيت المَقدِس[5] وإلى الكعبة أخرى، حسبما تقتضيه مَشيئته المقارِنة لحِكَم أبيّة ومصالحَ خفيّة.

---

[1] وفي هامش ي: أي: تعليق الإنكار بما يُولِّيهم بمَعزِل مِن ذلك إلّا مِن الإيذان بأنّ المنكرين هم اليهود والمشركون فحسب. «منه».

[2] مِن قوله: "والإخبار" بلفظ قريب جدًّا في الكشّاف للزمخشري، ١/١٥٢.

[3] ي: بمشيئة.

[4] ط س - مدّة.

[5] ط س + تارة. | وأثبتُّ ما هو أقرب إلى المعنى.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ﴾ توجيه للخطاب إلى المؤمنين بين[١] الخطابين المختصَّين بالرسول صلّى الله عليه وسلّم، لتأييد ما في مضمون الكلام مِن التشريف. و"ذلك" إشارة إلى مصدر ﴿جَعَلۡنَٰكُمۡ﴾ لا إلى جَعْل آخرَ مفهومٍ ممّا سبق كما قيل.[٢] وتوحيد الكاف مع القصد إلى المؤمنين لِما أنّ المراد مجرَّد الفَرْق بين الحاضر والمنقضي دون تعيين المخاطَبين، وما فيه مِن معنى البعد للإيذان بعُلوّ درجة المشار إليه وبُعد منزلته في الفضل وكمال تميُّزه به وانتظامه بسببه في سِلك الأمور المشاهَدة. والكاف لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة مِن الفخامة، ومحلّها في الأصل النصب على أنّه نعت لمصدر محذوف.

وأصل التقدير: جعلناكم أمّة وسَطًا جَعلًا كائنًا مِثل ذلك الجَعْل، فقُدِّم على الفعل لإفادة القَصر، واعتُبرت الكاف مُقحَمة للنُكتة المَذكورة، فصار نفس المَصدر المؤكِّدَ لا نعتًا له، أي: ذلك الجَعْل البديعَ جعلناكم ﴿أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ لا جَعْلًا آخرَ أدنى منه. والوسَط في الأصل: اسم لِما يستوي نسبة الجوانب إليه، كمَركز الدائرة، ثمّ استُعير للخصال المَحمودة البشريّة، لكن لا لأنّ الأطراف يتسارع إليها الخلل والإعواز والأوساطُ مَحميّة مَحوطة[٣] كما قيل،[٤] واستُشهد عليه بقول ابن أوس الطائي:

كانتْ هي الوسَطَ المَحميَّ فاكتَنفتْ ... بها الحوادثُ حتّى أصبحتْ طَرَفا[٥]

---

١ ي: بعد.

٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤٥/١.

٣ ي: محودة.

٤ قول الزمخشري في الكشّاف، ١٥٢/١.

٥ البيت في ديوان أبي تمّام بشرح التبريزي، ٢٧٤/٢، والرواية فيه:

كانت هيَ الوسطَ المَمنوع فاستلبت ... ما حولها الخيلُ حتّى أصبحتْ وسَطا

وهو له بروايته ههنا في الكشّاف للزمخشري، ١٥٢/١، والدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٥١/٢، واللباب لابن عادل، ١٠/٣.

فإنّ تلك العلاقة بمَعزِل مِن الاعتبار في هذا المَقام؛ إذ لا ملابَسة بينها وبين أهليّة الشهادة التي جُعلت غاية للجَعْل المذكور؛ بل لكون تلك الخصال أوساطًا للخصال الذميمة المكتنِفة بها مِن طرفي الإفراط والتفريط، كالعِفّة التي طرفاها الفُجور والخُمود، وكالشجاعة التي طرفاها التهوُّر والجُبن، وكالحِكمة التي طرفاها الجَربَزة[1] والبَلادة، وكالعدالة التي هي كيفيّة متشابِهة حاصلة مِن اجتماع تلك الأوساط المَحفوفة بأطرافها، ثمّ أُطلِق[2] على المتصِّف بها مبالغة كأنّه[3] نفسها. وسُوّي فيه[4] بين المفرَد والجمع والمذكّر والمؤنّث رعايةً لجانب الأصل كدأب سائر الأسماء التي يُوصَف بها.

وقد رُوعيت ههنا نُكتة رائقة هي أنّ الجَعْل المشار إليه عبارة عمّا تقدَّم ذِكْره مِن هدايته[5] تعالى إلى الحقّ الذي عُبّر عنه بالصراط المستقيم الذي هو الطريق السويُّ الواقع في وسط الطرُق الجائرة عن القصد إلى الجوانب، فإنّا إذا فرضنا خطوطًا كثيرة واصلة بين نقطتين متقابِلتين فالخطّ المستقيم إنّما هو الخطّ الواقع في وسط تلك الخطوط المنحنِية، ومِن ضرورة كونه وسطًا بين الطرُق الجائرة كونُ الأمّة المَهديّة إليه أمّةً وسطًا بين الأُمم / [٥٦و] السالكة إلى تلك الطرق الزائغة، أي: متّصفةً بالخصال الحميدة خِيارًا وعُدولًا مزكّين بالعِلم والعمل.

﴿لِتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بأنّ الله عزّ وجلّ قد أوضح السبُل وأرسل الرسُل فبلّغوا ونصحوا وذكّروا فهل مِن مدّكِر؟ وهو غاية للجَعْل المَذكور مترتّبة عليه، فإنّ العدالة كما أُشِير إليه حيث كانت: هي الكيفيّة المتشابِهة المتألِّفة مِن العِفّة التي هي فضيلة القوّة الشّهْويّة البهيميّة، والشجاعة التي هي: فضيلة القوّة الغضبيّة السبُعيّة، والحِكمة التي هي: فضيلة القوّة العقليّة المَلَكيّة المشار إلى رُتبتها بقوله عزّ وعلا: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة، ٢/٢٦٩]،

---

[1] رجُل جُربُزٌ بيّن الجَرْبَزة: خِبٌّ. لسان العرب لابن منظور، «جربز».

[2] وفي هامش س ي: أي:[1] الوسط. «منه». [1] هامش س – أي.

[3] ي: كأنّها.

[4] ي – فيه.

[5] ي: الله تعالى.

كان المتَّصِف بها واقفًا على الحقائقِ المُودَعة في الكتاب المبيَّن المنطوي على أحكام الدِّين وأحوال الأمم أجمعين حاويًا لشرائط الشهادةِ عليهم.

رُوي أنّ الأُممَ يوم القيامة يَجحدون بتبليغ[1] الأنبياء عليهم السلام، فيُطالبهم الله تعالى بالبيّنة وهو أعلم، إقامةً للحجّة على المنكِرين، وزيادة لخِزيهم بأن كذَّبهم مَن بعدهم مِن الأُمم، فيُؤتى بأمّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم فيَشهدون، فتقول الأُمم: «مِن أين عرفتم؟» فيقولون: «علِمنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان[2] نبيّه الصادقِ»، فيُؤتى عند ذلك بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم ويُسأل عن حال أمّته فيُزكّيهم ويَشهَد بعدالتهم، وذلك قولُه عزّ قائلًا: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.[3] وكلمة الاستعلاء لِما في "الشهيد" مِن معنى الرقيب والمهيمِن. وقيل: لتكونوا شهداء على الناس في الدنيا فيما لا يُقبَل فيه الشهادة إلّا مِن العدول الأخيار. وتقديمُ الظرف للدلالة على اختصاص شهادته عليه السلام بهم.

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾ جُرِّد الخطابُ للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم رمزًا إلى أنّ مضمون الكلام مِن الأسرار الحقيقة بأن تُخَصَّ مَعرفتُه به عليه السلام، وليس الموصول صفةً للقِبلة؛ بل هو مفعول ثانٍ للجَعْل. وما قيل مِن أنّ الجَعْل: تحويل الشيء مِن حالة إلى أخرى فالملتبِس بالحالة الثانية هو المفعول الثاني، كما في قولك: "جعلتُ الطين خَزَفًا"، فينبغي أن يكون المفعول الأوّل هو الموصول والثاني هو القِبلة،[4] فكلام[5] صناعيّ يَنساق إليه الذِّهن بحسَب النظر الجليل، ولكنّ التأمّل اللائق يهدي إلى العكس، فإنّ المقصود إفادتُه ليس جَعْل الجهة قبلةً لا غيرُ، كما يفيده ما ذُكر؛ بل هو جَعْل القبلة المحقَّقة الوجودِ هذه الجهةَ دون غيرها.

---

[1] ي: تبليغ.

[2] ط س - لسان.

[3] بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٦٣٥/٢-٦٣٦؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٥٩/١؛ والكشّاف للزمخشري، ١٥٢/١.

[4] قول أبي حيّان في البحر المحيط، ١١٤/٢؛ ونقله له ابن عادل في اللباب، ٢٠/٣.

[5] السياق: وأمّا ما قيل... فكلام صناعيّ...

والمراد بالموصول هي الكعبة، فإنّه عليه السلام كان يصلّي إليها أوّلًا، ثمّ لمّا هاجر أُمِر بالصلاة إلى الصخرة تألّفًا لليهود،[١] أو هي الصخرة لِما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: مِن أنّ قِبلته عليه السلام بمكّة كان بيت المَقدِس إلّا أنّه كان يجعل الكعبة بينه وبينه.[٢] وعلى هذه الرواية لا يُمكِن أن يُراد بالقِبلة الأولى الكعبة، وأمّا الصخرة فيتأتّى إرادتها على الروايتين. والمعنى على الأوّل: وما جعلنا القِبلة الجهةَ التي كنت عليها آثَرَ ذي أثير[٣] وهي الكعبة، وعلى الثاني: وما جعلناها التي كنتَ عليها قبل هذا الوقت وهي الصخرة.

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ العِلَل، أي: وما جعلنا ذلك لشيء مِن الأشياء إلّا لنَمتحِن الناس، أي: نُعامِلهم معاملة مَن يَمتحنُهم، ونعلم حينئذ ﴿مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ في التوجّه إلى ما أُمِر به مِن الدِّين أو القِبلة. والالتفاتُ إلى الغَيبة مع إيراده عليه السلام بعنوان الرسالة للإشعار بعِلّة الاتِّباع.

﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ يرتدّ عن دين الإسلام أو لا يتوجّه إلى القِبلة الجديدة، أو لنعلمَ الآن مَن يتّبعُ الرسول ممن لا يتّبعُه، وما كان لعارضٍ يزول بزواله. وعلى الأوّل: ما رددناك إلى ما كنتَ عليه إلّا لنَعلم الثابت على الإسلام والناكص على عَقبيه لقلقه وضعف إيمانه. والمراد بالعلم: ما يدور عليه فلَك الجزاء مِن العِلم الحاليّ، أي: ليَتعلّق عِلمُنا به موجودًا بالفعل. وقيل: المراد عِلم الرسول عليه السلام والمؤمنين، وإسناده إليه سبحانه لِما أنّهم خواصُّه، أو لتمييز الثابتِ عن المتزلزِل، كقوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال، ٣٧/٨]، فوضَع العلم موضِع التمييز الذي هو مسبَّب عنه.[٤] ويَشهَد له قراءة "ليُعلَمَ"[٥] على بناء المجهول مِن صيغة الغَيبة. والعِلم إمّا بمعنى المَعرفة، أو معلَّق بما في ﴿مَن﴾ مِن معنى الاستفهام، أو مفعوله الثاني ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ﴾... إلخ، أي: لنَعلَم مَن يتّبع الرسول متميِّزًا ممّن يَنقلِب على عقبيه.

---

[١] انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٥٣/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤٦/١.

[٢] بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٦٣٨/٢؛ والكشّاف للزمخشري، ١٥٣/١.

[٣] آثر ذي أثير: أوّل كلّ شيء. لسان العرب لابن منظور، «أثر».

[٤] القول في الكشّاف للزمخشري، ١٥٤/١.

[٥] قراءة شاذّة، مَرويّة عن الزُّهري. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧.

﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ أي: شاقّة ثقيلة. و﴿إن﴾ هي المخفَّفة مِن المثقَّلة دخلتْ على ناسخ المبتدأ والخبر، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية كما في قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء، ١٠٨/١٧]. وزعم الكوفيّون أنّها نافية واللام بمعنى "إلّا"، أي: ما كانت إلّا كبيرة.[1] والضمير الذي هو اسم "كان" راجع إلى ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾ [البقرة، ١٤٣/٢] مِن الجَعْلة أو التَّولِية أو التحويلة أو الرِّدة أو القِبلة. وقُرئ: "لَكَبِيرةٌ"[2] بالرفع على أنّ "كان" مَزيدة كما في قوله:

وإخـــوانٍ لـنـا كـانـوا كـرامِ[3]

وأصله: وإنْ هي لكبيرةٌ كقوله: إنْ زيدٌ لمنطلقٌ.

﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ أي: إلى سرّ الأحكام الشرعيّة المَبنيّة على الحِكم والمَصالح إجمالًا أو تفصيلًا، وهم المَهديُّون إلى الصراط المستقيم الثابتون على الإيمان واتِّباع الرسول عليه السلام.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي: ما صحَّ وما استقام له أن يُضيع ثباتكم على الإيمان؛ بل شكَر صنيعَكم وأعدَّ لكم الثوابَ العظيم. وقيل: إيمانكم بالقِبلة المَنسوخة وصلاتَكم إليها،[4] لِما رُوي أنّه عليه السلام لمّا توجَّه إلى الكعبة قالوا: «كيف حالُ إخوانِنا الذين مضَوا وهم يُصلُّون إلى بيت المَقدِس؟» فنزلت.[5] واللام في ﴿لِيُضِيعَ﴾ إمّا متعلِّقة بالخبر المقدَّر لـ﴿كَانَ﴾ كما هو رأي البَصْريّة،

---

١ نقل عنهم ذلك العُكبَري في التبيان، ١٢٤/١، وضعّفه. وانظر: الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٥٥/٢-١٥٦؛ واللباب لابن عادل، ٢٤/٣.

٢ قراءة شاذّة، مَرويّة عن اليزيدي واليماني والقُورُسي وميمونة عن أبي جعفر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٧٨؛ المغني في القراءات للنُوزاوازي، ص ٤٦٧.

٣ عجز بيت للفرزدق، صدره:

فكيف إذا رأيتُ ديار قومٍ

وهو في ديوانه، ص ١٥٩٧؛ وعجزه بلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ١٥٤/١، شاهدًا على ما نحن فيه، وفيه: "جيران" مكان "إخوان". وهو بلا نسبة في اللباب لابن عادل، ٢٤/٣. وانظر لتفصيل الكلام فيه: خزانة الأدب للبغدادي، ٢١٦/٩-٢١٩.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ١٥٤/١.

٥ بلفظ قريب في سنن الترمذي، ٢٠٨/٥ (٢٩٩٤)؛ وجامع البيان للطبري، ٦٣٩/٢-٦٤٠؛ والكشّاف للزمخشري، ١٥٤/١.

وانتصاب الفعل بعدها بـ"أنْ" المقدَّرة، أي: ما كان الله مريدًا أو متصدِّيًا لأن يُضيعَ... إلخ، ففي توجيه النفي إلى إرادة الفعل تأكيد ومبالغة ليس في توجيهه إلى نفسه؛ وإمّا مَزيدة للتأكيد ناصبة للفعل بنفسها كما هو رأي الكوفيّة،[1] ولا يَقدَح في ذلك زيادتها كما لا تَقدَح زيادة حروف الجرّ في عملها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ تحقيق وتقرير للحُكم وتعليل له، فإنّ اتّصافه عزّ وجلّ بهما يقتضي لا مَحالة ألّا يُضيّع أجورَهم ولا يدَع / ما [٥٦ظ] فيه صلاحهم. والباء متعلّقة بـ﴿رَءُوفٌ﴾، وتقديمه على ﴿رَحِيمٌ﴾ مع كونه أبلغَ منه لِما مرّ[2] في وجه تقديم ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ على ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾.[3] وقيل: الرحمة أكثر مِن الرأفة في الكمّيّة، والرأفة أقوى منها في الكيفيّة، لأنّها: عبارة عن إيصال النعم الصافية عن الآلام، والرحمة: إيصال النعمة مطلقًا، وقد يكون مع الألم كقطع العُضو المتأكِّل.[4] وقُرئ: "رَؤُفٌ"[5] بغير مدّ كـ"نَدُس".[6]

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: تردُّدَه وتصرُّف نظركَ في جِهتها تطلُّعًا للوحي، وذلك أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يقع في رُوْعه[7] ويتوقّع مِن ربّه عزّ وجلّ أن يُحوّله إلى الكعبة، لأنّه قِبلةُ إبراهيمَ عليه السلام[8] وأدعى للعرب إلى الإيمان، لأنّها مَفخرتهم ومَزارهم ومَطافهم ولمخالفة اليهود، فكان يُراعي نزول جبريلَ عليه السلام بالوحي بالتحويل.

---

[1] انظر لتفصيل هذه المسألة والخلاف فيها: الإنصاف لأبي البركات الأنباري، ١/٥٩٣-٥٩٧؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢/١٥٧-١٥٨؛ واللباب لابن عادل، ٣/٢٥-٢٦.

[2] ي - مرّ.

[3] في سورة الفاتحة، ١/١.

[4] القول في اللباب لابن عادل، ٣/٢٩.

[5] قرأ بها الكسائي وحمزة وعاصم في رواية أبي بكر عنه وخلف وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٣.

[6] رجلٌ نَدْسٌ ونَدُسٌ ونَدِسٌ: فَهِم سريع السمع فَطِن. لسان العرب لابن منظور، «ندس».

[7] الرُّوع: موضع الرَّوع وهو القلب. لسان العرب لابن منظور، «روع».

[8] ي - عليه السلام.

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً﴾ الفاء للدلالة على سببيّة ما قبلها لِما بعدها، وهي في الحقيقة داخلة على قَسَم محذوف تدلّ عليه اللام، أي: فوالله لنُولِّينّك، أي: لنُعطِينّكها ولنُمَكِّننّك مِن استقبالها مِن قولك: "ولَّيتُه كذا"، أي: صيَّرتُه واليًا له،[١] أو لنَجعَلنّك تلي جِهتَها، أو لنُحوِّلنّك، على أنّ نَصب ﴿قِبْلَةً﴾ بحذف الجارّ، أي: إلى قِبلة. وقيل: هو متعدٍّ إلى مفعولين.[٢] ﴿تَرْضَىٰهَا﴾ تُحبُّها وتشتاق إليها لمَقاصدَ دينيّة وافقَت مَشيئتَه تعالى وحِكْمته.

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ الفاء لتفريع الأمر بالتولية على الوعد الكريم. وتخصيصُ التولية بـ"الوجه" لِما أنّه مَدار التوجّه ومِعياره. وقيل: المراد به كلّ البدن،[٣] أي: فاصرِفه ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: نحوه، وهو: نَصْب على الظرفيّة مِن "وَلِّ"، أو على نزع الخافض، أو على أنّه مفعول ثانٍ له. وقيل: الشطر في الأصل: اسم لِما انفصل مِن الشيء. و"دار شَطور" إذا كانت منفصِلةً عن الدُّور، ثمّ استُعمل لجانبه وإن لم يَنفصِلْ كالقُطر.[٤] و﴿ٱلْحَرَامِ﴾: المحرَّم، أي: محرَّم فيه القتال أو ممنوع مِن الظَّلَمة أن يتعرَّضوا له، وفي ذِكْر المَسجِد الحرام دون الكعبة إيذانٌ بكفاية مراعاة الجهة، لأنّ في مراعاة العَين مِن البعيد حرَجًا عظيمًا بخلاف القريب.

رُوي عن البراء بن عازِب: «أنّ نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم قدِم المدينة فصلّى نحوَ بيت المَقدِس ستةَ عشرَ شهرًا، ثمّ وُجِّه إلى الكعبة».[٥] وقيل: كان ذلك في رجب بعد زوال الشمسِ قبل قتال بدر بشهرين، ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم في مَسجِد بني سَلِمة، وقد صلّى بأصحابه ركعتين مِن صلاة الظهر، فتَحوَّل في الصلاة واستقبل المِيزاب، وحوَّل الرجالَ مكانَ النساء والنساءَ مكانَ الرجال، فسُمِّيَ المسجد مسجدَ القِبلتين.[٦]

---

١ س - له.

٢ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٦٠/٢؛ واللباب لابن عادل، ٣٠/٣.

٣ لم أجِد هذا القول فيما وقفتُ عليه مِن المظانّ.

٤ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤٧/١.

٥ بلفظه في مسند أحمد، ٦٢٥/٣٠ (١٨٧٠٧)؛ وصحيح البخاري، ١٧/١ (٤٠)؛ وصحيح مسلم، ٣٧٤/١ (٥٢٥).

٦ القول في الكشّاف للزمخشري، ١٥٥/١. وانظر لتفصيل تخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزَّيلَعي، ٩٥/١.

﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ خصَّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم بالخطاب تعظيمًا لجنابه وإيذانًا بإسعاف مَرامه، ثمّ عُمِّم الخطاب للمؤمنين مع التعرّض لاختلاف أماكنِهم تأكيدًا للحُكم وتصريحًا بعُمومه لكافّة العباد مِن كلّ حاضِر وبادٍ وحثًّا للأمّة على المتابعة. و﴿حَيْثُ مَا﴾ شرطيّة، و﴿كُنتُمْ﴾ في محلّ الجزم بها، وقوله تعالى: ﴿فَوَلُّوا۟﴾ جوابها، وتكون هي منصوبة على الظرفيّة بـ﴿كُنتُمْ﴾، نحو قوله تعالى: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء، ١٧/١١٠].

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ مِن فريقَي[1] اليهود والنصارى ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ أي: التحويل أو التوجّه المفهوم مِن التولية ﴿ٱلْحَقُّ﴾ لا غيرُ، لعِلمهم بأنّ عادتَه سبحانه وتعالى جارية على تخصيص كلّ شريعة بقِبلة، ومعاينتِهم لِما هو مَسطور في كتبهم مِن أنّه عليه السلام يُصلِّي إلى القِبلتين، كما يُشعِر بذلك التعبير عنهم بالاسم الموصول بإيتاء الكتاب. و"أنّ" مع اسمها وخبرها سادّ مَسدّ مفعولَي "يعلمون"، أو مَسدّ مفعوله الواحد، على أنّ العِلم بمعنى المعرفة. وقولُه تعالى: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ متعلِّق بمَحذوف وقع حالًا مِن الحقّ، أي: كائنًا مِن ربّهم أو صفةً له، على رأي مَن يُجوِّز حذفَ الموصول مع بعض صلته، أي: الكائنَ مِن ربّهم.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[2] وعد ووعيد للفريقين، والخطابُ للكلّ تغليبًا. وقُرئ على صيغة الغَيْبة،[3] فهو وعيد لأهل الكتاب.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

---

[1] ي: فريق.

[2] س: "تعملون". | وهي مقصود المؤلف ههنا. وما سيأتي مِن الإشارة إلى القراءة بصيغة الغَيبة يُؤكِّد أنّ المُصنِّف قصد إلى ذلك وليس مِن تغيير النسخ. وهذا خلاف ما جرى عليه المُصنِّف فيما مضى مِن إثبات ما ورد في قراءة حفص عن عاصم والإشارة إلى خلافها مِن الصحيح أو الشاذّ. ولعلّه سهو منه.

[3] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو جعفر وعاصم وخلف وأبو عمرو ويعقوب في رواية رُويس عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٣.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وَضع الموصول مَوضِع المضمَر للإيذان بكمال سوء حالِهم مِن العِناد مع تحقّق ما يَزعُمهم[1] منه مِن الكتاب الناطق بحقِّيّة ما كابروا في قبوله. ﴿بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾ أي: حُجّة قطعيّة دالّة على حقِّيّة التحويل، واللام مُوطِّئة للقسَم. وقوله تعالى: ﴿مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ﴾ جوابٌ للقسَم المضمَر سادّ مَسدّ جواب الشرط، والمعنى: أنّهم ما تركوا قبلتك لشُبهة تُزيلها الحُجّة، وإنّما خالفوك مكابرة وعِنادًا. وتجريد الخطاب للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم بعد تعميمه للأمّة لِما أنّ المُحاجّة والإتيان بالآية مِن الوظائف الخاصّة به عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ جملة معطوفة على الجملة الشرطيّة لا على جوابها، مَسوقة لقطع أطماعهم الفارغة، حيث قالت اليهود: «لو ثبَتَّ على قِبلتنا لكنّا نرجو أن تكون صاحبَنا الذي ننتظره» تغريرًا له عليه السلام وطمعًا في رجوعه. وإيثار الجملة الاسميّة للدلالة على دوام مضمونها واستمراره. وإفرادُ قِبلتهم مع تعدّدها باعتبار اتّحادها في البُطلان ومخالفة الحقّ، ولئلا يُتوهَّم أنّ مَدار النفي هو التعدّد. وقُرئ: "بِتابعِ قِبْلتِهِمْ"[2] على الإضافة.

﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ فإنّ اليهود تَستقبِل الصخرة والنصارى مَطلِعَ الشمس، لا يُرجى تَوافُقهم كما لا يُرجى موافقتُهم لك لتصلُّب كلّ فريق فيما هو فيه.

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ الزائغة المتخالِفة ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ ببطلانها وحقِّيّة ما أنت عليه. وهذه الشرطيّة الفَرْضيّة واردة على مِنهاج التهييج والإلهاب للثبات على الحقّ، أي: ولئن اتّبعتَ أهواءَهم فَرْضًا ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وفيه لطفٌ للسامعين وتحذير لهم عن متابعة الهوى، فإنّ مَن ليس مِن شأنه ذلك إذا نُهيَ عنه ورُتِّب على فَرْض وقوعِه ما رُتِّب مِن الانتظام في سِلك الراسخين في الظُّلم فما ظنُّ مَن ليس كذلك؟ و﴿إِذًا﴾ حرفُ جواب وجزاء توسَّطت بين اسم "إنّ" وخبرها لتقرير ما بينهما مِن النسبة، إذ[3] كان حدُّها

---

[1] ي: يرغمهم.

[2] قراءة شاذّة، مَرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧.

[3] ي: إذا.

أن تتقدَّم أو تتأخَّر فلم تتقدَّم لئلا يُتوهَّم أنّها لتقرير النسبة التي بين الشرط وجوابه المحذوف؛ لأنّ المذكور جواب القسَم، / ولم تتأخَّر لرعاية الفواصل. [٥٧و] ولقد بُولِغ في التأكيد مِن وجوه: تعظيمًا للحقّ المعلوم، وتحريضًا على اقتفائه، وتحذيرًا عن متابعة الهوى، واستعظامًا لصدور الذنب مِن الأنبياء عليهم السلام.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: علماؤهم إذ هم العُمدة في إيتائه. ووضعُ الموصول مَوضِع المضمَر مع قُرب العهد للإشعار بعلِّيّة ما في حيّز الصلة للحُكم. والضمير المنصوبُ في قوله تعالى: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ﴾ للرسول صلّى الله عليه وسلّم. والالتفات إلى الغَيبة للإيذان بأنّ المراد ليس معرفتَهم له عليه السلام مِن حيث ذاتُه ونسبه الزاهرُ؛ بل مِن حيث كونُه مَسطورًا في الكتاب مَنعوتًا فيه بالنعوت التي مِن جملتها أنّه عليه السلام يصلّي إلى القِبلتين، كأنّه قيل: الذين آتيناهم الكتاب يَعرِفون مَن وصفناه فيه. وبهذا تظهر جزالةُ النظم الكريم.

وقيل: هو إضمار قبل الذِّكر للإشعار بفخامة شأنه عليه السلام، وأنّه عَلَم معلوم بغير إعلام، فتأمَّل. وقيل: الضمير للعِلم أو سببه الذي هو الوحي أو القرآن أو التحويل،[١] ويُؤيّد الأوّل قوله تعالى: ﴿كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ أي: يَعرِفونه عليه السلام بأوصافه الشريفة المَكتوبة في كتابهم، لا يَشتبِه عليهم كما لا يَشتبِه أبناؤُهم. وتخصيصُهم بالذِّكر دون ما يعُمّ البناتِ لكونهم أعرفَ عندهم منهنّ بسببِ كونهم أحبَّ إليهم. عن عمرَ رضي الله عنه: أنّه سأل عبدَ الله بنَ سلام رضي الله عنه عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: «أنا أعلم به منّي بابني»، قال: «ولِمَ؟» قال: «لأنّي لستُ أشكُّ فيه أنّه نبيّ، فأمّا ولدي فلعلّ والدته خانت»، فقبّل عمرُ رأسه رضي الله عنهما.[٢]

---

[١] القولان في الكشّاف للزمخشري، ١٥٦/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤٨/١.

[٢] بلفظ قريب في أسباب النزول للواحدي، ص ١٤٧؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٦٤/١؛ الكشّاف للزمخشري، ١٥٦/١.

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ هم الذين كابروا وعاندوا الحقَّ، والباقون هم الذين آمنوا منهم، فإنّهم يُظهِرون الحقَّ ولا يكتمونه، وأمّا الجهَلةُ منهم فليست لهم معرفة بالكتاب ولا بما في تضاعيفه، فما هم بصدد الإظهار ولا بصدَد الكتْم، وإنّما كُفرهم على وَجْه التقليد.

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

﴿ٱلْحَقُّ﴾ بالرفع: على أنّه مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ خبرُه، واللام للعهد والإشارة إلى ما عليه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، أو إلى الحقّ الذي يَكتُمونه أو للجنس، والمعنى: أنّ الحقّ ما ثبَت أنّه مِن الله تعالى كالذي أنت عليه، لا غيرُه كالذي عليه أهل الكتاب، أو على أنّه خبر مبتدأ محذوفٍ، أي: هو الحقّ، وقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ إمّا حال، أو خبر بعد خبر. وقُرئ بالنصب[1] على أنّه بدل مِن الأوّل، أو مفعول لـ﴿يَعْلَمُونَ﴾. وفي التعرّض لوصف الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام مِن إظهار اللُّطف به عليه السلام ما لا يخفى.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي: الشاكّين في كِتمانهم الحقَّ عالمين به. وقيل: في أنّه مِن ربّك.[2] وليس المراد به نهيَ الرسول صلّى الله عليه وسلّم عن الشكّ فيه لأنّه غيرُ متوقَّع منه عليه السلام وليس بقصد واختيار؛ بل إمّا تحقيق الأمر وأنّه بحيث لا يَشكّ فيه ناظر، أو أمرُ الأمّة باكتساب المعارف المُزيحة للشكّ على الوجه الأبلغ.

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾

﴿وَلِكُلٍّ﴾ أي: لكلّ أمّة مِن الأُمم، على أنّ التنوين عِوض مِن المضاف إليه. ﴿وِجْهَةٌ﴾ أي: قِبلة. وقد قُرئ كذلك.[3] أو لكلّ قومٍ مِن المسلمين جانب مِن جوانب الكعبة. ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ أحد المفعولين محذوف، أي: مُولِّيها وجهَه،

---

[1] قراءة شاذّة، مَرويّة عن عليّ بن أبي طالب وعبيد بن عُمير وزيد بن عليّ والحسن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٧٨؛ المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ٤٦٨.

[2] في الكشّاف للزمخشري، ١/١٥٧.

[3] قراءة شاذّة، مَرويّة عن أُبيّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٧٨.

أو الله مُولِّيها إيّاه. وقُرئ: "ولِكُلِّ وِجْهةٍ"[١] بالإضافة، والمعنى: ولكلِّ وجهةٍ اللهُ مُولِّيها أهلَها. واللام مَزيدة للتأكيد وجبرِ ضَعْف العامل، وقُرئ: "مُوَلَّاهَا"،[٢] أي: مُوَلَّى تلك الجهةِ قد وُلِّيَها.

﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: تسابقوا إليها، بنزع الجارّ، كما في قوله:

ثنائي عليكم آلَ حرب ومَنْ يَمِلْ سِواكم فإنّي مُهتدٍ غيرُ مائلِ[٣]

وهو أبلغ مِن[٤] الأمر[٥] بالمسارعة لِما فيه مِن الحثّ على إحراز قَصَب السَّبْق. والمراد بـ﴿ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ جميع أنواعها مِن أمر القِبلة وغيره، ممّا يُنال به سعادة الدارين، أو الفاضلات مِن الجهات وهي المسامِتة للكعبة.

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي: في أيّ مَوضِع تكونوا مِن موافِق أو مخالِف مجتمِع الأجزاء أو متفرِّقها يَحشُركم الله تعالى إلى المَحشَر للجزاء، أو أينما تكونوا مِن أعماق الأرضِ وقُلَل الجبال يَقبِضْ أرواحَكم، أو أينما تكونوا مِن الجهات المختلِفة المتقابِلة يَجعَلْ صلواتِكم كأنّها صلاةٌ إلى جهة واحدة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيَقدِر على الإماتة والإحياء والجمع. فهو تعليل للحُكم السابق.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾﴾

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ تأكيد لحُكم التحويل وتصريح بعدم تفاوُت الأمر في حالَتي السفَر والحضَر. و﴿مِنْ﴾ متعلِّقة بقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ﴾، أو بمَحذوف عُطف هو عليه، أي: مِن أيّ مكان خرجتَ إليه للسفر فولِّ ﴿وَجْهَكَ﴾ عند صلاتك

---

١ قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن عبّاس وعُبيد بن عُمير. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٧٨.

٢ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٣.

٣ البيت للراعي النُّميري في ديوانه، ص ٢١٠. وهو له في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢/١٧٦؛ واللباب لابن عادل، ٣/٥٩. والتقدير: ومَن يمِل إلى سِواكم، فأسقط حرف الجرّ.

٤ ط - مِن.

٥ ط: بالأمر.

﴿شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾، أو افعل ما أُمِرتَ به مِن أيّ مكانٍ خرجتَ إليه فولِّ... إلخ. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: هذا الأمر ﴿لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: الثابت الموافِق للحِكمة.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ فيُجازيكم بذلك أحسنَ جزاء، فهو وعد للمؤمنين. وقُرئ: "يَعمَلونَ"[1] على صيغة الغَيبة فهو وعيد للكافرين.

﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ﴾ إليه في أسفارك ومَغازيك مِن المَنازل القريبة والبعيدة ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾. الكلام فيه كما مرّ آنفًا. ﴿وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ﴾ مِن أقطار الأرض مقيمين أو مسافرين حسبما يُعرب عنه إيثار ﴿كُنتُمۡ﴾ على "خرجتُم"، فإنّ الخطاب عامّ لكافّة المؤمنين المنتشِرين في الآفاق مِن الحاضرين والمسافِرين، فلو قيل: "وحيثُما خرجتُم" لَمَا تناوَل الخِطاب المقيمين في الأماكن المختلِفة مِن حيث إقامتُهم فيها. ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ مِن مَحالّكم ﴿شَطۡرَهُۥ﴾. والتكرير لِما أنّ القِبلة لها شأن خطير، والنَّسخُ مِن مَظانّ الشُّبهة والفتنة، فبِالحَريّ أن يُؤكَّد أمرها مرّة غِبَّ[2] أخرى، مع أنّه قد ذُكر في كلّ مرّة حِكمة مستقِلّة.

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ﴾ متعلِّق بقوله تعالى: ﴿فَوَلُّواْ﴾. وقيل: بمَحذوف يدلّ عليه الكلام.[3] كأنّه قيل: فعلنا ذلك لئلّا... إلخ، والمعنى: أنّ التَّولية عن الصخرة تَدفَع احتجاجَ اليهود بأنّ المَنعوت في التوراة مِن أوصافه أنّه يُحوِّل إلى الكعبة، واحتجاجَ المشركين بأنّه يدَّعي مِلّة إبراهيمَ ويُخالِف قِبلته. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ وهم أهل مكّة، أي: لئلا يكونَ لأحد مِن الناس حُجّةٌ إلّا المعاندين منهم الذين / يقولون: ما تحوّلَ إلى الكعبة إلّا مَيلًا إلى دِين قومه وحبًّا لبلده، [٥٧ظ]

---

١ قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٣.

٢ ي: بعد.

٣ الكلام في التبيان للعُكبَري، ١/١٢٨؛ واللباب لابن عادل، ٣/٦٦.

أو بدا[١] له فرجع إلى قِبلة آبائه، ويُوشِك أن يَرجِع إلى دينهم. وتسمية هذه الكلمة الشنعاءِ حُجّةً مع أنّها أفحش الأباطيلِ مِن قَبيل ما في قوله تعالى: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ [الشورى، ٤٢/١٦]، حيثُ كانوا يَسوقونها مَساق الحُجّة. وقيل: الحُجّة[٢] بمعنى: مطلَق الاحتجاج. وقيل: الاستثناء للمبالغة في نفي الحُجّة رأسًا،[٣] كالذي في قوله:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنّ سُيوفهمْ   بِهنّ فُلولٌ مِن قِراع الكتائبِ[٤]

ضرورةَ ألّا حُجّة للظالم. وقُرئ: "أَلَا الذِينَ"[٥] بحرف التنبيه على أنّه استئناف. ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ فإنّ مَطاعنهم لاتَضرّكم شيئًا. ﴿وَٱخْشَوْنِى﴾ فلا تُخالفوا أمري.

﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ عِلّة لمحذوف يدلّ عليه النظم الكريم، أي: وأمرتُكم بما مرّ لإتمامي للنعمة عليكم لِما أنّه نعمة جليلة، ولإرادتي اهتداءَكم لِما أنّه صراط مستقيم مُؤدٍ إلى سعادة الدارين، كما أُشِير إليه في قوله عزّ وجلّ: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة، ٢/١٤٢]. وفي التعبير عن الإرادة بكلمة "لعلّ" الموضوعة للترجّي على طريقة الاستعارة التبَعيّة مِن الدلالة على كمال العِناية بالهداية ما لا يخفى، أو عطفٌ على عِلّة مقدَّرة، أي: واخشَوني لأحفظَكم عنهم وأُتِمّ... إلخ، أو على قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ﴾... إلخ. وتوسيط قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾... إلخ بينهما للمسارعة إلى التسلية والتثبيت. وفي الخبر: «تمام النعمة دخولُ الجنّة»،[٦] وعن عليّ رضي الله عنه: «تمام النعمة الموتُ على الإسلام».[٧]

---

١ ط: بدأ.
٢ س – الحُجّة.
٣ القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٥٠.
٤ البيت للنابغة الذُبياني في ديوانه، ص ٦٠. ومثّل به البيضاوي في أنوار التنزيل، ١/١٥٠، على ما مثّل به المُصنّف. وانظر لتفصيل الكلام على معنى الاستثناء في البيت: الإيضاح للقزويني، ص ٥٢٤.
٥ قراءة شاذّة، مَرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٨.
٦ الأدب المُفرَد للبخاري، ص ٢٥٣ (٧٢٥)؛ سنن الترمذي، ٥/٥٤١ (٣٥٢٧)؛ الكشّاف للزمخشري، ١/١٥٨.
٧ الكشف والبيان للثعلبي، ٤/٢٠٦؛ معالم التنزيل للبغوي، ١/١٦٦؛ الكشّاف للزمخشري، ١/١٥٨.

﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾

﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ﴾ متّصل بما قبله. والظرف الأوّل متعلِّق بالفعل قُدِّم على مفعوله الصريح لِما في صفاته مِن الطُّول. والظرف الثاني متعلِّق بمضمَر وقع صفة لـ﴿رَسُولٗا﴾ مبيِّنةً لتمام النعمة، أي: ولأُتِمّ نعمتي عليكم في أمر القِبلة أو في الآخرة إتمامًا كائنًا كإتمامي لها بإرسال رسول كائن منكم، فإنّ إرسال الرسول لاسيّما المجانِس لهم نعمةٌ لا يُكافئها نعمة قطُّ. وقيل: متّصل بما بعده، أي: كما ذُكِّرتُم بالإرسال فاذكروني... إلخ.[1] وإيثارُ صيغةِ المتكلِّم مع الغير بعد التوحيد فيما قبله افتنان وجَرَيان على سَنن الكبرياء.

﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ صفة ثانية لـ﴿رَسُولٗا﴾ كاشفةٌ لكمال النعمة. ﴿وَيُزَكِّيكُمۡ﴾ عطفٌ على ﴿يَتۡلُواْ﴾، أي: يَحمِلكم على ما تصيرون به[2] أزكياءَ. ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ صفة أخرى مترتِّبة في الوجود على التلاوة. وإنّما وسِّط بينهما التزكية -التي هي: عبارة عن تكميل النفس[3] بحسَب القوّة العمليّة وتهذيبِها المتفرّع على تكميلها بحسَب القوّة النظريّة الحاصل بالتعليم المترتِّب على التلاوة- للإيذان بأنّ كلًّا مِن الأمور المترتِّبة نعمة جليلة على حِيالها مستوجِبة للشكر، فلو رُوعيَ ترتيب الوجود كما في قوله تعالى: ﴿وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة، ١٢٩/٢] لَتبادَرَ[4] إلى الفهم كون الكلّ نعمةً واحدةً، كما مرّ نظيرُه في قِصّة البقرة. وهو السرّ في التعبير عن القرآن تارة بـ"الآيات" وأخرى بـ"الكتاب والحِكمة" رمزًا إلى أنّه باعتبار كلّ عنوان نعمة على حِدة، ولا يَقدَح فيه شمول الحِكمة لِما في تضاعيف الأحاديث الشريفة مِن الشرائع.

وقولُه عزّ وجلّ: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ صريح في ذلك، فإنّ الموصول مع كونه عبارة عن الكتاب والحِكمة قطعًا قد عُطف تعليمه على تعليمها،

---

[1] القول في الكشّاف للزمخشري، ١٥٨/١.
[2] ط - أزكياء.
[3] ي: النفوس.
[4] السياق: فلو رُوعي... لتبادر...

وما ذلك إلّا لتفصيل فُنون النِّعم في مَقامٍ يَقتضيه، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود، ٥٨/١١] عَقيبَ قوله تعالى: ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود، ٥٨/١١]. والمراد بعدم علمِهم: أنّه ليس مِن شأنهم أن يعلموه بالفكر والنظر وغيرِ ذلك مِن طرق[١] العِلم لانحصار الطريقِ في الوحي.

﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾

﴿فَٱذْكُرُونِىٓ﴾ الفاء للدلالة على ترتُّب الأمر على ما قبله مِن موجِباته، أي: فاذكروني بالطاعة ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالثواب، وهو تحريض على الذِّكر مع الإشعار بما يُوجبه. ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى﴾ ما أنعمتُ به عليكم مِن النِّعم. ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ بجَحدها وعِصيان ما أَمرتُكم به.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وصفَهم بالإيمان إثرَ تعدادِ ما يُوجِبه ويقتضيه تنشيطًا لهم وحثًّا على مُراعاة ما يَعقُبه مِن الأمر، ﴿ٱسْتَعِينُوا۟﴾ في كلّ ما تأتُون وما[٢] تذرُون ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾ على الأمور الشاقّة على النفس التي مِن جملتها مُعاداة الكَفَرة، ومقابلتُهم المؤدِّية إلى مقاتَلتهم. ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ التي هي أمّ العبادات ومِعراج المؤمنين ومُناجاةُ ربّ العالمين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ تعليل للأمر بالاستعانة بالصبر خاصّة لِما أنّه المحتاج إلى التعليل. وأمّا الصلاة فحيث كانت عند المؤمنين أجلّ المَطالب -كما يُنبئ عنه قولُه عليه الصلاة والسلام: «وجُعلتْ قُرّة عيني في الصلاة»-[٣] لم يَفتقِر الأمرُ بالاستعانة بها إلى التعليل. ومعنى المعيّة: الوَلاية الدائمة المستتبِعة للنُصرة وإجابةِ الدعوة، ودخولُ ﴿مَعَ﴾ على[٤] ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ لِما أنّهم المباشِرون للصبر حقيقةً فهم مَتبوعون مِن تلك الحيثيّة.

---

[١] ي: طرائق.
[٢] ي - ما.
[٣] مسند أحمد، ٣٠٥/١٩ (١٢٢٩٣)؛ سنن النسائي، ٦١/٧ (٣٩٣٩)؛ المعجم الكبير للطبراني، ٤٢٠/٢٠ (١٠٢١).
[٤] ي - على.

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتُۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ١٥٤﴾

﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾ عطفٌ على ﴿ٱسْتَعِينُواْ﴾...[١] إلخ، مَسوق لبيان ألّا غائلةَ للمأمور به، وإنّ الشهادة التي ربّما يُؤدّي إليها الصبر حياة أبديّة. ﴿لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتُۢ﴾ أي: هم أموات؛ ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ أي: بل هم أحياء. ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ بحياتهم. وفيه رمز إلى أنّها ليست ممّا يُشعَر به بالمَشاعر الظاهرة مِن الحياة الجِسمانيّة، وإنّما هي أمر رُوحانيّ يُدرَك بالعقل؛ بل بالوحي. «وعن الحسن رحمه الله: أنّ الشهداءَ أحياء عند الله تُعرَض أرزاقهم على أرواحِهم فيَصِل إليهم الرَّوْح والفَرَح، كما تُعرَض النار على آل فِرعونَ غدُوًّا وعشيًّا فيَصِل إليهم الألمُ والوجَع».[٢]

قلتُ: رأيتُ في المَنام سنة تسعٍ وثلاثينَ وتسعمائةٍ أنّي أزور قبور شهداء أُحدٍ رضي الله تعالى عنهم أجمعين، وأنا أتلو هذه الآية وما في سورة آلِ عمرانَ،[٣] وأردِّدهما متفكِّرًا في أمرهم وفي نفسي أنّ حياتهم روحانيّة لا جِسمانيّة. فبينما أنا على ذلك إذ رأيتُ شابًّا منهم قاعدًا في قبره تامَّ الجسد كامِلَ الخِلْقة في أحسن ما يكون مِن الهيئة والمَنظر، ليس عليه شيء مِن اللباس قد بدا منه ما[٤] فوق السُّرة والباقي في القبر؛ خلا أنّي أعلم يقينًا أن ذلك أيضًا كما ظهر، وإنّما لا يَظهَر لكونه عورةً. فنظرتُ / إلىٰ وجهه فرأيتُه يَنظُر إليّ متبسِّمًا كأنّه يُنبِّهني على أنّ الأمر بخلاف رأيي. فسُبحان مَن عَلَتْ كلمته وجلّت حِكمته. [٥٨و]

وقيل: الآية نزلت في شهداءِ بدر وكانوا أربعةَ عشرَ.[٥] وفيها دلالة على أنّ الأرواح جواهر قائمة بأنفسها مغايِرة لِما يُحَسّ به مِن البدَن، تبقى بعد الموت درّاكة، وعليه جمهورُ الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وبه نطقت الآيات والسُّنن.[٦] وعلى هذا فتخصيصُ الشهداء بذلك لِما يَستدعيه مقام التحريض على مباشرة مَبادي الشهادة، ولاختصاصهم بمَزيد القُرب مِن الله عزّ وعلا.

---

١ في الآية السالفة.

٢ معالم التنزيل للبغوي، ١٦٨/١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥١/١.

٣ يعني قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۢ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران، ١٦٩/٣].

٤ ي – ما.

٥ أسباب النزول للواحدي، ص ٤٧؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٦٨/١؛ الكشّاف للزمخشري، ١٥٨/١.

٦ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥١/١.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ لَنُصيبنّكم إصابةَ مَن يَختبِر أحوالكم أتصبِرون على البلاء وتَستسلمون للقضاء. ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ﴾ أي: بقليل مِن ذلك، فإنّ ما وقاهم عنه أكثرُ بالنسبة إلى ما أصابهم بألف مرّة، وكذا ما يُصيب به معانديهم. وإنّما أَخبر به قبل الوقوع ليُوطِّنوا عليه نفوسَهم ويَزدادَ يقينهم عند مشاهدتهم له حسبما أَخبر به، وليَعلموا أنّه شيء يسير له عاقبة حميدة. ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ عطفٌ على شيء. وقيل: على الخوف.[١] «وعن الشافعي رحمه الله: الخوفُ: خوف الله، والجوعُ: صوم رمضان، ونقصٌ مِن الأموال: الزكاة والصدقات، ومِن الأنفُس: الأمراضُ، ومِن الثمرات: موت الأولاد».[٢] وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: إذا[٣] مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة: «أقَبضتُم ولد عبدي؟» فيقولون: «نعم»، فيقول عزّ وجلّ: «أقَبضتُم ثمرة قلبه؟» فيقولون: «نعم»، فيقول الله تعالى: «ماذا قال عبدي؟» فيقولون: «حَمِدك واسترجَع»، فيقول الله عزّ وعلا: «ابنُوا لعبدي بيتًا في الجنّة وسمُّوه بيت الحمد».[٤]

﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ الخطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم، أو لكلّ مَن يتأتّى منه البِشارة. و"المصيبة": ما يُصيب الإنسان مِن مَكروه، لقوله عليه السلام: «كلُّ شيء يُؤذي المؤمنَ فهو له مصيبة».[٥] وليس الصبر هو الاسترجاع باللسان؛ بل بالقلب بأن يَتصوَّر ما خُلق له وأنّه راجِع إلى ربّه، ويَتذكَّر نِعمَ الله تعالى عليه، ويرى أنّ ما أبقى عليه أضعافُ ما استَردّه منه، فيُهوِّن ذلك على نفسه ويَستسلِم. والمبشَّر به محذوف دلّ عليه ما بعده.

---

١ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ١/١٥٩.
٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٥١.
٣ ي: إذ.
٤ مسند أحمد، ٣٢/٥٠٠ (١٩٧٢٥)؛ سنن الترمذي، ٣/٣٣٢ (١٠٢١)؛ معالم التنزيل للبغوي، ١/١٦٩؛ الكشّاف للزمخشري، ١/١٥٩.
٥ بلفظ قريب في المعجم الكبير للطبراني، ٨/٢٤١ (٧٨٢٤). وبلفظه ههنا في الكشف والبيان للثعلبي، ٢/٢٢٨؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٥١.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1] باعتبار اتّصافهم بما ذُكر مِن النُعوت، ومعنى البُعد فيه للإيذان بعُلوّ رُتبتهم. ﴿عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾ الصلاة مِن الله سبحانه المَغفرة والرأفة، وجَمْعها للتنبيه على كثرتها وتنوّعها، والجَمْع بينها وبين الرحمة للمبالغة، كما في قوله تعالى: ﴿رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗ﴾ [الحديد، ٢٧/٥٧]، ﴿رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة، ١١٧/٩]. والتنوين فيهما[2] للتفخيم. والتعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضمير ﴿هِمۡ﴾ لإظهار مَزيد العِناية بهم، أي: أولئك المَوصوفون بما ذُكر مِن النعوت الجليلة عليهم فنون الرأفة الفائضة مِن مالك أمورِهم ومبلِّغهم إلى كمالاتهم اللائقة بهم. وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن استرجعَ عند المصيبة جَبر الله مصيبته، وأحسن عُقباه، وجعل له خَلَفًا صالحًا يرضاه».[3]

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إليهم، إمّا بالاعتبار السابق، والتكريرُ لإظهار كمال العناية بهم، وإمّا باعتبار حيازتهم لِما ذُكر مِن الصلوات والرحمة المترتِّب على الاعتبار الأوّل. فعلى **الأوّل** المراد بالاهتداء في قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾: هو الاهتداء للحقّ والصواب مطلَقًا، لا الاهتداءُ لِما ذُكر مِن الاسترجاع والاستسلام خاصّة، لِما أنّه متقدِّم عليهما، فلا بدّ لتأخيره عمّا هو نتيجة لهما مِن داعٍ يُوجِبه، وليس بظاهر. والجملة اعتراض مقرِّر لمضمون ما قبله، كأنّه قيل: وأولئك هم المختصُّون بالاهتداء لكلّ حقّ وصواب، ولذلك استرجعوا واستسلموا لقضاء الله تعالى. وعلى **الثاني**: هو الاهتداء والفوز بالمَطالب، والمعنى: أولئك هم الفائزون بمَباغيهم الدِّينيّة والدُّنيويّة، فإنّ مَن نال رأفة الله تعالى ورحمتَه لم يَفُته مَطلَب.

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨﴾

---

[1] في الآية السالفة.

[2] ي: فيها.

[3] جامع البيان للطبري، ٧٠٨/٢؛ المعجم الكبير للطبراني، ٢٥٥/١٢ (١٣٠٢٧)؛ شعب الإيمان للبيهقي، ١٧٨/١٢ (٩٢٤٠)؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥٢/١.

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ﴾ عَلَمان لجبلين بمكّةَ المعظّمة، كالصَّمّان[١] والمقَطَّم.[٢] ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ مِن أعلام مَناسكه، جَمْع شَعيرة: وهي العلامة. ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ﴾ الحَجُّ في اللغة: القصد. والاعتمار: الزيارة. غُلِّبا في الشريعة على قَصْد البيت وزيارته على الوجهين المَعروفين، كالبيت والنجم في الأعيان.[٣] وحيث أُظهر البيت وجَب تجريده[٤] عن التعلّق به.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ أي: في أن يَطَّوَّف بهما، أصلُه "يَتطَوَّف"، قُلبت التاءُ طاءً فأُدغِمت الطاءُ في الطاء. وفي إيراد صيغة التفعّل إيذان بأنّ مِن حقّ الطائفِ أن يتكلَّف في الطواف ويَبذُل فيه جُهده. وهذا الطواف واجب عندنا، وعن مالك والشافعي رحمهما الله أنّه ركن.[٥] وإيرادُه بعدم الجُناح المُشعرِ بالتخيير لِما أنّه: كان في عهد الجاهليّة على الصفا صنم يقال له: "إساف"، وعلى المَروة آخرُ اسمُه "نائلة"، وكانوا إذا سعَوا بينهما مَسحوا بهما، فلمّا جاء الإسلام وكسَر الأصنام تَحرَّج المسلمون أن يطَّوَّفوا بينهما لذلك، فنزلت.[٦] وقيل: هو تطوُّع،[٧] ويعضُده قراءةُ ابن مسعود "فَلَا جُنَاحَ عَلَيهِ أَلّا يَطُوفَ بِهِمَا".[٨]

﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أي: فعل طاعة فرضًا كان أو نفلًا، أو زاد على ما فُرض عليه مِن حَجّ أو عمرة أو طواف. و﴿خَيْرًا﴾ نَصْب على أنّه صفة لمصدر محذوف،

---

١ الصمّان: جبل في أرض بني تميم، ليس له ارتفاع. **معجم البلدان** للحمَوي، ٣/٤٢٣.

٢ المُقطَّم: الجبل المُشرِف على القرافة مقبرة فسطاط مصر والقاهرة، وهو جبل يمتدّ مِن أسوان وبلاد الحبَشة على شاطئ النيل الشرقيّ حتّى يكون مُنقطَعه طرف القاهرة. **معجم البلدان** للحمَوي، ٥/١٧٦.

٣ الكلام عن معناهما في **الكشّاف** للزمخشري، ١/١٦٠.

٤ ط: تحريره.

٥ انظر أقوالهم بلفظ قريب في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/١٥٣.

٦ بلفظ قريب في **جامع البيان** للطبري، ٢/٧١٤؛ و**أسباب النزول** للواحدي، ص ٤٩؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ١/١٦٠.

٧ انظر القول في **الكشّاف** للزمخشري، ١/١٦٠؛ و**أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/١٥٣.

٨ قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن مسعود وعليّ بن أبي طالب وابن عبّاس وأُبيّ بن كعب وأنس بن مالك وسعيد بن جُبير. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٨؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٧٩؛ **المغني في القراءات** للنُوزاوازي، ص ٤٧٣.

أي: تطوّعًا خيرًا، أو على حذف الجارّ وإيصال الفعل إليه، أو على تضمين معنى "فَعَل". وقُرئ: "يَطَّوَّعْ"،[١] وأصله يَتطوّع مِثل يَطَّوَّف. وقُرئ: "ومَنْ يَتَطَوَّعْ بِخَيرٍ".[٢]

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ﴾ أي: مُجازٍ على الطاعة، عُبّر عن ذلك بالشكر مبالغة في الإحسان إلى العباد. ﴿عَلِيمٌ﴾ مبالِغ في العِلم بالأشياء، فيَعلم مقاديرَ أعمالِهم وكيفيّاتِها فلا يَنقُص مِن أجورهم شيئًا. وهو عِلّة لجواب الشرط قائم مَقامَه، كأنّه قيل: ومَن تَطوَّع خيرًا جازاه الله أو أثابه، فإنّ الله شاكر عليم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ۝١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦٠﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ﴾ قيل: نزلت في أحبار اليهود الذين كتموا ما في التوراة مِن نُعوت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وغيرِ ذلك مِن الأحكام.[٣] «وعن ابن عبّاس رضي الله عنه[٤] ومجاهد رضي الله عنه[٥] / وقَتادةَ والحسن والسُّدِّي والربيع والأصمّ: أنّها نزلت في أهل الكتاب مِن اليهود والنصارى».[٦] وقيل: نزلت في كلّ مَن كتم شيئًا مِن أحكام الدِّين لعموم الحكم للكلّ.[٧] والأقربُ هو الأوّل، فإنّ عموم الحُكم لا يأبى خصوص السبب. [٥٨ظ]

والكَتم والكِتمان: تَرْك إظهار الشيء قصدًا مع مِساس الحاجة إليه وتحقُّق الداعي إلى إظهاره، وذلك قد يكون بمجرّد سَتره وإخفائه، وقد يكون بإزالته ووَضْع شيءٍ آخرَ في موضعه، وهو الذي فعله[٨] هؤلاء.

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٣.

٢ قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٧٩.

٣ انظر القول في معالم التنزيل للبغوي، ١/١٧٥؛ وبعضه في الكشّاف للزمخشري، ١/١٦٠.

٤ ط س - رضي الله عنه.

٥ ط س - رضي الله عنه.

٦ اللباب لابن عادل، ٣/١٠٣. وبلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٢/٧٣٠-٧٣١؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ١/٢٦٨-٢٦٩.

٧ انظر القول في اللباب لابن عادل، ٣/١٠٣.

٨ ي: فعل.

﴿مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ مِن الآيات الواضحة الدلالة على أمر محمّد صلّى الله عليه وسلّم. ﴿وَٱلۡهُدَىٰ﴾ أي: والآياتِ الهاديةِ إلى كُنه أمره ووجوبِ اتّباعه والإيمانِ به. عُبّر عنها بالمصدر مبالغةً، ولم يُجمَع مُراعاة للأصل، وهي المرادة بالبيّنات أيضًا، والعطفُ لتغايُر العنوان، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ﴾... إلخ، [البقرة، ١٨٥/٢]. وقيل: المراد بـ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾: الأدلّة العقليّة.[١] ويأباه الإنزال والكَتْم.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ﴾ متعلّق بـ﴿يَكۡتُمُونَ﴾. والمراد بـ"الناس": الكُلّ، لا الكاتمون فقط. واللام متعلِّقة بـ﴿بَيَّنَّٰهُ﴾، وكذا الظرف في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾. فإنّ تعلّق جارَّين بفعل واحد عند اختلاف المعنى ممّا لا ريب في جوازه. أو الأخيرُ متعلِّق بمحذوف وقَع حالًا مِن مفعوله، أي: كائنًا في الكتاب. وتبيينه لهم تلخيصه وإيضاحه، بحيث يتلقّاه كلُّ أحد منهم مِن غير أن يكون له فيه[٢] شُبهة. وهذا عنوان مغايِر لكونه بيّنًا في نفسه. و"هُدى" مؤكِّد لقبح الكَتْم. أو تفهيمُه[٣] لهم بواسطة موسى عليه السلام. والأوّل أنسَب بقوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾. والمراد بكتمه: إزالته ووَضْع غيرِه في موضعه فإنّهم محَوا نعتَه عليه السلام، وكتبوا مكانه ما يُخالِفه، كما ذكرناه في تفسير قوله عزّ وعلا: ﴿فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾... إلخ، [البقرة، ٧٩/٢].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إليهم باعتبار ما وُصفوا به للإشعار بعِلّيّته لِما حاق بهم، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بتَرامي[٤] أمرهم وبُعد مَنزلتِهم في الفساد. ﴿يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: يَطردهم ويُبعِّدهم مِن رحمته. والالتفات إلى الغَيبة بإظهار اسم الذات الجامع للصفات: لتربية المَهابة، وإدخالِ الرَّوعة، والإشعارِ بأنّ مَبدأ صدور اللّعن عنه سبحانه صفة الجلال المغايرة لِما هو مبدأ الإنزال والتبيينِ مِن وَصْف الجمال والرحمة. ﴿وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ أي: الذين يتأتّى منهم اللّعن،

---

[١] انظر القول في اللباب لابن عادل، ١٠٦/٣.

[٢] ي - فيه.

[٣] السياق: وتبيينه لهم تلخيصه وإيضاحه... أو تفهيمه لهم...

[٤] ي: تراخي.

أي: الدعاء عليهم باللَّعن مِن الملائكة ومؤمِني الثقلين، والمراد بيان دوام اللَّعن واستمراره، وعليه يَدور الاستثناء المتَّصل بقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ أي: عن الكِتمان ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ أي: ما أفسدوا بأن أزالوا الكلام المحرَّف وكتبوا مكانه ما كانوا أزالوه عند التحريف، ﴿وَبَيَّنُواْ﴾ للناس معانيَه، فإنّه غير الإصلاح المذكور، أو بيَّنوا لهم ما وقَع منهم أوّلًا وآخرًا، فإنّه أدخَل في إرشاد الناس إلى الحقّ، وصَرْفِهم عن طريق الضلال الذي كانوا أوقعوهم فيه أو بيَّنوا توبتهم ليَمحُوا به سِمة ما كانوا فيه ويقتديَ بهم أضرابهم. وحيث كانت هذه التوبة المَقرونة بالإصلاح والتبيين مستلزِمةً للتوبة عن الكفر مبنيّة عليها لم يُصرَّح بالإيمان.

وقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتِّصافه بما في حيّز الصلة للإشعار بعلِّيته للحُكم، والفاء لتأكيد ذلك. ﴿أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: بالقَبول وإفاضة المَغفرة والرحمة. وقوله تعالى:[١] ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: المبالِغ في قَبول التَّوب ونَشْر الرحمة، اعتراضٌ تذييليّ محقِّق لمَضمون ما قبله. والالتفاتُ إلى التكلّم للافتنان في النظم الكريم، مع ما فيه مِن التلويح والرَّمز إلى ما مرّ مِن اختلاف المَبدأ في فِعلَيه تعالى السابقِ واللاحق.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ جملة مستأنَفة سِيقتْ لتحقيق بقاء اللَّعن فيما وراء الاستثناء وتأكيدِ دوامه واستمراره على غير التائبين حسبما يُفيده الكلام. والاقتصار على[٢] ذِكْر الكفر في الصلة مِن غير تعرّض لعدم التوبة والإصلاحِ والتبيينِ مَبنيٌّ على ما أُشِير إليه، فكما أنّ وجود تلك الأمور الثلاثة مستلزِم للإيمان الموجِب لعدم الكفر، كذلك وجود الكفر مستلزِم لعدمها جميعًا، أي: إنّ الذين استمرّوا على الكُفر المستتبع للكتمان وعدم التوبة. ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ لا يرعَوون عن حالتهم الأولى.

---

١ ط - تعالى.

٢ س - على.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الكلام فيه كما فيما قبله. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: مستقِرّ عليهم ﴿لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ممّن يُعتَدّ بلَعنتهم، وهذا بيان لدوامها الثُبوتيّ بعد بيان دوامِها التجدُّديّ. وقيل: الأوّل لعنتهم أحياءً وهذا لعنتُهم أمواتًا.[١] وقُرئ: "وَالمَلائِكَةُ وَالنَّاسُ أَجْمَعُونَ"[٢] عطفًا على محلّ اسم الله، لأنّه فاعلٌ في المعنى، كقولك: أعجبني ضَرْب زيدٍ وعمرٌو، تُريد: مِن أنْ ضَرَب زيدٌ وعمرٌو، كأنّه قيل: أولئك عليهم أنْ لَعَنهم الله والملائكةُ... إلخ.[٣] وقيل: هو فاعل لفعل مقدَّر، أي: ويَلعنهم الملائكة.[٤]

﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في اللعنة أو في النار على أنّها أُضمِرت مِن غير ذِكْر تفخيمًا لشأنها وتهويلًا لأمرها. ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ إمّا مستأنَف لبيان كثرة عذابهم مِن حيث الكيف إثرَ بيان كثرته مِن حيث الكمّ، أو حال مِن الضمير في ﴿خَـٰلِدِينَ﴾ على وَجْه التداخُل، أو مِن الضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾[٥] على طريقة الترادُف. ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ عطفٌ على ما قبله جارٍ فيه ما جرى فيه. وإيثار الجملة الاسمْيّة لإفادة دوام النفي واستمراره، أي: لا يُمهَلون ولا يُؤجَّلون، أو لا يُنتظَرون ليَعتذروا، أو لا يُنظَر إليهم نَظَر رحمة.

﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾

﴿وَإِلَـٰهُكُمْ﴾ خطاب عامّ لكافّة الناس، أي: المستحِقّ منكم للعبادة ﴿إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: فرد في الإلهيّة لا صحّةَ لتسمية غيره إلهًا أصلًا. ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر ثانٍ للمبتدأ، أو صفة أخرى للخبر، أو اعتراض، وأيًّا ما كان فهو مقرِّر للوحدانيّة ومُزيح لِما عسى يُتوهَّم أنّ في الوجود إلهًا لكن لا يَستحِقّ العبادة.

﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ خبران آخران للمبتدأ، أو لمبتدأ مَحذوف. وهو تقرير للتوحيد، فإنّه تعالى حيث كان مُولِيًا لجميع النعم أصولِها وفروعِها جليلِها ودقيقِها،

---

١ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ١/١٦١.

٢ قراءة شاذّة، مَرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٨.

٣ انظر: الكشّاف للزمخشري، ١/١٦١.

٤ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٥٤.

٥ في الآية السالفة.

وكان ما سِواه كائنًا ما كان مفتقِرًا إليه في وجوده وما يتفرَّع عليه مِن كمالاته، تحقَّقتْ وحدانيّتُه بلا ريبَ،[1] وانحصر استحقاقُ العبادةِ فيه تعالى قطعًا. قيل: / كان للمشركين حول الكعبة المكرَّمة ثلثُمائةٍ وستّون صنمًا، [٥٩و] فلمّا سمعوا هذه الآية تعجّبوا وقالوا: «إن كنتَ صادقًا فأْتِ بآية نَعرِفْ بها صِدْقك»، فنزلتْ.[2]

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: في إبداعهما على ما هما عليه مع ما فيهما مِن تعاجيب العِبَر، وبدائع صنائع تَعجِز عن فهمها عقول البشر. وجَمْع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لِما هو المَشهور مِن أنّها طبقات متخالفة الحقائقِ دون الأرض.

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: اعتقابهما وكون كلّ منهما خَلَفًا للآخر، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ [الفرقان، ٢٥/٦٢]. أو اختلاف كلّ منهما في أنفسهما ازديادًا وانتقاصًا على ما قدّره الله تعالى.

﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ﴾ عطفٌ على ما قبله. وتأنيثه إمّا بتأويل السفينة، أو بأنّه جَمْع، فإنّ ضمّة الجمع مغايرة لضمّة الواحد في التقدير؛ إذ الأُولى كما في "حُمُر" والثانية كما في "قُفُل". وقُرِئَ بضمّ اللام.[3] ﴿بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي: ملتبِسة بالذي ينفعهم ممّا يُحمَل فيها مِن أنواع المَنافع، أو بنفعهم.

---

[1] السياق: فإنّه تعالى حيث كان... تحقّقت وحدانيّته...

[2] بلفظ قريب في التفسير البسيط للواحدي، ٣/٤٥١؛ والكشّاف للزمخشري، ١/١٦١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٥٤.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ وعيسى بن عمر الهَمْداني. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١١٨؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٨٠.

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلْفُلْكِ﴾. وتأخيره عن ذِكرها مع كونه أعمَّ منها نفعًا، لِما فيه مِن مزيد تفصيلٍ. وقيل: المقصود الاستدلال بالبحر وأحواله.[١] وتخصيص الفُلْك بالذِّكْر؛ لأنّه سبب الخوض[٢] فيه والاطّلاعِ على عجائبه، ولذلك قُدِّم على ذِكْر المطر والسحاب؛ لأنّ منشأهما البحر في غالب الأمر. و﴿مِن﴾ الأولى ابتدائيّة، والثانية بيانيّة أو تبعيضيّة. وأيًّا ما كان فتأخيرُها لِما مرّ مِرارًا مِن التشويق. والمراد بـ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾: الفَلَك، أو السحاب، أو جهة العُلوّ.

﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ بأنواع النبات والأزهار، وما عليها مِن الأشجار. ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ باستيلاء اليُبوسة عليها حسبما تقتضيه طبيعتها، كما يُؤذِن به إيراد الموت في مقابلة الإحياء. ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾ أي: فرَّق ونشَر ﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ مِن العقلاء وغيرهم. والجملة معطوفة على ﴿أَنزَلَ﴾ داخلة تحت حُكم الصلة. وقوله تعالى: ﴿فَأَحْيَا﴾... إلخ، متّصل بالمعطوف عليه بحيث كانا في حُكم شيءٍ واحد، كأنّه قيل: وما أَنزَل في الأرض مِن ماءٍ وبثَّ فيها... إلخ، أو على "أحيا" بحذف الجارّ والمجرور العائد إلى الموصول، وإن لم تتحقَّق الشرائط المعهودة،[٣] كما في قوله:

وإنّ لساني شَهْدة يُشتفى بها ... ولكنْ على مَن صَبَّه الله عَلقمُ[٤]

أي: علقم عليه.[٥] وقولِه:

لعلّ الذي أَصعَدتِني[٦] أن يَردَّني ... إلى الأرض إن لم يَقدر الخيرَ قادِرُه[٧]

---

[١] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٥٤.

[٢] ط - الخوض.

[٣] وفي هامش ي: لا يجوز حذف الضمير المجرور بحرف إلّا بشروط: أن يكون الموصول مجرورًا بذلك الحرف، وأن يتّحد مُتعلَّقها، وأن يتعيَّن للربط، وألّا يكون الجارّ قائمًا مَقام مرفوعٍ. «منه».

[٤] ما عرفت قائله. وهو بلا نسبة في التذييل والتكميل لأبي حيّان، ٣/٨٠؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢/٢٠٤؛ واللباب لابن عادل، ٣/١٢٦. وانظر تفصيل الكلام عليه في خزانة الأدب للبغدادي، ٥/٢٦٦-٢٦٧.

[٥] ط س - أي: علقم عليه.

[٦] وفي هامش ي: أي: أصبتني به. «منه».

[٧] البيت للفرزدق في ديوانه، ص ١٨٨. وهو له في التذييل والتكميل لأبي حيّان، ٣/٧٩. وبلا نسبة في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢/٢٠٤؛ واللباب لابن عادل، ٣/١٢٧.

على معنى: فأحيا بالماء الأرض، وبثّ به[١] فيها مِن كلّ دابّة، فإنّهم يَنمُون بالخِصب ويعيشون بالحَيا.[٢]

﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ عطفٌ على ﴿مَآ أَنزَلَ﴾، أي: تقليبها مِن مَهبّ إلى آخر، أو مِن حال إلى أخرى، وقُرئ على الإفراد.[٣] ﴿وَٱلسَّحَابِ﴾ عطفٌ على ﴿تَصۡرِيفِ﴾، أو ﴿ٱلرِّيَٰحِ﴾. وهو اسم جنسٍ واحده "سَحابة"، سُمّي بذلك لانسحابه في الجوّ. ﴿ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ صفة لـ﴿ٱلسَّحَابِ﴾ باعتبار لفظه، وقد يُعتبر معناه فيُوصف بالجمع كما في قوله تعالى: ﴿سَحَابٗا ثِقَالٗا﴾ [الأعراف، ٧/٥٧]. وتسخيره: تقليبه في الجوّ بواسطة الرياح، حسبما تقتضيه مَشيئة الله تعالى. ولعلّ تأخير ﴿تَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ و"تسخيرِ السحاب" في الذِّكر عن جريان الفُلْك وإنزال الماء، مع انعكاس الترتيب الخارجيّ، لِما مرّ في قصّة البقرة مِن الإشعار باستقلال كلّ مِن الأمور المعدودة في كونها آيةً، ولو رُوعي الترتيب الخارجيّ لربّما تُوهِّم كون المجموع المترتِّب بعضُه على بعض آية واحدة.

﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ اسمُ ﴿إِنَّ﴾ دخلته اللامُ لتأخّره عن خبرها. والتنكير للتفخيم كمًّا وكيفًا، أي: آياتٍ عظيمة كثيرة دالّة على القدرة القاهرة، والحكمة الباهرة، والرحمةِ الواسعة المقتضية لاختصاص الألوهيّة به سبحانه. ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ أي: يتفكّرون فيها وينظرون إليها بعيون العقول. وفيه تعريض بجَهْل المشركين الذين اقترحوا على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم آيةً تُصدِّقه في قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾،[٤] وتسجيلٌ عليهم بسخافة العقول، وإلّا فمَن تأمَّل في تلك الآيات وجَد كلًّا منها ناطقة بوجوده تعالى ووحدانيّته وسائر صفاته الكماليّة الموجِبة لتخصيص العبادة به تعالى، واستُغنيَ بها عن سائرها، فإنّ كلّ واحدٍ مِن الأمور المَعدودة قد وُجِد على وجه خاصّ مِن الوجوه الممكِنة دون ما عداه، مستتبِعًا لآثار معيَّنة وأحكامٍ مخصوصة مِن غير أن تقتضي ذاتُه وجودَه،

---

١ ي – به.

٢ الحيا: المطر، لإحيائه الأرض. لسان العرب لابن منظور، «حيي».

٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٣.

٤ في الآية السابقة.

فضلًا عن وجوده على نمط معيَّن مستتبع لحُكم مستقلّ. فإذن لا بدّ له حتمًا مِن مُوجِد قادر حكيمٍ يُوجِده حسبما تقتضيه حكمته وتستدعيه مشيئتُه، متعالٍ عن معارضة الغير، إذ لو كان معه آخَر يَقدِر على ما يَقدِر عليه لزِم إمّا اجتماع المؤثِّرَين على أثَر واحد، أو التمانُع المؤدّي إلى فساد العالم.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ١٦٥﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بيان لكمال ركاكة آراء المشركين إثرَ تقرير وحدانيّته سبحانه، وتحريرِ الآيات الباهرة المُلجِئة للعقلاء إلى الاعتراف بها، القاضيةِ باستحالة أن يشاركَه شيءٌ مِن الموجودات في صفة مِن صفات الكمال فضلًا عن المشارَكة في صفة الألوهيّة. والكلام في إعرابه كما فُصِّل في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ﴾... إلخ [البقرة، ٨/٢]. و﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ متعلِّق بـ﴿يَتَّخِذُ﴾، أي: مِن الناس مَن يتّخذ مِن دون ذلك الإله الواحد الذي ذُكِرتْ شئونه الجليلة. وإيثار الاسم الجليل لتعيينه تعالى بالذات غِبَّ تعيينه بالصفات.

﴿أَندَادًا﴾ أي: أمثالًا، وهي رُؤساؤهم الذين يتَّبعونهم فيما يأتون وما يَذرون، لاسيّما في الأوامر والنواهي، كما يُفصِح عنه ما سيأتي مِن وصفهم بالتبرّي مِن المتَّبِعين. وقيل: هي الأصنام.[1] وإرجاع ضميرِ العقلاء إليها في قوله عزّ وعلا: ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ مَبنيٌّ على آرائهم الباطلة في شأنها، مِن وَصْفهم بما لا يُوصَف به إلّا العقلاء. والمَحبّة: ميلُ القلب، مِن الحُبّ، استُعير لحَبّة القلب ثمّ اشتُقّ منه الحُبّ؛ لأنّه أصابها ورسخ فيها، والفعل منها "حَبّ" على حَدّ "مَدّ"، لكنّ الاستعمال المستفيض على أحبّ حُبًّا ومَحبّة فهو مُحِبّ وذاك محبوبٌ،

---

[1] مَرويّ عن الربيع وأبي العالية وابن زيد. انظر: **جامع البيان** للطبري، ١١٧/٣؛ و**معالم التنزيل** للبغوي، ١٧٨/١؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ١٦٢/١.

ومُحَبّ قليل وحابّ أقلّ منه.[١] ومَحبّة العبد لله سبحانه إرادة طاعته في أوامره ونواهيه، والاعتناء بتحصيل مَراضيه. فمعنى ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ يُطيعونهم ويُعظِّمونهم. والجملة في حيّز النصب إمّا صفةً لـ﴿أَندَادًا﴾، أو / حالًا مِن فاعل ﴿يَتَّخِذُ﴾. [٥٩ظ] وجَمْع الضمير باعتبار معنى ﴿مِن﴾،[٢] كما أنّ إفراده باعتبار لفظِها.

﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ مصدر تشبيهيّ، أي: نعت لمَصدر مؤكِّد للفعل السابق، ومِن قضيّة[٣] كونِه مَبنيًا للفاعل كونُه أيضًا كذلك. والظاهر اتّحاد فاعلهما؛ فإنّهم كانوا يُقِرّون به تعالى أيضًا ويَتقرّبون إليه، فالمعنى: يحبُّونهم حُبًّا كائنًا كحُبّهم لله تعالى، أي: يُسوّون بينه تعالى وبينهم في الطاعة والتعظيم. وقيل: فاعل الحبّ المذكور هم المؤمنون، فالمعنى: حُبًّا كائنًا كحُبّ المؤمنين له تعالى،[٤] فلا بدّ مِن اعتبار المشابَهة بينهما في أصل الحُبّ لا في وصفه كمًّا أو كيفًا، لِما سيأتي مِن التفاوت[٥] البيّن. وقيل:[٦] هو مصدر مِن المَبنيّ للمفعول، أي: كما يُحَبّ الله تعالى ويُعظَّم، وإنّما استُغني عن ذِكْر مِن يُحبّه؛ لأنّه غير مُلبِس.[٧] وأنت خبير بأنّه لا مشابهة بين مَحبّتهم لأندادهم وبين محبوبيّته تعالى، فالمصيرُ حينئذ ما أسلفناه في تفسير قوله عزّ قائلًا: ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ [البقرة، ١٠٨/٢]. وإظهار الاسم الجليل في مقام الإضمار لتربية المَهابة، وتفخيمِ المضاف، وإبانةِ كمال قُبح ما ارتكبوه.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ جملة مبتدأة جيء بها توطئة لِما يعقُبها مِن بيان رخاوة حُبّهم وكونِه حَسْرة عليهم، والمفضَّل عليه محذوف، أي: المؤمنون أشدُّ حبًّا له[٨] تعالى منهم لأندادهم. ومآلُه أنّ حُبّ أولئك له تعالى أشدُّ مِن حُبّ

---

١ استعملت العَرب اسم الفاعل مِن "أحبّ" واسم المفعول مِن "حَبّ"، وقلّ عندهم استعمال اسم المفعول مِن الأوّل واسم الفاعل مِن الثاني؛ مراعاة منها للخِفّة، كما هو ظاهر.

٢ ي - ﴿مِن﴾.

٣ ي: قضيّته.

٤ انظر هذا الوجه في التبيان للعُكبَري، ١٣٤/١؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢١٠/٢؛ واللباب لابن عادل، ١٣٧/٣.

٥ ي: التفات.

٦ وفي هامش س ي: كشّاف. «منه».

٧ انظر هذا القول في الكشّاف للزمخشري، ١٦٢/١.

٨ ط: لله.

هؤلاءِ لأندادهم. وفيه مِن الدلالة على كون الحبّ مصدرًا مِن المَبنيّ للفاعل ما لا يخفى.

وإنّما لم يُجعل المفضَّل عليه حبَّهم لله تعالى لِما أنّ المقصود بيان انقطاعِه وانقلابه بُغضًا، وذلك إنّما يُتصوَّر في حُبّهم لأندادهم لكونه مَنوطًا بمَبانٍ فاسدةٍ ومَبادٍ مَوهومةٍ يزول بزوالها. قيل: ولذلك كانوا يَعدِلون عنها عند الشدائد إلى الله سبحانه، وكانوا يَعبُدون صنمًا أيّامًا فإذا وجدوا آخَر رفضوه إليه. وقد أكلت باهلةُ[١] إلهها عامَ المجاعة وكان مِن حَيْس.[٢] وأنت خبير بأنّ مدار ذلك اعتبارُ اختلال حبّهم لها في الدنيا، وليس الكلام فيه؛ بل في انقطاعه في الآخرة عند ظهور حقيقة الحال ومعاينة الأهوال كما سيأتي؛ بل اعتباره مُخِلّ بما يَقتضيه مَقام المبالغة في بيان كمال قُبح ما ارتكبوه وغاية عِظَم[٣] ما اقترفوه. وإيثارُ الإظهار في مَوضِع الإضمار لتفخيم الحُبّ والإشعار بعِلّته.[٤]

﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ أي: باتّخاذ الأنداد ووضعِها مَوضِع المعبود ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ المُعدَّ لهم يومَ القيامة، أي: لو علِموا إذ عاينوه. وإنّما أُوثِر صيغة المستقبَل لجريانها مَجرى الماضي في الدلالة على التحقّق[٥] في أخبار علّام الغيوب. ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ سادّ مسدّ مفعولَي ﴿يَرَى﴾. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ عطفٌ عليه. وفائدته المبالغة في تهويل الخطب وتفظيع الأمر، فإنّ اختصاص القُوّة به تعالى لا يُوجِب شِدّة العذاب، لجواز تركه عفوًا مع القدرة عليه.

وجوابُ ﴿لَوْ﴾ محذوف للإيذان بخروجه عن دائرة البيان إمّا لعدم الإحاطة بكُنهه، وإمّا لضيق العبارة عنه، وإمّا لإيجاب ذِكْره ما لا يَستطيعه المعبِّر أو المستمِع

---

١ هم بنو باهلة هم بنو سعد مَناة بن مالك بن أعصر. وباهلة هي بنت صعب بن سعد العشيرة. كانت تحت مالك بن أعصر بن سعد بن قيس عَيلان، فولدت له سعد مَناة، فنُسب ولده إليها. انظر: أنساب الأشراف للبلاذُري، ٢٢٧/١٣؛ واللباب لابن الأثير، ص ١١١٦؛ ونهاية الأرب للقلقشندي، ص ١٦٩.

٢ انظر هذا الكلام على أصنامهم في الكشّاف للزمخشري، ١٦٢/١. والحيس: الأقِط يخلط بالتمر والسَّمْن. لسان العرب لابن منظور، «حيس».

٣ ط - عظم.

٤ ي: بعلّيته.

٥ ط س: التحقيق.

مِن الضجر والتفجّع عليه، أي: لو علِموا إذ رأوا العذاب قد حلّ بهم ولم يُنقِذهم منه أحد مِن أندادهم أنّ القوة لله تعالى[١] جميعًا، ولا دَخْل لأحد في شيء أصلًا، لَوَقعوا[٢] مِن الحسرة والندم فيما لا يكاد يُوصَف.

وقُرِئ: "وَلَوْ تَرَى" بالتاء الفوقانيّة،[٣] على أنّ الخِطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم، أو لكلّ أحد ممّن يَصلُح للخِطاب، فالجوابُ حينئذ: لرأيتَ أمرًا لا يُوصَف مِن الهول والفظاعة. وقُرِئ: "إذ يُرَوْن" على البناء للمفعول.[٤] و"إنّ الله شَديدُ العَذابِ"[٥] على الاستئناف وإضمارِ[٦] القول.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ﴾ بدل مِن ﴿إِذْ يَرَوْنَ﴾، أي: إذ تبرَّأ الرؤساء ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ مِن الأتباع بأن اعترفوا ببُطلان ما كانوا يدَّعونه في الدنيا ويَدْعونهم إليه مِن فُنون الكُفر والضلال، واعتزلوا عن مخالطتهم، وقابلوهم باللعن، كقول إبليس: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم، ٢٢/١٤]. وقُرِئ بالعكس، أي: تبرَّأ الأتباع مِن الرؤساء.[٧]

والواو في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ حاليّة، و"قد" مضمَرة. وقيل: عاطفةٌ على ﴿تَبَرَّأَ﴾،[٨] والضمير في ﴿رَأَوْاْ﴾ للموصولين جميعًا. ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ والوصل الذي[٩] كان بينهم مِن التبعيّة والمَتبوعيّة، والاتّفاق على المِلّة الزائغة[١٠] والأغراض الداعيةِ إلى ذلك. وأصلُ "السبب" الحبلُ الذي يُرتقى به الشجَر[١١] ونحوه.

---

١ ي - تعالى.
٢ السياق: لو علموا... لوقعوا...
٣ قرأ بها نافع وابن عامر ويعقوب وابن وردان عن أبي جعفر بخلاف. السبعة لابن مجاهد، ص ١٧٣؛ النشر لابن الجزري، ٢٢٤/٢.
٤ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٢٤/٢.
٥ قرأ بها أبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٢٤/٢.
٦ ط: أو إضمار.
٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ ومجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٨٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٤٧٧.
٨ هو الوجه الرجح في التبيان للعُكبَري، ١٣٧/١؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢١٧/٢؛ واللباب لابن عادل، ١٤٤/٣.
٩ ط: التي.
١٠ ط: الزائفة.
١١ س: الشجرة.

والجملة معطوفة على ﴿تَبَرَّأَ﴾. وتوسيط الحال بينهما للتنبيه على عِلّة التبرّي، وقد جُوّز عطفها على الجملة الحاليّة.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ حين عاينوا تبرُّؤ الرؤساءِ منهم، وندِموا على ما فعلوا مِن اتّباعهم لهم في الدنيا. **﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾** أي: ليت لنا رجعة إلى الدنيا **﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾** هناك **﴿كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾** اليوم.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مصدر الفعل الذي بعده، لا إلى شيءٍ آخرَ مفهومٍ ممّا سبق. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعُلوّ درجة المشار إليه وبُعد منزلته مع كمال[1] تميُّزه عمّا عداه، وانتظامِه في سِلْك الأمور المشاهَدة. والكاف مُقحَمة لتأكيد ما أفاده اسمُ الإشارة مِن الفخامة، ومَحلّه النصب على المصدريّة، أي: ذلك الإراءَ الفظيع. **﴿يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾** أي: ندامات شديدة، فإنّ "الحسرة" شدة الندم والكمَد، وهي تألُّم القلب وانحساره عمّا يُؤلِمه. واشتقاقها[2] مِن قولهم بعير حسير، أي: منقطِع القُوّة، وهي ثالثُ مفاعيلِ "يُري" إن كان مِن رؤية القلب، وإلّا فهي حال. والمعنى أنّ أعمالهم تَنقلِب حسرات عليهم، فلا يَرَون إلّا حسراتٍ مكانَ أعمالِهم.

﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ كلام مستأنَف لبيان حالِهم بعد دخولهم النارَ، والأصل: وما يَخرُجون. والعدول إلى الاسميّة لإفادة دوام نفي الخروج، والضميرُ للدلالة على قوّة أمرهم فيما أُسنِد إليهم، كما في قوله:

هم يُفرِشون اللِّبْدَ كُلَّ طِمِرَّةٍ   وأَجرَدَ سبّاقٍ يَبذّ المُغالِيا[3]

---

[1] ط س: وكمال.

[2] س: واشتقاقه.

[3] البيت للمُعذَّل بن عبد الله الليثي في **شرح الحماسة** للمرزوقي، ١٧٦٤/٤. وهو بلا نسبة في **دلائل الإعجاز** للجرجاني، ص ١٢٩؛ وصدره في **الكشّاف** للزمخشري، ١٦٣/١. | ويُفرِشون اللِّبد: يجعلون اللبد فراشًا لظهر كلّ فرس كريم. وطِمِرّة وأجرد مِن أوصاف الخيل الكرام. يبذّ المُغاليا: يسبق السهم في غَلوته أو فرسًا يُغاليه. والغَلوة: الغاية قدر رمية بسهم، وقد تستعمل في سباق الخيل. انظر: **شرح الحماسة** للمرزوقي، ١٧٦٤/٤؛ و**لسان العرب** لابن منظور، «طمر»، «غلا».

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: بعضِ ما فيها مِن أصناف المأكولات التي مِن جملتها ما حرَّمتموه افتراء على / الله مِن الحرث والأنعام. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «نزلتْ في قوم مِن ثَقيف[1] وبني عامر بن صَعْصَعة[2] وخُزاعة[3] وبني مُدلِج[4] حرَّموا على أنفسهم ما حرَّموا مِن الحَرْث والبحائر والسوائب والوصائل والحامي».[5] [٦٠و]

وقوله تعالى: ﴿حَلَٰلٗا﴾ حال مِن الموصول، أي: كُلوه حالَ كونه حلالًا، أو مفعولٌ لـ﴿كُلُواْ﴾ على أنّ مِن ابتدائيّةٌ. وقد جُوِّز كونه صفة لمصدر مؤكِّدٍ،

---

[1] هم بطن مِن هَوازن، واشتهروا باسم أبيهم فيقال لهم ثقيف، واسمه: قَسيّ بن مُنبّه بن بكر بن هَوازن بن منصور بن عكرمة بن خَصَفة بن قيس عيلان بن مضر. وكانت منازلهم بالطائف. انظر: **أنساب الأشراف** للبلاذُري، ٢٥/١؛ و**نهاية الأرب** للقلقشندي، ص ١٩٨.

[2] هم بنو عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هَوازن بن منصور بن عكرمة بن خَصَفة بن قيس عيلان بن مُضر. وهم مِن الحُمس، وهي قبائل مِن العرب تشدَّدوا في دينهم، منها قُريش. انظر: **الاشتقاق** لابن دريد، ص ٢٥٠؛ و**اللباب** لابن الأثير، ٣٠٦/٢؛ و**قلائد الجمان** للقلقشندي، ص ١١٥-١١٦.

[3] هم بنو عمرو بن ربيعة، وهو لُحيّ بن حارثة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد. قبيلة كبيرة مِن الأزد. وإنّما قيل لهم خُزاعة؛ لأنّهم انقطعوا عن الأزد لمّا تفرّقت مِن اليمن أيّام سيل العَرِم، وأقاموا بمكّة وسار الآخرون إلى المدينة والشام وعُمان. انظر: **اللباب** لابن الأثير، ص ٤٣٩؛ و**نهاية الأرب** للقلقشندي، ص ٢٤٤.

[4] هم بنو مُدلج بن مُرّة بن عبد مَناة بن كِنانة. بطن كبير مِن كِنانة. وفي بني مُدلِج هؤلاء عِلم القِيافة: وهو إلحاق بعض الأقارب ببعض. انظر: **اللباب** لابن الأثير، ص ١٨٣؛ و**قلائد الجمان** للقلقشندي، ص ١٣٦.

[5] بمعناه بلا نسبة في **جامع البيان** للطبري، ٣٦/٣-٣٧؛ و**معالم التنزيل** للبغوي، ١٨٠/١. ورُويَ عن الكلبي عن أبي صالح في **أسباب النزول** للواحدي، ص ٥٤-٥٥. | والبحائر جمع البَحيرة: وهي الناقة تُشقّ أذنها؛ تفعل العرب بها ذلك إذا نُتجت عشرة أبطُن، تُترَك فلا ينتفَع منها بلبن ولا ظهر. والسوائب جمع السائبة: وهي الناقة كانت تُسيَّب في الجاهليّة لنَذر أو لنحوه. والوصائل جمع الوصيلة: وهي الناقة التي وصلت بين عشرة أبطُن، وهي مِن الشاء التي ولدت سبعة أبطُن عَناقين عَناقين -والعَناق: الأنثى مِن ولد المعز- فإذا ولدت في السابع عَناقًا قيل: وصلت أخاها، فلا يذبحون أخاها مِن أجلها، فلا يَشرَب لبن الأمّ إلّا الرجال دون النساء، وتجري مَجرى السائبة. الحامي: الفحل مِن الإبل يَضرب الضِّراب المعدود، قيل: عشرة أبطُن، فإذا بلغ ذلك قالوا: هذا حامٍ، أي: حمى ظهره، فيُترَك فلا ينتفع منه بشيء، ولا يُمنَع مِن ماء ولا مرعًى. انظر: **لسان العرب** لابن منظور، «بحر»، «سيب»، «وصل»، «حمي».

أي: أَكْلًا حلالًا.[١] ويؤيِّد الأوّلين قولُه تعالى: ﴿طَيِّبًا﴾؛ فإنّه صفة له، ووصفُ الأكل به غيرُ معتاد. وقيل: نزلت في قوم مِن المؤمنين حرّموا على أنفسهم رفيع الأطعمة والملابس.[٢] ويَردّه قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: لا تقتدوا بها في اتّباع الهوى. فإنّه صريح في أنّ الخطاب للكَفَرة، كيف لا، وتحريمُ الحلال على نفسه تزهيدًا ليس مِن باب اتّباع خطوات الشيطان، فضلًا عن كونه تقوُّلًا وافتراءً على الله تعالى، وإنّما الذي نزل فيهم ما في سورة المائدة مِن قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ الآية [المائدة، ٥/٨٧].

وقُرئ: "خُطْوَاتِ" بسكون الطاء،[٣] وهما لغتان في جمع "خُطْوة"، وهي ما بين قدمَي الخاطي. وقُرئ بضمّتين وهمزة،[٤] جُعِلت ضمّة الطاء كأنّها على الواو؛ وبفتحتين[٥] على أنّها جمعُ "خَطْوة"، وهي المَرّة مِن الخَطْو.

﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ تعليل للنهي، أي: ظاهر العداوة عند ذوي البصيرة، وإن كان يُظهِر الوَلاية لمَن يُغويه؛ ولذلك سُمِّي وليًّا في قوله تعالى: ﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ﴾ [البقرة، ٢/٢٥٧].

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ﴾ استئناف لبيان كيفيّة عداوته، وتفصيل لفنون شرّه وإفسادِه وانحصار معاملتِه معهم في ذلك. و"السوء" في الأصل مصدرُ: ساءَه يَسوءُه سُوءًا ومَساءة، إذا أحزنه، يُطلقُ على جميع المعاصي

---

١ الوجه في التبيان للعُكبري، ١/١٣٨؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢/٢٢٢؛ واللباب لابن عادل، ٣/١٥١.

٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٥٧.

٣ قرأ بها نافع وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر عنه وابن كثير في رواية البَزي عنه بخلاف وحمزة وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢١٦.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ رضي الله عنه وسلّام وعمرو بن عُبيد وعيسى بن عمر والأعرج. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١١٨؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٨١؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ٤٧٧-٤٧٨.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال وأبي حرام الأعرابي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١١٨؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٨١.

سواءٌ كانت مِن أعمال الجوارح أو أفعال القلوب، لاشتراك كلِّها في أنّها تَسوء صاحبَها. و﴿ٱلْفَحْشَآءِ﴾ أقبحُ أنواعِها وأعظمُها مَساءةً.

﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلْفَحْشَآءِ﴾، أي: وبأن تفتروا على الله بأنّه حرَّم هذا وذاك، ومعنى ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: ما لا تعلمون أنّ الله تعالى أمرَ به. وتعليق أمره بتقوُّلهم على الله تعالى[1] ما لا يعلمون وقوعَه منه تعالى، لا بتقوُّلهم عليه ما يَعلمون عدمَ وقوعِه منه تعالى، مع أنّ حالهم ذلك للمبالغة في الزجر. فإنّ التحذير مِن الأوّل مع كونه في القُبْح والشناعة دون الثاني تحذيرٌ عن الثاني على أبلغِ وجهٍ وآكَده، وللإيذان بأنّ العاقل يَجِب عليه ألّا[2] يقول على الله ما لا يَعلم وقوعَه منه تعالى مع الاحتمال، فضلًا عن أن يقول عليه ما يَعلم عدمَ وقوعه منه. قالوا: «وفيه دليل على المنع مِن اتّباع الظنّ رأسًا، وأمّا اتّباع المجتهِد لِما أدّى إليه ظنُّه فمستنِد إلى مَدرَك شرعيّ فوجوبه قطعيٌّ، والظنُّ في طريقه».[3]

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ۝١٧٠﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ التفات إلى الغيبة تسجيلًا بكمال ضلالهم وإيذانًا بإيجاب تعداد ما ذُكِر مِن جناياتهم لصَرف الخطاب عنهم وتوجيهه إلى العقلاء، وتفصيلُ مَساوئ أحوالِهم لهم على نهج المُباثّة، أي: إذا قيل لهم على وجه النصيحة والإرشاد: اتَّبعوا كتاب الله الذي أنزله، ﴿قَالُواْ﴾ لا نتّبعه؛ ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ أي: وجدناهم عليه، إمّا على أنّ الظرف متعلِّق بمحذوفٍ وقعَ حالًا مِن ﴿ءَابَآءَنَا﴾، و﴿أَلْفَيْنَا﴾ متعدٍّ إلى واحد، وإمّا على أنّه مفعول ثانٍ له مقدَّم على الأوّل. نزلت في المشركين أُمِروا باتّباع القرآن وسائر ما أنزل الله تعالى مِن الحُجج الظاهرة والبيّنات الباهرة فجنحوا للتقليد.[4] والموصول إمّا عبارةٌ عمّا سبق مِن اتّخاذ الأنداد وتحريم الطيّبات ونحو ذلك، وإمّا باقٍ على عمومه،

---

[1] ي – تعالى.
[2] ي: أن.
[3] أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٥٧.
[4] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٥٧.

وما ذُكر داخلٌ فيه دخولًا أوّليًا. وقيل: نزلت في طائفة مِن اليهود دعاهم رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم إلى الإسلام، فقالوا: «بل نتّبعُ ما وجدنا عليه آباءَنا؛ لأنّهم كانوا خيرًا منّا وأعلم».[1] فعلى هذا يعُمّ "ما أنزل الله تعالى" التوراةَ؛ لأنّها أيضًا تدعو إلى الإسلام.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ استئناف مَسوق مِن جهته تعالى ردًّا لمقالتهم الحمقاءِ وإظهارًا لبُطلان آرائهم. والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه والتعجيب منه، لا لإنكار الوقوع كالتي في قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ﴾ [الأعراف، ٨٨/٧].

وكلمة ﴿لَوْ﴾ في أمثال هذا المقام ليست لبيان انتفاء الشيء في الزمان الماضي لانتفاء غيره فيه، فلا يُلاحَظ لها جواب قد حُذِف ثقةً بدلالة ما قبلها عليه؛ بل هي لبيان تحقُّق ما يُفيده الكلام السابق بالذات أو بالواسطة مِن الحُكم الموجَب أو المَنفيّ على كلّ حالٍ مفروضٍ مِن الأحوال المقارِنة له على الإجمال، بإدخالها على أبعدها منه وأشدِّها مُنافاة له ليَظهر بثبوته[2] أو انتفائه معه ثبوتُه أو انتفاؤه مع ما عداه مِن الأحوال بطريق الأوّلويّة، لِما أنّ الشيء متى تحقّق مع المُنافي القويّ فلَأَنْ يَتحقَّق مع غيره أولى، ولذلك لا يُذكَر معه شيء مِن سائر الأحوال، ويُكتفى عنه بذِكْر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المقابلةِ لها المتناولةِ لجميع الأحوال المغايرة لها، وهذا معنى قولهم: إنّها لاستقصاء الأحوال على سبيل الإجمال. وهذا المعنى ظاهر في الخبر الموجَب والمَنفيّ والأمر والنهي، كما في قولك: فلان جواد يُعطي ولو كان فقيرًا وبخيل لا يُعطي ولو كان غنيًّا، وقولك: أَحسِنْ إليه ولو أساءَ إليك ولا تُهِنْه ولو أهانك لبقائه على حاله.

وأمّا فيما نحن فيه ففيه نوع خفاء ناشئ مِن ورود الإنكار عليه لكنّ الأصل في الكلّ واحد، إلّا أنّ كلمة "لو" في الصور المذكورة متعلِّقة بنفس الفعل المذكور قبلها، وأنّ ما يُقصَد بيانُ تحقُّقه على كلّ حال هو نفس مدلوله،

---

[1] عن ابن عبّاس في جامع البيان للطبري، ١٤٢/٣؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٢٨١/١.

[2] ي: ثبوته.

وأنّ الجملة حال مِن ضميره[1] أو ممّا يَتعلَّق به،[2] وأنّ ما في حيّز "لو" باقٍ على ما هو عليه مِن الاستبعاد غالبًا بخلاف ما نحن فيه، لِما أنّ كلمة ﴿لَوْ﴾ متعلِّقة فيه بفعل مقدَّر يَقتضيه المذكور، وأنّ ما يُقصَد بيانُ تحقّقه على كلّ حالٍ مدلولُه لا مدلول المذكور مِن حيث هو مدلوله، وأنّ الجملة حال ممّا يتعلّق به لا ممّا يتعلّق بالمذكور مِن حيث هو متعلِّق به، وأنّ المقصود الأصليّ إنكار مدلولِه باعتبار مقارنته للحالة المذكورة، / وأمّا تقدير مقارنته لغيرها فلتوسيع الدائرة، [٦٠ظ] وأنّ ما في حيّز ﴿لَوْ﴾ لا يُقصَد استبعاده في نفسه؛[3] بل يُقصَد الإشعار بأنّه أمر محقَّق، إلّا أنّه أُخرِج مُخرَج الاستبعاد معاملةً مع المخاطَبين على مُعتقدهم لئلا يَلبَسوا مِن التصريح بنسبة آبائهم إلى كمال الجهالة والضلالةِ جلدَ النَّمِر،[4] فيَركبوا متنَ العِناد، ومبالغةً في الإنكار مِن جهة[5] اتّباعهم لآبائهم حيث كان منكَرًا مستقبَحًا عند احتمال كون آبائهم كما ذُكر احتمالًا بعيدًا، فلَأَنْ يكون منكَرًا عند تحقّق ذلك أَولى.

والتقدير: أيتّبعون ذلك[6] لو لم يكن آباؤهم لا يعقلون شيئًا مِن الدِّين ولا يَهتدون للصواب؟ ولو كانوا كذلك[7] فالجملة في حيّز النصب على الحالية مِن آبائهم على طريقة قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء، ١٢٥/٤]. كأنّه قيل: أيتّبعون دين آبائهم حال كونهم عاقلين وجاهلين ضالّين؟ إنكارًا لِما أفاده كلامُهم مِن الاتّباع على أيّ حالةٍ كانت مِن الحالتين، غير أنّه اكتُفيَ بذِكْر الحالةِ الثانية تنبيهًا على أنّها هي الواقعةُ في نفس الأمر، وتعويلًا على اقتضائها للحالة الأولى اقتضاءً بيّنًا، فإنّ اتّباعهم الذي تعلّق به الإنكار حين تحقُّق مع كون آبائهم جاهلين ضالّين فلَأَنْ يتحقّق مع كونهم عاقلين ومهتدين أَوْلى.

---

[1] وفي هامش ط س ي: كما في الأوّلين، فإنّها حينئذ حال مِن فاعل "يعطي" و"لا يعطي". «منه».

[2] وفي هامش ط س ي: كما في الأخيرين فإنّها حينئذ حال مِن الضمير المجرور في "إليه" والمنصوب في "لا تُنهه". «منه».

[3] ي - في نفسه.

[4] لبِس فلان لفلان جِلد النَّمر إذا تنكَّر له. لسان العرب لابن منظور، «نمر».

[5] ط + أنّ.

[6] وفي هامش ط س ي: أي: ما ألفَوا عليه آباءهم. «منه».

[7] وفي هامش ط س ي: أي: لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون. «منه».

إن قلتَ: الإنكار المستفاد مِن الاستفهام الإنكاريّ بمنزلة النفي، ولا ريب في أنّ الأَولويّة في صورة النفي معتبَرة بالنسبة إلى النفي، ألا يُرى أنّ الأَوْلى بالتحقّق فيما ذُكِر مِن مثال النفي عند الحالة المَسكوت عنها، أعني: عدم الغِنى هو عدم الإعطاء لا نفسُه، فكان ينبغي أن يكون الأَولى بالتحقّق فيما نحن فيه عند الحالة المسكوت عنها -وهي حالة كون آبائهم عاقلين ومهتدين- إنكارَ الاتّباع لا نفسه، إذ هو الذي يدلّ عليه: أيتّبعون... إلخ، فلِمَ اختلف الحال بينهما؟

قلتُ: لِما أنّ مَناط الأولويّة هو الحُكم الذي أُرِيد بيان تحقّقه على كلّ حال، وذلك في مثال النفي عدمُ الإعطاء المستفاد مِن الفعل المنفيّ المذكور، وأمّا فيما نحن فيه فهو نفس الاتّباع المستفاد مِن الفعل المقدّر؛ إذ هو الذي يَقتضيه الكلام السابق، أعني قولهم: ﴿بَلۡ نَتَّبِعُ﴾... إلخ، وأمّا الاستفهام فخارج عنه وارد عليه لإنكار ما يُفيده واستقباح ما يَقتضيه، لا أنّه مِن تمامه كما في صورة النفي. وكذا الحال فيما إذا كانت الهمزة لإنكار الوقوع ونَفْيه مع كونه بمنزلة صريح النفي كما سيأتي تحقيقه في قوله تعالى: ﴿أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ [الأعراف، ٨٨/٧]. وقيل: الواوُ حاليّة.[١] ولكنّ التحقيق أنّ المعنى يدور على معنى العطف في سائر اللغات أيضًا.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١﴾

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ جملة ابتدائيّة واردة لتقرير ما قبلها بطريق التصوير، وفيها مضاف قد حُذِف لدلالة ﴿قِيلَ﴾ عليه. ووضعُ الموصول مَوضِع الضمير الراجع إلى ما تَرجِع إليه الضمائر السابقة لذمّهم بما في حيّز الصلة، وللإشعار بعِلّة ما أُثبِت لهم مِن الحُكم. والتقدير: مَثَل ذلك القائل وحاله[٢] الحقيقة لغَرابتها بأن تُسمّى "مَثَلًا" وتَسير في الآفاق، فيما ذُكِر مِن دعوته إيّاهم إلى اتّباع الحقّ وعدم رفعهم إليه رأسًا لانهماكهم في التقليد، وإخلادِهم إلى ما هم عليه مِن الضلالة

---

[١] وهو مذهب الزمخشري في الكشّاف، ١٦٤/١.

[٢] ي: وحالته.

وعدمِ فهمهم مِن جهة الداعي إلّا الدعاءَ مِن غير أن يُلقوا أذهانَهم إلى ما يُلقى عليهم. ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾[١] مِن البهائم فإنّها لا تَسمَع إلّا صوتَ الراعي وهَتْفه بها، مِن غير فَهْم لكلامه أصلًا.

وقيل: إنّما حُذف المضاف مِن الموصول الثاني لدلالة كلمة ﴿مَا﴾ عليه؛ فإنّها عبارة عنه مُشعِرة مع ما في حيّز الصلة بما هو مَدار التمثيل، أي: مَثَلُ الذين كفروا فيما ذُكِر مِن انهماكهم فيما هم فيه[٢] وعدمِ التدبّر فيما أُلقي إليهم مِن الآيات كمَثَل بهائم الذي يَنعِق بها وهي لا تسمَع منه إلّا جَرْسَ النغْمَة ودَويَّ الصوت. وقيل: المراد تمثيلهم في اتّباع آبائهم على ظاهر حالهم جاهلين تحقيقها بالبهائم التي تسمَع الصوت ولا تَفهَم ما تحته.[٣] وقيل: تمثيلهم في دعائهم الأصنام بالناعق في نَعْقه، وهو تصويته على البهائم. وهذا غنيّ عن الإضمار لكن لا يُساعده قوله: ﴿إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾، فإنّ الأصنام بمَعزِل مِن ذلك.[٤] وقد عرفتَ أنّ حُسْن التمثيل فيما تشابه أفراد الطرفين.

﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ بالرفع على الذمّ، أي: هم صمّ... إلخ. ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ شيئًا؛ لأنّ طريق التعقّل هو التدبّر في مَبادي الأمور المعقولة والتأمّل في ترتيبها، وذلك إنّما يحصُل باستماع آيات الله ومشاهدة حُججه[٥] الواضحة، والمفاوضَة مع مَن يُؤخَذ منه العلوم، فإذا كانوا صُمًّا بُكمًا عُميًا فقد انسدّ عليهم أبواب التعقّل وطُرُق الفَهْم بالكلّيّة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾ أي: مِن[٦] مستلَذّاته. ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾ الذي رَزقكموها. والالتفات لتربية المهابة. ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾؛

---

[١] السياق: مَثَل ذلك القائل... كمثل الذي ينعق...

[٢] ي - فيه.

[٣] أصل القولين في الكشّاف للزمخشري، ١٦٤/١؛ وتفصيله في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥٨/١.

[٤] انظر القول في الكشّاف للزمخشري، ١٦٤/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥٨/١.

[٥] ي: الحجّة.

[٦] س - مِن.

فإنّ عبادته تعالى لا تتِمّ إلّا بالشكر له. وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «يقول الله عزّ وجلّ: إنّي والإنس والجنّ في نبأ عظيم؛ أخلُق ويُعبَد غيري، وأرزُق ويُشكَر غيري».[١]

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ أي: أكْلها أو الانتفاع بها. وهي التي ماتت على غير ذَكاة. والسمَك والجَراد خارجان عنها بالعُرف أو استثناءِ الشرع خروجَ الطِّحال مِن الدم.[٢] ﴿وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ إنّما خُصّ لحمه مع أنّ سائر أجزائه أيضًا[٣] في حُكمه؛[٤] لأنّه مُعظَم ما يُؤكَل مِن الحيوان، وسائرُ أجزائه بمَنزلة التابع له. ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: رُفِع به الصوت عند ذبحه للصنم. و"الإهلال" أصله: رؤيةُ الهلال، لكن لمّا جرت العادة برفع الصوت بالتكبير عندها سُمِّي ذلك إهلالًا، ثمّ قيل لرَفْع الصوت وإن كان لغيره.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾ بالاستئثار على مضطرّ آخرَ. ﴿وَلَا عَادٍ﴾ سدَّ الرَّمَق والجَوْعة. «وقيل: غيرَ باغٍ على الوالي، ولا عادٍ بقطع الطريق. وعلى هذا لا يُباح للعاصي[٥] بالسفر، وهو ظاهر مذهب الشافعي، وقولُ أحمدَ رحمهما الله».[٦] ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في تناوله. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِما فُعِل، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالرُّخصة.

إن قيل كلمة ﴿إِنَّمَا﴾ تُفيد قصر الحُكم على ما ذُكِر، وكم مِن حرام لم يُذكَر! قلنا: المراد / قَصْر الحُرمة على ما ذُكِر ممّا استحلُّوه لا مطلقًا. أو قَصْر حرمتِه على حالة الاختيار، كأنّه قيل: إنّما حُرِّم عليكم هذه الأشياء ما لم تُضطَرّوا إليها. [٦١و]

---

١ مسند الشاميّين للطبراني، ٩٣/٢ (٩٧٤)؛ شعب الإيمان للبيهقي، ٣١٠/٦ (٤٢٤٣)؛ الكشّاف للزمخشري، ١٦٥/١.

٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٦٥/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥٩/١.

٣ س - أيضًا.

٤ س + أيضًا.

٥ ط: المعاصي.

٦ ي - رحمهما الله. | انظر أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥٩/١.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ المشتمِل على فنون الأحكام التي مِن جملتها أحكام المحلَّلات والمحرَّمات حسبما ذُكِر آنفًا. وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «نزلت في رؤساء اليهود حين كتموا نَعْت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم».[1] ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ﴾ أي: يأخذون بدلَه. ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عِوَضًا حقيرًا. وقد مرّ سرُّ التعبير عن ذلك بالثمن الذي هو وسيلة في عقود المعاوَضة.

وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتّصافه بما في حيّز الصلة مِن الوصفَين الشنيعين المميَّزين لهم عمّن عداهم أكملَ تمييز، الجاعلَين إيّاهم بحيث كأنّهم حُضّار مشاهِدون على ما هم عليه. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بغاية بُعد منزلتِهم في الشرّ والفساد. وهو مبتدأ، خبره قوله تعالى: ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾، والجملة خبرٌ لـ﴿إِنَّ﴾، أو اسمُ الإشارة مبتدأ ثانٍ أو بدل مِن الأوّل، والخبر ﴿مَا يَأْكُلُونَ﴾... إلخ، ومعنى أكلِهم النار: أنّهم يأكلون في الحال ما يَستتبع النار ويَستلزمُها، فكأنّه عينُ النار وأكْلَه أكلُها، كقوله:

أكلتُ دمًا إن لم أَرُعْكِ بضَرَّة بعيدةِ مَهوى القُرط طيِّبةِ النشْرِ[2]

أو[3] يأكلون في المآل[4] عينَ النار عقوبةً على أكلهم الرِّشا في الدنيا. و﴿فِى بُطُونِهِمْ﴾ متعلِّق بـ﴿يَأْكُلُونَ﴾، وفائدته تأكيد الأكل وتقريره ببيان مقرّ المأكول.

---

[1] انظر: جامع البيان للطبري، ٣/٦٤-٦٥؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ١/٢٨٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١/١٨٤.

[2] البيت لأُنيف بن قترة الكلبي في ديوان بني كلب بن وَبَرة، ٢/٧٥٩؛ والأشباه والنظائر للخالديّين، ٢/٢٩٠، وصدره فيهما:

شربت دمًا إن لم أرُعك بحُرّة

وهو بروايته ههنا بلا نسبة في شرح الحماسة للمرزوقي، ٤/١٨٦٧؛ وصدره في الكشّاف للزمخشري، ١/١٦٥. وهو لعُروة الرحّال في سِمط اللآلي للميمني، ١/٦٧٢. | وأكل الدم: كناية عن أخذ الدية وترك الثأر، وذُكِرت فيه معانٍ أخرى. بعيد مهوى القُرط: كناية عن طول العُنق أو طول السالفة. والنشر: الرائحة. انظر: تعليقات صانع ديوان بني كلب بن وَبَرة، وشرح الحماسة للمرزوقي.

[3] س - أو.

[4] وفي هامش س: يوم القيامة. «منه».

وقيل: معناه ملءُ بطونهم، كما في قولهم: أكَل في بطنه وأكَل في بعض بطنِه.[١] ومنه:

كُلوا في بعض بطنِكم تعِفّوا[٢]

فلا بدّ مِن الالتجاء إلى تعليقه بمحذوف وقَع حالًا مقدَّرة مِن النار مع تقديمه على حرف الاستثناء، وإلّا فتعليقُه بـ﴿يَأْكُلُونَ﴾ يُؤدّي إلى قَصر ما يأكلونه[٣] إلى الشِّبَع على النار. والمقصود قَصْر ما يأكلونه مطلقًا عليها.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ عبارة عن غضبه العظيم عليهم وتعريض بحِرمانهم ما أُتيح للمؤمنين مِن فنون الكرامات السنيّة والزُّلفى. ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ لا يُثني عليهم. ﴿وَلَهُمْ﴾ مع ما ذُكِر. ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مُؤلِم.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ۝١٧٥﴾

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى ما أُشِير إليه بنظيره بالاعتبار المذكور خاصّة، لا مع ما يتلوه مِن أحوالهم الفظيعةِ؛ إذ لا دَخْل لها في الحُكم الذي يُراد إثباتُه ههنا، فإنّ المقصود تصوير ما باشروه مِن المعامَلة بصورة قبيحة تَنفِر منها الطباع ولا يتعاطاها عاقل أصلًا، ببيان حقيقة ما نبذوه وإظهار كُنهِ ما أخذوهُ وإبداءِ فظاعة تَبِعاتِه. وهو مبتدأ خبره الموصول، أي: أولئك المشترون بكتاب الله عزّ وجلّ ثمنًا قليلًا ليسوا بمشترين للثمن وإن قلّ؛ بل هم ﴿ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟﴾ بالنسبة إلى الدنيا ﴿ٱلضَّلَـٰلَةَ﴾ التي ليست ممّا يُمكن أن يُشترى قطعًا. ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ الذي ليس مِن قبيل ما يُبذَل بمقابلة شيء وإن جلّ. ﴿وَٱلْعَذَابَ﴾ أي: اشترَوا بالنظر إلى الآخرة العذاب الذي لا يُتوَهَّم كونُه ممّا يُشترى. ﴿بِٱلْمَغْفِرَةِ﴾ التي يتنافس فيها المتنافسون.

---

[١] القول في الكشّاف للزمخشري، ١/١٦٥.

[٢] صدر بيت، عجزه:
فإنّ زمانكم زمن خميصُ
ولا يُعلَم قائله. وهو في كتاب سيبويه، ١/٢١٠؛ ومعاني القرآن للأخفش، ١/٢٤٩ (النساء، ٤/١١)؛ وجامع البيان للطبري، ١/٣٨٣ (البقرة، ٢/٢٠). وتفصيل الكلام على البيت في خزانة الأدب للبغدادي، ٧/٥٥٩-٥٦٤.

[٣] ط س: يأكلهم.

﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ تعجُّب مِن حالهم الهائلة التي هي ملابَستهم بما يُوجِب النار إيجابًا قطعيًا كأنّه عينها. و﴿مَا﴾ عند سيبويه نكرة تامّة مفيدة لمعنى التعجّب مرفوعةٌ بالابتداء،[1] وتخصُّصها كتخصُّص "شرّ" في «شرٌّ أَهَرَّ ذا نَاب»،[2] خبرُها ما بعدها، أي: شيءٌ ما عظيم جعلهم صابرين على النار. وعند الفرّاء استفهاميّة،[3] وما بعدها خبرها، أي: أيّ شيءٍ أصبرَهم على النار؟ وقيل: هي موصولة.[4] وقيل: موصوفة بما بعدها، والخبر محذوف، أي: الذي أَصبَرهم على النار، أو شيءٌ أصبرهم على النار، أمرٌ عجيب فظيع.[5]

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ١٧٦﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: جنس الكتاب ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: ملتبِسًا به، فلا جَرمَ يكون مَن يَرفضه بالتكذيب والكِتمان ويركَب متن الجهل والغَواية مُبتلًى بمِثل هذا مِن أفانينِ العذاب. ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: في جنس الكتابِ الإلٰهيّ، بأن آمنوا ببعض كُتب الله تعالى وكفروا ببعضها، أو في التوراة، بأن آمنوا ببعض آياتِها وكفروا ببعضٍ كالآيات المغيَّرة المشتمِلة على أمر بعثة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ونعوته الكريمة، فمعنى الاختلاف التخلّفُ عن الطريق الحقّ، أو الاختلافُ في تأويلها، أو في القرآن بأن قال بعضهم: «إنّه سحر»، وبعضُهم: «إنّه شعرٌ»، وبعضهم: «أساطير»، كما حُكِي عن المفسّرين.[6] ﴿لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ عن الحقّ والصواب مستوجِب لأشدّ العذاب.

---

[1] انظر: كتاب سيبويه، ٧٢/١؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢٤٣/٢؛ واللباب لابن عادل، ١٨٧/٣.

[2] مَثَل استشهد به النحاة على الابتداء بالنكرة المُفيدة، ومَثّل به البلاغيّون للتنكير المُفيد التعظيمَ، أي: شرٌّ عظيم أهرّ ذا ناب. انظر: كتاب سيبويه، ٣٢٩/١؛ ومجمع الأمثال للميداني، ٣٧٠/١؛ وشرح الرضي على الكافية، ٢٣٢/١؛ والإيضاح للقزويني، ص ١٢٨. وهرّ الكلب إذا نبح وكشّر عن أنيابه، وقيل: الهرير: صوت دون النُباح. لسان العرب لابن منظور، «هرر».

[3] انظر: معاني القرآن للفرّاء، ١٠٣/١. ونقله الأخفش في معاني القرآن، ١٦٦/١.

[4] وهو قول أبي عبيدة في مجاز القرآن، ٦٤/١.

[5] انظر القول في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢٤٣/٢؛ واللباب لابن عادل، ١٨٧/٣.

[6] انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٦٦/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٦٠/١.

﴿لَيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

﴿لَيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ البِرّ: اسمٌ جامع لمراضِي الخصال. والخطاب لأهل الكتابَين؛ فإنّهم كانوا أكثروا الخوض في أمر القِبلة حين حُوِّلت إلى الكعبة، وكان كلّ فريقٍ يدّعي خيريّة التوجّه إلى قِبلته مِن القُطرين المذكورين. وتقديم ﴿ٱلْمَشْرِقِ﴾ على ﴿ٱلْمَغْرِبِ﴾ مع تأخّر زمان المِلّة النصرانيّة إمّا لرعاية ما بينهما مِن الترتيب المتفرّع على ترتيب الشروق والغروب، وإمّا لأنّ توجّه اليهودِ إلى المَغرب ليس لكونه مَغرِبًا؛ بل لكون بيتِ المقدس مِن المدينة المنوّرة واقعًا في جانب الغرب. فقيل لهم: ليس البِرّ ما ذكرتُم مِن التوجّه إلى تَينك الجهتين، على أنّ ﴿ٱلْبِرَّ﴾ خبرُ ﴿لَيْسَ﴾ مقدَّم على اسمها، كما في قوله:

سَلي إن جهِلتِ الناسَ عنّي وعنهمُ   فليس سواءً عالمٌ وجَهولُ[1]

وقوله:

أليس عظيمًا أن تُلمَّ مُلِمَّةٌ   وليس علينا في الخُطوب مَقولُ[2]

وإنّما اختير ذلك لِما أنّ المَصدر المُئوَّل أعرف مِن المُحلّى باللام، لأنّه يُشبهُ الضمير مِن حيث إنّه لا يُوصَف ولا يُوصَف به، والأعرفُ أحقّ بالاسميّة، ولأنّ في الاسم طُولًا. فلو رُوعيَ الترتيب المعهود لَفات تجاوُب أطراف النظم الكريم. وقُرئ برفع ﴿ٱلْبِرَّ﴾،[3] على أنّه اسمها، وهو أقوى بحسب المعنى؛

---

[1] البيت لعبد المَلِك بن عبد الرحيم الحارثي، ويقال: إنّه للسموءل بن عادِياء. شرح الحماسة للمرزوقي، ١٢٣/١. وهو بلا نسبة في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢٤٥/٢؛ واللباب لابن عادل، ١٩١/٣.

[2] البيت لعروة بن الورد فيما صحّ له مِن زيادات ديوانه، ص ١٢٨، وفيه «في الحقوق مُعوَّل» مكان «في الخطوب مَقول». وهو بلا نسبة في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢٤٥/٢؛ واللباب لابن عادل، ١٩١/٣.

[3] قرأ بها العشرة إلّا حمزة وحفصًا عن عاصم. السبعة لابن مجاهد، ص ١٧٥؛ النشر لابن الجزري، ٢٢٦/٢.

لأنّ كلّ فريق يدّعي أنّ البِرّ هذا، فيجب أن يكون الردّ موافِقًا لدعواهم، وما ذلك إلّا بكون البِرّ اسمًا، كما يُفصِح عنه جَعْله مخبَرًا عنه في الاستدراك بقوله تعالى: / ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾. وهو تحقيقٌ للحقّ بعد بيان بطلان الباطل، [٦١ظ] وتفصيلٌ لخِصال البِرّ، ممّا لا يَختلِف باختلاف الشرائع وما يَختلِف باختلافها، أي: ولكنّ البِرّ المعهود الذي يَحِقّ أن يُهتَمّ بشأنه ويُجَدّ في تحصيله بِرُّ مَن آمن بالله وحدَه إيمانًا بريئًا مِن شائبة الإشراك، لا كإيمان اليهود والنصارى المشركين بقولهم: عُزير ابنُ الله، وقولِهم: المسيح ابن الله.

﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ أي: على ما هو عليه، لا كما يَزعُمون مِن أنّ النار لا تمسّهم إلّا أيّامًا معدودة، وأنّ آباءَهم الأنبياءَ يَشفعون لهم. ففيه تعريض بأنّ إيمان أهل الكتابين حيث لم يكن كما ذُكِر مِن الوجه الصحيح لم يكن إيمانًا. وفي تعليق البِرّ بهما مِن أوّل الأمر عَقيب نفيه عن التوجّه إلى المَشرِق والمَغرِب مِن الجزالة ما لا يخفى. كأنّه قيل: ولكنّ البِرّ هو التوجّه إلى المَبدأ والمَعاد اللذين هما[1] المَشرِق والمَغرِب في الحقيقة.

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي: وآمن بهم وبأنّهم عباد مكرَمون متوسّطون بينه تعالى وبين أنبيائه، بإلقاء الوحي وإنزال الكتب. ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: بجنس الكتاب الذي مِن أفراده الفرقان الذي نبذوه وراءَ ظهورهم. وفيه تعريض بكِتمانهم نعوتَ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم واشترائِهم بما أنزل الله تعالى ثمنًا قليلًا. ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ جميعًا مِن غير تفرقة بين أحد منهم كما فعل أهل الكتابَين. ووجه توسيط الكتاب بين حَمَلة الوحي وبين النبيّين واضحٌ، وسيأتي في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة، ٢/٢٨٥].

﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ حال مِن الضمير في ﴿ءَاتَى﴾. والضمير المجرور لـ﴿ٱلۡمَالَ﴾، أي: آتاه كائنًا على حبّ المال، كما في قوله صلّى الله عليه وسلّم حين سُئِل: أيُّ الصدقة أفضلُ؟ «أن تُؤتِيَه وأنت صحيح شحيحٌ».[2]

---

[1] ي: هو.

[2] معالم التنزيل للبغوي، ١٨٦/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٦٠/١.

وقولِ ابن مسعود رضي الله عنه: «أن تُؤتيَه وأنت صحيح شحيح تأمُل العيش وتخشى الفقر، ولا تُمهِلَ حتّى إذا بلغتِ الحُلقومَ قلتَ: لفلان كذا ولفلان كذا».[١] وقيل: الضمير لله تعالى،[٢] أي: آتاه كائنًا على مَحبّته تعالى، لا على قصد الشرّ والفساد. ففيه نوع تعريضٍ لباذلي الرِّشا وآخذيها لتغيير **التوراة**. وقيل: للمصدر،[٣] أي: كائنًا على حبّ الإيتاء.

﴿ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ مفعول أوّل لـ﴿ءَاتَى﴾، قُدِّم عليه مفعوله الثاني، أعني ﴿ٱلۡمَالَ﴾ للاهتمام به، أو لأنّ في الثاني مع ما عُطِف عليه طُولًا، لو رُوعي الترتيب لَفات تجاوب الأطراف في الكلام، وهو الذي اقتضى تقديم الحال أيضًا. وقيل: هو المفعول الثاني.[٤] ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ أي: المَحاويج منهم على ما يدلّ عليه الحال. وتقديم ﴿ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ عليهم لِما أنّ إيتاءَهم صدقة وصِلَة. ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينَ﴾ جمعُ "مِسكين"، وهو الدائم[٥] السكون لِمَا أنّ الخَلّة أَسكنَته بحيث لا حَراك به، أو دائمُ السكون إلى الناس. ﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: المسافر، سُمّي به لملازمته إيّاه كما سُمّي القاطِعُ ابنَ الطريق. وقيل: الضيف.[٦] ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ الذين أَلجأتْهم الحاجة والضرورة إلى السؤال. قال عليه السلام: «أَعطُوا السائل ولو جاء على فرَسٍ».[٧]

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ أي: وَضَعه في فكّ الرِّقاب بمعاونة المكاتَبين حتّى يَفكّوا رِقابهم. وقيل: في فكّ الأُسارى. وقيل: في ابتياع الرِّقاب وإعتاقها.[٨] وأيًّا ما كان فالعدول عن ذِكْرهم بعنوان مصحِّحٍ للمالكيّة كالذين مِن قبلهم إمّا للإيذان

---

[١] بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٣/٧٨-٨١؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١/١٨٦؛ والكشّاف للزمخشري، ١/١٦٧.

[٢] انظر القول في معالم التنزيل للبغوي، ١/١٨٧؛ والكشّاف للزمخشري، ١/١٦٧.

[٣] انظر القول في الكشّاف للزمخشري، ١/١٦٧؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٦٠.

[٤] وفي هامش ي: السهيلي. «منه». | هو قول السهيلي كما في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢/٢٤٨؛ واللباب لابن عادل، ٣/٢٠٨.

[٥] ي: دائم.

[٦] انظر القول في الكشّاف للزمخشري، ١/١٦٨؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٦١.

[٧] بهذا اللفظ في مؤطأ مالك، ٢/٥٢٩ (٧٨٧). وهو بلفظ «للسائل حقٌّ وإن جاء على فرس» في مسند أحمد، ٣/٢٥٤ (١٧٣٠)؛ والمُصنَّف لابن أبي شيبة، ٢/٣٥٣ (٩٨٢٣)؛ وسنن أبي داود، ٣/٩٨ (١٦٦٥)؛ وبلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ١/١٦٨.

[٨] انظر القولين في الكشّاف للزمخشري، ١/١٦٨؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٦١.

بعدم قرار مِلْكهم فيما أُوتوا كما في الوجهين الأوّلين، أو بعدم ثبوته رأسًا كما في الوجه الأخير، وإمّا للإشعار برُسوخهم في الاستحقاق والحاجة لِمَا أنّ ﴿فِي﴾ للظرفيّة المنبِئة عن مَحلِّيّتهم لِما يُؤتى.

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: المَفروضة منها. ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: المَفروضة. على أنّ المراد بما مرّ مِن إيتاء المال التنفُّل بالصدقات، قُدِّم على الفريضة مبالغةً في الحثّ عليه. أو المرادُ بهما المَفروضةُ، والأوّل لبيان المَصارفِ والثاني لبيان وجوب الأداء.

﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾ عطفٌ على ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾، فإنّه في قُوّة أن يُقال: ومَن أوفَوا بعهدهم. وإيثار صيغة الفاعل للدلالة على وجوب استمرار الوفاء. والمراد بـ"العهد" ما لا يُحرِّم حلالًا ولا يُحلِّل حَرامًا مِن العهود الجارية فيما بين الناس. وقوله تعالى: ﴿إِذَا عَٰهَدُواْ﴾ للإيذان بعدم كونه مِن ضروريّات الدِّين.

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ نُصِب على الاختصاص، غُيِّر سَبكه عمّا قبله تنبيهًا على فضيلة الصبر ومَزِيّته، وهو في الحقيقة معطوف على ما قبله. قال أبو عليّ:[1] «إذا ذُكِرتْ صفات للمدح أو الذمّ فخُولِف في بعضها الإعرابُ فقد خُولِف للافتنان».[2] ويُسمَّى ذلك "قطعًا"؛ لأنّ تغيير المألوف يدل على زيادة ترغيب في استماع المذكور، ومَزيدِ اهتمام بشأنه، كما مرّ في صدر السورة. وقد قُرِئ: "وَالصَّابِرُونَ"،[3] كما قُرِئ: "وَالمُوفِينَ".[4] ﴿فِي ٱلْبَأْسَآءِ﴾ أي: في الفقر والشِّدّة

---

[1] هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفّار الفارسي الأصل، أبو عليّ (ت. ٣٧٧هـ/٩٨٧م). واحد زمانه في علم العربيّة. وُلِد في فسا، مِن أعمال فارس، وتجوّل في كثير مِن البلدان. صحب عضد الدولة البُويهي وتقدّم عنده، وصنّف له **الإيضاح والتكملة**. أخذ عن الزجّاج وابن السرّاج، وبرع مِن طلبته ابن جنّي وعليّ بن عيسى الرَّبعي. وكان متّهمًا بالاعتزال. مصنّفاته كثيرة منها: **الحجّة للقرّاء السبعة، والتعليقة على كتاب سيبويه، والإغفال، وكتاب الشِّعر، والمسائل البصريّات، والمسائل الحلبيّات، والمسائل العسكريّات، والمسائل الشيرازيّات**. انظر: **بغية الوعاة** للسيوطي، ١/٤٩٦-٤٩٨؛ **والأعلام** للزركلي، ٢/١٧٩-١٨٠.

[2] انظر قول أبي عليّ بمعناه في **الدرّ المصون** للسمين الحلبي، ٢/٢٥٠؛ **واللباب** لابن عادل، ٣/٢٠٩.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الجَحدري وقتادة والحسن والمُعلّى ومحبوب عن أبي عمرو وابن حَبَشان عن يعقوب. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١١٨؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٨١؛ **المغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ٤٨٥.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وأُبيّ وعصمة عن الأعمش. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١١٨؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٨١؛ **المغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ٤٨٤.

﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي: المرض والزَّمانة ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ أي: وقتَ مجاهدة العدوِّ في مواطن الحرب، وزيادةُ "الحين" للإشعار بوقوعه أحيانًا وسرعة انقضائه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين باعتبار اتّصافهم بالنعوت الجميلة المعدودة. وما فيه مِن معنى البُعد لِما مرّ مرارًا مِن التنبيه عن عُلوّ طبقتهم وسُموّ رُتبتهم. ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ أي: في الدِّين واتّباع الحقّ وتحرّي البِرّ، حيث لم تُغيّرهم الأحوال ولم تُزلزلهم الأهوال. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ عن الكفر وسائر الرذائل. وتكريرُ الإشارة لزيادة تنويه شأنِهم. وتوسيط الضمير للإشارة إلى انحصار التقوى فيهم.

والآية الكريمة كما ترى حاويةٌ لجميع الكمالات البشريّة برُمّتها تصريحًا أو تلويحًا لِمَا أنّها مع تكثّر فنونها وتشعّب شجونِها منحصرةٌ في خِلال ثلاث: صحة الاعتقاد، وحسن المعاشرة مع العباد، وتهذيب النفس. وقد أُشِير إلى **الأولى** بالإيمان بما فُصِّل، وإلى **الثانية** بإيتاء المال، وإلى **الثالثة** بإقامة الصلاة... إلخ. ولذلك وُصِف الحائزون لها بالصدق نظرًا إلى إيمانهم واعتقادِهم، وبالتقوى اعتبارًا بمعاشرتهم مع الخلق، ومعامَلتهم مع الحقّ. وإليه يشير قولُه صلّى الله عليه وسلّم: «مَن عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان».[١]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٨﴾

[٦٢و] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ شروع في / بيان بعض الأحكام الشرعيّة على وجه التلافي لِما فَرَط مِن المخِلّين بما ذُكِر مِن أصول الدين وقواعده التي عليها بُنِيَ أساس المعاش والمعاد.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ أي: فُرِض وأُلزِم[٢] عند مطالبة صاحب الحقّ، فلا يَقدَح فيه قدرة الوليّ على العَفو؛ فإنّ الوجوب إنّما اعتُبِر بالنسبة إلى الحُكّام أو القاتلين.

---

[١] لم أجِده في مظانّه. وهو في التفسير الوسيط للواحدي، ٢٦٣/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٢/١؛ والدرّ المنثور للسيوطي، ٤١٢/١.

[٢] تفسير القرطبي، ٢٤٦/٢.

﴿ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ أي: بسبب قتلهم، كما في قوله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ امرأة دخلَت النار في هِرَّة ربطَتها»،[١] أي: بسبب رَبْطها إيّاها.[٢]

﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ «كان في الجاهليّة بين حَيَّين مِن أحياء العَرب دماءٌ، وكان لأحدهما طَوْلٌ على الآخر، فأقسموا لَنقتلنَّ الحُرَّ منكم بالعبد والذَّكَر بالأنثى، فلمّا جاء الإسلام تحاكموا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فنزلت، فأمرهم أن يتباوَءُوا».[٣] وليس فيها دلالة على عدم قتل الحُرّ بالعبد عند الشافعي أيضًا؛[٤] لأنّ اعتبار المفهوم حيث لم يَظهَر للتخصيص بالذِّكر وَجْهٌ سوى اختصاص الحُكم بالمنطوق، وقد رأيتَ الوجه ههنا. وإنّما يَتمسّك في ذلك[٥] هو ومالكٌ رحمهما الله بما روى عليٌّ رضي الله عنه: «أنّ رجلًا قَتَل عبدَه؛ فجَلَده رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ونفاه سَنة ولم يُقِده»؛[٦] وبما رُوي عنه رضي الله عنه أنّه قال: «مِن السُّنّة ألّا يُقتَل مسلم بذي عَهْد ولا حُرٌّ بعبد»؛[٧] وبـ«أنّ أبا بكر وعُمرَ رضي الله عنهما: كانا لا يقتلان الحُرَّ بالعبد»[٨] بين أَظهُر الصحابةِ مِن غير نكير؛ وبالقياس على الأطراف.

---

١ صحيح البخاري، ١٣٠/٤ (٣٣١٨)؛ صحيح مسلم، ٢١١٠/٤ (٢٧٥٦).

٢ انظر: اللباب لابن عادل، ٢١٤/٣.

٣ هو بلفظ قريب جدًا في الكشّاف للزمخشري، ١٦٩/١. وبمعناه في معاني القرآن للفرّاء، ١٠٨/١-١٠٩؛ ومعاني القرآن وإعرابه للزجّاج، ٢٤٨/١؛ وجامع البيان للطبري، ٩٥/٣-٩٦؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٢٩٣/١-٢٩٤؛ والعجاب في بيان الأسباب لابن حجر، ٢٣٩-٢٤٠. | والطَّوْل: الفضل والقُدرة والغِنى والسَّعة والعُلُوّ. والتباوء: التعادُل والمُساواة، يقال: باوأْتُ بين القتلى، أي: ساويتُ. لسان العرب لابن منظور، «طول»، «بوأ».

٤ في هذا استدراك على الزمخشري في الكشّاف، ١٦٨/١؛ وعلى النسفيِّ في مدارك التنزيل، ١٥٥/١؛ إذ ذكرا أنّ الشافعي استدلّ بهذه الآية على أنّ الحُرّ لا يُقتل بالعبد. وسبق إلى الاستدراك على الزمخشري ابنُ المُنيِّر في الانتصاف، ١٦٨/١.

٥ ي - في ذلك.

٦ المُصنَّف لابن أبي شيبة، ١٩٤/١٤-١٩٥ (٢٨٠٨٣)؛ سنن ابن ماجه، ٦٧٥/٣ (٢٦٦٤). وانظر تمام تخريجه والكلام عليه في حواشي مُحقِّقيهما.

٧ سنن الدارقُطني، ١٥٤/٤-١٥٦ (٣٢٥٤، ٣٢٥٧)؛ السنن الكبرى للبيهقي، ١٩١/١٦ (١٦٠٣٣).

٨ المُصنَّف لابن أبي شيبة، ١٩٦/١٤ (٢٨٠٨٨)؛ سنن الدارقُطني، ١٥٥/٤ (٣٢٥٥)؛ السنن الكبرى للبيهقي، ١٩٠/١٦ (١٦٠٣١).

وعندنا: يُقتَل الحُرّ بالعبد؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾ [المائدة، ٥/٤٥]،[١] فإنّ شريعة مَن قَبْلَنا إذا قُصّت علينا مِن غير دلالة على نسخها فالعمل بها واجب على أنّها شريعة لنا؛ ولأنّ القِصاص يعتمِد المساواة في العِصْمة،[٢] وهي بالدِّين أو بالدار، وهما سِيّان فيهما. وقُرئ: "كَتَبَ" على البناء للفاعل،[٣] ونَصْب "القِصاصَ".[٤]

﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٌ﴾ أي: شيء مِن العَفْو؛ لأنّ "عفا" لازم. وفائدته الإشعار بأنّ بعض العَفْو بمنزلة كُلّه في إسقاط القِصاص، وهو الواقع أيضًا في العادة؛ إذ كثيرًا ما يقع العَفْو مِن بعض الأولياء، فهو شيء مِن العَفْو. وقيل: معنى ﴿عُفِيَ﴾: تُرِكَ. و﴿شَيۡءٌ﴾ مفعول به. وهو ضعيف؛ إذ لم يثبُت "عفاه" بمعنى: تَرَكه، بل "أعفاه".[٥] وحَمْل العَفْو على المَحْو -كما في قول مَن قال:

دِيـــارٌ عَـفـاهـا جَـــوْرُ كـــلِّ مُـعـانـدٍ[٦]

وقولِه:

عَـــفــــاه كـــــلُّ حَـــنّــــانٍ كـثـيـرِ الـــوَبْـــلِ هَـــطّـــالِ[٧]

ليكون المعنى: فمَن مُحِيَ له مِن أخيه شيءٌ- صَرْفٌ للعبارة المتداوَلة في الكتاب والسنّة عن معناها المشهور المعهود إلى ما ليس بمعهود فيهما وفي استعمال الناس؛ فإنّهم لا يستعملون العَفْو في باب الجنايات إلّا فيما ذُكِر مِن قَبلُ.[٨]

---

١ انظر الكلام بلفظ قريب جدًّا في مدارك التنزيل للنسفي، ١/١٥٥.

٢ انظر الدليل المذكور بمعناه في مدارك التنزيل للنسفي، ١/١٥٥.

٣ س + للفاعل.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عُبيد بن عُمير واليماني. انظر: المغني في القراءات للدّهّان النّوزوازي، ص ٤٨٥؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٦٣.

٥ في مجاز القرآن لأبي عُبيدة، ١/٦٦، أنّ عُفِيَ بمعنى: تُرِك. والقول مِن غير نسبة مع تضعيفه وتعليل ذلك في الكشّاف للزمخشري، ١/١٧٠؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٦٣.

٦ صدر بيت لدِعبل الخُزاعي في ديوانه، ص ٧٩، والرِّواية فيه:

ديـار عفاها جَـوْرُ كـلّ مُـنابِذٍ ولـم تـعفُ لـلأيّـام والسـنـواتِ

٧ البيت للوليد بن يزيد في ديوانه، ص ٥١؛ وهو له في دلائل الإعجاز، ص ٢٣٩؛ والإيضاح للقزويني، ص ٢٥٨. وفيها جميعًا «عَسوف» مكان «كثير». والحَنّان ههنا: السّحاب. لسان العرب لابن منظور، «حنن».

٨ انظر: الكشّاف للزمخشري، ١/١٧٠.

و"عفا" يُعدَّى بـ"عن" إلى الجاني والذَّنب، قال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ [التوبة، ٤٣/٩]؛ وقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾ [المائدة، ١٠١/٥]. فإذا تعدّى إلى الذَّنب قيل: عفَوتُ لفلان عمّا جنى، كأنّه قيل: فمَن عُفيَ له عن جنايته مِن جهة أخيه، يعني وليَّ الدَّم. وإيراده بعنوان الأُخوّة الثابتة بينهما بحُكم كونهما مِن بني[1] آدم عليه السلام؛ لتحريك سلسلة الرِّقّة[2] والعَطْف عليه.[3]

﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: فالأمر اتّباع، أو فلْيَكُن اتّباع.[4] والمراد: وصيّة العافي بالمسامحة، ومطالبته الدِّيَة بالمعروف مِن غير تعنيف. وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ حثٌّ للمعفوّ عنه على أن يُؤدّيَها بإحسان، مِن غير مماطَلة وبَخْس.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكِر مِن الحُكم ﴿تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ لِما فيه مِن التسهيل والنفع. وقيل: «كُتِب على اليهود القِصاص وحدَه وحُرِّم عليهم العَفْو والدِّيَة؛ وعلى النصارى العَفْو على الإطلاق، وحُرِّم عليهم القِصاص والدِّيَة؛ وخُيِّرت هذه الأمّة بين الثلاث»؛[5] تيسيرًا عليهم وتنزيلًا للحُكم على حسَب المَنازل.

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بأنْ قَتَل غيرَ القاتل بعد ورود هذا الحُكم، أو قَتَل القاتل بعد العَفْو أو أَخْذِ الدِّيَة ﴿فَلَهُۥ﴾ باعتدائه ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. أمّا في الدّنيا فبالاقتصاص بما قَتَله بغير حقّ، وأمّا في الآخرة فبالنار.[6]

---

[1] ي - بني.

[2] ي: الرأفة.

[3] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٣/١.

[4] التقدير في جامع البيان للطبري، ١١١/٣؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٥٣٧/١-٥٣٨: فعليه اتّباع، أو فالأمر اتّباع. وأوّل هذين الوجهين في معاني القرآن للأخفش، ١٦٨/١؛ ومعاني القرآن وإعرابه للزجّاج، ٢٤٩/١؛ وثانيهما في معاني القرآن للفرّاء، ١٠٩/١، ورجّح الطبريُّ ثانيهما. وضعّف أبو حيّان تقدير الزمخشري الفعل في "فليكن اتّباع"؛ إذ لا دليل على إضمار "كان" ههنا. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٨٣/٣.

[5] بلفظ قريب عن قتادة في تفسير ابن أبي حاتم، ٢٩٦/١؛ وبعضه عن ابن عبّاس رضي الله عنه في تفسير عبد الرزّاق، ٦٧/١؛ وصحيح البخاري، ٢٤/٦ (٤٤٩٨)؛ وجامع البيان للطبري، ١١٢/٣؛ وسنن الدارقُطني، ٦٧/٤ (٣١٠٤). وانظر تمام تخريجه في الدرّ المنثور للسيوطي، ١٥٦/٢. والكلام بمعناه مِن غير نسبة في الكشف والبيان للثعلبي، ٣٦٤/٤-٣٦٥؛ ونقله عن المُفسّرين الواحدي في التفسير الوسيط، ٢٦٥/١-٢٦٦.

[6] انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٧٠/١؛ وهو بمعناه مع زيادة في الكشف والبيان للثعلبي، ٣٦٨/٤-٣٦٩.

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ بيان لمَحاسن الحُكم المذكور على وجه بديع لا تُنال غايته:حيث جَعَل الشيء مَحلًّا لضدّه، وعرَّف "القِصاص"، ونكَّر "الحياة"؛ ليَدلّ على أنّ في هذا الجنس نوعًا مِن الحياة عظيمًا لا يَبلغه الوصف، وذلك: لأنّ العِلْم به يردَع القاتل عن القتل فيتسبّب لحياة نفسَين،[١] ولأنّهم كانوا يقتلون غير القاتل والجماعةَ بالواحد فتثور[٢] الفتنة بينهم، فإذا اقتُصّ مِن القاتل سَلِم الباقون، فيكون ذلك سببًا لحياتهم. وعلى الأوّل فيه إضمارٌ، وعلى الثاني تخصيصٌ.[٣]وقيل: المراد بالحياة هي الأخرويّة؛ فإنّ القاتل إذا اقتُصّ منه في الدنيا لم يُؤاخَذ به في الآخرة.[٤] والظرفان إمّا خبران لـ﴿حَيَوٰةٌ﴾، أو أحدهما خبر والآخر صِلة له، أو حال مِن المستكِنّ فيه. وقُرئ: "في القَصَص"،[٥] أي: فيما قُصّ عليكم مِن حُكم القتل حياةٌ، أو في القرآن حياةٌ للقلوب.

﴿يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ أي: ذوي العقول الخالصة عن شَوْب[٦] الأوهام، خوطبوا بذلك بعد ما خوطبوا بعنوان الإيمان؛ تنشيطًا لهم إلى التأمّل في حكمة القِصاص.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: تقُون أنفسَكم مِن المساهَلة في أمره والإهمال في المحافظة عليه والحكم به والإذعان له، أو مِن القِصاص فتكفُّوا عن القَتل المؤدّي إليه.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ١٨٠﴾

---

١ انظر هذا المعنى في **معاني القرآن وإعرابه** للزجّاج، ٢٤٩/١؛ و**التفسير الوسيط** للواحدي، ٢٦٨/١، وذكر أنّه قول أكثر أهل التفسير. وانظر: **دلائل الإعجاز** للجرجاني، ص ٢٨٩.

٢ س: فيثور.

٣ والتقدير في **الأوّل**: حياةٌ عظيمةٌ، فيكون التنكير للتعظيم، وفي **الثاني**: نوعٌ مِن الحياة، فيكون التنكير للنوعيّة. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ١٧٠/١؛ و**الإيضاح** للقزويني، ص ٢٨٨.

٤ ذُكِر هذا القول في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٦٤/١.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي الجوزاء. **وشواذّ القراءات** للكرماني، ص ٨٢.

٦ ي: شوائب.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾ بيان لحُكم آخر مِن الأحكام المذكورة. ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: حَضَر أسبابه وظهَر أماراته، أو دنا نفسُه مِن الحضور. وتقديم المفعول؛ لإفادة كمال تمكّن الفاعل عند النفس وقتَ وروده عليها.

﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ أي: مالًا. وقيل: مالًا كثيرًا، لِمَا رُويَ عن عليّ رضي الله عنه: أنّ مولًى له أراد أن يُوصيَ وله سبعمائة درهم، فمَنَعه وقال: «قال الله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾، وإنّ هذا لَشيء يسير فاترُكه لعِيالكَ».[1] وعن عائشة رضي الله عنها: أنّ رجلًا أراد الوصيّة وله عيالٌ / وأربعمائة دينار، فقالت: «ما أرى فيه فضلًا».[2] وأراد آخر أن يُوصيَ فسألته: «كم مالُك؟» فقال: «ثلاثةُ آلاف درهم»، قالت: «كم عِيالُك؟» قال: «أربعة»، قالت: «إنّما قال الله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾، وإنّ هذا لَشيء يسير؛ فاترُكه لعِيالك».[3] [٦٢ظ]

﴿ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ مرفوع بـ﴿كُتِبَ﴾، أُخِّر عمّا بينهما لِما مرّ مرارًا. وإيثار تذكير الفعل مع جواز تأنيثه أيضا للفصل، أو على تأويل أن يُوصى أو الإيصاء، ولذلك ذُكِّر الضمير في قوله تعالى: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ﴾.[4] و﴿إِذَا﴾ ظرفٌ مَحضٌ، والعامل فيه ﴿كُتِبَ﴾، لكن لا مِن حيث صدورُ الكَتْب عنه تعالى؛ بل مِن حيث تعلّقُه بهم تعلّقًا فِعليًا مستتبِعًا لوجوب الأداء، كما يُنبئ عنه البناء للمفعول وكلمة الإيجاب، ولا مَساغَ لجعل العامل هو ﴿ٱلْوَصِيَّةُ﴾؛ لتقدّمه عليها. وقيل: هو مبتدأ، خبره ﴿لِلْوَٰلِدَيْنِ﴾، والجملة جواب الشرط بإضمار الفاء،[5] كما في قوله:

---

[1] بلفظ قريب في تفسير عبد الرزّاق، ٦٨/١؛ والمُصنَّف لابن أبي شيبة، ٤٤١/١٠ (٣١٤٦٦)؛ وجامع البيان للطبري، ١٣٦/٣-١٣٧؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٢٩٨/١-٢٩٩. وانظر لتفصيل تخريجه تخريج أحاديث الكشّاف للزَّيلَعي، ١١٠/١.

[2] بلفظ قريب في المُصنَّف لعبد الرزّاق، ٦٣/٩ (١٦٣٥٤). وانظر لتفصيل تخريجه تخريج أحاديث الكشّاف للزَّيلَعي، ١١٠/١.

[3] الحديث بلفظ قريب في المُصنَّف لابن أبي شيبة، ٤٤١/١٠ (٣١٤٦٧). وانظر لتفصيل تخريجه تخريج أحاديث الكشّاف للزَّيلَعي، ١١٠/١.

[4] في الآية التالية.

[5] هو قول الأخفش في معاني القرآن، ١٦٨/١؛ ونقله عنه النَّحّاس في إعراب القرآن، ٢٨٢/١؛ واختاره ابن عطيّة في المُحرَّر الوجيز، ٤٢٩/١، ومثّل بالشِّعر المذكور مع اختلاف في روايته.

مَــن يـفـعـلِ الـحَـسـنـاتِ اللهُ يَـشـكـرُهـا[١]

ورُدّ بأنّه إن صحّ فمِن ضرورة الشِّعر.[٢] ومعنى ﴿كُتِبَ﴾: فُرِض.

وكان هذا الحُكم في بدء الإسلام، ثمّ نُسِخ عند نزول آية المواريث بقوله عليه السلام: «إنّ الله قد أعطى كلّ ذي حقٍّ حقَّه، ألا لا وصيّةَ لوارث».[٣]

فإنّه وإن كان مِن أخبار الآحاد لكن حيث تلقّته الأُمّة بالقبول انتظم في سِلْك المتواتر[٤] في صلاحيّته للنّسخ عند أئمّتنا. على أنّ التحقيق أنّ الناسخ حقيقةً هي آية المَواريث، وإنّما الحديث مبيّن لجهة نَسْخها،[٥] ببيان أنّه تعالى كان قد كتَب عليكم أن تُؤدُّوا إلى الوالدَين والأقربين حقوقهم بحسب استحقاقهم مِن غير تبيين لمراتب استحقاقهم ولا تعيين لمقادير أنصبائهم؛ بل فوَّض ذلك إلى آرائكم حيث قال: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: بالعدل. فالآن قد رفَع ذلك الحُكم عنكم وتولى لتبيين طبقات استحقاق كلّ واحد منهم وتعيينِ مقادير حقوقهم بالذات، وأعطى كلّ ذي حقّ منهم حقّه الذي يَستحِقّه[٦] بحُكم القرابة مِن غير نقص ولا زيادة، ولم يَدَع ثمّة شيئًا فيه مَدخَل لرأيكم أصلًا، حسبما يُعرِب عنه: الجملة المنفيّة بـ"لا" النافية للجنس، وتصديرُها بكلمة التنبيه.

---

[١] صدر بيت عجزه:

والشرُّ بالشرّ عند الله مثلانِ

يُنسَب لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت، وهو في ديوانه، ص ٦١؛ ولكعب بن مالك، وهو في ديوانه، ص ٢٨٨؛ ولحسان بن ثابت في بعض نسخ كتاب سيبويه، ٦٤/٣، وليس في أصل ديوان حسان، وأورده مُحقِّقه في الزيادات عن بعض طبعات كتاب سيبويه. انظر: ديوان حسان بن ثابت بتحقيق وليد عرفات، ٥١٦/١. وبسَط البغداديُّ الكلام على نسبته وما فيه في شرح أبيات المُغني، ٣٧١/١-٣٧٧؛ وخزانة الأدب، ٤٩/٩-٥١.

[٢] انظر الردّ في كشف المُشكِلات للأصفهاني الباقولي، ١٨٠/١. والشِّعر مذكور في كتب الضرائر. ما يجوز للشاعر في الضرورة للقزّاز القيرواني، ص ٢٤٩؛ ضرائر الشعر لابن عصفور، ص ١٦٠.

[٣] مسند أحمد، ٦٦٨/٣٦ (٢٢٢٩٤)؛ وسنن ابن ماجه، ١٨/٤ (٢٧١٤)؛ وسنن أبي داود، ٤٩٢/٤، ٤١٧/٥ (٢٨٧٠، ٣٥٦٥)؛ وسنن الترمذي، ٤٣٣/٤ (٢١٢٠). وهو عند ابن ماجه بلفظه ههنا، وفي سائرها بلفظ «فلا وصيّة» مكان «ألا لا وصيّة».

[٤] انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٧١/١.

[٥] قال الطِّيبيُّ في فتوح الغيب، ٢٢١/٣: «والحقُّ أنّ آية المواريث ناسخة لآية الوصيّة، والحديث مُبيِّنٌ لكونها ناسخةً».

[٦] ي: يستحق.

إذا تحقَّقتَ هذا ظهر لك: أنّ ما قيل مِن:

أنّ آيةَ المواريث لا تُعارِضه، بل تُحقِّقه وتُؤكِّده مِن حيث إنّها تدلّ على تقديم الوصيّة مطلقًا؛ والحديثَ مِن الآحاد وتَلقّي الأمّة إيّاها بالقبول لا يُلحِقه بالمتواتِر. ولعلّه احتَرز عنه مَن فسّر ﴿ٱلْوَصِيَّةُ﴾ بما أوصى به الله[1] عزّ وجلّ مِن توريث الوالدين والأقربين بقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ [النساء، ١١/٤]، أو بإيصاء المحتضِر لهم بتوفير ما أوصى به الله تعالى عليهم.[2]

بمَعزِل[3] مِن التحقيق.[4]

وكذا ما قيل مِن:

أنّ الوصيّة للوارث كانت واجبة بهذه الآية مِن غير تعيين لأنصبائهم، فلمّا نزلَت آية المواريث بيانًا للأنصباء بلفظ الإيصاء فُهِم منها بتنبيه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّ المراد منه هذه الوصيّة التي كانت واجبة، كأنّه قيل: إنّ الله تعالى أوصى بنفسه تلك الوصيّة ولم يُفوِّضها إليكم، فقام الميراث مَقام الوصيّة، فكان هذا معنى النّسخ، لا أنّ فيها دلالةً على رَفْع ذلك الحُكم.[5]

فإنّ مدلول آية الوصيّة حيث كان تفويضًا للأمر إلى آراء المكلَّفين على الإطلاق، وتَسنّى الخروج عن عُهْدة التكليف بأداء ما أدّى إليه آراؤهم بالمعروف، فتكون آية المواريث الناطقةُ بمَراتب الاستحقاق وتفاصيلِ مقادير الحقوق، القاطعةُ[6] بامتناع الزيادة والنقص بقوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء، ١١/٤]، ناسخةً لها رافعةً لحُكمها، ممّا لا يشتبه على أحد.

وقوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ مصدر مؤكِّد، أي: حقَّ ذلك حقًّا.

---

١ ي - الله.

٢ قول البيضاوي في أنوار التنزيل، ١٦٥/١.

٣ في محلّ خبر "أنّ" لقوله: "أنّ ما قيل".

٤ تعرّض التفتازاني لقول البيضاوي في حاشية الكشّاف، ١٤٩ظ.

٥ انظر: حاشية الكشّاف للتفتازاني، ١٤٩ظ. وافتتاح عبارته: «والظاهر أنّ الوصيّة...». وساق كلام التفتازاني السيوطيُّ في نواهد الأبكار، ٣٧١/١.

٦ ط: الناطقة.

﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٨١﴾

﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ﴾ أي: غيَّره مِن الأوصياء والشهود ﴿بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ﴾ أي: بعد ما وصل إليه وتحقّق لديه، ﴿فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ﴾ أي: إثم الإيصاء المغيَّر أو إثم التبديل ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾؛ لأنّهم خانوا وخالفوا حُكم الشرع. ووضعُ الموصول في موضع الضمير الراجع إلى «مَنْ»؛ لتأكيد الإيذان بعِلِّيّة ما في حيّز الصلة الأولى،[١] وإيثارُ الجَمْع للإشعار بتعدّد المبدِّلين أنواعًا أو كَثْرتِهم أفرادًا، والإيذانِ بشُمول الإثم لجميع الأفراد. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾، وعيدٌ شديد للمبدِّلين.

﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨٢﴾

﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ﴾ أي: تَوقّع وعَلِم، مِن قولهم: "أخاف أن تُرسِل[٢] السماءُ".[٣] وقُرئ: "مِن مُوصٍّ".[٤] ﴿جَنَفًا﴾ أي: ميلًا بالخطأ في الوصيّة. ﴿أَوۡ إِثۡمٗا﴾ أي: تعمّدًا للجَنَف. ﴿فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: بين المُوصى لهم، بإجرائهم على[٥] مِنهاج الشريعة الشريفة، ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ أي: في هذا التبديل؛ لأنّه تبديلُ باطلٍ إلى حقٍّ، بخلاف الأوّل. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ وعدٌ للمُصلِح. وذكر المغفرة لمطابقة ذكر الإثم، وكونِ الفعل مِن جنس ما يُؤثِم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ بيان لحُكم آخرَ مِن الأحكام الشرعيّة. وتكرير النداء؛ لإظهار مزيد الاعتناء به.[٦] و﴿ٱلصِّيَامُ﴾ «والصوم في اللغة:

---

١ انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٣٠٦/٣.

٢ س: يرسل.

٣ انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ١٧٢/١؛ **وأنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٦٥/١.

٤ قرأ بها حمزة والكسائي ويعقوب وأبو بكر. **السبعة** لابن مجاهد، ص ١٧٦؛ **النشر** لابن الجزري، ٢٢٦/٢.

٥ ط: عن.

٦ س - به.

الإمساك عمّا تُنازع إليه النفس»،[1] ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ﴾ الآية [مريم، ٢٦/١٩]. وقيل: هو «الإمساك عن الشيء مطلقًا، ومنه: صامَت الرِّيحُ، أي: أَمسكَت عن الهُبوب، والفَرسُ، أي: أَمسكَت عن العَدْو. قال:

خَيلٌ صِيامٌ وخَيلٌ غيرُ صائمة تحت العَجاج وأخرى تعلُكُ اللُّجُما»[2]

وفي الشريعة: هو الإمساك نهارًا مع النيّة عن المفَطِّرات المعهودة التي هي معظَم ما تشتهيه الأنفس.[3] ﴿كَمَا كُتِبَ﴾ في حيّز النصب على أنّه نعتٌ للمصدر المؤكِّد، أي: كتابًا كائنًا كما كُتِب، أو على أنّه حال مِن المصدر المَعرِفة، أي: كُتِب عليكم الصيام الكَتْبَ مشبَّهًا بما كُتِب، فـ﴿مَا﴾ على الوجهين مصدريّة، أو على أنّه نعتٌ لمصدر مِن لفظ ﴿الصِّيَامُ﴾، أي: صومًا مماثلًا للصوم المكتوب على مَن قبلكم، فـ﴿مَا﴾ موصولة، أو على أنّه حال مِن الصيام، أي: حالَ كونه مماثِلًا لِما كُتِب.[4]

﴿عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ مِن الأنبياء عليهم السلام والأمم مِن لدن آدم عليه السلام.[5] وفيه تأكيد للحُكم وترغيب فيه وتطييب لأنفُس المخاطبِين به؛[6] فإنّ الشاقّ إذا عمّ سَهُل عمله. والمراد بالمماثلة إمّا المماثلة في أصل الوجوب، وإمّا في / الوقت والمقدار.[7] كما يُروى: [٦٣و]

أنّ صَوْم رمضان كان مكتوبًا على اليهود والنصارى: أمّا اليهود فقد تركَته وصامَت يومًا مِن السنة، زعموا أنّه يومُ غَرَق فرعون، وكذَبوا في ذلك؛ فإنّه كان يومَ عاشوراء؛ وأمّا النصارى فإنّهم صاموا رمضان حتّى صادفوا حرًّا شديدًا، فاجتمعت آراءُ علمائهم على تعيين فصل واحد

---

١ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٦٥/١.

٢ الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢٦٦/٢؛ اللباب لابن عادل، ٢٥٠/٣-٢٥١. وبعضه في التفسير الوسيط للواحدي، ٢٧٢/١. والبيت للنابغة الذُّبياني في ديوانه، ص ١١٢، وفيه «وخيل» مكان «وأخرى»؛ وهو له بالرّواية المذكورة ههنا في جامع البيان للطبري، ١٥٢/٣؛ والصحاح للجوهري، «صوم»؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٣٩٩/٤.

٣ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٦٥/١.

٤ انظر: الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢٦٧/٢-٢٦٨؛ واللباب لابن عادل، ٢٥١/٣-٢٥٢. وفي بعض هذه الوجوه كلامٌ. انظر: البحر المحيط، ٣٢٤/٣-٣٢٥؛ والمصدرين السالفين.

٥ انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٧٢/١.

٦ ط - به.

٧ انظر: اللباب لابن عادل، ٢٥٢/٣.

بين الصيف والشتاء، فجعلوه في الرَّبيع، وزادوا عليه عشرةَ أيامٍ كفارةً لِما صنعوا فصار أربعين، ثمّ مَرِض مَلِكهم أو وَقَع فيهم مَوَتان فزادوا عشرةَ أيامٍ فصار خمسين.[1]

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: المعاصي؛ فإنّ الصوم يَكسِر الشهوة الداعيَة إليها، كما قال عليه السلام: «فعليه بالصوم؛ فإنّ الصوم[2] له وِجاءٌ».[3] أو تتّقون الإخلال بأدائه لأصالته، أو تصِلُون بذلك إلى رتبة التقوى.

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾: مؤقّتات بعدد معلوم، أو قلائل؛ فإنّ القليل مِن المال يُعَدُّ عدًّا، والكثير يُهال هَيْلًا. والمراد بها إمّا رمضان، أو ما وجب في بَدء الاسلام ثمّ نُسِخ به مِن صوم عاشوراء وثلاثةِ أيّام مِن كُلّ شهر. وانتصابه ليس بالصيام كما قيل؛ لوقوع الفصل بينهما بأجنبيّ؛ بل بمضمَر دلّ هو عليه، أعني: "صُوموا"، إمّا على الظرفيّة أو المفعوليّة اتّساعًا.

وقيل: بقوله تعالى: ﴿كُتِبَ﴾ على أحد الوجهين.[4] وفيه أنّ "الأيّام" ليست محلًّا له؛ بل للمكتوب فلا تتحقّق الظرفيّة ولا المفعوليّة المتفرّعة عليها اتّساعًا.[5]

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ أي: مرضًا يَضرّه الصوم أو يعسُر معه. ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ مستمرّين عليه، وفيه تلويح ورَمْز إلى أنّ مَن سافر في أثناء اليوم لم يُفطِر.

---

[1] انظر: اللباب لابن عادل، ٢٥٢/٣-٢٥٣. وبعضه في جامع البيان للطبري، ١٥٣/٣؛ والكشّاف للزمخشري، ١٧٢/١؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٩٥/١.

[2] ي - فإنّ الصوم.

[3] صحيح البخاري، ٣/٧ (٥٠٦٥)؛ صحيح مسلم، ١٠١٨/٢-١٠١٩ (١٤٠٠)، وفيهما بلفظ «فإنّه له» مكان «فإنّ الصوم له». وانظر لتفصيل تخريجه تخريج أحاديث الكشّاف للزَّيلَعي، ١١١/١-١١٢.

[4] ذهب إليه الفرّاء في معاني القرآن، ١١٢/١. ونُسِب القول إليه في المصادر الآتية في ذِكر الاعتراض عليه.

[5] انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٣٠/٣؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢٦٩/٢؛ واللباب لابن عادل، ٢٥٥/٣.

﴿فَعِدَّةٌ﴾ أي: فعليه صوم عِدّةِ أيّام المرض والسفر ﴿مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ إن أفطَر، فحُذِف الشرط والمضافان ثقةً بالظهور. وقُرئ بالنصب،[١] أي: فليَصُمْ عِدّةً. وهذا على سبيل الرخصة. وقيل: على الوجوب، وإليه ذهب الظاهريّة، وبه قال أبو هريرة رضي الله عنه.[٢]

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ أي: وعلى المطيقين للصيام إن أفطروا ﴿فِدْيَةٌ﴾ أي: إعطاء فدية، وهي ﴿طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾، وهي:[٣] نصف صاع مِن بُرّ أو صاع مِن غيره عند أهل العراق، ومُدٌّ عند أهل الحجاز. وكان ذلك في بدء الإسلام لِما أنّه قد فُرِض عليهم الصوم وما كانوا متعوِّدين له، فاشتدّ عليهم؛ فرُخِّص لهم في الإفطار والفدية.[٤]

وقُرئ: "يُطَوَّقُونَهُ"،[٥] أي: يُكلَّفونه أو يُقلَّدونه،[٦] و"يَتَطَوَّقُونَهُ"،[٧] و"يَطَّوَّقُونَهُ"[٨] بإدغام التاء في الطاء. و"يُطَيَّقُونَهُ"،[٩] و"يَطَّيَّقُونَهُ"[١٠] بمعنى يتطيَّقونه، وأصلهما: يُطَيْوَقونه ويَتَطَيْوَقونه، مِن فَيْعَل وتَفَيْعَل مِن الطَّوْق، فأُدغِمت الياء في الواو بعد قَلْبها ياء، كقولهم: "تديَّر المكان، وما بها ديّار".[١١] وفيه وجهان: **أحدهما:**

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن عُبيد بن عُمير وابن مِقسَم. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٨٣؛ **والمغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ٤٨٧.

[٢] انظر: **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٦٦/١.

[٣] ي: وهو.

[٤] انظر: **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٦٦/١.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وعائشة ومجاهد وسعيد بن المُسيَّب وطاوس وسعيد بن جُبير وعكرمة وأيّوب السختياني وعطاء. انظر: **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٩؛ **والمُحتسَب** لابن جنّي، ١١٨/١؛ **وشواذّ القراءات** للكرماني، ص ٨٣؛ **والمغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ٤٨٨.

[٦] ط: ويُقلَّدونه.

[٧] س: يتطَوّقونه. | قراءة شاذّة، مرويّة عن عطاء عن ابن عبّاس ومجاهد. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٩؛ **والمُحتسَب** لابن جنّي، ١١٨/١؛ **وشواذّ القراءات** للكرماني، ص ٨٣؛ **والمغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ٤٨٨.

[٨] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد، ورُويت عن ابن عبّاس وعكرمة. **المُحتسَب** لابن جنّي، ١١٨/١؛ **وشواذّ القراءات** للكرماني، ص ٨٣؛ **والمغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ٤٨٨.

[٩] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس ومجاهد. **المُحتسَب** لابن جنّي، ١١٨/١؛ **والمغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ٤٨٨.

[١٠] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس ومجاهد وعكرمة. **المُحتسَب** لابن جنّي، ١١٨/١؛ **والمغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ٤٨٨.

[١١] أصل تديَّر: تَدَيْوَر، وأصل ديّار: دَيْوَار؛ اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون، فقُلِبت الواو ياءً، وأُدغِمت فيها الياء. انظر: **الصحاح** للجوهري، «دور»؛ **والبحر المحيط** لأبي حيّان، ٣٤٢/٣؛ **والدرّ المصون** للسمين الحلبي، ٢٧٣/٢.

نحو معنى "يُطيَّقونه"، والثاني: يُكلَّفونه أو يَتكلَّفونه على جَهْد منهم وعُسْر، وهم الشيوخ والعجائز، وحُكم هؤلاء الإفطار والفدية، وهو حينئذ غيرُ منسوخ. ويجوز أن يكون هذا معنى ﴿يُطِيقُونَهُۥ﴾، أي: يصومونه جُهْدهم وطاقتهم ومَبلَغ وُسْعهم.[١]

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ فزاد في الفدية ﴿فَهُوَ﴾ أي: التطوّع، أو الخير الذي تطوّعه ﴿خَيْرٌ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ﴾ أيّها المطيقون أو المطوَّقون وتَحمِلوا على أنفسكم وتَجهَدوا طاقتَكم، أو المرخَّصون في الإفطار مِن المرضى والمسافرين، ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مِن الفدية، أو مِن تَطوّع الخير، أو منهما، أو مِن التأخير إلى أيّام أُخَر. والالتفات إلى الخطاب للهَزّ والتنشيط.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: ما في صومكم -مع تحقّق المُبيح للإفطار- مِن الفضيلة. والجواب محذوف ثقةً بظهوره، أي: اخترتُموه، أو سارعتُم إليه. وقيل: معناه: إن كنتم مِن أهل العلم والتدبير علمتم أنّ الصوم خير مِن ذلك.[٢]

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ مبتدأ سيأتي خبره، أو خبر لمبتدأ محذوف، أي: ذلك شهر رمضان، أو بدل مِن ﴿ٱلصِّيَامُ﴾[٣] على حذف المضاف، أي: صيام شهر رمضان. وقُرئ بالنصب،[٤] على إضمار "صُوموا"، أو على أنه مفعول ﴿تَصُومُواْ﴾،[٥] أو بدل

---

[١] انظر هذا التوجيه في المُحتسَب لابن جنّي، ١/١١٨-١١٩؛ والكشّاف للزمخشري، ١/١٧٣.

[٢] ذُكِر هذا القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٦٧.

[٣] ي + أو.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن عاصم في رواية ومجاهد وأبي حَيْوَة وابن مَقْسَم وابن مُحيصن والزّعفراني وشَهْر بن حُوشَب. انظر: شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٩؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٨٣؛ والمغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ٤٨٩.

[٥] قال البيضاوي في أنوار التنزيل، ١/١٦٧: «وفيه ضعفٌ». وأورد هذا الوجه الفرّاءُ في معاني القرآن، ١/١١٢؛ والطبريُّ في جامع البيان، ٣/١٨٨؛ وجوّزه الزمخشريُّ في الكشّاف، ١/١٧٤؛ وغلّطه أبو حيّان في البحر المحيط، ٣/٣٥٣.

مِن ﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖ﴾. و﴿رَمَضَانَ﴾ مصدر رَمَض، أي: احترق، مِن الرَّمضاء، فأُضِيف إليه "الشهر" وجُعِل عَلَمًا ومُنِع الصَّرفَ للتعريف والألف والنون، كما قيل: "ابنُ دَأْية" للغُراب،[1] فقوله عليه السلام: «مَن صام رمضان»، الحديث،[2] واردٌ على حذف المضاف للأمن مِن الالتباس. وإنّما سُمِّي بذلك؛ إمّا لارتماضهم فيه مِن الجوع والعطش، أو لارتماض الذُّنوب بالصيام فيه، أو لوقوعه في أيّام رَمْض الحرِّ عند نَقْل أسماء الشهور عن اللغة القديمة.[3]

﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ خبر للمبتدأ على الوجه الأوّل، وصفة لـ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ﴾ على الوجوه الباقية. ومعنى إنزاله فيه: أنّه ابتُدئ إنزاله فيه، وكان ذلك ليلةَ القدر، أو أُنزِل فيه جملةً إلى السماء الدنيا، ثمّ نُزِّل منجّمًا إلى الأرض حسبما تقتضيه المشيئة الربّانيّة، أو أُنزِل في شأنه القرآن، وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة، ١٨٠/٢]، وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «نزَلت صُحفُ إبراهيم أوّلَ ليلة مِن رمضان، وأُنزِلت التوراة لسِتٍّ مَضيْنَ منه، والإنجيل لثلاثَ عشرةَ، والقرآن لأربع وعشرين».[4]

﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾ حالان مِن ﴿ٱلۡقُرۡءَانُ﴾، أي: أُنزِل حالَ كونه هدايةً للناس بما فيه مِن الإعجاز وغيره، وآياتٍ واضحةً مرشِدة إلى الحقّ فارقةً بينه وبين الباطل بما فيه مِن الحِكَم والأحكام.

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ﴾ أي: حضر فيه ولم يكن مسافِرًا.[5] ووَضْعُ الظاهر موضع الضمير للتعظيم والمبالغةِ في البيان. والفاء للتفريع والترتيب، أو لتضمّن المبتدأ

---

[1] الدَّأْية مِن البعير: الموضع الذي يقع عليه ظَلِفة الرَّحل فيعقِره. وسُمِّيَ الغُراب ابنَ دَأْية؛ لأنّه يقع على دَأْية البعير الدَّبِر فينقرها. انظر: لسان العرب لابن منظور، «دأية». ولفظ "دَأْية" مُنِع مِن الصرف في "ابن دَأْية" علَمًا للغراب؛ للعلميّة والتأنيث. انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٦٧/١.

[2] صحيح البخاري، ٢٦/٣(١٩٠١)؛ صحيح مسلم، ٥٢٣/١ (٧٦٠). وتتمّته فيهما: «... إيمانًا واحتسابًا؛ غُفِر له ما تقدّم مِن ذَنْبه». وانظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزَّيلَعي، ١١٢/١.

[3] هذا الكلام في اشتقاقه مذكور في الكشّاف للزمخشري، ١٧٤/١.

[4] انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٧٤/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٦٧/١. والحديث في مسند أحمد، ١٩١/٢٨ (١٦٩٨٤)؛ وجامع البيان للطبري، ١٨٩/٣؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٣١٠/١. وتمام تخريجه في تخريج أحاديث الكشّاف للزَّيلَعي، ١١٣/١.

[5] ي + أو مريضًا.

معنى الشرط، أو زائدةٌ على تقدير كون ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ مبتدأً، والموصولُ صفةً له، وهذه الجملة خبرًا له. وقيل: هي جزائيّة،[١] كأنه قيل: لمّا كُتِب عليكم الصيام في ذلك الشهر فمَن حضَر فيه ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾ أي: فلْيَصُم فيه، بحذف الجارّ وإيصال الفعل إلى المجرور اتّساعًا. وقيل: مَن شَهِد منكم هلال الشهر فليَصُمه،[٢] على أنّه مفعول به، كقوله: "شَهِدتُ / الجمعةَ"، أي: صلاتَها، فيكون ما بعده[٣] مخصِّصا له، [٦٣ظ] كأنّه[٤] قيل. ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا﴾، وإن كان حاضرًا فيه[٥] مقيمًا،[٦] ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾، وإن كان صحيحًا، ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي: فعليه صيام أيّام أُخرَ؛[٧] لأنّ المريض والمسافر ممّن شَهِد الشهر، ولعلّ التكرير لذلك، أو لئلا يُتوهَّم نَسْخه كما نُسِخ قرينه.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ بهذا الترخيص ﴿بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾؛ لغاية رأفتِه وسَعة رحمته. ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ علَل لفعل محذوف يدلّ عليه ما سبق، أي: ولهذه الأمور شَرَع ما مرّ مِن أمر الشاهد بصوم الشهر، وأمر المرخَّص له بمراعاة عِدّة ما أُفطِر فيه، ومِن الترخيص في إباحة الفطر. فقوله تعالى: ﴿لِتُكْمِلُوا۟﴾ عِلّة الأمر بمراعاة العِدّة، و﴿لِتُكَبِّرُوا۟﴾ عِلّة ما علَّمه مِن كيفيّة القضاء، و﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ عِلّة الترخيص والتيسير. وتعدية فِعل التكبير بـ﴿عَلَىٰ﴾ لتضمّنه معنى الحمد، كأنّه قيل: ولتُكبِّروا الله حامدين على ما هداكم. ويجوز أن تكون معطوفةً على عِلّة مقدَّرة، مثل: ليُسهِّلَ عليكم، أو لتَعلموا ما تعملون ولتكملوا... إلخ. ويجوز عطفها على ﴿ٱلْيُسْرَ﴾، أي: يريد بكم لتُكمِلوا... إلخ، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟﴾... إلخ [الصف، ٨/٦١]. والمعنيُّ بالتكبير تعظيمه تعالى بالحمد والثناء عليه. وقيل: تكبيرُ يوم العيد. وقيل: التكبير عند الإهلال.[٨] و﴿مَا﴾ يحتمل المصدريّة والموصولة، أي: على هدايته إيّاكم، أو على الذي هداكم إليه. وقُرئ: "ولتُكَمِّلُوا" بالتشديد.[٩]

---

١ انظر: اللباب لابن عادل، ٢٧٣/٣.

٢ ضعّف أبو حيّان هذا الوجه في البحر المحيط، ٣٥٨/٣.

٣ ط: بعدها.

٤ ط: كما.

٥ س - حاضرًا فيه.

٦ ط - مقيمًا.

٧ ي + لِمَا.

٨ القولان في الكشّاف للزمخشري، ١٧٥/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٦٨/١.

٩ قرأ بها يعقوب وعاصم برواية أبي بكر. السبعة لابن مجاهد، ص ١٧٦؛ النشر لابن الجزري، ٢٢٦/٢.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾ في تلوين الخطاب وتوجيهِه إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ما لا يخفى مِن تشريفه ورفع مَحلِّه. ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ أي: فقل لهم: "إنّي قريب"، وهو تمثيل لكمال علمِه بأفعال العباد وأقوالهم واطّلاعِه على أحوالهم بحال مَن قَرُب مكانُه. رُوي أنّ أعرابيًّا قال لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أقريب ربّنا فنُناجيَه أم بعيد فنُناديَه؟» فنزلَت.[1] ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ تقرير للقُرب وتحقيق له، ووعد للداعي بالإجابة.

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى﴾ إذا دعوتُهم للإيمان والطاعة كما أُجِيبهم إذا دعَوْني لمُهمّاتهم. ﴿وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى﴾ أمرٌ بالثبات على ما هُم عليه. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ راجين إصابة الرُّشْد، أي: الحقِّ. وقُرئ بفتح الشين[2] وكسرها.[3] ولمّا أَمَرهم الله تعالى بصوم الشهر ومراعاة العِدّةِ، وحثَّهم على القيام بوظائف التكبير والشكر، عقَّبه بهذه الآية الكريمة الدالَّة على أنّه تعالى خبير بأحوالهم، سميع بأقوالهم، مُجيب لدعائهم، مُجازِيهم على أعمالهم؛ تأكيدًا له وحثًّا عليه. ثمّ شرَع في بيان أحكام الصيام فقال:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾، رُوي: «أنّ المسلمين كانوا إذا أمسَوا حلَّ لهم الأكلُ والشُّربُ والجِماعُ إلى أن يُصلُّوا العِشاء الأخيرة أو يَرقُدوا،

---

[1] جامع البيان للطبري، ٢٢٣/٣؛ تفسير ابن أبي حاتم، ٣١٤/١. وانظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلَعي، ١١٤/١.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٨٤.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٨٤.

ثمّ إنّ[١] عمر رضي الله عنه باشر بعد العِشاء فندِم، وأتى النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم واعتذر إليه، فقام رجال فاعترفوا بما صنعوا بعد العِشاء فنزلَت».[٢] و﴿لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ﴾ الليلة التي يُصبِح منها صائمًا. و﴿ٱلرَّفَثُ﴾ كناية عن الجِماع؛ لأنّه لا يكاد يخلو مِن رَفَث، وهو الإفصاح بما يجب أن يُكنَّى عنه. وعُدِّيَ بـ﴿إِلَىٰ﴾ لتضمّنه معنى الإفضاء والإنهاء. وإيثاره ههنا لاستقباح ما ارتكبوه؛ ولذلك سُمِّي خيانةً. وقُرئ: "الرُّفُوث".[٣] وتقديم الظرف على القائم مقامَ الفاعل؛[٤] لِما مرَّ مرارًا مِن التشويق، فإنّ ما حقُّه التقديمُ إذا أُخِّر تبقى النفسُ مترقِّبةً إليه؛ فيتمكّن عندها وقتَ وروده فضلَ تمكّن.[٥]

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ استئناف مبيِّن لسبب الإحلال، وهو صعوبة الصبر عنهنّ مع شِدّة المخالَطة وكثرة الملابَسة بهنَّ. وجُعِل كلٌّ مِن الرجُل والمرأة لِباسًا للآخرَ؛ لاعتناقهما واشتمال كُلٍّ منهما على الآخر بالليل. قال:

إذا ما الضجيعُ ثَنى عِطفَها   تثنَّتْ وكانتْ عليه لِباسا[٦]

أو لأنّ كلًّا منهما يستُر حال صاحبه، ويمنعه مِن الفجور.

﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ استئناف آخرُ مبيِّن لِما ذُكِر مِن السبب. والاختيان أبلغُ مِن الخيانة، كالاكتساب مِن الكَسْب، ومعنى ﴿تَخْتَانُونَ﴾ تَظلِمونها بتعريضها للعقاب وتَنقيصِ حظِّها مِن الثواب. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ عطفٌ على ﴿عَلِمَ﴾، أي: تابَ عليكم لمّا تُبتُم ممّا اقترفتموه. ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾ أي: محا أثرَه عنكم.

---

[١] ي - إنّ.

[٢] بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٢٢٣/٣. وانظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزَّيلَعي، ١١٤/١-١١٥.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن مسعود وزيد بن عليّ. انظر: جامع البيان للطبري، ٢٢٩/٣؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٨٤؛ والمغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ٤٩٣.

[٤] يقصد ﴿ٱلرَّفَثُ﴾.

[٥] انظر هذه الفائدة للتقديم البلاغيّ في الإيضاح للقزويني، ص ١٣٥.

[٦] البيت للنابغة الجَعدي في ديوانه، ص ١٠٠، وروايته فيه:

إذا ما الضجيع ثنى جِيدَها   تثنَّت عليه فكانتْ لِباسا

وصدره له برواية الديوان في مجاز القرآن لأبي عبيدة، ٦٧/١؛ وهو له في جامع البيان للطبري، ٢٣١/٣، وروايته فيه:

إذا ما الضجيع ثنى جِيدها   تَداعَت فكانتْ عليه لِباسا

وهو برواية المُصنِّف بلا نسبة في معاني القرآن وإعرابه للزَّجّاج، ٢٥٦/١؛ وللنابغة الجعدي في الكشّاف للزمخشري، ١٧٧/١.

﴿فَٱلْـَٔـٰنَ﴾ لمّا نُسِخ التحريم ﴿بَـٰشِرُوهُنَّ﴾ المباشرة: إلزاقُ البَشَرة بالبَشَرة، كُنِّي بها عن الجِماع الذي يستلزمها. وفيه دليل على جواز نسخ الكتاب للسنّة. ﴿وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: واطلبوا ما قدّره الله لكم وقرّره في اللّوح مِن الولد. وفيه أنّ المباشِر ينبغي أنْ يكون غرضُه الولدَ؛ فإنّه الحكمة في خَلْق الشهوة وشرع النكاح، لا قضاءُ الشهوة. وقيل: فيه نهيٌ عن العَزْل. وقيل: عن غير المَأتى.[1] والتقدير: وابتغوا المحلَّ الذي كتَب الله لكم.

﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ شُبِّه أوّلُ ما يبدو مِن الفجر المعترِض في الأفق وما يمتدّ معه مِن غَلَس الليل بخيطَين أبيضَ وأسودَ، واكتُفيَ ببيان ﴿ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ﴾ بقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ عن بيان ﴿ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾؛ لدلالته عليه، وبذلك خرجا عن الاستعارة إلى التمثيل. ويجوز أن يكون ﴿مِنْ﴾ للتبعيض؛ فإنّ ما يبدو بعضُ الفجر. وما رُوي مِن «أنّها نزَلت ولم ينزِل ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾، فعمَد رجالٌ إلى خيطَين أبيضَ وأسودَ، وطفِقوا يأكلون ويشربون حتّى يتبيَّنا لهم، فنزَلت».[2] فلعلّ ذلك كان قبل دخول رمضانَ. وتأخير البيان إلى وقت الحاجة جائز. أو اكتُفي أوّلًا باشتهارهما في ذلك ثمّ صُرِّح بالبيان لمّا التَبس على بعضهم. وفي تجويز المباشرة إلى الصبح دلالةٌ على جواز تأخير الغُسل إليه وصحّةِ صوم مَن أصبح جُنُبًا.[3]

﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ بيان لآخِرِ وقته / ﴿وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ﴾ أي: معتكِفون فيها، والمراد بـ"المباشرة" الجِماع. وعن قتادة: «كان الرجُل يَعتكِف فيخرج إلى امرأته فيُباشِرُها، ثمّ يرجع، فنُهوا عن ذلك».[4] [٦٤و]

---

١ القولان في الكشّاف للزمخشري، ١/١٧٧؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٧٠.

٢ مِن حديث سهل بن سعد بلفظ قريب في صحيح البخاري، ٣/٢٨ (١٩١٧)؛ وصحيح مسلم، ٢/٧٦٧ (١٠٩١)؛ وجامع البيان للطبري، ٣/٢٥١. وانظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلَعي، ١/١١٦-١١٧. وقريب منه حديث عَديّ بن حاتم المذكور في هذا الموضع مِن الكشّاف مع حديث سهل. والحديث في صحيح البخاري، ٣/٢٨ (١٩١٦)؛ وصحيح مسلم، ٢/٧٦٦-٧٦٧ (١٠٩٠)؛ وجامع البيان للطبري، ٣/٢٥٠-٢٥١. وانظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلَعي، ١/١١٦-١١٧.

٣ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٧٠؛ وقريب منه بالزِّيادة والنقص في الكشّاف للزمخشري، ١/١٧٧.

٤ تفسير عبد الرزّاق، ١/٧٢؛ جامع البيان للطبري، ٣/٢٧٠-٢٧١.

وفيه دليل على أنّ الاعتكاف يكون في المسجد غيرَ مختصٍّ ببعضٍ دون بعضٍ، وأنّ الوَطءَ فيه حرامٌ ومُفسِدٌ له؛ لأنّ النهي في العبادات يوجب الفساد.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي: الأحكام المذكورة حدود وَضَعها الله تعالى لعباده. ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ فضلًا عن تجاوزها، نُهِي أن يُقرَبَ الحدّ الحاجز بين الحقّ والباطل مبالغةً في النهي عن تخطِّيها، كما قال صلّى الله عليه وسلّم: «إن لكلّ ملكٍ حِمًى وحِمَى الله مَحارمه، فمَن رتَعَ حولَ الحِمى يُوشِك أن يقع فيه».[1] ويجوز أن يراد بـ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ تعالى: مَحارمُه ومَناهيه. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثلَ ذلك التبيين البليغ ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالّةَ على الأحكام التي شرعها ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ مخالفة أوامره ونواهيه.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ نهى عن أَكْل بعضهم لأموال بعض على خِلاف حُكم الله عزّ وجلّ، بعد النهي عن أكل أموال أنفسهم في نهار رمضانَ. أي: لا يأكُل بعضكم مال بعض بالوجه الذي لم يُبِحْه الله تعالى. و﴿بَيْنَ﴾ نصبٌ على الظرفيّة أو الحاليّة مِن ﴿أَمْوَٰلَكُم﴾. ﴿وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ عطفٌ على المَنهيّ عنه،[2] أو نَصْب بإضمار "أنْ". و"الإدلاءُ": الإلقاءُ، أي: ولا تُلقوا حكومتها إلى الحُكّام ﴿لِتَأْكُلُوا۟﴾ بالتحاكم إليهم ﴿فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ﴾ بما يوجب إثمًا، كشهادة الزُّور واليمين الفاجرة، أو ملتبسين بالإثم. ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم مبطِلون، فإنّ ارتكاب المعاصي مع العلم بها أقبح.

رُوي «أنّ عَيْدانَ[3] الحَضْرمي[4] ادَّعى على امرئ القيس الكِندي قطعة أرضٍ

---

[1] بلفظ قريب في صحيح البخاري، ٢٠/١ (٥٢)؛ وصحيح مسلم، ١٢١٩/٣-١٢٢٠ (١٥٩٩). وانظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزَّيلعي، ١١٧/١.

[2] ط س – عنه.

[3] ط س ي: عَبْدان. | قال فيه ابن حجر بعد ذِكر الحديث: «و"عَيْدان" بفتح المُهمَلة بعدها تحتانيّة مُثناة، ذكَره أصحاب المُشتبِه». العُجاب في بيان الأسباب لابن حجر، ص ٢٦٦.

[4] هو عَيدان بن أشوَع الحضرمي. لم أجد مِن أخباره سوى قصّته مع امرئ القيس بن عابس. وذُكِر أنّها وقعت له مع ربيعة بن عَيدان الكندي. انظر: الاستيعاب لابن عبد البرّ، ١٠٤/١، في قصّة ابن عابس؛ والإصابة لابن حجر، ٥١٠/٣، في ترجمة ربيعة بن عيدان، ٥٨٦/٧، في ترجمة عيدان بن أشوَع الحضرمي. وانظر في ضبط اسمه: توضيح المُشتبه لابن ناصر الدين، ٩٥/٦.

ولم يكن له بيّنةٌ، فحكَم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأنْ يَحلِفَ امرؤُ القيسِ،[١] فهمّ به، فقرأ عليه عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الآية [آل عمران، ٧٧/٣]، فارتدّ عن اليمين، فسَلَّم الأرضَ إلى عَيْدان؛[٢] فنزلَت».[٣]

ورُوي أنّه اختصم إليه خصمان فقال عليه السلام: «إنّما أنا بشر مِثلُكم، وأنتم تختصِمون إليّ، ولعلّ بعضكم ألحنُ بحُجّته مِن بعضٍ فأقضِيَ له على نحو ما أسمَع،[٤] فمن قضَيْتُ له بشيءٍ مِن حقّ أخيه فإنّما أقضي له قطعةً مِن نار». فبَكَيا فقال كلُّ واحدٍ منهما: «حقّي لصاحبي»، فقال: «اذهبا فتَوخَّيا ثمّ استهِما، ثمّ ليُحْلِلْ كلُّ واحدٍ منكما صاحبَه».[٥]

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٨٩﴾

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِ﴾ سأله معاذ بن جبل وثعلبة بن غَنَمة[٦] فقالا: «ما بالُ الهلال يبدو دقيقًا كالخيط ثمّ يزيد حتّى يستويَ ثمّ لا يزال ينقُص حتّى يعودَ

---

[١] هو امرؤ القيس بن عابس بن المنذر بن امرئ القيس بن عمرو بن معاوية بن الحارث الأكبر الكندي. صحابيّ. وفد إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. كان شاعرًا. وشهد فتح النُجير باليمن. حضر الكنديّين الذين ارتدّوا في زمن أبي بكر رضي الله عنه، وكان فيمن ثبت على الإسلام ولم يرتدّ، وحرّض بشعره على الثبات على الإسلام، وأنكر به على المرتدّين. سكن الكوفة. وأشهر أخباره قصّته مع الحضرمي المذكورة هھنا. انظر: **الاستيعاب** لابن عبد البرّ، ١٠٤/١؛ **والإصابة** لابن حجر، ٢٢٤/١-٢٢٦.

[٢] ط س ي: عَبْدان.

[٣] **تفسير ابن أبي حاتم**، ٣٢١/١ وفيه أنّ المختصمين هما: امرؤ القيس بن عابس وعبد الله بن أشوَع الحضرمي؛ **أسباب النزول** للواحدي، ص ٥٥؛ **العُجاب في بيان الأسباب** لابن حجر، ص ٢٦٦؛ **الدرّ المنثور** للسيوطي، ٣٠٣/٢.

[٤] ط + منه.

[٥] الحديث بلفظ قريب في **مسند أحمد**، ٣٠٧/٤٤-٣٠٨ (٢٦٧١٧)؛ **وصحيح البخاري**، ١٨٠/٣ (٢٦٨٠)؛ **وصحيح مسلم**، ١٣٣٧/٣ (١٧١٣). وانظر لتفصيل تخريجه **تخريج أحاديث الكشّاف** للزَيلَعي، ١١٧/١-١١٨.

[٦] ط س ي: غنم. | وكذا ورد في مطبوع **الكشّاف** **وأنوار التنزيل**. وأثبتُّ ما جاء في نسخة المؤلّف في موضع آخر. وفي أكثر المصادر هو ثعلبة بن عَنَمة بن عَديّ بن نابي بن عمرو بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة الأنصاري السُلَمي الخزرجي. صحابيّ شهد بدرًا والعقبة، وهو أحد الذين كسروا آلهة بني سلمة. وقُتل يوم الخندق، وقيل: قُتل يوم خَيبر. وذُكر في ترجمته قصّة سؤاله عن الهلال المذكورة هھنا. انظر: **الاستيعاب** لابن عبد البرّ، ٢٠٦/١-٢٠٧؛ **والإصابة** لابن حجر، ٧٥/٢.

كما بدأ؟».[١] ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ كانوا قد سألوه عليه الصلاة والسلام عن الحِكمة في اختلاف حال[٢] القمر وتبدّل أمرِه، فأَمَره الله العزيزُ الحكيمُ أن يُجيبهم بأنّ الحكمة الظاهرة في ذلك أن تكون مَعالِمَ للناس في عباداتهم لاسيّما الحجّ، فإنّ الوقت مُراعًى فيه أداءً وقضاءً، وكذا في معاملاتهم على حسب ما يتّفقون عليه. و"المواقيت": جمع مِيقاتٍ، مِن الوقت، والفرقِ بينه وبين المُدّة والزمان: أنّ المُدّة المطلقةَ امتدادُ حركة الفَلَك مِن مبدئها[٣] إلى منتهاها، والزمان مُدّةٌ مقسومةٌ إلى الماضي والحال والمستقبل، والوقت الزمان المفروض لأمر.[٤]

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ «كانت الأنصار إذا أَحرَموا لم يدخلوا دارًا ولا فُسطاطًا مِن بابه، وإنّما يدخلون ويخرجون مِن نَقْبٍ، أو فُرجةٍ وراءَها، ويَعدُّون ذلك بِرًّا».[٥] فبيَّن لهم أنّه ليس ببِرّ، فقيل: ﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ﴾ أي: بِرُّ مَن اتَّقى المحارمَ والشهواتِ. ووجه اتّصاله بما قبله: أنّهم سألوا عن الأمرين، أو أنّه لمّا ذَكَر أنّها مواقيت للحجّ ذكر عقيبه ما هو مِن أفعالهم في الحجّ استطرادًا، أو أنّهم لمّا سألوا عمّا لا يعنيهم ولا يتعلّق بعِلم النبوّة -فإنّه عليه السلام مبعوث لبيان الشرائع لا لبيان حقائق الأشياء- وتركوا السؤال عمّا يعنيهم ويختصُّ بعلم الرسالة، عقَّبَ بذكره جواب ما سألوا عنه تنبيهًا على أنّ اللائق بهم أن يَسألوا عن أمثال ذلك ويهتمُّوا بالعلم بها، أو أريد به التنبيه على تعكيسهم في السؤال وكونه مِن قبيل دخول البيت مِن ورائه. والمعنى:

---

[١] بلفظ قريب في **تفسير مقاتل بن سليمان**، ١/١٦٥-١٦٦؛ و**أسباب النزول** للواحدي، ص ٥٦. وانظر لتفصيل تخريجه **تخريج أحاديث الكشّاف** للزَّيلَعي، ١/١١٨-١١٩، وقال عنه: «غريب». وقال ابن حجر عنه: «وقد توارَد مِن لا يدَ لهم في صناعة الحديث على الجزم بأنّ هذا كان سببَ النزول مع وهاء السَّند فيه، ولا شعور عندهم بذلك؛ بل كاد يكون مقطوعًا به لكثرة مِن ينقله مِن المُفسِّرين وغيرهم». **العُجاب في بيان الأسباب**، ص ٢٦٨-٢٦٩.

[٢] ي - حال.

[٣] ط: مبدائها.

[٤] انظر هذا التعريفات والفروق في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/١٧٢.

[٥] بمعناه في **تفسير مقاتل بن سليمان**، ١/١٦٦-١٦٧؛ و**جامع البيان** للطبري، ٣/٢٨٣-٢٨٤؛ و**تفسير ابن أبي حاتم**، ١/٣٢٣. وفي **صحيح البخاري**، ٣/٨ (١٨٠٣)؛ و**صحيح مسلم**، ٤/٢٣١٩ (٣٠٢٦): «كانت الأنصار إذا حجُّوا فرجعوا لم يدخلوا البيوت إلّا مِن ظهورها...».

وليس البرُّ بأن تَعكِسوا في مَسائِلكم، ولكنّ البرّ مَن اتَّقى ذلك ولم يَجترِئ على مِثله.

﴿وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾؛ إذ ليس في العُدول بِرٌّ، أو باشروا الأمور مِن وجوهها، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في تغيير أحكامه، أو في جميع أموركم. أَمرَ بذلك صريحًا بعد بيان أنّ البِرّ برُّ مَن اتّقى إظهارًا لزيادة اعتناءٍ بشأن التقوى، وتمهيدًا لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: لكي تَظفَروا بالبِرّ والهُدى.

﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ١٩٠﴾

﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: جاهِدوا لإعزاز دينه وإعلاءِ كلمته. وتقديم الظرف على المفعول الصريح؛ لإبراز كمال العناية بشأن المقدَّم.[1] ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ قيل: كان ذلك قبل ما أُمِروا بقتال المشركين كافّةً: المقاتِلين منهم والمحاجِزين. وقيل: معناه الذين يُناصبونكم القِتال ويُتوقَّعُ منهم ذلك دون غيرهم مِن المَشايخ والصِّبيان والرَّهابِنَة والنساء. أو الكفَرَةُ جميعًا، فإنّ الكلّ بصَدد قِتال المسلمين.[2] ويُؤيِّد الأوّلَ ما رُوي «أنّ المشركين صدُّوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عامَ الحُدَيبية، وصالحوه على أن يَرجِع مِن قابِل فيُخَلّوا له[3] مكّةَ[4] شرَّفها الله تعالى ثلاثةَ أيامٍ، فرجَع لعُمرة القضاء، فخاف المسلمون ألّا يَفُوا لهم ويُقاتلوهم في الحَرَم والشهرِ الحرام وكَرِهوا ذلك، فنزلت».[5] ويعضُده إيراده في أثناء بيان أحكام الحجّ.

﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾ بابتداء القتال، أو بقِتال المُعاهَد والمُفاجأة به مِن غير دعوةٍ، أو بالمُثْلَة وقَتْلِ مَن نُهيتُم عن قَتْله مِن النساء والصِّبيان ومَن يجري مَجراهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي: لا يُريد بهم الخير. وهو تعليل للنهي.

---

[1] وهي الفائدة العامّة للتقديم. انظر: كتاب سيبويه، ٣٤/١؛ ودلائل الإعجاز للجرجاني، ص ١٠٧.

[2] نُقِل القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٢/١. وفيه ما ذُكِر مِن ترجيح الأوّل منهما.

[3] ي – له.

[4] ي: لمكة.

[5] الحديث بمعناه في تفسير مقاتل بن سليمان، ١٦٨/١-١٦٩ (البقرة، ١٩٤/٢)؛ وجامع البيان للطبري، ٣٠٤/٣-٣٠٥ (البقرة، ١٩٤/٢)؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٣٢٨/١-٢٢٩ (البقرة، ١٩٤/٢).

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾﴾

[٦٤ظ] ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾، / أي: حيثُ وجدتُموهم مِن حِلّ أو حَرَم. وأصل الثَّقْف: الحِذْق في إدراك الشيء عِلمًا أو عملًا، وفيه معنى الغَلَبة؛ ولذلك استُعمل فيها. قال:

فـإمّـا تَـثْـقَـفـونـي فـاقـتُـلـونـي فـمَـنْ أَثْـقَـفْ فليس إلـى خُـلـودِ[1]

﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي: مِن مكّةَ، وقد فُعِل بهم ذلك يومَ الفتح بمَن لم يُسلِم مِن كُفّارها. ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ أي: المِحنة التي يُفتتن بها الإنسان -كالإخراج مِن الوطن- أصعبُ مِن القتل لدوام تعبها وبقاءِ تألُّم النَّفْس بها. وقيل: شِركهم في الحرم وصدّهم لكم عنه أشدُّ مِن قتلكم إيّاهم فيه.[2]

﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: لا تُفاتِحوهم بالقتل هناك، ولا تَهتِكوا حُرمة المسجد الحرام ﴿حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ﴾ ثمّةَ ﴿فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ فيه، ولا تُبالوا بقتالهم ثمّةَ؛ لأنّهم الذين هَتَكوا حُرمته فاستحقّوا أشدّ العذاب. وفي العُدول عن صِيغة المفاعلة التي بها ورد النهي والشرطُ عِدَةٌ بالنصر والغَلَبة. وقُرئ: "وَلَا تَقْتُلوهُمْ" "حَتى يَقتُلوكُمْ" "فَإنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ".[3] والمعنى: حتّى يَقتُلوا بعضَكم، كقولهم: قَتلَنا بنو أسدٍ.[4]

﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يُفعَلُ بهم مِثلُ ما فعلوا بغيرهم.

---

[1] البيت لخالد بن جعفر بن كلاب في الوحشيّات لأبي تمّام، ص ١٠١؛ والأغاني للأصفهاني، ٥٧/١١؛ وأمالي المرتضى للشريف المرتضى، ٢١٢/١. وهو في بلا نسبة الكشّاف للزمخشري، ١٨١/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٣/١. يقول: مَن استطاع أن يظفر بي فليقتلني، وإنّي قاتل مَن أظفر به.

[2] ذُكِر هذا القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٣/١؛ وأكثره في الكشّاف للزمخشري، ١٨١/١.

[3] قرأ بها حمزة والكسائي وخلَف. السبعة لابن مجاهد، ص ١٧٩؛ النشر لابن الجزري، ٢٢٧/٢.

[4] هم بنو أسد بن خُزيمة بن مُدرِكة بن إلياس بن مُضر. وهم بطن كبير متّسع ذو بطون. وبلادهم ممّا يلي الكرخ مِن أرض نجد في مجاورة طيئ. انظر: اللباب لابن الأثير، ص ١٥٣؛ ونهاية الأرب للقلقشندي، ص ٣٧-٣٨.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٢﴾

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ عن القتال والكفر بعد ما رأَوا قتالكم، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ يَغفر لهم ما قد سلف.

﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣﴾

﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ أي: شِرك، ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ خالصًا، ليس للشيطان فيه نصيب. ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ بعد مقاتلتِكم عن الشِّرك ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: فلا تعتدُوا عليهم؛ إذ لا يَحسُن الظلم إلّا لمَن ظَلِم. فوَضْعُ العِلّة موضع الحُكم، وتسميةُ الجزاء بالعدوان للمشاكلة، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ﴾ [البقرة، ١٩٤/٢]، أو إنّكم إن[١] تعرَّضتم للمنتهين صِرْتم ظالمين، وتنعكس الحال عليكم. والفاء الأولى للتعقيب، والثانية للجزاء.

﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤﴾

﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ قاتلَهم المشركون عامَ الحُديبية في ذي القَعدة، فقيل لهم عند خروجهم لعُمرة القضاء في ذي القعدة أيضًا وكراهتِهم القتالَ فيه: هذا الشهرُ الحرامُ بذاك الشهر الحرام، وهَتْكُه بهَتْكه فلا تُبالوا به. ﴿وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞ﴾ أي: كلّ حُرمة -وهي: ما يجب المحافظة عليه- يَجري فيها[٢] القِصاصُ. فلمّا هَتكوا حُرمة شَهركم بالصَّد فافعلوا بهم مِثله، وادخُلوا عليهم عُنوةً فاقتُلوهم إن قاتلوكم، كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾، وهو فَذلَكةٌ مقرِّرة لِما قبلها.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في شأن الاقتصاد، واحذروا أنْ تَعتَدوا إلى ما لم يُرَخَّص لكم ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، فيَحرُسهم ويُصلِح شئونَهم بالنصر[٣] والتمكين.

---

[١] ي: إذا.

[٢] ط: فيه.

[٣] ي: بالنصرة.

﴿وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٩٥﴾

﴿وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أمرٌ بالجهاد بالمال بعد الأمر به بالنفس،[١] أي:[٢] ولا تُمسِكوا كلَّ الإمساك. ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ بالإسراف وتضييع وجه المَعاش، أو بالكفّ عن الغَزْو والإنفاق فيه، فإنّ ذلك ممّا يُقوّي العَدوَّ ويُسلِّطُهم عليكم. ويؤيّده ما رُوي عن أبي أيّوبَ الأنصاري رضي الله عنه أنّه قال:[٣] «لمّا أعزَّ الله الإسلامَ وكثُر أهلُه رجعْنا إلى أهالينا وأموالنا نُقيمُ فيها ونُصلِحُها» فنزلَتْ؛[٤] أو بالإمساك وحُبّ المال فإنّه يؤدّي إلى الهَلاك المؤبَّد، ولذلك سُمِّيَ البخل هلاكًا، وهو في الأصل: انتهاء الشيء في الفساد. و"الإلقاء": طرحُ الشيء، وتعديتُه بـ﴿إِلَى﴾ لتضمّنه معنى الانتهاء، و"الباء" مَزيدةٌ. والمراد بالأيدي الأنفسُ. و﴿ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ مصدر كالتضُرَّة والتسُرَّة، وهي والهُلْك والهَلاك واحدٌ،[٥] أي: لا تُوقِعوا أنفسكم في الهلاك. وقيل: معناه لا تجعلوها آخذةً بأيديكم، أو لا تُلقوا بأيدكم أنفسكم إليها، فحُذِف المفعول.[٦]

﴿وَأَحْسِنُوٓاْ﴾ أي: أعمالَكم وأخلاقَكم، أو تفضّلوا على الفقراء. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: يُريد بهم الخير.

﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ١٩٦﴾

---

١ ط س: بالأنفس. | وفي هامش ط ي: فإنّ الغنيّ قد يكون عاجزًا عن مباشرة الجهاد بنفسه، وقد يكون القادر على القتال فقيرًا لايقدِر على إقامته. «منه».

٢ ط س - أي.

٣ ط س - قال.

٤ بلفظ قريب في سنن أبي داود، ١٦٦/٤ (٢٥١٢)؛ وجامع البيان للطبري، ٣٢٢/٣؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٣٣٠/١-٣٣١. وانظر لتفصيل تخريجه تخريج أحاديث الكشّاف للزَّيلَعي، ١١٩/١-١٢٠.

٥ قال أبو عبيدة: «التَّهْلُكة والهَلاك والهَلَك والهُلْك واحد». مجاز القرآن، ٦٨/١. وكلامه في الكشّاف للزمخشري، ١٨٢/١.

٦ ذُكِر هذا القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٤/١.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾ بيان لوجوب إتمام أفعالهما عند التصدّي لأدائهما، وإرشادٌ للناس إلى تدارك ما عسى يعتريهم مِن العوارض المُخِلّة بذلك، مِن الإحصار ونحوه، مِن غير تعرّض لحالهما في أنفسهما مِن الوجوب وعدمِه، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ﴾ [البقرة، ١٨٧/٢]، فإنّه بيان لوجوب مدّ الصيام إلى الليل مِن غير تعرّض لوجوب أصله، وإنّما هو بقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ الآية [البقرة، ١٨٣/٢]، كما أنّ وجوب الحجّ بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ﴾ الآية [آل عمران، ٩٧/٣]. فإنّ الأمر بإتمام فعلٍ مِن الأفعال ليس أمرًا بأصله ولا مستلزمًا له أصلًا، فليس فيه دليل على وجوب العُمرة قطعًا.

وادِّعاءُ أنّ الأمر بإتمامهما أمرٌ بإنشائهما تامَّين كاملين حَسْبما تَقتضيه قراءةُ "وأَقِيمُوا الحَجَّ والعُمْرَةَ"،[١] وأنّ الأمر للوجوب ما لم يدلَّ على خلافه دليلٌ،[٢] ممّا لا سَدادَ له؛ ضرورةَ أنْ ليس البيان مقصورًا على أفعال الحجّ المَفروض حتّى يُتصوَّر ذلك؛ بل الحقّ أنّ تلك القراءة أيضًا محمولةٌ على المشهورة، ناطقةٌ بوجوب إقامة أفعالهما كما ينبغي مِن غير تعرّض لحالهما في أنفسهما، فالمعنى: أَكمِلوا أركانهما وشرائطَهما وسائرَ أفعالهما المعروفة شرعًا لوجه الله تعالى مِن غير إخلال منكم بشيء منها.

هذا وقد قيل: «إتمامُهما أن تُحرِمَ بهما مِن دُوَيْرة أهلِك»،[٣] رُوي ذلك عن عليّ وابن عبّاسٍ وابن مسعود رضي الله عنهم. وقيل: أن تُفرِدَ لكلّ واحدٍ منهما سَفَرًا، كما قال مُحمّد رحمه الله: «حَجّةٌ كُوفيّة وعُمرةٌ كُوفيّة[٤] أفضلُ».[٥] وقيل:

---

[١] استدلّ البيضاويُّ في أنوار التنزيل، ١٧٤/١، بهذه القراءة على وجوب العمرة، فلعلّه المعنيُّ بردّ المُصنِّف.

[٢] أورَد الزمخشريُّ في الكشّاف، ١٨٣/١، هذا الكلام، ثمّ ذكر الأدلّة الدالّة على خلافه. وذكَر الاستدلال بالقراءة القرآنيّة على وجوب العمرة، ولم يتعرّض لدَفْع وجه الاستدلال بها. وأورَد أدلّة أخرى ستأتي.

[٣] جامع البيان للطبري، ٣٢٩/٣-٣٣٠؛ تفسير ابن أبي حاتم، ٣٣٣/١؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٢٩٥/١؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢١٧/١.

[٤] ي: وكوفيّة.

[٥] المبسوط للسرخسي، ٢٥/٤؛ الكشّاف للزمخشري، ١٨٢/١؛ بدائع الصنائع للكاساني، ١٧٤/٢.

«هو جعلُ نفقتهما حلالًا».[١] وقيل: أن تُخلِصوهما للعبادة ولا تَشوبوهما بشيء مِن الأغراض الدُّنيويّة.[٢]

وأيًّا ما كان فلا تعرُّضَ في الآية الكريمة لوجوب العُمرة أصلًا. وأمّا ما رُوي مِن أنّ ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: «إنّ العمرة لَقرينةُ الحجّ»،[٣] وقولُ عمرَ رضي الله عنه: «هُديتَ لسُنّة نبيِّك»،[٤] حين قال له رجل: «وجدتُ الحجّ والعمرة مكتوبين عليَّ، أهلَلْتُ بهما»، وفي رواية «فأهللتُ بهما جميعًا»، فبمَعزلٍ مِن إفادة الوجوب، مع كونه معارَضًا بما رُوي عن جابرٍ أنّه قال: «يا رسولَ الله العمرةُ واجبةٌ مثلَ الحجّ؟» قال: «لا، ولكن أن تَعتمِر خير / [٦٥و] لك»؛[٥] وبقوله عليه السلام: «الحَجّ جهاد، والعُمرةُ تطوّع»،[٦] فتدبَّر.[٧]

﴿فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ﴾ أي مُنِعتم مِن الحَجّ، يقال: حصَره العدوّ وأحصره إذا حبَسه ومَنَعه مِن المُضيّ لوَجهه، مِثلُ صَدَّه وأَصدَّه. والمراد: منع العدوّ عند مالكٍ

---

[١] القول عن الضحّاك في معالم التنزيل للبغوي، ١/٢١٧.

[٢] بمعناه عن سفيان الثوري في معالم التنزيل للبغوي، ١/٢١٧؛ ونقله بلا عزو الزمخشريُّ في الكشّاف، ١/١٨٣.

[٣] الأمّ للشافعي، ٢/٣٢٥؛ وأورده البخاريُّ في صحيحه، ٣/٢، تعليقًا في أوّل باب العُمرة مِن كتاب الحجّ، وفيهما عن ابن عبّاس رضي الله عنه بلفظ «وإنّها لقرينتها في كتاب الله ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِ﴾»، و"ها" عائدة إلى "الحَجّة"؛ التفسير الوسيط للواحدي، ١/٢٩٥؛ معالم التنزيل للبغوي، ١/٢١٧؛ الكشّاف للزمخشري، ١/١٨٣. وانظر لتفصيل تخريجه تخريج أحاديث الكشّاف للزّيلَعي، ١/١٢٢.

[٤] المُصنَّف لابن أبي شيبة، ٣/٢٨٩ (١٤٢٨٩)؛ مسند أحمد، ١/٣٠٤ (١٦٩)؛ سنن أبي داود، ٣/٢٠٧ (١٧٩٨)؛ الكشّاف للزمخشري، ١/١٨٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٧٥. وانظر لتفصيل تخريجه تخرِيج أحاديث الكشّاف للزّيلَعي، ١/١٢٢-١٢٣.

[٥] مسند أحمد، ٢٢/٢٩٠، ٢٣/١٣٨ (١٤٣٩٧، ١٤٨٤٥)؛ سنن الترمذي، ٣/٢٦١ (٩٣١)؛ جامع البيان للطبري، ٣/٣٤٠؛ تفسير ابن أبي حاتم، ١/٣٣٥؛ الكشّاف للزمخشري، ١/١٨٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٧٤. وانظر لتفصيل تخريجه تخريج أحاديث الكشّاف للزّيلَعي، ١/١٢٠.

[٦] الأمّ للشافعي، ٢/٣٢٥؛ جامع البيان للطبري، ٣/٣٤٠؛ الكشّاف للزمخشري، ١/١٨٣. وانظر لتفصيل تخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزّيلَعي، ١/١٢٠-١٢٢.

[٧] مِن قوله: "وأيًّا ما كان" تلخيص وتصرُّف بما جاء في الكشّاف للزمخشري، ١/١٨٣ في هذه المسألة، وفيه جميع النصوص المذكورة ههنا. والبيضاوي في أنوار التنزيل، ١/١٧٤-١٧٥، عكس، فجعل حديث جابر رضي الله عنه معارَضًا بالقول المذكور عن عمر رضي الله عنه. ولم يخلُ كلام أبي السُّعود مِن تنبيه على ذلك بقوله: "فتدبَّر".

والشافعي رضي الله عنهما؛[١] لقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾، ولنزوله في الحُديبية، ولقول ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنه: «لا حصْرَ إلّا حصرُ العَدُوّ».[٢] وكلُّ مَنْع مِن عَدُوّ أو مرضٍ أو غيرهما عند أبي حنيفة رحمه الله؛[٣] لِما رُوي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن كُسِر أو عَرَج فعليه الحجُّ مِن قابِل».[٤]

﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ أي: فعليكم أو فالواجبُ "ما استيسر"، أو فاهدوا "ما استيسر". والمعنى أنّ المُحرِم إذا أُحصِر وأَراد أن يَتحلّل تحلّل بذبح هَدْيٍ تيسّر عليه مِن بَدَنة أو بقرةٍ أو شاةٍ حيثُ أُحصِر عند الأكثر، وعندنا يَبعث به إلى الحَرَم ويَجعَلُ للمبعوث بيده يومَ أَمارٍ، فإذا جاء اليومُ وظنّ أنّه ذَبَح تحلَّل،[٥] لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ أي: لا تُحِلُّوا حتّى تعلموا أنّ الهَدْي المبعوث إلى الحَرَم بلَغ مكانه الذي يجب أن يُنْحَر فيه.

وحَمَل الأوّلون بلوغ الهَدْي مَحِلّه على ذَبْحه حيث يحِلُّ ذبحه فيه، حِلًّا كان أو حَرَمًا.[٦] ومرجعهم في ذلك أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ذَبحَ عام الحديبية بها وهي مِن الحِلّ.[٧] قلنا: كان مُحْصَرُه عليه السلام طرفَ الحُديبية الذي إلى أسفل مكّةَ وهو مِن الحَرَم، وعن الزُّهْري: «أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

---

[١] انظر: الكشّاف للزمخشري، ١/١٨٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٧٥.

[٢] عن ابن عبّاس بلفظ «لا حصرَ إلّا مِن حبس عدوّ» في جامع البيان للطبري، ٣/٣٣٥؛ وهو في تفسير ابن أبي حاتم، ١/٣٣٦؛ وانظر لتفصيل تخريجه تخريج أحاديث الكشّاف للزّيلَعي، ١/١٢٣.

[٣] انظر: الكشّاف للزمخشري، ١/١٨٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٧٥.

[٤] مسند أحمد، ٢٤/٥٠٨-٥٠٩ (١٥٧٣١)؛ وسنن أبي داود، ٣/٢٥٣-٢٥٤؛ وسنن الترمذي، ٣/٢٦٨ (٩٤٠)؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ١/٣٣٥؛ وانظر لتفصيل تخريجه تخريج أحاديث الكشّاف للزّيلَعي، ١/١٢٣.

[٥] انظر: الكشّاف للزمخشري، ١/١٨٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٧٦.

[٦] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٧٦.

[٧] قال التفتازاني في تعليقه على ما سيأتي ممّا نقله الزمخشري في دَفْع هذا الرأي: «ولمّا لم يقع خلاف في أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم نَحَر هَديَه حيث أُحصِر، وكان الإحصار بالحديبية وليست مِن الحَرَم، تمسّكوا في الدَّفع براوية مِن الزُّهري ومحمّد ابن إسحاق الواقدي، وتركوا ما ذكره البخاري رحمه الله عن الثقات أنّه كان خارج الحَرَم». حواشي الكشّاف، ١٥٩ظ.

نحرَ هديَه في الحَرَم»، وقال الوَاقدي:[١] «الحُديبية هي طَرفُ الحَرَم على تسعة أميالٍ مِن مكّةَ».[٢] والمَحِلّ بالكسر يُطلَق على المكان والزمان، والهَدْيُ: جمع هَدْيَة، كجَدْي وجَدْيَة. وقُرئ: "مِن الهَدِيّ"،[٣] جَمْع هَديّة، كمَطِيّ ومَطيّة.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ مرَضًا مُحوِجًا إلى الحَلْق ﴿أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾ كجراحة أو قُمَّلٍ ﴿فَفِدْيَةٌ﴾ أي: فعليه فديةٌ إن حَلَق، ﴿مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ بيان لجنس الفدية. وأمّا قدرها فقد رُوي أنّه صلّى الله عليه وسلّم قال لكعب بنِ عُجرةَ:[٤] «لعلّك آذاك هَوامُّك»، قال: «نعم يا رسولَ الله»، قال: «احلِقْ، وصُم ثلاثة أيّام، أو تصدّقْ بفَرْقٍ[٥] على ستّة مساكينَ، أو انسُك شاةً»،[٦] والفَرْق: ثلاثة آصُع.

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ أي: الإحصارَ، أو كنتُم في حال أمن أو سَعة، ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾ أي: فمَن انتفع بالتقرّب إلى الله تعالى بالعُمرة قبل الانتفاع بتقرّبه بالحجّ في أشهُره. وقيل: مَن استمتع بعد التحلّل مِن عُمرته باستباحة محظوراتِ الإحرام إلى أن يُحرِم بالحجّ. ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ أي: فعليه دمٌ

---

[١] هو محمّد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء المدني الواقدي، أبو عبد الله (ت. ٢٠٧هـ/٨٢٣م). مِن أقدم المؤرّخين في الإسلام ومِن أشهرهم ومِن حفّاظ الحديث. وُلد بالمدينة واتّصل بالخليفة الرشيد وابنه المأمون، وولي القضاء ببغداد، وتوفّي فيها. سمع مِن مالك بن أنس والثوري، وروى عنه كاتبه محمّد بن سعد صاحب **الطبقات الكبرى**. مِن تصانيفه: **المغازي النبويّة، وفتوح الشام، وفتح إفريقيّة، وفتح مصر، وفتح العجم، وفتح مصر والإسكندريّة**. انظر: **وفَيات الأعيان** لابن خَلِّكان، ٣٤٨/٤-٣٥١؛ **والأعلام** للزركلي، ٣١١/٦.

[٢] **الكشّاف** للزمخشري، ١٨٤/١.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج وقتادة ومجاهد والأعمش وحُميد والحسن وأبو حَيْوَة وزيد بن عليّ. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١١٩؛ **وشواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٨٦؛ **والمغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ٤٩٧.

[٤] هو كعب بن عُجرة بن أُميّة بن عَديّ الأنصاري السالمي المدني، أبو محمّد (ت. ٥١هـ/٦٧١م). حليف الأنصار. صحابيّ مِن أهل بيعة الرضوان. شهد المشاهد كلّها. وله عدّة أحاديث. وتُوفّي في المدينة. وذُكرت في ترجمته قصّته المذكورة ههنا. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٥٢/٣-٥٤؛ **والإصابة** لابن حجر، ٢٧٩/٩-٢٨١.

[٥] وفي هامش ي: بالتسكين كيل معروف بالمدينة. «منه».

[٦] **تفسير مقاتل بن سليمان**، ١٧١/١-١٧٢؛ **صحيح البخاري**، ١٠/٣ (١٨١٤)؛ **صحيح مسلم**، ٨٥٩/٢-٨٦٠ (٨٠). ورواه مِن طُرق كثيرة الطبريُّ في **جامع البيان**، ٣٨٤/٣-٣٩١؛ وهو في **تفسير ابن أبي حاتم**، ٣٣٨/١-٣٣٩. وانظر لتفصيل تخريجه **تخريج أحاديث الكشّاف** للزّيلعي، ١٢٤/١-١٢٥.

استيسر عليه بسبب التمتّع، وهو دمُ جُبرانٍ يَذبَحه إذا أحرَمَ بالحجّ. ولا يُأكَل منه عند الشافعي، وعندنا هو كالأضحيّة.[١]

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ أي: الهديَ ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ﴾ أي: في أشهُره بين الإحرامين. وقال الشافعي: في أيّام الاشتغال بأعماله بعد الإحرام وقبل التحلّل، والأحبّ أن يصوم سابعَ ذي الحِجّة وثامنَه وتاسعَه، فلا يَصِحُّ يومَ النحر وأيامَ التشريق. ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ أي: نفَرتم وفرَغتم مِن أعماله. وفي أحد قولَي الشافعيّ إذا رجعتم إلى أهليكم.[٢] وقُرئ: "وَسَبْعَةً" بالنصب،[٣] عطفًا على محلّ ﴿ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾. ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ﴾ فذلكةُ الحساب، وفائدتُها: ألّا يُتوهَّم أنّ "الواو" بمعنى أو، كما في قولك: "جالِسِ الحسنَ وابنَ سيرين"؛ وأن يُعلَم[٤] العدد جملةً كما عُلِم تفصيلًا، فإنّ أكثر العرب لا يعرف الحساب؛ وأنّ المراد بالسبعة هو العدد المخصوص دون الكثرة، كما يراد بها ذلك أيضًا. ﴿كَامِلَةٌ﴾ صفة مؤكِّدةٌ لـ﴿عَشَرَةٌ﴾ تُفيد المبالغة في المحافظة على العدد، أو مبيّنةٌ لكمال "العَشَرة" فإنّها أوّل عددٍ كامل، إذ به تنتهي الآحادُ وتتمُّ مَراتبُها، أو مقيّدة تفيد كمال بدليّتها مِن الهَدْي.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى التمتّع عندنا، وإلى الحُكم المذكور عند الشافعي ﴿لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، وهو: مَن كان مِن الحرم على مسافة القَصْر عند الشافعي، ومَن كان مَسكنُه وراءَ المِيقاتِ عندنا، وأهلُ الحِلّ عند طاوس، وغير[٥] أهلِ مكّةَ عند مالك.[٦]

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في المحافظة على أوامره ونواهيه لاسيّما في الحجّ. ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمَن لم يَتَّقِه، كي يصُدَّكم العلمُ به عن العِصيان. وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار؛ لتربية المَهابة وإدخال الرَّوْعة.

---

١ انظر: الكشّاف للزمخشري، ١/١٨٥؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٧٦.

٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ١/١٨٥؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٧٦.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٨٦.

٤ ي - يعلم.

٥ ط س - غير.

٦ هذا الأقوال بلفظ قريب في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٧٧.

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾

﴿ٱلْحَجُّ﴾ أي: وقتُه ﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ مَعروفاتٌ بين الناس هي: شوّال وذو القعدة وعَشْرُ ذي الحِجّة عندنا، وتسعةٌ بليلةِ النحر عند الشافعي، وكلُّه عند مالكٍ. ومَدار الخلاف أنّ المراد بوقته وقت إحرامه، أو وقت أعماله ومناسِكه، أو ما لا يَحسُن فيه غيره مِن المَناسِك مطلقًا، فإنّ مالِكًا كَرِه العُمرةَ في بقيّة ذي الحِجّة، وأبو حنيفةَ وإن صحَّح الإحرام به قبل شوّال فقد استكرهه.[1] وإنّما سُمِّي شهران وبعضُ شهرٍ أشهُرًا إقامةً للبعض مُقامَ الكلّ، أو إطلاقًا للجمع على ما فوق الواحد. وصفة[2] جمع المذكَّر في غير العقلاء تجيء بالألف والتاء.

﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ أي: أوجَبه على نفسه بالإحرام فيهنّ، أو بالتلبية، أو بسَوق الهَدْي، ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ﴾ أي: لا جِماعَ، أو فلا فُحْشَ مِن الكلام ولا خروجَ مِن حدود الشرع بارتكاب المحظورات. وقيل: بالسِّباب والتنابُز بالألقاب. ﴿وَلَا جِدَالَ﴾ أي: لا مِراءَ مع الخَدَم والرِّفقة. ﴿فِى ٱلْحَجِّ﴾ أي: في أيّامه. والإظهار في مقام الإضمار؛ لإظهار كمال الاعتناء بشأنه، والإشعارِ بعِلّة الحُكم، فإنّ زيارة البيت المعظَّم والتقرّبَ بها إلى الله عزّ وجلّ مِن موجِبات تَرْك الأمور المَذكورة. وإيثار النفي للمبالغة في النهي والدلالة على أنّ ذلك حقيقٌ بألّا يكون، فإنّ ما كان منكَرًا مستقبَحًا في نفسه ففي تضاعيف الحَجّ أقبحُ، كلُبْس الحرير في الصلاة، والتطريبِ بقراءة القرآن؛ لأنّه خروجٌ عن مقتضى الطبع والعادة إلى مَحْض العبادة. وقُرئ الأوّلان بالرفع،[3] على معنى: لا يَكُونَنَّ رَفثٌ ولا فسوقٌ، / والثالثُ بالفتح، على معنى الإخبار بانتفاء الخلاف في الحَجّ. وذلك أنّ قُريشًا كانت تخالف سائرَ العَرب فتَقِفُ بالمَشعَر الحرام، فارتفعَ الخلافُ بأن أُمِروا بأن يقفوا أيضًا بعَرَفات. [٦٥ظ]

---

[1] هذا الأقوال بلفظ قريب في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٧٧.

[2] ي أ: صيغة. | والصواب ما أُثبت.

[3] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب. السبعة لابن مجاهد، ص ١٨٠؛ والنشر لابن الجزري، ٢/٢١١.

﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ فيَجزي به خيرَ جزاءٍ، وهو حثٌّ على فعل[١] الخير إِثرَ النهي عن الشرّ. ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي: تزوَّدوا لمِعَادكم التقوى فإنّه خيرُ زادٍ. وقيل: «نزلت في أهل اليمن كانوا يَحُجّون ولا يَتزوّدون ويقولون: "نحن المتوكِّلون"، فيكونون كَلًّا على الناس».[٢] فأُمِروا أن يتزوّدوا ويتّقوا الإبرامَ في السؤال والتثقيل على الناس. ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فإنّ قضيّة اللُّبّ استشعارُ خشية الله عزّ وجلّ وتقواه. حَثَّهم على التقوى، ثمّ أَمَرهم بأن يكون المقصود بذلك هو الله تعالى فيتبرّءوا مِن كلّ شيءٍ سواه، وهو مقتضى العقل المُعرَّى عن شوائب الهوى، فلذلك خُصَّ بهذا الخطاب أولو الألباب.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝١٩٨﴾

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ﴾ أي: في أن تبتغوا، أي: تطلُبوا ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾، عطاءً ورزقًا منه، أي: الرِّبحَ بالتجارة. وقيل: «كان عُكاظُ[٣] ومِجَنّةُ[٤] وذو المَجازِ[٥] أسواقَهم في الجاهليّة، يُقيمونها أيّامَ مواسمِ الحجّ، وكانت مَعايشهم منها، فلمّا جاء الإسلام تأثَّموا منه فنزلت».[٦]

---

[١] ي - فعل.

[٢] بلفظ قريب عن قتادة في تفسير عبد الرزّاق، ٧٧/١؛ وعن ابن عبّاس في صحيح البخاري، ١٣٣/٢-١٣٤ (١٥٢٣)؛ وعن مجاهد وقتادة والربيع في جامع البيان للطبري، ٤٩٧/٣.

[٣] هو اسم سوق مِن أسواق العرب في الجاهليّة. وهو نخل في وادٍ بينه وبين الطائف ليلة وبينه وبين مكّة ثلاث ليالٍ. يقال: عكَظ الرجل صاحبه إذا فاخره وغلبه بالمُفاخرة، فسُمِّيت عكاظ بذلك. وكانت قبائل العرب تجتمع به في كلّ سنة ويتفاخرون، ويحضرها شعراؤهم ويتناشدون ما أحدثوا مِن الشعر ثمّ يتفرّقون. قيل: كانت العرب تقيم فيه شهر شوّال، وقيل: عشرون مِن أوّل ذي القعدة. انظر: معجم البلدان للحموي، ١٤٢/٤، ٥٨/٥-٥٩.

[٤] هو اسم سوق مِن أسواق العرب في الجاهليّة. وكانت مَجَنّة بمرّ الظهران، قرب جبل يقال له الأصفر، وهو بأسفل مكّة. وكانت العرب تقيم فيه عشرة أيّام مِن آخر ذي القعدة. انظر: معجم البلدان للحموي، ٥٨/٥-٥٩.

[٥] هو مِن أسواق العرب في الجاهليّة. وهو على ناحية كبكب عن يمين الإمام على فرسخ مِن عرفة. وكانت السوق تقوم فيه ثمانية أيّام مِن ذي الحجّة ثمّ يعرّفون في اليوم التاسع إلى عرفة وهو يوم التروية. انظر: معجم البلدان للحموي، ٥٥/٥، ٥٩.

[٦] بلفظ قريب عن ابن عبّاس رضي الله عنه في تفسير عبد الرزّاق، ١٧٨/١؛ وصحيح البخاري، ١٨١/٢-١٨٢؛ وجامع البيان للطبري، ٥١٠/٣، ٥٠٤؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٣٥١/١.

﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ﴾ أي: دفعتُم منها بكثرة، مِن أَفَضتُ الماء إذا صببْتَه بكثرة، وأصلُه: أفضتُم أنفسَكم، فحُذِفَ المفعول حذفَه[١] مِن: دفعتُ مِن البَصْرة. وعَرَفات: جَمْعٌ سُمّي به كـ"أَذْرِعات"،[٢] وإنّما نُوِّن وكُسِر وفيه عَلميّة وتأنيث، لِما أنّ تنوين الجمع تنوينُ المقابلة لا تنوينُ التمكّن،[٣] ولذلك يُجمَع مع اللام، وذهابُ الكسرة تَبَعُ ذهابِ التنوين مِن غير عِوَض لعدم الصرف، وهنا ليس كذلك، أو لأنّ التأنيث إمّا بالتاء المذكورة، وهي ليست بتاء التأنيث، وإنّما هي مع الألف التي قبلها علامة جَمْع المؤنّث، أو بتاءٍ مقدَّرةٍ كما في "سُعاد"، ولا سبيلَ إليه؛ لأنّ المذكورة تأبى تقديرَها، لِما أنّها كالبدل منها، لاختصاصها بالمؤنّث كتاءِ "بِنْت".[٤]

وإنّما سُمّي الموقف عَرَفةً؛ لأنّه نُعِتَ لإبراهيمَ عليه السلام فلمّا أبصره عَرَفه،[٥] أو لأنّ جبريل عليه السلام كان يدور به في المَشاعر، فلمّا أراه قال: «عرَفتُ»،[٦] أو لأنّ آدم وحوّاء التقيا فيه فتعارفا، أو لأنّ الناس يتعارفون فيه. وهي مِن الأسماء المرْتجَلة إلّا مَن يجعلها جَمْعَ عارف. قيل: وفيه دليل على وجوب الوقوف بها؛ لأنّ الإفاضة لا تكون إلّا بعده، وهي مأمور بها بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ﴾ [البقرة، ١٩٩/٢]. وقد قال النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم: «الحجُّ عَرَفةُ، فمن أدرك عَرَفةَ فقد أدرك الحجَّ»،[٧] أو مقدِّمة للذِّكْر المأمور به. وفيه نظر؛ إذ الذِّكر غيرُ واجب، والأمر به غيرُ مطلق.

---

[١] ي: كما حذف.

[٢] هو بلد في أطراف الشام يُجاور أرض البلقاء وعمّان. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ١٣٠/١.

[٣] تنوين المُقابلة: هو الذي يلحق جمع المؤنث السالم، وتنوين التمكُّن أو التمكين أو الصرف: هو الذي يلحق الأسماء المعربة. انظر: **شرح التسهيل** لابن مالك، ١١/١؛ **وشرح الألفيّة** لابن عقيل، ١٧/١.

[٤] انظر لتفصيل كلام أهل العربيّة في عرفات: **معاني القرآن** للأخفش، ١٧٧/١؛ **وجامع البيان** للطبري، ٥١١/٣-٥١٢؛ **ومعاني القرآن وإعرابه** للزّجّاج، ٢٧٢/١-٢٧٣.

[٥] هو بلفظ قريب عن عليّ بن أبي طالب والسُّدّي وغيرهما في **جامع البيان** للطبري، ٥١٣/٣-٥١٤.

[٦] هو بلفظ قريب عن ابن عبّاس وعطاء في **جامع البيان** للطبري، ٥١٤/٣.

[٧] **سنن أبي داود**، ٣٢٠/٣-٣٢١؛ **سنن الترمذي**، ٢٢٨/٣ (٨٨٩)، بلفظ «الحجُّ عرفة، مَن جاء ليلة جَمْع قبل طلوع الفجر فقد أدرك الحجَّ...». وانظر لتفصيل تخريجه **تخريج أحاديث الكشّاف** للزّيلَعي، ١٢٧/١-١٢٨.

﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ بالتلبية والتهليل والدعاء. وقيل: بصلاة العِشاءَين. ﴿عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾: هو جبل يقف عليه الإمام ويُسمَّى قُزَح.[1] وقيل: بين مَأزِمَي عَرَفةَ[2] ووادي المُحَسِّر.[3] ويُؤيّد الأوّل ما روى جابرٌ: أنه عليه السلام لمّا صلّى الفجرَ -يعني: بالمزدَلِفة- بغَلَسٍ، ركِب ناقتَه حتى أتى المَشعَر الحرام، فدعا فيه وكبّر وهلَّل ولم يزَلْ واقفًا حتّى أسفَر.[4] وإنما سُمّي "مَشعَرًا"؛ لأنّه مَعْلمُ العبادة، ووُصِف بـ﴿ٱلْحَرَامِ﴾ لحُرمته. ومعنى: ﴿عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ ما يليه ويَقرُب منه، فإنّه أفضل وإلّا فالمزدلفةُ كلُّها موقفٌ إلّا وادِي مُحَسِّر.

﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ أي: كما علَّمكم، أو اذكُروه ذِكرًا حَسَنًا كما هداكم هدايةً حسَنةً إلى المناسك وغيرها. و"ما" مصدريّة، أو كافّة. ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ﴾ مِن قبل ما ذُكِر مِن هدايته إيّاكم ﴿لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ غيرِ العالِمين بالإيمان والطاعة. و﴿إِن﴾ هي المخفَّفةُ، واللامُ هي الفارقة. وقيل: هي نافية. واللام بمعنى "إلّا" كما في قوله عزّ وعلا: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الشعراء، ١٨٦/٢٦].

﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٩٩﴾

﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ أي: مِن عَرَفة لا مِن المزدَلِفة. والخطاب لقُريش، لمّا كانوا يقفون بجَمْع[5] وسائرُ الناس بعَرَفة، ويرَوْن ذلك ترفّعًا عليهم؛

---

[1] وفي هامش ي: الموضع الذي بين المَشعر وبين عرفة. «منه».

[2] المأزِمان: موضع بمكّة بين المَشعَر الحرام وعرفة. وهو شِعب بين جبلين يُفضي آخره إلى بطن عُرنة، وهو إلى ما أقبل على الصخرات التي يكون بها موقف الإمام إلى طريق يُفضي إلى حصن بني عامر وحائطهم عند عرفة. وليس عرفات مِن الحرم، وإنّما حدّ الحرم مِن المأزِمين، فإذا جُزتهما إلى العَلَمين المضروبين فما وراء العَلَمين مِن الحِلّ أخذ في المأزِم، وهو الطريق الضيّق بين الجبال. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ٤٠/٥.

[3] مُحسِّر: هو موضع ما بين مكّة وعرفة. وقيل: بين منًى وعرفة. وقيل: بين منًى والمُزدلفة، وليس مِن منًى ولا المُزدلفة؛ بل هو وادٍ برأسه. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ٦٢/٥.

[4] طرف حديث طويل في حجّة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، بلفظ قريب في **صحيح مسلم**، ٨٩١/٢ (١٢١٨). وانظر: **تخريج أحاديث الكشّاف** للزَّيلَعي، ١٢٨/١.

[5] هو المُزدلِفة، وهو قُزَح، وهو المَشعَر. سُمِّيَ جَمْعًا لاجتماع الناس به. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ١٦٣/٢.

فأُمروا بأن يُساووهم. و﴿ثُمَّ﴾ لتفاوت ما بين الإفاضتين، كما في قولك: أَحسِنْ إلى الناس ثمّ لا تُحسِنْ إلّا إلى كريم.[١] وقيل: مِن مزدلفة إلى مِنًى بعد الإفاضة مِن عَرَفة إليها، والخطابُ عامّ. وقُرِئ: "النَاسِ" بكسر السين،[٢] أي: الناسي، على أنْ يُراد به آدمُ عليه السلام، مِن قوله تعالى: ﴿فَنَسِيَ﴾ [طه، ٨٨/٢٠]، والمعنى: أنّ الإفاضة مِن عَرَفة شرعٌ قديم فلا تُغيّروه.

﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ مِن جاهليّتكم في تغيير المناسك. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يَغفِر ذنب المستغفِر، ويُنعِم عليه. فهو تعليل للاستغفار أو للأمر به.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ﴾: عبادتَكم المتعلّقةَ بالحجّ، وفرَغتُم منها، ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾ أي: فأكثِروا ذكره تعالى وبالغوا في ذلك، كما تفعلون بذِكر آبائكم ومفاخرهم وأيّامهم. وكانت العرب إذا قضَوا مناسكهم وقفوا بمِنًى بين المسجد والجبل فيَذكرون مَفاخِرَ آبائهم ومحاسِنَ أيّامهم. ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ إمّا مجرور معطوف على "الذِّكر" بجَعْله ذاكرًا على المجاز، والمعنى: فاذكروا الله ذكرًا كائنًا مِثلَ ذكركم آباءَكم، أو كذكر أشدَّ منه وأبلغَ، أو على ما أُضِيف إليه، بمعنى: أو كذكر قومٍ أشدَّ منكم ذكرًا، أو منصوبٌ بالعطف على ﴿ءَابَآءَكُمْ﴾، و﴿ذِكْرًا﴾ مِن فِعل المذكور، بمعنى: أو كذِكْركم أشدَّ مَذكوريّة مِن آبائكم، أو بمضمَر دلَّ عليه المعنى، تقديره: أو كونوا أشدَّ ذِكرًا لله منكم لآبائكم.

﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ تفصيلٌ للذاكرين: إلى مَن لا يَطلُب بذكر الله إلّا الدنيا، وإلى مَن يَطلُب به خير الدارَين، والمراد به الحثّ على الإكثار والانتظام في سِلك الآخَرين.

---

[١] ي: الكريم.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جُبير والشيزري عن أبي جعفر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٠؛ والمُحتسَب لابن جنّي، ١١٩/١؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٨٧.

﴿مَن يَقُولُ﴾ أي: في ذكره: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي: اجعل إيتاءَنا ومِنحَتَنا في الدنيا خاصّة. ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ أي: مِن حظٍّ ونصيبٍ، لاقتصار هَمِّه على الدنيا، فهو بيان لحاله في الآخرة، أو مِن طَلَبِ خَلاقٍ. فهو بيان لحاله في الدنيا، وتأكيد لقَصْر / دُعائه على المطالب الدنيويّة. [٦٦و]

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾، هي الصِّحة والكَفاف والتوفيق للخير. ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ هي الثواب والرحمة. ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ بالعَفو والمغفرة، ورُوي عن عليّ كرّم الله وجهه: «أنّ الحسنةَ في الدنيا المرأةُ الصالحة، وفي الآخرة الحَوراء، وعذابُ النار امرأةُ السوءِ».[١] وعن الحَسَن: «أنّ الحَسَنة في الدنيا العلمُ والعبادة، وفي الآخرة الجنّة».[٢] ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ معناه: احفظنا مِن الشهوات والذنوب المؤدّية إلى النار.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الفريق الثاني[٣] باعتبار اتّصافِهم بما ذُكِر مِن النعوت الجميلة، وما فيه مِن معنى البُعد لِمَا مرّ مرارًا مِن الإشارة إلى عُلوّ درجتهم وبُعْدِ منزلتِهم في الفضل. «وقيل: إليهما»[٤] معًا. فالتنوين في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ على الأوّل للتفخيم، وعلى الثاني للتنويع، أي: لكلّ منهم نوعُ نصيبٍ مِن جنس ما كَسَبوا أو مِن أجله، كقوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟﴾ [نوح، ٢٥/٧١]، أو ممّا دَعَوا به نُعطيهم منه ما قدّرناه. وتسمية الدعاء كسْبًا لِمَا أنّه مِن الأعمال.

---

١ في تفسير ابن أبي حاتم، ٣٥٨/٢، عن محمّد بن كعب القُرظي ويزيد بن مالك: «المرأة الصالحة مِن الحسنات». وهو بلفظه ههنا عن عليّ رضيَ الله عنه في الكشّاف للزمخشري، ١٩٠/١؛ وعنه بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٢٣٥/١.

٢ تفسير ابن أبي حاتم، ٣٥٨/٢-٣٥٩.

٣ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٨٠/١؛ والكشّاف للزمخشري، ١٩٠/١.

٤ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٨٠/١. والقول في الكشّاف للزمخشري، ١٩١/١؛ وتفسير الرازي، ٢٠٥/٥.

﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ يحاسب العباد على كثرتهم وكثرةِ أعمالهم في مِقدار لمحة، فاحذَروا مِن الإخلال بطاعة مَن هذا شأنُ قُدرتِه، أو يوشك أن[1] يُقيمَ القيامةَ ويُحاسِبَ الناسَ، فبادروا إلى الطاعات واكتساب الحسنات.

﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: كبِّروه في أعقاب الصلوات، وعند ذبح القَرابينِ، ورمي[2] الجمارِ، وغيرِها. ﴿فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ هي أيّام التشريق. ﴿فَمَن تَعَجَّلَ﴾ أي: استَعجَل في النَّفر، أو النَّفْرَ؛ فإنّ التفعّل والاستفعال يجيئان لازمين ومتعدِّيين، يقال: تعجَّل في الأمر واستَعجل فيه، وتعجَّله واستَعجله. والأوّل أَوْفقُ للتأخّر كما في قوله:[3]

قد يُـدرك الـمُـتأنّي بـعـضَ حاجتِه وقـد يكون مِن المستعجِل الـزلَـلُ[4]

﴿فِى يَوْمَيْنِ﴾ أي: في تمام يومين بعد يوم النحر، وهو يوم القرّ ويومُ الرءوس واليومُ بعده، ينفِر إذا فرَغ مِن رمي الجِمار.[5] ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ بتعجّله، ﴿وَمَن تَأَخَّرَ﴾ في النَّفْر حتّى رمى في اليوم الثالث قبل الزوال أو بعده، وعند الشافعي بعده فقط.[6] ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ بما صَنَع مِن التأخّر. والمراد التخيير بين التعجّل والتأخّر، ولا يقدح فيه أفضليّةُ الثاني، وإنّما ورَد بنفي[7] الإثم تصريحًا بالردّ على أهل الجاهليّة؛ حيثُ كانوا مختلِفين، فمِن مؤثِّمٍ للمتعجِّل ومؤثِّمٍ للمتأخِّر.[8]

﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي: الذي ذُكِر مِن التخيير ونفي الإثم عن المتعجِّل والمتأخِّر أو مِن الأحكام لمَن اتقى؛ لأنّه الحاجُّ على الحقيقة والمنتفِع به أو لأجله حتّى لا يتضرَّرَ بتَرْك ما يُهِمُّه منهما.

---

[1] ي - أن.

[2] ي: وفي.

[3] البيت للقُطامي عُمير بن شُييم في ديوانه، ص ١٩٣.

[4] س: الذلل.

[5] انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٩١/١.

[6] انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٩١/١.

[7] ي: النفي.

[8] انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٩١/١-١٩٢.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في مَجامِعِ أمورِكم بفعل الواجبات وترك المحظورات؛ ليُعبأ بكم، وتنتظموا في سِلْك المغتنِمين بالأحكام المذكورة والرُّخَص، أو احذروا الإخلالَ بما ذُكِر مِن الأحكام، وهو الأنسب بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: للجزاء على أعمالكم بعد الإحياء والبعث. وأصلُ الحشر: الجمع وضمّ المفترِق.[١] وهو تأكيد للأمر بالتقوى ومُوجِب للامتثال به، فإنّ مَن عَلِم بالحَشْر والمحاسبة والجزاء كان ذلك مِن أقوى الدواعي إلى مُلازَمة التقوى.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ﴾ تجريد للخطاب وتوجيه له إليه عليه السلام، وهو كلام مبتدأ سِيق لبيان تحزّب الناسِ في شأن التقوى إلى حِزبين، وتعيينِ مآلِ كلّ منهما. و﴿مَن﴾ موصولة أو موصوفة، وإعرابه كما بُيّن في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة، ٨/٢]، أي: ومنهم مَن يَرُوقك كلامُه ويَعظُم موقعُه في نفسك لِما تُشاهِد فيه مِن مُلاءَمة الفحوى ولُطف الأداءِ. والتعجّب: حَيْرةٌ تَعرِضُ للإنسان بسبب عدم الشعور بسبب ما يَتعجّب منه. ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: متعلِّق بـ﴿قَوْلُهُۥ﴾، أي: ما يقوله في[٢] الحياة الدنيا ومعناها، فإنّها الذي يريده بما يدّعيه مِن الإيمان ومحبّةِ الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وفيه إشارةٌ إلى أنّ له قولًا آخرَ ليس بهذه الصفة، أو بـ﴿يُعْجِبُكَ﴾، أي: يُعجِبك قولُه في الدنيا[٣] بحلاوته وفصاحتِه لا في الآخرة، لِما أنّه يَظهَر هناك كذِبُه وقُبحُه. وقيل: لِما يُرهِقه مِن الحُبْسة واللُّكنة.[٤] وأنت خبير بأنّه لا مبالغة حينئذ في سوء حاله؛ فإنّ مآله بيانُ حُسنِ كلامه في الدنيا وقُبحِه في الآخرة. وقيل: معنى ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: مُدّة الحياة الدنيا، أي: لا يَصدُر منه فيها إلّا القولُ الحَسَن.

---

١ س: المُفرِّق. | مِن قوله: "للجزاء" بإيجاز في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٨٠/١.

٢ ط س + حقّ.

٣ س + في الدنيا.

٤ هذا القول في الكشّاف للزمخشري، ١٩٢/١.

﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ﴾ أي: بحسَب ادّعائه حيث يقول: الله يَعلَم أنّ ما في قلبي موافق لِما في لساني. وهو عطفٌ على ﴿يُعْجِبُكَ﴾. وقُرِئ: "ويَشْهَدُ اللهُ"،[١] فالمراد بـ﴿مَا فِي قَلْبِهِۦ﴾ ما فيه حقيقةً، ويُؤيِّده قراءة ابنِ عبّاس رضي الله عنهما "والله يَشْهَدُ عَلَى مَا فِي قَلْبِه".[٢] على أنّ كلمة ﴿عَلَىٰ﴾ لكون المشهودِ به مُضِرًّا له، فالجملة اعتراضّية. وقُرِئ: "ويَسْتَشْهِدُ اللهَ".[٣]

﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ أي: شديد العداوة والخصومةِ للمسلمين، على أنّ ﴿ٱلْخِصَامِ﴾ مصدرٌ، وإضافة "الألدّ" إليه بمعنى "في"، كقولهم: "ثَبْتُ الغَدَر"؛[٤] أو أشدُّ الخُصوم لهم خُصومةً، على أنّه جَمْع خَصْم، كصَعْب وصِعاب. قيل:[٥] نزلَت في الأخنس بن شَرِيقٍ الثقفي،[٦] وكان حَسَن المَنظر حُلْوَ المَنطِق، يُوالي رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم، ويدّعي الإسلامَ والمحبّة.[٧] وقيل: في المنافقين.[٨] والجملة حال مِن الضمير المجرور في ﴿قَوْلُهُۥ﴾، أو مِن المستكِنّ في ﴿يُشْهِدُ﴾؛ وعطفٌ على ما قبلها على القراءتين المتوسّطتين.

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾

---

[١] قراءة شاذّة، وهي قراءة الحسن ومجاهد وابن محيصن وطلحة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٠؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٨٧؛ والمغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٥٠١.

[٢] وهي قراءة شاذّة. تفسير القرطبي، ٣/٣٨٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وأُبيّ بن كعب وعصمة عن الأعمش. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٠؛ والكشّاف للزمخشري، ١/١٩٢؛ والمغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٥٠١.

[٤] الغَدَر: الموضع الظَّلِف، الكثير الحِجارة. و"رجلٌ ثَبْتُ الغَدَر"، أي: ثابتٌ في قتال أو كلام. انظر: الصحاح للجوهري، «غدر».

[٥] ط: وقيل.

[٦] هو الأخنس بن شَريق بن عمرو بن وهب الثقفي، أبو ثعلبة، حليف بني زهرة، واسمه أُبيّ، وإنّما لُقِّب الأخنس؛ لأنّه رجع ببني زهرة مِن بدر لمّا جاءهم الخبر أنّ أبا سفيان نجا بالعِير، فقيل: خنس الأخنس ببني زهرة، فسُمّي بذلك. ثمّ أسلم الأخنس فكان مِن المؤلّفة. وشهد حُنينًا، ومات في أوّل خلافة عمر رضي الله عنه. أُثبت في الصحابة، وذُكر خلاف في إسلامه وارتداده، ولعلّه أسلم ثمّ ارتدّ ثمّ رجع. انظر: الإصابة لابن حجر، ١/٨١-٨٢.

[٧] بلفظ قريب عن السُّدّي في جامع البيان للطبري، ٣/٥٧٢؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٢/٣٦٤؛ وعن الكلبي ومقاتل وعطاء في معالم التنزيل للبغوي، ١/٢٣٥.

[٨] عن قتادة في تفسير عبد الرزّاق، ١/٨١.

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ أي: مِن مَجلِسك، وقيل: إذا صار واليًا ﴿سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾، / كما فعله الأَخنسُ بثَقيفٍ حيث بيَّتهم وأحرَق [٦٦ظ] زروعَهم وأهلَك مواشيَهم، أو كما يَفعله وُلاةُ السوء بالقتل والإتلاف أو بالظلم حتّى يَمنَع الله تعالى بشؤمه القَطْرَ، فيُهلِكَ الحرثَ والنسلَ. وقُرئ: "ويَهلِكَ الحَرثُ والنَّسلُ"،[١] على إسناد الهلاك إليهما عطفًا على ﴿سَعَىٰ﴾. وقُرئ بفتح اللام،[٢] وهي لغة. وقُرئ على البناء للمفعول مِن الإهلاك.[٣] ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ أي: لا يَرتضيه ويُبغِضه ويَغضَب على مَن يتعاطاه. وهو اعتراضٌ تذييليّ.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝٢٠٦﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ﴾ على نَهج العِظة والنصيحة: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، واترُكْ ما تباشِرُه مِن الفساد أو النفاق، واحذرْ سوءَ مَغبَّتِه، ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ أي: حَمَلتْه الأَنَفةُ وحميّةُ الجاهليّة على الإثم الذي نُهِيَ عنه لَجاجًا وعِنادًا، مِن قولك: أخذتُه بكذا إذا حَمَلتَه عليه وألزمْتَه إياه.[٤] ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ مبتدأ وخبر، أي: كافِيهِ جهنّمُ. وقيل: ﴿جَهَنَّمُ﴾ فاعل لـ"حَسْبُه"، سادٌّ مَسدَّ خبرِه، وهو مصدر بمعنى الفاعل، وقَويَ لاعتماده على الفاء الرابطة للجملة بما قبلها. وقيل: "حَسْبُ" اسمُ فعل ماضٍ، أي: كَفَتْه جهنّمُ.[٥] ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ جواب قسمٍ مقدّرٍ، والمخصوص بالذمّ محذوف؛ لظهوره وتعيّنه، و﴿ٱلْمِهَادُ﴾: الفِراش. وقيل: ما يُوطَّأ للجَنْب.[٦] والجملة اعتراض.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة وزيد بن عليّ وأبي حنيفة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٠؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٨٨؛ والمغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ٥٠٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحَسَن وأبي حَيْوَة. الكشّاف للزمخشري، ١/١٩٢؛ والمغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ٥٠٢.

٣ ي: الهلاك. | قراءة شاذّة، مرويّة عن الحَسَن. الكشّاف للزمخشري، ١/١٩٢؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٤/٢٩.

٤ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٨١؛ وأكثره في الكشّاف للزمخشري، ١/١٩٢.

٥ انظر هذه الأعاريب والأقوال في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢/٣٥٥؛ واللباب لابن عادل، ٣/٤٦٥-٤٦٦.

٦ مِن قوله: "جواب قسم" بلفظ قريب في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٨١.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ﴾ مبتدأ وخبر، كما مرّ، أي: يَبيعُها ببذْلها في الجهاد ومَشاقِّ الطاعات وتعريضِها للمَهالك في الحروب، أو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وإن ترتّب عليه القتل؛ ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ أي: طلبًا لرضاه، وهذا كمالُ التقوى. وإيراده[١] قسيمًا للأوّل؛ مِن حيث إنّ ذلك يأنَف مِن الأمر بالتقوى، وهذا يأمر بذلك وإن أدّى إلى الهلاك. وقيل: نزلَت في صُهيبِ بن سِنانٍ الرُّومي، أخذه المشركون وعذّبوه ليرتدَّ، فقال: «إنّي شيخٌ كبيرٌ إن كنتُ معكم لم أنفعكم، وإن كنت عليكم لم أضرَّكم، فخلُّوني وما أنا عليه وخُذوا مالي»، فقَبِلوا منه مالَه، فأتى المدينة.[٢] فـ"يَشري" حينئذٍ بمعنى: يَشتري؛ لجريان الحال على صورة الشراء.[٣]

﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾؛ ولذلك يُكلِّفهم التقوى ويُعرِّضهم للثواب. والجملة اعتراضٌ تذييليٌّ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ﴾ أي: الاستسلام والطاعة. وقيل: «الإسلام».[٤] وقُرِئ بفتح السين،[٥] وهي لغة فيه، وبفتح اللام أيضًا.[٦]

---

[١] س: وإيراد.

[٢] بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٥٩١/١؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٣٦٨/٢-٣٦٩؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ٦٧. وانظر تفصيله في العجاب في بيان الأسباب لابن حجر، ص ٣٣٣-٣٣٥.

[٣] ي: الشِّرى. | انظر: المُحرَّر الوجيز لابن عطيّة، ٥٠٣/١، حكاه عن قوم، وذكر أنّ مَن تأوّل الآية في صُهيب يحتاج إلى هذا المعنى.

[٤] مِن قوله "أي" بتصرُّف في الكشّاف للزمخشري، ١٩٣/١. والقول بأنّ السِّلم هو الإسلام أخرجه الطبريُّ عن ابن عبّاس ومجاهد وقتادة والسدّي وابن زيد والضحّاك. انظر: جامع البيان للطبري، ٥٩٥/٣-٥٩٦. وهو بلا عزو في مجاز القرآن لأبي عبيدة، ٧١/١؛ ومعاني القرآن للأخفش، ١٨٠/١.

[٥] قرأ بها ابن كثير ونافع والكسائي. السبعة لابن مجاهد، ص ١٨٠؛ النشر لابن الجزري، ٢٢٧/٢.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن المغربي عن طلحة والأعمش. في شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٣؛ والكشّاف للزمخشري، ١٩٣/١؛ والمغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ٥٠٣، عن الكشّاف.

وقوله تعالى: ﴿كَآفَّةً﴾ حال مِن الضمير في ﴿ٱدْخُلُواْ﴾، أو مِن ﴿ٱلسِّلْمِ﴾، أو منهما معًا، كما في قوله:

خرجتُ بها تمشي تجرُّ وراءَنا   على أَثَرينا ذيلَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ[1]

وهي في الأصل اسم لجماعة تَكُفُّ مخالِفَها، ثمّ استُعملت في معنى "جميعًا".[2] وتاؤُها ليست للتأنيث حتّى يُحتاجَ إلى جعل السِّلم مؤنّثًا مِثلَ "الحرب"، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال، ٦١/٨]، وفي قوله:

السِّلمُ تأخذُ منها ما رضِيتَ به   والحَربُ يَكفيكَ مِن أنفاسها جُرَعُ[3]

وإنّما هي للنقل كما في "عامّة وخاصّة وقاطبة".[4]

والمعنى: استسلِموا لله تعالى وأطيعوه جملةً ظاهرًا وباطنًا، والخطاب للمنافقين، أو ادخُلوا في الإسلام بكُلّيّته ولا تَخلِطوا به غيرَه، والخطاب لمؤمني أهل الكتاب، فإنّهم كانوا يُراعون بعضَ أحكام دينهم القديم بعد إسلامهم، أو في شرائع الله تعالى كلِّها بالإيمان بالأنبياء والكتب جميعًا، والخطاب لأهل الكتاب كلِّهم، ووَصْفُهم بالإيمان إمّا على طريقة التغليب، وإمّا بالنظر إلى إيمانهم القديم، أو في شُعَب الإسلام وأحكامِه كلِّها، فلا يُخِلُّوا بشيء منها، والخطاب للمسلمين.[5] وإنّما خُوطِب أهلُ الكتاب بعنوان الإيمان مع أنّه لا يصحّ الإيمانُ إلّا بما كُلِّفوه الآن؛ إيذانًا بأنّ ما يَدّعونه لا يتمّ بدونه.

---

١ ط س ي: مُرجَّل. | وأثبتُّ ما في المصادر. | ووجوه إعراب "كافّة" مع البيت في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣٥٩/٢-٣٦١؛ واللباب لابن عادل، ٤٧٥/١. والبيت مِن معلّقة امرئ القيس في ديوانه، ص ١٤؛ وشرح القصائد السبع الجاهليّات لابن الأنباري، ص ٥٣، باختلاف يسير في الرّواية. وفيه: «المِرط: كِساءٌ مِن خزٍّ أو غيره... والمُرحَّل: ضربٌ مِن البرود، ويقال لوشيه: الترحيل... ويقال: المُرحَّل: المُعلَم بأعلام كالرِّحال».

٢ ذكره ابن عادل في اللباب، ٤٧٥/٣، عن ابن عطيّة في المُحرَّر الوجيز، ٥٠٥/١.

٣ البيت للعبّاس بن مِرداس السُّلَمي في ديوانه، ص ١٠٣. وهو بلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ١٩٣/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٨٢/١؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣٥٩/٢؛ واللباب لابن عادل، ٤٧٤/١.

٤ ما ذكره المُصنِّف مِن الرأي في تاء "كافّة" ههنا هو مذهب الزمخشري وتبعه في ذلك البيضاويُّ. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٩٣/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٨٢/١. وما نقله في ردّه هو مُلخَّص كلام أبي حيّان ومَن تَبِعه كالسمين الحلبي وابن عادل. انظر: البحر المحيط، ٤٢/٤؛ والدرّ المصون، ٣٥٩/٢-٣٦٠؛ واللباب، ٤٧٤/٣.

٥ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٨٢/١. ووردت الوجوه الأربعة على نحو أوسع تفصيلًا في تفسير الرازي، ٢٢٤/٥-٢٢٥.

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ بالتفرّق والتفريقِ، أو بمخالفة ما أُمِرتم به؛ ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ ظاهرُ العداوة، أو مُظهِرٌ لها. وهو تعليل للنهي أو الانتهاءِ.

﴿فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٠٩﴾

﴿فَإِن زَلَلۡتُم﴾ أي: عن الدخول في السِّلم. وقُرِئ بكسر اللام،[1] وهي لغة فيه.[2] ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ﴾ الآياتُ ﴿ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾، والحُججُ القطعيّة الدالّة على حقّيّته الموجِبة للدخول فيه، ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالبٌ على أمره لا يُعجِزُه الانتقامُ منكم. ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يترُك ما تقتضيه الحكمة مِن مُؤاخَذة المجرمين المستعصِين على أوامره.

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٢١٠﴾

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾ استفهامٌ إنكاريّ في معنى النفي، أي: ما ينتظرون بما يفعلون مِن العِناد والمخالفة في الامتثال، بما أُمِروا به والانتهاء عمّا نُهوا[3] عنه[4] ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أمرُه وبأسُه، أو يأتيَهم الله بأمره وبأسه، فحُذِف المأتيُّ به لدلالة الحال عليه. والالتفات إلى الغيبة للإيذان بأنّ سوء صنيعهم موجِبٌ للإعراض عنهم. وحكاية جِنايتهم لمَن عداهم مِن أهل الإنصاف على طريق المُباثّة، وإيرادُ الانتظار؛ للإشعار بأنّهم لانهماكهم فيما هم فيه مِن موجِبات العقوبة كأنّهم طالبون لها مترقّبون لوقوعها. ﴿فِي ظُلَلٖ﴾ جَمْع ظُلّة، كـ"قُلَل" في جَمْع "قُلّة"، وهي: ما أظلّكَ. وقُرِئ: "في ظِلَالٍ"،[5] كـ"قِلال" في جَمْع "قُلّة". ﴿مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ أي: السحاب الأبيض. وإنّما أتاهم العذابُ فيه لِما أنّه مَظِنّة الرحمة،

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٢٠؛ والمُحتسَب لابن جنّي، ١٢٢/١.

[2] انظر: المُحتسَب لابن جنّي، ١٢٢/١؛ والكشّاف للزمخشري، ١٩٣/١.

[3] ط: نهوه.

[4] ط - عنه.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة وسعيد بن جُبير وأبان بن تغلب وابن مِقسَم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٢٠؛ والمُحتسَب لابن جنّي، ١٢٢/١؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ١٨٨؛ والمغني في القراءات للنَّوزاوازي، ص ٥٠٤.

فإذا أتى منه العذاب كان أفظعَ وأقطعَ للمَطامع، فإنّ إتيان الشرّ مِن حيثُ لا يُحتسَب صعبٌ، فكيف بإتيانه مِن حيثُ يُرجى منه الخير؟

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عطفٌ على الاسم الجليل، أي: ويأتيَهم الملائكةُ، فإنّهم وسائطُ في إتيان أَمْره تعالى؛ بل هم الآتون بِبأسه على الحقيقة. وتوسيط الظرف بينهما للإيذان بأنّ الآتي أوّلًا مِن جنس ما يُلابِس الغَمام ويترتَّبُ عليه عادة، وأمّا الملائكة وإن كان إتيانهم مقارِنًا لِما ذُكِر مِن الغمام، لكنّ ذلك ليس بطريق الاعتياد. وقُرِئ بالجرّ،[1] عطفًا على ﴿ظُلَلٍ﴾ أو ﴿ٱلْغَمَامِ﴾.

﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: أُتِمّ أمرُ إهلاكهم وفُرِغ منه، وهو عطفٌ على ﴿يَأْتِيَهُمُ﴾ داخل في حيّز الانتظار، وإنّما عُدِل إلى صيغة الماضي؛ / دلالةً على تحقّقه، [٦٧و] فكأنّه قد كان، أو جملة مستأنَفة جِيءَ بها إنباءً عن وقوع مضمونها. وقُرِئ: "وقَضَاءُ الأَمْرِ"،[2] عطفًا على ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾، بالتأنيث على البناء للمفعول، مِن الرَّجْع. وقُرِئ بالتذكير،[3] وعلى البناء للفاعل بالتأنيث،[4] مِن الرجوع.

﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾

﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الخِطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم، أو لكلّ أحدٍ مِن أهل الخطاب. والمراد بالسؤال تبكيتُهم وتقريعُهم بذلك، وتقريرٌ لمجيء البيّنات: ﴿كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ معجزةً ظاهرة على أيدي الأنبياءِ عليهم السلام، وآيةً ناطقة بحقّيّة الإسلام المأمورِ بالدخول فيه. و﴿كَمْ﴾ خبرية

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جعفر المدني وابن مِقسَم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٠؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٨٨.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن معاذ بن جبل وابن مِقسَم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٠؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٨٨.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن خارجةَ عن نافع وأبي عمرو وابن مِقسَم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٠؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٨٨؛ والمغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٥٠٥.

[4] قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائيّ. السبعة لابن مجاهد، ص ١٨١ النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٧.

أو استفهاميّةً مقرِّرةً، ومحلّها النصب على المفعوليّة، أو الرَّفع بالابتداء على حذف العائد مِن الخبر، و﴿ءَايَةٍ﴾ مميِّزُها.

﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ التي هي آياته الباهرةُ، فإنّها سببٌ للهدى الذي هو أجلّ النعم. وتبديلها جعلها سببًا للضلالة وازدياد الرِّجس، أو تحريفُها وتأويلها الزائغ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ﴾ ووصلتْ إليه وتمكّن مِن معرفتها. والتصريح بذلك مع أنّ التبديل لا يتصوَّر قبل المجيء؛ للإشعار بأنّهم قد بدَّلوها بعد ما وقفوا على تفاصيلها، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة، ٧٥/٢]. ولذلك[١] قيل: تقديرُه: فبدّلوها ومَن يُبدِّلْ.[٢] وإنّما حُذِف للإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح به لظهوره. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ تعليل للجواب، كأنّه قيل: ومَن يُبدِّل نعمة الله عاقَبه أشدَّ عقوبةٍ، فإنّه شديد العقاب. وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخالِ الرَّوْعة.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: حُسِّنت في أعينهم وأُشرِبت محبّتُها في قلوبهم حتّى تهالكوا عليها وتهافتوا فيها مُعرِضين عن غيرها، والتزيينُ مِن حيثُ الخَلقُ والإيجادُ مستنِدٌ إلى الله[٣] سبحانه، كما تُعرِبُ[٤] عنه القراءةُ على البناء للفاعل؛[٥] إذ ما مِن شيء إلّا وهو خالقه، وكلٌّ مِن الشيطان والقُوى الحيوانيّة وما في الدنيا مِن الأمور البهيّة والأشياءِ الشهيّةِ مزيِّنٌ بالعَرَض.

﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عطفٌ على ﴿زُيِّنَ﴾. وإيثار صيغة الاستقبال للدلالة على استمرار السُّخرية منهم، وهم فقراء المؤمنين كبلالٍ وعمّارٍ وصهيبٍ،

---

١ ط س – ولذلك.

٢ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٨٣/١، وأكثره في الكشّاف للزمخشري، ١٩٤/١.

٣ ط: إليه.

٤ ي: تنبئ.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وحُميد وأبي حَيْوَة وابن مِقسَم والحسن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٠، وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٨٩، والمغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ٥٠٦.

كانوا يسترذلونهم ويستهزؤن بهم على رفضهم الدُّنيا وإقبالِهم على العُقبى. و﴿مِنْ﴾ ابتدائيّة، فكأنّهم جعلوا السُّخرية مبتدئة منهم.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ هم الذين آمنوا بعينهم. وإنّما ذُكِروا بعنوان التقوى للإيذان بأنّ إعراضهم عن الدنيا للاتِّقاء عنها؛ لكونها مخِلّةً بتبتّلهم إلى جَناب القُدسِ شاغلةً عنه.

﴿فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾؛ لأنّهم في أعلى عِلّيين، وهم في أسفل سافلين؛[١] أو لأنّهم في أَوْج الكرامة وهم في حضيض الذُّلّ والمَهانة، أو لأنّهم يتطاولون عليهم في الآخرة فيسخَرون منهم كما سخِروا منهم في الدنيا. والجملة معطوفة على ما قبلها، وإيثار الاسميّة للدلالة على دوام مضمونها. ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: «في الدارين. ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: بغير تقدير، يوسّع في الدنيا استدراجًا تارةً وابتلاءً أخرى».[٢]

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ متّفقين على كلمة الحقّ ودينِ الإسلام، وكان ذلك بين آدمَ وإدريسَ أو نوح عليهم السلام، أو بعدَ الطوفان. ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي: "فاختلفوا فبَعَثَ"... إلخ، وهي قراءة ابن مسعودٍ رضي الله عنه،[٣] وقد حُذِف تعويلًا على ما يُذكَر عَقيبه: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾. عن كعب: «الذي عَلِمتُه مِن عدد الأنبياء عليهم السلام مئة وأربعةٌ وعشرون ألفًا، والمرسَلُ منهم ثلاثُمئة وثلاثة عشرَ، والمذكورُ[٤] في القرآن ثمانيةٌ وعشرون».[٥] وقيل: كان الناس أمّة واحدة

---

١ ي: السافلين.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٨٣-١٨٤؛ وانظر: الكشّاف للزمخشري، ١/١٩٥.

٣ قراءة شاذّة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٢٠؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٨٩؛ الكشّاف للزمخشري، ١/١٩٥.

٤ ي: المذكور.

٥ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٨٤.

متّفقة على الكفر والضلال في فترة إدريسَ أو نوح فبعث الله النبيّين، فاختلفوا عليهم. والأوّلُ هو الأنسبُ بالنظم الكريم.[١]

﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: جنسَ الكتاب، أو مع كلّ واحد منهم ممّن له كتابٌ كتابَه الخاصَّ به، لا مع كلّ واحد منهم على الإطلاق؛ إذ لم يكنْ لبعضهم كتابٌ،[٢] وإنّما كانوا يأخُذون بكُتب مَن قبلهم. وعموم النبيّين لا ينُافي خُصوصَ الضمير العائد إليه بمعونة المقام. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ حال مِن ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: ملتبِسًا بالحقّ؛[٣] أو متعلِّقٌ[٤] بـ﴿أَنزَلَ﴾،[٥] كقوله عزّ وعلا: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء، ١٠٥/١٧]. ﴿لِيَحْكُمَ﴾ أي: الكتابُ، أو الله سُبحانه وتعالى،[٦] أو كلّ واحد مِن النبيّين. ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: المذكورين. والإظهار في موقع الإضمار لزيادة التعيين. ﴿فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي: في الحقّ الذي اختلفوا فيه، أو فيما التَبَس عليهم.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ﴾ أي: في الحقّ، أو في الكتاب المُنْزل ملتبِسًا به، والواوُ حالية. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي: الكتابَ المُنزَلَ؛ لإزالة الاختلاف وإزاحةِ الشِّقاق. والتعبير عن الإنزال بالإيتاء للتنبيه مِن أوّل الأمرِ على كمال تمكّنهم مِن الوقوف على ما في تضاعيفه مِن الحقّ؛ فإنّ الإنزال لا يُفيد تلك الفائدة، أي: عكسوا الأمر، حيثُ جعلوا ما أُنزِل لإزالة الاختلاف سببًا لاستحكامه ورسوخِه. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي: رَسَخَتْ في عقولهم. و﴿مِنْ﴾ متعلِّقة بمحذوف يدلّ عليه الكلام، أي: فاختلفوا وما اختلف فيه... إلخ. وقيل: بالملفوظ بناءً على عدم مَنْع "إلّا" عنه، كما في قولك: ما قام إلا زيدٌ يوم الجمعة.[٧] ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ متعلِّقٌ بما تعلقتْ به ﴿مِنْ﴾، أي: اختلفوا بغيًا وتهالُكًا على الدنيا.

---

١ انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٩٥/١، وفيه: «والأوّل أوجه». فبيّنه المُصنّف ههنا بعبارته.

٢ ي: الكتاب.

٣ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٨٤/١.

٤ ي: مُتعلِّقًا.

٥ انظر: الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٣٧٥/٢؛ واللباب لابن عادل، ٥٠٥/٣. وذكرا أنّ هذا الوجه هو الأَوْلى.

٦ س ي - وتعالى.

٧ انظر الوجهين في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٣٧٧/٢؛ واللباب لابن عادل، ٥٠٧/٣.

﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالكتاب ﴿لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ أي: للحقّ الذي اختلَف فيه مَن اختلَف. / ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ بيان لـ"ما". وفي إبهامه[١] أوّلًا وتفسيرِه ثانيًا ما لا يخفى مِن التفخيم. ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾: بأمره أو بتيسيره ولُطفه. ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ مُوصِلٍ إلى الحقّ. وهو اعتراضٌ مقرِّر لمضمون ما سبق. [٦٧ظ]

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ خوطب به رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم ومَن معه مِن المؤمنين؛ حثًّا لهم على الثبات على المُصابرة على مخالفة الكفَرة، وتحمُّلِ المَشاقّ مِن جهتهم، إثر بيانِ اختلافِ الأممِ على الأنبياء عليهم السلام، وقد بُيّن فيه مآلُ اختلافهم وما لَقِيَ الأنبياءُ ومَن معهم مِن قَبلهم مِن مُكابدة الشدائد ومُقاساة الهموم، وأنّ عاقبة أمرهم النصرُ. و﴿أَمْ﴾ منقطِعة، والهمزة فيها للإنكار والاستبعاد، أي: بل أحسِبتُم ﴿أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم﴾[٢] مِن الأنبياء ومَن معهم مِن المؤمنين، أي: والحال أنّه لم يأتِكم مِثلُهم بعدُ، ولم تُبتَلوا بما[٣] ابتُلوا به مِن الأحوال الهائلة التي هي مَثَلٌ في الفظاعة والشدّة، وهو متوقَّع ومنتظَر.[٤]

﴿مَّسَّتْهُمُ﴾ استئنافٌ وقع جوابًا عمّا ينساق إليه الذهن، كأنّه قيل: كيف كان مَثَلهم؟ فقيل: مسّتهم ﴿ٱلْبَأْسَآءُ﴾ أي: الشدّة مِن الخوف والفاقة، ﴿وَٱلضَّرَّآءُ﴾ أي: الآلام والأمراض. ﴿وَزُلْزِلُواْ﴾ أي: أُزعِجوا إزعاجًا شديدًا بما دَهَمهم مِن الأهوال والأفزاع، ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ أي: انتهى أمرُهم مِن الشدّة إلى حيثُ اضطرَّهم الضَّجرُ إلى أن يقول الرسول، وهو أعلم الناس بشئون الله تعالى، وأوثقُهم بنَصره، والمؤمنون المقتَدون بآثاره المستضيئون بأنواره: ﴿مَتَىٰ﴾ أي:

---

١ ي: إيهامه.

٢ ي + أي.

٣ س: إنّما.

٤ ي: منتظم. | مِن قوله: "﴿أَمْ﴾ منقطعة" أكثره في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٨٥؛ والكشّاف للزمخشري، ١/١٩٦.

متى يأتي ﴿نَصْرُ ٱللَّهِ﴾؟ طلبًا وتمنّيًا له واستطالةً لمُدّة الشدّة والعناء. وقُرِئ: "حتّى يقولُ" بالرفع،[1] على أنّه حكاية حالٍ ماضيةٍ. وهذا كما ترى غاية الغايات القاصية، ونهاية النهايات النائية، كيف لا، والرسل مع عُلُوّ كَعْبهم في الثبات والاصطبار، حيثُ عِيلَ صبرُهم، وبلغوا هذا المبلغ مِن الضجر والضجيج، عُلِم أنّ الأمر بلغ إلى غاية لا مَطمَحَ وراءَها.

﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ على تقدير القول، أي: فقيل لهم حينئذٍ ذلك إسعافًا لمَرامهم. والمراد بـ"القُرب" القرب الزمانيّ. وفي إيثار الجملة الاسميّة على الفعليّة المناسِبة لِمَا قبلها، وتصديرِها بحرف التنبيه والتأكيدِ، مِن الدلالة على تحقّق مضمونها وتقرّره[2] ما لا يخفى. واختيار حكاية الوعد بالنصر لِما أنّها في حُكم إنشاء الوعد لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم. والاقتصار على حكايتها دون حكاية نفس النصر مع تحقّقه؛ للإيذان بعدم الحاجة إلى ذلك لاستحالة الخُلْف. ويجوز أن يكون هذا واردًا مِن جهته تعالى[3] عند الحكاية على نَهْج الاعتراض، لا واردًا عند وقوع المَحكيّ. وفيه رمزٌ إلى أنّ الوصول إلى جناب القُدس لا يتسنّى إلّا برَفْض اللذات ومُكابَدة المَشاقّ، كما يُنبئ عنه قولُه عليه السلام: «حُفّتِ الجَنّة بالمَكاره، وحُفّتِ النّار بالشّهوات».[4]

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ أي: مِن أصناف أموالهم. ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ ﴿مَا﴾ إمّا شرطيّة، وإمّا موصولة حُذِف العائد إليها،[5] أي: ما أنفقتموه مِن خير أيّ خيرٍ كان، ففيه تجويز الإنفاق مِن جميع أنواعِ الأموال، وبيانٌ لِما في السؤال،

---

[1] قرأ بها نافع وحده. السبعة لابن مجاهد، ص ١٨١؛ النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٧.

[2] ي: وتقريرها.

[3] وفي هامش ي: أي حكاية الوعد بتأويل العِدة. «منه».

[4] مِن قوله: "وفيه رمز" بلفظ قريب في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٨٥. والحديث في مسند أحمد، ١٤/٥٠٧ (٨٩٤٤)؛ وصحيح مسلم، ٤/٢١٧٤ (٢٨٢٢)؛ وفي صحيح البخاري، ٨/١٠٢ (٦٤٨٧)، بلفظ«حُجِبت» مكان «حُفّت» في الموضعين.

[5] انظر الوجهين في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢/٣٨٣-٣٨٤؛ واللباب لابن عادل، ٣/٥١٨.

إلّا أنّه جُعِل مِن جملةِ ما في حيّز الشرط أو الصلة. وأُبرِز في مَعرِض البيان[1] المَصرِفُ، حيثُ قيل: ﴿فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾؛ للإيذان بأنّ الأهمّ بيان المَصارف المعدودة؛ لأنّ الاعتداد بالإنفاق بحسَب[2] وقوعِه في مَوقعه. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّه جاء عَمرو بنُ الجَموح،[3] وهو شيخٌ هِمٌّ[4] له مالٌ عظيم، فقال: «يا رسول الله ماذا نُنفِق مِن أموالنا وأين نضعُها؟» فنزلت.[5]

﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ أي: المحتاجين منهم، ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾. ولم يتعرّض للسائلين والرِّقاب إمّا اكتفاءً بما ذُكِر في المواقع الأُخَر، وإمّا بناءً على دخولهم تحت عموم قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾؛ فإنّه شامل لكلّ خير واقع في أيّ مَصرِف كان، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ فيوفّي ثوابَه، وليس في الآية ما يُنافيه فَرْضُ الزكاة ليُنْسخَ به، كما نُقِل عن السُّدّي.[6]

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾ ببناء الفعل للمفعول ورفعِ القتال، أي: قِتالُ الكفرة، وقرئ ببنائه للفاعل -وهو الله عزّ وجلّ- ونَصْب "القِتَالَ"،[7] وقُرئ:

---

١ ط: بيان.

٢ واقعة موقع خبرِ "أنّ".

٣ هو عمرو بن الجَموح بن زيد بن حرام الأنصاري السُّلَمي الخزرجي (ت. ٣هـ/٦٢٥م). صحابيّ مِن سادات الأنصار. وكان في الجاهليّة مِن سادات بني سلمة وأشرافهم، وكان له صنَم في داره مِن خشب يُعظِّمه. شهد العقبة وبدرًا وقُتل يوم أُحد شهيدًا. انظر: **الاستيعاب** لابن عبد البرّ، ٣/١١٦٨-١١٧١؛ **والإصابة** لابن حجر، ٧/٣٥٠-٣٥٤.

٤ الهِمُّ: الشيخ الكبير البالي، ويُجمَع على أهمام. انظر: **لسان العرب** لابن منظور، «همم».

٥ **تفسير مقاتل بن سليمان**، ١/١٨٣؛ **وأسباب النزول** للواحدي، ص ٦٩. وانظر تفصيل الكلام عليه في **العجاب في بيان الأسباب** لابن حجر، ص ٣٤٤.

٦ أخرج ذلك عنه الطبري في **جامع البيان**، ٣/٦٤٣؛ وابن أبي حاتم في **تفسيره**، ١/٣٨١، وأورده عنه الزمخشري في **الكشّاف**، ١/١٩٧. وذكر الطبريُّ أنّ قول السُّدّي ممكن، ولا دلالة في الآية عليه، ويمكن أن تكون الآية للحثّ على الإنفاق على مَن كانت نفقته غيرَ واجبة. وقال ابن عطيّة في **المُحرَّر الوجيز**، ١/٥١٨: «وهِم المَهدويُّ على السُّدّي في هذا، فنسب إليه أنّه قال: إنّ الآية في الزكاة المفروضة ثمّ نُسِخ منها الوالدان».

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني وكرداب وعُبيد بن عُمير. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٨٩؛ **والمغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ٤٨٥.

"كُتِبَ عَلَيكُمُ القَتلُ"،[١] أي: قَتلُ الكفرة. والواو في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ حاليّةٌ، أي: والحال أنّه مكروهٌ لكم طبعًا، على أنّ الكُره مصدر وُصِف به المفعول مبالغةً، أو بمعنى المفعول، كالخُبز بمعنى المخبوز. وقُرِئ بالفتح،[٢] على أنّه بمعنى المضموم، كالضُّعف والضَّعف؛[٣] أو على أنّه بمعنى الإكراه مجازًا، كأنّهم أُكرِهوا عليه لشِدّة كراهتهم له ومشقّتِه عليهم.

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وهو جميع ما كُلِّفوه مِن الأمور الشاقّة التي مِن جملتها القِتال، فإنّ النفوس تَكرَهه وتَنفِر عنه، والجملة اعتراضيّة دالّة على أنّ في القتال خيرًا لهم. ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾، وهو جميع ما نُهوا عنه مِن الأمور المستلَذّة، وهو معطوف على ما قبله لا محلَّ لهما مِن الإعراب.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما هو خير لكم، فلذلك يأمركم به. ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: لا تعلمونه، ولذلك تكرَهونه، أو: والله يعلم ما هو خير لكم[٤] وشرّ لكم، وأنتم لا تعلمونهما، فلا تتّبعوا في ذلك رأيَكم، وامتثلوا بأمره تعالى.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ رُوي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعَث عبدَ الله[٥] بن جَحْشٍ على سَرِيّة في جُمادى الآخِرة قبل قتال بدر بشهرين؛

---

[١] لم أجدها في كتب القراءات التي وقفت عليها. وهي قراءة قومٍ في المُحرَّر الوجيز لابن عطيّة، ٥١٩/١؛ وتفسير القرطبي، ٤١٥/٣.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن السُّلمي والضحّاك وأبان واليماني وابن مِقسَم وعُبيد بن نُعيم وعِصمة عن عاصم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٩٠؛ والمغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ٥٠٨.

[٣] انظر: معاني القرآن للأخفش، ١٨٢/١.

[٤] ط ي - لكم.

[٥] س: عبد الرحمن. | وأثبتُّ ما في المصادر الآتية في تخريجه.

ليترصّدوا عِيرًا لقُريش فيهم عمرُو بن عبد الله الحَضْرمي[1] وثلاثةٌ معه، فقتلوه وأسروا اثنين، واستاقوا / العِير بما فيها مِن تجارة الطائف، وكان ذلك أوّلَ [٦٨و] يوم مِن رجب، وهم يظنّونه مِن جُمادى الآخِرة، فقالت قريشٌ: «قد استحلّ محمّد الشهر الحرام شهرًا يأمنُ فيه الخائفُ ويَبذعِرُّ[2] فيه الناسُ إلى مَعايشهم»، فوقف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم العِيرَ، وعظُم ذلك على أصحاب السريّة، وقالوا: «ما نبرَح حتّى تَنزِلَ توبتُنا»، وردَّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم العِيرَ والأُسارى.[3] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: لمّا نزلت أخَذ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم الغنيمة.[4]

والمعنى: يسألك الكفّار أو المسلمون عن القتال في الشهر الحرام، على أنّ قوله عزّ وجلّ: ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ بدلُ الاشتمال مِن ﴿ٱلشَّهْرِ﴾. وتنكيره لِمَا أنّ سؤالهم كان عن مطلَق القتال الواقع في الشهر الحرام، لا عن القتال المعهود، ولذلك لم يقل: يَسألونك عن القِتال في الشهر الحرام، وقُرِئ: "عَنْ قِتَالٍ فِيه"،[5] بتكرير العامل. كما في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف، ٧٥/٧]، وقُرِئ: "قَتْلٍ فِيه".[6]

﴿قُلْ﴾ في جوابهم: ﴿قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ جملة مِن مبتدأ وخبر، محلُّها النصب بـ﴿قُلْ﴾. وإنّما جاز وقوع ﴿قِتَالٌ﴾ مبتدأً مع كونه نكرةً؛ لتخصّصه إمّا بالوصف

---

[1] لعلّه أخو الصحابيّ الجليل العلاء بن عبد الله الحضرمي. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٤١٨/٧.

[2] ابذعرّ الناس: تفرّقوا وتبدّدوا. انظر: **لسان العرب** لابن منظور، «بذعر».

[3] معناه في حديث طويل أورده الطبريُّ عن عروة بن الزُّبير في **جامع البيان**، ٦٥٠/٣-٦٥٣؛ وهو بلفظ قريب في **أسباب النزول** للواحدي، ص ٦١؛ و**معالم التنزيل** للبغوي، ٢٤٦/١-٢٤٨؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ١٩٧/١. وانظر لتفصيل تخريجه **تخريج أحاديث الكشّاف** للزَّيلَعي، ١/ ١٣٠-١٣١.

[4] ورد بمعناه عن السُّدّي في **جامع البيان** للطبري، ٦٥٤/٣؛ وعن الزُّهري في **أسباب النزول** للواحدي، ص ٧٢؛ وفيما أورده البغويُّ في **معالم التنزيل**، ٢٤٨/١. وهو بلفظه عن ابن عبّاس في **الكشّاف** للزمخشري، ١٩٧/١-١٩٨؛ و**أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٨٦/١.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والأعمش. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٩٠؛ و**المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ٥٠٩.

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة وأبي السَّمّال والحسن بن سفيان. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٢٠؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٩٠؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ٥٠٩.

إن تعلّق الظرفُ بمحذوف وقع صفةً له، أي: قتالٌ كائن فيه؛ وإمّا بالعمل إن تعلّق به. وإنّما أُوثِر التنكير احترازًا عن توهّم التعيين، وإيذانًا بأنّ المراد مطلق القتال الواقع فيه أيِّ قتالٍ كان. «عن عطاء أنّه سُئِل عن القتال في الشهر الحرام؛ فحلف بالله: "ما يحِلّ للناس أن يغزوا في الحَرَم ولا في الشهر الحرام إلّا أن يُقاتَلوا فيه، وما نُسِخت".[١] وأكثرُ الأقاويل أنّها منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة، ٥/٩]».[٢]

﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ قد تخصّص بالعمل فيما بعده، أي: ومَنْعٌ عن الإسلام الموصل للعبد إلى الله تعالى. ﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾ عطفٌ على ﴿صَدٌّ﴾ عاملٌ فيما بعده مِثلَه، أي: وكفرٌ بالله تعالى، وحيث كان الصدّ عن سبيل الله تعالى فردًا مِن أفراد الكفرِ به تعالى لم يقدَح العطفُ المذكورُ في حُسْن عطف قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ على ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛[٣] لأنّه ليس بأجنبيّ مَحضٍ. وقيل: هو أيضًا معطوف على ﴿صَدٌّ﴾ بتقدير المضاف، أي: وصدُّ المسجد الحرام.

﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ﴾، وهو النبيّ صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنون. ﴿مِنْهُ﴾ أي: مِن المسجد الحرام، وهو عطفٌ على ﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾. ﴿أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ خبرٌ للأشياء المعدودة، أي: كبائرُ السائلين أكبرُ عند الله ممّا عُنوا بالسؤال، وهو ما فَعلَته السَّريّةُ خطأً وبناءً على الظنّ. و"أفعلُ" يستوي فيه الواحد والجمع والمذكّر والمؤنّث. ﴿وَٱلْفِتْنَةُ﴾ أي: ما ارتكبوه مِن الإخراج والشِّرك وصدِّ الناسِ عن الإسلام ابتداءً وبقاءً، ﴿أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ أي: أفظع مِن قتل الحَضْرمي.

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ بيان لاستحكام عداوتهم وإصرارِهم على الفتنة في الدِّين، ﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾ الحقِّ إلى دِينهم الباطل. وإضافةُ "الدِّين" إليهم لتذكير تأكُّد ما بينهما مِن العلاقة الموجبة لامتناع الافتراق. ﴿إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ إشارةٌ إلى تصلّبهم في الدِّين وثباتِ قدمهم فيه، كأنّه قيل: وأنّى لهم ذلك؟

---

[١] جامع البيان للطبري، ٦٦٣/٣، وفي مطبوعه «وما يستحب» مكان «وما نسخت»؛ تفسير ابن أبي حاتم، ٣٨٢/٢.

[٢] الكشّاف للزمخشري، ١٩٨/١.

[٣] ط ي - تعالى.

﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ﴾ تحذير مِن الارتداد، أي: ومَن يفعل ذلك بإضلالهم وإغوائهم، ﴿فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ﴾، بأن لم يَرجِع إلى الإسلام. وفيه ترغيب في الرُّجوع إلى الإسلام بعد الارتداد. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتِّصافه بما في حيّز الصلة مِن الارتداد والموتِ عليه، وما فيه مِن معنى البُعد للإشعار ببُعْد منزلتهم في الشرّ والفساد. والجمع للنظر إلى المعنى، أي: أولئك المصرّون على الارتداد إلى حين الموت ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ الحسنة التي كانوا عَمِلوها في حالة الإسلام حُبوطًا لا تلافيَ له قطعًا، ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾، بحيث لـم يبْقَ لها حُكمٌ مِن الأحكام الدنيويّة والأخرويّة. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكِر سابقًا ولاحقًا مِن القبائح ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ أي: ملابِسوها وملازِموها. ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ كدَأْب سائر الكَفَرة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ نزلت في أصحاب السَّريّة؛[١] لمّا ظُنَّ بهم أنّهم إن سلِموا مِن الإثم فلا أجرَ لهم. ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كرَّر الموصول مع أنّ المراد بهما واحد؛ لتفخيم شأنِ الهجرة والجهاد، فكأنّهما مستقلّان في تحقيق الرَّجاء. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المَنعوتون بالنعوت الجليلة المذكورة ﴿يَرۡجُونَ﴾ بما لهم مِن مبادي الفوز ﴿رَحۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي: ثوابه. أُثبِت لهم الرجاء دون الفوز بالمَرجوّ؛ للإيذان بأنّهم عالمون[٢] بأنّ العمل غير موجِب للأجر، وإنّما هو على طريق التفضّل منه سبحانه، لا لأنّ في فَوزهم اشتباهًا. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾ مبالغ في مغفرة ما فرَط مِن عباده خطأً، ﴿رَّحِيمٞ﴾ يُجزِل لهم الأجرَ والثوابَ. والجملة اعتراض محقِّق لمضمون ما قبلها.

---

١ انظر: جامع البيان للطبري، ٣/٦٦٧-٦٦٨؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٢/٣٨٨؛ والكشّاف للزمخشري، ١/١٩٨؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٨٧.

٢ ي: عاملون.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ تواردَتْ في شأن الخَمْر أربعُ آياتٍ: نزلت بمكّة: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل، ٦٧/١٦]، فطفِق المسلمون يشربونها، ثـمّ إنّ عُمرَ رضي الله عنه ومعاذًا ونفرًا مِن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين قالوا: «أَفْتِنا يا رسولَ الله في الخَمْر، فإنّها مُذهِبةٌ للعقل»، فنزلت هذه الآية، فشَرِبها قوم وتركها آخرون.

ثـمّ دعا عبدُ الرحمن بن عَوْف ناسًا منهم، فشرِبوا فسَكِروا، فأمّ أحدُهم فقرأ: "قل يا أيُّها الكافرون أعبدُ ما تعبدون"، فنزلت ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ﴾ الآية [النساء، ٤٣/٤]، فقلَّ مَن يشرَبُها.

ثـمّ دعا عِتبانُ بن مالك[1] سعدَ بن أبي وقّاصٍ في نَفَرٍ، فلمّا سَكِروا تفاخَروا وتناشدوا حتّى أنشد سعدٌ شعرًا فيه هجاءُ الأنصار؛ فضرَبه أنصاريّ بلَحْي بعيرٍ فشَجَّه مُوضَحة، فشكا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال: «اللّٰهمّ بيِّن لنا[2] في الخَمْر بيانًا شافيًا»؛ / [٦٨ظ] فنزلت ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ [المائدة، ٩٠/٥] إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة، ٩١/٥]؛ فقال عمر رضي الله عنه: «انتهيْنا يا ربّ».[3] وعن عليّ رضي الله عنه: «لو وقَعت قطرةٌ منها في بئر فبُنِيَت في مكانها مَنارةٌ لم أُؤذِّن عليها، ولو وقعت في بحر ثـمّ جَفَّ فنبَت فيه الكلأ لم أَرْعَه».[4]

---

[1] هو عِتبان بن مالك بن عمرو بن العجلان الأنصاري الخزرجي السالمي (ت. نحو ٥٠هـ/٦٧٠م). آخى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بينه وبين عمر بن الخطّاب رضي الله عنه. شهد بدرًا وأُحدًا والخندق. ذهب بصره في عهد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. ومات في خلافة معاوية وقد كبر. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٥٥٠/٣؛ والإصابة لابن حجر، ٦٦/٧.

[2] ي - لنا.

[3] قال الزَّيلَعيّ: «غريب بهذا اللفظ، وذكره الثعلبيُّ هكذا مِن غير سند». تخريج أحاديث الكشّاف، ١٣٢/١. وبعض ما ورد فيه جاء بلفظه أو بمعناه في جملة مِن الأحاديث في تفسير مقاتل بن سليمان، ١٨٨/١؛ سنن أبي داود، ٥١٤/٥-٥١٥ (٣٦٧٠-٣٦٧٢)؛ سنن الترمذي، ٢٥٣/٥-٢٥٤ (٣٠٤٩)؛ جامع البيان للطبري، ٦٨٠/٣-٦٨٥؛ تفسير ابن أبي حاتم، ٣٨٨/٢-٣٨٩. وأكثره بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٢٤٩/١-٢٥٠. وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ١٩٨/١-١٩٩.

[4] قال ابن حجر: «لم أجِده عنه». الكافي الشاف، ص ١٨. وهو بلفظه ههنا في الكشّاف للزمخشري، ١٩٩/١.

وعن ابن عمرَ رضي الله عنهما: «لو أَدخلتُ أُصْبُعي فيها لم تَتْبَعْني».[١] وهذا هو الإيمانُ والتقى حقًّا رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

و"الخَمْرُ": مصدرُ خَمَره، أي: ستره، سُمِّي به مِن عصير العِنَب ما غُلِي واشتدّ وقذَف بالزَّبَد؛ لتغطيتها العقل والتمييز، كأنّها نفس السَّتْر. كما سُمِّيت سَكَرًا؛ لأنّها تُسكِرهما، أي: تحجزهما.

و"المَيسِرُ" مصدرٌ ميميٌّ[٢] مِن يَسَر، كالمَوعِد والمَرجِع، يقال: "يَسَرْتُه" إذا قمَرْتَه. واشتقاقه إمّا مِن اليُسر؛ لأنّه أخذ المال بيُسرٍ مِن غير كَدٍّ وتعَبٍ؛ وإمّا مِن اليسار؛ لأنّه سلبٌ له. وصِفَتُه أنّه كانت لهم عشرةُ أقدُح، هي الأزلام والأقلام: الفَذّ[٣] والتوءم والرَّقيب والحَلِس والنافس والمُسبِل والمُعلّى والمَنيح والسَفيح والوَغْد، لكلّ منها[٤] نصيبٌ معلوم مِن جَزور يَنحرونها ويُجزّئونها عشرةَ أجزاء، وقيل: ثمانيةً وعشرين، إلّا لثلاثة هي المَنيح والسَّفيح والوَغد: للفذّ[٥] سَهمٌ، وللتوءم سهمان، وللرقيب ثلاثة، وللحَلِس أربعة، وللنافِس خمسة، وللمُسبِل ستّة، وللمُعلَّى سبعة. يَجعلونها في الرِّبابة[٦] وهي خريطة، ويَضعونها على يَدَيْ عدلٍ، ثمّ يُجلجِلها ويُدخِلُ يده، فيُخرِج باسم رجل رجلٍ قِدْحًا قِدْحًا، فمَن خرج له قِدْح مِن ذوات الأنصباء أخذ النصيب المعيّن لها، ومَن خرج له مِن تلك الثلاثة غَرِم ثمنَ الجزور مع حِرمانه. وكانوا يدفعون تلك الأنصباءَ إلى الفقراء ولا يأكلون منها، ويفتخرون بذلك، ويذمُّون مَن لا يدخُل فيه، ويُسمُّونه البَرَم.[٧]

وفي حُكمه جميعُ أنواعِ القِمار مِن النَرْدِ والشِّطْرنج وغيرهما. وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: «إيّاكم وهاتين الكعبتين[٨] المَشؤمتين فإنّهما

---

١ **المُصنَّف** لابن أبي شيبة، ٩٧/٥ (٢٤٠٦٥)، بلفظ «لو أدخلتُ إصبعي في خمر ما أحببتُ أن تَرجِع إليّ». وهو بلفظه ههنا في **الكشّاف** للزمخشري، ١٩٩/١. وانظر: **تخريج أحاديث الكشّاف** للزَّيلَعي، ١٣٢/١.

٢ س – ميميّ.

٣ ط: والقذّ.

٤ ي: منهما.

٥ ط: للقذّ.

٦ جلدة شبيهة بالكِنانة تجمع فيها سهام الميسر. انظر: **لسان العرب** لابن منظور، «ربب».

٧ ما ذكره في معنى الخمر والميسر وتفاصيله جُلّه في **الكشّاف** للزمخشري، ١٩٩/١–٢٠٠.

٨ الكَعْبة والكَعْب وجمعها كِعابٌ: فصوص النرد. انظر: **لسان العرب** لابن منظور، «كعب».

مَياسِرُ العجَم».[١] وعن عليّ كرَّم الله وجهه أنّ «النَّرْد والشِّطْرنج مِن المَيْسر»،[٢] وعن ابن سِيرين: «كلُّ شيء فيه خطرٌ فهو مِن المَيْسر».[٣]

والمعنى: يَسألونك عن حُكمهما وعمّا في تعاطيهما. ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ أي: في تعاطيهما ذلك، لِما أنّ الأوّل مَسلبة للعقول التي هي قُطب الدِّين والدنيا، مع كون كلّ منهما مَتلَفةً للأموال. ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾: مِن كَسب[٤] الطَّرَب واللّذة، ومُصاحبةِ الفِتيان، وتشجيع الجَبان، وتقوية الطبيعة. وقُرِئ: "إثمٌ كثيرٌ" بالمُثلّثة.[٥]

وفي تقديم بيان[٦] "إثمِه"، ووَصفه بـ"الكِبَر"، وتأخيرِ ذِكْر مَنافعِه مع تخصيصها بـ"الناس"، مِن الدلالة على غَلَبة الأوّل، ما لا يخفى على ما نطقَ به قوله تعالى: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ أي: المَفاسدُ المترتِّبة على تعاطيهما أعظم مِن الفوائد المترتِّبة عليه. وقُرِئ: "أَقْرَبُ مِن نَفْعِهِمَا".[٧]

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ عطفٌ على ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ﴾... إلخ، عطْفَ القِصّة على القِصّة، أي: أيُّ شيءٍ يُنفقونه؟ قيل: هو عَمْرو بن الجموح أيضًا سأل أوّلًا: مِن أيّ جنسٍ يُنفِق مِن أجناس الأموال؟ فلما بُيِّن جواز الإنفاق مِن جميع الأجناس سأل ثانيًا: مِن أيّ أصنافها يُنفِقُ؟[٨] أمِن خِيارها أم مِن غيرها، أو سأل عن مِقدار ما يُنفِقه فقيل: ﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ بالنصب، أي: يُنفِقون العفو، أو أنفِقوا العفو. وقُرِئ بالرفع،[٩] على أنّ "ما" استفهاميّة و"ذا" موصولة، صلتُها ﴿يُنفِقُونَ﴾، أي: الذي يُنفِقونه العفوُ.

---

١ بلفظ قريب في مسند أحمد، ٢٩٨/٧ (٤٢٦٣)؛ والأدب المُفرَد للبخاري، ٤٣٤/١ (١٢٧٠). وانظر لتفصيل تخريجه تخريج أحاديث الكشّاف للزَّيلَعي، ١٣٢/١-١٣٣.

٢ تفسير ابن أبي حاتم، ٣٩١/٢، عن عليّ بلفظ «الشِّطرنج مِن الميسر». وهو عنه بلفظه ههنا في معالم التنزيل للبغوي، ٢٥٣/١. وانظر لتفصيل تخريجه تخريج أحاديث الكشّاف للزَّيلَعي، ١٣٣/١.

٣ لم أجده عنه. وهو عن طاوس وعطاء ومجاهد، بلفظ «كلّ شيء فيه قِمار فهو مِن المَيْسر...». معالم التنزيل للبغوي، ٢٥٢/١-٢٥٣.

٤ ي + المال و.

٥ قرأ بها حمزة والكسائي. السبعة لابن مجاهد، ص ١٨٢؛ النشر لابن الجزري، ٢٢٧/٢.

٦ ط - بيان.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب. الكشّاف للزمخشري، ٢٠١/١؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ٥١٠.

٨ نقل هذا القول البيضاوي في أنوار التنزيل، ١٨٩/١. وسبق تخريجه في البقرة، ٢١٥/٢.

٩ قرأ بها أبو عمرو. السبعة لابن مجاهد، ص ١٨٢؛ النشر لابن الجزري، ٢٢٧/٢.

قال الواحدي: «أصل "العفو" في اللغة: الزيادة».[١] و«قال القفّال: العفو ما سهُل وتيسَّر ممّا فضَل مِن الكفاية. وهو قول قتادةَ وعَطاءٍ والسُّدِّي، وكانت الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين يكسِبون المال، ويُمسكون قَدْر النفقة، ويتصدّقون بالفضل».[٢]

ورُوي أنّ رجلًا أتى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ببَيضة مِن ذهب أصابها في بعض المَغانم، فقال: «خُذْها مني صدقةً»، فأعرَض عنه، فكرَّر ذلك مِرارًا حتّى قال عليه السلام مُغضبًا: «هاتِها، فأخذها فحذَفها عليه حَذْفًا لو أصابته لشجَّته»، ثمّ قال: «يأتي أحدُكم بماله كُلِّه يتصدَّق به ويجلِس يتكفَّف الناسَ، إنّما الصدقة عن ظَهْر غِنًى».[٣]

﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى مصدر الفعلِ الآتي، وما فيه مِن معنى البُعد؛ للإيذان بعُلوّ درجة المشار إليه في الفضل، مع كمال[٤] تميّزه، وانتظامِه بسبب ذلك في سِلك الأمور المشاهَدة. والكاف لتأكيد ما أفاده اسمُ الإشارة مِن الفخامة. وإفراد حرف الخطاب مع تعدّد المخاطبين باعتبار القَبيل أو الفريق، أو لعدم القصد إلى تعيين المخاطَب كما مرّ. ومَحلُّه النصب على أنّه نعت لمصدر محذوف، أي: مثلَ ذلك البيان الواضح الذي هو عبارة عمّا مضى في أجوبة الأسئلة المارّة.

﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ الدالّةَ على الأحكام الشرعيّة المذكورة، لا بيانًا أدنى منه، وقد مرّ تمام تحقيقه في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة، ١٤٣/٢]. وتبيين الآياتِ: تنزيلُها مبيَّنةَ الفحوى، واضحةَ المدلول، لا أنّه تعالى يبيّنها بعد أن كانت مشتبِهةً ملتبِسةً. وصيغة الاستقبال؛ لاستحضار الصورة. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ لكي تتفكّروا فيها، وتقِفوا على مقاصدها، وتعملوا بما في تضاعيفها.

---

١ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٢٤/١. وصرّح بنقل هذا عنه ابن عادل في اللباب، ٤٠/٤؛ والرازي في تفسيره، ٤٠٢/٦.

٢ اللباب لابن عادل، ٤٠/٤. وقول القفّال دون غيره في تفسير الرازي، ٤٠٢/٦.

٣ سنن الدارمي، ١٠٣٢/٢ (١٧٠٠)؛ وسنن أبي داود، ١٠٤/٣-١٠٥ (١٦٧٣)؛ وجامع البيان للطبري، ٦٩١/١. وانظر لتفصيل تخريجه تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ١٣٤/١-١٣٥.

٤ ط س: وكمال.

﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾

وقولُه تعالى: ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ متعلِّق إمّا بـ﴿يُبَيِّنُ﴾ أي: يبيّن لكم فيما يتعلَّق بالدنيا والآخرة الآياتِ؛ وإمّا بمحذوف وقَع حالًا مِن الآيات، أي: يبيّنها لكم كائنةً فيهما، أي: مبيّنةً لأحوالكم المتعلّقة بهما، وإنّما قُدِّم عليه التعليلُ لمزيد الاعتناء بشأن التفكّر؛ وإمّا بقوله تعالى: ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: تتفكّرون في الأمور المتعلِّقة بالدنيا والآخرة في الأحكام الواردة في أجوبة الأسئلة المارّة فتختارون منها ما يصلُح لكم فيهما وتجتنبون عن غيره.[١]

وهذا التخصيص هو المناسب لمقام تعداد الأحكام الجزئيّة، ويجوز التعميم لجميع الأمور المتعلّقة بالدنيا / والآخرة، فذلك حينئذ إشارة إلى ما مرّ [٦٩و] مِن البيانات كلًّا أو بعضًا، لا إلى مصدر ما بعده، فإنّه حينئذٍ فعلٌ مستقلٌّ ليس بعبارة عن تلك البيانات، والمرادُ بالآيات غيرُ ما ذُكِر. والمعنى: مثلَ ذلك البيان الوارد في الأجوبة المذكورة يبيّن الله لكم الآياتِ والدلائلَ، لعلّكم تتفكّرون في أموركم المتعلِّقة بالدنيا والآخرة، وتأخذون بما يَصلُح لكم ويَنفعُكم فيهما وتذرون ما يَضرُّكم حسبما تقتضيه تلك الآيات المبيّنة.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ عطفٌ على ما قبله مِن نظيره. رُوي أنّه «لمّا نزلَت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ الآية [النساء، ١٠/٤]، تحامى الناسُ عن مخالطة اليتامى وتعهُّد أموالهم، فشَقّ عليهم ذلك فذكروه للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فنزَلت».[٢]

﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ أي: التعرّض لأحوالهم وأموالهم على طريق الإصلاح خير مِن مجانبتهم اتّقاءً. ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ﴾ وتعاشروهم على وجه ينفعهم

---

١ الوجهان بإيجاز وبألفاظ مختلفة ومع ثلاثة وجوه أخرى في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٤١٠/٢-٤١١؛ واللباب لابن عادل، ٤٣/٤-٤٤.

٢ مِن حديث ابن عبّاس في الناسخ والمنسوخ لأبي عُبيد، ص ٢٣٨ (٤٣٧)؛ وسنن أبي داود، ٤٩٣/٤ (٢٨٧١). وعن ابن عبّاس وقتادة والربيع وعطاء ومجاهد في جامع البيان للطبري، ٦٩٨/٣-٧٠٣. وهو مِن غير سند في الكشّاف للزمخشري، ٢٠١/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩٠/١.

﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ أي: فَهُم إخوانكم، أي: في الدِّين الذي هو أقوى مِن العلاقة النَّسَبيّة، ومِن حقوق الأخُوّة ومَواجِبها المخالطةُ بالإصلاح[١] والنفع،[٢] وقد حُمِل المخالطة على المصاهَرة.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ العِلم بمعنى: المعرفة المتعدّية إلى واحد، و﴿مِنَ﴾ لتضمينه معنى التمييز، أي: يعلَم مَنْ يُفسِد في أمورهم عند المخالطة، أو مَن يَقصِد بمخالطته الخيانةَ والإفسادَ، مميّزًا له ممّن يُصلِح فيها، أو يَقصِد الإصلاح، فيُجازي كلًّا منهما بعمله. ففيه وعد ووعيد، خلا أنّ في تقديم المُفسِد مزيدَ تهديدٍ وتأكيدًا[٣] للوعيد.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾، «أي: لو شاء أن يُعنِتَكم أو يُكلِّفكم ما يَشُقّ عليكم مِن العنت -وهو المشقّة- لَفعَل، ولم يُجوّز لكم مداخلتَهم».[٤]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب على أمره، لا يعِزّ عليه أمر مِن الأمور التي مِن جملتها إعناتكم، فهو تعليل لمضمون الشرطيّة. وقوله عزّ وجلّ: ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: فاعل لأفعاله حسبما تقتضيه الحكمة الداعية إلى بناء التكليف على أساس الطاقة، دليلٌ[٥] على ما تُفيده كلمة ﴿لَوْ﴾ مِن انتفاء مقدّمها.

﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾

﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾، أي: لا تتزوّجوهنّ.[٦] وقُرِئ بضم التاء،[٧] مِن الإنكاح،

---

١ ي: بالأصلح.

٢ ي: والأنفع.

٣ ط س: وتأكيد.

٤ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٩٠. وانظر: الكشّاف للزمخشري، ١/٢٠١.

٥ خبرٌ لـ"قولُه".

٦ س: تزوّجوهنّ.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمر والأعمش وعُمير بن عُبيد. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٠؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٩٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٥١١.

أي: لا تُزوِّجُوهنّ مِن المسلمين ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾. والمراد بهنّ إمّا ما يَعُمّ الكتابيّات أيضًا حسبما يقتضيه عموم التعليلين الآتيين لقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة، ٣٠/٩] إلى قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة، ٣١/٩]، فالآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة، ٥/٥]؛ وإمّا غير الكتابيّات فهي ثابتة.

ورُوي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعَث مَرْثدَ بن أبي مَرثَد الغَنَويَّ[١] إلى مكّةَ ليُخرِج منها ناسًا مِن المسلمين، وكان يهوى امرأةً في الجاهليّة اسمها عَنَاق، فأتته فقالت: «ألا تخلو؟» فقال: «ويحكِ إنّ الإسلام حال بيننا»، فقالت: «هل لك أن تتزوّج بي؟» قال: «نعم، ولكن أَرجِعُ إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فأستأمِرُه»، فاستأمَره، فنزلت.[٢]

﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ﴾ تعليل للنهي عن مواصلتهنَّ، وترغيب في مواصَلة المؤمنات. صُدِّر بلام الابتداء الشبيهة بلام القسم في إفادة التأكيد؛ مبالغةً في الحمل على الانزجار.

وأصلُ "أَمَة": "أَمَو" حُذِف لامُها على غير قياس، وعُوِّض منه تاء التأنيث. ودليل كون لامها واوًا: رجوعها في الجمع، قال الكِلابي:[٣]

---

[١] هو مرثَد بن أبي مَرثد الغَنَوي، واسمه كنّاز بن حُصين. صحابيّ وأبوه صحابيّ، وهما ممّن شهد بدرًا، وكانا حليفَين لحمزة بن عبد المُطّلب رضي الله عنه. آخى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بينه وبين أوس بن الصامت أخي عُبادة بن الصامت. وذُكر في ترجمته قصّته المذكورة ههنا بزيادة بسط. انظر: **الاستيعاب** لابن عبد البرّ، ١٣٨٣/٣-١٣٨٦؛ **والإصابة** لابن حجر، ١٠٦/١٠.

[٢] **تفسير مقاتل بن سليمان**، ١٩٠/١؛ **وأسباب النزول** للواحدي، ص ٧٥؛ **ومعالم التنزيل** للبغوي، ٢٥٥/١؛ **والعجاب في بيان الأسباب** لابن حجر، ص ٣٦٢-٣٦٣.

[٣] هو عُبيد بن مُجيب المضرحي، أبو المسيّب (ت. نحو ٧٠هـ/٦٩٠م)، مِن بني كلاب بن ربيعة، المعروف بالقتّال الكِلابي. شاعر فتّاك بدويّ مِن الفُرسان. غلب عليه لقب القتّال لتمرُّده وفتكه. أدرك أواخر الجاهليّة وعاش في الإسلام إلى أيّام عبد الملك بن مروان. صنّف ديوانه ابن السِّكّيت ثمّ ضاع. ثمّ جمع ديوانه الدكتور إحسان عبّاس، قدّم بين يديه بكلام مُفصَّل عن اسمه ونسبه وما يتّصل بحياته وشعره. انظر: **الشعر والشعراء** لابن قتيبة، ٦٩٤/٢-٦٩٥؛ **والأعلام** للزركلي، ١٩/٤.

أمّـا الإمــاءُ[1] فـلا يَـدعُـونـنـي ولـدًا   إذا تـداعـى بـنـو الإمــوان بـالـعـارِ[2]

وظهورُها في المصدر، يقال: هي أَمَةٌ بيّنة الأُمُوّة وأقرّتْ له بالأُمُوّة.[3]

وقد وقعَت مبتدأ لِما فيها مِن لام الابتداء والوصف، أي: ولأمَةٌ مؤمنةٌ -مع ما بها مِن خَساسة الرِّقّ وقِلّة الخَطَر- ﴿خَيْرٌ﴾ بحسب الدِّين والدنيا ﴿مِن مُّشْرِكَةٍ﴾ أي: امرأة مشركة، مع ما لها مِن شرف الحرّيّة ورِفعة الشأن.

﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ قد مرّ أنّ كلمة ﴿لَوْ﴾ في أمثال هذه المواقع ليست لبيان انتفاء الشيء في الماضي لانتفاء غيره فيه، فلا يُلاحَظ لها جوابٌ قد حُذِف ثقةً بدلالة ما قبلها عليه، مع انصباب المعنى على تقديره؛ بل هي لبيان تحقّق ما يفيده الكلام السابق مِن الحُكم على كلّ حال مفروض مِن الأحوال المقارِنة له على الإجمال، بإدخالها على أبعدها منه وأشدّها مُنافاةً له، ليَظهرَ بثبوته معه ثبوتُه مع ما عداه مِن الأحوال بطريق الأولويّة، لِما أنّ الشيء متى تحقّق مع المُنافي القويّ فلأَنْ يتحقّق مع غيره أولى، ولذلك لا يُذكَر معه شيء مِن سائر الأحوال، ويُكتفى عنه بذكر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المقابِلة لها المتناوِلةِ لجميع الأحوال المغايِرة لها. وهذا معنى قولهم: إنّها لاستقصاء الأحوال على وجه الإجمال.

كأنّه قيل: لو لم تُعجبكم ولو أعجَبتكم، والجملة في حيّز النصب على الحاليّة مِن ﴿مُشْرِكَةٍ﴾؛ إذ المَآل: ولَأمَةٌ مؤمنةٌ خيرٌ مِن امرأة مشركة حالَ عدم إعجابها، وحالَ إعجابها إيّاكم بجمالها ومالها ونسَبها وبغير ذلك مِن مبادي الإعجاب وموجِبات الرغبة فيها، أي: على كلّ حال. وقد اقتُصِر على ذِكر

---

[1] ي: الإء.

[2] البيت للقتّال الكِلابي في ديوانه، ص ٥٤-٥٥، وهو فيه ملفّق مِن بيتين هما:

أنا ابن أسماء أعمامي لها وأبي   إذا ترامى بنو الإموان بالعار

أمّا الإماء فما يدعونني ولدًا   إذا تُحُدِّث عن نقضي وإمراري

وهو له بالرِّواية ههنا في النوادر لأبي زيد الأنصاري، ص ١٨٩؛ وكتاب سيبويه، ٣/٤٠٢، بلفظ «ترامى» مكان «تداعى».

[3] انظر: الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢/٤١٥-٤١٦؛ واللباب لابن عادل، ٤/٥٨.

ما هو أشدّ منافاةً للخيريّة؛ تنبيهًا على أنّها حيثُ تحققَّت معه فلأَنْ تتحقَّق مع غيره أولى. وقيل: الواو حاليّة،[1] وليس بواضح. وقيل: اعتراضيّة، وليس بسديد. والحقّ أنّها عاطفة[2] مستتبِعةٌ لِما ذُكِر مِن الاعتبار اللطيف. نعم يجوز أن تكون الجملة الأولى مع ما عُطِف عليها مستأنَفةً مقرِّرةً لمضمون ما قبلها. فتَدبَّر.

﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ مِن الإنكاح، والمراد بهم الكُفّار على الإطلاق لِما مرّ، أي: لا تُزوِّجوا منهم المؤمنات، سواءٌ كُنّ حرائرَ أو إماءً، ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ﴾ ويَتركوا ما هم فيه مِن الكفر.

﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ﴾ مع ما به مِن ذُلّ المملوكيّة ﴿خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ﴾ مع ما له مِن عِزّ المالكيّة. ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ بما فيه مِن دواعي الرغبة فيه، الراجعةِ إلى ذاته وصفاته.

[٦٩ظ] ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لمضمون التعليلين المارَّين، / أي: أولئك المذكورون مِن المشركات والمشركين، ﴿يَدْعُونَ﴾ مَن يقارنهم ويعاشرهم ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: إلى ما يؤدّي إليها مِن الكفر والفسوق، فلا بُدّ مِن الاجتناب عن مقارنتهم ومقاربتهم.

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ﴾ بواسطة عباده[3] المؤمنين مَن يقارنهم ﴿إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي إلى الاعتقاد الحقّ والعمل الصالح الموصلَين إليهما. وتقديم الجنّة على المغفرة مع أنّ حقّ التخلية أن تُقدَّم على التحلية؛ لرعاية مقابلة النار ابتداءً. ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ متعلِّق بـ﴿يَدْعُوٓاْ﴾، أي: يدعو ملتبِسًا بتوفيقه الذي مِن جملته: إرشاد المؤمنين لمقارنيهم إلى الخير، ونصيحتهم إيّاهم، فهُم أحِقّاءُ بالمواصَلة.

﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ المشتملةَ على الأحكام الفائقة والحِكَم الرائقة، ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: لكي يتذكّروا ويعمَلوا بما فيها، فيفوزوا بما دُعوا إليه مِن الجنّة والغفران. هذا، وقد قيل: معنى ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ﴾: وأولياءُ الله يدعُون،

---

[1] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٩١.

[2] القول بأنّها عاطفة على حال محذوفة في البحر المحيط لأبي حيّان، ٤/١٦١؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢/٤١٧-٤١٨؛ واللباب لابن عادل، ٤/٦٠-٦١.

[3] ط: عبادة.

وهُم المؤمنون،[١] على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مُقامه تشريفًا لهم. وأنت خبير بأنّ الضمير في المعطوف على الخبر، أعني قولَه تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ﴾ لله تعالى، فيَلزَم التفكيك.[٢]

وقيل: معناه: والله يدعو بأحكامه المذكورة إلى الجنّة والمغفرة، فإنّها موصلة لمَن عمِل بها[٣] إليهما.[٤] وهذا، وإن كان مستدعِيًا لاتّحاد مرجِع الضميرين الكائنين في الجملتين المتعاطِفتين الواقعتين خبرًا للمبتدأ، لكن يُفوِّت حينئذٍ حُسْنَ المقابلة بينه وبين قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾. ولعلّ الطريق الأسلم ما أوضحناه أوّلًا. وإيراد التذكّر ههنا للإشعار بأنّه واضح لا يَحتاج إلى التفكّر، كما في الأحكام السابقة.

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِ﴾ عطفٌ على ما تقدَّم مِن[٥] مِثْله. ولعلّ حكايةَ هذه الأسئلة الثلاثة بالعطف لوقوع الكلّ عند السؤال عن الخَمْر، وحكايةَ ما عداها بغير عطف لوقوع كلٍ مِن ذلك في وقتٍ على حِدَةٍ. و﴿ٱلۡمَحِيضِ﴾ مصدر مِن حاضَت المرأة، كالمَجيء والمَبيت. رُوي أنّ أهل الجاهليّة كانوا لا يُساكِنون الحُيَّض ولا يُؤاكِلونهنّ كدَأْب اليهودِ والمَجوس، واستمرّ الناس على ذلك إلى أن سأل عن ذلك أبو الدَّحداح في نَفَر مِن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، فنزلت.[٦]

---

١ هذا القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٠٢/١؛ وتفسير الرازي، ٦٦/٦؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩١/١.

٢ يقصد أنّ النظم ينفرِط لتعارُض الضمائر.

٣ س: بهما.

٤ هذا القول في تفسير الرازي، ٦٦/٦.

٥ ي - مِن.

٦ نقل الواحدي هذا بلفظ قريب عن المُفسِّرين في أسباب النزول، ص ٧٧. وفي جامع البيان للطبري، ٧٢١/٣: أنّ أهل الجاهليّة كانوا يفعلون ذلك، ولم يذكر أنّها نزلت في أبي الدّحداح؛ وفي تفسير مقاتل بن سليمان، ١٩١/١: أنّها نزلت في عمرو بن الدحداح الأنصاري؛ وفي تفسير ابن أبي حاتم، ٤٠٠/٢: أنّها نزلت في ثابت بن الدحداح وأبي الدحداح. ورُوي أنّ اليهود كانوا يفعلون ذلك. صحيح مسلم، ٢٤٦/١ (٣٠٢)؛ وسنن الترمذي، ٢١٤/٥ (٢٩٧٧).

﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ أي: شيءٌ يُستقذَر منه، ويُؤذي مَن يَقرَبُه نَفرةً منه وكَراهةً له؛ ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ أي: فاجتنبوا مُجامعتَهنّ في حالة المَحيض. قيل: أخذ المسلمون بظاهر الاعتزال، فأخرجوهنّ مِن بيوتهم، فقال ناس مِن الأعراب: «يا رسولَ الله البردُ شديدٌ[1] والثيابُ قليلة، فإن آثرناهنّ هلك سائر أهل البيتِ، وإن استأثرنا بها هلكَت الحُيَّض»، فقال صلّى الله عليه وسلّم: «إنّما أُمِرْتُم أن تَعتزلوا مُجامَعتهنّ إذا حِضْنَ، ولم يأمركم بإخراجهنّ مِن البيوت كفعل الأعاجم».[2] وقيل: إنّ النصارى كانوا يجامعونهنّ ولا يُبالون بالحُيَّض، واليهودَ كانوا يُفرِطون في الاعتزال، فأُمِر المسلمون بالاقتصاد[3] بين الأمرين.[4]

﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ تأكيد لحُكم الاعتزال، وتنبيهٌ على أنّ المراد به عدمُ قربانهنّ لا عدمُ القُربِ منهنّ، وبيانٌ لغايته: وهو انقطاع الدم عند أبي حنيفة رحمه الله، فإن كان ذلك في أكثر المُدّة حلَّ القُربان كما انقطع، وإلا فلا بدَّ مِن الاغتسال، أو مِن مُضيّ وقتِ صلاةٍ؛[5] وعند الشافعي أن يَغتسِلنَ بعد الانقطاع،[6] كما تُفصِح عنه القراءة بالتشديد،[7] ويُنبئ عنه قوله عزّ وجلّ: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾؛ فإنّ التطهّر هو الاغتسال، ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ مِن المَأتى الذي حلَّله لكم وهو القُبُل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ ممّا عسى يَندُر منهم مِن ارتكاب بعضِ ما نُهوا عنه، ومن سائر الذُّنوب. ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ المتنزِّهين عن الفواحش والأقذار. وفي ذِكْر التوبة إشعارٌ بمِساس الحاجة إليها بارتكاب بعض الناس لِما نُهوا عنه. وتكرير الفعل لمَزيد العناية بأمر التطهّر.

---

١ ي: الشديد.

٢ انظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ١/١٩١-١٩٢. وقال ابن حجر: «لم أجده». الكافي الشاف، ص ١٩.

٣ ط: بالاقتصار.

٤ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٩٢؛ والكشّاف للزمخشري، ١/٢٠٣.

٥ ي: الصلاة.

٦ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٩٢؛ والكشّاف للزمخشري، ١/٢٠٣.

٧ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر. السبعة لابن مجاهد، ص ١٨٢؛ والنشر لابن الجزري، ٢/٢٢٧.

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٢٣﴾

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ أي: مَواضعُ حرثٍ لكم شُبِّهنَ بها لِما بين ما يُلقى في أرحامهنّ وبين البُذور مِن المشابهة مِن حيثُ إنّ كلًّا منهما مادّةٌ لِما يحصُل منه، ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ﴾ لمّا عُبّر عنهنّ بالحرث عُبّر عن مُجامعتهنّ بالإتيان، وهو بيان لقوله تعالى: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة، ٢/٢٢٢]. ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ مِن أيّ جهة شِئتُم. رُوي أنّ اليهود كانوا يزعُمون أن مَنْ أتى امرأتَه في قُبُلها مِن دبُرها يأتي ولده أحولَ، فذُكِر ذلك لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فنزلت.[1]

﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي: ما يَدخَر لكم الثوابَ. وقيل: هو طلب الولد.[2] وقيل: «هو التسمية عند المباشرة».[3] ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بالاجتناب عن معاصيه التي مِن جُملتها ما عُدَّ مِن الأمور. ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾ فتعرَّضوا لتحصيل ما تنتفعون به حينئذ، واجتنبوا اقتراف ما تُفتَضَحون به.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين تلقَّوا ما خُوطِبوا به مِن الأوامر والنواهي بحُسْن القَبول والامتثال بما يَقصُر عنه البيان مِن الكرامة والنعيم المقيم، أو بكلّ ما يُبشَّر به مِن الأمور التي تُسَرُّ بها القلوب وتَقَرُّ بها العيون. وفيه -مع ما في تلوين الخطاب وجَعْلِ المبشِّر رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم- مِن المبالغة في تشريف المؤمنين ما لا يخفى.

﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٢٤﴾

---

١ بلفظ قريب في صحيح البخاري، ٦/٢٩ (٤٥٢٨)؛ وصحيح مسلم، ٢/١٠٥٨ (١٤٣٥)؛ وجامع البيان للطبري، ٣/٧٤٩. وانظر لتفصيل تخريجه تخريج أحاديث الكشّاف للزّيلعي، ١/١٣٩.

٢ انظر القول في تفسير مقاتل بن سليمان، ١/١٩٢؛ والكشّاف للزمخشري، ١/٢٠٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٩٣.

٣ عن ابن عبّاس في جامع البيان للطبري، ٣/٧٦٢؛ وعن عطاء في تفسير ابن أبي حاتم، ١/٤٠٦، بلفظ «الجماع» مكان «المباشرة». وبلفظ "قيل" في الكشّاف للزمخشري، ١/٢٠٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٩٣.

﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ قيل: نزلَت في عبد الله بن رَواحةَ حين حلَف ألّا يُكلِّم خَتَنه بِشرَ بنَ النُّعمان ولا يُصلِحَ بينه وبين أخته.[١] وقيل: في الصِّديق رضي الله عنه حين حلَف ألّا يُنفِقَ على مِسْطَح[٢] لخَوْضه في حديث الإفك.[٣]

و"العُرضة" فُعْلة بمعنى مفعول كالقُبْضة والغُرْفة، تُطلَق على ما يَعرِض دون الشيء فيَصيرُ حاجزًا منه، كما يقال: "فلان عُرضة للخير"؛ وعلى المعرَّض للأمر، كما في قوله:

فلا تَجعلُوني عُرضةً لِلَّوائمِ[٤]

فالمعنى على الوجه الأوّل: لا تجعلوا الله مانعًا للأمور[٥] الحسنة التي تَحلِفون على تركها. وعُبِّر عنها بـ"الأيمان" لملابستها بها، كما في قوله عليه السلام لعبد الله بنِ سَمُرَة: «إذا / حَلَفتَ على يمينٍ فرأيتَ غيرَها خيرًا منها، فأتِ الذي هو خيرٌ وكفِّر عن يمينك».[٦] وقولُه تعالى: ﴿أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ عطفُ بيانٍ لـ"أَيمانكم" أو بدل منها، لِما عرفتَ أنّها عِبارة عن الأمور المَحلوف عليها. واللام في ﴿لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ متعلِّقة بالفعل، أو بـ﴿عُرْضَةً﴾ لِما فيها مِن معنى الاعتراض، أي: لا تجعلوا الله لبِرّكم وتقواكم وإصلاحكم بين الناس عُرضةً، أي: بَرْزخًا حاجزًا، بأن تَحلِفوا به تعالى على تَرْكها، أو لا تَجعلوه تعالى ﴿عُرْضَةً﴾، أي: شيئًا يَعترِض الأمورَ المذكورة ويحجُزُها بما ذُكِر

[٧٠و]

---

[١] عن الكلبي في **أسباب النزول** للواحدي، ص ٨٠؛ و**التفسير الوسيط** للواحدي، ١/٣٣٠. وبلا عزو في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/١٩٣.

[٢] هو مِسطَح بن أُثاثة بن عبّاد بن المُطّلب بن عبد مَناف القُرشي المُطّلبي، أبو عبّاد (ت. ٣٤هـ/٦٥٤م). اسمه عوف ولُقِّب بمِسطح فغلب عليه. صحابيّ مِن الشجعان الأشراف، شهد بدرًا وأُحدًا والمشاهد كلّها. أمّه بنت خالة أبي بكر رضي الله عنه، وكان أبو بكر يموّنه لقرابته منه، فلمّا كان حديث الإفك حلف أبو بكر ألّا يُنفق عليه، فنزلت: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ الآية [النور، ٢٤/٢٢]، فعاد أبو بكر إلى الإنفاق عليه. انظر: **الاستيعاب** لابن عبد البرّ، ٤/١٤٧٤-١٤٧٥؛ و**الإصابة** لابن حجر، ١٠/١٣٩.

[٣] عن ابن جُريج في **جامع البيان** للطبري، ٤/١٠؛ وبلا عزو في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/١٩٣.

[٤] ما عرفتُ قائله. وهكذا ورد في **الكشّاف** للزمخشري، ١/٢٠٤، بلا نسبة، وذكر الطِّيبي صدره، وهو:

دعوني أَنُخْ وَجْدًا كنَوْح الحمائمِ

فتوح الغيب، ٣/٣٧٥. وهو في **حاشية الكشّاف** للتفتازاني، ١١٧ظ.

[٥] ط: مِن الأمور.

[٦] **صحيح البخاري**، ٨/١٢٧-١٢٨ (٦٦٢٢)؛ **صحيح مسلم**، ٣/١٢٧٣-١٢٧٤ (١٦٥٢).

مِن الحَلِف به تعالى على تَرْكها. وقد جُوِّز أن تكون اللامُ للتعليل، ويَتعلَّق ﴿أَن تَبَرُّواْ﴾... إلخ، بالفعل، أو بـ﴿عُرْضَةً﴾ فيكون "الأيمان" بمعناها. وأنت خبيرٌ بأنّه يُؤدّي إلى الفصل بين العامل ومعموله بأجنبيّ.

وعلى الوجه **الثاني**: لا تجعلوا الله مَعْرِضًا لأيمانكم تبتذلونه بكثرة الحَلِف به؛ ولذلك ذُمَّ مَن نزلَ فيه ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم، ١٠/٦٨] بأشنعِ المَذامّ، وجُعل الحلّاف مُقدِّمتها. و﴿أَن تَبَرُّواْ﴾ حينئذ عِلّة للنهي، أي: إرادةَ أن تبرُّوا وتتَّقوا وتُصلِحوا؛ لأنّ الحَلّاف مُجترِئ على الله سبحانه غيرُ معظِّم له، فلا يكون بَرًّا متَّقيًا ثقةً بين الناس، فيكون بمَعزِل مِن التوسّط في إصلاح ذاتِ البين.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ يَسمَع أيمانكم، ﴿عَلِيمٌ﴾ يَعلَم نِيّاتِكم، فحافظوا على ما كُلِّفتموه.

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ٢٢٥﴾

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ اللَّغوُ: ما سقَط مِن الكلام عن درجة الاعتبار. والمراد به في الأيمان ما لا عَقْدَ معه ولا قصْدَ، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ [المائدة، ٨٩/٥]، وهو المَعنيّ بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾.

وقد اختُلف فيه: فعندنا هو أن يَحلِف على شيء يظنُّه على ما حَلَف عليه، ثمّ يَظهرُ خلافه، فإنّه لا قصْدَ فيه إلى الكذب؛ وعند الشافعي هو قول العرب: لا والله، وبلى والله، ممّا يُؤكِّدون به كلامهم مِن غير إخطار الحلِف بالبال.[1]

فالمعنى على **الأوّل**: لا يُؤاخِذكم الله، أي: لا يُعاقبكم بلَغْوِ اليمين الذي يَحلِفه أحدُكم ظانًّا أنّه صادقٌ فيه، ولكن يعاقبكم بما اقترفتْه[2] قلوبُكم مِن إثم القَصْد إلى الكذب في اليمين، وذلك في الغَموس؛ وعلى **الثاني**: لا يَلزمُكم الكفّارةُ بما لا قَصْدَ معه إلى اليمين، ولكن يَلزمُكموها بما نوَتْ قلوبُكم وقصَدَتْ به اليمينَ، ولم يكن كَسْبَ اللسان فقط.

---

[1] انظر: **الكشّاف للزمخشري**، ٢٠٥/١.

[2] ي: اقترفت.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ حيثُ لم يُؤاخذْكم باللَّغْو، مع كونه ناشئًا مِن عدم التثبّت وقِلّة المُبالاة. ﴿حَلِيمٌ﴾ حيثُ لم يُعجّل بالمؤاخذة. والجملة اعتراضٌ مقرِّرٌ لمضمون قوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ﴾... إلخ، وفيه إيذان بأنّ المراد بالمؤاخذة: المعاقَبة، لا إيجابُ الكفّارة؛ إذ هي التي يتعلّق بها المَغفرةُ، والحِلْمُ دونه.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ الإيلاء: الحلِفُ، وحقُّه أن يُستعمَل بـ"على"، واستعمالُه بـ﴿مِن﴾ لتضمينه معنى البُعد، أي: للذين يَحلِفون متباعدين مِن نسائهم. ويحتمل أن يُراد: لهم مِن نسائهم ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾، كقولك: لي منكَ كذا. وقُرئ: "آلَوْا مِن نسائهم"،[١] وقُرئ: "يُقسِمُونَ مِن نِسَائِهِم".[٢]

والإيلاء مِن المرأة أن يقول: والله لا أقرَبُك أربعةَ أشهرٍ فصاعدًا، على التقييد بالأشهر، أو لا أقرَبُك على الإطلاق، ولا يكون فيما دون ذلك. وحُكمه: أنّه إن فاء إليها في المُدّة بالوطء إن أمكَن أو بالقول إن عجَز عنه صحّ الفيءُ وحَنِث القادر ولزِمَتْه كفارةُ اليمين، ولا كفارةَ على العاجز؛ وإن مضت الأربعةُ بانَت بتطليقة.[٣]

والتربّص: الانتظار والتوقّف، أُضِيف إلى الظرف اتّساعًا، أي: لهم أن ينتظروا في هذه المُدّة مِن غير مطالَبة بفيء أو طلاق.[٤]

﴿فَإِن فَآءُو﴾ أي: رَجَعوا مِن اليمين بالحِنْث، والفاء للتفصيل، كما إذا قلت: أنا نزيلُكم هذا الشهرَ فإن أَحمَدتُكم أقمتُ عندكم إلى آخره، وإلّا لم ألبَثْ إلا ريثما أتحوَّل. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يَغفرُ للمُولي بفيئته التي هي كتَوْبته إثمَ حِنْثه عند تكفيره، أو ما قصَد بالإيلاء مِن ضِرار المرأة.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢١.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وأُبيّ وزيد بن عليّ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٩١.

[٣] ط: بتطليقه. | والتعريف مع الحكم بلفظ قريب جدًا في الكشّاف للزمخشري، ١/٢٠٥-٢٠٦.

[٤] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٩٤.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٢٧﴾

﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ﴾ وأجمَعوا عليه، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ بما جرى منهم مِن الطلاق وما يتعلّق به مِن الدَّمدَمة[1] والمُقاولةِ التي لا تخلو عنها الحالُ عادةً. ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيّاتهم. وفيه مِن الوعيد على الإصرار وتَرْك الفَيئة ما لا يخفى.

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٢٨﴾

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ﴾ أي: ذوات الأقراءِ مِن الحرائر المدخول بهنّ، لِما قد بُيّن أنْ لا عِدّةَ على غير المدخول بها، وأنّ عِدّة مَن لا تحيضُ -لصِغَرٍ أو كِبَرٍ أو حَمْلٍ- بالأشهُر ووَضْعِ الحَمْل، وأنّ عِدّة الأَمَةِ قُرْآنِ أو شهران. ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ خبرٌ في معنى الأمر، مفيدٌ للتأكيد بإشعاره بأنّ المأمور به ممّا يجب أن يُتلقّى بالمسارعة إلى الإتيان به، فكأنهنّ امتثلنَ بالأمر بالتربّص فتُخبِر به موجودًا متحقّقًا، وبناؤه على المبتدأ مفيدٌ لزيادة تأكيد. ﴿بِأَنفُسِهِنَّ﴾ الباء للتعدية، أي: يَقمَعْنها ويَحمِلْنها على ما لا تَشتهيه؛ بل يَشُقُّ عليها مِن التربّص. وفيه مَزيد حثّ لهنّ على ذلك لِما فيه مِن الإنباء عن الاتّصاف بما يَستنكفْنَ منه، مِن كون نفوسهنّ طوامِحَ إلى الرجال، فيَحملُهنّ ذلك على الإقدام على الإتيان بما أُمِرنْ به.

﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ نُصِب على الظرفيّة أو المفعوليّة بتقدير مضافٍ، أي: يتربّصن مُدّةَ ثلاثةِ قروء، أو يتربّصن مُضِيَّ ثلاثةِ قروءٍ، وهو جَمْع قُرْءٍ، والمراد به الحيض؛ بدليل قوله عليه السلام: «دَعِي الصلاةَ أيّامَ أقرائك»،[2] وقولِه عليه السلام: «طلاق الأَمَةِ تطليقتان، وعِدَّتُها حَيْضتان»،[3] وقولِه تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ

---

١ الدمدمة: الغضب، والكلام الذي يزعج الرجُل. انظر: لسان العرب لابن منظور، «دمم».

٢ جامع البيان للطبري، ١٠١/٤؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٦٦/١. وانظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزّيلَعي، ١٤٠/١.

٣ سنن ابن ماجه، ٢٢٥/٣ (٢٠٧٥)؛ سنن أبي داود، ٥١٢/٣ (٢١٨٩)؛ سنن الترمذي، ٤٧٩/٣ (١١٨٢). وانظر لتفصيل تخريجه تخريج أحاديث الكشّاف للزّيلَعي، ١٤٠/١-١٤١.

مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ [الطلاق، ٦٥/٤]؛ ولأنّ المقصود الأصليّ مِن العِدّة استبراءُ الرَّحِم، ومَدارُه الحَيْضُ دون الطُّهْر. ويقال: أَقْرأت المرأة إذا حاضَت. وقوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق، ٦٥/١]، معناه: مُستقبِلاتٍ لعِدّتهنّ، وهي الحِيَض الثلاثُ. وإيراد جمع الكثرة في مَقام جَمْع القِلّة بطريق الاتّساع، فإنّ إيراد كلّ مِن الجَمْعين مكان الآخر / شائعٌ وذائعٌ،[1] وقُرئ: "ثَلَاثَةَ قُرُوّ"،[2] بغير همز.[3] [٧٠ظ]

﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ مِن الحَيْض والوَلَدِ استعجالًا في العِدّة وإبطالًا لحقِّ الرَّجْعة، وفيه دليل على قَبول قولهِنّ في ذلك نفيًا وإثباتًا. ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ جوابُ الشرط محذوفٌ يدلّ عليه ما قبله دلالةً واضحةً، أي: فلا يَجترئنَ على ذلك، فإنّ قضيةَ الإيمان بالله تعالى واليومِ الآخِر الذي يقع فيه الجزاءُ والعقوبةُ مُنافيةٌ له قطعًا.

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ البُعولة جمعُ "بَعْلٍ"، وهو في الأصل: السيّد المالك، والتاء لتأنيث الجَمْع، كما في الحُزُونة والسُّهُولة، أو مصدر بتقدير مضافٍ، أي: أهلُ بُعولتهنّ، أي: أزواجُهنّ الذين[4] طلّقوهُنّ[5] طَلاقًا رَجْعيًّا، كما يُنبِئ عنه التعبير عنهم بالبُعولة، فالضمير لبعض أفراد المطلَّقات. ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ إلى مِلْكهم بالرَّجْعة إليهنّ، ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في زمان التربّص، وصيغة التفضيل لإفادة أنّ الرجُل إذا أراد الرَّجعةَ والمرأةُ تأباها وجبَ إيثارُ قوله على قولها، لا أنّ لها أيضًا حقًّا في الرَّجْعة، ﴿إِنْ أَرَادُوٓاْ﴾ أي: الأزواجُ بالرَّجْعة ﴿إِصْلَٰحًا﴾ لِما بينهم وبينهنّ، وإحسانًا إليهنّ ولم يريدوا مضارَّتَهنّ، وليس المراد به شرطيّةَ قصْدِ الإصلاح بصحّة الرَّجْعة؛ بل هو الحثّ عليه، والزَّجر عن قصد الضِّرار.

﴿وَلَهُنَّ﴾ عليهم مِن الحقوق ﴿مِثْلُ ٱلَّذِي﴾ لهم ﴿عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، مِن الحقوق التي يجِب مراعاتها، ويتحتّم المحافظةُ عليها.

---

[1] ط س: ذائع.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الزُّهري والحسن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٢١؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٩١.

[3] ي: همزة.

[4] س: الذي.

[5] ط س ي: طلّقهُنّ.

﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ أي: زيادةٌ في الحقّ؛ لأنّ حقوقهم في أنفسهنّ وحقوقَهنّ في المَهْر والكَفاف وتَرْكِ الضِّرار ونحوها، أو مَزيّةٌ في الفضل لِما أنّهم قوامّون عليهنّ، حُرّاسٌ لهنّ ولِما في أيديهنّ، يُشاركونهنّ فيما هو الغرَض مِن الزواج، ويَستبدّون بفضيلة الرِّعاية والإنفاق.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يَقدِرُ على الانتقام ممّن يخالِف أحكامه، ﴿حَكِيمٌ﴾ تنطوي شرائعُه على الحِكَم والمصالح.

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩﴾

﴿ٱلطَّلَٰقُ﴾ هو بمعنى التطليق، كالسلام بمعنى التسليم. والمراد به: الرجعيُّ، لِما أنّ السابق الأقربُ حُكمُه، ولِما رُوي أنّه عليه السلام سُئِل عن الثالثة، فقال عليه السلام: «أو تسريحٌ بإحسان».[1] وهو مبتدأ بتقدير مضافٍ، خبره ما بعده، أي: عدد الطلاق الذي يستحقّ الزوج فيه الرَّدَّ والرَّجْعة -حسبما بُيِّن آنفًا- ﴿مَرَّتَانِ﴾ أي: اثنان. وإيثارُ ما ورَد به النظمُ الكريم عليه للإيذان بأنّ حقّهما أن يقعا مرةً بعد مرة، لا دفعةً واحدة، وإن كان حُكم الرَّدّ ثابتًا حينئذٍ أيضًا.

﴿فَإِمۡسَاكُۢ﴾ أي: فالحكم بعدهما إمساكٌ لهنّ بالرَّجعة ﴿بِمَعۡرُوفٍ﴾ أي: بحسن عِشرةٍ ولطف معاملة، ﴿أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾ بالطلْقة الثالثة، كما رُوي عنه صلّى الله عليه وسلّم،[2] أو بعدم الرَّجعة إلى أن تنقضيَ العِدَّة فتَبينُ. وقيل: المراد به الطلاق الشرعيُّ، وبـ"المرتين" مطلَق التكرير لا التثنيةُ بعينها، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ [الملك، ٦٧/٤]، أي: كرّةً بعد كرّةٍ. والمعنى أنّ التطليق الشرعيَّ تطليقةٌ بعد تطليقةٍ على التفريق دون الجمع بين الطلقتين أو الثلاثِ،

---

[1] ي: بالإحسان. | جامع البيان للطبري، ١٣٠/٤؛ سنن البيهقي، ٢٦١/١٥ (١٥٠٩٦١). وانظر لتفصيل تخريجه تخريج أحاديث الكشّاف للزَّيلَعي، ١/١٤١-١٤٣.

[2] مضى بتخريجه آنفًا.

فإنّ ذلك بدعة عندنا.[١] فقوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌ﴾...إلخ، حُكمٌ مبتدأٌ وتخييرٌ مستأنَف، والفاء فيه للترتيب على التعليم، كأنّه قيل: إذا عَلِمتُم كيفيّة التطليق فأمرُكم أحدُ الأمرين.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ﴾ منهنّ بمقابلة الطلاق، ﴿مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ أي: مِن الصدقات. وتخصيصها بالذكر وإن شاركها في الحُكم سائر أموالهنّ: إمّا لرعاية العادة، أو للتنبيه على أنّه إذا لم يَحِلّ لهم أن يأخذوا ممّا آتَوْهنّ بمقابلة البُضْع عند خروجه عن مِلْكهم فلأَنْ لا يحِلّ أن يأخذوا ممّا لا تعلّقَ له بالبُضع أَوْلى وأحرى. ﴿شَيْـًٔا﴾ أي: نزرًا يسيرًا فضلًا عن الكثير. وتقديم الظرف عليه، لِما مرّ مِرارًا. والخِطاب مع الحُكّام، وإسنادُ الأَخْذِ والإيتاء إليهم؛ لأنّهم الآمرون بهما عند المرافعة. وقيل: مع الأزواج، وما بعده مع الحُكّام،[٢] وذلك ممّا يُشوِّش النظمَ الكريمَ، على القراءة المشهورة.

﴿إِلَّآ أَن يَخَافَا﴾ أي: الزوجان. وقُرِئ: "يَظُنَّا"،[٣] وهو مؤيِّد لتفسير الخوف بالظنّ.[٤] ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي: ألّا يُراعِيا مَواجبَ أحكام الزوجيّة. وقُرئ: "يُخَافَا"،[٥] على البناء للمفعول، وإبدال ﴿أَنْ﴾ بصلته مِن الضمير بدلَ الاشتمال. وقُرِئ: "تَخَافَا" و"تُقِيمَا"[٦] بتاء الخطاب.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيُها الحكّامُ ﴿أَلَّا يُقِيمَا﴾ أي: الزوجان ﴿حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ بمشاهدة بعض الأمارات والمَخايل، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: على الزوجين ﴿فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾، لا على الزوج في أَخْذ ما افتدَت به، ولا عليها في إعطائه إيّاه. رُوي أنّ جميلة بنتَ عبدِ الله بن أُبيّ بنِ سَلولٍ كانت تُبغِض زوجَها ثابتَ بنَ قيس،

---

١ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٠٩/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩٦/١.

٢ ذهب إليه الواحدي في الوسيط، ٣٣٦/١؛ وجوّزه الزمخشريُّ في الكشّاف، ٢١٠/١.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ. معاني القرآن للفرّاء، ١٤٥/١-١٤٦؛ الكشّاف للزمخشري، ٢١١/١. وقُرئ شاذًّا "يظنّا"، وهي قراءة ابن عبّاس في المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٥١٥.

٤ انظر هذا المعنى في معاني القرآن للفرّاء، ١٤٦/١؛ وجامع البيان للطبري، ١٣٥/٤-١٣٦؛ والكشّاف للزمخشري، ٢١١/١.

٥ قرأ بها حمزة ووأبو جعفر ويعقوب. السبعة لابن مجاهد، ص ١٨٣؛ والنشر لابن الجزري، ٢٢٧/٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٩١.

فأتت رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم، فقالت: «لا أنا ولا ثابتٌ، لا يَجمَع رأسي ورأسَه شيء، واللهِ ما أعيبُ عليه في دِين ولا خُلُق، ولكن أكره الكفرَ في الإسلام، ما أُطيقه بغضًا، إنّي رفعتُ جانبَ الخِباء فرأيتُه أقبلَ في عِدّةٍ، فإذا هو أشدّهم سوادًا، وأقصرهم قامةً، وأقبحهم وجهًا»، فنزلَت.[١] فاختلعَتْ منه بحديقة كان أصْدقَها إيّاها.

﴿تِلْكَ﴾ أي: الأحكام المذكورة ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ بالمخالفة والرَّفض. ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ المتعدُّون، والجمعُ باعتبار معنى الموصول. ﴿هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ أي: لأنفسهم بتعريضها لسَخَط الله تعالى[٢] وعِقابه. ووضعُ الاسم الجليل في المواقع الثلاثة الأخيرة موقعَ الضمير لتربية المهابة وإدخال الرَّوْعة، وتعقيبُ النهي بالوعيد للمبالغة في التهديد.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾

﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ أي: بعد الطلْقتين السابقتين ﴿فَلَا تَحِلُّ﴾ هي ﴿لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي: مِن بعد هذا الطلاق. ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ أي: حتّى تتزوّج غيره، فإنّ النِّكاح أيضًا يُسنَد إلى كُلّ منهما. وتعلَّقَ بظاهره مَن اقتصر على العَقد، والجمهورُ على اشتراط الإصابة، لِما رُوي أنّ امرأة رِفاعةَ قالتْ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ رِفاعةَ طلّقني فبتَّ طلاقي، وإنّ عبد الرحمن بن الزبير تزوّجني، وإنّ ما معه مِثلُ هُدْبة الثوب»، فقال / صلّى الله عليه وسلّم: «أتُريدين أن ترجعي إلى رِفاعة؟» قالت: «نعم»، قال عليه السلام: «لا، إلّا أن تذوقي عُسَيلته ويذوقَ مِن عُسَيلتكِ».[٣] وبمِثله تجوز الزيادةُ على الكتاب. وقيل: النكاح بمعنى الوطء، [٧١و]

---

[١] بلفظ قريب في جامع البيان، ٤/١٣٧-١٤٠؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١/٢٧٠-٢٧١؛ والكشّاف للزمخشري، ١/٢٠٩-٢١٠. وانظر لتفصيل تخريجه تخريج أحاديث الكشّاف للزيلَعي، ١/١٤٤-١٤٦.

[٢] ط - تعالى.

[٣] صحيح البخاري، ٣/١٦٨ (٢٦٣٩)؛ صحيح مسلم، ٢/١٠٥٥-١٠٥٦ (١٤٣٣)؛ جامع البيان للطبري، ٤/١٦٩-١٧١.

والعقدُ مستفاد مِن لفظ الزوج، والحكمةُ مِن هذا التشريع الرَّدعُ عن المسارَعة إلى الطلاق، والعودُ إلى المطلَّقة ثلاثًا والرغبة فيها. والنكاحُ بشرط التحليل مكروهٌ عندنا، ويُروى[١] عدم الكراهة فيما لم يكن الشرط مصرَّحًا به، وفاسدٌ عند الأكثرين؛[٢] لقوله صلّى الله عليه وسلّم: «لعَن الله المُحلِّل والمُحلَّل له».[٣]

﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ أي: الزوجُ الثاني ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: على الزوج الأوّل والمرأة، ﴿أَن يَتَرَاجَعَا﴾ أن يَرجِع كلّ منهما إلى الآخَر بالعَقد، ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ التي أوجَب مراعاتِها على الزوجين مِن الحقوق. ولا وجهَ لتفسير الظنّ بالعِلم لِما أنّ العواقب غير معلومة، ولأنّ "أن" الناصبة للتوقّع المُنافي للعِلم، ولذلك لا يكاد يقال: علمتُ أن يقومَ زيدٌ.

﴿وَتِلْكَ﴾ إشارة إلى الأحكام المذكورة إلى هنا. ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي: أحكامُه المعيَّنة المَحميّة مِن التعرّض لها بالتغيير والمخالفة، ﴿يُبَيِّنُهَا﴾ بهذا البيان اللائق، أو سيُبيّنها فيما سيأتي بناءً على أنّ بعضها يَلحقُه زيادةُ كشفٍ وبيان بالكتاب والسنّةِ. والجملة خبرٌ ثانٍ عند مَن يجوّز كونَه جملةً كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه، ٢٠/٢٠]، أو حال مِن ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾، والعامل معنى الإشارة.[٤] ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: يفهمون. وتخصيصهم بالذكر مع عموم الدعوة والتبليغ لِما أنّهم المنتفعون بالبيان، أو لأنّ ما سيلحق بعضَ النصوص مِن البيان لا يقف عليه إلّا الراسخون في العلم.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾

---

[١] ي: يرو.

[٢] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٩٨؛ والكشّاف للزمخشري، ١/٢١١.

[٣] سنن أبي داود، ٣/٤٢٠ (٢٠٧٦)؛ سنن الترمذي، ٣/٤١٩ (١١١٩)؛ معالم التنزيل للبغوي، ١/٢٧٤.

[٤] وجها إعراب الجملة جاءا بلفظ قريب في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢/٤٥٦؛ واللباب لابن عادل، ٤/١٥١.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: آخِرَ عِدّتهن، فإنّ الأجل كما يَنطلِق على المُدّة يَنطلِق على مُنتهاها. والبلوغ: هو الوصول إلى الشيء، وقد يقال: للدُّنوّ منه اتّساعًا، وهو المراد ههنا؛ لقوله عزّ وجلّ: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾، إذ لا إمكان للإمساك بعد تحقّق بلوغ الأجل، أي: فراجعوهنّ بغير ضِرار، أو خلُّوهنّ حتّى ينقضيَ أجلُهنّ بإحسان مِن غير تطويل. وهذا -كما ترى- إعادةٌ للحكم في بعض صورِه؛[1] اعتناءً بشأنه ومبالغةً في إيجاب المحافظة عليه.

﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾ تأكيد للأمر بالإمساك بمعروف، وتوضيحٌ لمعناه، وزجرٌ صريحٌ عما كانوا يَتعاطَونه، أي: لا تُراجِعوهنّ إرادةَ الإضرار بهنّ. كان المطلِّق يَترُك المعتدّة حتّى إذا شارفت انقضاءَ الأجلِ يُراجِعها لا لرغبة فيها؛ بل ليُطوِّل عليها العِدّةَ، فنُهيَ عنه بعدما أُمِر بضدّه لِما ذُكر. و﴿ضِرَارًا﴾ نُصِب على العِلّيّة، أو الحاليّة، أي: لا تُمسِكوهنّ للمُضارّة أو مُضارِّين. واللام في قوله تعالى:[2] ﴿لِتَعْتَدُوا۟﴾ متعلّقة بـ﴿ضِرَارًا﴾، أي: لتَظلموهنّ بالإلجاء إلى الافتداء.[3]

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن الإمساك المؤدّي إلى الظلم، وما فيه مِن معنى البعد للدلالة على بُعْد منزلته في الشرّ والفساد، ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ في ضمن ظُلمه لهنّ بتعريضها للعقاب.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ المُنطويةَ على الأحكام المذكورة، أو جميعَ آياته، وهي داخلة فيها دخولًا أوّليًا. ﴿هُزُوًا﴾ أي: مَهْزوءًا بها، بأن تُعرِضوا عنها وتتهاونوا في المحافظة على ما في تضاعيفها مِن الأحكام والحدود، مِن قولهم لمَن لم يَجِدَّ في الأمر: أنت هازئ، كأنّه نُهِي عن الهُزْء بها، وأريد ما يستلزمه مِن الأمر بضدّه، أي: جِدُّوا في الأخذ بها والعمل بما فيها وارعَوها حقَّ رِعايتها، وإلّا فقد أخذتموها هُزءًا ولعبًا. ويجوز أن يراد به النهي عن الإمساك ضرارًا، فإنّ الرَجعة بلا رغبة فيها عملٌ بموجَب آياتِ الله بحسب الظاهر دون الحقيقة،

---

[1] ط ي: صورة.

[2] ط ي - تعالى.

[3] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٩٩؛ وبعضه في الكشّاف للزمخشري، ١/٢١٢.

وهو معنى الهُزْء. وقيل: كان الرجل يَنكِحُ ويُطلِّقُ ويُعتِقُ ثُمّ يقول: «إنّما كنْتُ ألعَبُ»، فنزلت.[١] ولذلك قال صلّى الله عليه وسلّم: «ثلاثٌ جِدّهنّ جِدّ وهزلُهنّ جِدّ: النكاح والطلاق والعِتاق».[٢]

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ حيثُ هداكم إلى ما فيه سعادتكم الدينيّة والدنيويّة، أي: قابِلوها بالشكر والقيام بحقوقها. والظرف متعلِّق بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾، أي: كائنةً عليكم، أو صفةً لها، على رأي مَن يجوّز حذف الموصول مع بعض صلته، أي: الكائنة عليكم. ويجوز أن يتعلّق بنفسها إن أريد بها الإنعام؛ لأنّها اسم مصدر، كـ"نبات" مِن "أنبت"، ولا يقدح في عمله تاء التأنيث؛ لأنّه مبنيّ عليها،[٣] كما في قوله:

فلولا رجاءُ النصر منكَ ورهبة عِقابَك قد كانوا لنا كالمَواردِ[٤]

﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم﴾ عطفٌ على ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾، و﴿مَا﴾ موصولة حُذف عائدها مِن الصلة. و﴿مِنْ﴾ في قوله عزّ وجلّ: ﴿مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ بيانيّة، أي: مِن القرآن والسنّة، أو القرآن الجامع للعنوانين. على أنّ العطف لتغايُر الوصفين، كما في قوله:

إلى المَلِك القَرْم[٥] وابن الهُمامِ[٦]

---

[١] عن الحسن والربيع في جامع البيان للطبري، ١٨٤/٤؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٤٢٥/٢-٤٢٦.

[٢] سنن ابن ماجه، ١٩٧/٣ (٢٠٣٩)؛ سنن أبي داود، ٥١٦/٣ (٢١٩٤)؛ سنن الترمذي، ٤٨٢/٣ (١١٨٤)؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٧٥/١. وانظر لتفصيل تخريجه تخريج أحاديث الكشّاف للزيلَعي، ١٤٩/١.

[٣] ط س - عليها.

[٤] انظر لِما قيل في الظرف إلى هنا: اللباب لابن عادل، ١٥٩/٤. والبيت ما عرفت قائله. وهو بلا نسبة في كتاب سيبويه، ١٨٩/١؛ وشرح المُفصَّل لابن يعيش، ٦١/٦؛ والتذييل والتكميل لأبي حيّان، ٧١/١١؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢٥٨/٢.

[٥] ي: القروم.

[٦] ما عرفت قائله. وهو صدر بيت عجزه:

وليثِ الكتيبة في المُزدحَمْ

وهو بلا نسبة في معاني القرآن للفرّاء، ١٠٥/١ (البقرة، ١٧٧/٢)؛ وجامع البيان للطبري، ٨٩/٣ (البقرة، ١٧٧/٢)؛ وشرح الرضي على الكافية، ٢٦٥/١؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٩٧/١ (البقرة، ٤/٢). وانظر تفصيل الكلام عليه في خزانة الأدب للبغدادي، ٤٥١/١. وفيه: القَرْم: السّيِّد. الهمام: المَلِك العظيم الهِمّة، والسَّيِّد الشجاع السَّخي. والكتيبة: الجيش. والمُزدحَم: محلّ الازدحام، وأراد به المعركة.

وفي إبهامه أوّلًا ثُمّ بيانه مِن التفخيم ما لا يخفى، وفي إفراده بالذكر -مع كونه أوّل ما دخل في النعمة المأمورِ بذكرها- إبانةٌ لخطَره، ومبالغةٌ في البعث على مراعاة ما ذُكِر قبله مِن الأحكام.

﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ أي: بما أَنزَل،[1] حال مِن فاعل ﴿أَنزَلَ﴾، أو مِن مفعوله، أو منهما معًا. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في شأن المحافظة عليه والقيام بحقوقه الواجبة. ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ فلا يخفى عليه شيءٌ ممّا تأتُون وما تذرُون، فيُؤاخذُكم بأفانين العقاب.

﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾

﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾ بيان لحُكم ما كانوا يَفعلونه عند بلوغ الأجلِ حقيقةً، بعد بيان حُكم ما كانوا يفعلونه عند المشارفة إليه. «والعَضْل: الحَبس والتضييق، ومنه عَضَلت الدَّجاجةُ إذا نَشِب بيضُها ولم يَخرُج»؛[2] والمراد: المنع. والخِطاب:

إمّا للأولياء، لِما رُوي: أنّها نزلت في مَعقِل بن يسارَ حين عَضَل أُختَه جميلة[3] أن تَرجِع إلى زوجها الأوّل بالنكاح.[4] وقيل: نزلت في جابرِ بن عبدِ الله حين عَضَل / ابنةَ عمٍّ له.[5] وإسناد التطليق إليهم لتسبّبهم فيه، كما يُنبئ عنه تَصدِّيهم للعَضْل. ولعلّ التعرّضَ لبلوغ الأجل مع جواز التزوّج بالزوج الأوّل قبله أيضًا؛ [٧١ظ]

---

[1] س - أي: بما أنزل.

[2] الكشّاف للزمخشري، ٢١٣/١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٠٠/١.

[3] وفي هامش أ: وفي بعض الكتب "جميلًا". وفي اللباب أنّ معقل بن يسار زوّج أخته جُمْلَ بنت يسار جميلَ بن عبد الله بن عاصم. «منه». | انظر: اللباب لابن عادل، ١٦٠/٤، وليس في مطبوعه عبارة «جُمْل بنت يسار».

[4] انظر: صحيح البخاري، ٢٩/٦ (٤٥٢٩)؛ وسنن الترمذي، ٢١٦/٥-٢١٧ (٢٩٨١)؛ وجامع البيان للطبري، ١٨٧/٤-١٩١؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٤٢٦/٢-٤٢٧؛ والكشّاف للزمخشري، ٢١٣/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٠٠/١.

[5] انظر: جامع البيان للطبري، ١٩١/٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٢١٣/١.

لوقوع العضل المذكور حينئذ.[١] وليس فيه دلالةٌ على أنْ ليس للمرأة أن تُزوِّج نفسَها،[٢] وإلّا لَما احتيج إلى نَهْي الأولياء عن العَضْل لِما أنّ النهي لدَفْع الضرر عنهنّ، فإنّهنّ وإن قدَرْن على تزويج أنفسهنّ لكنهنّ يَحترزْنَ عن ذلك مَخافةَ اللوم والقطيعة.

وإمّا للأزواج؛ حيثُ كانوا يعضُلون مطلّقاتِهم، ولا يدَعونهنّ يَتزوَّجْنَ ظلمًا وقَسْرًا؛ لحميّة[٣] الجاهليّة.[٤]

وإمّا للناس كافّة،[٥] فإنّ إسناد ما فَعَله واحد منهم إلى الجميع شائعٌ مستفيضٌ، والمعنى: إذا وُجِد فيكم طلاقٌ فلا يَقعْ فيما بينكم عَضْلٌ، سواءٌ كان ذلك مِن قِبَل الأولياء، أو مِن جِهة الأزواج، أو مِن غيرهم. وفيه تهويل لأمر العَضْل، وتحذيرٌ منه، وإيذانٌ بأنّ وقوع ذلك بين ظَهرانَيهم وهم ساكتون عنه بمنزلة صدوره عن الكُلّ في استتباع اللائمة وسِراية الغائلة.[٦]

﴿أَن يَنكِحْنَ﴾ أي: مِنْ أن يَنكِحن، فمَحلّه النصب عند سيبويه[٧] والفرّاء،[٨] والجرُّ عند الخليل،[٩] على الخلاف المشهور. وقيل: هو بدل اشتمال مِن الضمير المنصوب في ﴿تَعْضُلُوهُنَّ﴾،[١٠] وفيه دلالة على صحّة النكاح بعبارتهنّ. ﴿أَزْوَاجَهُنَّ﴾ إن أريد بهم المطلِّقون فالزوجيّة إمّا باعتبار ما كان، وإما باعتبار ما يكون،

---

١ س - حينئذ.

٢ يظهر أنّه ردٌّ على ما أورده البيضاوي في هذا الموضع مِن **أنوار التنزيل**، ٢٠٠/١. وقال الترمذيُّ بعد سوق حديث معقِل بن يسار: «وفي هذا الحديث دلالة على أنّه يجوز النكاح بغير وليّ». **سنن الترمذي**، ٢١٦/٥-٢١٧ (٢٩٨١). والخلاف في المسألة مشهور. انظر لتفصيله **أحكام القرآن** للجصّاص، ٤٨٣/١؛ و**تفسير القرطبي**، ٧٢/٣.

٣ ي: للحمية.

٤ هذا الوجه مع تعليله في **الكشّاف** للزمخشري، ٢١٣/١؛ و**أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢٠٠/١.

٥ اختاره الزمخشريُّ في **الكشّاف**، ٢١٣/١، بعد سوقه الوجوه السابقة.

٦ الغائلة: الحقد الباطن، والشرّ. انظر: **لسان العرب** لابن منظور، «غيل».

٧ انظر قوله في **كتاب سيبويه**، ١٢٨/٣.

٨ انظر قوله في **معاني القرآن** للفرّاء، ١٧٣/٢. وذَكَر أن مذهب الكسائي فيه الجرّ.

٩ انظر قوله في **كتاب سيبويه**، ١٢٦/٣-١٢٨، وفصّل سيبويه في الوجهين، وذكر أنّ الجرّ مذهب الخليل، ويظهر مِن كلامه الذهاب إلى وجه النصب.

١٠ جميع ما ذُكِر في وجوه الإعراب ههنا في **الدرّ المصون** للسمين الحلبي، ٤٦١/٢؛ و**اللباب** لابن عادل، ١٦٣/٤. وذكرا وجه البدل أوّلًا، ولم يُلمِّحا إلى تضعيفه تلميحَ المُصنِّف ههنا.

وإلّا فبالاعتبار الأخير. ﴿إِذَا تَرَٰضَوۡاْ﴾ ظرفٌ لِـ"لا تعضُلوا". وصيغة التذكير باعتبار تغليب الخُطّاب على النساء، والتقييدُ به؛ لأنّه المعتاد، لا لتجويز المنع قبل تمام التراضي. وقيل: ظرفٌ لـ﴿أَن يَنكِحۡنَ﴾. وقوله تعالى: ﴿بَيۡنَهُم﴾ ظرف للتراضي مفيدٌ لرُسوخه واستحكامه. ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ الجميلِ عند الشرع، المستحسَنِ عند الناس. والباء إمّا متعلِّقة بمحذوف وقع حالًا مِن فاعل ﴿تَرَٰضَوۡاْ﴾، أو نَعتًا لمصدر محذوف، أي: تراضِيًا كائنًا بالمعروف؛ وإمّا بـ﴿تَرَٰضَوۡاْ﴾، أي: تراضَوا بما يَحسُن في الدِّين والمروءة.[1] وفيه إشعار بأنّ المنع مِن التزوّج بغير كُفء، أو بما دون مَهرِ المِثْل ليس مِن باب العَضْل.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما فصّل مِن الأحكام، وما فيه مِن معنى البُعد لتعظيم المشار إليه. والخطاب: لجميع المكلَّفين، كما فيما بعده. والتوحيد إمّا باعتبار كلّ واحدٍ منهم، وإمّا بتأويل القَبيل والفريق، وإمّا لأنّ الكاف لمجرّد الخطاب والفرقِ بين الحاضر والمنقضي دون تعيين المخاطَبين. أو للرسول[2] صلّى الله عليه وسلّم، كما في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق، ٦٥/١]؛ للدلالة على أنّ حقيقة المشار إليه أمرٌ لا يكاد يَعرِفه كلّ أحد.

﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ فيسارع إلى الامتثال بأوامره ونواهيه إجلالًا له وخوفًا مِن عقابه. وقوله تعالى: ﴿مِنكُمۡ﴾ إمّا متعلِّق بـ﴿كَانَ﴾ عند مَن يجوّز عملها في الظروف[3] وشِبهها، وإمّا بمحذوف وقع حالًا مِن فاعل ﴿يُؤۡمِنُ﴾، أي: كائنًا منكم.

﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ أي: الاتِّعاظ به والعملُ بمقتضاه ﴿أَزۡكَىٰ لَكُمۡ﴾ أي: أَنْمى وأنفعُ ﴿وَأَطۡهَرُ﴾ مِن أدناس الآثام وأوضار الذنوب.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ ما فيه مِن الزكاء والطُّهر، ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ذلك. أو: والله يعلم ما فيه صلاح أموركم مِن الأحكام والشرائعَ التي مِن جملتها ما بيّنه هاهنا،

---

[1] الوجوه الأربعة في الباء مذكورة في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٤٦١/٢؛ واللباب لابن عادل، ١٦٤/٤.

[2] السياق: والخطاب: لجميع المكلّفين... أو للرسول...

[3] س: الظرف.

وأنتم لا تعلمونها، فدَعُوا رأيَكم وامتثِلوا بأمره تعالى ونهيِه في كلّ ما تأتون وما تَذرُون.

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ شروع في بيان الأحكام المتعلِّقة بأولادهنّ خصوصًا واشتراكًا، وهو أمرٌ أُخرِجَ مُخرَجَ الخبر؛ مبالغةً في الحَمْل على تحقيق مضمونه. ومعناه الندب أو الوجوب إن خُصَّ بمادّة عدم قَبول الصبيّ ثديَ الغير، أو فِقدانِ الظِئْر،[١] أو عجزِ الوالدِ عن الاستئجار. والتعبير عنهنّ بالعُنوان المذكور لِهزّ عَطفِهنّ نحوَ أولادِهنّ. والحُكم عامّ للمُطلَّقات وغيرهنّ. وقيل: خاصّ بهنّ؛ إذ[٢] الكلام فيهنّ.[٣] ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ التأكيد بصفة الكمال؛ لبيان أنّ التقدير تحقيقيٌّ لا تقريبيٌّ مَبنيٌّ على المسامحة المعتادة. ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ بيان لمَن يُتوجّه إليه الحُكم، أي: ذلك لمَن أراد إتمام الرضاعة، وفيه دلالةٌ على جواز النقص.

وقيل: اللام متعلِّقة بـ﴿يُرْضِعْنَ﴾ فإنّ الأبَ يجِبُ عليه الإرضاعُ كالنفقة، والأمُّ تُرضِع له، كما يُقال: أَرضعَت فلانةٌ لفلان وَلدَه.[٤]

﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ أي: الوالِد، فإنّ الولد يُولَد له ويُنسَب إليه، وتغييرُ العبارة للإشارة إلى المعنى المقتضي لوجوب الإرضاع، ومَئُونةِ المُرضِعة عليه. ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ أُجرةً لهنّ، واختُلِف في استئجار الأمّ: وهو غيرُ جائز عندنا ما دامت في النكاح أو العِدّة، جائزٌ عند الشافعي رحمه الله.[٥] ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ حسبَما يراه الحاكم ويفي به وُسْعُه.

---

١ الظِئْر: العاطِفة على غير ولدها المُرضِعة له، مِن الناس والإبل. لسان العرب لابن منظور، «ظأر».
٢ ط: إذا.
٣ أخرج الطبريُّ ذلك عن السُدّي والضحّاك والربيع في جامع البيان، ٢٠٦/٤.
٤ أورد هذا القول بصيغة "قيل" الزمخشريُّ في الكشّاف، ٢١٣/١.
٥ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢١٤/١.

﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ تعليل لإيجاب المُؤَن بالمعروف، أو تفسيرٌ للمعروف، وهو نصٌّ على أنّه تعالى لا يُكلِّف العبد ما لا يُطيقُه، وذلك لا يُنافي إمكانَه.

﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ تفصيل لِما قبله وتقرير له، أي: لا يكلِّف كلُّ واحد منهما الآخرَ ما لا يُطيقه، ولا يُضارُّه[1] بسبب ولده. وقُرِئ: "لَا تُضَارُّ"، بالرفع،[2] بدلًا مِن ﴿لَا تُكَلَّفُ﴾. وأصله على القراءتين: لا تُضارِر، بالكسر على البناء للفاعل، وبالفتح على البناء للمفعول، وعلى الوجه الأوّل يَجوز أن يكون بمعنى: تَضُرّ، والباء مِن صلته، أي: لا يَضُرّ الوالدان بالولد، فيُفرِّط في تعهّده ويُقصِّر فيما ينبغي له. وقُرِئ: "لا تُضَارّ"، بالسكون مع التشديد،[3] على نية الوقف، وبه مع التخفيف،[4] على أنّه مَن ضارَه يَضيرُه. وإضافة الولدِ إلى كُلّ منهما لاستعطافهما إليه، وللتنبيه على أنّه جدير بأن يتّفقا على استصلاحه، ولا ينبغي أن يَضُرّا به، أو يُتضارّا بسببه.

﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ﴾... إلخ، وما بينهما تعليل أو تفسير مُعترِضٌ، والمراد به: وارث الصبيِّ ممّن كان ذا رحِمٍ مَحرَمٍ منه. وقيل: عَصَباتُه. وقال الشافعي رحمه الله:[5] هو وارث / الأب، وهو [٧٢و] الصبيّ، أي: تُمان[6] المُرضِعةُ مِن ماله عند موت الأب، ولا نزاعَ فيه، وإنّما الكلام فيما إذا لم يكن للصبيّ مالٌ. وقيل: الباقي مِن الأبوين، مِن قوله عليه السلام: «واجعله الوارثَ منّا»،[7] وذلك إشارة إلى ما وجب على الأب مِن الرِّزق والكُسوةِ.

---

١ ي: ولا يضارّ.

٢ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. السبعة لابن مجاهد، ص ١٨٣؛ والنشر لابن الجزري، ٢/٢٢٧.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الفضل عن أبي جعفر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٩٣؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٥١٨.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج والهاشمي عن أبي جعفر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢١؛ والمُحتسَب لابن جنّي، ١/١٢٣؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٩٣.

٥ ي - رحمه الله.

٦ يقال: مانه يمونه إذا احتمل مَئونته وقام بكفايته. انظر: لسان العرب لابن منظور، «مون».

٧ وفي هامش ي: هذا الدُّعاء المأثور: اللّٰهمّ متِّعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوّتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منّا، واجعل ثأرنا على مَن ظلمنا. فمعنى "اجعله الوارث منّا": اجعل كلّ واحدٍ مِن المذكورات: السمعِ والبصر والقوّةِ باقيًا سليمًا إلى حين الموت. «منه». | سنن الترمذي، ٥/٥٢٨ (٣٥٠٢)؛ عمل اليوم والليلة للنسائي، ص ٣١٠ (٤٠١)؛ الدعاء للطبراني، ٣/١٦٥٦ (١٩١١)؛ شرح السنة للبغوي، ٥/١٧٤ (١٣٧٤).

﴿فَإِنۡ أَرَادَا﴾ أي الوالدان ﴿فِصَالًا﴾ أي: فِطامًا عن الرَّضاع قبل تمام الحَوْلين، والتنكيرُ للإيذان بأنّه فِصال غيرُ معتادٍ. ﴿عَن تَرَاضٖ﴾، متعلِّق بمحذوف ينساق إليه الذهن، أي: صادرًا عن تراضٍ ﴿مِّنۡهُمَا﴾ أي: مِن الوالدين، لا مِن أحدهما فقط، لاحتمال إقدامه على ما يضُرُّ بالولد؛ بأن تمَلَّ المرأةُ الإرضاع، ويَبخَلَ الأب بإعطاء الأجرة. ﴿وَتَشَاوُرٖ﴾ في شأن الولد، وتفحُّصٍ عن أحواله، وإجماعٍ منهما على استحقاقه للفِطام. والتشاور مِن المشورة، وهي استخراج الرأي، مِن شُرْتُ العسلَ إذا استخرجتَه.[1] وتنكيرهما للتفخيم. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا﴾ في ذلك لِما أنّ تراضِيَهما إنّما يكون بعد استقرار رأيهما واجتهادِهما على أنّ صلاح الولد في الفِطام، وقلّما يتّفقان على الخطأ.

﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمۡ﴾ بيان لحُكم عدم اتّفاقهما على الفطام، والالتفاتُ إلى خِطاب الآباء لهزّهم إلى الامتثال بما أُمِروا به. ﴿أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ﴾ بحذف المفعول الأوّل[2] استغناءً عنه، أي: أن تَستَرضعوا المَراضِعَ أولادَكم، يقال: أَرضعتِ المرأةُ الصبيَّ واسترضعتُها إيّاه. وقيل: إنّما يتعدَّى إلى الثاني بحرف الجرّ، يقال: استَرضعتُ المرأةَ للصبيِّ، أي: أن تسترضِعوا المَراضِعَ لأولادكم، فحُذف حرف الجرّ أيضًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ﴾ [المطففين، ٣/٨٣]، أي: كالوا لهم. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: في الاسترضاع. وفيه دلالة على أنّ للأب أن يَسترضِعَ الولد ويَمنعَ الأُمَّ مِن الإرضاع.

﴿إِذَا سَلَّمۡتُم﴾ أي: إلى المَراضِع ﴿مَّآ ءَاتَيۡتُم﴾ أي: ما أردتُم إيتاءَه، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ [النحل، ٩٨/١٦]. وقُرِئ: "ما أَتَيْتُمْ"،[3] مِن: أتى إليه إحسانًا إذا فعَله، وقُرِئ: "ما أُوتِيتُمْ"،[4] أي: مِن جهة الله عزّ وجلّ، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد، ٧/٥٧].

---

[1] انظر هذا التفسير اللغويّ في الصحاح للجوهري، «شور»؛ وفي أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٠٢/١.

[2] ي – الأوّل.

[3] قرأ بها ابن كثير. السبعة لابن مجاهد، ص ١٨٣؛ النشر لابن الجزري، ٢٢٨/٢.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن شيبان عن عاصم في شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٢؛ والكشّاف للزمخشري، ٢١٥/١.

وفيه مزيدُ بَعثٍ لهم إلى التسليم ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿سَلَّمْتُم﴾، أي: بالوجه المتعارَف المستحسَن شرعًا. وجواب الشرط محذوفٌ لدلالة المذكور عليه. وليس التسليم بشرطٍ للصحّة والجواز؛ بل هو ندب إلى ما هو الأَلْيَقُ والأَوْلى، فإنّ المَراضع إذا أُعطينَ ما قُدِّر لهنّ ناجزًا يدًا بيدٍ كان ذلك أدخلَ في استصلاح[1] شئون[2] الأطفال.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في شأن مراعاة الأحكام المذكورة ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم بذلك. وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لتربية المهابة، وفيه مِن الوعيد والتهديد ما لا يخفى.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: على حَذْف المضاف، أي: وأزواجُ الذين ﴿يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ أي: تُقبَض أرواحهم بالموت، فإنّ التَّوَفيَ هو القبض، يقال: تَوفَّيتُ مالي مِن فلان واستَوفيتُه منه، أي: أخذتُه وقبضتُه، والخِطاب لكافّة الناس بطريق التلوين، ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾، أو على حذف العائد إلى المبتدأ في الخبر، أي: يتربَّصن بعدَهم، كما في قولهم: السمنُ مَنَوانِ[3] بدرهم، أي: مَنَوانِ منه. وقُرئ: "يَتَوَفَّونَ" بفتح الياء،[4] أي: يَستوفون آجالَهم، وتأنيث العشر باعتبار الليالي؛ لأنّها غُرَر الشهور والأيّام، ولذلك تراهم لا يكادون يستعملون التذكير في مِثْله أصلًا، حتّى إنّهم يقولون: صُمتُ عشرًا، ومِن البيِّن في ذلك قولُه تعالى: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ [طه، ١٠٣/٢٠]، ثُمّ ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه، ١٠٤/٢٠]. ولعلّ الحكمة في هذا التقدير أنّ الجنين إذا كان ذَكَرًا يَتحرّك غالبًا لثلاثة أشهر،

---

١ ي: الاستصلاح.

٢ ي: بشئون.

٣ المَنا: الكَيْل والميزان الذي يُوزَن به، والمِكيال الذي يكيلون به السَّمْن وغيره، وقد يكون مِن الحديد أوزانًا، وتثنيته مَنَوان ومَنَيان، والأوّل أعلى. لسان العرب لابن منظور، «منا».

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب والمفضّل عن عاصم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٢٢؛ والمُحتسَب لابن جنّي، ١٢٥/١؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٩٣.

وإن كان أنثى يتحرّك لأربعة، فاعتُبر أقصى الأجلين، وزِيدَ عليه العَشْر استظهارًا؛ إذ رُبّما تَضعُف الحركة فلا يُحَسُّ بها. وعموم اللفظ يقتضي تساوي المسلِمة والكتابيّة والحُرّة والأمَة في هذا الحُكم، ولكنّ القياس اقتضى التنصيفَ في الأَمَة،[١] وقولُه عزّ وجلّ: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ﴾ [الطلاق، ٤/٦٥]، خَصَّ الحاملَ منه، وعن عليّ وابنِ عبّاس رضي الله عنهم أنّها تعتدُّ بأبعد الأجلين احتياطًا.[٢]

﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: انقضت عِدّتُهن ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أيُّها الحُكّامُ والمسلمون جميعًا، ﴿فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ مِن التزيّن والتعرّض للخُطّاب، وسائرِ ما حُرّم على المُعتدّة. ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ بالوجه الذي لا يُنكِره الشرعُ. وفيه إشارةٌ إلى أنّهنّ لو فعلنَ ما يُنكِره الشرعُ فعليهم أن يكفُّوهنّ عن ذلك، وإلّا فعليهم الجُناح. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ فلا تعملوا خلافَ ما أُمِرتُم به.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٣٥﴾

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾ خطاب للكلّ ﴿فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ﴾، التعريضُ والتلويحُ: إيهامُ المقصود بما لم يوضَع له حقيقةً ولا مجازًا، كقول السائل: جئتُك لأُسلِّم عليك. وأصله: إمالة الكلام عن نهجه إلى عُرُضٍ منه، أي: جانب. والكناية: هي الدلالة على الشيء بذكر لَوازمِه ورَوادِفه، كقولك: "طويلُ النِّجاد" للطويل، و"كثيرُ الرماد" للمِضْياف.[٣]

﴿مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ الخِطبة بالكسر كالقِعدة والجِلسة: ما يفعلُه الخاطبُ مِن الطلب والاستلطاف بالقول والفعل. فقيل: هي مأخوذة مِن الخَطْب، أي: الشأن الذي له خَطرٌ، لِما أنّها شأن مِن الشئون، ونوع مِن الخُطوب. وقيل:

---

[١] ي + في الأمة.

[٢] هو عنهما في تفسير ابن كثير، ١٤٩/٨ (الطلاق، ٤/٦٥).

[٣] بلفظ قريب جدًا في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٠٣/١.

مِن الخِطاب؛ لأنّها نوعُ مخاطبة تجري بين جانب الرجُل وجانب المرأة. والمراد بـ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾ المعتدّاتُ للوفاة. والتعريض لخِطبتهنَّ أن يقول لها: إنّك لَجميلةٌ أو صالحة أو نافعة، ومِن غرضي أن أتزوَّجَ، ونحوُ ذلك ممّا يُوهِم أنّه يُريد نِكاحَها حتّى تحبِسَ نفسَها عليه، إن رغبَت فيه، ولا يُصرِّح بالنكاح. ﴿أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾ أي: أضمرتم في قلوبكم، فلم تذكروه تصريحًا[1] ولا تعريضًا.

﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ﴾ ولا تَصبِرونَ على[2] السكوت عنهنّ وعن إظهار الرغبة فيهنّ. وفيه نوعُ / توبيخ لهم على قِلّة التثبّت. ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ استدراكٌ عن محذوفٍ دلّ عليه ﴿سَتَذۡكُرُونَهُنَّ﴾ أي: فاذكُروهنّ، ولكن لا تُواعدوهنّ نِكاحًا؛ بل اكتفوا بما رُخِّص لكم[3] مِن التعريض. والتعبير عن النِّكاح بـ"السِّرّ"؛ لأنّ[4] مسبَّبَه الذي هو الوطء ممّا يُسَرُّ به، وإيثارُه على اسمه للإيذان بأنّه ممّا ينبغي أن يُسَرَّ به ويُكتَم، وحَمْلُه على الوطء رُبّما يُوهِم الرُّخصة في المحظور الذي هو التصريح بالنكاح. وقيل: انتصابُ ﴿سِرًّا﴾ على الظرفيّة، أي: لا تُواعِدوهنّ في السِّرّ، على أنّ المراد بذلك المواعَدةُ بما يُستهجَن.[5] وفيه ما فيه. [٧٢ظ]

﴿إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ﴾ استثناء مفرَّغ ممّا يدلّ عليه النهي، أي: لا تُواعِدوهنّ مواعَدةً ما إلّا مواعَدةً معروفةً غيرَ منكرَةٍ شرعًا، وهي ما يكون بطريق التعريض والتلويح، أو إلّا مواعَدةً بقول معروف، أو لا تُواعِدوهنّ بشيء مِن الأشياء إلّا بأن تقولوا قولًا معروفًا. وقيل: هو استثناء منقطِع مِن ﴿سِرًّا﴾. وهو ضعيف؛ لأدائه إلى جَعْل التعريض مَوعودًا، وليس كذلك.[6]

﴿وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ مِن عزَم الأمرَ إذا قصده قَصْدًا جازمًا، وحقيقتُه: القَطْع؛ بدليل قوله عليه السلام: «لا صيامَ لمَن لم يعزِمِ الصيامَ مِن الليل»،

---

[1] ي: صريحًا.

[2] ط: عن.

[3] س – لكم.

[4] ط: لأنّه.

[5] انظر هذا القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٠٤؛ والكشّاف للزمخشري، ١/٢١٧.

[6] القول مع النصّ على تضعيفه وتعليل ذلك في الكشّاف للزمخشري، ١/٢١٧؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٠٤.

ورُوي: «لمَن لم يُبيّت الصيام».[١] والنهي عنه للمبالغة في النهي عن مباشرة عَقْدِ النكاح، أي: لا تَعزِموا عَقدَ عُقدة النكاح ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ أي: العِدّةُ المكتوبة المفروضةُ آخِرَها. «وقيل: معناه: لا تقطعوا عُقدة النكاحِ»،[٢] أي: لا تُبرِموها ولا تُلزِموها ولا تُقدِموا عليها، فيكونُ نهيًا عن نَفْس الفعل لا عن قَصْده.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ مِن ذواتِ الصدور التي مِن جملتها العزمُ على ما نُهيتُم عنه، ﴿فَٱحْذَرُوهُ﴾ بالاجتناب عن العَزْم ابتداءً أو إقلاعًا عنه بعد تحقّقه. ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ يَغفِر لمَن يُقلِع عن عَزْمه خشيةً منه[٣] تعالى، ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يُعاجِلكم بالعقوبة، فلا تستدلُّوا بتأخيرها على أنّ ما نُهيتُم عنه مِن العَزْم ليس ممّا يَستتبعُ المؤاخذةَ. وإظهار الاسم الجليل في مَوضِع الإضمار لإدخال الرَّوْعة.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لا تِبعةَ مِن مهرٍ، وهو الأظهَر. وقيل: مِن وِزْر، إذ لا بدعةَ في الطلاق قبل المَسيس. وقيل: كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يُكثِر النهيَ عن الطلاق، فظُنّ أنّ فيه جُناحًا، فنُفيَ ذلك.[٤] ﴿إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي: ما لم تُجامِعوهنّ. وقُرِئ: "تُمَاسُّوهُنَّ" بضمّ التاء،[٥] في جميع المواقع.

أي: مُدّةَ عدمِ مَسيسكم إيّاهنّ، على أنّ ﴿مَا﴾ مصدريّةٌ ظرفيّةٌ، بتقدير المضاف. ونقَل أبو البقاءِ أنّها شرطيّة بمعنى "إنْ"، فيكون مِن باب اعتراض الشرط على الشرط، فيكون الثاني قيدًا للأوّل، كما في قولكَ: إن تأتِني إن تُحسِنْ إليّ أُكرمْكَ، أي: إن تأتِني مُحسِنًا إليَّ، والمعنى: إن طلّقتموهنّ

---

[١] بألفاظ قريبة مِن الرّوايتين في سنن ابن ماجه، ٥٩٩/٢ (١٧٠٠)؛ وسنن الترمذي، ٩٩/٢ (٧٣٠)؛ وسنن النسائي، ١٩٦/٤ (٢٣٣١). وانظر لتفصيل تخريجه تخريج أحاديث الكشّاف للزّيلَعي، ١٥٠/١-١٥١.

[٢] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢١٧/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٠٤/١.

[٣] ي: لله.

[٤] ذُكِر هذا القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٠٤/١.

[٥] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. السبعة لابن مجاهد، ص ١٨٤؛ النشر لابن الجزري، ٢٢٨/٢.

غيرَ ماسِّينَ لهنّ.[١] وهذا المعنى أَقعَدُ مِن الأوّل؛[٢] لِما أنّ "ما" الظرفيّة إنّما يَحسُن موقعُها فيما إذا كان المظروف أمرًا مُمتدًّا مُنطبقًا على ما أُضِيف إليها مِن المُدّة أو الزمان، كما في قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود، ١٠٧/١١]، وقولِه تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة، ١١٧/٥]، ولا يَخفى أنّ التطليقَ ليس كذلك. وتعليقُ الظرف بنَفي الجُناحِ رُبّما يُوهِم إمكانَ المَسيسِ بعد الطلاق. فالوجه أن يُقدَّرَ الحالُ مكانَ الزمان والمُدّة.

﴿أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي: إلّا أن تَفرِضوا لهنّ،[٣] أو حتّى تفرضوا لهنّ عند العَقد مَهرًا، على أنّ ﴿فَرِيضَةً﴾ فَعيلة بمعنى مفعول، والتاءُ لنَقْل اللفظ مِن الوصفيّة إلى الاسميّة، وانتصابُه على المفعوليّة. ويجوز أن يكون مَصدرًا صيغةً وإعرابًا، والمعنى: أنّه لا تِبعَةَ على المطلِّق بمطالبة المَهر أصلًا، إذا كان الطلاق قبل المَسيس على كلّ حال إلّا في حال تَسمية المَهرِ، فإنّ عليه حينئذٍ نصفَ المسمَّى، وفي حال عدم تسميته عليه المُتعةُ لا نصفُ مَهرِ المِثْل؛ وأمّا إذا كان بعد المِساس فعليه في صورة التسمية تمامُ المسمَّى، وفي صورة عدمِها تمامُ مَهرِ المِثْل. وقيل: كلمة ﴿أَوْ﴾ عاطفةٌ لمدخولها على ما قبلها مِن الفعل المجزوم،[٤] على معنى: ما لم يكُن منكم مَسيسٌ ولا فَرضُ مَهرٍ.

﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ عطفٌ على مقدَّر يَنسحِب عليه الكلام، أي: فطلِّقوهنّ ومتِّعوهنّ. والحكمة في إيجاب المُتعةِ جبرُ إيحاشِ الطلاق، وهي دِرعٌ ومِلْحفةٌ وخِمارٌ، على حسَب الحال، كما يُفصِحُ عنه قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ أي: ما يَليق بحال كلٍّ منهما، وقُرِئ بسكون الدال.[٥] وهي جملة مستأنَفةٌ،

---

١ الوجهان بلفظ قريب جدًّا مع ذِكر أبي البقاء في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٤٨٦/٢؛ واللباب لابن عادل، ٢٠٧/٤-٢٠٨. وانظر ما نقله أبو البقاء العكبري مِن وجه الشرطيّة في التبيان، ١٨٨/١؛ والوجه مذكور في كشف المُشكلات للأصفهاني الباقولي، ١٧٧/١.

٢ خالف المُصنِّف السمين الحلبي وابن عادل؛ إذا قدّما وجه المصدريّة الظرفيّة، وضعّفا وجه الشرطيّة. انظر: الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٤٨٦/٢؛ واللباب لابن عادل، ٢٠٧/٤-٢٠٨.

٣ ي + فريضة.

٤ انظر هذا الوجه في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٤٨٧/٢؛ واللباب لابن عادل، ٢٠٨/٤. وذكرا معه ثلاثة وجوه أخرى.

٥ قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر وابن عامر في رواية هشام ويعقوب. السبعة لابن مجاهد، ص ١٨٤؛ النشر لابن الجزري، ٢٢٨/٢.

لا محلَّ لها مِن الإعراب، مبيّنةٌ لمقدار المُتعَة بالنظر إلى حال المطلِّق إيسارًا وإقتارًا، أو حال مِن فاعل ﴿مَتِّعُوهُنَّ﴾ بحذف الرابط، أي: على المُوسِع منكم... إلخ، أو على جَعْل الألف واللام عِوضًا مِن المضاف إليه عند مَن يُجوِّزه، أي: على مُوسِعكم... إلخ.[١]

وهذا إذا لم يكن مَهرُ مِثْلها أقلَّ مِن ذلك، فإن كان أقلَّ فلها الأقلُّ مِن نصف مَهْرِ المِثْل ومِن المُتعة، ولا ينقُص مِن خمسة دراهمَ.[٢]

﴿مَتَٰعًا﴾ أي: تمتيعًا ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: بالوجه الذي تَستحسِنه الشريعةُ والمروءة. ﴿حَقًّا﴾ صفة لـ﴿مَتَٰعًا﴾، أو مصدرٌ مؤكِّد، أي: حَقَّ ذلك حقًّا. ﴿عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: الذين يُحسِنون إلى أنفسهم بالمسارعة إلى الامتثال، أو إلى المطلَّقات بالتمتيع بالمعروف، وإنّما سُمُّوا مُحسِنين اعتبارًا للمشارفة ترغيبًا وتحريضًا.

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ﴾ قبلَ ذلك ﴿فَرِيضَةً﴾ أي: وإن طلقتموهُنّ قبل المَسيسِ، حال كونِكم مسمِّين لهنّ[٣] فيما سبق -أي: عند النِّكاحِ- مَهرًا، على أنّ الجملة حال مِن فاعل ﴿طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾. ويجوزُ أن تكون حالًا مِن مفعوله؛ لتحقّق الرابطِ بالنسبة إليهما. ونفس الفَرْض مِن المَبنيّ للفاعل أو / للمفعول، وإن لم يُقارِن حالةَ التطليق، لكنّ اتّصاف المطلِّق بالفارضيّة فيما سبق ممّا لا ريبَ في مقارَنته لها، وكذا الحال في اتّصاف المطلَّقة بكونها مَفروضًا لها فيما سبق. [٧٣و]

---

[١] وجوه إعراب الجملة في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢/٤٨٨؛ واللباب لابن عادل، ٤/٢١٠. وذكرا أنّ الكوفيّين ومَن تابعهم يجوّزون جعْل الألف واللام عِوضًا مِن المضاف إليه ههنا.

[٢] انظر: الكشّاف للزمخشري، ١/٢١٨؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٠٥.

[٣] ي: فريضة.

﴿فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ﴾ أي: فلهنّ نصفُ ما سمَّيتُم لهنّ مِن المَهر، أو فالواجبُ عليكم ذلك، وهذا صريح في أنّ المَنفي في الصورة السابقة إنّما هو تبِعةُ المَهر. وقُرئ بالنصب،[١] أي: فأدُّوا نصفَ ما فرَضتُم. ولعلّ تأخير حُكمِ التسمية مع أنّها الأصلُ في العَقد والأكثرُ في الوقوع، لِما أنّ الآية الكريمة نزلت في أنصاريّ تزوَّج امرأةً مِن بني حنيفةَ،[٢] وكانت مُفوَّضةً، فطلَّقها قبل الدخول بها، فتخاصما إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال له عليه السلام عند إظهار ألّا شيءَ له: «متِّعْها بقَلَنْسوتكَ».[٣]

﴿إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ الأحوال، أي: فلهنّ نصفُ المفروض معيَّنًا في كلّ حالٍ إلا حالَ عفوهنّ، فإنّه يَسقُط ذلك حينئذ بعد وجوبه. وظاهر الصيغة في نفسها يَحتمل التذكيرَ والتأنيثَ، وإنّما الفرق في الاعتبار والتحقيق، فإنّ الواو في الأُولى[٤] ضميرٌ، والنون علامة الرفع؛[٥] وفي الثانية[٦] لامُ الفعل، والنونُ ضميرٌ، والفعل مبنيٌّ؛ ولذلك لم يُؤثِّر فيه "أن" تأثيرَه فيما عُطِفَ على مَحلّه مِن قوله تعالى: ﴿أَوۡ يَعۡفُوَاْ﴾ بالنصب.[٧] وقُرئ بسكون الواو.[٨]

﴿ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ أي: يَتركُ الزوج المالكُ لعَقده وحَلّه ما يعود إليه مِن نصفِ المَهر الذي ساقه إليها كَمَلًا على ما هو المعتاد تكرّمًا، فإنّ تَرْكَ حقّه عليها عفوٌ بلا شُبهة، أو سُمِّي ذلك عفوًا في صورة عدم السَوْق مشاكلةً

---

١ قال الزجّاج: «ويجوز النصب... ولا أعلم أحدًا قرأ بها». **معاني القرآن وإعرابه**، ٣١٩/١. وهي عن بعض العرب في **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٩٣-٩٤؛ **والمغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ٥٢١.

٢ هم بنو حنيفة بن لُجيم بن صعب بن عليّ بن بكر بن وائل. وكانت منازلهم اليمامة. انظر: **اللباب** لابن الأثير، ص ١٣٩٧؛ **ونهاية الأرب** للقلقشندي، ص ٢٣٨.

٣ **تفسير مقاتل بن سليمان**، ٢٠٠/١؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٢١٨/١؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢٠٤/١-٢٠٥. وأورده ابن حجر عن مجاهد في **العجاب في بيان الأسباب**، ص ٤١٢.

٤ أي: في التذكير.

٥ ط – الرفع. | أشير إليها بعلامة استدراك، ولم تُستدرَك.

٦ أي: في التأنيث.

٧ مِن قوله: "الصيغة" بلفظ قريب في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢٠٥/١؛ وأكثره في **الكشّاف** للزمخشري، ٢١٨/١.

٨ قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر في رواية هشام وعاصم في رواية أبي بكر والبصريان. **السبعة** لابن مجاهد، ص ١٨٤؛ **والنشر** لابن الجزري، ٢٢٨/٢.

أو تغليبًا لحال السَوْق على حال عدمه، فمَرجِعُ الاستثناء حينئذ إلى مَنْع الزيادة في المستثنى منه، كما أنّه[١] في الصورة الأولى إلى مَنْع النقصان فيه، أي: فلهنّ هذا القدرُ بلا نقصان[٢] ولا زيادة[٣] في جميع الأحوال، إلا في حال عفوهنّ، فإنّه حينئذ لا يكون لهنّ القدرُ المذكور؛ بل يَنتفي ذلك أو يَنحطّ، أو في حال عَفْو الزوج فإنّه حينئذ يكون لهنّ الزيادة على ذلك القدر، هذا على التفسير الأوّل. وأمّا على التفسير الثاني فلا بدّ مِن المَصير إلى جَعْل الاستثناء منقطعًا؛ لأنّ في صورة عَفْوِ الزوج لا يُتصوَّر الوجوبُ عليه، هذا عندنا، وفي القول القديم للشافعي رحمه الله[٤] أنّ المراد عَفْو الوليّ الذي بيده عُقدةُ نكاحِ الصغيرة،[٥] وهو ظاهرُ المأخذ، خلا أنّ الأوّل أنسبُ بقوله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾... إلى آخره؛ فإنّ إسقاط حقِّ الصغيرة ليس في شيء مِن التقوى. وعن جُبير بن مُطعم[٦] رضي الله عنه أنّه تزوَّج امرأةً، وطلَّقها قبل الدخول، وأكمَل لها الصَّداقَ، وقال: «أنا أحقُّ بالعَفْو».[٧] وقُرئ بالياء.[٨]

﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: لا تتركوا أن يَتفضَّل بعضُكم على بعض كالشيء المَنسيّ. وقُرِئ بكسر الواو.[٩] والخِطاب في الفعلين للرجال والنساء جميعًا بطريق التغليب. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فلا يكاد يُضيع ما عمِلتُم مِن التفضّل والإحسان.

---

١ ي: أنّ.

٢ ط: زيادة.

٣ ط: نقصان.

٤ ي - رحمه الله.

٥ القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٠٥/١.

٦ ط: جابر بن عبد الله.

٧ الحديث عن جُبير بن مُطعم في جامع البيان للطبري، ٣٢٥/٤؛ وسنن الدارقطني، ٤٢١/٤ (٣٧١٤)؛ وسنن البيهقي، ٥٣٦/١٤ (١٤٥٦٢)؛ والكشّاف للزمخشري، ٢١٩/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٠٥/١.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي نَهِيك والأعرج والشعبي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٢؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٩٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٢١٩/١.

٩ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب ويحيى بن يعمَر وابن أبي إسحاق. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٩٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٢١٩/١؛ والمغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٥٢٢.

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ أي: داوموا على أدائها لأوقاتها مِن غير إخلالٍ بشيء منها، كما تُنبئ عنه صيغةُ المُفاعَلة المفيدة للمبالغة. ولعلّ الأمر بها في تضاعيف بيان أحكام الأزواج والأولاد قبل الإتمام؛ للإيذان بأنّها حقيقةٌ بكمال الاعتناء بشأنها والمُثابَرة عليها مِن غير اشتغال عنها بشأنهم بل بشأن أنفُسهم أيضًا، كما يُفصِح عنه الأمر بها في حالة الخوف، ولذلك أمر بها في خلال بيانِ ما يتعلّق بهم مِن الأحكام الشرعيّة المتشابِكةِ الآخذِ بعضُها بحُجْزَة بعضٍ.

﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ المتوسّطة بينها أو الفُضلى منها[1] وهي صلاة العصر؛ لقوله صلّى الله عليه وسلّم يوم الأحزاب: «شغَلونا عن الصلاة الوُسطى صلاةِ العَصر؛ ملأ الله تعالى بيوتَهم نارًا»،[2] وقال عليه السلام: «إنّها الصلاةُ التي شُغِل عنها سليمانُ بنُ داودَ عليهما السلام».[3] وفضلُها لكثرة اشتغال الناس في وقتها بتجاراتهم ومَكاسِبهم، واجتماعِ ملائكة الليل وملائكة النهار حينئذ. وقيل: هي صلاة الظُّهر؛ لأنّها في وسَط النهار، وكانت أشقَّ الصلواتِ عليهم لِما أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم كان يُصلّيها بالهاجِرة، فكانت أفضلَها، لقوله صلّى الله عليه وسلّم: «أفضلُ العبادات أَحمَزُها».[4] وقيل: هي صلاة الفجر؛ لأنّها بين صلاتَي الليل والنهار، والواقعةُ في الحدّ المشترَك بينهما، ولأنّها مَشهودةٌ كصلاة العصر. وقيل: صلاةُ المَغرِب؛ لأنّها متوسِّطة مِن حيث العددُ، ومِن حيث الوقوعُ

---

[1] س - منها.

[2] صحيح البخاري، ٨٤/٨ (٦٣٩٦)، بلفظ: «ملأ الله قبورهم وبيوتهم نارًا كما شغلونا عن صلاة الوسطى حتّى غابت الشمس، وهي صلاة العصر»؛ صحيح مسلم، ٤٣٧/١ (٢٠٥)، بلفظه الذي ساقه المُصنِّف ههنا مع زيادة لفظ «وقبورهم»؛ وبلفظه في جامع البيان للطبري، ٣٥٢/٤؛ وتفسير ابن لأبي حاتم، ٤٤٨/٢. وانظر تفصيل تخريجه في تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ١٥٢/١-١٥٣.

[3] بمعناه في جامع البيان للطبري، ٣٤٣/٤-٣٤٤. وانظر تفصيل تخريجه في تخريج أحاديث الكشّاف للزيلَعي، ١٥٤/١-١٥٦. والقراءة مرويّة عن عائشة وابن عبّاس وجماعة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٢؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ١٩٤؛ والمغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٥٢٣.

[4] لم أجِده في مظانّه. وهو في تفسير الرازي، ١١٧/٤ (البقرة، ١٤٨/٢).

بين صلاتي النهار والليل ووِتْر النهار، ولا تَنقُص في السفر. وقيل: هي صلاة العِشاء؛ لأنّها بين الجَهريّتين الواقعتين في طرفي الليل. وعن عائشة وابن عبّاس رضي الله عنهم: «أنّه عليه السلام يقرأ: "والصَّلاةِ الوُسْطى وصَلاةِ العَصْر"»،[١] فتكون حينئذٍ إحدى الأربع. قد خُصَّت بالذِّكْر مع العَصْر؛ لانفرادهما بالفضل. وقُرئ: "وَعَلَى الصَّلَاةِ الوُسْطَى"،[٢] وقُرئ بالنصب،[٣] على المدح، وقُرئ: "الوُصْطَى".[٤]

﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ أي: في الصلاة ﴿قَٰنِتِينَ﴾ ذاكرين له تعالى في القِيام؛ لأنّ القُنوت هو الذِّكْر فيه.[٥] وقيل: هو إكمالُ الطاعة وإتمامُها، بغير إخلال بشيء مِن أركانها. وقيل: خاشعين. وقال ابنُ المُسيّب: «المراد به القنوت في الصُّبح».[٦]

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أي: مِن عَدُوّ أو غيره ﴿فَرِجَالًا﴾، جَمْعُ "راجل"،[٧] كقيام وقائم، أو "رجُل" بمعنى راجل. وقُرئ بضمّ الراء مع التخفيف،[٨] وبضمّها مع التشديد أيضًا،[٩] وقُرئ: "فَرَجْلًا"،[١٠] أي: راجلًا. ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ جَمْع راكب، أي: فصلُّوا راجلين أو راكبين حَسْبما يقتضيه الحال، ولا تُخِلّوا بها ما أمكن الوقوفُ في الجملة.

---

١ جامع البيان للطبري، ٣٤٦/٤. وانظر تفصيل تخريجه في تخريج أحاديث الكشّاف للزَّيلَعي، ١٥٣/١.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٩٤؛ والمغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٥٢٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٣٦٨/٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك ومحمد بن أبي سارة وأبي جعفر الرؤاسي وزيد بن عليّ وعائشة. انظر: شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٢؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٩٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٢١/١؛ والمغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٥٢٣.

٤ هي قراءة نافع في الكشّاف للزمخشري، ٢٢١/١؛ وهي قراءة الشُّموني وأبي نشيط عن قالون عن نافع في المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٥٢٢.

٥ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٢١/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٠٦/١.

٦ مِن قوله: "قيل: خاشعين" في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٠٦/١.

٧ ي: رجل.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وعكرمة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٩٥؛ والمغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٥٢٤.

٩ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة والزعفراني وأبي مِجْلز عن ابن مُحيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٩٥؛ والمغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٥٢٤.

١٠ قراءة شاذّة، وهي في الكشّاف للزمخشري، ٢٢١/١؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٣٧٣/٤، بلا نسبة.

وقد جوّز الشافعي رحمه الله[1] أداءَها حالَ المُسايفة[2] أيضًا.[3]

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ بزوال الخوف ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: فصلُّوا صلاة الأمن. / عُبّر [٧٣ظ] عنها بالذكْر؛ لأنّه مُعظَم أركانها. ﴿كَمَا عَلَّمَكُم﴾ متعلّق بمحذوف وقع وَصفًا لمصدر محذوف، أي: ذِكْرًا كائنًا كما علّمكم، أي: كتعليمه إيّاكم ﴿مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ مِن كيفيّة الصلاة. والمراد بالتشبيه أن تكون الصلاةُ المُؤدّاة موافِقةً لِما علّمه الله تعالى، وإيرادُها بذلك العنوانِ لتذكير النعمة، أو اشكُروا الله تعالى شُكرًا يُوازي تعليمَه إيّاكم ما لم تكونوا تعلمونه مِن الشرائع والأحكامِ التي مِن جُملتها كيفيّةُ إقامة الصلاة حالتَي الخوف والأمن.

هذا، وفي إيراد الشرطيّة الأولى بكلمة "إنْ" المفيدةِ لمشكوكيّة وقوعِ الخوفِ ونُدرته، وتصديرِ الشرطيّةِ الثانية بكلمة "إذا" المنبِئة عن تحقّق وقوعِ الأمن وكثرتِه -مع الإيجاز في جواب الأُولى[4] والإطنابِ في جواب الثانية،[5] المَبنيَّين على تنزيل مقامِ وقوعِ المأمور به[6] فيهما[7] منزلةَ مقامِ وقوعِ الأمر[8] تنزيلًا مستدعِيًا لإجراءِ مقتضى المقام الأوّلِ[9] في كلّ منهما[10] مُجرى مُقتضى المقام الثاني-[11] مِن الجزالة ولُطفِ الاعتبار ما فيه عبرةٌ لأولي الأبصار.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ عَودٌ إلى بيان بقيّةِ الأحكام المفصَّلة فيما سلف، إثرَ بيانِ أحكامٍ وُسِّطَت بينها لِما أُشير إليه مِن الحكمة الداعيةِ إلى ذلك.

---

[1] ي - رحمه الله.

[2] ط: المسائفة. | المسايفة: المضاربة بالسيف. المُغرب للمُطرّزي، «سيف».

[3] انظر قول الشافعي في هذا الموضع مِن الكشّاف للزمخشري، ٢٢١/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٠٦/١-٢٠٧.

[4] وفي هامش ط ي: هي ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾. «منه».

[5] وفي هامش ط ي: وهي "إذا أمنتم". «منه».

[6] وفي هامش ط ي: وهو الصلاة. «منه».

[7] وفي هامش ط ي: أي: في الشرطيّتين. «منه».

[8] وفي هامش ط ي: أي نزول الآية الناطقة لِما ذُكِر مِن الحكمين. «منه».

[9] وفي هامش ط ي: هو مقام وقوع المأمور به. «منه».

[10] وفي هامش ط ي: مِن الشرطيّتين. «منه».

[11] وفي هامش ط ي: وهو مقام نزول الآية وورود الأمر. «منه».

﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم﴾ أي: يُوصون، أو لِيُوصوا، أو كتَب الله عليهم وصيةً، ويُؤيِّد هذا قراءةُ مَنْ قرأ "كُتِبَ عَلَيْكُم الوَصِيّةُ لأَزْوَاجِكُم".[١] وقُرِئ بالرفع،[٢] على تقدير مضافٍ في المبتدأ أو الخبر، أي: حُكمُ الذين يُتوفَّون منكم ويذرون أزواجًا وصيّةٌ لأزواجهم، أو والذين يُتوفَّون أهلُ وصيّةٍ لأزواجهم، أو كُتِب عليهم وصيّةٌ، أو عليهم وصيّةٌ. وقُرئ: "مَتَاعٌ لأَزْوَاجِهِم"،[٣] بدل "وَصيّةٌ". ﴿مَّتَـٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾ منصوب بـ"يُوصُون" إن أضمَرْته، وإلّا فبـ"الوصيّة"، أو بـ"مَتَاعٌ" على القراءة الأخيرة. ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ بدل منه، أو مصدر مؤكِّد، كما في قولك: هذا القولُ غيرُ ما تقول، أو حال مِن "أزواجهم"، أي: غيرَ مُخرَجاتٍ. والمعنى: يجِب على الذين يُتوفَّون أن يُوصوا قبل الاحتضار لأزواجهم بأن يُمتَّعْنَ بعدهم حولًا بالنفقة والسُّكنى، وكان ذلك أولَ الإسلام، ثُمّ نُسِخَت المُدّة بقوله تعالى: ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة، ٢٣٤/٢]، فإنّه وإن كان متقدِّمًا في التلاوة متأخرٌ[٤] في النزول، وسقَطت النفقة بتوريثها الرُّبعَ أو الثُّمُنَ، وكذلك السُّكنى عندنا، وعند الشافعي هي باقية.[٥]

﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ عن مَنزِل الأزواج باختيارهنّ، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيُّها الأئمة، ﴿فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ لا يُنكِرُه الشرْع، كالتزيّن والتطيّب وتركِ الحِدادِ والتعرّضِ للخُطّاب. وفيه دلالة على أنّ المحظور إخراجُها عند إرادة القرار ومُلازمةِ مَسكَنِ الزوجِ والحِدَادِ مِن غير أن يجِب عليها ذلك، وأنّها كانت مُخيَّرة بين المُلازَمة مع أَخْذ النفقة وبين الخروج مع تَركها. ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالبٌ على أمره يُعاقِبُ مَن خالَفه. ﴿حَكِيمٌ﴾ يُراعي في أحكامه مَصالحَ عباده.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٢١/١.

٢ قرأ بها نافع وابن كثير وعاصم في رواية أبي بكر والكسائي وأبو جعفر ويعقوب وخلف. السبعة لابن مجاهد، ص ١٨٤؛ والنشر لابن الجزري، ٢٢٨/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٢؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٢١/١.

٤ ي: متأخِرًا.

٥ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٢٢/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٠٧/١.

﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾

﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ﴾، سواءٌ كُنّ مَدخولًا بهنّ أو لا، ﴿مَتَٰعٌ﴾ أي: مطلقُ المُتعةِ الشاملة للواجبةِ والمستحبّةِ. وأوجبَها سعيدُ بنُ جُبير، وأبو العالية، والزُّهري للكُلّ.[١] «وقيل: المراد بالمَتاع نفقةُ العِدّة».[٢] وقيل: اللام للعهد،[٣] والمراد غيرُ المدخول بهنّ، والتكريرُ للتأكيد. ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ شرعًا وعادةً. ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: ممّا لا ينبغي.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثْلَ ذلك البيانِ الواضح ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالّةَ على أحكامه التي شرعها لعباده. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لكي تفهَموا ما فيها وتعمَلوا بمُوجَبها.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تقرير لمَن سمِع بقصّتهم مِن أهل الكتاب وأربابِ الأخبار، وتعجيبٌ مِن شأنهم البديع، فإنّ سماعَهم لها بمنزلة الرؤية النظريّة أو العِلميّة، أو لكُلّ أحدٍ ممّن له حظٌّ مِن الخِطاب؛ إيذانًا بأنّ قصّتهم مِن الشُّهرة والشُّيوع[٤] بحيثُ يحِقُّ لكُلّ أحدٍ أن يُحمَل على الإقرار برؤيتهم وسماعِ قِصّتهم، ويُعجَّب بها، وإن لم يكن ممّن رآهم أو سمِع بقصّتهم، فإنّ هذا الكلامَ قد جرى مَجرى المَثلِ في مقام التعجيب، لِما أنّه شُبِّه حالُ غيرِ الرائي لشيءٍ عجيبٍ بحال الرائي له بناءً على ادّعاء ظهور أمره وجلائِه، بحيثُ استوى في إدراكه الشاهدُ والغائبُ، ثمّ أُجرِيَ الكلام معه كما يَجري مع الرائي، قَصْدًا إلى المبالغة في شُهرته وغَرابتِه في التعجّب. وتعدية الرُّؤيةِ بـ"إلى" في قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ على تقدير كونِها بمعنى الإبصار، باعتبار معنى النظر،

---

١ انظر: جامع البيان للطبري، ٤/٤١٠-٤١١؛ والكشّاف للزمخشري، ١/٢٢٢.

٢ الكشّاف للزمخشري، ١/٢٢٢.

٣ انظر القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٠٨.

٤ ط س: الشياع.

وعلى تقدير كونها إدراكًا قلبيًا؛ لتضمين معنى الوصول والانتهاء، على معنى: ألم ينتهِ عِلمُك إليهم؟

﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ أي: أُلوفٌ كثيرةٌ. قيل: عشرةُ آلاف. وقيل: ثلاثون. وقيل: سبعون ألفًا.[١] والجملة حال مِن ضمير ﴿خَرَجُوا۟﴾. وقولُه عزّ وجلّ: ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ مفعول له.

رُوي أنّ أهلَ[٢] داوَرْدان[٣] -قرية قِبَل واسِط- وقَع فيهم الطاعونُ؛ فخرجوا منها هاربين، فأماتهم الله ثمّ أحياهم؛ ليَعتبِروا ويَعلَموا ألّا مفرَّ مِن حُكْم الله عزّ سلطانُه وقضائه. وقيل: مرّ عليهم حِزْقيلُ بعد زمانٍ طويل، وقد عرِيَتْ عِظامُهم وتفرَّقت أوصالُهم، فلَوَى شِدقَيه وأصابعَه تعجّبًا ممّا رأى مِن أمرهم، فأُوحيَ إليه: نادِ فيهم أنْ قُوموا بإذن الله تعالى، فنادى، فإذا هم[٤] قِيامٌ يقولون: سبحانك اللّهمّ وبحمدكَ لا إله إلا أنتَ. وقيل: هم[٥] قومٌ مِن بني إسرائيلَ دعاهم مَلِكهم إلى الجهاد فهَربوا حذرًا مِن الموت، فأماتهم الله تعالى ثمانية أيامٍ ثمّ أحياهم.[٦]

[٧٤و] وقوله عزّ وجلّ: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟﴾ إمّا / عبارةٌ عن تعلّق إرادته تعالى بمَوتهم دفعةً، وإمّا تمثيلٌ لإماتته تعالى إيّاهم مِيتةَ نفسٍ واحدة في أقربِ وقت وأدناه، وأسرعِ زمان وأوحاه، بأَمْرِ آمرٍ مُطاعٍ لمأمور مُطيع، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس، ٨٢/٣٦].

﴿ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾ عطفٌ إمّا على مقدَّر يستدعيه المقامُ،[٧] أي: فماتوا ثمّ أحياهم، وإنّما حُذِف للدلالة على الاستغناء عن ذِكْره؛ لاستحالة تخلُّف مراده تعالى عن إرادته؛ وإمّا على ﴿قَالَ﴾؛[٨] لِما أنّه عبارةٌ عن الإماتة. وفيه تشجيعٌ للمسلمين

---

١ الأقوال الثلاثة منقولة في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٠٨/١. وفي جامع البيان للطبري، ٤١٤/٤-٤١٧ أقوالٌ أُخَر في عَدَدهم.

٢ ط - أهل.

٣ هي قرية مِن نواحي شرقيّ واسط، بينهما فرسخ. انظر: معجم البلدان للحموي، ٤٣٤/٢.

٤ ي - هم.

٥ س - هم.

٦ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٢٢/١. وهو بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٤١٧/٤-٤١٨؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٤٥٧/٢-٤٥٨.

٧ وفي هامش ي: على التفسير الأوّل. «منه».

٨ وفي هامش ي: على التفسير الثاني. «منه».

على الجهاد والتعرّضِ لأسباب الشهادة، وأنّ الموت حيثُ لم يكن منه بدٌّ ولم ينفعْ منه[١] المَفرُّ فأَوْلى أن يكون في سبيل الله تعالى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ عظيمٍ ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ قاطبةً: أمّا أولئك فقد أحياهم؛ ليَعتبِروا بما جرى عليهم، فيفوزوا بالسعادة العظمى؛ وأمّا الذين سمِعوا قِصّتَهم فقد هداهم إلى مَسلَك الاعتبارِ والاستبصار. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: لا يَشكرون فَضلَه كما ينبغي. ويجوز أن يراد بـ"الشُّكر" الاعتبارُ والاستبصارُ. وإظهار ﴿ٱلنَّاسِ﴾ في مقام الإضمار لمزيد التشنيع.

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عطفٌ على مقدَّر يُعيّنه ما قبله، كأنّه قيل: فاشكُروا فضله بالاعتبار بما قُصَّ عليكم، وقاتِلوا في سبيله لِما علِمتُم أنّ الفِرار لا يُنْجي مِن الحِمام، وأنّ المقدَّر لا مَرَدَّ له، فإن كان قد حان الأجلُ فموتٌ في سبيل الله عزّ وجلّ، وإلّا فنصرٌ عزيزٌ وثوابٌ.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يَسمَع مَقالة السابقين والمتخلِّفين. ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يُضمِرونه في أنفسهم، وهو مِن وراء الجزاء خيرًا وشرًّا، فسارعوا إلى الامتثال، واحذروا المخالفة والمساهَلة.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ ﴿مَّن﴾ استفهاميّة مَرفوعةُ المَحلّ بالابتداء، و﴿ذَا﴾ خبرُه، والموصول صفة له، أو بدل منه. و"إقراضُ الله تعالى" مَثَل لتقديم العمل العاجِل طلبًا للثواب الآجِل، والمراد ههنا إمّا الجهاد الذي هو عبارةٌ عن بَذْل النفس والمال في سبيل الله عزّ وجلّ ابتغاءً لمرضاته؛ وإمّا مطلَق العمل الصالحِ المنتظِم له انتظامًا أوّليًا. ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي إقراضًا مقرونًا بالإخلاص وطِيْبِ النفسِ، أو مَقرَضًا حلالًا طيّبًا.

---

[١] ي: عنه.

﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ﴾ بالنصب على جواب الاستفهام حَمْلًا على المعنى، فإنّه في معنى: أَيُقرِضُه؟ وقُرئ بالرفع،[١] أي: يُضاعِفُ أجرَه وجزاءَه. جُعِل ذلك مضاعفةً له بناءً على ما بينهما مِن المناسبة بالسببيّة والمسبَّبيّة ظاهرًا، وصيغةُ المغالبة للمبالغة. وقُرئ: "فيُضَعِّفُه" بالرفع،[٢] وبالنصب.[٣] ﴿أَضۡعَافٗا﴾ جمعُ "ضِعْفٍ"، ونَصْبُه على أنّه حال مِن الضمير المنصوب، أو مفعولٌ بأن يُضمَّنَ المضاعفةُ معنى التصيير، أو مصدرٌ مؤكِّد على أنّ الضِعْف اسمٌ للمصدر، والجَمْعُ للتنويع. ﴿كَثِيرَةٗ﴾ لا يَعلَم قَدْرها إلّا اللهُ تعالى. «وقيل: الواحد بسبعمائة».[٤]

﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾ أي: يُقتِّر على بعض ويُوسِّع على بعضٍ، أو يُقتِّر تارةً ويُوسِّع أُخرى حسبما تقتضيه مَشيئتُه المَبنيّةُ على الحِكَم والمَصالح، فلا تَبخَلوا عليه بما وسَّع عليكم كي لا يُبدِّل أحوالَكم. ولعلّ تأخير البسط عن القبض في الذِّكْر؛ للإيماء إلى أنّه يَعقُبه في الوجود تسليةً للفقراء. وقُرئ: "يَبْصُطُ" بالصاد؛[٥] لمجاورة الطاء. ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فيُجازِيكم على ما قدَّمتُم مِن الأعمال خيرًا وشرًّا.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦﴾

---

[١] قرأ بها نافع وحمزة والكسائي وأبو عمرو وخلف. السبعة لابن مجاهد، ص ١٨٥؛ والنشر لابن الجزري، ٢٢٨/٢.

[٢] قرأ بها ابن كثير وأبو جعفر ويعقوب برواية رَوح. السبعة لابن مجاهد، ص ١٨٤؛ والنشر لابن الجزري، ٢٢٨/٢.

[٣] قرأ بها ابن عامر ويعقوب برواية رُويس. السبعة لابن مجاهد، ص ١٨٥؛ والنشر لابن الجزري، ٢٢٨/٢.

[٤] الكشّاف للزمخشري، ٢٢٣/١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٠٩/١. وأورده الطبري عن ابن زيد في جامع البيان، ٤٢٩/٤.

[٥] قرأ بها نافع والكسائي وأبو جعفر والبزي وأبو بكر ورَوح، وفيها خلاف وتفصيل يُذكَر في مظانّه. انظر: السبعة لابن مجاهد، ص ١٨٦؛ والتيسير للداني، ص ٢٩٦؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٠٩/١؛ والنشر لابن الجزري، ٢٢٨/٢-٢٣٠.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تقرير وتعجيب كما سبق، قُطِع عنه للإيذان باستقلاله في التعجيب،[١] مع أنّ له مزيدَ ارتباطٍ بما وُسّط بينهما مِن[٢] الأمر بالقتال. ﴿إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ المَلأُ مِن القوم: وُجوههم وأشرافهم، وهو اسمٌ للجماعة لا واحدَ له مِن لفظه، كالرَّهْط والقَوم، سُمُّوا بذلك لِما أنّهم يملئون العُيونَ مَهابةً والمَجالسَ بهاءً، أو لأنّهم مَليئون بما يُبتغى منهم. و﴿مِن﴾ تَبعيضيّة، وما في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ﴾ ابتدائيّةٌ، وعاملها مقدَّرٌ وقَع حالًا مِن ﴿ٱلْمَلَإِ﴾، أي: كائنين بعضَ بني إسرائيلَ مِن بعد وفاةِ موسى عليه السلام، ولا ضيرَ في اتّحاد الحَرفَين لفظًا عند اختلافهما معنًى.

﴿إِذْ قَالُوا۟﴾ منصوب بمضمَر يَستدعيه المَقام، أي: أَلَم ترَ إلى قصّة الملأ أو حديثهم، حينَ[٣] قالوا ﴿لِنَبِىٍّ لَّهُمُ﴾: هو يُوشَعُ بنُ نونِ بنِ أفراثيم بنِ يوسفَ عليهما السلام. وقيل: شمعون بنُ صعبةَ بنِ علقمةَ مِن ولَد لاوي بنِ يعقوبَ عليهما السلام. وقيل: أشمويلُ بنُ بالِ بنِ علقمةَ، وهو بالعبرانيّة إسماعيل.[٤] قال مقاتل: «هو مِن نسل هارونَ عليه السلام».[٥] وقال مجاهد: «أشمويلُ بنُ هلقايا».[٦] ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: أَنهِضْ للقتال معنا أميرًا نَصدُر في تدبير أَمرِ الحرب عن رأيه. وقُرئ: "نُقاتِلُ" بالرفع،[٧] على أنّه حال مقدّرة، أي: ابعثْه لنا مقدِّرين القتالَ، أو استئنافٌ مبنيٌّ على السؤال. وقُرئ: "يُقاتِلْ" بالياء مجزومًا،[٨] ومرفوعًا؛[٩] على الجواب للأمر، والوَصْف لـ﴿مَلِكًا﴾.

---

١ س: التعجُّب.

٢ ي: في.

٣ ي – حين.

٤ الأقوال الثلاثة باختصار في الأسماء في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٠٩/١. وهي مع اختلاف في رسم بعضها في جامع البيان للطبري، ٤٣٥/٤، ٤٣٧، ٤٤١؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٩٥/١؛ والأوّل في تفسير ابن أبي حاتم، ٤٦٣/٢.

٥ تفسير مقاتل بن سليمان، ٢٠٥/١.

٦ تفسير مقاتل بن سليمان، ٢٠٥/١؛ اللباب لابن عادل، ٢٦٧/٤. ولم يُنسَب فيهما إلى مجاهد.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٩٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٢٣/١.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن السُلمي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٩٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٢٣/١.

٩ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. الكشّاف للزمخشري، ٢٢٣/١؛ والمغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٥٢٧؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٠٩/١.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ وقَع جوابًا عن سؤال يَنساقُ إليه الذهن، كأنّه قيل: فماذا قال لهم النبيّ حينئذ؟ فقيل: قال: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُوا۟﴾، فُصِل بين "عسى" وخبرِه بالشرط للاعتناء به، أي: هل قاربتُم ألّا تُقاتِلوا كما أَتوقّعه منكم؟ والمراد تقرير أنّ المتوقَّع كائنٌ. وإنّما لم يُذكَر في مَعرِض الشرط ما التمسوه بأن قيل: هل عسَيتم إن بَعثتُ لكم مَلِكًا... إلخ؟ مع أنّه أَظهَر تعلّقًا بكلامهم؛ بل ذَكَر كتابةَ القتال عليهم للمبالغة في بيان تخلّفهم عنه؛ فإنّهم إذا لم يقاتلوا عند فَرْضيّة القتال عليهم بإيجاب الله تعالى فلَأَن لا يقاتِلوا عند عدم فَرْضيّته أَوْلى، ولأنّ إيراد ما ذكروه رُبّما يُوهِمُ أنّ سبب تخلّفهم عن القتال / هو [٧٤ظ] المبعوث لا نَفسُ القتال. «وقُرِئ: "عَسِيتُمْ" بكسر السين، وهي ضعيفةٌ».[١]

﴿قَالُوا۟﴾ استئناف كما سبق. ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ﴾ أي: أيُّ سبب لنا في ألّا نُقاتِلَ؟ ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ أي: والحال أنّه قد عَرَض لنا ما يُوجِب القتالَ إيجابًا قويًّا، مِن الإخراج عن الدِّيار والأوطان والاغترابِ مِن الأهل والأولاد. وإفراد الأبناء بالذِّكر لمزيد تقوية أسباب القتال. وذلك أنّ جالوت رأسَ العمالقةِ ومَلِكهم -وهو جبّارٌ مِن أولاد عِمْليق بن عاد- كان هو ومَن معه مِن العَمالقة[٢] يَسكنون ساحلَ بحر الرومِ بين مِصرَ وفِلسْطينَ، وظهروا على بني إسرائيلَ، وأخذوا ديارهم، وسَبَوا أولادهم، وأَسَرُوا مِن أبناء ملوكهم أربعَمائةٍ وأربعين نفسًا،[٣] وضرَبوا عليهم الجِزيةَ وأخذوا توراتَهم.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾ بعد سؤال النبيّ عليه السلام ذلك، وبَعْث المَلِك ﴿تَوَلَّوْا۟﴾ أي: أعرَضوا وتخلَّفوا، لكنْ لا في ابتداء الأمر؛ بل بعد مشاهدة كثرة العدُوّ وشَوكتِه، كما سيجيء تفصيله. وإنّما ذُكِر ههنا مآل أمرِهم إجمالًا؛

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ١/٢٢٣. تابع المُصنِّف الزمخشريَّ في تضعيفه قراءة صحيحة قرأ بها نافع، كما في السبعة لابن مجاهد، ص ١٨٦؛ والتيسير للداني، ص ٢٩٧؛ والنشر لابن الجزري، ٢/٢٣٠. ولذا غيّر البيضاويُّ العبارة فقال: «وقرأ نافع "عَسِيتُم" بكسر السين». أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٠٩.

[٢] ي: عمالقة.

[٣] مِن قوله: "وذلك أنّ جالوت" بلفظ قريب في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٠٩.

إظهارًا لِما بين قولِهم وفعلِهم مِن التنافي[١] والتباين.[٢] ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وهم الذين اكتفَوا بالغُرفة مِن النهر وجاوزوه، وهم ثلثُمائةٍ وثلاثةَ عَشرَ رجلًا،[٣] بعدد أهل بدر.[٤]

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وعيدٌ لهم على ظُلمهم: بالتولّي عن القتال، وتركِ الجهاد، وتنافي أقوالِهم وأفعالِهم. والجملة اعتراضٌ تذييليٌّ.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ شروع في تفصيل ما جرى بينه عليه السلام وبينهم مِن الأقوال والأفعال إثرَ الإشارةِ الإجماليّة إلى مصير حالهم، أي: قال لهم بعد ما أُوحي إليه ما أُوحي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ ﴿طَالُوتَ﴾ عَلَمٌ عِبْريٌّ كـ"داودَ". وجَعْلُه فَعْلوتًا مِن الطول يأباه مَنْعُ صَرْفِه.[٥] و﴿مَلِكًا﴾ حال منه. رُوي أنّه عليه السلام لمّا دعا ربَّه أن يَجعَل لهم مَلِكًا أتى بعصًا يُقاس بها مَن يُملَّكُ عليهم فلم يُساوِها إلّا طالوتُ.[٦]

﴿قَالُوٓاْ﴾ استئناف كما مرّ. ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ أي: مِن أين يكون؟ أو كيف يكون ذلك؟ ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ الواو الأُولى حاليّةٌ، والثانية عاطفةٌ جامعةٌ للجملتين في الحُكم، أي: كيف يَتملَّك علينا، والحالُ أنّه لا يَستحقّ التملّك؛ لوجود مَن هو أحقُّ منه، ولعدم ما يَتوقّف عليه المُلْكُ مِن المال. وسبب هذا الاستبعاد أنّ النبوّة كانت مخصوصةً بِسِبطٍ معيَّنٍ مِن أسباط بني إسرائيلَ، وهو سِبطُ لاوي بنِ يعقوبَ عليه السلام،

---

١ ي: التباين.

٢ ي: التنافي.

٣ ط ي - رجلًا.

٤ ذُكِرت عِدّتهم بهذا القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٢٣/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٠٩/١.

٥ انظر هذا الردّ في الكشّاف للزمخشري، ٢٢٤/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢١٠/١.

٦ انظر: جامع البيان للطبري، ٤٥٠/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢١٠/١.

وسِبط المملكةِ بسبطِ يهوذا ومنه داودُ وسليمانُ عليهما السلام، ولم يكن طالوتُ مِن أحد هذين السِّبطين؛ بل مِن وَلَد بنيامين.[١] قيل: كان راعيًا. وقيل: دبّاغًا. وقيل: سقّاءً.[٢]

﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ﴾ لمّا استبعدوا تملُّكه بسقوط نسَبِه وبفَقره ردَّ عليهم ذلك: **أوّلًا**: بأنّ مِلاكَ الأمرِ هو اصطفاءُ الله تعالى، وقد اختاره عليكم، وهو أعلَمُ بالمصالح منكم؛ **وثانيًا**: بأنّ العُمدة فيه وُفورُ العلم؛ ليَتمكّنَ به مِن معرفة الأمور السياسيّة، وجَسامةُ البدن؛ ليَعظُم خطرُه في القلوب ويَقدِرَ على مُقاوَمة الأعداء ومُكابدةِ الحروب، وقد خصَّه الله تعالى منهما بحظٍّ وافرٍ، وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ﴾ أي: العِلمِ المتعلِّق بالمُلْك، أو به وبالدِّيانات أيضًا. «وقيل: قد أُوحي إليه ونُبّئ».[٣] ﴿وَٱلْجِسْمِ﴾ قيل: بطُول القامة، فإنّه كان أطول مِن غيره برأسه ومَنكِبيه، حتّى إنّ الرجل القائم كان يمُدُّ يدَه فينال رأسه. وقيل: بالجَمال. وقيل: بالقوة.[٤]

﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ لِما أنّه مالِكُ المُلك والملَكوتِ، فعّالٌ لِما يُريد، فلَه أن يُؤتيَه مَن يشاءُ مِن عباده. ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ يُوسِّع على الفقير ويُغنيه. ﴿عَلِيمٌ﴾ بمَن يَليق بالمُلْك ممّن لا يَليق به. وإظهار الاسم الجليل لتربية المَهابة.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ توسيطُه فيما بين قوليه المَحكيَّين عنه عليه السلام؛ للإشعار بعدم اتّصال أحدِهما بالآخر، وتَخلُّلُ كلامٍ مِن جهة المخاطَبين متفرّعٌ

---

١ انظر للسبب المذكور تفسير مقاتل بن سليمان، ٢٠٥/١؛ وجامع البيان للطبري، ٤٤٧/٤-٤٤٨؛ وهو بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٢٢٤/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢١٠/١.

٢ الأقوال الثلاثة في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢١٠/١. والثاني والثالث منها في جامع البيان للطبري، ٤٤٨/٤، ٤٥٠؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٢٤/١.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٢٢٤/١.

٤ الأقوال الثلاثة في اللباب لابن عادل، ٢٧٢/٤. والأوّل منها في جامع البيان للطبري، ٤٥٥/٤؛ وهو مع ثانيها في معالم التنزيل للبغوي، ٢٩٨/١.

على السابق مستتبعٌ للاحق، كأنّهم طلَبوا منه عليه السلام آيةً تدلّ على أنّه تعالى اصطفى طالوتَ وملّكه عليهم. رُوي أنّهم قالوا: «ما آيةُ مُلكِه؟»[1] فقال: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ أي: الصُّندوق، وهو فَعْلوتٌ مِن التَّوْب الذي هو الرجوع، لِما أنّه لا يزال يَرجِع إليه ما يَخرُج منه، وتاؤه مَزيدةٌ لغير التأنيث، كـ"مَلَكوت" و"رَهَبوت"، والمشهورُ أن يُوقَف على تائه مِن غير أن تُقلبَ هاءً، ومنهم مَن يقلِبُها إيّاها، والمراد به: صُندوقُ التوراةِ، وكان قد رفعه الله عزّ وجلّ بعد وفاة موسى عليه السلام؛ سُخطًا على بني إسرائيلَ، لمّا عَصَوا واعتدَوا، فلمّا طلَب القوم مِن نبيّهم آيةً تدلُّ على مُلْك طالوتَ، قال لهم: «إنّ آية مُلْكِه أن يأتيَكم التابوتُ مِن السماءِ والملائكةُ يَحفَظونه»، فأتاهم كما وصَف والقومُ ينظرون إليه حتّى نزَل عند طالوتَ. وهذا قول ابن عبّاس رضي الله عنهما.[2]

وقال أرباب الأخبار: إنّ الله تعالى أَنزل على آدمَ تابوتًا فيه تماثيل الأنبياء عليهم السلام مِن أولاده، وكان مِن عُود الشِّمْشَاد نحوًا مِن ثلاثة أذرُعٍ في ذِراعين، فكان عند آدمَ عليه السلام إلى أن تُوفّي فتوارثه أولادُه واحدٌ بعد واحدٍ إلى أن وصلَ إلى يعقوبَ عليه السلام، ثمّ بقيَ في أيدي بني إسرائيلَ إلى أن وصلَ إلى موسى عليه السلام، فكان عليه الصلاة والسلام يَضعُ فيه التوراةَ، وكان إذا قاتل قدَّمه، فكانت تَسكُن إليه نفوس بني إسرائيلَ، وكان عنده إلى أن تُوفّي، ثمّ تَداولتْه أيدي بني إسرائيلَ، وكانوا إذا اختلَفوا في شيء تحاكَموا إليه فيُكلِّمهم ويحكُم بينهم، وكانوا إذا حضروا القتالَ يُقدِّمونه بين أيديهم ويَستفتِحون / به على عَدُوهم، وكانت المَلائكةُ تَحمِلُه فوق العَسْكر، [٧٥و] ثمّ يُقاتِلون العَدوّ فإذا سمعوا مِن التابوت صيحةً استيقنوا النصرَ. فلمّا عصَوا وأفسَدوا سلَّط الله عليهم العَمالقةَ فغلبوهم على التابوت وسلَبوه وجَعلوه في موضع البولِ والغائطِ.

---

[1] انظر: جامع البيان للطبري، ٤/٤٥٧.

[2] انظر قول ابن عبّاس بمعناه في جامع البيان للطبري، ٤/٤٥٥.

فلمّا أراد الله تعالى أن يُملّك طالوتَ سلّط عليهم البلاءَ، حتّى إنّ كلّ مَن بال عنده ابتُلي بالبواسير وهلَكت مِن بلادهم خمسُ مدائنَ، فعلم الكُفّار أنّ ذلك بسبب استهانتهم بالتابوت، فأخرجوه وجعلوه على ثورَين، فأقبَل الثوران يَسيران، وقد وكّل الله تعالى بهما أربعةً مِن الملائكة يَسوقونهما حتّى أتَوا مَنزِلَ طالوت، فلمّا سألوا نبيَّهم البيّنةَ على مُلْك طالوتَ قال لهم نبيّهم:[1] «إنّ آية مُلْكه أنكم تجِدون التابوت في داره»، فلمّا وجدوه عنده أيقنوا بمُلكه.[2]

﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: في إتيانه سكون لكم وطُمَأنينةٌ كائنةٌ مِن ربّكم، أو في التابوت ما تَسكُنون إليه، وهو التوراة المُودَعة فيه، بناءً على ما مرّ مِن أنّ موسى عليه السلام إذا قاتل قدَّمه فتَسكُن إليه نفوس بني إسرائيلَ. وقيل: "السكينة" صورةٌ كانت فيه مِن زَبَرْجَدٍ أو ياقوتٍ لها رأسٌ وذنَبٌ كرأس الهِرّ وذنَبِه وجناحان، فتَئِنُّ فيَزحَفُ التابوتُ نحوَ العدوّ وهم يَمضُون معه، فإذا استقرّ ثبَتوا وسكَنوا ونزل النصرُ.[3] وعن عليّ رضي الله عنه: «كان لها وجهٌ كوجه الإنسان، وفيها ريحٌ هفّافة».[4]

﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ هي رُضاض[5] الألواحِ، وعصا موسى وثيابُه، وشيءٌ مِن التوراة.[6] وكان قد رفعه الله تعالى بعد وفاة موسى عليه السلام. و"آلُهما" أبناؤهما أو أنفسهما، و"الآلُ" مُقحَمٌ لتفخيم شأنهما، أو أنبياءُ بني إسرائيلَ. ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ حال مِن التابوت، أي: إنّ آيةَ مُلْكه إتيانُه حالَ كونِه محمولًا للملائكة، وقد مرّ كيفيّة ذلك. ولعلّ حَمْل الملائكة على الرِّواية الأخيرة عبارةٌ عن سَوْقهم للثورين الحاملَين له.

---

[1] ط س: النبيّ.

[2] مِن "وقال أرباب الأخبار..." إلى هنا بلفظ قريب جدًّا في اللباب لابن عادل، ٢٧٤/٤-٢٧٥. وبعضه في معالم التنزيل للبغوي، ٢٩٨/١-٢٩٩.

[3] بعض هذا القول بمعناه في تفسير مقاتل بن سليمان، ٢٠٦/١؛ وجامع البيان للطبري، ٤٦٨/٤-٢٦٩. وهو عن مجاهد بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٢٩٩/١؛ وبلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٢٢٤/١.

[4] جامع البيان للطبري، ٤٥٧/٤؛ ٤٦٨؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٩٩/١. وبلفظ قريب في تفسير ابن أبي حاتم، ٤٦٨/٢.

[5] «رُضاض الشيء: فُتاته». الصحاح للجوهري، «رضض».

[6] بلفظ قريب عن ابن عبّاس والسُّدّي وغيرهما في جامع البيان للطبري، ٤٧٣/٤-٤٧٤؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٤٧٠/٢.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكِر مِن شأن التابوت، فهو مِن تمام كلام النبيّ عليه السلام لقومه أو إلى نَقلِ القصّة وحكايتها، فهو ابتداء كلامٍ مِن جهة الله تعالى جيءَ به قبل تمام القصّة إظهارًا لكمال العناية به، وإفرادُ حرفِ الخِطاب مع تعدّد المخاطَبين على التقديرين بتأويل الفريق أو غيره، كما سلف. ﴿لَأٓيَةً﴾ عظيمةً ﴿لَّكُمْ﴾ دالّةً على مُلْك طالوتَ، أو على نبوّة محمدٍ صلّى الله عليه وسلّم، حيثُ أُخبِر بهذه التفاصيل على ما هي عليه مِن غير سماعٍ مِن البشر. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: مصدِّقين بتمليكه عليكم، أو بشيءٍ مِن الآيات. و"إنْ" شرطيّةٌ، والجواب محذوفٌ ثقةً بما قبله. وقيل: هي بمعنى "إذ".

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ﴾ أي: انفصل بهم عن بيت المقدسِ. والأصلُ: فَصَل نفسَه، ولمّا اتّحد فاعلُه ومفعولُه شاع استعماله محذوف[١] المفعولِ حتّى نزل منزلة القاصرِ كـ"انفصل"، وقيل: فصَل فُصولًا، وقد جُوِّز كونه أصلًا برأسه ممتازًا مِن المتعدّي بمصدره: كـ"وَقَف وقوفًا ووَقَفه وقفًا"، وكـ"صدَّ[٢] صدودًا وصدَّه صدًّا"، و"رجَع رُجوعًا ورجَعه رَجْعًا".[٣] والباء متعلِّقة[٤] بمحذوف وقَع حالًا مِن طالوت، أي: ملْتبِسًا بهم ومصاحِبًا لهم. رُوي أنّه قال لقومه: «لا يَخرُجْ معي رجلٌ بنى بناءً لم يَفرُغْ منه، ولا تاجرٌ مشتغِلٌ بالتجارة، ولا متزّوجٌ بامرأة لم يَبْنِ عليها، ولا أبتغي إلّا الشابَّ النشيطَ الفارغ».[٥] فاجتَمع إليه ممّن اختاره ثمانون ألفًا،[٦] وكان الوقت قَيظًا، وسلَكوا مَفازةً، فسألوا أن يُجرِيَ الله تعالى لهم نهرًا،

---

[١] ي: بحذف.

[٢] ط: كصدّ.

[٣] انظر: الكشّاف للزمخشري، ١/٢٢٥.

[٤] س: مُتعلِّق.

[٥] بلفظ قريب جدًا في معالم التنزيل للبغوي، ١/٣٠١.

[٦] انظر: جامع البيان للطبري، ٤/٤٨٢؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٢/٤٧٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١/٣٠١.

فبعد ما ظهَر له ما تعلّقت به مَشيئتُه تعالى مِن جهة النبيّ عليه السلام، أو بطريق الوحي عند مَن يقول بنبوّته، ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ بفتح الهاء، وقُرئ بسكونها.[١]

﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ﴾ أي: ابتدأ شُرْبه مِن النهر، بأن كَرَع؛ لأنّه الشُّرْب منه حقيقة، ﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي: مِن جُملتي وأشياعي المؤمنين. وقيل: ليس بمتّصلٍ بي ومتّحدٍ معي، مِن قولهم: فلان منّي، كأنّه بعضُه لكمال اختلاطهما. ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ أي: لم يَذُقه، مِن طَعِم الشيءَ إذا ذاقه، مأكولًا كان أو مشروبًا أو غيرَهما. قال:

وإن شِئتِ حرَّمتُ النساءَ سِواكمُ   وإن شِئتِ لم أطعَمْ نُقاخًا ولا بَرْدا[٢]

أي: نومًا. ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ استثناء مِن قوله تعالى: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾. وإنّما أُخِّر مِن الجملة الثانية؛ لإبراز كمال العناية بها، ومعناه الرّخصة في اغتراف الغُرْفةِ باليد دون الكروع. والغُرْفة: ما يُغرَف، وقُرئ بفتح الغين،[٣] على أنّها مصدرٌ، والباء متعلِّقةٌ بـ﴿ٱغْتَرَفَ﴾، أو بمحذوف وقعَ صفةً لـ﴿غُرْفَةً﴾، أي: غُرْفةً كائنةً بيده. يُروى أنّ الغُرْفة كانت تكفي الرجُل لشُرْبه وإداوتِه[٤] ودوابِّه. وأمّا الذين شرِبوا منه فقد اسودَّت شفاهُهم وغلَبهم العَطشُ.[٥]

﴿فَشَرِبُواْ مِنْهُ﴾ عطفٌ على مقدّر يَقتضيه المَقام، أي: فابتلُوا به فشَرِبوا منه، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وهم المشار إليهم فيما سلف بالاستثناء مِن التولّي، وقُرئ:

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن حُميد والزُّهري والحَسن وطلحة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٢؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٩٦.

[٢] البيت لعمر بن أبي ربيعة في ديوانه، ص ٣٠٧. وهو للعَرجي في الزاهر للأنباري، ١/١٩٧؛ والصحاح للجوهري، «نقخ»؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ١/٣٥٩. وعجزه بلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ١/٢٢٦. نقل ابن الأنباري في شرح البيت أنّ أبا العبّاس «قال: النُّقاخ: الشراب العَذْبُ، والبَرْد: النوم»، وذكر هذا المعنى الزمخشريُّ بعد إيراده.

[٣] قرأ بها المدنيّان وابن كثير وأبو عمرو. السبعة لابن مجاهد، ص ١٨٧؛ والنشر لابن الجزري، ٢/٢٣٠.

[٤] الإداوة: إناء صغير مِن جِلد يُتّخذ للماء. لسان العرب لابن منظور، «عدو».

[٥] بلفظ قريب جدًّا في معالم التنزيل للبغوي، ١/٣٠٢؛ والكشّاف للزمخشري، ١/٢٢٦؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢١٢.

"إِلّا قَليلٌ مِنهُمْ"،[١] مَيلًا إلى جانب المعنى، وضَرْبًا عن[٢] عُدوة[٣] اللفظِ جانبًا؛ فإنّ قوله تعالى: ﴿فَشَرِبُواْ مِنۡهُ﴾ في قُوّة أن يُقال: فلم يُطيعوه فحُقّ أن يَرِدَ المستثنى مرفوعًا، كما في قول الفرزدق:[٤]

وعضُّ زمانٍ يا ابنَ مروانَ لم يَدَعْ   مِن المال إلّا مُسحَتٌ أو مُجلَّفُ[٥]

فإنّ قوله: "لم يَدَع" في حُكم "لم يُبقِ".

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ﴾ أي: النهرَ، ﴿هُوَ﴾ أي: طالوتُ. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ عطفٌ على الضمير المتَّصلِ المؤكَّدِ بالمنفصِل. والظرفُ متعلِّقٌ بـ"جَاوَزَ" لا بـ﴿ءَامَنُواْ﴾. وقيل: الواوُ حاليّة،[٦] والظرفُ متعلِّقٌ بمحذوف وقَع خبرًا مِن الموصول، كأنّه قيل: فلمّا جاوزه / والحالُ أنّ الذين آمنوا كائنون معه وهم أولئك القليلُ. وفيه [٧٥ظ] إشارة إلى أنّ مَن عداهم بمَعزِل مِن الإيمان. ﴿قَالُواْ﴾ أي بعضُ مَنْ معه مِن المؤمنين لبعضٍ ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ أي: بمُحاربتهم ومُقاومتهم،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وأُبيّ والأعمش. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٢؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٩٦؛ الكشّاف للزمخشري، ١/٢٢٦.

٢ ي: مِن.

٣ العدوة: الجانب والحافّة، والمكان المرتفع، والمكان المُتباعِد. انظر: لسان العرب لابن منظور، «عدو».

٤ هو همّام بن غالب بن صعصعة بن ناجية التميمي الدارمي، أبو فراس (ت. ١١٠هـ/٧٢٨م)، الشهير بالفرزدق، ولُقِّب بذلك لغلظه. شاعر مِن النُّبلاء مِن أهل البصرة، عظيم الأثر في اللغة. كان يقال: لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب، ولولا شعره لذهب نصف أخبار الناس. مِن شعراء الطبقة الأولى مِن الإسلاميّين. له أخبار وقصائد مشهورة مع جرير، جمعها أبو عبيدة في النقائض. وطُبع ديوانه مِرارًا، ولأبي سعيد السُّكّري شرحٌ عليه لمّا يُطبع. انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة، ١/٤٦٢-٤٧٢؛ والأعلام للزركلي، ٨/٩٣.

٥ البيت في ديوانه، ٢/٥٥٦، وروايته فيه «إلّا مُسحَتًا أو مُجرَّفُ» مكان «إلّا مُسحَتٌ أو مُجلَّفُ»؛ وهو له في غريب الحديث للخطّابي، ١/١٨٠، والرِّواية فيه «مُسحَتًا أو مُجلَّفُ»، وقال: «ويروى: إلّا مُسحَتٌ أو مُجلَّفُ»؛ وهو له في الصحاح للجوهري، «سحت»، «جلف»، وفيه أنّ المُسحَت: المُذهَب أو المُهلَك، والمُجلَّف: الذي أُخِذ مِن جوانبه. وما الذي ذكره المُصنِّف مِن أنّ «لم يدَع» في معنى «لم يبقَ»، نقله البغداديُّ عن الخليل، وفي البيت غيرُ وجه في روايته وتأويله، وهو مِن مُشكل الإعراب وصعبه عند النُّحاة. انظر تفصيل ذلك في خزانة الأدب للبغدادي، ٥/١٤٤-١٥٣.

٦ انظر: الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢/٥٣٠؛ واللباب لابن عادل، ٤/٢٨٥.

فضلًا عن أن يكون لنا غَلَبةٌ عليهم، لِما شاهدوا منهم مِن الكثرة والشدّة. قيل: كانوا مِئةَ ألفِ مقاتلٍ شاكي السِّلاح.[١]

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيٌّ على السؤال،[٢] كأنّه قيل: فماذا قال مُخاطِبُهم؟ فقيل: قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾. قيل: أي: الخُلَّصُ منهم الذين يتيقَّنون لقاء الله تعالى بالبعث ويتوقَّعون ثوابه.[٣] وإفرادهم بذلك الوصف لا يُنافي إيمانَ الباقين، فإنّ درجاتِ المؤمِنين في التيقّن والتوقّع متفاوتةٌ، أو الذين يعلمون أنّهم يُستشهَدون عمّا قريب، فيَلقَوْن الله تعالى. وقيل: الموصولُ عبارةٌ عن المؤمنين كافةً.[٤] والضميرُ في ﴿قَالُواْ﴾ للمنخذِلين[٥] عنهم، كأنّهم قالوه اعتذارًا عن التخلّف، والنهرُ بينهما.

﴿كَم مِّن فِئَةٍ﴾ أي: فِرْقةٍ وجماعةٍ مِن الناس، مِن فأَوْتُ رأسَه إذا شققْتَها، أو مِن فاء إليه إذا رجَع، فوَزنُها على الأوّل "فِعَةٌ" وعلى الثاني "فِلَةٌ".[٦] ﴿قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ﴾، و"كم" خبريّةً كانت أو استفهاميّةً مفيدةٌ للتكثير، وهي في حيّز الرفعِ بالابتداء، خبرُها ﴿غَلَبَتۡ﴾، أي: كثيرٌ مِن الفِئات القليلة غَلَبت الفِئاتِ الكثيرةَ. ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بحُكمه وتيسيره، فإنّ دوران كافّة الأمور على مشيئته تعالى، فلا يَذِلُّ مَن نصرَه وإن قلّ عددُه، ولا يَعِزُّ مَن خَذله وإن كثُر أسبابُه وعُدَدُه.

وقد رُوعيَ في الجواب نكتة بديعة، حيثُ لم يقُلْ: أطاقتْ[٧] بفئة كثيرةٍ[٨] حسبما وقع في كلام أصحابهم مبالغةً في ردِّ مقالتهم وتسكينِ قلوبهم. وهذا كما ترى جوابٌ ناشئ مِنْ كمال ثقتهم بنصر الله تعالى وتوفيقه، ولا دَخْلَ في ذلك لظنّ لقاءِ الله تعالى بالبعث، لاسيّما بالاستشهاد، فإنّ العلمَ به رُبّما يُورِثُ اليأسَ مِن الغَلَبة، ولا لتوقّع ثوابِه تعالى، ولا ريبَ في أنّ ما ذُكِر في حيّز الصلة

---

١ لم أقف على هذا القول فيما بين يديّ مِن المصادر. | ورجل شاكي السلاح: ذو شوكة وحدّ في سلاحه. انظر: لسان العرب لابن منظور، «شكا».

٢ ي: سؤال.

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٢٦/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢١٢/١.

٤ انظر معنى هذا القول فيما نُقِل في جامع البيان للطبري، ٤٩٤/٤؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٤٧٦/٢.

٥ ط س ي: للمنخزلين.

٦ هذا الكلام في اشتقاق "فئة" مذكورٌ في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٥٣٢/٢؛ واللباب لابن عادل، ٢٨٧/٤.

٧ ي: لنا طاقة.

٨ س: كثير.

ينبغي أن يكون مَدارًا للحُكم الوارد على الموصول، لا أقلَّ مِن أن يكون وصفًا مُلائمًا له، فلعلّ المراد بلقائه تعالى لقاءُ نصرِه وتأييدِه، عُبّر عنه بذلك مبالغةً، كما عُبّر عن مُقارَنة نصره تعالى لمقارنته سبحانه حيث قيل: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، فإنّ المراد به مَعيّةُ نصرِه وتوفيقِه حتمًا. وحَملها على المعيّة بالإثابة كما فُعِل[١] يأباه أنّهم إنّما قالوه تتميمًا لجوابهم، وتأييدًا له بطريق الاعتراض التذييليّ تشجيعًا لأصحابهم وتثبيتًا لهم على الصبر المؤدّي إلى الغَلَبة، ولا تعلّقَ له بما ذُكِر مِن المعيّة بالإثابة قطعًا، وكذا الحال إذا جُعِل ذلك ابتداءَ كلامٍ مِن جهة الله تعالى جيءَ به[٢] تقريرًا لكلامهم. والمعنى: قال الذين يَظنّون أو يعلمون مِن جهة النبيّ أو مِن جهة التابوتِ والسكينة أنّهم مُلاقو نصرِ الله العزيزِ: كم مِن فئةٍ قليلة غَلَبت فئةً كثيرةً بإذن الله تعالى! فنحن أيضًا نَغلِبُ جالوتَ وجنودَه. وإيراد خبرِ "أنّ" اسمًا مع أنّ اللقاء مستقبَلٌ؛ للدَلالة على تقرّره وتحقّقه.

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠﴾

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ﴾ أي: ظهر طالوتُ ومَن معه مِن المؤمنين، وصاروا إلى بَراز[٣] مِن الأرض في مَوطِن الحرب. ﴿لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ وشاهدوا ما هم عليه مِن العَدَد والعُدَد، وأيقنوا أنّهم غيرُ مطيقين بهم عادةً. ﴿قَالُواْ﴾ أي: جميعًا عند تقوّي قلوبِ الفريق الأوّل منهم بقول الفريق الثاني، متضرّعين إلى الله تعالى مستعينين به: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ على مُقاساة شدائد الحربِ واقتحامِ مَوارِدِه الصعبةِ الضيقة. وفي التوسّل بوَصف "الربوبيّة" المُنبئة عن التبليغ إلى الكمال، وإيثارِ "الإفراغِ" المُعرِب عن الكثرة، وتنكيرِ "الصبر" المُفصِح عن التفخيم، مِن الجزالة ما لا يخفى.

﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾ في مَداحِض القِتالِ ومَزالِّ النِّزالِ. وثباتُ القدم عبارةٌ عن كمال القوّة والرُّسوخِ عند المُقارَعة وعدمِ التزلزُل وقتَ المُقاوَمة لا مجرّد التقرّر في حيّز واحدٍ.

---

١ ي: قيل.

٢ ي – به.

٣ «البَراز: الفضاء الواسع». **الصحاح للجوهري،** «برز».

﴿وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بقَهْرهم وهَزْمهم. ووَضْعُ الكافرين في موضع الضمير العائد إلى جالوتَ وجنودِه[1] للإشعار بعِلّة النصر عليهم. ولقد راعَوْا في الدُّعاء ترتيبًا بديعًا؛ حيثُ قدَّموا سؤالَ إفراغ الصبر الذي هو مِلاكُ الأمر، ثمّ سؤالَ تثبيت القدم المتفرّع عليه، ثمّ سؤالَ النصر الذي هو الغاية القصوى.

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٥١﴾

﴿فَهَزَمُوهُم﴾ أي: كسروهم بلا مُكْثٍ. ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ بنصره وتأييده إجابةً لدعائهم. وإيثار هذه الطريقة على طريقة قوله عزّ وجلّ: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا﴾... إلخ؛ [آل عمران، ١٤٨/٣] للمحافظة على مضمون قولِهم: غَلَبتْ فئةً كثيرةً بإذن الله.

﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ كان إيشا أبو داودَ في عَسْكر طالوتَ معه ستّةٌ مِن بنيه، وكان داودُ عليه السلام سابعَهم، وكان صغيرًا يَرعى الغَنَم، فأوحى الله تعالى[2] إلى نبيّهم أنّه الذي يقتُل جالوتَ، فطلبه مِن أبيه فجاء، وقد مرّ في طريقه بثلاثة أحجار، قال له كلّ منها: «احمِلنا؛ فإنّك بنا تَقتُل جالوتَ»، فحملها في مِخْلاته. قيل: لمّا أبطأ على أبيه خَبرُ إخوته في المَصافِّ أرسل داودُ إليهم ليأتيَه بخبرهم، فأتاهم وهم في القِراع، وقد برَز جالوتُ بنفسه إلى البِراز، ولا يكاد يُبارِزه أحدٌ، وكان ظِلّه مِيلًا، فقال داودُ لإخوته: «أمَا فيكم مَن يخرج إلى هذا الأقلَفِ»،[3] فزجروه فنحى[4] ناحية أخرى ليس فيها إخوتُه، وقد / مرّ به طالوتُ وهو يُحرّض الناسَ على القِتال، فقال له داودُ: «ما تَصنعون بمَن يقتُل هذا الأقلَفَ؟» قال طالوتُ: «أُنكِحُه بنتي وأُعطيه شطرَ مملكتي»، فبرَز له داودُ فرماه بما معه مِن الأحجار بالمِقلاع فأصابه في صدره، فنَفَذ[5] الأحجارُ منه وقَتلت بعده ناسًا كثيرًا. [٧٦و]

---

[1] ي: وجنود.
[2] ط - تعالى.
[3] الأقلف: الذي لم يُختن. انظر: لسان العرب لابن منظور، «قلف».
[4] ط: فتنحى.
[5] ي: فنفذت.

وقيل: إنّما كلّمه الأحجارُ عند بروزه لجالوتَ في المعركة. فأنجَز له طالوتُ ما وَعده. وقيل: إنّه حسَده وأخرَجه مِن مملكته، ثُمّ ندِم على ما صنعه فذهب يطلُبه إلى أن قُتِل، ومُلِّك داودُ عليه السلام وأعطيَ النبوّةَ.[1]

وذلك قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ أي: مُلكَ بني إسرائيلَ في مَشارق الأرض المقدّسة ومغاربِها. ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: النبوّةَ، ولم يَجتمِع في بني إسرائيلَ المُلك والنبوّة قبله إلّا له، بل كان المُلْكُ في سِبْط والنبوّة في سِبط آخرَ، وما اجتمعوا قبله على مَلِك قطّ. ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ أي: ممّا يشاء الله تعالى تعليمَه إيّاه، لا ممّا يشاء داودُ عليه السلام، كما قيل؛ لأنّ مُعظَم ما علّمه تعالى إيّاه ممّا لا يَكاد يخطرُ ببال أحد، ولا يقع في أُمنيّة بشَرٍ؛ ليتمكّنَ مِن طلَبه ومشيئته، كالسَّرَد بإلانةِ الحديد، ومَنطقِ الطير والدوابِّ، ونحوِ ذلك مِن الأمور الخفيّة.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم﴾ الذين يُباشِرون الشرّ والفساد ﴿بِبَعْضٍ﴾ آخرَ منهم برَدّهم عمّا هم عليه بما قدَّر الله تعالى مِن القتل، كما في القصّة المَحكيّة أو غيره. وقُرئ: "دِفاعُ اللهِ"،[2] على أنّ صيغة المغالَبة[3] للمبالغة. ﴿لَفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ وبطَلت مَنافعُها وتعطّلت مَصالحُها مِن الحرْث والنسل وسائر ما يَعمُر الأرضَ ويُصلِحها. وقيل: لولا أنّ الله ينصُر المسلمين على الكفّار[4] لفسَدت الأرضُ بعَيْثهم وقَتْلهم المسلمين،[5] أو لو لم يَدفَعهم بالمسلمين[6] لعمّ الكُفر ونزلت السَّخْطة، فاستؤصلَ أهلُ الأرضِ قاطبةً.[7]

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ﴾ عظيمٍ لا يُقادَر قَدْرُه. ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كافةً، وهذا إشارة إلى قياس استثنائيّ مؤلَّف مِن وَضْع نقيضِ المقدَّمِ مُنتِجٍ لنقيض التالي،

---

[1] الخبر بمعناه مُفرّق في جملة مِن الأخبار الطويلة في جامع البيان للطبري، ٤/٤٩٨-٥٠٦؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١/٣٠٣-٣٠٦. وبعضه في تفسير ابن أبي حاتم، ٢/٤٧٧-٤٧٨؛ والكشّاف للزمخشري، ١/٢٢٧؛ واللباب لابن عادل، ٤/٢٩٠-٢٩١.

[2] قرأ بها المدنيّان ويعقوب. السبعة لابن مجاهد، ص ١٨٧؛ والنشر لابن الجزري، ٢/٢٣٠.

[3] ي: المفاعلة.

[4] ي: الكافرين.

[5] القول بمعناه في تفسير مقاتل بن سليمان، ١/٢١١؛ وهو كذلك عن ابن عبّاس ومجاهد في معالم التنزيل للبغوي، ١/٣٠٧؛ وهو بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ١/٢٢٧.

[6] ي - بالمسلمين.

[7] القول بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ١/٢٢٧.

خلا أنّه قد وُضِع مَوضعَه ما يَستتبِعه ويَستوجِبه، أعني كونَه تعالى ذا فضلٍ على العالمين، إيذانًا بأنّه تعالى متفضِّل في ذلك الدَّفْع مِن غير أن يَجِبَ عليه ذلك، وأنّ فَضله تعالى غير منحصِرٍ فيه، بل هو فردٌ مِن أفراد فضلِه العظيم، كأنّه قيل: ولكنّه تعالى يَدفَع فسادَ بعضهم ببعض، فلا تَفسُدُ الأرضُ وتنتظِم به مصالح العالَمِ وتنصَلِحُ أحوالُ الأمم.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٥٢﴾

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى ما سلَف مِن حديث الألوفِ وخبرِ طالوتَ على التفصيل المرقومِ، وما فيه مِن معنى البُعد؛ للإيذان بعُلوّ شأن المشار إليه. ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ المُنزَلةُ مِن عنده تعالى، والجملةُ مستأنَفة. وقوله تعالى: ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ أي: بواسطة جبرائيلَ[١] عليه السلام، إمّا حال مِن "الآيات" والعاملُ معنى الإشارة، وإمّا جملة مستقلّة لا محلّ لها مِن الإعراب. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ في حيّز النصب على أنّه حال مِن مفعول ﴿نَتْلُوهَا﴾، أي: ملتبِسةً باليقين الذي لا يَرتاب فيه أحدٌ مِن أهل الكتاب وأربابِ التواريخ لِما يجدونها موافِقةً لِما في كُتبهم، أو مِن فاعلِه، أي: نتلوها عليك ملتبِسين بالحقّ والصواب، أو مِن الضمير المجرور، أي: ملتبِسًا بالحقّ والصِّدق.

﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: مِن جُملة الذين أُرسِلوا إلى الأُمَم لتبليغ رسالاتنا وإجراءِ أوامرِنا وأحكامنا عليهم، فإنّ هذه المعاملة لا تجري بيننا وبين غيرهم، فهي شهادة منه سبحانه برسالته صلّى الله عليه وسلّم إثرَ بيانِ ما يَستوجِبها. والتأكيد مِن مقتضيات مَقامِ الجاحدين بها.

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ۝٢٥٣﴾

---

[١] س: جبريل.

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾ استئناف فيه رمزٌ إلى أنّه صلّى الله عليه وسلّم مِن أفاضلِ الرّسل العِظام عليهم الصلاة والسلام، إثرَ بيانِ كونِه مِن جملتهم والإشارةِ إلى الجماعة الذين مِن جملتهم النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم. فاللام في المآل للاستغراق، وما فيه مِن معنى البعد للإيذان بعُلُوّ طبقتهم وبُعدِ منزلتهم. وقيل: إلى الذين ذُكِرَت قِصصُهم في السورة.[1] وقيل: إلى الذين ثبَت علمُه عليه السلام بهم.[2] ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في مراتب الكمالِ، بأنْ خصَصْناه حسبما تقتضيه مَشيئتُنا بمآثِرَ جليلةٍ خلا عنها غيرُه.

﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ تفصيل للتفضيل المذكور إجمالًا، أي: فضَّله بأنْ كلَّمه تعالى بغير سفيرٍ وهو موسى عليه السلام؛ حيثُ كلَّمه تعالى ليلةَ الحَيْرة وفي الطُّور. وقُرِئ: "كَلَّمَ اللهَ" بالنصب،[3] وقُرِئ: "كالَمَ اللهَ"،[4] مِن المكالمة؛ فإنّه كلَّم اللهَ تعالى كما أنّه تعالى كلَّمه، ويُؤيِّده "كَليمُ الله" بمعنى مُكالِمه. وإيراد الاسم الجليل بطريق الالتفات لتربية المَهابة، والرَّمزِ إلى ما بين التكليم والرَّفعِ وبين ما سبَق مِن مطلَق التفضيل وما لَحِق مِن إيتاء البيّناتِ والتأييد بروحِ القدسِ مِن التفاوُت.

﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ أي: ومنهم مَن رفَعه على غيره مِن الرُّسل المتفاوِتين في مَعارجِ الفضل بدرجات قاصيةٍ ومَراتبَ نائيةٍ. وتغيير الأسلوب لتربية ما بينهم مِن اختلاف الحالِ في درجات الشرفِ. والظاهرُ أنّه رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم؛[5] كما يُنبئ عنه الإخبارُ بكونه عليه السلام منهم، فإنّ ذلك في قُوّة بعضهم، فإنّه قد خُصَّ بالدعوة العامّة، والحُجَج الجَمّة، والمعجزاتِ المستمِرّة، والآياتِ المتعاقِبة بتعاقُب الدهور، والفضائلِ العلميّة والعمليّة الفائتةِ للحصر. والإبهام لتفخيم شأنه، وللإشعار بأنّه العَلَمُ الفَردُ الغنيُّ عن التعيين. وقيل:

---

[1] ذكر ذلك الطبريُّ في جامع البيان، ٥١٩/٤؛ والزمخشريُّ في الكشّاف، ٢٢٧/١.

[2] هذا الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٢٢٧/١.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش وابن وثّاب وإبراهيم النخَعي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٢؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٢٧/١؛ والمغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ٥٣١.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٢؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٢٧/١.

[5] انظر: جامع البيان للطبري، ٥٢٠/٤؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٣٦٣/١؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٠٨/١-٣٠٩؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٢٧/١.

إنّه إبراهيمُ عليه السلام؛ حيثُ خصَّه تعالى بكرامة الخُلّة. وقيل: إدريسُ عليه السلام، حيثُ رفَعه مكانًا عليًّا. وقيل: أُولو العَزم مِن الرُّسُل عليهم السلام.[١]

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الآياتِ الباهرةَ والمعجزاتِ الظاهرةَ: مِن إحياء الموتى، وإبراءِ الأكمَه والأبرصِ، والإخبارِ بالمغيَّبات، أو **الإنجيلَ**. ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾ أي: / قوّيناه ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ بضمّ الدال، وقُرئ بسكونها،[٢] أي: بالرُّوح المقدَّسة، كقولك: رجلُ صِدْقٍ، وهي رُوحُ عيسى عليه السلام.[٣] وإنّما وُصِفَت بالقُدس للكرامة، أو لأنّه عليه السلام لم تضُمَّه الأصلابُ ولا أرحامُ الطَّوامِث. وقيل: بجبريلَ[٤] عليه السلام.[٥] وقيل: **بالإنجيلِ**،[٦] كما مرّ. وإفراده عليه السلام بما ذُكِر لردّ ما بين أهلِ الكتابَين في شأنه عليه السلام مِن التفريط والإفراط. والآية ناطقةٌ بأنّ الأنبياء عليهم السلام متفاوتةُ الأقدار، فيجوزُ تفضيلُ بعضِهم على بعض، ولكن بقاطع.

[٧٦ظ]

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أي: جاءوا مِن بعد الرسل مِن الأُمم المختلِفة، أي: لو شاء الله عدمَ اقتتالهم ما اقتتلوا بأن جعلَهم متّفقين على اتّباع الرُّسُلِ المتَّفقةِ على كلمة الحقّ. فمفعول المشيئة محذوفٌ؛ لكونه مضمونَ الجزاءِ على القاعدة المعروفة.[٧] وقيل: تقديره: لو شاء هُدى الناس جميعًا ما اقتتل... إلخ،[٨] وليس بذاك. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ﴾ مِن جهة أولئك الرُّسُل ﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ المعجِزاتُ الواضحةُ والآياتُ الظاهرة الدلالةِ على حقيّة الحقّ، الموجِبةُ لاتّباعهم، الزاجرةُ عن الإعراض عن سَننهم المؤدِّي إلى الاقتتال. فـ"مِنْ" متعلِّقةٌ بـ﴿ٱقْتَتَلَ﴾.

---

١ الأقوال الثلاثة في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢١٤/١.

٢ قرأ بها ابن كثير. السبعة لابن مجاهد، ص ١٦٤؛ والنشر لابن الجزري، ٢١٦/٢.

٣ ط - عليه السلام.

٤ ي: جبرئيل. | انظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ٢١٢/١؛ وجامع البيان للطبري، ٢٢٢/٢-٢٢٣ (البقرة، ٨٧/٢).

٥ ط ي - عليه السلام.

٦ انظر: جامع البيان للطبري، ٢٢٣/٢-٢٢٤ (البقرة، ٨٧/٢).

٧ انظر الكلام على حذف مفعول المشيئة في دلائل الإعجاز للجرجاني، ص ١٦٣-١٦٧.

٨ انظر هذا التقدير في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢١٤/١.

﴿وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ﴾ استدراك مِن الشرطيّة، أُشِير به إلى قياس استثنائي مؤلَّفٍ مِن وَضْع نقيض مقدَّمها مُنتِج لنقيض تاليها، إلّا أنّه قد وُضِع فيه الاختلافُ مَوضِعَ نقيض المقدَّم المترتّب عليه؛ للإيذان بأنّ الاقتتال ناشئ مِن قِبَلهم لا مِن جهته تعالى ابتداءً، كأنّه قيل: ولكنْ لم يشأ عدمَ اقتتالِهم؛ لأنّهم اختلفوا اختلافًا فاحشًا ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ﴾ أي: بما جاءت به أولئك الرُّسُل مِن البيّنات وعمِلوا به، ﴿وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَ﴾ بذلك كُفرًا لا ارعواءَ له عنه، فاقتضت[1] الحِكمة عدمَ مشيئته تعالى لعدم اقتتالهم، فاقتتلوا بمُوجَب اقتضاءِ أحوالِهم.

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ عدمَ اقتتالهم -بعد هذه المرتبة أيضًا مِن الاختلاف والشِّقاق المستتبِعَين للاقتتال، بحسب العادة- ﴿مَا ٱقۡتَتَلُواْ﴾، وما نبَض منهم عِرقُ التطاوُل والتعادي لِما أنّ الكلّ تحت مَلَكوته تعالى. فالتكريرُ ليس للتأكيد، كما ظُنّ؛[2] بل للتنبيه على أنّ اختلافهم ذلك ليس مُوجِبًا لعدم مَشيئته تعالى لعدم اقتتالهم، كما يُفهَم ذلك مِن وَضْعه في[3] الاستدراك[4] مَوضِعه؛ بل هو سبحانه وتعالى[5] مختار في ذلك، حتّى لو شاء بعد ذلك عدم اقتتالهم ما اقتتلوا، كما يُفصِح عنه الاستدراك بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أي: مِن الأمور الوجوديّة والعدميّة التي مِن جملتها عدمُ مَشيئة[6] عدمِ اقتتالِهم، فإنّ التَّرْك أيضًا مِن جملة الأفعال، أي: يفعل ما يريد حسبما يريد مِن غير أن يوجبه عليه مُوجِب، أو يَمنَعَه منه مانعٌ. وفيه دليلٌ بيّنٌ على أنّ الحوادث تابعةٌ لمَشيئته سبحانه،[7] خيرًا كان أو شرًّا، إيمانًا كان أو كُفرًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ﴾ في سبيل الله ﴿مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ أي: شيئًا ممّا رزقناكموه، على أنّ "ما" موصولةٌ حُذِف عائدُها، والتعرّض لوصوله منه تعالى

---

[1] ي: فاقتضى.

[2] ذهب إلى ذلك الزمخشريُّ في الكشّاف، ١/٢٢٨؛ وتابعه على ذلك البيضاويُّ في أنوار التنزيل، ١/٢١٤.

[3] ي - في.

[4] ي: للاستدراك.

[5] ط س - وتعالى.

[6] ط: مشيئته.

[7] س: تعالى.

للحثّ على الإنفاق، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد، ٧/٥٧]. والمرادُ به الإنفاقُ الواجبُ بدلالة ما بعده مِن الوعيد.

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾، كلمةُ ﴿مِنْ﴾ متعلِّقةٌ بما تعلَّقت به أختها، ولا ضيرَ فيه لاختلاف معنييهما؛ فإنّ الأُولى تبعيضيّةٌ، وهذه لابتداء الغاية، أي: أَنفِقوا ببعض ما رزقناكم مِن قبلِ أنْ يأتيَ يومٌ لا تَقدِرون على تلافي ما فرّطتُم فيه؛ إذ لا تبايُعَ فيه حتّى تبتاعوا ما تُنفِقونه أو[1] تفتدون به مِن العذاب، ولا خُلّةَ حتّى يُسامِحَكم به أخلّاؤكم أو يُعينوكم عليه، ولا شفاعةَ إلّا لمَن أَذِن له الرحمنُ ورضِيَ له قولًا حتّى تتوسّلوا بشفعاءَ يَشفعون لكم في حطّ ما في ذِمّتكم. وإنّما رُفعت الثلاثة مع قصد التعميم؛ لأنّها في التقدير جوابُ: هل فيه بيعٌ أو خُلّةٌ أو شفاعةٌ؟ وقُرئ بفتح الكلّ.[2]

﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: والتاركون للزكاة. وإيثارُه عليه للتغليظ والتهديد، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ [آل عمران، ٩٧/٣] مكانَ "ومَنْ لم يحُجّ"؛[3] وللإيذان بأنَّ تَرْكَ الزكاة مِن صفات الكُفّار. قال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت، ٤١/٦-٧]. ﴿هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: الذين ظلموا أنفسَهم بتعريضها للعقاب، ووَضعوا المال في غير مَوضعِه، وصرَفوه إلى غير وجهه.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٢٥٥﴾

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ، أي: هو المستحِقّ للمعبوديّة لا غيرُ، وفي إضمار خبرِ ﴿لَا﴾ -مِثل: في الوجود، أو يصِحّ أن يُوجد- خلافٌ للنُّحاة معروفٌ.

---

[1] س: أي.

[2] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. السبعة لابن مجاهد، ص ١٨٧؛ والنشر لابن الجزري، ٢٣٠/٢.

[3] يريد قوله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران، ٩٧/٣].

﴿ٱلۡحَيُّ﴾ الباقي الذي لا سبيلَ عليه للموت والفناء، وهو إمّا خبر ثانٍ، أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أو بدلٌ مِن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أو بدلٌ مِن ﴿ٱللَّهُ﴾، أو صفةٌ له، ويعضُده القراءةُ بالنَّصْب، على المدح؛ لاختصاصه بالنعت. ﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾ فَيعولٌ، مِن قام بالأمر إذا حفِظه، أي: دائمُ القيام بتدبير الخَلْق وحِفْظه. وقيل: هو القائم بذاته المُقيمُ لغيره.[١]

﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾ "السِّنةُ": ما يَتقدَّم النومَ مِن الفتور.[٢] قال عديّ بن الرِّقاع العامليُّ:[٣]

وَسْنانُ أَقْصَدَهُ النُّعاسُ فرنَّقتْ   في عينه[٤] سِنةٌ وليس بنائمِ[٥]

و"النوم": «حالةٌ تعرِضُ الحيوان مِن استرخاء أعصاب الدِّماغ مِن رُطوبات الأَبخِرة المتصاعِدة، بحيث تقِف المشاعرُ الظاهرةُ عن الإحساس رأسًا».[٦] والمراد بيان انتفاءِ اعتراءِ شيءٍ منهما له سبحانه؛ لعدم كونهما مِن شأنه تعالى، لا لأنّهما قاصران بالنسبة إلى القُوّة الإلهيّة فإنّه بمَعزِل مِن مقام التنزيه، فلا سبيلَ إلى حَمْل النظم الكريمِ على طريقة المبالغة والترقّي، بناءً على أنّ القادر على دَفْع السِّنَة قد لا يَقدرُ على دَفْع النوم القويّ، كما في قولكَ: فلانٌ يَقِظٌ لا تَغلِبُه سِنةٌ ولا نوم، وإنّما تأخيرُ النوم للمحافظة على ترتيب الوجود الخارجيّ. وتوسيط كلمة ﴿لَا﴾ للتنصيص على شُمول النفي لكلٍّ منهما، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ﴾ الآية [التوبة، ١٢١/٩].

---

١ انظر القول بمعناه في تفسير الرازي، ١٣٠/٧ (آل عمران، ٢/٣).

٢ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢١٥/١.

٣ هو عَديّ بن زيد بن مالك بن عَديّ بن الرِّقاع، أبو داود (ت. نحو ٩٥هـ/٧١٤م)، مِن عاملة، وهو حيٌّ مِن قُضاعة. شاعر كبير مِن أهل دمشق، كان معاصرًا لجرير ومُهاجيًا له، مقدَّمًا عند بني أميّة ومدّاحًا لهم، خاصًّا بالوليد بن عبد الملك. لُقِّب بشاعر أهل الشام. ديوانه مطبوع برواية أبي العبّاس ثعلب وشرحه. انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة، ٦٠٣/٢-٦٠٦؛ والأعلام للزركلي، ٢٢١/٤.

٤ في هامش ط ي: خ [اختصارًا مِن "نسخة"]: جفنه.؛ أ: جفنه.

٥ البيت في ديوان عديّ برواية ثعلب وشرحه، ص ١٢٢؛ وهو له في جامع البيان للطبري، ٥٣٠/٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٢٩/١. وقال ثعلب في شرح البيت: «الوسنان: الناعس. أقصَده، أي: بلغ منه وجهده... ويقال: رماه فأقصده، أي: قتله، وهذا أصل الكلمة. رنَّقت: دارت وماجت، ورنَّق الطائر إذا جعل يحوم ويدور».

٦ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢١٥/١.

[٧٧و] وأمّا التعبير عن عدم الاعتراءِ والعُروضِ بعدم الأَخْذ / فلِمراعاة الواقع؛ إذ عُروضُ السِّنة والنومِ لمَعروضهما إنّما يكون بطريق الأخذ والاستيلاء. وقيل: هو مِن باب التكميل، والجملة تأكيد لِما قبلها مِن كونه تعالى حيًا قيُومًا، فإنّ مَنْ يَعتريه أحدُهما يكونُ مَئوفَ[١] الحياةِ قاصرًا في الحفظ والتدبير. وقيل: استئناف مؤكِّدٌ لِما سبَق. وقيل: حال مؤكِّدةٌ، مِن الضمير المستكِن في القيّوم.[٢]

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تقرير لقيّوميّته تعالى، واحتجاجٌ به على تفرّده في الأُلوهيّة، والمرادُ بما فيهما ما هو أعمّ مِن أجزائهما الداخلة فيهما، ومِن الأمور الخارجة عنهما المتمكِّنة فيهما مِن العقلاء وغيرهم.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ بيان لكبرياءِ شأنه، وأنّه لا يُدانيه أحدٌ؛ ليَقدِر على تغيير ما يريده شفاعةً وضَراعةً، فَضلًا مِن أن يُدافعه عِنادًا أو مُناصبةً.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: ما قبلهم وما بعدهم، أو بالعكس؛ لأنّك مستقبِلُ المستقبَل ومستدبِرُ الماضي، أو أمورَ الدنيا وأمورَ الآخرة أو بالعكس، أو ما يُحِسُّونه وما يَعقِلونه، أو ما يُدرِكونه وما لا يُدرِكونه. والضمير لِـ"مَا في السماوات والأرض" بتغليب ما فيهما مِن العقلاء على غيرهم، أو لِما دلّ عليه ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى﴾ مِن الملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ أي: مِن معلوماته، ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ أن يَعلمُوه. وعطفُه على ما قبله لِما أنّهما جميعًا دليلٌ على تفرّده تعالى بالعِلم الذاتيّ التامّ الدالِّ على وَحدانيّته.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ "الكُرسيُّ": ما يُجلَس عليه ولا يفضُل عن مَقعَد القاعد، وكأنّه مَنسوبٌ إلى الكِرْس الذي هو المُلبَّد.[٣] وليس ثَمّةَ كُرسيٌّ ولا قاعدٌ ولا قُعودٌ، وإنّما هو تمثيلٌ لعظمة شأنِه عزّ وجلّ وسَعةِ سلطانه وإحاطةِ عِلمه بالأشياء قاطبةً، على طريقة قوله عزّ قائلًا: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ

---

[١] المَئوف: الذي أصابته آفة. انظر: لسان العرب لابن منظور، «أوف».

[٢] انظر هذه الأقوال في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢/١٥٤١؛ واللباب لابن عادل، ٤/٣١٧.

[٣] الكِرْس: ما تراكم بعضه فوق بعض وتلازب وتلبّد. انظر: لسان العرب لابن منظور، «كرس».

﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[1] [الزمر، ٣٩/٦٧]. وقيل: كُرسيّه مجازٌ عن عِلمِه،[2] أَخْذًا مِن كُرسيِّ العالِم.[3] وقيل: عن مُلْكه أَخْذًا مِن كُرسيِّ المَلِك؛[4] فإنّ الكرسيّ كُلّما كان أعظمَ تكون عظمةُ القاعدِ أكثرَ وأوفرَ، فعُبّر عن شمول عِلمه أو عن بسطةِ مُلْكه وسلطانِه بسَعة كُرسيّه وإحاطته بالأقطار العُلويّة والسُّفليّة. وقيل: هو جِسمٌ بين يدي العرشِ مُحيطٌ بالسماوات السَّبْع؛[5] لقوله عليه الصلاة والسلام: «ما السماوات السَّبعُ والأَرَضون السَّبعُ مع الكُرسيّ إلا كحَلْقةٍ في فلاةٍ، وفَضْلُ العرشِ على الكُرسيِّ كفَضْل تلك الفَلاة على تلك الحَلْقة».[6] ولعلّه الفلَكُ الثامن. وعن الحَسَن البصري أنّه «العرش».[7]

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ أي: لا يُثقِله ولا يَشُقُّ عليه ﴿حِفْظُهُمَا﴾ أي: حفظُ السماوات والأرضِ. وإنّما لم يتعرَّض لذِكر ما فيهما لِما أنّ حِفظَهما مستتبَعٌ لحفظه. ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ المتعالي بذاته عن الأشباه والأنداد، ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي يُستحْقَر بالنسبة إليه كلُّ ما سواه.

ولِما ترى مِن انطواء هذه الآيةِ الكريمة على أُمّهات المسائل الإلهيّة المتعلِّقة بالذات العليّةِ والصفاتِ الجليّة: فإنّها ناطقةٌ بأنّه تعالى موجودٌ متفرّدٌ بالإلهيّة، متّصفٌ بالحياة، واجبُ الوجود لذاته مُوجِدٌ لغيره، لِما أنّ القيّوم هو القائمُ بذاته المقيمُ لغيره، منزَّهٌ عن التحيّز والحُلول، مُبرَّأٌ عن التغيّر والفتور، لا مناسبةَ بينه وبين الأشباح، ولا يَعتريه ما يَعتري النفوسَ والأرواحَ، مالكُ المُلك والملكوتِ، ومُبدِعُ الأصولِ والفروع، ذو البطش الشديد، لا يَشفَع عنده إلّا مَن أَذِن له فيه، العالِم وحدَه بجميع الأشياء جليّها وخفيّها، كُليّها وجزئيّها،

---

1 انظر هذا التأويل لمعنى الكرسيّ في الكشّاف للزمخشري، ١/٢٣٠؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢١٥-٢١٦.

2 عن ابن عبّاس وسعيد بن جبير أنّ كُرسيّه عِلمه. جامع البيان للطبري، ٤/٥٣٧؛ تفسير ابن أبي حاتم، ٢/٤٩٠-٤٩١.

3 انظر: جامع البيان للطبري، ٤/٥٤١.

4 انظر هذا القول في التفسير الوسيط للواحدي، ١/٣٦٨؛ والكشّاف للزمخشري، ١/٢٣٠؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢١٦.

5 انظر القول وما بعده في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢١٦.

6 بمعناه في جامع البيان للطبري، ٤/٥٣٩؛ وهو بهذا اللفظ في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢١٦. وأورده البغوي مِن الأخبار في معالم التنزيل، ١/٣١٣.

7 جامع البيان للطبري، ٤/٥٣٩.

واسعُ المُلْك والقدرة لكلّ ما مِن شأنه أن يُملَكَ ويُقدَرَ عليه، لا يَشُقّ عليه شاقٌّ، ولا يَشغَلُه شأنٌ عن شأن، مُتعالٍ عمّا تناله الأوهامُ، عظيمٌ لا تُحدِق به الأفهام؛ تفرَّدت[١] بفضائلَ[٢] رائقةٍ وخواصَّ فائقة خلَت عنها أخواتُها.

قال صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ أعظم آيةٍ في القرآن آيةُ الكرسيّ، مَن قرأها بعث الله تعالى مَلَكًا يكتُب مِن حسناته ويمحو مِن سيّئاته إلى الغد مِن تلك الساعة»،[٣] وقال عليه السلام: «ما قُرئت هذه الآيةُ في دار إلّا اهتجرَتْه الشياطينُ ثلاثين يومًا ولا يدخُلها ساحرٌ ولا ساحرةٌ أربعينَ ليلةً، يا عليُّ علِّمْها ولدك وأهلك وجيرانَك، فما نزلت آيةٌ أعظمُ منها»،[٤] وقال صلّى الله عليه وسلّم: «مَنْ قرأ آيةَ الكرسيّ في دُبُرِ كلِّ صلاة مكتوبةٍ لم يَمنعْه مِن دخول الجنّةِ إلّا الموتُ، ولا يُواظِبُ عليها إلّا صِدّيقٌ[٥] أو عابدٌ، ومَن قرأها إذا أَخَذ مَضجَعه أَمَّنَه الله تعالى على نفسه وجارِه وجارِ جاره والأبياتِ حولَه»،[٦] وقال عليه السلام: «سيّدُ البشر آدمُ، وسيّد العربِ محمدٌ ولا فخرَ، وسيّدُ الفُرس سلمانُ، وسيّدُ الرومِ صُهيبٌ، وسيّدُ الحبشةِ بلالٌ، وسيّد الجبال الطُّورُ، وسيّدُ الأيّام يومُ الجمعة، وسيّدُ الكلام القرآنُ، وسيّد القرآن سورةُ البقرة، وسيّدُ "البقرةِ" آيةُ الكرسيّ».[٧] وتخصيص سيادته صلّى الله عليه وسلّم للعَرب بالذِّكْر في أثناء تعدادِ السادات الخاصّةِ لا يدلّ على نفي ما دلَّت عليه الأخبارُ المستفيضةُ، وانعَقد عليه الإجماعُ مِن سيادته عليه السلام لجميع أفرادِ البشر.

---

١ وفي هامش ي: أي: آية الكرسيّ. «منه».
٢ ي: بفضائله.
٣ الجملة الأولى منه بمعناها في صحيح مسلم، ٥٥٦/١ (٢٥٨)؛ وسنن أبي داود، ٥٨٨/٢-٥٨٩؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣١٠/١. وهو بهذا اللفظ في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢١٧/١.
٤ هو بهذا اللفظ في الكشّاف للزمخشري، ٢٣١/١-٢٣٢. قال ابن حجر: «لم أجده». الكافي الشاف، ص ٢٢.
٥ ي: الصديق.
٦ بلفظ قريب في الدعاء للطبراني، ص ٢١٤ (٦٧٥)؛ وعمل اليوم والليلة لابن السُّنِّي، ص ١٠٩ (١٢٣)؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ٥٦/٤ (٢١٧٢). وانظر تفصيل تخريجه في تخريج أحاديث الكشّاف للزَّيلَعي، ١٦٠/١-١٦١.
٧ هو بهذا اللفظ في الكشّاف للزمخشري، ٢٣٢/١. قال الزَّيلَعيُّ: «ذكره أبو شجاع الدَّيلمي مِن حديث عليّ مرفوعًا». تخريج أحاديث الكشّاف، ١٦٢/١. وقال ابن حجر: «لم أجده، وقد ذكره صاحب الفردوس ولم يُخرِّجه ابنه». الكافي الشاف، ص ٢٢.

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ جملة مستأنَفة جِيء بها إثرَ بيانِ تفرّدِه سبحانه وتعالى بالشئون الجليلةِ المُوجِبةِ للإيمان به وحدَه؛ إيذانًا بأنّ مِن حقّ العاقل ألّا يحتاجَ إلى التكليف والإلزام؛ بل يختارُ الدينَ الحقّ مِن غير تردّدٍ وتلعثُم. وقيل: هو خبرٌ في معنى النهي، أي: لا تُكرِهوا في الدِّين، فقيل: منسوخٌ بقوله تعالى: ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التحريم، ٩/٦٦]. وقيل: خاصٌّ بأهل الكتاب، حيثُ حصّنوا أنفسهم بأداء الجزية.[١] ورُوي أنّه كان لأنصاريّ مِن بني / سالم بن عوفٍ[٢] ابنان قد تنصّرا قبل مَبعثِه صلّى الله عليه وسلّم، ثُمّ قَدِما المدينة، فلزِمهما أبوهما، وقال: «والله لا أدَعُكما حتّى تُسلِما»، فأَبَيا، فاختصموا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فنزلَت، فخلّاهما.[٣] [٧٧ظ]

﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ استئنافٌ تعليليٌّ صُدّر بكلمة التحقيق لزيادة تقرير مضمونِه، كما في قوله تعالى: ﴿قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا﴾ [الكهف، ٧٦/١٨]، أي: إذ قد تبيَّن -بما ذُكِر مِن نعوته تعالى التي يمتنع توهّمُ اشتراكِ غيرِه في شيء منها- الإيمانُ الذي هو الرُّشد المُوصِل إلى السعادة الأبديّة، مِن الكُفر الذي هو الغيّ المُؤدّي إلى الشقاوة السرمديّة.

﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ هو بناءُ مبالغة مِن الطُّغيان كالمَلَكوت والجَبَرُوت، قُلِب مكانُ عينِه ولامِه، فقيل: هو في الأصل مصدرٌ، وإليه ذهب الفارسي. وقيل: اسم جنسٍ مفرَدٍ مذكّر، وإنّما الجمعُ والتأنيثُ لإرادة الآلهة، وهو رأي سيبويهِ. وقيل: هو جمع، وهو مذهب المُبرّد. وقيل: يَستوي فيه الإفراد والجمعُ والتذكيرُ والتأنيثُ.[٤]

---

١ الأقوال الثلاثة في الكشّاف للزمخشري، ٢٣٢/١-٢٣٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢١٩/١.

٢ هم بنو سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخَزرج. بطن مِن الخزرج. انظر: اللباب لابن الأثير، ص ١٩٣؛ ونهاية الأرب للقلقشندي، ص ٢٨١.

٣ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٥٤٧/٤-٥٤٨؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣١٤/١. وهو في الكشّاف للزمخشري، ٢٣٣/١.

٤ انظر: الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٥٤٧/٢-٥٤٨؛ واللباب لابن عادل، ٢٩٤/٤. وانظر كلام سيبويه عليه في الكتاب، ٢٤٠/٣، ووافقه الأخفش بقوله في هذه اللفظة: «جماعة في المعنى، وهو في اللفظ واحد». معاني القرآن، ١٩٦/١.

أي: فمَن يَعمَلْ إثرَ ما تميّز الحقُّ مِن الباطل بمُوجَب الحُججِ الواضحةِ والآياتِ البيّنة، ويكفرْ بالشيطان أو بالأصنام أو بكلّ ما عُبِد مِن دون الله تعالى أو صَدَّ عن عبادته تعالى، لِما تبيّن له كونُه بمَعزِل مِن استحقاق العبادة، ﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ وحدَه[١] لِما شاهد مِن نعوته الجليلة المقتضيةِ لاختصاص الألوهيّة به عزّ وجلّ المُوجبةِ للإيمان والتوحيد. وتقديمُ الكُفر بالطاغوت على الإيمان به تعالى لتوقّفه عليه؛ فإنّ التَّخلية متقدّمةٌ على التَّحليَة. ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أي: بالغَ في التمسّك بها، كأنّه وهو ملتبِسٌ به يَطلُبُ مِن نفسه الزيادةَ فيه والثباتَ عليه.

﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ الفَصْم: الكسرُ بغير إبانة، كما أنّ القَصْمَ هو الكسر بإبانة، ونَفْيُ الأوّل يدلّ على انتفاء الثاني بالأولويّة. والجملة إمّا استئناف مقرِّر لِما قبلها مِن وَثاقة العُروة؛ وإمّا حال مِن "العُروة"، والعاملُ ﴿ٱسْتَمْسَكَ﴾، أو مِن الضمير المستتِر في ﴿ٱلْوُثْقَىٰ﴾، و﴿لَهَا﴾ في حيّز الخبر، أي: كائن لها.

والكلام تمثيلٌ مبنيٌّ على تشبيه الهيئة العقليّة المنتزَعةِ مِن مُلازَمة الاعتقادِ الحقّ الذي لا يَحتمِل النقيضَ أصلًا، لثُبوته بالبراهين النيّرة القطعيّة بالهيئة الحِسّيّة المنتزَعة مِن التمسّك بالحبل المحْكَم المأمونِ انقطاعُه، فلا استعارةَ في المفردات. ويجوز أن تكونَ "العُروةُ الوثقى" مستعارةً للاعتقاد الحقّ الذي هو الإيمانُ والتوحيدُ -لا للنظر الصحيح المُؤدّي إليه، كما قيل؛ فإنّه غيرُ مذكورٍ في حيّز الشرط- والاستمساكُ بها مستعارًا لِما ذُكِر مِن الملازمة، أو ترشيحًا للاستعارة الأولى.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ بالأقوال، ﴿عَلِيمٌ﴾ بالعزائم والعقائد. والجملة اعتراضٌ تذييليٌّ، حاملٌ على الإيمان، رادِعٌ مِن الكفر والنِّفاق بما فيه مِن الوعد والوعيد.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: مُعينُهم أو مُتولّي أمورِهم، والمرادُ بهم الذين ثبَت في عِلمه تعالى إيمانُهم في الجملة مآلًا أو حالًا. ﴿يُخْرِجُهُم﴾ تفسير للوَلاية،

---

[١] ي - وحده.

أو خبر ثانٍ عند مَن يجوّز كونَه جملةً، أو حال مِن الضمير في ﴿وَلِيُّ﴾. ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ التي هي أعمّ مِن ظلمات الكفر والمعاصي وظلماتِ الشُّبَه؛ بل ممّا في بعض مَراتبِ العلوم الاستدلاليّة مِن نوعِ ضعفٍ وخفاءٍ بالقياس إلى مَراتِبها القويّة الجليّة؛ بل ممّا في جميع مَراتبِها بالنظر إلى مَرتبة العِيان كما ستعرفه. ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ الذي يعمّ نورَ الإيمان ونورَ الإيقان بمَراتبه، ونورَ العِيان، أي: يُخرِج بهدايته وتوفيقِه كلَّ واحد منهم مِن الظُلمة التي وقع فيها إلى ما يقابلها مِن النور. وإفراد النور لوحدة الحقّ، كما أنّ جَمْع الظُّلمات لتعدّد فنون الضلال.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي: الذين ثبَت في عِلْمه تعالى كفرُهم ﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ أي: الشياطين وسائر المضلِّين عن طريق الحقّ. فالموصول مبتدأٌ، و﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ﴾ مبتدأٌ ثانٍ، و﴿ٱلطَّٰغُوتُ﴾ خبرُه، والجملة خبرٌ للأوّل، والجملة الحاصلةُ معطوفة على ما قبلها. ولعلّ تغيير السَّبْك للاحتراز عن وَضْع الطاغوتِ في مقابلة الاسم الجليل، ولقَصْد المبالغة بتكرير الإسناد، مع الإيماء إلى التباين بين الفريقين مِن كلّ وَجْهٍ حتّى مِن جهة التعبير أيضًا. ﴿يُخْرِجُونَهُم﴾ بالوساوس وغيرِها مِن طرق الإضلال والإغواء ﴿مِّنَ ٱلنُّورِ﴾ الفِطريّ الذي جُبِل عليه الناسُ كافةً، أو مِن نور البيّنات التي يشاهدونها مِن جهة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، بتنزيل تمكّنهم مِن الاستضاءة بها منزلة نفسِها. ﴿إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ظلماتِ الكفر والانهماك في الغيّ. وقيل: نزلت في قوم ارتدُّوا عن الإسلام.[١] والجملة تفسير لولاية الطاغوت، أو خبرٌ ثانٍ كما مرّ. وإسناد الإخراج مِن حيثُ السَّببيّةُ إلى الطاغوت لا يقدَحُ في استناده مِن حيث الخَلْقُ إلى قُدرته سبحانه. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الموصول باعتبار اتّصافه بما في حيّز الصِّلة، وما يتبعه مِن القبائح. ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: ملابِسوها وملازِموها بسبب ما لهم مِن الجرائم. ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ماكِثون أبدًا.

---

[١] ذكر هذا القول البيضاويُّ في أنوار التنزيل، ١/٢٢٠. والمشهور أنّها نزلت في أهل الكتاب، كانوا مؤمنين، ثمّ لمّا جاء الإسلام كفروا به. انظر: جامع البيان للطبري، ٤/٥٦٤-٥٦٥؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٢/٤٩٧-٤٩٨؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ١/٣٧٠.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ استشهاد على ما ذُكِر مِن أنّ الكفرة أولياؤُهم الطاغوتُ، وتقريرٌ له على طريقة قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ [الشعراء، ٢٦/٢٢٥]، كما أنّ ما بعده استشهاد على وَلايته تعالى للمؤمنين وتقريرٌ لها. وإنّما بُدِئ بهذا لرعاية الاقتران بينه وبين مدلوله، ولاستقلاله بأمْر عجيبٍ حقيقٍ بأن يُصدَّر به المَقالُ، وهو اجتراؤه على المُحاجّة في الله عزّ وجلّ، وما أتى بها في أثنائها مِن العظيمة المُنادِية بكمال حماقته، ولأنّ فيما بعده تعدّدًا وتفصيلًا يُورِث تقديمُه انتشارَ النظم. على أنّه قد أُشِير في تضاعيفه إلى هداية الله تعالى أيضًا بواسطة إبراهيمَ عليه السلام، فإنّ ما يُحكى عنه مِن الدعوة إلى الحقّ وإدحاضِ حُجّةِ الكافر مِن آثار وَلايته تعالى.

وهمزة الاستفهام لإنكار النفي وتقريرِ المَنفيّ، أي: أَلَم تنظُر، أو أَلَم ينتهِ علمُك إلى هذا / الطاغوت المارد، كيف تصدّى لإضلال الناس وإخراجهم مِن النور إلى الظلمات؟ أي: قد تحقّقَت الرؤيةُ وتقرّرت، بناءً على أنّ أَمْره مِن الظهور بحيثُ لا يكاد يخفى على أحد ممّن له حظٌّ مِن الخطاب، فظهر أنّ الكفَرة أولياؤُهم الطاغوتُ. وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام تشريفٌ له، وإيذانٌ بتأييده في المُحاجّة. [٧٨و]

﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ أي: لِأن آتاه إيّاه، حيثُ أبطَره ذلك وحَمَله على المُحاجّة، أو حاجّه لأجله، وضعًا للمُحاجّة التي هي أقبحُ وجوه الكفر موضعَ ما يجبُ عليه مِن الشكر، كما يقال: عاديتني لِأن أحسنْتُ إليك، أو وقتَ أنْ آتاه الله المُلكَ. وهو حُجّةٌ على مَن منع إيتاءَ الله المُلك للكافر.

﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ ظرف لـ﴿حَآجَّ﴾، أو بدل مِن ﴿ءَاتَىٰهُ﴾ على الوجه الأخير: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ بفتح ياء ﴿رَبِّىَ﴾، وقُرِئ بحذفها.[1] رُوي أنّه عليه الصلاة والسلام

---

[1] قرأ بها حمزة. انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٢٠.

لمّا كَسَر الأصنام سَجَنه ثمّ أخرَجه، فقال: «مَن ربُّك الذي تدعو إليه؟» قال: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾،[1] أي: يَخلُق الحياة والموت في الأجساد.

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيٌّ على السُّؤال، كأنّه قيل: كيف حاجّه في هذه المَقالة القويّة الحَقّة؟ فقيل: قال: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ﴾. رُوي أنّه دعا برجُلين، فقتل أحدَهما وأطلَق الآخر، فقال ذلك.[2]

﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ﴾ استئناف كما سلَف، كأنّه قيل: فماذا قال إبراهيمُ عليه السلام[3] لمَن في هذه المرتبة مِن الحماقة؟ وبماذا أفحمه؟ فقيل قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ﴾ حسبما تقتضيه مشيئتُه، ﴿فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ إن كنتَ قادرًا على مِثْل مقدوراته تعالى. لم يَلتفِت عليه السلام إلى إبطال مَقالة اللَّعين إيذانًا بأنّ بُطلانها مِن الجلاء والظُّهورِ بحيثُ لا يكاد يخفى على أحد، وأنّ التصديَ لإبطالها مِن قبيل السعي في تحصيل الحاصل، وأتى بمِثال لا يَجِد اللَّعين فيه مَجالًا للتمويه والتلبيس.

﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾ أي: صار مبهوتًا، وقُرِئ على بناء الفاعل،[4] على أنّ الموصول مفعولُه، أي: فغَلَب إبراهيمُ الكافرَ وأسكته. وإيراد الكُفر في حيّز الصلة: للإشعار بعِلّة الحُكم، والتنصيصِ على كون المُحاجّة كُفرًا.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تذييل مقرِّر لمضمون ما قبله، أي: لا يهدي الذين ظلموا أنفسَهم بتعريضها للعذاب المخلَّد؛ بسبب إعراضهم عن قبول الهداية إلى مناهج الاستدلالِ، أو إلى سبيل النجاة، أو إلى طريق الجنّة يومَ القيامة.

---

[1] بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٥٧٥/٤؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٤٩٨/٢-٤٩٩، وليس فيه ذِكر السجن.

[2] انظر: جامع البيان للطبري، ٥٧١/٤-٥٧٢، ٥٧٥-٥٧٦.

[3] س ي - عليه السلام.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ واليماني ومجاهد وابن السَّمَيْفَع. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٣؛ والمُحتسَب لابن جنّي، ١٣٤/١؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٩٧.

﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾

﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ استشهاد على ما ذُكِر مِن وَلايته تعالى للمؤمنين، وتقريرٌ له معطوفٌ على الموصول السابق. وإيثار ﴿أَوْ﴾ الفارقةِ على الواو الجامعة للاحتراز عن توهّم اتّحاد المستشهَد عليه مِن أوّل الأمر. والكاف إمّا اسميّة كما اختاره قومٌ، جِيء بها للتنبيه على تعدّد الشواهد، وعدمِ انحصارِها فيما ذُكِر، كما في قولك: الفعلُ الماضي مِثلُ "نَصر"؛ وإمّا زائدة كما ارتضاه آخرون.[١] والمعنى: أوْ ألَمْ تَرَ إلى مَثَل الذي، أو إلى الذي مرّ على قريةٍ، كيف هداه الله تعالى وأخرَجه مِن ظُلمة الاشتباه إلى نور العِيان والشهود؟ أي: قد رأيتَ ذلك وشاهدتَه؛ فإذن لا ريبَ في أنّ الله تعالى[٢] وليُّ الذين آمنوا... إلخ.

هذا، وأمّا جَعْل الهمزة لمجرّد[٣] التعجيب، على أن يكون المعنى في **الأوّل**: ألم تنظر إلى الذي حاجّ... إلخ؟ أي: انظُر إليه وتعجّبْ مِن أمره؛ وفي **الثاني**: أو أرأيتَ مَثَلَ الذي مرَّ... إلخ؟ إيذانًا بأنّ حاله وما جرى عليه مِن الغَرابة بحيث لا يُرى له مَثَلٌ،[٤] كما استقرّ عليه رأي الجمهور، فغيرُ[٥] خليقٍ بجزالة التنزيلِ وفخامة شأنه الجليل؛ فتَدبَّر.

و"المارُّ" هو عُزيرُ بنُ شرخيا، قاله قتادةُ والربيع وعِكْرمةُ وناجية بن كَعب وسليمان بن يَزيدَ والضحّاك والسُّدّي.[٦] وقيل: هو أرميا بن حَلقيا،[٧] مِن سبط

---

١ انظر الوجهين المذكورين في الكاف مع اثنين آخرين في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٥٥٧/٢؛ واللباب لابن عادل، ٣٤٨/٤، وذكرا أنّ وجه الاسميّة مذهب الأخفش.

٢ ط - تعالى.

٣ ي: بمجرد.

٤ قدّر هذين المعنيين التفتازاني في حاشية الكشّاف، ١٣٠و، فكأنّه هو المقصود بردّ المُصنِّف ههنا.

٥ جواب "وأمّا جَعْل".

٦ انظر: جامع البيان للطبري، ٥٧٨/٤-٥٧٩؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٥٠٠/٢.

٧ ي: حلقيا.

هارونَ عليه السلام، قاله وَهْبٌ وعبيد الله بن عُمير.[١] وقيل: أرميا هو الخَضِر بعينه.[٢] وقال مجاهد: كان المارُّ رجلًا كافرًا بالبعث.[٣] وهو بعيد. و"القرية" بيت المَقدِس قاله وهْبٌ وعِكرمةُ والربيع.[٤] وقيل: هي دَير هِرَقلَ[٥] على شطّ دِجْلةَ. وقال الكَلبيُّ: هي دَير سابر آباد.[٦] وقال السُّدّي: هي دَير سلما باد.[٧]

والأوّلُ هو الأظهر والأشهر.

رُوي أنّ بني إسرائيلَ لمّا بالغوا في تعاطي الشرّ والفساد، وجاوزوا في العُتوّ والطغيان كلَّ حدٍّ معتادٍ سلَّط الله تعالى[٨] عليهم بُختَ نَصَّر البابليَّ، فسار إليهم في ستمائة ألفِ رايةٍ، حتّى وطِئ الشامَ وخرّب بيتَ المَقدِس، وجَعَل بني إسرائيلَ أثلاثًا: ثلثٌ منهم قَتَلهم، وثلثٌ منهم أقرّهم بالشام، وثلثٌ منهم سباهم، وكانوا مائةَ ألفِ غلام يافعٍ وغيرِ يافع، فقسّمهم بين الملوك الذين كانوا معه، فأصاب كل مَلِك منهم[٩] أربعة غِلْمة، وكان عُزير مِن جُملتهم، فلمّا نجّاه الله تعالى منهم بعد حين مرّ بحماره على بيتِ المَقدِس فرآه على أفظع مرأًى وأَوْحَش مَنظرٍ.[١٠] وذلك قوله عزّ وجلّ:[١١] ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي: ساقطة على سقوفها، بأنْ سقَطت العروشُ ثمّ الحِيطانُ، مِن خَوى البيتُ إذا سقَط، أو مِن خوَت الأرضُ، أي: تهدَّمت. والجملة حال مِن ضمير ﴿مَرَّ﴾، أو مِن ﴿قَرْيَةٍ﴾ عند مَن يُجوّز الحال مِن النكرة مطلقًا.

---

١ انظر: جامع البيان للطبري، ٥٨٠/٤؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٥٠٠/٢.

٢ انظر: جامع البيان للطبري، ٥٨٠/٤.

٣ وعنه أنّ المارّ رجلٌ مِن بني إسرائيل. تفسير ابن أبي حاتم، ٥٠٠/٢.

٤ انظر: جامع البيان للطبري، ٥٨٢/٤-٥٨٣؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٥٠٠/٢.

٥ ما وجدته فيما وقفت عليه مِن المظانّ.

٦ دير سابُر: قُربَ بغداد بين قرية يقال لها: المزرفة وأخرى يقال لها: الصالحيّة. وفي الجانب الغربيّ مِن دجلة قرية يقال لها: بَزُوغى. انظر: معجم البلدان للحموي، ٥١٣/٢.

٧ ما وجدته فيما وقفت عليه مِن المظانّ. انظر لِما قيل هنا في المارّ والقرية: معالم التنزيل للبغوي، ٣١٧/١.

٨ س - تعالى.

٩ ي: فيهم.

١٠ مِن خبر طويل لوَهْب بن مُنبّه في جامع البيان للطبري، ٥٨٩/٤-٥٩٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣١٧/١-٣١٩. ولفظه أقرب إلى البغوي.

١١ س: تعالى.

﴿قَالَ﴾ أي: تلهفًا عليها وتشوّقًا إلى عِمارتها، مع استشعار اليأس عنها: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ﴾، وهي على ما يُرى مِن الحالة العجيبة المباينة للحياة. وتقديمها على الفاعل للاعتناء بها مِن حيثُ أنّ الاستبعاد ناشئ مِن جهتها لا مِن جهة الفاعل، و﴿أَنَّىٰ﴾ نصب على الظرفيّة إن كانت بمعنى "متى"، وعلى الحاليّة مِن ﴿هَٰذِهِ﴾ إن كانت بمعنى "كيف"، والعامل ﴿يُحْيِۦ﴾. وأيًّا ما كان، فالمراد: استبعادُ عِمارتها بالبناء والسكّان مِن بقايا أهلها الذين تفرَّقوا أيدي سَبَا ومِن غيرِهم.

[٧٨ظ] وإنما / عُبّر عنها بـ"الإحياء" الذي هو عَلَم في البُعد عن الوقوع عادةً؛ تهويلًا للخَطْب وتأكيدًا للاستبعاد؛ كما أنّه لأجله عُبِّر عن خرابها بالموت، حيثُ قيل: ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾. وحيثُ كان هذا التعبير مُعربًا عن استبعاد الإحياء بعد الموت على أبلغ وجهٍ وآكَدِه أراه الله عزّ وجلّ آثرَ ذي أثيرٍ أبعدَ الأمرين في نفسه، ثمّ في غيره، ثمّ أراه ما استبعده صريحًا؛ مبالغةً في إزاحة ما عسى يَختلِج في خَلَده. وأمّا حَمْل إحيائها على إحياء أهلها فيأباه التعرّضُ لحال القرية دون حالهم، والاقتصارُ على ذِكْر موتهم دون كونهم ترابًا وعظامًا، مع كونه أَدْخَل في الاستبعاد لشدّة مباينتِه للحياة وغايةِ بُعده عن قبولها، على أنّه لم تتعلّق إرادتُه تعالى بإحيائهم كما تعلّقت بعِمارتها ومُعاينة المارِّ لها، كما ستُحيط به خبرًا.

﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ﴾ وألبثَه على الموت ﴿مِاْئَةَ عَامٍ﴾. رُوي أنّه لمّا دخل القرية ربَط حمارَه، فطاف بها ولم يرَ بها أحدًا؛ فقال ما قال، وكانت أشجارُها قد أثمَرت، فتناوَل مِن التين والعِنب وشرِب مِن عصيره ونام، فأماتَه الله تعالى في مَنامه وهو شابّ، وأمات حِمارَه، وبقيّةُ تِينِه أو عِنَبه وعصيره عنده، ثمّ أعمى الله تعالى عنه عيونَ المخلوقاتِ فلم يرَه أحد، فلمّا مضى مِن موته سبعون سنةً وجّه الله عزّ وعلا[١] مَلِكًا عظيمًا مِن ملوك فارسَ -يقال له: يُوشَكُ- إلى بيت المَقدِس ليَعمُرَه، ومعه ألفُ قَهْرمانٍ[٢] مع كلّ قَهْرمانٍ ثلثُمائة ألفِ عامل، فجعلوا يعمُرونه، وأهلَك الله تعالى بُخْتَ نَصَّر ببعوضة دخلتْ دماغَه، ونجّى الله تعالى مَن بقيَ مِن بني إسرائيلَ،

---

١ س: تعالى.

٢ القَهرمان: مِن أُمناء المَلِك وخاصّته، وهو الخازن والوكيل الحافظ لِما تحت يده، فارسيٌّ مُعرّب. انظر: لسان العرب لابن منظور، «قهم».

وردَّهم إلى بيت المَقدِس، وتراجَع إليه مَن تفرَّق منهم في الأكناف فعمَروه ثلاثين سنةً وكثُروا وكانوا كأحسنِ ما كانوا عليه، فلمّا تمَّت المائةُ مِن مَوت عُزير أحياه الله تعالى،[١] وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾. وإيثارُه على "أحياه" للدلالة على سُرعته وسهولة تأتّيه على البارئ تعالى، كأنّه بعَثه مِن النوم، وللإيذان بأنّه أعاده كهيئته يومَ موته عاقلًا فاهمًا مستعِدًّا للنظر والاستدلال.

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيٌّ على السؤال، كأنه قيل: فماذا قال له بعد بعثه؟ فقيل: قال: ﴿كَمۡ لَبِثۡتَ﴾؛ ليُظهِر له عَجْزه عن الإحاطة بشئونه تعالى، وأنّ إحياءه ليس بعد[٢] مُدّة[٣] يسيرةٍ ربّما يُتوَهَّم أنّه هيّنٌ في الجملة؛ بل بعد مُدّة طويلة؛ ويَنحسِم به مادّةُ استبعادِه بالمَرّة، ويطَّلع في تضاعيفه على أمْر آخرَ مِن بدائع آثار قدرتِه تعالى، وهو إبقاء الغِذاء المتسارعِ إلى الفساد بالطبع على ما كان عليه دهرًا طويلًا مِن غير تغيّر ما. و﴿كَمۡ﴾ نصبٌ على الظرفيّة، مميّزها محذوفٌ، أي: كم وقتًا لبِثْتَ؟ والقائل هو الله تعالى، أو مَلَك مأمور بذلك مِن قِبَله تعالى. قيل: نُودِيَ مِن السماء: يا عُزيرُ كم لبثتَ بعد الموت؟

﴿قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ﴾ قاله بناءً على التقريب والتخمين، أو استقصارًا لمُدّة لُبثِه. وأمّا ما يقال: مِن أنّه مات ضُحًى وبُعِث بعد المائة قُبيل الغروب، فقال: قبلَ النظر إلى الشمس: ﴿يَوۡمًا﴾، فالتفت إليها فرأى منها بقيةً فقال: ﴿أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ﴾، على وَجْه الإضراب،[٤] فبمَعزِل[٥] مِن التحقيق؛ إذ لا وَجْه للجزم بتمام اليوم، ولو بناءً على حُسبان الغروب؛ لتحقّق النُقصان مِن أوّله.

﴿قَالَ﴾ استئناف كما سلف: ﴿بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ﴾ عطفٌ على مقدَّر، أي: ما لبثتَ ذلك القدر؛ بل هذا المِقدارَ. ﴿فَٱنظُرۡ﴾ لتُعايِنَ أمرًا آخر مِن دلائل قدرتنا. ﴿إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ﴾ أي: لم يتغير في هذه المُدّة المتطاوِلة

---

[١] مِن خبر طويل لوَهْب بن مُنبّه في جامع البيان للطبري، ٥٩٣/٤-٥٩٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣١٩/١-٣٢٠. ولفظه أقرب إلى البغوي.

[٢] ي - بعد.

[٣] ي: بمدّة.

[٤] انظر هذا القول في جامع البيان للطبري، ٥٩٧/٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٢٠/١.

[٥] جواب "وأمّا ما يقال".

مع تداعيه إلى الفساد. رُوي أنّه وجد تِينَه أو عِنَبه كما جَنَى وعصيرَه كما عَصَر.[١] والجملة المنفيّة حال بغير واو -كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ [آل عمران، ١٧٤/٣]- إمّا مِن "الطعام والشراب"، وإفرادُ الضمير لجَريانهما مَجرى الواحدِ كالغذاء؛ وإمّا مِن الأخير اكتفاءً بدلالة حاله على حال الأوّل، ويؤيّده قراءة مَن قرأ "وهذا شَرابُكَ لَمْ يَتَسَنَّ". والهاء أصليّة، أو هاءُ سَكْتٍ، واشتقاقه مِن "السَّنَة" لِما أنّ لامها هاءٌ أو واوٌ.[٢] وقيل: أصله "يتسنّنْ" مِن الحَمَأ المسنون،[٣] فقُلبت نونه حرفَ عِلّة كما في:

تَـــقَـــضِّـــيَ الـــبَـــازي[٤]

وقد جُوّز أن يكون معنى: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لم يمرَّ عليه السِّنون التي مرّت، لا حقيقةً؛ بل تشبيهًا، أي: هو على حاله كأنّه لم يلبَث مائةَ عامٍ. وقُرئ: "لَمْ يَسَّنَّهْ"،[٥] بإدغام التاء في السين.

﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ كيف نخِرَت عظامُه، وتفرَّقتْ وتقطَّعتْ أوصالُه وتمزَّقتْ؛ ليتبيَّن لك ما ذُكِر مِن لُبثك المديدِ، وتطمئِنَّ به نفسُك. وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ عطفٌ على مقدَّر: متعلِّق بفعل مقدَّرٍ قبله بطريق الاستئناف، مقرِّرٌ لمضمون ما سبق، أي: فعلْنا ما فعلْنا مِن إحيائك بعد ما ذُكِر لتُعايِنَ ما استبعَدْتَه مِن الإحياء بعد دهر طويل، ولنَجعلَك آيةً للناس الموجودين في هذا القرن،

---

[١] انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٣٢٠/١.

[٢] انظر لاشتقاقها والكلام عليها معاني القرآن للفرّاء، ١٧٢/١؛ ومعاني القرآن للأخفش، ١٩٧/١.

[٣] نسب البغوي هذا القول لأبي عمرو في معالم التنزيل، ٣٢٠/١؛ ونقله الفرّاءُ في معاني القرآن، ١٧٢/١. ونقله الزجّاج في معاني القرآن وإعرابه، ٣٤٣/١، وردّه.

[٤] مِن رجز للعجّاج في ديوانه، ص ٤٢. وهو بتمامه:

دانـي جناحيه مِـن الـطُّور فـمَرّ
تقضّيَ البـازي إذا البـازي كَسَر

وقال الأصمعيُّ في شرحه: كسر: ضمَّ جناحيه. وكان الأصل في "تقضي" تقضُّض فاستُثقل اجتماع الضادين، فأُبدِل مِن الثانية ياءً، ومثله: يتظنّى وأصله يتظنّن. وهو بلا نسبة شاهدًا على ما نحن فيه ههنا في معاني القرآن وإعرابه للزجّاج، ٣٤٣/١.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ والنقّاش عن الحسن وطلحة بن مُصرِّف. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٣٥/١؛ والمغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ٥٣٦.

بأنْ يُشاهِدوكَ وأنت مِن أهل القرون الخاليةِ، ويأخذوا منكَ ما طُوِيَ عنهم منذ أحقابٍ مِن علم **التوراة** كما سيأتي، أو متعلِّق بفعل مقدَّرٍ بعده، أي: ولنَجعلكَ آية لهم على الوجه المذكور فعلْنا ما فعلْنا. فهو على التقديرين دليلٌ على ما ذُكِر مِن اللُّبث المَديد؛ ولذلك قُرِن بينه وبين الأمر بالنظر إلى حماره.

وتكريرُ الأمر في قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ﴾، مع أنّ المراد عظامُ الحمار أيضًا لِما أنّ المأمور به **أوّلًا**: هو النظرُ إليها مِن حيثُ دلالتُها على ما ذُكِر مِن اللُّبث المديد، **وثانيًا**: هو النظرُ إليها مِن حيثُ تعتريها الحياةُ ومَباديها، أي: وانظر إلى عِظام الحمار لتُشاهِدَ كيفيّةَ الإحياء في غيرك بعد ما شاهدتَ نفسَه في نَفْسك.

﴿كَيۡفَ نُنشِزُهَا﴾ بالزاء المُعجَمة، أي: نرفَع بعضَها إلى بعض، ونردُّها إلى أماكنها مِن الجسد، فنُركِّبها تركيبًا لائقًا بها. «وقال الكسائي:[١] نُلَيِّنُها ونُعَظِّمُها».[٢] ولعلّ مَن / فسَّره بـ"نُحييها" أراد بالإحياء هذا المعنى.[٣] وكذا مَن قرأ "نُنْشِرُها" بالراء،[٤] مِن أَنْشَر الله تعالى الموتى، أي: أحياها، لا معناه الحقيقيُّ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗا﴾ أي: نستُرها به، كما يُستَر الجسدُ باللِّباس. وأمّا مَن قرأ "نَنشُرُها"، بفتح النون وضَمّ الشين،[٥] فلعلّه أراد به ضِدَّ الطَّيِّ، كما قال الفرّاء،[٦] فالمعنى: كيف نبسُطها. والجملة إمّا حال مِن ﴿ٱلۡعِظَامِ﴾، أي: وانظُر إليها مركَّبةً مَكسُوّةً لحمًا، أو بدلُ اشتمالٍ، أي: وانظُر إلى العِظام كيفيّةِ إنشازِها وبَسْطِ اللحم عليها. [٧٩و]

---

[١] هو عليّ بن حمزة بن عبد الله الأسدي بالولاء الكوفي، أبو الحسن الكسائي (ت. ١٨٩هـ/٨٠٥م). إمام الكوفيين في النحو واللغة، وأحد القرّاء السبعة المشهورين، قرأ على حمزة وسمع مِن أبي بكر بن عيّاش. وهو مؤدِّب الرشيد وابنه الأمين. مِن أهل الكوفة وُلد في إحدى قراها وتعلّم بها وتنقّل في البادية وبغداد وتوفّي بالريّ. مِن مصنَّفاته: **معاني القرآن، والقراءات، والنوادر**. انظر: **غاية النهاية** لابن الجزري، ١/٥٣٥؛ **وبغية الوعاة** للسيوطي، ٢/١٦٢-١٦٤؛ **والأعلام** للزركلي، ٤/٢٨٣.

[٢] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٧/١٧٣.

[٣] انظر: **جامع البيان** للطبري، ٤/٦١٧-٦١٨.

[٤] قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب. انظر: **النشر** لابن الجزري، ٢/٢٣١.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس والحسن والمفضَّل وأبان عن عاصم وأبو حَيْوَة والزعفراني. انظر: **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٢٣؛ **وشواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٩٨؛ **والمغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ٥٣٧.

[٦] انظر: **معاني القرآن** للفرّاء، ١/١٧٣. وذكره الأخفش في **معاني القرآن**، ١/١٩٨.

ولعلّ عدمَ التعرض لكيفيّة نَفْخِ الرُّوح لِما أنّها ممّا لا تقتضي الحِكمةُ بيانَه. رُوي أنّه نُودي: أيّتها العظامُ الباليةُ، إنّ الله يأمرُك أن تجتمعي، فاجتمعَ كلُّ جزءٍ مِن أجزائها التي ذهبَ بها الطيرُ والسِّباعُ، وطارتْ بها الرِّياح مِن كُلّ سَهلٍ وجبلٍ، فانضمَّ بعضُها إلى بعض، والتصق كلُّ عُضوٍ بما يَليق به الضِّلْعُ بالضِّلْع والذِّراعُ بمَحلّها والرأسُ بمَوْضعها،[١] ثمّ الأعصابُ والعروقُ، ثمّ انبسط عليه اللَّحمُ ثمّ الجِلدُ، ثمّ خرجت منه الشُّعورُ، ثمّ نُفِخ فيه الرُّوحُ، فإذا هو قائم ينهَقُ.[٢]

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾ أي: ما دلّ عليه الأمرُ بالنظر إليه مِن كيفيّة الإحياءِ بمَباديه. والفاءُ للعطف على مقدَّر يَستدعيه الأمرُ المذكور، وإنّما حُذِف للإيذان بظهور تحقّقِه واستغنائِه عن الذِكْر، وللإشعار بسرعة وقوعِه، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ [النمل، ٤٠/٢٧]، بعد قوله: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾، كأنّه قيل: فأنشَزَها الله تعالى وكساها لحمًا فنظرَ إليها فتبيَّن له كيفيّتُه، فلمّا تبيَّن له ذلك، أي: اتَّضح اتِّضاحًا تامًّا. ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مِن الأشياء التي مِن جُملتها ما شاهده في نفسه وفي غيره مِن تعاجيبِ الآثارِ. ﴿قَدِيرٌ﴾ لا يَستعصي عليه أمرٌ مِن الأمور.

وإيثارُ صيغةِ المضارعِ للدلالة على أنّ عِلْمه بذلك مستمِرٌّ نظرًا إلى أنّ أصلَه لم يتغيَّر ولم يتبدَّل؛ بل إنّما تبدَّل بالعِيان وصفُه، وفيه إشعارٌ بأنّه إنّما قال ما قال بناءً على الاستبعاد العاديّ واستعظامًا للأمر. وقد قيل: فاعلُ ﴿تَبَيَّنَ﴾ مضمَرٌ يُفسِّره مفعولُ ﴿أَعْلَمُ﴾، أي: فلمّا تبيَّن له أنّ الله على كُلّ شيء قديرٌ قال: أعلَمُ أنّ الله على كلّ شيءٍ قديرٌ؛[٣] فتَدبَّر. وقُرئ: "تُبُيِّنَ لَهُ"[٤] على صيغة المجهول، وقُرِئ: "قَالَ اعْلَمْ"،[٥] و"قِيلَ اعْلَمْ"[٦] على صيغة الأمر.

---

١ ي: بموضعه.

٢ انظر: جامع البيان للطبري، ٤/٦٠٧-٦٠٨؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٧/١٧٦-١١٧٧؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١/٣٢٠-٣٢١.

٣ انظر هذا التقدير في الكشّاف للزمخشري، ١/١٢٣٦؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٢٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وكِرداب عن رُويس. انظر: شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٣؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٩٨.

٥ قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٢٣١.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٣.

رُوي أنّه ركِب حماره وأتى مَحلَّته، وأنكره الناسُ وأنكر الناسَ وأنكر المنازلَ، فانطلق على وهْمٍ منه حتّى أتى مَنزلَه، فإذا هو بعجوزٍ عمياءَ مُقعَدةٍ قد أدركت زمنَ عُزير، فقال لها عُزير: «يا هذه، هذا منزلُ عُزير؟» قالت: «نعَم، وأين ذكرى عُزير؟ قد فقدناه منذ كذا وكذا»، فبكتْ بكاءً شديدًا، قال: «فإنّي عُزيرٌ»، قالت: «سبحانَ الله! أنّى يكونُ ذلك؟» قال: «قد أماتني الله مائة عام ثمّ بعثني»، قالت: «إنّ عُزيرًا كان رجُلًا مُستجابَ الدَّعوة، فادعُ الله لي يردُّ عليَّ بصري حتّى أراك»، فدعا ربَّه ومَسَح بيده عينيها فصحَّتا، فأخذ بيدها فقال لها: «قومي بإذن الله، فقامت صحيحةً كأنّها أُنشِطتْ[1] مِن عِقالٍ»، فنظرت إليه فقالت: «أشهدُ أنّك عُزيرٌ»، فانطلقت إلى مَحلَّة بني إسرائيلَ، وهم في أنديتهم، وكان في المجلس ابنٌ لعُزير قد بلغ مائة وثماني عَشْرة سنةً وبنو بنيه شيوخ، فنادت: «هذا عُزيرٌ قد جاءكم»، فكذَّبوها، فقالت: «انظُروا فإنّي بدعائه رَجعتُ إلى هذه الحالة»، فنهض الناسُ فأقبلوا إليه، فقال ابنه: «كان لأبي شامةٌ سوداءُ بين كتِفَيه مِثْل الهلالِ»، فكشف فإذا هو كذلك.[2]

وقد كان قتَل بُختُ نَصَّرُ ببيت المقدس مِن قُرّاء التوراةِ أربعين ألفَ رجُل، ولم يكن يومئذ بينهم نُسخةٌ مِن التوراة، ولا أحد يعرفُ التوراةَ، فقرأها عليهم عن ظَهْر قلبهٍ مِن غير أن يَخرِم منها حرفًا، فقال رجُل مِن أولاد المَسْبيّين ممّن وَرد بيتَ[3] المقدس بعد مَهلِك بُختَ نَصَّرَ: «حدَّثني أبي عن جدّي أنّه دفن التوراةَ يوم سُبينا في خابيةٍ في كَرْم، فإن أرَيتُموني كَرْمَ جدّي أخرجتُها لكم»، فذهبوا إلى كَرْم جدِّه ففتشوها فوجدوها، فعارضوها بما أملى عليهم عُزيرٌ مِن ظهر القلب،

---

[1] ط س ي: نَشِطت. | وفي هامش أ: أي: حُلَّت، وفي الكشف والبيان للثعلبي: نَشِطت. وليس بصحيح؛ قال ابن الأثير في النهاية في حديث السحر: «فكأنّما أُنشِط مِن عِقال»، أي: حُلّ. وقد تكرّر في الحديث وكثيرًا ما يجيء في الرِّواية: «فكأنّما نَشِط مِن عِقال». وليس بصحيح. يقال: نَشَطتُ العقدة إذا عقدها، وأَنشطتُها وانتشطتُها إذا حلَّها. «منه». | انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٨٣/٧؛ والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير، ٥٧/٥.

[2] عن ابن عبّاس في معالم التنزيل للبغوي، ٣٢١/١. وهو بمعناه في جملة مِن الأخبار في الكشف والبيان للثعلبي، ١٧٩/٧-١٨٥.

[3] ي: لبيت.

فما اختلفا في حرف واحد، فعند ذلك قالوا: «هو ابنُ الله»،[١] تعالى الله عن ذلك عُلوًّا كبيرًا.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ دليلٌ آخرُ على وَلايته تعالى للمؤمنين وإخراجِه لهم مِن الظلمات إلى النور، وإنّما لم يَسلُك به مَسلكَ الاستشهاد كما قبله بأن يُقال: أو كالذي قال ربّ... إلخ؛ لجَرَيان ذِكْره عليه السلام في أثناء المُحاجّة، ولأنّه لا دخْلَ لنفسه عليه السلام في أصل الدليل، كدأب عُزيرٍ عليه السلام، فإنّ ما جَرى عليه مِن إحيائه بعد مائةِ عامٍ مِن جُملة الشواهد على قدرته تعالى وهِدايته. والظَّرفُ مُنتصِبٌ بمضمَر صُرِّح بمِثْله في نحو قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ﴾ [الأعراف، ٦٩/٧] أي: واذكر وقتَ قولِه عليه السلام، وما وقع حينئذٍ مِن تعاجيب صُنعِ الله عزّ وجلّ لتقِفَ على ما مرَّ مِن وَلايته تعالى وهِدايته.

وتوجيه الأمرِ بالذِّكر في أمثال هذه المواقع إلى الوقت دون ما وقَع فيه مِن الواقعات مع أنّها المقصودة بالتذكير، لِما ذُكِر غيرَ مرَّة مِن المبالغة في إيجاب ذِكرها، لِما أنّ إيجاب ذِكر الوقت إيجابٌ لذِكر ما وقَع فيه بالطريق البُرهانيّ؛ ولأنّ الوقت مشتمِلٌ عليها مفصَّلةً، فإذا استُحضِر كانت حاضرةً بتفاصيلها، بحيثُ لا يَشِذُّ عنها شيءٌ ممّا ذُكِر عند الحكاية أو لم يُذكَر، كأنّها مشاهَدةٌ عِيانًا.

﴿رَبِّ﴾ كلمة استعطافٍ قُدِّمت بين يدي الدُّعاء مبالغةً في استدعاء الإجابة. ﴿أَرِنِى﴾ مِن الرُّؤية البَصَريّة المتعدِّية إلى واحدٍ، وبدُخول همزةِ النقل طلبَتْ مفعولًا آخرَ، هو الجملة الاستفهامية المعلِّقةُ لها؛ فإنّها[٢] تُعلَّق كما يُعلَّق النظرُ البصَريُّ، أي: اجعلني مُبصِرًا ﴿كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ بأن تُحيِيَها / وأنا أنظرُ إليه. [٧٩ظ]

---

[١] عن السُّدِّي والكلبي في الكشف والبيان للثعلبي، ١٨٤/٧-١٨٥؛ وبعضه عنهما في معالم التنزيل للبغوي، ٣٢١/١.

[٢] يعني: همزة النقل.

و﴿كَيْفَ﴾ في محلّ نصبٍ على التشبيه بالظرف عند سيبويه،[١] وبالحال عند الأخفش، والعاملُ فيها ﴿تُحْيِ﴾، أي: في أيّ حال أو على أيّ حالٍ تُحيي.[٢] قال القُرطبي: الاستفهامُ بـ"كيف" إنّما هو سؤالٌ عن حال شيءٍ متقرِّر الوجودِ عند السائل والمسئول، فالاستفهامُ ههنا عن هيئة الإحياءِ المتقرّر عند السائل،[٣] أي: بصِّرْني كيفيّةَ إحيائِك للموتى. وإنّما سأله عليه السلام ليتأيّد إيقانُه بالعِيان، ويزدادَ قلبُه اطمئنانًا على اطمئنان. وأمّا ما قيل: مِن أنّ نمروذَ لمّا قال: «أنا أحيي وأُميتُ»، قال إبراهيم عليه السلام: «إنّ إحياءَ الله تعالى بردِّ الأرواح إلى الأجساد»، فقال نمروذ: «هل عاينتَه؟» فلم يَقدِر على أن يقول: "نَعَم"، فانتقل إلى تقريرٍ آخرَ، ثمّ سأل ربّه أن يُرِيَه ذلك؛[٤] فيأباه[٥] تعليلُ السؤال بالاطمئنان.

﴿قَالَ﴾ استئناف كما مرّ غيرَ مرّةٍ. ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ عطفٌ على مقدَّرٍ، أي: ألم تعلَمْ ولم تُؤمِنْ بأنّي قادرٌ على الإحياء كيف أشاء[٦] حتّى تسألَني إراءتَه؟ قاله[٧] عزّ وعلا -وهو أعلم بأنّه عليه السلام أثبتُ الناسِ إيمانًا وأقواهم يقينًا- ليُجيبَ بما أجاب به، فيكون ذلك لطفًا للسامعين. ﴿قَالَ بَلَىٰ﴾ علِمتُ وآمنتُ بأنّك قادر على الإحياء على أيّ كيفيّة شئتَ. ﴿وَلَٰكِن﴾ سألتُ ما سألتُ ﴿لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ بمُضامّة العِيانِ إلى الإيمان والإيقان، وأزدادَ بصيرةً بمشاهدته على كيفيّة معيَّنة.

﴿قَالَ فَخُذْ﴾ الفاء لجواب شرطٍ محذوف، أي: إن أردتَ ذلك فخُذ ﴿أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾. قيل: هو اسمٌ لجمعِ[٨] "طائر"،[٩] كـ"رَكْب" و"سَفْر". وقيل: جمعٌ له كـ"تاجرٍ" و"تَجْر". وقيل: هو مصدرٌ سُمِيَ به الجنسُ. وقيل: هو تخفيفُ "طيِّر"

---

١ انظر: كتاب سيبويه، ٤٠٩/١.
٢ انظر هذا الكلام على "كيف" ههنا في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٥٧٣/٢؛ واللباب لابن عادل، ٣٦٤/٤. وذُكِر القولان في "كيف" مع نسبتهما إلى سيبويه والأخفش في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢٣٧/١ (البقرة، ٢٨/٢)؛ واللباب لابن عادل، ٤٨١/١ (البقرة، ٢٨/٢).
٣ انظر: تفسير القرطبي، ٢٩٩/٣؛ وعنه في اللباب لابن عادل، ٣٦٤/٤-٣٦٥.
٤ ذُكِر هذا القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٢٢/١، مِن غير دَفع له.
٥ جواب قوله: "ما قيل".
٦ ط: إنشاء.
٧ س: قال.
٨ ي: لجميع.
٩ ي: الطائر.

بمعنى "طائر"، كـ"هَيْن" في "هيِّن".[١] ومِنْ متعلِّقة بـ"خُذْ"، أو بمحذوف وقع صفةً لـ﴿أَرْبَعَةً﴾، أي: أربعةً كائنة مِن الطير. قيل: هي طاوسٌ وديكٌ وغُرابٌ وحَمامةٌ.[٢] وقيل: نَسْرٌ بدلَ الأخير.[٣] وتخصيصُ الطير بذلك؛ لأنّه أقربُ إلى الإنسان، وأَجمَعُ لخواصِّ الحيوان، ولسُهولة تأَتِّي ما يُفعل به مِن التجزئة والتفريق وغيرِ ذلك.

﴿فَصُرْهُنَّ﴾ مِن صارَه يَصورُه، أي: أمالَه. وقُرِئ بكسر الصاد،[٤] مِن صاره يَصيره، أي: أمِلْهنَّ واضمُمْهنَّ. وقُرِئ: "فصُرَّهن" بضمّ الصاد،[٥] وكسرها وتشديد الراء،[٦] مِن صرَّه يصُرُّه ويصِرُّه إذا جمعه. وقُرِئ: "فصَرِّهِنّ"[٧] مِن التَّصْرية بمعنى الجمع، أي: اجمَعْهنّ.[٨] ﴿إِلَيْكَ﴾ لتتأمَّلَها وتَعرِفَ شِياتِها مفصَّلةً حتّى تعلَم بعد الإحياءِ أنّ جزءًا مِن أجزائها لم ينتقِلْ مِن موضعه الأوّل أصلًا.

رُوي أنّه أُمِر بأن يذبَحها وينتِفَ رِيشَها ويُقطِّعَها ويُفرِّقَ أجزاءَها، ويَخلِطَ رِيشَها ودماءَها ولحومَها، ويُمسِك رُءوسها، ثمّ أُمِر بأن يَجعَل أجزاءَها على الجبال،[٩] وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ أي: جزِّئهنّ وفرِّق أجزاءَهن على ما بحضرتك[١٠] مِن الجبال. قيل: كانت أربعةَ أجبُل.[١١] وقيل: سبعة.[١٢]

---

[١] الأقوال الأربعة في **الدرّ المصون** للسمين الحلبي، ٥٧٥/٢؛ **واللباب** لابن عادل، ٣٦٩/٤. وفيهما أنّ القولَ الثاني للأخفش، والثالثَ لأبي البقاء العُكبَري. انظر قوليهما في **معاني القرآن** للأخفش، ٥٤٦/٢ (الملك، ١٩/٦٧)؛ **والتبيان في إعراب القرآن** للعكبري، ٢١١/١.

[٢] عن مجاهد في **جامع البيان** للطبري، ٦٣٤/٤؛ **وتفسير ابن أبي حاتم**، ٥١٠/٢؛ **ومعالم التنزيل** للبغوي، ٣٢٣/١.

[٣] قال البغوي في **معالم التنزيل**، ٣٢٣/١: «حُكيَ عن ابن عبّاس رضي الله عنه». وهو بلا نسبة في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢٢٢/١.

[٤] قرأ بها حمزة وأبو جعفر وخلف ورُويس. **النشر** لابن الجزري، ٢٣٢/٢.

[٥] وتشديد الراء، قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٢٣.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٢٣.

[٧] قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة. **المُحتسَب** لابن جنّي، ١٣٦/١؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ٥٣٩.

[٨] انظر توجيه هذه القراءات في **المُحتسَب** لابن جنّي، ١٣٦/١-١٣٧.

[٩] ما رُوي مُفرَّقٌ في جملة مِن الآثار في **جامع البيان** للطبري، ٦٤٤/٤-٦٤٦. وهو في **التفسير الوسيط** للواحدي، ٣٧٥/١-٣٧٦؛ **ومعالم التنزيل** للبغوي، ٣٢٤/١.

[١٠] ط: يحضر بك.

[١١] عن ابن عبّاس وقتادة والربيع. انظر: **جامع البيان** للطبري، ٦٤٤/٤؛ **وتفسير ابن أبي حاتم**، ٥١٢/٢-٥١٣. وبلا نسبة **الكشّاف** للزمخشري، ٢٣٩/١.

[١٢] عن ابن عبّاس وابن جريج والسُّدّي. انظر: **جامع البيان** للطبري، ٦٤٦/٤؛ **وتفسير ابن أبي حاتم**، ٥١٣/٢؛ **والكشّاف** للزمخشري، ٢٣٩/١.

فجعَل[١] على كل جبل رُبُعًا أو سُبُعًا مِن كل طائر. وقُرِئ: "جُزُوًا" بضمَّتين،[٢] و"جُزًّا" بالتشديد، بطرح همزته تخفيفًا،[٣] ثمّ تشديدِه عند الوقف، ثمّ إجراءِ الوَصْل مُجرَى الوقف.

﴿ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ﴾ في حيّز الجزمِ على أنّه جواب الأمر، ولكنّه بُني لاتّصاله بنون جَمْع المؤنَّث. ﴿سَعۡيٗا﴾ أي: ساعيات مُسرِعات،[٤] أو ذواتِ سعي طيرانًا أو مَشيًا. وإنّما اقتُصر على حكاية أوامره عزّ وجلّ مِن غير تعرّضٍ لامتثاله عليه السلام، ولا لِما ترتَّب عليه مِن عجائب آثارِ قدرتِه تعالى -كما رُوي أنّه عليه السلام نادى فقال: «تعالَيْنَ بإذن الله تعالى»، فجعَل كلّ جزءٍ منهنّ يَطير إلى صاحبه، حتّى صارت جُثثًا، ثمّ أقبلْنَ إلى رءوسهنّ فانضمَّتْ كلُّ جثّةٍ إلى رأسها، فعادت كلُّ واحدة منهنّ إلى ما كانت عليه مِن الهيئة-[٥] للإيذان بأنّ ترتّب تلك الأمورِ على الأوامر الجليلةِ واستحالةَ تخلّفها عنها مِن الجلاء والظهورِ بحيثُ لا حاجةَ له إلى الذِّكْر أصلًا. وناهيك بالقِصّة دليلًا على فَضْل الخليل، ويُمْنِ الضَّراعة في الدعاء، وحُسنِ الأدب في السؤال، حيثُ أراه الله تعالى ما سأله في الحال على أَيسَر ما يكون مِن الوجوه، وأرى عُزيرًا ما أراه بعدما أَماتَه مائةَ عام، عليهما السلام.

﴿وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالبٌ على أمره لا يُعجِزُه شيء عمّا يُريده. ﴿حَكِيمٞ﴾ ذو حكمةٍ بالغة في أفاعيله، فليس بناءُ أفعاله على الأسباب العاديّة لعَجْزه عن إيجادها بطريق آخرَ خارقٍ للعادات؛ بل لكونه متضمِّنًا للحِكَم والمَصالح.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٦١﴾

---

١ ي - فجعل.

٢ قرأ بها أبو بكر. السبعة لابن مجاهد، ص ١٥٩؛ التيسير للداني، ص ٢٩٩.

٣ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ١/٤٠٦.

٤ ي: مسرعًا.

٥ بمعناه عن ابن عبّاس وابن جريج والسُّدّي. انظر: جامع البيان للطبري، ٤/٦٤٦-٦٤٧؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٢/٥١٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١/٣٢٤.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في وُجوه الخيرات مِن الواجب والنَّفل. ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ لا بدّ مِن تقديرِ مضافٍ في أحد الجانبين، أي: مَثلُ نفقتِهم كمَثلِ حبّةٍ، أو مَثلُهم كمَثلِ باذِر حبّةٍ. ﴿أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ أي: أخرجتْ ساقًا تشعّب منها سبعُ شُعبٍ، لكلّ واحدةٍ منها سُنبلة. ﴿فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ كما يُشاهَد ذلك في الذُّرَة والدُّخن في الأراضي المُغِلَّة؛ بل أكثرُ مِن ذلك. وإسناد الإنبات إلى الحبّة مَجازيٌّ، كإسناده إلى الأرض والربيع. وهذا التمثيل تصويرٌ للأضعاف كأنّها حاضرةٌ بين يدَي الناظر.

﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ﴾ تلك المضاعفةَ أو فوقها إلى ما شاء الله تعالى، ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يُضاعِفَ له بفضله، على حسب حالِ المُنفِق مِن إخلاصه وتَعبِه، ولذلك تفاوتَت مَراتبُ الأعمال في مَقادير الثواب. ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ لا يَضيقُ عليه ما يتفضَّل به مِن الزيادة. ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيّة المُنفِق، ومِقدارِ إنفاقِه، وكيفيّةِ تحصيل ما أنفقه.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جملة مبتدأة، جِيء بها لبيان كيفيّةِ الإنفاق الذي بيّن فَضْلُه بالتمثيل المذكور. ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ﴾ أي: ما أنفقوه، أو إنفاقَهم. ﴿مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ "المَنُّ": / أن يَعتدَّ على[1] مَنْ أَحسَن إليه بإحسانه، ويُريَه [٨٠و] أنّه أَوجَب بذلك عليه حقًّا، و"الأذى": أن يَتطاولَ عليه بسبب إنعامه عليه.[2] وإنّما قُدِّم المَنّ لكثرة وقوعِه. وتوسيطُ كلمة ﴿لَا﴾ للدلالة على شمول النفي لإتباع كلّ واحدٍ منهما. و﴿ثُمَّ﴾ لإظهار عُلوّ رُتبة المعطوف. قيل: نزلتْ في عثمان رضي الله عنه، حين جهَّز جيش العُسْرة بألفِ بعير بأَقْتابها[3] وأَحْلاسها؛[4]

---

١ س – على.

٢ التعريفان في الكشّاف للزمخشري، ١/٢٣٨–٢٣٩.

٣ الأقْتاب جمع قَتَب: وهو رحل صغير على قدر سَنام البعير. انظر: لسان العرب لابن منظور، «قتب».

٤ الأحْلاس جمع حِلْس: وهو كلّ شيء وليَ ظهر البعير والدابّة تحت الرَّحل والقَتَب والسرج. انظر: لسان العرب لابن منظور، «حلس».

وعبدِ الرحمن بن عوف رضي الله عنه، حين أتى النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم بأربعة آلاف درهم صدقةً، ولم يكَدْ يخطُر ببالهما شيءٌ مِن المَنّ والأذى.[1]

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ أي: حسبما وُعِد لهم في ضمن التمثيل، وهو جملة مِن مبتدأ وخبر وقعتْ خبرًا مِن الموصول، وفي تكرير الإسناد وتقييدِ الأجر بقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ مِن التأكيد والتشريف ما لا يخفى. وتخليةُ الخبر عن الفاء المفيدة لسببيّة ما قبلها لِما بعدها للإيذان بأنّ ترتّب الأجر على ما ذُكِر مِن الإنفاق وتَرْكِ إتباع المَنّ والأذى أمرٌ بيّن لا يحتاج إلى التصريح بالسببيّة.

وأما إيهامُ أنّهم أهلٌ لذلك وإن لم يفعلوا، فكيف بهم إذا فعلوا؟ فيأباه مقامُ الترغيب في الفعل والحثُّ عليه.[2]

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الدارين مِن لُحوق مكروهٍ مِن المَكاره. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لفوات مَطلوبٍ مِن المَطالب قلَّ أو جلَّ، أي: لا يَعتريهم ما يُوجِبه. لا أنّه يَعتريهم ذلك، لكنّهم لا يَخافون ولا يَحزنون؛ ولا أنّه لا يَعتريهم خوفٌ وحُزْن أصلًا؛ بل يَستمرّون على النشاط والسرور.[3] كيف لا، واستشعارُ الخوف والخشية استعظامًا لجلال الله تعالى وهيبته، واستقصارًا للجِدّ والسعي في إقامة حقوقِ العبوديّة، مِن خواصِّ الخواصّ والمقرَّبين. والمراد بيانُ دوامِ انتفائِهما، لا بيانُ انتفاءِ دوامِهما، كما يُوهِمه كونُ الخبر في الجملة[4] الثانية مضارِعًا، لِما أنّ النفي وإن دخل على نفس المضارع يُفيدُ الدوام والاستمرار بحسب المقام.

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي: كلام جميل تَقبَله القلوبُ ولا تُنكِره يُردُّ به السائلُ مِن غير إعطاء شيءٍ. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي: سَترٌ لِما وقع مِن السائل مِن الإلحاف في المسألة وغيره ممّا يَثقُل على المسئول وصفحٌ عنه. وإنّما صحّ الابتداءُ بالنكرة في الأوّل

---

[1] بمعناه في تفسير مقاتل بن سليمان، ١/٢١٩؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١/٣٢٥.

[2] في هذا ردٌّ مِن المُصنِّف على ما ذكره البيضاويُّ في أنوار التنزيل، ١/٢٢٤.

[3] في هذا ردٌّ مِن المُصنِّف على قولين أوردهما ابن عادل في اللباب، ٤/٣٨٥.

[4] ي: جملة.

لاختصاصها بالوصف، وفي الثاني بالعطف أو بالصفة المقدَّرة، أي: ومغفرة كائنة مِن المسئول. ﴿خَيْرٌ﴾ أي: للسائل ﴿مِن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾؛ لكونها مَشوبةً بضررِ ما يتبعها، وخُلوصِ الأوّلَين مِن الضرر. والجملة مستأنفةٌ مقرِّرة لاعتبار تَرْكِ إتباع المَنّ والأذى.

وتفسيرُ "المغفرة" بنَيْل مغفرةٍ مِن الله تعالى بسبب الردّ الجميل أو بعَفْو السائل، بناءً على اعتبار الخيريّة بالنسبة إلى المسئول، يؤدّي إلى أن يكون في الصدقة الموصوفة بالنسبة إليه خيرٌ في الجملة مع بطلانها بالمَرّة.[١]

﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ﴾ لا يُحوِج الفقراء إلى تحمُّل مَئونة المَنّ والأذى، ويَرزقهم مِن جهة أخرى. ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يُعاجِل أصحابَ المَنّ والأذى بالعقوبة، لا أنّهم لا يَستحقّونها بسببهما. والجملة تذييل لِما قبلها مشتمِلٌ على الوعد والوعيد مقرّرٌ لاعتبار الخيريّة بالنسبة إلى السائل قطعًا.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أقبَل عليهم بالخطاب إثرَ بيانِ ما بيِّن، بطريق الغَيبة مبالغةً في إيجاب العمل بمُوجَب النهي. ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ أي: لا تُحبِطُوا أجرَها بواحدٍ منهما. ﴿كَٱلَّذِى﴾ في محلّ النصب، إمّا على أنّه نعتٌ لمصدر محذوفٍ، أي: لا تُبطِلوها إبطالًا كإبطال الذي ﴿يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾، وإمّا على أنّه حال مِن فاعل ﴿لَا تُبْطِلُواْ﴾، أي: لا تُبطلوها مشابِهين[٢] الذي يُنفِق، أي: الذي يُبطِل إنفاقَه بالرِّياء. وقيل: مِن ضمير المَصدر المقدَّر، على ما هو رأيُ سيبويه.[٣] وانتصابُ ﴿رِئَآءَ﴾ إمّا على أنّه عِلةٌ لـ﴿يُنفِقُ﴾، أي: لأجل رئائهم،

---

[١] في هذا ردٌّ مِن المُصنِّف على ما ذكره الزمخشريُّ في الكشّاف، ٢٣٩/١؛ والبيضاويُّ في أنوار التنزيل، ٢٢٤/١.

[٢] هامش ط ي: مشبهين.

[٣] انظر القول في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٥٨٥/٢؛ واللباب لابن عادل، ٣٨٧/٤. وانظر: كتاب سيبويه، ٢٢٧/١.

أو على أنّه حال مِن فاعله، أي: يُنفِق ماله مُرائيًا، والمراد به المنافِق لقوله تعالى:[١] ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ حتّى يرجوَ ثوابًا أو يخشى عقابًا.

﴿فَمَثَلُهُ﴾ الفاء لربط ما بعدها بما قبلها، أي: فمَثَل المُرائي في الإنفاق وحالته العجيبة. ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ أي: حَجَرٍ أملَس، ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ أي: شيء يسير منه، ﴿فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾ أي: مطرٌ عظيمُ القطرة، ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ أَملَسَ ليس عليه شيءٌ مِن الغُبار أصلًا.

﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾ لا يَنتفعون بما فعلوا رياءً، ولا يَجدون له ثوابًا قطعًا، كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان، ٢٣/٢٥]. والجملة استئنافٌ مَبنيٌّ على السؤال، كأنّه قيل: فماذا يكونُ حالُهم حينئذٍ؟ فقيل: لا يَقدِرون... إلخ، ومِن ضرورة كون مَثَلهم كما ذُكِر كونُ مَثَل مَن يُشبِهُهم -وهم أصحابُ المَنّ والأذى- كذلك. والضميران الأخيران للموصول باعتبار المعنى، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة، ٦٩/٩] لِما أنّ المراد به الجنسُ أو الجَمْع أو الفَريق، كما أنّ الضمائر الأربعة السابقة له باعتبار اللفظ.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ إلى الخير والرشاد. والجملة تذييلٌ مقرِّر لمضمون ما قبله. وفيه تعريضٌ بأنّ كلًّا مِن الرِّياء والمَنّ والأذى مِن خصائص الكُفّار، ولا بدّ للمؤمِنين أن يجتنبوها.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أي: لطلَب رضاه، ﴿وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: ولتثبيت بعضِ أنفسِهم على الإيمان؛ فـ﴿مِنْ﴾ تبعيضيّة، كما في قولهم: "هزّ مِن عِطْفه وحرَّك مِن نشاطه"، فإنّ المال شَقيق الروح، فمَن بذَل ماله لوجه الله تعالى فقد ثبّت بعضَ نفسه، ومَن بذَل ماله ورُوحَه فقد ثبّتها كُلَّها.

---

[١] س - لقوله تعالى.

أو وتَصديقًا للإسلام وتحقيقًا للجزاء مِن أصل أنفسِهم؛ فـ﴿مِنْ﴾ ابتدائيّة، كما في قوله تعالى: ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة، ١٠٩/٢]. ويَحتمِل أن يكون المعنى: وتثبيتًا مِن أنفُسهم عند المؤمنين أنّها صادقةُ الإيمان مخلِصةٌ فيه، ويَعضُده قراءةُ مَن قرأ "وَتَبِيِنًا مِن أَنْفُسِهِمْ".[١] وفيه تنبيهٌ على أنّ حِكمةَ الإنفاق للمُنفِق تزكيةُ النفس عن البُخل وحبِّ المال الذي هو رأسُ كُلّ خَطيئة.

[٨٠ظ] / ﴿كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبْوَةٍ﴾ الربوة -بالحركات الثلاث، وقد قُرِئت بها-[٢] المكانُ المرتفِع، أي: مَثَل نفقتِهم في الزَّكاء كمَثَل بُستان كائنٍ بمكان مرتفِع مأمونٍ مِن أن يَصطلِمَه[٣] البردُ لِلَطافة هوائه بهُبوب الرِّياح المُلطِّفة له؛ فإنّ أشجارَ الرُّبا تكون أحسنَ مَنظرًا وأزكى ثمرًا، وأمّا الأراضي المنخفِضةُ فقلّما تَسلَم ثمارُها مِن البرد لكثافة هوائِها برُكود الرِّياح. وقُرِئ: "كَمَثَل حَبّةٍ".[٤]

﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ مطرٌ عظيمُ القَطر، ﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا﴾: ثمرتَها، وقُرِئ بسكون الكاف تخفيفًا.[٥] ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ أي: مِثْلَي ما كانت تُثمِر في سائر الأوقات بسبب ما أصابها مِن الوابل. والمراد بالضِّعْف: المِثْلُ.[٦] وقيل: أربعةُ أمثال.[٧] ونَصْبُه على الحال مِن ﴿أُكُلَهَا﴾ أي: مضاعَفًا.[٨]

﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ أي: فطَلٌّ يَكفيها لجَوْدتها وكَرَمِ مَنبَتها ولَطافةِ هوائِها. وقيل: فيُصيبها طلٌّ: وهو[٩] المطرُ الصغيرُ القَطرة. وقيل: فالذي يُصيبها طلٌّ.[١٠]

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد. الكشّاف للزمخشري، ٢٤٠/١؛ والمغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٥٤٠.

[٢] ي: به. | قرأ عاصم وابن عامر بفتح الراء وقرأ الباقون بضمّها. السبعة لابن مجاهد، ص ١٩٠؛ النشر لابن الجزري، ٢٣٢/٢. وقراءة كَسْر الراء شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وقتادة والأعمش وطلحة والحسن. انظر: شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٣؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ١٠٠؛ والمغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٥٤١.

[٣] صلم الشيءَ: قطعه مِن أصله، والاصطلام مبالغة منه. انظر: لسان العرب لابن منظور، «صلم».

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وحُميد. انظر: شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٣؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٩٩.

[٥] قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو. السبعة لابن مجاهد، ص ١٩٠؛ النشر لابن الجزري، ٢١٦/٢.

[٦] عن عطاء في معالم التنزيل للبغوي، ٣٢٨/١.

[٧] نُقِل هذا القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٢٥/١.

[٨] ي: مضاعافًا.

[٩] ي: هو.

[١٠] القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٢٥/١.

والمعنى: أنّ نفقاتِ هؤلاءِ زاكيةٌ عند الله تعالى، لا تَضيعُ بحال، وإن كانت تتفاوَتُ باعتبار ما يُقارِنها مِن الأحوال. ويجوز أن يُعتبَر التمثيلُ بين حالهم باعتبار ما صدَر عنهم مِن النفقة الكثيرةِ والقليلةِ وبين الجنّةِ المَعهودةِ باعتبار ما أصابها مِن المطر الكثير واليسير، فكما أنّ كلّ واحد مِن المَطرَين يُضعِّفُ أُكُلَها، فكذلك نفقتُهم -جلّت أو قلّت- بعد أن يُطلَب بها وجهُ الله تعالى زاكيةٌ زائدةٌ في زُلفاهم وحُسْنِ حالهم عند الله تعالى.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء منه، وهو ترغيبٌ في الإخلاص، مع تحذير مِن الرِّياء ونحوه.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ الوُدّ: حُبُّ الشيء مع تَمنِّيه، ولذلك يُستعمَل استعمالَهما. والهمزةُ لإنكار الوُقوع، كما في قوله: أَأَضرِب أبي؟ لا لإنكار الواقع، كما في قولك: أَتَضرِب أباك؟ على أنّ مَناطَ الإنكارِ ليس جميعَ ما تعلَّق به الوُدّ؛ بل إنّما هو إصابةُ الإعصارِ وما يَتبعُها مِن الاحتراق. ﴿أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ وقُرئ: "جنّاتٌ".[1] ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ أي: كائنةٍ منهما، على أن يكون الأصل والرُّكنُ فيها هذين الجِنسين الشريفين الجامعين لفنون المَنافِع، والباقي مِن المستتبَعات، لا على ألّا يكونَ فيها غيرُهما كما ستَعرِفه. و"الجَنّةُ": تُطلَق على الأشجار المُلتفَّة المُتكاثِفة. قال زهير:

كـأنّ عـينـيَّ فـي غَـربَـي مُـقـتَّـلـةٍ   مِـن النواضِحِ تَسقي[2] جَـنّـةً سُحُقا[3]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٠٠.
[2] ضُبِطت في ط س: تُسقى.
[3] وفي هامش ط ي: طوالًا. «منه». | والبيت في ديوانه بشرح ثعلب، ص ٤١، وفيه: الغَرْبان: الدلوان الضخمان، والمُقتَّلة: المُذلَّلة. يعني الناقة. يقول: كأنّ عيني مِن كثرة دموعها في غَرْبَي ناقة يُنضَح عليها، قد قُتِّلت بالعمل حتّى ذلّت. والنواضح جمع ناضح: وهو البعير يستقى عليه. وأسحقتِ النخلة إذا طالت. والبيت لزهير في الصحاح للجوهري، «جنن»؛ والكشّاف للزمخشري، ٨٦/١ (البقرة، ٢/٢٥).

وعلى الأرض المشتمِلة عليها.[١] والأوّلُ هو الأنسبُ بقوله عزّ وجلّ: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ إذ على الثاني لا بدّ مِن تقدير مضافٍ، أي: مِن تحت أشجارِها، وكذا لا بدّ مِن جَعْل إسنادِ الاحتراق إليها فيما سيأتي مجازيًّا. والجملة في محلّ الرفع على أنّها صفةُ ﴿جَنَّةٌ﴾، كما أنّ قوله تعالى: ﴿مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ كذلك، أو في محلّ النصب على أنها[٢] حال منها؛ لأنّها موصوفة.

﴿لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ الظرف الأوّل خبر، والثاني حال، والثالثُ مبتدأ، أي: صفة للمبتدأ قائمة مَقامه، أي: له رِزقٌ مِن كُلّ الثمرات، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات، ١٦٤/٣٧]، أي: وما منّا أحدٌ إلّا له... إلخ، وليس المرادُ بالثمرات العمومَ؛ بل إنّما هو التكثير، كما في قوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل، ٢٣/٢٧]. ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ أي: كِبَرُ السِّنّ الذي هو مَظِنّةُ شِدّةِ الحاجة إلى مَنافعها، ومَئِنّةُ كمالِ العَجْز عن تَدارُك أسبابِ المعاش. والواو حاليّة، أي: وقد أصابه الكِبَر. ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾ حال مِن الضمير في ﴿أَصَابَهُ﴾، أي: أصابه الكِبَرُ، والحالُ أنّ له ذرّيّةً صِغارًا لا يَقدِرون على الكَسْب وترتيب مَبادي المَعاش. وقُرئ: "ضِعَافٌ".[٣] ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ﴾ أي: ريحٌ عاصفةٌ تَستدير في الأرض ثمّ تَنعكِس منها ساطعةً إلى السماء على هيئة العَمود. ﴿فِيهِ نَارٌ﴾ شديدةٌ. ﴿فَٱحْتَرَقَتْ﴾ عطفٌ على ﴿فَأَصَابَهَا﴾. وهذا كما ترى تمثيلٌ لحال مَن يعمل أعمالَ البرِّ والحسناتِ، ويَضُمُّ إليها ما يُحبِطُها مِن القوادح، ثمّ يَجدُها يوم القيامة عند كمال حاجته إلى ثوابها هباءً منثورًا في التحسّر والتأسّف عليها.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ توحيدُ الكاف مع كون المخاطَب جَمعًا قد مرّ وَجهُه مِرارًا، أي: مِثْلَ ذلك البيان الواضحِ الجاري في الظهور مَجرى الأمورِ المحسوسة ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾؛ كي تتفكّروا فيها، وتعتبروا بما فيها مِن العِبَر، وتعملوا بمُوجَبها.

---

[١] يعني أنّ "الجنّة" تُطلَق أيضًا على ما ذكَر.

[٢] ط س: أنّه.

[٣] قراءة شاذّة، وهي بلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٢٤٠/١؛ وعنه في المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٥٤٢.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ بيان لحال ما يُنفَقُ منه إثرَ بيانِ أصلِ الإنفاق وكيفيّته، أي: أنفقوا مِن حلال ما كسبتُم وجيادِه؛ لقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران، ٣/٩٢]. ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: مِن طيّبات ما أخرجنا لكم مِن الحُبوب والثِّمار والمَعادِن، فحُذِف لدلالة ما قبله عليه.

﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ﴾ بفتح التاء، أصله: ولا تَتيمَّموا. وقُرئ بضمّها،[١] وقُرئ: "ولا تَأَمَّموا".[٢] والكلّ بمعنى القَصْد، أي: لا تقصِدوا ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾ أي: الرديء الخسيسَ، وهو كالطيّب مِن الصفات الغالبة لا تُذكَر مَوصوفاتُها. ﴿مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ الجارُّ متعلِّق بـ﴿تُنفِقُونَ﴾، والضميرُ لـ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾، والتقديمُ للتخصيص، والجملة حال مِن فاعل ﴿تَيَمَّمُواْ﴾، أي: لا تَقصِدوا الخبيثَ قاصرين الإنفاقَ عليه، أو مِن الخبيث، أي: مختَصًّا به الإنفاقُ. وأيًّا ما كان فالتخصيص لتوبيخهم بما كانوا يتعاطَوْنه مِن إنفاق الخبيثِ خاصةً، لا لتسويغ إنفاقِه مع الطيِّب. عن ابن عبّاس رضيَ الله عنهما: «أنّهم كانوا يتصدَّقون بحَشَف التمر[٣] وشِرارِه، فنُهوا عنه».[٤] وقيل: متعلِّق بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾.[٥] والضمير للمال[٦] المدلول عليه بحسب المقام، أو للمَوصولَين على طريقة قوله:

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الزُّهري ومسلم بن جُندب وشريح وأبي البَرَهسَم. انظر: شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٣؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ١٠٠؛ والمغني في القراءات للنَّوزاوازي، ص ٥٤٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي صالح صاحب عكرمة. انظر: شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٣.

[٣] الحشَف: أردأ التمر، وهو اليابس الفاسد منه. انظر: لسان العرب لابن منظور، «حشف».

[٤] هو بمعناه عن البراء والضحّاك ومجاهد والحسن وقتادة. انظر: جامع البيان للطبري، ٤/٦٩٩-٧٠٢؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٢/٥٢٨؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١/٣٣٣. وهو عن ابن عبّاس بلفظه ههنا في الكشّاف للزمخشري، ١/٢٤١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٤١.

[٥] انظر: التبيان في إعراب القرآن للعكبري، ١/٢١٩.

[٦] ي: للحال.

كـأنّـه فـي الـجِـلْـدِ تَـولـيـعُ الـبَـهَـقْ[1]

أو للثاني.[2] وتخصيصُه بذلك لِما أنّ التفاوت فيه أكثرُ. و﴿تُنفِقُونَ﴾ حال مِن الفاعل المذكور، أي: ولا تَقصِدوا الخبيث كائنًا مِن المال أو ممّا كسبتُم، وما أخرجنا لكم أو ممّا أخرجنا لكم منفِقين إيّاه.

[٨١و] وقوله تعالى: ﴿وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ﴾ حال على كلّ حالٍ مِن / واو ﴿تُنفِقُونَ﴾، أي: تُنفِقون والحال أنّكم لا تَأخذونه في معاملاتكم في وقت مِن الأوقات أو بوجه مِن الوجوه. ﴿إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِ﴾ أي: إلّا وقتَ إغماضِكم فيه، أو إلّا بإغماضكم، وهو عبارةٌ عن المسامَحة بطريق الكِناية أو الاستعارة، يقال: أغمضَ بصرَه إذا غضَّه. وقُرئ على البناء للمفعول،[3] على معنى: إلّا أن تُحمَلوا على الإغماض، وتُدخَلوا فيه[4] أو تُوجَدوا مُغمِضين. وقُرئ: "تَغْمُضُوا"،[5] و"تَغْمِضُوا"[6] بضمّ الميم وكسرها. وقيل: تمّ الكلام عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ﴾، ثمّ استُؤنِف فقيل على طريقة التوبيخ والتقريع: منه تُنفِقون والحالُ أنّكم لا تأخُذونه إلّا إذا أغمَضْتم فيه. ومآلُه الاستفهامُ الإنكاريُّ؛ فكأنه قيل: أَمِنهُ تُنفِقون... إلخ؟[7]

---

[1] الرجز لرؤبة بن العجّاج في ديوانه، ص ١٠٤. والكلام على الناقة، وقبله:

فيها خُطوطٌ مِن سَوادٍ وبَلَقْ

وهو له في مجاز القرآن لأبي عُبيدة، ٤٣/١، ١٢٣، وقال أبو عبيدة في عَوْد الضمير فيه: «قلتُ لرؤبة: إن كانت خطوطٌ فقل: كأنّها، وإن كان سواد وبَلَق فقل: كأنّهما. فقال: كأنّ ذلك -ويلكَ- توليعُ وبَهَق». مجاز القرآن، ٤٤/١. وأورده الجوهريُّ له في موضعين وقال في شرحه: «البَهَق: بياض يعتري الجلد يخالف لونه، ليس مِن البَرَص»، وقال في الموضع الثاني بعد نَقْل خبر أبي عبيدة مع رؤبة: «قال الأصمعيُّ: إذا كان في الدّابّة ضروب مِن الألوان مِن غير بَلَقٍ فذلك التوليع». الصحاح، «بهق»، «ولع».

[2] يقصد الموصول الثاني.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة وأبي مِجْلَز. انظر: شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٣؛ والمغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٥٤٣.

[4] س: فيها.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن الزُّهري والحسن والبراء. انظر: المُحتسَب لابن جنّي، ١٣٨/١؛ والمغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٥٤٣.

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن الزُّهري وأبي البَرَهسَم. انظر: شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٣؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ١٠٠.

[7] هذا القول باختلاف في الصوغ يسير في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٦٠١/٢، وقال فيه: «وهذا يَردُّه المعنى»؛ ونقله عنه مع الردّ ابن عادل في اللباب، ٤٠٩/٤.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن إنفاقكم، وإنّما يأمركم به لمنفعتكم. وفي الأمر بأن يَعلموا ذلك مع ظهور عِلْمهم به توبيخٌ لهم على ما يَصنعون مِن إعطاء الخبيث، وإيذانٌ بأنّ ذلك مِن آثار الجهل بشأنه تعالى؛ فإنّ إعطاء مِثْلِه إنّما يكون عادةً عند اعتقاد المُعطِي أنّ الآخذ محتاجٌ إلى ما يُعطيه؛ بل مضطرٌّ إليه. ﴿حَمِيدٌ﴾ مستحِقٌّ للحَمْد على نِعَمه العِظام. وقيل: حامدٌ بقَبول الجيِّد والإثابة عليه.[١]

﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ۝٢٦٨﴾

﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ﴾ الوعدُ: هو الإخبار بما سيكون مِن جهة المُخبِر مترتِّبًا على شيء مِن زمان أو غيره، يُستعمَل في الشرّ استعمالَه في الخير. قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الحج، ٧٢/٢٢]، أي: يَعِدُكم في الإنفاق الفقرَ ويقول: إنّ عاقبة إنفاقِكم أن تَفتقِروا. وإنّما عُبّر عن ذلك بالوعد مع أنّ الشيطان لم يُضِف مجيءَ الفقرِ إلى جهته؛ للإيذان بمبالغته في الإخبار بتحقّق مجيئه، كأنّه نزَّله في تقرّر الوقوعِ مَنزلةَ أفعالِه الواقعةِ بحسب إرادته، أو لوقوعه في مقابَلة وعدِه تعالى على طريقة المشاكلة. وقُرئ بضمّ الفاء والسكون،[٢] وبضمّتين،[٣] وبفتحتين.[٤] ﴿وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ أي: بالخَصْلة الفحشاء، أي: ويُغرِيكم على البخل[٥] ومَنْعِ الصدقاتِ إغراءَ الآمرِ للمأمور على فعل المأمور به. و«العَربُ تُسمي البخيلَ فاحشًا؛ قال طَرَفة بن العَبْد:[٦]

---

١ القول بمعناه في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٢٦/١.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة والزّعفراني عن رَوح وعيسى بن عمر. انظر: شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٤؛ والمغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٥٤٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن زهير القُرقُبي. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٠٠.

٤ قراءة شاذّة، وهي بلا نسبة في شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٤؛ والمغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٥٤٤.

٥ انظر: التفسير الوسيط للواحدي، ٣٨٣/١؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٣٣/١؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٤١/١.

٦ هو طَرَفة بن العبد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي، أبو عمرو (ت. نحو ٥٦٤م). شاعر جاهليّ مِن أصحاب المعلّقات المشهورة. وُلد في بادية البحرين وتنقّل في بقاع نجد، واتّصل بالملك عمرو بن هِند فجعله مِن نُدمائه، ثمّ بلغ الملك أنّ طَرَفة هجاه بأبيات، فأرسله بكتاب إلى عامله على البحرين وعُمان المُكعبر يأمره بقتله، فقتله وهو شابّ، قيل: ابن عشرين، وقيل: ابن ستّة وعشرين. ديوانه مطبوع بشرح الأعلَم الشُّنتمَري. الشعر والشعراء لابن قتيبة، ١٨٢/١-١٩٠؛ والأعلام للزركلي، ٢٢٥/٣.

أَرى المَوتَ يَعتامُ الكرامَ ويصطفي عَقِيلةَ مالِ الفاحشِ المتشدِّدِ»[١]

وقيل: بالمعاصي والسيّئات.[٢]

﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم﴾ أي: في الإنفاق ﴿مَّغۡفِرَةٗ﴾ لذنوبكم. والجارّ في قوله تعالى: ﴿مِّنۡهُ﴾ متعلِّقٌ بمحذوف هو صفة لـ﴿مَّغۡفِرَةٗ﴾ مؤكِّدةٌ لفخامتها التي أفادها تنكيرُها، أي: مَغفِرةً أيَّ مَغفِرةٍ، مغفرةً كائنةً منه عزّ وجلّ. ﴿وَفَضۡلٗاۗ﴾ صفتُه،[٣] محذوفةٌ لدلالة المذكور عليها، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ﴾ [آل عمران، ١٧٤/٣]، ونظائرِه، أي: وفضلًا كائنًا منه تعالى، أي: خَلَفًا ممّا أنفقتُم زائدًا[٤] عليه في الدنيا. وفيه تكذيبٌ للشيطان. وقيل: ثوابًا في الآخرة.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ قُدرةً وفضلًا، فيُحقِّق ما وعدكم به مِن المَغفِرة وإخلافِ ما تُنفِقونه، ﴿عَلِيمٞ﴾ مبالِغ في العِلْم فيَعلَم إنفاقَكم، فلا يكاد يُضيّع أجرَكم، أو يَعلمُ ما سيكون مِن المَغفِرة والفضل فلا احتمال للخُلْف في الوعد. والجملة تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله.

﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٦٩﴾

﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ قال مجاهد: «الحِكمة: هي القرآن والعِلم والفِقه».[٥] ورُوي عن ابن أبي[٦] نجيح[٧] أنّها: «الإصابة في القول والعمل».[٨] وعن إبراهيم

---

[١] تهذيب اللغة للأزهري، ١٨٨/٤ «فحش»؛ لسان العرب لابن منظور، «فحش». | والبيت مِن مُعلَّقة طَرفة في ديوانه، ص ٤٩؛ وشرح القصائد السبع لابن الأنباري، ص ٢٠٠، وفيه: «يَعتام: يَختار... وعَقيلة كلّ شيء: خَيْره وأَنفَسه عند أهله... ويَصطفي: يَختار... والمُتشدِّد: البخيل المُمسِك».

[٢] انظر: جامع البيان للطبري، ٥/٥؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٥٣٠/٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٣٣/١.

[٣] ي: صفة.

[٤] ي: زائد.

[٥] عنه في جامع البيان للطبري، ٩/٥؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٥٣١/٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٣٤/١.

[٦] ط س ي - أبي.

[٧] هو عبد الله بن أبي نجيح الثقفي المكي، أبو يسار (ت. ١٣١هـ/٧٤٩م). الإمام الثقة المُفسِّر. واسم أبيه يسار مولى الأخنس بن شَريق الصحابي. حدَّث عن طاوس وعطاء ومجاهد وهو أخصّ الناس به. وحدَّث عنه شعبة والثوري وابن عُيينة وغيرهم. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ١٢٥/٦-١٢٦؛ والوافي بالوفيات للصفدي، ٣٦٢/١٧.

[٨] لابن أبي نجيح عن مجاهد في تفسير ابن أبي حاتم، ٥٣٢/٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٣٤/١. وأورده الطبريُّ غير منسوب في جامع البيان، ١٠/٥.

النخَعي[1] أنّها: «معرفة معاني الأشياء وفهمُها».[2] وقيل: هي معرفة حقائِق الأشياءِ.[3] وقيل: هي الإقدام على الأفعال الحَسَنة الصائبة.[4] وعن مقاتل أنّها: تُفسَّر في القرآن بأربعة أوْجُه: فتارةً بمَواعظِ القرآنِ، وأخرى بما فيه مِن عجائب الأسرار، ومرةً بالعِلم والفهم، وأخرى بالنّبوّة.[5] ولعلّ الأنسَب بالمَقام ما ينتظِم الأحكامَ المبيَّنة في تضاعيف الآياتِ الكريمةِ مِن أحد الوجهين الأوّلَين. ومعنى "إيتائِها": تبيينُها والتوفيقُ للعِلْم والعمل بها،[6] أي: يُبيِّنها ويُوفِّق للعِلم والعمل بها ﴿مَن يَشَآءُ﴾ مِن عباده أن يؤتيَها إيّاه بمُوجَب سَعةِ فضلِه وإحاطةِ عِلمه، كما آتاكم ما بيَّنه في ضمن الآي مِن الحِكَم البالغة التي عليها[7] يدور[8] فَلَك منافعكم، فاغتنموها وسارعوا إلى العمل بها. والموصول مفعولٌ أوّلُ لـ﴿يُؤۡتِى﴾، قُدِّم عليه الثاني للعناية به. والجملة مستأنَفة مقرِّرةٌ لمضمون ما قبلها.

﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ على بناء المفعول، وقُرئ على البناء للفاعل،[9] أي: ومَن يُؤتِه[10] الله الحكمةَ. والإظهار في مَقام الإضمار لإظهار الاعتناءِ بشأنها، وللإشعار بعِلّة الحُكم. ﴿فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ أي: أيَّ خيرٍ كثير فإنّه قد حُيِّر له خيرُ الدارين.

---

[1] هو إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود النخَعي اليماني ثمّ الكوفي، أبو عمران وأبو عمّار (ت. نحو ٩٦هـ/٧١٤م). الإمام الحافظ فقيه العراق. روى عن مسروق وعلقمة بن قيس وعَبيدة السَّلماني والقاضي شُريح وأبي عبد الرحمن السُّلمي وخلقٍ سِواهم مِن كبار التابعين. وهو مِن صغار التابعين، لم يُحدِّث عن أحد مِن أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وقد أدرك جماعة منهم، ورأى عائشة رضي الله عنها. انظر: وفيات الأعيان لابن خلّكان، ١/٢٥-٢٦؛ وسير أعلام النبلاء للذهبي، ٤/٥٢٠-٥٢٩.

[2] عنه في جامع البيان للطبري، ٥/١٠؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٢/٥٣٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١/٣٣٤.

[3] انظر: تفسير الراغب الأصفهاني، ١/٣١٦.

[4] لم أجده فيما وقفتُ عليه مِن المظانّ.

[5] لم أجده في مظانّه. والوجوه الأربعة عن مقاتل بلفظ قريب في تفسير الرازي، ٧/٥٨؛ واللباب لابن عادل، ٤/٤١٨. والوجه الأخير منها مرويٌّ عن السُّدّي في جامع البيان للطبري، ٥/١٢؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٢/٥٣٢.

[6] ي - بها.

[7] ي: يدور.

[8] ي: عليها.

[9] قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٣٥.

[10] ط س - يؤتيه.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ أي: وما يتّعظ بما أُوتي مِن الحكمة، أو وما يتفكّر فيها ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: العقولِ الخالصةِ عن شوائب الوهم والرُّكونِ إلى مُشايَعة الهوى. وفيه مِن الترغيب في المحافَظة على الأحكام الواردة في شأن الإنفاق ما لا يخفى. والجملة إمّا حال، أو اعتراض تذييليٌّ.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ بيان لحُكم كُلّيّ شاملٍ لجميع أفراد النفقاتِ وما في حكمها، إثرَ بيان حُكمِ ما كان منها في سبيل الله. و﴿مَا﴾ إمّا شَرطيّة، أو موصولة حُذِف عائدُها مِن الصلة، أي: وما أنفقتموه مِن نفقة، أي: أيّ نفقةٍ كانتْ: في حقّ أو باطل، في سرّ أو علانية، قليلةٍ أو كثيرة. ﴿أَوْ نَذَرْتُم﴾ النَّذْر: عقدُ الضمير على شيءٍ والتزامُه. وفِعْله كـ"ضَرَب" و"نَصَر". ﴿مِّن نَّذْرٍ﴾ أيّ نذرٍ كان في طاعةٍ أو معصية، بشَرطٍ أو بغير شَرط، متعلِّق بالمال أو بالأفعال، كالصيام والصلاة ونحوهما.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ الفاء على الأوّل داخلةٌ على الجواب، وعلى الثاني مَزيدةٌ في الخَبر. وتوحيد الضمير مع تعدّد متعلَّق العِلم لاتّحاد المَرجِع بناءً على كون العطف بكلمة "أو"، كما في قولكَ: زيدٌ أو عمرٌو أكرمتُه، ولا يقال: أكرمتُهما؛ ولهذا صِير إلى التأويل / في قوله تعالى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء، ١٣٥/٤]؛ بل يُعاد الضميرُ تارةً إلى المقدَّم رعايةً للأوّليّة، كما في قوله عزّ وعلا: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾ [الجمعة، ١١/٦٢]، وأخرى إلى المؤخَّر رعايةً للقُرب، كما في هذه الآية الكريمة،[1] وفي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾ [النساء، ١١٢/٤]. [٨١ظ]

وحَمْل النظم[2] على تأويلهما بالمَذكور ونظائره، أو على حَذْف الأوّل ثقةً بدلالة الثاني عليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة، ٣٤/٩]، وقولِه:

---

[1] ي - الكريمة.

[2] س + الكريم.

نحنُ بما عندنا وأنتَ بما عندكَ راضٍ والرأيُ مُختلِفُ[1]

ونحوِهما، ممّا عُطِف فيه بالواو الجامعةِ، تعسفٌ[2] مُستغنًى[3] عنه. نعم يجوز إرجاعُ الضمير إلى ﴿مَا﴾ على تقدير كونِها موصولةً. وتصدير الجملة بـ"إنّ" لتأكيد مضمونِها إفادةً لتحقيق الجزاء، أي: فإنّه تعالى يُجازِيكم عليه البتّةَ، إنْ خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشرٌّ، فهو ترغيب وترهيب ووعد ووعيد.

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ بالإنفاق والنَّذْر في المعاصي، أو بمَنْع الصدقاتِ وعدمِ الوفاء بالنُّذور، أو بإنفاق الخبيثِ، أو بالرِّياء والمَنِّ والأذى، وغيرِ ذلك ممّا ينتظمُه[4] معنى "الظُّلم" الذي هو: عبارة عن وَضْع الشيءِ في غير موضعه الذي يحِقُّ أن يُوضَع فيه. ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ أي: أعوانٍ يَنصرونهم مِن بأس الله وعِقابه، لا شفاعةً ولا مدافَعةً. وإيراد صيغة الجَمْع لمقابَلة الظّالمين، أي: وما لظالم مِن الظالمين مِن نصيرٍ مِن الأنصار. والجملة استئنافٌ مقرِّرٌ لِما فيما قبله مِن الوعيد، مفيدٌ لفظاعة حالِ مَنْ يَفعل ما يَفعل مِن الظالمين لتحصيل الأعوان ورعاية الخُلّان.

﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾

﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾ نوعُ تفصيلٍ لبعض ما أُجمِل في الشرطيّة وبيانٌ له؛ ولذلك تُرِك العطف بينهما، أي: إن تُظهِروا الصدقاتِ فنِعمَ شيئًا إبداؤُها بعد أن لم يكن رياء وسمعة. وقُرئ بفتح النون وكسر العين،[5] على الأصل،

---

[1] البيت لعمرو بن امرئ القيس الخزرجي في البيان والتبيين للجاحظ، ٣/١٠٠؛ وجمهرة أشعار العرب للقرشي، ص ٥٣١. وبلا نسبة في معاني القرآن للأخفش، ١/٣٥٧ (التوبة، ٩/٣٥)؛ وجامع البيان للطبري، ١١/٤٣٤ (التوبة، ٩/٣٤). وجاء منسوبًا إلى قيس بن الخطيم في مطبوع كتاب سيبويه، ١/٧٥، وهو في قسم المنسوب إلى شعره مِن ديوانه، ص ٢٣٩، وبيّن محقّق ديوان قيس أنّه لعمرو، وبيّن أنّ شعرهما قد يتداخل. انظر: ديوان قيس بن الخطيم، ص ١٠١-١٠٢، ٢٣٩. وفصّل البغداديُّ الكلام في هذا البيت وأنّ الصحيح نسبته لعمرو. انظر: خزانة الأدب للبغدادي، ٤/٢٧٥-٢٨٣.

[2] السياق: وحَمْل النظم على تأويلهما... تعسُّف...

[3] ي: مستغن.

[4] ي: ينظمه.

[5] قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف. انظر: السبعة لابن مجاهد، ص ١٩١؛ والنشر لابن الجزري، ٢/٢٣٥.

وقُرئ بكسر النون وسكون العين،[١] وقُرئ بكسر النون وإخفاءِ حركة العين.[٢]

وهذا في الصدقات المفروضة، وأمّا في صدقة التطوّعِ فالإخفاءُ أفضلُ، وهي التي أُرِيد بقوله تعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا﴾ أي: تُعطوها خُفيَة. ﴿وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾ ولعلّ التصريحَ بإيتائها الفقراءَ مع أنّه واجبٌ في الإبداء أيضًا، لِما أنّ الإخفاءَ مَظِنّةُ الالتباسِ والاشتباه، فإنّ الغنيَّ ربّما يدَّعي الفَقرَ، أو يُقدِم على قَبول الصدقةِ سِرًّا، ولا يَفعَل ذلك عند الناس. ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: فالإخفاءِ خيرٌ لكم مِن الإبداء، وهذا في التطوّع، ومَن لم يُعرَف بالمال. وأمّا في الواجب فالأمرُ بالعكس لدَفْع التُّهَمة. عن ابن[٣] عبّاس رضي الله عنهما: «صدقةُ السِّرّ في التطوّع تَفضُل علانيتَها سبعين ضِعفًا، وصدقةُ الفريضةِ علانيتُها أفضلُ مِن سِرّها بخمسة وعِشرين ضِعفًا».[٤]

﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أي: واللهُ يُكفِر، أو الإخفاءُ. و﴿مِن﴾ تَبعيضيّة، أي: شيئًا مِن سيّئاتكم كما سترتموها. وقيل: مَزيدةٌ على رأي الأخفش.[٥] وقُرئ بالتاء مرفوعًا،[٦] ومجزومًا،[٧] على أنّ الفعل للصدقات. وقُرئ بالنون مرفوعًا،[٨] عطفًا على محلّ ما بعد الفاء، أو على أنّه خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: ونحن نُكفِرُ،

---

١ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٣٥-٢٣٦. وقرأ بها أبو عمرو ونافع في رواية قالون وعاصم في رواية أبي بكر. السبعة لابن مجاهد، ص ١٩١. وسيأتي أنّ ذلك إحدى الرّوايتين عنهم.

٢ قال ابن الجزري: «اختُلِف عن أبي عمرو وقالون وأبي بكر: فروى عنهم المغاربة قاطبة إخفاء كسرة العين ليس إلّا، يريدون الاختلاس فرارًا مِن الجمع بين الساكنين؛ وروى عنهم العراقيّون والمَشرقيّون قاطبة الإسكان». النشر، ٢/٢٣٥-٢٣٦. وانظر ذلك مختصرًا في التيسير للداني، ص ٣٠٣.

٣ ي - ابن.

٤ عنه بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٥/١١٥؛ وتفسير القرطبي، ٣/١٣٣٢؛ وتفسير ابن كثير، ١/٧٠٣.

٥ انظر: الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢/٦١٤؛ واللباب لابن عادل، ٤/٤٢٨.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وشَهر بن حَوْشَب والصرصريّ عن أبي بكر. انظر: شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٤؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٠١؛ والمغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ٥٤٦-٥٤٧.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس والجَحدريّ وكِرداب عن رُويس. انظر: شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٤؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٠١؛ والمغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ٥٤٦.

٨ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٣٦.

أو على أنّها جملة مبتدأةٌ مِن فعل وفاعل. وقُرئ مجزومًا،[١] عطفًا على محلّ الفاء وما بعده؛ لأنّه جوابُ الشرط.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ مِن الإسرار والإعلان ﴿خَبِيرٌ﴾، فهو ترغيب في الإسرار.

﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٢﴾

﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ﴾ أي: لا يجِب عليكَ أن تَجعلهم مَهديّين إلى الإتيان بما أُمِروا به مِن المَحاسن، والانتهاءِ عمّا نُهوا عنه مِن القبائح المعدودة. وإنّما الواجب عليك الإرشادُ إلى الخير والحثُّ عليه، والنهيُ عن الشرّ والردعُ عنه، بما أُوحيَ إليك مِن الآيات والذِكر الحكيم. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي﴾ هدايةً خاصةً مُوصِلةً إلى المطلوب حتمًا. ﴿مَن يَشَآءُ﴾ هدايتَه إلى ذلك، ممّن يتذكّر بما ذُكِر، ويتّبعُ الحقَّ ويختارُ الخيرَ. والجملة معترِضة جِيء بها على طريق تلوين الخطاب، وتوجيهُه إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مع الالتفات إلى الغيبة فيما بين الخِطابات المتعلّقة بالمكلَّفين مبالغةً في حَمْلهم على الامتثال، فإنّ الإخبار بعدم وجوب تدارُك أمرِهم على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مُؤذِنٌ بوجوبه عليهم حسبما يَنطِق به ما بعده مِن الشرطيّة. وقيل: لمّا كثُر فقراءُ المسلمين نهى رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم المسلمين[٢] عن التصدّق على المشركين كي تَحمِلَهم الحاجةُ على الدخول في الإسلام، فنزلت.[٣] أي: ليس عليك هُدى مَن خالفكَ حتّى تمنعَهم الصدقةَ لأجل دخولهم في الإسلام. فلا التفاتَ حينئذٍ في الكلام، وضميرُ الغَيبة للمعهودين مِن فقراءِ المشركين؛ بل فيه تلوينٌ فقط.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ﴾ على الأوّل التفاتٌ مِن الغَيبة إلى خِطاب المكلَّفين لزيادة هزِّهم نحو الامتثال، وعلى الثاني تلوينٌ للخطاب بتوجيهه إليهم

---

[١] قرأ بها نافع وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٣٦.

[٢] ي - المسلمين.

[٣] بمعناه عن سعيد بن جُبير عن ابن عبّاس في جامع البيان للطبري، ٥/٢١؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٢/٥٣٩. وهو بلفظ قريب عن سعيد بن جُبير في معالم التنزيل للبغوي، ١/٣٣٧.

وصَرْفهِ عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. و﴿مَا﴾ شرطيّة جازمة لـ﴿تُنفِقُوا۟﴾ منتصِبة به على المفعوليّة، و﴿مِنْ﴾ تبعيضيّة متعلِّقة بمحذوفٍ وقعَ صفةً لاسم الشرط مبيِّنةً ومخصِّصةً له، أي: أيّ شيءٍ تُنفِقوا كائن مِن مال ﴿فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ أي: فهو لأنفسكم،[١] لا يَنتفع به غيرُكم، فلا تَمنُّوا على مَن أعطيتموه، ولا تُؤذوه، ولا تُنفِقوا مِن الخبيث. أو فنَفْعه الدينيّ لكم لا لغيركم مِن الفقراء حتّى تَمنعوه ممّن لا يَنتفِع به مِن حيثُ الدِّينُ مِن فقراء المشركين.

﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ استثناءٌ مِن أعمّ العِلَل أو أعمّ الأحوال، أي: ليست نفقتُكم لشيء مِن الأشياء إلّا لابتغاء وَجْه الله، أو ليست في حال مِن الأحوال إلا حالَ ابتغاءِ وَجْهِ الله، فما بالُكم تَمنُّون بها، وتُنفِقون الخبيثَ الذي لا يُوجَّه مِثلُه إلى الله تعالى؟ وقيل: هو نفيٌ في معنى النهي.[٢]

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي: أَجرُه وثوابُه أضعافًا مضاعَفة حسبما فُصِّل فيما قَبْل، فلا عُذرَ لكم في أن ترغَبوا عن إنفاقه على أحسن الوجوه وأجملها، فهو تأكيد وبيان للشرطيّة السابقة، أو يُوفَّ إليكم ما يُخلِفُهُ. وهو مِن / نتائج دُعائه عليه السلام بقوله: «اللّهمّ اجعل للمُنفِق خلَفًا وللمُمسِك تَلَفًا».[٣] [٨٢و] وقيل: حجّتْ أسماءُ بنت أبي بكرٍ، فأتتها أمُّها تَسألُها وهي مشركة، فأبت أن تُعطيَها.[٤] وعن سعيد بن جُبير: أنّهم كانوا يتّقون أن يَرضَخوا[٥] لقَراباتهم مِن المشركين.[٦] ورُوي: أنّ ناسًا مِن المسلمين كانت لهم أصهارٌ في اليهود ورَضاعٌ كانوا يُنفِقون عليهم قبل الإسلام، فلمّا أسلَموا كرِهوا أن يُنفِقوا[٧] عليهم،[٨] فنزلت.[٩]

---

١ س - أي: فهو لأنفسكم.

٢ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٣٣٧/١.

٣ صحيح البخاري، ١١٥/٢ (١٤٤٢)؛ صحيح مسلم، ٧٠٠/٢ (١٠١٠). بلفظ «ما مِن يوم يصبح العباد فيه إلّا ملكان يَنزِلان. فيقول أحدهما: اللّهمّ أعطِ مُنفقًا خَلَفًا، ويقول الآخر: اللّهمّ أعطِ مُمسِكًا تَلَفًا».

٤ بمعناه في تفسير مقاتل بن سليمان، ٢٢٤/١؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ٩١-٩٢. وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٢٤٣/١.

٥ الرضخ: العطيّة القليلة. لسان العرب لابن منظور، «رضخ».

٦ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٩/٥-٢١؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٥٣٧/٢.

٧ ط س: ينفقوهم.

٨ ي - عليهم.

٩ بمعناه في جامع البيان للطبري، ٢٠/٥. وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٢٤٣/١.

وهذا في غير الواجب، وأمّا الواجب فلا يَجوز صَرْفُه إلى الكافر، وإن كان ذِمِّيًا. ﴿وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ لا تُنقَصون شيئًا ممّا وُعِدتُم مِن الثواب المضاعَف أو مِن الخَلَف.

﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبًا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ٢٧٣﴾

﴿لِلۡفُقَرَآءِ﴾ متعلّق بمحذوفٍ يَنساقُ إليه الكلام، كما في قوله تعالى: ﴿فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ [النمل، ١٢/٢٧]، أي: اعمِدوا للفقراء، أو اجعَلوا ما تُنفِقونه للفقراء، أو صدقاتِكم للفقراء ﴿ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بالغَزْو والجهاد، ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ لاشتغالهم به ﴿ضَرۡبًا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: ذهابًا فيها للكسب والتجارة. وقيل: هم أهلُ الصُّفّة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، كانوا نحوًا مِن أربعمائة مِن فقراء المهاجِرين يَسكنون صُفّة المَسجد، يَستغرِقون أوقاتَهم بالتعلّم والجهاد، وكانوا يَخرُجون في كلّ سَريّةٍ بعثها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.[1]

﴿يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ﴾ بحالهم ﴿أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ أي: مِن أجل تعفُّفهم عن المسألة. ﴿تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ﴾ أي: تَعرِف فقرَهم واضطرارهم بما تُعايِنُ منهم مِن الضَّعف ورَثاثة الحال. والخطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم، أو لكلّ أحدٍ[2] ممّن له حظٌّ مِن الخِطاب، مبالغةً في بيان وضوحِ فقرهم. ﴿لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗا﴾ أي: إلحاحًا: وهو أن يُلازِم السائلُ المسئولَ حتّى يُعطيَه، مِن قولهم: «لَحَفني مِن فَضْل لِحافِه»،[3] أي: أعطاني مِن فَضْل ما عنده، والمعنى: لا يَسألونهم شيئًا، وإن سألوا لحاجة اضطرّتهم إليه لم يُلِحُّوا. وقيل: هو نفيٌ لكلا الأمرين جميعًا، على طريقة قوله:

---

[1] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ١/٢٢٤-٢٢٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١/٣٣٧؛ والكشّاف للزمخشري، ١/٢٤٣.

[2] ي - أحد.

[3] المستقصى للزمخشري، ١/٢٨٠؛ الكشّاف للزمخشري، ١/٢٤٣.

علـى لاحِــبٍ لا يُـهـتـدَى لـمَـنـارهِ[١]

أي: لا منارَ ولا اهتداءَ.[٢]

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ فيُجازيكم بذلك أحسنَ جزاء، فهو ترغيبٌ في التصدّق، لاسيّما على هؤلاء.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي: يَعُمّون الأوقاتَ والأحوالَ بالخير والصدقة. وقيل: نزلتْ في شأن الصدِّيق رضي الله عنه، حيثُ تَصدَّق بأربعين ألفَ دينار: عشرةُ آلافٍ منه بالليل، وعشرةٌ بالنهار، وعشرةٌ سرًّا، وعشرةٌ علانية.[٣] وقيل: في عليّ كرَّم الله وجهه حينَ لم يكن عنده إلّا أربعةُ دراهمَ فتَصدَّق بكلّ[٤] واحد منها على وجهٍ مِن الوجوه المذكورة.[٥] ولعلّ تقديم الليل على النهار والسرِّ على العلانية للإيذان بمَزيّة[٦] الإخفاء على الإظهار. وقيل: في رِباط الخيل والإنفاق عليها.[٧] ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ خبرٌ للموصول، والفاءُ للدلالة على سببيّة ما قبلها لِما بعدَها. وقيل: للعطف، والخبر محذوف، أي: ومنهم الذين... إلخ، ولذلك جُوِّز الوقفُ على ﴿عَلَانِيَةً﴾.[٨]

---

[١] صدر بيت لامرئ القيس في ديوانه، ص ٦٦، وعَجُزه:

إذا سافَه العَودُ النُّباطيُّ جَرجرا

وهو له على ما نحن فيه في معاني القرآن وإعرابه للزّجّاج، ٣٥٧/١؛ وتهذيب اللغة للأزهري، ٧٠/٥ «لحف». وصدره بلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٢٤٤/١. وروايته فيها جميعًا «بمناره» مكان «لمناره». واللاحب: الطريق الواضح الواسع المُنقاد الذي لا ينقطع. لسان العرب لابن منظور، «لحب».

[٢] انظر: معاني القرآن وإعرابه للزّجّاج، ٣٥٧/١. وأورده الزمخشري في الكشّاف، ٢٤٤/١، بلفظ «قيل»، ولعلّه أراد تضعيفه. انظر الكلام على ذلك في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٦٢٥/٢.

[٣] لم أجِده في مظانّه. وهو في الكشّاف للزمخشري، ٢٤٤/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٢٩/١.

[٤] ط ي: كلّ.

[٥] عن ابن عبّاس ومجاهد بمعناه في جامع البيان للطبري، ٣٣/٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٣٧/١؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٤٤/١.

[٦] ي: بمزيد.

[٧] عن ابن عبّاس وأبي أمامة وغيرهما. انظر: جامع البيان للطبري، ٣٥/٥؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ٩٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٤٤/١.

[٨] القول مذكور بلفظ قريب جدًا في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٣٠/١.

﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ تقدَّم تفسيره.[١]

﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ أي: يأخُذونه، والتعبيرُ عنه بالأكل لِما أنّه مُعظَم ما قُصِد به، ولشيوعه في المَطعومات، مع ما فيه مِن زيادة تشنيع لهم، وهو الزيادة في المِقدار أو في الأجَل، حسبما فُصِّل في كُتُب الفقه. وإنّما كُتِب بالواو كـ"الصلوة" على لُغة مَن يُفخِّم في أمثالها، وزِيدَت الألفُ تشبيهًا بواو الجمع. ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ أي: مِن قُبورهم إذا بُعِثوا ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي: إلّا قيامًا كقِيام المَصروع، وهو واردٌ على ما يَزعُمون أنّ الشيطانَ يَخبِط الإنسانَ فيُصرَع. والخَبْط:[٢] الضربُ بغير استواءٍ، كخَبْط العَشواء.[٣] ﴿مِنَ ٱلۡمَسِّ﴾ أي: الجُنون. وهذا أيضًا مِن زَعَماتهم أنّ الجِنيَّ يمَسُّه فيَختلِط عقلُه، فلذلك يقال: "جُنَّ الرجُل". وهو متعلِّق بما قبله مِن الفعل المَنفيّ، أي: لا يَقومون مِن المَسّ الذي بهم بسبب أكلِهم الرِّبا، أو بـ﴿يَقُومُ﴾، أو بـ﴿يَتَخَبَّطُهُ﴾،[٤] فيكون نُهوضهم وسُقوطهم كالمَصروعِين، لا لاختلال عقولِهم؛ بل لأنّ الله تعالى أربى في بطونهم ما أكلوا مِن الرِّبا، فأَثقَلهم فصاروا مخَبَّلين يَنهَضون ويَسقُطون، تلك سِيماهم يُعرَفون بها عند أهل المَوقف.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكِر مِن حالهم. وما في اسم الإشارةِ مِن معنى البُعد للإيذان بفظاعة المشارِ إليه. ﴿بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ أي: ذلك العقابُ بسبب أنّهم نَظَموا الرِّبا والبيعَ في سِلْك واحد لإفضائهما إلى الرِّبح، فاستحلُّوه استحلالَه، وقالوا: يَجوز بيعُ درهمٍ بدرهمين، كما يجوز بيعُ ما قيمتُه درهمٌ بدرهمين؛

---

١ سورة البقرة، ٣٨/٢.

٢ ي: فالخبط.

٣ الناقة العشواء: التي لا تُبصِر، فهي تخبط بيديها كلَّ ما مرّت به. لسان العرب لابن منظور، «خبط».

٤ ط س: يتخبط.

بل جعلوا الرِّبا أصلًا في الحِلّ وقاسُوا به البيعَ، مع وضوح الفرق بينهما، فإنّ أحد الدِّرهمين في الأوّل ضائعٌ حتمًا، وفي الثاني مُنجبِرٌ بمِساس الحاجة إلى السِّلعة أو بتوقّع رَواجها.

﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ إنكار مِن جهة الله تعالى لتسويتهم، وإبطالٌ للقياس لوقوعه في مقابَلة النصّ، مع ما أُشير إليه مِن عدم الاشتراك في المَناطِ. والجملة ابتدائيّة لا محلَّ لها مِن الإعراب.

﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ﴾ أي: فمَن بلَغه وَعظٌ وزجرٌ كالنهي عن الرِّبا. وقُرئ: "جَاءَتْهُ".[1] ﴿مِن رَّبِّهِۦ﴾ متعلِّق بـ﴿جَآءَهُۥ﴾، أو بمحذوف وقعَ صفةً لـ﴿مَوْعِظَةٌ﴾. والتعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة للإشعار بكون مجيءِ الموعظةِ للتربية. ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾ عطفٌ على ﴿جَآءَهُۥ﴾، أي: فاتّعظ بلا تراخٍ، وتبِعَ النهيَ. ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ أي: ما تقدَّم أَخْذُه التحريمَ، ولا يُستَردّ منه. و﴿مَا﴾ مرتفِعٌ بالظرف إن جُعِلت ﴿مَن﴾ موصولةً، وبالابتداء إن جُعِلت شرطيةً، على رأي سيبويهِ، لعدم اعتمادِ الظرفِ على ما قبله. ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تعالى[2] يُجازيه على انتهائه، إن كان عن قَبول الموعظةِ وصِدْقِ النيّة. وقيل: يَحْكُم في شأنه، ولا اعتراضَ لكم عليه.[3]

﴿وَمَنْ عَادَ﴾ أي: إلى تحليل الربا، ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى ﴿مَنْ عَادَ﴾. والجَمْع باعتبار المعنى، كما أنّ الإفرادَ في ﴿عَادَ﴾ باعتبار اللفظ. / [٨٢ظ] وما فيه مِن معنى البُعد للإشعار ببُعد منزلتِهم في الشرّ والفساد. ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: ملازِموها. ﴿هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ ماكثون أبدًا. والجملة مقرِّرة لِما قبلها.

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ أي: يَذهَب ببركته ويُهلِكُ المالَ الذي يدخُل فيه. ﴿وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ يُضاعِف ثوابَها ويبارِك فيها، ويَزيد المالَ الذي أُخرِجتْ منه الصدقة.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وأُبيّ والحَسن. انظر: شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٤؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ١٠٢؛ والمغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ٥٤٨.

[2] س ي - تعالى.

[3] القول مذكور بلفظ قريب جدًا في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٣٠؛ وقريب منه في الكشّاف للزمخشري، ١/٢٤٦.

رُوي عنه صلّى الله عليه وسلّم: «أنّ الله يَقبَل الصدقةَ ويُرَبِّيها كما يُرَبّي أحدُكم مُهْرَه»،[١] وعنه عليه السلام: «ما نَقَصت زكاةٌ مِن مال قطُّ».[٢] ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ﴾ أي: لا يرضى؛ لأنّ الحبّ مختصٌّ بالتوّابين. ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾ مُصِرّ على تحليل المحرَّمات. ﴿أَثِيمٍ﴾ مُنهمِك في ارتكابه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله وبما جاءَهم به، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ تخصيصُهما بالذِّكْر مع اندراجهما في الصالحات؛ لإنافتهما على سائر الأعمالِ الصالحة، على طريقة ذِكْر جِبريل ومِيكال عَقيبَ الملائكةِ عليهم السلام.[٣] ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ جملة مِن مبتدإٍ وخبرٍ واقعةٌ خبرًا لـ﴿إِنَّ﴾، أي: لهم[٤] أجرُهم الموعودُ لهم. وقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ حال مِن ﴿أَجْرُهُمْ﴾. وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميرهم مَزيدُ لُطفٍ وتشريفٍ لهم. ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مِن مَكروه آت، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ مِن مَحبوب فات.[٥]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: قُوا أنفسَكم عقابَه. ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ أي: واترُكوا بقايا ما شرَطتم منه على الناس تَرْكًا كُلِّيًا. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ على الحقيقة، فإنّ ذلك مستلزِم لامتثال ما أُمِرتم به البتّةَ. وهو شرطٌ

---

١ بألفاظ قريبة في مسند أحمد، ٧٣/١٣ (٧٦٣٤)؛ وصحيح البخاري، ١٠٨/٢ (١٤١٠)؛ وصحيح مسلم، ٧٠٢/٢ (١٠١٤)؛ وجامع البيان للطبري، ٤٦/٥-٤٧.

٢ بلفظ قريب في مسند أحمد، ١٣٩/١٢ (٧٢٠٦)؛ وصحيح مسلم، ٢٠٠١/٤ (٢٥٨٨)؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ٩٠/٥ (٣١٣٨)، بلفظ «ما نَقَصت صدقةٌ مِن مال». وفي سنن الترمذي، ٥٦٢/٤ (٢٣٢٥)، بلفظ «ما نَقَص مال عَبد مِن صدقة».

٣ يقصد أنهما مِن باب ذِكْر الخاصّ بعد العامّ، على وجه الاختصاص وتفخيم الشأن.

٤ ط س + لهم.

٥ ي: فائت.

حُذِف جوابُه ثقةً بما قبله، أي: إن كنتُم مؤمنين فاتَّقوه وذرُوا... إلخ. رُوي أنّه كان لثقيفٍ مالٌ على بعض قريشٍ، فطالبوهم عند المَحِلّ بالمال والرِّبا، فنزلت.[١]

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾ أي: ما أُمِرتم به مِن الاتّقاء وتَرْكِ البقايا، إمّا مع إنكار حُرمته، وإمّا مع الاعتراف بها. ﴿فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: فاعلَموا بها، مِن أَذِن بالشيء إذا عَلِم به. أمّا على الأوّل فكحَرْب المرتدِّين، وأمّا على الثاني فكحَرْب البُغاة. وقُرِئ: "فَآذِنُوا"،[٢] أي: فأَعْلِموا غيرَكم. قيل: هو مِن الأُذُن وهو الاستماع، فإنّه مِن طرُق العلم. وقُرِئ: "فَأَيْقِنُوا"،[٣] وهو مؤيِّد لقراءة العامّة. وتنكيرُ "حَرْبٍ" للتفخيم. و﴿مِنْ﴾ متعلِّقة بمَحذوف وَقَع صفةً[٤] لها مؤكِّدةً لفخامتها، أي: بنَوعٍ مِن الحَرْب عظيمٍ لا يُقادَر قَدْره كائنٍ مِن عند الله تعالى ورسوله. رُوي أنّه لمّا نزلت قالت ثقيفٌ: «لا يدَيَ[٥] لنا بحَرْب الله ورسوله».[٦]

﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ مِن الارتباء، مع الإيمان بحُرمتها، بعدما سمعتموه مِن الوعيد. ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ تأخُذونها كَمَلًا.[٧] ﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾ غُرماءَكم بأخذ الزيادة.

---

١ انظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ٢٢٧/١؛ وجامع البيان للطبري، ٤٩/٥-٥٠؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٥٤٨/٢-٥٤٩؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٤٥/١.

٢ قرأ بها حمزة وعاصم في رواية أبي بكر. السبعة لابن مجاهد، ص ١٩٢؛ النشر لابن الجزري، ٢٣٦/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحَسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٠٢.

٤ ي + صفة.

٥ كذا هي في الأصول الخطيّة، وفي مطبوع الكشّاف للزمخشري، ٢٤٧/١. وهي في بقيّة المصادر الآتية في تخريج الخبر: "لا يدان لنا". وتخريج الوجه الواقع في النسخ والكشّاف أنّه عُومِل المجرور باللام معاملة المضاف، فحُذِفت النون لذلك، كما في قول العرب: "لا أبا لك"، على قول مَن يَجعل اللام مقحمة بين المضاف والمضاف عليه، بدليل قولهم أيضًا: "لا أباك".

٦ انظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ٢٢٨/١؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٣٩٨/١؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٤٥/١؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٤٧/١.

٧ يقال: أعطِه هذا المال كَمَلًا، أي: كُلّه. لسان العرب لابن منظور، «كمل».

والجملة إمّا مستأنَفة لا محلَّ لها مِن الإعراب، أو حال مِن الضمير في ﴿لَكُمْ﴾، والعامل ما تضمَّنه الجارُّ مِن الاستقرار. ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ عطفٌ على ما قبله، أي: لا تُظلَمون أنتم مِن قِبَلهم بِالمَطْل والنقص.

ومِن ضرورة تعليقِ هذا الحُكمِ بتوبتهم عدمُ ثبوتِه عند عدمها؛ لأنّ عدمها إن كان مع إنكار الحُرمة فهم مرتدُّون، ومالُهم المَكسوبُ في حال الرِّدة فَيءٌ للمسلمين عند أبي حنيفةَ رحمه الله،[1] وكذا سائرُ أموالهم عند الشافعي رحمه الله،[2] وعندنا هو لورثتهم، ولا شيءَ لهم على كلّ حال؛ وإن كان مع الاعتراف بها، فإن كان لهم شَوكةٌ فهم على شَرَف القتل، لم تَسلَم لهم رُءوسُهم، فكيف برءوس أموالهم؟ وإلّا فكذلك عند ابن عبّاس رضيَ الله عنهما، فإنّه يقول: «مَنْ عامَل الرِّبا يُستتاب وإلّا ضُرِب عُنقه».[3] وأمّا عند غيرِه فهم مَحبوسون إلى أن تَظهَر توبتُهم، لا يُمَكَّنون مِن التصرُّفات أصلًا، فما لم يتوبوا لم يَسلَم لهم شيءٌ مِن أموالهم؛ بل إنّما يَسلَم بموتهم لوَرَثتهم.

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ أي: إن وقع غريمٌ مِن غرمائكم ذو عسرةٍ، على أنّ ﴿كَانَ﴾ تامّة، وقُرئ: "ذا عُسْرَةٍ"[4] على أنّها ناقصة. ﴿فَنَظِرَةٌ﴾ أي: فالحُكم نَظِرةٌ، أو فعليكم نَظِرةٌ، أو فلْتكُن نَظِرةٌ، وهي الإنظار والإمهال. وقُرئ: "فَنَاظِرُهُ"،[5] أي: فالمستحقّ ناظِرُه، أي: منتظِره، أو فصاحبُ نَظِرَته، على طريق النَّسَب.[6] وقُرئ: "فَنَاظِرْهُ"[7]

---

[1] ي - رحمه الله.
[2] س ي - رحمه الله.
[3] لم أجده في مظانّه. وهو في تفسير الرازي، ١٠٨/٧؛ واللباب لابن عادل، ٤٦٤/٤.
[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن عثمان بن عفّان وأُبيّ وابن أبي عبلة. انظر: شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٤؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ١٠٢؛ والمغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ٥٥٠.
[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن عطاء بن أبي رباح وأبي رجاء وقتادة وكِرداب. انظر: شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٥؛ والمغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ٥٥١.
[6] يريد أنّه مِثل: تامر، أي: صاحِب تَمر؛ ولابِن، أي: صاحب لَبَن.
[7] قراءة شاذّة، مرويّة عن عطاء بن أبي رباح. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٠٣.

أمرًا مِن المُفاعَلة، أي: فسَامِحه بالنَّظِرَة. ﴿إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ أي: إلى يَسار. وقُرئ بضمّ السين،[١] وهما لغتان كمَشْرَقة ومَشْرُقة. وقُرئ بهما مُضافين بحذف التاء عند الإضافة،[٢] كما في قوله:

وأَخلفوكَ عِدَ الأمرِ الذي وَعَدوا[٣]

﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ﴾ بحذف أحد[٤] التاءين، وقُرئ بتشديد الصاد،[٥] أي: وأن تتصدَّقوا[٦] على مُعْسِري غُرَمائِكم بالإبراء. ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: أكثرُ ثوابًا مِن الإنظار، أو خيرٌ ممّا تأخذونه لمضاعَفة ثوابه ودوامِه. فهو نَدْب إلى أن يتصدَّقوا برءوس أموالهم كلًّا أو بَعضًا على غُرَمائهم المُعسِرين، كقوله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة، ٢/٢٣٧]. وقيل: المراد بالتصدّق الإنظارُ،[٧] لقوله عليه السلام: «لا يَحِلّ دَيْنُ رجُل مسلِم فيُؤخِّره إلّا كان له بكلّ يوم صدقةٌ».[٨] ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ جوابُه محذوفٌ، أي: إن كنتُم تعلمون أنّه خيرٌ لكم عَمِلتُموه.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾

---

[١] قرأ بها نافع. النشر لابن الجزري، ٢/٢٣٦.

[٢] قراءتان شاذّتان: مرويّة بمفتوحة السين عن مسلم بن جندب. ومرويّة بمضمومة السين عن شيبة وكِرداب عن رُويس وزيد عن يعقوب. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٥٥١-٥٥٢. وهما بلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ١/٢٤٧.

[٣] عجُز بيت للفضل بن العبّاس بن عتبة في لسان العرب لابن منظور، «غلب»، وصَدْره:

إنّ الخليط أجَدُّوا البَيْن فانجرَدوا

والبيت بلا نسبة شاهدًا على ما نحن فيه في معاني القرآن للفرّاء، ٢/٢٥٤ (الأنبياء، ٢١/٧٣)؛ وجامع البيان للطبري، ١٧/٣٢٤ (الأنبياء، ٢١/٧٣)؛ وعجزه كذلك في الكشّاف للزمخشري، ١/٢٤٧.

[٤] ط: إحدى.

[٥] قرأ بها العشرة إلّا عاصمًا. النشر لابن الجزري، ٢/٢٣٦.

[٦] س: تصدَّقوا.

[٧] انظر القول في تفسير الرازي، ٧/٨٧؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٣٢.

[٨] مسند أحمد، ٣٣/١٨٨ (١٩٩٧٧)، بلفظ «مَن كان له على رجُل حقٌّ فمَن أخّره كان له بكلّ يوم صدقة»؛ سنن ابن ماجه، ٣/٤٩٢ (٢٤١٨)؛ شُعَب الإيمان للبيهقي، ١٣/٥٣٩ (١٠٧٤٨)، وفيهما بلفظ «مَن أنظَر مُعسِرًا كان له بكلّ يوم صدقة». وهو بلفظه ههنا في الكشّاف للزمخشري، ١/٢٤٧. وانظر لتفصيل تخريجه تخريج أحاديث الكشّاف للزَّيلَعي، ١/١٦٥-١٦٦.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا﴾ هو يومُ القيامة. وتنكيره للتفخيم والتهويل، وتعليقُ الاتّقاءِ به للمبالغة في التحذير عمّا فيه مِن الشدائد والأهوال. ﴿تُرۡجَعُونَ فِيهِ﴾ على البناء للمفعول، مِن الرَّجْع، وقُرئ على البناء للفاعل،[١] مِن الرُّجوع. والأوّل أدخَل في التهويل. وقُرئ بالياء،[٢] على طريق الالتفات.[٣] وقُرئ: "تُرَدُّونَ".[٤] وكذا "تَصِيرُونَ".[٥] ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ لمحاسبة أعمالِكم. ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ﴾ مِن النفوس. والتعميم للمبالغة في تهويل اليوم، أي: تُعطى كَمَلًا. ﴿مَّا كَسَبَتۡ﴾ أي: جزاءَ ما عَمِلت مِن خير أو شرّ. ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ حال مِن ﴿كُلُّ نَفۡسٖ﴾، تُفيد أنّ المعاقَبين -وإن كانت عُقوباتهم مؤبَّدةً- غيرُ مظلومين في ذلك لِما أنّه مِن قِبَل أنفسِهم. وجَمْع الضميرِ لأنّه أنسَب بحال الجزاء، كما أنّ الإفراد أوفَق بحال الكَسْب. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّها آخِر آيةٍ نزَل بها جبريل[٦] عليه السلام، وقال: «ضَعْها في رأس المائتين والثمانين مِن البقرة».[٧] وعاش رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم بعدها أحدًا وعِشرين يومًا.[٨] وقيل: أحدًا وثمانين.[٩] وقيل: سبعةَ أيام.[١٠] وقيل: ثلاثَ ساعات.[١١]

---

١ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٣٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحَسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٠٣.

٣ في المُحتسَب لابن جنّي، ١/١٤٥-١٤٦، كلام طويل على بلاغة الالتفات فيها.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ وابن مسعود. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٠٣؛ والكشّاف للزمخشري، ١/٢٤٧.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ. الكشّاف للزمخشري، ١/٢٤٧-٢٤٨؛ والمغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٥٥٢.

٦ ي: جبرائيل.

٧ عن ابن عبّاس بهذا اللفظ في معالم التنزيل للبغوي، ١/٣٤٧؛ والكشّاف للزمخشري، ١/٢٤٨؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٣٣. وعن ابن عبّاس وسعيد بن جبير جملة مِن الأحاديث أنّها آخر آية نزلت مِن غير الإشارة إلى موضعها مِن السورة، وذلك في جامع البيان للطبري، ٥/٦٧-٦٨؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٢/٥٥٤.

٨ معالم التنزيل للبغوي، ١/٣٤٧؛ الكشّاف للزمخشري، ١/٢٤٨؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٣٣.

٩ الكشّاف للزمخشري، ١/٢٤٨؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٣٣.

١٠ عن سعيد بن جبير في معالم التنزيل للبغوي، ١/٣٤٧؛ وبلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ١/٢٤٨؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٣٣.

١١ الكشّاف للزمخشري، ١/٢٤٨؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٣٣.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾

[٨٣و] ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ شروع / في بيان حالِ المداينة الواقعةِ في تضاعيف المُعاوَضات الجاريةِ فيما بينهم ببيع السِّلَع بالنقود بعد بيان حالِ الرِّبا، أي: إذا دايَن بعضُكم بعضًا وعامَله نسيئةً مُعطِيًا أو آخِذًا. وفائدة ذِكْر "الدَّين" دَفْعُ تَوهُّم كون التداين بمعنى المُجازاة، والتنبيهُ على تنوّعه إلى الحالّ والمُؤجَّل، وأنّه الباعثُ على الكِتْبة، وتعيينُ المَرْجع للضمير المنصوب المتَّصل بالأمر.[١] ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ متعلِّق بـ﴿تَدَايَنتُم﴾، أو بمحذوف وقع صفةً لـ﴿دَيْنٍ﴾. ﴿مُّسَمًّى﴾ بالأيّام أو الأشهُر ونظائرِهما، ممّا يُفيد العِلْم ويَرفَع الجهالة، لا بالحَصاد والدِّياس[٢] ونحوِهما ممّا لا يَرفَعها. ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾ أي: الدَّين بأجَله؛ لأنّه أَوثَق وأَدفَع للنزاع. والجمهورُ على استحبابه.[٣] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ المراد به السَّلَم، وقال: «لمّا حرَّم الله الرِّبا أباح في السَّلَف».[٤]

---

١ يعني الضمير في قوله: ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾.

٢ الدِّياس والدِّراس: دَوس الحنطة ونحوها ليخرُج منه الحبّ. انظر: لسان العرب لابن منظور، «دوس».

٣ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ١/٣٤٩؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٣٤.

٤ عنه بمعناه في جامع البيان للطبري، ٥/٧١؛ والمعجم الكبير للطبراني، ١٢/٢٠٥ (١٢٩٠٣). وعنه بلفظه ههنا في الكشّاف للزمخشري، ١/٢٤٨؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٣٤، وفي مطبوع الأخير «السَّلم» مكان «السَّلف». وانظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزَّيلعي، ١/١٦٧. والسَّلَف في البيع هو السَّلَم: وهو بيع شيء مؤجَّل بثمن مُعجَّل. انظر: الزاهر للأزهري، ص ١٤٢؛ والموسوعة الفقهيّة الكويتيّة، ٩/٨، ٣٣/١١٢.

﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ﴾ بيان لكيفيّة الكتابة[1] المأمورِ بها، وتعيينٌ لمَن يتوَّلاها إثْرَ الأمر بها إجمالًا. وحَذْف المفعول إمّا لتعيّنه، أو للقصد إلى إيقاع نفسِ الفعل، أي: لتُفعَل[2] الكتابة. وقوله تعالى: ﴿بَّيۡنَكُمۡ﴾ للإيذان بأنّ الكاتب ينبغي أن يتوسَّط بين المتداينين ويَكتُبَ كلامَهما ولا يكتفيَ بكلام أحدهما. وقوله تعالى: ﴿بِٱلۡعَدۡلِ﴾ متعلِّق بمحذوف هو صفة لـ﴿كَاتِبُۢ﴾، أي: كاتبٌ كائنٌ بالعدل،[3] أي: وليَكُن[4] المتصدّي للكتابة مِن شأنه أن يَكتُب بالسويّة مِن غير مَيل إلى أحد الجانبين لا يَزيد ولا يَنقُص. وهو أمر للمتداينين باختيار كاتب فقيه ديِّن حتّى يَجيء كِتابُه موثوقًا به معدَّلًا بالشرع. ويَجوز أن يكون حالًا منه، أي: ملتبِسًا بالعدل. وقيل: متعلِّق بالفعل، أي: وليَكتُبْ[5] بالحقّ.[6]

﴿وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ﴾ أي: ولا يَمتَنع أحدٌ مِن الكُتّاب ﴿أَن يَكۡتُبَ﴾ كتابَ الدَّين. ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ﴾ على طريقة ما علَّمه مِن كِتْبة الوثائق، أو كما بيَّنه بقوله تعالى: ﴿بِٱلۡعَدۡلِ﴾، أو لا يَأبَ أن ينفَع الناس بكِتابته كما نفَعه الله تعالى بتعليم الكتابة، كقوله تعالى: ﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾ [القصص، ٧٧/٢٨].

﴿فَلۡيَكۡتُبۡ﴾ تلك الكتابة المعلَّمة. أُمِر بها بعد النهي عن إبائها تأكيدًا لها. ويجوز أن تتعلَّق الكافُ بالأمر،[7] على أن يكون النهيُ عن الامتناع منها مطلَقةً ثـمّ الأمرُ بها مقيَّدة.[8] ﴿وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾ الإملال: هو الإملاءُ، أي: وليَكُن المُمْلِي مَنْ عليه الحقُّ؛ لأنّه المَشهودُ عليه فلا بدّ أن يكون هو المُقِرَّ. ﴿وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ جُمِع بين الاسم الجليل والنعتِ الجميل للمبالغة في التحذير، أي:

---

[1] ي: الكاتب.

[2] ي: افعل.

[3] وفي هامش ي: قاله أبو البقاء. «منه». | انظر: التبيان لأبي البقاء العُكبَري، ٢٢٧/١.

[4] ي: ولكن.

[5] ط س: فليَكتب.

[6] ذكره أبو البقاء العُكبَري في التبيان، ٢٢٧/١؛ وهو عنه في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٦٥١/٢؛ واللباب لابن عادل، ٤٨١/٤.

[7] يعني أنّ الكاف في قوله تعالى: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾ يجوز أن تتعلّق بالفعل ﴿فَلۡيَكۡتُبۡ﴾. وذكر هذا الوجه الزمخشريُّ في الكشّاف، ٢٤٩/١. وضعّفه أبو حيّان في البحر المحيط بقوله: «وهو قَلِق لأجل الفاء...». وانظر تفصيل الكلام عليه في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٦٥٢/٢؛ واللباب لابن عادل، ٤٨٢/٤-٤٨٣.

[8] إلى هذا المعنى وجّه الزمخشري تعليق الكاف بـ﴿فَلۡيَكۡتُبۡ﴾. انظر: الكشّاف، ٢٤٩/١.

وليَتّقِ المُملي دون الكاتِب، كما قيل لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ﴾ أي: مِن الحق الذي يُمليه على الكاتب. ﴿شَيْـًٔا﴾ فإنّه الذي يُتوقّع منه البَخس خاصّة. وأمّا الكاتب فيُتوقّع منه الزيادةُ كما يُتوقّع منه النَقص، فلو أُرِيد نَهْيه لنُهي عن كليهما، وقد فُعِل ذلك حيث أُمِر بالعدل. وإنّما شُدِّد في تكليف المُملي، حيثُ جُمِع فيه بين الأمر بالاتّقاء والنهي عن البَخس لِما فيه مِن الدواعي إلى المَنهيّ عنه، فإنّ الإنسان مَجبول على دَفْع الضَّرَر عن نفسه، وتخفيف ما في ذِمَّته بما أمكَن.

﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ صَرَّح بذلك في موضع الإضمار لزيادة الكشف والبيان، لا لأنّ الأمر والنهي لغيره. ﴿سَفِيهًا﴾ ناقصَ العقلِ مبذِّرًا مُجازِفًا. ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾ صبيًّا أو شيخًا مُختلًّا. ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ أي:[1] غيرَ مستطيعٍ للإملاء بنفسه لِخَرَس أو عِيّ أو جهل أو غير ذلك مِن العوارض. ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ﴾[2] أي: الذي يَلي أمرَه ويقوم مَقامه مِن قَيِّم أو وكيل أو مترجِم. ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ أي: مِن غير نَقْص ولا زيادة. لم يُكلَّف بعين ما كُلِّف به مَن عليه الحقُّ؛ لأنّه يُتوقَّع منه الزيادةُ كما يُتوقّع منه البَخس.

﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ﴾ أي: اطلُبوهما ليتحمَّلا الشهادة على ما جرى بينكم[3] مِن المدايَنة. وتسميتهما شهيدين لتنزيل المشارِف مَنزلةَ الكائن. ﴿مِن رِّجَالِكُمْ﴾ متعلِّق بـ﴿ٱسْتَشْهِدُوا۟﴾، و﴿مِن﴾ ابتدائيّة، أو بمحذوف وقع صفةً لـ﴿شَهِيدَيْنِ﴾، و﴿مِن﴾ تبعيضيّة، أي: شهيدين كائنين مِن رجال المسلمين الأحرار؛ إذ الكلامُ في معاملاتهم، فإنّ خطاباتِ الشرع لا تَنتظِم العبيدَ بطريق العبارة، كما بُيِّن في موضعه. وأمّا إذا كانت المدايَنة بين الكفَرَة أو كان مَن عليه الحقُّ كافرًا فيجوز استشهادُ الكافر عندنا.[4]

﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا﴾ أي: الشهيدان جميعًا، على طريقة نفي الشمولِ لا شُمولِ النفي. ﴿رَجُلَيْنِ﴾ إمّا لإعوازهما، أو لسبب آخرَ مِن الأسباب. ﴿فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ أي:

---

[1] ط: أو.
[2] وفي هامش ي: الياء لتضمين معنى الأمر. «منه».
[3] ط س: بينكما.
[4] انظر: الكشّاف للزمخشري، ١/٢٤٩؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٣٥.

فليشهد رجُل وامرأتان، أو فرجُل وامرأتان يَكفون. وهذا فيما عدا الحُدود والقِصاص عندنا، وفي الأموال خاصّة عند الشافعي.[١] ﴿مِمَّن تَرۡضَوۡنَ﴾ متعلِّق بمحذوف وقع صفةً لـ"رجل وامرأتان"، أي: كائنون مَرضيّين عندكم. وتخصيصُهم بالوصف المذكور مع تحقّق اعتباره في كلّ شهيد لقِلّة اتّصافِ النساء به. وقيل: نعتٌ لـ﴿شَهِيدَيۡنِ﴾، أي: كائنين ممّن تَرضَون.[٢] ورُدّ بأنّه يَلزَم الفَصل بينهما بالأجنبيّ.[٣] وقيل: بدل مِن ﴿رِّجَالِكُمۡ﴾ بتكرير العامل.[٤] ورُدّ بما ذُكِر مِن الفَصل.[٥] وقيل: متعلِّق بقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ﴾؛[٦] فيَلزَم الفَصل بين اشتراط المرأتين وبين تعليله. وقوله عزّ وجلّ: ﴿مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ متعلِّق بمحذوف وقع حالًا مِن الضمير المحذوف الراجع إلى الموصول، أي: ممّن تَرضَونهم كائنين مِن بعض الشهداء لعِلْمكم بعد التُّهَم وثِقتِكم بهم. وإدراج النساءِ في الشهداء بطريق التغليب.

﴿أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ تعليل لاعتبار العدد في النساء، والعِلّةُ في الحقيقة هي التذكير، ولكنّ الضلال لمّا كان سببًا له نُزِّل مَنزلتَه، كما في قولك: أَعددتُ السلاح أن يَجيء عَدوٌّ فأدفعَه. كأنه قيل: لأجل أن تُذكِّر إحداهما الأخرى إن ضلَّت الشهادةَ بأن نسيَتها. ولعلّ إيثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال: أن تَضِلّ إحداهما فتُذكِّرَها الأخرى، لتأكيد الإبهام والمبالغة في الاحتراز عن توهُّم اختصاصِ الضلال بإحداهما بعينها / والتذكيرِ بالأخرى. [٨٣ظ] وقُرِئ: "فَتُذْكِرَ"[٧] مِن الإذكار. وقُرِئ: "فَتُذاكِرَ".[٨] وقُرِئ: "إنْ تَضِلَّ" على الشرط "فَتُذَكِّرُ" بالرفع،[٩] كقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُ﴾ [المائدة، ٩٥/٥].

---

١ ط س + رحمه الله. | انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٣٥/١؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٤٩/١.
٢ هذا القول في كشف المُشكِلات للأصفهاني الباقولي، ١٩٩/١.
٣ ضعّفه أبو البقاء العُكبَرِيُّ في التبيان، ٢٢٨/١؛ وهو عنه في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٦٥٨/٢؛ واللباب لابن عادل، ٤٨٨/٤.
٤ هذا القول في كشف المُشكِلات للأصفهاني الباقولي، ١٩٩/١.
٥ ضعّفه السمين الحلبي في الدرّ المصون، ٦٥٨/٢؛ وهو عنه في اللباب لابن عادل، ٤٨٨/٤-٤٨٩.
٦ هذا القول في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٦٥٨/٢؛ واللباب لابن عادل، ٤٨٩/٤.
٧ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. السبعة لابن مجاهد، ص ١٩٤؛ النشر لابن الجزري، ٢٣٦/٢.
٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الرحمن بن زيد بن أَسلَم وابن المُنادي عن نافع وهارون وابن مُكرَم عن أبي عمرو. انظر: شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٢٥ والمغني في القراءات للنُوزاوازي، ص ٥٥٥.
٩ قرأ بها نافع. النشر لابن الجزري، ٢٣٦/٢.

﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾ لأداء الشهادةِ أو لتحمّلها. وتسميتهم شهداءَ قبل التحمّل لِما مرَّ مِن تنزيل المُشارِف مَنزلةَ الواقع. و﴿مَا﴾ مَزيدة. عن قتادة: «أنّه كان الرجُل يَطوف في الحِوَاء[1] العظيم فيه القوم فلا يَتبعُه منهم أحد، فنزلت».[2]

﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ﴾ أي: لا تَملُّوا مِن كثرة مُداييناتكم.[3] ﴿أَن تَكْتُبُوهُ﴾ أي: الدَّينَ أو الحقَّ أو الكتابَ. وقيل: كُنِّي به عن الكسل الذي هو صفةُ المنافق، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾[4] [النساء، ١٤٢/٤]. وقد قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «لا يقولُ المؤمِن: كسِلتُ».[5] ﴿صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾ حال مِن الضمير، أي: حالَ كونه صغيرًا أو كبيرًا، أي: قليلًا أو كثيرًا أو مجمَلًا أو مفصَّلًا. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ متعلِّقٌ بمحذوف وقعَ حالًا مِن الهاء في تكتبوه، أي: مستقِرًّا في الذِّمّة إلى وقت حُلوله الذي أقرّ به المَديون.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما أُمِر به مِن الكَتْب. والخطابُ للمؤمنين. ﴿أَقْسَطُ﴾ أي: أعدَل ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: في حُكمه تعالى. ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: أثبَت لها وأعوَن على إقامتها. وهما مبنيّان مِن "أَقسَط" و"أَقام"، فإنّه قياسيٌّ عند سيبويه؛[6] أو مِن قاسط بمعنى ذي قِسْط وقويم، وإنّما صحَّت الواو في ﴿أَقْوَمُ﴾ كما صحَّت في التعجّب لجُموده. ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ وأقرَب إلى انتفاء رَيبكم في جنس الدَّين وقَدْره وأَجَله وشُهوده، ونحو ذلك.

---

[1] وفي هامش ي: الحِواء مُجتمَع الأخبية والجمع أَحوِية. «منه». | الحِوَاء: بيوت مُجتمِعة مِن الناس على ماء. لسان العرب لابن منظور، «حوي».

[2] عن قتادة والحسن بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٩٤/٥؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٥٦٣/٢. وهو عن قتادة بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٢٥٠/١.

[3] وفي هامش ي: أي: للاستشهاد. «منه».

[4] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٥٠/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٣٥/١.

[5] لم أجده في مظانّه. وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٢٥٠/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٣٥/١.

[6] ذكر ذلك عنه الزمخشريُّ في الكشّاف، ٢٥٠/١. وذكر أبو حيّان أنّ ذلك يُفهم مِن كلام سيبويه ولم ينصّ عليه. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٧٣٧/٢؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٦٥٨/٢؛ واللباب لابن عادل، ٤٨٨/٤.

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ استثناء منقطِع مِن الأمر بالكتابة، أي: لكن وقت كون تدايُنِكم أو تجارتكم تجارةً حاضرةً بحضور البدلين، تُديرونها بينكم بتعاطيهما يدًا بيد. ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ أي: فلا بأسَ بألّا تكتبوها لبُعده عن التنازع والنسيان. وقُرِئ برفع "تِجَارَةٌ"،[1] على أنّها اسم "كان" و"حاضِرةٌ" صفتُها و﴿تُدِيرُونَهَا﴾ خبرُها، أو على أنّها تامّة.

﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ أي: هذا التبايُعَ، أو مطلقًا؛ لأنّه أَحوَط. والأوامر الواردة في الآية الكريمة للندب عند الجمهور. وقيل: للوجوب. ثمّ اختُلف في أحكامها ونسخِها.[2] ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ نهيٌ عن المُضارّة محتمِل للبناءين، كما تُنبئ عنه قراءةُ مَن قرأ "ولا يضارِرْ" بالكسر،[3] والفتح.[4] وهو نهيهما عن تَرْك الإجابة والتغيير والتحريف في الكِتْبة والشهادة، أو نهيُ الطالب عن الضِّرار بهما بأن يُعْجِلَهما عن مهمِّهما،[5] أو يُكلِّفَهما الخروجَ عمّا حُدّ لهما، أو لا يُعطيَ الكاتبَ جُعْلَه. وقُرِئ بالرفع،[6] على أنّه نفيٌ في معنى النهي.

﴿وَإِن تَفْعَلُواْ﴾ ما نُهيتُم عنه مِن الضِّرار، ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ أي: فِعلكم ذلك ﴿فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ أي: خُروج عن الطاعة ملتبِس بكم. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في مخالَفة أوامرِه ونواهيه التي مِن جُملتها نهيُه عن المُضارّة. ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ أحكامه المتضمِّنة لمَصالحكم. ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فلا يَكاد يخفى عليه حالكم، وهو مُجازيكم بذلك. كُرِّر لفظ الجلالة في الجُمل الثلاث[7] لإدخال الرَّوْعة وتربية المَهابةِ،[8] وللتنبيه على استقلال كلّ منها بمعنى على حياله؛ فإنّ الأُولى حثٌّ على التقوى، والثانية وعدٌ بالإنعام، والثالثة تعظيمٌ لشأنه تعالى.

---

[1] قرأ بها العشرة إلّا عاصمًا. السبعة لابن مجاهد، ص ١٩٤؛ النشر لابن الجزري، ٢/٢٣٧.

[2] مِن قوله: "والأوامر" بلفظ قريب جدًا في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٣٦.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مجاهد عن عمر بن الخطّاب وابن مسعود. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١/٢٥٠؛ والمغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ٥٥٦.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن عمر بن الخطّاب وابن مسعود وابن عبّاس. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١/٢٥٠؛ والمغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ٥٥٦.

[5] س: مهمها.

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن محيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٠٤.

[7] وفي هامش ي: مستأنَفة. «منه».

[8] وفي هامش ي: تذييل. «منه».

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أي: مسافِرين أو متوجِّهين إليه ﴿وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا﴾ في المداينة. وقُرِئ: "كِتَابًا"،[١] و"كُتُبًا"،[٢] و"كُتَّابًا".[٣] ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ أي: فالذي يُستوثَق به، أو فعليكم، أو فليُؤخَذ، أو فالمَشروعُ رِهانٌ مقبوضة. وليس هذا التعليقُ لاشتراط السفر في شرعيّة الارتهان، كما حَسِبه مجاهد والضحّاك؛[٤] لأنّه صلّى الله عليه وسلّم «رهَن دِرْعه في المدينة مِن يَهوديّ بعشرين صاعًا مِن شعير وأخذه لأهله»؛[٥] بل لإقامة التوثّق بالارتهان مُقامَ التوثّق بالكِتْبة في السَّفَر الذي هو مَظِنّة إعوازِها. وإنّما لم يَتعرَّض لحال الشاهد لِما أنّه في حُكم الكاتب توثّقًا وإعوازًا. والجمهور على وجوب القبض في تمام الرَّهْن غيرَ مالك.[٦] وقُرِئ: "فَرُهُنٌ"[٧] كـ"سُقُف"، وكلاهما جَمْع رَهْن بمعنى مرهون. وقُرِئ بسكون الهاء[٨] تخفيفًا.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وأُبيّ والحسن ومجاهد. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٢٥؛ **وشواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٠٥؛ **والمغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ٥٥٧.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي العالية. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٢٥.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس والضحّاك والحسن وابن مِقسَم وأحمد بن حنبل. انظر: **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٢٥؛ **وشواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٠٥؛ **والمغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ٥٥٧.

[٤] عن مجاهد: «لا يكون الرَّهن إلّا في السفر». **تفسير ابن أبي حاتم**، ٥٦٩/٢. وانظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٢٥١/١؛ **وأنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢٣٦/١.

[٥] بمعناه في **صحيح البخاري**، ٥٦/٣ (٢٠٦٨)؛ **وصحيح مسلم**، ١٢٢٦/٣ (١٦٠٣)؛ **والكشّاف** للزمخشري، ٢٥١/١. وهو بلفظه في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢٣٦/١.

[٦] انظر: **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢٣٧/١؛ **والكشّاف** للزمخشري، ٢٥٢/١.

[٧] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. **السبعة** لابن مجاهد، ص ١٩٤؛ **النشر** لابن الجزري، ٢٣٧/٢.

[٨] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن عبّاس ومجاهد وشَهر بن حَوشب والجَحدري وقتادة وعمرو بن عُبيد وعبد الوارث ومحبوب عن أبي عمرو وأبي حاتم عن عاصم ومُطرِّف عن ابن كثير. انظر: **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٢٥؛ **وشواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٠٥؛ **والمغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ٥٥٧.

﴿فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ أي: بعضُ الدائنين بعضَ المَديونين لحُسْن ظنّه به، واستغنى بأمانته عن الارتهان. وقُرِئَ: "فَإِنْ أُومِنَ بَعْضُكُمْ"،[١] أي: آمنه النِاسُ ووصفوه بالأمانة. قيل: فيكون انتصابُ ﴿بَعۡضٗا﴾ حينئذٍ على نزع الخافض، أي: على متاع بعضٍ.[٢] ﴿فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ﴾ وهو المَديون. وإنّما عُبِّر عنه بذلك العنوان لتَعيّنه طريقًا للإعلام، ولحَمْله على الأداء. ﴿أَمَٰنَتَهُۥ﴾ أي: دَينه. وإنّما سُمِّي أمانة لائتمانه عليه بتَرْك الارتهان به. وقُرِئَ: "ايتُمِنَ" بقلب الهمزة ياء.[٣] وقُرِئَ بإدغام الياء في التاء.[٤] وهو خطأ؛ لأنّ المنقلِبة مِن الهمزة لا تُدغَم، لأنّها في حُكمها.[٥] ﴿وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ في رِعاية حقوق الأمانة. وفي الجمع بين عنوان الألوهيّة وصفة الربوبيّة مِن التأكيد والتحذير ما لا يخفى.

﴿وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ﴾ أيُّها الشُّهود، أو المَديُونون، أي: شهادتكم على أنفسكم عند المعاملة. ﴿وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥ﴾ ﴿ءَاثِمٞ﴾ خبرُ ﴿إِنَّ﴾، و﴿قَلۡبُهُۥ﴾ مرتفِع به على الفاعليّة؛ كأنّه قيل: يأثَمُ قلبُه، أو مرتفِع بالابتداء، و﴿ءَاثِمٞ﴾ خبرٌ مقدّمٌ، والجملة خبرُ "إنّ". وإسنادُ "الإثم" إلى "القلبِ"؛ لأنّ الكِتمان ممّا اقترفه، ونظيرُه نسبة الزِنا إلى العين والأُذن، أو للمبالغة لأنّه رئيسُ[٦] الأعضاء، وأفعاله أَعظَم الأفعال. كأنّه قيل: تمكّن الإثمُ في نفسه، ومَلَك أَشرَف مكان فيه، وفاق سائرَ ذنوبه. عن ابن عبّاس رضيَ الله عنهما: «إنّ أكبر الكبائر الإشراكُ بالله تعالى،[٧] لقوله تعالى: ﴿فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [المائدة، ٧٢/٥]، وشهادةُ الزور، وكتمانُ الشهادة».[٨]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ. الكشّاف للزمخشري، ٢٥٢/١؛ المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ٥٥٧.

٢ انظر القول في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٦٨٢/٢؛ واللباب لابن عادل، ٥١٠/٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي زيد عن ابن مُحيصن. انظر: المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ٥٥٨؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٣٧/١.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن البَزّي والنهاوندي عن ابن مُحيصن. انظر: شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٥؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ١٠٥.

٥ خطّأها الزمخشري بما ذكره المُصنِّف. الكشّاف، ٢٥٢/١. واستدرك أبو حيّان عليه بأنّ ذلك مُستعمَل في لغة رديئة. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٧٤٥/٢؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٦٨٣/٢؛ واللباب لابن عادل، ٥١٠/٤-٥١١.

٦ ي: رائس.

٧ س ي - تعالى.

٨ جامع البيان للطبري، ١٢٧/٥؛ شعب الإيمان للبيهقي، ٤٦١/١ (٢٨٧)؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٥٢/١.

وقُرِئ: "قَلْبَهُ" بالنصب،[١] كما في ﴿سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة، ١٣٠/٢]. وقُرِئ: "أَثَّمَ قَلْبَهُ"،[٢] أي: جعله آثمًا. / ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ فيُجازِيكم به، إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشرٌّ. [٨٤و]

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٢٨٤﴾

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مِن الأمور الداخلة في حقيقتهما والخارجة عنهما المتمكّنةِ فيهما مِن أُولي العِلم وغيرِهم، أي: كلُّها له تعالى خَلْقًا ومُلكًا وتَصرّفًا، لا شِركةَ لغيره في شيء منها بوجه مِن الوجوه.

﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ مِن السوء والعزمِ عليه بأن تُظهِروه للناس بالقول أو بالفعل. ﴿أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ بأن تكتُموه منهم ولا تُظهِروه بأحد الوجهين. ولا يَندرِج فيه ما لا يخلو عنه البشرُ مِن الوساوس وأحاديث النفس التي لا عَقْد ولا عَزيمة فيها؛ إذ التكليفُ بحسب الوُسع. ﴿يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ يومَ القيامة. وهو حُجّة على مُنكري الحساب مِن المعتزلة والروافض.[٣] وتقديم الجارّ والمجرور على الفاعل للاعتناء به.

وأمّا تقديم "الإبداء" على "الإخفاء"، على عكس ما في قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران، ٢٩/٣]؛ فلِما أنّ المعلَّق بما في أنفسهم ههنا هو المحاسبة، والأصيلُ فيها الأعمالُ البادية، وأمّا العِلم فتَعلُّقه بها كتَعلُّقه بالأعمال الخافية؛ كيف لا، وعِلمه سبحانه بمعلوماته متعالٍ مِن أن يكون بطريق حُصول الصُّوَر؛ بل وجودُ كلّ شيءٍ في نفسه في أيّ طور كان عِلم بالنسبة إليه تعالى، وفي هذا لا يَختلِف الحالُ بين الأشياء البارزةِ والكامنة، خلا أنّ مَرتَبة الإخفاء متقدِّمة على مَرتَبة الإبداء؛ إذ ما مِن شيء يُبدى إلّا وهو أو مَبادِيه قبل ذلك مضمَر في النفس، فتعلُّق عِلمه تعالى

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٠٥.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٠٥.

[٣] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٣٧/١.

بحالته الأُولى متقدِّم على تعلُّقه بحالته الثانية. وقد مرّ في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة، ٧٧/٢].

﴿فَيَغْفِرُ﴾ بالرفع على الاستئناف، أي: فهو يَغفرُ بفضله ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: يَغفِر له. ﴿وَيُعَذِّبُ﴾ بعدله ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أي: يُعذِّبه حسبما تَقتضيه مَشيئتُه المبنيّةُ على الحِكَم والمَصالِح. وتقديمُ "المغفرة" على "التعذيب" لتقدُّم رَحمته على غضبه. وقُرئ بجزم الفعلين عطفًا على جواب الشرط.[1] وقُرئ بالجزم مِن غير فاء،[2] على أنّهما بدل مِن الجواب، بدلَ البعض أو الاشتمال.[3] ونظيره الجزم على البدليّة مِن الشرط في قوله:

متى تأتِنا تُلمِمْ بنا في ديارنا تَجِدْ حَطَبًا جَزْلًا ونارًا تأجَّجا[4]

وإدغام الراء في اللام لَحنٌ.[5]

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تذييل مقرِّرٌ لمضمون ما قبله، فإنّ كمال قدرته تعالى على جميع الأشياءِ مُوجِبٌ لقدرته تعالى، على ما ذُكِر مِن المحاسَبة، وما فُرِّع عليه مِن المغفرة والتعذيب.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾

---

[1] قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحمزة والكسائيّ وخلف. انظر: السبعة لابن مجاهد، ص ١٩٥؛ والنشر لابن الجزري، ٢٣٧/٢.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والأعمش. انظر: المُحتسَب لابن جنّي، ١٤٩/١؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٥٣/١؛ والمغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٥٦٠.

[3] انظر: المُحتسَب لابن جنّي، ١٤٩/١-١٥٠؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٥٣/١.

[4] البيت لعُبيد الله بن الحُرّ الجُعفي في شرح أبيات سيبويه لابن السيرافي، ٦٦/٢؛ وسرّ صناعة الإعراب لابن جنّي، ٦٧٨/٢. وهو بلا نسبة شاهدًا على البدليّة في كتاب سيبويه، ٨٦/٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٥٣/١. وانظر تفصيل الكلام عليه خزانة الأدب للبغدادي، ٩٠/٩-٩٩.

[5] تابع المُصنِّف في تخطئة هذا الإدغام الزمخشريَّ. وشنَّع الزمخشري على مَن قال به، وجعل مَن رواه عن أبي عمرو مُخطئًا مرّتين: مرّة في لحنه باستعمال هذا الإدغام، ومرّة في نسبته ذلك إلى أعلم الناس بالعربيّة أبي عمرو. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٥٣/١. وانظر هذا الإدغام والكلام عليه في النشر لابن الجزري، ٢٨٧/١، ٢٣٧/٢.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ لمّا ذُكِر في فاتحة السورة الكريمة أنّ ما أُنزِل إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم مِن الكتاب العظيم الشأنِ هُدًى للمتّصفين بما فُصِّل هناك مِن الصفات الفاضلةِ التي مِن جملتها الإيمانُ به وبما أُنزِل قبله مِن الكتب الإلهيّةِ، وأنّهم حائزون لأثَرَتي الهُدى والفلاح مِن غير تعيينٍ لهم بخصوصهم، ولا تصريحٍ بتحقُّق اتّصافِهم بها؛ إذ ليس فيما يُذكَر في حيّز الصِّلة حُكمٌ بالفعل، وعُقِّب ذلك ببيان حال مَن كَفر به مِن المجاهِرين والمنافقين، ثُمّ شُرِح في تضاعيفها مِن فنون الشرائع والأحكام والمَواعظ والحِكَم وأخبار سوالف الأمم وغيرِ ذلك ممّا[1] تقتضي الحكمةُ شَرْحَه، عُيِّن[2] في خاتمتها المتّصفون بها، وحُكِم باتّصافهم بها على طريق الشهادة لهم مِن جهته عزّ وجلّ بكمال الإيمان وحُسْن الطاعة. وذُكِر صلّى الله عليه وسلّم بطريق الغَيبة مع ذِكْره هناك بطريق الخِطاب، لِما أنّ حقّ الشهادة الباقية على مرّ الدُّهور ألّا يُخاطَب بها المَشهود له. ولم يَتعرّض ههنا لبيان فوزهم بمَطالبهم التي مِن جملتها ما حُكِيَ عنهم مِن الدعوات الآتية؛ إيذانًا بأنّه أمرٌ محقَّق غَنيٌّ عن التصريح به، لاسيّما بعد ما نُصّ عليه فيما سلف. وإيراده عليه السلام بعنوان الرسالة المُنبِئة عن كونه عليه السلام صاحبَ كتابٍ مَجيد وشرع جديد تمهيدٌ لِما يَعقُبه مِن قوله تعالى: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ﴾، ومَزيدُ توضيحٍ لاندراجه في الرُّسل المُؤمَن بهم عليهم السلام. والمراد بما أُنزِل إليه: ما يَعُمّ كلَّه وكلَّ جزء مِن أجزائه، ففيه تحقيق لكيفيّة إيمانه صلّى الله عليه وسلّم، وتعيين لعنوانه، أي: آمن عليه السلام بكُلّ ما أُنزِل إليه ﴿مِن رَّبِّهِۦ﴾ إيمانًا تفصيليًا متعلِّقًا بجميع ما فيه مِن الشرائع والأحكام والقَصص والمَواعظ وأحوال الرسل والكتُب وغير ذلك، مِن حيثُ إنّه مُنزَلٌ منه تعالى. وأمّا الإيمان بحَقّيّة[3] أحكامِه وصِدْق أخباره ونحو ذلك فمِن فروع الإيمان به مِن الحيثيّة المذكورة. وفي هذا الإجمال إجلالٌ لمَحلِّه عليه السلام، وإشعارٌ بأنّ تعلّق إيمانِه بتفاصيل ما أُنزِل إليه وإحاطته بجميع ما انطوى عليه مِن الظهور

---

[1] س: ما.

[2] السياق: لمّا ذُكِر في فاتحة السورة الكريمة... عُيِّن في خاتمتها...

[3] ط: بحقيقة.

بحيثُ لا حاجة إلى ذِكْره أصلًا. وكذا في التعرّض لعُنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام تشريفٌ له، وتنبيهٌ على أنّ إنزاله إليه تربيةٌ وتكميلٌ له صلّى الله عليه وسلّم.

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: الفريق المَعروفون بهذا الاسم، فاللام عهديّة لا موصولة؛ لإفضائها[1] إلى خُلوّ الكلام عن الجدوى. وهو مبتدأ، وقوله عزّ وجلّ: ﴿كُلٌّ﴾ مبتدأ ثانٍ، وقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ﴾ خبرُه، والجملة خبرٌ للمبتدأ الأوّل، والرابطُ بينهما الضمير الذي ناب مَنابَه التنوينُ. وتوحيد الضمير في ﴿ءَامَنَ﴾ مع رجوعه إلى كلّ المؤمنين لِما أنّ المراد بيانُ إيمان كلّ فردٍ فردٍ منهم مِن غير اعتبار الاجتماعِ، كما اعتُبِر ذلك في قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل، ٨٧/٢٧]. وتغيير سَبْك النظم الكريم عمّا قَبْله لتأكيد الإشعار بما بين إيمانه عليه السلام المَبنيّ على المشاهَدة والعِيان، وبين إيمانِهم الناشئ عن الحُجّة والبرهان، مِن التفاوت البَيّن والاختلاف الجليّ، كأنّهما متخالِفان مِن كلّ وَجْه حتّى في هيئة التركيب الدالّ عليهما. وما فيه مِن تكرير الإسناد لِما في الحُكم بإيمان كلّ واحد منهم على الوجه الآتي / مِن نوع خفاءٍ مُحوِج إلى التقوية والتأكيد، أي: [٨٤ظ] كلّ واحد منهم آمَن ﴿بِٱللَّهِ﴾ وحدَه مِن غير شريكٍ له في الألوهيّة والمَعبوديّة.

﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ أي: مِن حيثُ إنّهم عبادٌ مُكرَمون له تعالى، مِن شأنهم التوسّط بينه تعالى وبين الرسُل بإنزال الكُتب وإلقاءِ الوحي، فإنّ مدار الإيمان بهم ليس خصوصيّاتِ ذواتِهم في أنفسهم؛ بل هو إضافتهم إليه تعالى مِن الحيثيّة المذكورة، كما يُلوِّح به الترتيب في النظم.

﴿وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ أي: مِن حيثُ مجيئُهما مِن عنده تعالى لإرشاد الخلقِ إلى ما شُرع لهم مِن الدِّين بالأوامر والنواهي، لكن لا على الإطلاق؛ بل على أنّ كلّ واحدٍ مِن تلك الكُتب مُنزَل منه تعالى إلى رسول معيَّن مِن أولئك الرسُل عليهم السلام، حسبما فُصِّل في قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا

[1] س: لإفضائه.

وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ الآية [البقرة، ١٣٦/٢]. ولا على أنّ مَناط الإيمان خصوصيّة ذلك الكتاب أو ذلك الرسول؛ بل على أنّ الإيمان بالكلّ مندرِج في الإيمان بالكتاب المُنزَل إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم ومستنِد إليه لِما تُلِيَ مِن الآية الكريمة. ولا على أنّ أحكام الكتب السالفة وشرائعَها باقيةٌ بالكلّيّة. ولا على أنّ الباقيَ منها معتبَر بالإضافة إليها؛ بل على أنّ أحكام كلّ واحد منها كانت حَقّةً ثابتة إلى وُرود كتابٍ آخرَ ناسخٍ له، وأنّ ما لم يُنسَخ منها إلى الآن مِن الشرائع والأحكام ثابتةٌ مِن حيثُ إنّها مِن أحكام هذا الكتاب المَصون عن النسخ إلى يوم القيامة.

وإنّما لم يُذكَر ههنا الإيمانُ باليوم الآخر، كما ذُكِر في قوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة، ١٧٧/٢]؛ لاندراجه في الإيمان بكتُبه.

وقُرِئ: "وَكِتَابِهِ"،[١] على أنّ المرادَ به القرآنُ، أو جِنسُ الكتاب، كما في قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [البقرة، ٢١٣/٢]. والفرقُ بينه وبين الجَمْع أنّه شائع في أفراد الجنس والجَمْعُ في جموعه، ولذلك[٢] قيل: الكتابُ أكثرَ مِن الكتب.[٣]

وهذا نوعُ تفصيلٍ لِما أُجمل في قوله عزّ وجلّ: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ اقتُصِر عليه إيذانًا بكفايته في الإيمان الإجماليّ المتحقِّق في كلّ فردٍ مِن أفراد المؤمنين مِن غير نفي للزيادة، ضرورةَ اختلاف طبقاتِهم وتفاوُتِ إيمانهم بالأمور المذكورة في مَراتِب التفصيل تفاوُتًا فاحشًا، فإنّ الإجمال في الحكاية لا يُوجِب الإجمالَ في المَحكيّ؛ كيف لا، وقد أُجمِل في حكاية إيمانه عليه السلام

---

[١] قرأ بها حمزة والكسائيّ وخلف. انظر: السبعة لابن مجاهد، ص ١٩٦؛ والنشر لابن الجزري، ٢٣٧/٢.

[٢] ي: وكذلك.

[٣] رُوِيَ ذلك عن ابن عبّاس. انظر: جامع البيان للطبري، ١٤٩/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٥٣/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٣٨/١.

بما أُنزِل إليه مِن ربّه مع بداهة كونه متعلِّقًا بتفاصيل ما فيه مِن الجلائل والدقائق. ثمّ إنّ الأمور المذكورة حيثُ كانت مِن الأمور الغيبيّة التي لا يُوقَف عليها إلّا مِن جهة العليم الخبير كان الإيمان بها مِصداقًا لِما ذُكِر في صَدْر السورة الكريمة مِن الإيمان بالغيب. وأمّا الإيمان بكتُبه تعالى، فإشارة إلى ما في قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة، ٢/٤]. هذا هو اللائق بشأن التنزيل، والحقيقُ بمِقداره الجليل.

وقد جُوّز أن يكون قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ معطوفًا على ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ فيُوقَف عليه، والضميرُ الذي عُوّض عنه التنوين راجعٌ إلى المعطوفَين معًا، كأنّه قيل: آمَن الرسول والمؤمنون بما أُنزِل إليه مِن ربّه، ثمّ فُصِل ذلك، وقيل: كلُّ واحدٍ مِن الرسول والمؤمنين آمن بالله... إلخ، خلا أنّه قُدِّم المُؤمَن به على المعطوف اعتناءً بشأنه، وإيذانًا بأصالته عليه السلام في الإيمان به. ولا يخفى أنه -مع خُلُوّه عمّا في الوجه الأوّل مِن كمال إجلال شأنه عليه السلام وتفخيمِ إيمانه- مُخِلٌّ بجزالة النظمِ الكريم؛ لأنّه إن حُمِل كلٌّ مِن الإيمانين على ما يَليق بشأنه صلّى الله عليه وسلّم مِن حيثُ الذاتُ ومِن حيث التعلّقُ بالتفاصيل استحالَ إسنادُهما إلى غيره عليه السلام، وضاع التكريرُ؛ وإن حُمِلا على ما يَليق بشأن آحادِ الأمّة كان ذلك حطًّا لرُتبته العليّة عليه السلام.

وأمّا حَمْلُهما على ما يَليق بكُلّ واحدٍ ممّن نُسِبا إليه مِن الآحاد ذاتًا وتعلّقًا -بأن يُحمَلا بالنسبة إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم على الإيمان العِيانيّ المتعلِّق بجميع التفاصيل، وبالنسبة إلى آحاد الأمّة على الإيمان المكتسَب مِن جهته عليه السلام، اللائقِ بحالهم في الإجمال والتفصيل- فاعتسافٌ بيّنٌ، ينبغي تنزيه ساحةِ التنزيل عن أمثاله.

وقوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ في حَيّز النّصب بقولٍ مقدَّرٍ على صيغة الجمع رعايةً لجانب المعنى، منصوبٌ على أنّه حال مِن ضمير ﴿ءَامَنَ﴾، أو مرفوعٌ على أنّه خبرٌ آخرُ لـ﴿كُلٌّ﴾، أي: يقولون لا نُفرِّق بينهم بأن نُؤمِن ببعض منهم ونكفُرَ بآخَرين؛ بل نُؤمِن بصحّة رسالة كلّ واحدٍ منهم.

قيَّدوا به إيمانَهم تحقيقًا للحقّ وتخطِئةً لأهل الكتابين حيثُ أجمعوا على الكفر بالرسول صلّى الله عليه وسلّم واستقلَّت اليهودُ بالكُفر بعيسى عليه السلام أيضًا، على أنّ مَقصودهم الأصليّ إبرازُ إيمانهم بما كفروا به مِن رسالته عليه السلام، لا[١] إظهارُ[٢] موافَقتهم لهم فيما آمنوا به. وهذا كما ترى صريحٌ في أنّ القائلين آحاد المؤمنين خاصّة؛ إذ لا يُمكِن أن يُسنَد إليه عليه السلام أن يقول: لا أُفرِّق بين أحدٍ مِن رسله، وهو يُريد به[٣] إظهارَ إيمانه برسالة نفسِه وتصديقَه في دعواها. وعدمُ التعرّض لنفي التفريق بين الكتُب لاستلزام المذكور إيّاه، وإنّما لم يُعكَس مع تحقّق التلازم مِن الطرفين لِما أنّ الأصل في تفريق المفرِّقين هو الرسُل، وكُفرُهم بالكتب متفرّع على كُفرهم بهم.

وقُرئ بالياء،[٤] على إسناد الفعل إلى ﴿كُلٌّ﴾. وقُرِئ: "لَا يُفرِّقُونَ"[٥] حَمْلًا على المعنى، كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل، ٨٧/٢٧]، فالجملة نفسُها حال مِن الضمير المذكور. وقيل: خبرٌ ثان لـ﴿كُلٌّ﴾، كما قيل في القول المقدَّر.[٦] فلا بدّ مِن اعتبار الكلّيّة بعد النفي دون العكس؛ إذ المراد شُمول النفي لا نفيُ الشمول.

والكلام في همزة ﴿أَحَدٍ﴾، وفي دخول ﴿بَيْنَ﴾ عليه قد مرّ تفصيله عند قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ / أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ [البقرة، ١٣٦/٢]. وفيه مِن الدلالة صريحًا على [٨٥و] تحقّق عدم التفريق بين كلّ فردٍ فردٍ منهم وبين مَن[٧] عداه كائنًا مَنْ كان ما ليس في أن يقال: لا نُفرّق بين رسله. وإيثار إظهارِ الرسُل على[٨] الإضمار الواقع مِثْلُه في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ [البقرة، ١٣٦/٢] إمّا للاحتراز عن توهّم اندراج الملائكةِ في الحُكم، أو للإشعار بعِلّة عدم التفريق، أو للإيماء إلى عنوانه؛ لأنّ المعتبَر عدمُ التفريق مِن حيثُ الرسالةُ دون سائرِ الحيثيّات الخاصّة.

---

[١] ي - لا.

[٢] ي: لإظهار.

[٣] ي - به.

[٤] قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٣٧/٢.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. انظر: شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٥.

[٦] انظر: الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٦٩٤/٢؛ واللباب لابن عادل، ٥٢٧/٤.

[٧] ي: ما.

[٨] س: عن.

﴿وَقَالُوا۟﴾ عطفٌ على ﴿ءَامَنَ﴾. وصيغةُ الجمع باعتبار جانب المعنى، وهو حكايةٌ لامتثالهم بالأوامر إثرَ حكاية إيمانِهم. ﴿سَمِعْنَا﴾ أي: فهِمنا ما جاءنا مِن الحقّ وتيقَّنّا بصحّته. ﴿وَأَطَعْنَا﴾ ما فيه مِن الأوامر والنواهي. وقيل: ﴿سَمِعْنَا﴾ أجبنا دعوتك وأطعنا أمرَك.[1] ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ أي: اغفِرْ لنا غُفرانَك، أو نسألك غُفرانك ذنوبَنا المتقدِّمة، أو ما لا يَخلو عنه البشر مِن التقصير في مراعاة حُقوقِك. وتقديم ذِكْر السمع والطاعةِ على طَلَب الغفران[2] لِما أنّ تقديم الوسيلة على المَسئول أدعى إلى الإجابة والقَبول. والتعرّضُ لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إليهم للمبالغة في التضرّع والجُؤار.

﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: الرجوع بالموت والبعث لا إلى غيرك. وهو تذييل لِما قبله، مقرِّرٌ للحاجة إلى المغفرة لِما أنّ الرُّجوع للحِساب والجَزاء.

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ جملة مستقِلّة جيءَ بها إثرَ حكايةِ تَلقِّيهم لتكاليفه تعالى بحُسْن الطاعة؛ إظهارًا لِما له تعالى عليهم في ضمن التكليف مِن محاسن آثارِ الفضل والرحمة ابتداءً، لا بعد السؤال، كما سيجيء.

هذا، وقد رُوي أنّه: لمّا نَزَل قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ الآية [البقرة، ٢/٢٨٤]، اشتدّ ذلك على أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فأتَوه عليه السلام، ثمّ برَكوا على الرُّكَب فقالوا: «أيْ رسولَ الله، كُلِّفنا مِن الأعمال ما نُطيق: الصلاة والصيام والحجّ والجِهاد، وقد أُنزِل إليك هذه الآية ولا نُطيقها». فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أتُرِيدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين مِن قبلكم: سَمِعْنا وعَصينا؟ بل قولوا:

---

[1] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٣٨.

[2] ي: المغفرة.

سَمِعْنا وأطَعْنا، غُفرانَك ربّنا وإليك المصير»، فقرأها القوم، فأنزَل الله عزّ وجلّ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة، ٢/٢٨٥].[١]

فمسئولهم الغفرانُ المعلَّق بمَشيئته عزّ وجلّ في قوله: ﴿فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾.[٢] ثمّ أَنزَل الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾؛ تهوينًا للخَطْب عليهم ببيان أنّ المراد بـ"ما في أنفسهم": ما عزَموا عليه مِن السوء خاصّة، لا ما يَعُمّ الخواطرَ التي لا يُستطاع الاحتراز عنها. والتكليف: إلزامُ ما فيه كُلْفة ومَشقّة. والوُسع: ما يَسَعُ الإنسانَ ولا يَضيقُ عليه. أي: سُنّته تعالى أنّه لا يُكلِّف نفسًا مِن النفوس إلّا ما يتَّسع فيه طَوقُها ويتيسَّر عليها دون مدى الطاقة والمَجهود؛ فضلًا منه تعالى ورحمةً لهذه الأمّة، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة، ٢/١٨٥]. وقُرِئ: "وَسْعَها" بالفتح.[٣] وهذا يدلّ على عدم وقوع التكليفِ بالمُحال لا على امتناعه.

وقوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ﴾ للترغيب في المحافَظة على مَواجب التكليف، والتحذيرِ عن الإخلال بها، ببيان أنّ تكليف كلّ نفسٍ مع مقارنته لنعمة التخفيفِ والتيسير تتضمَّن مراعاتُه مَنفعةً زائدة، وأنّها تعود إليها لا إلى غيرها، ويَستتبع الإخلال به مَضرّةً تَحيق بها لا بغيرها، فإنّ اختصاص مَنفعة الفعل بفاعله مِن أقوى الدواعي إلى تحصيله، واقتصارَ مَضرّته عليه مِن أشدّ الزواجر عن مباشَرته، أي: لها ثوابُ ما كسبتْ مِن الخير الذي كُلِّفت فعلَه لا لغيرها استقلالًا أو اشتراكًا ضرورةَ شمول كلمةِ ﴿مَا﴾ لكُلّ جزءٍ مِن أجزاء مَكسوبِها، وعليها لا على غيرها بأحد الطريقين المذكورين عِقابُ ما اكتسبت مِن الشرّ الذي كُلِّفت تَرْكَه. وإيراد الاكتساب في جانب الشرّ لِما فيه مِن اعتمال ناشئ مِن اعتناء النفسِ بتحصيل الشرّ وسَعْيها في طلَبه.

---

[١] بلفظ قريب في مسند أحمد، ١٥/١٩٨ (٩٣٤٤)؛ وصحيح مسلم، ١/١١٥-١١٦ (١٩٩)؛ وجامع البيان للطبري، ٥/١٣٠؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١/٣٥٤.

[٢] البقرة، ٢/٢٨٤.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عَبلة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٥. ورُوي عن ابن مسعود وابن أبي عبلة بفتح الواو وكسر السين. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٠٦؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٥٦٢.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ شروع في حكاية بقيّة دعَواتِهم إثرَ بيان سرِّ التكليف، أي: لا تُؤاخِذنا بما صدَر عنّا مِن الأمور المؤدِّية إلى النسيان أو الخطأ، مِن تفريطٍ وقلّةِ مُبالاةٍ ونحوِهما ممّا يدخُل تحت التكليف، أو بأنفُسهما مِن حيث ترتّبُهما على ما ذُكِر، أو مطلقًا، إذ لا امتناعَ في المؤاخَذة بهما عقلًا؛ فإنّ المعاصيَ كالسُّموم، فكما أنّ تناولها ولو سَهوًا أو خطأً مُؤدٍّ إلى الهلاك، فتَعاطي المعاصي أيضًا لا يَبعُد أن يُفضيَ إلى العقاب وإن لم يكن عن عزيمة. ووَعدُه تعالى بعدمه لا يُوجِب استحالة وقوعه، فإنّ ذلك مِن آثار فضله ورحمته، كما يُنبئ عنه الرَّفع في قوله عليه السلام: «رُفِع عن أُمّتي الخطأ والنِّسيان».[١] وقد رُوي أن اليهود كانوا إذا نَسُوا شيئًا عُجِّلت لهم العقوبة، فدعاؤُهم بعد العِلم بتحقّق الموعود للاستدامة والاعتداد بالنعمة في ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران، ١٩٤/٣].

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ عطفٌ على ما قبله. وتوسيط النداء بينهما لإبراز مَزيدِ الضَّراعة. و"الإصْر": العِبء الثقيل الذي يأصِرُ صاحبَه، أي: يحبِسُه مكانه. والمراد به التكاليف الشاقّة. وقيل: "الإصْر": الذَّنْب الذي لا توبةَ له، فالمعنى: اعصِمْنا مِن اقترافه.[٢] وقُرِئ: "آصَارًا".[٣] وقُرِئ: "ولا تُحَمِّلْ" بالتشديد،[٤] للمبالغة.

﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ في حيّز النصب على أنه صفة لمصدر محذوفٍ، أي: حَمْلًا مثلَ حملِك إيّاه على مَن قَبلنا، أو على أنّه صفة لـ﴿إِصْرًا﴾، أي: إصرًا مثلَ الإصر الذي حَمَلته على مَن قبلنا، وهو ما كُلِّفه بنو إسرائيل مِن بَخْع[٥] النفس في التوبة، وقَطْع موضِع النجاسة، وخمسينَ صلاةً في يوم وليلة،

---

[١] سنن ابن ماجه، ٢٠٠/٣-٢٠١ (٢٠٤٥)؛ السنن الكبرى للبيهقي، ١٠٤/١٠ (٢٠٠١٣)، بلفظ «وضع» مكان «رفع». وهو بلفظه ههنا في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٣٩/١.

[٢] ذُكِر هذا القول بلفظ قريب في اللباب لابن عادل، ٥٣٩/٤. وبعضه في النكت والعيون للماوردي، ٣٦٤/١؛ وتفسير القرطبي، ٤٣٢/٣.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٥.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب. انظر: شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٥.

[٥] بخع نفسه: قتلها غيظًا أو غمًّا. انظر: لسان العرب لابن منظور، «بخع».

[٨٥ظ] وصَرْفِ رُبُع المال للزكاة، وغيرِ ذلك / مِن التشديدات، فإنّهم كانوا إذا أتَوا بخطيئة حَرُم عليهم مِن الطعام بعض ما كان حلالًا لهم؛ قال الله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء، ١٦٠/٤]. وقد عصَم الله عزّ وجلّ بفضله ورحمته هذه الأمّة عن أمثال ذلك، وأنزل في شأنهم: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف، ١٥٧/٧]، وقال عليه السلام: «بُعِثتُ بالحنيفيّة السهلة السَّمْحة»؛[١] وعن العقوبات التي عُوقِب بها الأوّلون مِن المَسْخ والخسْف وغيرِ ذلك، قال عليه السلام: «رُفع عن أُمّتي الخسْفُ والمسْخُ والغَرَق».[٢]

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ عطفٌ على ما قبله، واستعفاء عن العقوبات التي لا تُطاق بعد الاستعفاء عمّا يُؤدّي إليه التفريط فيه مِن التكاليف الشاقّة التي لا يكاد مَن كُلِّفها يخلو عن التفريط فيها، كأنّه قيل: لا تُكلِّفنا تلك التكاليفَ، ولا تُعاقِبْنا بتفريطنا في المحافظة عليها، فيكون التعبير عن إنزال العقوباتِ بالتحميل باعتبار ما يُؤدّي إليها. وقيل: هو تكرير للأوّل،[٣] وتصوير للإِصْر بصورة ما لا يُستطاع مبالغة. وقيل: هو استعفاءٌ عن التكليف بما لا تفي به الطاقةُ البشريّة حقيقة،[٤] فيكون دليلًا على جوازه عقلًا، وإلّا لَمَا سُئِل التخلّص عنه.[٥] والتشديد ههنا لتعدية الفعل إلى مفعول ثانٍ.

﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ أي: آثار ذنوبنا. ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ واسترُ عيوبنا، ولا تفضَحْنا على رءوس الأشهاد. ﴿وَٱرْحَمْنَا﴾ وتَعطَّف بنا وتفضَّلْ علينا. وتقديم طلب العفوِ والمغفرةِ على طلب الرحمةِ لِما أنّ التَّخليَة سابقة على التَّحليَة.

﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ سيّدنا ونحن عبيدك، أو ناصرنا أو متولّي أمورنا. ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فإنّ مِن حقّ المَولى أن ينصُر عبده ومَن يتولّى أمرَه على الأعداء.

---

١ **مسند أحمد**، ٦٢٣/٣٦-٦٢٤؛ **المعجم الكبير** للطبراني، ١٧٠/٨ (٧٧١٥)؛ **معالم التنزيل** للبغوي، ١٩٩/٢ (النساء، ٢٨/٤)؛ **تفسير الرازي**، ١٥٨/٧؛ **اللباب** لابن عادل، ٥٣٩/٤.

٢ لم أجده في مظانّه. وهو في **تفسير الرازي**، ١٥٨/٧؛ و**اللباب** لابن عادل، ٥٣٩/٤.

٣ انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٢٥٤/١-٢٥٥.

٤ انظر هذا القول في **جامع البيان** للطبري، ١٦١/٥-١٦٣؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ٢٥٤/١؛ و**أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢٤٠/١؛ و**اللباب** لابن عادل، ٥٤٠/٤.

٥ انظر: **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢٤٠/١.

والمراد به عامّة الكَفرة. وفيه إشارة إلى أنّ إعلاء كلمة الله والجهادَ في سبيله تعالى حسبما أُمِر في تضاعيف السورة الكريمة غايةُ مَطالبهم.

رُوي أنّه عليه الصلاة والسلام لمّا دعا بهذه الدعوات قيل له عند كلّ دعوةٍ: «قد فعلتُ».[١] وعنه عليه السلام: «أَنزَل الله آيتين مِن كُنوز الجنّة كتبهما الرحمن بيده قبل أن يخلُق الخَلْق بألفي عام، مَن قرأهما بعد العِشاء الآخرة أجزأتاه عن قيام الليل».[٢] وعنه عليه السلام: «مَن قرأ آيتين مِن سورة البقرة كَفتاه».[٣] وهو حُجّة على مَن استكره أن يقول: سورة البقرة، وقال: ينبغي أن يقال: السورة التي تُذكَر فيها البقرة،[٤] كما قال عليه السلام: «السورة التي تُذكَر فيها البقرةُ فُسطاط القرآن، فتعلّموها فإنّ تعلّمَها بركةٌ وتَرْكَها حسرةٌ، ولن تستطيعها البَطَلة»، قيل: «وما البَطَلة؟» قال عليه السلام: «السَّحَرة».[٥]

---

١ صحيح مسلم، ١/١١٦ (٢٠٠)؛ سنن الترمذي، ٥/٢٢١-٢٢٢ (٢٩٩٢)؛ جامع البيان للطبري، ٥/١٦٧-١٦٨.

٢ بعض ألفاظه في حديث «إنّ الله كتب كتابًا قبل أن يخلق السماوات والأرض بألفي عام، فأنزل منه آيتين، فختم بهما سورة البقرة، فلا يقرآن في دار ثلاث ليالٍ فيقربها شيطان». مسند أحمد، ٣٠/٣٦٣ (١٨٤١٤)؛ سنن الترمذي، ٥/١٥٩-١٦٠ (٢٨٨٢)؛ المعجم الكبير للطبراني، ٧/٢٨٥ (٧١٤٦). وهو بلفظه ههنا في الكشّاف للزمخشري، ١/٢٥٦. وانظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزَّيلَعي، ١/١٦٩.

٣ صحيح البخاري، ٦/١٨٨ (٥٠٠٨)؛ صحيح مسلم، ١/٥٥٤-٥٥٥ (٨٠٧)؛ معالم التنزيل للبغوي، ١/٣٥٩.

٤ انظر هذا القول في الكشّاف للزمخشري، ١/٢٥٦؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٤١.

٥ بلفظ قريب في مسند أحمد، ٣٦/٥٣١ (٢٢١٩٣)؛ وصحيح مسلم، ١/٥٥٣ (٨٠٤)؛ والمعجم الكبير للطبراني، ٨/١١٨ (٧٥٤٢). وهو بلفظه ههنا في الكشّاف للزمخشري، ١/٢٥٦. وانظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزَّيلَعي، ١/١٧٣. | وفي هامش أ: تمّ التسويد يوم الاثنين السادس والعشرين مِن المحرّم المحترم، سنة ٩٦٢. | ولعلّ في هذا القيد خطأ مِن الناسخ، لأنّ نفس التاريخ كُرّر في نهاية سورة آل عمران وهو الصواب. انظر في هذا دراسة التحقيق.



Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları

Yayın No. 1000-1
İSAM Yayınları 236
Klasik Eserler Dizisi 46

İRŞÂDÜ'l-AKLİ's-SELÎM ilâ MEZÂYA'l-KİTÂBİ'l-KERÎM

Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî

Cilt 1

Tahkik
Mehmet Taha Boyalık - Ahmet Aytep [Mukaddime - Bakara 98; Nisâ - Tevbe]
Ziyaüddin el-Kaliş [Bakara 99 - Âl-i İmrân 32; Yûnus - Hûd; Hicr - Tâhâ; Zâriyât - Nâs]
Muhammed İmâd el-Nabulsî [Âl-i İmrân 33-200; Yûsuf - İbrâhim; Enbiyâ - Kâf]



İrşâdü'l-akli's-selîm ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm
TDV İslam Araştırmaları Merkezi (İSAM)
Tahkik Yayın Kurulu ilmî kontrolünde hazırlanmıştır.

İcadiye-Bağlarbaşı Cad. 38 Üsküdar/İstanbul
Tel. 0216. 474 08 50
www.isam.org.tr yayin@isam.org.tr

Yayın yönetmeni M. Suat Mertoğlu
Yayın koordinasyon Erdal Cesar
Tahkik editörü Okan Kadir Yılmaz
İnceleme kısmı son okuma (Türkçe) Mustafa Demiray
İnceleme kısmı üslup okuma (Türkçe) Metin Karabaşoğlu
Tercüme (Arapçaya) Merve Dağıstanlı Barsik
Tashih (Arapça) Said Kayacı, Münzir Şeyhhasan, Mohamed Shahin
(Türkçe) İsa Kayaalp, Abdülkadir Şenel, İnayet Bebek
Tasarım Ali Haydar Ulusoy, İbrahim Dervişmüezzin (Uygulama),
Hasan Hüseyin Can (Kapak), Ramzi Haj Mustafa (Kapak Hattı)
Yayın takip Münzir Şeyhhasan, Sema Doğan



Bu eser
TDV İslam Araştırmaları Merkezi'nin (İSAM)
İkinci Klasik Dönem Projesi
kapsamında yayımlanmıştır.

Proje koordinatörü Tuncay Başoğlu

Bu kitap
İSAM Yönetim Kurulu'nun
01/06/2020 tarihli ve 2020/05 sayılı kararıyla basılmıştır.

Birinci Basım: Ankara, Temmuz 2021 m. / 1442 h.
ISBN 978-625-7581-31-8 (Tk.)
978-625-7581-32-5 (1. Cilt)



Basım Yayın ve Dağıtım
TDV Yayın Matbaacılık ve Tic. İşl.
Ostim OSB Mahallesi, 1256 Cadde, No. 11
Yenimahalle/Ankara
Tel. 0312. 354 91 31 Faks. 0312. 354 91 32
bilgi@tdv.com.tr
Sertifika No. 48058

Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî
İrşâdü'l-akli's-selîm ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm [إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم] / Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî ; tahkik Mehmet Taha Boyalık , Ahmet Aytep , Ziyaüddin el-Kaliş , Muhammed İmâd el-Nabulsî. – Ankara : Türkiye Diyanet Vakfı, 2021.
1. c., 628 s. ; 24 cm. – (Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları ; 1000-1. İSAM Yayınları ; 236. Klasik Eserler Dizisi ; 46)

Dizin ve kaynakça var.
ISBN 978-625-7581-31-8 (Tk.) 978-625-7581-32-5 (1. Cilt)



İrşâdü'l-akli's-selîm ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm

Ebussuûd Tefsiri

Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî
(ö. 982 h. / 1574 m.)

Kendisine ait notlarla (minhüvât) birlikte müellif nüshasından ilk neşir

Tahkik

Mehmet Taha Boyalık · Ahmet Aytep
Ziyaüddin el-Kaliş · Muhammed İmâd el-Nabulsî

Proje Yürütme ve İlmî Kontrol
Mehmet Taha Boyalık

Birinci Cilt


TÜRKİYE DİYANET VAKFI YAYINLARI

İKİNCİ KLASİK DÖNEM PROJESİ

"İslam medeniyetinin İkinci Klasik Dönemi" olarak adlandırılabilecek olan h. 7-13. (m. 13-19.) yüzyıllar arası entelektüel birikimin gereği gibi araştırma mevzuu edilmesi ve yaklaşık yedi asırlık bu dönemin ilmî ve fikrî boyutlarıyla ortaya çıkarılması hedefiyle Türkiye Diyanet Vakfı İslam Araştırmaları Merkezi (İSAM) tarafından, bünyesinde pek çok alt projeyi ihtiva edecek bir çerçeve proje olan İkinci Klasik Dönem Projesi gündeme alınmıştır. Günümüz tarih yazıcılığında İslam medeniyeti tarihi Moğol istilası sonrası genelde İslam medeniyetinde özelde İslam düşüncesi ve ilimlerinde gelişmenin inkıtaa uğradığı varsayımıyla yazılmaya çalışılmıştır. Batı'da 19. yüzyılda oluşturulan, sömürgeleşme süreciyle birlikte müslümanlar arasında da yaygınlık kazanan bu bakış açısı İslam tarihiyle ilgili yargılarımızı eksik bırakmıştır. Neticede İslam tarihi, düşüncesi, sanatı, kurumları, önde gelen şahsiyetleri, literatürü ve olaylarıyla insicamlı bir bütünlük içinde ele alınamamıştır.

Bu alandaki çalışmalarla sadece İslam medeniyet tarihinin bir dönemi değil aynı zamanda insanlık tarihinin çok önemli bir devresi aydınlanmış olacaktır. Bu proje vasıtasıyla İkinci Klasik Dönem'de tartışılan ilmî meseleler yeniden kazanılarak günümüz ilim ve fikir dünyasının gündemi haline getirilecek ve böylece yeni dönemin inşasında, hâlihazırdaki sorunların tespit, tahlil, tenkit ve hallinde geçmiş birikimden azami ölçüde istifade edilmesi sağlanacaktır.

Bu dönemle ilgili çalışmalar kapsamında İslam ilimleri, İslam düşüncesi, İslam bilim tarihi, İslam medeniyetinde beşerî ilimler ve sanat alanlarına dair çalışmaların yanı sıra İslam ile diğer medeniyetler arası mukayeseli çalışmalar yer alacaktır. Gerçekleştirilecek projeler Osmanlı coğrafyası, Sahraaltı Afrikası, Delhi Sultanlığı döneminden itibaren Hint alt kıtası ve Moğol istilası sonrası Orta Asya ve İran'a yoğunlaşacaktır. Proje kapsamında kataloglama, telif, tahkik, tercüme türünden yayınlar yapılması öngörülmektedir.

M. Sait Özervarlı, *İbn Teymiyye'nin Düşünce Metodu ve Kelâmcılara Eleştirisi*, 2008; 2017
Yavuz Köktaş, *Fethu'l-bârî ve Umdetü'l-kârî'nin Metin Tahlili Açısından İncelenmesi*, 2009; 2020
Fatih Yahya Ayaz, *Memlükler Döneminde Vezirlik*, 2009; 2017
Halil İnalcık, *Osmanlı İdare ve Ekonomi Tarihi*, 2011; 2018
Tuncay Başoğlu, *Fıkıh Usûlünde Fahreddin er-Râzî Mektebi*, 2011; 2014
Adalet Çakır, *Abdülkādir-i Geylânî ve Kādirîlik*, 2012; 2021
İslâm Düşüncesinin Dönüşüm Çağında Fahreddin er-Râzî (ed. Osman Demir-Ömer Türker), 2013
Nûreddin es-Sâbûnî, *el-Kifâye fi'l-hidâye* (thk. Muhammet Aruçi), 2013; (DİB/İSAM ortak yayını) 2019
Nûreddin es-Sâbûnî, *el-Müntekā min ismeti'l-enbiyâ* (thk. Mehmet Bulut), 2013; (DİB/İSAM ortak yayını) 2019
Türkiye'de Tarikatlar: Tarih ve Kültür (ed. Semih Ceyhan), 2015
Semih Ceyhan, *Üç Pîrin Mürşidi Halvetiyye, Ramazâniyye Kolu ve Köstendilli Ali Alâeddin Efendi*, 2015
Şükrü Maden, *Tefsirde Hâşiye Geleneği ve Şeyhzâde'nin Envârü't-Tenzîl Hâşiyesi*, 2015
İstanbul Şer'iyye Sicilleri Vakfiyeler Katalogu (haz. B. Aydın, İ. Yurdakul, A. Işık, İ. Kurt, E. Yıldız), 2015
Muhammed el-İsfahânî, *Kitâbü'l-Kavâidi'l-külliyye* (thk. Mansur Koçinkağ, Bilal Taşkın), 2017
İslâm İlim ve Düşünce Geleneğinde Kādî Beyzâvî (ed. Müstakim Arıcı), 2017
İslâm İlim ve Düşünce Geleneğinde Adudüddin el-Îcî (ed. Eşref Altaş), 2017
Osman Güman, *Nahiv ve Fıkıh Usulü İlişkisi*, 2017
Mirzazâde Mehmed Sâlim Efendi, *Selâmetü'l-insân fî muhâfazati'l-lisân* (thk. Murat Sula), 2018
Tilimsânî, *Meâni'l-esmâi'l-ilâhiyye* (thk. Orkhan Musakhanov), 2018
Tilimsânî, *Şerhu'l-Fâtiha ve ba'zı sûreti'l-Bakara* (thk. Orkhan Musakhanov), 2018
İSAM Tahkikli Neşir Kılavuzu (haz. Okan Kadir Yılmaz), 2018
Mustafa Bülent Dadaş, *Şeyh Bedreddin: Bir Osmanlı Fakihi*, 2018
Mehmed Fıkhî el-Aynî, *Risâle fî edebi'l-müftî* (thk. Osman Şahin), 2018
Kāsım b. Kutluboğa, *Kitâbü Takrîbi'l-garîb* (thk. Osman Keskiner), 2018
Safedî, *Keşfü'l-esrâr ve hetkü'l-estâr*, (thk. Bahattin Dartma), I-V, 2019
M. Taha Boyalık, *el-Keşşâf Literatürü: Zemahşerî'nin Tefsir Klasiğinin Etki Tarihi*, 2019
Şeyh Bedreddin, *et-Teshîl Şerhu Letâifi'l-işârât* (thk. M. Bülent Dadaş), I-III, 2019
Rükneddin es-Semerkandî, *Câmiu'l-usûl* (thk. İsmet Garibullah Şimşek), I-II, 2020
Mahmûd el-İsfahânî, *Tesdîdü'l-kavâid fî şerhi Tecrîdi'l-akāid*; Cürcânî, *Hâşiyetü't-Tecrîd; Cürcânî'nin minhüvâtı ve başka haşiye notlarıyla birlikte* (thk. E. Altaş, M.A. Koca, S. Günaydın, M. Yetim), I-III, 2020; I-II, 2021
İbn Nüceym, *Lübbü'l-usûl* (thk. Muhammed Fâl Seyyid eş-Şinkîtî), 2020
Siğnâkī, *et-Tesdîd fî şerhi't-Temhîd* (thk. Ali Tarık Ziyat Yılmaz), I-II, 2020
M. Âkif Aydın, *Osmanlı Hukuku: Devlet-i Aliyye'nin Temeli*, 2020
Mehmet Sami Baga, *İslam Felsefesinde Cisim Teorisi: Hikmetü'l-ayn Geleneği*, 2020
Güllü Yıldız, *Siyerde Şerh-Haşiye Geleneği: Moğultay b. Kılıç Örneği*, 2020
Mehmet Çiçek, *Müfessir Olarak Ali Kuşçu*, 2021
Ali Kuşçu, *Hâşiyetü Alî el-Kuşçî alâ Şerhi'l-Keşşâf li't-Teftâzânî* (thk. Mehmet Çiçek), 2021
İbn Âbidîn, *Şerhu Ukūdi resmi'l-müftî* (thk. Şenol Saylan), 2021
Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî, *İrşâdü'l-akli's-selîm ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm* (thk. Mehmet Taha Boyalık, Ahmet Aytep, Ziyaüddin el-Kaliş, Muhammed İmâd el-Nabulsî), I-IX, 2021



İrşâdü'l-akli's-selîm
ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm